

فِي سِلَاقَةِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ ٧

عبد الرحمن حسن جَيْتَة الميمني

ظَاهِرَةُ الْبِفَاقِ

وَحَبَائِثُ الْمُنَافِقِينَ فِي التَّارِيخِ

الجزء الأول

دار القلم - دمشق

ظَاهِرَةُ النِّفَاقِ وَحَبَائِثُ الْمُنَافِقِينَ فِي التَّارِيخِ

رَأْسَ تَحْلِيلِيَّةٍ وَتَوْجِيهِيَّةٍ لِلتَّعَرُّفِ بِالنِّفَاقِ وَالْمُنَافِقِينَ
تَحْتَ مَوْضُوعِي سَابِلٍ لِلْقُصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي النِّفَاقِ وَالْمُنَافِقِينَ
نُظْرَةً اسْتِفْرَاضِيَّةً لِلْمُنَافِقِينَ عِبْرَةَ التَّارِيخِ

عبد الرحمن حسن جبنة الميدياني

الجزء الأول

دار الفقه
دمشق



حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

دار الفكر

رسم - ملبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بريت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

لولا أن الإسلام حق بذاته ، مؤيد بتأييد
الله ، محفوظ بحفظه ، لم تبق منه بقية
تصارع قوى اشتهرت في الأرض ، التي ما تركت
سبيلاً من المكرب إلا سلكته ، ولا سبباً لا لطفاً ، نوره
إلا أخذت به ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بَيْنَ يَدَيِ الْكِتَابِ

الحمد لله الملك الحق المبين، خالق السماوات والأرض وما بينهما بالحق،
مُعَلِّمُ الحق، والهادي إلى الصراط الحق، وناصر الحق بالحق، وأنزل كتابه بالحق.
وبعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على عبده ونبيِّه ورسوله محمد بن عبد الله الذي اصطفاه
لحمل رسالته الخاتمة للعالمين، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، وجاءنا بها ملةً
بيضاء صافية نقيّة، ظاهرها كباطنها، لم يخالطها غش ولا ظلمة، ولا كدر ولا عكر،
ولم يدخل فيها باطل ولا ضلالة.

ونعوذ بالله السميع العليم القدير القاهر فوق عباده، من الشيطان الرجيم، إمام
الكافرين والملحدين والضالين والمغضوب عليهم، من الكاشفين لصفات نفوسهم،
ومن المنافقين الذين يلبسون أقنعة الكذب والخداع والمرآة على مطوي الخبث والشر
والضر.

ونعوذ بالله السميع العليم القدير القاهر فوق عباده، من جنود إبليس شياطين
الإنس والجن، ولا سيما المتناقضون الذين جعل الله لهم نُزُولَ الدَّرَكِ الأسفل من جهنم
دار العذاب يوم الدين.

وبعد: فلمّا كان النفاق أخطر مكيدة تهدم أبنية الحق، في عالمي الإنس
والجن. وتُفْسِدُ ذَوِي الإرادات الحرة الموضوعين في الحياة الدنيا موضع
الابتلاء، وأخطر حيلة اتخذها إبليس لإخراج آدم وزوجه من الجنة، وجذت من

واجبي أن أجعل ضمن دراستي لأعداء الإسلام، وما سطرت بتوفيق الله ومعونته من كتب عنهم وفي سلسلة أعداء الإسلام، دراسة النفاق والمنافقين، وأن أكتب كتاباً خاصاً في النفاق، وأبين فيه صفات المنافقين وخبائثهم في التاريخ.

وقد كنت منذ أكثر من عشر سنين عازمت على إعداد هذا الكتاب، وأعلنت عزمي هذا، وجاءت الإشارة إلى هذا العزم فيما ذكر الناشر في إعلاناته، حتى بدأ كثير من القراء يترقبون ظهوره، ويسألونني من حين لآخر: هل تمّ إعداده؟ فأجيب بأن الله عز وجل لم يأذن بعد.

وكنت أكتب في هذا الكتاب بعض الوقت، وأترك الكتابة فيه أوقاتاً كثيرة، وتصرفني صوارف كتابات أخرى، حتى يسّر الله عز وجل لي أن أنفرغ له، واجتهد في إعداده، ورأيت في الحلم أن هذا الكتاب الذي لم أتمه بعد قد طبع، وعرض علي في الرؤيا شكل نسخة مطبوعة منه، فقلت في نفسي: قد أذن الله إذن بإكماله، فاطمأن قلبي للأمر، ثقةً بالبشرى، فضاعفت جهدي، وتابعت البحث والكتابة.

وهذا هو السفر الذي كان عزمًا، فحلماً، وقد اجتهدت أن أجمع فيه ما يحتاج إليه الباحث من حقائق، ونصوص، وتحليلات، وأمثلة، ودراسة مستبصرة، لظاهرة النفاق، وخبائث المنافقين في التاريخ.

ورأيت أن أقسم البحث فيه إلى ثلاثة أقسام، تشتمل على فصول أو أجزاء:

فالقسم الأول: يشتمل على مقدمة، وتعريفات عامة.

والقسم الثاني: يشتمل على دراسة تحليلية واستنباطية للنصوص القرآنية التي نزلت بشأن المنافقين، مرتبةً على وفق ترتيب نزولها، مع بيان ما ورد من أسباب النزول.

والقسم الثالث: يشتمل على عرض ما تيسر لي جمعه من وقائع وأحداث المنافقين في تاريخ الخلق، أفراداً وجماعات ومنظمات.

وأشير إلى أن هذا القسم الثالث قسم يتعذر سبر كل ما يتعلق به، ولا يستطيع الباحثون مهما بذلوا من جهود مضية إلا أن يقدموا أمثلة ونماذج منه فقط.

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ عَمَلِي خَالِصاً لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ ، وَأَنْ يَحْمِيَنِي وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ
مَكَايِدِ شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمُنَافِقِينَ وَجُنُودِهِمْ وَأَنْصَارِهِمْ وَسَائِرِ
الْمُجْرِمِينَ .

وَأَسْأَلُهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَنْفَعَ بِهَذَا السَّفَرِ ، وَيُبْصِرَ بِهِ الْمُسْلِمِينَ ، وَيَهْدِيَ بِهِ الضَّالِّينَ ،
وَيَنْبِتَ بِهِ الْغَافِلِينَ .

وَأَخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

عبد الرحمن بن حنبل المديني



القِسمُ الأولُ

مُقَدِّمَةٌ وَتَعْرِيفَاتٌ عَامَّةٌ

وفيه فصول :

الفصل الأول : مقدّمة عامة .

الفصل الثاني : الإيمان والإسلام .

الفصل الثالث : الكفر والنفاق .

الفصل الرابع : مجالات النفاق وصورُ منها .

الفصل الخامس : ملخص صفات المنافقين النفسية وآثارها في سلوكهم
الباطن والظاهر اقتباساً من النصوص القرآنية .



الفصل الأول

مقدمة عامة

(١)

النفاق وخطره العظيم

النفاق انحراف خلقي خطير في حياة الفرد، وفي حياة الأمم، وتبدو خطورته الكبيرة حينما نلاحظ أنه يدخل في الدين أعظم القيم في الحياة، وحينما نلاحظ أيضاً آثاره على الحركات الإصلاحية الخيرة، إذ يقوم بعمليات الهدم الشنيع من الداخل، وصاحبه أمين مُستأمن، لا تُراقبه الأعين، ولا تُحسب حساباً لمكره ومكايد.

والنفاق سلوك مركّب يرجع إلى عدة عناصر خلقية ذميمة، يدخل فيها الجبن، وجحود الحق، والطمع في المنافع الدنيوية، والقدرة على المراوغة والحيلة وليس الأتعة المختلفة، وعمادها الكذب في القول والعمل.

وإن أخطر المصائب التي حلت بالمسلمين في تاريخهم الغابر، وفي واقعهم المعاصر، إنما حلت بهم عن طريق النفاق والمنافقين، وبوسائل الكيد التي قام بها أو كان مطية لها المقنعون بأقنعة الإسلام زوراً وبهتاناً، وهم كافرون به، أو مرتابون فيه، يعملون لتهديمه من داخل صفوف المسلمين، أو يخادعون المؤمنين، ليأمنوا في ظلهم، أوليغتموا معهم من مغانمهم، وليشاركوهم في منافع ومصالح، أو سلطان وقوة في الأرض.

لذلك كان من الواجب التحذير من النفاق والمنافقين، وبيان مواقع النفاق وخصائصه، وصفات المنافقين، وكشف أعمالهم في هدم الإسلام وإفساد المسلمين، وخدمة أعدائهم المجاهرين بعداوتهم، وتنفيذ مخططاتهم المدمرة للعقائد الإيمانية، والشرائع والأحكام والأخلاق والآداب الإسلامية، سواء أكان هؤلاء الأعداء من اليهود أو النصارى أو المجوس أو غيرهم من أصحاب الملل والنحل، أو كانوا من الملاحدة

لنن لا دين لهم مطلقاً إلا تمجيد المائدة وعبادتها، من غربيين وشرقيين، قدماء (مُحَدِّثِينَ).

إنَّ العدوَّ المخالطَ المُدَاخِلَ المُسَاكِنَ أخطر وأشدُّ كيداً من العدوِّ البعيد، واللصُّ لمخالطِ المُدَاخِلِ الذي يلبسُ ثوبَ صديقٍ وفيٍّ أمينٍ أكثرُ ضرراً وأنفذُ مكرًا من اللصِّ المكشوف الذي يُعرَفُ بأنَّه خائن غدار، فيحذَرُ الناس منه، ويُقَوْنَ أنفسهم من سطوهِ زَجِيلِهِ ومكايده.

ويقول الناس في أمثالهم نحو قولنا: لصُّ الدار لا تراقبه الأنظار.

لذلك شَدَّدَ الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه على المسلمين المؤمنين لكي يحذروا من لُفَّاكٍ والمنافقين أَبْلَغَ الحذر، ونهاهم نهياً جازماً عن أَنْ يتخذوا منهم بطانةً مداخلَةً مخالطةً عالمةً بالأسرار، قادرة على إفساد أعمال المسلمين المؤمنين، وإحباط ما يُدَبِّرون من أمرٍ لإعلاء الإسلام، وتقوية الأمة الإسلامية، وقادرة على الاتصال بالأعداء سرّاً، وإعطائهم ما يطلبون من معلومات، وتنفيذ ما يخططون من مخططات، والمؤمنون عنهم غافلون، ولهم مستسلمون، ويتصوِّرون أنَّهم من جهتهم آمنون.

وجاء في كلام الرسول ﷺ أَنْ أَخَوْفَ مَا يَخَافُ عَلَى أَمَتِهِ مِنْ بَعْدِهِ الْمُنَافِقُونَ.

روى الإمام أحمد بإسناد صحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«إِنْ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلِّ مُنَافِقٍ غَلِيمٍ اللِّسَانِ».

أي: عِلْمُهُ بالإسلام لا يتجاوز حدود لسانه، فكلامه يخدع المؤمنين، ولكنه يضر في قَلْبِهِ الكَيْدَ وإرادة الشرِّ.

وهذا كقول الله عَزَّ وَجَلَّ في وصف فريق من المنافقين في سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول):

﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ...﴾. وجاء في رواية عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:

«إِنْ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي كُلِّ مُنَافِقٍ غَلِيمٍ اللِّسَانِ».

(رواه الطبراني في الكبير، والبزار، ورجاله رجال الصحيح)

وجاء في رواية أخرى:

«إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ كُلِّ مَنَافِقٍ عَلِيمٍ اللِّسَانِ».

وعن أبي عثمان النهدي قال: سمعتُ عمرَ بنَ الخطابِ وهو على منبر رسول الله ﷺ أكثر من عدد أصابعي هذه وهو يقول:

«إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَنَافِقُ الْعُلَمَاءُ».

قيل: وكيف يكون المنافق العليم:

قال: عالم اللسان، جاهل القلب والعمل.

ويظهر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع هذا الكلام من الرسول ﷺ، فكان يكرره في خطبه، بدليل الروايات الصحيحة المرفوعة إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

وروي بإسناد جيد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال:

«إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ ثَلَاثَةٌ:

• مُنَافِقٌ يقرأ القرآنَ لَا يُخطيءُ فِيهِ وَآوًا وَلَا أَلْفًا، يُجَادِلُ أَنَّهُ أَعْلَمُ مِنْهُمْ لِيُضِلَّهُمْ عَنْ الْهُدَى.

• وَزَلَّةٌ غَالِمٌ.

• وَأَئِمَّةٌ مُضِلُّونَ».

وروي عن عمر أيضاً بإسنادٍ لِيَن أَنَّهُ قَالَ:

«مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَحَدَ رَجُلَيْنِ: رَجُلٌ مُؤْمِنٌ قَدْ تَبَيَّنَ إِيْمَانُهُ، وَرَجُلٌ كَافِرٌ قَدْ تَبَيَّنَ كُفْرُهُ».

ولكن أخاف عليكم منافقاً يتعزذ بالإيمان ويعمل بغيره».

وروي بإسناد صحيح عن حذيفة موقوفاً عليه، أنه قال:

«إِنَّ مِنْ أَقْرَأِ النَّاسِ الْمُنَافِقَ الَّذِي لَا يَشْرُكُ وَآوًا وَلَا أَلْفًا، يَلْفَتُهُ كَمَا تَلْفَتُ الْبَقَرَةُ الْخَلَى بِلِسَانِهَا».

الْخَلِي: الحشيش، وَكُلُّ نَبَاتٍ رَطْبٍ، وَاجِدَتْهُ «خَلَاة».

ولهذا القول عن حذيفة شواهد مرفوعة إلى الرسول ﷺ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وعُمَرُ بْنُ سَعْدٍ، عند أبي داود، ومُسْنَدُ أَحْمَدَ، بِأَسَانِيدٍ قِيلَ: إِنَّهَا صَحِيحَةٌ.

(٢)

تَسْلُلُ الْمَنَافِقِينَ وَمَكْرَهُمْ وَإِفْسَادَهُمْ مِنَ الدَّخَالِ

إِنَّ الْمَنَافِقَ خَبِيثُ النَّفْسِ، فَقَدْ يَكُونُ جَاسُوساً وَعَيْناً لِلْأَعْدَاءِ الصُّرَحَاءِ، يَسْرِقُ مِنْ مَجْتَمَعِ الْمُسْلِمِينَ الْأَخْبَارَ وَالْأَسْرَارَ، وَيَنْقُلُهَا لِأَعْدَائِهِمْ، مُقَابِلَ أَجُورٍ يَسْذُلُونَهَا لَهُ، أَوْ مَنَافِعٍ يَذَلُّونَ لَهُ طُرُقَهَا، أَوْ مَطَامِعٍ يُمْنُونَهُ بِهَا، وَيَعْدُونَهُ بِتَحْقِيقِهَا.

وَالْمَنَافِقُ مُفْسِدٌ دَاخِلٌ صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ، لَا يَأْلُوهُمْ خِيَالاً^(١)، يَسُرُّهُ مَا يَسُوهُ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ، وَيَسُوُّهُ مَا يَسُرُّهُمْ.

وَالْمَنَافِقُ مَكَّارٌ مَرَاوِعُ خَدَائِعٍ، يَتَرَبَّصُ الْغُرَاتِ، وَيَتَهَيَّزُ الْفُرَصِ السَّانِحَاتِ، لِيَخْلَعَ اثْوَابَ الصَّدَاقَةِ وَالْمَوَالَةِ، وَيَكْشِفَ عَنْ جَلْدِهِ الْحَقِيقِي، جَلْدَ الْكِرَاهِيَةِ وَالْحَقْدِ وَالْعَدَاءِ وَإِرَادَةِ الشَّرِّ.

وَالْمَنَافِقُ مِنْ أَبْنَاءِ الْأُمَّةِ ذَنبِي النَّفْسِ، يَسْهَلُ عَلَى الْعَدُوِّ الْمَجَاهِرِ بَعْدَاوَتُهُ شِرَاوَهُ وَاسْتِجَارَهُ، لِضَرْبِ أَمَتِهِ عَنْ طَرِيقِهِ، مُقَابِلَ ثَمَنِ بَخْسٍ يُدْفَعُ لَهُ، أَوْ شَهْوَةٍ مُحَرَّمَةٍ تُبْذَلُ لَهُ، أَوْ وَعْدٍ بِتَسْلِيطِهِ عَلَى قَوْمِهِ يُقَدَّمُ لَهُ، أَوْ وَعْدٍ بِالْإِنْتِقَامِ لَهُ مِنْ أَعْدَائِهِ مِنْ دَاخِلِ أَمَتِهِ.

كَمْ دَخَلَ إِلَى صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ مَنَافِقُونَ مَآكِرُونَ، تَظَاهَرُوا بِالْإِسْلَامِ وَالِاسْتِقَامَةِ وَالْوَلَاءِ الْكَامِلِ لِلْمُسْلِمِينَ، وَلِپَسُوا أَلْبَسَةَ الصَّالِحِينَ الْمُتَّقِينَ، ثُمَّ تَسَلَّلُوا بِنِفَاقِهِمْ إِلَى الصُّفُوفِ الْأُولَى مِنْ صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى كَانَ بَعْضُهُمْ أَحَدَ مُسْتَشَارِي الْخَلِيفَةِ، أَوْ الْأَمِيرِ، أَوْ الرَّئِيسِ، أَوْ الْمَلِكِ، وَحَتَّى صَارَ بَعْضُهُمْ قَاضِياً مِنْ قَضَاةِ

(١) أي: لا يُقَصِّرُ فِي إِسَادِ أُمُورِهِمْ وَإِيقَاعِ الضَّرَبِ بِهِمْ.

المسلمين، أو عالماً من علمائهم، أو مفتياً من أفضل الفتوى فيهم، أو زعيماً من زعمائهم، أو قائداً عسكرياً من قادتهم، أو حاكماً كبيراً من حكامهم، ثم أخذ يكيّد الإسلام والمسلمين من خلال مركزه الذي وصل إليه. ^{كثير من هؤلاء من أعداء الدين}

وكم من خبير يهودي داهية دخل في الإسلام نفاقاً، ليُقْبِلَ عقائد المسلمين، ويُدَسَّ الأكاذيب والخرافات، ويخترع لهم البدع والضلالات، ويُحَرِّفَ الكَلِمَ عَنْ مواضعه، ويؤمس المذاهب الضالة، والفرق المنحرفة الخائنة، وليُدْخَلَ في تفسير كتاب الله وشرح أحاديث رسول الله ﷺ الإسرائيلية الباطلات، والآراء الفاسدات، والاجتهادات المضلّات، وليعبث في مفهومات النصوص الإسلامية عبث المفسدين، فيَجْلِسَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، وَيُحَرِّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، وَيُعْظِمَ مِنْ أَمْرِ الصَّغَائِرِ، وَيُهَوِّنَ مِنْ أَمْرِ الْكِبَارِ، وَيُنْشُرَ الْوَثَائِقَ، وَيُمِيتَ حَيَّ عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَيَجْعَلَ مَا يَخْتَرَعُهُ وَيُخْبِئُهُ مِنْ بَدْعٍ لَا أَصْلَ لَهَا فِي الدِّينِ هِيَ رُوحُ الدِّينِ، أَمَّا أَرْكَانُ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامُهُ وَعَقَائِدُهُ وَقَوَاعِدُهُ الصَّحِيحَةُ، فَيُضَعِّفُ مِنْ شَأْنِهَا، وَيَتْلَاعِبُ بِمَفْهُومَاتِهَا وَمَعَانِيهَا، وَيَحَاوُلُ أَنْ يَجْعَلَهَا هِيَاطِلَ وَرُسُوماً غَيْرَ ذَاتِ مَضْمُونٍ إِسْلَامِي صَحِيحٍ.

وكم من قسيس أو راهب نصراني فعل مثل ذلك، فدخل في الإسلام نفاقاً، ليُدَسَّ كثيراً من المفاهيم والعقائد النصرانية داخل المفهومات الإسلامية.

إن فكرة حلول الله واتحاده في الأشخاص البشرية تَسَلَّلَتْ إلى بعض الطوائف المنتسبة إلى الإسلام، عن طريق المنافقين من أصول نصرانية، أو المنافقين من أجناس اليهود، فالحلول والاتحاد وتأليه البشر مما دمه اليهود أصلاً في النصرانية، حتى أفسدوا عقائدها التي جاء بها عيسى عليه السلام.

وفكرة تأليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وتأليه من بعده من سلالة، مكيدة يهودية، دسها اليهودي المنافق «عبد الله بن سبأ» المشهور بابن السوداء، لأن أمه كانت ذات جلد أسود، ثم يهود آخرون منافقون تسَّروا من بعده بالدخول في الإسلام.

وكم من طُقُوسٍ ومراسيم نصرانية وثنية، وعادات نصرانية كنيسية، تَسَلَّلَتْ إلى بعض فرق المسلمين، عن طريق الداخلين في الإسلام نفاقاً من أصول نصرانية،

وربما كان بعضهم صادقاً، إلا أنه جلبها بحسن نيّة، وهو جاهل بشرائع الإسلام وأحكامه، وتعاليمه.

درس وكن من ضابط عسكري يهودي أو نصراني تظاهر بالإسلام نفاقاً، ودخل إلى بلد من بلاد المسلمين، فخالط أهله، وتعلم لغتهم، ودرس العلوم الإسلامية، وحفظ من القرآن والسنة، وربما أم المسلمين في الصلاة، وخطب فيهم لصلاة الجمعة أو لصلاة العيد، ولما انتهت مهمته سافر إلى بلاده، ثم عاد برتبته ولباسه العسكري مع جيش الاحتلال الاستعماري إلى البلاد، وكشف عن وجهه الحقيقي، وأظهر أنه كان منافقاً، وأنه بنفاقه استطاع أن يظفر بمعلومات مهمة لصالح قومه، ما كان باستطاعته أن يصل إليها لو أنه دخل بوجهه الحقيقي.

ودخل في الإسلام من المجوس منافقون، فأدخلوا في مفهومات بعض الفرق المنتسبة إلى الإسلام مفهومات باطلات، ما أنزل الله بها من سلطان، وكان ذلك منهم كيداً كادوا به الإسلام والمسلمين، وتسلب بعضهم إلى مراكز خطيرة في الدولة الإسلامية، إذ استطاع أن يكتسب ثقة ذي سلطان رفيع فيها، فلما تمكن خان الأمة، وأنحاز إلى عدوها، وأوقع شراً عظيماً في المسلمين، ذبحاً وتقتيلاً وتخريب عمران، وإفساداً في الأرض، واستدعاءً لجيوش أعداء الإسلام.

(٣)

صناعتهم للنكبات والفتن الداخلية

إن معظم النكبات والفتن الداخلية التي تعرض لها المسلمون خلال تاريخهم الطويل، قد كانت بسبب الدسائس والمكايد التي تولّى المنافقون والمنخدعون بهم كبرها، فنعتم نشأت معظم الفرق المنحرفة المرتدة عن الإسلام.

والمنافقون في التاريخ الإسلامي هم الذين أحكموا دسائسهم، فأسسوا فرقة لباطنية المرتدة الملحدة، التي كادت الإسلام والمسلمين أيما كيد خلال قرون عديدة، وكان لها صلات برية باليهود الذين يحقدون على الإسلام والمسلمين، ويؤذون ضدهما كل ما يستطيعون من كيد، وكان من الباطنيين دعم وتأييد لليهود في مختلف مجالات الحياة.

كَمْ من هزيمة كان المنافقون سببها، وكم من فتنة أطلق المنافقون شرارتها، وأوقدوا نارها، وكم من ضلالة فكرية أو عملية كان المنافقون هم الناشرين لها، وكم مِنْ إفسادٍ خُلِقِيٍّ أو سلوكيٍّ كان المنافقون هم العاملین عليه، وكم من خيانة لدولة المسلمين خانها المنافقون، فتمكَّنَ بسببها أعداؤهم من النكاية بهم، والإضرار الشديد ببلادهم وأموالهم ودينهم.

إنَّ معظم الذين ساروا في ركاب الأعداء، فنقلوا لهم الأخبار، وفتحوا لهم الأبواب في السلم والحرب، وثبُّوا روح الجهاد في سبيل الله ضدهم، قد كانوا من صنف المنافقين.

لقد توصَّل فريق من المنافقين إلى مراكز رفيعة من أجهزة الحكم عن طريق التدرج والتسلُّ وإرضاء الرؤساء بالرشوات، وجمهورُ المسلمين بهم منخدعون، وعن مكرهم غافلون، وعلى أعمالهم يشنون ولهم يُمجِّدون، فلَمَّا تمكَّنوا من كرسيِّ الحكم إذا هم بالمسلمين الصادقين والمؤمنين الأطنهار ينكُلون، ولأحكام الإسلام يحاربون، ولجمهور المسلمين يتجهَّمون، ولمخططات أعداء الله ورسوله ينفذون. ثُمَّ إِنَّهُمْ يُؤَلِّقُونَ اليهود والنصارى وسائر الكفرة والمرتدين على المسلمين، ويستعبدون المسلمين الصادقين الملتزمين بتطبيق شرائع الإسلام.

وتوصَّل فريق من المنافقين إلى مراكز دينية عالية بين المسلمين، فكان منهم - كما ذكرت آنفاً - قضاة شرع ومفتون، وكان منهم خطباء، وكان منهم فقهاء وعلماء، وكان منهم شيوخ معاهد علم كبرى، وكان منهم مستشارون لأولي الأمر من المسلمين، وكان منهم شيوخُ مُربُّونَ ومُسلِّكون، من شيوخ الطُرُق الصوفية.

وتسلَّل المنافقون والمنافقات إلى أروقة القصور السلطانية، فأفسدوا فيها وعبثوا، فكم من قصة اغتيالٍ كانوا هم المدبِّرين لها أو المساعدين عليها.

وتسلَّل المنافقون إلى حوانيت التجار، فتظاهروا بالتقوى، وبألقوا بالصلوات والأذكار، وهم خونةٌ كَفَرَةٌ فُجَّار.

وتسلَّل المنافقون إلى صفوف الجيوش الإسلامية، حتَّى كانوا فيها قادةً مخططين أصحاب أمرٍ ونهيٍّ، فجلَّبوا للمسلمين الفشل والخيبة والهزيمة والخزي والعار،

وجلبوا لبلاد المسلمين الخراب والدمار.

وتسلل المنافقون إلى مدارس العلم، ودوائر التخطيط والتوجيه، فذسوا في العلوم الأفكار الملحدة الكافرة، والمذاهب المنافية لدين الإسلام، ولما جاء في كتابه وسنة رسوله، وآبؤوا الإسلام عن مجالات المعرفة في الخطط والمناهج والكتب، وعملوا على وضع التعليم في أيدي أعداء الإسلام، من كافرين مجاهرين، أو منافقين مقنعين، يتظاهرون بالانتساب إلى الإسلام، وهم له جاحدون، ولأحكامه منكرون، وللمصادقين بالانتساب إليه معادون.

ولدى التبُّع لا تكاد نجدُ عصراً من عصور تاريخ المسلمين لم يكن للمنافقين فيه دور خطير، مشحون بالإفساد والتضليل وإثارة الفتن، وخراب العمران، وتفريق صفوف المسلمين، ومناصرة الأعداء المحاربين سرّاً، وإمدادهم بالأنباء عن واقع حال المسلمين، وعن ثغرات الضعف في حصونهم، أو في صفوفهم، أو في حدود بلادهم، أو غير ذلك.

(٤)

خطأ بعض الدعاة بشأن النفاق

يرى بعض رجال الموعظة والدعوة إلى الله أن النفاق قد انتهى منذ آخر عصر الرسول ﷺ، وتصحيحاً لهذا الرأي المجانب للصواب أقول:

أولاً: لقد أثبتت وقائع التاريخ أن النفاق قد كان أشد كيداً، وأكثر مكرأ بعد عصر الرسول ﷺ منه في عصره.

وقد استطاع أعداء الإسلام والمسلمين أن يحققوا من أهدافهم بعد عصر الرسول ﷺ عن طريق النفاق أموراً ما استطاعوا أن يحققوا منها في عصره شيئاً، والسبب في ذلك أن المنافقين كانوا مكشوفين للرسول ﷺ بما آتاه الله من بصيرة، وكان الوحي الرباني ينزل فاضحاً أعمالهم مع كل حدث من أحداثهم، لكن المسلمين بعد ذلك لم يستطيعوا أن يكشفوا كل من دخل في الإسلام نفاقاً، أو ارتد عن الإسلام دون أن يُعلن رده، وبقي بين المسلمين يتظاهر بالإسلام نفاقاً.

وفي أيام الفتوحات الإسلامية الواسعات انصرف المسلمون الصادقون إلى ما هم فيه، وانشغلوا عن رَصْدِ المنافقين الأخبث، ضَمْنِ الأفواج التي كانت تدخل في دين الله إعجاباً به، وبالفتح المبين الذي منحه الله للفتاحين المسلمين.

ثم غلب على المسلمين بعد ذلك حُسْنُ الظنِّ، وتفاقم حُسْنُ الظنِّ لدى من جاء بعدهم، حتَّى غَلَبَتْ الغفلة.

ثم جاءت أجيالٌ اختلَّتْ عنْهَا الميزان الَّذِي يجب أن يزنوا به الناس، من خلال سلوكهم وأخلاقهم وفلتاتِ الستهم.

ثم ضعف الإيمان عند الجماهير الوارثة للإسلام، والمتسبة إليه، فضَعُفَتْ بصيرتُهم، فنَسَلَّ المنافقون إلى صفوفهم، وظَفَرُوا بِقَتْلِهِمْ، واستَدْرَجُوهم إلى ما يريدونه منهم مِنْ إفسادٍ وتَضْيِيلٍ، أو تعذيبٍ وتَنْكِيلٍ، أو رَدِّهِ عن الإسلام، وأتباع لليهود أو النصارى أو أهل الأوثان، أو الملحدِين الجاحدين لوجود الله ربِّ العالمين، أو مدَّعي الألوهية من البشر، أو مدَّعي الألوهية لِبَعْضِ البشر، أو غير ذلك من مذاهب الكُفْرِ في الأرض.

ثانياً: لقد كان دور المنافقين في مقتل عمر، ثم في مقتل عثمان رضي الله عنهما هو الدور الأكبر.

ثم جاء دور المنافقين في تأسيس أخطر المذاهب والفرق في تاريخ المسلمين.

ثم جاء دور المنافقين في إقامة بعض أنواع الحكم التي تتسبب إلى الباطنية ذات الصلة اليهودية في السِّرِّ، وتظاهر بالإسلام، وهي تكيد الإسلام والمسلمين كيداً كُبَّاراً.

ثم كان للمنافقين دور خطير جداً في تقويض الدولة الإسلامية في الأندلس، وطرد المسلمين منها في أعظم نكبة أصيب بها المسلمون خلال تاريخهم الطويل.

حدثني حاج باكستاني اجتمعتُ به مصادفةً في مكَّة في بيت أحد الأصدقاء، وعلمت منه أنه ضابط كبير في الجيش الباكستاني برتبة «لواء» قال: إنَّ الحكومة الهندية إبَّان الصراع الدامي بينها وبين باكستان، أرسلتْ وقْداً إلى إسبانيا، للاستفسار بشكل رسمي عن الأسباب التي استطاع بها الإسبانِيون النصارى تقويض الدولة الإسلامية في

الأندلس، فرجع الوفد وفي حقيقته أَنَّ أهمَّ الأسباب التي تمكَّنوا بها من تفويض دولة المسلمين في الأندلس النفاق والمنافقون، وذكر لي أَنَّ خبرَ هذا الوفد وحقيقة ما عاد به من إسبانيا قد نُشر في الصُّحف الباكستانية وغيرها في حينه.

وقد سألت عن خبر هذا الوفد كثيراً من الباكستانيين ذوي الاطلاع فأكدوا لي صحَّة هذا الخبر، ومنهم سفير باكستان في دمشق سنة ١٣٩٨ هجرية ولكن لم يتيسر لي الاطلاع على نصِّ منشور لهذا الخبر.

وكان للمنافقين دور خطير في معاونة التتار ضدَّ الدولة الإسلامية، وإسقاط الخلافة العباسية.

وكان للمنافقين دور كبير جداً في معاونة الصليبيين، وتمكينهم من بلاد المسلمين، وجماهير الأمة الإسلامية.

ثمَّ كان للمنافقين الدور الأكبر في هدم الخلافة الإسلامية العثمانية، ثمَّ في استقدام الدُول النصرانية المستعمرة إلى بلدان المسلمين، وتمكينهم من كلِّ شيء فيها.

ثمَّ كان للمنافقين دور خطير وكبير في خدمة الدُول الاستعمارية، وتنفيذ مخططاتها، سواء أكانت هذه الدُول الاستعمارية محتلةً احتلالاً مباشراً، أو توجَّه أوامرها من خارج الحدود، فتحكم بطريق غير مباشر.

وما يزال المنافقون يُصرفون معظم الحركات الهدامة، والسياسات ذوات الولاء لأعداء الإسلام والمسلمين، في كثير من بلدان العالم الإسلامي، فهم يتحرَّكون وفق أوامر الأعداء، أو وفق رغباتهم ولومَن دون أمر، ويحقِّقون لهم في بلدان المسلمين وفي الأمة الإسلامية وأجيالها ما يريدون، مقابل تمكينهم من الحصول على ما يشتهون من مال، أو سلطان، أو جاه، أو غير ذلك من متاع الحياة الدنيا.

فهل انتهى النفاق بانتهاء عصر الرُّسول ﷺ، أم بدأ شرُّه الأكبر؟!

إنَّ التاريخ يؤكِّد الثانية، ويُبطل الفكرة الأولى.

ثالثاً: وقد دلَّت النصوص على أَنَّ النفاق سيظهر بقوة بين صفوف المسلمين،

وسيكون للمنافقين مكاييد خطيرة، تنجم عنها فتنٌ سوداء مظلمة، فمنها ما يلي:

(١) روى الحاكم بإسناد صحيح عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال:

«لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمْتُ لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، يَظْهَرُ النِّفَاقُ، وَتَرْتَفِعُ الْأَمَانَةُ، وَتَقْبُضُ الرَّحْمَةُ، وَيَتَهُمُ الْأَمِينُ، وَيُؤْتَمَنُ غَيْرُ الْأَمِينِ، أَنَاخُ بِكُمْ الشَّرْفُ الْجُونُ: الْفِتْنُ كَأَمثالِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ».

أَنَاخُ بِكُمْ الشَّرْفُ الْجُونُ:

الشَّرْفُ: هي النوق المسنة الهرمة، والجُونُ: أي السُّود، والمعنى أناخ بكم النوق المسنة الهرمة السُّود، وقد فسرها الرسول ﷺ بالفتن الممتدة المتصلة، والتي هي كقطع اللَّيْلِ المظلم، تشبيهاً لهذه الفتن بقافلةٍ من النوق المسنة الهرمة السُّود بطيئة الحركة، والتي يتبع بعضها بعضاً، كقطع اللَّيْلِ المظلم التي يأتي بعضها وراء بعض.

واقبال النوق والجمال رمزُ المصائب والفتن والنكبات، فإذا كانت سوداً كانت أشد.

(٢) وروى بإسناد صحيح عن معاذ بن جبل موقوفاً عليه قال: «إِنْ مِنْ وَرَائِكُمْ فِتْنًا، يَكْثُرُ فِيهَا الْمَالُ، وَيَفْتَحُ فِيهَا الْقُرْآنُ، حَتَّى يَأْخُذَهُ الْمُؤْمِنُ وَالْمُنَافِقُ، وَالرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ، وَالصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ، وَالْحُرُّ وَالْعَبْدُ، فَيُوشِكُ قَائِلٌ أَنْ يَقُولَ:

مَا لِلنَّاسِ لَا يَتَّبِعُونِي وَقَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ؟ مَا هُمْ بِمُتَّبِعِي حَتَّى ابْتَدَعَ لَهُمْ غَيْرُهُ، فَأَيَّاكُمْ وَمَا ابْتَدَعَ، فَإِنْ مَا ابْتَدَعَ ضَلَالَةً، وَأَنْذِرْكُمْ زِينَةَ الْحَكِيمِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الضَّلَالَةِ عَلَى لِسَانِ الْحَكِيمِ، وَقَدْ يَقُولُ الْمُنَافِقُ كَلِمَةَ الْحَقِّ».

(٣) وروى الطبراني في الكبير، والبخاري بإسناد رجاله رجال الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال:

«إِنْ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمٍ لِلنَّاسِ».

(٤) وروى الإمام أحمد بإسناد صحيح عن عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلِّ مُنَافِقٍ غَلِيْمٍ اللُّسَانِ».

وقد سبق الاستشهاد بهذين الحديثين.

(٥) وروى البيهقي في شعب الإيمان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن

النبي ﷺ قال:

«إِنَّ مَا أَخَافُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ كُلِّ مُنَافِقٍ يَنْكَلُمُ بِالْحِكْمَةِ وَيَعْمَلُ بِالْجَوْرِ».

(٦) وروى ابن أبي شيبة عن حذيفة قال: «المنافقون الذين فيكم اليوم شر من

المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ، إِنَّ أَوْلَيْكَ كَانُوا يُسْرُونَ بِفَاقِهِمْ وَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَعْلَنُوهُ».



الفصل الثالث

الإيمانُ والإسلامُ

أولاً: الإيمان

(١)

تمهيد

لكي نعرف حقيقة النفاق لا بد لنا من أن نعرف الإيمان، والإسلام، وشروطهما، وما يدخل في ماهيتهما. ولا بد أيضاً من أن نعرف الكفر والمكفرات.

فالنفاق صورة من السلوك الإنساني، أخطره وشره ما كان في مجال الدين، ولا يمكن معرفة ماهيته منفصلة عن معرفة كل من الإيمان والإسلام والكفر.

* * *

(٢)

تعريف الإيمان

الإيمان: هو حركة إرادية قلبية تتضمن التصديق والاعتراف والتسليم بفضية فكرية.

والإيمان المطلوب في دين الله الحق لعباده: هو الحركة الإرادية القلبية التي تتضمن التصديق والاعتراف والتسليم بالله عز وجل وبصفاته كما ثبت بالوحي عنه، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى، والإيمان بالتفصيلات الثابتة بواسطة الوحي عن كل ذلك.

فأركان ما يجب الإيمان به ستة، وهي على وجه الإجمال ما يلي:

الركن الأول: الإيمان بالله عز وجل، وبكمال صفاته وأسمائه الحسنى، وبأنه تعالى واحد في ربوبيته، فلا رب غيره، أي: لا خالق، ولا رازق، ولا مُحيي ولا مُميت في الحياة، ولا مُميت ولا نافع ولا ضارَّ غيره، سبحانه.

والإيمان بأنه عز وجل واحد في إلهيته، فلا يستحقُّ أحدٌ في الوجود أن يُعبد سواه، وكلُّ عبادةٍ لغيره سبحانه وتعالى شركٌ به.

ومن عبادة غير الله اتِّخاذُ مُشرِّعين سوى الله، يُحلُّون ما حَرَّمَ الله، أو يُحرِّمون ما أحلَّ، أو يُشرِّعون في الدين شرائع لم يأذن بها تبارك وتعالى.

الركن الثاني: الإيمان باليوم الآخر، وبأن الحياة الدنيا هي حياة الامتحان، أما الحياة الأخرى بعد البعث فهي الحياة التي أعدَّها الله عز وجل للجزاء الأمثل، بالثواب أو بالعقاب على وفق نتائج الامتحان.

وللحياة الدنيا دار هي الدار الدنيا في هذه الأرض وما يتصل بها، وللحياة الأخرى دار أخرى، أما المؤمنون فلهم دار النعيم الجنَّة التي أعدَّها الله للمتقين، وأما الكافرون فلهم دار العذاب الآليم النَّار التي اعتدها للمجرمين وللعصاة المذنبين.

الركن الثالث: الإيمان بالرسول محمد ﷺ وبمن أرسله الله قبله من رُسُل للناس، ليُبلِّغوا دين الله وشريعته وأوامره ونواهيه لعباده، والإيمان بجميع أنبياء الله الذين اصطفاهم الله بالوحي.

الركن الرابع: الإيمان بالقرآن كتاب الله، وبكلِّ ما جاء من عند الله على لسان رسول الله محمد ﷺ، والإيمان بكلِّ الكتب والشرائع التي أنزلها الله على رُسُلِهِ السابقين على وفق ما أنزلت، لا على ما جرى فيها من تحريف وتغيير وتبديل.

أما الكتب المحرَّقة أو المفتراة على الله فلا يصحَّ الإيمان بها، ولا يجوز العمل بما جاء فيها ممَّا يخالف ما جاء به رسول الله محمد ﷺ.

الركن الخامس: الإيمان بالوحي الذي هو واسطة التبليغ بين الله عز وجل ورُسُلِهِ من البشر، والإيمان بالملائكة، فمنهم يصفِّي الله رُسُلًا يُبلِّغون الرُّسُل من البشر، ما يريد الله تبارك وتعالى تبليغهم إيَّاه.

الركن السادس: الإيمان بالقدر خيره وشره من الله عز وجل، فما يجري في الكون من نعم أو مصائب ويلايا، فهي بقضاء الله وقدره لإحكمة هو يريدُها تتصل بامتحان عباده في الحياة الدنيا، أو لحكمة تربيتهم وتاديبهم، أو لحكمة مجازاتهم.

* * *

الإيمان المنجي كُلُّ لا يتجزأ

قد يوجد لدى بعض الناس إيمانٌ ببعض عناصر أركان الإيمان، ويوجد لديهم أيضاً كفرٌ بعناصر أخرى، أو إنكارٌ لها، أو شكٌ فيها، وهؤلاء ليسوا ذوي إيمان صحيح ينجيهم عند الله من العذاب المعذَّب للكافرين.

وذلك لأنَّ الإيمان المطلوب في دين الله الذي اصطفاه لعباده كُلُّ لا يتجزأ، وغناصره شبكةٌ مترابطة قائمة على أصل واحد، فمن لم يؤمن بعنصر ثابت من عناصر الإيمان ألتي أمر الله عز وجل بالإيمان بها لم يكن صاحب إيمان كامل ينجيهِ عند ربّه يوم الدين.

إنَّ من كفر بعنصرٍ ما من عناصر الإيمان الثابتة بيقين وهو لا يملك برهاناً، عاذ ما كفر به على ما آمن به فنقضه.

فمن كذَّب الرُّسولَ الصادقَ المؤيَّد من اللّهِ بآياته المعجزات، فقد كذَّب آيات الله، ومُكذَّب آيات الله مُكذَّب لله، ولا يجتمع الإيمان بالله مع التكذيب بآياته التي هي من آثار صفاته.

وعلى مثل هذا يظهر انعقاد الترابط بين الإيمان باللّهِ وصفاته، وبين الإيمان بكلِّ عناصر الإيمان الثابتة بيقين.

● ● ●

ثانياً: الإسلام

(١)

تعريف الإسلام

الإسلام: إعلان المؤمن بلسانه ما آمن به في قلبه، مع إعلان مبدأ الطاعة لله ولرسوله، والتسليم لهما في كل أحكام الدين وشرائعه، دون رفض ولا استكبار، ولا تمرّد على أوامر الله ونواهيه، ولا تمرّد على أوامر الرسول ﷺ ونواهيه.

فمن رفض أن يعلن إسلامه، وهو قادرٌ على ذلك غير عاجزٍ ولا جاهلٍ، ولا مُكرهٍ، ومَرَّ عليه زمنٌ كافٍ لكي يعلن إسلامه مع علمه بأن الله لا يُنجيه من عذاب الكافرين يوم الدين ما لم يعلن إسلامه، ولم يفعل ذلك، فإنّه لا يخرج من الكفر إلى الإيمان.

والسبب في ذلك أنّه لم يرفض هذا الإعلان إلّا وهو لا يريدُ الالتزام بمضمون الحقِّ الربّاني الذي عرفه، ولا يريد طاعة الله في أوامره ونواهيه، وهذا من الكفر.

إنّ من رفض طاعة ربّه بعد إيمانه به مستكبرٌ على ربّه، أو شاكٌ في حكمته، أو مشركٌ به، أو معاندٌ يبتغي الفجور في الأرض، وكلُّ ذلك من الكفر.

إنّ كُفْرَ من يرفض طاعة ربّه في أوامره ونواهيه شبيهٌ بكُفْرِ إبليس، إذ رفض طاعة ربّه استكباراً، وشكٌ في حكمته، حين وجّه له الأمر بأن يسجدَ لآدم، وجحد حقَّ الله عليه، وعاند وأصرّ.

هذا النوع من الكفر هو كفر الاستكبار، أو كُفْرُ جُحود حقِّ الله على عباده في أن يطيعوه، ويُعلنوا إسلامهم له عزّ وجلّ، أو كُفْرُ اتّهام الخالق بعدم الحكمة، أو بعدم العدل، أو بعدم العلم.

لكن من ركب مراكب معصية الله في أوامره ونواهيه، مع إعلانه مبدأ الطاعة، واعترافه بحق الله عليه، واعترافه بذنبه، وجرمه، ومع خضوعه وذُلُّه لربه، فهو مسلم مؤمن عاصٍ، وعصيانُه قد كان بسبب ضعف إرادته عن التغلب على أهواء نفسه وشهواتها، لا بسبب جحوده لأركان الإيمان، ولا بسبب رفضه لطاعة الله، استكباراً أو شكاً في حكمته، أو إنكاراً لحقه على عباده، أو رغبة في أن ينطلق في الأرض فاجراً معانداً لربه.

والمؤمنُ المسلم العاصي يحاسبُ على مقدار معاصيه، وينالُ جزاءه وفق مقتضيات العدل الربّاني، أو يغفر الله له، إنْ عَلِمَ بحُكْمِهِ أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ المغفرة، ثم يكون بسبب إيمانه وإسلامه من أهل الجنة بحسب وعد الله وفضله.

هذا هو الإسلام الحقّ المقبول عند الله، والمُنْجِي من الخلود في عذاب النار، والذي يكون به المسلم من أهل الجنة بفضل الله.

* * *

(٢)

أقسام معلني الإسلام

من تعريف الإيمان والإسلام يظهر لنا أَنَّهُ ليس كُلُّ مَنْ أعلن إسلامه هو مسلم حقاً.

* فقد يُعْلِنُ الإسلام من هو كافرٌ في قلبه بآركان القاعدة الإيمانية التي أمر الله بالإيمان بها، أو كافرٌ ببعضها، ويريد أن يخادع المسلمين بانتماؤه للكاذب للإسلام.

فهذا مُسْلِمٌ إسلاماً ظاهرياً فقط، وهو ليس بِمُسْلِمٍ حقاً وصدقاً، وذلك لأنه كاذب في إعلانه يَجْحَدُ القاعدة الإيمانية كُلُّها أو يَجْحَدُ بعضها، وقد صار معلوماً أَنَّ جحود بعض عناصر القاعدة الإيمانية هو من الكفر، فالإيمان بعناصر القاعدة الإيمانية في دين الله لعباده كُلٌّ لا تُقْبَلُ فيه التجزئة، وإنْ وُجِدَتْ عند بعض الناس فإنَّ ما آمنوا به لا ينجيهم عند الله من العذاب المُعَدُّ للكافرين، على أَنَّ الكُفْرَ ذَرَكَاتُ بعضها أشدَّ من بعض، والكافرون في دار العذاب يوم الدين تَقَعُ منازلهم في دركاتٍ بَعْضُها أخط وأثقلُ وأشدُّ عذاباً من بعض.

* وقد يُعْلِنُ الإسلامُ مَنْ أعجبه الانسَابُ إليه، ويُقْبَلُ مبدأُ الطاعة لما جاء فيه من أوامر ونواهي، ولكنَّ هذا الإعجابَ غيرُ نابعٍ من القاعدة الإيمانية، وغير مرتكزٍ عليها.

فقد يكون إعجابه بالإسلام مرتكزاً على سببٍ غيرٍ إيمانيٍّ، كأنبهاره بانتصارات المسلمين، فهو يريد بصديقٍ أن ينتمي إلى الجماعة الغالبة، التي تتحقَّقُ لها الانتصارات الباهرات، دون أن يصل إلى قناعةٍ بعناصر القاعدة الإيمانية، ولا إلى الإيمان بها.

فهذا مُسْلِمٌ بمعنى أنَّه متسبِّبٌ إلى جماعة المسلمين، ومُستَسَلِمٌ للأوامر الإسلامية، وهو في حدود هذا المعنى غير كاذب في انتمائه، إلَّا أنَّه مُسْلِمٌ غير مؤمن، ويُرْجَى بعْدُ انتمائه الصادق أن يتقبَّلَ خُطوةً أُخْرَى يتفهَّمُ فيها عناصر القاعدة الإيمانية، ويؤمن بها، فيكون مُسْلِماً مؤمناً.

لكنَّه إذا بقي عند حدود هذا الانتماء إلى جماعة المسلمين، دون أن يؤمن بالقاعدة الإيمانية التي أمر الله بالإيمان بها، فإنَّه يظلُّ عند الله غير مُسْلِمٍ حقاً، لأنَّ الإسلام الحقَّ المقبول عند الله عزَّ وجلَّ مشروطٌ بأنَّ يكون مرتكزاً على القاعدة الإيمانية.

وبناءً على هذا التحليل يتبيَّن لنا أن الذين يعلنون إسلامهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسامٍ رئيسيةٍ، وهي ما يلي:

القسم الأول:

المسلمون المؤمنون، وهم الَّذِينَ آمنوا وصدَّقوا في قلوبهم بكلِّ عناصر القاعدة الإيمانية، ولم يكفُّروا ولم يشكُّوا بجزءٍ ما من أجزائها، وأعلنوا إسلامهم واستسلامهم لما يوجبه الإيمان ويقتضيه من الطاعة والاتباع، وساروا في طريق التطبيق دون معاندةٍ ولا استكبارٍ ولا تمردٍ.

وهؤلاء على مراتب متفاوتاتٍ متفاوتاتٍ، وفي كلِّ مرتبةٍ من مراتبهم درجات: المرتبة الأولى العليا: مرتبة المحسنين المقربين، وهم الذين استوفوا حُقُوقَ

مرتبة التقوى، وتوسعوا في أعمال البر من نوافل الأعمال الصالحة التي تقرّبهم إلى الله عزّ وجلّ، ووصلوا إلى حالة قلبية استطاعوا بها أن يعبدوا الله كأنهم يرونه، وشهّلون أنفسهم بفعلون أعمالهم بين يديّ تبارك وتعالى، فيألفون في إحسان أعمالهم الظاهرة والباطنة، ويجودونها، كحال الخادم في حضرة الملك وهو يشاهده ويتأخّره، ويراقب حركاته وسكناته.

ولهذه المرتبة درجات، يحتلّ أغلاها أولو العزم من الرسل. وفي مقدّمهم رسول الله محمد ﷺ، وتتنازل درجاتها بحسب حال نسبة الإحسان في الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، كمّاً وكيفاً، واستمراراً أو في بعض الأوقات دون بعض.

المرتبة الثانية: مرتبة الأبرار، وهم الذين استوفوا حقوق مرتبة التقوى، وتوسّعوا في أعمال البر من نوافل الأعمال الصالحة التي تقرّبهم إلى الله عزّ وجلّ، إلّا أنهم لم يصلوا بعد إلى حالة الشعور الداخلي بأنهم يعبدون الله كأنهم يرونه.

وبسبب ذلك لم يصلوا إلى مرتبة الإحسان والتجويد في الأعمال إحسان من يشعر أنه بين يديّ ربه، حتى كأنه يرى ربه الذي هو على كلّ شيء شهيد.

ولهذه المرتبة درجات تتناسب مع نسبة نوافل الأعمال الصالحة التي يتغنّى بها وجهه الله عزّ وجلّ كمّاً وكيفاً، واستمراراً ومواظبة في معظم الأوقات، أو في بعض الأوقات دون بعض.

المرتبة الثالثة الدنيا: مرتبة المتقين، وهم الذين تنحصر أعمالهم في فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه، مع استيفائهم لما هو مطلوب منهم من إيمان. ولهذه المرتبة درجات متفاوتة:

• فأعلاها درجة الذين يؤدّون جميع ما فرض الله عليهم من أعمال ظاهرة وباطنة، ويجتنبون جميع ما نهاهم الله عنه.

وهؤلاء يحققون كمال التقوى، لأنهم اتّقوا عقوبة الله التي ربّها على معصيته التي تكون بترك الواجبات وفعل المحرّمات.

ويلحق بهذه الدرجة من قصّروا ببعض حقوقها، إلّا أنهم عوضوا بأعمال ظاهرة

أوباطنة هي من أعمال مرتبة الأبرار أو مرتبة المحسنين، أو تابوا واستغفروا فكفر الله عنهم سيئاتهم.

ويوصف أصحاب هذه الدرجة بأنهم «مفتصدون» أي : لم يستريدوا من نوافل الصالحات، ولم يَقْصُرُوا بما هو مطلوبٌ منهم ممَّا هو من حقوق هذه الدرجة.

• وتحت الدرجة العليا من هذه المرتبة تأتي درجات الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فقد تزيد حسناتهم على سيئاتهم، وقد تزيد سيئاتهم على حسناتهم، وقد تساوى، لكنهم لم ينزلوا إلى دركة المفسرين على أنفسهم.

ويوصف أصحاب هذه الدرجات المتوسطة بأنهم ظالمون لأنفسهم، بتعريض أنفسهم لاستحقاق العقاب على ترك ما تركوا من واجبات، وفعل ما فعلوا من محرمات، وهم ضمن حدود مرتبة المتقين، بوجه عام، لكنهم لم يتقوا كلَّ ما ينبغي أن يتقوه.

• أما الدرجات السفلى من درجات مرتبة المتقين فهي درجات الذين أسرفوا على أنفسهم، وهم المؤمنون الذين كثرت جداً معاصيهم، بترك الواجبات وفعل المحرمات، حتَّى بلغوا حدَّ الإسراف في ذلك، وهم يدخلون أيضاً في مفهوم الظالمين لأنفسهم ولكن بإسراف.

وبعض هؤلاء أسوأ حالاً من بعض، وأدناهم من اتقى بصليق إيمانه الخلود في النار.

وأدلة هذه المراتب ودرجاتها موزعة في القرآن المجيد.

القسم الثاني :

المسلمون المنتسبون، وهم الذين أعجبهم الانتساب إلى الإسلام لسبب من الأسباب الشكلية أو غير الجوهرية في الإسلام، كأن يكونوا قد رأوا الأنواج من قومهم تدخل في الإسلام فدخلوا معهم، أو رأوا انتصار المسلمين فأحبوا الانتماء إليهم، أو استحسنوا بعض أعمال المسلمين ومعاملاتهم، فأحبوا الانتماء إلى جماعتهم من أجل ذلك، أو استحسناوا النظم الإسلامية فقبلوا الالتزام بها، أو نحو هذه الأمور، وبناء

على هذا الإعجاب أعلنوا انتسابهم إلى الإسلام، دون أن تضيح لهم الرؤية الحقيقية لعناصر القاعدة الإيمانية .

إن هذا الإسلام هو في حقيقته :

• إما انتسابٌ صادقٌ غير كاذبٍ إلى جماعة المسلمين .

• وإما استحقاقٌ لنظام الإسلام وإعلانٌ للالتزام بتطبيقه .

لكنه في كلتا الحالتين ليس إسلاماً مرتكزاً على الإيمان بعناصر القاعدة الإيمانية في الدين .

إن أهل هذا القسم المنتسبين إلى الإسلام ليسوا بكاذبين في إعلانهم إسلامهم، إذ فهموا من الإسلام أنه إعلان الانتماء وقبول مبدأ الطاعة والاتباع، وهذا في مفهوم كثير من الناس يشبه اتباع حزب بشري، أو زعيم من الزعماء، وشبه الانتساب القومي أو العرقي أو الوطني، من الانتماءات التي ليس لها قاعدة إيمانية اعتقادية فكرية .

ومع أن هؤلاء ليسوا بكاذبين في إعلانهم الإسلام ضمن حدود مفهومهم الخاطيء للإسلام الذي لا يكون صحيحاً ما لم يكن مرتكزاً على القاعدة الإيمانية ونابعاً منها، فإنهم ليسوا بمؤمنين حقاً، بل هم مسلمون، بمعنى أنهم استسلموا لأحكام الإسلام العملية، وقبلوا مبدأ الطاعة ضمن جماعة المسلمين، لكن فلوبهم لم تصل بعد إلى مرحلة التصديق بعناصر الإيمان والاطمئنان إليها .

ومن مسلمي هذا القسم مسلمو الأعراب الذين قال الله عز وجل بشأنهم في سورة (الحجرات / ٤٩ مصحف / ١٠٦ نزول) :

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٥ ﴾
 الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ ١٥ قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَدِينُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١٦ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ

إِسْلَمَكُمْ بِإِلَهِ اللَّهِ بِمَنْ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴿

هذا النص يدل على أن الأعراب الذين تَخَذَتْ عَنْهُمْ، هم قوم قد أسلموا بمعنى أنهم أعلنوا الانقياد والطاعة والمتابعة لرسول الله ﷺ، وأنهم بهذا الإعلان صادقون غير كاذبين، فهم بذلك مسلمون.

لكنهم حين ظنوا أن إعلانهم الإسلام هو الإيمان، فقالوا: آمنا، أبان الله أنهم لم يؤمنوا بل أسلموا فقط، فقال تعالى لرسوله يُعَلِّمُهُ مَا يَقُولُ لَهُمْ :

﴿قُلْ لَمْ تَوْفَرُوا وَلَكِنْ قُلُوا اسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ :

أي : فإذا قلتم : أسلمنا فأنتم صادقون، لأنكم أسلمتم إسلام الاتباع والطاعة، لكن هذا الإسلام لم يكن ثمرة إيمان دخل في قلوبكم .

إنهم في حالة وَسْطَى لم يبلغوا فيها أن يكونوا مؤمنين، وأن يكون إسلامهم ثمرة لإيمانهم، ولم يبلغوا فيها أن يكونوا جاحدين مُتَكَبِّرِينَ كافرين، وأن يكون إعلانهم للإسلام إعلاناً كاذباً ناجماً عن نفاقٍ منهم .

إنهم مسلمون بمعنى الاتباع والانقياد والطاعة لأحكام الإسلام العملية، غير مؤمنين إيماناً صحيحاً بعناصر القاعدة الإيمانية .

ومما لا ريب فيه أن ثبات هؤلاء في الانقياد والاتباع والطاعة ثباتٌ ضعيف، وهو عرضةٌ للتقلب والتحول والارتداد، نظراً إلى أن انتماءهم غير مرتكزٍ على قاعدة إيمانية ثابتة راسخة في قلوبهم .

وقد أثبتت التجارب الإنسانية أن الانتماءات العاطفية، أو النفعية، أو القائمة على الأنبياء بالظواهر، أو الإعجاب ببعض الأشكال والصور، قابلةٌ للتحويل والتغير والارتداد بسرعة، بخلاف الانتماءات القائمة على قاعدة إيمانية راسخة ثابتة، ذات عناصر فكرية حق .

ولمّا كان هؤلاء الأعراب مسلمين فقط في حدود مفهوم الطاعة والانقياد

والإتباع، ولَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ، كانوا بهذا غير مؤمنين حقًا، ولا كاذبين في إسلامهم، فليسوا إذن منافقين.

ولَمَّا كانوا كذلك بَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ أَنْ أَجُورَهُمْ عَلَى طَاعَتِهِمْ وَاتِّبَاعِهِمْ ستأتيهم كاملة غير منقوصة، فقال تعالى:

﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

﴿لَا يَلِتْكُمْ﴾: أي: لا ينقصكم مِنْ أَجُورِ أَعْمَالِكُمْ شيئًا.

ونفهم من نصوص أخرى أَنَّ أَجُورَ غير المؤمنين صحيحي الإيمان أَجُورٌ دنيوية غير أخروية.

ثُمَّ بَيْنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ صفات المؤمنين حقًا فقال تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٧﴾﴾

فالمؤمنون هُمُ المصدقون في قلوبهم بالله والرسول، والذين ليس في قلوبهم رَيْبٌ بَاطِلٌ يُغْنِصُ مِمَّا يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، ولم يَدْخُلِ إِلَى قُلُوبِهِمْ رَيْبٌ لَاجِقٌ يَنْدُبُ إِيمَانَهُمْ، ثُمَّ ظَهَرَتْ أَشَارُ إِيمَانِهِمُ الثَّابِتُ فِي قُلُوبِهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ، فَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، بَعْدَ أَنْ أَسْلَمُوا وَأَعْلَنُوا بِإِسْلَامِهِمُ الطَّاعَةَ وَالْإِنْقِيَاذَ وَالْإِتِّبَاعَ.

والاختِبَارُ بِالْجِهَادِ الَّذِي يَسْتَدْعِي بِذَلِكَ الْأَمْوَالُ وَالْأَنْفُسُ، لَهُ مِيزَةٌ خَاصَّةٌ فِي كَوْنِهِ دَلِيلًا عَلَى صِدْقِ الْإِيمَانِ، إِذِ الْإِسْلَامُ الَّذِي يَكُونُ بِإِعْلَانِ الشَّهَادَتَيْنِ، وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحُجِّ الْبَيْتِ، قَدْ يَفْعَلُهُ الْمُسْلِمُ الْمُنْتَسِبُ، وَلَوْ لَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ، لَكِنْ بِذَلِكَ الْمَالِ فَوْقَ الزَّكَاةِ وَبِذَلِكَ الْأَنْفُسِ جِهَادًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِعْلَاءَ لِكَلِمَةِ اللَّهِ، لَا يَفْعَلُهُ غَالِبًا إِلَّا مُؤْمِنٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ صَادِقٌ فِي إِيمَانِهِ.

وقول الله عَزَّ وَجَلَّ فِي التَّعْلِيمِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِأَنْ يَقُولَهُ لَهُمْ:

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾

يُشْعَرُ بَأَنَّ أَنْوَارَ الْإِيمَانِ قَدْ بَدَأَتْ تَلَامَسُ ظَوَاهِرَ قُلُوبِهِمْ بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ، لَكِنَّمَا لَمْ تَدْخُلْ فِيهَا، وَلَمْ تُخْدِثْ فِي قُلُوبِهِمُ الطَّمَأْنِينَةَ. وَرَبَّمَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَنْوَارُ قَدْ لَامَسَتْ ظَوَاهِرَ قُلُوبِهِمْ قَبْلَ إِسْلَامِهِمْ، وَهَذَا الْمَسْتَوَى كَانَ مِنَ الْمَرْجَحَاتِ الَّتِي جَعَلَتْهُمْ يُعْلِنُونَ دُخُولَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ، وَهُمْ صَادِقُونَ فِي إِرَادَةِ الطَّاعَةِ وَالْمَتَابَعَةِ.

إِنَّ تَصَوُّرَهُمْ لِقَضِيَّةِ إِسْلَامِهِمْ كَتَصَوُّرِ صَاحِبِ فَضْلِ فِي الْإِتْسَابِ إِلَيْهِ، إِنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يَقُورُونَ بِإِتْسَابِهِمُ الْجَمَاعَةَ الَّتِي يَتَسَبَّبُونَ إِلَيْهَا، وَالْمَبْدَأُ الَّذِي يَتَسَبَّبُونَ إِلَيْهِ، نَظِيرُ مَنْ يَتَسَبَّبُ إِلَى زَعِيمٍ مِنَ النَّاسِ فَيُنَاصِرُهُ وَيُدَافِعُ عَنْهُ وَيُطِيعُهُ.

وَلَمَّا كَانَ تَصَوُّرُهُمْ كَذَلِكَ أَخَذُوا يَمْنُونُ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ إِسْلَامَهُمْ.

فَمَنْ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: جَاءَتْ بَنُو أُسَيْدٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَسْلَمْنَا، وَقَاتَلْنَا الْعَرَبَ وَلَمْ نَقَاتِلْكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«إِنَّ بَقِيَّتَهُمْ قَلِيلٌ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ».

وَأَنْزَلَ اللَّهُ قَوْلَهُ خُطَاباً لِرَسُولِهِ:

﴿يَمْنُونُ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُونُوا عَلَيَّ إِلَّا مَنَعَكُمُ بِلِ اللَّهِ يَمْنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَنَكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

لَقَدْ كَانَ جَهْلُهُمْ بِعَبْرِ عَنْهُ تَصَوُّرُهُمْ أَنَّ إِسْلَامَهُمْ قَدْ كَانَ لِمَصْلَحَةِ الرَّسُولِ، فَأَخَذُوا يَمْنُونُ عَلَيْهِ إِسْلَامَهُمْ، وَغَابَ عَنْهُمْ أَنَّ إِسْلَامَهُمْ لَوْ صَحَّ فَإِنَّمَا هُوَ لِمَصْلَحَتِهِمْ أَنْفُسِهِمْ، وَلِنَجَاتِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَلِلظُّفْرِ بِالسَّعَادَةِ الْخَالِدَةِ فِي دَارِ النِّعَمِ الَّتِي أَعَدَّهَا لِعِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ.

وَهَذَا يُوَكِّدُ أَنَّ إِسْلَامَهُمْ قَدْ كَانُوا صَادِقِينَ فِيهِ مِنْ جِهَةِ صَدَقِ الْإِعْلَانِ، لَكِنَّمَا لَمْ يَكُنْ ثَمَرَةُ إِيمَانٍ صَحِيحٍ دَخَلَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ أَيْضاً نِفَاقاً، يُضَافُ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ أَنْوَارَ الْإِيمَانِ لَمْ تَكُنْ بَعِيدَةً عَنْ قُلُوبِهِمْ، وَلَا مُجَافِيَةً لَهَا كُلَّ الْمَجَافَاةِ، بَلْ هُمْ بَيْنَ بَيْنٍ، وَرَجَاءُ دُخُولِ الْإِيمَانِ فِي قُلُوبِهِمْ رَجَاءٌ قَوِيٌّ، دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ جَلَّ فِي التَّعْلِيمِ:

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

ولو أن إسلامهم قد كان ثمرة إيمان صحيح دخل في قلوبهم، لَعَلِمُوا أَنَّ الْمَنَّةَ لِلَّهِ عَلَيْهِمْ، إِذْ بَعَثَ رَسُولَهُ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ، فَهَدَاهُمْ بِذَلِكَ إِلَى الْإِيمَانِ، الَّذِي هُوَ السَّبِيلُ الْوَحِيدُ إِلَى أَنْ يَنَالُوا سَعَادَتَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَنَجَاتَهُمْ مِنَ الشَّقَاءِ وَالْعَذَابِ. وَلَعَلِمُوا فَضْلَ الرَّسُولِ ﷺ عَلَيْهِمْ، إِذْ حَمَلَ إِلَيْهِمُ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَلَمْ يَأْلَهُمْ نُصْحًا، وَكَانَ بِهِمْ رَوْفًا رَحِيمًا.

وَيَدْخُلُ فِي قِسْمِ الْمُسْلِمِينَ الْمُتَسَبِّينَ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِبَعْضِ عُنَاصِرِ الْإِيمَانِ، إِلَّا أَنَّ الرُّؤْيَا لَدَيْهِ لَمْ تَشْمَلْ كُلَّ عُنَاصِرِ الْإِيمَانِ حَتَّى يُؤْمِنَ بِهَا، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ أَعْلَنَ إِسْلَامَهُ صَادِقًا بِإِعْلَانِهِ، وَلَكِنْ بِمَعْنَى الْإِسْتِسْلَامِ وَالْإِنْقِيَادِ وَالطَّاعَةِ لِأَحْكَامِ الْإِسْلَامِ وَشُرَائِعِهِ وَنُظْمِهِ، لَا بِمَعْنَى الْإِسْلَامِ النَّابِعِ مِنَ الْقَاعِدَةِ الْإِيمَانِيَّةِ الْكَامِلَةِ، وَالْمُرْتَكِزِ عَلَيْهَا.

وَالْمُتَمَتِّنُونَ إِلَى الْإِسْلَامِ عَلَى مَعْنَى الطَّاعَةِ وَالْإِنْقِيَادِ دُونَ أَنْ يَكُونَ إِسْلَامُهُمْ قَائِمًا عَلَى قَاعِدَةٍ إِيمَانِيَّةٍ صَحِيحَةٍ كَامِلَةٍ مُتَّفَاوَتُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَهُمْ عَلَى دَرَجَاتٍ مُتَفَاوِلَاتٍ: الدَّرَجَةُ الْأُولَى: يَحْتَلُّهَا الْمُتَمَتِّنُونَ كَامِلُوا الْإِتِّزَامِ بِالطَّاعَةِ وَالْإِنْقِيَادِ، وَفَقْ مَقْتَضَى إِعْلَانِهِمْ.

الدَّرَجَةُ الثَّانِيَّةُ: يَحْتَلُّهَا الَّذِينَ هُمْ بَيْنَ بَيْنٍ.

الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: يَحْتَلُّهَا الَّذِينَ يَقِلُّ التَّزَامُهُمْ جَدًّا، وَتَكْثُرُ مَخَالَفَاتُهُمْ، وَتَجَاوِزَاتُهُمْ حُدُودَ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

وَكَثِيرًا مَا يَسْقُطُ الْمُسْلِمُونَ الْمُتَسَبِّبُونَ لَدَى امْتِحَانِهِمْ بِالِدَّعْوَةِ إِلَى الْجِهَادِ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ، لِأَنَّ الصَّدَقَ فِي هَذَا الْجِهَادِ لَا يَدَّ أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَى صُلُقِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْقِسْمِ وَارِثُو الْإِسْلَامِ، الَّذِينَ لَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ بَعْدَ فِي قُلُوبِهِمْ، إِنَّ إِسْلَامَهُمْ إِسْلَامٌ وَرَائِيٌّ يَكَادُ يَكُونُ جَبْرِيًّا لَا اخْتِيَارِيًّا، إِنَّهُمْ وَارِثُو الْإِنْسَابِ إِلَيْهِ. كَمَا وَرِثُوا مِنْ آبَائِهِمُ الْإِنْسَابَ إِلَى قَوْمِهِمْ وَعَشِيرَتِهِمْ، وَكَمَا وَرِثُوا الْإِنْتِمَاءَ إِلَى وَطَنِهِمُ الَّذِي وَلِدُوا وَنَشَرُوا فِيهِ، وَلَا يَكُونُ إِسْلَامُهُمْ إِسْلَامًا كَامِلًا نَابِعًا مِنَ الْقَاعِدَةِ الْإِيمَانِيَّةِ وَمُرْتَكِزًا عَلَيْهَا حَتَّى تَنْصَحَ لَهُمْ رُؤْيَا عُنَاصِرِ الْقَاعِدَةِ الْإِيمَانِيَّةِ، وَحَتَّى يُؤْمِنُوا بِهَا إِيمَانًا لَا رَيْبَ

فيه ، ثم يكون إسلامهم بعد ذلك انتساباً إرادياً اختيارياً مستنداً إلى قاعدة إيمانهم .

إِنَّ الَّذِينَ وَرَثُوا الْإِنْتِسَابَ إِلَى الْإِسْلَامِ مِنْ أَسْرِهِمْ وَبِشَاتِهِمْ ، فَأَعْلَنُوا أَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ ، وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ ، إِذْ لَمْ تُنْفِخْ لَهُمْ بَعْدَ الرُّؤْيَا الْحَقِيقِيَّةِ لِلْقَاعَةِ الْإِيمَانِيَّةِ وَعَنَاصِرِهَا ، يَشْبُهُ حَالُهُمْ حَالُ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ :

﴿ قُلْ لَمْ تَزِمُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ۖ ﴾ (١١)

إِنَّ ائْتِسَابَهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ لَيْسَ ائْتِسَاباً كَاذِباً حَتَّى يَكُونُوا مُنَافِقِينَ كَافِرِينَ فِي بَوَاطِنِهِمْ ، مُخَادَعِينَ بِالْإِنْتِسَابِ إِلَى الْإِسْلَامِ فِي ظَوَاهِرِهِمْ ، وَهُمْ كَذَلِكَ لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَلَيْسُوا أَيْضاً بِكَافِرِينَ عَلَى مَعْنَى أَنَّهُمْ يَجْحَدُونَ وَيُنْكِرُونَ عَنَاصِرَ الْقَاعَةِ الْإِيمَانِيَّةِ مَعَ عِلْمِهِمْ بِهَا . إِنَّهُمْ مَا دَامُوا كَذَلِكَ فَهُمْ فِي مَنْزِلَةِ وَسْطَى بَيْنِ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ .

لَكِنَّمَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَمِرَّوْا فِي هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ تَتَوَارَدَ عَلَيْهِمْ أَدَلَّةُ الْإِيمَانِ ، ثُمَّ هُمْ بَعْدَ ذَلِكَ :

• إِمَّا أَنْ يُؤْمِنُوا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُهُمْ ، وَعِنْدَئِذٍ يَرْتَبِطُ إِسْلَامُهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ، وَيَكُونُ إِسْلَامُهُمْ مَظْهَرًا مِنْ مَظَاهِرِ إِيمَانِهِمْ ، وَثَمَرَةً مِنْ ثَمَرَاتِهِ .

• وَإِمَّا أَنْ تَغْلِبَ عَلَيْهِمُ الشُّكُوكُ ، وَتَلْغِبَ بِهِمُ الْأَهْوَاءُ ، وَتَجْتَالِهِمْ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، وَيَرْفُضُوا الْإِيمَانَ بِعَنَاصِرِ الْقَاعَةِ الْإِيمَانِيَّةِ ، بَعْدَ عِلْمِهِمْ بِهَا ، وَعَرَضَ أَدَلَّتْهَا الْبِرْهَانِيَّةُ عَلَيْهِمْ .

وعِنْدَئِذٍ يُحْكَمُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ كَافِرُونَ ، فَإِنْ صَرَّحُوا بِكَفْرِهِمْ كَانُوا مُرْتَدِّينَ ، كَمَا حَصَلَ لِبَعْضِ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ ارْتَدَّوْا ، وَإِنْ حَافَظُوا عَلَى مَظْهَرِ الْإِنْتِسَابِ إِلَى الْإِسْلَامِ خَوْفًا أَوْ طَعْمًا ، أَوْ رَغْبَةً فِي الْإِفْسَادِ وَهُمْ دَاخِلُ صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مِنْ زَمَرَةِ الْمُنَافِقِينَ .

وَيَدْخُلُ أَيْضاً فِي قِسْمِ « الْمُسْلِمِينَ الْمُتَسِبِّينَ » الَّذِينَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ ، بَعْضُ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ، فَقَدْ أُطْلِقَ هَذَا الْأَسْمُ عَلَى قَوْمٍ ائْتَسَبُوا إِلَى الْإِسْلَامِ غَيْرَ مُنَافِقِينَ ، وَلَكِنَّ الْإِيمَانَ لَمْ يَدْخُلْ بَعْدُ فِي قُلُوبِهِمْ .

وهؤلاء قد أذن الله عز وجل بتأليف قلوبهم عن طريق بذل المال لهم ولو من الزكاة، إذا رأى حاكم المسلمين أن في ذلك مصلحة للإسلام والمسلمين.

وأطلق عنوان «المؤلفة قلوبهم» على قوم لم يتسببوا بغد إلى الإسلام، وأراد الرسول ﷺ تأليف قلوبهم، فأعطاهم مما لديه من الأموال العامة، فألف بذلك قلوبهم وقلوب أتباعهم، رجاء أن يدخلوا في الإسلام.

وربما أطلق هذا العنوان أيضاً على قوم يُعطون من الأموال العامة ليقوموا بخدمات كبيرة للمسلمين، كالدفاع، ومقارعة الأعداء في الثغور، وجمع الصدقات من أقوامهم وجماعاتهم.

وقد كان من المؤلفة قلوبهم في عصر الرسول ﷺ وقد أسلموا وأعطاهم الرسول: «أبو سفيان بن حرب - عيينة بن بدر - الأقرع بن حابس - عباس بن مرداس - علقمة بن علاثة».

وكان من المؤلفة قلوبهم في عصر الرسول ﷺ وهم لم يسلموا بغد، وأعطاهم الرسول تأليفاً لقلوبهم: «صفوان بن أمية» وقد أعطاه الرسول ﷺ من غنائم حنين مائة من الإبل، وكان قد شهد حنين وهو مشرك.

روى مسلم والإمام أحمد والترمذي عن صفوان بن أمية قال: «أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين، وأنه لأبغض الناس إليّ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ».

من هذا يتبين لنا أنه قد كان معروفاً بين أهل الصدر الأول وجود قسم من المسلمين غير قسم «المسلمين المؤمنين» وهم قسم «المسلمين الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم» وقد يطلق على بعض أفراد هذا القسم وصف «المؤلفة قلوبهم».

وقد بدا لي أن يطلق على هذا القسم عنوان «المسلمون المتسبون» فإذا أضفنا إلى هذين القسمين قسم «المسلمين المنافقين» كانت الأقسام ثلاثة:

(١) المسلمون المؤمنون.

(٢) المسلمون المتسبون.

(٣) المسلمون المنافقون.

وتأكيداً لوجود الفرق بين «المسلمين المؤمنين» و«المسلمين المتسبين» في بيانات الرسول ﷺ، نستشهد بما كان الرسول ﷺ نفسه يفعله من تفريق بين لفظتي: «مؤمن ومُسْلِم»، إذ كان لا يطلق لفظة «مؤمن» على من علم أن الإيمان لم يدخل بعدُ إلى قلبه، وإنما يطلق عليه لفظة «مسلم» كما طلب منه أن يقول للأعراب الذين لما يدخل الإيمان إلى قلوبهم، وكان يرشد أصحابه إلى ما ينبغي أن يطلقوه على الناس من هاتين اللفظتين حينما يريدون وصفهم بهما أو بإحدهما.

روى الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاصٍ - رضي الله عنه - قال:

أعطى رسول الله ﷺ رجلاً، ولم يُعْطِ رجلاً منهم شيئاً، فقال سعد: يا رسول الله، أعطيت فلاناً وفلاناً، ولم تُعْطِ فلاناً شيئاً، وهو مؤمن.

فقال النبي ﷺ: «أو مُسْلِم».

حتى أعادها سعد - رضي الله عنه - ثلاثاً، والنبي ﷺ يقول: «أو مُسْلِم».

ثم قال النبي ﷺ:

«إني لأُعْطِي رجلاً، وأَدْعُ مَنْ هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُمْ فَلَمْ أُعْطِهِ شَيْئاً مَخَافَةَ أَنْ يُكْبَرُوا فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ».

فهذا رسول الله ﷺ يُفَرِّق بَيْنَ لفظة «مؤمن» ولفظة «مسلم» وذلك لأنه ما دامت كلمة «مؤمن» تغيد أن من تُطْلَقُ عليه قد دخل الإيمان في قلبه واستقر، وما دام سعد لا يعرف ما في القلوب، وإنما يطلع على الظواهر فقط، فقد علمه الرسول ﷺ أن يشهد بما يعلم، ويسكت عما لا يعلم، إنه يعلم عن الرجل إسلامه، فليقل عنه: هو مسلم، ويجعل صدق إيمانه فلا يقل عنه: هو مؤمن.

ولا يدلُّ هذا الإرشاد النبويُّ على أن الرجل المتحدث عنه لم يكن مؤمناً، بل يدلُّ على أنه لا ينبغي للمسلم أن يحكم بما لا يعلم.

على أنه يكفي للحكم بالإيمان الدلائل التي تُعْطِي غلبة الظنِّ، وهو ما أرشدنا الله عزَّ وجلَّ إليه بقوله في سورة (الممتحنة / ٦٠ مصحف / ٩١ نزول):

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَهُمْ الْمَوْتُ مَهْجَرَتٍ فَأَمْتَجُوهُمْ ؕ اللَّهُ ءَعْلَمُ بِإِيمَانِهِمْ ؕ فَمَنْ عَلِمْتُمْ مَوْتَهُمْ فَلَا تَرْجِعُوهُمْ إِلَى الْكَفَّارِ ؕ لَأَنْ جُلَّ لَكُمْ وَلَا تُمْ بِحُلُونِ لَهُمْ ؕ...﴾ (١٥)

فقد أذن الله عز وجل في هذه الآية للمؤمنين بأن يحكموا بإيمان من دلتهم الدلائل الظنية المرجحة على أنهم مؤمنون، وبغية الوصول إلى هذه النتيجة أرشد الله إلى امتحان من يراد الحكم له بالإيمان، وسعى ما يتوصل الممتحنون إليه من غلبة الظن علماً.

أما العلم اليقيني بإيمان آحاد الناس، فلا يستطيع الناس التوصل إليه بحسب العادة إلا عن طريق خبر الوحي، وذلك لأن الإيمان من صفات القلوب، وما في القلوب لا يعلمه بيقين إلا الله علام الغيوب، ثم من اصطفاهم الله بالوحي، أراعطهم قدرة الاطلاع على ما في القلوب كالملائكة، ولذلك جاء في الآية قوله تعالى: ﴿اللَّهُ ءَعْلَمُ بِإِيمَانِهِمْ﴾ جملة اعتراضية ضمن التوجيه لامتنابهم والحكم عليهم بالإيمان بعد الامتحان.

وتساءل: هل يبقى «المسلم المنتسب» على حاله الوسطى طوال حياته حتى يلقى ربه؟

وأرى في الجواب ما يلي:

* إن كان توقفه عن الإيمان ناشئاً عن جهل وهو يبحث عن الحق، فسيكشف الله له من الأدلة والبراهين ما يهديه إلى الحق.

هذا ما جرت به سنة الله تعالى في خلقه، وهو ما تقتضيه حكمته، وحين ينكشف له الحق الذي يطلبه، فسكون من المسلمين المؤمنين، وعندئذ يتيم المواءمة بين ما أعلنه وما اطمأن إليه قلبه.

* وإن لم يكن كذلك، فسيجد نفسه في ظروف الحياة الدنيا يتقلب بامتحانات الله له في السراء والضراء، حتى يُحدّد سبيله:

(١) فإنما أن يجحد الحق بقلبه، ويبقى في ظاهره مسلماً، وحينئذ يوسم بميسم

النفاق.

(٢) وأما أن يَجْحَدَ الحقَّ بقلبه، ثمَّ يُعْلِنَ ذلك بلسانه وأعماله، وحينئذٍ يكون من المرتدين عن الإسلام، وهذا ما حصل للأعراب الذين ارتدوا عن الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ، إذ كانوا في الغالب من قسم «المسلمين المتسبين» الذين أسلموا طاعةً وانقياداً، ولم يكن قد دخل الإيمان إلى قلوبهم.

(٣) وأما أن يدخل الإيمان إلى قلبه، وعندئذٍ تَبَيَّنَ المواءمة بين ما كان أعلنه من الإسلام، وما اطمأنَّ إليه قَلْبُهُ من الإيمان.

ومن المستبعد جداً أن يَظَلَّ طَوَالَ حياته على حالته الوسطى، مسلماً منتسباً فقط، باستثناء من تعاجله مِنِّيَّة قبل أن تمرَّ عليه مدَّة كافية للتأمل والروية والتقلب في وُجُوهِ الامتحانِ بالسَّراءِ والضَّراءِ.



القسم الثالث:

المتظاهرون بالإسلام كذباً وزوراً، وهم الذين يُطْلَقُ عليهم عنوان «المنافقين». إنَّ إسلام أفراد هذا القسم إسلامٌ مزيف، إسلامٌ من هو في داخله كافرٌ جاحدٌ لعناصر القاعدة الإيمانيَّة في الدين الإسلاميَّ كُلِّها أو بَعْضِها، أو هو غير مكترث لها، ولا ملتفتٍ إليها، ولا باحثٍ عنها، فهو لا يؤمن بها لأنَّها لا تَخْطُرُ له على بال، ولا يُعَيِّرُها شيئاً من اهتمامه، ولا يُريد ذلك، إنَّه لا يريد إلاَّ مطالب نفسه وشهواته من الحياة الدُّنيا.

لقد رأى المسلمون وما لَهُمْ من قُوَّةٍ وَمَنْعَةٍ، ورأى ما يُمَكِّنُ أن يَغْنَمَ من مغنمٍ ومنافعٍ عن طريقهم، أو خاف على بعض مصالحه إذا أعلن أنَّه غير مسلم، أو أراد بالإسلام والمسلمين كيداً وهو ضمن جماهير المسلمين لا تَرْقُبُهُ العيون، لما يُضْمِرُ من عداوةٍ شديدةٍ أَوْقَدَ نيرانَها في قَلْبِهِ وَلَاؤُهُ السابقُ لغيره من البُللِ والنَّخلِ، كحالِ المنافقين من اليهود والنصارى والمجوس، فبدأ لهُ أن يتظاهر أمام المسلمين بالإسلام كذباً وزوراً، وأنَّ يُعْلِنَ قَبُولَهُ للإسلام، وإيمانهُ بأركان الإيمان، ويشهدُ الشهادة التي يَدْخُلُ بها ضَمَنُ جماعة المسلمين.

وَيُضْطَرُّ بَعْدَ هَذَا الْإِعْلَانِ أَنْ يَشَارَكَ الْمُسْلِمِينَ فِي أَعْمَالِهِمُ الظَّاهِرَةِ، مِنْ عِبَادَاتٍ وَغَيْرِهَا، وَهُوَ فِي كُلِّ مَا يَقُومُ بِهِ مِنْ أَعْمَالٍ إِسْلَامِيَّةٍ الظَّاهِرَةِ مُخَادَعٌ كَذَّابٌ.

إِنَّ إِسْلَامَ هَذَا الْقِسْمِ الْمُنْتَظَاهِرِ بِالْانْتِمَاءِ إِلَى جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُنْتَظَاهِرِ بِقَبُولِهِ لِعَقَائِدِ الْإِسْلَامِ وَشَرَائِعِهِ، وَهُوَ كَذَّابٌ مُخَادَعٌ مُرَّاءٌ بِمَا لَيْسَ هُوَ مِنْ حَقِيقَتِهِ، يَرْجِعُ إِلَى الْأَسْبَابِ التَّالِيَةِ كُلِّهَا أَوْ بَعْضِهَا:

السبب الأول: الرُّغْبَةُ فِي الْحَصُولِ عَلَى مَنَافِعٍ وَمُطَامَعٍ دُنْيَوِيَّةٍ يَنَالُهَا بِإِسْلَامِهِ، وَدُخُولِهِ ضَمَنَ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ.

السبب الثاني: الخوفُ من سُلْطَانِ الْمُسْلِمِينَ وَقُوَّاتِهِمُ الْفَاتِحَةِ الْمُنْتَصِرَةِ، وَالْخَوْفُ عَلَى فَوَاتِ مَصَالِحٍ كَانَ يَسْتَفِيدُهَا فِي بَلَدِهِ، إِذَا هُوَ أَصْرُ عَلَى كُفْرِهِ وَلَمْ يُسْلِم.

السبب الثالث: إِرَادَةُ الْكَيْدِ وَالْإِفْسَادِ وَالْإِضْرَارِ بِالْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، دُونَ أَنْ يَكُونَ مُرَاقِباً مِنْ قِبَلِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ، لِأَنَّهُ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ وَاجِدٌ مِنْ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ.

هَذَا الْقِسْمُ هُوَ فِي حَقِيقَتِهِ كَافِرٌ، إِلَّا أَنَّهُ أَشْوَأُ حَالاً، وَأَشْنَعُ طَرِيقَةً مِنَ الْكَافِرِ الصَّرِيحِ. الْمَجَاهِرُ بِحَالِهِ، الْكَاشِفُ خَيْبَتَهُ نَفْسِهِ، وَهُوَ أَشَدُّ ضَرراً، وَأَبْلَغُ أَثْراً، وَأَعْظَمُ خَطراً عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ مِنَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يَعلنون كُفْرَهُمْ وَعَدَاوَتَهُمْ.

وَسَيَاتِي - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - مَزِيدُ شَرْحٍ وَتَفْصِيلٍ وَتَقْسِيمٍ لِهَذَا الْقِسْمِ، وَهُوَ الْمَعْنِيُّ بِهَذَا الْكِتَابِ.





الفصل الثالث

الكُفْرُ وَالنِّفَاقُ

أولاً: الكفر

(١)

تمهيد

كُتِبَ في كتابي «صراع مع الملاحدة حتى العظم» فضلاً موسعاً حول الكُفْر والكافرين، فاحيل القارىء عليه، وعلى ما جاء أيضاً في كتابي «العقيدة الإسلامية وأسسه».

وأوجزُ هنا ما لا بُدَّ منه للمناسبة التي جرَّتها طبيعة التعريفات المراد منها تمييز المصطلحات للكلمات التالية «الإيمان - الإسلام - الكفر - النفاق» بعضها من بعض، وسيلةً لبيان حقيقة النفاق وعناصره الظاهرة والباطنة، وحقيقة المنافقين وصفاتهم ومكائدهم، باعتبار أنَّ موضوع النفاق والمنافقين وما يجب على المسلمين المؤمنين تجاههم هو مقصود هذا الكتاب.

* * *

(٢)

تعريف الكفر

أصلُ معنى الكُفْر في اللغة التغطية والسترُّ الكامل، يُقالُ لُغَةً: كَفَرَ الشَّيْءُ كَفْراً، وَكَفَرَ عَلَى الشَّيْءِ كَفْراً، وَكَفَرَ الشَّيْءُ تَكْفِيراً إذا سَتَرَهُ وَغَطَّاهُ، وَكَفَرَ التُّرَابُ مَا تَحْتَهُ إذا غَطَّاهُ، وَيُقَالُ: تَكَفَّرَ بِالْشَّيْءِ إذا تَسَتَّرَ وَتَغَطَّى بِهِ، وَيُقَالُ: تَكَفَّرَ فِي سَبَاحِهِ إذا دَخَلَ فِيهِ.

ويقال للابس السلاح الذي غطاه السلاح تغطيةً كاملةً كافر، لأنه ستر جسمه به سترًا كاملاً.

ويقال للزارع أيضاً: كافر، لأنه يدفن الحب في الأرض فيغطيه بالتراب تغطيةً كاملة، ومنه قول الله عز وجل في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ... ﴾ (١٠)

أي: أعجب الزراع نباته.

ويقال للليل المظلم: كافر، لأنه يستر بظلمته كل شيء.

وهكذا تدور الكلمة في اللغة حول معنى الستر والتغطية.

واستعملت هذه العادة اللغوية في الاصطلاح الديني للدلالة على ما يقابل الإيمان، وعلى ما يقابل الإسلام، فمن أبى أن يؤمن بآركان الإيمان بعد أن وضحت له أدلتها فهو كافر، ومن أبى أن يسلم لله ورسوله بعد أن وضح له صدق ما جاء عن الله من دين فهو كافر.

وربما تكون المناسبة بين المعنى الديني والمعنى اللغوي للفظ الكفر ومشتقاتها أن الجاحد المنكسر لحقيقة من الحقائق التي يجب الإيمان بها في الدين، والمنكر لحق الله على عباده في الطاعة لأوامره ونواهيه، والإسلام له في أحكامه وشرائعه وتعاليمه ووصاياه، هو في حقيقة أمره سائر للبراهين والأدلة الدامغة له، التي أثبتت له حقائق عناصر الإيمان التي جحد بها كلها أو بعضها، والتي أثبتت له حق الله عليه في الطاعة، أو في إفراده بالعبادة، في كل عناصر الإسلام أو بعضها.

ولكونه سترًا هذه الأدلة والبراهين، وبأنياً إنكاره على أن الأدلة لم تكن كافية لإقناعه حتى يؤمن ويسلم، كان من المناسب أن يسمى كافراً، ويسمى عمله كفراً، ثم أطلق الكفر على اعتقاد بطلان قضية ما بالحق أو بالباطل.

إن الإيمان - كما سبق - عماده التصديق الإرادي القلبي، والاعتراف والتسليم بما أمر الله بالإيمان به، فالكفر المقابل للإيمان لا بد أن يكون عماده رفض التصديق والاعتراف والتسليم، بحركة إرادية داخلية، ومسؤولية المكلف عن اختياره الكفر إنما

تكون بعدُ وُضوح الأدلة له التي تُلزمه بالإيمان، وربما تكون الأدلة ملزمة له بأن يكفر بالباطل، فيجب عليه عندئذ أن يكفر به.

وكل إيمان بشيء يستلزم عقلاً الكفر بنقيضه، لذلك كان كل مؤمن بآركان العقيدة الإسلامية وعناصرها الجزئية، كافرًا بنقيضها، وبمستلزمات هذا النقيض، ومن ذلك كان الإيمان بالله يقتضي الكفر بالطاغوت اقتضاء حتميًا، وفي بيان هذا يقول الله عز وجل في سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول):

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٦٠﴾﴾

إذن: فلا يتم إيمان المؤمن بالله وبكل ما صح وثبت عن الله حتى يكفر بكل الطواغيت، ومن أجل ذلك اشتملت عبارة التوحيد على السلب أولاً فالإيجاب ثانياً. إن جملة «لا إله إلا الله» تشتمل أولاً على الكفر بكل إله سوى الله عز وجل، فعلى الإيمان بالله وحده لا شريك له.

أما غير المؤمنين بآركان العقيدة الإسلامية إيماناً كاملاً صحيحاً فقد عكسوا القضية، فآمنوا بالباطل وكفروا بالحق، سواء أكان ذلك بصفة كلية لجميع أركان العقيدة الإسلامية، أو بصفة جزئية.

ولما كان الإسلام وهو قبول مبدأ الاستسلام ومبدأ الطاعة لله ورسوله، بلا استكبار ولا رفض ولا اتهام لحكمة الله في أوامره ونواهيه، من العناصر الأساسية للدخول في دين الله، كان رفض إعلان الإسلام دون عذر الإكراه أو الجهل كُفراً، وكان رفض قبول مبدأ الطاعة لله ورسوله كُفراً، وكان الطعن أو الشك في حكمة الله في أوامره ونواهيه كُفراً، وكان إنكار حق الله على عباده في أن يطيعوه ولا يعصوه في أوامره ونواهيه كُفراً.

فالكفر إذن له صورتان:

الصورة الأولى: تكون بإنكار أي شيء مما يجب الإيمان به في الإسلام، بعد العلم به وبدليل أنه حق.

الصورة الثانية: تكون برفض الاستسلام لله ورسوله، أو رفض طاعتهما، استكباراً، أو عناداً، أو شكاً في حكمة الله بأوامره ونواهيه، وهذه الصورة تظهر بكفر إبليس ظهوراً واضحاً، لأنه قد كان مؤمناً بربه، إلا أنه كان مستكبراً، وطاعناً في حكمته، وجاعلاً الأسباب التي هي من خلقه ذات أثر على أمره ونهيه.

وتنزل على هاتين الصورتين دلائل من القول أو العمل، فتعتبر الأقوال أو الأعمال الدالة على آية صورة منهما من المكفرات.

فمن أنكر وجود الرب الخالق الرازق المحيي المميت، أو جحد شيئاً من صفاته الثابتة، أو أسمائه الحسنى الثابتة، فهو كافر.

ومن أشرك بربوبية الله فزعم أن شيئاً في الوجود يُشارك الله في الخلق والتدبير، والحياة والموت والرزق، والنفع والضّر، وغير ذلك من خصائص الرب الخالق، فهو كافر.

ومن أشرك بالوهية الله، فزعم أن أحداً غير الله يستحق أن يُعبد من دون الله، أو عبد مع الله إلهاً آخر، أو تقرب إلى غير الله عز وجل بالعبادة، فهو كافر.

ومن أنكر الإسلام، ولم يقبل ما جاء فيه من عقائد أو شرائع أو أحكام ثابتة فهو كافر.

ومن أنكر شيئاً ما قد ثبت في الإسلام بصفة قطعية فهو كافر، لأن هذا الإنكار جحودٌ بدين الله، وتكذيبٌ لرسول الله فيما جاء به عن ربه، ولا بُد أن نعلم أن جحود بعض اليقينيات الدينية يكفي للحكم بالكفر، ولا يتوقف الحكم بالكفر على إنكار الدين كله، إذ الإيمان كل لا يقبل التفريق بين أجزائه، والعقيدة الإسلامية متماسكة الأركان، مترابطة العناصر ترابطاً تاماً من جميع الأطراف، كما سبق بهذا البيان، فمن أنكر بعضها مما هو ثابت بيقين، فهو بسبب ذلك كافر.

ومن كذب الرسول بشيء قد ثبت عنه يقيناً فقد كفر ببؤته، ومن كفر ببؤته الرسول فقد كذب شهادة من أرسله، وهكذا تتسلسل نواقض عناصر الإيمان حتى تصل إلى الجذر الأساسي فنقضه، وهذا هو الكفر الأكبر.

ومن رفض طاعة الله في أمرٍ ما من أوامره، أو نهي ما من نواهيه، استكباراً، أو عناداً، أو شكاً في حكمته سبحانه وتعالى، فهو كافرٌ ككُفْرِ إبليس، حين رفض أن يسجد لآدم.

أما من عصى مع الاعتراف بحق الله عليه في الطاعة ومع الاعتراف بذنبه، وبأن غلبته شهوته أو هوى نفسه، فإنه عاصٍ فقط، وليس بكافر، كما عصى آدم وزوجا فأكلا من الشجرة التي نهاهما الله عن أن يأكلا منها، فاعترفا بالمعصية، واستغفرا ربهما فتاب الله عليهما.

ومن زعم أن حكم غير الله أحكم وأعدل وأصلح من حكم الله الذي أنزله في شريعته لعباده فهو كافر.

ولا يحِلُّ النَّاسُ على تطبيق قانون عام منافع لحكم الله القطعي ومباين له، إلا مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ مَا حَصَلَ النَّاسُ عَلَيْهِ مِنْ قَانُونٍ بَشَرِيٍّ وَضِعِيَ هُوَ أَحْكَمُ وَأَعْدَلُ وَأَصْلَحُ لِلنَّاسِ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ فِي شَرِيعَتِهِ لِعِبَادِهِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُكْرَهًا، أو مؤثراً لمصالحه الدنيوية في أن يكون سلطاناً، وهو يخاف على سلطانه من الزوال على أيدي قُوَى ذات هيمنة في العالم.

ومن تحاكم إلى القوانين البشرية المتنافية لحكم الله وشريعته ظاناً أنها أعدل من حكم الله فهو كافر.

ومن جحد وجوب ركنٍ ما من أركان الإسلام الخمسة فهو كافر.

ومن أنكر شيئاً ما معلوماً من الدين علماً عاماً يشترك به العامة والخاصة (وهو ما يعرف بأنه معلوم من الدين بالضرورة) فهو كافر.

ومن قال قولاً، أو فعل فعلًا، يَدُلُّ على حالة نفسية توقع في الكفر، كان قوله أو فعله من المكفرات القسوية أو الفعلية، كشتم الخالق جل وعلا، وكسب الرسول ﷺ، وكامتهان كتاب الله القرآن بعمل يُشْعِرُ بالكُفْرِ به، أو بالغَيْظ منه، أو يُشْعِرُ برفضه، أو احتقار ما فيه، وكعليق الصليب على الصُدر، وتقبيله وتعظيمه، وكالسجود للأوثان أو تعظيمها، وكقترب القرايين لأرواح القديسين، وكالسجود لاضرحة الموتى

تعظيماً لهم، وكذعائهم وسؤالهم مثل سؤال الله عز وجل.
إلى غير ذلك من أمور كثيرة يصعب إحصاء أفرادها.

(٣)

الكفر دركات

لا يَقَعُ الكُفْرُ كُلُّهُ في دركة واحدة، بل له دركات بعضها أخط وأخسر من بعض، وتتنازل الدرجات حتى يكون صاحب الدركة السفلى في الدرك الأسفل من النار.

وتنحط درجات الكُفْر بمقدار زيادة الجحود والإنكار والمعاندة، وكثرة الطغيان وفعل الشر، والتلؤن والاحتيال، ونحذي الرب الخالق في جبروته، ومُقاومة دينه الذي أنزله، ورُسُلِهِ الذين أرسلهم مبلغين داعين هادين مبشرين ومنذرين.

وبعض الكفر أخطر من بعض، وأشدُّ ضرراً وشرّاً، فالجاهل المنكر أهون شرّاً من العالم المعاند.

وصاحب الدين المشرك أخف خطراً من الزنديق الذي ليس له دين يخفف من غلواء شره.

ومن له دين ما ولو كان شيئاً أقل خبثاً وشرّاً من الملحد الذي لا يرى الوجود إلا مادةً مُتَظَوِّرة، ولا يَرى من وراء الحياة الدنيا إلا عودة المادة إلى ما كانت عليه، فليس في الوجود بزعمه خالقٌ يتلى ويُعَلَّم، ثُمَّ يُحَابَّبُ ويُحَكَّم، ويجازي ويعدل.

والمجاهر بكفره الذي نراقبه فنحذر شره أقل أذى وإضراراً من المنسّر المنافق، الذي يخفي نفسه بقناع التظاهر بالإسلام، لذلك كان المنافق في أسفل الدرجات، وكانت عقوبته أن يكون منزله يوم الدين في الدرك الأسفل من النار.

واخف أنواع الكُفْرِ الشُّرْكُ بالله في عبادته، مع الإيمان به ربّاً خالقاً لا شريك له في ربوبيته، وقد دلّ على هذه القضية قول الله عز وجل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (١٨).

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٩)

والكافرون جميعاً مخلدون يوم الدين في دار العذاب، وإن تفاوتت درجات عذابهم، وكان بعضهم أشدَّ عذاباً من بعض، على مقدار كفرهم، وما فعلوا من شرور وجرائم في الحياة الدنيا.

• • •

ثانياً: النفاق

(١)

تعريف النفاق

النفاق: اسم إسلامي لم تعرفه العرب بمعنى النفاذ بالسلام، وادعاء الإيمان كذباً ومخادعة للمؤمنين، مع إبطان الكفر وعدم الإيمان.

وعلى هذا المعنى الإسلامي تُستعمل مشتقات هذه المادة اللغوية، فيقال: نافق، ينافق، منافقة، ونفاقاً، فهو منافق.

وأصل هذه المادة اللغوية معروف بغير هذا المعنى الإسلامي:

فالتَّفَقُّ هو السَّرْبُ في الأرض النافذ إلى موضعٍ آخر، والداخل فيه يستربه، وجمع النفق أنفاق، ومنه قول الله عز وجل لرسوله في سورة (الأنعام) ٦ مصحف / ٥٥ نزول):

﴿وَأِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَامًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٣٥).

والنفاق والنَّفَقَةُ جُحْرُ الضَّبِّ والنَّبْرُوع، والمعروف عند العرب أن البربوع إذ يتخذ لنفسه نفقاً في الأرض يجعل لهذا النفق مخرجين أو أكثر، فهو يستطيع أن يهرب من أي واحدٍ منهما، وأخذ هذين المخرجين لا يجعله نافذاً إلى سطح الأرض، بل يكتئمه بمقدار رقيقٍ من التراب، فإذا لحقه الطلُبُ من جهةٍ فر من الجهة الأخرى، ويسهلُ عليه ضربُ المنفذ المستور برأسه ضربةً يسيرةً ينالُ بها التراب الرقيق، فيخرجُ فاراً.

وُسِّمِي العربُ المتَّفَذَّ المستورَ من نَفَقِ اليربوعِ «نافقاء» والمتَّفَذُ المفتوحُ منه «قاصعاء».

وربَّما كانت تسمية المنافق في الدين منافقاً تشبيهاً له بما يفعله اليربوعُ في حيلته هذه التي يَشْتَرُ بها منافذَ هَرَبِهِ.

فتعريف النفاق وفق المعنى الإسلامي: هو إظهار الإسلام باللسان، وأدعاء الإيمان كذباً وزوراً ومخادعةً للمؤمنين، مع إبطان الكفر بكل أركان القاعدة الإيمانية، أو ببعض منها مما يجعل جاحده كافراً، ويدلُّ على النفاق أن يدَّعي الإنسان الإسلام ولا يعمل به، روى ابن جرير عن حذيفة أنه قيل له: ما النفاق؟ قال: الرَّجُلُ يَتَكَلَّمُ بالإسلام ولا يَعْمَلُ به.

وهذا الوصف ينطبق على أقسام من الناس:

* إنَّه ينطبق على من دخل في الإسلام كاذباً بدافع الخوف من المسلمين، أو بدافع الطمع بالمغانم، أو لغرض الإفساد والفتنة والإضرار، أو بغير ذلك من الغايات الدنيوية، أو الغايات الخبيثة الضارة.

* وينطبق أيضاً على من أسلم صادقاً أوَّل الأمر، ثم ارتدَّ في نفسه دون أن يعلن رَدَّته، وبقي متظاهراً بالإسلام، فهذا منافق ذو نفاق طارىء، بعد إسلام لم يكن فيه كاذباً مخادعاً.

* وينطبق أيضاً على من ورث اسم الإسلام ورائة نسيئةً عن طريق آبائه أو أحدهما، ولمَّا بَلَغَ وأذَرَكَ سَبَنَ التكليف جَحَدَ بقلبه أركان القاعدة الإيمانية كُلِّها أو بعضها، وظلَّ محافظاً في الصورة الظاهرة على أنه مُسْلِمٌ مُعَلَّنٌ إسلامه.

إنَّ الإسلامَ لدى هذا الصنف من الناس ليسَ انتماءً إراديّاً، إنّما هو إسلامٌ وراثيٌّ، يُسَايِرُ الواحدُ منهم فيه المجتمع بإطلاق اسم «مسلم» عليه، دون أن يكون في ذاته قد أسلم حقاً بإرادته بعد معرفته الإسلام.

ونظراً إلى أنه يَبْطِنُ الكُفْرُ، إذ يَجْحَدُ أركان الإيمان كُلِّها أو بَعْضَها، أو يَأْتِي أن يكون مسلماً لله ورسوله مطيعاً، فهو منافق.

إنَّه لَا يُرِيدُ أَنْ يَمْسَحَ عَنْ نَفْسِهِ الْأَسْمَ الدِّينِيَّ الَّذِي وَرَثَهُ، مَعَ أَنَّهُ يَعْتَقِدُ عَقَائِدَ مُنَاقِضَةً لِعَقَائِدِ هَذَا الدِّينِ، وَلَوْ أَنَّهُ أَعْلَنَ جُحُودَهُ بِالْقَاعِدَةِ الْإِيمَانِيَّةِ كُلِّهَا أَوْ بَعْضَهَا لَكَانَ كَافِرًا مِنْ أَهْلِ الرَّدَّةِ عَنِ الْإِسْلَامِ.

وَمَا أَكْثَرَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يُطْلَقُ عَلَيْهِمْ فِي الْبَطَاقَةِ الشَّخْصِيَّةِ اسْمُ مُسْلِمٍ، وَهُمْ مِنْ هَذَا الْقِسْمِ !

* وَمِنَ الْمُنَافِقِينَ قَوْمٌ وَرَثُوا النِّفَاقَ عَنْ أَسْرِهِمْ أَوْ بِيَّاتِهِمْ الْخَاصَّةِ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ أَسْرُ وَجَمَاعَاتٍ يَهُودِيَّةٍ تَظَاهَرَتْ بِالْدُخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، وَظَلَّتْ هَذِهِ الْأَسْرُ وَالْجَمَاعَاتُ مُحَافِظَةً عَلَى يَهُودِيَّتِهَا سِرًّا، وَصَارَتْ ذَرَارِيهَا تَرِثُ عَنْهَا النِّفَاقَ، ضَمِنَ خُطَّةُ كَيْدٍ ضَدَّ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ، ذَابَتْ نَفْسٌ طَوِيلٌ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ أَيْضًا أَسْرُ نَصْرَانِيَّةٍ أَوْ مَجُوسِيَّةٍ، دَخَلَتْ فِي الْإِسْلَامِ نِفَاقًا ضَمِنَ خُطَّةُ كَيْدٍ مُشَابِهَةٌ لَخُطَّةِ الْكَيْدِ الْيَهُودِيَّةِ.

* * *

(٢)

النِّفَاقُ سُلُوكٌ مُرَكَّبٌ

إِنَّ أَبْرَزَ مَا فِي النِّفَاقِ أَنَّهُ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ خُلُقِي الْكَذِبِ، عَلَى أَنَّا لَدَى التَّحْلِيلِ نَلَاظِحُ أَنَّهُ سُلُوكٌ مُرَكَّبٌ، يَرْجِعُ إِلَى عَنَاصِرٍ خُلُقِيَّةٍ مُتَعَدِّدَةٍ، فَإِذَا جُمِعْنَا الْجَبْنَ وَالطَّمَعَ بِالْمَنَافِعِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَجُحُودَ الْحَقِّ، وَخُلُقَ الْكَذِبِ، مَعَ قَصْرِ النَّظَرِ، تَوَلَّدَ عَنْهَا فِي سُلُوكِ الْفَرْدِ مَا نُسَمِّيهِ بِالنِّفَاقِ، ثُمَّ يَظْهَرُ نَظِيرُ ذَلِكَ فِي سُلُوكِ الْجَمَاعَةِ حِينَمَا تَكُونُ فِيهَا هَذِهِ الْعَنَاصِرُ الْخُلُقِيَّةُ الْمُنْحَرِفَةُ عَنِ السَّبِيلِ الْمُسْتَقِيمِ، أَوْ تَسْرِي إِلَيْهَا الْعَذْوَى بِالتَّقْلِيدِ، أَوْ تَتَوَارَثُهَا عَنْ أَصُولِهَا تَأْثَرًا بِعَوَامِلِ الْبَيْئَةِ، مِنْذُ النِّشْأَةِ الْأُولَى.

فَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ الْمُنَافِقُ جَبَانًا، وَصَاحِبَ طَمَعٍ شَدِيدٍ بِالْمَنَافِعِ الدُّنْيَوِيَّةِ الَّتِي يَتَرَقَّبُهَا إِذَا هُوَ تَظَاهَرَ بِالْإِسْلَامِ، لَمَا سَلَكَ مَسَلَّكَ النِّفَاقِ، وَلَمَا كَانَ لَهُ وَجْهَانِ: وَجْهٌ مَعَ الْكَافِرِينَ، وَوَجْهٌ آخَرُ يُخَادَعُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَوْجَدَ الْجَرَاءَةَ الْكَافِيَّةَ عَلَى أَنْ يُعْلِنَ جُحُودَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَيَقِفَ صِرَاحَةً فِي صَفِّ الْكَافِرِينَ، لَكِنَّ جُبْنَ الشَّدِيدِ يَمْنَعُهُ مِنْ ذَلِكَ، فَهُوَ يَخْشَى أَنْ يَتَظَاهَرَ بِمَوْقِفِهِ الْعِدَائِيِّ لِلْمُسْلِمِينَ، كَمَا أَنَّ طَمَعَهُ الشَّدِيدَ بِمُشَارَكَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْغَنَائِمِ الَّتِي يَظْفَرُونَ بِهَا مِنْ أَعْدَائِهِمْ يَجْعَلُهُ يَتَظَاهَرُ بِأَنَّهُ مِنْهُ.

فالجبن والطمع مع خلق الكذب المكتسب ومع قصر النظر من العوامل الرئيسية التي يتولد عنها النفاق في السلوك الإنساني.

ولولا أن يكون المنافق جُحوداً للحق كُتوداً، مع نظر قصير إلى الوجود والحياة يجعله يشتبّه بمصالحه ومنافعه القريبة من الحياة الدنيا، لَرَدَّعَهُ إيمانه وحبه للحق عن سلوك مسلك النفاق في الدين.

وذلك لأن الذي يجب الحق، ويكره الجحود، ولا يطيّب له الكُتود، ويكون ذا نظر إلى الوجود والحياة بعيد، فإنه لا ينافق وإن كان جباناً أو شديد الطمع، لأنه سيجد فيما يؤمن به من حق مخاوف ترذعه عن الباطل، ومطامع أجل تجعله يلتزم سبيل الحق والخير، وعندئذ يمتنع سبيل الحق والخير الديني جنبه وطمعه، ولا يبقى لديه منهما ما يترع به إلى النفاق الذي يجعل مصيره يوم الدين، في أسفل سافلين، وفي الدرك الأسفل من النار.

ولولا أن يكون المنافق كذاباً ذا قُدرة فائقة على افتراء الكذب، وذا قُدرة فائقة على تصنع الكذب في ظواهر أعماله، حتى صار خلق الكذب سحجة مكتسبة في نفسه، وشبهها بالشجايا الفطرية تمكناً وعمقاً، ومهارة في السلوك الذي قد لا تبدوا عليه أمارات التصنع بالكذب، لما طوعته نفسه أن يلتزم سبيل النفاق.

وذلك لأن النفاق عملية مستمرة تتضمن تصنع الكذب دواماً أو في معظم الأوقات، في القول والعمل، وهذا أمر لا يستطيع ولا يحسنه إلا كذاب خبيث، ممتنّ للكذب، جريء عليه، وقح في التزامه قادر على أن يتهت الناس في وجوههم، وذلك بأن يفتري عليهم أشياء لم يقولوها ولم يعملوها، وأن يواجههم بها، ويخلف على ذلك الأيمان المغلظة، دون أن يتلجج أو يتلغثم أو يتلثكأ، وعلى مقدار مهارة المنافق في الكذب يكون تعمقه في درك النفاق.

فالنفاق خلق مكتسب مركب، وليس خلقاً بسيطاً، إنه طبخة شيطانية معقدة في نفوس المنافقين.

واخف دركات النفاق أن يتخذ المنافق وجهين: يستعلن بأحدهما، فيرضي بظواهره جماعة المسلمين، كاتماً عنهم الوجه الآخر ويستخفي بالآخر ويتأمر به مع

الكافرين الصُّرَحَاءَ، وهو يُخْبِرُهُمْ فِي السِّرِّ أَنَّهُ مَعَهُمْ، وَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتَظَاهَرَ بِالْإِنْتِصَامِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ لِيُخْدَمَ بِذَلِكَ مَصَالِحُ أَعْدَائِهِمْ، دُونَ أَنْ يَحْذَرُ الْمُسْلِمُونَ مَكَايِدَهُ الَّتِي يُدِيرُهَا ضِدَّهُمْ وَهُوَ ضَمَنُ صَفْوَتِهِمْ، وَهَذَا الْوَجْهُ الَّذِي يُبَسِّرُهُ لِإِخْوَانِهِ الْكَافِرِينَ الشَّيَاطِينِ وَجْهٌ يُسَرُّهُمْ وَيُفَرِّجُهُمْ لِأَنَّهُمْ يَعْتَبِرُونَهُ جَاسُوساً لَهُمْ فِي صَفُوفِ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا يَظْهَرُ بِهِ مِنَ الْإِسْلَامِ إِنَّمَا هُوَ مُخَادَعَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ، بِغِيَّةِ خِدْمَةِ مَصَالِحِ أَعْدَائِهِمْ.

وَأَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ الْمَنَافِقُ الَّذِي يَخَادِعُ الْمُؤْمِنِينَ وَيَخَادِعُ أَعْدَاءَهُمْ مَعاً، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ لَا مِنْ هَؤُلَاءِ، وَلَا مِنْ هَؤُلَاءِ.

وَيُمْكِنُ أَنْ تُسَمَّى هَذَا مَزْدُوجَ النِّفَاقِ، وَيُمْكِنُ أَنْ تُنَمَّلَ لَهُ بِيَهُودِيٍّ تَظَاهَرُ بِالْإِسْلَامِ لِيَخَادِعَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ يَخْلُوَ بِالْمُشْرِكِينَ فَيُبَسِّرُهُمْ بِأَنَّهُ سَيُخْدَمُ مَصَالِحَهُمْ دَاخِلَ صَفُوفِ الْمُسْلِمِينَ مُقَابِلَ مَنَافِعٍ يَرْجُوهَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، ثُمَّ إِذَا خَلَا بِإِخْوَانِهِ الشَّيَاطِينِ مِنَ الْبُيُودِ كَشَفَ لَهُمْ وَجْهَهُ الْحَقِيقِيَّ، وَقَالَ لَهُمْ: إِنِّي مِنْكُمْ، وَإِنِّي أَخَادَعُ مِنْ أَجْلِكُمْ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ الْوَثْنِيِّينَ بِوَجْهَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ.

وَقَدْ يُوجَدُ مَنَافِقٌ مُثَلَّثُ النِّفَاقِ، أَوْ مُرَبَّعُهُ، أَوْ مُخَمَّسُهُ، أَوْ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ.

وَكُلَّمَا كَانَ الْمَنَافِقُ أَقْدَرَ عَلَى التَّلَوُّنِ بِالْأَلْوَانِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَالتَّقَلُّبِ بَيْنَ الْوُجُوهِ الْمُتَضَادَّةِ وَالْمُتَنَاقِضَةِ وَالْمُتَخَالِفَةِ، كَانَ أَقْدَرَ عَلَى أَنْ يَعْمَلَ فِي عِدَّةِ جِهَاتٍ مُتَبَايِنَاتٍ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، وَأَنْ يَنَافِقَهَا جَمِيعاً، وَيَمَكُرَ بِهَا جَمِيعاً.

(٣)

أقسام المنافقين

باعتبار وضعهم عند نشأة نفاقهم

المنافقون ينقسمون باعتبار وضعهم عند نشأة نفاقهم إلى أربعة أقسام:

القسم الأول:

منافقون كانت لهم انتماءات غير إسلامية سابقة لدخولهم الإسلام، كاليهودية، أو النصرانية، أو المجوسية، أو الوثنية، أو الإلحادية.

ثُمَّ دَخَلُوا الْإِسْلَامَ نِفَاقًا بِتَأْثِيرِ دَافِعٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ دَوَافِعِ النِّفَاقِ، وَلِتَحْقِيقِ غَايَةِ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ غَايَاتِ الْمُنَافِقِينَ.

القسم الثاني:

مُنَافِقُونَ كَانُوا مُسْلِمِينَ غَيْرِ كَاذِبِينَ فِي إِعْلَانِهِمُ الْإِسْلَامَ، ثُمَّ ارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ بَرًّا، وَلَمْ يُعْلِنُوا رَدَّتِهِمْ، فَهُمْ كَفَرَةٌ مُرْتَدُّونَ بَاطِنًا، وَيُنَافِقُونَ بِاسْتِيقَاءِ الْإِنْسَابِ إِلَى الْإِسْلَامِ ظَاهِرًا.

القسم الثالث:

مُنَافِقُونَ وَرَثُوا الْإِنْسَابَ إِلَى الْإِسْلَامِ مِنْ أَسْرِهِمْ أَوْ بِيَّتَاتِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ عَلَى سَبِيلِ الْإِنْتِمَاءِ الْإِرَادِيِّ، وَلَمْ يَجْرُؤُوا عَلَى إِعْلَانِ رَفْضِ هَذَا الْإِنْسَابِ، أَوْ رَأَوْا أَنَّ مَصَالِحَهُمْ فِي مَجْتَمَعِهِمْ تَقْضِي بِالمَحَافَظَةِ عَلَى انْتِسَابِهِمْ إِلَيْهِ، وَهُمْ فِي دَاخِلِهِمْ كَافِرُونَ بِعُقَائِدِ الْإِسْلَامِ وَقَوَاعِدِهِ وَمَبَادِئِهِ وَشَرَائِعِ كُلِّهَا أَوْ بَعْضِهَا، فَهُمْ بِسَبَبِ ذَلِكَ مُنَافِقُونَ.

القسم الرابع:

مُنَافِقُونَ وَرَثُوا النِّفَاقَ مِنْ أَسْرِهِمْ أَوْ بِيَّتَاتِهِمُ الْخَاصَّةِ، فَهُمْ بِسَبَبِ هَذَا الْمِيرَاثِ الْخَبِيثِ مُنَافِقُونَ وَأَبْنَاءُ مُنَافِقِينَ.



استخلاص:

يظهر من هذا التقسيم

أَنَّ النِّفَاقَ فِي الدِّينِ نِفَاقٌ أَصْلِيٌّ وَنِفَاقٌ طَارِئٌ

الْأقسام الأربعة للمنافقين التي سبق بيانها تكشف لنا أَنَّ النِّفَاقَ فِي الدِّينِ مِنْهُ مَا هُوَ نِفَاقٌ أَصْلِيٌّ، وَمِنْهُ مَا هُوَ نِفَاقٌ طَارِئٌ.

النِّفَاقُ الْأَصْلِيُّ:

قَدْ تَدْفَعُ الْمَصْلُحَةُ الدِّينِيَّةُ بَعْضَ النَّاسِ إِلَى أَنْ يَنْظَاهِرَ بِالْإِنْسَابِ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَهُوَ غَيْرُ مُؤْمِنٍ بِهِ فِي قَلْبِهِ، فَيَكُونُ مُنَافِقًا مِنْذُ الْمَدَّةِ الْأُولَى لِإِعْلَانِهِ الْإِسْلَامَ، ثُمَّ يَسْتَمِرُّ

على ثقافه، ويتبعه وارث النفاق عنه من أهله وذريته، فهذا هو النفاق الأصلي، الذي لم يُسبق بإسلام صحيح، ونظيره من ينشأ في بيئة مسلمين من أصول مسلمة، إلا أنه منذ بلغ رشده لم يؤمن بالإسلام، لكنه قيل أن يتظاهر بكونه مسلماً تبعاً لأبويه.

النفاق الطارىء:

وقد يُغلِبُ بعض الناس إسلامهم وهم صادقون غير كاذبين، ثم يطرأ الشك على قلوبهم، بعد تعرُّضهم لامتحانات مختلفة، يمتحنُ الله بها صِدْقَ إيمانهم، فيرتدُّون عن الإسلام ارتداداً داخلياً، ويخشون إعلان ردِّهم، ويستمروْنَ على التظاهر بالإسلام، مخافة إجراء أحكام الرِّقَّة عليهم، أو مخافة فوات منافع أو مصالح تأتيهم بوصفهم مسلمين، ومن ذلك خسارتهم مكاتبتهم في مجتمعهم، وتعرُّضهم للذم والنقد والتلويح، إلى غير ذلك من صور الضغط الاجتماعي، فهذا هو النفاق الطارىء الذي طرأ بعد إسلام صادق.

ومن هؤلاء من ينشأ في بيئة مسلمين من أصول مسلمة، وحين بلغ رشده قيل الإسلام صادقاً تبعاً لأبويه، ثم طرأ الشك على قلبه، فارتدَّ عن الإسلام ارتداداً داخلياً ولم يُغلِبْ ردُّه، بل استمرَّ متظاهراً بأنه من المسلمين.

وقد تتكرَّر لدى بعض الناس حركة الدخول في الإسلام والخروج منه، بسبب ما يُعرِّض لتصوراتهم ولنفوسهم، لكن يظلُّ ظاهرهم في مختلف الأحوال مستمراً على أنهم مسلمون، وهؤلاء يقال فيهم: إنهم آمنوا ثم كفروا، ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً.

وقد دلَّ على هذا النفاق الطارىء ما وصف الله به طائفة من المنافقين، وذلك في قوله تعالى في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِذَا آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ جَحَلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغَيْبَ ﴿٧٨﴾﴾

وَذَلُّ عَلَيْهِ أَيْضاً قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (المنافقون) / ٦٣ مصحف / ١٠٤ نزول):

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۖ﴾

فقد أثبت إيمانهم أولاً، وعطف عليه إثبات كفرهم بحرف العطف الذال على التراخي «ثم» فدل على أن كفرهم القلبي كُفْرٌ عارضٌ وليس أصلياً، وسباق الحديث في السورة عن المنافقين.

ووصف الله عز وجل طائفة من المنافقين بالتردد بين الإيمان والكفر أكثر من مرة، فقال تعالى في سورة (النساء) / ٤ مصحف / ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَّزِيكُنَّ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا يَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ۖ﴾ بِشَرِّ الْمُنَافِقِينَ بَأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧٨﴾

وسأني شرح هذه النصوص - إن شاء الله - في مواضعها لدى دراسة النصوص القرآنية المتعلقة بالمنافقين.

* * *

(٤)

أقسام المنافقين باعتبار موقعهم في الكفر

وينقسم المنافقون باعتبار موقعهم في الكفر إلى قسمين:

القسم الأول:

منافقون لهم مذهب معين في الكفر، كاليهودية، والنصرانية، والمجوسية، والشرك، والوثنية، والإلحاد، ونحو ذلك من مذاهب الكفر.

القسم الثاني:

منافقون ليس لهم مذهب معين في الكفر، وإنما هم أصحاب مصالح دنيوية، فهم يتبعونها حيث وجدوها، فلن وجدوها عند أهل اليمين تبعوهم لتحصيلها، وإن وجدوها عند أهل الشمال تبعوهم وانتسبوا إليهم لتحصيلها.

والمناقفون من هذا القسم هم منافقون مذبذبون، لا استقرار لأنفسهم، ولا ثبات لقلوبهم وعواطفهم وآرائهم.

إنهم لا يبتغون مذهباً معيناً من مذاهب الكفر، لكنهم إذا وجدوا مصلحة لهم من مصالح الدنيا لدى غير المسلمين، لم يجدوا مانعاً لديهم من متابعتهم سرّاً، وموازرتهم في تحقيق أغراضهم، ولو كان في ذلك خيانة للمسلمين، الذين هم منهم بحسب الظاهر، ولو كان في ذلك أيضاً هدماً للإسلام الذي يدعون أنهم متتبعون إليه.

وحينما يتابعون سرّاً أو يؤازرون فريقاً من أهل الكفر الذين لهم مذهب معين فيه، فإنهم لا يتابعونهم إيماناً بمذهبهم، وإنما يتابعونهم ابتغاء مصلحة دنيوية يرجونها لديهم.

فهم مذبذبون في مسافة وسطى بين أهل الإيمان وبين الكافرين الذين لهم مذهب معين في الكفر، فلا هم متتبعون إلى أهل الإيمان انتساباً صحيحاً صادقاً، ولا هم متتبعون إلى أهل مذهب معين في الكفر انتساباً صادقاً.

إن مذهب هؤلاء: لا صِلَق في الانتماء، ولا صِلَق في الولاء، والتفاهة سيّد الأخلاق، وأضعف الرفاق، وأشدّ الأنفاق، وأفضل مذهب أن لا يكون للمناق مذهب، فمذهبه حيث يتحقق له من مصالحه وأهوائه وشهواته مطلبه.

وباستطاعتنا أن نقول: إن المناق من هذا القسم له مذهب في الكفر، هو عدم استقرار الرأي والقلب، والتأرجح بحسب أهواء نفسه وشهواتها، فحيث مالت أهواؤه وشهوات نفسه ومصلحته من دنياه مال فكره ورأيه وقلبه.

وهذا القسم من المنافقين لا يعترف لهم بالانتماء والولاء أهل الإيمان، ولا يعترف لهم بالانتماء والولاء أهل الكفر الذين لهم مذهب معين في الكفر، ويتعاملون معهم في حدود ما يحققون لهم من منافع وخدمات ومصالح، وما يستفيدون منهم من أخبار، وما يحصلونه عن طريقهم من معلومات.

إنهم إذا أقبلوا إلى أهل الإيمان مخادعين علم أهل البصيرة منهم أنهم كذّابون قناصو منافع ومطامع، وإذا أقبلوا إلى من لهم مذاهب معينة في الكفر، علموا أنهم

قناصو منافع ومطامع، فتعاملوا معهم على هذا الأساس، واتخذوا منهم أجراء،
أو كلاب صيد لتحقيق أغراض لهم في صفوف المؤمنين المسلمين حقاً.

ولعل المنافقين من هذا القسم هم المقصودون بقول الله عز وجل في سورة
(النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول):

﴿بَشِّرِ الْمُتَفِقِينَ أَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٧٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ
الْمُؤْمِنِينَ يُبْتَغُونَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٧٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ
إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ
إِنَّكُمْ إِذَا فِئْتَهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُتَفِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٨٠﴾ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ
فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ
عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٨١﴾ إِنَّ الْمُتَفِقِينَ يَخِذُّونَ اللَّهَ وَهُوَ خَذِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ
قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨٢﴾ مُدْبِدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ
وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٨٣﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَتَّخِذُوا
الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا إِلَهُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مَيْمَنًا ﴿١٨٤﴾
إِنَّ الْمُتَفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٨٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا
وَأَصْلَحُوا أَوَّعْتُمْ بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا إِلَيْهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي
اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٨٦﴾

هذا النص مشروح شرحاً تحليلياً وافياً في النص (١٨) من نصوص الدراسة
القرآنية للمنافقين، الآتية في القسم الثاني من هذا الكتاب.

وللمناسبة هنا نلاحظ أن الله عز وجل يكشف فيه صفات المنافقين المذبذبين
المتردد بين المؤمنين والكافرين، ابتغاء تحصيل المطامع والمنافع من كل من
الفريقين المتناقضين.

ويحدد الله عز وجل في هذا النص الموقف الذي يجب أن يتخذه المؤمنون من
الكافرين.

* إنه موقف لا يسمح بالمجاملة في قضايا الدين، ولا يسمح بإقرار الاستهزاء بآيات الله والتكذيب بها، بإقرار الكُفْر كُفْرًا، وهو مع ادعاء الإيمان والإسلام نفاق.

* وهو موقف لا يسمح للمسلمين بأن يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ابتغاء الاعتزاز بهم، والتقوي بقوتهم، فهو لا يكون إلا ضد مقتضيات الإيمان والإسلام، أو ضد مصالح جماعة المؤمنين، وهو مظهر من مظاهر النفاق.

ولما كان المنافقون والكافرون مشتركين في الكُفْر بالحق الذي جاء من عند الله، كان من العدل أن يجمع الله المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً.

ومن صفات المنافقين المذبذبين بين المؤمنين والكافرين التي كشفها الله عز وجل في هذا النص الصفات السبع التالية:

الصفة الأولى:

أَنَّهُمْ يَتَرَبَّصُونَ كَمَا يَتَرَبَّصُ الْقَنَاصَةُ مَا يَرِيدُونَ صَيْدَهُ، فَإِنْ كَانَ لِلْمُؤْمِنِينَ فَتْحٌ مِنْ اللَّهِ عَلَى عَدُوِّهِمْ، قَالُوا لِلْمُؤْمِنِينَ:

﴿أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ﴾.

فهم يطالبون في هذا بنصيبتهم من الغنائم.

وإن كان للكافرين نصيب من الانتصار على المسلمين لحكمة أرادها الله عز وجل، قالوا للكافرين:

﴿أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾:

أي: ألم نحيط بكم إحاطة حماية لكم ونحن في صفوف المؤمنين، وبذلك منعناكم وحميناكم من أن يتتصر المؤمنون عليكم؟

فهم يطالبون الكافرين في هذا بنصيبتهم من الغنائم التي أصابوها من المؤمنين، أو يطالبون بأن يكونوا أهل مودتهم، ومحل عنايتهم ورعايتهم، وأصحاب حظوة لديهم.

الصفة الثانية:

أَنَّهُمْ إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى، يَرَاوُونَ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا، لِأَنَّهُمْ لَا يُؤَدُّونَهَا

عن عقيدة وإيمان، وإنما يؤدونها خشية أن ينكشف نفاقهم بتركها.

الصفة الثالثة:

أنهم لا يذكرون الله في كل أحوالهم إلا قليلاً، ويندخل في هذا الذكر القليل ما يراوون به أنام المسلمين المؤمنين، وما قد يكون منهم من دعاء الله إذا تعرضوا لمطلب من مطالب دنياهم، أو تعرضوا لمأزق حرج، ولم يجدوا سبباً مادياً ميسوراً يُحقّق لهم مطلبهم، أو ينقذهم من مأزقهم، وربما ذكروا الله وسألوه أن يحقّق لهم ما يحبون، دون أن يكون اعتقادهم به اعتقاداً صحيحاً جازماً، ويكون حالهم حينئذٍ كحال من يلتبس معرفة مستقبله عن طريق المنجمين، وقارئي خطوط الأكتف.

الصفة الرابعة:

أنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وسبب ذلك أنهم يَتَنَوَّنُون عِنْدَهُمُ الْبُرْءَ، أي: القوة الغالبة، وهم يجهلون أن القوة كلها هي لله عز وجل وحده لا شريك له.

الصفة الخامسة:

أنهم يجالسون الكافرين ويسمعون منهم الكُفْرَ بآيات الله والاشتهاء بها، فلا يُنْكِرُونَ عليهم، ولا يفارقون مجالسهم، ويخالفون أمر الله في ذلك، فقد أنزل على المسلمين في القرآن ما يتضمّن:

﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيَسْتَهْزِئُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾.

هذا البيان في هذا النص يُشير إلى ما سبق أن أنزله الله في العهد المكي، وهو قول الله عز وجل في سورة (الأنعام / ٦ مصحف / ٥٥ نزول):

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

فأضاف النص المدني الذي جاء مؤكداً وموئباً في سورة (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول) بيان أن إقرار الكفر كُفْرٌ، والرضا بالكفر كفر، والمشاركة في مجالس الكفر

عن رضا، أومع القدرة على الإنكار أو المفارقة كُفر، فقال الله عز وجل فيه:

﴿إِنَّكَ إِذَا مِثْلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُتَفِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ۝﴾

فإبان أنهم مثلهم في الكُفر، وأن عملهم هذا يندمجهم بالنفاق.

وعلى الرغم من هذا التحذير الشديد فإن المنافقين يجالسون الكافرين، ويسمعون منهم الكُفر بآيات الله، والاستهزاء بها، فلا ينكرون، ولا يفارقون مجالسهم، لذلك فحكمهم مثل حكمهم، وهم معهم في جهنم.

الصفة السادسة:

أنهم يتذبذبون بين المؤمنين والكافرين يظنون أنهم يخادعون الله، أي: يخادعون المؤمنين الذين هم حزب الله.

لكن الله عز وجل يمهلهم ويُعطي لهم، حتى ينزل بهم عقابه العادل، وبذلك تكون مخادعتهم مردودة عليهم، فما يحفرونه من حفر للمؤمنين يسقطهم الله فيها.

إذن: فهم المخدوعون لا الخادعون، فجاء في النص:

﴿إِنَّ الْمُتَفِقِينَ يَخْدِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ۝﴾

أي: يمد لهم في الحياة الدنيا، فيحسبون أنهم قد ظفروا بما أرادوا، لكن الله عز وجل قد أعد لهم انتقاماً عادلاً وعقاباً أليماً.

الصفة السابعة:

أنهم ليس لهم رأي ثابت لا في جانب الإيمان، ولا في جانب الكفر، بل هم مترددون، يتقلبون في المبادئ حسب تقلب أهوائهم وشهواتهم.

وهذا الصنف المتردد من الناس له حالتان:

* فهو إما أن يتردد بين الإيمان والكفر، فيؤمن تارة ثم يكفر، ثم يؤمن ثم يكفر، وهكذا يتقلب كما تتقلب دوافع نفسه، ودواعي أهوائه وشهواته.

* وإما أن يتذبذب ويتأرجح نفسياً في المسافة الوسطى بين الإيمان والكفر، ثم يلجأ إلى المصالحة والمقاسمة بين الطرفين المتناقضين، فيعطي علانيته لجماعة

المسلمين، ويُعطي برة لأوليائه من الكافرين، ليستفيد من كل منهما، وليحمي نفسه من بقعة كل منهما.

ولما كان هذا الصنف من الناس عرضة لهاتين الحالتين، جاء قبل هذا النص الكاشف لبعض صفات هذا الصنف من المنافقين، قول الله عز وجل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا لَّيَكُنِيَ اللَّهُ لِيَعْفَرَ لَهُمْ وَلَا يُهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾.

وأتبع هذه الآية بقوله:

﴿بَشِيرَ الْمُتَنَفِّقِينَ إِنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

إن من الواضح أن التردد بين الإيمان والكفر يدل دلالة واضحة على أن صاحبه غير ذي رأي ثابت، وأن مفهوماته في الحياة مفهومات خاضعة لتقلب أهوائه، وأن مراكز عقائده العنونة في أيدي شهوته، فإذا بدا له أن ما يهوى ويستهي يتحقق في جانب الإيمان آمن، وإذا بدا له أن الذي يهواه ويستهي يتحقق له في جانب الكفر كفر.

وهكذا، فقلبه قلب، ونزقه خلب، إذا أرادت أن تقبض عليه وهو في جانب الإيمان بما يخالف هواه تغلت إلى جانب الكفر، وانقلبت عقيدته، وكذلك يفعل وهو في جانب الكفر.

من أجل ذلك لا يقبل الله عز وجل إيمان من عرف منه التردد بين الإيمان والكفر، ولا يغفر الله له، لأن إيمانه حين يؤمن إيمان هوى، وأتباع لمصلحة دنيوية، لا إيمان مستسلم مطمئن لما عرف من الحق.

روي عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه قال: يُستتاب المرتد ثلاثاً، ثم تلا هذه الآية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا لَّيَكُنِيَ اللَّهُ لِيَعْفَرَ لَهُمْ وَلَا يُهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾.

إن هذا الصنف من الناس:

* إذا ازدادت جرأته، وَقَلَّ ذِكاؤُهُ، وَعَظُمَتْ وَقَاحَتُهُ، تَرَدَّدَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ، فَكَانَ مُتَقَلِّبًا لَا ثَبَاتَ لَهُ.

* وَإِذَا ضَعُفَتْ جُرْأَتُهُ، وَكَثُرَتْ حَيْطَتُهُ، وَقَلَّتْ وَقَاحَتُهُ، وَهَذَا ذِكاؤُهُ إِلَى أَنْ يَخْشَى مِنْ مَعْرِةِ التَّقَلُّبِ، تَذَبُّدَبَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ، وَتَارَجَحَ نَفْسِيًّا بَيْنَ النَقِیْضَيْنِ، وَاسْتَرْضَى هَذَا الطَّرْفَ بوجهِهِ، وَاسْتَرْضَى الْآخَرَ بِوَجْهِ آخَرَ، وَأَعْطَى هَذَا عِلَانِيَتَهُ، وَأَعْطَى ذَلِكَ سِرَّهُ، وَحَاولَ أَنْ يَنْفِي بِذَلِكَ عَنْ نَفْسِهِ مَعْرِةَ التَّقَلُّبِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى ضَعْفِ الرَّايِ، وَضَعْفِ الْإِرَادَةِ، وَظَنَّ أَنَّ أَسْلُوبَهُ هَذَا هُوَ الْأَسْلُوبُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى ذِكاائه وَبِرَاعَتِهِ وَحُسْنِ تَخْلُصِهِ.

وَمِنْ هَذَا التَّحْلِيلِ يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ الْمُتَرَدِّدَ الْقُلُوبَ، وَالْمُنَاقِقَ الْمُتَذَبِّدَ، هُمَا قِسْمَانِ لِصِنْفٍ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ، وَلَيْسَا صِنْفَيْنِ أَسَاسِيَّيْنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

* * *

(٥)

دوافع النفاق

سلوك الكائن الحيّ مظهر من مظاهر دافعٍ نَفْسِيٍّ أَوْ أَكْثَرَ لَدَيْهِ دَفْعُهُ لَاتَخَاضَ هَذَا السُّلُوكَ.

وَالنَّفَاقُ سُلُوكٌ فِي الْحَيَاةِ تَتَّخِذُهُ فِتْنَةٌ مِنَ النَّاسِ مَتَأَثِّرَةٌ بِدَوَافِعِ نَفْسِيَّةٍ لَدَيْهَا.

وَبِالتَّأَمُّلِ نَتَكَشَّفُ لَنَا الدَّوَافِعُ النَّفْسِيَّةُ التَّالِيَةُ، الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ دَوَافِعُ تَدْفِعُ الْإِنْسَانَ غَيْرَ السُّوْبِيِّ لِيَسْلُكَ مَسَالِكَ النَّفَاقِ:

الدافع الأول:

الطَّمَعُ بِالْمَنَافِعِ الدُّنْيَوِيَّةِ/الَّتِي يَرْجُو الْمُنَافِقُ تَحْصِيلَهَا بِالِانْتِسَابِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، وَبِإِعْلَانِهِ قَبُولَ مَبْدَأِ الْإِسْلَامِ، وَإِعْلَانَهُ الدَّخُولَ فِيهِ.

وَلَا يَدَّ أَنْ يَكُونَ مَعْلُومًا أَنَّهُ لَا يَكْفِي الطَّمَعُ وَحْدَهُ حَتَّى يَسْلُكَ الْإِنْسَانُ مَسَالِكَ النَّفَاقِ، بَلْ لَا يَدَّ مِنْ أَنْ يَقْتَرِنَ الطَّمَعُ بِانْحِرَافَاتٍ خَلْقِيَّةٍ تَتَوَلَّدُ مِنْ اجْتِمَاعِهَا ظَاهِرَةُ النَّفَاقِ، كَالْكَذِبِ، وَالْخِيَانَةِ، وَالْغَدْرِ، وَالْجَبْنِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ جُذُورِ أَخْلَاقِ الْمُنَافِقِينَ.

الدافع الثاني:

الخوف على نفسه أو ماله أو مصالحه الدنيوية، إذا بقي معلناً كفره بالإسلام وجحوده لعقائده وقواعده.

ولا يكفي هنا أيضاً الخوف وحده، حتى يسلك الإنسان مسالك النفاق، بل لا بد من أن يقترن الخوف بانحرافات خلقية تتولد من اجتماعها ظاهرة النفاق، كما سبق في دافع الطمع.

الدافع الثالث:

ابتغاء الكيد ضد الإسلام وجماعة المسلمين، عن طريق إعلان الدخول في الإسلام، ثم العمل على التخريب والهدم من داخل صفوف المسلمين المؤمنين، مع الشعور بالأمن والسلامة وغفلة الرقابة.

ولا يكون هذا الدافع إلا عند عدو بالغ العداوة يريد هدم الإسلام، والإفساد بين المسلمين، وتوهين قواهم، أو لدنى مستأجر لهذه الغاية بما يجب من مال، أو شهوات، أو جواهر، أو سلطان، أو لدنى مدفوع بوسائل الترغيب والترهيب، أو لدنى مسلوب الإرادة من قبل منظمات شيطانية خبيثة، تدفعه للنفاق، حتى تستغله لغاياتها وأغراضها الإجرامية الخبيثة.

الدافع الرابع:

التعصب لاسم «الإسلام» الذي يتسبب إليه تبعاً لقومه أو عشيرته، وكرهيته إعلان الخروج عليهم، ومخالفتهم.

وهو في قلبه لا يؤمن بهذا الدين، بل يكفر به كُفراً كلياً، أو كُفراً جزئياً.

ثم قد يكون ذا عقيدة أخرى يعتقد بمقتضاها مذهباً آخر غير الإسلام، مما يتناقض معه، كالماركسية بمفهومات المادية الجدلية، والقوموية القائمة على الكفر بالله واليوم الآخر، والعلمانية الجاحدة للدين ولما جاء فيه، والكمادية الملحدة وفق مفهومات الإلحاد الغربي.

وقد يكون غير ذي عقيدة خاصة، بل هو من الذين يتبعون في الحياة أهواءهم

وشهواتهم أَنى وَجَدُوهَا، وَلَا يُرِيدُونَ أَن يُفَكِّرُوا فِي آيَةِ عَقِيدَةٍ مِنَ الْعَقَائِدِ حَوْلَ الْكُوفِ وَالْحَيَاةِ وَالْمُنْشَأِ وَالْمَصِيرِ.

* * *

(٦)

أقسام المنافقين باعتبار غاياتهم ودوافعهم

ينقسم المنافقون باعتبار دوافعهم من النفاق، وغاياتهم التي يروُمون الوصول إليها من سلوك مسلك النفاق، إلى أربعة أقسام:

القسم الأول:

المنافقون الذين نافقوا طمعاً في الحصول على منافع ومصالح دنيوية يرجونها بانتسابهم إلى الإسلام وإعلانهم أَنهم مسلمون.

(١) فمن هؤلاء أعراب نافقوا إِيَّانَ امتداد الإسلام وانتشاره وكثرة فتوحاته، وَتَذَقُّ الغنائم على المسلمين من كلِّ جهة، وقد دخلوا في الإسلام طمعاً في أن يشاركوا المسلمين فيما يصيبون من غنائم، وفي أن يكون لهم نصيبٌ من الأموال التي أخذت تندقُّ على المسلمين.

(٢) ومن هؤلاء تُجَارَ دخلوا في الإسلام نفاقاً من جهاتٍ شتى من العالم، ليكون لهم مجالات تجارية واسعة في العواصم الإسلامية، التي أخذت تزدهر بالوان الحضارة والثقافة والرقي المدني.

(٣) ومن هؤلاء طالبو حكم وسلطان، رأوا تعاظم مجد المسلمين، وامتداد سلطانهم في الأرض، فطمعوا في أن يكون لهم نصيب من الحكم والسلطان فدخلوا في الإسلام نفاقاً، وَتَسَلَّلُوا إلى داخل صفوف المسلمين.

وعلى سُلَمِ النِّفاقِ الماكر، وبحيلة استرضاء جماهير المسلمين، واصطياد أفرادٍ منهم في غفلاتهم وطية قلوبهم وصفاء سريرتهم رُبُّما وصلوا إلى ما كانوا يطمعون فيه.

وربَّما أثروا بِخُبْثٍ على بعض أهل الأهواء والشهوات، فاتخذوهم مطايا حملتهم إلى المراكز التي كانوا يطمعون في أن يصلُّوا إليها.

(٤) ومن هذا القسم فريق ورثوا الانتساب إلى الإسلام، وهم غير مؤمنين به، أو ارتدوا بعد إيمان به، واستبقوا بنسبتهم الظاهرة إلى الإسلام، ليحافظوا على نظام ومنافع نانيهم إذا كانوا في أقوامهم مسلمين.

ويلاحظ أن هذا القسم من المنافقين الطامعين له أمثلة واقعية كثيرة، في كل بلاد المسلمين، وفي جميع عصور التاريخ الإسلامي، ويوجد في واقعنا المعاصر منها أعداد جمة لا حصر لها، منبئة في كل موقع من مواقع المسلمين، وفي كل جماعة/مبشة أو منظمة من منظماتهم وهيئاتهم وجماعاتهم.

القسم الثاني:

المنافقون الذين نافقوا خوفاً على أنفسهم أو أموالهم أو مصالحهم النبوية المختلفة، أو زعاماتهم في أقوامهم الذين تخلوا عنهم وأسلموا.

(١) فمن هؤلاء المنافقين عبد الله بن أبي ابن سلول، رأس منافقي المنبة في عهد الرسول ﷺ.

وكذلك الذين كانوا معه من المشركين، الذين دخلوا في الإسلام نفاقاً من أهل المدينة.

(٢) ومن هذا القسم فئات دخلت في الإسلام نفاقاً إبان الفتح الإسلامي الواسع، ليحموا أنفسهم وأموالهم ومصالحهم المختلفة، وكانوا محاربين أعداء للمسلمين، وكان منهم أصحاب زعامات في أقوامهم فأسلموا نفاقاً ليحافظوا على زعاماتهم ومكاناتهم الاجتماعية في أقوامهم الذين أسلموا إيماناً وتصديقاً، وحرماً على النجاة يوم الدين، ورغبة في الظفر بروضان الله ودخول جنته.

ومن هذا القسم فريق ورثوا الانتساب إلى الإسلام، وهم غير مؤمنين به، أو ارتدوا بعد إيمان، ومنعهم من إعلان كفرهم الخوف على أنفسهم أو أموالهم أو مصالحهم.

القسم الثالث:

المنافقون الذين نافقوا ليكيدوا الإسلام وهم متسبون إليه، وليكيدوا المسلمين وهم ضمن صفوفهم يتظاهرون لهم بالأخوة والولاء، وهم في الحقيقة مشاقون أعداء،

لا يألون المؤمنين خبالاً، إفساداً لمجتمعهم، وتهديماً لأبنيتهم وحصونهم ومعقلهم، وتحريضاً لدينهم، وتلاعباً في سياستهم، وتفريقاً لصفوفهم، وتمزيقاً لوحدهم، وتضليلاً لمن يستطيعون تضليله منهم، واستدراجاً لقادتهم إلى المزالق ومواطن الزلل، وتربصاً بالمسلمين المؤمنين أن تدور عليهم الدوائر حتى يَنْقُضُوا عليهم من مأمهم، مظاهرين ومناصرين أعداءهم المجاهرين بعدوانتهم لهم.

(١) فمن هؤلاء منافقو يهود المدينة في عصر الرسول ﷺ الذين دخلوا في الإسلام نفاقاً، كيداً، وابتغاء للإفساد وإثارة الفتن، والمكر بالمسلمين والرسول، وابتغاء تحريف الإسلام وإفساد مفهوماته، والكذب على الله والرسول، وإدخال الإسرائيليات في تفسير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، مهما سنحت لهم الفرصة لذلك.

(٢) ومن هؤلاء «عبد الله بن سبأ» المشهور «بأبى السوداء» وهو من يهود اليمن، دخل في الإسلام نفاقاً في عهد عثمان رضي الله عنه، وكاد الإسلام والمسلمين أيما كيد، وأثار الفتنة على عثمان حتى انتهت بمقتله، وبذر بزور تأليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعمل على شق صفوف المسلمين بدوافع سياسية، ووضعت لها يدٌ اعتقادية كُفْرِيَّة^(١).

(٣) ومن هؤلاء «ميمون بن ديسان القذاح» وهو جبرٌ يهوديٌ تظاهر بالإسلام نفاقاً، واتصل في السلمية من بلاد الشام بـ «إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب» واندس في شيعته، وتظاهر بالمحبة والخدمة والولاء، ليُحَكِّمَ مكيدته، ثم ظهر في الكوفة سنة ٢٧٦ هجرية وأسّس مع «حمدان قرمط» مذهب الباطنية، الذي تكوّنت منه فرقة ملحدة مرتدة، كادت الإسلام والمسلمين كيداً كُباراً في التاريخ الإسلامي، وأنزلت بالمسلمين بلاءً عظيماً^(٢).

(١) في القسم الثالث من هذا الكتاب تفصيل فتنه.

(٢) في القسم الثالث من هذا الكتاب تفصيل لطرف من فتنه، وفي كتاب «مكايد يهودية عبر التاريخ» تفصيل مطوّل لفتن القرامطة في التاريخ المنسوين «لحمدان قرمط» وهم في الحقيقة أتباع «ميمون القذاح».

(٤) ومن هؤلاء فريق من يهود الأندلس، وذلك أنه لما سقطت الدولة الإسلامية، في أيدي نصارى الإسبان بمساعدة المنافقين المندسين ضمن صفوف المسلمين، لم يستطع النصارى الإسبانىون الشديديو التعصب، الذين استولوا على الأندلس بعد انحسار الدولة الإسلامية عنها، أن يتحملوا وجود مسلمين أو يهود تحت حكمهم، بدافع ضيق أفقهم، وضيق نفوسهم وشدة تعصبهم لنصرانيتهم، ونقضوا عهودهم ووعودهم السابقة.

ثم أخذوا يكرهون الناس على أن يتنصروا، وإلا كان مصيرهم الإبادة الجماعية، أو الفرار بدينهم، إن وجدوا إلى الفرار سبيلاً، وكان هذا على خلاف العهد والوعود التي كانوا قد قطعوها على أنفسهم حين تسلموا من المسلمين مقاليد الحكم.

وهاجر فيمن هاجر من الأندلس بسبب ذلك أقليات يهودية كانوا فيها، وفريق من هؤلاء اليهود هاجروا إلى المغرب الإسلامي واستوطنوا فيه، وتظاهر بعضهم بالدخول في الإسلام ابتغاء الكيد والفتنة، وفريق آخر من هؤلاء اليهود هاجروا إلى تركيا، واستوطنوا فيها، ثم تظاهر فريق آخر من هؤلاء بالدخول في الإسلام، تبعاً لقائدهم «سباتاي سيفي» -أوزيغي- الذي ادعى فيهم أنه المسيح المنتظر، وعرف هؤلاء في تركيا باسم «الدونمة»^(١). ثم كان من هؤلاء المنافقين كيد كبير للإسلام والمسلمين في تركيا وسائر العالم الإسلامي، وكانوا السبب في إسقاط الخلافة الإسلامية، وإقامة العلمانية الكافرة، وكان منهم مصطفى كمال أتاتورك، وبسببهم مع الصهيونية العالمية، والصليبية الغربية تمت تجزئة الدولة الإسلامية، ودخل الاستعماريون بلاداً عربية ما كانوا يطمعون في أن يستعمروها.

(٥) ومن هذا القسم منافقون آخرون من نصارى ومجوس وغيرهم، دخلوا في الإسلام نفاقاً، ليمكروا به وبالمسلمين، وليكيدوها كيداً عظيماً.

(٦) ومن هذا القسم فريق ورثوا الانتساب إلى الإسلام، ولكن لعبت بأفكارهم ونفوسهم مكابد أعداء الإسلام، فكفروا، إلا أنهم أخفوا كفرهم كما أوصاهم

(١) في القسم الثالث من هذا الكتاب تفصيل عن هذه الفقرة المنافقة.

شياطينهم، ليكيدوا الإسلام وجماعة المسلمين، وهم بحسب الظاهر جزء من المسلمين، ومن سلااتهم.

القسم الرابع:

المنافقون الذين ورثوا الانتساب إلى الإسلام، لكنهم غير مؤمنين به، وربما تيسر لهم سبيل التخلص من هذه النسبة، إلا أن دافع تعصبهم لقومهم وأهلهم جعلهم يحافظون على مظهر الانتساب إلى الإسلام.

فهم متسبون إلى جماعة المسلمين على سبيل العصية لأهلهم وذويهم وقومهم، وليسوا متسبين إلى جماعة المسلمين إيماناً بالإسلام، وتصديقاً لما جاء فيه من عقائد وقواعد وشرائع وأحكام.

فهؤلاء منافقون في الدين، متعصبون للقوم.

ويوجد كثير من هؤلاء في واقع المسلمين المعاصر، عصر الإلحاد، والردة، والزيف المادي.

وكثير من هؤلاء هم من الذين لعبت بأفكارهم ونفوسهم مكائد أعداء الإسلام، عن طريق الثقافات والعلوم المندوسة بأفكار الإلحاد والمادية الخالية من الإيمان بالله واليوم الآخر، أو عن طريق المنظمات الكافرة الملحدة التي تستدرج المتسبين إليها إلى الفسق والفجور والكفر البواح.



(٧)

درجات النفاق

كما أن الكفر درجات بعضها أشفل وأخس من بعض، كذلك النفاق درجات بعضها أشفل وأخس من بعض.

وتتناسب درجات النفاق تسقلاً ورجةً وانحطاطاً مع درجات الكفر، ويضاف إلى ذلك ما يحمله المنافق من ابتغاء الكيد ضد الإسلام والمسلمين، والإضرار بعقيدتهم، وإفساد شرائع الإسلام وأحكامه وتشريعاتها، والإضرار بجماعة المسلمين ودولتهم،

أو خدمة عدوهم في تنفيذ مخططاته داخل الأمة الإسلامية، مُستخِياً الكذب والخيانة والمخادعة والمكر السيء، ومُستغلاً ثقة المسلمين به.

فالمنافق الطامع بالمنافع التي تأتيه من قبل المسلمين، أو الخائف على نفسه أو ماله أو أهله، أهونُ شراً، وأخفُ ضرراً، من المنافق الذي ينافق وهو يُضجرُ الكيد ضد الإسلام والمسلمين، ويحتال بمختلف الوسائل للإضرار بهم، وإفساد دينهم، وتدمير دولتهم.

وشراً منه من كان قائداً يُنظّم منظّمة نفاق، ويضع لها مبادئ الكفر، وخطط المكر والكيد والإفساد، ويوجّه حركتها، ويقود جيش الفتنة والشر في الظلمات.

على أن النفاق كله شرٌ من الكفر، وأشوأ منه، وأكثر منه خبثاً وضرراً.

هذا هو النفاق في أصل الدين، وهو النفاق الأكبر، وهو الذي يكون صاحبه كافراً في حقيقة حاله، منتسباً إلى الإسلام في ظاهره.

* * *

(٨)

النفاق الأصغر

ويوجد نفاق لا في أصل الدين، وصاحبه لا يكون كافراً خارجاً عن الإسلام في حقيقته، بل يكون عاصياً، أو فاسقاً، أو مُخبطاً بنفاقه عمله الذي هو من أعمال الطاعة لله، أو نحو ذلك، وباستطاعتنا أن نسمي هذا النوع من النفاق «النفاق الأصغر». فكلُّ من يُظهر خلاف ما يَبيّن ليُخادع الناس بما يُظهر خداعاً لم يأذن به الله، أو ليتوسّل بذلك إلى ما لم يأذن به الله من الغايات، وكان ذلك في أمورٍ لا تمسُّ أصل الدين وعقائده، فهو منافق نفاقاً أصغر.

ويناء على هذا التحليل للنفاق الأصغر يتضح لنا أن من يُرائي الناس بفعل الأعمال الصالحة، ليُثبّوا به في أمور دنياهم، أو ليُعظّموه، أو ليُكرّموه من أجل صلاحه وتقواه، هو منافق من مستوى هذا النفاق الأصغر، ويُطلق عليه اسم «مُراءٍ»

والمراثي هو الذي يُري الناس من مظاهر أقواله أو أعماله ما يَدُلُّ على غَيْرِ حقيقته التي يُحاول أن يخفيها عن الناس .

ومن يكذب على الناس فَيُرْضِيهِمْ بأكاذيبه ليخدعهم ، ولينال بالكذب ثقتهم ، ثم يَغْدُرُ بهم ، هو أيضاً منافقٌ من مستوى النفاق الأصغر .

ومن يتظاهر بالفقر والمسكنة ليستدِرَّ عطف الناس عليه ، وهو في ذاته مخادع كذاب ، ليس بفقير ذي حاجةٍ حقيقية ، هو منافق من مستوى النفاق الأصغر .

ومن يتظاهر بالودِّ والمحبة وهو يُضمر العداوة ، وغرضه من ذلك مخادعة من يتظاهر له ليكبه ، أو يُشَقِّقَ به ويأمن له ، فيعمل ما لا يُريد وهو آمِنٌ من جهته ، هو أيضاً منافقٌ كذابٌ من مستوى النفاق الأصغر .

وهكذا إلى صور كثيرة لا نكاد نُحصِرُ .

والحيلة الكبرى للمنافق هي الكذب في القول ، والكذب في ظواهر الأعمال ، وغرضُ المنافق من هذا الكذب في القول والعمل مخادعةُ الناس واستدراجهم إلى الثقة به ، فيأتمنونه على أموالهم ، أو أعراضهم ، أو أسرارهم ، أو عهودهم ، ويصدقون وعوده وعهوده .

فإذا خان فيما ائتمنوه عليه كانت خيانتُه استثماراً لنفاقه ، وحين تنكشف خيانتُه ، وينكشف غَدْرُه ونقضه لعهدِه وإخلافه في وعده ، يحاول أن يَسْتُرَ نفسه بالمخاصمة الفاجرة ، والأيمان المغلظة الكاذبة .

وهكذا تَجْتَمِعُ في المنافق في معظم حالات نفاقه خمس خصال هي من قبائح الصفات ، وهي :

(١) الكذب في القول والعمل .

(٢) إخلاف الوعد .

(٣) الغدر بنقض العهد .

(٤) خيانة الأمانة .

(٥) الفجور في المخاصمة .

وهذه الخصال الخمس القبيحة قد جاء بيانها فيما صحَّ عن الرسول ﷺ ، وفيما

يلي بيان ما جاء عن الرسول حول هذه الصفات :

• روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :

« آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اتَّجِنَ خَانَ . »

وفي رواية : « وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ . »

وفي رواية : « وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ . »

• وفي رواية صحيحة الإسناد على شرط مسلم عن أبي هريرة ، أن النبي ﷺ

قال :

« مِنْ عَلَامَاتِ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اتَّجِنَ

خَانَ . »

• وروى النسائي والبرزأ وغيرهما بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود ، عن

النبي ﷺ ، قال :

« آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اتَّجِنَ خَانَ . »

• وروى أبو يعقوب عن انس ، بإسناد قبل فيه : إنه حسن ، أن رسول الله ﷺ

قال :

« فِي الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ - وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ - : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ،

وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اتَّجِنَ خَانَ . »

• وروى البخاري ومسلم وأحمد والترمذي والنسائي عن عبد الله بن عمر

رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« أَزْبَعَ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانُ مُنَافِقًا خَالِصًا : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا

عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ ، فَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَذْهَبَهَا . »

• وروى الإمام أحمد والبيهقي في الشعب وابن نصر وأبو الشيخ وابن مردويه

عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال :

«إِنَّ لِلْمُنَافِقِينَ عَلَامَاتٍ يُعْرِفُونَ بِهَا، تَجِثُّهُمْ لَعْنَةُ، وَطَعَامُهُمْ نَهْمَةٌ، وَغَنِيمَتُهُمْ غُلُولٌ، لَا يَقْرَبُونَ الْمَسَاجِدَ إِلَّا مَهْجَرًا (أي: بَعْدَ طُولِ غِيَابٍ) وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا دُبْرًا، مُسْتَكْبِرِينَ، لَا يَأْلَفُونَ وَلَا يُؤْلَفُونَ، حُسْبُ بِاللَّيْلِ (أي: يَسْقُطُونَ نِيَامًا كَالْحَشَبِ فَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ) سُحْبُ بِالنَّهَارِ (أي: يَكْتُرُونَ الصِّيَاحَ وَالضَّجِيجَ مِنْ أَجْلِ دُنْيَاهُمْ وَلَا تَهْدِيبَ لَدِيهِمْ)».

✽ وعن سعد بن منصور في سننه، عن سعيد بن المسيب مرسلًا، عن النبي ﷺ:

«آيَةُ بَيْنَا وَبَيْنَ الْمُنَافِقِينَ شَهْدُ الْعِشَاءِ وَالصُّبْحِ لَا يَسْتَطِيعُونَهُمَا».

وعن الصحابيِّ أَمَامَةِ صُدِيِّ بْنِ عَجَلَانَ الْبَاهِلِيِّ أَنَّهُ قَالَ:

«الْمُنَافِقُ الَّذِي إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اتَّخَذَ خَانَ، وَإِذَا غَنِمَ غُلٌّ، وَإِذَا أَمَرَ عَصَى، وَإِذَا لَقِيَ جَبُنَ، فَمَنْ كُنْ فِيهِ فَيَبِغِ النِّفَاقُ كُلَّهُ، وَمَنْ كَانَ فِيهِ بَعْضُهُنَّ فَيَبِغِ بَعْضُ النِّفَاقِ».

هذا الحديث موقوف على أبي أَمَامَةِ الْبَاهِلِيِّ، وبعضه ثبت في المرفوع الصحيح، أما كون المنافق إذا غَنِمَ غُلٌّ (أي: أَخَذَ مِنَ الْغَنَائِمِ قَبْلَ تَوْزِيعِ الْإِمَامِ أَوْ الْقِيَادَةِ الْمَفُوضَةِ بِذَلِكَ لَهَا) وَإِذَا أَمَرَ عَصَى، وَإِذَا لَقِيَ جَبُنَ، فهي من صفات المنافق دون شك لأنها من لوازم النفاق، وتدلُّ صفاتُ المنافقين في القرآن عليها.

أقول:

أما كون من اجتمعت فيه الصفات الأربع كما جاء في حديث عبد الله بن عمر الصحيح المرفوع، أو الصفات الست كما جاء في حديث أبي أَمَامَةِ كَانَ مُنَافِقًا خَالصًا، أو كان فيه النفاق كُلُّهُ، فالمعنى كَانَ مُنَافِقًا مِنْ مَسْتَوَى النِّفَاقِ الْأَصْفَرِ، إِذَا لَمْ تَكُنْ مَظْهَرًا مِنْ مَظَاهِرِ النِّفَاقِ فِي أَصْلِ الدِّينِ، لَكِنْ وَجُودَهَا مَجْتَمِعَةً فِي شَخْصٍ وَاجِبِ أَمَارَةٍ تُدَلُّ عَلَى أَنَّ احْتِمَالَ كَوْنِهِ مُنَافِقًا فِي أَصْلِ الدِّينِ احْتِمَالٌ قَوِيٌّ، فَحَالُهُ نَسْتَدْعِي الْمِرَاقَبَةَ وَالْحَذَرَ.

إنَّ النِّفَاقَ فِي أَصْلِ الدِّينِ هُوَ إِعْلَانُ قَبُولِ كُلِّ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا دِينُ الْإِسْلَامِ، وَإِعْلَانُ قَبُولِ الطَّاعَةِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْإِسْلَامِ لِأَوَامِرِ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ، وَإِبْطَانُ الْكُفْرِ

بِكُلِّ أو بعض العقائد الإيمانية التي جاء بها الإسلام، أو إبطان رَفَضِ الطاعة ورفض الإسلام لله ورسوله، ولو لبعض الأوامر أو النواهي الصحيحة الثابتة، ولا بُدَّ أن نَعْلَم أن رَفَضِ الطاعة جحوداً أو تمرداً على حقِّ الله على عباده هُوَ من الكُفْرِ، وهو غير الوقوع في المعاصي بدافع الشهوة أو هوى النفس مع الاعتراف والتسليم بحقِّ الله الكامل على عباده في أن يطيعوه وبعُدوه وخذَهُ لا شريك له، فمَثَلُ هذا الوقوع في المعاصي لا يَدْخُلُ في الكُفْرِ، ولذلك كَفَرَ إبليس بمعصيته لأنه كان جاحداً حقَّ الله عليه، ولم يَكْفُرْ آدم وزوجه بالمعصية لأنهما لم يكونا جاحدين، ودَلَّ على موقف إبليس إصراره وطَعْنه في حكمة الله، ودَلَّ على موقف آدم وزوجه قولهما:

«رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا، وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ».



(٩)

تَخَوُّفُ الصَّحَابَةِ مِنَ النِّفَاقِ الْأَكْبَرِ وَالْأَصْغَرِ

ولَمَّا كَانَ النِّفَاقُ بِمَسْتَوِيهِ الْأَكْبَرِ وَالْأَصْغَرِ مِنْ أَشْنَعِ وَأَقْبَحِ الْخِصَالِ الَّتِي يَتَّصِفُ بِهَا الْإِنْسَانُ، كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَخَوَّفُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ تَخَوُّفاً كَثِيراً مِنْهُ وَمِنْ خِصَالِهِ، وَيَتَوَرَّعُونَ مِنْ أَعْمَالٍ كَثِيرَةٍ لَيْسَتْ هِيَ مِنْ خِصَالِ الْمُنَافِقِينَ، مَخَافَةَ أَنْ يَقَعُوا فِي شَيْءٍ مِنَ النِّفَاقِ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ.

حَتَّى بَلَغَ الْأَمْرُ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنْ تَخَوَّفَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، مَعَ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ الرَّاسِخِ الَّذِي شَهِدَ لَهُ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، إِذْ بَشَّرَهُ بِالْجَنَّةِ مَعَ مَنْ بَشَّرَ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَدَفَعَهُ تَخَوُّفُهُ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ سَأَلَ حَذِيفَةَ بْنَ الْإِيمَانِ صَاحِبَ سُرٍّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي الْمُنَافِقِينَ: هَلْ ذَكَرَهُ الرَّسُولُ ضَمَنْ مَنْ ذَكَرَ مِنْ أَسْمَاءِ الْمُنَافِقِينَ، وَاسْتَحْلَفَهُ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ لَهُ: اللَّهُمَّ لَا.

رَوَى ابْنُ عَسَاكِرَ فِي تَارِيخِهِ، عَنْ حَذِيفَةَ بْنِ الْإِيمَانِ قَالَ: مَرَّ بِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَأَنَا جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ لِي: يَا حَذِيفَةُ، إِنَّ فُلَانًا مَاتَ، فَاشْهَدْهُ، ثُمَّ مَضَى، حَتَّى إِذَا كَادَ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ التَفَتَ إِلَيَّ فَرَأَنِي وَأَنَا جَالِسٌ، فَعَرَفَ،

فرجع إلي فقال: يَا حَذِيقَةُ أُنْشِدْكَ اللَّهُ أَمِنَ الْقَوْمَ أَنَا؟ قُلْتُ: اللَّهُمَّ لَا، وَلَنْ أَبْرَىء أَحَدًا بَعْدَكَ، فَرَأَيْتَ عَيْنِي عُمَرَ جَادَنَا.

وبلغ الأمر كذلك بآخرين من أصحاب الرسول المؤمنين الصادقين، أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَخَوَّفُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ النِّفَاقِ، لِشِدَّةِ تَحْذِيرِ الرَّسُولِ ﷺ مِنْهُ، وَلِشِدَّةِ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ تَوْيِيخٍ لِلْمُنَافِقِينَ وَوَعِيدٍ لَهُمْ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ، وَلِشِدَّةِ وَكَثْرَةِ تَحْذِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ مَكَايِدِهِمْ.

أَخْرَجَ الْبَخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ: أَذْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ: إِنَّهُ عَلَى إِيْمَانٍ جَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ.

قال: وَيَذْكُرُ عَنِ الْحَسَنِ: مَا خَافَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا أَمِنَهُ إِلَّا كَافِرٌ.

ويظهر لي أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانُوا يَتَخَوَّفُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ النِّفَاقَيْنِ الْأَكْبَرِ وَالْأَصْغَرِ، لِكِنَّهُمْ بِسَبَبِ صِدْقِ إِيْمَانِهِمْ كَانُوا يُوجِّهُونَ جُلَّ تَخَوُّفِهِمْ مِنْ أَنْ يَقَعُوا فِي النِّفَاقِ الْأَصْغَرِ الَّذِي قَدْ تَقَعَّ مِنْهُمْ بَعْضُ الصِّفَاتِ الَّتِي هِيَ مِنْهُ، وَلِلَّذَلِكَ كَانُوا يَحْرُصُونَ عَلَى الْبُعْدِ عَنْ كُلِّ مَا يُخْطِئُ الْعَمَلَ، مِنْ رِيَاءٍ وَسُمْعَةٍ، وَطَلَبٍ لِلدُّنْيَا بِالْدِينِ.

أَمَّا تَخَوُّفُهُمْ مِنَ النِّفَاقِ الْأَكْبَرِ فَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَخْشَوْنَ أَنْ يَكُونَ تَسَاقُصُ مُسْتَوَى إِيْمَانِهِمْ عَنْ مُسْتَوَى إِيْمَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْ مُسْتَوَى إِيْمَانِ جَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ، هُوَ مِنَ النِّفَاقِ الَّذِي قَدْ يَخَالِطُ الْإِيْمَانَ وَيُدَاخِلُهُ، فَيَنْقُصُ مِنْ قِيَمَتِهِ، وَيُضْعِفُ مِنْ قُوَّتِهِ، وَيَتَضَوَّرُونَ أَوْ يَخْشَوْنَ أَنْ يَكُونَ الْإِيْمَانُ الْمَطْلُوبُ مِنْهُمْ هُوَ الْإِيْمَانُ الْمَسَاوِي لِإِيْمَانِ جَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ.

لَقَدْ ثَبَّتُوا أَنْظَارَهُمْ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فِي قِمَّةِ الْإِيْمَانِ، فَكَانَ تَطَلُّعُهُمُ الدَّائِمُ إِلَى هَذِهِ الْقِمَّةِ، وَكَانَتْ جِهَتُهُمْ تَتَحَفَّزُ دَائِمًا إِلَيْهَا، وَكَانُوا يَخْشَوْنَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ تَقْصِيرٍ عَنْهَا جُزْءًا مِنَ النِّفَاقِ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانُوا خَيْرَ الْقُرُونِ.

وَرُبَّمَا كَانُوا يَخْشَوْنَ أَنْ يَكُونَ حُبُّهُمْ لِبَعْضِ الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ، كَحُبِّهِمْ لِلْعَنَائِمِ، أَوْ حُبِّهِمْ لِمَجْدِ الدُّنْيَا، أَوْ حُبِّهِمْ لِبَعْضِ الشَّهَوَاتِ الْمُبَاحَاتِ، الَّتِي قَدْ يَحْصِلُونَ عَلَيْهَا عَنْ طَرِيقِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مِنَ الشَّوَابِّ الَّتِي قَدْ تَوْثِرُ عَلَى صِدْقِ إِيْمَانِهِمْ فِي

ابتغاء مرضاة الله عز وجل، ويخشون أن يكون ذلك من شوائب النفاق، فهي تنقص من كمال إيمانهم، وربما كانوا يتخوفون من أن يؤثر حبهم لما نالوه من الدنيا بسبب إسلامهم على صحة إيمانهم، وصدق إسلامهم، وربما كانوا يرون أن ما يعتر بهم من الغفلات بسبب مشاغل الحياة، كانشغالهم بأهلهم، ونسائهم، وأولادهم، وأموالهم هو من نقصان الإيمان، وهو من شوائب النفاق.

وكل هذا ظاهر من حرصهم الشديد على أن يبلغوا كمال الإيمان وكمال الإسلام، ومن حرصهم الشديد أيضاً على أن يكون إسلامهم خالصاً لوجه الله عز وجل، بريئاً من شوائب طلب الدنيا به، ولا سيما حينما يلاحظون أن أشد دوافع نفاق المتنافقين رغبة نفوسهم في الحصول على مطالب الدنيا بالتظاهر بالإسلام، والانضمام إلى جماعة المسلمين.

فاحتمالات تخوف أصحاب رسول الله ﷺ على أنفسهم من النفاق تتلخص بالأمور الثلاثة التالية:

الأمر الأول:

تخوفهم على أنفسهم من النفاق الأصغر، عن طريق ارتكاب صفاته في السلوك، أو ارتكاب بعضها.

الأمر الثاني:

تخوفهم من أن يكون نقصان إيمانهم عن مستوى إيمان الرسول أو إيمان جبريل وميكائيل، هو من شوائب النفاق.

وربما اعتبروا من نقصان الإيمان ما يعتر بهم من الغفلات، بسبب انشغالهم بأهلهم ونسائهم وأولادهم، وأموالهم.

الأمر الثالث:

تخوفهم من أن تكون رغبتهم في الحصول على مطالب الحياة الدنيا، وما يحبون منها، عن طريق أعمالهم الإسلامية، كالجهاد في سبيل الله، والدعوة إلى الله، هي من شوائب النفاق، فهي تؤثر على صدق إسلامهم، وكمال إيمانهم.

ولهذه الأمور شواهد من سيرتهم رضي الله عنهم، فمنها ما يلي:

(١) روى مسلم بسنده عن أبي عثمان النهدي، عن حَنْظَلَةَ الْأَسَيْدِيِّ، (قال: وكان من كُتَابِ الرُّسُولِ ﷺ)، قال: لقيني أبو بكر فقال: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟

قال: قلت: نَافَقَ حَنْظَلَةُ.

قال: سُبْحَانَ اللَّهِ! وَمَا تَقُولُ؟!

قال: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، كَأَنَّا رَأَيْ عَيْنٍ، فإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضُّيَعَاتِ، فنَسِينَا كَثِيرًا.

قال أبو بكر: فوالله إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا.

فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

فقال رسول الله ﷺ: «وَمَا ذَاكَ؟».

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأَيْ عَيْنٍ، فإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدَكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضُّيَعَاتِ فنَسِينَا كَثِيرًا.

فقال رسول الله ﷺ:

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ تَذَمُّوْنَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحْتُكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ، وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ، سَاعَةٌ وَسَاعَةٌ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

أي: قال الرسول: «ساعة وساعة» ثلاث مرَّاتٍ.

عَافَسْنَا: أي: خَالَطْنَا وَعَاشَرْنَا مِمَّارَةً وَمَزَاوَلَةً وَعَمَلًا.

الضُّيَعَاتِ: أي: مَكَائِبَ الْعَيْشِ، كَالتِّجَارَةِ وَالزَّرَاعَةِ وَالصَّنَاعَةِ وَالْجِرْفَةِ، وَاحِدَتُهَا «ضَيْعَةٌ».

فمن هذا الحديث يتَّضح لنا أَنَّ حَنْظَلَةَ وَأَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَدْ نَحَوْا عَلَى أَنْفُسِهِمَا مِنْ أَنْ تَكُونَ الْغَفْلَةُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَالْدارِ الْآخِرَةِ، انشغالاً بمتاع الحياة الدنيا، من نقص الإيمان، وأن يكون ذلك بسبب شوائب من النفاق.

(٢) وروى البخاري بسنده قال: «قال أناسٌ لابنِ عمر: إِنَّا نَدْخُلُ عَلَى سُلْطَانِنَا فنقول لهم بخلاف ما نتكلَّم به إذا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِمْ. قال: كُنَّا نَعُدُّ هَذَا نِفَاقًا».

قال ابن حجر في «الفتح» وفي رواية عروة بن الزبير عن الحارث بن أبي أسامة، والبيهقي، قال: «أَتَيْتُ ابْنَ عُمَرَ فَقُلْتُ: إِنَّا نَجْلِسُ إِلَى أَيْمُنِنَا هَؤُلَاءِ، فَيَتَكَلَّمُونَ فِي شَيْءٍ نَعْلَمُ أَنَّ الْحَقَّ غَيْرُهُ، فَتُصَدِّقُهُمْ».

فقال: كُنَّا نَعُدُّ هَذَا نِفَاقًا، فلا أَذْرِي كَيْفَ هُوَ عِنْدَكُمْ».

وظاهر أن هذا من النفاق الأصغر الذي قد يكون من الكبائر ولا يبلغ مبلغ الكفر.

(٣) وروى ابن عساكر في تاريخه عن عمار بن ياسر قال: «ثَلَاثَةٌ لَا يَسْتَجِفُّ بِهِمْ إِلَّا مُنَافِقٌ بَيْنُ نِفَاقِهِ: الْإِمَامُ الْمُقْبِطُ، وَمُعَلِّمُ الْخَيْرِ، وَذُو الشَّيْبَةِ فِي الْإِسْلَامِ».

(٤) وكان الحسن البصري يقول: والله الذي لا إله إلا هو، ما مضى مؤمن قط ولا بقي إلا وهو من النفاق مشفق، ولا مضى منافق قط ولا بقي إلا وهو من النفاق آمن.

وكان يقول أيضاً: مَنْ لَمْ يَخْفِ النِّفَاقَ فَهُوَ مُنَافِقٌ.

وعنه أيضاً قال:

«من النفاق اختلاف اللسان والقلب، واختلاف السر والعلانية، واختلاف الدخول والخروج».

وظاهر أنه في هذا يذكر بعض صفات النفاق الأصغر، ويحذر منها، أما اختلاف الدخول والخروج فيريد منه مثل اختلاف أحوال الذين يكونون إذا دخلوا إلى أئمتهم صدقوهم على باطلهم، وإذا خرجوا من عند أئمتهم قالوا الحق فيما بينهم، وأبانوا أن ما قاله أئمتهم باطل.

وكذلك ما روي عن ابن عمر، وعمار بن ياسر.

(١٠)

المنافق في التشبيهات النبوية

(١) شبه الرسول ﷺ المنافق الذي يقرأ القرآن بالريحانة، ريحها طيب وطعمها مر، وشبه المنافق الذي لا يقرأ القرآن بالحنظلة، ليس لها ريح طيب، وطعمها مر.

فقد روى البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود وغيرهما، عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ [وفي رواية صحيحة: وَيَعْمَلُ بِهِ] مَثَلُ الْأَنْثَرَجَةِ: رِيحُهَا طَيِّبٌ، وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ.

وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الثَّمَرَةِ: لَا رِيحَ لَهَا، وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ.

وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ: رِيحُهَا طَيِّبٌ، وَطَعْمُهَا مُرٌ.

وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ: لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌ»^(١).

(٢) وروى ابن جرير عن قتادة مرسلاً، عن النبي ﷺ:

«مَثَلُ الْمُؤْمِنِ وَالْمُنَافِقِ وَالْكَافِرِ، كَمَثَلِ زَهْطٍ ثَلَاثَةٍ دَفَعُوا إِلَى نَهْرٍ، فَوَقَعَ الْمُؤْمِنُ فَقَطَعَ، ثُمَّ وَقَعَ الْمُنَافِقُ حَتَّى إِذَا كَادَ أَنْ يَبْصَلَ إِلَى الْمُؤْمِنِ نَادَاهُ الْكَافِرُ: هَلُمَّ إِلَيَّ، فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْكَ، وَنَادَاهُ الْمُؤْمِنُ أَنْ هَلُمَّ إِلَيَّ، فَإِن عِنْدِي وَعِنْدِي؛ يُحْصِي لَهُ مَا عِنْدَهُ، فَمَا زَالَ الْمُنَافِقُ يَتَرَدَّدُ بَيْنَهُمَا حَتَّى وَقَعَ عَلَيْهِ أَدَى فُغْرَقَهُ، وَإِنَّ الْمُنَافِقَ لَمْ يَزَلْ فِي شَكٍّ وَشُبْهَةٍ حَتَّى آتَى عَلَيْهِ الْمَوْتُ وَهُوَ كَذَلِكَ».

في هذا الحديث وَصَفَ لِلْمُنَافِقِ الشَّكَّ الْمُتَحَيِّرَ، لَا لِلْمُنَافِقِ الْجَازِمَ بِمَذْهَبٍ مِنْ مَذَاهِبِ الْكُفْرِ.

(١) انظر شرح هذا الحديث في كتاب «روائع من أقوال الرسول» للمؤلف، وهو الحديث الخامس من الأحاديث المشروحة فيه.

(٣) وروى ابن جرير عن قتادة مرسلاً، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

«مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ ثَائِغِيَةٍ (أي: شاة) بَيْنَ غَنَمَيْنِ، رَأَتْ غَنَمًا عَلَى نَشْرٍ (أي: مرتفع من الأرض) فَاتَتْهَا وَشَامَتْهَا^(١) فَلَمْ تَعْرِفْ، ثُمَّ رَأَتْ غَنَمًا عَلَى نَشْرٍ، فَاتَتْهَا وَشَامَتْهَا فَلَمْ تَعْرِفْ».

وفي هذا الحديث أيضاً وَصَفُ لِلْمُنَافِقِ الشَّاكَّ الْمُتَحَيِّرَ، لَا لِلْمُنَافِقِ الْجَازِمَ بِمَذْهَبٍ مِنْ مَذَاهِبِ الْكُفْرِ.

(٤) وروى مسلم وأحمد والنسائي عن ابن عمر، عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

«مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ^(٢) بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ تُعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً، لَا تَدْرِي إِلَى أَيِّهِمَا تَتَّبِعُ».

(١١)

من صفات المنافقين الجسدية

(١) أخرج أبو نعيم في الطب، عن سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ:

«إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ أَصْفَرَ الْوَجْهَ مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ وَلَا عِلَّةٍ، فَذَلِكَ مِنْ غَشِّ الْإِسْلَامِ فِي قَلْبِهِ».

(٢) وأخرج الديلمي في مُسْنَدِ الْفَرْدَوْسِ، عن ابن عباس:

«احْذَرُوا صُفْرَ الْوَجْهِ، فَإِنَّهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ عِلَّةٍ أَوْ سَهَرٍ فَإِنَّهُ مِنْ غِلٍّ فِي قُلُوبِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ».

(٣) وأخرج أيضاً عن علي:

«الْمُنَافِقُ يَمْلِكُ عَيْنَيْهِ يَبْكِي كَمَا يَبْشَأُ».

(١) شامتھا: أي: نطرت مخالبھا تريد أن تعرف علیھا، برؤية ضعيفة قليلة غير واضحة.

(٢) العائرة من الشاة: المنحيرة المترددة بين قطيعين لا تدري أيهما تتبع.

(٤) وأخرج ابن عدي في الكامل، عن عقبة بن عامر:
«إِذَا تَمَّ فُجُورُ الْعَبْدِ مَلَكَ عَيْنَيْهِ فَبَكَى بِهِمَا مَتَى شَاءَ».



الفصل الرابع

مَجَالَاتُ النِّفَاقِ وَصُورُ مِنْهَا

(١)

مقدمة

للفنّاق مجالاتٌ متعدّدة بعدد مجالات الحياة الإنسانية وعلاقاتها الاجتماعية، ومنها المجالات التالية:

المجال الأول:

النفاق في الدين، وهو كما سبق قسّمان:

القسم الأول: النفاق الأكبر، وهو إبطانُ الكُفر، وإظهارُ الإسلام، وهو المقصود الأعظم من هذا السُفر.

وقد سبق تعريف هذا القسم، وتمييزه من غيره، وسيأتي إن شاء الله تفصيل ظواهره في السلوك، واستعراض أمثله في التاريخ الإنساني.

القسم الثاني: النفاق الأصغر، وهو التظاهر بالأعمال الدينية الصالحة، ابتغاء مقاصد دُنيويةٍ يَقْصِدُها المرآئي عند الناس الذين يُنْخِذُونَ بأعماله، فَيَسْتَغِلُّ انْخِذاعَهُمْ به لتحقيق منافع لديهم يَسْتَشِيرُهَا نتيجةً مرآاته لهم.

وقد سبق تعريف هذا القسم، وتمييزه من غيره، وله عنوانٌ خاصٌ به هو لفظ «الرِّياء» ومشتقاته، وسيأتي إن شاء الله شرح الرِّياء بمقولة خاصة في هذا الفصل.

المجال الثاني:

نفاق الجاسوسية، وهي المهنة المنظّمة التي يعمل من يَعمَلُ فيها لصالح فردٍ أو مُنظّمةٍ شعبيةٍ أو دُوليّةٍ، من خلال علاقاتِهِ الاجتماعيةِ بالأفراد والجماعات، على اختلاف طبقاتهم ومُستوياتهم، ومهنتهم وأعمالهم، ذكوراً وإنثاءً، وهو يَلْبَسُ كَذِباً وزُوراً اقنعةً يُخفي تحتها أغراضه الحقيقية.

المجال الثالث :

النفاق في السياسة والحكم والإدارة، وهو سلوك اجتماعي يعتمد على الكذب، والتظاهر بالرفقة، والأدب الجم، والتواضع، وحسن المجاملة، والمودة، والإحسان، والإكرام، والبراءة، والرغبة في فعل الخير، وخدمة المصلحة العامة، وإعطاء الوعود والعهود والمواثيق، مع العزم على عدم الوفاء بها ابتداءً، مُحَاذَعَةً وتغريراً، وتضليلاً للجماهير بوجه عام، أو تضليلاً لمن يُراد استدراجه واصطياده وإسقاطه في الجبائل من المحاورين السياسيين.

المجال الرابع :

النفاق في التعامل المالي، وهو يعتمد على الكذب والمخادعة، والمرَاوغة والغش، ويعتمد على التهميش والإيهام والاستدراج عن طريق الغفلات، أو الإغراء بالمطامع، إلى مزالق الخسارة، ليحقق المتعامل المراوغ المخادع مكاسب ومزاج، ما كان باستطاعته أن يحققها، لو سلك مسلك الصدق، والصراحة والنصيحة والاستقامة.

المجال الخامس :

النفاق بتقديم الخدمات والمعونات والمساعدات الإنسانية، التعليمية، أو الصحية، أو المالية، أو النفسية، أو الخيرية من مختلف وجوه البر، بغية تحقيق مصالح سياسية، أو اقتصادية، أو استعمارية ضارة، أو بغية نشر مذاهب فكرية باطلة، والاستدراج للانتماء إليها واعتناقها.

المجال السادس :

النفاق الاجتماعي القائم بين الأفراد على إظهار المودات والصدقات وتنعُّع المجاملات، لا لتأليف القلوب على الحق والخير ابتغاء مرضاة الله، ولكن لاستدراج الناس وإيقاعهم في شرك يكرهون الوقوع فيه، كزواج غير مكافئ ولا مُلائم، أو شراكة في عمل نضيع فيه أموالهم أو جهودهم، أو قبول كتابة شيء أو حضور جلسة أو التصريح بكلام أو القيام بعمل عن حسن نية، فيكون من نتيجة ما تورطوا فيه أن يخسروا مالا، أو مركزاً، أو وظيفة، أو مصلحة، أو يتعرضوا لمهلكة في الأنفس، وكان

المنافق في هذا المجال يبتغي إيقاع فريسته فيما وقع فيه لمصلحة له، أو لغرض في نفسه خبيث.

إلى غير ذلك من مجالات مشابهات، ولا يَدْخُلُ تحت عنوان النفاق في أي مجال من المجالات ما يكون من مُصَانَعَاتٍ وَمُجَامَلَاتٍ وَمُلَائِنَاتٍ وإظهارِ موداتٍ وصداقاتٍ ومُؤَنَاتٍ وَمُسَاعَدَاتٍ وإكراماتٍ وإحساناتٍ وعباراتٍ مدحٍ وثناءٍ وتمجيدٍ، إذا كان الغرضُ استنقاذَ المحتفى به من شرٍّ هو فيه، أو استخراجهُ من الظلماتِ إلى النور، ومن الكفر بالحق إلى الإيمان به، ومن فعلِ الشرِّ والعملِ السيئ، إلى فعلِ الخير والعملِ الصالح، ومن معصية الله إلى طاعته، أو كان الغرضُ التآخي بين المؤمنين، أو الإصلاح بين الزوجين، أو إصلاح ذاتِ الدين بين مسلمين مُتَخَصِّصِينَ، أو نحو ذلك من كلِّ أمرٍ فيه مَرْضَاةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، بل كلُّ ذَلِكَ هو من فعلِ الخير الذي يحثُّ الإسلام عليه، ويثني على مَنْ فَعَلَهُ، ويؤكدُ أَنَّ مَنْ فَعَلَ شَيْئاً من ذلك ابتغاءَ مرضاة الله ثابَهُ اللَّهُ عليه ثواباً كثيراً، وأعطاه أجراً كبيراً.

وفي مقالات آتيات من هذا الفصل تفصيل ما لهذه المجالات باستثناء النفاق الأكبر فله الساحة العظمى من هذا الكتاب.

(٢)

النفاق الأصغر (وهو الرياء)

الرياء: تظاهر المسلم بالأعمال المطلوبة في الدين من الأعمال الصالحة ابتغاء مقاصد دنيوية يَفْصِدُهَا المرائي عند الناس الذين يرجو أن ينخدعوا بأعماله، فَيُظَنُّوهُ من أهل كمال التقوى، أو من الأبرار أو من المحسنين، فإذا انخدَعُوا به، ووثقوا بما رأوا من صلاحه وتقواه، استغل ذلك في تحقيق مآرب دنيوية لديهم، وحين يخلو بنفسه أو مع خاصته من غارفي خفائيه أو شركائه في المعاصي أو أقرانه في مخادعة الناس، كان له سلوك آخرٌ غَيْرُ السلوك الذي يظهر به أمام العامة.

• فطالبُ الذِّكْرِ والسَّمْعَةِ الحسنة والمُذْحِ والثناء من الأعمال الصالحة الدينية التي يَعْمَلُهَا، غَيْرُ مُخْلِصٍ لِه عَزَّ وَجَلَّ في عمله، بل هو إما طالِبُ دُنْيَا فقط من

غير الله، وإما طالبُ ذلك مع طلبِ ثوابِ اللّهِ يومَ الدّينِ إيماناً به، وهذا من الشُّركِ في عبادةِ الله، وهو يُحبطُ العمل، لأنَّ الله لا يقبلُ أعمالَ العبادةِ له ما لم تكن خالصةً لوجهِ الكريم من شائبةِ الشُّركِ في إلهيته، ومن شائبةِ الشُّركِ في إخلاصِ العمل لله بابتغاءِ أغراضِ الدُّنيا من الناس مع ابتغاءِ ثوابِ الله ورضوانه.

وطالبُ الذكر والسُّمعةِ الحسنةِ والمدحِ والثناءِ لدى الناس ممّا يعمل من أعمال دينيةٍ سالحةٍ، سيجدُ ذلك ضمنَ سننِ الله السَّنيةِ، والله يَهْتِيءُ ذلك له تحقيقاً لسنَّته، ولكنه لا يجعل له في الآخرة نصيباً، وقد دلَّ على هذا قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول):

﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَخَّرْنَا الشُّكْرَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (١٥٥).

وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (هود / ١١ مصحف / ٥٢ نزول):

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِيَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥)
أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلُوءِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦).

وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الشورى / ٤٢ مصحف / ٦٢ نزول):

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (٤٢).

ودلَّ عليه أيضاً أحاديثُ نبويةٌ صحيحة، منها:

(١) روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَبُشْرَتُهُ».

(٢) وروى ابن ماجه بإسناد صحيح عن أبي هريرة، أَنَّ رسول الله ﷺ قال:

«قال الله عز وجل: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، فَمَنْ عَمِلَ لِي عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَأَنَا مِثُّ بَرِيءٍ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ».

(٣) وروى الإمام أحمد بسنده عن محمود بن لبيد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«إِنْ أَخَوْفَ مَا أَخَافَ عَلَيْكُمْ الشُّرْكَ الْأَصْفَرُ».

قالوا: وما الشرك الأصفر يا رسول الله؟

قال: «الرِّيَاءُ، يقول الله عز وجل لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: ادْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءَوْنَ فِي الدُّنْيَا، فَاَنْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً».

تُراءَوْنَ فِي الدُّنْيَا: أي: تراءؤنهم.

(المستدج ٥ ص ٤٢٨)

* وَطَالِبُ التَّعْظِيمِ والتَّجْبِيلِ والتَّقْدِيسِ والاحترام من الأعمال الصالحة الدينية التي يَعْمَلُهَا سَيَجِدُ فِي النَّاسِ مَنْ يُعْظِمُونَهُ وَيُجَبِّلُونَهُ وَيُقَدِّسُونَهُ مِنْ أَجْلِ مَا شَاهَدُوا وَيُشَاهِدُونَ مِنْ مَظَاهِرِ أَعْمَالِهِ الصَّالِحَةِ التي يَعْمَلُهَا، ضَمَّنَ سُنَنِ اللَّهِ السَّيِّئَةِ، وَاللَّهُ يُهَيِّئُ ذَلِكَ لَهُ تَحْقِيقًا لِنِيتِهِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَجْعَلُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ ثَوَابًا عَلَيْهَا.

* وَطَالِبُ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ التَّظَاهِرِ بِأَعْمَالِهِ الدِّينِيَّةِ الصَّالِحَةِ التي يَعْمَلُهَا يُؤْتِيهِ اللَّهُ ثَوَابَهُ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَا يَجْعَلُ اللَّهُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ ثَوَابًا عَلَيْهَا.

*** أمثلة

(١) من الناس من يتظاهر بالورع الشديد عن مواطن الشبهات، وَغَنَ فِعْلٍ المَكْرُوهِاتِ، فَضْلًا عَنْ الْمَحْرَمَاتِ كِبَائِرِهَا وَصَغَائِرِهَا، وَهُوَ فِي بَسْرِهِ مِنْ مَرْتَكِبِي الْكِبَائِرِ الْكَبِيرَى التي لَا يَأْتِيهَا الْفُسَاقُ.

(٢) ومن الناس من يتظاهر بالإكثار من نوافل الصلوات والأذكار والأوراد والتسبيح وتلاوة القرآن أمام الناس، فإذا خلا بينه وبين رَبِّهِ لَمْ يَقْعُلْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ.

(٣) ومن الناس من يتظاهر بطول اللحية وتعظيم السبحة، ويتظاهر بالبَذَاذَةِ والرَّثَائَةِ فِي ثِيَابِهِ وَهَيْئَتِهِ، وَيُبَسِّسُ الْخَبِيثَ مِنَ الثِّيَابِ، وَيُبَسِّسُ الْمُرَقَّعَاتِ وَالْبَالِيَاتِ،

وَلَبَسَ الْعِمَّةَ وَالطُّلُسَانَ، وَكَثَرَتِ الْعَمَلُ بِحَبَاتِ الشَّبْحَةِ إِشْعَاراً بِأَنَّهُ فِي حَالَةِ ذِكْرِ اللَّهِ، وَحُضُورِ دَائِمٍ مَعَ اللَّهِ، أَمَامَ مَنْ يُعْجِبُهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ الزُّهْدَ وَالْعَقْشَفَ وَمَا يُسَمَّى بِالصُّوفِيَةِ الَّتِي يَتَّبَعُ مَدْعُوعَهَا عَنْ شَهَوَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمُظَاهَرِ زَيْتِهَا، لِيَكُونُوا فِيمَا يَزْعُمُونَ أَهْلًا لَاسْتِقْبَالِ الْإِلَهَامَاتِ وَالْوَارِدَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَكُشِفِ الْحُجُبِ عَنْ بَعْضِ الْمَغْيِبَاتِ، وَلَثَلَا يَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ أَذْهَبُوا طَيِّبَاتِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

فَإِذَا خَلَا فِي نَفْسِهِ، أَوْ مَعَ خَاصَّتِهِ، كَانَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ نَهْمًا وَلَهْوًا وَلَعِبًا، وَغَفْلَةً عَنِ اللَّهِ، وَاسْتَفْرَاقًا فِي انْتِهَابِ اللَّذَاتِ مِمَّا حَلَّ أَوْ حَرَّمَ، وَرَبِّمَا كَانَ تَظَاهِرُهُ وَسِيلَةً يُخْفِي بِهَا مَا يَمَارَسُ فِي سِرِّهِ مِنْ كِبَائِرِ إِثْمٍ وَفُجُورٍ وَلُصُوصِيَّةٍ.

(٤) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَظَاهَرُ بِإِعْفَاءِ اللَّحِيَةِ، وَتَقْصِيرِ الثَّوْبِ، وَبِمَجَافَاةِ الْبَدَنِ الْمَظْهَرِيَّةِ، لَدَى مَنْ يَحْرُصُونَ عَلَى الْإِتِّزَامِ بِالسَّنَةِ، وَيُوجِّهُونَ مَعْظَمَ أَنْظَارِهِمْ لِلْمُظَاهَرِ الْجَسَدِيَّةِ وَالشَّكْلِيَّةِ، وَغَرَضُهُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَثْقُوا بِهِ، فَيَسْهَلُوا أُمُورَهُ الدُّنْيَوِيَّةَ لَدَيْهِمْ، وَلَدَى مَنْ يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ، ثَقَّةً بِسَلَفِيَّتِهِ، وَهُوَ لَا يَفْعَلُ مِنْ صَالِحَاتِ السَّلَفِ إِلَّا مَا يَتَظَاهَرُ بِهِ.

وَيَذُلُّ عَلَى أَنَّهُ مَخَادَعٌ كَذَّابٌ مَا يَمَارَسُهُ دَوَامًا مِنْ غِيَةِ وَنَمِيمَةٍ وَكَذِبٍ وَإِسَادٍ بَيْنَ النَّاسِ، وَإِضْرَارِ عِبَادِ اللَّهِ، وَتَجْرِيعِ لِمُخَالَفِيهِ فِي الرَّأْيِ الْاجْتِهَادِيِّ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ الْمَاضِينَ وَالْحَاضِرِينَ، وَقَذْفِ النَّاسِ بِمَا يَفْتَرِي مِنْ عِنْدِهِ، أَوْ يَتَخِيلُهُ مِنْ ظُنُونٍ، بِغِيَةِ إِبْعَادِهِمْ عَنْ مَزَاحِمَتِهِ فِي مَائِلَةِ الْمَنَافِعِ الْمَادِّيَّةِ الَّتِي يَزْدَرِدُ مَا يُوضَعُ عَلَيْهَا بِنَهْمٍ شَدِيدٍ، وَيَتَّبِعُ مَا طَابَ لَهُ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، مَهْمَا كَانَ شَأْنُهُ حَلَالًا أَوْ حَرَامًا أَوْ بَيْنَ ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ شُبُهَاتٌ.

وَرَبِّمَا يَتَّخِذُ مَا يَتَظَاهَرُ بِهِ وَسِيلَةً لِإِخْفَاءِ فَجُورِهِ وَأَثَامِهِ وَلِصُوصِيَّتِهِ وَتَخْشِيَةِ لَأَعْدَائِهِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، الَّذِينَ يَعْمَلُ جَاسُوسًا لَهُمْ بَيْنَ صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ.

(٥) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَظَاهَرُ بِالْوَرَعِ الْعِلْمِيِّ فِي تَحْقِيقِ مَسَائِلِ الْعِلْمِ، وَالتَّشَدُّدِ بِالْإِتِّزَامِ مَا صَحَّ سَنَدُهُ عَنِ الْمَعْصُومِ، وَالْأَخْذِ بِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى ظَاهِرِهِ.

فَإِذَا أُعْلِنَ رَأْيًا فِي الدِّينِ، أَوْ انْتَصَرَ لِمَذْهَبٍ فِي بَعْضِ مَسَائِلِهِ، ثُمَّ جَاءَ مَنْ بِخَالِفُهُ فِي ذَلِكَ، وَأَقَامَ عَلَيْهِ الْحُجَّةَ الْبِرْهَانِيَّةَ النَّقْلِيَّةَ وَالْعَقْلِيَّةَ، تَخَلَّى عَنْ كُلِّ وَرَعِهِ السَّابِقِ،

وَأَصْرُ عَلَى رَأْيِهِ مَكَابِرَةٌ وَمَعَانِدَةٌ لِلْحَقِّ، انْتِصَارًا لِنَفْسِهِ وَرَأْيِهِ، أَوْ انْتِصَارًا لِمَذْهَبِهِ، وَانْكَشَفَ لِأَهْلِ الْبَصِيرَةِ أَنَّ وَرْعَهُ الْعِلْمِيُّ السَّابِقُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا سِتَارَةً يَسْتُرُ بِهَا انْتِصَارَهُ لِمَذْهَبِهِ الَّذِي يَتَعَصَّبُ لَهُ.

وَلَوْ أَنَّهُ كَانَ ذَا دِينٍ حَقِيقِيٍّ، وَكَانَ يَخْشَى اللَّهَ حَقًّا، لَأَتَّبَعَ الْحَقُّ أَتْنَى وَجْذَهُ، وَلَوْ عِنْدَ مُخَالَفَتِهِ فِي أَسْسِ مَذْهَبِهِ الَّتِي يُؤْمِنُ بِهَا، لِأَنَّ الدِّينَ دِينُ اللَّهِ، وَالْإِتِّبَاعُ فِيهِ إِتِّبَاعُ اللَّهِ، وَلَيْسَ إِتِّبَاعًا لِلرَّأْيِ أَوْ الْهَوَى، وَلَا إِتِّبَاعًا لِإِمَامٍ بَعِيْتَهُ مِنْ أُمَّةِ الْمَذَاهِبِ.

(٦) وَقَدْ يَنْظَاهِرُ التَّاجِرُ أَوْ الصَّانِعُ أَوْ الْعَامِلُ بِأَنَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ الْمُحَافِظِينَ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ، الْمُؤَدِّينَ لَزَكَاةِهِمْ، الصَّائِمِينَ الْحَاجِينَ لِبَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ، التَّالِينَ لِكِتَابِ اللَّهِ، الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا، الْمَلَازِمِينَ لِلْعُلَمَاءِ وَالْوَعَاظِ وَمَجَالِسِ الْعِلْمِ وَالْخَيْرِ، إِبْتِغَاءً أَنْ يَثِقَ النَّاسُ بِهِ، فَيَكُونُوا مِنْ زَبَائِنِهِ فِي مَتَجَرِهِ أَوْ مَصْنَعِهِ، أَوْ مِنْ مُسْتَعْدِمِيهِ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَإِبْتِغَاءً أَنْ يَتَعَامَلُوا مَعَهُ وَائْتَمِنُوا بِهِ، مُغْبِضِي عِيُونِهِمْ عَمَّا يَأْخُذُ مِنْهُمْ وَيُعْطِيهِمْ، ثُمَّ يَسْتَنْجِلُ هَذِهِ الثَّقَةَ فَيَغْتَرُّ فِي بَيْعِهِ أَوْ فِي عَمَلِهِ، وَيَغْبِرُ غَبْنًا فَاحِشًا، وَيَأْكُلُ أَمْوَالَ الْوَائِقِينَ بِهِ بِالْبَاطِلِ.

(٧) وَقَدْ يَنْظَاهِرُ السِّيَاسِيُّ طَالِبُ الْحُكْمِ وَالسُّلْطَانِ وَالْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ بِالتَّوَدُّعِ وَالْإِتِمَارِ أَحْكَامَ الشَّرْعِ الْحَنِيفِ، لِيُثِقَ بِهِ النَّاسُ الْيَوْمَ الْمُسْلِمُونَ الْمُتَّقُونَ، فَيَتَخَبَّوْهُ، وَيَجْعَلُوهُ وَلِيَّ أُمُورِهِمْ، وَهُوَ فِي حَقِيقَةِ حَالِهِ فَاسِقٌ فَاجِرٌ لَا دِينَ لَهُ، إِنَّمَا هُمُّهُ أَنْ يَظْفِرَ بِالسُّلْطَانِ لِيُحَقِّقَ مَآرِبَهُ الشَّخْصِيَّةَ، فَيُفِي نَفْسَهُ حُبَّ السُّلْطَانِ وَالْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ.

ثُمَّ إِنَّهُ عَنْ طَرِيقِ السُّلْطَانِ يَسْتَمْتِعُ بِمَا يَطْلُبُ مِنْ شَهَوَاتٍ وَأَمْوَالٍ وَلَذَاتٍ، مَعَ مَا يُحَقِّقُهُ لِنَفْسِهِ مِنَ الْإِسْتِمْتَاعِ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْإِسْتِعْلَاءِ وَالْإِسْتِكْبَارِ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ وَإِشْبَاعِ شَهْوَةِ نَفْسِهِ إِلَى الْحُكْمِ.

(٨) وَقَدْ يُقَابِلُ الْمُقَاتِلُ لِيَقُولَ النَّاسُ: إِنَّهُ شُجَاعٌ بَظْلٍ. وَقَدْ يَتَعَلَّمُ الْمُتَعَلِّمُ عِلْمًا وَلَدِينٍ لِيُشَارَ إِلَيْهِ بِالْبَيَانِ أَنَّهُ عَالِمٌ عَظِيمٌ، وَلِيُثْنِيَ عَلَيْهِ الْقَاصِي وَالذَّانِي، وَيُنَالَ عِنْدَ النَّاسِ سَمْعَةً حَسَنَةً وَصِيَّتًا وَاسِعًا. وَيُذَكِّرُ عَلَى أَلْسِنَةِ الْمَذَاحِينَ مِنَ الشُّعْرَاءِ وَالْخُطَبَاءِ. وَقَدْ يَتَصَدَّقُ الْمُتَصَدِّقُ بِأَمْوَالِهِ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ وَالْبِرِّ لِيَتَفَقَّ تِجَارَتُهُ أَوْ صِنَاعَتُهُ، أَوْ لِيُنَالَ بَيْنَ النَّاسِ مَدْحًا وَثَنًا وَذِكْرًا حَسَنًا.

إلى غير ذلك من أمثلة كثيرة يَضَعُ حصرها .

إِحْبَاطُ عمل المرائي بالنسبة إلى الثواب الأخروي

ولمَّا كان الرِّياءُ في الأعمال الصالحة الدِّينية من النفاق في السلوك الدِّيني، وهو النفاق الأصغر، وكان في حقيقة أمره من الشُّرك في القصد من العمل، أو من ابتغاء مرضاة الناس فيه لا من ابتغاء مرضاة الله، ولمَّا كَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَقْبَلُ الشُّركَ في إلهيته، وَلَا يَقْبَلُ الشُّركَ في الْقَصْدِ من الْعَمَلِ الدِّينِيِّ الَّذِي يُوجِبُهُ فِي الظَّاهِرِ لَهُ عِبَادَةُ أَوْ طَاعَةُ أَوْ تَقَرُّبًا إِلَيْهِ بِمَا يُجِبُّ مِنْ صَالِحِ الْعَمَلِ، كَانَ مِنْ عَذَلِ اللَّهِ وَحُكْمِهِ أَنْ يَقْصَرَ أَجْرُ الْعَامِلِ الْمُرَائِي عَلَى مَا يَمْنَحُهُ وَفَقْ مجاري سُنَّتِهِ مِنْ مَطْلُوبٍ لَهُ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَأَنْ يُحِبِطَ عَمَلُهُ عِنْدَهُ، فَلَا يَجْعَلُ لَهُ نَصِيبًا مِنَ الثَّوَابِ يَوْمَ الدِّينِ، إِذْ يُقَالُ لَهُ يَوْمَئِذٍ: لَقَدْ أَخَذْتَ أَجْرَكَ فِي الدُّنْيَا مِنْ كَانَ عَمَلُكَ مِنْ أَجْلِهِ، أَوْ جَرَتْ سُنَّةُ اللَّهِ بِمَنْجِكَ الثَّوَابَ الَّذِي كُنْتَ تَطْلُبُهُ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَإِشْرَاكَكَ غَيْرَ اللَّهِ مَعَ اللَّهِ فِي قَصْدِكَ مِنَ الْعَمَلِ الدِّينِيِّ أَخْرَجَكَ عَنْ دَائِرَةِ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ فِي الْعَمَلِ، وَكَانَ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا قَدْ أَبَانَ لَكَ أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي يَرْضَاهُ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا لَوَجْهِهِ، فَلَا تَلُومُنَّ إِلَّا نَفْسَكَ .

وقد دَلَّتْ النصوص من القرآن والسُّنة على هذا الإحباط، وفيما يلي طائفة منها:

من نصوص التحذير من الرياء المحبط لعمل المسلم عند الله

(١) رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ حِمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ شِجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، فَأَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ:

«مَنْ قَاتَلَ لِيَتَكُونَ كَلِمَةً لِلَّهِ فِي الْعُلَمَاءِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» .

(الفتح / رقم الحديث (٧٤٥٨))

(٢) وروى البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«يَكْثِفُ رَبُّنَا عَنْ سَابِقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسَمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقاً وَاحِداً».

(الفتح / رقم الحديث (٤٩١٩))

أي: لا يستطيع السجود، لأنه لم يكن من الساجدين في الدنيا حقيقة، بل كان من المرائين الذين يُريدون أن يُقال عنهم بين المؤمنين قومٌ متقون.

(٣) وروى البخاري عن جندب قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهِ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ».

(الفتح / رقم الحديث (٦٤٩٩))

وعند مسلم:

«مَنْ يُسَمِعُ يُسَمِعِ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ».

أي: من يقول لِسَمْعِهِ المسلمون فينال عندهم صيتاً حسناً، ومن يفعل عملاً لِيَرَى الناسُ عمله فينال عندهم صيتاً وذكراً حسناً، فإن الله عز وجل يُجَازِيهِ من جنس عمله، فيعطيه ما يُريد من ذكر حسن في الدنيا، ويخرجه من ثواب عمله في الآخرة.

(٤) وروى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الْخَيْلُ ثَلَاثَةٌ: لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وَزْرٌ».

* فأما الَّذِي لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَأَطَاعَ لَهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طَبْلِهَا^(١) ذَلِكَ فِي الْمَرْجِ وَالرَّوْضَةِ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٌ.

وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طَبْلَهَا فَاسْتَنْتَ شَرْفاً أَوْ شَرْفَيْنِ^(٢)، كَانَتْ آثَارُهَا وَأَرْوَاتُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ.

(١) الطَّيْلُ وَالطَّيْلُ وَالطَّيْلُ: الْحَبْلُ الَّذِي يُرَبِّطُ طَرْفَهُ فِي الدَّابَّةِ وَيُرَبِّطُ طَرْفَهُ الْآخَرَ فِي وَتْدٍ وَنَحْوِهِ، وَيَطْوُلُ لِلدَّابَّةِ فَرَعِي وَهِيَ مُقْبِلَةٌ بِهِ.

(٢) اسْتَنْتَ: أَي: جَرَّتْ. شَرْفاً أَوْ شَرْفَيْنِ: أَي: شَوْطاً أَوْ شَوْطَيْنِ.

ولو أنها مَرَّتْ بِنَهْرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ — وَلَمْ يَرِدْ أَنْ يَسْقِيَ بِهِ — كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ .
فهي لذلك الرَّجُلِ أَجْرٌ .

* وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَغْنِيًا وَتَعَفُّفًا، وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا وَلَا ظُهُورِهَا، فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ .

* وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِيَاءً وَنَوَاءً فَهِيَ عَلَى ذَلِكَ وَزُرٌّ .

(الفتح / رقم الحديث (٤٩٦٢))

نَوَاءً: أي: معادة، يُقَالُ لَعَنَ: نَاوَأْتُ الرَّجُلَ مُنَاوَأَةً وَنَوَاءً إِذَا فَاخَرْتَهُ وَغَاذَيْتَهُ، والمراد معادة أهل الإسلام، ولو من قبيل المنافسة، كما جاء في بعض الروايات .

(٥) وروى الإمام أحمد بسنده عن بُرَيْدَةَ الأَسْلَمِيِّ قَالَ: خَرَجْتُ ذَاتَ يَوْمٍ لِحَاجَةٍ، فَإِذَا أَنَا بِالنَّبِيِّ ﷺ يَمْشِي بَيْنَ يَدَيَّ، فَأَخَذَ بِيَدِي، فَانْطَلَقْنَا نَمْشِي جَمِيعًا، فَإِذَا نَحْنُ بَيْنَ أَيْدِينَا بِرَجُلٍ يُصَلِّي، يَكْثُرُ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَتَرَاهُ يَرَانِي؟» .

فَقُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَتَرَكَ يَدَيَّ مِنْ يَدَيْهِ، ثُمَّ جَمَعَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَصُوبُهُمَا وَيَرْفَعُهُمَا، وَيَقُولُ:

«عَلَيْكُمْ هَذِيأَ قَاصِدًا، عَلَيْكُمْ هَذِيأَ قَاصِدًا، عَلَيْكُمْ هَذِيأَ قَاصِدًا، فَلِئِنَّهُ مَنْ يُشَادُّ هَذَا الدِّينَ يَغْلِبْهُ» .

أي: اَلْزُمُوا التَّوَسُّطَ وَالْإِعْتِدَالَ فِي الْعَمَلِ مِنْ أَعْمَالِ الدِّينِ وَلَا تَغْلُوا .

(٦) وروى أبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أنه قال: قلت: «يا رسول الله أخبرني عن الجهاد والغزوة» فقال:

«يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو، إِنَّ قَاتِلْتَ ضَاطِرًا مُخْتَبِئًا، بَغْتَكَ اللَّهُ ضَاطِرًا مُخْتَبِئًا، وَإِنْ قَاتِلْتَ مَرَائِيًا مُكَاثِرًا، بَغْتَكَ اللَّهُ مَرَائِيًا مُكَاثِرًا» .

يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرُو، عَلَى أَيِّ خَالٍ قَاتَلْتَ أَوْ قَاتَلْتَ بَعَثَكَ اللَّهُ عَلَى بَلَدِكَ
الْخَالِ».

(مختصر وشرح وتهذيب سنن أبي داود/ رقم الحديث (٢٤٠٨))

(٧) وروى أبو داود عن أبي موسى الأشعري، أن أعرابياً جاء إلى
رسول الله ﷺ فقال: «إِنَّ الرَّجُلَ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ، وَيُقَاتِلُ لِيُحْمَدَ، وَيُقَاتِلُ لِيُغْنِمَ، وَيُقَاتِلُ
لِيُرَى مَكَانَهُ؟» فقال رسول الله ﷺ:

«مَنْ قَاتَلَ لِيَتَكُونَ كَلِمَةً لِلَّهِ هِيَ أَعْلَى فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ».

(٨) وروى ابنُ ماجة عن أبي سبيد بن أبي فضالة الأنصاري قال: قال
رسول الله ﷺ:

«إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأُولِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ، نَادَى مُنَادٌ: مَنْ
كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ لِلَّهِ، فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ أَغْنَى الشُّرَكَاءِ
عَنِ الشُّرْكِ».

(٩) وروى ابنُ ماجة عن أبي سبيد قال: خرج علينا رسولُ الله ﷺ، ونحنُ
نَتَذَكَّرُ الْمَسِيحَ الدُّجَالَ فقال:

«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدُّجَالِ؟».

قُلْنَا: بلى، فقال:

«الشُّرْكَ الْخَفِيُّ، أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّيَ فَيَزِينُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ».

(١٠) وروى ابنُ ماجة عن شداد بن أوس قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْإِشْرَاقَ بِاللَّهِ، أَمَا إِنِّي لَسْتُ أَقُولُ: يَغْبُدُونَ
شِمْسًا وَلَا قَمَرًا وَلَا وَثَنًا، وَلَكِنْ أَعْمَالًا لِغَيْرِ اللَّهِ، وَشَهْوَةً خَفِيَّةً».

(١١) وروى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«تَعَوَّدُوا بِاللَّهِ مِنْ جُبِّ الْحُزْنِ».

قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا جُبُّ الْحُزْنِ؟ قال:

«وَادٍ فِي جَهَنَّمَ تَتَعَوَّذُ مِنْهُ جَهَنَّمُ كُلُّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ».
قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَدْخُلْهُ؟ قَالَ:
«الْقُرَاءُ الْمُرَاوُونَ بِأَعْمَالِهِمْ».

(قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب)

(١٢) وروى الترمذي عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ حدثه:

«أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، يَنْزِلُ إِلَى الْعِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ، وَكُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةٌ».

فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَزَجَلَ قَبِيلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ.

فَيَقُولُ اللَّهُ لِلْقَارِئِ: أَلَمْ أَعْلَمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلَّمْتُ؟ قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آثَاءَ اللَّيْلِ وَآثَاءَ النَّهَارِ، فَيَقُولُ اللَّهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ فُلَانًا قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ.

وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَمْ أُوسِّعْ عَلَيْكَ، حَتَّى لَمْ أَدْعُكَ تَحْتَاجَ إِلَى أَحَدٍ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتَكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّجِمَ، وَأَتَصَدَّقُ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ. وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ.

وَيُؤْتَى بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: فَمَاذَا قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ: أَمَرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ، فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ. فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ. وَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ.

ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى رُكْنَيْهِ، فَقَالَ:

«يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تُسْعَرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».



المراءاة هي في الأصل من صفات الكافرين والمنافقين

لما كانت المراءاة هي في الأصل من صفات الكافرين والمنافقين، وجدنا النصوص القرآنية جعلت مراءاة الناس بأعمال الخير التي ترضيهم من صفات هؤلاء.

(١) ففي سورة (الماعون / ١٠٧ مصحف / ١٧ نزول) وصف الله الذين يكذبون بالذين بأنهم يراءون ويمنعون الماعون، فقال تعالى فيها بشأنهم:

﴿الَّذِينَ هُمْ يَرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

(٢) وفي سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول) وصف الله الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر بأنه يُنفِقُ مَالَهُ إِذَا أَنْفَقَ رِثَاءَ النَّاسِ فقال تعالى فيها:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَابْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ... ﴿٦٧﴾﴾.

(٣) وفي سورة (الأنفال / ٨ مصحف / ٨٨ نزول) وصف الله المشركين الذين خرجوا من مكة إلى معركة بدر بأنهم خرجوا بطراً ورثاء الناس، فقال تعالى فيها خطاباً للذين آمنوا:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَحْمِلُونَ حُمِيلاً ﴿١٧﴾﴾.

(٤) وفي سورة (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول) وصف الله الكافرين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر بأنهم إذا أنفقوا أموالهم فإنهم ينفقونها رثاء الناس، فقال تعالى فيها:

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٢٨﴾﴾.

(٥) وفي سورة (النساء) أيضاً وصف الله عز وجل المنافقين بأنهم يُراءُونَ النَّاسَ

في أعمالهم ذات المظهر الإسلامي، فقال تعالى فيها:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝﴾.

وما هو من صفات الكافرين والمنافقين أساساً في السلوك القولي والعملي، قد يكون من صفات المؤمنين المسلمين على سبيل المعاصي غير المكفرة، أو المقاصد المحببة للعمل عند الله عز وجل، بمعنى إبطال كونه عملاً صالحاً يُثبِّبُ الله عليه يوم الدين.

* * *

(٣)

نفاق الجاسوسية

الجاسوسية التي تعمل لصالح منظماتٍ شعبيةٍ أو حكوميةٍ في حدود دولة معينة، أو على مستوى عالمي يشمل الدول والشعوب، ذات أسلوبٍ من النفاق شديد المكر، خفي الوسائل، ذي نظامٍ وترتيباتٍ غايةٍ في التدبير الشيطاني المحكم، قائم على دراساتٍ نفسيةٍ واسعات، وخططٍ مدروسة، وتجاربٍ طويلة، وتذريباتٍ مُضنيباتٍ تُكسِبُ الجاسوس مهاراتٍ فائقاتٍ، يستطيع بها نقل معلوماتٍ للذين ينافق من أجلهم، ويعمل لصالحهم، قد تبلغ قيمة الخبر الواحد منها القناطر المعنطرة من الذهب ونفيس الجواهر الكريمة.

وقد تتحقق بالجاسوسية فائدةٌ لمستخدم الجاسوس. المنافق أكثر مما تحقِّقه حربٌ يُضْحَى فيها بعشرات الألوف من الجيش المحارب.

وقد يُدمر جاسوسٌ واحدٌ أمةً كاملةً، وقد يكونُ سبباً في إسقاط عرشٍ مُلكٍ قويٍّ الأزكان، متين البنيان، وفي إسقاط دولة عظمى وإمبراطورية ذات قوى تُرهِّبُ العالم.

وتتفق الدول العظمى على الجاسوسية إنفاقاتٍ تصل إلى مثل ميزانية جيش.

بمُعَذَّاتِهِ، وتُسَمَّى منافقيها من الجواسيس، والعاملين في خدمتها في الخفاء، أسماء مختلفة، مثل: المخابرات، الجيش السَّري، البوليس السَّري، إلى غير ذلك من أسماء تمويهية، وهي جميعاً تعني الذين يعملون في الخفاء، ويلبسون مختلف الأقنعة المزورة النفاقية من رجال ونساء، مهمتهم دوماً أن يكذبوا ويظهروا خلاف ما يَظُنُّون، ويخادعوا من يتعاملون معه، لاصطياده وإيقاعه في شركهم، واستجراره إلى حبالهم، أو لسرقة معلومات منه تفيد الجهة التي يعملون لها، وتضرر الجهة التي يحاربونها حرباً سرية باردة أو ساخنة.

والمنافقون من الجواسيس قد يصلون من البراعة وإتقان عملية النفاق إلى أن يتأفقوا عدة جهات متعارضة متعادية، ويظهروا لكل جهة بأنهم منهم، ويعملون في خدمة مصالحهم ضد الجهات الأخرى التي يعملون أيضاً في خدمتها.

فبعض الجواسيس قد يكون مزدوج الجاسوسية، وبعضهم قد يكون مثلث الجاسوسية، وبعضهم قد يكون مربعها، أو مخمسها، وكلما كان أكثر ذكاءً وذهاءً وقُدرةً على إخفاء هويته، وخبثاً في طويته نفسه، كان أقدر على أن يورع نفاقه على جهات أكثر، مع تعادي هذه الجهات تعادياً قد يصل إلى مستوى الحرب الباردة أو الساخنة بينها.

إن الجيوش تُحارب بعضها بعضاً من مواقع حذر كل منها من عدوه، أما الجواسيس المنافقون فيحاربون من مواقع الأمن، وهي المواقع التي لا رقابة فيها، وليس فيها تحصينات تدفع مكاييد العدو المخالط المذاجل.

إن الجاسوس المنافق هو كاللص المجهول المُساكن في الدار الذي تَصُعب مراقبته.

من أجل ذلك كانت عقوبة المنافق أشد من عقوبة الكافر المعادي المستعلن بعداوته.

ومن أجل ذلك كانت منزلة المنافق في الدرك الأسفل من النار.

* * *

التفاق في السياسة والإدارة والحكم

تواضع معظم السياسيين في العالم، على أن السياسي البارع ينبغي أن يكون كذاباً مخادعاً مروغاً منافقاً مرائياً غداراً وخائناً، ينقض العهد ولا يفي بالوعد، يُظهر دواماً خلاف ما يُبين، وأن يكون مُجرماً قتالاً لا رحمة في قلبه ضد خصومه ومنافسيه، مع التظاهر بأنه من أكثر الناس رحمةً وشفقةً ورقةً قلب، ومن أكثر الناس رغبةً في تحقيق العدل ورفع الظلم وخدمة الضعفاء والمساكين، وأكثر الناس صدقاً وصراحة وأمانة، وإذا كان في مجتمع متمسك بالدين فعليه أن يتظاهر بالتدين، والحرص على تطبيق التعاليم الدينية، دون أن يهتم بتطبيق شيء مما يتظاهر به، ما لم يكن له مصلحة في ذلك، تخدم سلطانه واحتفاظه به. وأن يكون في واقع حاله لا هم له إلا تثبيت حكمه بآية وسيلة مهما كانت غير أخلاقية، ففي سبيل تثبيت أركان سلطانه يجب أن لا يكون للأخلاق الفاضلة اعتبار لديه مطلقاً، وإلا انهارت قواعد حكمه وفقد سلطانه.

جاء الإيطالي «نيقولا مكيافيلي» ١٤٦٩ - ١٥٢٧م فجعل التفاق السياسي أمراً ضرورياً لمن يتولى الحكم والسلطان والإمارة، وزعم أن الإمارات لا تنال ولا يُحتفظ بها ما لم تكن قائمة على قاعدة: «الغاية تبرر الوسيلة» أي: غاية الوصول إلى سلطة الحكم والاحتفاظ بها تُبرر أية وسيلة مهما كانت غير أخلاقية، ومهما كانت منافية لتعاليم الدين.

وذكر «مكيافيلي» أن تاريخ الإمارات في الأرض شاهد على ذلك، فأكثر طلاب الإمارة قدرة على الوصول إليها والاحتفاظ بها، أقدرهم على استخدام الرياء والتفاق وإتقان وسائلهما، وزعم أن الحاكم يُعرض نفسه للهلاك إذا كان سلوكه متقيداً دائماً بالأخلاق الفاضلة، لذلك يجب أن يكون ماكرماً مكر الذئب، ضارياً ضراوة الأسد.

وذكر أن الأمير ينبغي أن يحافظ على العهد حين يعود ذلك عليه بالفائدة فقط، أما إذا كانت المحافظة على العهد لا تعود عليه بالفائدة فيجب عليه حينئذ أن يكون غداراً.

وقال: «وبد أنه من الضروري أن يكون الأمير قادراً على إخفاء هذه الشخصية، وأن يكون دعياً كبيراً، ومرائياً عظيماً، والناس يصبون في السداجة، وفي الاستعداد

للخضوع للضراوات الحاضرة، إلى الحد الذي يجعل ذلك الذي يخدع يحد دائماً أولئك الذين يتركون أنفسهم يخدعون.

وسأؤوه فقط بمثل حديث واحد، فالإسكندر السادس لم يفعل شيئاً إلا أن يخدع الناس، ولم يخطر بباله أن يفعل شيئاً آخر، ووجد الفرصة لذلك، ولم يكن من هو أقدر منه على إعطاء التأكيدات، وتوثيق الأشياء بأغلف الإيمان، ولم يكن أحد يرعى ذلك أقل منه، ومع ذلك فقد نجح في خدعاته، إذ كان يعرف هذه الأمور معرفة طيبة.

واستنتج «مكيافيلي» من هذا أنه لا يلزم الأمير أن يكون متحلياً بفضائل الأخلاق المتعارف عليها، ولكن يجب عليه أن يتظاهر بأنه يتصف بها، وينبغي له أن يتدو فوق كل شيء متديناً^(١).

وساز السياسيون وطلاب الحكم والسلطان وفق مذهب «مكيافيلي» مرائين منافقين باستثناء المتقين الذين يخشون الله من الذين آمنوا بالله واليوم الآخر، وهؤلاء قليلون في التاريخ الإنساني.



(٥)

التفاف في التعامل المالي

الأصل في التعامل المالي أن يكون قائماً على الصدق والأمانة والصراحة والعدل والإنصاف والنصيحة، بعيداً عن الغش والخيانة والكذب والغبن الفاحش، حتى لا يكون وسيلة لأكل أموال الناس بالباطل.

هذا ما أمر الله به في كل ما أنزل على رسله، وهذا الأصل من قواعد التعامل المالي موضح ومشروح في التعاليم الإسلامية أوفى شرح، وأحكامه مفصلة فيه أوفى تفصيل.

(١) اقرأ مذهب «مكيافيلي» وكشف زيف مذهبه في كتاب «كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة» للمؤلف.

وهو ما تدعو إليه فضائل الأخلاق، ومبادئ الحقوق الإنسانية، وإلا كان التعامل المالي وسيلة من وسائل ظلم الناس للناس، وتلاعب الشياطين أرباب الجبيل على أهل الغفلات، والبرءاء الذين ينخدعون بظواهر أحوال المرئيين المنافقين، ولا يكتشفون ما يخفون وراء هذه الظواهر من أخلاق السطو على حقوق الآخرين بالمكر والكيد والحيلة.

ويلاحظ أن كثيراً من الناس لا يخشون الله وعذابه ونقمته العاجلة والآجلة، فيحتالون في أبواب التعامل المالي، حتى يأكلوا أموال الناس بالباطل، مستغلين للوصول إلى الثراء الفاجش جهود غيرهم من أهل الكد والعمل.

وأكثر الذين يجمعون الأموال الطائلة إنما يجمعونها عن طريق أكل أموال الناس بالباطل، ويحتالون لتحصيلها بجيل كثيرة يمكن إدخال معظمها تحت عنوان النفاق والرياء، وذلك لأن عمدتهم فيها الكذب والغش وخيانة الأمانة والمخادعة، وإظهار ما يغتر ويسر، وإخفاء ما يفتقر ويضر، وادعاء الربح المعتدل أو عدم الربح أو الخسارة، كذباً وزوراً، مع خلف الأيمان المغلظة، وتقديم الوثائق المزورة، وكل هذه الخصال هي من خصال المرئيين والمنافقين.

ومن الناس من يتظاهر بالأمانة والتقوى وخشية الله، ليأمنه الناس على أموالهم في الودائع، أو في المشاركات، فإذا سقطوا في حباله جحد حقوقهم، أو خان الأمانة وهم لا يشعرون، فأكل أموالهم أو بعضها ظلماً وعدواناً، واتخذ لذلك ذرائع مختلفة، يؤهم بها أنه لم يكن خائناً ولا جانياً، وأنه شديد الورع بالنسبة إلى حقوق الآخرين، فهو لا يأخذ مال غيره بغير حق، ولا يدخل على نفسه مالاً حراماً، ولا مالاً فيه شبهة.

وكثير من التجار والصناع والعمال والموظفين يظهرُونَ خلاف ما هم عليه، ويلبسون أثواب زور، ليستروا بها أعمالاً كثيرة يأكلون فيها أموال الناس أو أموال الدولة بالباطل.

ومن حيلهم الغش، والتلاعب بالأسعار، واقتراء الوثائق المزورة، وحلف الأيمان الكاذبة، وتبديل المتفق عليه بغيره مما هو أقل من المتفق عليه قيمة، وسرقة وقت العمل المأجور للقيام بأعمال خاصة تجر لسارق الوقت مكسباً مالياً أو منفعة خاصة،

وربما يَنْدَرُعُ سارقُ وقتِ العملِ بِأنه يُعَدُّ نَفْسَهُ للصلاة، أو نحو ذلك من العبادات.

ومن يتابع قضايا الخلافات المالية التي تُعْرَضُ على قُضاةِ محاكم العدل، يكتشف آلافاً من جيلِ النفاق، التي اسْتَحْدَمَهَا أَكْبَرُ أموالِ الناسِ بالباطل، ليتوصلُوا بها إلى سَلْبِ الناسِ أموالهم.

* * *

(٦)

النفاق بتقديم الخدمات والمساعدات الإنسانية

يلبس المبشرون بالنصرانية، والمستشرقون، والمستعمرون، والشيوخيون، وسائر أعداء الإسلام والمسلمين أفنعة المساعدات والخدمات الإنسانية رياءً ونفاقاً لتحقيق أغراضهم الخاصة داخل شعوب الأمة الإسلامية.

* فمنهم مدفوعون بدافع العداء للإسلام والمسلمين، وغرضهم هدم الإسلام، وإبعاد المسلمين عنه، وجعلهم يكفرون به، ليكونوا تابعين لهم في عقائدهم ومذاهبهم، ومنقذين لمآربهم الخاصة في أنفسهم.

* ومنهم مدفوعون بدافع الطمع باستغلال الشعوب المسلمة، ونَهَبِ ثرواتها، فيُظْهِرُونَ لهم المودة، والرغبة في أن يساعدهم مُساعداتٍ إنسانية علمية أو طبية أو مالية أو عسكرية أو صناعية أو زراعية أو نحو ذلك.

ثم تكون مساعداتهم ذات المظهر الإنساني للشعوب المسلمة بمثابة من يقدم الطَّعْمَ الطَّيِّبَ لِلسَّمَكِ في البحر على شوكة حادة ليصطاد به السَّمَكُ، فيتاجر به أو يأكله.

كم أسَّس المبشرون من مدارس ومعاهد، وكم أسَّس المستشرقون من جامعات، تحت ستار المساعدات التعليمية الإنسانية، وكان هدفهم تنصير المسلمين، وتطويع الأجيال الناشئة من أبنائهم ليقَبَلُوا أن تستعمرهم الدول النصرانية التي تنتمي إليها هذه المدارس التبشيرية، والجامعات التبشيرية والاستشرقية.

وكذلك فعل مؤسسو المدارس العلمانية الموجهة من قبل الدوائر الاستعمارية.

وكم من إرساليات طبية تبشيرية وفدت إلى بلاد المسلمين، فأنشئت مستوصفات ومستشفيات لطبابة المرضى من المسلمين، وكان هدفهم تنصير المسلمين، أو إخراجهم من الإيمان بالله إلى الكفر به، وانتزاع مكارم الأخلاق منهم، وتدمير مجتمعاتهم، وتطويع نفوسهم لقبول استعمار الدول النصرانية لهم.

وكم قدّمت الدول النصرانية أو العلمانية مساعدات مالية على سبيل قروض بفوائد، وقد تكون مغلفة بعطاءات على سبيل مساعدات إنسانية، والغرض منها إحكام سيطرتها على البلاد والدول التي قدّمت لها هذه القروض والمساعدات، باستعمار مباشر أو غير مباشر.

ومن ذلك أيضاً تقديم المساعدات العسكرية، وإتباعها بإثارة حروب إقليمية، أو فتنٍ داخلية تتحوّل إلى حروب أهلية، تُدمّر البلاد، وتهلك الناس، وتستهلك الثروات، وتُمرّق الأمة إلى فرقٍ وأحزاب متعادية يحقد بعضها على بعض، فتبتعد بذلك عن مواكبة الارتقاء العلمي والحضاري في مجالات القوى المادية والصناعية والاقتصادية المختلفة.

ومن ذلك تقديم المساعدات الإدارية، بإرسال مستشارين إداريين، وتقديم المساعدات السياسية، بإرسال مستشارين سياسيين، وتقديم المساعدات القانونية، بإرسال مستشارين قانونيين، والغرض من كلّ ذلك تحويل بلاد المسلمين عن شرائع الإسلام وأحكامه في هذه المجالات، وتطبيق الأنظمة العلمانية المنافية في أسسها وتطبيقاتها لما جاء في دين الله للناس.

ونظير ذلك المساعدات الصناعية والزراعية التي تأتي باسم مساعدات إنسانية، إلا أنها جميعاً أقمعة تخفي تحتها أغراضاً ومصالح شخصيةً للمنصرين، أو المكفرين، أو المستعمرين.

* * *

(٧)

النفاق الاجتماعي بين الأفراد

ليس من النفاق الاجتماعي المداراة، والمجاملة، والإكرام وحسن المقابلة،

وبشاشة الوجه، وأنواعُ العطاء المختلفة، والعفو والصفح والمسامحة والتغاضي عن السيئات، في التعامل مع المخالفين أو الخصوم أو الأعداء الكافرين، بغية تأليف قلوبهم لاعتقاد مبادئ دين الله الحق، ثم العمل بشرائعه وأحكامه، وإزاحة ما في نفوسهم من عقبات صادة، تحجبهم عن إدراك الحق، والاستجابة لدعوته. أو بغية استجلاب مرتكبي المعاصي إلى طاعة الله عز وجل والعمل بمراضيه، وإنقاذهم من عذاب الله ونقمته، أو بغية تأليف قلوب الأعداء أو الحاقدين أو الحاسدين، لتزج ما في صدورهم من غلٍّ وحقدٍ وحسدٍ وعداوة، وبذر بزور المودة والمحبة والاخوة الصادقة الصافية فيها، حتى تُشدَّهم روابط الإخاء، فيستعذبوا الولاء والصفاء، بعد أن استحکم فيهم داء العداء.

بل هذه الأعمال الحكيمة الرشيدة هي من الفضائل العظمى، ومن مكارم الشيم. ومحاسن الأخلاق، وكَمَالَاتِ التعامل الاجتماعيِّ الأمثل، لأن الغرض منها مصلحةٌ من يؤلَّف قلبه، وابتغاء مرضاة الله فيه، وليس للشيطان فيها حظٌّ ما، من جهة كونها وسائل هداية وإصلاح، وجلب خيرٍ لِمَنْ تُوجَّهُ له، ويُعامل بها.

إنما النفاق الاجتماعي ما كان من ذلك وسيلةً لإخراج المؤمنين من الإيمان إلى الكفر، ومن الإسلام والطاعة إلى المعصية والفجور، ومن مناصرة الحق والخير، إلى مناصرة الباطل والشر. وما كان من ذلك أيضاً وسيلة لاستدراج الإنسان حتى يغتر ويستسلم فيقع في مصيدة المنافق، وعندئذ يستغله لمصلحته، ويحقق منفعه أو هواه منه أو عن طريقه، أو يسلبه ما يملك من مالٍ أو جاهٍ أو سلطان أو زوجة أو مسكن، أو يوقعه في مهلكةٍ ما حسداً وبغياً وظلماً.

أمثلة

* فمن أمثلة النفاق الاجتماعيِّ التظاهر بالأمانة التامة من مستوى الورع الذي لا يتورَّع إلا الصديقون، ليغتر صاحب المال فيسلم ماله في قرضٍ حسن، أو مشاركة في عمل ما، أو نحو ذلك، حتى إذا تمكَّن المنافق من الظفر بما يريد ممن نافقه، قلب ظهرَ البعير، وتغير عما كان عليه من ورع وأمانة، فجمد المال، وابتلع ما كانت قد

وَصَلَتْ يَدُهُ إِلَيْهِ، وَظَهَرَ عَلَى حَقِيقَتِهِ بَاغِيًا ظَالِمًا مُجْرِمًا، وَلِذَا خَائِنًا.

* ومن أمثلة النفاق الاجتماعي تظاهر أحد الخاطبين أو كليهما بالحب والعطاء والتفاني في الخدمة وحسن المعاشرة، والتزام الأدب والحشمة ومكارم الأخلاق، والجود والتسامح والصنع والمعونة، للتغريب والظفر بإتمام عقد الزواج، حتى إذا تمكّن المخادع منهما من تحقيق ما أراد من صاحبه ظهر على حقيقته، وانكشف أن كل ما كان قد تظاهر به لم يكن إلا رياء ونفاقاً ومخادعة وكذباً وزوراً، وشبكة وضعها ليصطاد بها ما كان يطمع في الحصول عليه، والظفر به لدى من نافق له وخادعه.

ولما ظفر بما أراد سقط القناع، وظهرت من ورائه نفس الذئب الماكر الخداع، فتكر لكل ما كان يتظاهر به، وساء خلقه، وساء معاملته، واستشرى طمعه وجشعه.



الفصل الخامس

مُلَخَّصُ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ النَّفْسِيَّةِ
وَأَثَارُهَا فِي سُلُوكِهِمُ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ
اِقْبِيَّاسًا مِنَ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ
الَّتِي تَدْبُرُهَا فِي الْقِسْمِ الثَّانِي

(١)

مقدمة

النصوص القرآنية التي تدبرها إن شاء الله في القسم الثاني من هذا الكتاب، وباللغة (٣٤) نصاً من (١٦) سورة قد اشتملت على جَمِّ غفير من صفات المنافقين النفسية، وأثارها في صفاتهم السلوكية الباطنة والظاهرة، وقد بلغ إحصاؤها بعد استخراجها من دلالات النصوص (١١٤) صفة نفسية وصفة سلوكية، في السلوك الباطن والظاهر، وما جاء مكرراً منها قد ذكرته النصوص اللاحقة للدلالة أن معالجتهم بوسائل التربية المختلفة الإقناعية والترغيبية والترهيبية والفاضحة والمنذرة بتعربتهم ومحاسبتهم ومعاقبتهم بيد الرسول وأيدي المؤمنين، من دون العذاب الأكبر الذي سيُعَذَّبون به يوم الدين، لَمْ تَكُنْ ذات جدوى بالنسبة إلى بعضهم، الذين ما زالوا على قبائحهم التي كانوا عليها منذ مردوا على النفاق.

ويحسُن بنا أن نستعرض هذه الصفات في فصل خاص قبل دراسة النصوص المشار إليها دراسة تدبرية، وضمَّ هذا الفصل إلى فصول القسم الأول من هذا الكتاب، المشتمل على مقدّمة وتعريفات عامة.

فيان صفات المنافقين من القضايا التي تدخل تحت عنوان التعريفات العامة.

وقد سبق بيان صفات المنافقين الواردة في بيانات الرسول ﷺ، لدى شرح النفاق

الأصغر، وهي كما يلي جمعاً من عدّة أحاديث وردت في صفاتهم:

- ١ - الكذب في القول والعمل.
- ٢ - إخلاف الوعد.
- ٣ - الغدر بنقض العهد.
- ٤ - خيانة الأمانة.
- ٥ - الفجور في المخاصمة.
- ٦ - تحييتهم لعنة.
- ٧ - طعامهم نَهْمَة (أي: يتناولون الطعام بشهوة مفرطة).
- ٨ - غنيمتهم غلول.
- ٩ - لا يدخلون المساجد إلّا قليلاً.
- ١٠ - لا يأتون الصلاة إلّا دُبْرًا.
- ١١ - الاستكبار.
- ١٢ - لا يَأْلِفُون ولا يُؤْلَفُون.
- ١٣ - خُشْبُ اللَّيْلِ، أي: كالخُشْب لا يذكرون الله.
- ١٤ - سُحْبُ النَّهَار، أي: يُكْثِرُونَ الصياح والضجيج من أجل دنياهم.
- ١٥ - يتَهَرَّبُونَ من شهود صلاتي العشاء والفجر.
- ١٦ - عُصَاةُ اللهِ ورسوله.
- ١٧ - جبناء عند لقاء الأعداء في الحرب.

(٢)

ملخص صفات المنافقين المقتبسة من النصوص القرآنية

أخذاً من النص (١) من سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف / ٨٥ نزول)

الآيتان (١٠ - ١١)

الصفة (١):

من صفات بعض الذين أسلموا دون أن يتمكّن الإيمان في قلوبهم أنهم إذا تعرضوا لأذى على أيدي الكافرين من أجل إسلامهم أعطوهم من بواطنهم ما يريدون،

وساروا معهم في الكفر، وربّما استَبَقُوا ظاهر انتمائهم إلى الإسلام نفاقاً لئلا يُدانوا بالردة عن الإسلام.

أخذاً من النص (٢) من سورة (البقرة/ ٢ مصحف / ٨٧ نزول)

(الآيات من (٨ - ٢٠)

الصفة (٢):

من صفات المنافقين أَنَّهُمْ كَذَّابُونَ يقولون بالسّتهم ما ليس في قلوبهم، فيقولون آمناً بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين، إذ قلوبهم منكرة جاحدة، فهم يكذبون عن تعمّد وإصرارٍ في أخطر قضية من قضايا الوجود والحياة، هي قضية الدين.

الصفة (٣):

أنهم مخادعون، فهم فيما يتظاهرون به من قول أو عمل يقصدون مخادعة المؤمنين، ليأمنوا جانبهم وليأمنوا جانب أعدائهم الكافرين، وليظفروا بالمغانم والمنافع من كلا الفريقين بحسب تصوّرهم.

الصفة (٤):

أنهم مصابون بمرض خلقيّ في قلوبهم، وهو ليس من أصل فطرتهم، لكنّه من مكتسبات إراداتهم فهو مرض مكتسب، وبسببه سلكوا مسلك النفاق.

الصفة (٥):

أنهم يُفسدون في الأرض بأقوالهم وأعمالهم، فإذا قيل لهم: لا تُفسدوا في الأرض بهتّوا الحقيقة بكلّ وقاحة، وجعلوا الباطل حقّاً والحقّ باطلاً، دونما حياة ولا تلجلج وقالوا: إنّما نحن مصلحون، وأخذوا يدعون بأن سلوكهم المنافق المفسد هو من الأعمال الإصلاحية.

الصفة (٦):

أنهم يدعون لأنفسهم الذكاء ورجاحة العقل والحكمة في تدبير الأمور، ويتهمون المؤمنين بالسفاهة، أي: بنقص العقل ويأنهم محرومون من الحكمة والفتنة وحسن تدبير الأمور وتفهم غاياتها.

والحقيقة أنَّ المنافقين هم السفهاء ولكن لا يعلمون، لأنَّ أهواءهم طمست على بصائرهم.

الصفة (٧):

أنَّ لهم أكثر من وجه، وأدناسها وجهان، لهم وجه يستعلنون به إذا لقوا الذين آمنوا، ولهم وجه آخر يتوارون به ولا يُظهِرُونَهُ إِلَّا إلى شياطينهم، أي: إلى إخوانهم الكافرين أمثالهم، أو إلى الموسوسين لهم بأن يسلكوا مَسَلَّكَ النفاق من شياطين الإنس كاليهود، ويُعَلِّلُون لإخوانهم هذا التَّلَوُّنَ بأنهم يستهزنون بالمؤمنين، أي: يستغفلونهم ويخدعونهم ويغررون بهم ويترصّدون غِرَاتِهِم للإيقاع بهم، أو التخلّي عنهم في أوقات الشدائد.

الصفة (٨):

أنَّ المنافقين صنفان:

الأول: صنف مردوا على النفاق، فهم صُمُّ بكم عُمي، لذلك فهم لا يرجعون إلى الحق ولا إلى طريق الهدى.

الثاني: صنف ما زال مذبذباً بين الإيمان والكفر، لكنّه إلى الشات في موقع الكفر أقرب.



أخذاً من النص (٣) من سورة (البقرة) / ٢ مصحف / ٨٧ نزول) أيضاً
الآيات من (٧٥ - ٨٢)

الصفة (٩):

أنَّ المنافقين من اليهود يغلب في شأنهم أنَّ احتمال صدق إيمانهم مستقبلاً يكاد يكون ميؤوساً منه، لعدّة عوامل نفسية قائمة لدى المجتمع اليهودي فصلها النص.



أخذاً من النص (٤) من سورة (البقرة) / ٢ مصحف / ٨٧ نزول) أيضاً
الآيات من (١٤٢ - ١٤٥)

الصفة (١٠):

إثارة الشبهات والتشكيكات حول شرائع الإسلام وأحكامه ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.

دلّ على هذه الصفة موقف المنافقين من قضية تحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة، بعد أن كان بيت المقدس هو القبلة التي يتوجهون لها في الصلاة.

أخذاً من النص (٥) من سورة (البقرة) / ٢ مصحف / ٨٧ نزول) أيضاً
الآيات من (٢٠٤ - ٢٠٧)

الصفة (١١):

من المنافقين فريق يُعجبُ قوله في الحياة الدنيا من يلاقيه، ويدّعي أنّ قلبه ينطوي على الخير وحبّ الخير وابتغاء الخير، ويُشهد الله بالإيمان على ما يدّعي أنّه في قلبه، وهو في الحقيقة من أكثر الناس مجادلةً بالباطل، وانحرافاً عن الحقّ.

إذا تولى عن مجلس محدّثه أو نسلم سلطة ولاية سعى في الأرض ليُفْسِدَ فيها ويُهْلِكَ الحرث والنّسل، وإذا قيل له اتّق الله أخذته العزّة التي هو فيها مكبلاً بسلامل الإثم، فابتعد عن تقوى الله، وسارت به حتى أوصلته إلى أودية الجرائم العظيمة وأنواع البغي والطفيان.

أخذاً من النص (٦) من سورة (الأنفال) / ٨ مصحف / ٨٨ نزول)
الآيات من (٤٩ - ٥٥)

الصفة (١٢):

أن يقول المنافقون إذا تعرّض المؤمنون بسبب دوافع إيمانهم لما يُظَنُّ معه الهلاك أو الخيبة، كنوّرتهم في معركة هم فيها دون عدوّهم عدداً وعُدّة: غرّ هؤلاء دينهم.

أي: خدعهم وأطمعهم بالباطل دينهم، فاندفعوا بسفاهة وقلة عقلٍ اعتماداً على معونات غيبيةٍ تأتيهم يتخيّلونها دون أن يكون لها في الواقع وجود.

والسبب في إطلاقهم هذه المقالة أنهم غير مؤمنين، أو في قلوبهم مرض الشك والتردد حول صدق ما جاء في الإسلام.

أخذاً من النص (٧) من سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول)
الآيات من (٦٩ - ٧٤)

الصفة (١٣):

من صفات المنافقين خطة الدخول في الإسلام نفاقاً، ثم الارتداد عنه، إغراء لغيرهم بالردة، وقد بدأ هذه المكيدة طائفة من اليهود.

أخذاً من النص (٨) من سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول) أيضاً
الآيات من (١١٨ - ١٢٠)

الصفة (١٤):

من صفات المنافقين أنهم إذا تمكنوا من أن يكونوا بطانة لقادة المؤمنين، لم يقصروا في أعمال إفساد أحوال المؤمنين، وتوهين قواهم، وتمزيق صفوفهم، ومؤازرة أعدائهم ضدهم، حتى استئصال شأفتهم.

الصفة (١٥):

أنهم يتمنون أن ينزل بالمؤمنين كل بلاء وعنت ومشقة وضرر، وهذا يدفعهم إلى اتخاذ الوسائل لتحقيق ما يتمنون، وإلى تدبير المكاييد ضدهم.

الصفة (١٦):

أن أمارات بغضهم الشديد للمؤمنين تظهر فعلاً من أقوالهم وفلتات ألسنتهم، رغم شدة حرصهم على إخفاء هويتهم.

الصفة (١٧):

أن منافقي اليهود هم أخطر المنافقين وأخبثهم وموجهوهم، مع أن المفروض أن يكونوا بخلاف ذلك.

الصفة (١٨):

إِنْ تَمَسَّ الْمُؤْمِنِينَ حَسَنَةٌ تَسُؤِ الْمُنَافِقِينَ، وَإِنْ تُصِبِ الْمُؤْمِنِينَ مَصِيبَةٌ يُفْرَحِ الْمُنَافِقُونَ بِهَا.

أخذاً من النص (٩) من سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول) أيضاً
الآيات من (١٥٢ - ١٥٨)

الصفة (١٩):

إذا تحولت رياح النصر عن المؤمنين حين يكونون معهم في المعركة نزل بالمنافقين الهمم والغم والخوف الشديد. واستولت عليهم الظنون التي هي من ظنون الجاهلية، وانطلقت ألسنتهم بالتلويم، مثل قولهم في معركة أحد: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا.

وحين لا يكونون مع المؤمنين في المعركة انطلقت ألسنتهم بما يكشف كفرهم في الباطن، مثل قول المنخلفين عن غزوة أحد والمنخلفين عن الرسول بشأن الذين قتلوا فيها من إخوانهم: لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا.

أخذاً من النص (١٠) من سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول) أيضاً
الآيات من (١٦٥ - ١٦٨)

الصفة (٢٠):

تَخَلَّفَ الْمُنَافِقِينَ عَنْ مِشَارَكَةِ الْمُؤْمِنِينَ فِي قِتَالِ أَعْدَائِهِمْ مَا وَجَدُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، وَتَعَلَّلُوا بِمَعَاذِيرِ كَوَازِبٍ، كَقَوْلِهِمْ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ لِلْمُؤْمِنِينَ:

﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالَ لَا تَبْعَنَّاكُمْ﴾.

جواباً على دعوتهم لهم بقولهم:

﴿تَعَالَوْاقْتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْادْفَعُوا﴾.

وكقول المنافقين بعد غزوة أحد بشأن من قُتِلَ من إخوانهم فيها:

﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ .

الصفة (٢١) :

حينما يقدمون المعاذير الكواذب التي يظنون أنها ذات قوة يملأون بها أفواههم متشدقين، كأنهم أصحاب حق .

وهذا تابع في الحقيقة لصفة الفجور في الخصومة التي هي من أصول صفات المنافقين .

* * *

أخذاً من النص (١١) من سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول) أيضاً
الآيات من (١٧٦ - ١٧٩)

الصفة (٢٢) :

إن الذين يبدوون خطوات النفاق، يسارعون في الكفر حين توجه لهم امتحانات صعبة، كالقتال في سبيل الله، أو المصائب الشديدة في الأموال والأنفس، لأن الشيطان يستحوذ عليهم بوساوسه وتوسيلاته حينئذ .

* * *

أخذاً من النص (١٢) من سورة (الأحزاب / ٣٣ مصحف / ٩٠ نزول)
الآيات من (٩ - ٢٧)

الصفة (٢٣) :

التباطؤ لدى مشاركة المؤمنين في الأعمال الإسلامية العامة، كحفر الخندق في غزوة الأحزاب، والمراعاة بالعمل، والتستر بالقيام بأهون الأعمال وأضعفها، والتسلل إلى أهلهم بغير إعلام ولا استئذان .

الصفة (٢٤) :

إطلاق الستهم بكلمات وعبارات الكفر عند الشدائد التي يتعرض فيها المسلمون لاحتمالات انتصار الكفار عليهم .

كقولهم في غزوة الأحزاب : ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً .

وكقول مُعْتَب بن قُشَيْر، وكان من المنافقين: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط.

الصفة (٢٥):

إطلاق ألسنتهم بعبارات الإرجاف والتخذيل، والفرار من المعركة، والرجوع عن مواجهة العدو.

كقول طائفة منهم في غزوة الأحزاب: يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا.

الصفة (٢٦):

التحايل للانسحاب من مواجهة العدو تعلُّلاً بأعذار كاذبة، وتوجيه طلبات الاستئذان بالرجوع إلى بيوتهم.

كقول طائفة منهم في غزوة الأحزاب مستأذنين بأن يرجعوا إلى المدينة، من أماكن المواجهة دون الخندق: إنَّ بيوتنا عورة، مع أنَّها في الحقيقة ليست بعورة، إنما يريدون الفرار من المعركة.

الصفة (٢٧):

التخلف والتشيط والتعويق عن الخروج لمواجهة العدو، فهم لا يأتون للمشاركة في البأس إلا قليلاً، وحين يحضرون فإنَّما يفعلون ذلك رياءً ومصانعة ومخافة أن ينكشف نفاقهم انكشافاً جلياً لعموم المسلمين.

فقد كان المتخلفون في غزوة الأحزاب يقولون لإخوانهم: هَلُمَّ إلينا، أي: تعالوا إلينا واتركوا مواقعكم، فعندنا الأمن والراحة والظلُّ والطعام والشراب.

الصفة (٢٨):

كشف الله في هذا النصِّ ممَّا يكتُمون في صدورهم أنه لو دخل جيش المشركين المدينة وطلب منهم الكفر أو تسليم الرسول والمؤمنين لفعَلوا ذلك، ولانحازوا إلى صفوف أهل الشرك والكفر من العرب واليهود.

وقد تحقَّقت في الواقع هذه الظاهرة من صفات المنافقين في أحداث كثيرة تاريخية، دخل فيها الغزاة الكفار بلاد المسلمين، فكانوا أنصارهم وأعوانهم ومؤيديهم والمنحازين إليهم، وانكشف فيها خياناتهم، وأنهم في الباطن كفارٌ غير مؤمنين.

الصفة (٢٩):

أنهم شحيحون على المؤمنين بأموالهم وأعمالهم ومعوناتهم ويكفل شيء من أنفسهم ومما يملكون، وأنهم شحيحون عليهم أيضاً بمثل ذلك من غيرهم، فهم يكرهون أن يبذل أحدُ لهم ماله أو عمله، أو شيئاً ما من نفسه أو ممّا يملك، وأنهم شحيحون على كلّ خير.

والسبب في ذلك أنهم غير مؤمنين بجدوى البذل لصالح المؤمنين، أو البذل في سبيل الخير.

الشحيح: هو أشدُّ البخلاء بخلاً، فهو يبخل بماله وبمال غيره.

الصفة (٣٠):

أنهم يُصابون بالذعر الشديد، إذا أقبلت الوسائل المخيفة، ولا سيما إذا كانوا في معارك قتالية.

ومن مظاهر ذعرهم الشديد أن تدور أعينهم كدوران عيني الذي يُغشى عليه من خوف الموت، فيُغَطِّي وعيه وإدراكه ذعراً وُهلاً بسبب انفعال الخوف في نفسه.

إنهم في ساعات الخوف جنباء صامتون مُبلسون منهارون، لا تتحرك أسلحتهم ولا أيديهم بل تدور أعينهم ذعراً وُهلاً.

الصفة (٣١):

أنهم إذا ذهب أسباب الخوف واطمأنوا وأخسوا بالأمن، انطلقت ألسنتهم بجرأة صائحين في وجوه المؤمنين بكلام شديد عنيف يؤذيهم، وتمادوا بالغبين في خصوصتهم لاثفه الأسباب.

وهذا يرجع إلى صفة الفجور فيهم، فمن علامات المنافق أنه إذا خاصم فجر.

وللمنافقين عندئذ موقفان:

(١) فإن كانت المعركة لصالح العدو أخذوا يوجهون اللوم والتشريب للمؤمنين، ولقائد معركتهم، ولبطانته الصادقة المخلصة، ويتبجحون بصحة آرائهم الانهزامية.

(٢) وإن كانت المعركة لصالح المؤمنين أخذوا يطالبون بأوفر النصيب من

الغنائم، وتعلو أصواتهم، ويتجحون ببطولاتهم، مع أنهم كانوا جناء انهزاميين.

الصفة (٣٢):

أنهم لا فائدة تُرجى من مشاركتهم للمؤمنين في معارك القتال، لأنهم لا يقاتلون إلا قتالاً قليلاً.

الصفة (٣٣):

أنهم مرجفون خلال معارك القتال. والإرجاف هو الإخبار بالكاذب لإنارة الفتن والاضطرابات، وإحداث الرجفان من الخوف.

* * *

أخذاً من النص (١٣) من سورة (الأحزاب / ٣٣ مصحف / ٩٠ نزول) أيضاً
الآيات من (٣٦ - ٤٠) والآية (٤٨)

الصفة (٣٤):

مشاركة الكافرين في ترويع مقالات السوء ضد الرسول ﷺ.

ففي زواج الرسول «زينب بنت جحش» مطلقة «زيد بن حارثة» الذي كان الرسول قد أعتقه وتبناه، ردّد الكافرون والمنافقون معاً مقالة السوء حول شخص الرسول ﷺ، إذ كانوا يقولون: إن محمداً يحرم نكاح نساء الأولاد، وقد تزوج امرأة ابنه «زيد» الذي كان قد تبناه بعد أن أعتقه.

* * *

أخذاً من النص (١٤) من سورة (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول)
الآيات من (٥٩ - ٧٠)

الصفة (٣٥):

إرادة المنافقين أن يتحاكموا إلى الطاغوت، استجابة لوساوس الشيطان الذي يريد أن يضلّهم ضلالاً بعيداً، مع أنهم مأمورون في تعاليم الدين أمراً صريحاً جلياً أن يكفروا بالطاغوت، فلا شبهة لهم ولا عذر، لكن بواعث الكفر هي التي تدفعهم إلى إرادة التحاكم إلى الطاغوت في خصوماتهم.

* * *

أخذاً من النص (١٥) من سورة (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول) أيضاً
الآيات من (٧١ - ٨٤)

الصفة (٣٦):

التباطؤ والتهاون والتواني عن الخروج مع المسلمين لقتال عدوهم، وهذه الصفة من مكررات ظواهرهم السلوكية الدالة على نفاقهم.

الصفة (٣٧):

تهيئ من يستجيب لهم من الجبناء وضعفاء الإيمان، وهذه الصفة من مكررات ظواهرهم السلوكية الدالة على نفاقهم.

الصفة (٣٨):

تحدث بعضهم بالفرح والمسرّة إذا أصاب الخارجين من المسلمين للقتال مصيبة أو مضرّة، ويرى أنّ الله قد أنعم عليه إذ لم يشهد مع المؤمنين قتال عدوهم، فنجّا بذلك ممّا نزل بهم.

الصفة (٣٩):

التحسّر والتندّم على ما فاتهم من الفوز بالغنيمة، إذا انتصر الخارجون من المسلمين، وأصابوا من عدوهم غنائم.

وهم مع هذا التحسّر والتندّم يحسدون الخارجين على ما أصابوا من غنائم حسد من لم يكن ذا ودّ سابق، فيقول القائل منهم:

﴿يَلَيْسَتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

الصفة (٤٠):

من ظواهرهم في السلوك أن بعضهم كان له موقفان متناقضان وهما ما يلي:

(١) قبل الإذن بالقتال كانوا يُطالبون بأن يؤذن لهم به، فيؤمّرون بأن يكفّوا أيديهم.

(٢) وبعد أن كتب الله على المسلمين القتال دبّ الخوف في قلوبهم فصاروا يخشون الناس كخشية الله، أو أشدّ خشية، وقالوا:

• ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْفِتَالَ؟﴾

• ﴿لَوْ لَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾

الصفة (٤١):

من ظواهرهم في السلوك ما يلي:

(١) إِنَّ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ مِنْ نَصْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ أَوْ أَيْ أَمْرٍ قَدَرِيٍّ بِسُرْهِمْ، كَغَنِيٍّ وَخَصْبٍ وَسَعَةٍ رَزَقٍ وَصَحَّةٍ وَبَيْنِينَ قَالُوا: هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، أَيْ: لَمْ تَأْتِهِمْ بِبِرْكَهٍ دَعَا الرُّسُولَ وَبِسَبَبِ إِكْرَامِ اللَّهِ لَهُ.

(٢) وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ مِنْ مَصِيبَةٍ فِي الْأَنْفُسِ أَوْ فِي الْأَمْوَالِ، مِنْ أُمُورٍ قَدَرِيَّةٍ يَتَنَلِّهِمُ اللَّهُ بِهَا قَالُوا: هَذِهِ مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ، أَيْ: لَمْ يُحِبِّنِ التَّنَصُّرُ فِي إِدَارَتِهِ أَوْ فِي قِيَادَتِهِ فِي السَّلَمِ وَالْحَرْبِ.

(٣) أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْهُمْ ذَا كُفْرٍ وَعِنَادٍ وَقَدْ مَرَدَّ عَلَى النِّفَاقِ، فَإِنَّهُ يَقُولُ مَقَالَةَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قَبْلُ: إِنَّ مَا نَزَلَ بِنَا مِنْ سَيِّئَاتٍ وَمَصَائِبٍ إِنَّمَا كَانَ مِنْ شُؤْمٍ دَعَا مُحَمَّدٌ أَلْتِي فَرَّقْتَ قَوْمَهُ، وَجَلَبْتَ التَّرَاجُعَ وَالْخِلَافَ وَالْحُرُوبَ.

الصفة (٤٢):

من ظواهرهم في السلوك التناقض بين ما يُعْلِنُونَ لِلرُّسُولِ أَوْ لِإِمَامِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِهِ مِنَ الطَّاعَةِ وَالْخُضُوعِ عِنْدَ الْمَوَاجَهَةِ، وَبَيْنَ مَا يُبَيِّتُونَ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ مِنَ الْمَعْصِيَةِ وَالْمُخَالَفَةِ، وَالْعَمَلِ بِغَيْرِ مَا كَانُوا قَدْ أَعْلَنُوهُ لَهُ.

الصفة (٤٣):

وَمِنْ ظَوَاهِرِهِمْ فِي السُّلُوكِ ظَاهِرَةٌ إِفْشَاءُ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ مَا وَجَدُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، وَالْعَمَلُ عَلَى إِذَاعَتِهَا وَنَشْرِهَا، سَوَاءً أَكَانَتْ مِنْ أُمُورِ السَّلَامِ أَوْ أُمُورِ الْحَرْبِ.

وَالسَّبَبُ فِي هَذَا أَنَّهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ بِالْوَلَاءِ لِلْمُسْلِمِينَ، فَهَمَّ لَا يَهْتَمُّونَ لِكُتْمَانِ مَا يَضُرُّ الْمُسْلِمِينَ إِذَاعَتَهُ.

أَخَذْنَا مِنَ النَّصِّ (١٦) مِنْ سُورَةِ (النِّسَاءِ / ٤ مَصْحَفٍ / ٩٢ نَزُولٍ) أَيْضًا

الآيَاتِ مِنْ (٨٨ - ٩١)

الصفة (٤٤):

أنهم إذا تهيأت لهم فرصة مظاهره الكافرين من وراء المؤمنين ظاهروهم ضد المؤمنين.

الصفة (٤٥):

تمني المنافقين أن يكفر المؤمنون حتى يكونوا مثلهم سواء في الكفر والسلوك. وبذلك يتخلص المنافقون من التناقض الذي هم عليه بين ظاهريهم وباطنيهم. وظاهر أن دوافع هذه الأمتية دوافع شيطانية خبيثة.

* * *

أخذاً من النص (١٧) من سورة (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول) أيضاً
الآيات من (١٠٥ - ١١٦)

الصفة (٤٦):

من ظواهرهم في السلوك ظاهرة ارتكاب الجرائم وإلقاء تهمة ارتكابها على البراء من الناس.

* * *

أخذاً من النص (١٨) من سورة (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول) أيضاً
الآيات من (١٣٦ - ١٤٧)

الصفة (٤٧):

من صفات المنافقين المذبذبين بين الإيمان والكفر، أنهم يؤمنون ثم يكفرون، ثم يؤمنون ثم يكفرون، وهكذا.

فهم في نوبة الإيمان يتطلعون إلى الكافرين ذوي القوة الظاهرة، فيبتغون أن يستندوا إليهم، ويتقووا بهم، ويوالوهم من دون المؤمنين. وهذا يدفعهم إلى أن يكثروا من مجالستهم في مجالسهم، ويغضوا النظر عما يسمعون منهم من كفر بآيات الله المتزلات على رسوله، واستهزاء بها، ويخالفون ما سبق أن نهى الله المؤمنين عنه. وهم في نوبة الكفر يظنون محافظين على الانتماء إلى الإسلام في الظاهر نفاقاً.

وهذا التردد يجعلهم في حالة تربُّص دائم بين المؤمنين والكافرين، يراقبون الأحداث بين الفريقين، فمن غلب أو غنم منهما انقلبوا إليه مطالبين بالمشاركة، زاعمين له أنهم منه، وهم يسلكون أسلوب المخادعة لئلا تُفقد حقيقتهم.

ومن صفات هذا الصنف من المنافقين في ظاهرات السلوك النفاقية، وهو أيضاً من علامات سائر المنافقين غالباً، ما يلي:

(١) أنهم مخادعون.

(٢) أنهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى.

(٣) أنهم يراءون الناس في أعمالهم الإسلامية، والمرائي لا يستطيع أن يكون منفعلاً انفعالاً ذاتياً مع العمل الذي يؤدِّيه رياءً ومخادعة.

(٤) أنهم لا يذكرون الله إلا قليلاً.

(٥) أنهم مذبذبون يتأرجحون بين المؤمنين والكافرين في ولائهم، وفي سلوكهم، فلا هم في الحقيقة متمون إلى هؤلاء المؤمنين، في أقصى جهة اليمين، ولا هم متمون في الحقيقة إلى هؤلاء الكافرين في أقصى جهة الشمال.

ويظلون في حياتهم قلقين لا ثبات لهم، يتذبذبون على أرجوحة التقلُّل بين الأضداد.



أخذاً من النصّ (١٩) من سورة (الحديد) ٥٧ / مصحف / ٩٤ نزول

الآيات من (١٢ - ١٥)

الصفة (٤٨):

أنهم باختيارهم الحرَّ عرَّضوا أنفسهم للفتنة والعذاب، بالضلال الإرادي، والقُوَاية، وإبطان الكفر، ورفض الحق.

الصفة (٤٩):

أنهم يتربِّصون أن تدور الدائرة على المؤمنين، حتَّى يُغلبوا كفرهم، وينقضوا عليهم مع الكافرين الصَّرحاء.

الصفة (٥٠) :

أنهم ينظرون إلى براهين الحق الرباني بالشك والارتياب، في حين يتبعون الباطل وضلالات الكفر بالأوهام والتقليد الأعمى.

الصفة (٥١) :

أنهم يتبعون الأماني التي تُطعمهم بالباطل، وكلما ظهرت خبيثتهم نقلوا أمانيتهم إلى زمن آخر، وهكذا حتى تجل بهم منايهم دون تحقيق أمانيتهم.

الصفة (٥٢) :

أنهم سلموا أنفسهم لوساوس الشيطان، فقرهم بالله ربهم، وأطمعهم بأن الله لا ينزل بهم عذابه، وبأن أخبار رسل الله عن يوم الدين أخبار غير صادقة عن ربهم.

* * *

أخذاً من النص (٢٠) من سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول)

الآيات من (١٦ - ٣٢)

الصفة (٥٣) :

أنهم في مجالس العلم الديني يتصنعون التظاهر بأنهم يستمعون الأقوال ويضعون إليها، لكنهم في الحقيقة منصرفون عنها في نفوسهم، فلا يصل إلى أدمغتهم وقلوبهم منها شيء.

إن قلوبهم مطبوع عليها بسبب انصرافهم عنها، وعدم إيمانهم بها أصلاً وفرعاً. ومما يدل على هذا أنهم حين يخرجون من مجالس العلم الديني يقولون عقبها مباشرة: ماذا قال المحدث في حديثه آنفاً.

الصفة (٥٤) :

أنهم كانوا إذا أنزلت آيات فيها الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس، وقتال الكافرين، أصابهم الهلع والجزع، فجعلوا ينظرون إلى الرسول ﷺ نظر المغشي عليه من الموت.

الصفة (٥٥) :

أنهم يقولون للكافرين سراً: إننا لا نستطيع أن نعلن ردتنا عن الإسلام، ولكن

سنطيعكم في بعض الامر، فندفع عنكم ونحن ضمن صفوف المؤمنين، ولا نكون جاذين في عداوتكم معهم، ولا في قتالكم إذا قاتلوكم، ونحن نوصل إليكم من المعلومات المفيدة لكم ما نستطيع إيصاله إليكم، دون أن ينكشف أمرنا عند المؤمنين.

الصفة (٥٦):

أنهم يحملون في قلوبهم الأضغان والأحقاد ضد الإسلام والرسول والمؤمنين، وهذه الأضغان تشتمل على العداوة للإسلام والمسلمين ومن لوازمها إرادة الكيد، وترئص الفرص الملائمة لمحور الإسلام، واضطهاد المسلمين وتمزيقهم وإبادتهم.

الصفة (٥٧):

أن أهل الفراسة من المؤمنين يستطيعون أن يكتشفوا نفاقهم من علامات تظهر على وجوههم، وتبدو في بعض تصرفاتهم.

الصفة (٥٨):

أنهم لا بد أن تظهر في فلتات الستهم، وما يرمزون إليه في لحن القول، أمارات تدل على هويّتهم الحقيقية، يُذكرُ ذلك أهل الفطنة من الناس.

الصفة (٥٩):

طرحهم التشكيكات والشبهات بأسلوب أسئلة يوجهونها تتضمّن إلقاء الشكوك في قلوب ضعفاء الإيمان.



أخذاً من النص (٢١) من سورة (الحشر/ ٥٩ مصحف/ ١٠١ نزول)

الآيات من (١١ - ١٧)

الصفة (٦٠):

خيانتهم للمؤمنين بالاتصال بأعدائهم المحاربين لهم ووعدهم بأن ينصروهم ويشدوا أزرهم، ويكونوا معهم، وأن لا يطيعوا أحداً في شأن يضر بهم.

الصفة (٦١):

جنبهم وعذم وفائهم بوعودهم لإخوانهم من أهل الكفر، لأنهم بنفاقهم

وتظاهروهم بأنهم من المسلمين يخشون أن يكتشف المسلمون المؤمنون أمرهم خشيةً عظيمة، فيستقموا منهم بالعدل.

أخذاً من النص (٢٢) من سورة (النور / ٢٤ مصحف / ١٠٢ نزول)
الآية (١١)

الصفة (٦٢) :

تصيد المناسبات لإشاعة الأكاذيب والافتراءات ونشرها، بغية تشويه صورة المؤمنين الطاهرين، والمؤمنات الطاهرات، بما يرمونهم به من ارتكاب الكبائر، حقداً على الإسلام والمسلمين.

ومن الأمثلة افتراء حديث الإفك وإشاعته ونشره.

أخذاً من النص (٢٣) من سورة (النور / ٢٤ مصحف / ١٠٢ نزول) أيضاً
الآية (٣٣)

الصفة (٦٣) :

الاستمرار على عادات الجاهلية دون اكتراث لنصوص الشريعة الإسلامية التي ألزمت بتغييرها، والاعتراض على التدخل في الأمر من قبل القيادة الإسلامية، تذرّعاً بالمفاهيم التقليدية الجاهلية القديمة.

ومن أمثلة ذلك استمرار «عبد الله بن أبي ابن سلول» على إكراه إمامه على الزنا، لتحصيل أجور فروجين، مع أن الله قد حرم على الإمام الزنا كما حرمه على الحرائر، وجعل عليهن نصف ما على المحصنات من العذاب، ولم يرتدع حتى نزل صريح قول الله تعالى :

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَئِيتَكُمْ عَلَى إِلِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِنَبْغُوا عَرْضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا...﴾ ﴿٣٣﴾

أخذاً من النص (٢٤) من سورة (النور / ٢٤ مصحف / ١٠٢ نزول) أيضاً
الآيات من (٤٧ - ٥٤)

الصفة (٦٤):

أَنَّهُمْ لَا يَتَّقُونَ بِالتَّطَبُّقِ الْعَمَلِيِّ مَقْتَضِيَّاتِ إِعْلَانِهِمْ بِأَلْسِنَتِهِمْ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِاللهِ وَآمَنُوا بِالرُّسُلِ، وَالتَّزَامِهِمْ بِطَاعَةِ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاصِي، بَلْ يَتَعَدُّونَ ابْتِعَاداً كَامِلاً عَنْ مَوَاقِعِ الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ.

الصفة (٦٥):

من الظواهر السلوكية للمنافقين أَنَّهُمْ لَدَى خُصُومَاتِهِمْ مَعَ غَيْرِهِمْ أَصْحَابِ سُلُوكَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ:

(١) فَإِنَّ أَحَدَهُمْ إِنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ الْحَقَّ لَهُ فَإِنَّهُ يَأْتِي مَتَظَاهِرُهُ بِالْإِذْعَانِ وَالِاسْتِسْلَامِ لِحُكْمِ اللهِ وَالرُّسُولِ، لِيُحْكَمَ لَهُ الرُّسُولُ، أَوْ لِيُحْكَمَ لَهُ الْحَاكِمُ الْمُسْلِمُ مِنْ بَعْدِهِ.

(٢) وَإِنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ الْحَقَّ لَخُصْمِهِ أَعْرَضَ مُتَحَايِلاً، وَتَهَرَّبَ مِنَ التَّحَاكُمِ لِحُكْمِ اللهِ وَرُسُولِهِ، وَطَلَبَ التَّحَاكُمَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

وهذه صفة الذين يطلبون التحاكم إلى القانون المدني، ويرفضون التحاكم إلى حكم الشرع الإسلامي، حينما يرون أَنَّ الْقَانُونَ يُسَاعِدُهُمْ عَلَى هُضْمِ حَقُوقِ خُصُومِهِمْ، وَأَنَّ حُكْمَ الشَّرْعِ الْإِسْلَامِيِّ لَا يُسَاعِدُهُمْ عَلَى ذَلِكَ.

الصفة (٦٦):

المبالغة بإعطاء الوعود المؤكدة بالآيمان المشددة، وهم كاذبون في ذلك، لَا يَطْبِقُونَ مِنْ وَعُودِهِمْ شَيْئاً.

ومن الأمثلة أَنَّ بَعْضَ الْمُنَافِقِينَ أَقْسَمُوا لِلرُّسُولِ جَهْدَ آيْمَانِهِمْ قَائِلِينَ لَهُ: لَئِنْ أَمَرْتَنَا بِأَنْ نَخْرُجَ إِلَى الْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ بِأَنْ نَخْرُجَ مِنْ أَمْوَالِنَا وَأَهْلِينَا لِنَخْرُجَنَّ طَاعَةً لَكَ، وَإِيمَاناً وَاحْتِسَاباً، لَكُنْهُمْ لَدَى التَّطَبُّقِ الْعَمَلِيِّ تَبَيَّنَ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ.



أخذاً من النص (٢٥) من سورة (النور) ٢٤ مصحف / ١٠٢ نزول) أيضاً

الآيات من (٦٢ - ٦٤)

الصفة (٦٧):

أنهم إذا حضروا المجامع العامة ذات الأهمية العظيمة للإسلام والمسلمين ضاقت صدورهم، وثقل عليهم أن يتصنّعوا الصبر على ما يجري فيها، ممّا لا يؤمنون به ولا بجذواه، وضُغِبَ عليهم أن يحبسوا أنفسهم مع المؤمنين طوال مدة الاجتماع، ولا سيما إذا كانت فيه واجباتٌ عملية يضطرون أن يشاركوا فيها، وهم لا يريدون أن يكشفوا أنفسهم عن طريق الاستئذان بالانصراف لقضاء بعض شؤونهم، لأنّ مدة الغياب ستكون محسوبة عليهم، ولأنّ كثرة تهرّبهم من مشاركة المسلمين في أمورهم قد تكشف نفاقهم.

ولذلك فهم يتسلّلون مُستخفين خروجاً وغيباً وعودة إن رجعوا، دون استئذان.

الصفة (٦٨):

سوء أدب المنافقين لدى مخاطبتهم الرسول أو قائد المسلمين، لأنهم لا يُكُون له الحبّ والاحترام والتوقير والتعظيم.

لذلك فهم بالتلقائية العادية التي لا يتصنّعون فيها يخاطبرونه كما يخاطب الناس بعضهم بعضاً، ويدعونه كما يدعو الناس بعضهم بعضاً.



أخذاً من النص (٢٦) سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول)

وآياتها (١١) آية

الصفة (٦٩):

تظاهروا ببلعائهم أنهم يشهدون أنّ محمّداً رسول الله، أي: يدعون أنّ ما يُعلنونه بالاستهتهم من أنّ محمّداً رسول الله مطابق لما يعتقدون في قلوبهم، والله يعلم أنّهم لكاذبون.

الصفة (٧٠):

يتخذون خِلف الإيمان المؤكّدة ستارةً يسترّون بها نفاقهم ومكايدهم ضدّ الإسلام والمسلمين، وأحداثهم العربية التي يُحدثونها، وعذم التزامهم بسلوك سبيل الله كلّما ابتعدوا عن أعين الرقباء من المؤمنين.

الصفة (٧١):

أَنْ قُلُوبُهُمْ مَقْفَلَةٌ مَطْبُوعٌ عَلَيْهَا، لَا تَتَلَقَّى مَا يُوجِّهُ لَهُمْ مِنْ تَعْلِيمٍ دِينِيٍّ وَنَصِيحَةٍ وَتَرْغِيبٍ وَتَرْهيبٍ.

الصفة (٧٢):

مِنَ الْمُنَافِقِينَ مَنْ هُمْ ذُو أَجْسَامٍ تُعْجِبُ النَّازِرَ إِلَيْهَا، وَأَصْحَابُ أَقْوَالٍ مَتَمِّقَةٍ تَجْذِبُ لاسْتِمَاعِهَا، فَيُخَدِّعُ بِأَجْسَامِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ الَّذِينَ تُغَرِّهُمُ الْمَظَاهِرُ، وَلَا يَبْحَثُونَ عَنِ الْبَوَاطِنِ.

وهؤلاء إذا حضروا مجالس العلم الديني والذكر مع المؤمنين اختاروا لأنفسهم الأماكن التي يُسَيِّدُونَ إِلَيْهَا ظُهُورَهُمْ، كَالْجُدُرِ وَالسَّوَارِي، لِأَنَّهَا مَرِيحَةٌ لَهُمْ، وَذَاتُ وَجَاهَةٍ.

لَكِنَّهُمْ لَا يَعُونُ مِمَّا يُقَالُ فِي هَذِهِ الْمَجَالِسِ مِنْ عِلْمٍ وَذِكْرِ شَيْئاً، لِانْتِصِرَافِ أَذْهَانِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ، فَهَمُّ كَالْخُشْبِ الْمُسْنَدَةِ عَلَى الْجُدُرِ لئَلَّا تَسْقُطَ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَالنَّائِمِينَ ظَاهِراً أَوْ بَاطِناً.

الصفة (٧٣):

أَنَّهُمْ فِي حَالَةِ خَوْفٍ وَحَذَرٍ دَائِمٍ، إِذْ هُمْ يَخْشَوْنَ أَنْ يَنْكَشِفَ أَمْرُهُمْ، فَيُؤْخَذُوا وَيُعَاقَبُوا عَلَى كَذِبِهِمْ وَنِفَاقِهِمْ وَخِيَانَاتِهِمْ.

وَلَشَدَّةُ حَذَرِهِمْ وَتَوَقُّعُهُمْ أَنْ يَفْتَضَحَ كُفْرُهُمْ وَيَنْكَشِفَ أَنَّهُمْ مُنَافِقُونَ، يَحْسِبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ تَحْذِيرٍ مُرِيبةٍ ضَيِّقَةٍ عَلَيْهِمْ، وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ الْمَعْنِيُّونَ بِهَا، وَذَلِكَ بِسَبَبِ مَا يَعْرِفُونَ مِنْ أَنفُسِهِمْ فِي بَاطِنِ أَمْرِهِمْ.

الصفة (٧٤):

أَنَّهُمْ أَشَدُّ أَعْدَاءَ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِذَا بَحِثْنَا عَنِ السَّبَبِ النَّفْسِيِّ لِهَذَا الْعَدَاءِ الشَّدِيدِ، نَلَاظُ مَا يَعَانُونَ مِنَ آلامِ التَّنَاقُضِ بَيْنَ مَا يَتَكَلَّفُونَ إِيْظَاهَرَهُ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَتَكَلَّفُونَ إِبْطَانَهُ وَإِخْفَاءَهُ وَهُوَ عَقِيدَتُهُمْ الَّتِي يُؤْمِنُونَ بِهَا، وَالسَّلُوكُ الَّذِي يَرْتَاحُونَ لِمَعَارَسَتِهِ، فَهَذَا هُوَ السَّبَبُ.

لِذَلِكَ فَهَمُّ جَدِيرُونَ بِأَنْ نَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَقَاتِلَهُمْ، إِذْ لَمْ يَأْذَنْ لِلْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَقَاتِلُوهُمْ

ماداموا يسترون كفرهم وعداءهم، ويظهرون إسلامهم وولاءهم .

الصفة (٧٥):

إذا ارتكب مستكبروهم ذنباً من الكبائر، أو أحدثوا حدثاً هو من مظاهر نفاقهم، ودعاهم بعض المؤمنين إلى الرسول ليعتذروا وليطلبوا منه أن يستغفر لهم، أعلنوا الرفض، بحركة في رؤوسهم، وحركة في أجسادهم، فهم يَلُوُونَ رؤوسهم، ويحجمون بأجسادهم .

والسبب في ذلك أنهم غير مؤمنين بالرسول، وهم في نفوسهم مستكبرون .

الصفة (٧٦):

أنهم لا يألون جهدهم دوماً في التخذيل، والسعي الدائب لصرف الناس عن مناصرة الإسلام والمسلمين، وتوهين قوة المؤمنين، وتقليل جماعتهم .

الصفة (٧٧):

تجرؤ زعمائهم أحياناً وفي أحوال خاصة على إطلاق العبارات التي تدلُّ على عداوتهم الشديدة، ورغبتهم في إثارة فتنة، أو إقامة حرب، أو افتعال ثورة ضد جماعة المؤمنين وقائدهم .

ومن أمثلة هذا ما حصل من عبد الله بن أبي ابن سلول إذ قال في غزوة بني المصطلق: لَيْنُ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ .



أخذاً من النص (٢٧) من سورة (المجادلة) / ٥٨ مصحف / ١٠٥ نزول

الآيات من (٥ - ١٠)

الصفة (٧٨):

أنهم يمارسون في معظم تصرفاتهم الوقوف في حدود معارضة ومخالفة لحدود الله .

وذلك بما يرتكبون من إثم وعدوان ومعصية للرسول ﷺ، فيفعلون كما يفعل الكافرون الصرحاء، إِلَّا أَنَّ المنافقين يستخفون بأعمالهم ومواقفهم .

الصفة (٧٩):

أَنَّهُمْ لَكُمْ مَجَالِسٌ وَمَجَامِعٌ وَأَحَادِيثٌ سَرِيَّةٌ يَتَنَاجَوْنَ فِيهَا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ، مَنَعَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ نَهَاكُمْ عَنِ التَّنَاجِيِ وَحَذَّرَهُمْ مِنْهُ سَابِقاً، وَذَلِكَ فِي الْآيَةِ (١١٤) مِنْ سُورَةِ (النَّسَاءِ / ٤ / مَصْحَف / ٩٢ نَزُول).

الصفة (٨٠):

أَنَّهُمْ يَقْلُدُونَ الْيَهُودَ فِي تَحِيَّاتِهِمْ لِلرَّسُولِ وَلِلْمُسْلِمِينَ، ضَمَّنَ لَحْنُ الْقَوْلِ الَّذِي يَمَارِسُونَهُ، كَأَن يَقُولُوا فِي التَّحِيَّةِ: السَّامُ عَلَيْكَ (أَي: المَوْتُ) بَدَل: السَّلَامُ عَلَيْكَ.



أَخْذًا مِنَ النَّصِّ (٢٨) مِنْ سُورَةِ (الْمَجَادَلَةِ / ٥٨ / مَصْحَف / ١٠٥ نَزُول) أَيْضاً
الآيَاتِ مِنْ (١٤ - ٢٢)

الصفة (٨١):

أَنَّهُمْ يَتَّخِذُونَ الْيَهُودَ الَّذِينَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، فَهُمْ يَنْصُرُونَهُمْ، وَيَسْتَنْصِرُونَ بِهِمْ، وَيُؤَادُّونَهُمْ.

وهذه الصفة ملاحظة في المنافقين داخل الأمة الإسلامية منذ عصر الرسول ﷺ، حتى عصرنا الذي نعيش فيه الآن.

إِنَّهُمْ يَتَّخِذُونَ الْيَهُودَ الَّذِينَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، إِذْ يَجِدُونَ لَدَيْهِمْ مِنَ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ وَرَغَبَاتِ النُّفُوسِ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا لَا يَجِدُونَهُ لَدَى الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ.

الصفة (٨٢):

أَنَّ صِفَةَ الْكُذْبِ وَاتِّخَاذَ الْإِيمَانِ الْكَاذِبَةِ سِتَارَةً يَسْتُرُونَ بِهَا كُفْرَهُمْ وَنِفَاقَهُمْ سَتَلِزَمُهُمْ طَوَالَ رَحْلَةِ حَيَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا مَا دَامُوا مُنَافِقِينَ، وَسَيَعْبَثُونَ إِلَى الْحَيَاةِ الْآخِرَى وَسَتَظَلُّ هَذِهِ الصِّفَةُ مُلَازِمَةً لَهُمْ.

فَهُمْ إِذَا وَقَفُوا فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ بَيْنَ يَدَيِ رَبِّهِمْ يُلْجِئُونَ إِلَى الْكُذْبِ وَحَلْفِ الْأَيْمَانِ الْكَاذِبَةِ أَيْضاً، لَعَلَّهَا تَنْجِيهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ كَمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِي الدُّنْيَا، إِذْ كَانَتْ

أكاذيبهم وأيمانهم الفاجرة تنجيهم من نعمة الرسول والمؤمنين عليهم، فقد كانوا يُعاملون — بمقتضى أمر الله — بحسب ظاهرهم.

لكن أكاذيبهم وأيمانهم الفاجرة يوم الدين ستزيد من نعمة الله عليهم، ولا تنفعهم بشيء.

* * *

أخذاً من النص (٢٩) من سورة (التحریم) / ٦٦ مصحف / ١٠٧ نزول)
الآية (٩)

الصفة (٨٣):

وصول المنافقين إبان نزول سورة (التحریم) إلى حالة من السوء تستدعي الأمر بمجاهدتهم بمختلف أنواع الجهاد التي تشمل في النهاية أقصاها الذي هو القتال.

* * *

أخذاً من النص (٣٠) من سورة (الفتح) / ٤٨ مصحف / ١١١ نزول)
الآيات من (١ - ١٧)

الصفة (٨٤):

شدة غيظهم وحقنهم من انتصار المسلمين، ومن تهيئة الوسائل لانتشار دعوة الإسلام في الناس، وتكاثر المستجيبين لها.

الصفة (٨٥):

توقعهم استئصال شافة المسلمين، حينما يجدون أن قوى أعدائهم تفوق قوتهم بنسبة كبيرة، ولا يحسبون حساباً للمقادير والمعونات الربانية لهم، وما يحيطهم به من رعاية وحماية.

الصفة (٨٦):

ملازمة تلغيق المعاذير الكاذبة كلما تخلّفوا عن واجب من الواجبات الإسلامية العامة.

الصفة (٨٧):

مطالبتهم أن يشاركوا المؤمنين الصادقين في الخروج معهم لغزو قوم ضعفاء، من السهل الانتصار عليهم، ولديهم غنائم كثيرة، تنال بأضعف مواجهة.

ووقاحتهم في توجيه الانتقادات إذا لم يُسَمَّحْ لهم بالمشاركة عقوبة لهم على تخلفهم عن الخروج، حينما كانوا يزعمون أن القوم الذين سيخرجون إليهم أولو بأس شديد، ومن الصعب الانتصار عليهم، والظفر منهم بالغنائم.

* * *

أخذاً من النص (٣١) من سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول)
بعض الآية (٤١)

الصفة (٨٨):

أنهم يملؤون أفواههم تبجحاً بادعاء أنهم آمنوا، مع أن قلوبهم لم تؤمن، شعوراً منهم بأن المؤمنين يرتابون في صحة إسلامهم، فهم يملؤون أفواههم بالادعاء مع رفع الصوت، وسيلة من وسائل التغطية والتأثير على المؤمنين بغية نزع الارتياب فيهم من قلوبهم.

* * *

أخذاً من النص (٣٢) من سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) أيضاً
الآيات من (٥١ - ٥٣)

الصفة (٨٩):

الذين في قلوبهم مرض الشك والريب وضعف الإيمان القريب من النفاق، ولم يصل بعد إلى حضيضه، قد تظهر فيهم صفة مصانعة اليهود والنصارى، خشية أن تدور الدائرة على المسلمين، فتشملهم مصائبها. وهم يتصورون أنهم بمصانعة اليهود والنصارى التي يتخذونها يحمون أنفسهم، ويكون لهم عندهم يد يكافئونهم عليها.

* * *

أخذاً من النص (٣٣) من سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) أيضاً
الآيات من (٥٧ - ٦٣)

الصفة (٩٠):

مُسَارَعَةٌ كَثِيرٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ فِي ارْتِكَابِ الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِ الْمَالِ الْحَرَامِ، كَالرَّشْوَةِ وَأَكْلِ الرِّبَا، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

والسبب في ذلك أَنَّ إِسْلَامَهُمْ ظَاهِرِي فَقَطْ، لَا يَتَّعِمِدُ عَلَى قَاعِدَةٍ إِيْمَانِيَّةٍ.

* * *

أَخَذَ مِنَ النَّصِّ (٣٤) مِنْ سُورَةِ (التَّوْبَةِ / ٩ مَصْحَف / ١١٣ نَزُول)

الآيَاتِ مِنْ (٤٢ — ١٢٩ آخِرُ السُّورَةِ)

الصفة (٩١):

المعاودة إلى اتِّخَاذِ وَسِيلَةِ الْإِرْجَافِ لِتَبْيِيطِ جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْخُرُوجِ مَعَ الرِّسُولِ إِلَى الْقِتَالِ.

فَقَدْ بَرَزَتْ هَذِهِ الصِّفَةُ حِينَ الدَّعْوَةِ إِلَى غَزْوِ الرُّومِ فِيمَا يُعْرَفُ بِغَزْوَةِ تَبُوكَ.

الصفة (٩٢):

مِنَ الظَّوَاهِرِ السُّلُوكِيَةِ لِلْمُنَافِقِينَ أَنَّ لَهُمْ مَوْقِفِينَ حِينَ الدَّعْوَةِ لِلْخُرُوجِ إِلَى الْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

(١) فَحِينَ يَكُونُ الْخُرُوجُ إِلَى الْقِتَالِ سَفَرًا هَيِّنًا سَهْلًا، وَفِيهِ طَمَعٌ بِغَنَائِمٍ فَإِنَّهُمْ يَخْرُجُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ طَمَعًا بِالْغَنَائِمِ.

(٢) وَحِينَ يَكُونُ الْخُرُوجُ إِلَى الْقِتَالِ سَفَرًا شَاقًّا صَعْبًا، وَاحْتِمَالُ الظَّفَرِ فِيهِ وَتَحْصِيلُ الْغَنَائِمِ ضَعِيفًا، فَإِنَّهُمْ يَتَخَلَّفُونَ، مُسْتَأْذِنِينَ مَعَ تَلْفِيقِ الْأَعْذَارِ، أَوْ غَيْرِ مُسْتَأْذِنِينَ، وَحِينَ لَا يَسْتَأْذِنُونَ يَأْتُونَ بَعْدَ الْمَعْرَكَةِ فَيُلْفِقُونَ الْأَعْذَارَ الْكَوَاذِبَ، وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ عَلَى صَدَقَتِهِمْ فِيهَا.

الصفة (٩٣):

مَعَ مَرُورِ السِّنِينَ التَّسْعِ، وَعَيْشِ الْمُنَافِقِينَ ضَمَّنَ الْمُسْلِمِينَ، فَقَدْ بَقِيَ حَالُهُمْ كَمَا كَانَ مِنْذُ بَدَايَةِ الْعَهْدِ الْمَدَنِيِّ، وَهُوَ كَمَا يَلِي:

(١) إِذَا نَزَلَ بِالْمُسْلِمِينَ مَا يُسْرُهُمْ وَيُفْرِحُهُمْ سَاءَ الْمُنَافِقِينَ ذَلِكَ.

(٢) وإذا نزل بالمسلمين ما يسوؤهم ويحزنهم سرّ المنافقين ذلك وأفرحهم.

(٣) وحين تكون مصيبة المسلمين بسبب خسروهم لقتال عدوّهم، وكان المنافقون قد تخلفوا عن الخروج، فإنهم يقولون: لقد كنّا خذرين اذكيا، فلم نُورط أنفسنا كما ورط المسلمون أنفسهم، ويتولّون وهم فرحون.

هذه الظواهر الثابت تکررها تدلّ على أنّ الكافر في باطنه لا تتغيّر حاله تجاه المؤمنين، مهما طالت مخالطته لهم، ما لم يتحوّل باطنه إلى الإيمان بما يؤمنون به، وعندئذ يصفو ولاؤه لهم.

الصفة (٩٤):

أنهم لا يأتون إلى أداء الصلاة إلّا وهم كسالى.

وقد سبق في النص (١٨) من سورة (النساء) بيان أنهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، فتكامل النّصان، وذلك أنهم إذا حضروا لأداء الصلاة مع جماعة المسلمين من مواضع وجودهم فإنهم يأتون وهم كسالى، وإذا قاموا لأدائها بعد حضورهم قاموا كسالى أيضاً.

والسبب أنهم كافرون لا يؤمنون بجدوى الصلاة.

الصفة (٩٥):

أنهم لا ينفقون نفقة واجبة أو غير واجبة إلّا وهم كارهون، لأنهم إنّما ينفقونها نفقة غير مؤمنين بأن لهم مصلحة من إنفاقها، إذ هم كافرون.

الصفة (٩٦):

حينما تبدر منهم بوادر تثير ريبة المؤمنين فيهم، فيوجهون لهم الأسئلة الاستفسارية عن حقيقة هويّتهم، وصدق إيمانهم، يسارعون إلى تغطية ما بدر منهم، بأن يخلقوا الأيمان للمؤمنين على أنهم منهم، فيقولون لهم: والله إنّنا لمنكم.

وما هم في الحقيقة منهم، بل هم كافرون، قلوبهم مع إخوانهم في الكفر، لا مع الذين آمنوا.

الصفة (٩٧):

أنّ المنافقين يتجلّد خوفهم الشديد إلى حدّ الجزع من أن ينزل المؤمنون بهم

عقوبة الردّة، كلّما اكتشف المؤمنون بعض أمارات نفاقهم، وارتابوا بهم، ووجهوا لهم عبارات الاستفسار عن هُويّتهم الحقيقيّة، أو نظرات الارتياب، فهم عندئذٍ يفرّقون فرقا شديداً، فيسترون أنفسهم بالآيمان الكواذب.

الصفة (٩٨):

أنهم من شدّة دُعرهم عند ظهور أمارات نفاقهم للمؤمنين، يتعنّون لو أنهم يجدون أيّ مخبأ يستترون به، ولو أنهم وجدوا ذلك لؤلؤا إليه بسُرعة فائقة كسرعة الجُمُوح من الخيل.

الصفة (٩٩):

كان من المنافقين من يلمز الرسول في توزيعه للصدقات، إذا لم يُعطهم منها، نظراً إلى أنهم غير مستحقّين، وهي زكوات تُصرف في الأصناف الثمانية، لكنهم أهل طمع يرغبون في أن يأخذوا من الزكاة بغير استحقاق.

إنهم إن أعطوا منها رضوا ولو لم يكونوا من مستحقّي الزكاة، وإن لم يُعطوا منها لعدم استحقاقهم، إذا هم يسخطون.

وهذه الصفة ظاهرة في منافقة كلّ عصرٍ وأمة ضدّ أولياء الأمور مهما عدلوا وأنصفوا.

الصفة (١٠٠):

من المنافقين من كان يؤذي النبي ﷺ باتهامه بأنّه أذن، أي: كالأذن التي تنقل ما تسمع، دون تمحيص وتثبت ولا محاكمة عقلية، فهو يتأثر بما يسمع ويخبره به المخبرون.

وهذه الصفة متكررة أيضاً في منافقة كلّ عصر وكلّ أمة، ضدّ أولياء الأمور، مهما كان أولياء الأمور أهل عقل وحكمة وروية وتثبت وبصيرة.

الصفة (١٠١):

أنّ المنافقين صنف متميّز عن سائر أصناف الناس، إذ هم متشابهون في صفاتهم النفسية والسلوكية.

الصفة (١٠٢):

أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يَأْمُرُونَ بِالْمَنكَرِ وَيَهْتَوُونَ عَنِ الْمَعْرُوفِ، وَهَذَا الْوَصْفُ يَتْلَاهُمْ مَعَ كُفْرِهِمْ فِي الْبَاطِنِ.

الصفة (١٠٣):

أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يَخْلَاءُ شَحِيحُونَ، يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ عَنِ الْبَذْلِ فِي وَجْهِ الْخَيْرِ، وَالْبَذْلُ فِي الْفَضَائِلِ الْإِنْسَانِيَةِ الْعَامَّةِ، زِيَادَةً عَلَى بَخْلِهِمْ عَنِ الْبَذْلِ فِي مَصَالِحِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ.

الصفة (١٠٤):

أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ الْمُنْفَرِدُونَ بِالدَّرَكَةِ السُّفْلَى مِنَ الْفَسْقِ، فَلَا يَشَارِكُهُمْ فِيهَا أَحَدٌ، أَخَذًا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي السُّورَةِ:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿٧٧﴾

الصفة (١٠٥):

أَنَّهُمْ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ وَوَعْدَهُمْ وَلَا يَقُونَ بِهَا، وَلَوْ كَانَتْ مَعَ رَبِّهِمْ إِذَا عَاهَدُوهُ أَنْ يُطِيعُوا بِشَرطٍ أَنْ يَحَقِّقَ لَهُمْ مَا طَلَبُوا.

الصفة (١٠٦):

أَنَّهُمْ يَلْمِزُونَ الْمُؤْمِنِينَ الْصَادِقِينَ فِي بَعْضِ أَعْمَالِهِمْ الَّتِي يَعْمَلُونَهَا كَالصَّدَقَاتِ، وَيَتَهَمُونَهُمْ بِأَنْ لَهُمْ أَغْرَاضًا دُنْيَوِيَّةً مِنْ أَعْمَالِهِمْ.

إِنَّهُمْ يَقْسِمُونَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، كَمَا قَالَ الْمُتَنَبِّي:

إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ وَصَدَّقَ مَا يُغْنَاةُ مِنْ نَوَاهِمِهِ

الصفة (١٠٧):

أَنَّهُمْ يَفْرَحُونَ بِقُعُودِهِمْ وَتَخَلُّفِهِمْ عَنِ الْخُرُوجِ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى قِتَالِ الْكَافِرِينَ، وَهَذَا الْفَرَحُ مِنْ لَوَازِمِ كُفْرِهِمْ فِي الْبَاطِنِ.

الصفة (١٠٨):

أَنَّهُمْ يَكْرَهُونَ أَنْ يَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَهَذِهِ الْكَرَاهِيَّةُ مِنْ لَوَازِمِ كُفْرِهِمْ فِي الْبَاطِنِ.

الصفة (١٠٩) :

إصرارهم في كل معركة على تثبيط من يستجيب لهم عن الخروج إلى قتال الكافرين .

الصفة (١١٠) :

من منافقي الأعراب من يرى أن ما يُكَلَّفُ أن يدفعه زكاة ماله ، أو غير ذلك من الواجبات المالية ، مَغْرَمٌ يَغْرَمُهُ بغير حق ، فلو كانت له قُوَّةٌ تحميه لامتنع عن بذل ما يُضطرُّ لبذله .

والسبب في هذا أنَّ الأعراب يشعرون بأنهم سادة أنفسهم في الصحراء ، فليس عليهم واجبات اجتماعية يبذلونها ، بخلاف أهل الحضرة فإنهم يشعرون بأنَّ على الأفراد واجبات نحو المجتمع ، ولولم يأمر بها الدين .

الصفة (١١١) :

من منافقي الأعراب من كانوا يترقبون بالرسول وبالمؤمنين أن تدور عليهم الدوائر .

ويظهر أنَّ هؤلاء قد كانوا من المرتدين الذي ارتدوا عن الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ .

الصفة (١١٢) :

التآمر على الأمة الإسلامية مع أعدائها ، وقد دلَّ على هذه الصفة أحداث بناء مسجد الضرار ، إرساداً لمن حارب الله ورسوله ، وهو أبو عامر الراهب الذي تأمر مع دولة الروم في الشام ضدَّ الرسول ودولة الإسلام في المدينة .

الصفة (١١٣) :

الاستخفاف والاستهزاء بما كان ينزل من القرآن ، غير مكترئين لما نزل فيه من بيانات فاضحات لهم ، وكاشفات لصفاتهم النفسية وآثارها في ظواهرهم السلوكية ، مع أنَّها من البراهين الدالة على أنَّ القرآن كلام الله المطلع على قلوبهم ونفوسهم وأسرارهم ، وما كانوا يدبرون في الخفاء .

فكان يسأل بعضهم بعضاً: أيُّكم زاده ما نزل من قرآنٍ إيماناً.
سؤال يتضمّن الاستهزاء بما نزل من القرآن، والاشمئزاز منه.
الصفة (١١٤):

الانسلاخ من المجالس التي كانت تُتلى فيها سُورٌ جديدة، بعد أن تتحدث
عيونهم بعضها مع بعض بما يدُلُّ على العبارة التالية: هل يراكم من أحدٍ من المؤمنين
إذا انصرفتم من المجلس.

حتى إذا شعروا بأنهم قادرون على أن ينسلُّوا واحداً بعد واحدٍ أنصرفوا تباعاً،
لئلا يسمعوا تلاوة السورة الجديدة المنزلة.

ويظهر أنَّ هذا يكون مبنياً على اتفاق سابق فيما بينهم.





القِسمُ الثَّانِي

تَدَبُّرُ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ
الَّتِي نَزَلَتْ بِشَأْنِ الْمُنَافِقِينَ
مُرْتَبَةً بِحَسَبِ تَرْتِيبِ النُّزُولِ

جدول النصوص الموضوعة للتدبر

النص الأول: من سورة (العنكبوت / ٢٩ مصحف / ٨٥ نزول) السورة (٨٥) من التنزيل المكي ، الأيتان (١٠ - ١١).

حول بدايات ظاهرة النفاق في المجتمع الإسلامي .

النص الثاني: من سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول) السورة (١) من التنزيل المدني ، الآيات من (٨ - ٢٠).

حول تعريف النفاق وذكر طائفة من صفات المنافقين وظواهر النفاق في السلوك .

النص الثالث: من سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول) السورة (١) من التنزيل المدني ، الآيات من (٧٥ - ٨٢).

حول توجيه المؤمنين أن لا يطعموا في أن يؤمن لدعوتهم منافقو اليهود وسائرهم .

النص الرابع: من سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول) السورة (١) من التنزيل المدني ، الآيات من (١٤٢ - ١٤٥).

حول مشاركة المنافقين في إثارة الشبه بشأن تحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة .

النص الخامس: من سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول) السورة (١) من التنزيل المدني ، الآيات من (٢٠٤ - ٢٠٧).

حول بعض صفات فريق من المنافقين وظواهر من سلوكهم وهم من الجبارين .

النص السادس: من سورة (الأنفال / ٨ مصحف / ٨٨ نزول) السورة (٢) من التنزيل المدني ، الآيات من (٤٩ - ٥٥).

حول قول المنافقين بشأن البدرين من المؤمنين إبان غزوة بدر: غرّ هؤلاء دينهم .

النص السابع: من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) السورة (٣) من التنزيل المدني، الآيات من (٦٩ - ٧٤).

حول مكيدة اليهود بالدخول في الإسلام نفاقاً ثم الارتداد عنه، لإغراء غيرهم بالردة.

النص الثامن: من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) السورة (٣) من التنزيل المدني، الآيات من (١١٨ - ١٢٠).

حول نهي المؤمنين عن اتخاذ بطانة من المنافقين لأنهم مفسدون مبغضون مغيظون.

النص التاسع: من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) السورة (٣) من التنزيل المدني، الآيات من (١٥٢ - ١٥٨).

حول ما جاء بشأن المنافقين وظواهرهم السلوكية بمناسبة أحداث غزوة أحد.

النص العاشر: من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) السورة (٣) من التنزيل المدني، الآيات من (١٦٥ - ١٦٨).

حول بيان بعض مواقف المنافقين في غزوة أحد وإقناع المؤمنين بأن ما جرى لهم قد كان من أنفسهم.

النص الحادي عشر: من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) السورة (٣) من التنزيل المدني، الآيات من (١٧٦ - ١٧٩).

حول الذين بدؤوا خطوات التفاق إبان غزوة أحد ومساعدتهم في الكفر وتربية الله رسوله والمؤمنين بشأنهم.

● عظات حركة التفاق اقتباساً من النصوص القرآنية المنزلة في سورة آل عمران.

النص الثاني عشر: من سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) السورة (٤) من التنزيل المدني، الآيات من (٩ - ٢٧).

حول مواقف المنافقين وظواهرهم السلوكية إبان غزوة الأحزاب.

النص الثالث عشر: من سورة (الأحزاب / ٣٣ مصحف / ٩٠ نزول) السورة (٤) من التنزيل المدني، الآيات من (٣٦ - ٤٠) والآية (٤٨).

حول موقف المنافقين بشأن زواج الرسول من «زينب بنت جحش» ابنة عمته، بعد أن طلقها «زيد بن حارثة» الذي كان الرسول قد أعتقه وتبنّاه.

النص الرابع عشر: من سورة (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول) السورة (٦) من التنزيل المدني، الآيات من (٥٩ - ٧٠).

حول تحاكم المنافقين إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به.

النص الخامس عشر: من سورة (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول) السورة (٦) من التنزيل المدني، الآيات من (٧١ - ٨٤).

حول ظواهر من النفاق تبرز عند الدعوة إلى القتال وبعده.

النص السادس عشر: من سورة (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول) السورة (٦) من التنزيل المدني، الآيات من (٨٨ - ٩١).

حول السياسة التي ينبغي معاملة المنافقين بها بحسب اختلاف أحوالهم.

النص السابع عشر: من سورة (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول) السورة (٦) من التنزيل المدني، الآيات من (١٠٥ - ١١٦).

حول ما يجب على القضاة والخصوم وأنصارهم بمناسبة حادثة سرقة المنافق من بني أبيرق.

النص الثامن عشر: من سورة (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول) السورة (٦) من التنزيل المدني، الآيات من (١٣٦ - ١٤٧).

بشأن قسم المذبذبين من المنافقين وبعض صفات عموم المنافقين.

النص التاسع عشر: من سورة (الحديد / ٥٧ مصحف / ٩٤ نزول) السورة (٨) من التنزيل المدني، الآيات من (١٢ - ١٥).

حول لقطات من مشاهد أحوال المنافقين يوم القيامة.

النص العشرون: من سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول) السورة (٩) من التنزيل المدني، الآيات من (١٦ - ٣٢).

حول عدم تفهم المنافقين لما يسمعون وهدلهم لدى سماعهم آيات الدعوة إلى القتال.

النص الحادي والعشرون: من سورة (الحشر/ ٥٩ مصحف/ ١٠١ نزول) السورة (١٥) من التنزيل المدني، الآيات من (١١ - ١٧).

حول موقف المنافقين وخياناتهم في أحداث إجلاء يهود بني النضير.

النص الثاني والعشرون: من سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) السورة (١٦) من التنزيل المدني، الآية (١١).

حول موقف المنافقين من حادثة الإفك.

النص الثالث والعشرون: من سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) السورة (١٦) من التنزيل المدني، الآية (٣٣).

حول موقف بعض المنافقين من إكراه الإمام على البغاء وفق العادة الجاهلية.

النص الرابع والعشرون: من سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) السورة (١٦) من التنزيل المدني، الآيات من (٤٧ - ٥٤).

حول كذب المنافقين في ادّعائهم الطاعة، ورفضهم التحاكم لله ورسوله.

النص الخامس والعشرون: من سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) السورة (١٦) من التنزيل المدني، الآيات من (٦٢ - ٦٤).

حول تسلل المنافقين من المجامع العامة بدون إذن، وسوء أدبهم في خطاب الرسول.

النص السادس والعشرون: سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول) السورة (١٨) من التنزيل المدني، وهي (١١) آية.

حول بيان حقيقة المنافقين وبعض صفاتهم الظاهرة والباطنة وبعض مواقفهم والتحذير منهم.

النص السابع والعشرون: من سورة (المجادلة/ ٥٨ مصحف/ ١٠٥ نزول) السورة (١٩) من التنزيل المدني، الآيات من (٥ - ١٠).

حول محادثة المنافقين لله ورسوله، وتناجيهم في السر بذلك، وتحيتهم للرسول تحية منكورة.

النص الثامن والعشرون: من سورة (المجادلة/ ٥٨ مصحف/ ١٠٥ نزول) السورة (١٩) من التنزيل المدني، الآيات من (١٤ - ٢٢).

حول اتخاذ المنافقين اليهود أولياء لهم وتسترهم بالآيمان الكاذبة واستحواذ الشيطان عليهم.

النص التاسع والعشرون: من سورة (التحریم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول) السورة (٢١) من التنزيل المدني، الآية (٩).

حول مجاهدة الكفار والمنافقين والإغلاظ عليهم.

النص الثلاثون: من سورة (الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نزول) السورة (٢٥) من التنزيل المدني، الآيات من (١ - ٧).

حول أثر الفتح المبين الذي حصل في صلح الحديبية على نفوس المنافقين المخلفين وموقفهم.

النص الحادي والثلاثون: من سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) السورة (٢٦) من التنزيل المدني، بعض الآية (٤١).

حول تكليف الرسول أن لا يحزن من أجل المنافقين الذين يسارعون في الكفر.

النص الثاني والثلاثون: من سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) السورة (٢٦) من التنزيل المدني، الآيات من (٥١ - ٥٣).

حول اتخاذ الذين في قلوبهم مرض من التفاق اليهود والنصارى أولياء.

النص الثالث والثلاثون: من سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) السورة (٢٦) من التنزيل المدني، الآيات من (٥٧ - ٦٢).

بشأن المنافقين من اليهود الذين دخلوا في الإسلام منافقين مكرراً وكيداً.
النص الرابع والثلاثون: من سورة (التوبة / ٩ مصحف / ١١٣ نزول) السورة (٢٧)
من التنزيل المدني، الآيات من (٤١ - ١٢٩ آخر السورة).
حول عدة ظواهر سلوكية للمنافقين بمناسبة أحداث غزوة تبوك وأخرى إبانها.



النص الأول

وهو من سورة (العنكبوت) / ٢٩ مصحف / ٨٥ نزول

الآيتان (١٠ - ١١)

حول بدايات ظاهرة النفاق في المجتمع الإسلامي

* قال الله عز وجل:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللّٰهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَذَّابٍ اَللّٰهُ وَلَٰئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ ءَاِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ اَوَلَيْسَ اَللّٰهُ بِاَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعٰلَمِيْنَ ۝١٠ وَلَيَعْلَمَنَّ اَللّٰهُ الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنٰفِقِيْنَ ۝١١﴾

(١)

موضوع النصّ وسبب نزوله

سورة (العنكبوت) من أواخر التنزيل المكي، نزل بعدها قبل الهجرة سورة (المطففين) فقط، باستثناء الآيات من (١ - ١١) منها، فهي مدنية، فالنصّ الموضوع للتدبر نصّ مدنيّ، هذا على أرجح أقوال أهل العلم يعلم القرآن. وقيل: السورة كلّها مدنية، وروي عن علي بن أبي طالب أنّها نزلت بين مكة والمدنية.

فيظهر أنّ هذا النصّ أوّل نصّ نزل في المنافقين، وتعرّض لهم ببعض بيان.

ما ورد في سبب النزول:

روى ما يتضمّن أنّ هذا النصّ نزل بشأن فريق أسلموا بمكة، وكان حالهم مع المشركين خال من لا يضرّ على الأذى الذي يتعرّض له من قبيلهم، فكانوا إذا لحقهم

أذى من المشركين تأثروا بالأذى فأعطوهم ما يريدون منهم في الباطن، وحافظوا على انتعاشهم للإسلام في الظاهر، ولم يهاجروا في سبيل الله إلى دار الإسلام مع أنهم أمروا بالهجرة يومئذ.

ذكر هذا الضحّاك وجابر بن زيد، قال الشيخ «محمد الطاهر بن عاشور» في تفسيره: وذكر أنّ من هؤلاء (أي: المشار إليهم في النص): «الحارث بن ربيعة بن الأسود - وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة - وعلي بن أمية بن خلف - والعاصي بن مئنه بن الحجاج».

موضوع النص:

يتناول هذا النص بدايات ظاهرة النفاق في المجتمع الإسلامي، وكانت مع أواخر المرحلة المكيّة وبداية ظروف المرحلة المدنية بعد الهجرة، والزام المؤمنين في مكة بالهجرة إلى دار الإسلام في المدينة.

وكان سبب هذا النفاق الذي نجمت بداياته في مكة ضعف الإيمان، والحرص على الأموال والمساكين والمصالح الدنيويّة في مكة التي كانت يومئذ دار كفر، يُسيطر على شؤونها المختلفة المشركون.

فكان المسلمون فيها يتعرّضون للأذى والاضطهاد، أما أهل الإيمان القويّ الراسخ، فقد زادهم ذلك صموداً وثباتاً وتحدياً، ومعظمهم هاجر في سبيل الله.

وضعف آخرون فأعطوا ما يريد المشركون منهم في ظاهر القول، أما قلوبهم فكانت مطمئنة بالإيمان، وهؤلاء قد عذرهم الله، فقال تعالى في سورة (النحل) / ١٦ مصحف / ٧٠ نزول):

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَئِنْ مَنَّ شَرْحٌ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْنَاهُمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾.

ومن الذين أعطوا المشركين ما أرادوا منهم في ظاهر القول نقيّة «عمار بن ياسر» لكن قلبه قد كان مطمئناً بالإيمان.

أخرج عبد الرزاق، وابن سعد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم

وصححه، وابنُ مردويه، والبيهقي، وابن عساكر، من طريق أبي عبيدة بن محمد بن عمار، عن أبيه، قال:

(أخذ المشركون عمارَ بن ياسر، فلم يتركوه حتى سبَّ النبي ﷺ، وذكر آلهتهم بخير، فتركوه، فلما أتى النبي ﷺ، قال:

«ما وراءك؟».

قال: شرٌّ، ما تركتُ حتى نلتُ منك، وذكرتُ آلهتهم بخير.

قال: «كيف تجد قلبك؟».

قال: مطمئناً بالإيمان.

قال: «إن عادوا فعد».

فنزلت:

﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾.

قال: ذلك عمار بن ياسر:

﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾.

عبد الله بن أبي سرح).

وكان إيمانُ فئةٍ ثالثةٍ ضعيفاً، فعادوا إلى الكفر باطناً، تحت تأثير ضغط المشركين، وفتنتهم لهم، وأثر الخوف من التعذيب فيهم تأثيراً بلغ عُقْمَ قُلُوبِهِمْ، كما يُؤثِّرُ الخوف من عذاب الله العاجل والأجل، في فريق من الناس، فيؤمنون، ولكنهم مع كفرهم باطناً حافظوا على ظاهر إسلامهم، ولا بد أن يكون هذا يعلم المشركين الذين هم في مجتمعهم، وكان استبقاؤهم الانتماء إلى الإسلام ظاهراً له علة دوافع، منها:

(١) أن لا يوصموا بالارتداد عن الإسلام بعد دخولهم فيه.

(٢) أن يكونوا محسوبين مع المسلمين إذا انتصروا واستقرت لهم دولة في المدينة، وأخذت تتسع.

(٣) أن يكونوا في حالة سَلَمٍ وأَمْنٍ من قِبَلِ ذَوْلِ الْكُفْرِ في مَكَّةَ، ودولة الإسلام في المدينة.

فجاء هذا النص من سورة (العنكبوت) كاشفاً موقف هؤلاء المنافقين، ومُلَوِّحاً لهم بالوعيد، أي: إذا لم يتوبوا، ويعودوا إلى الإيمان صادقين مخلصين، ويؤدوا مقتضيات الإيمان الصحيح الخالي من النفاق.

(٢)

المفردات اللغوية في النص

﴿أَوْذَى﴾:

يُقال لغة: آذاه يُؤْذِيهِ إِذَاءٌ، أي: أنزل به ما يكره. ويُقال: أَذَى الرَّجُلُ يَأْذِي أَذًى وَأَذَاةً وَأَذِيَةً، إذا نَزَلَ به أَذًى، والأذى هو الضرر غير الجسيم، قال تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾.

﴿جَعَلَ فِتْنَةً النَّاسِ﴾:

أي: جعل التعذيب والأذى الذي يأتي من قِبَلِ الناس، فالمراد من الفتنة هنا التعذيب وإنزال الأذى.

(٣)

مع النص في التحليل والتدبر

قول الله عز وجل:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولَنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ... ﴿١٠﴾﴾.

مع بدايات ظهور النفاق في المجتمع الإسلامي من قِبَلِ بعض الذين أعلنوا

إسلامهم في مكة، ولم يُهاجروا مع المهاجرين، وكان ذلك إبان هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، ومع أوائلها على ما يظهر.

في هذه الأثناء أنزل الله عز وجل في سورة (العنكبوت) بياناً يكشف فيه للرؤسول وللمؤمنين معه هذا الفريق من الناس، ويبيّن فيه للمنافقين أنفسهم أنّ ما في قلوبهم لا يخفى على الله منه شيء، فقال تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾

أي: وَوَجَدَ فَرِيقٌ مِّنَ النَّاسِ مَن يَقُولُونَ بِاللَّسْتِهِمْ: آمَنَّا بِاللَّهِ، فذكر سبحانه وتعالى أَنَّهُمْ مِنَ النَّاسِ، ولم يذكُر أَنَّهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، لأنّ كلمة «الناس» كلمة عامّة تشمل جميع الناس من أهل الإيمان وأهل الكفر. وذكر تعالى أَنَّهُمْ يَقُولُونَ بِاللَّسْتِهِمْ، ولم يذكر أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بقلوبهم، ليشمل أيضاً ضعفاء الإيمان الذين لم يتغلغل الإيمان في قلوبهم بعد، والذين ظهرت منهم ظاهرة هي من أمارات النفاق أو تجرّ إليه.

وكان هذا كما وضع لنا في أوّل بيان عن ظاهرات النفاق في المجتمع الإسلامي.

وهذه الظاهرة فيهم ذات وجهين:

الوجه الأوّل: أَنَّهُمْ إِذَا نَالَهُمْ أَذًى مِّنْ جِهَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا ارْتَدُّوا إِلَى الْكُفْرِ سِرّاً، واستترضوا بردتهم هذه الكافرين، واتفقوا معهم على أن يكتموا عن المؤمنين، ليدفعوا بذلك عن أنفسهم ما يتوعدهم به الكافرون من تعذيب أشدّ.

ونلاحظ أنّ الله عز وجل عبّر عن ردتهم هذه بأنهم جعلوا أذى الكافرين لهم، ووَعِيدَهُمْ بِإِيَّاهُمْ بتعذيب أشدّ من أجل إيمانهم، مثّل عذاب الله الذي قد ينزل الله طائفة منه أحياناً بالكافرين تأدياً وتربيةً ودليلاً على عذابه الأكبر، ومثّل عذاب الله الذي يُنذِرهم به إذا لم يؤمنوا، فيخاف منهم من يخاف، فيؤمن ويُسلم، إشاراً للسلامة، ودفعاً لعذاب الله الأشدّ الذي اشتملت عليه نصوص الوعيد للكافرين والعصاة المسرفين على أنفسهم بالفُسق والبغي والظلم، فقال تعالى:

﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾

أي: فإذا أُوذِيَ من قِبَلِ الكافرين من أجل مَسِيرِهِ في سبيلِ الله، ليرتد عنه، ويسئلك مسالك الكافرين، وتتبع خطوات الشياطين، جعل تصوّره الفاسد الباطل، فتنة الكافرين له بالتعذيب، ومثل عذاب الله الذي يُؤدّب الله به أُويعاقب، ليرتدع الذي يتقون عذاب الله الشديد يوم الدين، مع أن الأمرين مختلفان، فما يفعله الناس من اضطهاد للمؤمنين إنما هو لإخراجهم من النور إلى الظلمات، ومن السعادة إلى الشقاء الأبدي، وما يُجرّبه الله من تأديبات للكافرين والعصاة، إنما هو لإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومن الشقاء الأبدي إلى السعادة المخالدة.

إن التفسير بجعل هذا الفريق فتنة الناس بمثل عذاب الله كناية عن ردّتهم عن الإيمان والإسلام سرّاً، هو تعبير عن السبب النفسي الذي جعلهم يرتدون. وقد جاء فيه الاستغناء بالتعبير عن السبب ليكون كناية تدل على ما نجم عنه من ظاهرة نفاق جمعت ردة معلومة لأوليائهم من الكافرين، ومكتومة عن جمهور المؤمنين، إذ أبقوا انتماؤهم إلى الإسلام معلناً في الظاهر، برغبة المحافظة على كلمة الإيمان التي سبقت منهم تجاه المؤمنين.

وظاهرة النفاق هذه جاء في النص ما يدل عليها بوضوح، كما سيأتي في فقراته الآتيات.

الوجه الثاني: أنهم وظنوا أنفسهم على أن يقولوا للمؤمنين ببيان مؤكّد: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾، فيما لو انتصروا مستقبلاً على المشركين، وكانت لهم قوة وذولة.

لكن احتمال انتصار المؤمنين على أعدائهم قد كان في تصوّر هؤلاء احتمالاً ضعيفاً مشكوكاً فيه، ورغم ذلك فقد احتاطوا لأنفسهم في أمرهم، فاتخذوا لهم من سلوكهم الظاهر وجهاً، وفي بيان هذا الوجه قال الله تعالى:

﴿وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾.

في هذا البيان نلاحظ أنه جاء ذكر النصر الذي سيأتي من الله للمؤمنين أمراً احتمالياً مشكوكاً فيه، إذ جاء التعبير عنه بكلمة ﴿إِنْ﴾ الشرطية التي تستعمل غالباً في الأمر ذي الاحتمال الضعيف المشكوك فيه. والسبب في هذا أن البيان جاء معبراً عن حالة هؤلاء المنافقين النفسية، فهم كانوا يومئذ يستبعدون أن ينتصر المؤمنون في

المدينة على المشركين في مكة، فكانوا يُقدِّرون في نفوسهم أنه إن حصل هذا الاحتمال الضعيف المشكوك فيه، فإن لديهم قولاً يقولونه للمؤمنين، بسبب انتمائهم إلى الإسلام الذي حافظوا عليه ظاهراً، ولم ينفصوه بآلتهم كما نقضوه في سرهم، إذ يقولون للمؤمنين: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾.

والخطاب في قوله تعالى: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ هو للرُّسول أولاً، ثم لكل صالح للخطاب من بعده بصورة إفرادية، والغرض فيما يظهر أن يكون التحذير من المنافقين تحذيراً إفرادياً لكل المؤمنين، وأن يقوم كل مؤمن بواجب الحذر المطلوب من المنافقين، وواجب مراقبة الظواهر في السلوك للاستدلال بها على البواطن.

ونلاحظ أن الله تعالى أكد هذه الظاهرة في هذا الفريق من الناس بالقسم وما يقترب به من مؤكدات، فاللآم في: ﴿لَئِنْ﴾ هي الموطئة للقسم، وجملة ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ بما فيها من نون تأكيد ثقيلة هي جواب القسم المحذوف.

* قول الله عز وجل:

﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ۖ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ
الْمُنَافِقِينَ ۚ﴾ (١١)

بعد بيان الظاهرة النفاقية ذات الوجهين، في هذا الفريق من الناس الذين تعرَّض النص لبيان حالتهم ذكر الله عز وجل بصفة من صفاته الثابتة له تبارك وتعالى، وهي صفة شمول علمه لكل شيء ظاهر وباطن، ومن ذلك علمه بما في صدور العالمين، فقال تعالى بأسلوب الاستفهام الذي ليس له عند من يؤمن بالله رباً خالقاً إلا جواب واحد:

﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ۖ﴾ (١١)

أي: أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ من كلِّ عليم بما في صدور العالمين جميعاً، ومنهم أصحاب الصدور أنفسهم، ومما في الصدور الإيمان والكفر والنفاق، فمن أوليات القضايا الإيمانية المتعلقة بالله الرب الخالق أنه عز وجل يحيط بكل شيء علماً، فهو يعلم السر وما هو أخفى من السر، لا تخفى عليه خافية.

فالجواب على هذا السؤال لا بُدَّ أن يكون: بلى. أي: هو أعلم من كلِّ عليم بما في صدور العالمين من الإنس والجنِّ والملائكة وكلِّ ذي صُدْرٍ يحتوي شيئاً ما من كلِّ كائن حيٍّ.

بعد التذكير بهذه الصفة من صفات الله الجليلة، أبان الله عزَّ وجلَّ حكمته من تعريض الناس لفتنة المؤمنين والمسلمين بالكافرين، إذ وضع الناس موضع الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، ومن ذلك تمكين الكافرين ضمن أنظمة الكون السببية، التي يتصرَّف الناس فيها باختياراتهم الحرة، من إيذاء المؤمنين، أو تعذيبهم في الحياة الدنيا.

إنها حكمة الابتلاء الذي يَخْتَبِرُ الله به ما في قلوب الناس من إيمان وكفر ونفاق وغير ذلك، فقال تعالى:

﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ (١١)

أي: وَلْيَعْلَمَنَّ الله - بما يتعرَّضُ له الناسُ تبعاً من امتحانٍ في ظروف الحياة الدنيا - علماً بعدَّ الوقوع الفعلي مطابقاً لعلمه السابق قبل الوقوع الفعلي، لِيَعْلَمَنَّ حقيقة أحوال الذين آمَنُوا صادقين، وحقيقة أحوال المنافقين، وهكذا إلى سائر أحوال الناس جميعاً.

فتمكين الله الذين كفروا من إيذاء المؤمنين أو تعذيبهم في ظروف الحياة الدنيا، يتمُّ به تمييز المؤمنين الصادقين، من ضعفاء الإيمان، ومن المنافقين، وبذلك يتحقَّق العلمُ الربَّاني الذي يتعلَّق بما وقع فعلاً، مطابقاً للعلم الربَّاني الذي كان متعلقاً بما سيفع، ويتحقَّق أيضاً للملائكة الموكِّلين بأعمال العباد مثلُ هذا العلم المستند إلى مراقبتهم لما يعملُّ العباد، ثم تَبَمُّ محاسبة الناس على ما صدر عنهم في الواقع، لا على ما كان معلوماً لله بأنَّه سيَصْدُرُ عنهم.

والله أعلم.

النص الثاني

من سُورَةِ (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أول سورة مدنية

الآيات [من الآية (٨) إلى الآية (٢٠)]

حول تعريف النفاق وذكر طائفة من صفات المنافقين

وظواهر النفاق في السلوك

بعد أن أبان الله عز وجل في مطلع سورة (البقرة) صفات المتقين، فصفاة
الَّذِينَ كَفَرُوا مُبَصِّرِينَ على كفرهم عناداً مع ظهور الحق لهم، حتَّى استوى بالنسبة
إليهم الإنذارُ وَعَدْمُهُ مَهْمَا كَانَ الإنذارُ الموجه لهم إنذاراً بعاقبة إهلاك شديدٍ مَاجِبٍ،
فإنهم لا يؤمنون .

بعد ذلك ذكر الله عز وجل قِسْمَ المنافقين، وأبان حقيقتهم، وفَصَلَ في بيانٍ
دقيقٍ طائفةً رئيسيةً من صفاتهم، وهي الصفات التي برزت فيهم إبان المرحلة المدنية
الأولى التي نزلت فيها سورة (البقرة) فقال الله عز وجل فيها :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يَخْدِعُونَ اللّٰهَ
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّٰهُ
مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۖ مَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝١٠ وَإِذْ قِيلَ لَهُم لَآ تَفْسِدُوا فِى الْاَرْضِ قَالُوا
إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢ وَإِذْ قِيلَ لَهُم
ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ؕ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ
۝١٣ وَإِذْ لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شُيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ
مُسْتَهْزِءُونَ ۝١٤ اللّٰهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٥ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا

الضَّلَلَةَ يَأْهْدِي فَمَا رَاحَتْ يَحْتَرِثُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٨﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي
 اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾
 صُمُّكُمْ غَمٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٠﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُرٌّ يُجْعَلُونَ
 أَسْمِعُهُمْ فِيهِ إِذْ أَنْبَأَهُمُ مِنَ الصَّوْعِ حَذْرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١١﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ
 أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْافِيهِ إِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ
 وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢﴾

ما في النص من القراءات المتواترة (من القرش)

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: [يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا
 أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ].

وقرأ سائر القراء: [يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ
 وَمَا يَشْعُرُونَ]، وسيلبي في الشرح الحكمة من القراءتين إن شاء الله.

(٢) قرأ عاصم وحزمة والكسائي وخلف: [وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ].
 وقرأ سائر القراء: [بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ].

وبين القراءتين تكامل في المعنى، فهم يَكْذِبُونَ في ادعاء الإيمان والإسلام
 إذ هم منافقون، وهم يَكْذِبُونَ الرسول، وَيَكْذِبُونَ بآيات الله ويكتابه.

مع النص في التحليل والتدبر

* قول الله عز وجل:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨﴾

فيه بيان أنه يوجد صنف من الناس أعلنوا بالستهم إسلامهم، ودخلوا ضمن
 صفوف المؤمنين، وقالوا مثل مقالة المؤمنين الصادقين: «آمنا بالله وباليوم الآخر» مع
 أنهم في حقيقة أمرهم ليسوا بمؤمنين، لأنهم يقولون بالستهم ما ليس في قلوبهم.

إِنْ قُلُوبُهُمْ غَيْرُ مُؤْمِنَةٍ، فَالَسْتَهُمْ بِإِعْلَانِهَا تَقْدُمُ ادَّعَاءَ كَاذِبًا، إِذْ هُوَ غَيْرُ مُطَابِقٍ لِلْوَاقِعِ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ فِي دَخِيلَةِ نَفْسِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ.

ونلاحظ أَنَّ النَّصَّ قد بدأ بتقديم تعريف محدّد لهذا الصنف من الناس: يقولون:

﴿ءَاْمَنَّا بِاللّٰهِ وَيَاْلَيُّوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِيْنَ﴾ (٨).

واقصر النَّصَّ في بيان مقالتهُم على إعلان الإيمان بالله وباليوم الآخر، لأنّ هذين الركنين من أركان الإيمان هما الركنان الأساسيان في قضية الإيمان لسائر الأركان، وهي لوازمُ لهُمَا أو فروعُ عنهما.

* * *

وبعد التعريف بهذا الصنف من الناس، أخذ النَّصَّ يبيّن طائفةً من صفاتهم النفسية والسلوكية.

فبدأ ببيانِ الباعث المباشر لهم على إعلانهم الكاذب، وهو رغبة المخادعة، فقال الله عزَّ وجلَّ:

﴿يُخٰدِعُوْنَ اللّٰهَ وَالَّذِيْنَ ءَاْمَنُوْا وَمَا يَخْدَعُوْنَ اِلَّا اَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُوْنَ﴾ (٩).

قرأ جمهورُ القراء: [وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ].

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: [وَمَا يُخَادِعُونَ].

المخادعة: هي إظهار ما يوهم الصدق والسلامة والسداد، وإبطان ما فيه خلاف ذلك.

والمخادعة تنضمّن استغفالَ مَنْ يُرَادُ خَدْعُهُ لإيقاعه فيما يكره، بأن يُظْهَرَ المخادِعُ لَهُ مَا يُجِبُّ، وَيُخْفِي عَنْهُ مَا يَكْرَهُ، تغريراً به.

وأصل مادة «خَدَعَ» فيها معنى الاستخفاء والتواري، ومنها المخدع.

وفعل «يُخَادِعُ» بهذه الصيغة يدلُّ في الأصل على المشاركة، ويدلُّ أيضاً على المبالغة والاجتهاد الزائد في العمل ولو كان من طرف واحد، لأنَّ مَنْ يُغَالِبُ غيره في عملٍ مَا يُبَالِغُ مِنْ طَرَفِهِ ببذل غاية الجهد الذي يستطيع بذله، والمنافقون يبالغون جداً

في استخدام الخداع، وَيُخَادِعُونَ فِيهِ يَبْذُلُ غَايَةَ جَهْدِهِمْ، حَتَّى كَانَهُمْ فِي مَعْرَكَةٍ مُخَادَعَةٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ.

ويبدلُ الفعل المضارع في [يُخَادِعُونَ] على تجديد الخدع وتكريره مع مرور الزمن، وهو ما يحتاج إليه المنافقون باستمرار.

أَمَّا مُخَادَعَتُهُمْ لِلَّذِينَ آمَنُوا فظاهرة، ولكن كيف يخادعون الله وهو العليم بسرائرهم، وبِكُلِّ مَا يَمْكُرُونَ؟

والجوابُ أَنَّهُمْ إِذْ يَخَادِعُونَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَ أَنَّ اللَّهَ مَعَهُمْ مَا التَزَمُوا تَعَالِيَهُ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ، إِنَّمَا يَخَادِعُونَ مَعَهُمُ اللَّهَ رَبَّهُمْ، الَّذِي يَتَوَلَّاهُمْ بِتَأْيِيدِهِ وَنَصْرِهِ، وَيَحْمِيهِمْ مِنْ مَكْرِ الْمُنَافِقِينَ وَيَكِيدُهُمْ، لِذَلِكَ فَهَمْ بِغَفْلَتِهِمْ عَنْ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ أَوْ بِجُحُودِهِمْ لَهَا لَا يَخْدَعُونَ وَلَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، إِذْ إِنَّهُمْ هُمُ السَّاقِطُونَ فِي شَرِّ أَعْمَالِهِمْ، وَالسَّاقِطُونَ فِي الْحُفْرِ الَّتِي يَحْفَرُونَهَا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَهَذَا يُبَيِّنُ أَنَّهُمْ هُمُ الْمَخْدُوعُونَ لَا الْخَادِعُونَ، نَظَرًا إِلَى أَنَّ خَدِيعَتَهُمْ مَرْدُودَةٌ عَلَيْهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ، وَسَيَهَانُهُمْ مُنْقَلِبُهُ إِلَى نُحُورِهِمْ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

فهم في مخادعتهم للمؤمنين المؤيدين من الله العزيز الحكيم يَكُوبُ بِهِمْ ذُكَاؤُهُمْ، فَيَسْقُطُونَ فِي حُفْرَةٍ سَحِيقَةٍ مِنْ حُفْرِ الْحِمَاةِ وَالْغَبَاءِ.

إِنَّ مَنْ يَخْدَعُ مَنْ لَا يَنْخَدِعُ بِهِ، بَلْ يَرُدُّ مَكْرَهُ إِلَيْهِ، وَيَقْلِبُ كَيْدَهُ عَلَيْهِ، إِنَّمَا يَخْدَعُ نَفْسَهُ.

وَتَبَيَّنَ الْقَرَأَتَانِ: [وَمَا يَخَادِعُونَ - وَمَا يَخْدَعُونَ] عَلَى أَنَّ الْمُنَافِقِينَ فِيهِمْ مَنْ يَخْدَعُ بِصُورَةٍ عَادِيَّةٍ، وَفِيهِمْ مَنْ يَخَادَعُ مِبَالِغًا بِحَسَبِ مَقْتَضِيَاتِ الْأَحْوَالِ، فَتَكَامَلَتِ الْقَرَأَتَانِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى هَذَا الْوَاقِعِ، وَجَاءَ الْاسْتِغْنَاءُ بِقِرَاءَةِ [وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ] عَنْ أَنْ يَرَدَّ فِي الْمَقَابِلِ قِرَاءَةُ فِيهَا: يَخْدَعُونَ اللَّهَ. فَالَّذِينَ يَخْدَعُونَ اللَّهَ لَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، وَالَّذِينَ يَخَادِعُونَ اللَّهَ لَا يَخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ.



وبعد ذلك يبين الله عز وجلَّ العلَّةَ الأساسية التي جعلتهم ينافقون وَيَخْدَعُونَ وَيُخَادِعُونَ فقال الله عز وجلَّ:

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (١).

إِنَّ الْعَلَّةَ الْأَسَاسِيَّةَ لظاهرة النفاق لديهم أَنَّ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضًا، فما هو هذا المرض؟

لدى التحليل الفاحص يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ هذا المرض النفسي الذي وصل إلى داخل دائرة قلوبهم هو من نوع الأمراض الخَلْقِيَّةِ، وهو مرض مركَّب من عناصر هي في هيئتها التركيبيَّة تُشكِّلُ مرضاً مكتسباً عملت إراداتهم على اكتسابه، وهي:

(١) الجبن المصحوب بالخوف من نزول المكاره، وفوات المصالح.

(٢) الطمع الشديد بالمنافع والمغانم الدنيوية.

(٣) خُلِقَ الجحود والكنود، مع معرفة الحق وظهور أدلته، وهذا من بواعث الكفر في الباطن.

(٤) خُلِقَ كراهية الحق الذي يخالف الأهواء والشهوات ونزعات الكبر والحسد، ورغبات الفجور في الأرض، وهذا من بواعث الكفر في الباطن أيضاً.

(٥) الشعور بالقدرة على اتخاذ حيل الإخفاء والمصانعة والتظاهر بغير ما في النفس من مشاعر وأحاسيس، وهذا من بواعث اتخاذ مسلك النفاق في الظاهر.

لَكِنَّ الذين يعيشون في حالة التناقض بين ظواهرهم وبيواطنهم، يتعرَّضون باستمرار لعذاب القلق، والخوف من الفضيحة، والضغط على النفس، لتعمل ما لا تهوى، بُغْيَةَ المصانعة والظهور بما يتلاءم مع الإعلان الكاذب.

وهذا نوع من العذاب يَجْنُونَهُ على أنفسهم بأيديهم، لذلك قال الله تعالى:

﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾:

أي: فزادهم الله المأ وعذاباً، كلما زادوا نفاقاً، وتوغَّلوا في قبائحه، ومما لا ريب فيه أَنَّهُمْ كلما توغَّلوا في النفاق، وطال عليهم الأمد، وَهُمْ يُشَاهِدُونَ أَنَّ شَوْكَةَ المؤمنين المسلمين الصادقين تَشَدُّ، وَقُوَّتُهُمْ تعظم وتعمد، زاد عذابهم النفسي هذا، حتَّى يتغلغل إلى عَمَقِ قُلُوبِهِمْ.

وعلى هذا فالمعنى: فزادهم الله عذاباً وألماً كلما تطاول أمدهم في النفاق، وهذا من سنن الله في عقوباته المعجلة.

وفي هذا التعبير إيماء إلى أن الله عز وجل سينصر المؤمنين ويمكن لهم في الأرض، ويخذل الكافرين، ويسلبهم أسباب القوة والتمكن في الأرض، وهذا أمر من شأنه أن يغيظ المنافقين، لأنهم مع الكافرين في الباطن، وهو يزيدهم عذاباً وألماً.

ففي هذه الجملة إذاً: [فزادهم الله مرضاً] بيان للعقوبة المعجلة التي يعانون من آلامها، عن طريق مرض قلوبهم نقيب، الذي جعلهم يسلكون مسالك النفاق.

إن عذاب النفس يكون من خلق الخوف الذي يتولد عن الجبن أولاً، ويزيده دوماً توقع انكشاف أمرهم، وهتك سترهم.

ويكون أيضاً من القلق الذي يؤلده الطمع مع توقع الحرمان، وهو الطمع المتأرجح بين المؤمنين والكافرين المصحوب بالقلق والخوف من الحرمان، والخوف من هتك السر والتعرض للنقمة.

وقد ينسبهم عذاب الضمير الذي قد يحدث نتيجة جحود الحق، مع الاستمرار على تلبيق الأكاذيب، وتصنع الظواهر المخالفة لطبيعة الفطرة البشرية.

وقد ينزل بهم عذاب آلام نفسية شديدة نتيجة نصر الله المؤمنين الصادقين وتمكينهم في الأرض بقوة وسلطاناً، ونتيجة جذلان الكافرين، وسلبهم شيئاً فشيئاً أسباب تمكينهم في الأرض.

كُلُّ ذلك من العقوبات المعجلات اللواتي يعانون من آلامها المتعجزة داخل نفوسهم، وعن طريق المرض نفسه، الذي جعلهم ينافقون، ظانين أنهم يجلبون به لأنفسهم خيراً وسعادة وراحة ولذات ومنافع ومصالح، ويدفعون به عن أنفسهم مخاطر ومضرات.

أما العقوبة المؤجلة إلى يوم الدين، فقد جاء بيانها في قوله تعالى:

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (١٠).

قرأ الكوفيون: [يَكْذِبُونَ].

وقرأ باقي القراء العشرة: [يَكْذِبُونَ].

فدلَّ قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا﴾ مُسْتَعْدِمًا صيغة الفعل الماضي، على أنَّ سبب العذاب الأليم الذي هولهم قد سبق أيام حياة ابتلائهم، أي: فهم الآن في حياة الجزاء يوم الدين.

وذكر أنَّ السَّبَبَ الحقيقي هو كُفْرُهُمْ، إذْ كَذَّبُوا رَسُولَ اللَّهِ فِي سَرَائِرِهِمْ، وكَذَّبُوا بما جاءَهُمْ به من عند رَبِّهِمْ، وكَذَّبُوا بِالنَّذْرِ، وكَذَّبُوا بِأَدْعَائِهِمْ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ صادقون في إعلانهم إسلامهم، مع أَنَّهُمْ منافقون يَبْتَغُونَ الكُفْرَ وَيُظْهِرُونَ الإسلامَ، فتكاملت القراءتان في الدلالة، إحداهما أبانت كَذِبَهُمْ، والأخرى أبانت تَكْذِيبَهُمْ بالحق، وهذا من إيجاز القرآن وإعجازه.



وبعد التعريف بهذا الصنف من الناس، وبيان الباعث المباشر لهم على النفاق، وبيان العلة النفسية الأساسية التي هي المرض الخلقي الذي كان في هيئته التركيبية وآثاره من مكتسباتهم الإرادية، والذي وصل إلى عمق قلوبهم.

شرح النص في بيان طائفة من ظواهرهم السلوكية، فقال الله عز وجل:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

فسأد الشيء: تحوُّله عن حالة النفع والفائدة إلى حالةٍ دون ذلك، ويكون الفساد كُلِّيًا أو جُزئيًا.

وإفساد الشيء: يكون بتحويله عن حالة النفع والفائدة، إلى حالةٍ دون ذلك.

فإفساد الزَّرْع يكون بإتلافه كله أو بعضه، وإفساد البناء يكون بالتهديم منه على وجهٍ يضرُّ به، أو يُفَوِّت من منافعه.

وإفساد النفوس يكون بتحويلها عن صحتها الطبيعية أو الخلقية، إلى حالاتٍ تجرُّ لها أو يغيِّرُها آلاماً ومتاعب.

والإفساد في الأرض يكون بممارسات الظلم والعدوان، وقطع الطريق، والقتل،

واستعباد الناس، وأكل أموالهم بغير حق، وهضم حقوقهم، ويكون باستعمال المضار والمؤذيات ونشرها، وبمقاومة المؤمنين الصالحين، ونشر المعاصي والموبقات التي تجلب للناس الشرور والآلام، والأمراض والأسقام، وأنواع العداوة والبغضاء والخصام، كنشر الزنا، والسرقه، واللواطه، ونشر شرب الخمر وتناول المخدرات المهلكات، ونشر القمار والربا، ومنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وكمعاونة الكافرين، ومناصرة الظالمين، وخذل المؤمنين، وتدمير المكاييد ضدهم، ومخادعتهم والتغريب بهم.

ولذلك جاء في وصف قوم لوط وصفهم بأنهم قوم مفسدون، بعد ذكر طائفة من أعمالهم، منها إتيان الفاحشة، وقطع الطريق، وإتيان المنكر في ناديهم، فقال الله عز وجل في (سورة العنكبوت / ٢٩ مصحف / ٨٥ نزول):

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٥﴾ أَيْنُكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٨٦﴾ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٧﴾﴾

وجاء في وصف فرعون وقومه، وصفهم بأنهم قوم مفسدون، بعد وصفهم بأنهم قوم فاسقون، فدل على أن الفسق مما يؤدي إلى الفساد في الأرض، فقال الله عز وجل في معرض الحديث عنهم في سورة (النمل / ٢٧ مصحف / ٤٨ نزول):

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ وَحَدِّثُوا بِهِمْ وَاسْتَخَفَّتْهُمَا أَنْفُسُهُمْ ظَلَمُوا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾

وأبان الله عز وجل أن الفساد إنما يظهر في الأرض بسبب ما يَكْبِيهُ النَّاسُ بأعمالهم، بمخالفة ترائيه وأنظمتهم في كونه، القائمة على ما تقتضيه الحكمة، وبمخالفة شريعته ومنهاج السلوك اللذين أبانتهما في الدين الذي اصطفاه لعباده، فقال الله عز وجل في سورة (الرؤم / ٣٠ مصحف / ٨٤ نزول):

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١١).

وبعد معرفة حقيقة الفساد والإفساد نلاحظ أن المنافقين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، لأن خطتهم في المخادعة، ونقل أخبار المؤمنين سرّاً أنذائهم، وتوهين قوى المؤمنين وتخذيّلهم، والعبث بالدين والقضاء الشبهات حول، والكيّد للإضرار بالإسلام، والمسلمين داخل صفوفهم، كل ذلك من الإفساد في الأرض، بل هو الإفساد الأكبر، فهم شرّ المفسدين، أو من أشدهم شرّاً، لأن ضررهم نكبي من ضرر الكافرين الصّرخاء، المجاهرين بكفرهم وعداوتهم.

لذلك يصح أن يقال في شأنهم على سبيل المبالغة، للإشعار بأنهم في نمة فئات المفسدين:

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾.

لكنهم لا يشعرون بهذه الحقيقة، وربما يتصورون أن نسبة إفسادهم أقل من نسبة إفساد الكافرين الصّرخاء، باعتبار أنهم يداهون المؤمنين، وشاركونهم في كثير من أعمالهم، ويظهرون بالمظاهر الإسلامية في معظم المناسبات العامة.

وحينما يشعرون بأنهم يفسدون إفساداً حقيقياً فإنهم يحاولون أن يسترّوا أعمالهم بأقوالهم الكاذبة.

وأحياناً يزّون أنهم بأنواع سلوكهم على خطة النفاق يصلحون، بطريقة ذكية، على خلاف طريقة الكافرين الذين يواجهون أعداءهم من أهل الإيمان مراجعات صريحة مكشوفات الوسائل والغايات.

من أجل ذلك، إذا قيل لهم: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

قالوا: ﴿إِنَّمَا نحن مصلحون﴾:

وقد يعلّلون مقاتلتهم هذه بأنهم يريدون أن يقرّبوا وجهات النظر بين فريقين المؤمنين والكافرين، فيمنعوا وقوع كارثة الهزيمة المنكرة بالكافرين، إذا هم نقلوا

أخبار تحركات المؤمنين وأسرارهم العسكرية، فهم يعملون لصالح السلم والأمن العام، ولصالح الأخوة الإنسانية.

وربما زعموا للمؤمنين أنهم يريدون أن يتخذوا أياديهم مع الكافرين، حتى يخففوا عنهم نعمتهم، أو حتى يكونوا وسطاء صلح ومعاونة في الشدائد.

إلى غير ذلك من التعللات التي تنتجها المنافقون عادة، وهي كثيرة جداً، ولا تكاد تُحصَر.

ولكل لون من ألوان النفاق، ولكل صورة من صوره دعاوى يستتر بها المنافقون، ويزعمون فيها أنهم مصلحون غير مفسدين.

فمن ظواهر المنافقين السلوكية أنهم يُفسدون في الأرض بأقوالهم وأعمالهم.

فإذا قيل لهم: لا تفسدوا في الأرض، بهتوا ناصحينهم، وكذبوا بكل وقاحة، وجعلوا الباطل حقاً والحق باطلاً، دونما حياءٍ ولا تلجلج، وقالوا: إنما نحن مصلحون، وأخذوا يعللون سلوكهم المناقض المفسد، بأنه من الأعمال الإصلاحية، وربما كانت غلبة أهوائهم عليهم تجعلهم يتصورون أن ما يفعلونه إنما هو من قبيل الإصلاح، ولا إفساد فيه.

* * *

وبعد ذلك انتقل النص إلى بيان ظاهرة أخرى من ظواهر سلوكهم، فقال الله عز وجل:

﴿وَلَا يَقِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣).

السفيه: هو ناقص العقل، قليل الإدراك للأمور، ضعيف التفكير.

فمن ظواهر المنافقين السلوكية أنهم يزعمون لأنفسهم الذكاء ورجاحة العقل، وحسن التصرف في الأمور، للتخلص من المآزق الحرجة التي يواجهونها، ويرون أن المؤمنين الصادقين في إيمانهم أناس سفهاء، ناقصو العقل، قليلو التفكير، يتأثرون ببيادي الرأي وبأدبته.

فلإذا قيل لهم: آمنوا كما آمنَ الناس، أي: كما آمن جمهور المسلمين إيماناً صادقاً، قالوا: أَلُؤْمِنُ كما آمنَ السُّفَهَاءُ؟

هكذا بأسلوب الاستفهام الإنكاري الاستكباري التعجبي.

لكنهم لو كشفوا عن حقيقة الأمر لَعَلِمُوا أَنَّهُمْ هُمْ أَنفُسُهُم السُّفَهَاءُ، ناقصو العقل، قليلو التفكير، لا يتدبرُونَ عواقب الأمور، بخلاف المؤمنين، فالمنافقون يدفعون بأنفسهم إلى مواقع الآلام المعجَّلة، والشقاء الأبدي، بما اختاروا لأنفسهم من طرائق، وأساليب، وجِلْد ذِكَّة، زعموا أَنَّهُمْ يحققون بها لأنفسهم الخير والسعادة والأمن والسلامة والرفاهية.

ومن أكثر سفاهة ممن يُجَنِّي على نفسه عاقبة وخيمة الأيمة، وَعَذَاباً أبدياً، وشقاء مُقيماً؟.

إنهم بانحرافهم وأتباعهم أهواءهم وشهواتهم، لم يستخدموا ذكاءهم فيما هو خيرٌ لهم في عاجل حياتهم وأجلها يوم الدين، إنما استخدموا ذكاءهم وما لديهم من قدرات جبلة، للوصول إلى ما يَهْوَوْنَ ويشتهون من الحياة الدنيا، التي تعلَّقت بها كُلُّ هِمَّاتِهِمْ، وارتبطت بتحصيل لذاتها كُلُّ همومهم، باعتبار أَنَّهُمْ لم يؤمنُوا بالآخرة.

وهذه الظاهرة نلاحظها في كُلِّ الذين لا يكتسرون للدين، ولا يُقِيمُونَ له في نفوسهم وزناً، إنهم يتصوِّرون أَنَّ المتدينين ضعفاء العقول، ناقصو التفكير، تؤثر عليهم الأوهام، وتستولي عليهم الخرافات الغيبية.

ولو عرف المنافقون الأذكاء، وسائر الكفرة، حقائق الإيمان بالله واليوم الآخر، وسائر حقائق الدين، ببصيرة عقلية واعية عميقة، وببصيرة وجدانية نقيّة سليمة من الغشوات، لعلّموا أَنَّ أكثر الناس ذكاءً ورجاحةً عقلٍ هُم من المؤمنين، الملنزمين بشريعة الدين ومنهاجه، لأنهم يعرفون كيف يَتَوَنَّن في حاضرهم مستقبلهم السعيد، وكيف يَحْمُونَ أنفسهم من المخاطر المرتقبة.

والأنبياء هم من أذكى الناس، وأرجحهم عقولاً، فهم في قَمَّة أَهْلِ الذَّكَاء والفطنة والعقل في مدى تاريخ البشرية حتَّى تقوم الساعة.

أما جماهير الأتباع من المسلمين المؤمنين الصادقين ففيهم المستويات البشرية

كلُّها، فيوجد في بعض أهل التقوى منهم غفلات فكرية، وسذاجات، إلا أنهم بدوافع سلامة فطرهم قبلوا مسيرة الإيمان والإسلام على مقادير أفهامهم وتصوراتهم، فسلموا، وحققوا لأنفسهم الراحة والطمأنينة والسعادة والنجاة يوم الدين، والله عز وجل لم يكلفهم أكثر مما وهبهم من قدرات.

إِنَّ فِطْرَهُمُ السَّليمةُ قد أعطتهم شعوراً فطرياً بالحقيقة، وهذا الشعور الفطري السليم قد صاحبه من التفكير السليم بمقدار ما لديهم من هبات فكرية، وهذا يكفيهم لإيمانهم وإسلامهم، وتحقيق ما يريدون من سعادة عاجلة وآجلة، وبذلك تكون رؤيتهم للحقيقة أو إحساسهم النفسي الوجداني بها أصح من رؤية أنصاف أو أرباع الأذكاء، الذين رفضوا الإيمان بالله واليوم الآخر، ورفضوا الإسلام والعمل بشريعته ومنهاجه.

ولدى التمهيص نلاحظ أن الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، يظلُّ الشكُّ والتَّخوُّفُ يَمْلَأَنِ قُلُوبَهُمْ قَلَقاً واضطراباً، فهم في الحقيقة السفهاء وناقصو التفكير والعقل، وإن كانوا في أعمال الخبث، والمكر، والكَيْدِ، أذكاء، فذكاء المجرم لا قيمة له في ميزان العقل الصحيح، والفهم السديد.

من أجل ذلك وصف الله عز وجل المنافقين بأنهم هم السفهاء، لا المؤمنون، وردَّ عليهم الوصف الذي وصفوا به المؤمنين، دون أن يزيد عليه شيئاً، حتى لا يكون في الزيادة معنى الجَنَفِ في الجزاء، فالسبب نردُّ بمثله.

ولا تخفى نزعة العجب والكبر والاستعلاء والغرور بالنفس، واستكبار دعوتهم إلى الإيمان الصادق، في مقالته:

﴿أَنْتُمْ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ ١٩

لذلك ردَّ الله عز وجل عليهم وصف السفاهة انتصاراً للمؤمنين بقوله تعالى:

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ١٣

وباستطاعتنا أن نفهم من استعمال حرف الشرط «إذا» في قول الله تعالى:

(١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

(٢) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾ .

أَنَّ عَلَى مَنْ أَطْلَعَ عَلَى أَحْوََالِ الْمُنَافِقِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ، أَنْ يَعْظُوهُمْ وَيَنْصَحُوهُمْ بِتَرْكِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَتَرْكِ خَطَةِ النِّفَاقِ، وَبِالْإِيمَانِ الصَّادِقِ الصَّحِيحِ أُسْوَةً بِسَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ.

نظراً إِلَى أَنَّ حَرْفَ الشَّرْطِ «إِذَا» يَدْخُلُ عَلَى مُتَحَقِّقِ الْوُقُوعِ، وَالْمُؤْمِنُونَ مِنْ وَظِيفَتِهِمُ الْعَامَّةُ أَنْ يَدْعُوا إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِمْ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَأَنْ يَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَبِمَا أَنَّ الْمُنَافِقَ لَا بُدَّ أَنْ يَنْكَشِفَ أَمْرُهُ لِبَعْضِ أَصْدِقَائِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ، فَإِنَّ صَدِيقَهُ أَوْ أَصْدِقَاءَهُ لَا يَتْرَكُونَهُ مِنْ دَعْوَةٍ وَنُصْحٍ وَأَمْرٍ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيٍ عَنِ الْمُنْكَرِ، إِذِ الْمُؤْمِنُونَ مُدْعَوُونَ دَوَاماً أَنْ يَقُومُوا بِوُظَائِفِ الدَّعْوَةِ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِمْ، وَوُظَائِفِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ.

فَدَلَّ اسْتِعْمَالُ «إِذَا» عَلَى تَوْجِيهِ الْمُؤْمِنِينَ لِنُصْحِ مَنْ يَرُونَ فِيهِ نِفَاقاً، وَأَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ سَيَسْتَجِيبُونَ لِهَذَا التَّوْجِيهِ، فَهَذَا النُّصْحُ أَمْرٌ مُؤَكَّدُ الْوُقُوعِ، فَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ.

وَبِمَا أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ هُمُ السَّفَهَاءُ فِي الْحَقِيقَةِ دُونَ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهُمْ يُصَابُونَ نَتِيجَةً اعْتِدَادِهِمْ بِتَفَوُّقِهِمْ فِي الذِّكَاةِ بِعُقْدَةِ الْغُرُورِ بِالنَّفْسِ، إِذْ يَتَفَخَّخُ هَذَا الْغُرُورُ حَتَّى يَمْلَأَ جَوَانِبَ النَّفْسِ، فَيُخْشِي عَلَيْهَا، فَيُخْفِي عَنْهَا وَجْهَ الْحَقِيقَةِ، وَيُحْجِبُ عَنْ بَصِيرَتِهَا كُلَّ الْمَنَافِذِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تَرَى مِنْهَا الْحَقِيقَةَ، وَيَذَلُّكَ يَسْقُطُونَ فِي أَشَدِّ أَوْحَالِ الْغَبَاءِ، مِنْ حَيْثُ يَتَصَوَّرُونَ أَنَّهُمْ أَهْلُ الذِّكَاةِ الْمَتَفَوِّقِ، وَالْعَقْلِ الرَّاجِحِ.

إِنَّ مَقَالَةَ الْمُنَافِقِينَ هُنَا تُشَبِّهُ مَقَالَةَ الْكَفَّارِ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَمَلَأَ وَجْهُهُ قَوْمُ نُوحٍ قَالُوا لَهُ، كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الشُّعَرَاءِ / ٢٦ مَصْحَف / ٤٧ نَزُول):

﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَتَتَّبِعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ .

وَكَذَلِكَ قَالَ لَهُ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (هُود / ١١ مَصْحَف / ٥٢ نَزُول):

﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرِيكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرِيكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُبَادُوا مَا نَرِيكَ إِلَّا رَجُلًا غَافِقًا فَسَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٧)

ونظير ذلك قال مشركو قريش لرسول الله محمد ﷺ إذ طالبوه بطرد الفقراء المؤمنين عن مجلسه حتى يتبعوه، أو بأن يكون له بهم اجتماع طبقي خاص، فأنزل الله عليه قوله في سورة (الأنعام / ٦ مصحف / ٥٥ نزول):

﴿ وَلَا تَقْرُؤِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَقَةِ وَالْعِشْيِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَقْطِرْ دَهُمَ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨)

وبعد ذلك انتقل النص إلى ظاهرة أخرى من ظواهر سلوكهم، فقال الله عز وجل:

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ﴿١١﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

﴿ خَلَوْا ﴾:

يقال لغة: خلا به، وخلا معه، وخلا إليه، إذا اجتمع به منفرداً.

﴿ مُسْتَهْزَءُونَ ﴿١١﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾:

الاستهزاء: السخرية والاستخفاف بالمسخور منه.

﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾:

أي: يمدُّهم بالقوى والطاقات ضمن سننه الدائمة التي بمقتضاها يمدُّ كل عباده، مُحْسِنِهِمْ وَمُسِيئِهِمْ، مؤمنهم وكفارهم، لاستكمال ظروف امتحانهم في الحياة الدنيا، كما قال الله عز وجل في سورة (الإسراء / ١٧ مصحف / ٥٠ نزول):

﴿ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ (١٣)

فالمُدُّ على هذا المعنى هو كالإمداد، ويكون بمنابذة العطاء بمطالب الحياة من

خير أو شر. ومن فعل «نذ» الثلاثي على هذا المعنى قوله تعالى:

﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُمِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ آبْحٍ...﴾ [لقمان / ٣١].

ويأتي المد بمعنى الإمهال.

والله عز وجل يمدُّهم من المدد بالعطاء لاستكمال ابتلائهم، ويمدُّهم مُمهلاً لهم ليستوفوا كلَّ الزمن المقدر لابتلائهم، وعسى أن يشوبوا إلى رُشيدهم، ويتوبوا إلى بارئهم.

وجاء ذكر ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ لبيان أن الله عز وجل يمدُّهم بعباءاته ويمهِّلهم، حالة كونهم منغمسين في طغيانهم، لا أنه يمدُّهم بعتصير الطغيان.

﴿يَعْمَهُونَ﴾:

أي: يتزوّدون متحيرين، لا يذرون على أيّ منهج يسرون. ويكون الغمّة أيضاً بمعنى انطماس البصيرة، فهو في الفكر والبصيرة كالغمّة في البصر، والمعنيان مقصودان في النص.

فالمعنى الأول ينطبق على المنافقين المذبذبين الذين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، والمعنى الثاني يناسب المنافقين الذين مردوا على التفلق وهم مستقرون في مواقع الكفر جزماً.

فمن الظواهر السلوكية للمنافقين أن لهم أكثر من وجه:

* لهم وجه يستعلنون به أمام جمهور المؤمنين، فإذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمناً.

والظاهر أنهم يكرّرون هذه المقالة كلما دعت المناسبة إلى ذلك، نظراً إلى أنهم لا بد أن يلاقوا المؤمنين كثيراً، فهم ضمن صفوفهم ويتكرّر لقاءهم بهم.

ولعلّ الداعي إلى تكرير مقالاتهم هذه أمام المؤمنين الصادقين شعورهم الداخلي بأن في تصرفاتهم ما يكذب ادّعاء إيمانهم، فهم يحاولون سنر ذلك بتكرير قولهم: «آمناً» إذا لقوا فريقاً من الذين آمنوا، ورأوا في نظراتهم تشككاً في صدق إيمانهم.

وهذا نظير لجوء الكذاب إلى حلف الأيمان المغلظة، لتأكيد أنه يَفْلُق في كلامه، ولا يكذب.

• ولهم وجه آخر يتوازون به ولا يُظهرونه إلا إلى شياطينهم، أي: إلى إخوانهم المنافقين أمثالهم، أو إلى أئمتهم في النفاق، أو إلى أئمة الكفر وقادته، أو إلى الموسوسين لهم بأن يَسْلُكُوا مسلك النفاق من شياطين الإنس، كاليهود، أو إلى كل أولئك، وهو الأرجح.

وتفسير ﴿شياطينهم﴾ بأنهم الموسوسون لهم من قادة يهود قول رُوي عن ابن عباس، وهو قوي.

فإذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا لهم: إِنَّا مَعَكُمْ، فَأَكْذَبُوا لهم أنهم معهم في حقيقة الأمر، كافرون بمحمد وبدينه، ولم يؤمنوا مع المؤمنين إيماناً صادقاً، بل هم أعداء حقيقيون لهذا الدين وللمؤمنين به.

وفي تعديّة فعل «خلا» هنا بحرف «إلى» معنى الميل النفسي، أي: خلوا مع شياطينهم مائلين بقلوبهم إلى طريقتهم، يُسِرُّون إليهم بالمودة.

ويُجِيبُ المنافقون على تساؤل لا بُدَّ أن يُوجَّهَ لهم، وهو: ما سبَّبَ هذا التَّلَوُّنَ إذا، فيعلَّلون لشياطينهم سلوكهم هذا بقولهم:

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾ (١١)

أي: ما نحن إلا مستهزئون بالمؤمنين، وذلك بأن نُظهِرَ لهم أننا معهم نؤمن بما يؤمنون به، فَيُرَكَّبُونَ لنا، ويطمثون إلينا، فنصيبُ منهم خيراً، ونترصدُ غراتهم للإيقاع بهم، أو التخلّي عنهم عند حاجتهم إلينا، وننصرُ أعداءهم الصرحاء المجاهرين بعداوتهم لهم، ونحن ضمن صفوفهم.

وظاهر أن هذا هو الاستهزاء من الدرجة القصوى، أما صور الاستهزاء الكلامي ونحوه التي تجري بين الناس فهي دون هذا النوع من الاستهزاء بدرجات متعدّدة.

يتكلم بعض الناس بكلامٍ سخيف في محفل، فيريدُ به أخذَ خصومه كيداً، فيظهر له الإعجاب بما يقول، لبتمادى فيما هو فيه، حتّى يَفْضَحَهُ، ويسقطه في أعين السامعين، ويُدْرِكُ الأذكياء أن هذا الذي أظهر له الإعجاب قد كان يُغرَّرُ به استهزاءً

ليورطه، فيندفع مُسرِعاً في الاتجاه الذي دفعه شطره، حَتَّى يسقط في النهاية ويُسخر منه الناس.

كذلك يفعل من يُريد تَورِيطَ مغرور بنفسه ليصارع رجلاً قوياً لا يقوى على مصارعته، فيقول له: أنت أقوى منه وأقدر، ومستصرعه وتَغْلِبُهُ بقوتك وجلبتك وذكائك، وهو في ذلك يستهزئ به ويستخفُّه لِيُسْرَعَ في التورط.

فإذا اغترَّ وتورط، سقط طريحاً كالمح بالبصر، فسخر منه المشاهدون واستضحكوا.

على مثل ذلك تأتي صور الاستهزاء الماكر المستخفي المقنع.

لكنَّ لعبة الاستهزاء الكبرى إنما يمارسها المنافقون القادة، لأنها في تصوُّرهم لعبة توريث لأمة كاملة، ولا تقتصر على مجلس من المجالس، ولا على فرد أو أفراد، إنها لعبة استهزاء طويلة المدى، واسعة الساحة البشرية، شاملة لعمل أمة كاملة، بكل تصرفاتها، وكل أنظمتها، لتوريطها وإسقاطها فيما تكره، وهي نظنُّ خلاف ذلك، ولا تعلم من أين أتيت.

وطريقة المنافقين في الاستهزاء طريقة منافقة مستخفية غير مستعلنة، وليست مثل طريقة استهزاء الكافرين الصرحاء، فللكافرين الصرحاء طريقة أخرى في الاستهزاء هي طريقة الذي يواجه خصمه بهزئه.

وقد يدرك المؤمنون أنَّ المنافقين يستهزئون بهم، ويخدعونهم، ويستخفونهم ليتورطوا، وذلك من خلال تصرفاتهم، وفلتات ألسنتهم، فمن الملاحظ أنَّ المنافق إذا كان في مجلس من يخدعهم بنفاقه، ورأى أو سمع ما لا يُعْجِبُهُ مما لا يؤمن به باطناً، انفعلت نفسه تجاهه بحركة خفية من حركات الهزء والسخرية دون أن يملك نفسه، فإذا شعر بما جرى منه سارع إلى كتمه وإخفائه وإظهار خلافه لئلا يدلَّ على حقيقته.

ومهما يكن من أمر فإنَّ الله عزَّ وجلَّ مطلع عليهم، وهو ينتصر لأوليائه، فيستهزئ من أعدائه، فيملي لهم، ويمدِّهم بإمدادات الحياة كالمال والصحة والبنين وأنواع القوى التي هي من عطاءات الله لعباده، حالة كَوْنِهِمْ منغمسين في طغيانهم يعمهون، أي: يتردوون متحيرين، لا يذكرون على أيِّ منهاج يسرون، وفي أي سبيل

يسلكون، بسبب عَمَى بصائرهم، وَيُثَبِّتُ الله لهم إمداداته في الحياة ليستكمل لهم ظروف امتحانهم فيها، حَتَّى آخر نقطة من أَمَلٍ يرجعونهم إلى الصواب، وتَوَيْتَهُمْ من الكفر والنفاق.

إِنَّ المنافقين يَتَصَوَّرُونَ أَنَّهُمْ بمسايرتهم الظاهرة المنافقة للمؤمنين إِنَّمَا يستهزئون بهم، ليستفحوا منهم، وَلِيَتَّقُوا سلطانَهُمْ ذَا البأس، وَلِيُؤَفِّقُوهُمْ حين غَرَّتَهُمْ بما يكرهون، ولِيَتَخَلَّوْا عنهم عند الشدائد.

لكنَّهُمْ في الحقيقة هم الواقعون بما يكرهون في عاقبة أمرهم، لَأَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ عليم بكل حركاتهم وَتَصَرُّفَاتِهِمْ، فهو سبحانه يُثَبِّتُ لهم، وَيُمَدِّدُهم وهم سائرون منغمسون في طغيانهم، ومع هذا المَدِّ الذي يَرَوْنَ فيه أَنْصَبَتْهُمْ من المنافع والحماية وبعض أنواع الكيد متحققة لهم، تتكايف الغشاوة على بصائرهم، فيسيرون في تَصَرُّفَاتِهِمْ على عَمَى، ومع تعاظم الطُّغْيَانِ يَتَغَاظَمُ الْعَمَى، حَتَّى تنطمس بصائرهم تماماً عن رُؤْيَا مَصَائِرِهِمْ، ويكونون بذلك قد مَرَدُّوا على النفاق، فيتخبطون في أوديته بَجُرْأَةٍ، دون أَنْ يُجِيطُوا أنفسهم بحذر.

ويدركهم عدل الله، فيسقطون في شَرِّ ما يكرهون، وينالون عقوبة استهزائهم بالمؤمنين، عندئذٍ يظهر أَنَّهُمْ هُمُ المستهزَأُ بهم حقيقة.

فمن استهزَأَ بمن يكون الله معه، فَيُثَبِّتُ الله له، وَيُمَدِّدُ بوسائل حياته، ووسائل ممارسته لأعماله، حَتَّى يوقعه في مَهْلِكَتِهِ، عقاباً له على عمله، وينجي أوليائَهُ مِنْ مَكَايِدِهِ، يكون في الحقيقة هو المستهزَأُ به.

ألا نفهم ذلك من قول الله عَزَّ وَجَلَّ بشأنهم :

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدِّدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ :

أي : حَتَّى يجدوا أنفسهم ساقطين بِخِيَابِهِمْ في أحوال ما يكرهون، عندئذٍ ينظر المؤمنون إليهم نظر الكاشف لخباياهم المستهزء بهم.

* * *

بعد ذلك جاء في النص الحكم عليهم، وتقويم سلوكهم في الحياة، وبيان أَنَّهُمْ أَثَرُوا الضلالة على الهدى، فبَذَلُوا الهدى ثمناً، واشتروا الضلالة ﴿فَمَا رَبَحَتِ

تجارتهم ﴿الدينية﴾، إذ جرّ النفاق عليهم عاقبة وخيمة في الدنيا ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ هداية تنفعهم في آخرتهم، فوزاً بالجنة وخلاصاً من عذاب النار، ف خسروا بما اختاروا لأنفسهم ثواب الهدى العظيم الذي أعدّه الله للمؤمنين الصادقين، وخسروا أنفسهم إذ جرّوا لها العذاب في الجحيم يوم الدين، فقال الله عز وجل:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَت بِتِجَارَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

شبه الله عز وجل تركهم لهدى الإيمان الصادق الذي كان في أيديهم، وباستطاعتهم أن يحتفظوا به ملكاً، هو ثمراته في جنات النعيم، وأخذهم لضلالة النفاق بذلّه، وما تجنيه عليهم من خيبة وعذاب، بمن استبدل شيئاً بشيء عن طريق الشراء والبيع.

ولمّا كان غرضهم من ذلك تحقيق الربح الديني، فإنّ هذا الربح الذي هو غرضهم لم يصلّوا إليه، ولم يُحقّقوا منه ما كانوا يطمعون في أن ينالوه، لا من جهة المؤمنين، ولا من جهة الكافرين.

لذلك قال الله عز وجل: ﴿فَمَا رَبَحَت بِتِجَارَتِهِمْ﴾ ولم يقل: فكانت تجارتهم خاسرة، لأنّ الغرض بيان عدم حصولهم على ربح ديني من نفاقهم، وهذا الربح لم يظفروا بشيء منه.

لكنّ خسارتهم العظيم هي خسارتهم الآخريّة، إذ يُحرّمون في الآخرة من ثواب المهتدين، ويكونون فيها من المعذّبين في الدرك الأسفل من النار، وهذا هو الخسران العظيم، الذي يخسرون به أنفسهم، وقد أشار إلى هذا الخسران العظيم قول الله عز وجل:

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

وبعد ذلك ضرب الله عز وجل للمنافقين مثلاً، يذللّون على أنهم صنفان لا صنف واحد.

فالأول: صنف مرد على النفاق.

والثاني: صنف ما زال مذبذباً، لا متجهاً بكيته إلى هؤلاء الكافرين، ولا متجهاً بكيته إلى هؤلاء المؤمنين، لكنه إلى الثبات في موقع الكفر أقرب.

فقال الله عز وجل في المثل الأول:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ضُمُّكُمْ غُمٌّ فَهُمْ لَا يُرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾.

وقال الله عز وجل في المثل الثاني:

﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُرٌّ يُجْعَلُونَ أَنْصَعِمُهُمْ فِيءَ إِذْ أَنْهَارُهُمْ مِنَ الصَّوْبِ حَدَرًا أَلَمَوْا وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَتْ لَهُمْ مَشْأَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

مثان ضربهما الله عز وجل لمجموع المنافقين، ولدى تحليلهما بنظرات ثاقبات يتبين لنا أنهما يذلان على أن المنافقين صنفان، وأن كل مثل منهما يلقي الضوء الكاشف على صنف من صنفى المنافقين:

• فالمثل الأول منهما تضمن تشبيهاً لحالة الصنف الأشد من صنفى المنافقين، وهو الصنف الذي مرد على النفاق، بقدر رويته أضواء هداية القرآن، وسماعه إنذارات عذاب الله للكافرين، ولما مرد على النفاق ملتزماً الثبات في موقع الكفر، طمس الله بصيرته، بقانونه القُدري في سُنْبِهِ الجاريات الثواب.

• والمثل الثاني منهما تضمن تشبيهاً لحالة الصنف الآخر المذبذب الذي ما زال متردداً مختاراً بين الإيمان والكفر، وهو إلى الثبات في موقع الكفر أقرب، فهذا الصنف لم يطمس الله بصيرته إمهالاً له، وليمنحه أجر نقطة في كأس بصيرته، ولو شاء الله لطمس بصيرته، حُكماً عليه بالجانب الغالب الأرجح من واقعه.

(١) فالصنف الأول، مثله (أي: وصفه) كمثل (أي: كوصف) الذي استوقد ناراً في مفازة مظلمة موحشة ضئيل ليل داسر، فلما أضاءت هذه النار ما حوله من ارض المفازة، ورأى صراطه، وعرف سبيل هدايته، ووجد أنه على غير ما يهوى وما يشتهي، اتخذ وسيلة أبعد عنه بها شعاع الضوء، رافضاً الاهتداء بالنور، متأبياً أن يسلك الصراط المستقيم، إصراراً على الباطل، ومعاندة للحق، فوقع عليه قانون ذهاب النور، الذي تسبب هو في إذهابه، فأمسى كالاصم الأبكم الأعشى، غير مستعد لأن يرجع إلى مواطن النور.

وفي بيان حال هذا الصنف من صنفين المنافقين، قال الله عز وجل:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَزَكَهُمْ فِي ظُلْمَةٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ضَمُّكُمْ عَنِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾

من هذا الإيجاز الخاطف في هذا المثل، يستطيع المتدبر اللامح، أن يفهم قصة طويلة للممثل به، مطابقة لحال المنافق الممثل له، وهو المنافق الذي اختار بإصرار موقع الكفر في الباطن، ومرتد على النفاق في الظاهر.

من الذي يستوقد النار ثم يطفئها ويبقى في الظلمات لا يتبصر، فيكون كالاصم الأبكم الأعشى، الذي يتخبط في ظلماته؟

لا بد أن يفهم المتدبر الذكي اللامح أنه إنسان في مفازة موحشة مظلمة، يتخبط في ظلماته على غير هدى.

ثم أدرك أن بإمكانه أن يجمع حطباً، ويقذخ زناداً، ويستوقد بذلك ناراً، تضيء له ما حوله من الأرض، فتبصر له طريقه، وتهديه إلى صراط نجاته.

ففعّل ذلك، واستوقد النار التي أراد، وأضاءت له النار ما حوله من الأرض، على محيط دائرة يحور مكانه، لكنه رأى أن صراط نجاته على خلاف ما يهوى ويشتهي في رحلته، ففيه تكليف إيجابى يعمل لا يحب أن يعمل، وفيه تكليف سلبي بترك عمل لا يحب أن يتركه، فالتخذ وسيلة للتخلص من النور الذي كشف له الصراط، بإطفاء النار، أو بغير ذلك، فأجرى الله قوانينه الجبرية القدرية، فذهب بنوره ضمن ثوابت سنته.

وهكذا كُلُّ من اتَّخَذَ بَارَادَتِهِ وَسِيلَةً ذَاتَ أَثَرٍ فِي سُنَنِ اللَّهِ لِأَمْرِ مَا، أَجْرَى اللَّهُ لَهُ قَوَانِينَهُ الْجَبَرِيَّةَ الْقَدَرِيَّةَ، فَحَقَّقَ لَهُ مَا أَرَادَ مِنْ أَمْرٍ، سَوَاءً أَكَانَ فِيهِ نَفْعٌ لَهُ أَوْ ضَرٌّ.

فصار هذا المتخبط في مفازنه يتحسَّس باللمس مَوَاقِعَ مَفَازَتِهِ، وَيَتَنَقَّلُ مِنْ مَوْقِعٍ إِلَى مَوْقِعٍ، كُلَّمَا وَجَدَ فِي بَعْضٍ مَا تَفَعَّ عَلَيْهِ لِأَمْسَاتِهِ مَا يُمَتِّعُهُ وَيَلْذُّ لَهُ.

وَمَعَ كُلِّ تَنَقُّلٍ تَخْبُطُ وَأَشْوَاكُ وَحُفَرٌ وَعَوَارِضُ مُؤْلِمَاتٍ. وهكذا ظلَّ في متاهاته، حَتَّى انْحَدَرَ إِلَى تَهْلِكَتِهِ وَعَذَابِهِ الْأَلِيمِ الْمُقِيمِ.

لَكِنْ كَلِمَاتُ الْمُثَلِّ فِي الْقُرْآنِ اقْتَصَرَتْ مِنَ الْمُثَلِّ بِهِ عَلَى عِبَارَةٍ:

﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾.

ووقف النصُّ هنا في إيجازٍ بديعٍ، وترك لذكاء المتدبِّرِ الحصيفِ أَنْ يَمْلَأَ بِقَايَا هَذِهِ اللَّفْظَةِ مِنَ الْمُثَلِّ بِهِ.

إِنَّ مُسْتَوْقَدَ النَّارِ إِنَّمَا اسْتَوْقَدَهَا لِلْإِضَاءَةِ، بِدَلِيلِ:

﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾.

وَالصُّورَةُ تُرَوِّحُ بِأَنَّهُ فِي لَيْلٍ دَامِسٍ، وَفِي صَحْرَاءٍ مُوجَشَةٍ، وَهَذَا مَا دَعَاهُ إِلَى أَنْ يَتَكَلَّفَ بَحْثًا عَنِ الْوَسَائِلِ، وَيَطْلُبُهَا لِيُوقِدَ النَّارَ الَّتِي يُرِيدُ، بِدَلِيلِ اسْتِعْمَالِ فِعْلٍ: ﴿اسْتَوْقَدَ﴾ دُونَ فِعْلِ «أَوْقَدَ» وَبَدِيلِ حَالِ الْمُثَلِّ لَهُ، الَّذِي جَاءَ فِي وَصْفِهِ:

﴿وَرَكَّهَتْ فِي ظُلُمَتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ (١٧).

لَكِنْ هَذَا الَّذِي اسْتَوْقَدَ النَّارَ قَدْ اتَّخَذَ وَسَائِلَ لِيَتَخَلَّصَ مِنْ ضَوْئِهَا، الَّذِي كَشَفَ لَهُ مَا حَوْلَهُ، فَذَلُّهُ عَلَى خِلَافِ مَا يَهْوَى، إِمَّا بِغَضَبٍ عَيْنِيهِ، وَإِمَّا بِإِطْفَاءِ النَّارِ، وَإِمَّا بِالْفِرَارِ مِنْ مَوْقِعِهَا إِلَى مَوْقِعٍ آخَرَ.

إِنَّ تَحْدِيدَ وَسِيلَةِ التَّخَلُّصِ مِنْ ضَوْءِ النَّارِ لَا تَعْلُقُ بِهِ أَهَمِّيَّةٌ حَتَّى نَذْكُرَ، وَالتَّعْمِيمُ أَوَّلَى، لِيَشْمَلَ كُلُّ الصُّورِ.

وقوانين الله عَزَّ وَجَلَّ فِي الْخَلْقِ تَقْضِي بِأَنْ مِنْ اتَّخَذَ وَسِيلَةً مِنَ الْوَسَائِلِ الْمُحَقَّقَةِ فِي نِظَامِ التَّكْوِينِ الرَّبَّانِيِّ لِأَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحَقِّقُ هَذَا الْأَمْرَ، فَمَنْ رَمَى

نفسه من شاطئ على صخرٍ حطمه الله وكسر عظامه وقتله، كذلك من اتخذ وسيلة لإطفاء النار ذهب الله بنوره.

كل هذا يُذكرُ المتدبرَ الذكيَّ اللَّماحُ، دُونَ أَنْ يُذكرَ في العبارة. وِنَتَقِلُّ النَّصَّ مِنَ المِمْتَلِّ بِهِ إِلَى المِمْتَلِّ لَهُ، فَيَأْتِي بِنَاءُ الحَكْمِ عَلَى المِثْلِ كَأَنَّهُ عَيْنُ المِمْتَلِّ لَهُ، عَلَى طَرِيقَةِ الْقُرْآنِ فِي أَمْثَالِهِ.

والمِمْتَلِّ لَهُ هُوَ الصَّنْفُ الْأَوَّلُ مِنْ صَنَفِي الْمُنَافِقِينَ كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ. وَقَدْ ذُلَّ هَذَا الحَكْمُ عَلَى هَوِيَّةِ هَذَا الصَّنْفِ، فَهُوَ صَنَفٌ رَفَضَ الحَقَّ، وَاضْرُ عَلَى الكُفْرِ، وَمَرَدَّ عَلَى النِّفَاقِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ غِطَاءً لِقَوْلِهِ: [فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ]:

﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ ۖ﴾ (١٧) ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُتِيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (١٨) ﴿

إِنَّ عِبَارَةَ: [فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ]، هِيَ مِنَ المِمْتَلِّ بِهِ، أَمَّا مَا جَاءَ غِطَاءً لَهَا فَهُوَ حَكْمٌ يَتَعَلَّقُ بِالمِمْتَلِّ لَهُ، وَهُمُ الْمُنَافِقُونَ الْمَبْطُونُونَ لِلْكَفْرِ جَازِمِينَ مُصْبِرِينَ، الْمُتَظَاهِرُونَ بِالإِسْلَامِ قَنَاعًا كَاذِبًا، وَقَدْ مَرَدُّوا عَلَى النِّفَاقِ، فَهُمْ غَيْرُ مُسْتَعِدِّينَ لِلرَّجُوعِ إِلَى حَقِيقَةِ الإِيمَانِ، بَعْدَ اخْتِيَارِهِمْ طَرِيقَ الْكُفْرِ بَاطِلًا، وَالنِّفَاقِ بِالإِسْلَامِ ظَاهِرًا.

إِنَّهُمْ لَمَّا اخْتَارُوا لِنَفْسِهِمْ هَذَا الْاِخْتِيَارَ الْأَثْمَ بِإِرَادَاتِهِمْ، أَجْرَى اللهُ فِيهِمْ قَانُونَهُ، فَذَهَبَ بِنُورِ بَصِيرَتِهِمْ الَّذِي يُوْجِّهُهُ مَسَامَعُهُمْ لِاسْتِمَاعِ آيَاتِ اللهِ، وَبَيَانَاتِ الرُّسُولِ ﷺ، وَمَوَاعِظِ الْهُدَايَةِ، وَيُوْجِّهُهُ السُّتْهُمْ الصَّادِقَةَ لِلْاعْتِرَافِ بِالْحَقِّ الدِّينِيِّ، وَالذَّعْوَةَ إِلَيْهِ عَنِ إِيْمَانٍ وَصِدْقٍ، وَيُوْجِّهُهُ أَبْصَارُهُمْ لِمُشَاهَدَةِ آيَاتِ اللهِ فِي كَوْنِهِ دَوَامًا، وَالِانْتِفَاعَ مِنْهَا بِتَمَكُّينِ الْإِيْمَانِ وَتَعَمِيقِهِ.

لِذَلِكَ فَهُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى قِطَاعِ الْهُدَايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي تُقَدِّمُ لَهُمْ دَلَائِلَ السَّعَادَةِ الْآخِرِيَّةِ الْخَالِدَةِ:

﴿صُمُّ بَكْمٌ عُتِيٌّ﴾.

كَيْفَ لَا يَكُونُونَ كَذَلِكَ، وَقَدْ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِ بَصِيرَتِهِمْ، إِذْ اتَّخَذُوا بِاخْتِيَارِهِمُ الْحُرَّ

الوسائل إلى ذلك، بإصرارهم على الكفر، بعد معرفتهم دلائل الإيمان، ورؤيتهم أضواء آيات الله وبيانات الرسول ﷺ، وابتغائهم تحصيل الأمن والمنافع من جهة جماعة المؤمنين، بإعلان الإسلام نفاقاً.

ثم إن من اختار بإرادته الجازمة الواعية مثل هذا الاختيار، لا يمكن في العادة أن يرجع إلى مواقع النور والهداية وصدق الإسلام، فقال الله عز وجل:

﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (١٨)

* * *

(٢) أما الصنف الآخر من صنفَي المنافقين، فمثلهم كمثل جماعة في مفازٍ مظلمة بليلى دامس، جاءَهُمْ سحابٌ مُمطر، فأمطر عليهم مطراً غزيراً، فأصابتهم الحيرةُ يتسعون النجاة، ورافق ذلك رعدٌ وبرق، فكانوا ضمنَ هذا الحدث على مفازتهم، في مطرٍ غزيرٍ مخيف، وفي ظلماتٍ موجشات، وفي رعدٍ يُبِيرُ الرعب، وفي برقي يتلامع بالضوء.

فهم كلما تواتر عليهم الرعدُ الشديدُ المخيفُ القاذفُ بالصواعق، يجعلون أصابعهم في آذانهم خوفاً من الصواعق أن تأتيهم بالموت، وكلما أضاء لهم البرقُ مشوا في ضوئه على مقدار ما يكتشف لهم ويبيضه، فخطأوتهم على طريق الهدى قليلة بقدر الوضات، وكلما انتهت ومضاته السريعات الخاطفات توقفوا في مواقعهم خيارى، لا يذكرون كيف ينصرفون.

إن أهل هذا الصنف من المنافقين لم يصلوا بعدُ إلى مرحلة العناد والإصرار على الكفر، ورفض قبول الحق الذي جاء به كتاب الله، وبينه رسول الله ﷺ، بل ما زالت لديهم بقيةٌ خيرة تنزع في داخلهم إلى الاستجابة، لكنها بقيةٌ ضعيفة.

إنهم لم يفقدوا القدرة على رؤية طريق الهداية، كما فقدوا أفراد الصنف الأول، لكنها بقيت لديهم في مستوى نزعاتٍ تشبه خواطف البرق، وهي قوةٌ باهرة، إلا أنها قصيرة الزمن، بينما هم بحاجةٌ للترام طريق الهداية إلى نور دائم الإشراف، أو طويل مدة الإشراف، حتى يملكوا دوام الهداية.

ولم يفقدوا أيضاً القدرة على سماع إنذارات العقاب الاليم جزاءً وفاقاً، لكنها

بقيت لديهم في مستوى نزعات قليلات، تُشبه الأحداث الزمنية القليلة التي باني فيها مع المطر الغزير رعدٌ يقذف بالصواعق، وهم بحاجة لاجتناب سلوك سبيل الكفر والضلال إلى خوفٍ دائم، أو طوبيل البقاء من عقاب الله الأليم، حتى يملكوا دوام اجتناب سبيل الكفر والضلال.

فهم حيارى بينَ تين، ما زال يتجاذبُهُم النقيضان: الكفر والإيمان. وهم إلى الثبات في موقع الكفر أقرب. ونصدق في شأنهم على وجه العموم أنهم مترددون مُذبذبون.

إنهم يسمعون أحياناً آيات الوعد التي تهز قلوبهم هزاً عنيفاً، فيخافون، وتزع قلوبهم إلى اختيار الإيمان والثبات فيه.

وتتلامع أحياناً لعقولهم وألبابهم أضواء الحق الشديدة القوية، التي تشبه أضواء البرق الذي يخطف الأبصار لقوته وشدته، فتزع قلوبهم لاختيار الإيمان والثبات فيه، واجتناب سبيل الكفر والعصيان.

لكنهم سرعان ما تغلبهم أهواؤهم وشهواتهم، فيقمعون نوازع الخير في قلوبهم، ويحجمون عن قبول الحق، ويغرضون مائلين ميلاً شديداً إلى اختيار الثبات في موقع الكفر والعصيان.

فهم في وسط بين السمع والضمم، بين البصر والعمى، وهم إلى الضم والعمى أقرب، دل على هذا المشهد التمثيلي قول الله عز وجل في المثل الثاني:

﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبِقُحٍّ جَعَلُوهُمْ أَصْغَعِمَ فِي إِذَانِهِمْ مِنَ الصَّوْعِ حَدَرَالْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١١﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوَاهُ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾.

﴿كصيبٍ﴾: الصَّيْبُ المطر الغزير. والسحابُ الممطرُ مطراً غزيراً. أي: أو المنافقون كجماعة في مفارقة عنهم وأحاط بهم صيبٌ فيه ظلمات ورعدٌ وبرق، وهذا الرعدُ قد يقذف بالصواعق.

وحرف (أو) هو للتقسيم في التمثيل، المناظر للتقسيم اللذين ينقسم إليهما

المنافقون، كما تقول: الكلمة مثل: أكل يأكل، أو سعيد وساء وماء، أو في ولما وثم، أي: الكلمة: إما فعل أو اسم أو حرف. فليست كلمة (أو) في النص هنا للتشكيك، ولا للتنوع في ضرب المثل، إنما هي للتقسيم.

وهؤلاء الجماعة الذين هم في مفازة مغمورة بسحاب مُمطر مطراً غزيراً فيه رعد وبرق، يملكون أن يسمعوا صوت الرعد الذي قد يقذف بالصواعق، فكلما سمعوا الرعد واحسوا بمقدمات الصواعق جعلوا أصابعهم في آذانهم من أثر فقعة الصواعق، وفرعها الشديد، والدافع إلى ذلك خوف الموت.

وجاء التعبير بالأصابع بذل الأنابل، لأن مشاعرهم تندفع لو استطاعوا أن يدخلوا كل أصابعهم في آذانهم، ليسدوا عنهم وقع الصوت الشديد، الذي قد يكون مصحوباً بالصواعق التي تأتي بالموت، وهذا من الصدق الفني.

وهؤلاء كلما أضاء لهم البرق مشوا في ضوئه، وإذا انقطع فاطلم عليهم الجو قاموا، أي: وقفوا في موقعهم في الظلمات حيارى.

وذل النص على أن هذا الصنف من صنف المنافقين، يُحكّم عليه أيضاً بالكفر، وإن كان لديه بقية أمل بالرجعة إلى الإيمان الصادق، لأن الإيمان لا يقبل التنصيف ولا التجزئة، فكيف بهم وهم أكثر ميلاً إلى جانب الكفر الجازم، وإلى الثبات الدائم في موقع الكفر، دون رجعة عنه، فقال الله عز وجل:

﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾

وما دام لدى هذا الصنف بقية أمل، فإن الله عز وجل في قوائمه القدريّة التي تتم نتيجة إرادات عباده الاختيارية، يشرك لهم هذا المقدار القليل من الرغبات الضعيفات الضئيلات، الباعثات على استماع آيات الوعيد، ورؤية أنوار الحق، مهما قل هذا المقدار، إنها لا لهم، وليترك لهم كل فرصة في الحياة الدنيا قد تسمح لهم ولو في أضعف الاحتمالات، بأن يمتثلوا إلى العافية والشفاء، مع أنه لو شاء عز وجل لما ترك لديهم هذه البقايا، على اعتبار أنها بقايا ضعيفة، غير صالحة بحسب العادة للتمائل إلى العافية، فإراداتهم ميالة برجحان إلى جانب الكفر الجازم، لكن الله عز وجل لا يفضل ذلك رحمة بهم، واستيفاء لطروف امتحانهم، حتى أخبر قطرة من

الإمهال الحكيم، دلّ على هذا قول الله عز وجل في النص:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ١٠

أي: ولو شاء الله لجعلهم مثل أهل الصف الأول ضماً بكماء عُمياً.

ولم يذمغ الله عز وجل هذا الصف الثاني بأنهم لا يرجعون، كما ذكر بجانب أهل الصف الأول، نظراً إلى أنهم لم يصلوا بعد إلى مستوى التصميم الجازم على الثبات في موقع الكفر، عن وعي كامل لما قرروه لأنفسهم بالاختيار الحر، لذلك فهم لم يصلوا إلى حضيض:

﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمِّيٌّ فُهُمٌ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

إن هذا الصف لم تنطبع بصيرته انطباعاً تاماً، بل يتلامع له نور الحق أحياناً فيراه، فيسير فيه قليلاً، ويسمع إنذاراً آيات الله أحياناً فيزهد، لكنه إذا اشتدت عليه سُدَّ سمعه عنها، وهو بعد ذلك يعود إلى حالته الأولى.

وهكذا نلاحظ أن لوحة المثل بجملتها تمثل صورة هذا الصف المتردد المذبذب الحيران من صفي المنافقين.

خاتمة

تحدث هذا النص عن المنافقين الذين سلكوا سبيل النفاق من عرب أهل المدينة، وعمّا ظهر من صفاتهم وخلاتهم وأنواع سلوكهم مع المؤمنين، خلال المدة التي سبقت نزول هذا النص من المرحلة المدنية.

ويظهر أن الصفات التي تحدث عنها هذا النص من صفات المنافقين، هي من أولى الصفات التي تبرز فيهم.

فهم بعد إعلانهم الكاذب، وسلوكهم مسلك المخادعة الملازمة لهذا الإعلان، استجابة لما في قلوبهم من مرض الانحراف الخلقي الشائن، تظهر منهم القبائح التالية:

(١) يبهتون الناس، فيدعون مؤكدين أنهم مصلحون، ولا يشعرون بأنهم من أكثر الناس فساداً وإفساداً.

(٢) ويزعمون أنهم هم الأذكاء الفطناء الذين يعرفون مصلحة أنفسهم، فيحتالون لتحقيقها، ويسمون المؤمنين الصادقين بالسفاهة، وضعف التفكير، وقلة العقل.

ولا يعلمون أنهم من أكثر الناس سفاهة، بالنظر إلى أنهم يسعون إلى شرٍ مصير بصيرٍ إليه الناس، وهو الدرك الأسفل من النار، أما ذكاؤهم فيستخدمونه في الحيل الماكرة، لإخفاء هويتهم الحقيقية، وهم غافلون عن حقيقة ما هم إليه صائرون.

(٣) ثم هم في تحركهم في المجتمع يظهرون للمؤمنين دائماً بوجه ادعاء الإيمان، فإذا خلوا إلى قادتهم منهم، أو إلى زعماء أهل الكفر الذين يشجعونهم على النفاق من العرب أو اليهود، كشفوا لهم هوية أنفسهم، وحقيقة ما في قلوبهم، ويبيّنون لهم أن ما يظهرون به أمام المؤمنين الصادقين، إنما هو لعبة استهزاء بهم، وتخريب لهم.



النص الثالث

من سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول)

الآيات من (٧٥ — ٨٢)

حول توجيه المؤمنين أن لا يطمعوا في أن

يؤمن لدعوتهم منافقو اليهود وسائرهم

من الذين دخلوا في الإسلام نفاقاً منذ أوائل المرحلة المدنية، فريق من اليهود، اشتركوا في خطة النفاق مع المنافقين من عرب يثرب، وربما كان لهم في هذا دور المستدرج والموجه والمدير والمذبر لحركة النفاق.

فأنزل الله عز وجل في سورة (البقرة) توجيهاً عاماً للمؤمنين، يصرف فيه طمعهم عن التعلق بإيمان اليهود، ويصف فيه لهم واقع حال اليهود، ويبين لهم فيه أفساسهم، ويذكر من ضمن هذه الأقسام قسم المنافقين منهم، الذين دخلوا في الإسلام نفاقاً وهم غير مؤمنين، فقال الله عز وجل خطاباً للمؤمنين بعد كلام طويل عن اليهود:

﴿ أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَلْحَقُونَ مِنْ بَعْدِ مَا عَقِلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ لَا أَمَانِي وَإِنَّ هُمْ إِلَّا يُظَنُّونَ ﴾ (٧٨) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (٧٩) وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا السَّيِّئَاتُ إِلَّا أَنْتُمْ مَأْمُودَةٌ قُلْ

أَتَّخِذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَتَمْتَلُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾
 بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِبَتُهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
 خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۖ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا
 خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾

ما في النص من القراءات المتواترة (من الفرش)

أمانني: بياء غير مشددة قراءة أبي جعفر.

أمانني: بياء مشددة قراءة باقي القراء العشرة.

وهما وجهان لغويان للكلمة قرئ بهما في المتواتر.

خَطِيبَاتُهُ: بالجمع قراءة المدنيين: نافع وأبي جعفر.

خَطِيبَتُهُ: بالإفراد قراءة باقي القراء العشرة.

وفي هاتين القراءتين تكامل فكري فقد تحيط الخطيئة الواحدة إذا كانت من
 العقائد أو الأعمال التي تسقط في الكفر، وقد تحيط عدة خطيئات هي بمجموعها
 تسقط في الكفر، لا أن الواحدة منها أو مادون مجموعها تسقط في الكفر.

(١)

المفردات اللغوية في النص

﴿أَفَنظَمُونَ﴾:

الطمع بالشيء الرغبة فيه، وتشهيه إذا كان مما يشتهى. يقال لغة: طمع فيه،
 وطمع به.

﴿يُحَرِّفُونَهُ﴾:

التحريف الإمالة والتغيير. ويكون بتغيير الألفاظ، أو بتغيير المعاني.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ :

عَقَلَ الشَّيْءُ بِكَوْنٍ بِرَبِيْهِ بِعَقَالٍ لِلْمَحَافِظَةِ عَلَيْهِ، وَفِي الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي، يَكُونُ بِحِفْظِ الْأَلْفَاظِ وَتَدْوِينِهَا، وَفَهْمِ الْمَعَانِي وَضَبْطِهَا وَإِدْرَاكِ حُدُودِهَا، وَقَدْ يُصَاحِبُ ذَلِكَ تَسْجِيلُهَا فِي الشُّرُوحِ وَالْتَفَاسِيرِ، وَالْكَتَبِ.

﴿خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ :

يُقَالُ لُفَّةٌ : خَلَا بِهِ، وَخَلَا مَعَهُ، وَخَلَا إِلَيْهِ، إِذَا اجْتَمَعَ بِهِ مُنْفَرِدًا، وَفِي : «خَلَا إِلَيْهِ» مَعْنَى خَلَا بِهِ مَائِلًا إِلَيْهِ، عَلَى سَبِيلِ تَضْمِينِ خَلَا مَعْنَى مَالٍ.

﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ :

أَي : بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْ فَهْمٍ فِي مَعَانِي نصوص توراتكم الدَّالَّةُ عَلَى الْبَشَائِرِ بِمُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

﴿وَمِنْهُمْ أَتَمُّونَ﴾ :

أَي : غَيْرِ مُتَعَلِّمِي الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ، فَلَا يَذَرُّوْنَ نصوص الدين بتدبر، وَالْأَمِيُّ هُوَ الْمُنْسُوبُ لِأُمِّهِ، أَي : هُوَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى نَعْلَمِ الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ، وَمَتَابَعَةِ الدِّرَاسَةِ فِي الْكُتُبِ، وَيُطْلَقُ الْأَمِيُّ عَلَى غَيْرِ الْمُتَعَلِّمِ وَإِنْ كَانَ يَقْرَأُ وَيَكْتُبُ، فَالْأَمِيَّةُ ذَاتُ نِسْبٍ.

﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ :

أَي : إِلَّا قِرَاءَةً بِدُونِ فَهْمٍ وَلَا تَدَبُّرٍ، أَوْ إِلَّا تِلَاوَةً عَنْ طَرِيقِ السَّمَاعِ.

﴿أَمَانِيَّ﴾ :

بِتَشْدِيدِ الْبَاءِ وَتَخْفِيفِهَا، جَمْعُ أَمْنِيَّةٍ، وَالْفِعْلُ «تَمَنَّى»، وَالْمَصْدَرُ «التَّمَنَّى» وَهُوَ حَرَكَةُ النَّفْسِ بِمَا تَشْتَهِي وَتَرْغِبُ، وَيَغْلِبُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَبْعَدَ الْحَصُولِ عَلَيْهِ. وَيَأْتِي بِمَعْنَى الْقِرَاءَةِ وَالتِّلَاوَةِ، وَيَأْتِي بِمَعْنَى اخْتِلَاقِ الْكُذْبِ.

وَيَأْتِي تَفْصِيلُ ذَلِكَ عِنْدَ الشَّرْحِ التَّحْلِيلِيِّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.



(٢)

المعنى العام للنص

إن معرفة إمكان تحقق غاية من الغايات في مجتمع ما من المجتمعات البشرية، تنوقف على دراسة واقع حال هذا المجتمع.

فإذا كانت ظاهرات هذا المجتمع بفرقه وأقسامه، تدل بحسب سنن الاجتماع البشري، على أنه لا مطمع في إصلاح النسبة الكبرى منه، كان الطمع بإصلاح واستجابة أفرادها للهداية، تعليقا لرغبات النفوس والقلوب بأمر غير ذي جدوى سارة.

فمن الحكمة السياسية في سير الدعوة - والحال كذلك - أن تُصرف الجهود إلى مجالات ومجتمعات تكون الدعوة فيها ذات جدوى سارة، أو جدواها أعظم وأكثر، وأن يقتصر توجيه الاهتمام في المجتمعات التي تدل ظاهراتها على أنها ميؤوس من إصلاح جماهيرها ولا مطمع فيه، على تصيّد الأفراد الذين يكون الأمل بهدايتهم قويا، أو تكون هدايتهم أمرا غير ميؤوس منه بعد.

ومجتمع اليهود في عصر الرسول ﷺ، ومنذ أوائل العهد المدني، قد دلت ملاحظة واقع حالهم مع تكرار التجربات، على أن الطمع بهداية النسبة العظمى منهم طمع في غير محله. وذلك لأن الظاهرات الاجتماعية التي تكشفها الملاحظة في مختلف فرقهم وأقسامهم وطبقاتهم، وثبتتها التجربات المتكررات لهم، تدل على أن هداية جمهورهم هي بمثابة الأمر الميؤوس منه، أو الذي لا مطمع فيه. فينبغي إذا التعامل معهم على هذا الأساس، توفيراً للجهد، واستغلالاً له فيما هو أجدى.

ومن البدهيات أن التعامل مع مطموع بهدايته، غير التعامل مع ميؤوس من هدايته بحسب الظواهر الاجتماعية المعتادة، أو الطمع في هدايته ضعيف جداً.

هذه قاعدة من قواعد الدعوة إلى الله، علّمها الله عز وجل للمؤمنين، بقوله في سياق الكلام عن اليهود:

﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ؟﴾!

بصيغة الاستفهام التعجبي.

أي: أفنطعمون أيها المؤمنون أن يؤمن جمهور اليهود، لأجل دعوتكم، وحرصكم على هدايتهم، واتخاذ مختلف الأساليب لإقناعهم واسترضائهم؟!!

هذا الطمع في غير محله، لأن الظواهرات الاجتماعية التي برزت في مجتمع اليهود تدل على أن هداية معظم أفرادهم أمر لا يصح أن يكون مطموعاً به، فالتعامل معهم على أساس الطمع بهدايتهم يندّد جهودكم، ويصرفها عما ينبغي أن توجه له، ومن ذلك توجيه الجهود لدعوة من يرجى من أفرادهم أن يستجيب، وتوجيه الجهود لدعوة مجتمعات أخرى يكون بذل الجهود فيها أنفع وأجدى، إذ هي للهداية والاستجابة والإصلاح أرجى.

وفي صيغة هذا الاستفهام التعجيبى [أفنطعمون أن يؤمنوا لكم؟!] توجيه من الله للمؤمنين كي يصرفوا طمعهم عن استجابة جمهور اليهود لدعوتهم، ليوثروا جهودهم التي يبذلونها بينهم لدعوة جماعات أخرى هي أرجى استجابة للدعوة.

ثم بين الله عز وجل بالتحليل التفصيلي واقع حال هذا المجتمع الذي يدل على أن الأمل بهداية نسبة كبيرة من أفرادهم أمل ضعيف، إذ هم:

• إما علماء، وأئمة وقادة، يحرفون كلام الله عامدين متعمدين، اتباعاً للهوى، والأمل بهداية هذا القسم ضعيف جداً، كما تدل سنن الاجتماع البشري.

• وإما منافقون، دخلوا في الإسلام نفاقاً، ومعظم هؤلاء هم من علماء اليهود الذين يعرفون الحق، وينحرفون عنه، فهم لا ينقصهم تعريف بالحق وبيان له، والأمل بهداية هذا القسم، واستجابته القلبية ضعيف جداً أيضاً، كأفراد القسم الأول.

• وإما وضاعون كذابون، يكتبون الكتب من عند أنفسهم، ثم يزعمون لجماهيرهم أنها من عند الله، ويتاجرون بهذه الكتب، فيبيعونها بثمن مهما كثر فهو قليل بالنسبة إلى ماسيلاقونه من عذاب عند الله على اقترائهم عليه، والأمل باستجابة هذا القسم للحق ضعيف جداً، لأنه ملحق بقسم الذين يحرفون كلام الله، بل هو أبلغ جريمة، وأعظم إثماً، وأشدّ جرأة على افتراء الكذب على الله، فأفرادهم يعرفون الحق ويتمعدون التزوير في أقبح صورته، ويتمعدون الكذب على الله، اتباعاً للهوى النفس، والمنافع العاجلة الدنيوية.

* وَأَمَّا آمِتُونَ جَهْلَةً، إِلَّا أَنَّهُمْ مُقَلِّدُونَ مُتَعَصِّبُونَ، يَتَّبِعُونَ أَثْمَتَهُمْ مِنَ الْيَهُودِ
أَتْبَاعاً أَعْمَى، ثَقَّةٌ بِهِمْ، وَتَعْصِبُ لَهُمْ، لِأَنَّهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِيمَا يَتَصَوَّرُونَ.

وما دام هؤلاء مرتبطين بأثمتهم هذا الارتباط الشديد على غير بصيرة، فلا أمل
بهداية جمهورهم. هذا ما تدل عليه سنن الاجتماع البشري.

وتأتي الآيات قُبَيْنَ هذا الواقع الذي يكشف بالتفصيل أقسام مجتمع اليهود بصفة
عامة، أما الخارج عن هذه الأقسام فنادر قليل، حَتَّى كَانَهُ لَا يُعْتَبَرُ قِسْماً لِقَلَّةِ أَفْرَادِهِ،
وَنَذَرْنَهُمْ، كَالَّذِينَ آمَنُوا صَادِقِينَ، وَمِنَ الصَّادِقِينَ: «مُخِيرِيق» و«عبد الله بن سلام».

* * *

(٣)

مع النص في التحليل والتدبر

* قول الله عز وجل:

﴿ أَفَنُظَمُّونَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِالْكِتَابِ وَقَدْ كَانَتْ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحَرِّفُونَهُ
مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٧٥)

أي: يسمعون كلام الله ويعقلونه، ثم يحرفونه من بعد ما سمعوه وعقلوه، وهم
يعلمون.

ففي هذه الآية بيان لقسم من أقسام اليهود، وهم فريق الأئمة والقادة والزعماء،
وفيهم العلماء بالكتاب المنزل عليهم.

وقد غدا من عادة هذا القسم أن يسمعوا كلام الله من قرآنهم، فيعقلوه بالحفظ
والاستذكار، ثم يحرفوه بالتأويلات الباطلات، وبالإضافة والنقص والتغيير والتبديل،
وذلك من بعد ما عقلوه، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم يحرفون كلام الله، وإذ يميلونه
بالتأويلات الباطلات عن وجه دلالاته إلى معانٍ أخرى توافِقُ أهواءهم، ويغيرون بعض
كلامه بقصد تغيير المعنى، أو يزيدون أو ينقصون ويقتطعون النصوص، كل ذلك بقصد
تغيير المعاني بحسب أهوائهم.

إنهم لا يقعون في خطأ التحريف نسياناً للنص، أو جهلاً بطرق التدبر والفهم،

بل هم يتعمدون هذا التحريف استجابة لأهوائهم الخاصة، أو استجابة لرغبات ملوكهم أو ذوي السلطان أو الجاه أو المال فيهم.

ومن بلغت به الجريمة الدينية إلى هذا المستوى من تحريف كلام الله الذي يؤمن هو به، وقد ورثه عن قومه كابراً عن كابرٍه ويفعل ذلك عن نَعَمْدٍ وسابقٍ إصرار، فإنه لا مطمع في هدايته واستجابته لدعوة دين جديد حق مُنْزَلٍ من عند الله يخالف شرائعهُ وأحكامهُ أهواءه، ورسولُ هذا الدين من غير بني إسرائيل.

أو الطمع فيه ضعيف جداً، لا يستحقُّ بَدَلَ الجهود الكبيرة، أو الكثيرة، وحسبه إقامة الحجة عليه بالتبليغ وتأكيد التبليغ، حتَّى لا يكون له عذرٌ عند الله.

إن هذا القسم يركب مركب الباطل مع علمه بأنه باطل، ومع علمه بوجه الحق، ويتحدَّى قضية كبرى من القضايا التي يؤمن هو بها، في دينه الذي يعتزُّ به، ويتعصَّب له تعصباً لقومه، لا للحق الذي فيه.

فكيف يقبل أتباع دين آخر، رسوله عربي، والصف الأول من الذين آمنوا به هم من العرب؟!

بعد بيان هذا القسم الأول جاء قول الله عز وجل:

﴿وَإِذَا قُلُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

فكشف الله عز وجل بهذا عن قسم آخر من واقع حال مجتمع اليهود، وهو قسم الذين تظاهروا بالدخول في الإسلام منهم، وهم في حقيقة حالهم منافقون.

وقد اقتضى البيان البلاغي الرفيع التلويح في عرض الأقسام فطوبت الإشارة إلى أنهم فريق آخر، للإشعار بأن هؤلاء المنافقين ليسوا إلا قسماً قليلاً من اليهود، ويحمل هذا الطي معنى أن هؤلاء المنافقين هم في الأصل من قسم العلماء والقادة والأئمة المحرّفين لكلام الله، فقد دلَّ هذا النص على أنهم في الأصل من طبقة علمائهم وأجبارهم الذين يعرفون دلالات النصوص ويفهمونها، ويستطيعون أن يستنبطوا منها

معاني دقيقة، إذ جاء فيه قول من لم ينافق منهم لمن نافق:

﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ، عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ١٩.

إن هؤلاء المنافقين من علماء اليهود، كانوا إذا لقوا الذين آمنوا من المسلمين الصادقين، قالوا لهم: آمنا مثلكم، فمحمّد رسول الله حقاً، وهو الذي بشرت به كتبنا، فقد عرفناه بأوصافه الميّنة لدينا، وقد أخذ علينا العهد بأن نؤمن به إذا حان جيته وبعثه الله.

دلّ على مقالنتهم هذه التي طواها النص فلم يصرح بها، أن النص قد بين أنهم كانوا إذا خلا بعضهم إلى بعض (أي: خلا المنافقون منهم إلى غير المنافقين منهم)، قال غير المنافقين منهم للمنافقين ملوّمين: كيف تحدثون المسلمين بما فتح الله عليكم من فهم في كتبكم حول البشائر بمحمّد في التوراة وسائر كتب العهد القديم، إن هذا أمرٌ سيّئٌ جدّاً المؤمنون حجّةٌ عليكم يوم الدين عند ربكم، فلا يبقى لكم عُذرٌ تعتذرون به في جحود محمّد، وعدم الإيمان به.

إن إخوانهم لا يلومونهم من أجل خطة النفاق، فخطة النفاق مكيّدة متّقة عليها بينهم، لهدم الإسلام من داخله، إنما يلومونهم على التصريح للمسلمين بما في كتب اليهود من بشائر تنطبق على محمّد ﷺ.

ولما كان العلم بهذه الحقيقة في كتب اليهود إنما وصلوا إليه عن طريق الفهم والتدبر والاستنباط، لا عن طريق نص صريح غير قابل للتأويل، سمّوا ذلك فتحاً، أي: هو باب من أبواب العلم فتّح لهم عن طريق الفهم والتدبر والاستنباط، لذلك قالوا لهم:

﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ، عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ ١٩.

والمراد: كان عليكم أن تكتفوا هذا الفهم في أنفسكم، لئلا يكون مستنداً ضدكم عند ربكم يوم القيامة.

ولكن من أعجب العجب أمر اليهود، إنهم يتعاملون مع ربهم كعاملهم مع ملوكهم وعظمائهم من البشر. إنهم يتوهّمون أنهم إذا كتبتوا هذا الفهم الذي فهموه من دلالات النصوص وأماراتها، والذي فتح الله به عليهم، كان لهم يوم الدين مهرّب بأن

ما في كتبهم غير قاطع الدلالة، فبحودهم رسالة محمد ﷺ لا يشكّل نقضاً لصريح دلالات نصوص كتبهم، ويتوهمون أنهم ربما يجدون بذلك عذراً لهم عند ربهم.

لذلك قال الله عز وجل في توبيخهم وإسقاط ذريعتهم التوهمية هذه:

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ١٩.

أي: سواءً عنده سبحانه أسروا ما وصلوا إليه من علم أو أعلنوه، فهو يعلم ما يُسرون وما يعلنون، لا تخفى عليه خافية على غيره في السماوات ولا في الأرض ولا في أنفسهم، واليهود يعلمون هذه الحقيقة عن الله عز وجل ولا يجهلونها، لذلك وبخهم الله بأسلوب الاستفهام، مستكراً تجاهلهم، أو تنطلي حيلتهم على الله؟!

ثم إن علم الله عز وجل بكتمانهم للحق، مع ملاحظة الإنم الذي يترتب عليهم بسببه، والذي يستلزم المحاسبة والجزاء، يدلُّنا عن طريق اللوازم الذهنية على أن الله عز وجل سيخاسبهم، وسيجازيهم بالعدل على كتمانهم ما يعلمون من أمور الدين، ومن حق الرب الخالق عليهم، وهذا ما أُنذرتهم به دلالات النص.

وتنضح هنا مسؤولية الذين يفتح الله عليهم أبواب معارف ومفاهيم يستنبطونها، وتجزم أفكارهم بصحتها، أو ترجح لديهم صحتها، ثم لا يعملون بها، أو يكتمونها فلا يعلمونها الناس، وهي من الأمور التي يجب بيانها ويحرم كتمانها، إذ هي من أمور الدين الأساسية، أو من أمور الشهادات بالحقوق، أو من ضروريات الحياة.

أما القسم الثالث من أقسام اليهود فقد جاء بيانهم في قول الله عز وجل:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ٢٠.

فذكر الله في هذه الآية قسم الأميين، ولا أرى أن يكون المراد بالأمية هنا قاصراً على الذين لا يقرؤون ولا يكتبون، بل الأمية هنا يدخل فيها الجاهلون بالدين، والجاهلون بدلالات نصوص الكتب الدينية، ولو كان هؤلاء يقرؤون ويكتبون، لأن من يقرأ ولا يفهم ما يقرؤه هو بمثابة الذي لا يقرأ ولا يفهم، كلاهما جاهل بالمعاني المرادة، فكلاهما أمي.

وبناءً على هذا نستطيع أن نفهم معنى كلمة ﴿أَمَانِي﴾ في الآية. فالأمانى كما

سبق بتشديد الياء وتخفيفها جمع «أُمْنِيَّة» والفعل «تَمَنَّى» والمصدر «التَمَنَّى» والتَمَنَّى في اللغة يأتي دالاً على عِدَّة معانٍ:

أولاً:

• فيأتي بمعنى تشهِّي حصول أمر مرغوب فيه.

• ويأتي بمعنى حديث النفس بما يكون وبما لا يكون من مرغوب.

• ويأتي بمعنى سؤال الله في الحوائج.

وهذه المعاني الثلاثة تدور حول حركة النفس بما تشتهيه أو ترغب فيه، سواء أبقى تشهياً، أو ارتقى إلى مستوى حديث النفس، أو ارتقى إلى مستوى الطلب والتعبير اللساني.

والغالب في التَمَنَّى أن يكون لأمر بعيدة المنال، بخلاف الرجاء.

ثانياً:

• ويأتي التَمَنَّى في اللغة بمعنى القراءة والتلاوة، يقال لُغَةُ: تَمَنَّى الكتاب إذا قرأه، أو تلاه، قال الشاعر كعب بن مالك في مريثته لعثمان بن عفان رضي الله عنه:

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ وَأَخْرَهُ لَأَقْبَى جِوَامِ الْمَقَادِيرِ

أي: تلا كتاب الله.

وفي لسان العرب لابن منظور: «تَمَنَّى الْكِتَابَ قَرَأَهُ وَكَتَبَهُ». فاضاف معنى الكتابة.

وعلى معنى القراءة والتلاوة فَسَّرَتْ كَلِمَةُ «تَمَنَّى» وكَلِمَةُ «أُمْنِيَّة» في قول الله عز وجل لرسوله في سورة (الحج / ٢٢ مصحف / ١٠٣ نزول):

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٥٦)

إذا تَمَنَّى: أي: تلا وقرأ كتاب الله.

ألقى الشيطان في أمنيته: أي: في تلاوته وقراءته.

ثالثاً:

• ويأتي التمني في اللغة بمعنى اختلاق الكذب، يقال لغة: فلان يتمنى الأحاديث، أي: يفتعلها ويختلقها. ويقولون: تمنى الحديث إذا اخترعه.

ويقول الرجل: والله ما تمنيت هذا الكلام ولا اختلقته. وقال رجل أعرابي لابن داب وهو يحدث: أهذا شيء زوّيته أم شيء تمنيت، أي: افتعلته واختلقته. ورؤي عن عثمان رضي الله عنه قوله: «ما تمنيت منذ أسلمت» أي: ما كذبت.

ومن التمني هذا أن يقول الإنسان ما لا حقيقة له، وما ليس له به علم وهو حجة، فإذا حدث به قال الناس: هذه أمنية، أي: شيء لا صحة له، ومن التمني أن يدعي الإنسان الإيمان قولاً باللسان، دون أن يكون لهذا الادعاء حقيقة راسخة في القلب، وأثر في السلوك، وعليه يفهم ما روي عن الرسول ﷺ:

«ليس الإيمان بالتّمني، ولا بالتّحلي، ولكن ما وقر في القلب، وصدّقه العمل»^(١).

أي: ليس الإيمان بالقول الذي يظهره الإنسان بلسانه فقط، ولكنه حقيقة تكون راسخة في القلب، ويكون لها آثار في العمل دالة عليها.

هذه هي المعاني التي تدور عليها كلمة «أمني» وحين ننظر إلى قسم اليهود الأميين في الدين وفي فهم النصوص المنزلة، المقلّدين لعلمائهم، أوقادتهم وأئمتهم وزعمائهم، والمتعصبين لهم، ونسبر واقع حالهم نلاحظ أنهم يدورون حول الأمور التالية:

(١) فالذين يقرؤون ويكتبون لا يعلمون كتاب الله إلا علم قراءة وكتابة فقط، وهم لا يفهمون دلالات نصوصه. فحال المقلّد الأعمى بتعصب لمن يقلّده.

ويقال في شأن هؤلاء:

﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانٍ﴾:

(١) عن الجامع الصغير عن الديلمي في مسند الفردوس وأشار إلى أنه ضعيف.

أي: لا يعرفونه إلا معرفة قراءة وكتابة، دون علم بدلالاته.

(٢) والذين لا يقرؤون ولا يكتبون، قد يحفظون عن طريق السماع شيئاً من الكتاب فيتلونه تلاوة دون فهم ولا تدبر.

ويقال في شأن هؤلاء أيضاً:

﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾:

أي: لا يعلمونه إلا علم تلاوة فقط دون علم بدلالاته.

(٣) ومن هؤلاء فريق لا يقرأ ولا يكتب ولا يحفظ شيئاً من الكتاب، لكنه قد يسمع ما يتلى منه، وهؤلاء أشدّ خالاً في الأمية من القارئ ومن التالين، فهم عميان مقلدون، لا يعلمون الكتاب إلا أمانياً، أي: إلا سماع تلاوة أو قراءة.

وهؤلاء جميعاً قد تدخل عليهم التحريفات المختلفة التي افترها المحرفون والوضاعون الكذّابون، فيردّدونها كما أمليت عليهم، أو كُتبت لهم، تردّد البيّغوات، وحين يردّدونها إنما يردّدون أكاذيب ومفتريات.

وفي هذه الحالة أيضاً يصح أن يقال بشأنهم:

﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾:

أي: لا يعلمون إلا أكاذيب ومفتريات على الله، وهم يظنون ظناً باطلاً أنها من كلام الله المنزل، وتكون الأمانى على هذا بمعنى الأكاذيب والمفتريات.

وهؤلاء الأميون اليهود يسيطر عليهم اتجاهان:

الاتجاه الأول:

اعتقادهم بأنّ اصطفاء بني إسرائيل بإنزال التوراة والزبور وسائر ما في كيب العهد القديم على رسل منهم قد جعل لهم الاستحقاق المنفرد بدخول الجنة، وهذه فكرة باطلة اختلفها لهم محرّفو كتبهم ومغيرو مفهومات دينهم، ووافقت أهواءهم وما يشتهون. وأرّضت في نفوسهم العقدة القبيحة التي ورثوها جانباً عن جانب، والتي يعبرون عنها بأنهم أبناء الله وأحبّاءه.

واعتقادهم بأن لهم الاستحقاق المنفرد بدخول الجنة قد عبّر القرآن عنه بقول الله عز وجل في سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول) :

﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣١﴾ ۝ ﴾

أي : تلك أكاذيب ومفتريات يفترونها، وهي توافق ما يشتهون ويرغبون فيه .
وهذا الاعتقاد الفاسد الذي يعتقده الأميون من اليهود أتباعاً لتضليلات محرفيهم والمفترين منهم على الله، يدخل في عموم قول الله تعالى :

﴿ وَمَنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ ۝ ﴾

إذ هم لا يعلمون الكتاب المنزل عليهم إلا أنه تضمن ما يدل على تحقيق أمانهم بأن لهم وحدهم الجنة، وهي الفكرة التي اختلقها لهم الوضاعون والمحرّفون لكتبهم من أبحارهم والذين يكتبون الكتاب بأيديهم ويزعمون لهم أنه من عند الله وما هو من عند الله .

الاتجاه الثاني :

اتخاذهم آيات الكتاب المنزل على بني إسرائيل تعاليم وتعاويز ورقى، لتحقيق أمانهم في الحياة الدنيا، كمطالب الشفاء، والشراء، والإنجاب، والزواج، والذرية، والجاه، والسلطان، والنصر، وغير ذلك .

أما ما في الكتاب من شريعة، ومنهاج، وتكاليف، وأحكام، ووصايا، ومفاهيم دينية، فهم عنها نازون، ولها مجافون، وبها زاهدون .

وهذا الواقع يدخل أيضاً في عموم قول الله تعالى :

﴿ وَمَنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ ۝ ﴾

أي : لا يعلمون الكتاب إلا أنه وسيلة تتضمن مؤثرات غيبية تحقق بها أمانهم الدنيوية .

هذا هو حال الأميين منهم، فهم لا علم لهم بالدين، ولا بدلالات كتب رب العالمين، إنهم لا يعلمون الكتاب إلا أمانتي، يقرؤون بغير علم أو يتلون بغير علم،

وَيَتْلَقُونَ عَنْ قَادَتِهِمُ الدُّبَيْنِينَ مُفْتَرِيَاتٍ وَتَحْرِيفَاتٍ، وَيَحْسِبُونَهَا مِنْ كَلَامِ اللَّهِ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُمْ بِالْكِتَابِ، وَجَعَلَهُمْ أَبْنَاءَهُ وَأَحِبَّاءَهُ، وَخَصَّهُم بِالْجَنَّةِ، وَإِذَا تَعَلَّقُوا بِالْكِتَابِ اتَّخَذُوهُ لِلنَّمَائِثِ وَالتَّعَاوِيزِ وَالرَّقَى فَقَطْ، مِنْ أَجْلِ بُلُوغِ أَمَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

ومستندهم في كل ذلك الظنُّ الضعيفُ، الذي لا ينفع في إثبات الحق، ولا يُعَدَّرُ بِهِ صاحبه، لأنَّه قائم على الثقة بأئمتهم الذين ليسوا أهلاً للثقة، وعلى التقليد الأعمى، والتعصُّب الذميم المقيت، وعلى الأوهام التي لا سندَ لها، وتُقدِّم مع ذلك عقائد باطلة تتنافى مع كمال صفات الله عزَّ وجلَّ، في عِلْمِهِ وَعِزِّهِ وَجُودِهِ وَجَمَّةِ نَبِيِّهِ، دَلَّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

أي: ما هُمْ في كل اتجاهاتهم الاعتقادية والفكرية والسلوكية إِلَّا يَظُنُّونَ ظَنًّا ضَعِيفًا، ويعتمدون على هذا الظنِّ في كل أبينتهم الفكرية والسلوكية.

وما دام هؤلاء الأميون من اليهود على وضعهم هذا من التقليد الأعمى مع الجهل المطبق، والتعصُّب المنحجر الذميم، فالأمل بهداية النسبة العظمى منهم ضعيف جداً.

بعد بيان قسم الأميين من اليهود جاء قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿قَوْلِيلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلِيلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَقَوْلِيلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

قد يكون المشار إليهم في هذه الآية قسمًا رابعاً من أقسام اليهود، وهم قسم الكتبة الوضاعين، الذين يتاجرون بكتابة الكتب، فيكتبون الكتب المفتراة على الله، لبيعوها من عامة اليهود، فيزعمون لهم أنَّها من عند الله، وما هي من عند الله، ليكسبوا بذلك مالاً قليلاً، وعرضاً يسيراً من أعراض الحياة الدنيا.

وقد اقتضى الأسلوب البلاغي الفني التلويح في عرض الأقسام، فجاء ذكر قسم هؤلاء الغائبين في ارتكاب جريمة الافتراء على الله من أجل ثمن مالي يسير، بأسلوب توجيه الإنذار القوي لهم بعذاب شديد، وهو عذاب يُعَبَّرُ عَنْهُ بِعَبَارَةِ «وَيْلٌ» وهذه الكلمة

قد تكون اسماً علماً على وإد في جهنم ، جاء وصفه في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) مع ترديد آية :

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ فيها .

وقد أبان الله عز وجل الجريمة العظيمة لقسم هؤلاء الكتبة من اليهود، فذكر أنهم يكتبون الكتاب بأيديهم، أي دون أن يستندوا في كتابته إلى أدلة عقلية موثقة بالفكر السليم، فعملهم صناعة يدوية، ثم يقولون لعامة اليهود الذين لا علم لهم بوسائل إثبات النصوص: هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً^(١).

ولما كانت جريمتهم هذه تنحل إلى كبيرتين هما :

الأولى: الافتراء على الله .

الثانية: المكسب الحرام عن طريق الافتراء على الله .

بين الله عز وجل أن عذابهم الشديد مفصل إلى عذابين كل منهما شديد إلى درجة «ويل» .

(١) فويلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ، أي : من مفتريات على الله .

(٢) وويلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ، أي : من مالٍ حرام .

وبعد بيان أقسامهم ذكر القرآن من أقوالهم ما يتضمن بعض أوهامهم التي خففت لديهم قيمة جرائمهم الكبرى، منها الافتراء على الله، ومنها الكفر بالإسلام، وبالرسول محمد ﷺ، ومنها النفاق في دين الله، إذ يزعمون أنها جرائم لا تصل إلى تخليدهم في النار بل يعذبون عليها في النار عذاباً يسيراً أياماً معدودة، وذلك في قول الله عز وجل :

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَنْتَ مَا مَعْدُودَةٌ قُلْ أَتُخَذُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ذَآءُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

(١) يقال لكل من باذل القيمة وباذل السلعة من المتبايعين شارب، فباذل القيمة شارب للسلعة، وباذل السلعة شارب للقيمة، وذلك لأن العملية هي تبادل بين الطرفين، فكل منهما شارب وبائع .

لقد افترأوا على الله إذ زعموا أن الله يُكْرِمُهُمْ كرامةً خاصةً بهم لأنهم بنو إسرائيل، فمهما أجرموا، واستحقوا النار، والخلود فيها على جرائمهم الكبرى، فإن الله عز وجل لن يعذبهم في النار إلا أياماً معدودة.

ومعلوم أن مثل هذا الأمر لا يمكن أن يُعرف إلا عن طريق بيان رباني خاص، وعهد تفهذه الله به لهم، وهذا أمر لم يحصل في أي نص مُنزل، أو على لسان أي نبي أو رسول.

ولذلك علم الله رسوله وكل مؤمن أهل المناظرتهم أن ينظرهم بطرح السؤال التالي عليهم:

﴿أَتَأْخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ؟﴾.

وبعد طرح هذا السؤال عليهم لا بُد أن يكون موقفهم كما يلي:

الأول: إما أن يقولوا: نعم، وعندئذ يطالبون بالنص عليه من كتبهم، ولن يجدوا ذلك في نص صحيح النسبة إلى الله.

الثاني: وإما أن يأتوا بأدلة ذهنية أو استنباطية ضعيفة، لا تقوى على إثبات دعواهم، وباستطاعة المناظر الكفء أن يدحضها لهم.

الثالث: وإما أن لا يجدوا دليلاً يستدلون به، فينقطعون.

وفي كل ذلك تنتهي مناظرتهم بإفحامهم، أو مراوغتهم وتهريبهم، وتدمغهم الحجة، وتسقط دعواهم.

وفي هذا التعليم قال الله عز وجل:

﴿قُلْ أَتَأْخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ؟﴾.

وبعد انقطاعهم في المناظرة، أو إفحامهم ودمغهم بالحجة، يحسن في نهاية الموقف نصحهم، أو تلويحهم وتبكيثهم، والتعبير الذي دل على الأمرين معاً، قول الله عز وجل في الآية التعليمية:

﴿أَمْ نَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨٠) ١٩.

أي: ثبت أنه لا دليل لكم، بل تقولون ما لا علم لديكم به، أنقولون على الله ما لا تعلمون؟! أي:

• اتقوا الله واحذروا عاقبة الافتراء عليه. (في النص).

• كيف تفترون مثل هذا الافتراء على الله؟ (في التلوي).

• أنتجروون على الله فويل لكم. (في التبكيت).

والتعبير الوارد في النص بصيغة الاستفهام يصلح لكل ذلك، فما أبدع البيان القرآني!

وبعد ذلك أبان الله عز وجل قضاءه الجازم في موضوع الجزاء بالعدل على الخطايا وكسب السيئات، وعلى الإيمان وعمل الصالحات، وهو من القضايا التي لها صفة الثبات في كل رسالات الله لعباده المنزل على كل رسله، وذلك في قول الله عز وجل:

﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾.

بلى: جواب سؤال مُقدِّر، يمكن تقديره كما يلي: ربنا أَلَسْتُ تُعَذِّبُ اليهود ضمن قانون موحد شامل لكل عبادك؟

فقال تعالى: ﴿بلى﴾ والقانون الموحد الشامل لكل العباد هو: ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ...﴾.

فقول الله عز وجل: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ﴾.

وفي القراءة الأخرى:

﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ﴾: أي: كفر فأحاطت به خطيئته التي أسقطته في الكفر، أو أحاطت به مجموعة من الخطيئات التي أسقطته في الكفر.

فَأُولَٰئِكَ الْبُعْدَاءُ عَنْ مَجَالَاتِ الرَّحْمَةِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، هُم أَصْحَابُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

وذلك لأن من كفر بما يجب الإيمان به، أو ارتكب عذة خطيئات اعتقادية وسلوكية أوقعته في الكفر، فقد سدَّ عن نفسه كلَّ منافذ النجاة، وكلَّ منافذ وصول رحمة الله الشاملة إليه، فلا بُدَّ أن يكون خالدًا في النار بمقتضى قضاء الله الجازم، في قانون العقوبات الربانية، فالكُفْر لا تشمله رحمة الغفران، لذلك فهو من أصحاب النار الخالدين فيها أبدًا.

هذه حقيقة قطعية من حقائق الذين، في كلِّ ما أنزل الله من شرائع لعباده، وقد دلت عليها نصوص قرآنية كثيرة، ودلَّ على أنها هي المرادة هنا في هذه الآية، مقابلتها بما في الآية التالية لها، وهي :

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

إنَّ الكفر وحده موجبٌ للخلود في النار، ولكن لما كان موضوع النقاش مع اليهود حول ادعائهم أنَّهم لن تمسَّهم النار على كسبهم السيئات إلاَّ آياماً معدودة، ردَّ الله عليهم فأبان لهم أن من كسب سيئة وكان كافرًا قد أحاطت به خطيئته فهو مقضيٌّ عليه بالخلود في النار.

أما من كسب سيئة ولم يكفر فلم تُحطَّ به خطيئته، فقد سكت النصُّ هنا عن بيان قضاء الله في شأنه.

ودلَّت نصوص أخرى على أنَّ من مات على معصيته من غير توبة، وكان مؤمناً، استحقَّ العقاب على قدر معصيته، ولكنَّ أمر معاقبته فعلاً متروكٌ إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء غفر له، وهو سبحانه العليم بعباده، الحكيم في قضائه وقدره، وفي عِقَابِهِ وَغَفْوِهِ.

النص الرابع

من سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول)

الآيات من (١٤٢ - ١٤٥)

حول مشاركة المنافقين بإثارة الشبه

بشأن تحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة

قضية تحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة عن جهة الشام حيث مسجد الصخرة في القدس، قضية دينية شارك المنافقون بإثارة الشبهات حولها، لفتنة المؤمنين عن دينهم، كما شارك فيها اليهود، وعرب مكة المشركون، وبعض المسلمين من ضعفاء الإيمان.

ويشأنها أنزل الله عز وجل قوله في سورة (البقرة):

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ١٤٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عَمَّا يَتَّبِعُ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ١٤٣﴾ قَدْ رَأَى نَقْلُكُمْ وَجْهَكُمْ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَتَّبِعُوا فِلسَتَ كَافِرًا ١٤٥﴾ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَيْتَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ١٤٦﴾

وفيما يلي البيان والتحليل مع تدبر النص:

(١)

موقف الناس إبان تحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة في عهد التنزيل

السُّفَهَاءُ: جمع سفيه، والسفيه هو الجاهل الطائش، ذو العقل الضعيف والخفة، الذي لا رزانة له ولا وزنٍ لرايه. وهو صفة مشبهة من فعل «سَفَّهَ» أي: صار السفيه سجيّة له.

وأصل السفه في اللغة الخفة وسرعة الحركة، وخفة العقل والرأي. ومن كان سفيهاً كان طائشاً سيئ التصرف، لا يُحِبُّ إدارة أمواله، ويتأثر ببادي الرأي وباده، دون روية ولا تثبت، فيقع في أخطاءٍ فاحشة.

ومن يكون فيه سفه يحكم على الأشياء بسرعة، وتثيره العوارض الخفيفة، فتفقدُه صوابه، وربما دفعه ذلك إلى ارتكاب حماقات مختلفات، منها سلاطة اللسان بالشتائم، ومنها المقاتلة دون داعٍ لها، ومنها الإسراف والتبذير وسوء إدارة الأموال بدون عقل، ومنها التهور والتورط في المضايق والمهالك. إلى غير ذلك من تصرفات بالغة الحمق والجهل.

وقد جاء وصف المنافقين في أوائل سورة (البقرة) بأنهم هم السفهاء، في مقابل اتهامهم المؤمنين بأنهم سفهاء، ومن سفاهة المنافقين تعريضهم أنفسهم للدرك الأسفل من النار.

ووصف الجن إبليس بأنه سفيهم، فقالوا كما أخبر الله عز وجل في سورة (الجن/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول):

﴿وَأَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾

وذلك لأنه تناول على ربه بحماقة بالغة، وخفة وطيش، وعدم تقدير عاقلٍ لسوء المصير، فكان ذلك سبباً في طرده من رحمة الله، وحلول اللعنة عليه، والحكم عليه بالخلود الأبدي في جهنم.

ووصف الله عز وجل الذين لا يحسنون التصرف في أموالهم، وهم الصغار والمبذرون المبددون لأموالهم، ومن لا عقول لهم، بأنهم سفهاء، فقال تعالى في سورة (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول):

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

ووصف موسى عليه السلام الذين أشركوا من قومه فعبدوا العجل في غيبته عنهم بأنهم سفهاء، فقال لربه كما جاء في سورة (الأعراف / ٧ مصحف / ٣٩ نزول):

﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ ١٩.

أما المراد من السفهاء في هذا النص، وهم الذين صدر عنهم ما كان متوقفاً منهم مقالة:

﴿مَا وَلَّيْنَاهُمْ مِنْ قِبَلِهِمُ النَّبِيَّ كَانُوا عَلَيْهِمْ﴾ ... ﴿١٢٢﴾

أي: ما صرف المسلمين عن التوجه لقبيلتهم التي كانوا يتوجهون في صلاتهم لها، وهي بيت المقدس!

ففيه للمفسرين عدة أقوال:

• فقيل: هم اليهود، وهو مروى عن البراء بن عازب، وابن عباس، ومجاهد.

• وقيل: هم المنافقون، وهو مروى عن السدي.

• وقيل: هم المشركون من أهل مكة، وهو مروى عن ابن عباس والبراء بن عازب أيضاً، والحسن، وهو ما ذهب إليه الزجاج.

روى ابن جرير بسنده عن السدي قال: كان النبي ﷺ يُصَلِّي قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَنَسَخَهَا الْكَعْبَةُ، فَلَمَّا تَوَجَّهَ النَّاسُ قِبَلَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهَا فَكَانُوا أَصْنَافًا:

• فقال المنافقون: ما بالهم كانوا على قبلة زماناً، ثم تركوها وتوجهوا إلى غيرها.

• وقال المسلمون: ليت نُبْعَرْنَا عن إخواننا الذين مَاتُوا وهم يُصَلُّونَ قَبْلَ بيت المقدس، هلْ تَقْبَلُ اللَّهُ مِنَّا وَمِنْهُمْ أَوْ لَا؟

• وقالت اليهود: إِنَّ مُحَمَّدًا اشْتَقَ إِلَى بِلَدِ أَبِيهِ وَمَوْلَدِهِ، وَلَوْ ثَبِتَ عَلَى قِبَلَتِنَا لَكُنَّا نَرْجُو أَنْ يَكُونَ هُوَ صَاحِبِنَا الَّذِي نَنْتَظِرُ.

وقال المشركون من أهل مكة: تَحَيَّرَ عَلَى مُحَمَّدٍ دِينُهُ، فَتَوَجَّهَ بِقِبَلَتِهِ إِلَيْكُمْ، وَعَلِمَ أَنْكُمْ كُتِمَ أَهْدَى مِنْهُ، وَيُوشِكُ أَنْ يَدْخُلَ فِي دِينِكُمْ.

فأنزل الله جَلَّ ثَنَاهُ فِي الْمُنَافِقِينَ: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ وَأَنْزَلَ فِي الْآخَرِينَ الْآيَاتِ بَعْدَهَا.

أقول:

الذي أَرَاهُ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ وَالْيَهُودَ وَالْمَشْرِكِينَ وَكُلَّ الْكَافِرِينَ يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ فِي وَصْفِهِمْ: سَفَهَاءٌ، لِأَنَّهُمْ بِحِمَاقَاتِهِمْ، وَضَعْفِ إِرَادَاتِهِمْ، وَخَفْتِهِمْ وَطَيْشِهِمْ فِي أَيْدِي أَهْوَائِهِمْ، سَيَّيَا لَأَنْفُسِهِمُ الطُّرْدَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْخُلُودَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ.

فَلَا مَانِعَ مِنْ أَنْ تَسْتَحْفَ حَادِثَةُ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ أَصْنَافَ الْكَافِرِينَ جَمِيعاً، وَتَسْتَحْفَ مَعَهُمْ أَيْضاً بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَمْ يَتِمَكَّنُوا فِي الْإِيمَانِ الرَّاسِخَ بَعْدُ، لِإِطْلَاقِ مِثْلِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ، اعْتِرَاضاً عَلَى هَذَا التَّبْدِيلِ فِي الْقِبْلَةِ، أَوْ تَسَاوُلِ اسْتِفْهَامِ إِزَالَةِ الشُّبْهَةِ الَّتِي قَدْ تَمَسُّ النُّفُوسَ الضَّعِيفَةَ بِشَكِّ.

وَقَدْ سَبَقَ فِي آيَاتِ سُورَةِ (البقرة) مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ يَنْسَخُ بَعْضَ آيَاتِهِ بِتَبْدِيلِ مِثْلِهَا أَوْ خَيْرِ مِنْهَا، لِيَمْتَحِنَ طَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَصِدْقَ إِيْمَانِهِمْ.

وَكَانَتْ حَادِثَةُ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ عَنْ بَيْتِ الْمَقْدَسِ إِلَى الْكَعْبَةِ الْمَشْرُفَةِ امْتِحَاناً صَعْباً لِلْمُسْلِمِينَ، وَأَسْلُوباً تَرْبُوياً رَاضِعاً لِتَأْصِيلِ الْمَفْهُومَاتِ الصَّحِيحَةِ لِقَضِيَّتِي الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَعَرَّضَ هَذَا التَّبْدِيلُ لِسَهَامِ الشُّبْهَاتِ الْبَاطِلَاتِ، الَّتِي لَا بَدَّ أَنْ يُطْلَقَ أَهْدَاءُ الْإِسْلَامِ وَخُصُومِهِ.

إِنَّ تَأْصِيلَ مَفْهُومَاتِ الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ فِي الْإِسْلَامِ ضَرُورَةٌ تَسْتَدْعِي إِثَارَةَ جَذَلٍ مَعَ

الخصوم حول قضية قد تشكل عليهم، فيثيرون حولها شبهاتهم.

وبعد إثارة الشبهات لا بُدَّ أن يتصر الحق، وتتكشَّف المفهومات الصحيحة وتُتَّصَل، وتُصَحَّح المفهومات الخاطئة التي قد تسيطر على بعض المتسبين إلى الدين.

* * *

هذه الحادثة وأمثالها لا بُدَّ أن يُساهِم في إثارة الشبهات حولها جميع أعداء الإسلام وخصومه، سواء من كان منهم مُظهرَ العداوة، كاليهود والمشرَكين، وغُلَّةِ النصاري، أو كان مُبطِّنَ العداوة كالمنافقين.

ومع إثارة الشبهات:

* فقد يتساءل عن سبب التحويل، وعن حكم الصلوات السابقة إلى جهة بيت المقدس بعض المسلمين، الذين لم تتوضَّح لديهم بعدُ ولم تتعمَّق مفهومات الإيمان والطاعة، إذ مازالت بعض مفهومات الجاهلية الوثنية عالقة في أذهانهم ونفوسهم.

* وقد يتزلزل إسلام بعض المسلمين الذين لمَّا يَدْخُلِ الإيمان في قلوبهم، فيرتدُّون عن الإسلام، وهؤلاء إمَّا أن يُعلِنُوا رَدَّهم، وإمَّا أن يُخْفُوها، فيكونُوا مِنَ الَّذِينَ طرأ عليهم النفاق بعد أن كانوا مسلمين.

وبذلك تظهر لنا جوانب من حكمة الله العليم الحكيم في امتحان قاسٍ مثل هذا الامتحان، حول القضيتين الأساسيتين من قضايا الدين، هما:

* قضية الإيمان.

* وقضية الطاعة.

* * *

أمَّا اليهود: فقد كان منهم ما رواه الطبري بسنده عن ابن عباس قال: ولَمَّا صُرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة - وصُرفت في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله ﷺ المدينة - أتى رسول الله ﷺ: رِفاعَةُ بْنُ قَيْسٍ، وقرَّدهُ بْنُ عَمْرِو، وكعبُ بْنُ الْأَشْرَفِ، ونافعُ بْنُ أَبِي نَافِعٍ، أُوْرَافِعُ بْنُ أَبِي رَافِعٍ (روايتان عند الطبري)^(١) والحجاجُ بْنُ عَمْرٍو حليفُ كعبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، والرَّبيعُ بْنُ الرِّبيعِ بن

(١) رواية ابن هشام عن أبي إسحاق: رافع بن أبي رافع.

أَبِي الْحَقِّقِ، وَكَثَانَةُ بْنُ الرَّبِيعِ. بْنُ أَبِي الْحَقِّقِ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، مَا وَلَاكَ عَنْ قِبَلِكَ
الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا، وَأَنْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَدِينِهِ؟! أَرْجِعْ إِلَى قِبَلِكَ الَّتِي
كُنْتَ عَلَيْهَا تَتَّبِعُكَ وَتُصَدِّقُكَ.

وَأَمَّا يُرِيدُونَ فَتْنَهُ عَنْ دِينِهِ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ:
مَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ
يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾... .

وهؤلاء الذين جاء ذكرهم في هذه الرواية كلهم من اليهود.
وقال اليهود أيضاً فيما رواه الطبري عن السدي: «إِنَّ مُحَمَّدًا اشْتَقَى إِلَى بَلَدِ أَبِيهِ
وَمَوْلِدِهِ».

وروى البخاري عن البراء بن عازب أَنَّ الْيَهُودَ وَأَهْلَ الْكِتَابِ أَنْكَرُوا ذَلِكَ^(١).
وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ: فَقَدْ كَانَ مِنْهُمْ مَا رَوَاهُ الطَّبْرِيُّ بِسَنَدِهِ عَنِ السُّدِّيِّ، أَنَّهُمْ قَالُوا:
«مَا بَالُهُمْ كَانُوا عَلَى قِبْلَةٍ زَمَانًا، ثُمَّ تَرَكُوهَا وَتَوَجَّهُوا إِلَى غَيْرِهَا؟!».
وَأَمَّا الْمُشْرِكُونَ: فَقَالُوا كَمَا رَوَاهُ الطَّبْرِيُّ بِسَنَدِهِ عَنِ السُّدِّيِّ:
«تَحْجِرَ عَلَى مُحَمَّدٍ دِينُهُ، فَتُوجَّهَ بِقِبْلَتِهِ إِلَيْكُمْ، وَعَلِمَ أَنَّكُمْ كُنتُمْ أَهْضَى مِنْهُ
وَيُوشِكُ أَنْ يَدْخُلَ فِي دِينِكُمْ».
وَأَمَّا الْمُسْلِمُونَ: فَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: بَلَّغَنِي أَنَّ نَاسًا مِمَّنْ أَسْلَمَ رَجَعُوا فَقَالُوا: مَرَّةً
هَهُنَا وَمَرَّةً هَهُنَا.

(عن الطبري)

أقول: وقد أشار النص إلى هؤلاء بقوله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى
عَقْبَيْهِ...﴾ (١٧)

(١) انظر الحديث رقم (٤١) في فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر.

وتسأل مَنْ تسأل منهم عن حكم الصلوات السابقة إلى بيت المقدس: هل ذهبت ضائعة؟ وقالوا: ليت شِعْرُنَا عَنْ إِخْوَانِنَا الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ يَصُلُّونَ قَبْلَ بَيْتِ المقدس: هل تقبل الله منا ومنهم أم لا؟

(ابن جرير الطبري عن السدي)

فاجاب الله عز وجل عن هذا التساؤل بقوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾:

أي: ليس من شأنه سبحانه، ولا من حكمته، ولا من قانون جزائه على الصالحات، أن يضيع ثواب صلواتكم التي توجهتم فيها شطر بيت المقدس، والتي هي ثمرة من ثمرات إيمانكم، فالأساس في عبادة الله هو الإيمان، ومن لوازم الإيمان الطاعة في الأمر، فمن أطاع أمر الباري مؤمناً به ثبت له الأجر، ولو أن الله وجهه في كل يوم لقبله ما في صلاته، فتوجه على وفق الأمر لكان ثواب الصلاة ثابتاً، لتحقق الإيمان والطاعة، وفي التعبير بالإيمان الدال على الطاعة التي هي من لوازمه إشعار بأن الجهات والأماكن ليس لها في ذاتها صفات تستحق ارتباط طاعة الله بها، ولولا الأمر الرباني بتخصيصها لما تفاضل مكان على مكان، ولا زمان على زمان، فهي جميعها تستوي في أنها خلق من خلق الله، والذي يميز بعضها من بعض هو الأمر الرباني، والتخصيص الرباني، والعبادة في كل الأحوال لله وحده لا شريك له.

وبناء على هذا فالعبادات ومنها الصلوات التي لا تكون ثمرة إيمان صادق صحيح – كالتى تكون نفاقاً، أو رياء أو عادة لا تقصد منها عبادة الله، أو خالية من مضمونها الحقيقي – عبادات ضائعات، يجعلها الله هباءً منثوراً.

ومن أجل الدلالة على هذه الحقائق جاء التعبير بالإيمان، بدل الصلاة، في مقام تحقق الأجر وعذمه، باعتبار أن الأصل في الدين هو الإيمان، وأما العمل فيقبل عند الله منه ما كان أثراً من آثاره، وثمرة من ثماره.

وأما المسلمون المؤمنون الصادقون: فاستجابوا وأطاعوا، ولم يكن منهم إلا التسليم التام، لأنهم يعلمون أن الطاعة ثمرة الإيمان، والإيمان موصول بالله لا بالاشياء المادية.

وقد أشار الله عز وجل إلى سلوك هؤلاء بقوله تعالى في النص:

﴿وَأِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾.

وَالَّذِينَ هَدَاهُمْ اللَّهُ، أي: حكم لهم بأنهم مهديون وعلم أنهم مهديون، هم الذين صدقوا في إيمانهم، والتزموا طاعة أوامر ربهم في أعمالهم وعباداتهم.

(٢)

قصة القبلة قبل التحويل إلى الكعبة المشرفة وبعده

رُوي أن رسول الله ﷺ كان يصلي إلى الكعبة أول الأمر، ثم أمره الله أن يتوجه شطر بيت المقدس، ودل على أن هذا أمر من الله عز وجل قوله تعالى في النص:

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا...﴾.

فهذه القبلة هي بجعل الله، أي: بأمره التكليفي.

وفي الصلاة إلى بيت المقدس رُوي أن الأنصار في المدينة صلوا إلى بيت المقدس ثلاث حجج قبل هجرة الرسول ﷺ إليها. ورُوي أنهم صلوا إليه ستين.

(روايات ساقها الطبري)

وأما بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، فوردت بشأنها عدة روايات، أشهرها أن المسلمين صلوا إلى بيت المقدس سبعة عشر شهراً، وقيل: صلوا ستة عشر شهراً، وقيل: ثمانية عشر شهراً.

قال ابن حجر في فتح الباري^(١):

«إن العلماء اختلفوا في الجهة التي كان النبي ﷺ يتوجه إليها، للصلاة وهو بمكة، فقال ابن عباس وغيره: كان يصلي إلى بيت المقدس، لكنه لا يستدبر الكعبة، بل يجعلها بينه وبين بيت المقدس. وأطلق آخرون أنه كان يصلي إلى بيت المقدس، وقال آخرون: كان يصلي إلى الكعبة، فلما تحول إلى المدينة استقبل بيت المقدس،

(١) انظر فتح الباري الجزء الأول الصفحة (٩٦).

وهذا ضعيف، ويلزم منه دعوى النسخ مرتين، والأول أصح، لأنه يجمع بين القولين، وقد صححه الحاكم وغيره من حديث ابن عباس.

وحين كانت الصلاة إلى جهة بيت المقدس قال اليهود: ما بال محمد يُصلي إلى قبلتنا، ولا يتبع ديننا.

وكره رسول الله ﷺ أن يسمع مثل هذه المقالة، فجعل يُقَلِّبُ وجهه في السماء بعض الأوقات، مُشْعِراً في نفسه برغبته في أن تكون الكعبة هي قبلة المسلمين في الصلاة، وربما يكون في ذلك إشارة إلى أن الرسول ﷺ دعا ربه في هذا الأمر، كما جاء في بعض الروايات عن ابن عباس. أو يكون الأمر مجرد رغبة داخلية، وحركة بوجهه نحو السماء أحياناً، والرغبة دون دعاء أكثر دلالة على التأذّب مع الله فيما يقضي به من أحكام دينه.

فقول الله عز وجل في النص:

﴿قَدْ رَأَى ثَقَلُوبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾.

يُذَلُّ عَلَى الرُّغْبَةِ صِرَاحَةً، وليس فيه دلالة صريحة على الدعاء.

ومعنى: ﴿قَدْ نَرَى...﴾ أحياناً نَرَى ثَقَلُوبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ رَاغِباً فِي تَحْوِيلِ القِبْلَةِ إِلَى الكَعْبَةِ.

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾.

هي الكعبة المشرفة.

ويعد ذلك أمر الله الرسول والمسلمين باتخاذ الكعبة قبلتهم، ويتوجههم في صلواتهم شطر المسجد الحرام، حيثما كانوا من الأرض بعيداً عنه، فقال تعالى:

﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

أي: فاتبع وجهك جهة المسجد الحرام في الصلاة، وحيثما كنتم أيها المؤمنون المسلمون لله فاتبعوا وُجُوهكم جهة المسجد الحرام في صلواتكم، ويرى الجمهور أن المراد من المسجد الحرام الكعبة المشرفة، لكثرة الأخبار الدالة على أن القِبْلَةَ صُرِفَتْ للكعبة.

شَطْرَ الشَّيْءِ: بَصْفُهُ، وَجْهَتُهُ وَنَاحِيَتُهُ، وَقَدْ يُرَادُّ الْجُزْءُ مِنْهُ. فَالْمُتَوَجَّهُ لِلشَّيْءِ يَكْفِي أَنْ يُوَاجِهَ بِكُلِّهِ جُزْءاً مِنْهُ، وَعَلَى هَذَا فَيَكْفِي أَنْ يَكُونَ التَّوَجُّهُ مُوَاجِهاً لْجُزْءٍ مِنَ الْكَعْبَةِ أَوْ جِهَتِهَا عِنْدَ الْبُعْدِ فِي الصَّلَاةِ.



وقبل توجيه الأمر بالتحويل إلى جهة المسجد الحرام أخبر الله رسوله بما سيقوله السفهاء من الناس حول حكم هذا التحويل، وبما سثار حوله من اعتراضات وتساؤلات، فهياً الله رسوله والمؤمنين معه تهيئةً نفسيةً مستعدةً لتلقي الاعتراضات والتساؤلات.

فبدل أن تأتي آية: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ...﴾ أولاً، وبعدها تأتي آية: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ...﴾ حسب المتبادر للأذهان من الترتيب، بدأ الله بآية: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ...﴾ مراعاةً للبدء التربوي بإعداد النفوس وتهيتها لتلقي أحداث ما بعد التكليف الجديد قبل توجيهِ التَّكْلِيفِ.

وهو أسلوب تربوي رفيع، قاعدته إعداد النفس قبل توجيه التكليف، نظير أن يقول الرئيس الأعلى لمعامل من عُمَّالِهِ اختاره لحل مشكلات ولاية من ولاياته: سوف تلاقى متاعب كثيرة أنت أهل لها، وقادر على حلها في ولاية كذا، اذهب إليها فأنت والٍ عليها منذ الآن.

وعلم الله رسوله والمؤمنين معه كيف تكون أجوبتهم لدفع شبهات مثيري الشبهات، حول الأمر بتحويل القبلة إلى المسجد الحرام، ولتصحيح مفهومات المسلمين حول قضيتين أساسيتين من قضايا الدين، هما:

• قضية الإيمان.

• وقضية الطاعة لأمر الله كيف كان الأمر.

وروايات أسباب النزول تقصُّ قصة اعتراضات اليهود والمنافقين والمشركين وتساؤلات بعض المسلمين حول حادثة تحويل القبلة، ثُمَّ يَأْتِي فِي آخِرِهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ قَوْلَهُ: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ...﴾ فاشعر هذا بأن نزول هذه الآية كان بعد الاعتراضات والتساؤلات. وأخذ بعض المفسرين في تأويل حرف المستقبل في:

﴿سيقول﴾ باعتبار أنَّ الروايات تشعر بأنَّ مقالة هؤلاء السفهاء حدثتْ مضيَّ قبل نزول الآية.

وأرى أنَّ تأويل الروايات أولى من تأويل النصِّ القرآنيِّ وإخراجه عن أصل دلالة.

فأصحاب الروايات قد لا يريدون ترتيب نزول النصِّ بعد ورود مقالة السفهاء من الناس، وإنما يكشفون فقط عمَّا جرى منهم، وعمَّا نزل بشأنهم، وبشأن مقالاتهم، دون تحديد السابق واللاحق.

ومعظم روايات أسباب النزول الواردة في هذا الموضوع تعوزها الدقة، وأسانيدها ضعيفة، وعمدتها فهم صحابي، أو خبر تابعي.

وتظلُّ دلالات النصِّ القرآني هي الأقوى، ولا داعي لتأويله وصرفه عن ظاهره.

* * *

(٣)

إسقاط الشبهات والتساؤلات حول تحويل القبلة

إنَّ تحديد القبلة في عبادة الصلاة ونحوها أمرٌ هو في الأصل من أمور التكاليف التعبدية المَحْض، التي تُقْبَلُ في مسائل الذين التَّغْيِير والتبديل، والغرض منها مُجَرِّد امتحان الطاعة، فإنَّ اقترن بها حكمةٌ ما فهي نافلةٌ ومزيدةٌ عنايةً من الحكيم الخبير. والقيام بالتكاليف التعبدية كلها إنما هو مظهر من مظاهر الطاعة لمن له الأمر والنهي.

والطاعة في الدين أثرٌ من آثار الإيمان بحق الخالق علينا في أنْ نَعْبُدَهُ وَلَا نُشْرِكَ بعبادته أحدًا.

فليس لمكان العبادة حقيقة ذاتية خاصة به تُمَيِّزُهُ من غيره من الامكنة، مُنْفَكَّة عن أوامر مَنْ لَهُ حَقُّ الأمر بالعبادة، حتَّى يكون نُعْلُقُ العابدين بالمكان لذات المكان.

ومن لَهُ حَقُّ الأمر والنهي، وعلينا واجب طاعته، إذا أمرنا بفعل الشيء إيجاباً

وجب علينا فعله، وإذا نهانا عن فعل ذلك الشيء تحريماً حُرماً علينا فعله. وإذا أذن لنا بأن نفعل أو نترك ذلك الشيء جاز لنا أن نفعله أو نتركه.

ومن له حق الأمر والنهي، وتجب علينا طاعته، إذا أمرنا بأن نتوجه في صلاتنا إلى بيت المقدس أو آية بقعة من الأرض، وجب علينا ذلك، وإذا غير أمره فأمرنا بأن نتوجه شطر المسجد الحرام في مكة، أو آية بقعة من الأرض، وجب علينا ذلك، ولم يجوز لنا أن نتوجه في صلاتنا كما كنا نتوجه بحسب أمره السابق.

وإذا أذن لنا بأن نتوجه لآية جهة نريدُها كان لنا ذلك دون حرج، كما أذن لنا بأن ندعوه في غير الصلاة متوجهين لآية جهة من الجهات كلها، والأصل أن السماء في حالة رفع الرأس هي قبلة الدعاء، أما في حالة القيام في الصلاة والركوع والسجود فموضع السجود هو قبلة الدعاء.

وهكذا سائر الأمور التعبدية التي يقصد منها في الأصل امتحان الطاعة، والطاعة لله دون ملاحظة مصلحة دنيوية من ممارستها، أصدقُ مُعَبِّر عن صِدْقِ الإيمان بالله وباليوم الآخر، وسلامته من الشوائب.

هذا هو المفهوم الإسلامي الصحيح حول التكليف التعبدية المحض، وارتباطها بقضيتي الإيمان والطاعة.

ولكن كثيراً من الناس لا تتضح لديهم هذه الحقيقة الكبرى من حقائق الدين، فيقعون في أخطاء كثيرة، وأكثر هذه الأخطاء شيوعاً ارتباطهم بإمكانة العبادات التي جعل الله لها خصوصيات بالامر التعبدية ارتباطاً وثيقاً، أو فيه راحة الوثنية، وكذلك الأزمنة، والأشخاص، فيتوهمون أن الأمكنة أو الأزمنة أو الأشخاص ذواتٌ قدسية ذاتية، تستحق أن يكون لها نصيب من العبادة، وهذا من الشرك، ويتوهمون أن ارتباط أعمال العبادات بها ارتباط لذواتها، لا من أجل أوامر من له حق التكليف.

فإذا غير الأمر أمره ظنوا أن خطأ ما قد حصل، إما في أمره السابق، أو في أمره اللاحق، وتقوم من أجل ذلك في نفوسهم الشبهات.

ولما كان الرسول ﷺ يعلم تساوي الأمكنة في أصل المفهوم الديني، دون ملاحظة العوارض التي تجعل لها اعتبارات خاصة، فقد كان يرضيه صلوات الله عليه

أَنْ يَكُونَ لِلْمُسْلِمِينَ قِبْلَةً مُمَيَّزَةً، لَا أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُمْ قِبْلَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَكَانَ يُسْرُهُ أَنْ يُخَلِّدَ ذِكْرَ أَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامَ، الَّذِينَ رَفَعَا قَوَاعِدَ الْكُعْبَةِ الْمَشْرِقَةِ، بَيْتَ اللَّهِ الْحَرَامِ، وَأَنْ تَكُونَ الْقِبْلَةُ فِي هَذَا الدِّينِ الْخَاتَمِ أَوَّلُ بَيْتٍ وَضِعَ لِلنَّاسِ، فَحَقَّقَ اللَّهُ رَغْبَتَهُ، وَكَانَ لَهُ بِذَلِكَ قَضَاءٌ سَابِقٌ وَاقِفُهُ مَا رَغِبَ فِيهِ الرَّسُولُ ﷺ.



إِنَّ ارْتِبَاطَ النُّفُوسِ الَّتِي تَنْظُلُ فِيهَا عَوَالِقُ وَثْنِيَّةٍ، بِالْأَمَاكِنِ عَلَى نَوَاهِمِ أَنْ لِلْأَمَاكِنِ قُدْسِيَّاتٍ مِنْ ذَوَاتِ تَكْرِينَاتِهَا، سَيَدْفَعُ أَصْحَابُهَا لِلْإِعْتِرَاضِ عَلَى تَغْيِيرِ أَمَاكِنِ الْعِبَادَاتِ، وَمِنْ ذَلِكَ تَغْيِيرَ الْقِبْلَةِ.

وَلَكِنْ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ مَفَافَةٍ، بِطَيْشٍ وَسُرْعَةٍ فِي إِصْدَارِ الْأَحْكَامِ دُونَ رُوبَةٍ، وَعَنْ قِبْلَةٍ عَقْلٍ، وَعَدَمِ بَصِيرَةٍ بِحَقِيقَةِ الدِّينِ.

فَالطَّاعَةُ فِي الَّذِينَ النَّابِعَةُ مِنْ قَاعِدَةِ الْإِيمَانِ بَعْنٍ لَهُ حَقُّ الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ وَحْدَهُ، هِيَ الْأَثَرُ الْأَوَّلُ الْمُبَاشِّرُ لِلْإِيمَانِ، وَلَيْسَ لِلْأَمَكْنَةِ وَلَا لِلْأَزْمَنَةِ أَيُّ مَوْقِعٍ فِي مَاهِيَةِ الدِّينِ، وَإِنْ اقْتَضَتْ الْحِكْمَةُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي أَوَامِرِ الدِّينِ وَنَوَاهِيهِ رِبْطَ بَعْضِ الْعِبَادَاتِ بِأَمَكْنَةٍ خَاصَّةٍ أَوْ أَزْمَنَةٍ خَاصَّةٍ.

مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ الْأَمَكْنَةَ وَالْأَزْمَنَةَ وَنَحْوَهَا مِنَ الْأُمُورِ الْقَابِلَةِ لِلتَّغْيِيرِ وَالتَّجْدِيلِ، وَفِي حِكْمَةٍ مَنْ لَهُ حَقُّ الطَّاعَةِ، فَهِيَ تَدْخُلُ فِي فِتْنَةٍ: «مَا يَقْبَلُ التَّغْيِيرَ لَا فِي فِتْنَةٍ: «الْثَّوَابُ الَّتِي لَا تَقْبَلُ التَّغْيِيرَ» كَالْعَقَائِدِ، وَالْأَسَاسِ الْأَخْلَاقِيَّةِ، وَأَسَاسِ الْحَقُوقِ.

وَمَقَالَةٌ هَؤُلَاءِ السَّفَهَاءِ فِي مَوْضُوعِ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ تَتِمُّثَلُ بِعِبَارَةِ الْاِسْتِنْكَارِ الَّتِي لَا بُدَّ أَنْ يَطْلُقُوهَا يَقُولُوا:

﴿مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا...﴾ ١١٩

وَفِي طَرَحِ التَّشْكِيكَاتِ حَوْلَ صِحَّةِ الصَّلَوَاتِ الَّتِي صَلَّوْهَا سَابِقاً مُتَوَجِّهِينَ شَطْرَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ.

وَالْمَعْنَى: أَيُّ شَيْءٍ صَرَفَهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا؟! هَلْ كَانُوا عَلَى خَطِئٍ فَرَأَوْا الصَّوَابَ فَتَحَوَّلُوا إِلَيْهِ؟! أَوِ الدِّينُ لَعِبَةٌ فِي أَيْدِيهِمْ يَغْيِرُونَ فِيهِ وَيُبَدِّلُونَ حَسَبَ أَهْوَائِهِمْ؟! أَوِ الدِّينُ مِنْ مَبْتَدَعَاتِهِمْ فَهُمْ يَقَرَّرُونَ فِيهِ الْأَحْكَامَ عَلَى مَا يَشَاءُونَ؟!

ويتضمن هذا التساؤل جحود هذا الدين كله، وجحود أن يكون من عند الله، إذ لو كان من عند الله - بحسب زعمهم - لما تعرض لمثل هذا التغير الجوهرى، الذي ينس مقدساً عظيماً من مقدسات الدين، ألا وهي القبلة.

وجاء الجواب التعليمي العقلي البرهاني الهادى، الذي يهدم كل البناء التهويلي الاعتراضي، الذي يتفخ في تكبيره وتعظيمه السفهاء، فقال الله عز وجل:

﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ...﴾ (١٤٢)

أي: إن العبادة لله وخذّه، والتوجه في الحقيقة لله وخذّه، ولما كان الله غير منظور حتى نتوجه بوجوهنا له مباشرة، كان من الحكمة تحديد جهة ما، في أي مكان من الأرض، ومشرق الأرض ومغربها وسائر جهاتها وكل مكان في العالم هو ملك الله عز وجل، وخلق من خلقه، وجاء ذكر المشرق والمغرب اكتفاء بهما عن ذكر غيرهما، أولان كل مكان في الأرض تشرق من جهته الشمس هو مشرق، وكل مكان تغرب من جهته الشمس هو مغرب، فعلم المشرق والمغرب كل مكان في الأرض.

فحيث يأمرنا الله عز وجل أن نتوجه في عبادته يكون ذلك قبلتنا، إذا فليس لبيت المقدس، ولا للكعبة المشرفة خصوصية ذاتية من ذاتيهما، وإنما أتاهاما التشريف والتخصيص بتشريف الله لهما، ويجعلهما قبلة، وأماكن عبادة تضاعف فيها الحسنات، والأجر عليهما.

ولله أن يأمر في وقت ما بالتوجه لمكان ما، وفي وقت آخر بالتوجه لمكان آخر، فالأماكن كلها خلق من خلق الله.

هذا هو الصراط المستقيم في فهم الدين، حول موضوع القبلة، فمن فهمه حق فهمه، واستسلم لله عز وجل في كل أوامره ونواهيه، وأطاع دون اعتراض، كان من الذين اهتموا إلى صراط مستقيم.

ولذلك اتبع الله قوله:

﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ...﴾ (١٤٢)

بقوله تعالى:

﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ :

أي: فهو سبحانه يُرشد أصحاب المشيئة، الذين منحهم في تكوينهم جهاز المشيئة، إلى صراط مستقيم.

فَمَنْ قَبِلْ هَذَايَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ سَلَكَ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، واطاع الله مُسْتَقِيمًا دُونَ اعْتِرَاضٍ، وَمَنْ آتَى تَنَكُّبَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَعَدَلَ عَنْهُ، فَضَلَّ وَغَوَى.

وقد سبق التمهيدُ في سورة (البقرة) أيضاً ببيان هذه الحقيقة من الحقائق الدينية، قبل آيات تحويل القبلة، إذ قال الله عَزَّ وَجَلَّ فيها:

﴿وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَانْصُرُوا وَجَهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٦٠).

﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَانْصُرُوا وَجَهَ اللَّهِ﴾ :

أي: فأيما توجَّهوا وُجُوهكم في صلواتكم فهناك يقابلُكم وَجْهُ اللَّهِ إِذَا قَصَدْتُمْ التَّوَجُّهَ لَهُ.

وجاء في الآية التكميلُ بمثابة التعليل:

﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ :

أي: فهو بسعته محيط بكل شيء، فأينما وُجَّهْتُمْ وُجُوهكم كَانَ اللَّهُ فِي مُوَاجِهَتِكُمْ، فَتَحَقَّقْ بِذَلِكَ التَّوَجُّهُ لَهُ، وَهُوَ بِشُمُولِ عِلْمِهِ يَعْلَمُ مَقَاصِدَكُمْ مِنْ تَوَجُّهِكُمْ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ. فَهُوَ يُجَازِيكُمْ عَلَى عِبَادَتِكُمْ بِفَضْلِهِ الثَّوَابَ الْجَزِيلَ الَّذِي وَعَدَكُمْ إِيَّاهُ.

ثم جاء في السورة بعد هذه الآية بَيَانُ قِصَّةِ بِنَاءِ الْكَعْبَةِ، وَمَا لِهَذَا الْبَيْتِ مِنْ سَوَاقٍ تَارِيخِيَّةٍ، وَكَيْفَ جَعَلَهُ اللَّهُ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا، وَكَيْفَ عَهَدَ اللَّهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أَنَّ يُظَاهَرَا لِلطَّاغُوتِ وَالْعَاقِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ، وَكَيْفَ رَفَعَ إِبْرَاهِيمَ وَوَلَدَهُ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامَ الْقَوَاعِدَ مِنْهُ. فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ هَذَا الْبَيْتَ الرَّبَّانِي بَيْتُ تَارِيخِيٌّ عَتِيقٌ لَهُ ذِكْرِيَاتٌ دِينِيَّةٌ قَدِيمَةٌ.

وكانت هذه التمهيداتُ بمثابة الإعداد النفسي، وَالْأَمَارَاتِ الْمَشْعُرَاتِ بِأَنَّ أَوَامِرَ سَتَنْزِلُ بِتَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فِي مَكَّةَ، وَالْكَعْبَةِ بَيْتِ اللَّهِ فِيهَا. مَعَ مَا فِيهَا مِنْ بَيَانٍ لِلْمَفْهُومَاتِ الدِّينِيَّةِ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ، الْمُتَضَمِّنَةِ الْإِنْفِاعِ بِأَنَّ قَضِيَّةَ الْقِبْلَةِ مِنْ

القضايا التي تقبل التفسير والتبديل، وليست من الثوابت التي لا تقبل التفسير ولا التبديل، وأن أي مكان متى نزل الأمر الرباني بتعيينه قبلة وجب على الناس اتخاذه قبلة حسب الأمر، فلهذا بلّغ المشرق والمغرب، والعبادة الصادقة لله تتحقق بالتوجه القلبي والنفسي لله، أما الوجوه فإينما تولّت فثم وجهه الله متى تحقق التوجه القلبي والنفسي له سبحانه.

ومع ذلك فطاعة الأمر لقبلة يعينها الباري سبحانه وتعالى واجبة، لأن حكمة توحيد اتجاه المسلمين لقبلة واحدة تستدعي تعيين مكان معين يتوجهون له.

وفي هذا تحرير للنفوس المؤمنة من كل شوائب الوثنيات، وتجريد لها وهي توجه للقبلة من القبلة ومن غيرها، لتخلص العبادة لله الخالق وحده، الذي لا يتجسد في شيء من الكون، ولا يجل في شيء من الكون.

* * *

(٤)

مقاصد الشارع الحكيم من تحويل القبلة

كل ما يُجرّبه الله عز وجل في خلقه، وفي أحكام دينه لعباده بما في ذلك النسخ والتبديل، مشمول بعلم الله المحيط بكل شيء، وبحكمته العظيمة.

فمن جكم الله عز وجل في النسخ مراعاة التدرج في التكليف، وهو من القواعد التربوية العظيمة.

ومنها بيان أن الطاعة مُرتبطة بالأمر الرباني لا بالمصالح التي يُحققها تطبيق التكليف الربانية، مهما كانت مصالح عظيمة وضرورية.

ومنها تعليم العباد عدم الإصرار على اختيار اختاروه في أوامرهم ونواهيهم، ونظمهم، وكل ما هو متروك لهم من أمورهم، بل عليهم أن يطوروا اختياراتهم إلى الأفضل والأحسن والأكمل دوماً، دون عناد ولا استكبار.

فإذا رأوا أمراً أفضل من أمرهم السابق بعد التجربة والملاحظة نسخوا الأمر السابق وعدّلوا إلى الأمر الأفضل.

وَإِذَا رَأَوْا تِظَاهِرًا فَكُونُوا لِلْطَّائِفَةِ كَقُورٍ حُرِّقَتْ ذُرَاهُ فَأَبْدَلَتْ أَلْسِنَهُ حَمِإً ۚ
السابق وعدُّوا، وقرُّوا العمل بما هو أصْلَح وأفضل وأحسن.

وهكذا يفعلون دوماً في كلِّ ما هو متروك لهم من أمور حياتهم، ترقياً شطراً
الأفضل والأحسن والأكمل دوماً.

وقد ضرب الله لنا من نفسه مثلاً في ذلك لِيُعَلِّمَنَا، مع أَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَابِرٌ عَلَى أَنْ
يَخْتَارَ الْأَحْسَنَ ابتداءً.

ودلَّنَا عَلَى هذه الحكمة بقوله تعالى في سورة (البقرة):

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ۝١٦٦﴾.

أي: فمع قدرته عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ابتداءً نَسْخُ إِلَى خَيْرٍ مِمَّا نَسَخَ أَوْ إِلَى مِثْلِهِ، لكنَّه
لَا يَنْسَخُ إِلَى مَا هُوَ دُونَ مَا نَسَخَ.

لكنَّ كثيراً من الناس يُعاندون استكباراً، فيصرون عَلَى آرائهم واختياراتهم
السابقات، ويصرون عَلَى أوامرهم ونواهيهم إِذَا كَانَ لَهُمْ أَوْامِرٌ وَنَوَاهِي فِي أَقْوَامِهِمْ،
مهما ظهر لَهُمْ أَنَّ النسخ والتبديل أو التعديل هو الْأَفْضَلُ وَالْأَحْسَنُ وَالْأَكْمَلُ.

وقد أبان الله عَزَّ وَجَلَّ الحكمة من أمره السابق بالتوجُّه في الصلاة جهة بيت
المقدس، الذي نسخهُ بِالْأَمْرِ بالتوجُّه إِلَى الكعبة المُشْرِقَةَ في حالة القرب منها، وشرط
المسجد الحرام في حالة البعد، أَلَا وَهِيَ امْتِحَانُ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا الرَّسُولَ،
وهذا الامتحان يهدف إِلَى اختبار صِدْقِ إيمانهم بِاللَّهِ وحده، وفَهْمِهِمْ لِمَعْنَى الطاعة فِي
الدين، وهل اِرْتِبَاطُهُم بِالْقِبْلَةِ اِرْتِبَاطٌ فِيهِ وَثْنِيَّةُ الْمُشْرِكِينَ، حِينَ كَانُوا يَتَعَلَّقُونَ بِأَوْثَانِهِمْ،
وَيَتَسَحَّرُونَ بِأَجْسَادِهَا، وَيَقْرَبُونَ لَهَا الْقَرَابِينَ، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّصِّ الَّذِي
تَدْبِيرُهُ:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى
عَقِبَيْهِ ۖ... ۝١٦٧﴾.

فالمؤمنون الذين فهِمُوا حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ فِي بَلَاغَاتِهِ عَنْ رَبِّهِ، وَفِي

سُبَّهَ الَّتِي يَسْتُهَا، وبالنسبة إلى تحويل القبلة فإنهم لَا يَرَوْنَ فِيهِ إِلَّا مَا عَلَيْهِمْ مِنْ وَاجِبِ الْأَمْتَالِ وَالطَّاعَةِ، فَهُمْ عِبَادُ اللَّهِ، وَعَلَيْهِمْ أَنْ يُطِيعُوهُ فِي كُلِّ أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَعَلَيْهِمْ أَنْ يَتَحَوَّلُوا فَوْراً إِلَى الْقِبْلَةِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي وَجَّهَهُمْ لَهَا، إِنَّهُمْ لَا يَعْبُدُونَ الْقِبْلَةَ أَيَّاماً كَانَتْ تِلْكَ الْقِبْلَةُ، حَتَّى يَكْبُرَ فِي نَفْسِهِمُ التَّحَوُّلُ عَنْهَا.

أَمَّا الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ، فَقَدْ يَكُونُ تَحْوِيلُ الْقِبْلَةِ سَبَباً فِي تَوْضِيحِ حَقِيقَةِ الدِّينِ فِي نَفْسِهِمْ، وَفِي تَصْحِيحِ إِيمَانِهِمْ. وَقَدْ يَكُونُ سَبَباً فِي رَدِّهِمْ، لِأَنَّهُمْ فِي الْأَصْلِ لَمْ يَتَعَدُّوا عَنْ مَفْهُومَاتِهِمُ الْوُثْنِيَّةِ السَّابِقَةِ، فَيَنْقَلِبُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُرْتَدِّينَ.

الْأَعْقَابُ: جَمْعُ عَقَبٍ، وَهُوَ عَظْمٌ مُؤَخَّرُ الْقَدَمِ، يُقَالُ: رَجَعَ عَلَى عَقْبِهِ، إِذَا رَجَعَ عَلَى الطَّرِيقِ الَّذِي جَاءَ مِنْهُ.

وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ فَقَدْ يَكُونُ سَبَباً فِي كَشْفِ نِفَاقِهِمْ، وَإِظْهَارِ حَقِيقَةِ حَالِهِمْ.

وَأَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ قَضِيَّةَ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ قَضِيَّةٌ كَبِيرَةٌ فِي نَفْسِ الَّذِينَ مَا زَالَتْ مَفَاهِيمُ الْوُثْنِيَّةِ عَالِقَةً فِي أَفْكَارِهِمْ، إِنَّهَا الْجِهَةُ الَّتِي يَتَوَجَّهُونَ لَهَا فِي أَعْظَمِ عِبَادَاتِهِمْ، وَهِيَ الصَّلَاةُ، فَكَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ تَتَغَرَّصَ لِلتَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ، لَكِنَّ الَّذِينَ اهْتَدَوْا إِلَى حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ الصَّافِي مِنْ كُلِّ شَوَائِبِ الْوُثْنِيَّاتِ، لَا يَرَوْنَ فِي تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ شَيْئاً، وَلَوْ نَزَلَ الْأَمْرُ فِي كُلِّ يَوْمٍ بِأَنْ يَتَوَجَّهُوا شَطْرَ قِبْلَةٍ جَدِيدَةٍ، وَفِي بَيَانِ هَذَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّصِّ:

﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ...﴾ (١١٣)

أَي: وَإِنْ كَانَتْ الطَّاعَةُ فِي التَّحَوُّلِ عَنِ الْقِبْلَةِ السَّابِقَةِ إِلَى الْقِبْلَةِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْأَمْرُ الْجَدِيدُ، لَكَبِيرَةً صَعْبَةً ثَقِيلَةً شَدِيدَةً، إِلَّا عَلَى الَّذِينَ أَدْرَكُوا حَقِيقَةَ مَفْهُومِ الْإِيمَانِ، وَمَفْهُومِ الطَّاعَةِ لِلَّهِ، وَمَفْهُومِ الْعِبَادَةِ، وَمَفْهُومِ الْقِبْلَةِ، فَوَجَدَهُمُ اللَّهُ مُهْتَدِينَ فَحَكَّمَ لَهُمْ بِالْهُدَايَةِ، فَهُمْ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ، وَهَؤُلَاءِ لَا يَجِدُونَ الطَّاعَةَ فِي ذَلِكَ صَعْبَةً عَلَى نَفْسِهِمْ، بَلْ يَجِدُونَهَا ضَمِيرَةً هَيَّئَةً سَهْلَةً، بِخِلَافِ الَّذِينَ مَا زَالُوا مُتَأَثِّرِينَ بِرَوَائِبِ وَثْنِيَّةٍ، فَإِنَّهُمْ يَجِدُونَ الطَّاعَةَ فِي هَذَا الْأَمْرِ كَبِيرَةً صَعْبَةً، وَقَدْ تَغَيَّنَتْ عَنْ دِينِهِمْ، فَيَنْقَلِبُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُرْتَدِّينَ عَنِ الدِّينِ.

وَأَذْكُرُ بِأَنَّ مُعْظَمَ فُضَائِلِ الْأَخْلَاقِ هِيَ وَسْطُ بَيْنِ أَقْصَيْنِ غَيْرِ حَسَنَيْنِ، فَيُلْحَقُ هَذَا بِعُمُومِ وَسْطِيَّةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ.

(٥)

ما جاء في النص حول مشاركة أهل الكتاب

في إثارة الشبهات بشأن تحويل القبلة

إنَّ علماء أهل الكتاب الذين شاركوا في إطلاق الشبهات حول تحويل القبلة، يعلمون أنَّ تحديد القبلة أم تكليفي، لامتحان الطاعة، وهو قابل للتغيير والتبديل، فَبَنُو إِسْرَائِيلَ فِي مِصْرَ حِينَ بَعَثَ اللَّهُ فِيهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامَ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ بَيُوتَهُمْ قِبْلَةً، وَهُوَ مَا بَيَّنَّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (يُونُسَ / ١٠ / مصحف / ٥١ نزول) الآية (٨٧) أَي: أَن يَجْعَلُوهَا مَفْتُوحَةً إِلَى جِهَةِ الْقِبْلَةِ وَهِيَ الْكَعْبَةُ فِي الْأَرَجِ.

ثُمَّ تَحَوَّلَتْ بَعْدَ ذَلِكَ قِبْلَتُهُمْ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ، فَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَمَرَ بِالتَّوَجُّهِ لَجِهَةٍ مَا فِي الصَّلَاةِ، كَانَ الْحَقُّ فِي التَّوَجُّهِ لِتِلْكَ الْجِهَةِ، ثُمَّ إِذَا أَمَرَ بِالتَّوَجُّهِ لَجِهَةٍ أُخْرَى كَانَ الْحَقُّ فِي التَّوَجُّهِ لِلْجِهَةِ الْمَعْنِيَةِ فِي الْأَمْرِ اللَّاحِقِ.

وَيَرْجَحُ هَذَا الرَّأْيَ مَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَتْ الْكَعْبَةُ قِبْلَتَهُ، وَرَوَى عَنْ الْحَسَنِ، أَنَّهُ قَالَ: الْكَعْبَةُ قِبْلَةُ كُلِّ الْأَنْبِيَاءِ.

فَإِنَّ صَحَّ هَذَا فَإِنَّ عُلَمَاءَ أَهْلِ الْكِتَابِ يَعْلَمُونَ أَنَّ التَّوَجُّهُ فِي الصَّلَاةِ لِلْكَعْبَةِ أَمْرٌ دِينِي قَدِيمٌ فَهُوَ حَقٌّ مِنْ رَبِّهِمْ.

وقد يفهم ذلك من قول الله عز وجل في النص الذي نتدبره:

﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لْيَعْلَمُوا أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

وبما أنهم يعلمون أنه الحق من ربهم، فإن مشاركتهم في إثارة الشبهات يستحقون عليه المؤاخذه الخاصة والعقاب الخاص، فقال تعالى في الآية:

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

أي: وعلم الله الملازم لحكمته وغذله يقتضي معاقبتهم على أعمالهم.
وفي هذا البيان معنى التحذير والوعيد، من محاربة هذا الدين بإثارة الشبهات
الباطلات حول شريعته ومنهاجه وأحكامه.

(٦)

حول مزاللق الاستدراج الماكرة

التي قام بها فريق من أحبار اليهود

سبق في المقولة (١) ما روي عن ابن عباس من أنه لما صُرِفَت القِبْلَةُ عن الشام
إلى الكعبة أتى رسول الله سبعة من أحبار اليهود وكبرائهم فقالوا: يَا مُحَمَّد، مَا وَلَّاكَ
عَنْ قِبْلَتِكَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا وَأَنْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَدِينِهِ؟! ارْجِعْ إِلَى قِبْلَتِكَ
الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا نَبِيَّكَ وَنُصَدِّقُكَ.

قال ابن عباس: وإنما يريدون فِتْنَتَهُ عَنْ دِينِهِ.

ونلاحظ أن في النص الذي نتدبره تعقيباً على هذه المُقَاوَضَةِ الاستدراجية
الماكِرة من اليهود.

فقد أبان الله عز وجل فيه لرسوله أن قصة رفض أهل الكتاب لأتباعك لا تنتهي
بأن تتبع قبلتهم، فهم سيظلون على رفضهم الحق الذي جئت به.

وذلك لأن رفضهم ليس ناشئاً عن جهلٍ حتى تُعَلِّمَهُمْ، ولا عن حالةٍ نفسيةٍ
عارضةٍ حتى تَسْتَرِضِيَهُمْ، وإنما هو عن إصرار على معاندة الحق بالباطل تعصّباً وأنانيةً
واستكباراً واتباعاً للهوى.

فلو أتيتهم بكل آية من شأنها إقناعهم بالحق الذي جئت به، ما استجابوا لك،
وما اتبعوا مِلَّتَكَ ولا قِبْلَتَكَ، ما دامت أسباب رفضهم ليست ناشئة عن جهلهم، وعَظَمَ
قناعتهم، وإنما هي ناشئة عن عوامل نفسية أخرى.

إن اتباع القِبْلَةِ مظهر من مظاهر اتباع المِلَّةِ والدين، فقال الله عز وجل:

﴿وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾:

أي: ما تبعوا بلئتكم التي يلزم من اتباعهم لها أن يتبعوا قبيلتكم، فأطلق اللازم، مراداً مع إرادة الملزوم ضمناً بالاقتضاء العقلي.

والمعنى: سوف لا يستجيبون لك إذا جاريتهم فرجعت إلى قبيلتك السابقة، فلقد كنت عليها ولم يستجيبوا لك، ولم يصدقوك، فكيف إذا انزلت معهم في عرض الاستدراج الذي عرضه عليك؟! إنهم سيتخذون ذلك ذريعةً للتشكيك في دينك، ولفتنة المسلمين عن دينهم.

واتباعك قبيلتهم لا يكفي لإزالة الموانع التي تمنعهم من الإيمان بك واتباعك. إنهم لن يرضوا حتى تتبع ملتهم وأنت لن تفعل ذلك، فما أنت بتابع ملتهم ولا قبيلتهم، إذ لا تتبع قبيلتهم دون أمر رباني حتى تتبع ملتهم، وهذا أمر لا يمكن أن تفعله، فأنت رسول على الحق، وهم على الباطل.

وفرق أهل الكتاب لا يتبع بعضهم قبله بعض أيضاً، لأن اتباع القبلة مظهر من مظاهر اتباع الملة، وكل فريق منهم ملازم ملته، لا يفارق قبلته حتى يفارق ملته. فقال الله عز وجل لرسوله:

﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قَبِيلَتُهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قَبِيلَةَ بَعْضٍ﴾.

وبعد ذلك قال الله عز وجل لرسوله:

﴿وَلَكِنْ أَتَّبِعْتُ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَلِئَلَنِ

الظالمين﴾ (١٤٥).

إن الرسول صلوات الله عليه لا يمكن أن يتبع أهواء أهل الكتاب، ولا أهواء غيرهم من بلل الكفر، ولكن قواعد التكليف والتحذير والتربية الربانية قواعد عامة، يخاطب الله بها جميع عباده من أفضل المرسلين حتى أشد الناس كفراً وعناداً وبعداً عن رحمته، فما أخذ يغف من الحكم عليه بالظلم إذا ظلم، وما أخذ يغف من الحكم عليه بالكفر إذا كفر، ولا من معاقبته عقاب الكافرين، وما أخذ يغف من الحكم عليه بالشرك إذا أشرك، وهكذا إلى سائر قواعد الابتلاء والجزاء.

ونمطياً مع هذه الكليات العامة نجد النصوص الربانية تسوي في الخطاب بها

الجميع، ولا نَسْتَنِي إِلَّا فَاقِدِي أَهْلِيَّةَ التَّكْلِيفِ، وَلَوْ كَانَ الْمُخَاطَبُ بِهَا مَعْصُومًا.
وفي هذا تحقيقٌ شامل لقانون العدل، المبني عَلَى سُبَّةِ اللَّهِ الثَّابِتَةِ فِي الْإِبْتِلَاءِ
وَالْجِزَاءِ.

وَحِينَ يُذَرِّكَ آحَاذُ النَّاسِ أَنَّ الرُّسُولَ بَلَّ أَفْضَلَ الرُّسُلِ سَيَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ
بِحُكْمِ اللَّهِ لَوَاتِبِ أَهْوَاءِ أَهْلِ الْكُفْرِ، فَإِنَّهُ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ: كَيْفَ إِذَا خَالَ الَّذِينَ لَيْسَ
لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ تَفْضِيلٌ وَلَا تَمَيِّزٌ وَلَا تَخْصِيصٌ؟!



النص الخامس

من سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول)

(٢٠٧ - ٢٠٤) الآيات من

حول بعض صفات فريق من المنافقين

وظواهر من سلوكهم وهم من الجبارين

قال الله عز وجل:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ قَلْبِهِ أَنَّهُ الذُّ
الْخَصَامِرُ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ
لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ وَلِئْسَ
أَلَمَهُادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ
بِالْعَبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾

من الظاهر في الآيات الثلاث الأولى من هذا النص أنها نزلت لبيان حال صنف

من المنافقين بوجه عام .

(١)

حول أسباب النزول

من حكمة الله في تنزيل القرآن مُنْجِماً، تَرُقُبْ أدنى المناسبات لإنزال بيانات
ومفاهيمات وكُلِّيَّاتٍ عامَّاتٍ، وقد لا ينطبق النص بكل عناصره على كل عناصر المناسبة.

كالأب المرئى المعلم لأولاده، إذا مرَّ بهم حيوان أعطاهم درساً من دروس عالم

الحيوان. وإذا مرّوا بشجرٍ ما أعطاهم درساً من دروس الأشجار وسائر النباتات، وإذا قُدِّمَتْ لهم باقةٌ ورد أعطاهم درساً من دروس الورود والأزهار، وهكذا.

وقد استبصر علماء أصول الفقه هذه الحقيقة فقالوا: العبرة بعموم النص لا بخصوص السبب.

وقد رُوي في أسباب نزول هذا النصّ روايتان ضعيفتا الإسناد:

• إحداهما عن ابن عباس، قال: لما أصيبت هذه السّرية أصحاب خبيّ بالرجيع بين مكة والمدينة، قال رجالٌ من المنافقين: يا ويح هؤلاء المفتولين، أو المفتونين الذين هلكوا هكذا، لأنهم قعدوا في بيوتهم، ولا هم أدّوا رسالة صاحبهم، فأنزل الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ (الآيات).

وهذه الرواية موقوفة على ابن عباس.

• والأخرى عن السّدي، قال: نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي، وهو حليف لبني زهرة، أقبل إلى النبي ﷺ في المدينة، فأظهر له الإسلام، فأعجب النبي ذلك منه، وقال: إنما جئت أريد الإسلام، والله يعلم أنّي صادق، ثم خرج من عند النبي ﷺ، فمرّ بزرع لقومٍ من المسلمين، وحُمِر، فأحرق الزرع وعقر الحُمِر، فأنزل الله عزّ وجلّ: (الآيات). وهذه الرواية موقوفة على السّدي.

وقصة أصحاب الرجيع كما رواها ابن هشام عن ابن إسحاق خلاصتها أنّه قدم على رسول الله ﷺ بعد أحد رهطاً من غُضَلٍ والقارة^(١)، فقالوا: يا رسول الله، إنّا فينا إسلاماً، فأبعث نفرًا من أصحابك يفقهوننا في الدين، ويقرئوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام، فبعث رسول الله ﷺ نفرًا ستّة^(٢) من أصحابه، وهم: مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وخالد بن البكير اللّيثي، وعاصم بن ثابت بن أبي الأفلح، وخبيّ بن عديّ، وزَيْدُ بْنُ الدُّثَنَةِ، وعبد الله بن طارق.

(١) غُضَلٍ والقارة: قبيلة جدّها غُضَلُ بْنُ الْهُونِ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مَدْرَكَةَ مِنْ كِنَانَةَ مِنْ مُضَرَ. وسُمُو

القارة لاجتماعهم والتفافهم، وكانوا يجيدون الرمي بالسهم.

(٢) وروي أنهم عشرة، ستّة من المهاجرين، وأربعة من الأنصار.

وأمر رسول الله ﷺ على القوم مَرْثَدُ بن أبي مَرْثَدُ الغنوي، فخرج مع القوم، حتى إذا كانوا على الرجيع (وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز على صدور الهذأة وهو موضع بين عسفان ومكة) غَدَرُوا بهم، فاستصرخوا عليهم هُذَيْلًا، فَلَمْ يَرُعِ الْقَوْمَ وهم في رحالهم إلا الرجالُ بأيديهم السيوف، قَدْ غَشَوْهم، فأخذوا أسيفهم ليقاتلوهم، فقالوا لهم: إنا والله ما نريد قتلکم، ولكننا نريد أن نُصِيبَ بكم شيئاً من أهل مكة، ولكم عهدُ الله وميثاقه أن لا نقتلكم.

فأما مَرْثَدُ بن أبي مَرْثَدُ، وخالدُ بن الْبَكِير، وعاصمُ بنُ ثابت، فقالوا: والله لا نَقْبَلُ من مُشْرِكٍ عَهْدًا، ولا غَدًّا أَبَدًا.

وقاتل القوم عاصمَ، ومَرْثَدَ، وخالدَ، حتى قُتِلُوا.

وأما زَيْدُ بن الدُّثَنَّة، وخُثَيْبُ بنُ عَدِيٍّ، وعَبْدُ اللَّهِ بنُ طَارِقٍ، فَلَانُوا وَرَقُوا، وَرَغِبُوا في الحياة، فَأَعْطُوا بأيديهم، فَاسَرُّوهم، ثُمَّ خَرَجُوا إِلَى مَكَّةَ لِيَبِيعُوهم بِهَا، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالظَّهْرَانِ انْتَزَعَ عَبْدُ اللَّهِ بن طَارِقٍ يَدَهُ مِنَ الْقِرَانِ، ثُمَّ أَخَذَ سِيفَهُ، وَاسْتَأْخَرَ عَنْهُ الْقَوْمَ، فَرَمَوْهُ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى قَتَلُوهُ، وَقَدِمُوا بِزَيْدٍ وَخُثَيْبٍ مَكَّةَ، فَبَاعُوهُمَا مِنْ قَرِيشٍ بِأَسِيرِينَ مِنْ هَذِيلٍ كَانَا بِمَكَّةَ.

أما زَيْدُ بنُ الدُّثَنَّة فاشتراه صفوانُ بنُ أمية ليقْتله بآبِهِ، وأمر بقتله.

وأما خُثَيْبٌ فاشتراه حُجَيْرُ بن أبي إهاب التميمي، ثُمَّ خَرَجُوا بِهِ إِلَى التَّنْعِيمِ فقتلوه^(١).

(٢)

المفردات اللغوية

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ :

أي: وبعضُ الناسِ فحرف (مِنْ) للتبعية، وظاهرُ في النصِّ أنَّ المراد من هذا

(١) للقصة تفصيلات عند ابن هشام لم أذكرها اختصاراً.

الفريق قسم من المنافقين لأنه يظهر شيئاً، ويبتطن ويعمل خلاف ما يظهر ويدعي بأقواله.

﴿مَنْ يُعْجِبْكَ قَوْلُهُ﴾:

اعْجَبَ الشَّيْءُ يُعْجِبُ، إذا أوجد في النفس العَجَب، والعَجَبُ: انفعال استحسانٍ يعرض للنفس من مثيرٍ لهذا الاستحسان، وكثيراً ما يكون من أمرٍ غير مألوف ولا معتاد.

ويُستعمل العَجَبُ بكثرة في استنكارٍ غير المألوف.

والنصوصُ فيها أحياناً معنى الاستحسان، كقول القائل: أعجبنى هذا الأمر، أي: أرضاني حسنة. وفيها أحياناً معنى الاستنكار أو الإنكار لأنه غير مألوف ولا معتاد. ومن الفهم الدقيق في هذه المادة قول الكواشي^(١): يقال في الاستحسان: أعجبنى كذا، ويقال في الإنكار: عجبت من كذا.

﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾:

أي: يحلف بالله على أن سربرته مطابقة لعلايته، أو يقول: الله يشهد أنني صادق، أو نحو ذلك.

﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾:

الألد لغة: هو شديد الخصومة الخَصِيمُ الجِدْلُ الشحيح الذي لا يميل إلى الحق. وجمعه: ألدّه وولداده.

قال السُّدِّي: ألدّ الخصام، أي: أعوج الخصام.

يُقال: رجل ألدّ بين اللدّ، أي: شديد الخصومة. ويقال: امرأة لداء، وقوم لدّ. واللّد: الخصومة الشديدة.

(١) أحمد بن يوسف الشيباني الموصلي (٥٩٠ - ٦٨٠هـ) من أهل الموصل، فقيه شافعي، وعالم بالتفسير، له عدة كتب مخطوطة، نقل بعض المفسرين عنها.

وقول الله عز وجل: ﴿وَتَنْذِرْ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾: أي: وتنبذ بالقرآن قوماً خُصَمَاءَ عُوجاً عن الحق.

﴿الْخِصَامُ﴾: قال الخليل: هو مصدر بمعنى المخاصمة، كالقتال، والطعان، بمعنى المقاتلة والمطاعة.

وعليه فقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾: أي: شديد الجدل بجانب للحق في المخاصمة، حريص على الغلبة بالباطل.

وقال الزجاج: الْخِصَامُ جمعُ خَصِمٍ، كَصِغَابٍ وَصَغَبٍ، وَضِخَامٍ وَضَخْمٍ. وعلى هذا فمعنى: ﴿أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾، مُخَاصِمُ الْمُخَاصِمِينَ بِشِدَّةٍ.

قال السدي: ﴿أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾: أي: أَعَزُّ الخِصَامِ. وقال قتادة: معناه أنه جِدَلٌ بالباطل.

وأرى أنه لا مانع من اعتبار كلمة «أَلَدُّ» أفعل تفضيل بمعنى: الأشد، والأكثر خصومة بالباطل، لأنه يُقَالُ لَعْنٌ: لَذْتُ فَلَانًا أَلَدُّهُ، أي: جادلته فغلبته. ويقال: أَلَدَّهُ يَلْدُهُ، أي: خَصَّمَهُ، واسم الفاعل من لَدَّ، لَادَ، ومبالغته: لُدُود.

أقول: فيجوز قياساً أن يُشْتَقَّ من «لَدَّ» الثلاثي أفعل تفضيل، فيقال: «أَلَدَّهُ» وعلى هذا فمعنى ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾: وهو أشدُّ الخصومة بالباطل من غيره، وأكثر المخاصمين جدلاً، وأغلبهم لأقربائه بغير حق، وهذا فيما أرى هو الأقرب، ولا حاجة معه إلى أي تأويل.

﴿الْخِصَامُ﴾: يأتي مصدراً لخاصم، يقال: خاصمه مخاصمة وخصاماً، إذا جادله ونازعه، والإضافة على معنى في.

﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾: التولي الإديار والانصراف، والمعنى: إذا أدبر وأنصرف، ويقال لغة: تولى الأمر إذا قام به، وخَمَلَ مُهَمَّةً شُؤْنَهُ، وذو الولاية العامة كالسلطان والحاكم والقاضي يتولى أمور من هم تحت ولايته.

ومن أسماء الله الولي، بمعنى الناصر، وقيل: بمعنى المتولي لأمور العالم والخلائق القائم بها، المتصرف فيها.

فهذا المنافق الذي يُعجبك قوله في الحياة الدنيا، لأنه مُمكنٌ فيها من أن يدعي بلسانه بخلاف ما في قلبه ونفسه، وخلاف ما يعمل في سره، أو ما ينوي أن يعمل في مستقبل أمره، يقول لك في حديثه ما يُعجبك عن إيمانه وصدقه وإخلاصه، أو ما يعجبك من مواعيده وما يعزم أن يعملهُ، فإذا انصرف عن مجلسك وأذير، وكذلك إذا تولى ولايةً ما يستطيع أن يقوم بشؤونها ويتصرف فيما هو تحت سلطانه بها، سعى في الأرض ليُفْسِدَ فيها. أما في الآخرة فلا يستطيع أن يقول غير الحق.

﴿سَكَنَ فِي الْأَرْضِ﴾:

السعي المشي الحثيث بهمة ونشاط واجتهاد، ويطلق على كل عمل وكسب بهمة وخفة ونشاط واجتهاد، وجاء ذكر: ﴿في الأرض﴾ لبيان مُتعلّقِ هِمَّتِهِ وَمَطامِعِهِ، فاهواؤه وشهوته ومطامعه كلها أرضيات، لا عُلَوِيَّ فيها: إنه أرضي دُنياوي.

﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾:

في هذا بيان بعض آثار سعيه، وبالتأمل نذكر أنه يسعى لتحقيق أهوائه وشهوته ومطامعه ولذاته وسائر مطالب نفسه وجسده، فتعرضه عقباتُ حقوق الآخرين ومصالحهم، وواجبات رب العالمين عليه، ومحظورات كثيرات، وهذه العقبات لا تُجتاز إلا بالإفساد في الأرض، وإهلاك الحرث - الحرث كناية عن الثروة النباتية - وإهلاك النسل - النسل كناية عن الثروة الحيوانية التي تكاثر عن طريق التناسل - فيتخذ الوسائل المفضية للإفساد في الأرض، وإهلاك الحرث والنسل، ليصل إلى مطالب نفسه وجسده.

وعلى هذا فمُتعلّق ﴿لِيُفْسِدَ﴾ محذوف، ويمكن تقديره كما يلي: إذا تولى سعى يتنى الوصول إلى مطالبه الأرضية، فتعرضه العقبات، فيتخذ مُختلف الوسائل ليُفْسِدَ في الأرض، ويُهْلِكَ الحرث والنسل، ممّا يهَيِّئُ له في تصوره مطالب نفسه وجسده.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾:

الفساد ضدّ الصلاح، ويكون بإتلاف ما هو نافع، أو ما نفعه غالب راجح، دون الاستفادة بذلك في نفع مكافئ أو راجح.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ﴾:

أَيُّ: اتَّبَعَ عِقَابَ اللَّهِ عَلَى إِفْسَادِكَ فِي الْأَرْضِ، وَإِهْلَاكِ الْحَرْثِ وَالنَّسْلِ، وَعَلَى مَعْصِيَتِكَ لَهُ. وَعِبَارَةٌ ﴿أَتَى اللَّهَ﴾ ضُمِّنَتْ مَعْنَى: خَفَّ اللَّهُ، وَالزَّمَ الْمَوَاطِنَ الَّتِي تَقِيكَ مِنْ عَذَابِهِ، وَهِيَ مَوَاطِنُ طَاعَتِهِ.

﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾:

العِزَّةُ هِيَ الْقُوَّةُ الْغَالِبَةُ، فَهُوَ يَغْتَرُّ بِقُوَّتِهِ الْغَالِبَةِ الَّتِي يَتِمَكَّنُ بِهَا فِي تَصَوُّرِهِ مِنْ تَحْقِيقِ مَطَالِبِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، غَيْرَ مُكْتَرِبٍ لِمَا يَنْجِيهِ مِنْ إِفْسَادٍ فِي الْأَرْضِ وَإِهْلَاكِ لِلْحَرْثِ وَالنَّسْلِ وَمَعْصِيَةِ لِلْبَارِي عَزَّ وَجَلَّ، وَغَيْرِ عَابِسٍ بِالْعَوَاقِبِ الْوَحِيمَةِ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْآثِمِينَ.

ومشاعر هذه العِزَّةِ الرُّعْنَاءُ الْحَمَقَاءُ تَأْخُذُهُ بَعِيداً عَنِ الْمَوَاطِنِ الْوَاقِيَةِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مُكْبَلًا بِسَلَابِلِ الْإِثْمِ.

وَإِذَا أَخَذَتْهُ عِزَّتُهُ الْحَمَقَاءُ مُكْبَلًا بِسَلَابِلِ الْإِثْمِ بَعِيداً عَنِ مَوَاطِنِ تَقْوَى اللَّهِ، أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ الْحَقِيقِيَّةُ الَّتِي هِيَ اللَّهُ فَالَقَتْهُ فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ بِجَرِيرَةِ الْإِثْمِ الَّتِي ارْتَكَبَهَا، وَالتَّعْبِيرُ بِهَذَا نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾.

وبهذا الفهم نَكُونُ قَدْ هَدَيْنَا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ إِلَى فَنٍّ بَدِيعٍ مِنْ فَنُونِ الْإِعْجَازِ الْبَلَاغِيِّ فِي الْقُرْآنِ، وَهُوَ اسْتِخْدَامُ جُمْلَةٍ كَامِلَةٍ بِمَعْنَيْنِ مُتَابِعَيْنِ فِي الْوَاقِعِ، وَمِنْ دُونِ ذَلِكَ كَانَ التَّعْبِيرُ يَجْرِي كَمَا يَلِي: وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّبَعَ اللَّهُ أَخَذَتْهُ عِزَّتُهُ التَّوْهُمِيَّةُ مُكْبَلًا بِجِبَالِ الْإِثْمِ وَسُلَاسِلِهِ، فَأَخَذَتْهُ عِزَّةُ اللَّهِ الْحَقِيقِيَّةُ فَقَذَفَتْهُ فِي جَهَنَّمَ بِجَرِيرَةِ الْإِثْمِ الَّتِي ارْتَكَبَهَا. وَاخْتَصَرَتْ الْجُمْلَةُ الْأُولَى، فَصَارَتْ: أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ، وَاخْتَصَرَتْ الْجُمْلَةُ الثَّانِيَةُ فَكَانَتْ كَذَلِكَ: أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ، فَجَاءَ فِي النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ الْاِكْتِفَاءُ بِإِحْدَى الْجُمْلَتَيْنِ الْمُخْتَصَرَتَيْنِ، مَعَ إِرَادَةِ الدَّلَالَةِ عَلَى مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ كُلُّ مِنَ الْجُمْلَتَيْنِ الْمُطَوَّلَتَيْنِ.

وَذَلَّ عَلَى مَعْنَى الْجُمْلَةِ الْأُولَى ارْتِبَاطُ الْعِبَارَةِ بِمَا قَبْلَهَا، وَهُوَ:

﴿أَتَى اللَّهَ﴾.

وَذَلَّ عَلَى مَعْنَى الْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ ارْتِبَاطُ الْعِبَارَةِ بِمَا بَعْدَهَا، وَهُوَ:

﴿فَحَسَبُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْمِهَادُ﴾.

وشبه بهذا خطابُ الله للكافرين بعد أحداث موقعة بدر، وكانوا قد طلبوا الفتح من الله على المسلمين، وذلك في قوله عز وجل في سورة (الأنفال / ٨ مصحف / ٨٨ نزول):

﴿إِنْ تَسْتَفِئُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ شَيْعَاوُكُمْ كَثْرَتٌ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ .

أي: إن تطلبوا الفتح لكم أي النصر على المسلمين، فقد جاءكم الفتح وهو النصر للمسلمين عليكم، فيحذف المتعلقة صحت العبارة للضدين.

﴿فَحَسِبُوا جَهَنَّمَ ۝﴾ :

أي: فكافيه جهنم. حُسِبَ هنا مبتدأ بمعنى كافٍ وخبره جهنم. والضمير في فَحَسِبَهُ مضاف إليه، والفاء فيها معنى الترتيب والتفريع على ما سبق.

﴿جهنم﴾: اسم علم من أسماء النار التي أعدّها الله ليعذب بها الكافرين والعصاة، وهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث.

ويقال للقرع البعيد جهنم وجهنم، وبشر جهنم وجهنم بكسر الجيم والهاء وتشديد النون، أي: بعيدة القرع.

وبعض اللغويين يرون لفظ جهنم أعجمياً، فقول: فارسيّ مُعَرَّب، وقيل: عبري، وأصله بالعبرانية كِهَنَام، وعلى هذا فالمانع له من الصرف العلمية والعجمة.

﴿وَلَيْسَ الْمَهَادُ ۝﴾ :

اللام هي لام الابتداء، وتفيد توكيد مضمون الجملة: بئس: فعل جامد لإنشاء الذم، وهو متقول للدلالة على معنى الذم من بئس إذا أصاب بؤساً.

﴿المهاد﴾: المكان الممهّد الموطأ، وأُطلِقَ على مكان المعذبين في جهنم مهاد على سبيل التهكم، لأنّ الشيء الممهّد المفروش لهم في النار هو أماكن التعذيب الشديد، وهذا ليس من التمهيد ولا التوطئة، بل هو ضد ذلك تماماً.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۝﴾ :

الشراء والبيع سواء، فكلاهما تبادل، أي: وبغض الناس وهم أهل الإيمان والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، يبيع نفسه في الحياة الدنيا مجاهداً في سبيل الله ابتغاء مرضاته، ليَكُونَ عوض ذلك سعادة نفسه يوم الدين في الخلود بجنات النعيم.

﴿وَأَلَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾:

﴿رؤوف﴾: مأخوذ من الرأفة، وهي شدة الرحمة، فالمراد من الرؤوف أنه سبحانه هو المنعم بجلال النعم ودقائقها. والرأفة كالرحمة من صفات الله عز وجل.

وفي الإتيان باسم الله الرؤوف هنا إشعاراً للصف الأول المتألف المغتر بعزته بأن باب رحمة الله ما زال مفتوحاً له يستقبله إذا تاب إلى ربه وأتاب، وهو في حياة الابتلاء في الحياة الدنيا. ففي ذكره دعوة المأخوذة للتوبة والإصلاح، فالله تعالى رؤوف بالعباد، كل العباد، ضمن القواعد العامة للابتلاء والتوبة والجزاء.

وفيه أيضاً إلماع للمجاهدين في سبيل الله بصدق ضمن ما أذن لهم، بأن الله سيكون رؤوفاً بهم، فينصرهم، ويؤيدهم، إذا التزموا شريعته ومنهاجه، وسنته التكوينية والبيانية.

* * *

(٣)

مفاهيم مأثورة حول النص

(١) روى الطبري بسنده أن علياً رضي الله عنه قال بشأن الفريقين الذين ذكرهما الله في هذا النص: اقتلا ورب الكعبة.

(٢) وروى الطبري عن ابن زيد قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا صلى السجدة (هي صلاة التطوع - ولعلها هنا سنة صلاة الظهر) وفرغ دخل مبرداً له (المبرد موقف الإبل ومحبسها) فأرسل إلى فتیان قد قرؤوا القرآن، منهم ابن عباس، وابن أخي عيينة.

قال: فيأتون فيقرؤون القرآن ويتدارسون، فإذا كانت القائلة (أي: وقت نوم القيلولة) انصرف.

قال: فمروا بهذه الآية:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ . . .﴾

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

فقال ابن عباس لبعض من كان إلى جنبه: اقتل الرجلان.

فسمع عمر ما قال. فقال: وأي شيء قلت؟

قال: لا شيء يا أمير المؤمنين.

قال: ماذا قلت؟ اقتل الرجلان؟

قال: فلما رأى ذلك ابن عباس قال: أرى ههنا من إذا أُمِرَ بتقوى الله أخذته العزة بالإثم. وأرى من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله، يقوم هذا فيأمر بتقوى الله، فإذا لم يقبل وأخذته العزة بالإثم، قال هذا: وأنا اشتري نفسي، فقاتله، فاقتل الرجلان.

فقال عمر: لله تبارك يا ابن عباس. (أي: لله قديمك وأصلك - التلاد في اللغة: المال القديم أورده عمر رضي الله عنه على التشبيه).

(٣) معظم السلف فهموا أن هذا النص نزل في المنافقين، وفيمن يجاهددهم بلسانه، ثم بسلحه إن استطاع.

* * *

(٤)

البيان التحليلي العام

في هذا النص بيان لطائفة من صفات صنف من المنافقين، وهو صنف ذو مكانة في قومه، وذو بيانٍ ولسنٍ وذكاء، تعجبُ السامعين أقواله في أمور الحياة الدنيا، ويستطيع التصنع والتظاهر بغير ما يبطن، ويستطيع الواحد منهم أن يستولي في المجلس على جلسائه بزخرف القول، والكلام المجوّد المنمّق، الذي يوهم أنه صدق، وهو كذابٌ يخالف باطنه ظاهره، وتخالف حقيقة أمره ما يدّعيه بلسانه، ويلجأ لتغطية كذبه إلى تأكيد أقواله بالحلف بالله. وبإشهاد الله على صدق إيمانه، أو صدق

حبّه وولائه، أو صدق أقواله، أو نحو ذلك، وهو في حقيقة أمره كذاب مخادع منافق. ثم إذا تولى مدبراً منصرفاً، وانطلق إلى شؤونه وأعماله كذّبت أعماله أقواله، فكشفت أعماله عمّا في خيئة نفسه وقلبه.

إنّه يسعى بهمة ونشاط واجتهاد في سُبُل الأرض المختلفة، ليحقق ما يهوى ويشتهي وما يَطْلُبُ لنفسه أو جسده، من مطالب الحياة الدنيا، كالعمال، والنساء، وأنواع متاع الحياة الأخرى، وكالجاه والسلطان والعلو في الأرض، فإذا اعترضته عقبات في سبيله لا تُجَنّز إلاّ بالإفساد في الأرض، بتضليل الناس، وضدّهم عن صراط الله المستقيم، ودينه الحق القويم، ونشر الفاحشة فيهم، ودفعهم إلى ارتكاب المهلكات الموبقات، فعل ذلك بجرأة إبليس اللعين، غير مكترث لعاقبة، ولا متحسّس بعاطفة نبيلة. وإذا اعترضته عقبات في سبيله لا تُجَنّز إلاّ بإهلاك الثروات من الزراعة، والثروات من الأنسال الحيوانية، أو بإهلاك الناس بقتل الرجال وذبح الذراري وتعقيم النساء فعل ذلك طاغياً باغياً مُجرماً، غير مكترث لعاقبة وخيمة وعذاب من الله شديد، ولا متحسّس بعاطفة إنسانية نبيلة كريمة.

إنّ هذا الصنف من الناس يوجد في مختلف مستوياتهم وطبقاتهم، فمنهم الطغاة البغاة المتجبرون في الأرض، الذين يحاولون فرض سلطانهم على الشعوب بالقوّة، ويقمع كلّ من يتحرّك مطالباً بالحرية ورفع الظلم، والتخلّص من الاستبداد. ويوجد في أعوانهم ونصرائهم ومزيدهم وجنودهم.

ويوجد هذا الصنف في طبقة طالبي جمع الثروات والاستكثار من الأموال على اختلافها، واتخاذ أعظم القصور، وأفخم المراكب، والاستمتاع بالوان المطاعم والمشارب وغير ذلك من متاع الحياة الدنيا.

ويوجد في سائر طبقات الناس على مقاديرها، وإمكانات الإفساد فيها وإهلاك الحرث والنسل، كلّ على قدر مستواه، وفي حدود إمكانات تحرّكه في المجتمع البشري، وفي حدود ما أوتي من ذكاء وحيلة، وقدرة على مخادعة الناس، وخل ما يريد الوصول إليه بالحيلة أو بالقوّة.

وهذا الصنف من أهل النفاق من الناس، حين يشعر بأنّه قد غدا ذا قوّة وسلطان في الأرض، امتلاً غروراً بنفسه، وانتفخ كبراً، وصار يابى أن تُوجّه له أيّة ملاحظة،

وَأَيُّ نَصِيحَةٍ تَحَذَّرُهُ مَغَبَّةُ طُغْيَانِهِ وَبَغْيِهِ وَإِفْسَادِهِ فِي الْأَرْضِ.

فَإِذَا قَالَ لَهُ نَاصِحٌ مُؤْمِنٌ ذُو جَرَأَةٍ أَدْبِيَّةٍ: اتَّقِ اللَّهَ، وَكُفَّ عَنِ الطُّغْيَانِ وَالْبَغْيِ،
وَالْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَاهْلَاكِ الْحَرْثِ وَالنَّسْلِ، أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ لِي: الْقُوَّةُ الْغَالِبَةُ الَّتِي
يَشْعُرُ بِأَنَّهُ قَدْ اسْتَغْنَى بِهَا، وَمَلَكَ كُلَّ أَمْرِهِ، وَالْمَقْتَرَنَةُ بِرَغْبَةِ الْإِثْمِ، فَاسْتَحْوَذَتْ عَلَى كُلِّ
تَفْكِيرِهِ، وَكُلِّ مَشَاعِرِهِ، وَأَصَابَتْ سَائِرَ جَوَانِبِ الْخَيْرِ فِي فِطْرَتِهِ بِالْشَّلَلِ، فَانْدَفَعَ مَعَ
أَهْوَاؤِهِ وَشَهْوَاتِهِ كَالْأَعْمَى الْأَصَمِّ الْأَبْكَمِ.

وَمِنْ اسْتَحْوَذَتْ عَلَيْهِ مَشَاعِرُ الاسْتِغْنَاءِ بِالْقُوَّةِ الْمَقْرُونَةِ بِابْتِغَاءِ الْإِثْمِ، لَمْ يَكُنْ مِنْهُ
إِلَّا الْبَغْيِيُّ وَالطُّغْيَانِيُّ، وَالظُّلْمُ وَالْعُدْوَانُ، فَرُبَّمَا قَتَلَ مَنْ قَالَ لَهُ: اتَّقِ اللَّهَ وَرُبَّمَا زَادَ فِي
طُغْيَانِهِ وَبَغْيِهِ عَلَى النَّاسِ، وَرُبَّمَا أَمْعَنَ فِي الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ وَمُحَارَبَةِ دِينِ اللَّهِ
وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ، كَمَا هُوَ مُشَاهِدٌ فِي أَحْوَالِ الطُّغَاةِ الْبَغَاةِ، الَّذِينَ يَكُونُونَ فِي أَوَائِلِ أُمُورِهِمْ
مُعْجِبِينَ بِأَقْوَالِهِمْ، وَيُشْهَدُونَ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ خَيْرٍ وَرَغْبَةٍ فِي الْإِصْلَاحِ وَالنَّفْعِ
الْعَامِّ.

لَكِنَّهُمْ يَنْصَرِفُونَ وَيَعْطُونَ أَدْبَارَهُمْ لِكُلِّ أَقْوَالِهِمُ الْمُعْجِبَةِ الْجَمِيلَةِ الْحُلُوةِ،
فَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَيُهْلِكُونَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ لِتَحْقِيقِ مَارَبِهِمْ وَمُطَامَعَتِهِمْ
وَأَوْطَارِهِمْ.

فَإِذَا كَانَ لَهُمْ سُلْطَانٌ فِي الْأَرْضِ اسْتَكْبَرُوا وَطَغَوْا وَنَغَوْا، وَإِذَا نَضَحَ أَخَذَهُمْ دَاعٍ
مِنْ دُعَاةِ الْحَقِّ بِتَقْوَى اللَّهِ اسْتَحْوَذَتْ عَلَيْهِ مَشَاعِرُ اعْتِزَالِهِ بِقُوَّتِهِ، وَاسْتِغْنَائِهِ بِمَا يَمْلِكُ
التَّصَرُّفَ فِيهِ، فَطَغَى وَأَخَذَتْهُ عِزَّتُهُ مَكْبَلًا بِسَلْسَلِ الْإِثْمِ الْكَبِيرِ بَعِيداً عَنْ مَوَاطِنِ
تَقْوَى اللَّهِ، إِلَى أَوْدِيَةِ الْجَرَائِمِ الْعَظِيمَةِ، وَأَنْوَاعِ الْبَغْيِ وَالطُّغْيَانِ، حَتَّى نَقَبَضَ عَلَيْهِ يَدُ
الْعِزَّةِ الْحَقِيقِيَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ فَتَأَخَّذَهُ بِأَنَامِهِ، أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ، فَتَهْلِكُهُ، ثُمَّ تَدْفَعُ بِهِ إِلَى
مَصِيرِهِ فِي جَهَنَّمَ، حَيْثُ يَلْقَى فِيهَا ذُلًّا وَهَوَانًا وَضَغَارًا، وَعَذَابًا أَلِيمًا بِمَا يَنْمُسُهُ مِنْ سَفَرٍ.

وَيَسْلُطُ هَذَا الصَّنْفُ الطَّاغِي، وَهُوَ فِي أَوْجِ سُلْطَانِهِ وَطُغْيَانِهِ عَلَى الدُّعَاةِ إِلَى
سَبِيلِ رَبِّهِمْ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، فَيَنْكُلُ بِهِمْ، قَتْلًا وَنَفْيًا وَتَشْرِيدًا، وَحَرْبًا
بِالْأَقْوَابِ وَسَائِرِ ضَرُورِيَّاتِ الْحَيَاةِ.

فَلَا سَبِيلَ حِينَئِذٍ لِلْخُلَاصِ إِلَّا بِإِعْدَادِ الْعِدَّةِ الْمَكَافِئَةِ لِلثَّوْرَةِ عَلَيْهِ، وَمَقَاتِلَتِهِ،

ومُجَاهِدَتِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لِإِسْقَاطِ تَسْلُطِهِ، وَتَخْلِيصِ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَنْ بَغَيْهِ وَطَغْيَانَهُ،
دُونَ تَوَرُّطِ بِأَعْمَالٍ غَيْرِ مَكَافَأَةٍ فِي سُنَنِ اللَّهِ السَّيِّئَةِ، لِثَلَا نَتَهِيَ بِالْخِيَةِ وَالْفُشْلِ،
فَتُعْطَى عَكْسُ الْأَثَرِ الْمَرْجُو، وَتَزِيدُ الطَّاعِي فِي طَغْيَانِهِ وَبَغْيِهِ وَتَسْلُطِهِ وَعُدْوَانِهِ.

وفي الإشارة إلى هذه الوظيفة من وظائف المؤمنين قال الله عز وجل في النص:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٢٠٧).

فهو ناصر المجاهدين في سبيله ما التزموا طاعته، وقابل توبة التائبين من أهل
الطغيان والبغي إذا صدقوا وآمنوا وأصلحوا.

وقد أدرك المراد من ذكر هذا الفريق المجاهد في سبيل الله عقب ذكر ذلك الصف
المنافق الطاغوي الباغي: علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس، فقال كل منهما:
اقتلا ورب الكعبة.

* * *

(٥)

مع النص في التحليل والتدبر

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

أي: وبعض الناس صنف يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ الْإِيمَانِي الْإِسْلَامِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا،
التي يجري حكم الناس فيها على الظاهر، ويعجبك قَوْلُهُ فِي أُمُورِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وشؤونها، إذ هو فيها ذكي المعى مُبِين، يقدم آراء وأفكاراً تُرضي وتثير الإعجاب
بما فيها من حكمة وعلم وفهم سديد للأمور، في السلم والحرب، وتصريف أمور
المال والمجتمع.

﴿وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾:

أي: وَيُؤَكِّدُ دَعَاوَاهُ الْفَرِيضَةَ بِالْإِيمَانِ الْمَغْلُظَةِ، ويقول: وَاللَّهُ عَلَى مَا أَقُولُ
شَهِيدٌ، إذ يزعم بأقواله أَنَّهُ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ نَقِيٌّ يَتَّبِعِي الْخَيْرَ، وَنُصْرَةُ الْمَجْتَمَعِ، أَوْ نُصْرَةُ
الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَيُرِيدُ الْإِصْلَاحَ وَالنَّفْعَ الْعَامَ، وَيُرِيدُ، وَيُرِيدُ، مِمَّا بَسُرَ النَّاسَ،
وَيُقَدِّمُ كَثِيرًا مِنْ زُخْرَفِ الْقَوْلِ، لِيُنْقِذَ بِهِ النَّاسَ، وَيُعْطِمُوا لَهُ، وَيُسَلِّمُوا مَقَالِيدَ أُمُورِهِمْ.

﴿وَهُوَ الَّذِي الْخَصَّاصُ﴾ :

أي: وهو أشدّ المخاصمين خصومة ومجادلةً بالباطل، فمن صفاته أنه قوي المجادلة، قويُّ الحجّة غلابٌ لمن يخاصمه، يجادل بالباطل، فيفالط، ويزور، ويَزخرف الأقوال، ويُنقّ بياناته وأدلته، ويُظهِرُ ويُنطوي، ويكذب ويكتم، ليُهَيِّجَ على الناس، ويُقنعهم بآرائه، وأفكاره، التي له منها مصالح خاصّة، ويلبسها زوراً وتزييفاً لثواب ابتغاء الخير والمصلحة العامّة، أو مرضاة الله عز وجلّ:

﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ .

أي: ومن صفاته أنه بغد أن يخدع الناس يزخرف أقواله وآرائه، ويُقنعهم بسلامة نيّاته وما يتنبّئ لهم من خير ونفع وصلاح وإصلاح أو مرضاة لله عز وجلّ، ينصرف عنهم فيستغنى سعيّاً حيثما بهمة ونشاط لتحقيق أهدافه الخاصّة في المال والشهوات والأهواء والسلطان والاستعلاء في الأرض بغير حقّ، وذلك لا يتمّ له إلا بأنّ يُفسد في الأرض بتضليل الناس وصدّهم عن سبيل الحقّ، وطاعة الله عز وجلّ، ودفعهم إلى الموبقات المهلكات من كلّ خلق أو سلوك أو مذهب فكري أو عملي.

ولكن لا بدّ أن يعترض سبيله الضالّة مناصرون للحقّ، كاشفون لزيف تضيلائه، فيراهم عقبة في طريق تحقيق أهوائه وشهواته ومطامعه، فيدفع أنصاره وأعوانه لمقارعة أنصار الحقّ، وقمعهم، ومقاومة دعوتهم فلا يتمّ له ذلك إلا بأنّ يهلك الحرث والنسل بحروب ظالمة آثمة طاغية باغية، أو بأشكال من الفتن يحصل بها إهلاك للحرث والنسل.

فإذا صمد أنصار الحقّ، وكانوا قوّة قادرة على مقاومة قوى الطغيان، وأتبعوا منهج الله في الدعوة إليه، والجهاد في سبيله ونصرة دينه حقّاً وصدقاً، نصرهم الله، لأنّه سبحانه لا يُحبُّ الفساد، وبما أنّه لا يحبُّ الفساد فإنّه يُمدّد عباده المجاهدين في سبيله المؤمنين الصادقين، بالنصر، ضمن سننه الثابتة، المبيّنة في دلالات كتابه المجيد، وسنّة رسوله الأمين، والتي حقّقتها التجارب.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ وَلِئْسَ
 بِالْمِهَادِ ۝٢٠٤﴾ :

أي: وقد يتغلب هذا الصنف الطاغوي الباغي لقلّة أنصار الحق وضعفهم
 وتفريقهم، أولأنهم لم يحققوا في أنفسهم الشروط المطلوبة لنصر الله لهم بحسب سُنَّته
 الثابتة.

عندئذٍ تقتصر أعمال الدعاة إلى الحق على مستوى الجراءة الأدبيّة، ومقابلة
 الطاغوي بالنصح، فإذا قال له مؤمن ناصح: اتق الله، أخذته العزّة - أي قوّته الغالبة -
 المقترنة بابتغاء الإثم، فسارت به في طريق الكبر والطفیان والفجور، بعيداً عن مواطن
 طاعة الله ورحمته وغفرانه وعفوه، فرفض دعوة الناصح الصادق الأمين، وربما سطا
 عليه وبغى، وربما زاد فساداً في الأرض وطفیاناً، وإهلاكاً للحرث والنسل. ويظلُّ
 هكذا حتّى تأخذه عزّة الله وقدرته بجرائر آثامه، فتهلكه، ثمّ تقذف به في جهنم.

ولكن هل من سبيل لأنصار الحق ودعائه، قبل أن يأخذه الله بحكمته أخذ عزيز
 مقتدر؟

الحلّ: تركه في الحالة الراهنة لله عز وجل، فالله هو الذي يتولّى الأمر بحسب
 حكمته في عباده في الحياة الدنيا، أمّا في الآخرة، فحسب هذا الطاغوي الباغي جهنّم
 وبئس المهاد.

أمّا على المدى البعيد فعلى المؤمنين الصادقين أن يُعدّوا العُدّة المكافئة لنصرة
 الحق، وإزهاق الباطل، وإسقاط أغلبه من ذوي السلطان، وقمّع جنودهم وأنصارهم،
 وتبديد قواهم.

وعندئذٍ يظهر فريق مجاهد في سبيل الله باللسان والقوة فيبيعون أنفسهم لله
 مجاهدين، ابتغاء مرضات الله.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ
 بِالْعَبَادِ ۝٢٠٥﴾ :

في هذه الآية إيماءٌ ضمنيّ إلى ضرورة إعداد العُدّة الكافية الوافية للقيام على
 الطاغوي المتسلط.

فإذا استكملوا الشروط اللازمة لتحقيق النصر، وإسقاط الظلم، وإقامة العدل، وقاموا متوكلين على الله ذي العزة الحقيقية الدائمة، نظر الله إليهم بعين الرأفة، فأمدّهم بتأييده ونصره، وخذل الطاغية وأنصاره وأعدائه، وجعل لأوليائه التمكين في الأرض، واستخلفهم استخلاقاً محفوفاً بالعناية والتأييد، كما استخلف الذين من قبلهم.



النص السادس

من سورة (الأنفال / ٨ مصحف / ٨٨ نزول) ثاني سورة مدنية

الآيات من (٤٩ - ٥٥)

حول قول المنافقين بشأن البدرين من المؤمنين

إبان غزوة بدر : غرّ هؤلاء دينهم

نزلت سورة (الأنفال) بعد غزوة بدر الكبرى، وقد اشتملت على تعقيبات وبيانات وأحكام وإرشادات وتوجيهات ومُستخلصات، حول أحداث هذه الغزوة.

وكان لا بُدَّ أن تتعرّض هذه السورة لبيان ما كان من المنافقين، ومن الذين في قلوبهم مرض دون النفاق، ومن التعقيب عليه بما يُعمّق المفهومات الدينيّة، ويردُّ الشُّبهات.

إنَّ المنافقين، والذين في قلوبهم مرض دون النفاق، كالشُّك، لم يخرج منهم أحد مع الرسول ﷺ لهذه الغزوة، وذلك لأنَّ الرسول ﷺ ندب المسلمين ندباً لاعتراض قافلة قريش، ومصادرتها، بتخيير دون إلزام، وما كان ظَنُّهم أنَّهم سيَلْقَوْنَ حرباً مع جيش خرج للقتال من مكة، فخرج من خَفٍّ للأمر ونشط له.

والمنافقون والذين في قلوبهم مرض لا يخفّون ولا ينشطون ما دام الأمر ندباً لا إلزام فيه.

يبد أن الأنباء كانت تصل تباعاً إلى المدينة وإلى مكة وإلى غيرهما، على السنة الغادين والرائحين.

وقد خرجت قريش بجيش قوامه قرابة ألف مقاتل لمنع المسلمين من مصادرة قافلتهن، واتَّجهوا شطر ماء بدر.

وأنحرف قائد القافلة أبو سفيان بن حرب عن الطريق الذي يترصده المسلمون،
فنجأ بها.

وتحوّل الأمر من مصادرة القافلة إلى مواجهة جيش مقاتل مختالٍ ببعده وعُدته،
فقد كان المسلمون قلةً في عددهم وعُدّتهم، وكان المشركون كثرةً بالنسبة إلى
المسلمين، في عددهم وعُدّتهم.

ولمّا كانت الأنباء تسري، وتصل تباعاً إلى المدينة وإلى مكة، فلا بُدَّ أن يكون
للناس على اختلاف عقائدهم وولاءاتهم مواقف مختلفة.

✽ فالمؤمنون المسلمون يدعون الله ويتضرعون إليه أن ينصر الرسول والذين معه
في مواجهة العدو عند ماء بدر.

✽ والمشركون مطمئنون إلى قوّتهم، وتفوّقهم في عددهم وعُدّتهم.

✽ أمّا المنافقون، والذين في قلوبهم مرض، فقد أبان الله عز وجل في سورة
(الأنفال) موقفهم الذي دلّت عليه عبارتهم التالية:

﴿عَرَّهٖٓؤُلَآءِ يَدِيْهِمْ...﴾

فقال الله عز وجل:

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ عَرَّهٗٓؤُلَآءِ يَدِيْهِمْ وَمَنِ اتَّوَكَّلَ
عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهََ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ
يَضْرِبُونَ وُجُوْهُهُمْ وَأَذْبَحُورَهُمْ وَذُقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ ١٢﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَكُمْ
وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَالَمِينَ ١٣﴾ كَذَابُ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ
فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ١٤﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً
أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٥﴾ كَذَابُ آلِ فِرْعَوْنَ
وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا
ظَالِمِينَ ١٦﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٧﴾

(١)

الفكرة العامة للنص

قال المنافقون، وقال الذين في قلوبهم مرضٌ دون النفاق، وهو مرض الشك والتردد مع أنهم منتسبون إلى الإسلام لكن لما يَدْخُلُ الإيمانُ في قلوبهم: غَرُّ هؤلاء الذين خرجوا لاعتراض قافلة قريش ومصادرتها، غَرَّهُم دينُهُم، فتورطوا وألقوا أنفسهم بأيديهم إلى التهلكة، ودفعوا بأنفسهم إلى مواجهة جيشٍ قويٍّ لا يُقِلُّ لهم به، وليست قوتهم مكافئة للصمود له، فضلاً عن الانتصار عليه.

فأبان الله عزَّ وجلَّ أنَّ مقاتلتهم باطلةٌ ساقطة، ببرهان الواقع، ولا أدلَّ على الحقيقة من برهان الواقع.

فالرُّسُولُ والذين خرجوا معه إلى بدر قد انتصروا مَن قَلَّتْهم عدداً وعُدَّةً، ومَن كثرة عدوُّهم عدداً وعُدَّةً وتمويناً، ومَن اعتزازهم وكبريائهم وخيلائهم وجبروتهم.

وقد أمدَّ الله القلَّةَ المؤمنةَ بجنودٍ من الملائكة يَضْرِبُونَ وجوه الكافرين وأذبارهم، فيذوقون العذاب على أيديهم، حتَّى يُوقِعُوهم ضَرْعَى قَتْلَى، فَيَتَوَفَّوهم، ويقال لهم: دُقْتُمْ في المعركة عَذَابَ الضَرْبِ والقَتْلِ، ودُوقُوا يَوْمَ الَّذِينَ عَذَابَ الْحَرِيقِ، في جهنَّمَ وبئسَ المصير، ذلك بسبب ما قَدَّمْتُمُ أيديكم الكاسيةَ من أعمالٍ ظالمةٍ آثمة، عوقبتُم عليها بالعدل والقسطاس المستقيم، وما ظلمكم ربُّكم مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، فالله عزَّ وجلَّ لا يظلم أحداً شيئاً، وليس هو بظلامٍ للعبيد في أيِّ شيءٍ يتعلَّقُ بهم، بل هم الظالمون لأنفسهم في الحقيقة، لأنهم جَنَوْا على أنفسهم بمعاندة الحقِّ، ومقاومته، وبارتكاب الظلم والبغي والعدوان ومعصية الرسول.

وهذا الذي جرى للمشركين في معركة بدرٍ إنما هو تطبيقٌ لِسُنَّةٍ من سُنَنِ اللَّهِ الدائمة التي لا تبدل لها ولا تحويل.

فَشَأْنُ اللَّهِ في عباده كذلك، إِنَّ مظهر سُنَّتِهِ الَّتِي جَرَتْ لمشركي قريشٍ على قَدْرِ حاجة العقوبة يومئذٍ، وعلى قدر ما تقضي به الحكمة، يُشَبِّهُ مظهر سُنَّتِهِ الَّتِي جَرَتْ فيما مضى من القرون الأولى لآلِ فرعون والَّذِينَ كفروا بآياتِ اللَّهِ البيانية بسبب كفرهم

بها، فآخذهم الله بذنوبهم بالوانٍ من العذاب الجزئي غير الشامل، والذي كان على قدر حاجة العقوبة التأديبية، وعلى قدر ما تقضي به الحكمة.

وما ينتظرهم من إهلاك شامل عام إذا وصلوا إلى مرحلة البأس من صلاحهم أو صلاح بعضٍ منهم تيساعاً يشبه مظهر سُتْبِه التي جرت لهؤلاء المهلكين الأولين أنفسهم بسبب تكذيبهم بآيات الله التكوينية الجزائية العقابية وغيرها من الخوارق والمعجزات، فاستحقوا الإهلاك الشامل بسبب ذنوبهم، وعدم اتعاطهم بالوان العقاب الجزئي العمائل لما حصل للمشركون في بدر.

أي: فإذا لم يتعظ المشركون بما جرى لهم في بدر من عقاب جزئي تأديبي غير شامل، وكذبوا بهذه الآيات الجزائية، واستمروا على مقاومتهم لرسالة الرسول، فإن الله يُهلكهم إهلاكاً عاماً شاملاً، كما أهلك عاداً بالريح الصرصر العاتية، وكما أهلك ثمود بالصيحة، وكما أهلك آل فرعون بالإغراق في البحر.

ومع أن الله عز وجل لم يخلق عباده ليهلكهم، بل ليلوهم، لكنهم إذا وصلوا إلى حالة صاروا فيها شراً حقيقياً مدمراً حتى لا تُرجى منهم توبة ولا استغفار، ولا صلاح، كان إهلاكهم في الحياة الدنيا إهلاكاً شاملاً هو الحكمة، وعندئذ تتحقق فيهم سنة الله في الإهلاك الشامل، كشأن الله عز وجل في إهلاك أمة من ذواب الأرض يكثر شرها وفسادها، وتدميرها، وتخريبها، وتسلطها على الحرث والنسل، فيسلط عليها ما يبيدها، حتى يرجع ميزان الكائنات إلى حالة الاعتدال المتوازن، الذي لا يطفى فيه نوع على نوع، ولا جنس على جنس، مما قضى الله ببقائه، ولم يأت أجل إنهاء أمة.

لكن شر الذواب التي تستحق هذا الإهلاك العام الشامل هم الكافرون من الناس، الذين وصلوا إلى حالة من العناد والإصرار والظلم والطغيان ميثوس من صلاحها عن طريق إراداتهم بتوبيتهم واستغفارهم وإنابتهم إلى ربهم بالإيمان الذي يُرجى معه إصلاح العمل، وترك الظلم والطغيان والبني في الأرض بعد ذلك.

وإذا كان هؤلاء هم شر الذواب فهم أحق بأن يسلط الله عليهم ما يكون به هلاكهم الشامل.

هذه هي سُنَّةُ الله، فاعتبروا يا أولي الألباب.

(٢)

المفردات اللغوية

﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ :

هُم فئة غير المنافقين بدليل عطفهم على المنافقين، مع أَنَّ المنافقين في قلوبهم مرض، لكنَّ المرض الذي في قلوب المنافقين مرض خُلِقَ شَنِيعٌ أوصلهم إلى ركوب مركب النفاق جازمين بأن يكون ظاهرهم على خلاف باطنهم.

أما هذه الفئة فلم تنافق ولكنَّ منهم من كان لَدَيْهِمْ ميل إلى الإسلام، وقد انْتَمَوْا إلى الإسلام صادقين، غير أنَّ الإيمان لَمَّا يدخل في قلوبهم، فمرضهم إذا هو من قبيل مرض الشكِّ في صحَّة القاعدة الإيمانية، ومرض عوارض الشبهات التي تُورث القلق والحيرة، مع الرغبة في السلامة والحرص على النجاة من عذاب الله، والرغبة في الحصول على الأجر الموعود به لاهل الإيمان والإسلام، إذا كان الأمر حقاً.

وقد جاء ذكر هذه الفئة في عدَّة نصوص قرآنية منها ما في الآية (١٢) من سورة (الأحزاب / ٣٣) والآية (٦٠) منها والآية (٥٣) من سورة (الحج / ٢٢).

وجاء ذكرها ضمن عموم الذين في قلوبهم مرض، وهو المرض من المستوى الشديد، والمستوى الذي من دونه، كما في الآية (٥٢) من سورة (المائدة / ٥).

﴿غَرَّهُمْ هَوْلًا دِينَهُمْ﴾ :

يقال لغة: غَرَّهُ يَغْرِهُ غَرًّا وَغُرُورًا وَغِرَّةً، فهو مغرورٌ ومغريٌّ، أي: خدعه وأطمعه بالباطل.

والمعنى: خدع هؤلاء الذين خرجوا إلى بدر من المسلمين دينهم، وأطمعهم بالباطل، فاندفعوا إلى تهلكتهم.

﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ :

الادبار جمع الذُّبُر، وهو في اللغة الظهر، والاشتُّ (وهو العَجْزُ، وقَدْ يُرَادُ به حَلْقَةُ الذُّبُرِ).

وعن مجاهد، وسعيد بن جبیر أنَّ المراد من أدبارهم استاهمهم، ولكنَّ الله كريمٌ يَنْكِي.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾:

ظَلَامٌ: صيغة مبالغة، والأصل أنَّ نفي صيغة المبالغة لا يُفيد نفي الوصف من دون مبالغة، فحصل في هذا إشكال عند بعض المتدبرين لكتاب الله.

وأقول: لقد جاء في النصوص القرآنية نفي الظلم عن الله ولو كان بمشقال ذرَّة، وجاء فيها أنَّ الله لا يظلم الناس شيئاً، ولكنَّ الناس أنفسهم يظلمون، فنفي كُلِّ الظلم عن الله عزَّ وجلَّ منصوِّصٌ عليه حتماً.

بقي أن نفهم السرَّ في استعمال صيغة «ظلام» هنا، وفي أربعة مواضع أخرى من القرآن: (١٨٢) آل عمران/ ٣ - (١٠) الحج/ ٢٢ - (٤٦) فصلت/ ٤١ - (٢٩) ق/ ٥٠ - (٣٣) الإسراء/ ١٧.

والجوابُ الأحسنُ هو أنَّ مَنْ يظلم مَجْمُوعَةً من النَّاسِ بأذني ظلمٍ لكلِّ واحدٍ منهم أو لعَدَدٍ كبيرٍ منهم، فَهُوَ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُقَالَ بِشَأْنِهِ «ظلام». وللدَّلالة على هذه الفكرة، وتحذير كلِّ ذي سلطان، وكُلِّ مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يظلم عدداً كبيراً من النَّاسِ، بسلطانه أو بحيلته ووسائل مكرهه، من أنَّه إذا فعل ذلك كان ظلاماً، واستحقَّ بعمله عُقُوبَةُ الظَّالِمِينَ، لا مجرد عقوبة الظالمين، استخدم القرآن كلمة [ظلام] مضافة إلى الجمع.

فجاء الأداء التعبيري مطابقاً في دلالة للواقع بالتكافؤ، فهو سبحانه لا يظلم أحداً شيئاً، وليس بظلامٍ للعبيد الذين هم جمع، وسوى سبحانه في هذا الموضوع نفسه بخلقه، وفي هذا غاية العدل، وغاية الروعة في الأداء البياني.

﴿كَذَّابٌ أَلْ فِرْعَوْنُ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾:

الدُّبُّ: العادة والشأن. والمراد: كشأن الله وعادته الثابتة المعروفة عنه في عقوباته للأمم السابقة.

أي: كَسَّيْتِهِ فِيهِمْ، وهي سُنَّةٌ متكررةٌ في كُلِّ الأمم.

والمعنى: عاقب الله المشركين في غزوة بدر بأيدي المؤمنين، وبجنود من الملائكة مُسَوِّمين، على مجرى سته التي سبقت أمثالها في آل فرعون والذين من قبلهم حتى قوم نوح عليه السلام.

والكلام على تقدير: كذاب الله في عُقُوبَةٍ وإهلاك آل فرعون والذين من قبلهم، باعتبار أنها ظواهر جزائية متكررة.

فالعقوبة والإهلاك من الله عز وجل، فالأمر إذا سُنَّةٌ من سُنَنِ الله التي لا تعطيل لها ولا تبديل ولا تحويل.

فالتعبير هنا يفيد ما يفيد قول الله عز وجل في سورة (الأحزاب) / ٣٣ مصحف / ٩٠ نزول):

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَحْدِلَ سُنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (٦٢).

﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ يَذُوبُهُمْ﴾

الهلاك: الموت. والمراد إماتتهم إمانَةً جماعيةً بوسائل فيها تعذيب لهم، وإهانة وإذلال، ومحق.

﴿وَأَغْرَقْنَاهُ آلَ فِرْعَوْنَ﴾

جاء في هذا بيانٌ وسيلةً إهلاكهم، لأنهم ذُكِرُوا بصريح العبارة فيما سبق، بخلاف المهلكين الآخرين، فإنهم لَمْ يُذْكَرُوا بصريح العبارة، وإنما ذُكِرُوا بوصفٍ عامٍ شامل هو:

﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.

(٣)

ما رُوي في سبب النزول

(١) روى الطبري بسنده عن عامر حول الآية الأولى من هذا النص، قال: كان

ناسٌ من أهل مكة تكلموا في الإسلام (أي: تكلموا في رغبتهم في الإسلام واتباع الرسول ﷺ) فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا:

﴿غَرَّهُمْ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾.

(٢) وروى الطبري بسنده عن مجاهد قال في الآية: «فئة من قريش: قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب، وعلي بن أمية بن خلف، والعاصي بن مبه بن الحجاج، خرجوا مع قريش من مكة، وهم على الارتياب، فحبسهم ارتيابهم، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: غر هؤلاء دينهم، حتى قدموا على ما قدموا عليه، مع قلة عددهم وكثرة عدوهم».

من الظاهر أن ما ذكر في هاتين الروایتين يشير إلى مفالة الذين في قلوبهم مرض، لا إلى المنافقين.

ومن البدهي أن ندرك أن المنافقين في المدينة، والذين في قلوبهم مرض فيها أيضاً، قد قالوا هذه المقالة نفسها، أو عبارة بمعناها، لأن الكافر في باطنه، وكذلك الشاك لا بد أن يقولها إبان المعركة القائمة، فالدلائل المادية في كل من الفئتين المتقابلتين تدل على أن النصر سيكون لصالح من يملكون القوة عدداً وعدة حتماً، وإذا كان الأمر كذلك فالمسلمون متورطون، وقد غرهم دينهم.

هذه الكلمة لا بد أن يقولها المنافق، بلسانه أو بقلبه، إن طبيعة نفاقه وما يقرره النفاق عادة، سيذفعه تلقائياً إلى أن يقولها.

* * *

(٤)

مع النص في التحليل

في هذا النص بيان لموقف من مواقف المنافقين، يشاركون فيه الذين في قلوبهم مرض دون النفاق، وهو في قضية الإيمان مرض الشك، وعدم ثبات الإيمان واستقراره في القلوب.

هذا الموقف يظهر عند مُواجهة المؤمنين للكافرين في قتالٍ جادٍ، وتكون قُوى المؤمنين في المقاييس السببية المادية أقلَّ من قُوى الكافرين، كما كان الحال في غزوة بدر الكبرى، إذْ كانَ المؤمنين (٣١٣)^(١) وكان الكافرون قرابة الألف، وكانت فوارق القُوى العتادية والتموينية أكثر من هذه النسبة.

في مثل هذا الموقف لا بدَّ أن يقول المنافقون وأشباههم، الذين لا يؤمنون بالقوى المعنوية الإيمانية، ولا بالقُوى الغيبية التي يؤيد الله بها أوليائه، وينصرهم بها على أعدائه، ويُعدِّلُ بها ميزان تفاوُت القوى المادية التي يَرَجُحُ بها الكافرون رُجْحَاناً ظاهراً، لا بُدَّ أن يقول المنافقون وأشباههم عندئذٍ مقالاً تنسجم مع نظرتهم غير الإيمانية.

إنهم بحساباتهم المادية يُقدِّرون أنَّ الكثرة ستنتصر على القلة لا محالة، إذاً فما الذي يدفع هؤلاء المؤمنين لإلقاء أنفسهم بالتهلكة الواضحة التي لا أمل فيها بالظفر والنصر؟

بالتفكير المادي يَرَوْنَ أنَّ المؤمنين في غُرُوبٍ من أمرهم، ويقولون في أنفسهم: ما الذي غرهم، وقد كانوا يمثِّلنا بالأمس القريب وقبل أن يؤمنوا بهذا الدِّين، فقد كانوا يفكِّرون بمثل ما نفكِّر به، ويقدِّرون الأمور مثل تقديرنا؟

إنَّ الجديد في الأمر عليهم هو دينهم الذي آمنوا به، فوعدهم بإحدى الحُسنيين في اعتقادهم، إمَّا النصر في الدنيا مع الأجر والثواب، وإمَّا الشهادة والظفر برضوان الله والجنة.

وبما أنَّ هذه المفهومات لا يؤمن بها المنافقون، ولَمَّا يؤمنُ بها الذين في قلوبهم مرضٌ دون النفاق، فلا بُدَّ أن يعتبروها من قبيل الغرور، أو التغرير بهم، فهم بها يندفعون إلى تهلكتهم.

إذاً: فهم يقولون بعد هذه التحليلات المادية الصَّرف: غرَّ هؤلاء دينهم. أي:

(١) أو أكثر من ذلك قليلاً: (٣١٤) أو (٣١٧) أو (٣١٩)، والعدد الأخير جاء في صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب.

خدعهم وأطمعهم وورطهم في التهلكة ما آمنوا به من هذا الدين الذي لا أساس له من الحقيقة، أو هو أمرٌ مشكوك فيه.

إن حساباتهم وتقديراتهم ماديةٌ سطحيةٌ ظاهرةٌ بحت، بعيدة عن المفهومات الإيمانية، وبعيدة أيضاً عن شواهد التاريخ التي سبقت للمؤمنين اتباع الرُّسل، وبعيدة عن الاعتبار بها، فقد أثبتت هذه الشواهد أن المؤمنين بالله واليوم الآخر، الملتزمين بسُننِ الله التكوينية، وبياناته التعليمية، لَذِيهِمْ مَزِيدٌ عَلَى قُوَى غَيْرِهِمْ من جهتين:

الأولى: شِخَنَاتُ القُوَى المعنوية الإيمانية التي تُضَيِّفُ إلى القُوَى المادية قُوَى احتياطيةً كميةً في الإنسان، وتحجُبُ المثبطات والمضعفات كالجبن والخوف والشك والحيرة والتردد، عن أن تتحرك وتنشط أثناء معارك القتال فتُلغِي أثرَ نِسْبَةِ كِبِيرَةِ من القُوَى المادية التي كانت حاضرةً منظورةً داخلَةً في الحسابان.

الثانية: القُوَى الغيبية الربانية المؤيدة والمثبتة، وقد أبان الله عز وجل أنه قد أبدى المؤمنين في بدر وأمدَّهم بآلاف من الملائكة، للمعونة والشيث، لا للقيام بكل المهمة.

لقد قال المنافقون والذين في قلوبهم مرض: «عَرُّ هَؤُلَاءِ يَنْهَهُمْ» وكرروا هذه المقالة بدليل الفعل المضارع في: «إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ...» قبل أن تنتصر القلة المؤمنة في بدر على الكثرة الكافرة، تقديرًا منهم بأن النصر سيكون للكافرين، وأن الهزيمة والهلكة ستحلان بالمؤمنين، وهو حُكْمٌ منهم مبنيٌّ على الظواهر السببية المنظورة.

فكان الردُّ الربانيُّ العملي بقلب موازين القُوَى لصالح المؤمنين، ونصرهم نصرًا مؤزراً عظيماً على مُشْرِكِي قُرَيْش، وجيشهم المستكبر المختال.

وكان الردُّ الربانيُّ القوليُّ عقب حكاية مقالة المنافقين والذين في قلوبهم مرض، بتلخيص بثلاثة عناصر:

الأول: بيان العقيدة الإيمانية الفكرية بالنسبة إلى هذا الموضوع، وهي: أن من يتوكَّل على الله صادقاً في توكُّله، ملتزماً منهاجه وصراطه المستقيم، تولاهُ الله بتأييده ونصره، وما النصرُ إلا من عند الله، واللَّهُ عَزِيزٌ قَوِيٌّ غَالِبٌ، حكيمٌ في تصاريفه

بمقاديره، يَضَعُ النُّصْرَ بِحُكْمِهِ فِي الْجِهَةِ الَّتِي تَسْتَحِقُّ النُّصْرَ عَلَى مَا يَعْلَمُ مِنْ بَوَاطِنِ الْأُمُورِ، وَغَايَاتِهَا، وَأَثَارِهَا التَّربُوعِيَّةَ، أَوِ التَّادِييَّةَ، أَوِ الْجَزَائِيَّةَ.

دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّصْرِ:

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهََ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١١).

الثاني: بيان نتيجة المعركة التي ظَنَّ المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ والكافرون المجاهرون بكفرهم، قَبْلَ بُدْئِهَا وَأَثْنَاءَ قِيَامِهَا، أَنَّ الْهَلَكَةَ سَتَكُونُ فِيهَا لِلْقَلْبَةِ الْمُؤْمِنَةِ، وَأَنَّ النُّصْرَ سَيَكُونُ لِلْكَثْرَةِ الْمَشْرُكَةِ.

إِذْ قَلَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا بِتَأْيِيدٍ مِنْ عِنْدِهِ مُوَازِينَ الْقُوَى فَنُصِرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْمَشْرِكِينَ، وَأَمَدَّ الْمُؤْمِنِينَ بِجُنُودٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَقَاتَلُوا أَعْدَاءَ اللَّهِ مَعَ أَوْلِيَائِهِ بِنِسْبٍ مِنَ الْقُوَى الْقِتَالِيَّةِ مُحَدَدَةٍ، لَا بِقُوَى مَلَائِكِيَّةٍ كَقُوَى الْمَلَائِكَةِ الْمُرْسَلَةِ لِإِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطَ.

دَلَّ عَلَى هَذَا مِنَ النَّصْرِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ:

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ اتَّوَفَى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (٥) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهََ لَيْسَ بِظَلِيمٍ لِلْعَيْدِ (١١).

وَدَلَّ عَلَيْهِ أَيْضاً بَعْضُ مَا جَاءَ فِي السُّورَةِ قَبْلَ هَذَا النَّصْرِ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا:

﴿إِذِ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ فَتِئْتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتُمْ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (١٢).

فَحَدَّدَ اللَّهُ لِلْمَلَائِكَةِ مَقَادِيرَ أَعْمَالِهِمْ فِي نُصْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ، فَهِيَ مَقَادِيرُ لِلتَّشْيِيتِ، لَا لِلْقِيَامِ بِكُلِّ الْمِهْمَةِ، وَفِي حُدُودِ ضَرْبٍ فَوْقَ الْأَعْنَاقِ، لِإِضْعَافِ الرُّؤُوسِ وَالْقِيَامِ بِالرُّعْبِ، وَضَرْبٍ عَلَى الْبَنَانِ لِإِضْعَافِهَا عَنْ قَبْضِ الْأَسْلِحَةِ، وَيَرَى بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ أَنَّ الْخُطَابَ فِي (فَاصِرُوا) مُوجَّهٌ لِلْمُؤْمِنِينَ.

أَمَّا عِنْدَ قَبْضِ الْأَرْوَاحِ وَتَوَفَّى أَنْفُسُ الصُّرَعَى مِنْهُمْ فَالْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ

إِهَانَةً وَإِذْلَالًا، لَأَنَّهُمْ صَرَفُوهَا عَنِ الْحَقِّ وَنَضَرُوا أَدْبَارَهُمْ إِبْلَامًا وَتَعَذُّيًّا، فَالَامُ الْأَدْبَارُ مِنْ أَشَدِّ أَنْوَاعِ الْإِلَامِ، وَلَأَنَّهُمْ أَغْطَوْا أَدْبَارَهُمْ لِلْحَقِّ بِدَلٍّ وَجْهِهِمْ.

وَيَقَالُ لَهُمْ: وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ، أَي: ذُوقُوا هَذَا الْعَذَابَ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ أَيْضًا.

فَهَلْ هُمْ مَعَ الضَّرْبِ بِمُسْهُمْ عَذَابٌ فَوْقَ الضَّرْبِ هُوَ مِنْ نَوْعِ عَذَابِ الْحَرِيقِ، كَحَرِيقِ الشَّرَارَاتِ الْكَهْرِبَائِيَّةِ، وَهَذَا هُوَ الْأَظْهَرُ فِيمَا أَرَى، أَوْ: وَذُوقُوا بَعْدَ الْمَوْتِ فِي مُدَّةِ الْبَرَزَخِ عَذَابًا هُوَ مِنْ نَوْعِ عَذَابِ الْحَرِيقِ. أَوْ: وَذُوقُوا يَوْمَ الدِّينِ بَعْدَ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ عَذَابًا فِي جَهَنَّمَ هُوَ عَذَابٌ حَرِيقٍ فِيهَا.

كُلُّ ذَلِكَ مُحْتَمَلٌ، وَقَدْ يَكُونُ كُلُّ ذَلِكَ مُتَحَقِّقًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الثَّالِثُ: بَيَانُ أَنَّ هَذِهِ الْعَاقِبَةَ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَتْ هِيَ مِنْ قِبَلِ الْمَصَادِفَةِ، وَلَا هِيَ حَدَثٌ شَادٌّ لَا نَظِيرَ لَهُ فِي مَجْرَى التَّارِيخِ الْإِنْسَانِيِّ، بَلْ هِيَ سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ.

أَلَمْ يُهْلِكِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آلَ فِرْعَوْنَ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلِهِمْ، انْتِصَارًا لِرُسُلِهِ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ مَعَهُمْ؟

لَقَدْ أَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ.

فَلَقَدْ كَانُوا فِي نِعْمَةِ الْمَالِ وَالسُّلْطَانِ وَالْقُوَّةِ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ جَاءَتْهُمْ نِعْمَةُ الرُّسُلِ وَالذِّعْوَةُ إِلَى الْإِيمَانِ بِالْحَقِّ الَّذِي يَمْنَحُ السُّلْطَانِيَّةَ، وَالذِّعْوَةُ إِلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي يُحَقِّقُ لَهُمُ الرَّاحَةَ وَطَمَائِينَ الْقُلُوبِ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ النِّجَاةَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَالْفَوْزَ وَالسَّعَادَةَ بِجَنَاتِ النِّعَمِ يَوْمَ الدِّينِ.

فَغَيَّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ تُجَاهَ هَذِهِ النِّعْمَةِ، إِذْ عَمِلُوا بِتَقْيِيزِ مَا هَدَتْهُمْ إِلَيْهِ بَيَانَاتُ الرُّسُولِ وَمُعْجَزَاتُهُ وَدَامِغَاتُ حُجْجِهِ وَبِرَاهِينِهِ، وَعَمِلُوا بِتَقْيِيزِ مَا هَدَتْهُمْ إِلَيْهِ دَلَائِلُ عَقُولِهِمْ وَمَوَازِينُ أَفْكَارِهِمُ الَّتِي فَطَرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهَا، وَالَّتِي يُدْرِكُونَ بِهَا الْحَقَّ إِذَا أُقِيمَتْ لَهُمْ أَدْلَتُهُ وَبِرَاهِينُهُ، وَعَمِلُوا بِتَقْيِيزِ مَا فُطِرَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُمْ مِنْ نُزُوعِ ضَمَائِرِهِمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَعِبَادَتِهِ.

وَإِذْ غَيَّرُوا بِذَلِكَ مَا بِأَنْفُسِهِمْ، مِنْ سَلَامَةِ الْفِطْرَةِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَمَسْخَاوِهَا الْإِنْسَانِيَّةِ

المكرمة بأصل الخلق، ووضعوا بدل قواعد الفضيلة في فطرتها، جحوداً وكبراً ورغبة في الفجور، ونكسوا فطرتهم، وانحذروا بتكوينهم النبوي إلى أسفل سافلين، حتى صاروا شر الدواب عند الله، وأضل سبيلاً من الأنعام، لأن كفرهم قد كان نتيجة إرادة للكفر والجحود، لا جهلاً بدلائل الإيمان، ولا جهلاً بأن الله حق، والرَسُولُ حق، وما أنزل من عند الله على لسان رُسُلِهِ حق، لذلك فهم لا يؤمنون فهما قَدُمْتُ لهم من أدلة وبيانات.

فاستحقوا أولاً بمقتضى حكمة الله وغذله، أن يسلبهم الله بنقض النعم التي كان قد أنعم بها عليهم، وأن يسلط الله عليهم بعض أسواط التأديب والتربية والتذكير والإنذار، ليرجعوا عن غيهم، ويتوبوا إلى بارئهم، فلم يرجعوا وعللوا ما جرى لهم من عقوبات جزئية، وجزاءات تأديبية منذرة، بأنها ظواهر طبيعية تجري نظائرها دوماً وتكراراً في مجرى الأحداث الكونية، وليست عقوبات وجزاءات ربانية مقصودة للتأديب والإنذار، دل على هذا قول الله عز وجل في النص:

﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٩﴾ ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيَّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيَّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٧﴾﴾

ولما لم يتبعظوا بالعقوبات والجزاءات الربانية التأديبية الإنذارية، التي لم تصل إلى الإهلاك العام الشامل، واستمروا على كفرهم وظلمهم، وكذبوا بهذه الآيات من آيات الله التأديبية كآيات الدّم والصفادع والقمل والأخذ بالسنين العجاف التي كانت لآل فرعون، أنزل الله عليهم ما نتم به إهلاكهم إهلاكاً عاماً شاملاً، كالريح الصرصر العاتية على عاد، والصيحة المهلكة على ثمود، والحاصب المدمر على قوم لوط، والاستبدراج إلى البحر فالإغراق لآل فرعون وجنوده.

دل على هذا قول الله عز وجل في النص:

﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ۖ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾

ويتساءل المتدبر: لِمَ أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هَذَا الْإِهْلَاكَ الْعَامَّ الشَّامِلَ، وَمِمَّ خُلِقَ مِنْ خَلْقِهِ، وَعَبِيدٌ مِنْ عِبِيدِهِ؟

ويأتي البيان القرآني دالاً على أَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الْأَحْيَاءِ وَاجِدَةٌ، وَمِنْ سُنَّتِهِ فِي الْأَحْيَاءِ أَنَّهُ إِذَا وَصَلَتْ أُمَّةٌ بِنَهْجٍ فِي مَوْقِعٍ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى مَسْتَوًى مِنَ الْإِفْسَادِ الْعَامِّ الشَّامِلِ، حَتَّى صَارَتْ طُغْيَانًا، وَصَارَ رَجَاءُ الْخَيْرِ فِي مَقْدَارٍ صَالِحٍ لِلْبَقَاءِ مِنْهَا أَمْرًا مَيُوسَّرًا مِنْهُ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ التَّخْلُصُ مِنْهَا بِالْإِهْلَاكِ الْعَامِّ الشَّامِلِ.

وَمِنْ هَذِهِ الْأَحْيَاءِ الْأَقْوَامُ مِنَ الْبَشَرِ، بَلْ هُمْ إِذَا فَسَدُوا فَسَادًا عَامًّا، وَطَغَوْا طُغْيَانًا عَامًّا، وَوَصَلُوا إِلَى مَرَحَلَةِ الْيَأْسِ مِنْ صِلَاحِهِمْ أَوْ إِصْلَاحِهِمْ بِالْوَأْنِ التَّربِيَةِ وَالتَّأْدِيبِ، عَنْ طَرِيقِ اخْتِيَارَاتِهِمْ وَإِرَادَاتِهِمْ الْحَرَّةِ، كَانُوا شَرُّ الدَّوَابِّ عَلَى الْأَرْضِ عِنْدَ اللَّهِ، بِحَسَبِ عِلْمِهِ وَحُكْمَتِهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، فَكَانُوا أَحَقُّ بِالْإِهْلَاكِ الْعَامِّ الشَّامِلِ مِنَ الْحَشَرَاتِ وَالْفَوَاسِقِ الَّتِي تَتَكَاثَرُ حَتَّى تَصِلَ إِلَى مَسْتَوًى الْإِفْسَادِ وَالتَّسَدِيرِ، وَتَغْيِيرِ مَوَازِينِ بَقَاءِ الْكَائِنَاتِ، بِأَجْنَاسِهَا وَأَصْنَافِهَا الْمَخْتَلِفَاتِ.

دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّصِّ:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾

(٥)

تَدَبُّرُ النَّصِّ

• قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ...﴾

جاء الحديث في سورة (الأنفال) عن عِدَّةِ مَوَاقِفَ كُلِّ مِنْهَا مُصَلَّرٌ بِكَلِمَةِ «إِذْ» وَلَفْظِ «إِذْ» ظَرْفُ زَمَانٍ، وَهُوَ أَقَلُّ لَفْظٍ بَعْدَ حُرُوفِهِ مِنْ ظُرُوفِ الزَّمَانِ، وَيُسَهِّلُ التَّنَقُّقَ بِهِ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى وَقْتٍ مَا أَوْ أَوَاقَاتٍ مَا، دُونَ تَحْدِيدٍ بِقَلَّةٍ أَوْ بكَثْرَةٍ.

قال النحاة: وهو ظرف للزمن الماضي، ويجب إضافته إلى الجمل.

أقول:

ولعمومه وقلة حروفه وسهولة النطق به كثر استعماله في القرآن.

ويظهر من سبر التصوص القرآني أن الغرض من ذكر الزمن بحرف «إذ» بيان ما جرى فيه، وجاء ذكر الزمن للدلالة على أن الأمر حدث جرى، وليس أمراً ثابتاً دوماً.

وبالتدبر العميق نذكر أن متعلق هذا الظرف في القرآن - أي: العامل فيه - يختلف باختلاف المواطن، وقد يكون أحياناً محذوفاً، ويقدِّره المفسرون بفعل «اذكر» أو «اذكروا» إذ قد جاء مصرحاً به في بعض المواضع، مثل قول الله تعالى في سورة (الأنفال) خطاباً للمهاجرين:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَتَأْوِنَكُمْ وَإَيْدِيكُمْ يَصْرِعُونَ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٦).

لكن قد يكون تقدير فعل «اذكر» في بعض المواطن التي لا يكون فيها المتعلق مذكوراً غير ملائم.

والمواقف التي صُدِّرت بحرف «إذ» قبل هذه الآية من سورة (الأنفال) هي

ما يلي:

- (١) ﴿وَإِذْ يَبْعِدُكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ (٧).
- (٢) ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ (٩).
- (٣) ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ اللَّعَاسُ أَمَةً مِنْهُ﴾ (١١).
- (٤) ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (١٢).
- (٥) ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ (١٦).
- (٦) ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ (٢٠).
- (٧) ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا﴾ (٢٣).
- (٨) ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْمُدَوِّهِ الدُّنْيَا﴾ (٢٤).

(٩) ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا...﴾ (١٣)

(١٠) ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلًا...﴾ (١٤)

(١١) ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ...﴾ (١٥)

ولكل منها المتعلق المناسب له، مذكوراً أو محذوفاً، والمحذوف يمكن إدراكه وتقديره بالتدبر والتأمل.

والمناسب فيما أرى بالنسبة إلى قول الله عز وجل:

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرْهَوْا رَبَّهُمْ...﴾ (١٦)

أن يكون تقدير الكلام كما يلي: لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ...

... بدليل قول الله في آخر الآية:

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١٧)

أي: فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُهُ وَإِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

وقَدْ جَاءَ بَيَانُ هَذَا الْكَلَامِ الْمَطْوِيِّ، وَالَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يُقَدَّرَ فَهْمًا، فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول) تَعْقِيًّا عَلَى أَحْدَاثِ غَزْوَةِ أَحَدٍ:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَانْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٨)

والمشار إليه باسم الإشارة ﴿هؤلاء﴾ هم المؤمنون مع الرسول في بدر.

* قول الله عز وجل:

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١٩)

في هذه الجملة بيان لِيُطْلانِ مَقُولَةِ الْمُنَافِقِينَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، فَكُرَأَ وَاعْتَقَادًا.

﴿مَنْ﴾ اسم شرط جازم يعجزم فعلين أولهما فعل الشرط، والآخر جوابه وجزاؤه.

وقد ذُكِرَ فِي الْآيَةِ هُنَا فَعَلُ الشَّرْطِ فَقَطْ، وَهُوَ ﴿يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وَهُوَ مُجْزِومٌ.

والتوكلُ: تفويضُ القلبِ واستسلامُهُ الكاملُ لله عزَّ وجلَّ، مع القيام بكل الأسباب التي أمر الله باتخاذها لتحقيق المطالب ضمن سُنَنِه التكوينية، فهو وظيفة قلبية فقط من الوظائف الإيمانية للقلوب، وليس وظيفة من أعمال الجوارح الظاهرة، والتخطيط لها، والتفكير فيها، واتخاذ التدابير اللازمة للقيام بها، فهذه لها واجبات عملية غير التفويض والاستسلام، والله يأمر بها، والمفرطُ بها عاصٍ لأمر الله.

هذا فعلُ الشرط، فأين جوابه؟

بالتدبير نرى أنه حُذِفَ لفظه، ولكن أشير إليه بالجملة المصدرة بالقاء التي تدخل عادة على جملة الجواب التي يمتنع أن تكون شرطاً، ومن هذه الجمل الجملة الاسمية، كجملة: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فدلَّ كونُ الله عزيزاً، أي قوياً غلباً، وكَوْنُ الله حكيماً يضع الأمور في مواضعها، على أن الله ينصرُ من يتوكلُ عليه، متخذاً الأسباب التي أمر بها، وهذه سُنَّةٌ ثابتةٌ من سُنَنِ الله في عبادته، ومن تطبيقاتها، ما حقق للمؤمنين في بدر من نصرٍ مؤزرٍ مع قتلهم وذلتهم.

قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ اتَّوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ وَاذْهَبُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلِيمٍ ٥١﴾

وقرأ ابن عامر: [إِذْ تَتَوَفَّى].

في هذه الآية بيانٌ لبطان مقولة المنافقين والذين في قلوبهم مرض، بحدوث مشهود هو قتل من قُتِلَ من المشركين في بدر، رُحِذَ غير مشهود للناس، وهو ضربٌ قتلهم على وجوههم وأدبارهم من قبل ملائكة قبض الأرواح حين يتوَفَّوْنَهُمْ لتذوق أنفسهم الموت، والإهانة والعذاب، وما تم بعد ذلك من تحقيق النصر للمؤمنين.

وجاء التعبير عن الحدث غير المشهود للناس بعبارة: ﴿لَوْ تَرَىٰ﴾ أي: لو تَرَىٰ أيها الراي أي كنت، لأدعرك المشهود، ولها لك الأمر، لشِدَّتِه وما فيه من هولٍ تنفطر منه القلوب، وهو أسلوبٌ للدلالة على هول المشهد.

وجواب الشرط «لوه» محذوف، يُقْلَمُ مضمونهُ من حالة حَدَثٍ ضرب الملائكة لهم على وجوههم وأدبارهم، ويمكن تقديره بنحو، لهالكَ المشهد. أو لرأيتَ مشهداً عجباً مخيفاً.

يتوفى: التوفى: قبضُ الروح، مع ملاحظة بلوغ أعمارهم غاية آجالها المقدرّة المقضية، لأنه يُقال: توفى المدة إذا بلغ نهايتها، وتوفى المال، إذا أخذه فلم يبق منه شيئاً، وقضاء الله بلماتهم في مصارعهم مقرون بإنهاء آجالهم.

﴿يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾:

﴿الذين كفروا﴾ مفعول به مقدم، و﴿الملائكة﴾ فاعل مؤخر، وقُدِّمَ المفعول به هنا لأن الغرض التنبيه على حالة قتلى المشركين في بدر، فهم الأحقُّ بأولوية الاهتمام، لا قابضو أرواحهم من الملائكة.

﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾:

جملة في موضع الحال، أي: يتوفونهم حالة كونهم يضربون وجوههم وأدبارهم إهانةً وإذلالاً وتعذيباً.

واستعمل الفعل المضارع في الجملتين لإحضار صورة الحدث الماضي في الذهن، كأنه حدث يجري متكرراً، أما تجديد الضرب وتكريره فهو لكل فردٍ منهم، إذ كانت تتوالى عليه الضربات، وأما تجديد التوفي وتكريره فهو أمرٌ يلاحظُ تتابعه بالنسبة إلى مجموع الأفراد، إذ لم يحدث دفعة واحدة، وإنما جاء توفيتهم متتابعاً، فحدث التوفي متكرراً بالنسبة إلى الجميع، وإن كان بالنسبة إلى كل واحدٍ منهم واحداً غير متكرر.

﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾:

أي: ويقال لهم مع خذني الضرب والتوفي: ذوقوا عذاب الحريق. الحريق: اضطرام النار، واللهب، واسم من الاحتراق.

واستعمل الذوق للدلالة على الإحساس الكامل بالشيء، لأن اللسان أكثر الحواس إدراكاً مباشراً لأكثر المختلفات من الأشياء التي تُدرك بالحواس.

وقد سبق بيان احتمالات معنى هذه الجملة:

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ﴾:

المشار إليه هو ما جرى لهؤلاء القتلى من المشركين في بدر، والخطاب لهم، وهو تابع لما يُقال لهم، واستُعْمِلَتْ إشارة البعيد للدلالة على عظم شأنه، وأنه جاءهم من ربهم العليّ الأعلى.

أي: هذا الذي جرى لكم هو بسبب ما قدّمت أيديكم، أي: من عمل إراديّ كان من كسبكم، وهو كفرهم وتكذيبهم وظلّهم، وحربهم للرسول والمؤمنين معه.

وجاء في القرآن التعبير عمّا يكسبه الإنسان بعمله في الحياة الدنيا من خير أو شرّ بفعل «قدّم» وتصريفاته، لأنّ كسب الإنسان هو الذي يقّده أمامه لآخرته.

وفي مقابله جاء التعبير عمّا ترك الإنسان من عمل في الحياة الدنيا، ومنه واجبات يتركها بفعل «أخر» وتصريفاته، لأنّ ما لم يعمله الإنسان في الحياة الدنيا قدّ أخره وأبقاه هو وزمنه في الماضي، فإن كان واجباً حوسب على تأخير له.

وجاء استعمال «اليد» و«الأيدي» كناية عن كلّ كسب إراديّ يكسبه الإنسان بإرادته الحرّة، لأنّ عمل الأيدي هو أبرز مظهر مادّي للكسب الإراديّ، فيدخل في عموم الكسب الإراديّ أعمال القلوب والنفس الإرادية.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾:

أي: وهذا الذي جرى لكم هو بسبب صفة العدل الربّاني، ومظاهرها من الجزاء بالعقاب. وجاء التعبير عن العدل بنفي الظلم عن الله عزّ وجلّ، لأنّ نفي الظلم يشمل الجزاء بالعدل، ويشمل أيضاً الجزاء ببعض حقّ العدل، وهو المقرون بشيء من الغفران والعفو والتسامح.

فذلّ النصّ بيان السبب على أنّ تطبيق الجزاء بالعقاب له سببان:

السبب الأول: كسب الجاني.

السبب الثاني: عدل المجازي.

فلولم يكن كَسْبٌ فيه جناية وظلم لما حصل الجزاء بالعقاب. ولولم يكن في الوجود مُجَازٍ قَادِرٌ عَادِلٌ لما حصل الجزاء بالعقاب أيضاً.

فكان من دَقَّةِ البيان وروعته بيان السَّبَّتين معاً في قوله تعالى:

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنْتَ اللَّهُ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْمَعِيدِ﴾ (٥١).

وقد سبق بيان ما يتعلَّقُ بصيغَةِ ﴿ظَلَامٌ﴾.

* قول الله عز وجل:

﴿كَذَّابٌ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا اللَّهُ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٥٢) ذَلِكَ بِأَنْتَ اللَّهُ لَمْ يَكْ مُغْنِرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى فِرْعَوْنَ حَتَّى يَبْعَثَ مَا يَأْتِفِسِهِمْ وَأَنْتَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٥٣).

البيان في هاتين الآيتين يُنبِّه على العقوبات الجزائية الجزئية دون الإهلاك العام الشامل للقوم، وهي عقوبات يراد منها التأديب والتبصرة والتذكير بعدل الله، والإنذار بما هو أشد، كعقوبات الرجز التي أنزلها الله على فرعون وشعبه آيات لموسى عليه السلام وهي: رجز السنين، ورجز نقص الثمرات، ورجز الطوفان، ورجز الجراد، ورجز القمل، ورجز الضفادع، ورجز الدم، وكان لكل أمة أُجْرِمَتْ عقوبات ثلاثم جرائمها.

وأشار إلى أَنَّ أَخَذَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ قد كان بحدود هذه العقوبات الجزئية، ما جاء في الآية الثانية من التعبير بتغيير النعمة، أي: إلى مصائب في الأموال والأنفس، ومؤلمات من العوارض العامة التي فيها صور مختلفات من العقاب، وكلُّ ذَلِكَ دون الإهلاك العام الشامل.

﴿كَذَّابٌ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾:

أي: كَسَبَ الله في عقاب كُفَّارِ الأُمَمِ الغابرة.

والمشبه خالٌ مُشْرِكِي فريش. وتطابقُ سُنَّةُ الله فيهم، كما طُبِّقَتْ في كُفَّارِ الأُمَمِ

من قبلهم، فالمشبه به حال كفّار الأمم السابقة، وتطبيق سنة الله فيهم.
وسنة الله هذه فيها أولاً عُقوبات جزئية محدودة، وفيها أخيراً إهلاك كلي شامل،
حين تنتهي ظروف امتحان القوم مع الإمهال الطويل، ويصلون إلى درجة اليأس من
تأثير وسائل إقناعهم وإصلاحهم.

والمعنى: ذأَبُ اللَّهِ وسُنَّتُهُ في مُعَالَجَةِ مُعَاقِبَةِ كُفَّارٍ قَرِيشٍ كَدَابِهِ في مُعَالَجَةِ
وَمُعَاقِبَةِ كُفَّارِ أَهْلِ الْقُرُونِ الْأُولَى.

فنصر الله المؤمنين عليهم في موقعة بدر، وقتل بعض قادتهم وسادتهم، وأسر
فريق منهم، وجعل ما ساقوا من أموالٍ وسلاح غنيمةً للمسلمين، هو من صور العقاب
الجزئي التاديسي الرباني لهم.

والإضافة في: ﴿كَدَابِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ على تقدير محذوف بين المضاف
والمضاف إليه، وبالتأمل استطعنا اكتشافه، وهو كذاب: أي كُشَانٍ وَعَادَةٍ وَسُنَّةِ اللَّهِ في
عقاب آل فرعون والذين من قبلهم.

وهذا العقاب الجزئي قد كان بسبب أنهم كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ، ولا بُدَّ أن تكون هذه
الآيات هي ما يلي:

- (١) الحجج والبراهين المثبتة لقضايا الدين، وصدق رسالة الرسول.
- (٢) المعجزات وخوارق العادات التي أبد الله بها رُسُلَهُ.
- (٣) آيات الله البينانية المنزلة على رُسُلِهِ.
- (٤) آيات الله التي فطر الله النفوس عليها، والتي تنزع بالنفس الإنسانية من
داخلها إلى الإيمان بالله وعبادته.

هذه الآيات كلها قد كَفَرُوا بها مع إدراكهم لدلائلها، فكفرهم بها كَفَرُ جُحُودٍ
لا كَفَرُ جهل، ومارسوا الأعمال التي هي من آثار كفرهم، وهي ذُنُوبٌ وَمَعَاصٍ تدفعهم
إليها أهواؤهم وشهواتهم.

﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يَذُلُّونَ بِهِمْ﴾:

أي: فأخذهم الله من مواقع النعم، ونقلهم إلى مواقع المصائب والآلام، بسبب ذنوبهم، التي رتب الله عليها أنواعاً من العقاب المعجل في الدنيا.

والمعنى: أن الله قد غير أحوالهم بهذا الأخذ، من أحوال الموسع عليهم بالنعم، إلى أحوال من الشدائد المؤلمة، تأديباً وعقوبة وإنذاراً بما هو أشد، وتبصرة وذكرى، لعلهم يتوبون ويستغفرون من ذنوبهم، ويؤمنون برسول ربهم، وبما أنزل الله عليه.

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾:

في هذه الجملة الختامية للآية تذكير ببعض عناصر القاعدة الإيمانية بالله، وتثبيت لها، من خلال ظواهر الأحداث التي تدل عليها.

فكون الله قد أخذ هذه الأمم بذنوبها، فأنزل عليها ألواناً وصوراً من العذاب، وقلبهم في المصائب والآلام ليتوبوا ويستغفروا، إنما هو مظهر لصفة قوته وحكمته وعذبه وشدة عقابه إذ كان من مقتضيات علمه وحكمته أن يعاقبهم عقاباً شديداً.

وهو دوماً قويٌّ شديد العقاب فليحذر الكفار وأهل كباثر الذنوب.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

دلّت هذه الفقرة على سنة من سنن الله الدائمة في خلقه، وهي أن الأصل إبقاء مجاري النعم التي يُنعم الله بها على أي قوم، بسبب مكافأتهم، أو امتحانهم وابتلائهم، ما دامت أحوال أنفسهم متمشية مع فطرتها السليمة التي فطرها الله عليها، لم يُشَوِّهوها، ولم يُنسخوها، ولم يعملوا على إفسادها، فإذا فعلوا ذلك التغير في أنفسهم غير الله لهم في مجاري نعمه، فسلب منها، وأنزل المصائب، ومُسَّهم بالضرر، جزاءً وتذكيراً وإنذاراً.

﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ...﴾:

أي: ليس من شأن الله سبحانه وتعالى أن يُغَيِّرَ نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ ما. إن هذا سنة من سننه عز وجل. لَمْ يَكُ: أي: لم يكن، ففي اللسان العربي حذف هذه النون إذا كان الفعل مجزوماً بالسكون غير متصل بضمير نصب ولا يساكن.

﴿ حَتَّىٰ يَغِيرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ ﴾ :

أي : فإذا غيروا ما بأنفسهم كما سبق في الشرح آنفاً غَيَّرَ اللَّهُ في النِّعَم التي كانت مستمرة المَدَد والعطاء فيهم ، وهذا أيضاً سُنَّة من سُنَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ في الناس .

فهما ستان :

(١) سُنَّة ثَبَاتِ النِّعَم ما دامت الأنفُس على فطرتها .

(٢) سُنَّة التَّغْيِير إلى الأَدْنَى وإلى الضَّر إذا غَيَّر القوم ما بأنفسهم ، بإفسادهم فطرَها ، أو عَظَم استجابتهم لنداءِ إلهيها الوجدانيَّة القُضَلَى .

ذلك : المشار إليه بهذا الاسم من أسماء الإشارة في الفقرة ، هو أَخَذَ اللَّهُ لَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ، والمعنى : حصلَ لَهُمْ ذلك :

بأنَّ الله . . . أي : بسبب تطبيق هذا القانون من قوانين الله فيهم ، وهو المشتمل على سُنَّتِي الثَّبَات والتَّغْيِير .

أَتَنَعَّمَا : الفاعل ضمير مستتر يعود على «الله» والضمير الظاهر مفعول به ، يقال لغة : نعمةً أَنْعَمَهَا اللَّهُ عليه ، ونعمةً أَنْعَمَ اللَّهُ بها عليه .

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ :

أي : وهذا التَّغْيِير في مجاري النِّعَم ، وتبديلها ببعض مجاري الضَّر والبُؤْس والنُّقْم بسبب أنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

أي : سَمِيعٌ لكل ما يصدر عنهم من أقوال وأصوات ، عليم بكلِّ ما يصدر عنهم من أعمالٍ إراديةٍ ظاهرة وباطنة ، من أعمال السوء والشر والضَّر .

وسَمِيعٌ أيضاً لدعاء رُسُلِهِ ، ودُعاء المؤمنين ، وعليم بما ينالهم من أذى أقوامهم الكافرين لهم ، وعليم بأحوالهم الداعية إلى معاقبة مضطهديهم .

فَدَلَّ قَوْلُ اللَّهِ ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ وقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ على أَنَّ التَّغْيِيرَ المذكور في النَّصِّ له سببان :

السبب الأول : ذنوبُ الأقوام التي وصلت إلى المستوى الداعي إلى العقوبة في

الحدود التي لا تصل إلى الإهلاك العام الشامل.

السبب الثاني: عدلُ الله وحكمته الملازمان لكونه سمياً عليمًا، وقد سبق قبل هذا في النَّصِّ بيان عزة الله وحكمته، وبيان قُوته وشدة عقابه، والإشارة إلى عدله، وجاء هنا بيان كونه سمياً عليمًا، فاكتمل بيان كل صفات الله التي من ظواهرها مُعاقبته للكافرين والظالمين والمجرمين وسائر المذنبين.

• قول الله عز وجل:

﴿كَذَابَ آلَ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا رَبَّهُمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٢﴾﴾

البيان في هاتين الآيتين يُنبئ على خاتمة العقوبات الدنيوية، وهي عقوبة الإهلاك العام الشامل، للأقوام التي نصلب فيها الكفر والعناد، واستشرى فيها الظلم والفساد، حتى صارت أقواماً ميؤوساً من صلاحها بإراداتها الحرة، عن طريق الإقصاء، أو وسائل التأديب والتربية، أو العقوبات الجزائية الجزئية دون الإهلاك الشامل.

فالأقوام الذين عُوقبوا بالعقوبات الجزئية فلم يردعوا بها، ولم يَرَوْا أنها آيات من آيات الله الهاديات إلى الإيمان، وإلى الاستقامة على طريقة الرحمن، بل كَذَّبُوا بها، وفسروها بأنها ظواهر طبيعية من ظواهر أحداث الكون، وأنها تجري دون قصد وإرادة علوية، هم أنفسهم الذين استحقوا بما وصلوا إليه الإهلاك العام الشامل، فأهلكهم الله بذنوبهم.

فاقتضى البيان إعادة ذكرهم بفتية بدیعة فقال تعالى:

﴿كَذَابَ آلَ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ﴾

هذه العبارة قد سبق شرحها، ولكنهم بعد المعالجة بالعقوبات الجزئية أضافوا إلى كفرهم السابق، تكذيبهم بأن ما جرى لهم من أحداث هو من عقوبات الله لهم،

وهو من آيات الله الدالّات على عزّته، وحكمته، وقوّته، وشِدّة عقابه، وغذّابه، وأنّه سميعٌ بصير، فقال تعالى مبيّناً هذا التكذيب الذي أضافوه إلى كفرهم السابق:

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا رَبِّهِمْ﴾.

وإذ قد وصلوا إلى هذه الحالة الميؤس من صلاحها بإراداتهم الحرّة، فإنّ أمر إهلاكهم العامّ الشامل، هو ما تقتضيه الحكمة، فقال تعالى:

﴿قَاتِلْهُمْ يَدْخُلُوهُمْ﴾.

أي: اهلكنا آل فرعون والذين من قبلهم من الأقوام التي أهلكت بسبب ذنوبهم. ولما كان آل فرعون مذكورين باسمهم على وجه التعيين، كان الأداء البيانيّ الأتمّ يقتضي ذكر الوسيلة التي تمّ بها إهلاكهم، فقال تعالى:

﴿وَأَغْرَقْنَاهُ آلَ فِرْعَوْنَ﴾.

وبعد ذلك أبان الله عزّ وجلّ أنّ ذنوب هؤلاء الأقوام المهلكين لم تكن من الذنوب التي تكثر في الأمم، فلا تقتضي الحكمة إهلاكهم إهلاكاً شاملاً، بل كانوا ظالمين بجملتهم، فالحكمة تقتضي إهلاكهم، فقال تعالى:

﴿وَكُلُّ كَانُوا أَظْلَمِينَ﴾.

أي: فهم جميعاً قد اشتروا في مقتضى واحد وهو الظلم فتناظروا في الهلاك وإن اختلفت وسائل الإهلاك.

وأبان الله بعد ذلك أنّهم قد وصلوا إلى مرحلة اليأس من صلاحهم بإراداتهم الحرّة، فكان من الحكمة في عالم الابتلاء إهلاكهم وإبادتهم.

وأبان أنّهم قد صاروا شرّ الدوابّ عند الله، التي تستحقّ في عالم الأحياء الإبادّة، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: إذا كانت الحشرات والفواسق الضارة قد وصلت إلى نسبة تستحقّ معها الإبادّة لشرّها وضرّها، فإنّ شرّاً منها دوابّ بشريّة وصلت في كفرها وشرّها إلى حالة

ميتوس من صلاحهم معها، وقد دلّ على أنّ صلاحهم بإراداتهم غير متوقّع ولا مرجوّ، قوله تعالى في الآية:

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

أي: فهم لا يؤمنون في المستقبل مهما عولجوا بالوسائل، فقد جُربُوا بكلّ الوسائل النافعة المؤثّرة فيمن لديهم أقلُّ استعداد للهداية والاستجابة، فلم يهتدوا ولم يستجيبوا، فمن الخَيْر للبشريّة إهلاكهم إهلاكاً شاملاً، نخليصاً للمجتمع الإنسانيّ منهم، إذ تجاوز ظلمهم وطفئانهم حدود الضرر المعناد في المجتمع البشري، وصمّموا على أن يسلكوا مسلك المقاومة للحق، والتصدي لمنع دعوة الحق، واضطهاد المؤمنين.

إنهم لم تنقصهم القناعة، ولكنهم فقدوا السلامة النفسيّة والصحة الأخلاقية، فهم مرضى في نفوسهم وأخلاقهم، ويحملون الوباء للناس والذراري، فاقتضت حكمة القضاء والقدر أن تتدخل للإنقاذ بإفناء حملة الوباء.

هذا ما تقضي به حكمة الحكيم، وهذا هو الذي أجراه الله عزّ وجلّ في المهلكين الأوّلين.

وهو سنّة لله دائمة، فليتعظ بها أولو الألباب، وليعتبر بما جرى للأوّلين المعترّون، من المخاطبين في النصّ، ومن معاصريهم، ومن سيأتي بعدهم. انتهى تدبر النصّ والحمد لله على فتحه.



النص السابع

من سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول) ثالث سورة مدنية

الآيات من (٦٩ - ٧٤)

حول مكيدة أخبات اليهود بالدخول في الإسلام نفاقاً
ثم الارتداد عنه لإغراء غيرهم بالردة

سورة (آل عمران) ثالث سورة مدنية، وقد جاء فيها بيان عدة أمور تتعلق بأهل الكتاب من اليهود والنصارى، باعتبار أن العهد المدني للرسول ﷺ قد كثرت فيه علاقة الدعوة الإسلامية بأهل الكتاب.

ومما جاء فيها بيان مكيدة يهودية تواصى بها طائفة من اليهود، وهي أن يتظاهروا بالإسلام والدخول فيه نفاقاً، ثم يرتدوا عنه مفتعلين أي سبب للارتداد عنه، بغية التأثير على بعض من دخل في الإسلام من عرب يثرب، فيرتدوا عنه كما يرتد عنه هذا الفريق الماكر من اليهود.

وبهذا الأسلوب يفتحون طريق الارتداد لأمثالهم من منافقة عرب يثرب، ويهونون على من يصعب عليهم الالتزام بأحكام الإسلام وتكاليفه أمر الارتداد عنه.

نجد بيان هذه المكيدة في أحد دروس السورة، وهو قول الله عز وجل فيها:

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾
يَتَّأَهَّلُ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَتَّأَهَّلُ الْكِتَابُ لِمَ تَلْسُونُ
الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ: آمِنُوا بِالَّذِي
أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ۖ أَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُرْجَعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ

تَبِيعَ دِينَكَ قُلُوبُ إِنْ أَلْهَدْنَا هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤَقِّعَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُعَاجِلْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنْ
الْفَضْلَ يَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ يَخْنُصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو
الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ .

وقرأ ابن كثير المكي: [أَلَّا يُؤْنَى] بزيادة همزة للاستفهام وتسهيل همزة (أَنْ) من
غير إدخال.

* * *

(١)

الفكرة العامة للنص

اشتمل هذا النص على بيان حركة تضليل للمسلمين قام بها طائفة من أهل
الكتاب، وقد كانوا من اليهود، على أَنَّ النص يعطي بظلاله دلالة على وجود هذه
الطائفة دواماً في كل أهل الكتاب، وفي المقدمة منهم من كانوا من اليهود، ثم من
كانوا من النصارى.

هذه الطائفة المقصودة قصداً أولاً في النص قد وُذت لو تستطيع إضلال
المؤمنين، وإخراجهم عن دينهم.

ولما اشتدَّت لديها هذه الرغبة الأتمة، الدالة على مبلغ ضلالهم عن الحق بإرادة
منهم، وإمعانهم في التوغُّل في أحوال الضلال بارتكاب جريمة إضلال الناس عن
الحق، وعن صراط الله المستقيم، بدأت تتخذ الوسائل لذلك:

الوسيلة الأولى: التضليل الفكري بلبس الحق بالباطل، أي: بخلط الحق
بالباطل، ودس عناصر الباطل ضمن عناصر الحق.

وهذه الوسيلة هي من أخطر وسائل التضليل في كل العصور، لأن عناصر
الحق في مجموع الأفكار المعروضة توهم أنها كلها حق، فيغلط الناظر إليها، فيعتق
الباطل المندس ويعتقده على توهم أنه حق.

الوسيلة الثانية: كتمان الحق الذي يعلمونه من كتبهم، فكتمان الحق من وسائل
التضليل، ككتمان الشهادة التي يُضلل كتمانها قضاة العدل.

الوسيلة الثالثة: هي وسيلة الدخول في الإسلام نفاقاً، والارتداد عنه بسرعة مسخطة عليه.

والغرض فتنه المسلمين الصادقين عن دينهم، وتشجيع الذين في قلوبهم مرض النفاق، أو مرض دون النفاق كالشك والتردد وعدم الاقتناع بعناصر القاعدة الإيمانية، مع صدق الانتماء إلى الإسلام، أو الميل إلى هذا الانتماء الصادق.

وهذه الوسيلة هي الوسيلة التي تدخل في موضوع بحث النفاق، وأعمال المنافقين، وهي تشبه وسيلة لصوص الحمام وهو يطير في السماء، إذ يبعث أحدهم سرباً من طيوره، ليقوم بجولة طيران يستمتع بتخليقه ونحويمه ثم هبوطه في بؤجه، وعودته إليه بعد جولة رياضية من جولات الطيران.

فيأتي آخر من أصحاب هذه المهنة، وهو لص من لصوصها، فيرسل حمامة من حمامه، فتختلط بذلك السرب، وهي معلمة بإتقان أن تعود إلى بؤجها، ولهؤلاء في اللصوصية والصيد وسائل استدراج.

حتى إذا حان وقت الهبوط والعودة، عادت المختلطة إلى صاحبها، فتغلط معها حمامات من السرب، أو تستدرج بوسيلة شيطانية، فتهدم معها، وتصل إلى بؤج اللص صاحب الحمامة الواحدة، فيصيد منها بشبكته ما يصيد، ويخسر صاحب السرب عدداً من طيوره.

فهذه حيلة من حيل التضليل، ووسيلة شيطانية من وسائل المضللين، وهي من الحيل اليهودية التي لهم منها عدة أغراض خبيثة.

• فمنها أن يصيدوا عند ردّتهم بعض المسلمين فيفتنهم عن دينهم، ويرتدوا معهم.

• ومنها أن يشجعوا منافقي العرب، والذين في قلوبهم مرض دون النفاق على الارتداد.

• ومنها أن يحدثوا في صفوف المسلمين تصدّعات، فيفقدوا ما هم عليه من تماسك وترباط وتلاحم وطمانية، ويخسروا قدراً عظيماً من طاقاتهم القائمة على مبدأ التلاحم في جسدية واحدة.

* ومنها أن يقدفوا في قلوب المسلمين الشك والحيرة، فيتج عن ذلك القلق والاضطراب.

* * *

وخاف أصحاب هذه الحيلة الشيطانية الخبيثة على جماعتهم من اليهود إذا دخلوا في الإسلام نفاقاً أن يتأثروا به، فيؤمنوا به إيماناً صادقاً، فأوصى بعضهم بعضاً فقالوا:

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾:

أي: ولا تؤمنوا متقادين حقاً مسلمين صدقاً إلا لمن تبع دينكم، وهو اليهودية.

* * *

ولكن ما السبب الداعي إلى إصرار اليهود على أن دينهم هو الدين الحق، وأنه لا يأتي بعد موسى دين حق من عند الله، وإصرارهم على كتمان ما لديهم من بشائر بالنبي الرسول محمد ﷺ؟

والجواب: يوجد احتمالان:

الاحتمال الأول: أن يتوهموا أن موسى عليه السلام هو صاحب الهدى بنفسه.

والرد على هذا الاحتمال قد جاء ببيان أن الهدي هدى الله، وليس هدى موسى حتى ينحصر به الهدي.

الاحتمال الثاني: أن يكون رفضهم للإيمان بمحمد ﷺ، ولإيمان بما جاء به عن الله، ناشئاً عن حسد له وللعرب، إذ جاء الرسول المخلص الموعود به، من غير اليهود، أو من غير سلالة بني إسرائيل.

والرد على هذا الاحتمال قد جاء بترجيح الإنكار عليهم، لجحودهم الحق بغيأ وحسداً من عند أنفسهم، أن يؤنئ أحد مثلما أوتوا.

أي: أتريدون أن تتأثروا وحدكم دون عباد الله أجمعين بفضل الله عز وجل ذي العطاء الواسع، والعلم الشامل، وهو بحكمته يختص برحمته من يشاء، وهو ذو الفضل العظيم.

* * *

أما كتمانهم ما عندهم من بشائر وما أخذ عليهم من عهد، بشأن رَسُولِ الله محمد ﷺ، فالدوافع له أن لا يكون ذكره والإعلان به حجة عليهم عند المناظرة، ولا حجة عليهم عند ربهم، ولئلا يعلم به عامة اليهود والأميون فيهم فيتأثر به ذوو العقل والإنصاف والخشية من الله عز وجل، فيؤمنوا ويسلموا ويتبعوا الرسول.

وقد جاء في النص بيان بعض هذه الدوافع، وترك بيان بعضها، لأن المتدبر الحصيف يسهل عليه إدراكه.

* * *

(٢)

المفردات اللغوية للنص

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ :

﴿وَدَّتْ﴾ : يقال لغة: وَدَّ يُوَدُّ وَدًّا، وَوَدَادًا وَمَوَدَّةً، إذا أَحَبَّ، والود من الحب هو ما كان هادئاً ثابتاً كالمودَّة بين الأصدقاء.

ويأتي الود بمعنى التمني والرغبة الشديدة، وما في النص هنا على هذا المعنى، فهو المناسب لما جاء فيه.

﴿طائفة﴾ : الطائفة هي الجماعة والفرقة، وجماعة من الناس يجمعهم مذهب واحد، أو رأي يمتازون به. وقد يُطلق اللفظ على واحد يمثل رأياً انفرد به، أو عملاً انفرد به.

﴿من أهل الكتاب﴾ : المراد بالطائفة من أهل الكتاب هنا جماعة من اليهود، لأن النص نزل بشأن جماعة منهم، والكلام عن حدث سبق نزول النص.

يبد أن هذا الحدث هو من الأحداث التي تكررت نظائرها فيما بعد وتكرر دوماً، فالعناية بذكره في القرآن تدل على أن له نظائر ستحدث في المستقبل، وأن على المسلمين أن يكونوا على بصيرة بها، وحذري منها.

﴿لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾ :

﴿لَوْ﴾: هنا للتمني، وهي لا تحتاج جواباً، واعتبارها هكذا أهون من اعتبارها شرطية مستعملة في التمني وجوابها محذوف.

﴿يُضِلُّونَكُمْ﴾: يخرجونكم من الهداية التي أنتم فيها إلى الضلال، وهو الضياع في مناهات الباطل، وأودية القباح والسيئات والمعاصي والمنكرات، إلى سائر ما يؤيق ويهلك، من فكر أو خلق أو سلوك.

﴿لِمَ تَكْفُرُونَ؟﴾:

استفهام إنكاري توبيخي.

﴿لِمَ تَلْسُونِ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ؟﴾:

اللبس: هو خلط الشيء بالشيء، تقول لغة: لبس فلان الشيء بالشيء يلبسه لبساً، أي: خلطه به، للتمويه، والتغير، والتضليل.

﴿وَجَهَ النَّهَارِ﴾:

أي: أول النهار، والاصل في وجه كل شيء أول ما يقابلك منه، وما يقبل من كل شيء، فهو من الدهر أوله، ومن النهار أوله، ومن النجم ما يبدو لك منه، ومن الثوب ما ظهر لك منه، ومن المسألة ما ظهر لك منها، وهكذا.

* * *

(٣)

ما روي في سبب النزول

(١) روى الطبري بسنده عن ابن عباس، قال: «قال عبد الله بن الصيف، وعدي بن زيد، والحارث بن عوف، بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غلوة، ونكفر به عبيئة، حتى نلبس عليهم دينهم، لعلهم يصنعون كما نصنع فيرجعوا عن دينهم، فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿يا أهل الكتاب لِمَ تَلْسُونِ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ...﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾...».

(٢) وروى الطبري بسنده عن قتادة في قول الله عز وجل: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَاتَّخَفُوا آخره﴾، فقال بعضهم لبعض: أعطوهم الرضا

بدينهم أول النهار، واكفروا آخره، فإنه أجذر أن يصدقوكم، وتعلموا أنكم قد رأيتم فيهم ما تكرهون، وهو أجذر أن يرجعوا عن دينهم.

(٣) وروى نحوه عن أبي مالك الغفاري، قال: قالت اليهود: أسلموا أول النهار، وارتدوا آخره، لعلهم يرجعون، فأطلع الله على سرهم.

(٤) وروى الطبري أيضاً بسنده عن السدي قال: كان أحبار قرى عربية، اثني عشر حبراً، فقالوا لبعضهم: ادخلوا في دين محمد أول النهار، وقولوا: نشهد أن محمداً حق صادق، فإذا كان آخر النهار فاكفروا وقولوا: إننا رجعنا إلى علمائنا وأحبارنا، فحدثونا أن محمداً كاذب، وأنكم لستم على شيء، وقد رجعنا إلى ديننا فهو أعجب إلينا من دينكم، لعلهم يشكون، يقولون: هؤلاء كانوا معنا أول النهار، فما بالهم؟

فأخبر الله عز وجل رسوله ﷺ بذلك.

(٥) وروى عن ابن عباس أيضاً: أن طائفة من اليهود قالوا: إذا لقيتم أصحاب محمد ﷺ أول النهار فآمنوا، وإذا كان آخره فصلوا صلاتكم لعلهم يقولون: هؤلاء أهل الكتاب، وهم أعلم منا، لعلهم يتقبلون عن دينهم، ولا يؤمنوا إلا لمن تبع دينكم.

(٦) وجاء في سيرة ابن هشام: أن طائفة من اليهود تذكروا فيما بينهم لتدبير مكيدة الدخول في الإسلام صباح النهار، والخروج منه آخره، ليقلدهم العرب المسلمون في ذلك.

وذلك أنه اجتمع عبد الله بن الصيف، وغدي بن زيد (وهما من يهود بني قينقاع) والحاتر بن عوف (وهو من يهود بني قريظة) فقال بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة، ونكفر به عشية، حتى نلبس عليهم دينهم لعلهم يصنعون ما نصنع، ويرجعون عن دينه، ففضح الله مكيدتهم هذه، وأنزل فيهم قوله: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...﴾ الآية.

وروي غير ذلك، وكلها روايات تدور حول مكر مكره طائفة من اليهود، جاء بيانه في النص القرآني الذي تدبره.

(٤)

مع النص في التحليل والتدبر

قال الله عز وجل خطاباً للمؤمنين أصحاب الرسول ﷺ :

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٦١) :

أي: تَمَنَّتْ طائفة من أهل الكتاب، وقد كانوا فريقاً من اليهود لو يُضِلُّوكُمْ عن طريق هدايتكم، فيُخْرِجُوكُمْ عن دينكم، إلى مناهات الضباع، وأودية الكفر، والفسق والفجور.

وقيل: إن جماعة من يهود بني قريظة، وبني النضير، وبني قينقاع، دَعَوْا عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ ومعاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان إلى الرجوع إلى الشرك.

هذا التمني مع محاولات الإضلال، والإخراج من دين الإسلام ظاهرة متكررة لدى جميع أهل الكتاب في كلِّ عصور تاريخ الأمة الإسلامية، وهذه الطائفة موجودة دواماً في اليهود وفي النصارى، وموجودة أيضاً لدى غيرهم من ملل الكفر، ولا سيما قادة المذاهب المادية الإلحادية كالشيوعيين.

وقد نزل قبل هذه الآية قول الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا
مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ فَإِنَّ
اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٨) .

وهذا التمني جاء التعبير عنه من قبل بعضهم بهجاء النبي ﷺ، كما كان يفعل الشاعر اليهودي كعب بن الأشرف.

ويظهر أن تمنيهم كان في حدود حركات نفسية، وتعبيرات كلامية، كانت فيما بينهم، وأقوال هجائية يطلقها شعراؤهم، وهو ما جاء بيانه في آية (البقرة).

ثُمَّ تَحَوَّلَ تَمَنِّيهِمْ إِلَى اتِّخَاذِ وَسَائِلٍ مَعَ بَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ لِإِضْلَالِهِمْ، وَإِخْرَاجِهِمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَهُوَ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي النَّصِّ الَّذِي نَتَذَكَّرُهُ مِنْ سُورَةِ (آل عمران)، وَيَذُلُّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ أَي: إِنَّ مَا يَحَاوِلُونَهُ بِوَسَائِلِهِمُ الْمُضِلَّةِ لِإِخْرَاجِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ عَنْ دِينِهِمْ لَا يُوَثِّرُ فِيهِمْ، فَمَنْ آمَنَ بِالْإِسْلَامِ عَنْ اقْتِنَاعٍ وَبَصِيرَةٍ وَصَلَّقَ لَا يَرْتَدُّ عَنْهُ إِلَى الشِّرْكَ، أَوْ إِلَى أَيِّ مَذْهَبٍ مِنْ مَذَاهِبِ الْكُفْرِ، أَوْ إِلَى أَيِّ دِينٍ بَاطِلٍ مَحْرَفٍ.

إِذَا فَهِمَ لَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، إِذْ يُضَيِّفُونَ إِلَى كُفْرِهِمُ الَّذِي سَيَعَابُونَ عَلَيْهِ، شَرًّا آخَرَ يَسْتَحَقُّونَ عَلَيْهِ عِقَابًا آخَرَ عِنْدَ اللَّهِ، أَلَا وَهُوَ رَغْبَتُهُمْ بِإِضْلَالِ الْمُهْتَدِينَ، وَمُمَارَسَاتِهِمُ الْعَمَلِيَّةَ لِإِضْلَالِهِمْ، فَيَكُونُونَ بِذَلِكَ قَدْ أَضَلُّوا أَنْفُسَهُمْ إِضْلَالًا جَدِيدًا مُضَافًا إِلَى ضَلَالِ كُفْرِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ.

وَمَا يَحَاوِلُونَهُ مِنْ إِضْلَالِ الَّذِينَ آمَنُوا حَقًّا وَصِدْقًا، لَا يَتَحَقَّقُ لَهُمْ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ مِنْ آمَنَ وَصَلَّقَ فِي إِيمَانِهِ عَنْ اقْتِنَاعٍ وَبَصِيرَةٍ، لَا يَتَأَثَّرُ بِوَسَاوِسٍ وَدَسَائِسِ الْمُضِلِّينَ، بَلْ تَزِيدُهُ هَذِهِ إِيمَانًا وَشِدَّةَ تَمَسُّكِ بِمَا يُؤْمِنُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ.

إِنَّمَا قَدْ يَتَأَثَّرُ بِوَسَاوِسٍ وَدَسَائِسٍ وَوَسَائِلِ الْمُضِلِّينَ، الَّذِينَ فِي نَفْسِهِمْ نَزَغَاتِ الضَّلَالِ، وَالِاسْتِعْدَادِ لَهُ، وَأَعْمَالِ الْمُضِلِّينَ تَضِيفُ إِلَى مَا فِي نَفْسِهِمْ مِنْ نَزَغَاتٍ، قُوَى مُسَاعِدَةً لِلشَّيْءِ فِي طَرِيقِ الضَّلَالِ، وَلَيْسَتْ هِيَ الْمُؤَثِّرُ الْحَقِيقِيُّ، لِذَلِكَ تَكُونُ مَسْئُولِيَّاتُ مَنْ ضَلُّوا مُتَأَثِّرِينَ بِوَسَائِلِ الْمُضِلِّينَ مَسْئُولِيَّاتٍ كَامِلَاتٍ.

هَذَا مَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَفْهَمَهُ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ:

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٦٩﴾.

أَمَّا أَنَّهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَفَهِمُوا مِنْهُ أَنَّهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِأَنَّهُمْ لَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، وَالشُّعُورُ هُوَ أَوَّلُ إِدْرَاكِ لِلشَّيْءِ، فَفَنِيهِ يُفِيدُ نَفْيَ أَذْنَى دَرَجَاتِ الْمَعْرِفَةِ، فَهُمْ غَافِلُونَ عَنْ الْحَقِيقَةِ سَائِرُونَ فِي غَيْبِهِمْ، يَقُومُونَ بِأَعْمَالِ إِضْلَالِ الْمُهْتَدِينَ، كَأَنَّهُمْ يُمَارِسُونَ هَذَا بَيْنَهُمْ إِلَى الْحَقِّ.

بَعْدَ بَيَانِ هَذَا التَّمَنِّيِّ لَدَى طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ خَاطَبَ اللَّهُ أَهْلَ الْكِتَابِ جَمِيعًا

بقوله:

﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ ٧٠ ٩٩.

في هذا الاستفهام الذي اشتملت عليه الآية مواجهة لهم بالاستنكار والتوبيخ على كفرهم بآيات الله الكانيات لإثبات الحق، ويزيد في دواعي التوبيخ كشف أنهم يعلمون أنها حق علماً بلغ مرتبة من يشهد الشيء شهود عيان، إذ قال لهم: ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي: والحال أنتم تشهدون الأدلة الدامغة لكم بأنها حق.

وآيات الله تشمل الآيات العقلية، والآيات الوجدانية، وآيات الله الجزائية، والخوارق والمعجزات، والنصوص القرآنية، وما لديهم من بشائر عن محمد ﷺ، وما أخذ عليهم من عهود ومواثيق أن يؤمنوا به حين يبعثه الله، ويتحققوا من أنه هو المبشر به الموصوف في كتبهم.

ويدخل في عموم هذا الخطاب الطائفة التي تؤذ إضلال المؤمنين المسلمين، دخولاً أولياً.

وقد خاطب الله عز وجل بمضمون هذه الآية أهل الكتاب خطاباً مباشراً بنفسه، لشدة الأهمية، باعتبار أن المضمون يتعلق بأصول الإيمان بالله، وهم يزعمون أنهم يؤمنون به وبآياته.

وبعد ذلك خاطبهم أيضاً خطاباً مباشراً بقوله لهم:

﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٧١ ٩٩.

وفي هذا الاستفهام أيضاً الذي اشتملت عليه هذه الآية مواجهة لأهل الكتاب بوجه عام – والمقصود علماءهم وأخبارهم العالمون بالحق والباطل – بالاستنكار والتوبيخ على عمليتين من أعمال التضليل التي يمارسونها.

الأول: لبسهم الحق بالباطل، أي: خلطهم الحق بالباطل، للتنويه والتضليل، والإيهام بأن الباطل المندس هو من قضايا الحق.

وهم يعلمون أنهم يفعلون ذلك تضليلاً للناس، وتغريراً بهم.

الثاني: كتمانهم الحق، ومن الحق الذي يكتُمونه ما في كتبهم من البشائر بنبي الله ورسوله محمد ﷺ، وهم يعلمون انطباقها عليه تماماً، لتعدد صفاته في كتبهم، وانطباقها جميعاً عليه ﷺ.

وهكذا ظهر لنا كيف خاطبهم الله عز وجل بطريقة مباشرة، موضحاً لهم على أمور ثلاثة:

الأمر الأول: كُفِّرْهُمْ بآيات الله وهم يشهدون أنها حق.

الأمر الثاني: لَبَّسَهُم الحق بالباطل، وهذا من وسائل تضليلهم للناس.

الأمر الثالث: كتمانهم الحق، وهدفهم من كتمان الحق ما يلي:

* أن لا تقوم عليهم الحجة بأنهم يرفضون الحق مع علمهم به.

* وتضليل من يتأثر بهم من أتباعهم وعوامهم، أو من غيرهم من العرب الذين لم يسلموا بعد، أو أسلموا ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبهم.

بعد ذلك كشف الله مكيدتهم التي تعتمد على الدخول في الإسلام نفاقاً، فالخروج منه سخطاً عليه، وفضحهم فيما تأمروا عليه قبل التنفيذ فقال الله عز وجل:

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا أَعْيُنُهُمْ لِعَلَّهُمْ لِيُخْشِعُوا أَعْيُنَهُمْ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ...﴾

أي: وقالت طائفة من أهل الكتاب بعضهم لبعض: أعلنوا إيمانكم بالذي أنزل على الذين آمنوا أول النهار، واكفُّوا آخر النهار، رجاء أن يرتد معكم بعض المؤمنين بمحمد عن الدين الذي جاء به. ولكن إياكم أن تؤمنوا إيماناً صادقاً، أو تتأثروا إذا دخلتم في الإسلام نفاقاً بما فيه من آيات، فتؤمنوا بعد ذلك إيماناً صادقاً، وإياكم أن تنقادوا أو تسلموا للمؤمنين.

وقال قادتهم من أحبارهم وعلمائهم لمن وجَّههم للقيام بمكيدة النفاق: ولا تؤمنوا متفادين أو مسلمين إلا لمن تبع دينكم من اليهود المحافظين على يهوديتهم. هذا ما تدلُّ عليه تعديّة فعل «ولا تؤمنوا» باللام، وذلك لأن فعل «آمن يؤمن»

(٣) والمقولة الثالثة: اختزل منها:

﴿أَوْ يَحَاوِرُكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾.

(٤) والمقولة الرابعة: خلاصتها:

﴿إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

(٥) والمقولة الخامسة: خلاصتها:

﴿يَخْصُصُ رَحْمَتَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

إن موقف اليهود يتلخص برفض كل دين جديد جاء بعد موسى عليه السلام، ما لم يكن تابعاً له، ومعتمداً على ما جاء في نصوص التوراة.

فما هي أسباب هذا الموقف المتعنت؟

بالفكر المتعمق ينكشف لنا أن موقفهم يشتمل على ثلاثة عناصر:

العنصر الأول: دعوى باطلة لا دليل عليها.

العنصر الثاني: دوافع نفسية من وراء الدعوى الباطلة.

العنصر الثالث: كيد تضليلي، لصد الناس عن الدين الحق، وصراط الله المستقيم، وإيهام الناس بأنهم على الحق.

* أما الدعوى التي لا دليل عليها: فهي ادعاؤهم أنه لا هدى إلا هدى موسى عليه السلام.

وفي هذا حصر للهداية به، بقطع صلتها بالله منزّل الهدى على موسى، ومن له أمر الهدى كله، أو بإلزام الله بأن لا ينزل هدى على أحد بعد موسى، أو بادعاء أن الله التزم بأن لا ينزل هدى على أحد بعده، وأخبر بذلك في التوراة أو على لسان موسى عليه السلام.

والرد على هذا الادعاء الكاذب الباطل يكون ببيان أن الهدى هدى الله، فهو الذي أوحى إلى موسى وكلمه، وهو الذي أنزل عليه التوراة، وهو الذي اصطفاه رسولاً.

وبما أن الأمر كذلك فالمنظرة لأصحاب هذه الدّعوى تكون بطرح الأسئلة التالية، ومناقشتهم على أساسها:

(١) هل يتمتع على الله أن يُنزل هدى آخر على من يصطفي من عباده، بعد الهدى الذي أنزله على موسى؟

(٢) هل يتمتع على الله تعالى أن يعث رسولا أو رُسُلاً بالدين الحق للناس، وبأحكام وتكاليف فيها تعديل ونسخ وزيادات؟

(٣) هل يتنافى مع حكمته سبحانه شيء من ذلك؟

(٤) هل أبان الله في التوراة أو على لسان أي نبي من أنبياء بني إسرائيل أنه قطع الرسالات وختمها بموسى، فلا رسول بعد موسى؟

والجواب في كل هذه الأسئلة هو النفي حتماً، فإذا لم يُجيئوا بالنفي فالحجج البرهانية تدفعهم كما يلي:

أولاً: البرهان العقلي يُثبت أن الله أن يُنزل هدى آخر بعد الهدى الذي أنزله على موسى، وأن الله أن يعث رسولا ورُسُلاً بعد موسى، وأنه لا يتنافى شيء من ذلك مع حكمته عز وجل.

ثانياً: إنهم يُثبتون في كتبهم عدداً كثيراً من أنبيائهم أوحى الله إليهم بكلام من كلامه، وأنزل عليهم هدى زائداً على الهدى الذي أنزله على موسى.

ثالثاً: الدليل النقلى يُثبت أن الله عز وجل قد بين لأهل التوراة أنه سَيُرْسِلُ النبي الخاتم، وأخذ العهد والميثاق عليهم أن يؤمنوا به إذا جاء، وأن يتبعوه، ويعملوا بما يأتيهم به عن ربهم.

ولكن اليهود كَتَمُوا ما في كتبهم من بشارات بالنبي المنتظر، وجحدوها بعد بعثة النبي محمد ﷺ، أما قبل بعثته فقد كانوا يظهرونها، ويتحدثون بها.

هذه الحجج الدامغات قد رمزت إليها الفقرة المختزلة من المقولة الأولى من التعليم الرباني:

﴿إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾

أي : وبما أن أصل الهدى هُدى الله لا هُدى موسى أو غيره، فله أن يرسل غير موسى رسلاً يحملون للناس هُدى الله ، والله أن يكلف الناس باتباع من يختارهم ويصطفيهم لحمل رسالاته.

إنَّ مَثَلُ مَنْ يرفض الرُّسُولَ اللاحق متعصباً للرُّسُولِ السَّابِقِ، كمثُل من يرفضُ مبعوث الملك القائم تعصباً لمبعوثه السَّابِقِ الذي مضى زمانه، والمبعوث إنما يُمثِّلُ مَنْ بعثه، ويُبَلِّغُ كلامه، وليس يمثِّلُ نفسه، ولا يعبر عن إرادته الخاصة.

* وأما الدافع النفسي: فهو يرجع إلى انانيّة اليهود المفرطة، ورغبتهم الشديدة في حصر كلّ الخير الرِّبَّانِيّ ببني إسرائيل، وحسدهم العرب إذ بعث الله النبيّ الرسول المتظر منهم لا مِن بني إسرائيل.

يضاف إلى ذلك إرادتهم العمل بالتحريفات التي أدخلوها على دين الله، لأنها توافق أهواءهم وشهواتهم، وليس فيها تكاليفُ شاقّةٌ تصطدم مع ما يَهْوَوْنَ من فجور وظلم وعدوانٍ على الناس، ورغبة في التسلّط على شعوب الأرض.

* وأما الكيدُ التضليلي: فقد تمثّل بعنصرين كما سبق :

الأول: لَبَسَ الحقَّ بالباطل وهم يعلمون.

الثاني: كَتَمَ الحقَّ وهم يعلمون.

وهذا لا يحتاج من المناظر أكثر من التوبيخ على لَبَسِ الحقِّ وكتمانهِ، بعد تمييز عناصر الباطل من عناصر الحقِّ، وبعد كشف ما لَذِبَهُم من علمٍ يكتُمونه، وإقناعهم بأنّ كلا طريقتي التضليل ممّا يزيدهم ضلالاً عند الله ولا يقيدهم في الوصول إلى ما يَهْوَوْنَ ويشتهون من إضلال المؤمنين الصادقين الفاهمين لعناصر إيمانهم.

والأسلوبُ الإقناعي حول الدافع النفسي والكيد التضليلي يتلخّص بما يلي :

(١) إِنَّكُمْ تَكْرَهُونَ حَسْداً وَبَغْياً من عند أنفسكم أن يؤتى أحدٌ مثلكم أوتيتم، وهذا لا ينفعكم عند الله بشيء، بل تُضِلُّونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ.

(٢) هل تملكون أن تمنعوا أن يُؤْتَى أَحَدٌ مثلكم أوتيتم من اصطفاه موسى وعدد من الأنبياء منكم، وأنتم تعلمون أنّ الأمر تابع لإرادة الله، ولحكمته في عطائه واختياره

أي: لا يؤثرون بوسائل إضلالهم على المؤمنين الصادقين، إنما يُمِئنون في إضلال أنفسهم، بارتكاب آثام يستحقون عليها عقاباً فوق عقاب كفرهم وتوليهم عن دعوة الرسول محمد ﷺ.

(٢) ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ؟﴾

أي: لم تُعرضون أنفسكم لعقاب الله بالكفر الإرادي بآياته التي تشهدون برهان أنها آيات الله حقاً وصدقاً، فلا عُذر لكم عنده في أن تكفروا بها.

(٣) ﴿لِمَ تَقُولُونَ الْحَقَّ بِالْبَطْلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ؟﴾

أي: لبسكم لا ينفعكم، بل يذمكم عند الله بجريمة تحريف الدين، وكتمان الحق الذي فيه، وهذا يُضيف إلى عقابكم عقاباً آخر.

(٤) ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ هُوَ الَّذِي هَدَى اللَّهُ﴾

أي: فليس هُدى موسى أو أحد من بني إسرائيل حتى تتعصبوا له تعصباً قومياً، والله يصطفي لتبليغ هُده من يشاء، من بني إسرائيل أو غيرهم.

(٥) ﴿أَنْ يُؤْتِيَ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ؟﴾

أي: أنرفضون هدى الله الذي أنزله على رسوله محمد حسداً من عند أنفسكم، وكراهية أن يؤتى أحد من خلق الله مثلاً أُوتيتُم من اصطفاء رُسل منكم، وإنزال هدى الله عليهم؟ أو أنكفرون بما أنزل من عند ربكم وتتخذون وسائل الإضلال عنه لاجل أنه غاظكم أن يؤتى أحد مثلاً أُوتيتُم؟

(٦) ﴿أَوْ يَحْجُوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ؟﴾

أي: أنكتُمون الحق الذي عندكم عن المسلمين وأنتم تعلمونه، خشية أن يحاجوكم عند ربكم، ليس الله عليماً بكل ظواهركم وبواطنكم، ويكل ما تُعلنون، وما تُسرون؟ إنه لا تخفى عليه خافية، وسيعاقبكم على كتمان الحق.

وترابط الجملتين كما يلي: أنحسدون فتجحدون وتُضِلُّون، أو تتبعون أهواءكم فتجحدون وتكتُمون ما عندكم خشية أن يحاجوكم به عند ربكم.

(٧) ﴿إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

أي: إن العطاء الزائد الذي يتفضل الله به على عباده، ليس لأحد به حق، وليس لأحد أن يطالب به الله، ولكن الله هو الذي يؤتيه بحكمته من يشاء.

على أن الله عز وجل قد منح من فضله كل عباده، إذ هو سبحانه واسع الجود، واسع العطاء، واسع الفضل، يمنح منه عباده بحكمته المقرونة بعلمه المحيط بكل شيء، ما يشاء على ما يشاء.

الفضل: هو الزيادة، ويأتي بمعنى الإحسان والعطاء، ابتداءً دون علة ولا جزاء.

(٨) ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾:

أي: وبما أن الاصطفاء بالنبوة والرسالة فضل يتفضل به الله بمقتضى علمه وحكمته على من يشاء من عباده، وهو من الله رحمة، فهو عز وجل يختص بفيض فضله ورحمته من يشاء من عباده، على أن مشيئة الله عز وجل مقرونة بواسع علمه، وعظيم حكمته.

(٩) ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾:

أي: والله ذو الفضل العظيم على كل عباده، من اختصه منهم برحمة خاصة، ومن لم يختصه منهم بها، ليس من فضل الله تكريم بني آدم وتفضيلهم على كثير ممن خلق تفضيلاً عظيماً؟ ألا يكفي بني إسرائيل أن جعل الله منهم أنبياء ورسلًا وملوكاً؟ أيرون أن يحتكروا لأنفسهم كل فضل الله، فهم يكرهون أن يأتي من غيرهم الرسول الخاتم الموعود به؟ أفبتبع الحق أهواءهم؟ هذا مرفوض حتماً.

وبعد بيانات عديدة تتعلق بأهل الكتاب من اليهود عقب هذا النص الذي تدبرناه من سورة (آل عمران) ومناقشات لهم متعددة، قال الله عز وجل لرسوله فيها:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

• • •

النص الثامن

من سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول) ثالث سورة مدنية

الآيات من (١١٨ - ١٢٠)

حول نهي المؤمنين عن اتخاذ بطانة من المنافقين

لأنهم مفسدون مبغضون مغيظون

في هذه السورة حذر الله المؤمنين الصادقين من اتخاذ المنافقين الذين تبدؤ عليهم أمارات النفاق وعلاماته، بطانة مداخله مخالطة، تطلع على الأسرار، وتعمل على ضرر المسلمين المؤمنين، وإفساد خططهم، ونقل المعلومات إلى أعدائهم المجاهدين بعداوتهم، وتبسيط المؤمنين عن الخروج مع الرسول في الغزوات، وعن المشاركة الجادة في القتال، إلى غير ذلك من أعمال فساد وإفساد، فصلت وقائعها نصوص قرآنية متعددة، وأطلقت الأفكار للحذر من نظائرها وأشباهها، وتقديرها ذهنياً، ومتابعة تحركات المنافقين بمقتضاها.

فقال الله عز وجل خطاباً للمؤمنين الصادقين :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْيَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَآؤُنَّ أَزْوَاجٌ مُّحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَهُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ عَلَيْهِ إِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا يَعْبَثُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَسْتَكْسِمُوا حَسَنَةً نَّسُوهُمْ وَإِن تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَّفْرَحُوا بِهَا وَإِن تُصِيرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾

(١)

القراءات المتواترة في هذا النص (من الفرش)

* في الآية (١٢٠):

(١) قرأ جمهور القراء العشرة [لا يَضْرُكُم] من ضَرَّةٍ يَضْرُءُ.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب [لَا يَضْرُكُم] من ضَارَةٍ يَضِيرُهُ إِذَا أَضْرَبَهُ.

والمعنى في القراءتين واحد، واللفظتان ماذنات لغويتان متكافئتان.

* * *

(٢)

الفكرة العامة للنص

اشتمل هذا النص على تحذير شديد للمؤمنين، من اتخاذ بطانة تُطْلِعُ على أسرار المؤمنين، من المنافقين المخالطين للمؤمنين في الأعمال العامة، ومختلف أنواع الحركات والنشاطات اليومية، فضلاً عن الكافرين المجاهرين بكفرهم وعداوتهم، ويلحق بهم الذين لا يُؤْمِنُونَ على أسرار المسلمين من الذين في قلوبهم مرض دون النفاق، ومن الفاسقين الذين يَسْهَلُ عليهم بيع ضمائرهم للأعداء.

وقد بيّن النص أسباب هذا التحذير الشديد، فالمنافقون في هذه المرحلة التي نزلت فيها سورة (آل عمران) وهي مرحلة ما بعد غزوة أحد، التي انْخَدَلُ فيها المنافقون عن الرسول والمؤمنين معه، بقيادة عبد الله بن أبي ابن سلول، وهي مرحلة بلغ المنافقون فيها مبلغ التكلُّل المستور، وتدبير المكاييد ضد المؤمنين في الخفاء، وقد طال بهم الانتظار، واشتدَّ غيظهم من الرسول ﷺ ومن المؤمنين الصادقين معه.

* أمّا أسباب التحذير الشديد من اتخاذ بطانة من المنافقين فهي كما يلي:

الأول: أنهم لا يَقْصُرُونَ ولا يَبْطِئُونَ في إفساد أحوال المؤمنين، وإنزال الضرر بهم، وتوهين قواهم، وتمزيق صفوفهم، ومؤازرة أعدائهم ضدَّهم، حتَّى استئصال شأفتهم.

الثاني: أنهم يتمنون أن ينزل بالمؤمنين كلُّ بلاءٍ وعَنْتٍ وَمَشَقَّةٍ وَضَرَرٍ، وهذا يدفعهم إلى اتخاذ الوسائل لتحقيق ما يتمنون، وإلى تدبير المكاييد ضدَّ المؤمنين.

الثالث: أنَّ أمارات بُغْضِهِم للمؤمنين قد ظهرت فعلاً من أقوالهم وفلتاتِ الستهم، والخبير الذكي الْفَطِنُ يستطيع أن يكشف ما في خبايا القلوب والنفوس، من معاريض الأقوال وفلتات الألسنة.

هذا مع أنهم يُبالغون جداً في كُتْم ما في قلوبهم ونفوسهم، لئلا يكشف للرسول ﷺ أول المؤمنين الصادقين نفاقهم فيحاسبوهم على كفرهم في باطنهم الذي تظهر دلائل الإدانة به.

الرابع: أنَّ ما تخفيه صدورهم من بُغْضَاء للمؤمنين، وما تدفعُ إليه هذه البغضاء من مكبرٍ وكيدٍ، واتخاذ الوسائل للإضرار بالمؤمنين، هو أكبرُ مما ظهرَ من أمارات البغضاء على الستهم.

الخامس: أنَّ منافقي اليهود منهم وهم أخطرهم وأخبثهم ومُوجهوهم كان المفروض فيهم أن يكونوا أخفَّ شراً وضرراً من منافقي المشركين، بسبب أنَّ المسلمين المؤمنين الصادقين يؤمنون بكتب الله كلها، ومنها التوراة، وبسبب أنهم يُحبُّون هؤلاء المنافقين بدافع الأخوة الإيمانية، وبراءة قلوبهم ونفوسهم تجاههم، إذ يعاملونهم بحسب ظاهرهم.

لكن هؤلاء المنافقين من اليهود يقابلون محبة المؤمنين لهم بالبغض إلى حدِّ أنهم إذا خلَّوْا غُصْوا أناملهم من الغيظ من المؤمنين، فلرأى أكنههم أن يعصوهم عَصَ افتراسٍ للفتك بهم لفعلوا ذلك، فغَبَرُوا عن مشاعرهم هذه بعض أناملهم، دلَّ على هذه المشاعر قوله تعالى في النص خطاباً لمؤمنين:

﴿وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ الْأَنْامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾.

ودلَّ هذا أيضاً على كفرهم في قلوبهم على نقيض ما يتظاهرون به من إيمانٍ وحبٍّ للمؤمنين، فإذا لُقُوا المؤمنين قالوا لهم: آمنا، أي: ونحن نجبُ إخواننا المؤمنين، وإذا خلَّوْا كشفوا كفرهم وبُغْضَهُم للمؤمنين المصحوب بإرادة الفتك بهم.

ولا بُدَّ أن يدفعهم غيظهم الشديد من المؤمنين إلى تدبير المكاييد ضدَّهم.

السادس: أنهم يرقبون أحوال المؤمنين وما ينزل بهم تبعاً يوماً فيوماً، بعين عدو حاقبٍ ماهر. فَإِنْ تَمَسَّسَهُمْ حَسَنَةً مَا وَلَوْ كَانَ مَسًّا رَفِيقًا، وبنسبة قليلة، ساءهم ذلك، وَإِنْ تَصَبَّهَتْ سَيِّئَةٌ مَا يَفْرَحُوا بِهَا، لأنهم في قلوبهم ونفوسهم أعداء للمؤمنين، ممثلون غيظاً منهم، وبغضاً لهم.

هذه هي أسباب التحذير من المنافقين عامة، ولا سيما منافقو اليهود، فهم الأخبث والأشد كيداً ومكرًا، وغيظاً وحنقًا، وعداوةً وبُغضًا.

* وأما المنهج الرباني الذي وجّه الله المؤمنين أن يسلكوه في هذا النص، لاتقاء شرورهم، فيتلخص بالأعمال التالية:

أولاً: الّا يتخذ المؤمنون بطانةً من المنافقين، أي: الّا يُقرّبوهم إلى أماكن أسرارهم، ولا يُطْلِعُوهم على ما يذُبّرون ويُخْطِطُونَ، ولا على ما يُعدّون من قوى يجب إخفاؤها عن العدو.

فمن الساجب على المؤمنين الّا يجعلوا أحداً من المنافقين بعض خاصيتهم، أو مستشارين لهم، أو ولاةً أو أمراء أو موظفين وعمالاً في المواطن التي يُطْلِعُونَ فيها على أسرار المؤمنين، وبواطن أمورهم وتدابيراتهم وخُطَطهم.

ثانياً: أن يثقوا بالله ويتوكّلوا عليه، فهو الذي سيُنصِرُهُم ويحميهم من مكاييد المنافقين وشرورهم، إذا اتبعوا أوامره واجتنبوا نواهيه، والتزموا منهاجه في السلم والحرب، ومنها أن لا يتخذوا بطانةً من غير المؤمنين الصادقين الأكفيا لحمل أمانة أسرار المسلمين.

وأن يعلنوا للمنافقين بوجه عام، دون تعيين أسمائهم، أو تحديد أعيانهم بالخطاب، فيقولوا لهم: موتوا بغيتكم، أي: استمروا على غيتكم حتى نأتيكم آجالكم، أوليشتد غيتكم حتى يكون سبباً قاتلاً لكم مُميتاً، فإنكم لن تُحقّقوا ما تَتَمَنُّونَ في المؤمنين، إذ سينصرهم الله ويؤيدهم بتأييد من لدنه، ويخذل أعداءهم المجاهرين بعداوتهم وأعداءهم المستخفين بعداوتهم من المنافقين، وسيُخِيط الله مكاييد المنافقين وكلّ تدبيراتهم ضدّ المؤمنين، أو ضدّ انتشار الذين وظهروا، وسيزداد بذلك غيظهم، وسيستمرّ فيهم حتى يكون قاتلاً لهم، أو مصاحباً لهم بالآمه حتى

يموتوا وهم مغناظون أشد الغيظ.

واكتفى النص بإشارة عبارة: ﴿قُلْ: مُوتُوا بغَيْظِكُمْ﴾ للدلالة على كل هذه المعاني.

والخطاب بوجه عام دون تعيين أشخاص، فيه من الحكمة أن تبقى لهم ذرائع الاستخفاء بكفرهم والتبري من أنهم مقصودون بالخطاب، والتبري من معرفة النفاق.

ثالثاً: أن يصبروا عليهم، ولا يترلوا بهم بقمعهم قبل أن يأذن الله لهم، أو تثبت إدانتهم صراحة بالكفر والردة، كما هو معلوم من أحكام الدين، دل على هذا في النص: ﴿وَأِنْ نَصَبُوا﴾.

رابعاً: أن يتقوا الله ربهم في كل أعمالهم، وأن يكونوا على حذر شديد من المنافقين، وفي حالة مراقبة تامة لهم ولتحركاتهم، ولما يدبرون في الخفاء، ليتقوا شرورهم، وليبادروهم بإحباط أعمالهم ضد المؤمنين أو ضد الإسلام قبل أن تبلغ مداها. دل على هذا في النص: ﴿وَتَتَّقُوا﴾.

النتيجة:

فإذا حقق المؤمنون التوجيهات الربانية التي جاءت في هذا المنهج، لم يضُرهم كيدُ المنافقين شيئاً، لأن الله سيكون معهم وناصرهم ومؤيدهم، ومُحِيطُ مكائدهم أعدائهم، ومنهم المنافقون المندسبون في صفوفهم والمخاطبون لهم. فالله واسع قدير، محيط بما يعملون، فلا يسمح لمكائدهم بأن تصل إلى غايتهم منها. دل على هذه النتيجة في النص:

﴿وَأِنْ نَصَبُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

(٣)

المفردات اللغوية للنص

﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾: اتَّخَذَ: افْتَعَلَ من «أَخَذَ» ويأتي الأخذ والاتخاذ في اللغة بمعانٍ كثيرة، منها: حيازة الشيء، والحصول عليه، وتناوله، وقبوله، ولوازمها، ومع اللوازم

وَأَشْتَقُّ مِنْ مَعْنَى الْمَكَانِ التَّحْتَى كَلِمَةُ «الدُّون» بِمَعْنَى الْخَسِيسِ الْحَقِيرِ.

لِذَا أَلَا حَظَّ فِي مَعْنَى «مِنْ دُونِكُمْ» مِنْ غَيْرِكُمْ مَتَى هُمْ سَافِلُونَ بِكَفَرِهِمْ أَوْ نِفَاقِهِمْ أَوْ تَرْدُّدِهِمْ وَعَدَمِ ثَبَاتِ إِيْمَانِهِمْ مِنَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، وَقَدْ يُلْحَقُ بِهِمُ الْفَاسِقُونَ الَّذِينَ لَا أَمَانَةَ لَهُمْ عَلَى الْأَسْرَارِ، فَهُمْ لَيْسُوا فِي مَرْتَبَةِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ الْقَائِمِينَ بِمَقْتَضِيَاتِ إِيْمَانِهِمْ.

وَكَلِمَةُ (مِنْ) فِي هَذَا التَّعْبِيرِ هِيَ بِمَعْنَى التَّبْعِيضِ، وَهُوَ أَحَدُ مَعَانِيهَا، أَوْ بِمَعْنَى الْجِنْسِ، أَيْ: لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً كَانَتْ بَعْضُ غَيْرِكُمْ السَّافِلِينَ عَنْ مَرْتَبَتِكُمْ فِي الْإِيْمَانِ، أَوْ: لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً هِيَ مِنْ جِنْسِ غَيْرِكُمْ السَّافِلِينَ عَنْ مَرْتَبَتِكُمْ فِي الْإِيْمَانِ.

﴿لَا يَأْلُوْنَكُمْ خِيَالًا﴾: أَيْ: لَا يُقْصِرُونَ مُجْتَهِدِينَ، وَلَا يُبْطِئُونَ فِي إِلْقَاءِ الْإِفْسَادِ وَالْإِضْرَارِ بِكُمْ.

يَالُو: مُضَارِعُ فَعَلَ: أَلَا، يَالُو، أَلُوْا، وَأَلُوْا، وَأَيَّأَ، وَهُوَ يَأْتِي بِمَعْنَى اجْتَهِدْ، وَبِمَعْنَى فَتَرَ وَضَعْفَ، وَقَصَّرَ، وَأَبْطَأَ.

نَقُولُ لَصَدِيقِكَ: لَا أَلُوْكَ نَضْحًا، أَيْ: لَا أَنْقُصُكَ نَضْحًا، فَأَنَا أَبْذُلُهُ لَكَ مُجْتَهِدًا غَيْرَ فَاتِرٍ وَلَا ضَعِيفٍ وَلَا مُقْصِرٍ وَلَا مُبْطِئٍ.

وَنَقُولُ لَعَدُوِّكَ: لَا أَلُوْهُ خِيَالًا، أَيْ: لَا أَنْقُصُهُ مَا اسْتَطَعْتُ مِنْ فُسَادٍ وَإِضْرَارٍ بِهِ، فَأَنَا اجْتَهِدُ فِي ذَلِكَ فَلَا أَفْتَرُ وَلَا أَضْعُفُ وَلَا أَقْصِرُ وَلَا أَبْطِئُ.

خِيَالًا: الْخِيَالُ النِّقْصَانُ، وَالْهَلَاكُ، وَالسُّمُّ الْقَاتِلُ، وَالْخِيَالُ فُسَادُ الْعَقْلِ، وَالْجُنُونُ، وَفُسَادُ عَضْوٍ مِنَ الْأَعْضَاءِ مِنْ دَاءٍ أَوْ قَرَحٍ، أَوْ قَطْعٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، وَهُوَ مُصْدَرٌ خَبِلَ يَخْبِلُ خَبَلًا، وَخَبَالًا.

وَيُقَالُ: خَبِلَتْ يَدُهُ إِذَا شَلَّتْ، فَهُوَ خَبِلٌ وَأَخْبِلٌ، وَهِيَ خَبَلَاءُ، وَالْجَمْعُ «خَبَلٌ».

وَيَأْتِي الْخَبْلُ بِمَعْنَى الْجِرَاحِ، وَالْفَتْنَةُ مِنْ جِرَاحٍ أَوْ قَتْلٍ.

فِعَاذَةُ الْكَلِمَةُ تَدُورُ حَوْلَ أَنْوَاعِ الْإِفْسَادِ وَالْإِضْرَارِ.

﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ : أي : تَمَنُّوا عَنَتَكُمْ ، أي : مشقتكم والإضرار بكم ، وإفساد أعمالكم .

الْعَنَتُ : المشقة ، والتعب ، وشِدَّةُ الضَّرَرِ وَتَحْمِلُ الْأَلامِ وَالْفَسَادِ .

يقال لغةً : عَنَتَ الشَّيْءُ يَعْتُ عَنَتًا ، إِذَا فَسَدَ . وَعَنِتَ فُلَانٌ يَعْتُ إِذَا وَقَعَ فِي مَشَقَّةٍ وَشِدَّةٍ . وَعَنِتَ الْعَظْمُ إِذَا انْكَسَرَ بَعْدَ الْجَبْرِ . وَيُقَالُ : اعْنَتَ فُلَانٌ فُلَانًا إِذَا أَوْعَمَهُ فِي مَشَقَّةٍ وَشِدَّةٍ . وَاعْنَتَ الْمَرِيضُ ، إِذَا أَضْرَبَهُ ، وَأَفْسَدَهُ .

﴿الْبَغْضَاءُ﴾ : شِدَّةُ الْبَغْضِ .

﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾ : الْغَيْظُ أَشَدُّ الْغَضَبِ مِنْ أَمْرِ مَكْرُوهٍ ، مَعَ عَدَمِ التَّعْبِيرِ عَنْهُ بِمَا يُهَوِّنُ مِنْ ضَغْطِهِ عَلَى النَّفْسِ ، وَلَكِنْ يُلَازِمُهُ غَالِبًا الرِّغْبَةُ بِالْإِنْتِقَامِ .

﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ : أي : بصاحبة الصدور ، وهي ما يكون في القلوب والنفوس من خواطر ، وأنفعالات ، وحركات وجدانية ، ونِّيَّاتٍ ونحو ذلك . فذاتُ الصدور هي صاحبة الصدور المختصةُ بها ، والتي لا تكون في غيرها ، وقد تظهر في السِّمَا الظاهرة أماراتها ، وفي الأعمال آثارها .

﴿إِنْ تَمَسَّكْتُكُمْ خَسَنَةٌ﴾ : الْمَسُّ هُوَ الْإِلْتِصَاقُ السُّطْحِيَّ الْخَفِيفُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ . وَالْحَسَنَةُ : مَا يَسَّرُ مِنْ خَيْرٍ .

﴿وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ : يُقَالُ : أَصَابَ الشَّيْءُ ، إِذَا أَذْرَكَهُ أَوْ نَزَلَ بِهِ ، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنَ الْمَسِّ لِأَنَّهُ قَدْ يَنْفِذُ إِلَى الْعُمُقِ ، كِإِصَابَةِ السَّهْمِ الْهَدَفِ .

والمصيبة : من فعل أصاب ، وهي تُطْلَقُ عَلَى كُلِّ مَكْرُوهٍ يَحُلُّ بِالْإِنْسَانِ ، جَمْعُهَا مَصَائِبُ . وَالْمُصَافُ : الشَّدَّةُ النَّازِلَةُ .

وَالسَّيِّئَةُ : مَا هُوَ مَكْرُوهٌ مِنْ شَرٍّ أَوْ ضَرٍّ أَوْ آيٍ مُؤَلِمٍ .

﴿كَيْدُهُمْ﴾ : الْكَيْدُ : الْإِحْتِيَالُ ، وَالْاجْتِهَادُ ، وَالْحَرْبُ ، وَكُلُّ تَدْبِيرٍ لِأَمْرٍ مَا ، وَالْمَادَّةُ تَدُورُ حَوْلَ اتِّخَاذِ أَعْمَالٍ وَتَدْبِيرَاتٍ تُوقِعُ الْمَقْصُودِينَ بِالْكَيدِ بِمَا يَكْرَهُونَ ، وَهُوَ يَكُونُ فِي الشَّرِّ ، وَيَكُونُ فِي الْخَيْرِ ، لَكِنَّ كَيْدَ الْمُنَافِقِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ لَا يَكُونُ إِلَّا شَرًّا .

(٤)

حول سبب النزول

لم يأت في أقوال شيوخ المفسرين من الصحابة والتابعين روايات تبين سبب نزول هذا النص.

لكن تواردت أقوال أكثرهم على أن المراد بما جاء فيه المنافقون، ولا سيما اليهود منهم، فالآيات قبل هذا النص تتحدث عن اليهود من أهل الكتاب، وفي هذا النص إشارة إليهم في قوله تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أي: وتؤمنون بكل الكتب الربانية ومنها التوراة التي يؤمنون هم بها، ولا يؤمنون بالقرآن كتاب الله الخاتم للكتب الربانية.

والقول بأن هذا النص قد نزل في المنافقين. رواه الطبري بأسانيده عن مجاهد، وقتادة، والربيع، والسدي، وابن جريج، وابن زيد، وهو إحدى روايتين عن ابن عباس، ويدل على هذا من النص قوله تعالى فيه:

﴿وَإِذَا الْقَوْمُ قَالَوْا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَٰلِيَكُمْ ۖ فَلَا تَأْمَنُ مِنَ الْفَيْضِ...﴾

(٥)

مع النص في التحليل والتدبر

قول الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ۖ

أي: يا أيها الذين آمنوا ضاحقين في إيمانكم، لا تتخذوا أجنلاء، أو أصفياء، أو أصدقاء، أو أولياء، أو عمالاً في أعمال يطلعون فيها على أسرار المسلمين، وخفايا أمورهم، وما يذنبون من خطط للسلم والحرب، من دون المؤمنين الصادقين في إسلامهم، أي: من غير نوعهم وصفهم وجنسهم، لأننا يتمكنوا بذلك من مخالطتكم ومدخلتكم في أموركم المهمة، فيطلعوا بذلك على أسراركم، وبواطن أحوالكم وشؤونكم، ثم يتخذوا من مواقعهم أسباباً للإضرار بكم، وإفساد أموركم.

إِنَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِنْ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ فِي إِيْمَانِهِمْ
وإِسْلَامِهِمْ أَصْدِقَاءَ وَلَا وُلَاةَ وَلَا أَمْرَاءَ وَلَا مُشْتَارِينَ وَلَا عَمَلَاءَ وَمُوظِّفِينَ يَطْلَعُونَ عَلَى
أَسْرَارِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَيُوَاطِنُ أُمُورَ الْمُؤْمِنِينَ.

وَلَمَّا كَانَ الْخُطَابُ فِي هَذَا النَّصِّ لِلَّذِينَ آمَنُوا، فَالَّذِينَ هُمْ مِنْ دُونِهِمْ يَشْمَلُ كُلُّ
غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ فِي إِيْمَانِهِمْ وَإِسْلَامِهِمْ، وَيَتَاوَلُ أَوَّلَ مَا يَتَاوَلُ الْمُنَافِقِينَ وَأَهْلَ
الرَّيْبِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، لِأَنَّهُمُ الْمُخَالِطُونَ الدَّخِلُونَ فِي صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ،
بِمَقْتَضَى ظَاهِرِ إِسْلَامِهِمْ، وَهَمُ الَّذِينَ قَدْ يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ بَطَانَةً مِنْهُمْ، اغْتِرَاراً بِهِمْ،
وَعَمَلَاءَ بِظَاهِرِ أَحْوَالِهِمْ، إِذْ قَدْ أَعْلَنُوا انْتِمَاءَهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ.

أَمَّا الْكَافِرُونَ الصُّرَحَاءُ الْمَجَاهِرُونَ بِكُفْرِهِمْ وَعِدَاوَاتِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَوْ أَهْلِ
الْكِتَابِ أَوْ غَيْرِهِمْ، فَالتَّحْذِيرُ مِنْ اتِّخَاذِ بَطَانَةٍ مِنْهُمْ أَمْرٌ مَعْلُومٌ لَدَى الْمُؤْمِنِينَ، فَقَدْ سَبَقَ
فِيمَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ قَبْلَ هَذَا النَّصِّ النَّهْيُ عَنْ اتِّخَاذِ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ، وَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ
الْمَوَالَاةُ فِي حُدُودِ الْمَنَاصِرَةِ، وَالْمَوَادَّةُ الَّتِي لَا تَنْصِلُ إِلَى مَسْتَوَى اتِّخَاذِ بَطَانَةٍ مِنْهُمْ،
إِذْ هُمْ مُفَارِقُونَ مُبَاعِدُونَ غَيْرُ مُخَالِطِينَ، وَاحْتِمَالُ اتِّخَاذِ بَطَانَةٍ مِنْهُمْ أَمْرٌ مُسْتَبْعَدٌ جَدًّا فِي
مَفْهُومِ الْمُؤْمِنِينَ، الَّذِينَ عَاصَرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَعَاصَرُوا مَرَاكِلَ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ.

فَفِي أَوَائِلِ سُورَةِ (آل عمران / ٣) قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ تَقَاتُوا إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ۝﴾.

فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ نَهْيٌ مُشَدَّدٌ لِلْمُؤْمِنِينَ عَنْ أَنْ يَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ غَيْرِ
الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ دُونُهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، عَلَى آيَةِ صُورَةِ مَوَالَاةٍ، وَمَنْ يَفْعَلْ
ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ، أَي: أَخْرَجَ نَفْسَهُ بِعَمَلِهِ مِنْ دَائِرَةِ الرَّبَّانِيِّينَ الْمُنْسَوِبِينَ فِي
وِلَايَتِهِمْ إِلَى اللَّهِ، الَّذِينَ يَتَوَلَّاهُمْ اللَّهُ بِمَعُونَتِهِ وَنَصْرِهِ.

• وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا ۝﴾.

يُبَيِّنُ أَنَّ آيَةَ مَوَالَاةٍ مَعَهَا كَانَ مَسْتَوَاهَا ضَعِيفاً فِي مَوَالَاةٍ مِنْهَا عَنْهَا نَهْيٌ جَازِماً

مُشَدِّدًا فِيهِ، وَهَذَا الِاسْتِثْنَاءُ لَمْ يُبَيَّحْ إِلَّا الْمَصَانَعَةُ الصُّورِيَّةُ، لَاتَّقَاءَ شُرُورِهِمْ.

أَمَّا اتِّخَاذُ بَطَانَةٍ مِنْهُمْ فَهِيَ مَوَالَاةٌ مِنْ مَسْتَوًى رَفِيعٍ جَدًّا، وَهُوَ أَمْرٌ لَا يَلِيقُ إِلَّا بِالْخُلَاصِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَا يَجُوزُ اتِّخَاذُ بَطَانَةٍ مِنَ الْكَافِرِينَ بِدَاهَةِ.

لَكِنَّ الْأَمْرَ الَّذِي قَدْ تَحَصَّلَ فِيهِ شُبْهَةٌ هُوَ اتِّخَاذُ الْمُنَافِقِينَ بَطَانَةً، فَجَاءَ النَّصُّ لِلتَّحْذِيرِ مِنْهُ بِالْقَصْدِ الْأَوَّلِ، مَعَ شُمُولِ النَّصِّ لِلْكَافِرِينَ، وَالْفَاسِقِينَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ دُونَ النِّفَاقِ، إِذْ كُلُّهُمْ يَدْخُلُونَ فِي عُمُومِ وَصْفِ:

﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾.

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ يَبْدَأُ فَضْلُهُمْ اعْتِبَارًا مِنَ الْمَلَا حِلَّةِ الدَّهْرِيِّينَ، فَالْمُشْرِكِينَ، وَأَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ، فَأَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ النَّصَارَى وَأَشْبَاهِهِمْ، فَالْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ ظَاهَرَهُمُ الْإِسْلَامُ وَيَخَالِطُونَ الْمُؤْمِنِينَ، فَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ دُونَ النِّفَاقِ، إِذْ هُمْ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ، وَغَيْرُ مَأْمُونِينَ عَلَى أَسْرَارِ الْمُسْلِمِينَ.

وَأُطْلِقَ عَلَى الْمُقَرَّبِينَ مِنْ مَوَاقِعِ أَسْرَارِ الرَّجُلِ بَطَانَةً، لِأَنَّ بَطَانَةَ الثَّوْبِ هِيَ الْأَقْرَبُ إِلَى بَدَنِ لَابِسِهِ، وَالْأَدْنَى إِلَى مَلَامَسَةِ بَشَرَتِهِ، وَمَنَاطِقُ عَوْرَاتِهِ.

وَالْمُقَرَّبُونَ هُمُ الَّذِينَ يَخَالِطُونَ مِنَ الدَّخْلِ، وَيَطْلَعُونَ عَلَى الْأَسْرَارِ، وَيَكُونُونَ أَعْلَمَ بِمَوَاطِنِ الضَّعْفِ، وَمَوَاطِنِ الْقُوَّةِ، فَإِذَا كَانُوا فِي حَقِيقَةِ أَمْرِهِمْ أَعْدَاءُ، كَانُوا أَشَدَّ نَكَابَةً، وَأَبْلَغَ إِضْرَارًا وَإِفْسَادًا.

* قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿لَا يَأْتِيَنَّكُمْ حِبَابٌ﴾:

أَي: لَا يَقْصُرُونَ مُجْتَهِدِينَ، وَلَا يُسْطَوْنَ فِي عَمَلٍ يَبْغُونَكُمْ بِهِ فُسَادًا وَنَقْصَانًا وَإِضْرَارًا، دُونَمَا نُورٍ وَلَا ضَعْفٍ، مَا اسْتَطَاعُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا.

فَهُمْ يُطَلَّبُونَ لَكُمْ فِي نَفْسِهِمْ هَذِهِ الْأُمُورَ، وَيَعْمَلُونَ جَاهِدِينَ غَيْرَ مُقْصَرِينَ،

ولا مبطلين ولا فاترين ولا ضعفاء في تحقيقها بمختلف الوسائل، استجابة لما في قلوبهم نحوكم من عداوة وكراهية وحقد.

﴿لَا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ فاعله ضمير مستتر يعود على ﴿بطانة من دونكم﴾ والكاف في ﴿يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ مفعول به أول و ﴿خَبَالًا﴾ مفعول به ثانٍ على رأي الزمخشري، وقيل: منصوب بنزع الخافض، وقيل: منصوب على أنه تمييز بتأويل متكلف.

* قول الله عز وجل:

﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾:

أي: تمنوا أي ينزل بكم الضرر الشديد، والأذى، وأنواع المشقة، والتعب، وأن تحبط أعمالكم وتفسد.

وهذا التمني يدلنا على أن هدفهم إضعاف قوى المؤمنين، وتوهين أمرهم، وتفريق صفهم، وإنزال الهزائم بهم، للتخلص منهم، ومن دينهم، ومن ظهور دعوتهم التي بدأت تكتسح عقائدهم، وتنسف زعاماتهم، وتفرّط عليهم مصالح وأهواء وشهوات ظالعات يحققها لهم كفرهم.

وفي بيان تمنيتهم هذا دلالة على الدافع النفسي الذي يجعلهم لا يألون المؤمنين خبالًا.

* قول الله عز وجل:

﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾:

أي: قد ظهرت البغضاء التي يطوونها ويكتمونها في نفوسهم وقلوبهم من أفواههم، إذ تنطلق منها ما بين حين وآخر فلتات أقوال تدل على ما يكتُمون، وهم قد يطنون أقوالهم بمعانٍ يرمزون لها رمزاً، ويشيرون إليها من طرفٍ خفي.

وجاء تأكيد الجملة بحرف «قد» للتنبيه على أن ما يبدو من أفواههم من العلامات والأمارات كافٍ لمعرفة الحذر منهم.

وفلتات الأقوال من العلامات والأمارات التي تدلُّ على ما في النفوس، وقد بين الله عزَّ وجلَّ لرسوله ثم لكلِّ مؤمنٍ من بعده هذه العلامة التي تدلُّ على نفاق المنافقين بقوله تعالى في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول):

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلتَعْرِفَنَّهُمْ فليَسمِعْهُمْ وَلِنَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ﴾:

أي: ولو نشاء فضَّحهم لأريناك علاماتٍ نفاقهم في وجوههم، فهي سيماء (أي: علامة) خاصة تميَّزُ بها وجوه المنافقين، يُبصِّرُها من وقبَّه الله معرفة سيماء الوجوه وأماراتها، وهو من علَّم الفِرَاسة، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنورِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ».

(عن الجامع الصغير (١٥١))

﴿وَلِنَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾:

أي: ولنعرِّفَنهم فيما تُشير إليه أقوالهم من طرفٍ خفيٍّ، أو ما تُسبق إليه تعبيراتُ الستهم ممَّا يعتلج في نفوسهم، دون وعيٍ منهم لما انفلت من الستهم.

لَحْنُ القول: هو رمزه وما يتضمَّن الإشارة إلى المراد من طرفٍ خفيٍّ، وما يفهمه السامع بالتأمل فيه من وراء لفظه. وَلَحْنُ القول أيضاً: الخطأ فيه، وهو ما يعبرُ عنه بفلتات الألسنة.

• قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا تُخْفِي صدورهم أَكْبَرُ﴾:

أي: وما تخفي صدورهم الحَاوية لقلوبهم ولِعُمقِ نفوسهم مِنَ البغضاء أَكْبَرُ ممَّا تدلُّ عليه رُمُوزُ أقوالهم وفلتاتُها التي تُصدِّرُ من أفواههم، لأنهم يُخْبِسون الستهم، فلا يسمحون لها بأن تعبرَ عن كلِّ ما في صدورهم، حتَّى لا تُتكشف ضمايرهم وما يكتمون فيها من بغضاء للمؤمنين، ومن كفرٍ بالإسلام، الأمر الذي يكشف أنهم منافقون كذابون في ادِّعائهم الإيمان والإسلام.

• قول الله عز وجل:

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧٨﴾﴾:

أي: قد أوضحنا لكم العلامات والدلائل التي نذكركم على أعدائكم المخالطين لكم، وبيننا لكم العظات التي تحميكم من شرورهم، والتي تبيّنونها، وتستهدون بهديها إن كنتم تعقلون، أيها المؤمنون.

فجواب الشرط في ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ محذوف دلّت عليه جملة ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾، والتقدير: قد بينا لكم الآيات فأنتم تبيّنون دلالاتها وتعملون بمقتضاها إن كنتم تعقلون.

والمراد من العقل هنا فيما يظهر العقل العلمي بمعنى المحافظة في التذكر الدائم على ما جاء في البيان، واستنباط ما تدلّ عليه الأمارات والعلامات الظاهرات من دلالات كاشفات للباطن، وبمعنى العقل الإرادي، ويكون بشدة الحذر وضبط النفس، وعدم الاستجابة لما يُخدع به المنافقون مما يُرضي أهواء النفوس وشهواتها، أو يغرها من أقوال أو أعمال أو مريضيات أخرى لها ظواهر كاذبات.

• قول الله عز وجل:

﴿هَآأَنْتُمْ أَوْلَآءُ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمُ﴾:

أي: ها أنتم أيها المؤمنون الصادقون تحبون هؤلاء المنافقين، اغتراراً بظاهر إسلامهم، ومخادعتهم بإظهار موداتهم في أقوالهم، وبعض ظواهر أعمالهم، فتعبرونهم إخوة لكم أضيافاً أجيالاً، وتجعلونهم بطانة لكم وهم في حقيقة أمرهم لا يحبونكم بدليل ما يظهر من أفواههم مما يدلّ بأماراته على ما في قلوبهم نخوكم من بغضاء، فاعرفوا دليل الامارات، ولتكن هادبة لكم في الحيلة والحذر والمراقبة الدائمة وعدم الاستثمان.

• قول الله عز وجل:

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ :

إنَّ من المنافقين شياطين من اليهود، وهم مقصودون بالنص قصداً أولياً لأنهم أحبُّ المنافقين وأشدُّهم مكرًا، وكيدًا، وبغضًا للمؤمنين، فنُبِّهَتْ هذه الجملة عليهم. والمعنى الذي تدلُّ عليه: هو أنَّه قد كان المفروض في المنافقين من اليهود ألا تكون هذه البغضاء لكم في قلوبهم، لأنكم تؤمنون بكتبهم وبسائر الكتب الربانية. لكنهم على خلاف ذلك، فلا تثقوا بهم، ولا تنتظروا منهم خيراً.

• قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَٰلَمَكُمْ الْأَنِامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ :

أي: والمنافقون لهم وجهان:

الأول: وَجْهٌ يخادعونكم به إذا لقوكم، فإذا لقوكم قالوا لكم: آمنا معكم مثل إيمانكم، ونحن نحبكم ونودكم، لأنكم إخواننا في الدين، وهم في الادعاءين كاذبون.

الثاني: وَجْهٌ يُظْهِرُونَهُ إِذَا خَلَوْا، فهم إذا خَلَوْا بأنفسهم، أو خلا بعضهم إلى بعض كشفوا حقيقة كفرهم بما أعلنوا أمام المؤمنين أنهم آمنوا به، وكشفوا ما في قلوبهم من غيظ من المؤمنين ومن الرسول ﷺ.

ومن مظاهر تعبيراتهم الحركية عن غيظهم من المؤمنين، أن يضعوا أناملهم في أفواههم ويعضوا عليها غيظًا وحقنًا، وعضُ الأنامل عند الغيظ والحقن عادة معروفة عند كثير من الناس. والمراد أنهم عبَّروا عن غيظهم، سواء أفعَلُوا هذه العادة أو لم يفعلوها، على أنَّ كلَّ حركة نفسية لا بدَّ لها في العادة من تعبير ظاهر، بالأقوال أو بالأفعال، أو بسيما الوجه.

ومع الغيظ الشديد يفكرون ويُقدِّرون ويحاولون جهدهم غالباً اتِّخاذ الوسائل للنكاية بالمؤمنين، وتدبير المكائد لهم، وإفساد أمورهم، وإنزال العنت بهم، تحقيقاً لأمانيتهم.

وقد يسأل سائل: ما موقع ﴿عليكم﴾ هنا في النص، وقد كان يكفي أن يُقال: وإذا خلوا غصوا الأنامل من الغيظ؟

وأقول:

إنهم في موقف العجز عن بكائية المؤمنين وإنزال المصائب فيهم، مع وجود الرغبة العارمة في نفوسهم للتخلص مِنْهُمْ بآية وسيلة، وحينما يخلون ويتحررون من ضغط المراقبة، وتتحرك أعضاؤهم للتعبير عما في نفوسهم وقلوبهم ضد المؤمنين، فإن تخيلهم يسبقهم إلى تصور القبض على المؤمنين واقتراسهم بأسنانهم عضاً ونهشاً، لكنهم حين يقدّمون الصور المتخيلة بأيديهم إلى أفواههم لا يجدون ما يعضونه إلا أناملهم، بيد أن نفوسهم من الداخل تعضكم أنتم، فالتعبير الملائم للحالتين النفسية الباطنة، والحسنة الظاهرة، أن يُقال كما جاء في النص بإبداعه العجيب مع إيجازه: ﴿غصوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾.

غصوا: حركة حسية ظاهرة.

عليكم: حركة نفسية باطنة.

الأنامل: حركة حسية ظاهرة.

من الغيظ: حركة نفسية باطنة.

و(من) في ﴿من الغيظ﴾ للابتداء، ابتداءً من عمق الغيظ حتى ضغط الأسنان بالعض، الذي يتوهمون أنه عض عليكم لإيلاكم واقتراسكم، أو للتعليل، لكن المعنى الأول أدق.

وتدلّ عبارة ﴿عليكم﴾ على أنهم يشدون عضهم على أناملهم، لأنهم يتوهمون أنهم يعضونها وأنتم فيها، رغبة في إيلاكم، وهم في الواقع يؤلمون أنفسهم، وهذا غاية في التعبير عن شدة غيظهم، الذي غفلوا معه عن آلام أناملهم.

وفي العبارة حذف من الأوّل لدلالة الآخر، وحذف من الآخر لدلالة الأوّل وهو ما يسمى عند البلاغيين والاحتباك، وإبراز المحذوفين تكون العبارة كما يلي: وإذا لقوكم قالوا: آمنا ونحن إخوانكم ونحبكم وإذا خلوا قالوا: لم نؤمن بل نحن على ديننا الأول، وعضوا عليكم الأنامل من الغيظ.

* قول الله عز وجل:

﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١١٩):

أي: لن تصلوا إلى ما تمنون من كيد المؤمنين وعنتهم، وإفساد أمورهم، والإضرار بهم، وإيقاف مسيرة دعوتهم، ومناصرة أعدائهم الظاهرين ومؤازرتهم، بغية استئصال القوة الإيمانية، والتخلص من دين الإسلام.

إِنَّ اللَّهَ سِرُّدٌ كَيْدِكُمْ إِلَى صُدُورِكُمْ، وَلَنْ يُضِرَّ الْمُؤْمِنِينَ كَيْدُكُمْ شَيْئًا، مَهْمَا كَانَ كَيْدًا كُبَارًا.

فاستبرأوا على غيظكم تكتنون بالآله ما خيبتكم، حتى يشتد ويتزايد بانتصار المؤمنين وهزائم أعدائهم، فيكون سبباً لموتكم، فتموتوا به، أو حتى تنتهي آجالكم المقدرة لكم، فتموتوا وأنتم ملتبسون بغيظكم تغانون آله.

فإنه عز وجل لن يترك أولياء المؤمنين المتقين، نقباً أموره مكاييد المنافقين المخالطين المداخلين، ما دام المؤمنون يهتدون بهدي بيانات الله وعظاته لهم.

أما استخفاء المنافقين بعداوتهم وبغضائهم ومكايدهم فلن ينفعهم في إضرار المؤمنين، وذلك لأن الله عز وجل يعلم ما يكتمون، وما يخفون عن المؤمنين في خلواتهم، ويعلم ما يضربون لهم في صدورهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾:

أي: بالأسرار والنيات والرغبات المصاحبات للصدور، فضلاً عما هو دون ذلك في الخفاء، مما يبيتونه ضد المؤمنين في خلواتهم.

ويدخل في عموم عبارة ﴿ذات الصدور﴾ ما تضمه الصدور حتى أعماق الأئدة، من كفر، وبغض، وغيظ، وحقد، وإرادة سوء وشر، وتدابير كيد، وتعمي غيب المؤمنين، وحب انتصار الكفر والكافرين، إلى غير ذلك من ثوابت ومتحركات داخل النفس.

* * *

* قول الله عز وجل:

﴿إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً سَوْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾:

أي: ومن علامات نفاقهم وكفرهم الذي يُبطنونه، وما يحملون لكم في نفوسهم من البغضاء أمران:

الأمر الأول: ما يظهر على وجوههم وفي أقوالهم من أمارات مساءتهم، إنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً ما، ولو مَسًّا رفيفاً قليلاً، لأنَّ الحسنة لكم تَسْرُكُم، ومَسْرَتُكُمْ تسوؤهم.

الأمر الثاني: ما يظهر على وجوههم وفي أقوالهم من أمارات فرحهم، إنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ ما، ولو إصَابَةً بالغة، لأنَّ السيئة لكم تسوؤكم، ومساءتُكم تَسْرُهم.

واستعمال (إنْ) الشرطية هنا للدلالة على مطلق الشرط، دون النظر إلى أنَّ الشرط مشكوك في وقوعه، لأنَّ الحياة فيها دوماً تعاقب ما يسر وما يسوء، لكن يُختار غالباً للشرط المشكوك فيه، استعمال حرف (إنْ) ويُختار للشرط المتحقق الوقوع استعمال حرف (إذا) كما يقول البلاغيون.

على أنَّ حَرْفَ (إنْ) هو أصل أدوات الشرط، فلا يلزم دوماً في شرطها أن يكون نادراً أو مشكوكاً في وقوعه، بل قد يكون متحقق الوقوع.

* قول الله عز وجل:

﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾.

في هذا التعليم بيان للمؤمنين أنهم إن حققوا بإراداتهم أمرين تولاهم الله، فلم يَضُرُّهُمْ كَيْدُ المنافقين شيئاً.

الأمر الأول: الصبر، وفي التوجيه للصبر على المنافقين، وعدم التسرع بمقارعتهم مقارعةً علنيةً واضحة، كمقارعة الكافرين الصرحاء، بياناً للمنهج الرباني في معاملة المنافقين، الذين لم يُعلنوا كُفْرَهُمْ صراحةً، بل اقتصرت دلائل كفرهم ونفاقهم على الأمارات التي لم تصل إلى درجة الإدانة القضائية بالكُفر والردة.

الأمر الثاني: التقوى، وتعني التقوى هنا ما يشمل قضيتين:

* قضية اتقاء سخط الله وعذابه، بفعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، ولا سيما ما نهى عنه من اتّخاذ بطانة من المنافقين والكافرين والذين في قلوبهم مرض الشكّ والرّيب، وعدم سلامة الإيمان.

* وقضية اتقاء مكر المنافقين ومكايدهم، بشدّة الحذر منهم، وبوضعهم موضع المراقبة الدائمة، وبعدم تقرب أحد منهم، أو مخالطته ومصافاته، أو مصادقته بطمأنينة، فهم أعداء مُقْتَنُونَ بأقنعة أولياء وأصدقاء ومحبين، وهي أقنعة كاذبات.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٧٢﴾﴾:

أي: فهو سبحانه وتعالى يفسد عليهم كلّ مخططاتهم، ويردّ عليهم مكرهم ويكيدهم، ومن ذلك كشف ما يُدَبَّرُونَ للمؤمنين، قبل أن يصلوا به إلى الإضرار بهم.

كيف يفلتون من الله العليم الحكيم، وهو بكلّ ما يعملون محيط. وبما أنّ الله عزّ وجلّ محيط بما يعملُ المنافقون، وهو العليم بذات صدورهم، وقد وعدّ الله المؤمنين بأن لا تُضُرَّهُمْ مكاييد المنافقين شيئاً، إذا صبروا واتفقوا كما أمرهم، ولم يتخذوا منهم بطانة، وكانوا على حذر دائم منهم، ونفّس بما يظهر من أماراتٍ عليهم، في أقوالهم أو أعمالهم أو حركاتٍ وتغيّراتٍ وجوههم.

إنّ الله عزّ وجلّ لن يدعّ مكاييد المنافقين تبلغ إلى مداها فتضّرّ أوليائه المؤمنين العاملين بوصاياه.

هذا وعدّ من الله عزّ وجلّ، مشروطٌ بالتزام منهاجه ووصاياه وما عظمهم به.

● ● ●

مقدمة عامة

لِلنصوص (٩) و (١٠) و (١١) من سورة (آل عمران)
حول ما جاء بشأن المنافقين وظواهرهم السلوكية
بمناسبة أحداث غزوة أحد

اشتملت سورة (آل عمران) على عدّة بيانات تتعلق بغزوة أحد وأحداثها، ومن أحداثها ما كان من المنافقين فيها، فجاء في هذه البيانات فَضَحُ أقوال وأعمال المنافقين التي ظهرت منهم خلال أحداثها وَعَقِبُهَا، مع التعقيب عليها بالتحليل، والتوجيه، والبيان الديني، الموجّه لهم أو للرسول والمؤمنين.

وقد جاء في السورة ثلاثة نصوص حول هذا الموضوع، أحدها الآيات من (١٥٢ - ١٥٨) منها، والثاني الآيات من (١٦٥ - ١٦٨) منها، والثالث الآيات من (١٧٦ - ١٧٩) منها.

وقبل تدبّر هذه النصوص الثلاثة نستعرض قصة المنافقين في غزوة أحد.

* * *

مواقف المنافقين في غزوة أحد

(١)

موجز معركة أحد

(١) استقر رأي زعماء قريش على أن يثاروا لأنفسهم من الهزيمة المخزية، التي حلّت بهم في معركة بدر الكبرى، فقرّروا أن يخرجوا لقتال المسلمين في المدينة، فأعدّوا جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، بكامل عدّتهم وعتادهم.

(٢) وبعد اثني عشر شهراً من هزيمتهم المنكرة في بدر، وفي أوائل شهر شوال لثلاث خلون منه، خرجت قريش بحدّها وجدّها وحديدّها، لقتال المسلمين في المدينة، وخرج من اجتمع معها، ومن تابعها من بني كنانة، وأهل تهامة.

وأخرجوا معهم نساءهم ليزدن في حماستهم، وشدة بأسهم، ونزلوا مقابل المدينة قريباً من أحد.

(٣) وعَلِمَ الرَّسُولُ ﷺ بتحركهم منذ خرجوا من مكة، ولَمَّا سمع بوصولهم استشار المسلمين في الأمر، وعرض عليهم رأيه، فقال لهم:

«فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة، وتَدْعُوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشرّ مقام، وإن هم دَخَلُوا علينا قاتلناهم فيها؟».

وروى الطبري بسنده عن قتادة أن الرسول ﷺ قال لأصحابه يومئذ:

«إنّا في جُنّةٍ خَصِيْنَةٍ فدعوا القوم، إن يدخلوا علينا نفاتلهم، فقال ناسٌ من أصحابه من الأنصار: يا نبي الله، إنّا نكره أن نقتل في طُرُقِ المدينة، وقد كُنّا نمتنع في الغزو في الجاهلية، فبالإسلام أحقُّ أن نمتنع فيه، فأبرَزَ بنا إلى القوم»^(١).

وكان رأي كبير المنافيين عبد الله بن أُبَيّ بن سلول مع رأي رسول الله ﷺ في ذلك، يرى ألا يخرج إليهم.

وكان رسول الله ﷺ يكره الخروج من المدينة لقتال جيش قريش خارجها.

(٤) فقال رجال من المسلمين من الذين فاتهم شهود بدر: يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يروُنّا جُنّاً عنهم وضعفنا.

وكان من كبار الراغبين في الخروج حمزة بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ.

(٥) فقال عبد الله بن أُبَيّ بن سلول^(٢): يا رسول الله، أقم بالمدينة، لا تخرج إليهم، فوالله ما أخرجنا منها إلى عدوّ لنا قطُّ إلا أصاب منّا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا

(١) انظر الطبري، الجزء الرابع ص ١٦٤.

(٢) سلول: جدّ عبد الله بن أُبَيّ لايه، وعبد الله بن أُبَيّ هذا هو كبير منافقي المدينة.

منه، فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا أقاموا بشرٍ مُحِبِّسٍ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رَجَعُوا رَجَعُوا خَائِبِينَ كما جاءوا.

(٦) فلم يزل الذين كان من أمرهم حُبُّ لقاء القوم يُلْحِقُونَ على رسول الله ﷺ بالخروج إلى عدوهم، حتى دخل رسول الله ﷺ بيته، فلبس لباس الحرب استجابة لأمرهم وهم الأكثر عدداً، وكان ذلك عقب صلاة الجمعة الرابع عشر من شهر شوال للسنة الثالثة للهجرة.

(٧) وقال سعد بن معاذ، وأسيّد بن حُضَيْر، لجمهور المسلمين الذين أُلْحُوا على الرسول ﷺ بالخروج: استَكْرَهْتُمْ رسول الله على الخروج، فَرُدُّوا إليه الأمر، فندموا على ما صنعوا.

(٨) وخرج رسول الله ﷺ على المسلمين لابساً لباس الحرب، إشعاراً بأنه قرّر الخروج لقتال المشركين.

فلَمَّا رَأَوْه لابساً لباس الحرب قالوا: يا رسول الله، استكرهناك ولم يَكُنْ ذلك لنا، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك.

فقال رسول الله ﷺ: «ما يَنْبَغِي لِنَبِيِّ إِذَا لَبَسَ لَأَمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ».

لَأَمَتَهُ: اللّامة درع الحرب، أو لباس الحرب من درع وغيره.

وفي رواية الطبري عن قتادة وأنّ الرسول بعد أن قال له ناسٌ من أصحابه من الأنصار: فابْرُزْ بنا إلى القوم، انطلق فلبس لأمته، فتلاوم القوم، فقالوا: عَرَضَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ بِأَمْرٍ، وَعَرَضْتُمْ بِغَيْرِهِ، أَذْهَبَ بِأَحْمَزَةٍ فَقُلْ لِنَبِيِّ اللَّهِ: أَمَرْنَا لَأَمْرِكَ تَبَعَ، فَأَتَى أَحْمَزَةً فَقَالَ لَهُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّ الْقَوْمَ قَدْ تَلَاوَمُوا، وَقَالُوا: أَمَرْنَا لَأَمْرِكَ تَبَعَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّهُ لَيْسَ لِنَبِيِّ إِذَا لَبَسَ لَأَمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يُنَاجِزَ، وَإِنَّهُ سَتَكُونُ فِيكُمْ مَصِيبةٌ.

قالوا: يا نبي الله، خاصّة أو عامّة؟ قال: سَتَرُونَهَا.

(٩) وخرج رسول الله ﷺ بألف من المسلمين بعد صلاة العصر من يوم الجمعة، ويات ليلة السبت خارج المدينة، في مكان بينها وبين جبل أُحُد. وقبيل طلوع الفجر أدلج متجهاً شطر أُحُد.

(١٠) عندئذٍ انخذه عن الرسول ﷺ عبد الله بن أبي بن سلول، كبير المنافقين، ومعه ثلاثمائة رجلٍ من قومه، من أهل النفاق والريب، وقفلوا عائدين إلى المدينة.

وقال في تعليل انخذه: أطاعهم وعصاني (يشير إلى الذين ألحوا على الرسول بالخروج) ما ندرى علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس.

فاتبعهم عبد الله بن عمرو بن خرام يناديهم: يا قوم، أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونيكم عندما حضر عدوكم.

فقال المنافقون: لو نعلم أنكم تُقاتلون لما أسلمناكم، ولكننا لا نرى أنه يكون قتال.

وهذا تعليلٌ ظاهريٌّ كاذب.

فلما استعضوا عليه وأبوا إلا الرجوع إلى المدينة قال: أبعدم الله أعداء الله، فسُيغني الله عنكم نبيه.

(١١) وهمت طائفتان من المؤمنين أن تفشلا (أي: أن تضعفا وتَجِبْنَا) تأثراً بما فعل عبد الله بن أبي ومن تبعه من قومه، لكنهما لم تفعلًا فقد بُتَّهما الله.

وهاتان الطائفتان هما: بنو حارثة من الأوس، وبنو سلمة من الخزرج.

(١٢) وأراد رسول الله ﷺ أن يختصر الطريق إلى أُحُد، وأن يتفادى العبور من طريقِ يَمْرُ بها على المشركين فقال:

«مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ بِنَا عَلَى الْقَوْمِ مِنْ كَيْبٍ^(١)، مِنْ طَرِيقٍ لَا يَمُرُّ بِنَا عَلَيْهِمْ؟».

(١) مِنْ كَيْبٍ: أي: مِنْ قَرْبٍ.

فقال أبو خيثمة: أنا يا رسول الله، فنفذ بالمسلمين في حرّة بني حارثة، ومن أموالهم، حتّى سلك في مالٍ لِمَرْبَعِ بْنِ قَيْظِي، وكان رجلاً منافقاً ضريّر البصر.

فلَمَّا سمع جِسْرُ رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين، قام يحثي في وجوههم التراب، ويقول: إِنَّ كُنْتُ رسولُ اللَّهِ فَإِنِّي لَا أَجِلُّ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ حَائِطِي، وظهر نفاقه.

وابتدره المسلمون ليقتلوه، فقال رسول الله ﷺ:

«لَا تَقْتُلُوهُ، فَهَذَا الْأَعْمَى أَعْمَى الْقَلْبِ وَأَعْمَى الْبَصَرِ».

(١٣) ومضى رسول الله ﷺ بالمسلمين حتّى وصل إلى جبل أُحُدٍ، وجعل منزله هناك، واتّخذ لجيشه منزلاً في الشعب من جبل أُحُدٍ في عُدْوَةِ الْوَادِي، وعسكر بجيشه مستقبلاً المدينة، وظهّره إلى جبل أُحُدٍ.

(١٤) ومع أول النهار من يوم السبت الخامس من شهر شوال لسنة ثلاث هجرية، عبّا الرسول ﷺ أفراد جيشه، ورَتَّبَهُمْ صفوفاً للقتال.

واختار من الرُّمَّةِ كَثِيبَةً عَدَدُهَا خَمْسُونَ رَامِيًّا، وأمر عليهم عبد الله بن جُبَيْرِ الْأَنْصَارِيِّ الْأَوْسِيُّ، واختار لهم موضعاً مُشْرِقاً على ساحة المعركة، وهو جَبَلٌ صَغِيرٌ قُرْبَ أُحُدٍ، يقع وراء جيش المسلمين، ليحموا ظهور الجيش، من غارات خيل المشركين إذا جاءت من ورائهم.

وقال الرسول ﷺ لأمير الرماة:

«انْضَحِ الْخَيْلَ عَنَّا بِالنَّبْلِ، لَا يَأْتُونَا مِنْ خَلْفِنَا، إِنْ كَانَتْ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا، فَائِتَتْ مَكَانَكَ، لَا تُؤَيِّنُ مِنْ قِبَلِكَ».

وقال للرُّمَّة:

«احْمُوا ظُهُورَنَا، فَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نَقْتُلُ فَلَا تَتَصَرَّوْنَا، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا قَدْ غَنِمْنَا فَلَا تَشْرِكُونَا».

وفي رواية البخاري أنه قال لهم: «إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَحْطِفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَوَجَّهْنَاكُمْ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ».

(١٥) ونهى الرسول ﷺ المسلمين عن مباشرة القتال حتّى يَأْذَنَ لَهُمْ، وحضهم

على المصابرة، وشدة البأس عند اللقاء، وقال لهم:

«إِنَّكُمْ سَتَظْهَرُونَ فَلَا تَأْخُذُوا مِمَّا أَصَبْتُمْ مِنْ غَنَائِمِهِمْ شَيْئًا حَتَّى تَتَرَعَّوْا».

ثم التقى الفريقان، ودنا بعضهم من بعض، واقتتلوا حتى خَبِيت الحرب، فأنزل الله عز وجل نَصْرَهُ، وَصَدَّقَ الْمُسْلِمِينَ وَغَدَهُ، فَحَسُوا الْمُشْرِكِينَ بِالْأَسُوفِ، حَتَّى كَشَفُوهُمْ عَنْ مَعْسِكِرِهِمْ، وَكَانَتِ الْهَزِيمَةُ فِي الْمُشْرِكِينَ لَا شَكَّ فِيهَا.

روى عبد الله بن الزبير عن أبيه أنه قال: والله لقد رأيتني أنظر إلى خَدَمِ سَوْقِ هِنْدِ بِنْتِ عُتْبَةَ وَصَوَاجِبِهَا مُشْمَرَاتٍ هَوَارِبَ، مَا دُونَ أَخْذِهِنَّ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ.

وتظير ذلك عن البراء بن عازب، فيما رواه البخاري.

(١٦) وَتَبِعَ الْمُسْلِمُونَ الْمُشْرِكِينَ يُعْمِلُونَ فِيهِمُ السِّلَاحَ، وَيَنْتَهِيُونَ الْغَنَائِمَ.

(١٧) وَلَمَّا رَأَى الرَّمَاةُ الَّذِينَ كَانُوا حُرَاسَ ظُهُورِ الْمُسْلِمِينَ مَا حَلَّ بِالْمُشْرِكِينَ مِنْ هَزِيمَةٍ كَشَفْتَهُمْ عَنْ مَعْسِكِرِهِمْ، انْطَلَقَ أَرْبَعُونَ مِنْهُمْ وَهُمْ يَتَنَادَوْنَ: الْغَنِيمَةُ الْغَنِيمَةُ لَا تَفْتِكُكُمْ. وَأَمِيرُهُمْ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ يَنْهَاهُمْ، وَيَقُولُ لَهُمْ: أُنْيَيْتُمْ مَا قَالَ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

وَلَكِنَّهُمْ أَصْرُوا عَلَى مَعْصِيَتِهِمْ طَمَعًا بِالْغَنِيمَةِ، وَقَالُوا: وَاللَّهِ لِنَأْتِيَنَّ النَّاسَ فَلَنَنْصِبَنَّ مِنَ الْغَنِيمَةِ.

وَبُثِّتَ عَشْرَةٌ مِنْهُمْ مَكَانَهُمْ، وَقَالُوا: لَنْ تَتْرَكَ مَوْضِعَنَا حَتَّى يَأْذَنَ لَنَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ.

(١٨) وَخَلَّى الرَّمَاةُ الَّذِينَ تَرَكُوا مَوَاضِعَهُمْ ظُهُورَ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ لَغَارَاتِ خَيْلِ الْمُشْرِكِينَ دُونَ حِمَايَةٍ.

عِنْدَئِذٍ دَارَتْ كَتِيبَةٌ مِنْ خِيُولِ الْمُشْرِكِينَ بِقِيَادَةِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، (وَلَمْ يَكُنْ قَدْ أَسْلَمَ بَعْدَ) وَأَغَارَتْ عَلَى الرَّمَاةِ الْعَشْرَةِ الَّذِينَ بَقُوا فِي مَوَاضِعِهِمْ فَأَبَادَتْهُمْ.

وَخَلَّتْ ظُهُورَ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَيْةٍ حِمَايَةٍ، فَأَغَارَتْ خَيْلُ الْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ وَرَاءِ ظُهُورِهِمْ، فَاسْتَدَارَ الْمُسْلِمُونَ يَدَافِعُونَ الْغَارَةَ الْمَهَاجَةَ مِنْ وَرَائِهِمْ.

(١٩) عندئذ رأى جيش المشركين المنهزم ما حلّ بالمسلمين، فاستداروا وكرّوا على المسلمين، ووقع المسلمون عندئذ بين فريقين من العدو كأنهم بين خجري رخا، ودارت الدائرة عليهم، وسقط منهم سبعون قتيلًا، وصاح صائح ألا إن محمدًا قد قُتل.

(٢٠) وأضعف جمهور كبير من جيش المسلمين هارين نحو المدينة، وفي بطون الأودية والشعاب، حتى وصل بعضهم المدينة ودخلها، وانطلق بعض المسلمين شطر جبل أحد.

والرسول ﷺ يُنادي المسلمين المنهزمين: إليّ عباد الله، ولم يكن حوله منهم إلا تسعة مقاتلين يحمونه من هجمات المشركين، سبعة من الأنصار واثنتان من المهاجرين.

واقترده هؤلاء نفر بأنفسهم، وحمّوه بأجسادهم، وقاتلوا قتال الأبطال الذين لا يخشون الموت، ويرون الشهادة في سبيل الله باب الجنة والسعادة الأبدية والنعيم المقيم.

وقُتلوا جميعاً إلا طلحة بن عبيد الله، فقد جرح نيفاً وثلاثين جرحاً، وأصيبت يده فقلّت، إذ كان بقي بها النبي ﷺ.

(٢١) وسَمِعَ كثير من المسلمين صوت رسول الله ﷺ يناديهم، فأخذوا يفيثون إليه، ويجمعون حوله، ويحمونه ويفتدونه بأنفسهم.

وأصيب رسول الله ﷺ، فدخلت خلقتان من خلق المَغْفَر^(١) في وجته، انتزعهما منها أبو عبيدة بن الجراح بأسنانه، فسقطت بذلك ثِيَابُهُ، وكَبُرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ^(٢)، وأصيبت ركبته بخدش.

(١) المَغْفَر: زَرَدٌ ينسج من الدروع على قدر الرأس يُلبس تحت القلنسوة، وجمعه المغافر، وهو من الغفر بمعنى الستر. يُقال: غفر الشيء إذا ستره وغطاه.

(٢) ثِيَابُهُ: الثِيَابُ: هي إحدى الأسنان الأربع التي في مقدّم الفم، ثنتان من فوق، وثنتان من تحت. رِبَاعِيَّتُهُ: الرِّبَاعِيَّةُ: هي السَّنُّ بين الثنية والناصب، وهي أربع، رباعيتان في الفك الأعلى، ورباعيتان في الفك الأسفل.

(٢٢) وَقَتَلَ اللَّعِينُ ابْنُ قَيْمَةَ مُضْعَبَ بْنَ عَمِيرٍ، الدَّاعِيَةَ الْبَاطِلَ، حَامِلَ لِبَؤَاءِ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ، وَهُوَ يَفْتَنِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِنَفْسِهِ.

وكان مُضْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ يُشَبِّهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَظَنَّ ابْنُ قَيْمَةَ أَنَّهُ قَتَلَ الرَّسُولَ، فَذَهَبَ إِلَى قَوْمِهِ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ قَتَلَ مُحَمَّدًا.

(٢٣) وَأَنْزَلَ اللَّهُ النَّفَاسَ أَمْنَةً عَلَى طَائِفَةٍ الْمُؤْمِنِينَ الثَّابِتِينَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَعَنِ الزَّبِيرِ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ اشْتَدَّ الْخَوْفُ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا النَّوْمَ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: أَلْقَيْتُ النَّوْمَ عَلَيْنَا يَوْمَ أُحُدٍ.

(٢٤) وَشَاغَ مَقْتُلُ النَّبِيِّ ﷺ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ، وَكَثِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْمُتَفَرِّقِينَ عَنِ مَوْقِعِ الرَّسُولِ ﷺ.

ثُمَّ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ كَذِبَ الشَّائِعَةِ، وَعَرَفُوا مَكَانَ الرَّسُولِ ﷺ، فَأَخَذُوا يَفِيثُونَ إِلَيْهِ.

(٢٥) ثُمَّ انْسَحَبَ الرَّسُولُ ﷺ مَعَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مَعْكَرِهِمْ فِي الشُّعْبِ مِنْ جَبَلٍ أُحُدٍ.

وَأَرَادَ الْمُشْرِكُونَ أَنْ يُتَابِعُوا قِتَالَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعْكَرِهِمْ فِي الشُّعْبِ، فَضَعَدُوا الْجَبَلَ، فَتَصَدَّى لَهُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَرَهْطٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، فَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى أَهْطَوْهُمْ مِنَ الْجَبَلِ.

(٢)

مواقف المنافقين في غزوة أُحُد

تتلخص مواقف المنافقين في هذه الغزوة بما يلي :

(١) انخدالُ عبد الله بن أبيّ بن سلول، مع نحو ثلث الجيش من قومه من أهل النفاق والرّيب.

(٢) موقف المناق الضريز مريع بن قَيْظِي، إذ حاول منع الرسول والمسلمين من عبور أرضه إلى أُحُد.

(٣) أُصِيبَ يَزِيدُ بْنُ حَاطِبٍ بن أُمَيَّة بن رافع بجراحة يوم أُحُد، فَأَتَيْهِ بِهِ إِلَى دار قومه وهو على شَفَا المَوْت، فاجتمع إليه أهل الدار، فجعل المسلمون من الرجال والنساء يقولون له: أَبَشِّرْ يَا ابْنَ حَاطِبٍ بِالْجَنَّةِ.

وكان أبوه حاطبُ شَيْخاً عَسَا (أي: أَسَنُ) فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ: بَأْيَ شَيْءٍ تُبَشِّرُونَهُ؟ بِجَنَّةٍ مِنْ خَرْمَلٍ؟ غَرَرْتُمْ وَاللَّهِ هَذَا الْغَلَامُ مِنْ نَفْسِهِ.

وكانت الأرض التي دُفِنَ فِيهَا تَبَتْ نَبَاتُ الْخَرْمَلِ، ومِراءُهُ أَنْ يَقُولَ: لَيْسَ لَهُ جَنَّةٌ إِلَّا هَذِهِ الْأَرْضُ الَّتِي دُفِنَ فِيهَا، فَهُوَ إِذَنْ يَنْكُرُ الْبَعثَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ.

فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْقِفِ الْحَزِينِ تَظْهَرُ كَوَامُنُ النَفُوسِ، فِي فَلَاتَاتِ الْأَلْسِنَةِ، وَلَوْ كَانَ حَاطِبٌ هَذَا مُؤْمِناً صَادِقاً فِي إِسْلَامِهِ، مَا ظَهَرَ عَلَى لِسَانِهِ مِثْلُ هَذَا الْكَلَامِ فِي شَأْنِ ابْنِهِ الشَّهِيدِ يَوْمَ أُحُدٍ.

(٤) وَكَانَ فِي الْمُسْلِمِينَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: «قُزْمَان» لَا يُذَرِّي مَنَّهُ هَوًى، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَكَرَ لَهُ يَقُولُ: «إِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ النَّارِ».

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ خَرَجَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَقَاتَلَ قِتَالاً شَدِيداً، فَقَتَلَ وَحْدَهُ ثَمَانِيَةً أَوْ سَبْعَةً مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَكَانَ ذَا بَأْسٍ، فَأُتِبَتْهُ الْجِرَاحَةُ، فَأَحْتَبَلَ إِلَى دَارِ بَنِي ظَفَرٍ.

فَجَعَلَ رِجَالُ الْمُسْلِمِينَ يَقُولُونَ لَهُ: وَاللَّهِ لَقَدْ أَبْلَيْتَ^(١) الْيَوْمَ يَا قُزْمَانُ فَأَبَشِّرْ.

فَقَالَ: بِمَاذَا أَبَشِّرُ؟ فَوَاللَّهِ إِنْ قَاتَلْتُ إِلَّا عَنْ أَحْسَابِ قَوْمِي، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا قَاتَلْتُ.

فَلَمَّا اسْتَنْدَتْ عَلَيْهِ آلامُ الْجِرَاحَةِ، أَخَذَ سَهْماً مِنْ كِنَانَتِهِ فَقَتَلَ بِهِ نَفْسَهُ.

وَهَكَذَا كُشِفَ عَنْ حَقِيقَةِ نَفْسِهِ، وَأَنَّهُ كَانَ كَافِراً مُنَافِقاً حِينَما عَلِمَ أَنَّهُ مَيِّتٌ بِجِرَاحَتِهِ.

(١) أَبْلَيْتَ: أَيِ: اجْتَهَدْتَ فِي الْقِتَالِ اجْتِهَاداً عَظِيماً، يُقَالُ لَغَةٍ: أَهْلَى فِي الْأَمْرِ، إِذَا اجْتَهَدَ فِيهِ وَبَالَغَ.

(٥) وخرج مع المسلمين يوم أُحُدِ الحارث بن سُؤَيْد بن صامت، وهو من المنافقين، فلما التقى الناس غذا على رجلٍ من المسلمين فقتله، وهو المجذَر بن زياد البلوي، لأنَّ المجذَر بن زياد كان قد قتل أباه سُؤَيْدًا في بعض الحروب الجاهليَّة التي كانت بين الأوس والخزرج، فخرج مع المسلمين لِيَسْتَقْبَلَ الْحَرْبَ الْقَائِمَةَ فَيُصِيبَ ثَارَهُ. وبعد أن قتلَه فرَّ إلى مَكَّة وَلَجَّ بِقُرَيْشٍ.

وهكذا عبَّرَ النفاقُ عن نفسه بهذا الموقف الخائن الغادر.

(٦) عن الزُّبَيْر أَنَّهُ قَالَ: «كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ اشْتَدَّ الْخَوْفُ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا النَّوْمَ، وَإِنِّي لَأَسْمَعُ قَوْلَ مُعْتَبِرِ بْنِ قُشَيْرٍ وَالنُّعَاسِ يَفْشَانِي يَقُولُ: لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا».

(٧) كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بِنِ سُلُوفٍ قَبْلَ أَحَدٍ لَهُ مَقَامٌ يَقُومُهُ إِذَا جَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَهُوَ يَخْطُبُ النَّاسَ، فَيَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، هَذَا رَسُولُ اللَّهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، أَكْرَمَكُمْ اللَّهُ وَأَعَزَّكُمْ بِهِ، فَانصُرُوهُ وَعِزُّوهُ^(١)، وَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا، ثُمَّ يَجْلِسُ.

فلما كان منه ما كان يوم أُحُدٍ، إِذْ انْخَذَلَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ بِنَحْوِ ثَلَاثِ الْجِيشِ، قَامَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لِيَقُولَ كَلَامَهُ الَّذِي كَانَ يَقُولُهُ قَبْلَ أَحَدٍ، فَأَخَذَ الْمُسْلِمُونَ بِثِيَابِهِ مِنْ نَوَاجِيهِ، وَقَالُوا: اجْلِسْ أَيُّ غَدُوِّ اللَّهِ، لَسْتُ لَذَلِكَ بِأَهْلٍ، وَقَدْ صَنَعْتَ مَا صَنَعْتَ.

فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول: وَاللَّهِ لَكَأَنَّمَا قُلْتُ هُجْرًا^(٢) أَنْ قُمْتُ أَشَدُّ أَمْرَهُ؟

فلقيه رجلٌ من الأنصار بباب المسجد فقال: مَا لَكَ؟ وَتِلْكَ!

قال: قُمْتُ أَشَدُّ أَمْرَهُ، فَوُثِبَ عَلَيَّ رَجَالٌ مِنْ أَصْحَابِهِ يَجْذِبُونَنِي وَيُعَفِّفُونَنِي، لَكَأَنَّمَا قُلْتُ هُجْرًا (وفي رواية: بَجْرًا، أَي: أَمْرًا عَظِيمًا) أَنْ قُمْتُ أَشَدُّ أَمْرَهُ؟

(١) عِزُّوهُ: أَي: اعْبُدُوهُ وَاقْضُوا لَهُ عِزَّهُ وَوَقَرُّهُ.

(٢) الْهُجْرُ: الْكَلَامُ الْقَبِيحُ.

قال: ويلك، ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ.

قال: والله ما أبتغي أن يستغفر لي.

وهكذا كشف عن نفاقه أيضاً ببعض أقواله، وكان قد كشف عنه بانخذه.

(٨) بدأ المنافقون بعد أخذ يهجمون بشأن الذين قُتلوا من المسلمين فيقولون:

لو كانوا عندنا ولم يخرجوا إلى قتال المشركين في أخذ ما ماتوا وما قُتلوا.



النص التاسع

من سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول) ثالث سورة مدنية

(الآيات من ١٥٢ - ١٥٨)

حول أحداث غزوة أحد وبعض ما كان من المنافقين فيها

يقول الله عز وجل في سورة (آل عمران) :

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أُرْسِلْتُمْ مَا تَحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۝١٥٢﴾ إِذْ تَضِعُّدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ فَأَتْبِكُمْ عَمَّا بَعَثَ لِكَيْلًا تَحْزِنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۖ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٥٣﴾ ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنٌ شَاسَا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ۚ قُلْ إِنْ أَمَرَ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كُنَّا لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ۚ مَا قَاتَلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝١٥٤﴾ إِنْ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝١٥٥﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَىٰ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّ

وَيُحْيِي اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١٦٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٦٧﴾ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تَحْشُرُونَ ﴿١٦٨﴾

ما في النص من القراءات الموازنة (من الفرش)

- (١) قرأ حمزة والكسائي وخلف [تَفْشَى] أي: الأمانة تَفْشَى.
- (٢) وقرأ البصريان: أبو عمرو ويعقوب: [قُلْ: إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ] برفع لفظ «كُلُّ» وهو مبتدأ، وجملة [كُلُّهُ لِلَّهِ] خبر إن والمعنى واحد.
- (٣) وقرأ ابن كثير المكي، وحمزة والكسائي وخلف: [وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ] بياء الغائب، وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني مرةً بالخطاب ومرةً بالغيبة، أو على التوزيع، فالتى بالخطاب للمؤمنين، والتي بالغيبة للكافرين.
- (٤) وقرأ نافع وحمزة والكسائي وخلف: [مُتُّمْ] بكسر الميم الأولى، وهو وجه عربي لهذه الكلمة، يقال: مُتُّمْ وَمُتُّم بِالضَّم والكسر.
- (٥) وقرأ كلُّ القراء غير حفص: [خَيْرٌ مِمَّا تَجْمَعُونَ] ببناء الخطاب، فبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

(١)

الفكرة العامة للنص

* بدأ النص ببيان صدق وعد الله للمؤمنين بالنصر والتأييد قبل أحد، وهو الوعد الذي أخبرهم به الرسول ﷺ، إلا أنه وعدٌ كسائر وعود الله لخصوص المؤمنين مشروط بالطاعة والتزام التكليف، وعدم المعصية لله ولرسوله، وللائمة والقادة من المؤمنين القائمين على حدود الله المطيعين لرسوله.

وبيان أن هذا الوعد قد تحقق فعلاً في المرحلة الأولى من المعركة، لما التزم المسلمون بالطاعة، فلما عصى فريقٌ كثير العدد منهم طمعاً في الغنائم، وتركوا مواقع

القتال المحددة لهم، أمسك الله عنهم معونته، وصرفهم عن التمكن من الظفر بعدوهم، وأوقع فيهم القتل فقُتِلَ من انتهت آجالهم، ليكشف الصادقين في إيمانهم مريدي الآخرة، ويكشف في الواقع العملي مريدي الدنيا منهم.

• وَأَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ أَنَّهُ عَفَا عَنِ الْمُسِيئِينَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ مِنْهُمْ فَضْلاً مِنْهُ، لَأَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ عَصَوْا وَتَبِعُوا وَحَصَلَ لَهُمُ التَّأْدِيبُ.

• وَصَوَّرَ النَّصَّ حَالَةَ هَزِيمَةِ الْأَكْثَرِينَ مِنْهُمْ سَالِكِينَ فِي صَعِيدِ الْأَرْضِ مَسَالِكَ شَتَّى، مَعَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ كَانَ يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، كَيْ يَثْبُتُوا مَعَهُ، وَهُوَ فِي مَوْقِعِهِ مِنَ الْمَعْرَكَةِ ضِمْنَ الْفِرْقَةِ الَّتِي كَانَتْ أَكْثَرُ ثِبَاتًا، مُلْتَفَةً حَوْلَهُ تُدَافِعُ عَنْهُ وَتَقْدِيهِ بِأَنْفُسِهَا.

فلما فعلوا ذلك جازاهم الله عليه بتراكم الغم عليهم، وكان جزاء ترويضاً من الله لهم يصح أن يسمى ثواباً باعتبار ما يُفْضِي إليه، كي يتعظوا ويستبصروا الحق ومنهج الله، وليَعْلَمُوا سُنَّةَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، فَلَا يَحْزَنُوا مُسْتَقْبَلاً عَلَى أَشْيَاءَ فَاتَتْهُمْ، وَلَا يَحْزَنُوا بِسَبَبِ مَصَائِبِ أَصَابَتْهُمْ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا فَاتَتْهُمْ أَوْ مَا أَصَابَتْهُمْ إِنَّمَا هُوَ بِقِضَاءِ اللَّهِ وَقُدْرَةِ أَوْإِذْنِهِ وَعِلْمِهِ، لِحُكْمَةٍ أَوْحَكَمُ هُوَ يَعْلَمُهَا، مِنْهَا التَّأْدِيبُ وَالتَّرْبِيَةُ وَالْمَجَازَاةُ عَلَى بَعْضِ الْمَعَاصِي، فَيَكُونُ ذَلِكَ مِنَ الْمَكْفَرَاتِ لِلذُّنُوبِ، وَلَمَّا كَانَ اللَّهُ عَلِيماً خَبِيراً بِمَا يَعْمَلُونَ ظَاهِراً وَبَاطِناً، فَكُلُّ تَصَارُفِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حِكْمُهُ.

• وَأَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّصِّ أَنَّهُ بَعْدَ أَنْ أُنْزِلَ بِالْمُسْلِمِينَ فِي مَعْرَكَةِ أُحُدٍ مَا أُنْزِلَ، جَزَاءً عَلَى مَا كَانَ مِنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ مِنْ طَمَعٍ بِالْغَنَائِمِ، وَمَا كَانَ مِنْهُمْ أَيْضاً مِنْ مَعْصِيَةٍ لِلرَّسُولِ، أُنْزِلَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ الْأَمْنِ لِقُلُوبِهِمْ. وَهُوَ التَّعَاسُّ الَّذِي يَصْرِفُ الْأَفْكَارَ وَالتَّصَوُّرَاتِ عَنِ الْإِشْتَغَالِ بِمَا وَقَعَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي الْمَعْرَكَةِ.

لَكِنَّ طَائِفَةً أُخْرَى لَمْ تَرْقُ إِلَى مَسْتَوًى إِسْعَافِهَا بِهَذِهِ الْأَمْنَةِ مِنَ اللَّهِ، فَشَغَلَهُمُ اللَّهُمَّ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَأَخَذَتْ أَفْكَارُهُمْ تَنْخَبُطُ فِي ظُنُونٍ بَاطِلَةٍ، كَالظُّنُونِ الَّتِي تَجْلِبُهَا الْمَفْهُومَاتُ الْجَاهِلِيَّةُ لِأَصْحَابِهَا، وَأَخَذُوا يُطْلِقُونَ عِبَارَاتٍ تَدُلُّ عَلَى النِّفَاقِ أَوْ مَرَضٍ فِي الْقُلُوبِ أَخْفَ مِنَ النِّفَاقِ، وَيُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُوهُ لِلرَّسُولِ ﷺ، وَيَقُولُ قَائِلُونَ مِنْهُمْ: لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ فِي صَنْعِ قَرَارِ الْخُرُوجِ إِلَى الْعَدُوِّ أَوْ عَدَمِ الْخُرُوجِ إِلَيْهِ شَيْءٌ، لَكُنَّا أَلْزَمْنَا الرَّسُولَ بِعَدَمِ الْخُرُوجِ، وَلَمَّا قُتِلَ مَنْ قَتَلَ مَثْلاً فِي أُحُدٍ.

وعَلَّمَ الله رسوله ما يَبَيِّنُ لهم به المفهوم الدقيق للقضاء والقدر، السابقين للأحداث والوقائع، وأنَّ كُلَّ مَيِّتٍ مَاتَ في أُحُدٍ قد مَاتَ بِأَجَلِهِ، وَيَعْلَمُ اللهُ وَأَذْنُهُ، وأنه لو لم يخرج المسلمون لمواجهة عدوهم عند أحد، لَخَرَجَ هؤلاء بسبب آخر غير قتال المشركين، فَقُتِلُوا في المواضع التي قتلوا فيها، والتي كانت مضاجعهم التي هي مضاجع موتهم الْمُشَبَّه لِلنَّوْمِ، في انتظار بعثهم الْمُشَبَّه لِلْيَقَظَةِ من النوم.

وعَلَّمَ الله رسوله أيضاً أن يَبَيِّنَ لهم حكمة ما حدث للمسلمين في أحد، وأهم عناصر هذه الحكمة ما يلي:

(١) كشف ما في الصدور من إرادة الآخرة، أو إرادة الدُّنْيَا، الأمر الذي لا يُكشَفُ إلَّا عند المطامع، والشدائد المؤلمات المحزنات.

(٢) تمحيص ما في القلوب من عوالت وشوائب، فالشدائد كالنار تنفي الشوائب، وتجمع المعدن الصافي إلى بعضه خالصاً نقيّاً.

(٣) تعميق إيمانهم بأنَّ اللهَ عليم بذات الصدور، مهما كانت صاجبة الصدور هذه التي هي من الرغبات والنيات وَنَحْوَ ذَلِكَ خَفِيَّةٌ مَكْتُومَةٌ لم تظهر علامات لها على سطح السلوك، وأنَّ ما يُجْرِيه الله سبحانه من أحداث ظاهرات لا نَعْلَمُ لها في الناس أسباباً ظاهرة، فلا بُدَّ أنَّ لها أسباباً باطنةً كامنةً في الصدور، واللهُ عليم بها، ويُجْري تصاريفه سبحانه بما يُلائمها.

* وجاء في النصِّ بيانٌ عن الذين فُرُوا مُذْبرِين من المعركة خوفاً على أنفسهم، وأنَّ ذلك الفشل والضَّعْف الذي حصل لهم، إنما استرلَّهُم الشيطان له، وأزَلَّهَمُ فيه بسبب بعض الكسب الذي كسبوه، وهذا الكسبُ هو معصية الرسول طمعاً بالدنيا والغنائم.

ودلَّ هذا على أنَّ المعاصي التي تجرُّ إليها النفس بمطامعها وشهواتها تُمكنُ الشيطان من الإنسان، فيستدرجُه إلى مواطن الرُّذُلِ، ومزالي الخيبة والفشل.

لكنَّ الله تداركهم بعفوه، فهي من أوليات تجرباتهم، فعفا عنهم، إنَّ الله غفورٌ حلِيم لا يستعجل بالعقوبة.

* وخاطب الله عز وجل المؤمنين في النص، فنهاهم عن أن يكونوا في مفهوماتهم كالمنافقين وسائر الكافرين، وهي المفهومات التي عبّر عنها المنافقون إذ قالوا بشأن الذين قُتلوا في أحد: لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتلوا.

إنها مقولة لا تُصدّر إلا من منابع الكفر بالله وقضائه وقدره، وهي مقولة وخيمة من آثارها توليدُ الحُسرة في القلوب، والحُسرة من مُعجل العقاب على الكفر.

بخلاف أهل الإيمان فإنهم يُسلمون تسليماً، فتكون قلوبهم مطمئنة سعيدة خالية من الحُسرة والآمها.

* وأتم الله عز وجل النص بعقائد إيمانية ذات ارتباط بأحداث موقعة أحد، وهي في موضوع الحياة والموت، وموضوع مجاري مقادير الله، وموضوع يوم الدين الذي يُحشر فيه الناس للحساب، وفصل القضاء، والجزاء.

* * *

(٢)

المفردات اللغوية للنص

﴿صَدَقَكُمْ اللَّهُ وَعَدَهُ﴾:

يقال لُغَةً: صَدَقَ فلانٌ في الحديث يَصْدُقُ بصدقاً، إذا أخبر بما يُطابق الواقع. ويقال: صَدَقَ فلانٌ فلاناً في الحديث بصدقاً، وَصَدَقَهُ الحديث، إذا أنبأه بما يطابق الواقع فيستعمل لازماً، ومتعدياً لمفعول به واحد، ومتعدياً لمفعولين.

﴿إِذْ تَحْسُونَهُمْ﴾:

الحَسُّ في اللغة القتل الشديد باستئصال، والمعنى بدأتُم تقتلون فيهم قتلاً مُتتابعاً فيه معنى الغلبة المستأصلة، والظاهر أن المراد من الحَس هنا إزاحة العدو وكشفه عن مواقعه إلى ما بعد مُحط رِخاله حيث توجد الغنائم.

﴿بِأَذْنِهِ﴾:

أي: بإِعلانه وإِباحته وتمكينه.

﴿حَتَّى إِذَا فُشِلْتُمْ﴾:

«إِذَا هُنَا اسْمُ زَمَانٍ مَعَ تَجْرِيدِهِ مِنْ مَعْنَى الشَّرْطِ، أَي: حَتَّى وَقْتُ فَتْلِكُمْ، وَحِينَ تُجْرَدُ مِنْ مَعْنَى الشَّرْطِ تَكُونُ لِمَطْلُوقِ الزَّمَنِ، فَلَا تَخْتَصُّ بِالْمُسْتَقْبَلِ.

وَالْفَتْلُ: هُوَ الْفَرْعُ، وَالْجَيْنُ، وَالضَّعْفُ، وَالْوَهْنُ.

وَتَنَازَعْتُمْ: التَّنَازُعُ هُوَ التَّخَالُفُ وَالتَّخَاصُّمُ، وَتَدَافَعُ الْحِجَجُ فِي الْخُصُومَةِ.

﴿ثُمَّ صَرَقَكُمْ عَنْهُمْ﴾:

أَي: رَدَّكُمْ اللَّهُ وَحَوَّلَكُمْ عَنِ التَّسَلُّطِ عَلَيْهِمْ بِالْفَتْلِ.

﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾:

أَي: لِيَكْشِفَ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا مِنْكُمْ وَمَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ، وَمَنْ يُضَيِّرُ صَادِقًا مُحْتَسِبًا أَجْرَهُ عِنْدَ اللَّهِ، وَمَنْ يُفَرِّقُ مُضْطَعِدًا فِي الْأَرْضِ لَا يُلَوِّي عَلَى شَيْءٍ، يَتَغَيَّرُ النِّجَاحُ بِنَفْسِهِ.

﴿إِذْ تَصْعِدُونَ﴾:

أَي: إِذْ تَنْظِلُونَ فَارِضِينَ هَائِمِينَ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ، فِي الْوَادِي، وَنَحْوِ الْمَدِينَةِ، وَنَحْوِ الْجَبَلِ، وَالْإِصْعَادُ فِي اللُّغَةِ: هُوَ الذَّهَابُ فِي الْأَرْضِ وَالْإِبْعَادُ فِيهَا، لِأَنَّ وَجْهَ الْأَرْضِ يُسَمَّى صَعِيدًا، وَكَذَلِكَ التُّرَابُ يُسَمَّى صَعِيدًا.

وَجَاءَ الْخَطَابُ عَامًّا وَالْمُرَادُ مَنْ فَرَّ وَأَصْعَدَ، نَظَرًا إِلَى أَنَّ الْعِدَّ الْأَكْثَرَ قَدْ فَعَلُوا ذَلِكَ.

﴿وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ﴾:

أَي: وَلَا تَغْطِفُونَ عَلَى أَحَدٍ مِنْكُمْ، وَلَا يَلْتَمِثُ بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ، لِأَنَّ كُلَّ فَرٍّ قَدْ طَلَبَ النِّجَاحَ لِنَفْسِهِ.

وَمِنْ عَادَةِ الْمُنْصَرَفِ عَنْ مَكَانٍ مَا، أَوْ أَيْ شَيْءٍ، إِذَا خَطَرَ فِي بَالِهِ مَا انْصَرَفَ عَنْهُ أَوْ أَرَادَ الرُّجُوعَ إِلَيْهِ، أَوِ الْإِضْمَامَ إِلَى بَعْضِ جَمَاعَتِهِ الْمُنْصَرِفِينَ مِثْلَهُ، لَوَّى عُنُقَهُ وَجَسَمَهُ أَوْ لَوَّى عُنُقَ دَابَّتِهِ، أَوْ لَوَّى حَرَكَةَ سِيرِهِ مُنْعِطًا إِلَى مَنْ يَنْضَمُّ إِلَيْهِ، لَكِنْ إِذَا انْشَغَلَتْ سَاحَةُ تَفَكِيرِهِ بِالْفِرَارِ وَالنِّجَاحِ فَقَطْ لَمْ يَلْوِ عَلَى أَحَدٍ.

﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَانَكُمْ﴾:

أي: يناديكم إليه وهو في الفئة الأخرى منكم الذين ثبتوا فلم يفروا.
﴿فَأَثَبَكُمْ﴾:

أي: فجازاكم على فراركم، والاصل في الثواب الجزاء على الطاعة، قيل: واستعمل هنا بمعنى مُطْلَقِ الجزاء، أقول: أرى أن في اختيار فعل «أثاب» هنا معنى الترفق بالمسلمين، إذ ما حصل لهم لم يكن في الحقيقة عقاباً، وإنما كان للتربية والتأديب، وما يحصل به ذلك هو في حقيقته بمنزلة الثواب، لأنه لإختر من يُراد تأديبه وتربيته، فإذا تأذّب جرّه ذلك إلى اغتنام الثواب العظيم.

والنصوص القرآنية التي جاء فيها لفظ «ثواب» وفعل «أثاب» جميعها جاءت بمعنى الجزاء على الطاعة وفعل الخير مما يُجبُّ الثَّابُّ أن يناله لا مما يكره، باستثناء هذه الآية، وبالفهم الذي فهمناه نقول: إنَّ الفعل لم يخرج عن أصل معناه، بالنظر إلى الغاية البعيدة المرادة منه.

واستعملت كلمة «مُثَوِّبٌ» في القرآن مرتين:

الأولى: التي في الآية (١٠٣) من سورة (البقرة/٢) وهي بمعنى الجزاء بخير.

والثانية: التي في الآية (٦٠) من سورة (المائدة/٥) وهي فيما أرى بمعنى المكانة، لأنَّ أهل الكتاب المرادين في الآية هم من اليهود الذين كانوا يستهزئون من المسلمين إذا نادوا إلى الصلاة، ويتخذون عبادتهم لربهم هزواً ولعباً، فقال الله لهم:

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكُمُ ثَوْبٌ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾.

فهم يستهزئون من مكانة المسلمين في الصلاة يسجدون إلى ربهم، وهم شرُّ مكانة عند الله، فقد لعنهم وغضب عليهم وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطَّاغُوت. وجاء قوله: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ دليلاً على المراد من «مُثَوِّبٌ» والله أعلم.

وفعل «أثاب» هو بمعنى رجع، والمكان الذي يُرجعُ إليه مَثَوْبٌ إليه، والمكانة التي يُرجعُ إليها: مُثَوِّبٌ، أي: مرجوع إليها.

وجاء فَعِلُ (تُوبَ) بالبناء للمجهول، وهو من تَوْبَةٍ بمعنى عَوْضَةٍ، فقال تعالى في سورة (المطففين/٨٣):

﴿هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

إنهم كانوا في الدنيا يضحكون من الذين آمنوا، أما في الآخرة فالذين آمنوا من الكفار يضحكون، فهل عَوْضُوا على ضحكهم من المؤمنين في الدنيا، بضحك عليهم من المؤمنين في الآخرة؟

وبهذا استوفينا كُلَّ ما جاء هذه المادة، ونستطيع بعد هذا السبر والتحليل أن نقرر أن الثواب في القرآن قد استعمل في الجزاء بما هو محبوب وخير.

﴿غَمًّا﴾: الغمُّ: الكرب، وسُمِّيَ الكربُ غَمًّا لَّأنَّه يشتملُ على القلب ويغلقه وَيَسْتُرُهُ بالمؤلمات.

﴿غَمًّا بَغْمٌ﴾: أي مُتَبَسِّئًا ومُتَنَبِّهًا ومُتَصَلًّا بَغْمٍ آخر. أو بسبب ما أنزلوه بالرَّسول والمؤمنين الصادقين معه من غم.

﴿أَمْنَةً﴾: أَمْنًا، مصدر وأمن، أي: اطمأن ولم يخف، فهو آمِنٌ وأَمِنُ وأَمِينٌ.

﴿إلى مضاجعهم﴾: المضاجع جمع مضجع، وهو موضع الضُّجُوع، والضُّجُوع وضَعُ الجنب على الأرض أو نحوها للراحة أو النوم. شُبِّهَتِ المواضع التي ارتقى عليها شهداء المسلمين في أحدٍ أودفنا فيها بالمضاجع التي تكون للراحة أو النوم، لأنهم في تمام الراحة بعد استشهادهم، وكأنهم نائمون، وحينما يَبْعَثُونَ فكأنهم يَهْضُونَ من مضاجع راحتهم ونومهم.

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾: تمحيص الشيء تَخْلِيصُهُ مما يَخَالِطُهُ مما لا خير فيه للغاية المرادة منه.

فالْمَحْصُصُ من الخيل والإبل هو الشديد الخَلْقِي، الذي ذَهَبَتْ من جسمه الشحوم وعناصر الترهل والضعف، فصار لحمًا مكتنزًا قويًا.

والوَتَرُ الْمُحْمَصُ هو الذي أزيل عنه الشَّحْمُ لقتله وإحكام إبراهيم. ويقال مَحْصُ الخَبْلِ يَمْحَصُ مَحْصًا فهو مَحْصٌ ومَحِيصٌ، إذا ذَهَبَ وَتَرُهُ حَتَّى صار أَمْلَسَ أَجْرَدَ.

﴿تَوَلَّوْا﴾: أي: اذْهَبُوا فَارِينَ مُنْهَزِمِينَ، والتوليّ إدارة الظهر وإعطاء الدُّبر. وَيَتَّبِعُهُ غَالِبًا الْإِنْصِرَافُ وَالْإِبْتَعَادُ.

﴿اسْتَرْزَلَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾: أي: استدرجهم حتى أوقعهم في الزَّلَل، أو حملهم على الوقوع في الزَّلَل بالوسوسة والتسويلات، والاستدراج.

الزَّلَل: الخطأ في الرأي أو النية أو القول أو العمل الباطن أو الظاهر.

والزَّلَل: الذنب والإثم، وأصل الزَّلَل الانزلاق في طين أو عن صخرة أو نحو ذلك، والوقوع بسبب ذلك في مزلق غير محمود، ومنه قولهم: زَلَّتْ قدمه إذا زَلَّتْ. يُقَالُ: زَلَّ يَزِلُّ وَزَلَّ زَلًّا وَزَلِيلًا وَمَزَلَّةً، إِذَا زَلِقَ.

وَيُقَالُ: أَزَلَّ الرَّجُلُ نَفْسَهُ عَنْ مَقَامِهِ إِزْلالًا، إِذَا دَفَعَ بِهِ. حَتَّى زَلِقَ، وَكَذَلِكَ أَزَالَهُ.

وصيغة «استَرْزَلُ» من معانيها طَلَبُ تحقيق مضمون الفعل، والسَّعْيُ لَهُ بِاتِّخَاذِ الْوَسَائِلِ، حَتَّى يَحْصَلَ الْمَطْلُوبُ، وَهَذَا يَنْطَبِقُ عَلَى مَا يَفْعَلُهُ الشَّيْطَانُ دَوَامًا فِي الْإِغْوَاءِ، وَمَا فَعَلَهُ فِي الَّذِينَ أَوْقَعَهُمْ فِي الزَّلَلِ يَوْمَ أُحُدٍ.

﴿قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾: أي: لِأَجْلِ إِخْوَانِهِمْ، أَوْ عَنْ إِخْوَانِهِمْ، فَالْأَمُّ لِلتَّعْلِيلِ، أَوْ هِيَ بِمَعْنَى «عَنْ».

إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ: الضرب في الأرض الإبعاد فيها سَيْرًا، وَهُوَ كِتَابَةٌ عَنِ السَّفَرِ.

﴿غَزَى﴾: جَمْعُ غَازٍ، وَالْغَازِي هُوَ الَّذِي يَقْبِضُ عَدُوَّهُ لِلْقِتَالِ.

﴿خُسْرَةً﴾: الْخُسْرَةُ أَشَدُّ النَّدَمِ، وَبِالْأَلَمِ عَلَى مَا فَاتَ مِنَ الْمَحَابِّ، بِسَبَبِ مِنَ الْأَسْبَابِ.

(٣)

مَا رُوي فِي سَبَبِ النَزُولِ

اتَّفَقَ شَيْوخُ أَهْلِ التَّفْسِيرِ مِنَ السَّلَفِ عَلَى أَنَّ هَذَا النَّصَّ قَدْ نَزَلَ بِمُنَاسَبَةِ الْأَحْدَاثِ الَّتِي جَرَتْ فِي مَوْقِعَةِ أُحُدٍ.

والآيات فيه ظاهرة الاتفاق مع أحداث هذه الغزوة .

* * *

(٤)

مع النص في التحليل والتدبر

* قول الله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ .

في هذا القول إشارة إلى الوعد الرباني بالنصر قبل معركة أحد، وهو ما أخبر به الرسول ﷺ المسلمين قبل بدء المعركة، فقال لهم:

«إِنكُمْ ستظهرون فلا تأخذوا مما أصبتم من غنائمهم شيئاً حتى تفرغوا» .

وقال للرماة:

«لا تبرحوا مكانكم إن رأيتمونا قد هزمناهم فلاناً لن نزال غالبين ما بُتتم مكانكم» .

وعن البراء أنه قال لهم: «لا تبرحوا مكانكم، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تبعيناه» .

وقد تحقق النصر للمؤمنين مُدةً حافظتهم على الطاعة لأوامر الرسول ﷺ، وصَدَّقَ الله وعده، ونَصَرَ اللهُ لعباده المؤمنين مشروط بالطاعة ومُلازمةً منهجه .

لكن أكثر المسلمين في المعركة طمعوا في الغنائم فعضوا أمر الرسول، ولا سيما معظم الرماة، فأقبلوا على جمع الغنائم قبل أن يأذن لهم الرسول ﷺ .

وكانوا قبل المعصية يُحُسُّونَ المشركين حَسًّا، قتلاً وضرباً وإزاحة لهم عن مواقعهم، ومَحْطُّ رِحالهم، الأمر الذي أغراههم بجمع الغنائم الوفيرة، ونلاحظ في معنى الْحَسِّ هنا، هذه الإزاحة عن مَحْطِّ رِحالهم المستأصلة لِمُقَاتِلَتِهِمْ بالإبعاد عن متراكمات الغنائم، ولا يَقْتَصِرُ الْحَسُّ على مجرد معنى القتل، لأن قتلى المشركين لم يَصِلُوا إلى المقدار الَّتِي تُشْمُّ منه رائحة الاستئصال بالقتل، والْحَسُّ فيه معنى الاستئصال، فهو استئصال لهم بإزاحتهم مُكْثِفِينَ فَارِينَ عن مَحْطِّ رِحالهم .

وهذا الحسن من المؤمنين للمشركين لم يتحقق لهم إلا بإذن من الله، فلو لا أن أذن الله بذلك إذنًا دينيًا، وإذنًا قدريًا بالتمكين، وتيسير الأسباب، ما استطاع المسلمون أن يتسلطوا بسيوفهم على أعدائهم، ويحسبهم حتى أجلوهم عن مواقعهم، وخلقوا وراءهم غنائمهم.

* * *

* قول الله عز وجل:

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُشِيتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أُرْسِلْتُمْ مَاتُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۖ﴾.

أي: استمرت ظاهرة توالي حسن المؤمنين للمشركين في أحد حتى حل القتل - وهو الضعف والجبن والفزع والوهن - بمداهمة كتيبة خالد بن الوليد على الخيول من وراء ظهورهم، إذ ترك معظم الرماة مواقعهم، وقد كانوا فيها ذرعاً لظهور المسلمين.

وقد حصل الأمر وفق الترتيب التالي:

أولاً: عصى معظم الرماة، فتركوا مواقعهم حين أراهم الله ما يحبون من النصر، ووجود غنائم العدو سهلة التناول، وطمع أكثر المسلمين في المعركة بالظفر بها، قبل أن يأذن الرسول ﷺ لهم بذلك، وجاء التعبير عن هذا بقوله تعالى:

﴿وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أُرْسِلْتُمْ مَاتُحِبُّونَ ۖ﴾.

ثانياً: وقع الخلاف بين المسلمين في الأمر القائم حول متابعة القتال والثبات في المواقع وفق أوامر الرسول، أو ترك المواقع والإسراع إلى جمع الغنائم، ووقع الجدل فيما بينهم، ففرقت وحدة الكلمة، ووحدة الصف، وجاء التعبير عن هذا بقوله تعالى:

﴿وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ﴾.

ثالثاً: دب الضعف في صفوف المسلمين بسبب التنازع وتفرق الكلمة، وتمزق الصف.

وهجم العدو عليهم من وراء ظهورهم، فاضطربوا، واختل نظامهم، وأصابهم

الفرع، ورأوا أنهم محصورون مُحاطون من أمامهم ومن خلفهم، ووقع القتل فيهم، فجنّوا، وعَدُوا فَارِينَ، وكان هذا هو الفشل الذي حلّ بهم، وجاء التعبير عنه بقوله تعالى:

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُشِلْتُمْ﴾.

رابعاً: وكان السبب الداخلي في النفوس الذي جرّ إلى المعصية والتنازع والفشل، هو وجود فريق كثير فيهم أخذت نفوسهم تدور دواليبها حول إرادة الدنيا، أي: إرادة الحصول على الغنائم والتسابق إلى حيازتها. وجاء التعبير عن هذا السبب النفسي بقوله تعالى:

﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾.

فالترتيب الذي جرى في الواقع كما يلي: إرادة الدنيا، فمعصية، فتنازع، ففشل.

ولكن: لمْ انعكس هذا الترتيب في البيان القرآني؟

الذي يظهر لي أنّ الغرض الدلالة على أنّ ظُهور المسلمين على عدوهم قد استمرّ حتى حلّ بهم الفشل، ولم تتحوّل رياح النصر عنهم إلى عدوهم عند المعصية والتنازع في الأمر، بل أخذ الأمر يتسلسل على مراحل، ولو انعكس الترتيب في النصّ لأوهم أنّ ظهور المسلمين على عدوهم قد توقّف منذ لحظة معصية الرّماة، وهذا خلاف الواقع، وخلاف سنة الله في الأحداث.

والنّصّ يهدف إلى الإعلام بأنّ توقف النّصر وتحوّل رياحه قد حصل بعد حصول الفشل.

فالدّقّة في التعبير تقتضي أن يأتي البيان دالّاً على أنّ حركة الظُّهور على العدو قد توقفت عند حصول الفشل.

إذن: فقد كان لهذا الانتصار نهاية توقّف عندها، وهذه النهاية مقرونة بحصول الفشل، فالتعبير القرآني دالّ على هذه الحقيقة بدقّة بالغة، فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾:

أي: حَتَّى وَقَبْتُ فَشَلِّكُمْ.

ولكن لا بد أيضاً من بيان التراكمات السببية التي أدت إلى الفشل، باعتبارها أسباباً متتابعة لحصوله.

فذكر الله عز وجل السبب المباشر للفشل أولاً، وبعده ذكر السبب الذي كان قبله فأدى إليه، وبعد ذلك ذكر السبب النفسي الإرادي الداعي، الذي توقف عنده سلسلة الأسباب بداهة.

* أما السبب المباشر للفشل فهو التنازع في الأمر، ولذلك جاء ترتيبه بعد ذكر الفشل مباشرة، فقال تعالى:

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.

وفي نص سابق في النزول لهذا النص أبان الله عز وجل للمؤمنين أن التنازع يؤدي إلى الفشل، إذ قال الله تعالى لهم في سورة (الأنفال / ٨ مصحف / ٨٨ نزول):

﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَنَفْسُكُمُ الْغَالِبَةُ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصِيرُوا إِنَّا اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

فكان هذا البيان بعد غزوة بدر بمثابة التوطئة الإنذارية التي كان على المسلمين في أحد أن يضعوها نصب أعينهم، حتى لا يتنازعوا فيفسلوا، ولا يعصوا الله ورسوله، ومتى فشلوا ذهب ريحهم، أي: ذهبت قوتهم المعنوية التي فيها سر انتصارهم على أعدائهم في المعارك.

فما جرى للمسلمين في أحد قد كان ظاهرة من ظواهر سنن الله، التي أبانها الله لهم في كتابه بعد غزوة بدر الكبرى.

* ولكن ما سبب التنازع الذي حصل في أحد؟

الجواب: معصية من عصي من المسلمين أمر الرسول، ومخالفتهم لإخوانهم، وتمزيقهم للصف، فجاء قوله تعالى: ﴿وَعَصَيْتُمْ مَنِ بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُجِبُونَ﴾ عقب قوله تعالى:

﴿وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.

فحصل بهذا الإشارة إلى أَنَّ العصيان هو سَبَبُ التنازع.

* حسناً، فما هو السَّبَبُ النفسيُّ الإراديُّ الداعي الذي تنتهي عنده سلسلة الأسباب، والذي أدَّى إلى معصية من عصي منهم؟

الجواب: إرادة مطامع الدنيا من العصاة، وإن كان الفريق الآخر يريد ثواب الآخرة. فجاء قوله تعالى في آخر بيان سلسلة الأسباب:

﴿مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾.

وهكذا جاء الترتيب في البيان القرآني كامل الدقة في الأداء، ومطابقاً لما يرادُّ الدلالة عليه.

يضاف إلى ذَلِكَ أَنَّ التَّسْلُسَ المنطقيَّ لبحث آية ظاهرة، وكشف الأسباب التي أدَّت إليها، يقضي بأنَّ تُحَدَّدَ الظاهرةُ أولاً، وبعد ذلك يُنظر إلى السبب المباشر الذي أدَّى إليها، ثم إلى السبب الذي أدَّى إلى السبب المباشر، وهكذا تَسْلُسُ مع الأسباب، حتَّى يَنْتَهِيَ البحث عند السبب الأول، الذي تنتهي عنده عقلاً سلسلة الأسباب.

والإرادة ودواعيها عند ذوي الإرادات الحرة، تُعْتَبَر هي السبب الأول الذي نَقِفُ عنده عقلاً سلسلة الأسباب، ولا يَبْحَثُ بعدها عن سبب آخر.

* قول الله عز وجل:

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: وبعد توقُّف حركة الظُّهُورِ والتَّسلُّطِ عن العدو بسبب حصول الفشل، وبعد مرور مُدَّةٍ من الزمن حصل فيها وُجُومٌ واضطرابٌ ضَمَّنَ التَّعَرُّكَ، صرفكم الله عنهم. نفهم هذا من العطف بحرف العطف (ثُمَّ) الدَّالُّ على التراخي.

وبهذا الصَّرف انعكست رياحُ النصر بتقدير الله وحكمته، لكشفِ أحوال المسلمين مُريدي الدنيا، ومُريدي الآخرة، وكشفِ الصَّابرين الصادقين، وغيرهم، كلُّ بِحَسْبِ مَرْبِّيَّتِهِ في الإيمان والصدِّق مع الله في المعركة، فالمصائبُ كَوَاشِفُ، والشَّدائد كَوَاشِفُ، والمطامع كَوَاشِفُ، وأصلُ الامتحان أن يوضع الممتَحَنُ في المواقف التي تَكْشِفُ حَقِيقَتَهُ، إِرَادَةً، أَوْ خُلُقًا، أَوْ اسْتِعْدَادًا، وتكشف صدقه وإيمانه، أو ما دون ذلك من درجات، حَتَّى أَدْنَى الدَرَكَاتِ الَّتِي هي دَرَكَةُ النِّفَاقِ.

دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِيَبْلِغَكُمُ﴾ والابتلاءُ الامتحانُ للكشفِ.

وهذا الامتحان يستلزم التربية والتأديب، فالإنسان كثيراً ما يكون امتحانه الذي ليس هو الامتحان الأخير لِتَرْبِيَّتِهِ وتأديبه بما يجب أو ينبغي أن يكون عليه.

وقد أثبت هذا الامتحان أن معظمهم لم يستطع الثبات عند تحوُّل رياح النصر عنهم، لكنَّه قد كان لهم جميعاً ذُماً تَرْبُويّاً تَأْدِيبِيّاً رَاضِعاً، أعدَّهم إعداداً ممتازاً للمعارك القادمة.

وإنَّما جعل الله عَزَّ وَجَلَّ هذا الصَّرفَ للمؤمنين عن الظهور على عدوِّهم ابتلاءً، ولم يجعله جزاءً، لأنَّه سبحانه وتعالى قد مَنَحَهُمُ العفو، دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ لَهُمْ عقب بيان غرض الابتلاء:

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٥٢).

والعفو أَرْفَى مَرْتَبَةٍ مِنَ الْغَفْرِ، لأنَّ الْغَفْرَانَ سَتَرٌ، أما الْعَفْوُ فَهُوَ مَحْوُ لِلْأَثَرِ.

* قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِيْ أَخْرَجْتَكُمْ﴾.

انتقل النَّصُّ بهذا إلى بيان مرحلة تالية من مراحل المعركة، وهي مرحلة انهزام معظم المسلمين، الأمر الذي ما كان ينبغي أن يصدر منهم، بعد أن أدركوا أَنَّ المعصية والطمع في الغنائم قد حوَّلا عنهم رياحُ النصر.

أي: اذكروا عند كل قتال لعدوكم حالكم في غزوة أحد إذ كنتم نُصْعِدُونَ في الأرض هائمين منطلقين منهزمين في شتى الاتجاهات، في الوادي، وشطر المدينة، ونحو الجبل، ولا تَلَوُونَ مُتَعَفِّينَ على أحدٍ من الشابين أو الفارين، يَطْلُبُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ النجاة بنفسه، فلا يلتفت بعضكم إلى بعض، ولا تستجيبون لنداء الرسول الذي كان يناديكم: إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ارْجِعُوا، إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ارْجِعُوا، إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ مَنْ يَكْفُرْ فَلَهُ الْجَنَّةُ، يُنَادِيكُمْ وهو ثابت في موقعه مع الفئة الثابتة المدافعة عنه، وهي الفئة الأخرى من فِتْيَتِكُمْ، الفئة المنهزمة، والفئة الأخرى القليلة الثابتة التي لم تفر ولم تَسْرُزَلْ، بل صَمَدَتْ وَصَبَّرَتْ.

وجاء استعمال الفعل المضارع في حكاية أثر مضى لتصوير ما وقع كأنه حدث يقع.

* * *

* قول الله عز وجل:

﴿فَأَثْبِكُمُ عَمَّا يَفْعُرُ﴾

أي: فجازاكم جزاء تَأْدِيبٍ وَتَرْبِيَةٍ فَأَنْزَلَ بِكُمْ كَرْبًا مُحِيطًا ضَاغِطًا على القلب وكل النفس موصولاً وملتبساً وملتصفاً بكرب آخر (فالباء للملابسة أو الإلصاق).

أو: فجازاكم جزاء تَأْدِيبٍ وَتَرْبِيَةٍ فَأَنْزَلَ بِكُمْ كَرْبًا مُحِيطًا ضَاغِطًا على القلب وكل النفس بسبب ما أنزلتموه بالرسول والشابين معه من الصادقين، من غَمٍّ إِذْ طَمَعْتُمْ بِالْغَنَائِمِ فَعَصَيْتُمْ فَلَمْ تُثَبِّتُوا وَانْهَزْتُمْ وَلَمْ تَسْتَجِيبُوا لِنِدَائِاتِ الرَّسُولِ ﷺ: (فالباء بمعنى المقابلة أو السبيبة).

وهذا الجزاء يصح تسميته ثواباً باعتبار غايته التأديبية التربوية، المفضية إلى التزام منهج الله، فتحصيل الأجر العظيم، والثواب الجزيل.

وعلى المعنى الأول، المأخوذ من كون الباء للملابسة أو للإلصاق يكون الغم الأول هو ما حصل لهم بسبب ما نزل بالمسلمين من جراحة، وبسبب مقتل إخوانهم الذين قُتِلُوا، وفوات الغنائم التي كانوا قد بدؤوا يجمعونها، ويكون الغم الثاني هو

ما حصل لهم بسبب الشائعة التي قيل فيها: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فكان هذا الغم أشدَّ عليهم من الغم الأول، ثم ما كان من انعطاف ثلَّةٍ من المشركين على فريق منهم وهم في الشَّعْبِ من الجبل، يَتَّبِعُونَ استصالحهم، غير أن الله قد أظفر المؤمنين بإزالة جماعة المشركين الذين غلَّوْا الجبل بقيادة أبي سفيان.

• قول الله عز وجل:

﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ
بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

في هذا بيان للغرض التربوي من مجازاتهم بالغم على ما كان منهم، ونلاحظ أن بيان الغرض التربوي هنا موافق للمرحلة التي وصلت إليها مسيرة المعركة.

لقد جاءت الحركة متسلسلة ثلاثية لتطورات الواقع الذي تدرج فيه المسلمون في معركة أُحُد.

إنَّ صرفهم عن عدوهم أولاً قد كان لامتحان إيمانهم وثباتهم، فلما لم يثبتوا جازاهم الله غمًا بغم، ولكن لم يكن هذا الجزاء عقاباً في الحقيقة، بل هو أسلوب تربوي تأديبي.

والغرض التربوي التأديبي هنا: أن تناضل وتعمق في قلوبهم ونفوسهم الطمأنينة، والتسليم لله فيما تجري به مقاديره الحكيمة، ولو جاءت على خلاف ما يهوّون ويشتهون، ولو جاءت كذلك في صورة مصائب ونكبات، أو فوات مطامع ورغائب كانوا ينجونها ويرجونها.

فالإيمان الصادق الراسخ يستلزم ألا يكون قنالهم طمعاً في الغنائم، حتى يتهافوا عليها، إذا ظنوا أنهم ظافرون بها، وتركوا واجبات الثبات والطاعة.

والإيمان الصادق الراسخ يستلزم أن يُسلموا لحكمة الله دائماً فيما تجري به مقاديره، سواء نزل بهم ما يحبون أو ما يكرهون، وأن يعلموا أنه هو الخير لهم، ومن رُسخت في قلوبهم هذه الحقيقة لم يحزنوا على ما فاتهم مما يحبون، كفوات الغنائم،

ولم يحزنوا على ما خبروه بسبب المصائب التي نزلت بهم، كجراحة أبدانهم، وقتل إخوانهم.

فما اكتسبوه من تربية إيمانية فيما نزل بهم، ومن إعداد نفسي لمستقبل سعيد ظافر، أعظم بكثير مما فاتهم، ومما خسروه فيما أصابهم.

وأشار قول الله عز وجل في آخر الآية:

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

إلى أن تصاريفه تعالى في عطائه ومنعه، ونصريه وغدَم نصره، مظاهر لحكمته المستندة إلى علمه وخبرته، والخبرة هي العلم بالشيء بعد تجربته وامتحانه في الواقع، وهذا العلم يشمل الدقائق والخفايا عن تجربة.

إنه سبحانه وتعالى خير بما يعملون، هذه حقيقة من حقائق صفات الله، من لوازمها ما يلي:

— إذا كان ما يعملونه يقتضي بحسب حكمته أن ينصرهم نصرهم.

— أو يقتضي بحسب حكمته أن يصرفهم عن عدوهم صرفهم عنه.

— أو يقتضي بحكمته أن ينزل الغم فيهم أنزل الغم فيهم.

إذن: فليرجعوا إلى نفوسهم فليؤلؤوها، وليسلموا لله في قضائه وقدره، وليعلموا أن الله عز وجل لا يقضي إلا ما فيه الحكمة والخير.

* قول الله عز وجل:

﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنٌ نُفَاسٌ يَفْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾.

في هذا بيان أن الله عز وجل تدارك أهل الإيمان الصادق الثابتين والذين ثابوا إلى رشدهم بمشاعر الأمن والسكينة بعد الغم الذي غلغف قلوبهم.

وقد دبت إليهم مشاعر الأمن هذا في نفاس يَفْشَى، فيصرف الأذهان عن التفكير فيما نزل بهم من مصيبة، وعن الوسواس المزعجة، ويصرف النفوس عن مشاعر

الخوف والقلق والاضطراب، وعن الاهتمام بذواتهم وأهلبيهم، فالنوم لا يأتي إلا مع الأمن، أما مع خوف والذعر والقلق وثورة الأفكار فإن النوم لا يجد له سبيلاً.

• قول الله عز وجل:

﴿وَمَا يَفْقَهُ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخَفِّفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَاتَلْنَا هَهُنَا...﴾ (١٥٢)

وفي هذا بيان عن طائفة المنافقين وأهل الريب وضعفاء الإيمان، فدل على أنهم بقوا في الغم، لم تأنهم الأمانة من الله، إذ لم يسلموا أمرهم لله ومقاديره، وحكمته في تصاريه، فاتجهت كل أفكارهم وتصوراتهم للاهتمام بأنفسهم، وما نزل بهم وبإخوانهم، وما يخافون منه على أنفسهم في المستقبل، بعد هذا الذي نزل بهم، فأهملتهم أنفسهم، ونسوا أمر الدين وغايات الجهاد والدعوة، وواجباتهم نحو ربهم، وما تتطلب منهم طاعته ورضوانه.

وبذلك ثارت في قلوبهم الشكوك، واحتاجت في نفوسهم الآلام، وصاروا يستعيدون في أفكارهم وحركات قلوبهم ونفوسهم الأمور التي كانت قد جرت قبل خروجهم من المدينة إلى المعركة، ويسرجمعون أنهم كانوا من الفريق الذي لم يكن يرى الخروج إلى العدو، فلم يعمل الرسول برايمهم، وإنما عمل برأي المتحسين للخروج.

إنهم طائفة قد تراكبت عليهم عدة أمراض:

المرض الأول: مرض نفسي، يتجلى بشدة خوفهم، ويتوجه كل همهم نحو أنفسهم، ومستقبل أمرهم في المعركة وبعدها، فهم في هم النجاة وبلوغهم مأمهم، وهم احتمال تعاضل أمر المشركين وسائر الكافرين، وتضاؤل أمر المسلمين، حتى يكون للمشركين سلطان يستأصلون به المؤمنين، وكل الذين معهم، يضاف إلى ذلك هم ما نزل بهم من جراحة.

المرض الثاني: مرض فكري اعتقادي، فما نزل بالمسلمين من هزيمة جعلهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، أي: جعلهم يظنون بالله ظنوا باطلا، منافية لقواعد الإيمان بالله، وهذه الظنون مشابهة لظنون الجاهلية التي لا تستند إلى أساس إيماني صحيح.

وقد يكون من هذه الظنون شكهم في تأييد الله للمؤمنين، وشكهم في وعود النصر الذي تكفل الله به لأولياته على أعدائه، وأشباه هذه الظنون الباطلة، التي أثبت الواقع بعد ذلك خلافها.

المرض الثالث: ما كان من آثاره إعلانهم التلويح على الخروج إلى أحد، وأن البقاء في المدينة كان هو العقل والأحزم والأصح رأياً. ولكن الرسول لم يعمل برأيهم، إذ لم يجعل لهم من الأمر شيئاً بحسب تصوراتهم، مع أنه ﷺ استشار وعمل برأي الأكثرية، وقد كان على خلاف رأيه.

وفي التعبير عن هذا التلويح جعلوا يقولون مُكْرَرِينَ مقاتلهم: «هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ؟» أي: لم يكن لنا من الأمر أقل شيء، ولم يكن لرأينا اعتبار، ونحن أهل العقل والرأي والحكمة. دل على التكرير فعل «يَقُولُونَ».

وكان لا بُد من رد هذه المقالة المُعْلَنَة، فخطب الله رسوله بقوله: «قُلْ: إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ»، أي: ليس الأمر لكم، ولا لي، ولا للفريق الآخر الذي كان متحمساً للخروج، بل إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ، ومن مناهجه العمل بالشورى والأخذ برأي الأكثرية المؤمنة، ما لم يتزل من لدنه أمر خاص. وقد اقتضت حكمته سبحانه فوق ذلك بأن يمتحن جماعة المسلمين في هذه المعركة، ويُمَحِّص ما في قلوبهم. فجرت مقاديره على ما قد وقع فعلاً.

المرض الرابع: إنكارهم في قلوبهم لركن الإيمان بالقضاء والقدر، وأنه بمحابه ونفيه، ومكارهه ومضاييقه من الله عز وجل، أو شكهم في هذا الركن، مع إيمانهم وتعلقهم التام بالأسباب. دل على هذا قول الله تعالى في النص:

﴿يُحْفَوْنَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَقَاتِلْنَا هَهُنَا﴾.

وكان لا بُدَّ أيضاً من ردِّ هذه المقالة التي ردَّوها في نفوسهم ولم يعلنوها بالستهم أمام المسلمين، وكان لا بُدَّ من بيان عنصر من عناصر العقيدة الإيمانية في القضاء والقدر، فعلم الله رسوله في تمة الآية ما يقوله لهم، وتعليم الله لرسوله يتضمَّن تعليمًا لسائر المؤمنين، ولا سيما أهل العلم منهم.

* قول الله عزَّ وجل:

﴿قُلْ لَّوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٦﴾﴾:

أي: لو لم تخرجوا إلى قتال المشركين في أحدٍ وبقيتُمْ في بيوتكم في المدينة، لخرج الذين كُتِبَ عليهم القتل بعلم الله وقضائه وقدره، بسبب ما من الأسباب، ولو كان غير سبب الخروج إلى القتال، ولسقطوا صرعى في الأماكن التي سقطوا فيها قتلى فكانت مدافنهم مضاجعهم المريحة لهم، لأنهم مؤمنون، حتى ساعة يُبعثون، ففي العبارة محذوفات تفهم باللوازم الذهنية، أي: لبرزوا ولتعرضوا لسبب من أسباب الموت فكانوا صرعى فانتهوا إلى مضاجعهم.

وفي هذا تعليم من الله للرسول ﷺ ولسائر المؤمنين من بعده كيف يكون الجواب على المقالة التي قالها فريق من المنافقين والذين في قلوبهم مرضٌ دون النفاق: ﴿وَلَوْ كَانْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَتَلْنَا هَٰؤُلَاءِ﴾.

وهذه المقالة ربَّما أَلقت شُبُهَاتٍ في بعض قلوب المؤمنين، فكان لا بُدَّ من معالجة شاملة، فاشتمل التعليم على ثلاث مقولات:

الأولى:

﴿لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾.
﴿لَبَرَزَ﴾: أي: لخرج إلى البراز، والبراز القضاء الواسع.

الثانية:

﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾.

﴿لَيْسَ لِي﴾ : أي : لَيْسَ لِي كَيْفَ بِالامْتِحَانِ مَا فِي صُدُورِكُمْ.

الثالثة :

﴿وَلَيْمَحْصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

أي : وَلَيْسَ لِي وَمَحْصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ شَوَائِبَ لَا تَتَلَامُ مَعَ كَمَالِ الْإِيمَانِ.

فالمقولة الأولى : تتناول التصحيح الاعتقادي بشأن ركن الإيمان بالقضاء والقدر، وجاء التصحيح ببيان أن الذين قُتلوا في أحد كان لا بُدَّ أن يَسْقُطُوا في مصارعهم بقضاء الله وقدره على كلِّ حال، فأجالهم محتومة، ومصارعُهُمْ مقدرة مكتوبة معلومة.

إذن : فقد كان خروجهم إلى معركة أحد سبباً لتحقيق المقضيِّ المقدر لا محالة، لكنَّ جهادهم في سبيل الله قد أكسبهم الشهادة وأجرها العظيم عند الله، إذا كانوا حقاً قد خرجوا جهاداً في سبيله وابتغاء مرضاته.

والمقولة الثانية : تتناول بيان غرض امتحان ما في صدور الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ إلى أحد، وصدور الذين لم يخرجوا، والذين انخدلوا من بعض الطريق إلى أحد.

ويشمل ما في الصدور عناصر الإيمان، وعناصر الأخلاق، والنيات، والإرادات، ونوازع الأهواء والشهوات، وحركات الأنفس في ابتغاء الدنيا وثوابها، أو ابتغاء الآخرة وثوابها.

والمقولة الثالثة : تتناول بيان الغرض التربوي، وهو تمحيص ما في القلوب.

وقد عرفنا أن التمحيص يدور حول معنى تنقية الشيء وتخليصه مما لا خير فيه للغاية المرجوة منه.

فتمحيص ما في قلوب المؤمنين يفيد تخليصها مما لا خير لهم فيه عند ربهم، وفي آخرتهم.

ويكون ذلك بتنقية الإيمان وتخليصه من شوائب الشكوك والشبهات، وغير ذلك من مفهومات منافية لعناصر الإيمان الحق.

ويكون أيضاً بتنقية النيات والمقاصد ممّا يخالطها من ابتغاء العاجلة، وإرادة زينة الحياة الدنيا.

ويكون أيضاً بتنقية الجذور الخلقيّة ممّا يخالطها ممّا لا خير فيه، كالجبين والبخل، والحسد والكبر، وحبّ الفخر، والطمع بالمال والجاه ونحو ذلك.

فالتمحيص وسيلة تربويّة تهدف إلى تربية الإنسان من مستوى العمق فيه، وهو عمق قلبه، فمن صلح قلبه صلح كيانه كله.

والأزمات والمصائب تمحص ما في قلوب المؤمنين، إذ تهزّها هزّاً عنيفاً، وتوقّد فيها حرارة الإيمان، وتذريّها عملياً على تقبل مقادير الله بالصبر، وتنفي عنها كثيراً من أدران الشبهات، وأخلاق الانحرافات الخلقيّة، وتعلّمها عن طريق الألم والحرمان وتراكم الغمّ، كيف تصحح نياتها في السلم والحرب، والأمن والخوف، وعند المطاعم، وفي أحوال الدُعر، وتكبّط عنها وبرّ التعلّق بزينة الحياة الدنيا، حتّى تكون ربانيّة خالصة لله تعالى، وابتغاء ثواب الآخرة.

نفهم كلّ هذا من قوله تعالى:

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

ولدفع توهم أنّ ابتلاء الله لما في صدورهم قد كان لكشف أمر لم يكن معلوماً لله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً قال عز وجل في ختام الآية:

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

أي: عليم بكلّ صاحبة الصدور، والأمور التي تختص بالصدور حتّى عمق الأفتدة، تشمل العقائد، والنّيات، والعواطف، وحركات الأنفس وانفعالاتها، وما فطرت عليه أو اكتسبته من أخلاق، وغير ذلك.

إذن: فالابتلاء لا للكشف العلمي بالنسبة إلى الله عز وجل، وإنّما للكشف التّسجيلي والإعلامي للملائكة، وللناس يوم الدين، وهو الذي تجري بموجبه المحاسبة والجزاء، ولكشف بعضه للناس في الدنيا، لجكم كثيرة.

• قول الله عز وجل :

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (١٥٥)

بهذا انتقل النص إلى كشف جذور عوامل الهزيمة التي كانت من المنهزمين في أحد، وهم الذين أضعفوا في الأرض، فلم يُلَوِّا على أحد، والرسول يدعوهم في أخرى فتي المسلمين.

أي: إن الذين ولَّوا أديارهم منهزمين فارين من مواجهة العدو يوم التقى الجمعان في أحد، ما أوقعهم في الزلل الذي وقعوا فيه إلا الشيطان الذي أطمعهم بالمغانم أولاً، وخوفهم من أن يقتلوا ثانياً، وكان ذلك بسبب بعض ما كَسَبُوا، وهو إثم معصية الرسول، إذ أرادوا الدنيا لما لاحت لهم الغنائم مطروحةً لأجلها، وهذا الكسب الذي بذلوا به من عند أنفسهم أضعف بصيرتهم الإيمانية، فكان للشيطان بذلك مدخل للتأثير فيهم بوساوسه ودسائسه وتسويلاته، واستدراجهم إلى أمور أخرى جعلتهم يزولون، فيسقطون فيما يكرهون من غم مضاعف، فيه قتل وجراحة، وخوف وقلق.

لكن الله تبارك وتعالى أكذ لهم أنه نذاركم بحلمه ورحمته مرة أخرى في مراحل المعركة، فعفا عنهم، إنه جل وعلا غفورٌ حلِيمٌ.

أي: وسعهم بحلمه، فغفر لهم أولاً، ثم عفا عنهم.

المغفرة: الستر. والغفور: المحو وعذم إبقاء أي أثر للذنب.

وجاء بيان العفو أولاً لأنه غاية البشارتين، فهي الأحق بالتقديم، وجاءت الإشارة إلى أن المغفرة سبقت العفو، من خلال الآية بذكر اسمين من أسماء الله، أحدهما: غفور، والآخر: حلِيمٌ. أي: حَلَمٌ فغفر ثم عفا.

• قول الله عز وجل :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لَا خَوْفُ مِنَّا إِذَا ضَبَّرُوا فِي الْأَرْضِ

أَوْ كَانُوا عِزِّي لَوَ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّئُ وَيُمَيِّتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تَحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

وفي القراءة الأخرى: [وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ] فجمعت القراءتان أسلوب الحديث عنهم بالغائب، وأسلوب مواجهتهم بالخطاب، أو مواجهة الذين آمنوا بالخطاب، والحديث عن الكافرين بالغائب، وكل ذلك من الأداء البديع، مع الإيجاز بتغيير حرف واحد.

وانتقل النصُّ هنا إلى تحذير المؤمنين من أن يكونوا كالذين كفروا، وقالوا: لأجل إخوانهم الذين ماتوا في أسفارهم بحوادث برية أو بحرية أو غير ذلك، أو قُتِلُوا في معارك حربية وهم غزاة: لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا عَرَّضُوا أَنْفُسَهُمْ لِلْحَوَادِثِ فَمَاتُوا، وَمَا دَخَلُوا فِي الْحَرْبِ فَقُتِلُوا.

إن من اللوازم الفكرية للكفر بالله أو بقضائه وقدره، سواء أكان كُفْرَ كافرٍ صريح، أو كافرٍ مُنَافِقٍ يُخْفِي كُفْرَهُ مَخَاضَةً، اغْتِيَابَ الْأَسْبَابِ الْكَوْنِيَّةِ ذَاتِ أَفْعَالٍ حَقِيقَةٍ ذَاتِيَّةٍ فِي مُسَبِّبَاتِهَا، على خلاف العقيدة الإيمانية الَّتِي تُفَرِّدُ أَنَّهَا أَسْبَابٌ تَرْتَبُطُ بِهَا مُسَبِّبَاتُهَا بِتَأْثِيرِ الْخَالِقِ وَقَضَائِهِ وَقُدْرِهِ مِنْ خِلَالِهَا، أَوْ مِنْ وَرَائِهَا، فَهُوَ سَبْحَانَهُ الْفَعَالُ الْحَقِيقِيُّ فِي كُلِّ الظَّوَاهِرِ الْكَوْنِيَّةِ، وَهُوَ الْمُقَدِّرُ لَهَا وَالْقَاضِي بِهَا قَبْلَ حُدُوثِهَا.

ولكن أفعاله سبحانه مستورة بقوانين الكون، وبأنظمة الأسباب وارتباط مسيبياتها بها، لِيَتَجَنَّبَ بِذَلِكَ إِيمَانُ النَّاسِ بِالْغَيْبِ.

فَكَمَا أَنَّ ذَاتَهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى غَيْبٌ عَنَّا كَذَلِكَ أَفْعَالُهُ فِي كَوْنِهِ غَيْبٌ عَنَّا، نَشَاهِدُ ظَوَاهِرَهَا الْمُقْتَرَنَةَ بِأَسْبَابِهَا، وَالْعَقْلُ الْمَفْكَرُ يَدُلُّنَا عَلَى أَنَّ الْأَسْبَابَ لَا تَفْعَلُ بِذَوَاتِهَا، وَأَنَّهَا بِحَاجَةٍ إِلَى مُسَبِّبٍ حَقِيقِيٍّ لَهَا، عَلِيمٍ قَدِيرٍ حَكِيمٍ يُتَقَنَّ كُلَّ شَيْءٍ صُنْعًا.

وقد انطلقت أثناء يوم أحد كلمة النفاق التي قالها بعض المنافقين، وهي: «لَوْ كَانُوا لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هُنَا».

وانطلقت بعد يوم أحد كلمة النفاق التي قالها كبير المنافقين عبد الله بن أبي

ابن سلول، وزدّها بلسانه أو بقلبه سائر المنافقين، بشأن من قُتِلَ من إخوانهم في أحد، وهي: «لو كانوا عندنا ما قُتلوا».

وانطلقت قبل المعركة في مناسبات مختلفات من عموم الكافرين، وتنطلق دواماً، بشأن من يموت أو يُقتل في سفر أو غزوة، مقالة: «لو كانوا جندنا ما ماتوا وما قُتلوا».

فذلّ النصّ بإيجازه واختزاله على هذه الصور الثلاث:

— من قُتِلَ في أحد من المسلمين.

— من يموت بحادث مهلك في سفره ضارباً في الأرض للتجارة أو غيرها.

— من يُقتل غزياً في معارك القتال ولو لم يكن في سبيل الله.

وهذه المقالة من اللوازم الفكرية الطبيعية للكفر بقضاء الله وقدره في الحياة والموت، فلا بدّ أن تظهر على السنة الكافرين كلّما وجد المحرّض على انطلاقها، دون حذر بدعو إلى الاستخفاف بها، سواء أكانوا كافرين صرحاء، أو كانوا كافرين منافقين، ولذلك أثر النصّ بدقّته وإيجازه إسناد هذه المقالة إلى الذين كفروا، ولم يخصّها بالمنافقين الذين قالوها في معركة أحد.

ولئلا يقع بعض الذين آمنوا في زلّة تردّد هذه المقالة التي هي من الثمرات الخبيثة للكفر، ومن لوازمه، خاطب الله الذين آمنوا مخذراً لهم، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا...﴾ (٦٦)

أي: ما مات من مات منهم بحادث مهلك وهو مسافر يُضرب في الأرض للتجارة أو السياحة أو غير ذلك، وما قُتِلَ مَنْ قُتِلَ منهم في معركة قتال غزياً.

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالكافرين الذين من عادتهم ومظاهر كفرهم في كلّ وقتٍ «ماضٍ، وحاضر، ومستقبل» إذا ضَرَبَ إخوانُ لهم في الأرض مسافرين، فتعرّضوا للهلاك، أو خرجوا غزاةً فقتلوا، قالوا: لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتلوا.

وأصل نَسَق ترتيب الكلام كما يلي:

يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا: إذا ضَرَبَ إخوانهم في الأرض فماتوا (أي: بحادث مهلك) أو كانوا غُزًى فُقِلُوا، قالوا من أجلهم: لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتلوا.

ولكن جاء في النص تقديم عبارة ﴿قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ على ذكر الشرط، تنبيهاً على بشاعة هذه المقولة بالمنظار الإيماني، وأن المؤمن لا يقولها ولا يقول ما هو شبيه بها.

ومثل هذا التعبير القرآني يصلح لبيان ما كان وما هو كائن وما سيكون.

واقترضت التربية الربانية بيان الحقيقة من كل أطرافها حول هذا الموضوع، وهي تشمل على خمسة أمور:

الأمر الأول: بيان أن العقوبة القدرية التي تأتي نتيجة طبيعية بمقتضى سنة الله في خلقه للكفر ومفهوماته، أن يذوق الكافرون آلام الحسرة، على ما فات من المحاب، عند كل مصيبة تنزل فيهم.

وذلك لأنهم يعتقدون أنهم لو فعلوا كذا أو لم يفعلوا كذا، لما نزلت بهم هذه المصيبة.

دَلَّ على هذه العقوبة قول الله تعالى في النص: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

بخلاف أحوال المؤمنين بالله وقضائه وقدره، فإنهم إذا نزلت بهم مصيبة ما ولو كانوا هم الكاسبين لأسبابها، لم يذوقوا آلام الحسرة على ما كان منهم، إلا أن تكون المصيبة نتيجة معصية لله عز وجل، وعندئذ يتحسرون لأنهم عصوا، لا لأنهم قد نزلت بهم المصيبة، إذ يعلمون أنها مكفرة للخطيئة، وهي لخيرهم تأدياً وتربية وجزاء.

أما فيما عدا ذلك فإنهم يؤمنون بأن ما جرى بقضاء الله وقدره، سواء أكانوا هم الكاسبين للأسباب التي باشروها، أو لم يكونوا الكاسبين لها، ويؤمنون بأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

وانتفاء ألم الحسرة لا يستلزم انتفاء ألم الحزن، فالحزن عند نزول المصيبة يذوقه المؤمنون والكافرون جميعاً.

أما آلام الحسرة على ما جرت به مقادير الله فلا يذوقها إلا الذين لا يؤمنون إلا بالأسباب، وهم بقضاء الله وقدره كافرون، ويقولون: لو لم تحدث الأسباب لما حدثت المصائب المؤلمة.

الأمر الثاني: بيان أن الحياة والموت من الأمور التي يتولاها القضاء والقدر استقلالاً، دون أن يكون للأسباب تأثيرات حقيقية فيها، وإن كانت لها تأثيرات صورية، فحين لا يكون لله عز وجل قضاء وقدر بحياة أو موت، لم تفعل الأسباب شيئاً إن وجدت، أو تدخل المقادير الربانية بصرف الأسباب، أو إقامة الحواجز دونها.

دل على هذا الأمر قول الله عز وجل في النص:

﴿وَاللَّهُ يَخْتَارُ وَيُخَيَّرُ﴾.

الأمر الثالث: بيان أن أعمال ذوي الإرادات الحرة في الحياة أنواع من الكسب السببي الذي ناط الله عز وجل به الحساب والجزاء بالثواب أو بالعقاب، وإن كانت في الحقيقة وباطن الأمر لا تؤثر في تغيير مقادير الله.

وإشارة إلى هذه الحقيقة من حقائق الابتلاء ضمن دائرة القضاء والقدر، قال الله عز وجل في النص:

﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

أي: والعليم البصير بما يعمل عباده بإراداتهم الحرة، إذ يستخدمون ما سخر هو لهم في أنفسهم وفي الكون من حولهم تسخيراً مصحوباً بالإمداد والعلم والمشاهدة والمراقبة الدائمة، هل يبقى لهم إمداده وتسخيره وتيسير الأسباب إذا لم يكن له فيما يتحقق بهذه الأسباب ضمن قوانينها التي جعلها هو لها قضاء وقدر؟!.

هذا أمر لا يقبله فكر أي ذي فكر، فضلاً عن فكر المؤمن بالله وقضائه وقدره، ومشاعره ضميره ووجدانه.

الأمر الرابع: وهو مبني على ما سبق، فمن قتل غازياً في سبيل الله عز وجل،

أَوَمَاتٌ بِحَادِثٍ مَا، وَهُوَ مُسَافِرٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، فَأَجْرُهُ ثَابِتٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَوْ كَانَ الْقَضَاءُ الرَّبَّانِيُّ مِنَ الْأُمُورِ الْنافِذَةِ لَا مُحَالَ، قَتْلًا أَوْ مَوْتًا.

فَالْعَمَلُ ثَمَرَةٌ إِرَادَةٌ حُرَّةٌ مُخْتَارَةٌ، وَلَهُ جَزَاؤُهُ عِنْدَ اللَّهِ، وَالْإِرَادَةُ لَا تَغْيِرُ فِي تَطْبِيقَاتِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ لَكِنَّهَا تَجْعَلُ الْأَمْرَ الْمُقْضَى الْمُقَدَّرَ طَاعَةً أَوْ مَعْصِيَةً، فَيَكُونُ لِصَاحِبِ الْإِرَادَةِ الْحَرَّةِ أَجْرٌ بِسَبَبِ إِرَادَتِهِ الصَّالِحَةِ الَّتِي فِيهَا طَاعَةُ اللَّهِ، وَيَكُونُ عَلَى صَاحِبِ الْإِرَادَةِ الْحَرَّةِ وَزْرٌ بِسَبَبِ إِرَادَتِهِ السَّيِّئَةِ الَّتِي فِيهَا مَعْصِيَةُ اللَّهِ، وَقَدْ يَكُونُ كَسْبُهُ مَكْرُوهًا أَوْ مَبَاحًا. وَالْمَحَاسِبَةُ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى النَّيَّاتِ وَالْإِرَادَاتِ مِنْ وَرَاءِ الْأَعْمَالِ، وَعَلَى مَقَادِيرِ قُوَّتِهَا فِي اسْتِعْمَالِ الْمُسَخَّرَاتِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ.

وَتَوَابٌ مِنْ قُبُلٍ أَوْ مَاتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَشْمَلُ عُصْرَتَيْنِ:

الأول: مغفرة من الله لِسَوَابِقِ الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ.

الثاني: رحمة من الله فِي دَارِ رَحْمَتِهِ، وَهِيَ جَنَّاتُ النَّعِيمِ.

دَلَّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى فِي النَّصِّ:

﴿وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾:

أَي: فَالْمَغْفِرَةُ وَالرَّحْمَةُ اللَّتَانِ تَكُونَانِ لَهُمَا مِنَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ كُلِّ مَا يَجْمَعُهُ أَهْلُ الدُّنْيَا لِمَتِّعِيهِمْ وَرَفَاهِيَتِهِمْ وَمَغَاخِرِهِمْ.

الأمْرُ الْخَامِسُ: بَيَانُ أَنَّ الْجَزَاءَ الرَّبَّانِيَّ الْأَوْفَى عَلَى الصَّالِحَاتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، الَّتِي يَقْدُمُهَا الْمُؤْمِنُونَ الصَّادِقُونَ، إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، يَوْمَ يُحْشَرُ النَّاسُ إِلَى رَبِّهِمْ.

دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّصِّ:

﴿وَلَكِنْ مَتَّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَا إِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ (١٥٨).

مَعَ دَلَالَةِ الْآيَةِ السَّابِقَةِ، أَي: وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الصَّادِقُونَ، لِيَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ، وَلِيَرْحَمَنَّكُمْ، يَوْمَ الدِّينِ يَوْمَ تُحْشَرُونَ إِلَيْهِ، وَذَلِكَ يَشْمَلُ عَلَى نَعِيمٍ لَا نِهَايَةَ لَهُ، وَمَجْدٍ وَمُلْكٍ عَظِيمَيْنِ، عِنْدَ رَبِّ كَرِيمٍ، وَهُوَ خَيْرٌ

لكم من كل ما يجمع الجامعون من الدنيا التي يرون فيها وسائل سيادتهم وعزهم ومجدهم ومفاخرهم .

وجاء تقديم القتل على الموت في الآية الأولى ، وتقديم الموت على القتل في الآية الثانية ، إشعاراً بأن من خرج في سبيل الله فإن له مغفرة من الله ورحمة ، سواء أقتل مجاهداً ، أو مات بحادث ما في خروجه ، فالأمران متساويان ما دام الخروج خروجاً في سبيل الله وابتغاء مرضاته .

فتم بذلك بيان العقيدة الإيمانية من مختلف الجوانب :

• وبعض ما اشتمل عليه النص هو رد على أوهام الكافرين والمنافقين ومقالاتهم .

• وبعض ما اشتمل عليه النص هو بيان وإقناع وترغيب للمؤمنين .

(٥)

نظرة عامة حول النص في نقاط

(١) قبل معركة أحد وعد الله المؤمنين بالنصر على عدوهم وعداً مشروطاً بالطاعة والتزام منهج الله .

(٢) وبدأت المعركة وصدق الله المؤمنين ما وعدهم من النصر حتى غصوا وتنازعوا فدب إليهم الفشل ، فتحولت عنهم رياح النصر ، والسبب في ذلك حب الدنيا ، والطمع بجمع الغنائم .

(٣) صرف الله المؤمنين عن التسلط على عدوهم بعد معصيتهم أمر الرسول ليتليهم ، فيمتحن صبرهم وثباتهم وإيمانهم ، ويكشف ما في صدورهم . ومع ذلك فقد عفا الله عنهم ، وجعل رياح النصر تتحول عنهم إلى عدوهم لتربيتهم وتأديبهم .

(٤) لكن معظم المسلمين في أحد لما أجدوا على حين غرة ، وحوصروا من أمامهم ومن وراء ظهورهم ، لم يصبروا ولم يثبتوا ، بل أخذوا يفرون منطلقين مصعدين هرباً في كل اتجاه ، ولا يلبثون رؤوسهم ولا أجسامهم على أحد ، ولا يستجيبون لدعاء

الرسول الذي كان يدعوهم وهو ثابت في موقعه مع الفئة المؤمنة الأخرى، وهي الفئة الثابتة الفدائية.

(٥) فأتاب الله الفارين غَمًّا بَغَمٍّ، جزاء ما أحدثوا من غَمٍّ، أو غَمًّا موصولاً بَغَمٍّ وملتصقاً بَغَمٍّ. ومن الأغراض التربوية لهذا الجزاء:

• ألا يحزنوا مستقبلاً على ما فاتهم، ولا على ما خسرُوهُ بسبب ما أصابهم ونزل بهم.

• ليعلموا أَنَّ تصارييف الله في عطائه ومنعه، ونصره وعدم نصره، مظاهر لحكمته المستندة إلى علمه وخبرته.

(٦) خصَّ الله طائفة المؤمنين الثابتين فأنزل عليهم النعاس الذي جلب إلى قلوبهم الأمن.

أما طائفة المنافقين وأهل الرب وضعفاء الإيمان فقد استمروا في الغم والخوف والقلق يُعَذَّبُونَ، لأنهم قد أهتمهم أَنْفُسُهُمْ، وهم يظنون بالله غير الحقَّ ظَنَّ الجاهلية، وجعلوا يقولون بالسهم وفي نفوسهم مقالات جاهلية.

(٧) علَّمَ الله الرسول والمؤمنين الصادقين من بعده، أن يُبَيِّنُوا لأصحاب المقالات الجاهلية، المفهومات الإيمانية السليمة، وحكمة الله في مقاديره.

(٨) أبان النص جذور عوامل الهزيمة، التي جعلت الشيطان يستزلهم بسبب ذنوب كسبها.

(٩) حذَّر الله المؤمنين من أن يكونوا كالذين كفروا في مفهوماتهم وأنواع سلوكهم، فيقولوا مثل مقالاتهم الجاهلية.

(١٠) تخلَّل ما سبق إيضاح جملة من المفهومات الإيمانية الاعتقادية، التي من شأنها تصحيح السلوك، بعد تعميق الإيمان.

(١١) أبان الله عزَّ وجلَّ بعض مواقف المنافقين والذين في قلوبهم مرض دون التفاف خلال أحداث غزوة أحد.

النص العاشر

من سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول) ثالث سورة مدنية

(الآيات من ١٦٥ - ١٦٨)

حول بيان بعض مواقف المنافقين في غزوة أحد
واقناع المؤمنين بأن ما جرى لهم قد كان من أنفسهم

هذا النص كالنص التاسع اشتمل على بيانات تتعلق بغزوة أحد وأحداثها، وما كان من المنافقين فيها، فيقال فيه ما سبق عرضه في النص الثامن، باستثناء تدبر آياته، وما دل عليه من معاني وأفكار.

يقول الله عز وجل:

﴿أُولَٰئِكَ أَصَبْتُمْ مَصِيبَةً قَدِ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَفِيرٌ ۝ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فِإِذِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنَقِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِينَ يَوْمِئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ۝ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝﴾

ما في النص من القراءات المتواترة (من الفرش)

* قرا هشام عن ابن عامر: [لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا] بتشديد التاء، وهو بالتحديد يفيد معنى التكثير، فذلت القراءتان على أن فريقاً من المنافقين قالوا: [لو أطاعونا

مَا قُتِلُوا] وفريقاً آخر من المنافقين قالوا: [لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا] يُصَوِّرُونَ بقولهم أَنَّ مَا حَدَّثَ قَدْ كَانَ تَقْيِيلاً شَدِيداً من المشركين للمسلمين بانتصار وَغَلَبَةٍ وَعُتْفٍ وَنَكَايَةٍ، وهذا التعبير يَدُلُّ على انفعال قائله وثورة نفسه على الأمر كله .

(١)

المعنى العام للنص

يُبَيِّنُ هذا النص للمؤمنين ثُمَّ من شاء أن يفهم كلام الله، حكمة اللّهِ فيما جرى للمسلمين في أَحَدٍ من مُصِيبَةٍ على أَيْدِي أعدائهم، ويزيلُ عنهم إشكالاً قد يثير شبهة تستدعي جلاءً.

هذا الإشكال قد حَرَّكَ لدى المسلمين تساؤلاً، ظهر في العبارة التالية: ﴿أَنَّى هَذَا﴾، أي: من أين حصل هذا المصائب؟ أو كَيْفَ حصلَ هذا المصائب؟ وتتضمن هذه العبارة معنى:

— هل تخلى الله عنا، وقد وعدنا بالنصر؟

— هل آثر المشركين علينا بالغلبة وهم الكافرون به؟

— ألسنا ننصر دينه ونُعَلِّي كلمته، وأعداؤنا يقاتلوننا لنصرة الكُفر وإعلاء كلمة الشيطان؟

وهو إشكال يقوم في نفوس المسلمين في كل معركة ينهزمون فيها، ويغفلون عن إخلالهم بشروط النصر الذي وعدهم الله به، وَيَزَوِّنُونَ أَنَّ من حَقَّهم على الله أن ينصرهم على كلِّ حالٍ، ولو لم يُحَقِّقُوا في أنفسهم الشروط التي يجب عليهم أن يحققوها، حَتَّى يستحقُّوا نصر الله والفتح بحسب وعده، بمعوناتٍ إضافية يكْمُلُ لهم فيها النقص في أسبابهم عن أسباب عدوهم ضِمَّنَ النَّسَبِ التي وعدهم بها في سورة (الأنفال).

ومعالجة هذا الإشكال الذي غَبِرَ عنه تساؤلهم: [أَنَّى هَذَا؟] اشتملت على عدة بيانات، وهي البيانات التالية:

البيان الأول:

ما كان من حَقِّكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَنْ تَطْرَحُوا مِثْلَ هَذَا التَّسَاوُلِ، وَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ فِي بَدْرٍ فَأَصَبْتُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ يَوْمَئِذٍ بِمِثْلِي مَا أَصَابَ مِنْكُمْ فِي أَحَدٍ، لَقَدْ قَتَلْتُمْ مِنْهُمْ سَبْعِينَ، وَأَسْرَئْتُمْ سَبْعِينَ، وَكَانَ بِإِمْكَانِكُمْ أَنْ تَقْتُلُوا هَؤُلَاءِ الْأَسْرَى، وَقَتْلَهُمْ كَانَ أَوْلَى لَكُمْ، لَكِنْكُمْ أَثَرْتُمْ قَبُولَ الْغَدِيَةِ مِنْهُمْ، أَمَّا فِي أَحَدٍ فَقَدْ قَتَلُوا مِنْكُمْ سَبْعِينَ فَقَطْ، وَكَانُوا فِي كُلِّ الْمَعْرَكَتَيْنِ أَكْثَرَ مِنْكُمْ غَدَاً وَعُدَّةً.

دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى فِي النَّصْرِ:

﴿أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ ١٢.

هَذَا مِنْ جِهَةِ الْمَقَارَنَةِ الْعَامَّةِ بَيْنَ مُصِيبَتِكُمْ وَمُصِيبَةِ أَعْدَائِكُمْ.

البيان الثاني:

إِنَّ مَا نَزَلَ بِكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي أَحَدٍ قَدْ كَانَ بِسَبَبٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ:

— أَلَمْ تَعْصُوا أَمْرَ الرَّسُولِ؟

— أَلَمْ تَطْعَمُوا فِي الْغَنَائِمِ وَتَتْرَكُوا مَوَاقِعَ الْقِتَالِ قَبْلَ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ؟

— أَلَمْ تَتَنَازَعُوا فِي الْأَمْرِ؟

— أَلَمْ تَفْشَلُوا فَتَضَعُفُوا وَتَجْبِنُوا وَتَفْرَعُوا؟

— أَلَمْ تَنْهَضُوا حَتَّى صَرْتُمْ تُضَعَّدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ؟

— أَلَمْ يَقْصِرْ فَرِيقٌ مِنْكُمْ الرَّسُولَ إِذْ كَانَ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ: إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ، وَأَنْتُمْ مُنْهَرِمُونَ؟

— أَلَا تَكْفِي كُلُّ هَذِهِ الْأَسْبَابِ لِتَرْكِكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَوَسَائِلِكُمْ حَتَّى نَزَلَ بِكُمْ مَا نَزَلَ

مِنْ مُصِيبَةٍ، بِإِذْنِ اللَّهِ وَتَمَكِينِهِ؟

دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يُجِيبُهُمْ عَنْ طَرِيقِ رَسُولِهِ:

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾.

البيان الثالث:

ليس ما جرى لكم من مصيبة على أيدي أعدائكم عجزاً في قدرة الله عز وجل عن نصرتكم، فإله عز وجل قادر على نصرتكم دوماً مع كل ما كان منكم، لكن هذا يتنافى مع حكمته التي قضت وقدرت تأديبكم وتربيتكم، وتمييز المؤمنين الصادقين من غيرهم، وابتلاء ما في صدوركم، وتمحيص ما في قلوبكم.

أشار إلى هذا قول الله عز وجل في ختام الآية:

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

أي: فهو قادر على نصرتكم، وقادر على مجازاتكم بالغم الذي نزل بكم، وقادر على تمكين أعدائكم من الظهور عليكم.

البيان الرابع:

إن ما أصابكم يوم التقي جمعكم وجمع مشركي قريش في أحد قد أصابكم بإذن الله، أي: بتكليفه أعداءكم من الظهور عليكم، وإصابتكم بما أصابوكم به، ورفع يد معونته الناصرة لكم، وجعلكم تتصرفون ضمن حدود قواكم ووسائلكم، مع حمايته لكم من أن تصابوا بأكثر مما أصبتم.

ولو لم يأذن الله بذلك إذن تمكين قذري لما استطاعوا أن يصيبوكم بما أصابوكم

به.

لو لم يأذن بذلك لأقام العقبات في طريق أعدائكم، ولأفسد خططهم، ولألقي في قلوبهم الرعب، أو لامدكم بالملائكة كما فعل في يوم بدر الكبرى، إلى غير ذلك من وسائل نصره جل وعلا.

فالإذن هنا هو من قبيل التمكين القذري ضمن حدود الأسباب والمسببات في سنن الله الدائمة.

نفهم هذه المعاني من قول الله عز وجل في النص:

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّيِّبِ الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ﴾

البيان الخامس:

حول بيان بعض مواقف المتنافقين في غزوة أحد وإقناع المؤمنين بأن ما جرى لهم قد كان من أنفسهم

إنَّ ما نزل بكم من مصيبة في أُحُدٍ كان له في حكمة الله غاية، وهي:

أولاً: أن يكشف الله بالامتحان المؤمنين الصادقين منكم، ويكشف ضعفاء الإيمان، وأهل الرِّيب والشكِّ والنفاق، الذين خرجوا مع الرسول إلى قتال المشركين في أُحُد.

دلَّ على هذا قول الله عزَّ وجلَّ في النص:

﴿وَلَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ (m)

أي: وَلَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ بحسب مراتبهم ودرجات إيمانهم ضعفاً وقوةً.

ثانياً: وأن يكشف نفاق الذين انخدلوا عن الرسول في أُحُد، والذين لم يخرجوا معه إطلاقاً.

فالحوادث الشديدة تكشف ما في القلوب والنفوس فتظهرها على سطح السلوك، بأقوال وأعمال إلى غير ذلك من أمارات.

دلَّ على هذا قول الله عزَّ وجلَّ في النص:

﴿وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾

وهذا الكشف يجعل المعلوم المَخْفِي في القلوب وسرائر النفوس معلوماً في الأقوال والأعمال وسائر الأمارات والعلامات.

وعلمُ الله السابق لحدوث المعلوم، والمطابق لما سيحدث يصير علماً مطابقاً لما حدث فعلاً، وعلى هذا المعنى جاء في النصوص: وَلَيَعْلَمَ الله، ونحو ذلك.

البيان السادس:

التنبيه على بعض مظاهر النفاق، بالنسبة إلى الذين لم يحضروا معركة أُحُد، بغية تعريتهم، وتبصير المؤمنين بأمارات وعلامات نفاقهم، ومن ذلك يتدرَّب المؤمنون على معرفة علامات النفاق، وكشف المنافقين بها، فمن هذه العلامات الدالات على النفاق والمنافقين ما يلي:

(١) قيل لهم قبل المعركة: تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قِتَالِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ. أَوْ تَعَالَوْا ادْفَعُوا عَنْ أَرْضِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَمَفَاخِرِكُمْ وَإِخْوَانِكُمْ، أَوْ قِفُوا فِي الْمَعْرَكَةِ مَوْقِفِ الْمَدَافِعِ لَا مَوْقِفِ الْمَهَاجِمِ الْمُسْتَبْسِلِ الشَّجَاعِ.

فَقَالُوا تَعْلَلًا بِأَقْوَالٍ بَاطِلَةٍ، زَاعِمِينَ أَنَّهَا نِتَاجُ عَقْلِ وَحِكْمَةٍ وَبَصِيرَةٍ: لَوْ نَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَكُونُ قِتَالٌ لَاتَّبَعْنَاكُمْ، وَلَدَافَعْنَا عَنْكُمْ، وَلَمَّا خَذَلْنَاكُمْ، وَلَكِنَّا نَرَى أَنَّهُ لَنْ يَكُونَ قِتَالٌ.

أَي: عِنْدَ الْمَوَاجَهَةِ سَتَرُونَ أَنَّكُمْ أَضْعَفُ مِنْ عَدُوِّكُمْ، وَأَنَّهُ لَا قِبَلَ لَكُمْ بِجَيْشِهِمْ، فَتَرْجِعُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ، إِذْ تَرَوْنَ رَأْيَنَا الَّذِي كُنَّا قَدْ رَأَيْنَاهُ، مِنَ الْبَقَاءِ فِي الْمَدِينَةِ، وَعَدَمِ الْخُرُوجِ إِلَى الْعَدُوِّ، فَالْمَدِينَةُ أَحْضَنُ لَكُمْ.

أَوْ لَوْ نَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَكُونُ قِتَالٌ يُظَنُّ مَعَهُ النَّصْرُ لَاتَّبَعْنَاكُمْ، وَلَكِنْ سَيَكُونُ إِلْقَاءُ بِالْأَنْفُسِ فِي التَّهْلُكَةِ، كَمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بِنْدٍ سُلُوكِ حِينَ انْخَذَلَ مَعَ قَوْمِهِ: مَا نَدْرِي عَلَامَ نَقْتُلُ أَنْفُسَنَا هَهُنَا أَيُّهَا النَّاسُ.

دَلَّ عَلَى هَذَا أَيْضًا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلْيَعْلَمِ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالٌ لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٥﴾﴾

أَي: هُمْ يَوْمَ تَعْلِيلِهِمْ بِهَذَا الْقَوْلِ الَّذِي ذَكَرُوهُ بِأَفْوَاهِهِمْ لِلْعِزِّ عَنْ الْمَشَارَكَةِ فِي الْقِتَالِ، وَالَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُ لَا يَنْقُضُ إِسْلَامَهُمْ، إِذْ مُؤْمِنِيٌّ بِزَعْمِهِمْ عَلَى اجْتِهَادٍ يُعْذَرُونَ بِهِ، قَدْ كَانُوا أَقْرَبَ لِلْكَفَرِ الصَّرِيحِ مِنْهُمْ لِادِّعَاءِ الْإِيمَانِ، فَأَقْوَالُهُمْ هَذِهِ مَعَ خَذَلِهِمُ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَخَرَجُوا مَعَهُ لِلْقِتَالِ، كَافِيَةٌ لِأَن تَكْشِفَ اقْتِرَابَهُمْ مِنْ مَوَاقِعِ الْكَفَرِ الصَّرِيحِ، وَابْتِعَادَهُمْ عَنْ مِظَانَةِ دَعْوَى الْإِيمَانِ.

وَرُبَّمَا كَانَ فِيهِمْ فَرِيقٌ لَمْ يَكُنْ مُنَافِقًا مِنْ قَبْلِ، إِلَّا أَنَّهُمْ قَدْ ائْتَسَرُوا فِي هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ نِفَاقًا، وَخَطَبُوا فِيهِ خُطُوبَاتٍ كَانُوا بِهَا أَقْرَبَ لِلْكَفَرِ الْخَالِصِ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ الَّذِي كَانُوا فِيهِ.

حول بيان بعض مواقف المنافقين في غزوة أحد وإقناع المؤمنين بأن ما جرى لهم قد كان من أنفسهم

فَذَلَّ النَّصُّ بِهَذَا عَلَى أَنَّ الْأَمَارَاتِ وَالْعَلَامَاتِ الْقَوِيَّةُ تُسَمِّحُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَحْكُمُوا عَلَى مَنْ ظَهَرَتْ مِنْهُ بِاقْتِرَابِهِ مِنَ الْكُفْرِ، وَابْتِعَادِهِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَأَنْ أَدْعَاءَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ مَعَ ذَلِكَ هُوَ مِنْ قَبِيلِ النِّفَاقِ.

وهذا يرجح شدة الحذر ممن تظهر عليه هذه العلامات وأشباهها، وضرورة توجيه المراقبة الدائمة له، ووضع موضع من يُظَنُّ فيه النفاق، فلا يُؤْتَمَنُ عَلَى أَسْرَارِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا يُتَّخَذُ بِطَانَةً لِأُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ.

ونلاحظ في النص أن الله عز وجل بعد توجيهه المؤمنين لمنهج التبصر بالآمارات والعلامات الدالّات على نفاق المنافقين للحذر منهم، أبان أن هؤلاء الذين قالوا للمؤمنين: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَأْتَبِعْنَاكُمْ﴾ هُمُ كَذَّابُونَ، منافقون، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، فقال تعالى:

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ ٢٧٧

أي: إنهم لا يريدون نصرة الرسول ولا المؤمنين معه مطلقاً، حين قالوا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَأْتَبِعْنَاكُمْ﴾.

فقد علموا أنه سيكون قتال، وأنهم لو نصروا إخوانهم لأمكن انتصارهم على عدوهم، ومع ذلك فقد من قعد منهم فلم يخرج، وانخذل من انخذل منهم من بعض الطريق.

لكن الله عليم بما يكتُمون في صدورهم، لأنه سبحانه عليم بكل شيء، ومنه ما تُوسَّسُ به النفوس، وتخفيه القلوب.

* * *

(ب) وبعد أن قعد المنافقون عن الخروج مع الرسول ﷺ إلى موقعة أُحُدٍ، وَقُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِيهَا، قَالُوا عَنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ قُتِلُوا مَعَ مَنْ قُتِلَ: لَوْ أَطَاعُونَا فَقَعْدُوا مَعَنَا وَلَمْ يَخْرُجُوا مَعَ الرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ مَا قُتِلُوا.

هذه المقالة تتنافى مع صحة الإيمان بالله عز وجل وقضائه وقدره وعظيم حكمته، وهي تدلُّ على أن القلب غير صحيح الإيمان، فهو في كفر، أوريب أو زئج عن الحق، قديم أو طارئ، فهي علامة من علامات النفاق.

كشف مقاتلهم هذه قول الله عز وجل في النص:

﴿الَّذِينَ قَالُوا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.

وبيناً لفساد هذه المقالة التي تُعبر عن جهلهم بقضاء الله وقدره أو جُحودهم له علم الله رسوله ما يرُدُّ به عليهم، وهو ردُّ يَرُدُّ به كلُّ مؤمنٍ بعد الرسول، فقال الله عز وجل:

﴿قُلْ فَأَدْرَأُ عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٦٥):

أي: إنَّكُمْ تَدْعُونَ أَنَّ الَّذِينَ خَرَجُوا إِلَى أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِكُمْ فَقُتِلُوا، لَوِ اسْتَجَابُوا لَتُطَيَّبَكُم فَاطَاعُوكُمْ وَلَمْ يَخْرُجُوا لِلْقِتَالِ، مَا قُتِلُوا، فَلَمْ يَمُوتُوا.

والجواب أن هذا الادعاء ادعاء كاذب مخالف للمواقع والحقيقة، وهم غير صادقين فيه، لأنَّ الموت قضاء ربَّاني محتومٌ للناس جميعاً، ولكلِّ حيٍّ أجلٌ لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، ومن جاء أجله ذاق الموت عنده لا محالة، سواء أعرَّض لسبب القتل أو لم يتعرض له، وإن كان على الإنسان أن يتخذ الحيطة لنفسه فلا يتعرض لأسباب القتل دون إذنٍ أو تكليفٍ ديني من الله عز وجل، وإلا كان عاصياً، بدليل نصوص أخرى.

فإنَّ كُنْتُمْ صادقين في أنَّ من حَمَى نفسه من أسباب الموت الظاهرة التي تعرفونها وتَقُونُهَا، لم يَمُتْ في أجله المقدَّر له، فادروا عن أَنْفُسِكُمُ الموت، بحماية أنفسكم من أسبابه.

وَلَنْ يَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ.

وهذا الجواب قد تَضَمَّنَ بَيَاناً لِبَعْضِ الحقيقة حول قضية الموت. وبعض آخر من هذه الحقيقة قد تَضَمَّنَتْ جواب سابق في الآية (١٥٤) من السورة نفسها، وهو قول الله عز وجل فيها:

﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي يُبُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ...﴾ (١٥٤):

أي: لَخَرَجُوا بسبب آخر إلى البراز (وهو القضاء الواسع) الذي قُتِلُوا فيه، فكان

حول بيان بعض مواقف المتنافقين في غزوة أحد وإقناع المؤمنين بأن ما جرى لهم قد كان من أنفسهم

مَصِيرُ بُرُوزِهِمْ إِلَى الْإِسْتِقْرَارِ فِي مَدَافِنِهِمُ الَّتِي دُفِنُوا فِيهَا، فَكَانَتْ مُضَاجَعُهُمُ الْمَرِيحَةَ إِلَى يَوْمٍ يَنْتَعُونَ، كَمُضَاجَعِ النَّائِمِينَ الْمُسْتَرِيحِينَ.

وفي نصوص أخرى جاء استكمال سائر عناصر الموضوع.

(٢)

المفردات اللغوية في النص

﴿أَوَلَمْآ﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري، الذي فيه معنى العجيب من مقالتهن: ﴿أَنْتَى هَذَا؟﴾. والواو عاطفة، أي: أتقولون هذا وأنتم المُتَسَبِّبُونَ فيما نزل بكم، إِنَّ هذا الأمر مستنكر استنكاراً يَتَعَجَّبُ منه المتعجبون.

﴿لَمَّآ﴾ هنا اسم زمان، فهي ظرفية بمعنى «حين» وتختص هذه بالماضي، ولتضمنها معنى الشرط كانت بحاجة إلى جواب، ويكون جوابها فعلاً ماضياً كما في النص هنا، أو جملة اسمية مقرونة بـ «إِذَا» الفجائية، أو بالفاء. وقد يُحذف جوابها لوجود دليل يَدُلُّ عليه.

﴿لَمَّآ﴾ الظرفية هذه تُلَازِمُ الإضافة إلى جملة الشرط.

﴿أَوَلَمْآ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾:

أي: أوجبن أصابكم مصيبة...؟

﴿قَدْ أَصَبَتْكُمْ مِثْلَتَهَا﴾:

أي: قد نلتم مثليها، المثل المُسَاوِي، فَاَلْمِثْلَانِ هُمَا مُسَاوِي الشَّيْءِ وَقَدْرُهُ مَرَّةً أُخْرَى، وفي هذا إشارة إلى أنهم في بدر قتلوا سبعين من المشركين، وَأَسْرَوْا سَبْعِينَ، لكن المشركين في أحد لم ينالوا أكثر من قتل سبعين من المسلمين.

يقال لغة: أَصَابَ الْإِنْسَانُ مِنَ الْمَالِ غَيْرُهُ: أي: اخذ وتناول، وَنَالَ. وقد كثر في السنة استعمال فعل «أَصَابَ يُصِيبُ» بمعنى: نال، وأخذ، وحاز، واستمتع، مثل: أصاب كذا من الغنيمة، أي: نال وأخذ.

وأصاب من أمرأته، أي: استمتع بهما، فكل شيء يحصل الإنسان عليه يقال فيه: أصابه.

﴿قُلْتُ أَنِّي هَذَا﴾:

هذه جملة جواب ولما.

«أني» هنا استفهامية، فهي أداة استفهام، وتأتي بمعنى: «من أين» وبمعنى: «كيف».

والاستفهام هنا استفهام تعجبي، وهو بمعنى: كيف خذلنا ربنا وقد وعدنا النصر على لسان رسوله؟! أو من أي مكان دخلت علينا هذه المصيبة؟

ويظهر أن أصحاب هذه المقالة لم يفتنوا إلى المعصية التي ارتكبتها الطامعون في جمع الغنائم، التاركون لمواقعهم قبل أن يأذن لهم الرسول ﷺ، منصرفين لحيازة ما انكشف عنه المشركون من أموالهم، فقالوها متعجبين وباحثين عن العلة، هل هي من كيفية الإخلاف في الوعد، أو من جهة أنفسهم إذ تسيبوا فيما يستحقون به أن يرفع الله عنهم عونه ومذده لهم حتى النصر المبين، فجاء استعمال «أني» صالحاً للمعنيين.

وجاء الجواب مثبتاً مكان سبب المصيبة، إذ علم الله رسوله أن يقول لهم:

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾:

أي: أنفسكم هي المكان الذي صدر عنه الشئ، فحل بكم ما حل من مصيبة القتل والهزيمة.

﴿وَمَا أَصْبَحْتُمْ يَوْمَ التَّنْقِ الْجَمْعَانِ﴾:

هو يوم أحد، والجمعان هما جمع المسلمين بقيادة الرسول ﷺ، وجمع لمشركين بقيادة أبي سفيان بن حرب، والمراد من التقائهما التقاؤهما على قتال، وحرب.

﴿فَيَا ذِينَ اللَّهِ﴾:

حول بيان بعض مواقف المناققين في غزوة أحد وإفئاع المؤمنين بأن ما جرى لهم قد كان من أنفسهم

الإِذْنُ في اللغة يأتي بمعنى العِلْمُ، يقال: أِذِنَ فُلَانٌ بِأَذْنِ الشَّيْءِ إِذْنًا وَأَذْنًا إِذَا عَلِمَ بِهِ.

ويأتي الإِذْنُ بمعنى الإِبَاحَةِ ولكن هذا المعنى لا يصلحُ هُنَا، فالله لا يُبْسِحُ للمشرَكين إِبَاحَةً تشريعيةً حُكْمِيَّةً قَتْلَ الْمُؤْمِنِينَ.

لَكِنَّ الْعَالِمَ بِالشَّيْءِ عِنْدَ حُدُوثِهِ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَمْنَعَ حُدُوثَهُ، يَمْنَعُ إِمْدَادِهِ الْفَاعِلَ بِالطَّاقَةِ اللَّازِمَةِ لَهُ، أَوْ بِإِقَامَةِ الْعُقَابِ وَالْمَوَانِعِ، أَوْ بِالصَّرْفِ وَالتَّحْوِيلِ، فَإِنَّ عِلْمَهُ عِنْدُئِذٍ يُعْتَبَرُ مَقْرُونًا بِالتَّمَكِينِ الْقَدْرِيِّ.

فَيَكُونُ مَعْنَى ﴿يَاذِنِ اللَّهُ﴾ عَلَى هَذَا، فَيُعَلِّمُهُ وَتَمَكِّينُهُ تَمَكِينًا قُدْرِيًّا، وَتَسْخِيرُهُ الْأَسْبَابَ وَالْمَسِيَّاتِ. وَضَمَّنَ هَذَا الْمَعْنَى تَفْهَمُ الْمُعْظَمُ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَةِ الَّتِي جَاءَ فِيهَا نَحْوُ هَذَا الْاسْتِعْمَالِ، مِثْلُ: [يَاذِنِ اللَّهُ - يَاذِنِ رَبِّي - يَاذِنِ رَبِّي - يَاذِنِ رَبِّي - يَاذِنِ رَبِّي] وَالضَّمِيرُ لِلَّهِ.

وَقَدْ يَأْتِي الْإِذْنُ فِي الْقُرْآنِ مَقْتَرِنًا بِمَعْنَى الْإِبَاحَةِ الشَّرْعِيَّةِ، وَالتَّمَكِينِ الْقَدْرِيِّ، دُونَ أَنْ يَنْفَكَ عَنْ مَعْنَى الْعِلْمِ، وَمِنْ هَذَا مَا جَاءَ فِي النَّصِّ السَّابِقِ: خُطَابًا لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾:

أَي: بِعِلْمِهِ وَإِبَاحَتِهِ وَتَمَكِينِهِ وَتَسْخِيرِهِ الْأَسْبَابِ وَالْمَسِيَّاتِ.

وَالِاسْتِثْنَاءُ: إِعْلَامٌ مَعَ طَلَبِ الْإِبَاحَةِ وَالتَّمَكِينِ.

﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾:

فَادْرَءُوا، أَي: فَادْفَعُوا، الدَّرَاءُ: الدَّفْعُ. يُقَالُ لَعَنَ: ذَرَأَهُ يَذْرَؤُهُ ذَرَاءً وَذَرَاءَةً إِذَا دَفَعَهُ، وَتَذَارَا الْقُرْمُ: أَي: تَدَافَعُوا فِي الْخُصُومَةِ وَنَحْوِهَا وَاسْتَخْلَفُوا.

وَيَقُولُ: ذَرَأْتُ الشَّيْءَ، إِذَا دَفَعْتُهُ عَنْكَ.

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿فَادْرَءَ تَمَّ فِيهَا﴾:

أَي: تَذَارَأْتُمْ فِيهَا، بِمَعْنَى اخْتَلَفْتُمْ وَتَدَافَعْتُمْ، فَكُلُّ فَرِيقٍ يَدْفَعُ عَنْ جِهَتِهِ قَتْلَ

النَّفْسِ الَّتِي قَبَلَتْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَيُلْقِي التَّهْمَةَ عَلَى الْفَرِيقِ الْآخَرِ.

(٣)

ما رُوي في سبب النزول

هذا النصّ كسابقه اتفق شيوخ أهل التفسير من السلف على أن هذا النصّ قد نزل بمناسبة الأحداث التي جرت في موقعة أُحُد.

والآيات فيه مع سببِ النصّ وسياقه في السورة ظاهرة توافق مع أحداث هذه الغزوة.

(٤)

مع النصّ في التحليل والتدبر

* قول الله عز وجل:

﴿أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّهُ هَذَا؟﴾.

أي: أو حين أصابتكم أيها المسلمون مصيبة وهي مصيبتكم الحاصلة يوم أُحُد، إذ قُتل منكم سبعون، وكُتبت قَدْ أَصَبْتُمْ من غدوكم بمثلها في بدر، فَقُتِلْتُمْ منهم سبعين، وأسرتهم سبعين كان في مقدوركم أن تقتلوهم أيضاً، لما حصل ذلك قُلْتُمْ من أين حصل هذا؟! أو كيف حصل هذا؟! متعجبين من الأمر، ظانين أن من حَقَّكُمْ على الله أن ينصركم على كُلِّ حالٍ وَلَوْ غَضِبْتُمْ، وَخَالَفْتُمْ، وَلَمْ تُحَقِّقُوا في أَنْفُسِكُمْ شروط النصر.

إنَّ تَعْجِبَكُمْ مِمَّا أَصَابَكُمْ هو الذي يستحق أن يتعجب منه المتعجبون لو تبصرتهم.

فالاستفهام في: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ؟﴾ استفهام تعجبي من تعجبهم بقولهم: ﴿أَنَّى هَذَا؟﴾.

حول بيان بعض مواقف المتأفقين في غزوة أحد وإقناع المؤمنين بأن ما جرى لهم قد كان من أنفسهم

والجواب الرباني الذي أمر الله رسوله أن يجيبهم به هو ما جاء في :

• قول الله عز وجل :

﴿ قُلْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ .

أي : تسألون : من أين حصل لكم هذا الذي نزل بكم ، متوهمين أنه من جهة إخلاف الوعد ؟ أو كيف حصل لكم هذا وقد سبق وعد الله لكم بالنصر على لسان رسوله ؟ وجوابكم أن ما حصل لكم هو من عند أنفسكم فما في أنفسكم قد كان هو السبب الذي جلب لكم ما أصابكم من مصيبة .

إن وعد الله لكم بالنصر مشروط بأن لا تخلوا بما أوجب عليكم ، أما وقد وُجد في نفوسكم الطمع في الغنائم ، وإرادة الدنيا ، فجرمكم ذلك إلى التنازع في الأمر ، والمعصية للرسول ، والفشل ، والانهزام ، فما بعد ذلك من أشياء ، فالأمر كله من عند أنفسكم .

أما أسباب الله فقد كانت ممتدة إليكم ، لكنكم ابتعدتم عنها ، وتركتموها ، فكيف تنصركم أسباب لم تمسكوها ، بل تحولتم عنها ؟! كيف تشربون من حوض هجرتموه ، واندفعتم نحو سراب غرکم بأوامره ؟! كيف تطالبون من الله نصراً خارجاً عن حدود إمكانيات أسبابكم ، وقد خالفتم أمره وعصيتهم رسوله وعصيتهم قادتكم ؟!

إن ما نزل بكم لم يكن تجاوزاً لقدرة الله ، وإفلاتاً من سلطانها ، بل هو ضمن سلطانها ، ولكن اقتضت حكمته جلّ وعلا أن ينزل بكم ما نزل بكم ، دلّ على هذا :

• قول الله عز وجل :

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

فأكد الله لهم أنه على كل شيء يشاؤه سبحانه قدير ، لا يعجزه منه شيء ، ولو كان خلق السماوات والأرض وما فوق ذلك أو نسفها وإزالتها إلى العدم ، فما بالكم تنصركم على عدوكم ، وهي من صغريات الأحداث ؟!

لَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُجْرِي تَصَارِيفَهُ فِي كَوْنِهِ بِمَفْتَضِيَّاتِ صِفَةِ قُدْرَتِهِ فَقَطْ، بَلْ يُجْرِي تَصَارِيفَهُ بِقُدْرَتِهِ الْقَادِرَةِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الْمَقْرُونَةِ بِعِلْمِهِ الْمَحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَحُكْمِهِ الَّتِي بِهَا تَبَيَّنُ إِرَادَتُهُ، وَقَضَاؤُهُ وَقُدْرُهُ.

إِذَنْ: فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَبَحُثُوا عَنْ حِكْمَةِ رُيُوكُمْ فِيمَا أُذِنَ بِأَنْ يَنْزَلَ بِكُمْ مِنْ مَصِيبَةٍ فِي أَحَدٍ، وَكَذَلِكَ فِي كُلِّ مَصِيبَةٍ تَنْزُلُ بِكُمْ مُسْتَقْبَلًا.

إِنَّ الْبَحْثَ وَالتَّأَمُّلَ يَهْدِيَانِيكُم إِلَى اكْتِشَافِ أَنَّ حِكْمَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَضَتْ أَنْ يُؤْذِبَكُمْ، وَيُزَيِّتَكُمْ، وَيُنْتَلِي مَا فِي صُدُورِكُمْ، وَيُمَحِّصُهَا وَيُمَيِّزُ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ، وَمَنْ هُمْ دُونَ ذَلِكَ حَتَّى دَرَكَةَ الْمُنَافِقِينَ.

وَقَدْ جَاءَ مَا يَدُلُّ عَلَى عُنَاوَرِ هَذِهِ الْحِكْمَةِ فِي نَصُوصٍ سَابِقَةٍ، وَنَصُوصٍ لَاحِقَةٍ، جَاءَ فِيهَا بَيَانَاتٌ وَعِظَاتٌ وَتَعْلِيقَاتٌ عَلَى أَحْدَاثٍ مَعْرَكَةٍ أُحْدِ.

* * *

* قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّنْفِ الْجَمْعَانِ فَيَاذَنْ اللَّهَ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنَنْبِذْكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَذْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا لَاتَّبَعْنَكُمْ ۖ

أَي: وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ نَعُجِبْتُمْ مِنْ نَزْوِلِهَا بِكُمْ، يَوْمَ التَّنْفِ جَمْعَكُمْ وَجَمْعُ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ فِي أَحَدٍ، فَقَدْ كَانَ ذَلِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ، أَي: بِعِلْمِهِ وَتَمَكِينِهِ تَمَكِينًا قَدْرِيًّا وَتَسْخِيرِهِ الْأَسْبَابَ وَالْمُسْتَبَاتِ، إِذْ مَكَّنْ أَعْدَاءَكُمْ مِنْكُمْ لِحُكْمِهِ اقْتَضَتْهَا إِرَادَتُهُ، وَهِيَ تَرْبِيَّتُكُمْ وَتَأْدِيبُكُمْ، وَلِيَمْتَحِنَكُمْ، فَيَكْشِفُ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ، وَيُمَيِّزُهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ أَصْحَابَ الرَّبِّ وَالشَّكِّ، وَضَعْفَاءَ الْإِيمَانِ، فَيَعْلَمُ حَدُوثَ مَا سَبَقَ فِي عِلْمِهِ أَنَّهُ سَيَحْدُثُ، وَلِيَعْلَمَ أَيْضًا عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ الَّذِينَ نَافَقُوا، أَي: انْتَشَرُوا بِفَاقًا عِنْدَ هَذَا الْأَمْتِحَانِ، أَوْ تَظَاهَرُوا بِرَغْبَاتٍ إِسْلَامِيَّةٍ وَهُمْ مُنَافِقُونَ فِي الْحَقِيقَةِ.

وَقَدْ دَلَّ عَلَى نِفَاقِهِمْ هَذَا أَنَّهُمْ قِيلَ لَهُمْ قَبْلَ مَعْرَكَةِ أَحَدٍ: تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مُؤْمِنِينَ صَادِقِينَ، أَوْ تَعَالَوْا إِلَى الْمَعْرَكَةِ مَدَافِعِينَ عَنِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ مَدَافِعِينَ عَنْ أَحْسَابِكُمْ وَأَهْلِ بَلَدِكُمْ، فَقَالُوا مُتَعَلِّلِينَ بِأَعْذَارِ ظَاهِرَةِ الْبَطْلَانِ: لَوْ نَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَكُونُ قِتَالٌ

حول بيان بعض مواقف المنافعين في غزوة أحد وإقناع المؤمنين بأن ما جرى لهم قد كان من أنفسهم

لأتبعناكم وقاتلنا معكم، ولكن سترون عند وصولكم إلى موضع المواجهة أن رأينا هو الأصوب، وترون أن المغامرة تهلكت، وترون الرجوع للاعتصام بالمدينة، أولو نعلم أنه سيكون قتال يُظنُّ معه النصر لاتبعناكم.

﴿وَمَا أَصَبَكُمْ﴾:

ما اسمٌ موصول تضمَّن معنى الشرط، لذلك اقترن الخبر بالغاء ﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

﴿وَلَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾:

معطوفة على جملة مقدّرة دلّت عليها عبارة ﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: لتسريبتكم وتاديبكم، وليعلم المؤمنين.

﴿وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾:

معطوفة على سابقتها. نافقوا: أي: ألدنوا نفاقاً، أو نظاهروا بإسلاميات هم بها كاذبون منافقون.

وقد عرفنا أن المراد من علم الله هنا أن يعلم الأمر بعد وقوعه، المطابق لعلبه السابق به قبل وقوعه.

* * *

* قول الله عز وجل:

﴿هُمُ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾.

نحن نعلم أن المنافق كافر في باطنه غير مؤمن، فكيف يكون هؤلاء الذين نافقوا أقرب للكفر منهم للإيمان؟

لدينا احتمالان:

(١) إما أن يكونوا قد أنشؤوا نفاقاً لم يكونوا فيه، وساروا فيه خطوات، لكنهم لم ينغمسوا بعد بالكفر الثابت، فيكونوا كافرين منافقين، وقد صاروا بخطواتهم هذه أقرب للكفر منهم للإيمان.

(٢) وإما أن يكونوا قد أظهرُوا بأقوالهم وأعمالهم ما قدّمُوا به دليلاً من الأمارات

والعلامات المادية، ما يُمكنُ المسلمين من الحكم عليهم بأنهم قد صاروا أقرب للكفر منهم للإيمان.

فالدلائل تُرجحُ احتمال كُفْرِهِمْ على احتمال كونهم مؤمنين.

وفي هذا إرشادٌ ربّانيٌّ إلى أمارات الإدانة البشرية.

• قول الله عز وجل:

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

يكشفُ الله بهذا أنهم كذّابون، ومن أكاذيبهم قولهم ليعُضَّ الَّذِينَ خَرَجُوا مَعَ الرُّسُولِ إِلَى مَعْرَكَةٍ أَحَدٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ: لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَّاكُمْ.

فهم يقولون بأفواههم كلاماً عما في قُلُوبِهِمْ، مع أنه ليس في قُلُوبِهِمْ ذلك الذي ادَّعَوْهُ وَقَالُوهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ، إنهم يكتُمون في قُلُوبِهِمْ عدم الرغبة بُضْرَةِ الرُّسُولِ، وعدم الرغبة بانتصاره، ويظهرون بألسنتهم الإسلام، وادّعاء الإيمان، والحرص على انتصار الإسلام، وانتصار الرُّسُولِ والمؤمنين معه، وهم في كل ذلك كاذبون، وأقوالهم إنما هي أسلوبٌ من أساليب النفاق.

وإذا كان ما يكتُمونه في قُلُوبِهِمْ، قد يَنفِلُون عنه، فلا يكون حاضراً دوماً في تصوراتهم، وحركات أفكارهم، وخلقجات نفوسهم، فالله عز وجل لا يعزبُ عنه عِلْمُ ذلك في أعماق قُلُوبِهِمْ، طرفة غيبي ولا أقل من ذلك. إنهم قد يغفلون عما يكتُمون في قُلُوبِهِمْ، لكن الله عز وجل عليم به دوماً، لذلك جاء في النص:

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

أي: أعلم منهم بما يكتُمون في قُلُوبِهِمْ، يضاف إلى هذا أن بعض ما يكتُمون في قُلُوبِهِمْ هو من قبيل المشاعر الحبيسة الغامضة، التي لا تستطيع أذهانهم ولا تصوراتهم تحييد حقيقتها، لكن الله يعلم حقيقتها علماً دقيقاً شاملاً، فهو سبحانه أعلم بما يكتُمون.

ويلاحظ أنه قد جاء التعبير هنا بالأفواه، على خلاف ما جاء في سورة (الفتح)

حول بيان بعض مواقف المنافقين في غزوة أحد وإقناع المؤمنين بأن ما جرى لهم قد كان من أنفسهم

٤٨ مصحف / ١١١ نزول من التعبير بالألسنة، في قوله تعالى :

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلْفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ... ﴿١١﴾﴾ .

ويتأمل النصيبين ومضامينهما نرى أن التعبير بالأفواه يُشعر بأنهم يملؤون أفواههم متشدقين بكلام يفخّمونه على قدر نجاحيها، حين يزعمون أنهم حريصون جداً على مشاركة المؤمنين في القتار والدفاع، لو أنهم يعلمون أنه سيكون قتال فعلي جاد. وهي حركة تلقائية يندفع الكذاب المنافق إلى تصنعها، ليغطي بها كذبه ونفاقه .

أما التعبير بالألسنة فقد جاء في وصف كلام معتذرين مستغفرين، وهؤلاء يأتون عادة متمسكين لا يتشدقون، وقد يغضون من أصواتهم، ويكتفون بتحريك ألسنتهم .
فالتشديق بالمعاذير من أمارات الكذب، وعلامات النفاق .

وضح لنا أن هذا البيان قد تضمن ما يلي :

(أ) كشف الله فيه واقع حال المنافقين في سريرتهم على خلاف ما ينظاهرون به في أفواههم متشدقين .

(ب) أعلم الله المنافقين أنه لا تخفى عليه منهم خافية .

(ج) أبان الله للمؤمنين بعض أمارات النفاق وعلاماته، وهو التشديق بالأفواه لدى المعاذير ودعاوى صدق الإيمان والإسلام والحرص على المسلمين والرغبة في البذل من أجلهم، مع مخالفة الأعمال للأقوال .

* * *

* قول الله عز وجل :

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ :

أي : هؤلاء المنافقون الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، هم الذين قالوا بعد معركة أُحُد عن إخوانهم، أو لأجل إخوانهم الذين قُتلوا فيها، والحال أنهم

كانوا قد قَعَدُوا عن المعركة وَنَضَحُوا إِخْوَانَهُمْ بعدم الخروج: لو أطاعونا فيما نصحناهم به ما قُتِلُوا.

هذه المقالة من مقالاتهم تَدُلُّ على عدم فهمهم لركن قضاء الله وقدره من أركان الإيمان، أو عدم إيمانهم به كلياً .

وقد تتضمنُ هذه المقالةُ نَصُورَ أَنْ نَقَادِي أسباب الموت كُلِّها يمنع حدوث الموت ويدْرُوهُ، فجاء البيان التالي في تَمَّة الآية، وهو:

• قول الله عز وجل:

﴿قُلْ فَأَدْرَأُ وَأَعَنَ أَنْفُسُكُمْ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾:

أي: قل لهم يا مُحَمَّدُ جواباً على ادَّعائهم أو نَصُورهم الذي تَضَمَّنَتْهُ مقالاتهم: فاذْفَعُوا عن أَنْفُسِكُم الموتَ إذا جاءت آجالُكُمْ، إِنْ كنتم صادقين في ادَّعاء أَنْ نَقَادِي أسباب الموت يمنع حدوث الموت ويدْرُوهُ.

والجواب هنا خاصٌّ بالرَّد على مذهب المادَّيين السَّبَّيين، الذين لا يؤمنون بمقادير الرَبِّ الخالق في الحياة والموت، والوجود والعدم.

وفي نصوصٍ أُخْرَى جاء الرَّد على الأوهام الأخرى حول هذا الموضوع، ومنها جميعاً تُسْتَخْرَجُ كُلُّ الرَّدود التي يَنكاملُ بها عَقْدُ الموضوع.

• • •

النص الحادي عشر

من سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول) ثالث سورة مدنية

الآيات من (١٧٦ - ١٧٩)

حول الذين بدأوا خطوات التفاف إبان غزوة أحد
ومسارعتهم في الكفر وتربية الله رسوله والمؤمنين بشأنهم

هذا النص مثل النصين السابقين التاسع والعاشر، اشتمل على بيانات وعظات وتعليقات ومتابعات تتعلق بالأحداث التي جرت في غزوة أُحُد، وما استبغَتْ هذه الغزوة، وما كان من المناقشين فيها وبعدها.

يقول الله عز وجل في سورة (آل عمران) خطاباً لرسوله:

﴿وَلَا يَخْزِيكَ الَّذِينَ يُسْرِغُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنَبْصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطَاءً فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنَبْصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَخْسَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ لِيَزَادُوا إِفْسًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُّسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾

ما في النص من القراءات المتواترة (من الفرش)

(١) قرأ نافع: [وَلَا يُخْزِنُكَ] بِضَمِّ الْيَاءِ، مِنْ أَحْزَنَهُ الْأَمْرُ يُخْزِنُهُ. وَهِيَ لُغَةٌ، أَمَّا

قراءة سائر القراء فهي من حَزَنُهُ الْأَمْرُ يُحْزِنُهُ، وهي لُغَةٌ. قال الجوهري: حَزَنُهُ لُغَةٌ قريش، وأَحْزَنُهُ لغة تميم.

(٢) وقرأ حمزة: [وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا] بناء الخطاب وفتح السَّيْن، فبين القراءتين تكاملاً في الأداء البياني، قراءة جمهور القراء تتحدث بالغيبة عن الذين كفروا، وقراءة حمزة مخاطبُ الرُّسُول وكلِّ مؤمنٍ خطاباً إفرادياً، وهذا من الإيجاز الذي يعتمد على تغيير حرف واحد.

(٣) وقرأ ابن عامر وعاصم وأبو جعفر: [وَلَا يُحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا] بفتح السَّيْن وياء الغائب، وقرأ سائر القراء العشرة [وَلَا يُحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا] بكسر السَّيْن وياء الغائب. وهما لغتان للكلمة، يقال: حَسِبْتُ يُحْسِبُهُ وَيَحْسِبُهُ بفتح السين وكسرها في المضارع حَسِبَانًا بكسر الحاء، أي: ظَنَّهُ يَظُنُّ ظَنًّا باطلاً.

(٤) وقرأ حمزة والكسائي وخلف: [حَتَّى يُمِيزَ الْخَيْبَ مِنَ الطُّيْبِ] من مُيزَ بالياء المشددة يُمِيزُ تمييزاً، وقرأ سائر القراء [حَتَّى يَمِيزَ] من مَازَ يَمِيزُ مِيزاً، أي: عزل الشيء وفرزه ونَحَاهُ، وهما لغتان في الكلمة والمعنى واحد.

(١)

المعنى العام للنص

مواقف المنافقين وأهل الرِّيب والشك وضعفاء الإيمان في معركة أُحُد وما بعدها، قد أَلَمَّتْ الرسول ﷺ، وفريقاً من المؤمنين الصادقين، فاقتضت الحكمة العِلاجِيَّةُ التربويَّةُ، إنزال بيانٍ خاصٍّ موجهٍ للرسول، ويستفيد منه سائر المؤمنين تبعاً، مع ما فيه من توجيهٍ غير مباشر لأصحاب هذه المواقف.

فقال الله عز وجل لرسوله:

﴿وَلَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنَبَصُرُوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطَّاً فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٦).

في هذا النصّ قضيتان :

• القضية الأولى: متابعة حركة تدرُّج الذين سلَكوا مسلك النفاق، وذلك لأنهم بعد أن خَطَّوْا الخطوات الأولى في النفاق، تبعاً للذين كانوا منافقين من قَبْلُ، أَخَذَتْ خُطُوَاتُهُمْ تتسارع في طريق الكفر، وَيُخْشَى أَنْ يَصِلُوا قريباً إلى حضيضه الوخيم.

• القضية الثانية: متابعة تربية من الله لرسوله تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَحْزَنَ إِذَا وَجَدَ بَعْضَ أَتْبَاعِهِ ارْتَدَّوْا مُنَافِقِينَ، بعد أن كانوا في ظاهِر حالهم مؤمنين، فَأَخَذُوا يسارعون في طريق الكفر إلى شقائهم، نظراً إلى أَنَّهُمْ سائرون في مسيرتهم المرتدة إلى مواقع الكفر الخالص في الباطن.

وهذا الحزنُ يُحرِّكُهُ في الرسول ﷺ أمران :

الأمر الأول: رحمته صلوات الله عليه وسلامه بهم، وحرصه عليهم، وخوفه من سوء المصير الذي هم إليه سائرون فصائرون.

الأمر الثاني: تخوّفه ﷺ من تناقص أنصار هذا الدين، ومن حصول الضرر في مسيرة الدَّعوة الربَّانية.

وقد عالجت تربية الله لرسوله هذين الأمرين ببيانٍ لكلِّ منهما.

(أ) أمَّا تخوّفه على الدَّعوة الإسلاميَّة الربَّانية من تناقص أنصارها، وارتدادِ بعضِ الممتنِّين إليها، بسُلوكهم مسالكَ النفاق الذي يجرُّهم إلى الكُفر الخالص، فقد جاء البيان بخصوصه يكشف للرسول ﷺ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الكُفْرِ لَنْ يَضُرُّوا الله شيئاً.

أي: لن يَضُرُّوا الله في مسيرة أنظمتهم أكوامه شيئاً، ولن يَضُرُّوا الله في ذاته أو صفاته شيئاً، ولن يَضُرُّوا دينَ الله المؤيَّد بتأييده شيئاً. فظهور هذا الدِّين لا يؤثر عليه ارتداد المرتدِّين عنه، بنفاق أو غيره، ولو انحازوا إلى أعداء الإسلام بكلِّ صراحةٍ ووقاحة، فهم غير صالحين منذ البداية لأن يكونوا جنود دعوة، أو جنود جهاد في سبيل الله صادقين، دلَّ على هذا قول الله عزَّ وجلَّ في النص:

﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً...﴾ ﴿١٧﴾

(ب) وأما رحمته ﷺ بهم، وخوفه عليهم من سوء المصير، فقد جاء البيان بخصوصه يكشف للرسول أن من اختار لنفسه الكفر فقد قَذَفَ هو بنفسه إلى حيث يستحقُّ بعدل الله في حسابه وعقابه الحرمان من نعيم الجنة، والعذاب الأليم في النار. وغَذَلَ اللهُ في أحكامه من إرادته الْعَذْلِيَّة، وتنفيذ هذه الأحكام من إرادته الجزائية الحكيمة العادلة، ومن استحقَّ ذلك بإرادة الله الحكيمة العادة، المبنية على قضائه بالعدل، وحكمه بالعدل، المستند إلى فعل المجرم باختياره الحر، فليس هو بأهل لأن تُرَحِّمَهُ، وتُخَزَنَ من أجله.

دلَّ على هذا قول الله عزَّ وجلَّ في النص:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٦):

أي: فليس لهم حِطٌّ في الجنة، وهذا من عدل الله بإرادته الحكيمة، ولَهُمْ في النار عذابٌ عظيم، وهذا أيضاً من عدل الله بإرادته الحكيمة.

وبعد الحديث عن الذين سلكوا مسلك النفاق مسارعين في الكفر تبعاً للذين مرَّدوا على النفاق، أبان الله عزَّ وجلَّ في النصَّ حال الذين استكملوا مسيرتهم في النفاق، واستقرَّوا في الكفر، فاستبدلوا الكُفْرَ بالإيمان، ولم يبقَ في قلوبهم أيُّ التَّغَيُّبِ إلى مواقع الإيمان، وأنسوا في مواقع الكفر الخالصة في الباطن.

إنهم أيضاً مثل الذين يسارعون في الكفر:

(١) لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا.

(٢) ولهم عذابٌ أليم.

دلَّ على هذا الفريق قول الله عزَّ وجلَّ في النص:

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٧):

ومن هذا نلاحظ أنَّ حركة النفاق قد تشابعت خلال أحداث غزوة أُحُدٍ وتغذَّها ضمن خطِّ بيانيٍّ اشتمل على ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: بذوهم السَّيْرَ في طريق النفاق.

حول الذين بدؤوا خطوات النفاق إبان غزوة أحد ومساعدتهم في الكفر وتربية الله رسوله والمؤمنين بشأنهم

دل عليها قول الله عز وجل في النص السابق من سورة (آل عمران):

﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنَنْتَلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا
لَاتَّبَعْنَكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي
قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

المرحلة الثانية: مساعدتهم في طريق الكفر متجهين شطر غايته، بعد انزلائهم في المرحلة الأولى.

دل على هذه المرحلة قول الله عز وجل في هذا النص الحادي عشر الذي نتدبره:

﴿وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنِصْرُوا اللَّهَ شَيْئًا يَرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ
لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾.

المرحلة الثالثة: بلوغهم إلى غاية الكفر، واستقرارهم في موقعه، إذ اشتروا الكفر بالإيمان.

دل على هذه المرحلة قول الله عز وجل في هذا النص أيضاً:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنِصْرُوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾.

وبعد أن تحقق هؤلاء الذين نافقوا بالكفر الخالص، إذ وصلوا إلى غاية الطريق التي انزلقوا في مبادئها أولاً، ثم سارعوا منحدرين في أواسطها، حتى اشتروا الكفر بالإيمان في غايته، واستقرؤا في موقع الكفر، وأبقوا ظاهر الانتماء إلى الإسلام نفاقاً، تحول الحديث عنهم إلى كلام عن كافرين.

وهنا يكشف الله عز وجل طرفاً من حكمته في إهمالهم، وعدم المسارعة في الانتقام منهم.

فالله عز وجل يُعْطِي لهم لِيَتِمَادُوا في مُمَارَسَاتِ الْكُفْرِ، فيزدادوا إثمًا، وإذا ازدادوا إثمًا كانت إدانتهم بالكفر أقوى أدلة وأكثر براهين، ولم يكن لهم يوم الدين ما يعتذرون

به، من أن ما كان منهم قد كان أثر طيش عارض، أو انفعال طارىء، أو جهالة كان من الممكن أن يصحوا منها، لو تركت لهم فرصة التوبة والرجعة.

فَمَنْ أَهْمِلْ مَعَ الْإِنذَارِ إِمهالاً كافياً للتوبة، وقد فتحت له أبوابها، ثم ظل مكابراً معانداً، يزداد إثماً وطغياناً، فقد أسقط كل أعداره، وكل تعللاته، واستحق العقاب بلا شفقة ولا رحمة، لأنه لم يشفق هو على نفسه، ولم يرحمها.

فقال الله عز وجل:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرًا لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

بعد ذلك التفت النص إلى المؤمنين ليبين الله لهم فيه حكمته حول تساؤلات قد تقع في نفوسهم، ولو لم ينطقوا بها في ألسنتهم، ومن هذه التساؤلات ما يلي:

التساؤل الأول: لماذا أنزل الله بنا هذه المصيبة العامة التي شملت المحسنين والمسيئين يوم أحد؟

وجاء جواب هذا التساؤل النفسي في قول الله عز وجل في النص:

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾.

أو: [حتى يميز الخبيث من الطيب] في القراءة الأخرى.

أي: ليس من شأن الله ولا من شأن حكمته في مسيرة أوليائه حاملي رسالته، أن يتركهم وقد اختلط بينهم الأخباث المنافقون اختلاطاً يجعل جماهير المؤمنين لا يميزون بسببه المنافق الخبيث من المؤمن الطيب.

فهذا الاختلاط من شأنه في نظام الأسباب والمسببات أن لا يُمكن رسالة الله من أن تبلغ مداها الطافراً، ولا يُمكن المؤمنين الصادقين من الظهور في الأرض على أعدائهم الكثيرين، لأن المنافقين سيتابعون عبثهم من داخل صفوف المؤمنين، ويتابعون مكائدهم، حتى يحتلوا مراكز القيادة، فيعطفوا برسالة الإسلام عن صراط الله المستقيم، ويسلكوا بجماهير المؤمنين في مسالك شيطانية خبيثة، وعندئذ تسقط المسيرة في براثن الشياطين.

حول الذين بدؤوا خطوات الشقاق إبان غزوة أحد ومسارعهم في الكفر وتربية الله رسوله والمؤمنين بشأنهم

فَسَلَامَةٌ مَسِيرَةُ الدَّعْوَةِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَتَنَامِي الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، يَقْتَضِيَانِ هَذَا التَّمْيِيزَ.

التساؤل الثاني: إذا كانت الغاية تمييز المنافقين الأخباث المندسين في صفوف المؤمنين من المؤمنين الصادقين، لتحذير المؤمنين من مكايدهم، أما كان من الممكن أَنْ يُنَوِّرَ اللهُ بصائر المؤمنين فيكشف لهم بذلك المنافقين، دون ابتلائهم بامتحان عامٍ يتعرَّضون فيه للمصائب العامة؟

وجاء جوابُ هذا التساؤلِ النفسي في قول الله عزَّ وجلَّ في النَّصِّ:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾.

أي: ليس من سنة الله ولا من حكمته أَنْ يَخْتَصُّكُمْ بِالْإِظْلَاحِ عَلَى بَوَاطِنِ قُلُوبِ الْمُنَافِقِينَ، فَتَحْذَرُوهُمْ بِنَاءً عَلَى عِلْمِكُمْ بِهِمْ. إِنَّ مَا تُكْنُهُ الْقُلُوبُ هُوَ مِنْ دَوَائِرِ الْغَيْبِ الَّذِي حَجَبَهُ اللهُ عَنِ النَّاسِ بِحَسَبِ سُنَّتِهِ الثَّابِتَةِ.

هذه هي القاعدة والسُّنَّةُ الثَّابِتَةُ، ولكن قد يجتبي الله من رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ، فَيُظْلِمُهُمْ عَلَى مَا يَشَاءُ مِمَّا هُوَ غَيْبٌ عَنِ النَّاسِ بِحَسَبِ سُنَّتِهِ، لحكمة من حكمه الجليلة تبارك وتعالى:

وبياناً لهذا الاستثناء قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ لِيَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

فعلى المؤمنين إِذَنْ أَنْ يَذْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَذْهَانِهِمْ كُلَّ الْخَوَاطِرِ الَّتِي تُشَكِّكُ فِي حِكْمَةِ اللهِ فِي تَصَارُفِهِ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، مهما كانت مُخَالَفَةً لِمَا يُحِبُّونَ، ومهما اشتملت على مكَارِهِ لَهُمْ يَكْرَهُونَهَا.

فمثل هذه الخواطر تُؤَثِّرُ عَلَى كِمَالِ الْإِيمَانِ الَّذِي يَسْتَوْجِبُ التَّسْلِيمَ الْكَامِلَ لِلَّهِ فِيمَا تَجْرِي بِهِ مَقَادِيرُهُ، وَيَسْتَوْجِبُ الثِّقَةَ التَّامَّةَ بِأَنَّهُ هُوَ الْأَحْكَمُ وَالْأَصْلَحُ، فَهُوَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، الَّذِي لَا تَنْفَكُ حِكْمَتُهُ الْعَظِيمَةُ عَمَّا تَجْرِي بِهِ مَقَادِيرُهُ، وَإِنْ جَاءَتْ عَلَى خِلَافِ مَا يَهْوَى الْمُؤْمِنُونَ أَوْ يُحِبُّونَ.

وإرشاداً إلى هذا العنصر من عناصر الإيمان، وتنبهها على وجوب التقيد به، والحذر من خَدَشِهِ بِالْخَوَاطِرِ وَالتَّسَاوُلَاتِ حَوْلَ مَقَادِيرِ اللهِ الْحَكِيمَةِ، قال الله عزَّ وجلَّ

للمؤمنين بعد بيان سنته الحكيمة لهم:

﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٦):

أي: فأكملوا عناصر إيمانكم بالله ويعلمه وحكمته، وأكملوا عناصر إيمانكم برسوله، ولا ترتابوا في صلق وعودهم، ولا تنقصوا هذا الإيمان شيئاً، أو تجرحوه بالخواطر المشككة بكمال حكمة الله عز وجل، وإن تؤمنوا هذا الإيمان الكامل المصحوب بالتسليم التام لله ورسوله، وتتقوا مخالفة أوامر الله والرسول ونواهيها، فلكنم بهذا الإيمان وهذه التقوى أجر عظيم.

* * *

(٢)

المفردات اللغوية للنص

﴿وَلَا يَحْزَنَنَّ﴾:

الحزن: قال اللغويون هو نقيض الفرح، وخلاف السرور. أقول: يمكن أن نعرفه بأنه مشاعر ألم في النفس بسبب محبوب أو مرغوب به فات، أو بسبب مكروه نازل، أو بسبب مكروه متوقع النزول كالحزن على محكوم عليه بالإعدام. وفعلة: حزنه يحزنه وأحزنته يحزنته حزناً، فهو محزون وحزين وحزن، وهم جزان وحزناء.

﴿يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾:

السُرعة: العجلة، وهي في العمل ذي الحركات المتتابعات، إنجاز الحركات مع تقليل الوقت بحسب نسبة السُرعة، وغكسها البطء، ولكل منهما درجات كدرجات الحرارة والبرودة.

والمسارعة، فيها معنى المبالغة في السُرعة، لأن صيغة المفاعلة إن لم تدل على المشاركة فهي للمبالغة. يقال: سارع يسارع مسارعة إلى الأمر، أي أسرع بحركته أو في طريقه للوصول إلى الأمر.

حول الذين بدلوا خطوات النفاق إِيَّانَ غُرُوةٍ أُحْدِ ومَسَارَعَتِهِمْ فِي الْكُفْرِ وَتَرْبِيَةِ اللَّهِ رَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِشَانِهِمْ

ومعنى يسارعون في الكفر، يُسَارِعُونَ بِخَطَوَاتِهِمْ الْمَتَابِعَاتِ فِي مُنْحَدَرَاتِ الْكُفْرِ، بَسْلُوكِهِمْ مَسَالِكَ النِّفَاقِ، وَغَايَةِ مَسَارَعَتِهِمْ الْوَصُولَ إِلَى حَضِيضِ الْكُفْرِ.

﴿حَظًّا﴾:

الحِظُّ: النِّصِيبُ مِنَ الْخَيْرِ أَوِ النِّعْمَةِ أَوِ السَّعَادَةِ أَوِ الْفَضَائِلِ النَّفْسِيَّةِ أَوْ مَا فِيهِ نَفْعٌ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ اسْتِعْمَالُهُ فِي النِّصِيبِ مِنَ الْمِيرَاثِ، وَفِي النِّصِيبِ مِنَ الْأَمْوَالِ، وَفِي النِّصِيبِ مِنْ فَضَائِلِ الْأَخْلَاقِ، وَفِي النِّصِيبِ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْجَنَّةِ، وَفِي النِّصِيبِ مِنَ الْوَصَايَا وَالشَّرَائِعِ وَالْأَحْكَامِ الدِّينِيَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ (وَقَدْ اسْتَعْمَلَتِ الْكَلِمَةُ فِي الْقُرْآنِ سَبْعَ مَرَّاتٍ).

﴿أَشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾:

أَي: اسْتَبَدَّلُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ، فَأَخَذُوا الْكُفْرَ وَتَرَكُوا الْإِيمَانَ، وَفِي هَذَا التَّبْيِيرِ اسْتِعَارَةٌ قَائِمَةٌ عَلَى تَشْبِيهِ عَمَلِيَّةِ تَرْكِ الْإِيمَانِ وَاعْتِنَاقِ مَفْهُومَاتِ الْكُفْرِ، بِعَمَلِيَّةِ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ.

﴿تُمْلِيْ لَهُمْ﴾:

أَي: تُنْمِلُهُمْ. يُقَالُ لَفَعٌ: أَمْلَى اللَّهُ لَهُ، أَيْ: أَطَالَ لَهُ وَأَمَهَّلَهُ. وَيُقَالُ: أَمَلَهُ اللَّهُ الْعَيْشَ، أَيْ: أَمَهَّلَهُ وَطَوَّلَ لَهُ.

﴿حَتَّى يَمِيزَ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾:

الْخَيْثُ: الرُّدْيُ، الْفَاسِدُ الضَّارُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَقَدْ بَطُلَ عَلَى الشَّيْءِ الْكَرِهِي فِي رَاحَتِهِ أَوْ مَنْظَرِهِ، وَلَوْ كَانَ نَافِعًا كُنْبَاتِي الثُّومِ وَالْبَصْلِ كَرِهِي الرَّاحَةَ مَعَ نَفْعِهِمَا. يُقَالُ: خَبْتُ الشَّيْءَ خُبْنًا وَخُبَانَةً، إِذَا صَارَ فَاسِدًا رَدِيئًا مَكْرُوهًا، فَهُوَ خَيْثٌ.

وَالطَّيِّبُ: ضِدُّ الْخَيْثِ، وَيُطْلَقُ عَلَى الطَّاهِرِ، وَالطَّيِّبُ مِنَ الْمَأْكَلِ مَا هُوَ لَذِيذٌ لَا ضَرَرَ فِيهِ، الطَّيِّبُ مِنَ الْأَرْضِ مَا كَانَ مِنْهَا طَاهِرًا نَظِيفًا، وَمَا كَانَ مِنْهَا خَصِيًّا حَسَنَ الْإِنْبَاتِ. وَالشَّجَرُ الطَّيِّبُ الَّذِي يُؤْتِي أَكْلَهُ جَيِّدًا بِإِذْنِ رَبِّهِ، وَالشَّجَرُ الْخَيْثُ لَا يَخْرُجُ إِلَّا غَسْبَرًا نَكْدًا.

وهكذا فكلمتا الطيب والخيث من الكلمات العامة، المتضادة.

﴿الْغَيْبِ﴾:

الغَيْبُ أَمْرٌ نَسِيٌّ وهو كُلُّ محجوب عن إدراك المدرك فهو بالنسبة إليه غيب، وقد لا يكون غيباً بالنسبة إلى غيره، فما يكون غيباً بالنسبة إلى بعض المخلوقات قد يكون مشهوداً بالنسبة إلى مخلوقات أخرى، والحجاب الذي يجعل الشيء غيباً، قد يكون الماضي، أو المستقبل، أو البعد المكاني، أو وجود حاجز، أو عجز أداة الحس عن الإدراك.

﴿يَحْتَسِبُ﴾:

أي: يختار ويصطفي، يُقال لغة: اجتنبه يجتنبه اجتباءً، إذا اختاره واصطفاه لنفسه.

* * *

(٣)

ما روي في سبب النزول

ظاهر هذا النص كسابقه، قد نزل بمناسبة الأحداث التي جرت في موقعة أُحُد، وبعدها، والآيات فيه ظاهرة التوافق مع هذه الأحداث.

* * *

(٤)

مع النص في التحليل والتدبر

* قول الله عز وجل خطاباً لرسوله:

﴿وَلَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾.

أو: [وَلَا يُحْزِنُكَ] في القراءة الأخرى.

أي: ﴿ولا يحزنك﴾ يا محمد ﴿الذين﴾ كانوا معك مسلمين، ثُمَّ بَسَدُوا خُطْوَاتِهِمْ فِي أَوَائِلِ سُبُلِ التَّفَاقُ مَعَ الْمُنَافِقِينَ، وَهُمْ الْآنَ يُسَارِعُونَ بِأَعْمَالِهِمُ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ ﴿فِي﴾ طَرِيقِ ﴿الكفر﴾ مُتَوَجِّهِينَ إِلَى مَوَاقِعِ الْكُفْرِ الْخَالِصِ، الَّذِي لَيْسَ فِيهِ مِنْ عُنَاوِرِ الْإِيمَانِ شَيْءٌ.

حول الذين بدؤوا خطوات النفاق إيمان غزوة أحد ومسارعتهم في الكفر وتربية الله رسوله والمؤمنين بشأنهم

وبهذا الفهم يتضح لنا الغرض من تعدية فعل ﴿يُسَارِعُونَ﴾ بحرف ﴿في﴾ فليس الغرض مجرد التعبير بأنهم يسارعون إلى الكفر، بل الغرض بيان حركة أعمالهم التي يُسَارِعُونَ بها، والإشارة إلى السُّبُل التي يجعلون حركتهم السريعة فيها، وبيان الغاية التي تنتهي عندها مسارعتهم وهي الكفر الخالص.

فدلّ على الأول فعل ﴿يُسَارِعُونَ﴾ ودلّ على الثاني حرف ﴿في﴾ ودلّ على الثالث كلمة ﴿الكفر﴾، وبإبراز المطويات بين المثنائي تظهر المعاني.

• قول الله عز وجل:

﴿إِنَّهُمْ لَن يَصْرُوا اللَّهَ شَيْئًا﴾.

أي: ﴿إنهم﴾ بسلوكهم مسالك النفاق، ومسارعتهم في طريق الكفر مُتَجَهِّين للاستقرار في الكفر الخالص ﴿لَن يَصْرُوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في قوانين كونه، ولا في سنّته الثابتة التي يُجْبِرِي على وفها نصاريه في السماوات والأرض والأحياء والناس، ولا في مسيرة دعوة رسوله التي قضى لها بالظهور والانتصار والاستعلاء في الأرض على سائر الدعوات، مهما تألب عليها الأعداء من الخارج والداخل، أو انحسر عن مُنَاصَرَّتِهَا المنافقون والمرتدّون.

لَا تحزن يا مُحَمَّد من أجل الذين حرصك على ظهوره وانتصاره، فهو مؤيد بتأييد الله، وسيظهره الله على الذين كُلُّه ولو كره المشركون، ولو كره الكافرون.

ولا تحزن من أجل هؤلاء المسارعين في الكفر، فإنهم لا يستحقّون شفتك عليهم، ولا رحمتك بهم، وارضَ بِمُرادِ اللَّهِ فيهم، فإنهم بِمُسَارَعَتِهِمْ في الكفر استحقوا أن لا يكون لهم حظٌ سعيد في الآخرة، واستحقوا أن يكون لهم عذابٌ عظيم.

• قول الله عز وجل:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: ولما استحقوا بمقتضى قانون العدل الحكيم، أن لا يكون لهم حظٌ سعيدٌ في الآخرة، وأن يكون لهم عذابٌ عظيم، فإنَّ إرادةَ الله المتابعةَ لحركة أعمالهم المتتابعة المتجددة في الجرائم، تقضي بأن لا تجعلَ لَهُمْ حظاً سعيداً في الآخرة في جنات النعيم، وتقضي بأن يكون لهم عذابٌ عظيم، ملائمٌ لجرائمهم العظيمة، في دار العذاب الأليم.

هذا هو مقتضى حكمة الله الرَّبِّ العليم الحكيم.

* قول الله عز وجل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

أي: هؤلاء الذين نافقوا ثم أخذوا يُسارعون بأعمالهم وممارساتهم في طريق الكفر، قد انتهت بهم المسيرة المنحردة المجرمة، إلى أن بلغوا موقع الكفر الخالص من كل عناصر الإيمان، فاستبدلوا الكفر بالإيمان، فالقولُ فيهم الآن كالقول فيهم إذ كانوا يسارعون في الطريق الموصل إلى الكفر الكامل، مع التنبيه على أن العذاب العظيم الذي لهم، هو عذاب الأليم أيضاً، فهو عظيمٌ وأليم.

* قول الله عز وجل:

﴿وَلَا يَخْشَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَمْوَئِلِي هُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾:

أي: هؤلاء الذين استقرؤا في الكفر في الباطن، مع اتخاذ تقية النفاق في الظاهر، نُمهلهم كما نُمهل سائر الكافرين المنافقين والمجاهرين بكفرهم، فيحسبون أن ما هم فيه هو لمصلحتهم، إذ يمكنهم من الاستقرار في معيشة هادئة مطمئنة، بعيدين عن أن تنزل بهم نعمة المؤمنين الصادقين.

لكنَّ ظَنَّهُمْ هذا ظنٌ مُّغْتَرٍ بالظواهر، غير مستبصر بحقائق الأمور، إنهم ينخدعون بأنهمال الله لهم، فيظنون أنه لا توجد قوة غيبية قاهرة قادرة على الانتقام منهم، إذ قد

حول الذين بدؤوا خطوات التفاق إيان غزوة أحد ومسارعهم في الكفر وتربية الله رسوله والمؤمنين بشأنهم

مَضَتْ مُدَّةٌ كَافِيَةٌ فِيمَا يَعْرِفُونَ مِنْ طَبَائِعِ الْبَشَرِ، لِإَنْزَالِ النِّقْمَةِ بِهِمْ، لَكُنْهَا لَمْ تَنْزِلْ بَعْدُ، فَلَوْ كَانَ هَذَا الدِّينَ الَّذِي كَفَرُوا بِهِ فِي سِرِّيرَتِهِمْ حَقًّا، لَنَزَلَتْ بِهِمْ نِقْمَةُ اللَّهِ، عِقَابًا لَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَمَكَايِدِهِمْ.

إِنَّ ظَنَّهُمْ هَذَا ظَنٌّ بَاطِلٌ، فَالْإِمْهَالُ لَهُ فِي قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرُهُ حِكْمَةٌ بِالْغَةِ.

وكَذَلِكَ مِنْ ظَنٍّ مِثْلَ هَذَا الظَّنِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِوَجْهِ آخَرٍ فَظَنُّهُ غَيْرُ صَحِيحٍ أَيْضًا.

إِذَنْ: فَصَحَّحْ فَهَمْكَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾.

إِذَنْ: فَلَا يَغْتَرُّنَّ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ فَنُمْلِيهِمْ، وَلَا نُعْجِلْ لَهُمُ الْعِقَابَ ﴿خَيْرٌ لَّاتُنْقِيبُهُمْ﴾ بَلْ هُوَ إِذَا لَمْ يُشَوُّوا إِلَى بَارِئِهِمْ، وَيَرْجِعُوا إِلَى مَوَاقِعِ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى، شَرُّ لَهُمْ ﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ فِي مُدَّةِ الْإِمْهَالِ حِينَ يُبْصِرُونَ عَلَى كُفْرِهِمْ وَلَا يَتَوَبُّونَ، وَبِازْدِيَادِ آثَامِهِمْ مَعَ وَضُوحِ الْحَقِّ لَهُمْ تَنْقِطُعُ يَوْمَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ أَعْذَارُهُمْ، فَلَا يَبْقَى لَهُمْ عَذْرٌ يَعْتَذِرُونَ بِهِ، وَتَكُونُ مِتْرَاكِمَاتُ آثَامِهِمْ بَرَهَانًا إِدَانَتِهِمْ الْقَاطِعَةً بِأَنَّهُمْ مَعْمَعُونَ فِي الْكُفْرِ وَالْفُجُورِ، وَلَمْ يَكُنْ كُفْرُهُمْ وَفُجُورُهُمْ مِنْ قَبِيلِ التَّرَعَاتِ الطَّارِئَاتِ الَّتِي يَرْجِعُ الْإِنْسَانُ عَنْهَا عِنْدَ صَحَوَاتِ الضَّمِيرِ، وَبِذَلِكَ يَسْتَحِقُّونَ دُخُولَ دَارِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ، ﴿وَلَهُمْ﴾ فِيهَا ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾: أَيُّ: مُذِلٌّ لَهُمْ، وَهُوَ فِي مَقَابِلِ كِبَرِهِمْ وَتَطَاوُلِهِمْ عَلَى مَقَامِ الْخَالِقِ الْقَادِرِ الْقَاهِرِ الْمُنْعَمِ جَلًّا وَعَلَا.

فَتَحْصُلُ أَنَّ لَهُمْ عَذَابًا عَظِيمًا أَلِيمًا مُهِينًا.

• قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ إِنَّكُمْ تُوْمِنُونَ وَتَتَّقُوا فَلكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٧٧):

أَيُّ: وَأَمَّا أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ فَلَا تَغْتَبِ فِيكُمْ وَسَاوِسَ الشَّيْطَانِ وَخَوَاطِرَ السُّوءِ، فَتَقْرُؤَ فِي أَنْفُسِكُمْ مُفْتَرَحَاتٍ تَقْتَرَحُونَهَا عَلَى اللَّهِ، فِيمَا هُوَ مِنْ خِصَائِصِ مَقَادِيرِهِ

الملازمة لعلمه وحكمته، فنظنوا أنه قد يكون من الأصح أن ينصرفكم دون ابتلائكم لتمييز المنافقين المخالطين لكم من المؤمنين الصادقين، أو يكشف لكم المنافقين فيطلعكم على ما في قلوبهم، فتميئزهم عنكم، وتنفوا صفوفكم منهم.

اعلموا أنه: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾:

أي: ليس من شأنه ولا من سنته أن يترك المؤمنين على مثل ما أنتم عليه من اختلاط المنافقين فيهم، حتى يترككم وأنتم مؤمنون على ما أنتم عليه من اختلاط المنافقين فيكم ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ﴾ المنافق ﴿الْحَيْثُ مِنْ﴾ المؤمن ﴿الطَّيِّبِ﴾ بالامتحان الشديد، الذي يأتي ببعض المصائب للجميع، ولولا ذلك لاستمر المنافقون الأخباث يعبون في صفوفكم حتى يفسدوا كل أعمالكم ومخططاتكم، ولم يزيدوكم إلا خبالاً، فساداً وإفساداً وإضراراً.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾:

أي: وليس من شأنه ولا من سنته، أن يغير نظام حكمته في خلقه، فيختص المؤمنين وأنتم منهم بإطلاعهم على الغيب، ومنه سرائر القلوب، حتى تكشفوا المنافقين في صفوفكم، فتميئزهم، وتغزلوهم، وتنبؤهم من صفوفكم.

ففضيلة الإطلاع على الغيب مما يختص الله به رسله الذين يحبهم ويصطفهم بمشيئته لحمل رسالاته، ولا يجعله أمراً عاماً لكل المؤمنين.

إذن: فاحذروا أيها المؤمنون من هذه الخواطر والوساوس، لئلا تجرح إيمانكم، إذ هي شكوك في كمال حكمة الله ﴿فَامِنُوا بِاللَّهِ﴾ إيماناً كاملاً نقياً من الشكوك، ومن أن تظنوا بالله ما لا يليق بكمال صفاته، و﴿آمِنُوا﴾ بـ ﴿رُسُلِهِ﴾ وبصدقهم فيما يبلغون عن ربهم، ومن ذلك وغدهم لكم بتأييد الله ونصره ﴿وَإِنْ تَوَيْنُوا﴾ هذا الإيمان الصادق الذي لا تخالطه شكوك ولا ظنون لا تليق بالله ورُسُلُهُ ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله في أعمالكم الباطنة والظاهرة ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ عند ربكم في عاجل أمركم وآجله.

وجاء ذكر الرسل هنا مع أن المقصود الرسول محمد ﷺ لتثبيت عقيدة الإيمان بكل الرسل، وأن المؤمن المسلم لا يفرق بين رسول وآخر في قضية الإيمان.

عظات حركة النفاق

اقتباساً من النصوص القرآنية

المنزلة في سورة آل عمران

أولاً: نَهَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ نَهْيًا مُشَدَّدًا عَنْ اتِّخَاذِ بَطَانَةٍ لَهُمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، فَضْلًا عَنْ اتِّخَاذِ بَطَانَةٍ مِنَ الْكَافِرِينَ الْمَجَاهِرِينَ بِكُفْرِهِمْ.

السبب:

(أ) لَا يَقْصُرُونَ فِي إِسْوَادِ أَحْوَالِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الدَّخْلِ.

(ب) يَوَدُّونَ كُلَّ عَنَتٍ وَمَشَقَّةٍ وَضُرٍّ وَإِضْرَارٍ لِلْمُؤْمِنِينَ.

أمارات المنافقين:

(أ) قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَفَلَتَاتِ السُّتْهِمِ.

(ب) إِنْ تَمَسَّسْتُمْ حَسَنَةً تَزُومُهَا وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا.

حقيقتهم نجاهكم:

(أ) مَا تَخْفِي صُدُورُهُمْ مِنَ الْبَغْضِ لَكُمْ أَكْبَرُ مِمَّا يَظْهَرُ عَلَى السُّتْهِمِ مِنْ فَلَاتٍ

أقوال.

(ب) إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَكُمْ مَطْلَقًا.

(ج) إِذَا خَلَوْا عَصُوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ.

* * *

ثانيًا: الامتحان الشديد في غزوة أحد كشف منافقين كانوا يُخْفُونَ نفاقهم، ودفع بعض ضعفاء الإيمان وأهل الرُّبْب، للسَّير في طريق النفاق مع المنافقين، حتَّى بلغوا غايته، فكانوا كافرين في حقيقة حالهم، وباطن أمرهم.

الظواهر:

(أ) تخلف منافقون عن الخروج مع الرسول ﷺ .

(ب) انخدل منافقون وهم في الطريق، ورجعوا إلى المدينة، وقالوا: لو تعلم قتالاً لا تبعناكم.

(ج) لما تعرض المسلمون بسبب مخالفتهم لما تعرضوا له من مصائب، نجمت بدايات النفاق في أهل الريب والشك وضعفاء الإيمان.

فظهر فيهم:

* مَنْ يَظُنُّونَ بِاللّٰهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظُلُمٌ الْجَاهِلِيَّةِ، وَيَقُولُونَ أَقْوَالًا تَتَنَافَىٰ مَعَ صَدَقِ الْإِيمَانِ .

* وَمَنْ قَالُوا: إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، إِذْ لَمْ يَعْمَلِ الرُّسُلُ بِرَأْيِنَا وَمَشُورَتِنَا الصَّائِبَةِ .

* وَمَنْ قَالُوا: لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، مَا قُتِلَ مِنْ قَبْلِ بَنِي هَٰذِهِمَا فِي مَعْرَكَةِ أُحُدٍ .

* * *

ثالثاً: كان من المنافقين الذين انخدلوا عن الرسول في بعض الطريق، والآخرين الذين لم يخرجوا مع الرسول ابتداءً، أنهم استغلوا ما حدث من قتل في المسلمين وهزيمة، فقالوا: لو كان إخواننا عندنا فلم يخرجوا إلى المعركة كما لم نخرج نحن ما قُتِلُوا . وقالوا: لو أطاعنا إخواننا فارتدوا معنا، أو لم يخرجوا ابتداءً ما قُتِلُوا .

العظمت:

من هذه الظواهر التي سجلها القرآن لحركة النفاق، وعالجها بالتربية الإيمانية الإسلامية، وتصحيح المفاهيم، تصحيحاً محاصراً من كل الجوانب بالبيان والإقناع القائم على الحجج والرجوع إلى الأسس الإيمانية، يتخذ المؤمنون عظمت يتعظون بها لحركات النفاق في كل عصر، ويتخذون تجاهها المواقف الإسلامية التي وعظهم الله عز وجل بها، وحذّروهم فيها من الانزلاق مع مؤمرات الكيد التي يكيدها المنافقون، وهم مخالفون مذاخلون .

● ● ●

مقدمة عامة

حول موجز غزوة الأحزاب

(١) كان يهود بني النضير قد أجلاهم الرسول ﷺ في شهر ربيع الأول سنة أربع للهجرة، عقاباً لهم على خيانتهم، ونقضهم للعهد، إذ دَبَرُوا مَؤَامَرَةً اغتيالَهُ صلوات الله عليه، لَمَّا قَدِمَ إِلَيْهِمْ مَعَ نَفَرٍ مِنْ كِبَارِ أَصْحَابِهِ، فِي شَأْنِ مِشَارَكَتِهِمْ فِي دِيَةِ قَتِيلَيْنِ مِنْ بَنِي عَامِرٍ، حَسَبَ بَنُوْدِ الْمَعَاهِدَةِ الْقَائِمَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ.

(٢) وَكَانَ قَدْ ارْتَحَلَ مَعْظَمُهُمْ إِلَى خَيْبَرَ، وَآخَرُونَ مِنْهُمْ إِلَى الشَّامِ، وَكَانَ قَائِدَهُمْ وَخَبِيرُهُمْ يَوْمَئِذٍ «حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبٍ».

(٣) اجتمع زعماء يهود «بني النضير» في خيبر، وقرروا تأليب العرب مع آخر قبيلة يهودية بقيت في المدينة، وهم «بنو قريظة» على المسلمين، وتجميعهم في جيش واحد، يكون قادراً على استئصال شأفتهم، وإبادتهم عن آخرهم.

(٤) فخرج عشرون من رؤساء اليهود وساداتهم، منهم نفرٌ من بني النضير، ومنهم نفرٌ من بني وائل.

فمن بني النضير: «سَلَامٌ بْنُ أَبِي الْحَقِيقِ»، وَحُيَيُّ بْنُ أَخْطَبٍ، وَكِنَانَةُ بْنُ الرَّبِيعِ».

ومن بني وائل: «هَوْذَةُ بْنُ قَيْسٍ»، وَأَبُو عَمَّارٍ.

فحرّضوا قريشاً على قتال المسلمين، وبيّنوا لهم خطّتهم في أن تجتمع كلمة قبائل مشركي العرب ويهود بني قريظة ضدّ المسلمين، وأن يضربوهم في المدينة ضربة واحدة، فاستجابت قريش لذلك.

(٥) ثُمَّ خَرَجَ الْوَفْدُ الْيَهُودِيَّ إِلَى قِبَائِلِ غَطَفَانَ، فَدَعَوْهُمْ إِلَى مِثْلِ مَا دَعَوْا إِلَيْهِ قَرِيشًا، فَاسْتَجَابُوا لَهُمْ طَمَعًا فِي الْغَنَائِمِ.

(٦) وَعَلَّمَ الرَّسُولُ ﷺ بَنِيَّاجْتِمَاعِ قَرِيشٍ وَمِنْ مَعَهَا، وَقِبَائِلَ غَطَفَانَ^(١) عَلَى حَرْبِ الْمُسْلِمِينَ، وَضَرَبَهُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ.

فَاسْتَشَارَ أَصْحَابَهُ، ثُمَّ قَرَّرَ خُطَّةَ الْإِعْتَصَامِ بِالْمَدِينَةِ، وَاتَّخَذَ مَوْقِفَ الدِّفَاعِ، وَقَبِلَ مَشُورَةَ «سُلَيْمَانَ الْفَارَسِيِّ» بِحُفْرِ الْخَنْدَقِ فِي الْجِهَةِ الْمَكْشُوفَةِ مِنَ الْمَدِينَةِ وَهِيَ الْجِهَةُ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يُذَاهِبَ مِنْهَا جَيْشُ الْغَدُوِّ.

(٧) وَقَامَ الْمُسْلِمُونَ بِحُفْرِ الْخَنْدَقِ قَبْلَ قُدُومِ جَيْشِ الْأَحْزَابِ، وَعَانَوْا بِذَلِكَ مَشَقَّةً كَبِيرَةً.

(٨) قَدِمَتْ كَتَائِبُ الْأَحْزَابِ، وَكَانَتْ كَمَا يَلِي:

(أ) «أَرْبَعَةُ آلَافٍ» مِنْ قَرِيشٍ وَمِنْ مَعَهَا.

(ب) «سِتَّةُ آلَافٍ» مِنْ قِبَائِلِ غَطَفَانَ.

وَنَزَلَتْ خَارِجَ الْمَدِينَةِ.

(٩) قَدِمَ «حُجَيُّ بْنُ أَخْطَبٍ» سَيِّدُ يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ، وَرَأْسُ تَدْبِيرِ الْمَكِيدَةِ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ، إِلَى سَيِّدِ يَهُودِ بَنِي قَرِيطَةَ «كُعْبُ بْنُ أَسَدٍ» فَمَا زَالَ يَحَاوِلُ إِقْنَاعَهُ بِوَسَائِلِهِ حَتَّى جَعَلَهُ يُوَافِقُ عَلَى نَقْضِ الْعَهْدِ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ، وَالِاشْتِرَاكِ فِي قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ مَعَ قِبَائِلِ الْعَرَبِ الْقَادِمَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَالْغَدْرِ بِالْمُسْلِمِينَ مِنْ وَرَاءِ ظُهُورِهِمْ.

وَاخْتَارَ «حُجَيُّ بْنُ أَخْطَبٍ» لِإِقْنَاعِ الْقُرَظِيِّينَ بِنَقْضِ عَهْدِهِمْ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ الْوَقْتَ الْمُنَاسِبَ الَّذِي يَشْعُرُونَ بِهِ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ أَمْسَوْا فِي مَوْقِفِ الضَّعْفِ، وَفِي شِدَّةٍ بِالْغَةِ مِنْ أَمْرِهِمْ.

(١) كَانَتْ مَنَازِلُهُمْ بِنَجْدٍ مِمَّا يَلِي وَادِيَ الْقَرْيِ، وَجَبَلِ طِيٍّ، وَيَرْجِعُ نَسَبُهُمْ إِلَى مَعْدَنَ بْنِ عَدْنَانَ، أَسْلَمُوا ثُمَّ ارْتَدَوْا بَعْدَ وَفَاةِ الرَّسُولِ ﷺ، فَحَارَبَهُمْ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، إِذْ بَعَثَ إِلَيْهِمْ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ، فَقَتَلَهُمْ شَرًّا قَتْلًا. كَانُوا يَعْبُدُونَ «الْعُزَّى» وَكَانَ لَهُمْ صَنْمٌ فِي مَشَارِفِ الشَّامِ يَحْجُونَ إِلَيْهِ، يُقَالُ لَهُ: «الْأَقْبَصَرُ». (معجم قبائل العرب).

(١٠) وعلم الرسول ﷺ بما فعل يهود بني قريظة من نقض لعهدهم، فاهتم للأمر، ولكنه تَوَكَّلَ على الله، وأظهر للمسلمين ثقته التامة بالله وينصره.

ففرَّق الله بين اليهود وأحزاب العرب، برجلٍ من غطفان، أسلم وجاء إلى رسول الله ﷺ، وهو «نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودِ بْنِ عَامِرِ الْأَشْجَعِيِّ».

فقال له الرسول: إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخُذْ لَنَا إِنْ اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ الْحَرْبَ خُذْعَةٌ.

فقام «نُعَيْمٌ» بحيلة محكمة فرق فيها بين الأحزاب.

(١١) حاصر جيش الأحزاب المسلمين من وراء الخندق، لأنهم لم يستطيعوا اختراقه، وتناوش الفريقان بالنبل، واقتحم بعض فرسان المشركين من مكان ضيقٍ من الخندق، فاثْبَرَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِعَمْرٍو بنو عبد ودّ، وكان من أقوى العرب وأشجعهم، فنصره الله عليه فقتله، ففرّ من كان قد اقتحم، وقفل رجاءً إلى جيش المشركين.

(١٢) وطال الحصار، حتى بلغ قرياً من شهر، من آخر شوال إلى أواخر ذي القعدة، ونزل بالمسلمين جوعٌ وخوفٌ وليالٍ باردات، وزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر من شدة الخوف، واثْبَلِي الْمُؤْمِنُونَ ابتلاءً عظيماً، وَزُلْزَلُوا زَلْزَالاً شديداً، فالدَّعَوْا أَمَامَهُمْ بجيشه الكبير المحاصر لهم، واليهود الذين نقضوا العهد من وراء ظهورهم يُعِدُّونَ الْعُدَّةَ لِخَرْبِهِمْ.

(١٣) ونجم نفاق المنافقين في صُورٍ متعدّدة، قبل وصول جيش الأحزاب، وبعد وصولهم ومحاصرتهم للمدينة.

وأخذت الظُّنُونُ والمقالات السَّيِّئَاتُ تدور في نفوس المنافقين وعلى ألسنتهم وفي نفوس الذين في قلوبهم مرض في أثناء الحصار.

فمن مواقف النفاق في هذه الحادثة المواقف التالية:

الموقف الأول: أخذ رجالٌ من المنافقين يَسْطَنُونَ في عملهم بحفر الخندق،

ويراؤون مُراءاةً، ويستترون بالعمل الهين الضعيف، ويتسللون إلى أهلهم بغير إعلام للرسول ولا استئذان منه.

الموقف الثاني: قولهم: ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً، وقال: «مُعْتَبُ بْنُ قُشَيْرٍ» وهو من المنافقين: كان مُحَمَّدٌ يَعِدُنَا أَنْ نَأْكُلَ كُنُوزَ كَسْرَى وَقِصْرَ، وَاحِدُنَا لَا يَقْدِرُ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْغَائِطِ.

الموقف الثالث: قول طائفة من المنافقين: يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا. قيل: إِنَّ قَاتِلَ ذَلِكَ هُوَ «أَوْسُ بْنُ قَبِيظٍ» وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْيِهِ مِنْ قَوْمِهِ.

الموقف الرابع: استئذان فريقٍ منهم النبي ﷺ بأن يرجعوا إلى المدينة، متعللين بأن بيوتهم عورة، أي: مكشوفة للعدو، وهي في الحقيقة ليست بعورة، إنما يريدون الفرار من المعركة.

فقال «أَوْسُ بْنُ قَبِيظٍ»: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ بَيُوتَنَا لِعَوْرَةٌ مِنَ الْعَدُوِّ - يَتَحَدَّثُ عَنْ بَيُوتِ مَلَأَ مِنْ رِجَالِ قَوْمِهِ - فَأَذُنْ لَنَا فَلْنَرْجِعَ إِلَى دَارِنَا، وَإِنَّهَا خَارِجَةٌ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ.

الموقف الخامس: تَخَلَّفَ فَرِيقٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَجَعَلُوا يَشْطُونَ إِخْوَانَهُمْ عَنِ الْخُرُوجِ لِمَوَاجَهَةِ الْأَحْزَابِ، وَيَقُولُونَ: «هَلُمُّ الْإِنَاءَ أَيُّ: إِلَى الْأَمْنِ وَالرَّاحَةِ وَالظَّلِّ وَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ.

وهذا الفريق ديدنهم التخلُّفُ عَنْ مَوَاقِعِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا يَأْتُونَ مَوَاطِنَ الْبَأْسِ إِلَّا قَلِيلاً، مَصَانَعَةً وَرِيَاءً، وَلَثَلَا يَنْكَشِفُ نَفَاقَهُمْ لَجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ.

(١٤) وَبَعْدَ شَقِّ الصَّفِّ الَّذِي صَنَعَهُ «نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ الْأَشْجَعِيُّ الْغُطَفَانِيُّ» بَيْنَ يَهُودِ بَنِي قَرِيبَةَ وَالْأَحْزَابِ الْقَادِمِينَ لِحَرْبِ الرَّسُولِ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ قِبَاثِلِ الْعَرَبِ، رَأَى الْعَرَبُ أَنَّ الْيَهُودَ قَدْ أَخْلَفُوهُمْ، وَطَالَ عَلَيْهِمُ الْحَصَارُ، وَكَادَتْ تَنْفُذُ مَوْثِقَهُمْ وَهَلَكَتْ جَمَالُهُمْ وَخُبُولُهُمْ.

وجاءتهم ليلة شديدة الريح والبرد، وجعلت الريح تقوِّضُ خيامهم، وتقلب قدورهم، وتطفئ نارهم، وَلَا تُقَرُّ لَهُمْ قَدْرًا وَلَا نَارًا وَلَا بِنَاءً، وَأَرْسَلَ اللَّهُ جُنْدًا غَيْرَ مَرْتِيَّةٍ، فَالْقَتَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ.

عندئذ رأى أبو سفيان قائد جيش قريش أن استمرار الحصار غير ذي فائدة والحالة هذه، وربما ازداد بهم الأمر سوءاً، فرآها المسلمون فرصة ينقضون بها عليهم.

فقام في القوم فقال:

«يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بذار مقام، لقد هلك الكراع والخف (أي: هلكت الخيل والإبل) وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الرياح ما نرؤن، ما نطمئن لنا بقدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتجلوا فإني مرنجل».

ثم قام إلى جملة وهو معقول، فجلس عليه، ثم ضربه، فوثب به على ثلاث، ولم يطلق عقله إلا وهو قائم.

وسمعت غطفان بما فعلت قريش، فشدوا رحالهم وانصرفوا إلى بلادهم.

(١٥) ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَرَئَيْلًا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ

وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب / ٢٣].



النص الثاني عشر

من سورة (الأحزاب / ٣٣ مصحف / ٩٠ نزول) رابع سورة مدنية

الآيات من (٩ - ٢٧)

حول مواقف المنافقين وظواهرهم السلوكية إبان غزوة الأحزاب

• قال الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَ نَكْمَ جُنُودٍ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلِذَا غَابَ الْأَبْصَرُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَلَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَرَضًا وَعَدْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَلَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَرْبِ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوَّهَا وَمَا تَلَبَّسُوا بِهَا إِلَّا بَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ أَنْ يُوَلِّوَهُمُ الْآخِزَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُلْ لَنْ نَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُنصَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّضِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلْمْ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ نَظَرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْنِقُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ جَدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ

عَلَى اللَّهِ سِيرًا ﴿١١﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَثْلُونَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٢﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا ﴿١٣﴾ وَلَمَّا مَأْتَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿١٤﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿١٥﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْثِهِمْ لَنَا وَبَخِّرَ كَلْبًا أَوْ تَوْبَ عَلَيْهِمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿١٧﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوا مِنْهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَّاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿١٨﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْغَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿١٩﴾



مَا فِي النَّصِّ مِنَ الْقَرَاءَاتِ الْمُتَوَاتِرَاتِ (من القرش)

(١) الآية (٩): قَرَأَ أَبُو عَمْرٍو: [وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرًا] بَاءُ الْغِيَةِ، وَبَاقِي الْقَرَاءَ [بِمَا تَعْمَلُونَ] بَاءُ الْخُطَابِ، فَفِي الْقَرَاءَتَيْنِ تَكَامُلٌ فِكْرِي، فَالْتِمِيزُ بِنَاءِ الْخُطَابِ تَبَيَّنَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ هُمْ، وَالتَّيْبِ بِنَاءِ الْخُطَابِ تَبَيَّنَ أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُ الْجُنُودُ الَّذِينَ جَاءُوا هُمْ.

(٢) الآية (١٠): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَنْظُرُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ اثْبَتَ الْف (الظُنُونَا) مُطْلَقًا الْمَدِينَانِ وَالشَّامِي وَشُعْبَةُ. وَحَذَفَ هَذِهِ الْآلِفَ مُطْلَقًا حَمْزَةً وَأَبُو عَمْرٍو وَيَعْقُوبُ. وَحَذَفَهَا وَصْلًا وَاثْبَتَهَا وَقَفًا ابْنُ كَثِيرٍ، وَالْكَسَائِيُّ وَحُفْصٌ وَخَلْفٌ فِي اخْتِيَارِهِ. وَهِيَ وَجْهٌ مِنَ الْأَدَاءِ جَائِزَةٌ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ.

(٣) الآية (١٣): قَرَأَ حُفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ [لَا مُقَامَ لَكُمْ] أَي: لَا إِقَامَةَ لَكُمْ مُصَدَّرٌ مِمِّي مِنْ أَقَامَ.

وقرأ باقي القراء: [لَا مَقَامَ لَكُمْ] أي: ليس لكم هنا مكان قيام، اسم مكان من قام. ففي القراءتين تكامل فكري، أي: ليس لكم إقامة ولا مكان قيام.

(٤) الآية (١٤): قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير [لَا تُنْهَوْنَ] أي: لجاؤوا إليها.

وقرأ باقي القراء العشرة [لَا تُنْهَوْنَ] بمدّ الهمزة، أي: لأعطوها، ففي القراءتين تكامل في الأداء البياني، أي: لأنوا الفتنة فدخلوا في غمرتها، ولأعطوها من أنفسهم بالارتداد عن الإسلام وإعلان الكفر.



(١)

المفردات اللغوية في النص

﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾:

أي: من قبل نجد، وموقعها الجغرافي موقع علو بالنسبة إلى المدينة.

﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾:

أي: من مكة، وموقعها الجغرافي منخفض بالنسبة إلى المدينة.

﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾:

أي: وإذا مالت عن سوائها ومُستوى نظرها، ويكون من الخوف، ومن الحيرة، ومن عوامل أخرى في النفس.

وأصل الزينغ في اللغة الميل والبعد، يقال: زاغت الشمس إذا مالت إلى الغروب، وزاغ السالك عن الطريق إذا عدل عنه، ذات اليمين أو ذات الشمال. وزاغ الفكر إذا عدل عن الصواب، وزاغ القلب إذا مال عن الحق والهدى، إلى الضلالة والرذى.

زاغ يزىغ: أي: مال. ويُقال زاغ عنه، أي: مال وغدَل عنه.

﴿الْحَنَاجِرَ﴾:

جمع «خَنْجَرَةً» وهي الْحَلْقُوم، ومَجْرَى النَّفْسِ فِي الرِّقْبَةِ. وَيُقَالُ لِلْخَنْجَرَةِ الْخَنْجُورُ أَيْضاً.

﴿أَبْتَلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ :

أي: اُمْتَحَنَ إِيْمَانُ الْمُؤْمِنِينَ اِمْتِحَانًا شَدِيدًا، بِدَلِيلِ وَصْفِ زَلْزَلَتِهِمْ بِأَنَّهَا زَلْزَلَةٌ شَدِيدَةٌ.

﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ :

الزَّلْزَلَةُ: الهَزُّ وَالتَّحْرِيكُ بِشَدَّةٍ، تَقُولُ لُغَةً: زَلْزَلَهُ زَلْزَلَةً وَزَلْزَلَا، إِذَا هَزَّهُ وَخَرَّكَهُ حَرَكَةً شَدِيدَةً.

وَالْمَعْنَى: خَرَّكُوا بِالْاِمْتِحَانِ تَحْرِيكًا شَدِيدًا وَاصِلًا إِلَى الْأَعْمَاقِ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ فِي أَعْمَاقِهِ إِيْمَانٌ رَاسِخٌ أَصَابَهُ الْأَضْرَابُ وَالْقَلَقُ وَالْخَوْفُ وَالضُّجُرُ، وَظَهَرَتْ مِنْهُ تَصَرُّفَاتٌ تَكْشِفُ سَرَائِرَ نَفْسِهِ وَقَلْبِهِ، أَمَّا صَادِقُ الْإِيْمَانِ وَثَابَتُهُ فَتَزِيدُ الزَّلْزَلَةَ إِيْمَانَهُ رُسُوخًا وَعَمَقًا وَاسْتِقْرَارًا.

﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ :

الغُرُورُ: مُصْدَرُ غَرَّهْ يَغُرُّهُ، أَي: خَدَعَهُ وَأَطْمَعَهُ بِالْبَاطِلِ. وَسَبَقَ فِي النَّصِّ (٥) مِنْ سُورَةِ الْأَنْفَالِ.

﴿يَقُولُونَ إِنَّا يَوْمًا عَوْرَةٌ﴾ :

الْبَيْتُ الْعَوْرَةُ هُوَ كُلُّ بَيْتٍ فِيهِ خَلَّلٌ أَوْ هُوَ بَعِيدٌ عَنِ الْحِمَايَةِ وَيُخْشَى دُخُولَ الْعَدُوِّ إِلَيْهِ، أَوْ دُخُولَهُ مِنْهُ إِلَى مَا يَرُومُ.

وَالْعَوْرَةُ: الْخَلَّلُ وَالْعَيْبُ فِي الشَّيْءِ - وَكُلُّ مَا يَسْتُرُهُ الْإِنْسَانُ اسْتِكَافًا أَوْ حِيَاءً - وَمَا يَجِبُ سِتْرُهُ شَرْعًا.

﴿مَنْ أَقْطَرُهَا﴾ :

جَمْعُ «قَطَرٍ» وَالْقَطَرُ: النَّاحِيَةُ، فَمَعْنَى «مَنْ أَقْطَرُهَا» مَنْ نَوَاحِيهَا كُلُّهَا، أَي: دَخَلَ عَلَيْهِمْ جَيْشُ الْعَدُوِّ مِنْ كُلِّ نَوَاحِي الْمَدِينَةِ فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ مَهْرَبٌ وَلَا مَفَرٌ.

﴿ثُمَّ سِيلُوا الْقِتْنَةَ﴾:

المراد هنا من الفتنة الخروج من الدين، والارتداد عنه، وإعلان الكفر، وفق طلب الكفار المهاجمين بقوتهم وأسلحتهم.

﴿لَا تَوَهَا﴾: بالمد والمصدر إيتاء، وفي القراءة الأخرى: «لَا تَوَهَا» والمصدر إتيان:

أي: لجأوا إلى الفتنة فكفروا بالدين، ولم يثبتوا على إسلامهم طلباً للسلامة والأمن، ولأعطوا الكافرين ما يبتغون منهم من فتنة، أي: من كفر.

﴿وَمَا تَلَبَّثُوا﴾:

أي: وما توقفوا وما أقاموا، يُقال: تَلَبَّثَ بالمكان، إذا توقف وأقام.

﴿يَعْصِمُكُمْ﴾:

أي: يحفظكم ويقيكم ويمنعكم. يقال لغة: عَصَمَ الشيء إذا منعه وحفظه ودفع عنه.

﴿وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾:

الولي: الذي يتولى رعاية كل شؤن من هو تحت ولايته، ومنها الحماية والنصرة، أما النصير فهو المناصر بقوة وصدق وإخلاص، ولودون ولاية شاملة.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ﴾:

التعويق: هو الشبيط عن فعل الخير، والحبس والصرف عنه بالقول أو بالفعل.

يقال لغة: غَاقَهُ عن الشيء يَعُوْقُهُ عَوْقًا، وعَوْقُهُ يَعُوْقُهُ عن الشيء تعويقًا، إذا منعه منه، وشغله عنه. فهو غَائِقٌ، ومُعَوِّقٌ.

﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾:

هَلُمَّ: اسم فعل بمعنى تعالوا، تستعمل هكذا في لغة الحجازيين بلفظ واحد للمذكر والمؤنث، المفرد والمثنى والجمع، وهو الأفتح، وتستعمل في لغة بني تميم وأهل نجد بالحقاء علامات التثنية والجمع والتأنيث، فيقال فيها: هَلُمَّا، وهَلُمُّوا، وهَلُمِّي، وهَلُمَّيْنِ.

﴿الْبَاسَ﴾ :

يطلق على الحرب، وهو المراد هنا، ويُطلق على الشدة في الحرب، وعلى العذاب الشديد، وعلى الخوف، ويصلح هذا المعنى أيضاً في هذا النص.

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ :

أشِحَّة: جمع شحيح، وهو البخيل الشديد البخل، ويجمع أيضاً على «شحيح» و«أشِحَاء».

﴿سَلَفَوْكُمْ بِاللَّيْنَةِ جِدَادٍ﴾ :

السَّلَفُ: في اللغة هو الصَّيَاح وبُذَّة الصوت، ويقال: سلقه بالكلام سَلْقاً إذا آذاه بكلامه الشديد العنيف، وأسمعه منه ما يكره فأكثر عليه، وبألغ في مخاصمته.

جِدَاد: أي: قوّة جارحة للنفوس، كالسيوف المحدّدة المسنونة القواطع للأجسام.

﴿فَلَحَبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ﴾ :

أي: أبطلها. يُقَالُ لغة: حَبَطَ عَمَلُهُ يَحْبُطُ حَبْطاً، وَحَبُوطاً، إذا بطل. وَأَخْبَطَ اللَّهُ عَمَلَهُ يُخْبِطُهُ إذا أبطله، فَلَمْ يَكُنْ له أثر.

﴿يَوَدُّوْا﴾ :

أي: يتمنّون، فالمراد من الودّ هنا التمني.

﴿بَادُوْكَ فِي الْأَعْرَابِ﴾ :

البادي: اسم فاعل من: بَدَا يَبْدُو بَدَواً وَبَدَاوَةً إذا خرج إلى البادية، فهو بادٍ، ويقال: بدا إلى البادية، وأقام بالبادية، فهو بادٍ، البادية قضاء واسع فيه المرعى والماء.

﴿أُسْوَةٌ﴾ :

أي: قُدْوَةٌ يُقْتَدَى به. يُقَالُ: أَسَا يَأْسُو فلاناً بفلانٍ إذا جعله يَأْتَسِي به. وَيُقَالُ: اتَّسَى به، إذا اتَّخَذَهُ أُسْوَةً وَاقْتَدَى به.

﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ :

النَّحْبُ: يأتي في اللغة لعنة معانٍ، منها: الحاجة - والمدة والأجل - والنذر والمهد.

وهذه المعاني الثلاثة كلها تصلح هنا في هذا النص، كما سيأتي بيانه إن شاء الله في التدبر.

﴿مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ :

أي: من حُصُونِهِمْ وَأَطْيَابِهِمْ، واحداها صِيَصَة، يقال للحصن: صِيَصَة، وجمعها صَيَاص.

(٢)

سبب النزول

من الواضح في هذا النص أنَّ سبب نزوله غزوة الأحزاب، التي تُسَمَّى أيضاً بغزوة الخندق. وعلى هذا أئمة أهل التفسير من السلف فمن بعدهم.

(٣)

مع النص في التحليل والتدبر

• قول الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَ تَكُمْ جُنُودٌ ءَارِسْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝١﴾ .

وفي قراءة أبي عمرو: [وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرًا].

عرضت هذه الآية من هذا النص نتيجة غزوة الخندق قبل ذكر أي حدث من أحداثها، مقرونة بالبده بالتذكير بنعمة الله على الذين آمنوا، إذ دفع الله عنهم جيش

عدوهم بالريح، ويجنود غير منظورة، والظاهر أن هذه الجنود من الملائكة، وكان عملهم إلقاء الرعب والخوف في قلوب المشركين.

﴿يَكَايُهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾:

نداء من الله للمؤمنين الذين كانوا مع الرسول ﷺ في غزوة الأحزاب، فهم المقصودون أولاً وبالذات، ويشمل هذا النداء كل مؤمن من بعدهم، باعتبار أن نعمة الله على المؤمنين في هذه الموقعة وما تضمنته من عظات، قد شملت كل المؤمنين حتى قيام الساعة، إذ هي نعمة جرت للمؤمنين خيراً عظيماً ينعمون بثمراته، ويستفدون من عظاته إلى أن تقوم الساعة.

﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾:

أي: ردّدوا في تذكركم هذه النعمة من حين لآخر، ولا سيما عند المناسبات الداعيات لتذكرها، للاستفادة من عظاتها، وأنت خير أن التذكر انفعليّ يجلبه غالباً المحافظة على تكرار الذكر باللسان، وبهذا نستطيع أن نفهم أن النص يدعو الذين آمنوا أن يذكروا بالستهم من حين لآخر أحداث غزوة الأحزاب، ليجدّدوا في أذهانهم تذكّرها، بغية الاستفادة من عظاتها، وأن على الدعاة منهم أن يذكروا جماهير المؤمنين بها.

هذا التوجيه يُقاس عليه أشباهه ونظائره، فتجديد ذكر أحداث غزوات الرسول ﷺ مما يحث القرآن عليه، وكذلك سائر النظائر للاستفادة من عبر التاريخ.

﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾:

أي: جنود كثيرة بالنسبة إلى جنودكم، وهم جنود الأحزاب «قريش، وغطفان، ومن معهم».

والمعنى: اذكروا نعمة الله التي أنعم بها عليكم في الزمن الذي جرت فيه أحداث غزوة الأحزاب إذ جاءكم...

﴿فَازْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾:

أي: ريحاً شديدةً شاهدتموها، فجعلتْ تَفَوَّضُ خيامهم، وتُكَفُّ قُدُورهم، وتَقْطَعُ حبالهم، فلا يقرّ لهم قرار.

﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾:

أي: وجنوداً خفيةً من الملائكة، وكانت وظيفة هذه الجنود من الملائكة أن يقدفوا الرُّعْبَ في قلوب الأحزاب.

وطوى النص هنا بيان ما فعلته الريح والجنود من الملائكة بجنود الأحزاب من إلقاء الرعب في قلوبهم، وحملهم على الانصراف والارتداد على أعقابهم خائبين، اعتماداً على ما يدركه الذهن بالزُّوم العقلي، لأنَّ المربيل للريح والجنود هو الله عز وجل، فلا بد أن يكون ذلك راداً عن المؤمنين به وبرسوله بأس عدوهم، واعتماداً على ما جاء بعد ذلك في البيان التفصيلي.

﴿وَكَانَ اللَّهُ يَمَامَةً بَصِيرًا﴾:

وفي القراءة الأخرى: [يَعْمَلُونَ]: أي: ومن صفات الله الدائمة أنه سبحانه وتعالى بصير بما يعمل عباده جميعاً، مؤمنوهم وكافروهم.

وتكاملت قراءتا [تَعْمَلُونَ] و[يَعْمَلُونَ] في بيان المعنى الشامل، وفي الأداء البياني، ممّا يحققه خطاب المؤمنين من أغراض بيانية وفكرية، وممّا يحققه الحديث عن جنود الأحزاب بالغيبة من أغراض بيانية وفكرية أيضاً.

أي: إنّ الله عز وجل مطلع دوماً على جميع أعمالكم الظاهرة والباطنة، فهو يعلم من كان منكم ثابتاً صادقاً متوكلاً على ربه، واثقاً بوعده ووعد رسوله صابراً محتسباً، ويعلم من كان مُرتجفاً خائفاً، ومن كان متزلزلاً مضطرباً، ومن كانت الظنون تتلاعب بقلبه ونفسه.

ونلاحظ في هذه الآية أنها اشتملت على موجزٍ مختزلٍ لغزوة الأحزاب، أمّا أهم تفصيلات أحداثها، ممّا يتضمّن عِظَاتٍ وأغراضاً تربوية، فقد جاء بيانه في سائر آيات النص.

• قول الله عز وجل:

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ۚ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ١١﴾
﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾:

أي: اذكروا نعمة الله التي أنعم بها عليكم في الزمن الذي جرت فيه أحداث غزوة الأحزاب، إذ جاءتكم جنود كثيرة بالنسبة إليكم من فوقكم، أي: من قبل نجد، فموقعها الجغرافي موقع علو بالنسبة إلى المدينة، والجنود الآتون من قبل نجد هم قبائل غطفان (بنو فزارة، وبنو مرة، وبنو أشجع، وبنو أسد، ومن تابعهم من أهل نجد).

﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾:

أي: من مكة، وموقعها الجغرافي موقع منخفض بالنسبة إلى المدينة، والجنود الآتون من جهة مكة هم: «قريش، وأحايشهم، ومن تابعهم من بني كنانة، وأهل تهامة، بقيادة أبي سفيان».

وقد أقاموا الحصار وراء الخندق، واشتد الأمر على المسلمين شدة عظيمة.

﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾:

أي: واذكروا الحالة التي وصلت إليها من الشدة حينئذ، إذ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ من الجوع والخوف، فصارت تميل عن سوائها، لما في النفس من حاجة واضطراب. وإذ بلغت القلوب الحناجر من شدة الخوف، أي: صرتم تشعرُونَ بانقباضها وانسماها من مواطنها، إلى الحناجر من شدة الخوف الذي نزل بكم.

ومع ما في قوله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ من تعبير أدبي رفيع في وصف حالتهم، ويبدو فيه أن المبالغة أحد عناصره الكبرى، فهو تعبير مطابق لمشاعرهم بصديقي فتي كامل، إذ هو يكشف حالة مشاعر أنفسهم بصدق. إن الخائف الذي يَمَسُّهُ الدُّعْر الشديد يشعر بأن قلبه قد انشمر منقبضاً إلى حنجرتة فيكاد يختنق، مع أن القلب لم يبرح مكانه من الصدر.

﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ :

أي: وتظنون بالله الظنون المختلفة، فمنكم صادق الإيمان يظن بالله أنه سينصرُ رسوله والمؤمنين معه، ويردُّ كيد أعدائهم في نحورهم، ومنكم من يظنُّ غير ذلك من ضعفاء الإيمان ظنوناً دون ذلك فيها ارتيابٌ وتشكُّكٌ.

وشرَّ هذه الظنون ظنون المنافقين الذين قال قائلهم وهو «معتب بن قُشير»: كان محمدٌ يبعثنا أن نأكل كُنُوزَ كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط.

حتى حاول بعض المنافقين الفرار من موقعه، متظاهراً بالاستئذان الذي يتعلَّل له بما يبرِّره بحسب الظاهر، وهو في الحقيقة كاذب، فقال «أوس بن قيثي»، عن ملاٍّ من رجال قومه: يا رسول الله، إنَّ بيوتنا لعورةٌ من العدو، فأذنْ لنا فلنرجع إلى ديارنا، وإنَّها خارجةٌ من المدينة.

وما كان يمنع المنافقين من التخلِّي والفرار من مواقع الترقُّب للقتال إلَّا خوف نقمة الرسول والمؤمنين من قومهم. إذا انتهت أحداث الغزوة.

﴿هَٰذَا لَكِ آيَاتُ الْمُؤْمِنِينَ وَزَلْزَلُوا زَلْزَالًا مَّبْدِيًّا﴾ :

أي: هُناك في ذلك الموقع الذي كان فيه المسلمون مُحاصرين، داخل المدينة من قبل أحزاب العرب، امتُحن المؤمنون ومن معهم من مدَّعي الإيمان امتحاناً قاسياً، وزلزلوا زلزالاً شديداً، على غريبال التجربة العنيفة المرَّة، فنُخلُّوا بها نخلًا، ظهر فيه من كان قويَّ الإيمان صادق اليقين، ومن كان دون ذلك، ومن كان في قلبه مرض. وسقط في الامتحان من ظهر نفاقه بقوله أو بعمله، وكذلك الأحداث الشديدة على النفوس، والتي فيها متاعب وآلام، وجوع مُعض، وخوف هالِع، هُنَّ كواشف ما في القلوب والنفوس، ومُنحصات.

ومن شأن الزلزلة التي هي حركة عنيفة أن تجمع الأشياء والنظائر إلى بعضها ضمن الخليط، فإذا كانت على الغرايب أسقطت ما لا تمسكه، وطيرت مع الريح ما لا وزن له.

بيان مواقف المنافقين في غزوة الأحزاب

* قول الله عز وجل:

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۝﴾

هذه المقالة إحدى ظواهر النفاق التي ظهرت من المنافقين في غزوة الأحزاب، وذكرها القرآن في هذا النص.

وهي مقالة قالها المنافقون، لأنهم في باطن أمرهم كافرون بالله ورسوله، ويطرحونها لتشكيك المؤمنين بدينهم وبرسولهم.

وردد هذه المقالة ضعفاء الإيمان، وأهل الريب والشك، وأهل الطيش الذين لا بصير لهم بالأمور، ولا روية عندهم ولا صبر، وجاء التعبير عنهم بأنهم الذين في قلوبهم مرض.

روى الطبري عن قتادة أن ناساً من المنافقين قالوا في غزوة الأحزاب: قد كان محمد يبعدنا فتح فارس والروم، وقد حصرنا ههنا، حتى ما يستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته، ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً.

وفي رواية ابن إسحاق، أن هذه الكلمة الكبيرة: «ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً» كلمة قالها «مُعْتَب بن قُشَيْر» يوم الخندق.

وروى الطبري أيضاً عن ابن زيد، قال: قال رجل يوم الأحزاب لرجل من أصحاب الرسول ﷺ: يا فلان، أرايت إذ يقول رسول الله: «إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كِشْرَى فلا كِشْرَى بعده، والذي نفسي بيده لتتفقن كنوزهما في سبيل الله» فأين هذا من هذا وأحدنا لا يستطيع أن يخرج يبول من الخوف؟ ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً.

فقال له: كذبت، لاخبرن رسول الله ﷺ خبرك.

قال: فأتى رسول الله ﷺ فأخبره فدعاه، فقال: «ما قلت؟» فقال: كذب علي يا رسول الله، ما قلت شيئاً، ما خرج هذا من فمي قط.

وَدَلَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ...﴾ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْمَقُولَةَ رَدَّدَهَا الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، وَلَمْ تَكُنْ مَجْرَدَ مَقُولَةٍ قَالَهَا وَاحِدٌ مِنْهُمْ، فَصِيغَةُ الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ تَدُلُّ عَلَى التَّكْرِيرِ وَالتَّجَدُّدِ، وَلَا سِيَّمَا أَنَّ النَّصَّ يَخْبِرُ عَنْ حَدَثٍ مَضَى.

* قول الله عز وجل:

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾:

يَثْرِبُ: قال الطبري: اسم أرض يقال: إِنَّ مَدِينَةَ الرَّسُولِ ﷺ فِي نَاحِيَةِ تَعَمُّ مِنْهَا.

وَفِي لِسَانِ الْعَرَبِ: يَثْرِبُ: مَدِينَةُ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَرَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ نَهَى أَنْ يُقَالَ لِلْمَدِينَةِ: يَثْرِبُ، وَسَمَّاها طَيِّبَةً، كَأَنَّهُ كَرِهَ الشَّرْبَ، لِأَنَّهُ فَسَادٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ. قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ: يَثْرِبُ: اسْمُ مَدِينَةِ النَّبِيِّ ﷺ قَدِيمًا، فَغَيَّرَهَا وَسَمَّاها طَيِّبَةً وَطَابَةً، كَرَاهِيَةَ الشَّرْبِ، وَهُوَ اللَّوْمُ وَالتَّعْيِيرُ.

مَقَامٌ: فِيهَا قَرَاءَتَانِ: بِفَتْحِ الْمِيمِ، أَيْ: لَا مَكَانَ إِقَامَةٍ لَكُمْ هُنَا عِنْدَ الْخَنْدَقِ. وَبِضْمِ الْمِيمِ، أَيْ: لَا إِقَامَةَ لَكُمْ هُنَا.

وَفِي قَوْلِ طَائِفَةٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ: [لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا] دَعْوَةٌ لِلتَّخَلُّفِ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ مَعَهُ، وَهِيَ تَعْبِيرٌ عَمَّا يَكُنُهُ قَائِلُوهَا مِنْ نِفَاقٍ وَعَدَمِ إِيْمَانٍ، وَفِيهَا إِعْرَابٌ عَمَّا تَكُنُهُ صُدُورُهُمْ مِنْ عَدَمِ اعْتِرَافٍ بِالْإِسْلَامِ الَّذِي سَعَى الرَّسُولُ بِهِ الْمَدِينَةَ، إِذْ انْطَلَقَتْ أَلْسِنُهُمْ بِقَصْدٍ أَوْ بَدُونِ قَصْدٍ بِالْإِسْمِ الْجَاهِلِيِّ الَّذِي نَهَى الرَّسُولُ ﷺ عَنْهُ، وَلَفْظَاتُ أَلْسَانِ دَلَالَاتٍ.

* قول الله عز وجل:

﴿وَيَسْتَشِذْنَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا

فِرَارًا﴾ (١٣).

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ أَصْحَابَ هَذَا الْاِسْتِثْذَانِ هُمْ بَنُو حَارِثَةَ، وَقَدْ اسْتَأْذَنُوا فِي أَنْ

يتركوا مواقعهم في الغزوة، وينصرفوا إلى بيوتهم.

﴿إِنْ يَوْتِنَا عَوْزٌ﴾ :

العورة الخلل في الشيء، فهو بذلك عرضةً للسلب والنهب والسرقة ونحو ذلك. يقولون: [إِنْ يَوْتِنَا عَوْزٌ] أي: لَبَسَتْ محروسة ولا محصنة، فهي عرضة لأن يتسلل إليها العدو، فيسطو عليها ويسرق ما فيها، أو يُداهمنا من قبلها.

ولكنها في الحقيقة ليست كما قالوا. وقد بين الله كذبهم في مقاتلتهم، وغرضهم الحقيقي من استئذانهم المعلل بمقاتلتهم الكاذبة، فقال تعالى:

﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ (١٧).

ورَدَّ أَنَّ الرسول ﷺ بعث من كشف له الحقيقة، فبيوتهم ليست بعورة كما زعموا.

إنهم ما يريدون باستئذانهم إِلَّا فِرَاراً من مواجهة العدو، وهروباً من موقع المراقبة، لأنهم منافقون، ولا يؤمنون بجدوى ما يفعلون، لكنهم بعد تظاهروهم بالإسلام لا يستطيعون إِلَّا المصانعة والمخادعة والمراوغة والتستر بالكاذب والتعللات الباطلات.

* قول الله عز وجل:

﴿وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْنَهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ (١٨):

﴿وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ :

أي: ولو دخل جيش المشركين المدينة، وهجموا عليهم من جميع نواحيها، فداهموهم وهم في بيوتهم.

﴿ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ﴾ :

أي: ثُمَّ بعد ذلك طلب منهم المشركون أن يكفروا بالإسلام، ويعودوا إلى

الوثنية والشرك، وهذه هي الفتنة في الدين، أو طلبوا منهم تسليم الرسول والمؤمنين لفعّلوا.

﴿لَا تَوَهَا﴾ فيها قراءتان بهمزة واحدة من «أتى» وبالمدة من «أتى»:

أي: لا أتوا الفتنة التي طُلِبَتْ منهم فكفروا، ولم يثبتوا على إسلامهم الذي يتظاهرون به، طالين السلامة والأمن، فهم إما منافق أو في قلبه مرض دون النفاق.

أو [لا تَوَهَا] كما جاء في القراءة الأخرى، والمعنى: لأعظروها.

فتكاملت القراءتان فكرياً وأداءً بيانياً، أي: لا أتوا إلى مواقع الكفر بأجسادهم وأنفسهم، ولأعظروا ما يُطلب منهم من كفر، ومن لوازمه القولية والعملية، ولاستجابوا للكافرين، وأعلنوا ردّتهم عن الإسلام، ولسلموهم أهل الإيمان الصادق.

إنهم بعد أن كشف الله عزّ وجلّ كذبهم في ادّعائهم أنّ بيوتهم عورة، وأبان حقيقة غرضهم من الاستئذان في الذهاب إلى بيوتهم، وأنهم ما أرادوا إلاّ الفرار من مواجهة العدو، جنباً وعدم إيمان بمشاركتهم للمسلمين في أعمال الجهاد قال الله بشأنهم:

﴿وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَا تَوَهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ (١٢).

ولكنّ الله عزّ وجلّ أنذرهم بأنهم لو دخلوا في الفتنة طلباً للأمن، فكفروا وارتدوا عن الإسلام، لعاجلهم الله بالعقاب، فما استطاعوا أن يتلبّثوا إلاّ زمناً يسيراً في بيوتهم، أو في المدينة وفي الأمن الذي ظنّوا أنّ الفتنة في دينهم تحقّقه لهم، فقال تعالى:

﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ (١٢).

أي: وما بقوا في بيوتهم في المدينة إلاّ زمناً يسيراً، لو حصل منهم ما ذكر سابقاً، لأنّ الله سيمنّ المؤمنين منهم حينئذٍ، فيقتلونهم، أو يلجئونهم إلى الفرار أو الجلاء عن المدينة، حتى يكونوا مطاردين مشرّدين في الأرض.

واستمرّ النصّ القرآنيّ يتحدث عنهم وهو معرض عن مخاطبتهم، فذكر أنهم

كانوا قد عاهدوا الله من قبل، إذ خلفوا أن يشتبوا في المواقع مع الرسول والمؤمنين، وأن لا يولّوا الأدبار، والمفروض في المسلم أن يحافظ على عهده، وذلك في البيان التالي:

• قول الله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدِّبْرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ۝١٧﴾:

أي: وكان عهدُ الله مسؤولاً عنه، فمن نقض عهد الله جعل نفسه تحت طائلة العقوبة الربانية.

رُوي أن هذا النصّ نزل في بني حارثة، إحدى الطائفتين اللتين همّتا في غزوة أُخذ بأنّ تفشلا، وهما «بنو سلمة وبنو حارثة» فنزل بشأنهم ما نزل من قرآن يومئذٍ، فعاهدوا الله أن يشتبوا ولا يولّوا الأدبار بعد ذلك.

لكنّ بني حارثة كان منهم ما كان من أصحاب الاستئذان المعلنّ بالكذب في غزوة الأحزاب، وهو يدلّ في أقلّ الأحوال على مرضٍ في قلوبهم، دون النفاق، وهو الأرجح، لذلك ذكرهم الله بعهدهم، وهذّدهم تهديداً ضمّنيّاً بقوله: ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾.

واستمرّ النصّ معرضاً عن مواجهتهم بالخطاب، تربيةً لهم، إلا أنه خفف من ثقل الإعراض، بتكليف الرسول ﷺ أن ينقل لهم مقولة إقناعية، تتصل بفضيلة أساسية من قضايا الإيمان، ولعلّ مرض قلوبهم فيها هو المؤثر في الظواهر السلوكية التي تكرر ظهورها منهم، فجاء في البيان التالي:

• قول الله عز وجل:

﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٨﴾

قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمةً ولا يحيدون لهم من دون الله وئياً ولا نصيراً ﴿١٧﴾.

هذه المقولة الإقناعية التي كلف الله رسوله أن ينقلها إليهم على لسانه، شارحاً لمضمونها، ومبيناً له، تتضمن إشعاراً بأن الله معرض عنهم، لأن الذنب قد تكرر منهم.

ففي غزوة أحد كانت مخاطبتهم فيها رقة وتلطف بالعتاب، باعتبار أن ما كان منهم في أحد قد كان ذنباً أولياً في تجربة أولى من تجارب القتال بالنسبة إليهم فقال الله تعالى في ذلك خطاباً لجميع المؤمنين في سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول):

﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

لكن لما تكرر الأمر من بني حارثة في غزوة الأحزاب، اقتضت الحكمة التربوية التشديد في الأسلوب التربوي.

فارتفع من أسلوب التلطف إلى أسلوب الإعراض، فالتنبيه المشدد على قضية أساسية من قضايا الإيمان التي لو كانت سليمة لديهم ما تكرررت منهم ظاهرة الفرار الجماعي من الزحف.

إن ظاهرة الفرار من مواجهة العدو حين تدعو الضرورة إلى هذه المواجهة ترجع إلى الخوف من الموت، والحرص على الحياة، وكلا الأمرين ينموان في الأنفس - مع وجود موجبات التضحية والاستبسال في القتال - بمقدار تناقص الإيمان بقضاء الله وقدره، وتناقص الإيمان بأن الحياة والموت خاضعان خضوعاً كاملاً لسلطان الله وإذنه، وبمقدار الغفلة عن ملاحظة عقوبة الله التي قد ينزلها الله بالذين يؤلون الأدبار عند واجب الزحف لقتال العدو.

لذلك جاء تنبيههم على هذه الحقيقة من الحقائق الإيمانية.

فالفرار من الموت باتخاذ الوسائل المادية للحماية منه، وكذلك الفرار من القتل للحماية من الموت ولدفعه، لن ينفعهم شيئاً في دفع الموت أو القتل عنهم، إذا كان أمراً مقضياً بقضاء الله.

فإن فروا من القتل بتجنب مواقع القتال، ظانين أن ذلك يحميهم من الموت،

فإنَّهم لن يتمتعوا بالحياة إلَّا قليلاً، إذ سيأتيهم الموت حسب آجالهم المقررة في قضاء الله وقدره.

ثم إنَّ فرارهم في المواطن التي لا يجوز لهم فيها أن يفرّوا يجعلهم عصاة، وهذا يعرضهم لعقاب الله ونقمته، فإذا أراد الله بهم سوءاً عقاباً لهم على فرارهم، فمن ذا الذي يعصمهم من الله؟

إنَّهم عندئذٍ لا يجدون لهم من دون الله ولياً يتولّاهم، ولا نصيراً ينصرهم.

ومع ذلك فقد ترفّق النّصّ بهم، ففتح لهم نافذة إلى رحمة الله إذا تابوا واستغفروا، نلاحظ ذلك في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ زَحْمَةً﴾ ضمن نصّ الإنذار الشديد، فقبله: ﴿قُلْ: مَنْ يَعْصِيكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً﴾ ويَعْذَرُهُ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴾.

إنَّ نافذة الرحمة هذه مرتبطة بكلام مطوّي، يمكن تقديره على الوجه التالي:

قُلْ: مَنْ ذا الذي يعصمكم من الله إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً، أو من ذا الذي يمنع عنكم رحمة الله إذا تبتم واستغفرتم وأراد بكم رحمة.

وأقبلت النافذة، واستمرّ النّصّ يتمّ موضوع الإنذار فقال تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴾ معرضاً عنهم، وموجهاً الخطاب لغيرهم.

وهنا انتهى المقصود بيانه حول حادثة استئذان الفريق الذين كانوا في غزوة الأحزاب يستأذنون الرسول في ترك مواقعهم حيث هم مرابطون، متعلّين بأنَّ بيوتهم عورة.

وانتقل النّصّ إلى بيان الظاهرة الرابعة من أعمال المنافقين في هذه الغزوة.

• قول الله عزّ وجلّ:

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً﴾.

هذه الظاهرة الرابعة من أعمال المنافقين، وهي ظاهرة التخلف والتبسط عن مشاركة المؤمنين في مواقع القتال.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ﴾:

قد: لتحقيق وتأكيد حصول العلم، والتحقيق أحد معاني حرف «قد».

﴿الْمُؤَفَّقِينَ﴾:

التعويق هو التبسط عن العمل، والجسُ والصرف عنه، والشغل عنه بغيره. يقال: عاقَهُ وعوقَهُ، إذا منعه أو حبسه أو ثبطه أو صرفه، أو شغله عما يهْمُ به من عمل بأية وسيلة من الوسائل.

﴿هَلُمُّ﴾:

اسم فعل بمعنى تعالوا، تُستعمل هكذا في لغة الحجازيين، بلفظ واحد للمذكر والمؤنث، المفرد والمثنى والجمع، وهو الأفتح.

وتُلحق بها علامات التثنية والجمع والتأنيث في لغة بني تميم، فيقال فيها: هَلُمَّا وهلموا وهلمِّي وهلممنَّ.

﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ﴾:

أي: ولا يأتون مواقع القتال. البأس في اللغة يأتي بمعنى: «الحرب - والعذاب الشديد - والخوف» والمراد منه هنا الحرب.

لقد تخلف فريق من المنافقين في بيوتهم، فلم يخرجوا إلى مكان التربص لمواجهة العدو في غزوة الأحزاب عند الخندق، ولم يشاركوا المجاهدين، وجعلوا مع ذلك يعوقون إخواناً لهم من أقاربهم، ويثبطونهم، ويدعونهم إلى البقاء في منازلهم، ويشيرون الرعب في قلوبهم، ويقولون لهم: لا يستطيع محمد وأصحابه أن يثبتوا لهذا الجيش المتفوق عليهم عدداً وعدة، القادم لغزوهم من أحزاب العرب، وأنهم هالكون لا محالة، فما لكم ولهذه المخاطرة.

ويحلفُ حالُفُهُم أنَّ محمداً سوف لا يستقبل المدينة أبداً بعد هذه الموقعة.

ويقولون لإخوانهم الذين يظنون أنهم لن يبلغوا محمداً ﷺ ما يدعونهم إليه: هلمّ إلينا، أي: تعالوا إلينا، واتركوا مشاركتكم لجيش المسلمين، واستمتعوا معنا بالأمن، والراحة، والظل، والطعام الطيب والشراب الوافر الحسن.

إنهم فريق من المنافقين جريئون في ممارسة الأعمال التي تدل على نفاقهم، فالتخلف عن الرسول ﷺ في مواطن البأس ذبذبتهم، فهم لا يأتون البأس إلا قليلاً، أي: بمقدار ما يكفي - بحسب تصورهم - للمصانعة والمخادعة والرياء، وفي الأحوال التي يكون الطمع بالغنائم فيها هو الأرجح بحسب تصوراتهم وتقديراتهم للأمور.

وقد أخبر الله فيما أنزل من قرآن بهؤلاء المنافقين المتخلفين المعوقين لإخوانهم والذين يدعونهم إلى الانخراط عن الرسول والمؤمنين، فكشف أحوالهم، وسجل ذلك عليهم في آيات تنلّ، ليكونوا مثلاً للمنافقين في كل زمان، مع ما يتضمن البيان القرآني من عظة للمؤمنين، وتحذير لهم من مكائدهم.

وتابع النص الكلام عن هذا الفريق المتخلف المثبط، فكشف صفاتهم النفسية، وأثارها في سلوكهم، فجاء في وصفهم:

* * *

* قول الله عز وجل:

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ نَظَرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَبُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ إِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسَّيْفِ إِذْ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَلَحَبَّطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿أَشِحَّةً﴾:

جمع شحيح، وهو شديد البخل. ولفظ «أشِحَّة» منصوب على الحال، وصاحبها المعوقون والقاتلون لإخوانهم: هلمّ إلينا المذكورون في الآية السابقة، والمراد جميع المنافقين.

يقال: شُخَّ بالشيء، إذا أمسكه، وشُخَّ على فلان أو على الشيء، إذا بخل عليه ببذله ما، من ماله أو عمل أو غير ذلك.

يبيِّن الله للمؤمنين أنَّ من صفات المنافقين أنهم شحيحون عليهم، بأموالهم وأعمالهم ومعوناتهم وأنفسهم، وهم فوق ذلك شحيحون عليهم بمثل ذلك من غيرهم، فهم يكرهون أن يبذل أحدٌ لهم من ماله أو عمله أو نفسه.

والشحيح هو أشدُّ البخلاء، لأنَّ بخله لا يقتصر على كراهية أن يبذل من ماله أو نفسه، بل هو يكره أيضاً أن يبذل غيره من ماله أو نفسه، فهو بدافع من شُحِّه يعوق ويثبُط ويُخذل عن البذل.

إنَّهم أشحَّة على المؤمنين خاصة، وقد لا يكونون أشحَّة على غير المؤمنين، وذلك لأنَّهم منافقون، لا يؤمنون بما يؤمن به المؤمنون، ولا يسعون لتحقيق الغاية التي يسعون إليها، بل لهم في قلوبهم اتِّجاه آخر مابين مياينة كُليَّة لاتَّجاه المؤمنين، وليس المظهر الذي هم فيه إلَّا مظهراً كاذباً، ومن الطبيعي في حال من يكون كذلك أن يكره كلَّ ما يدعم الاتِّجاه المباين والمنافض لاتِّجاهه، وأن يكون شحيحاً عليه ببذله منه أو من غيره، وشُحُّه هذا يدفعه إلى محاولات الصَّد عن أن يبذل أحدٌ في هذا الاتِّجاه من ماله أو عمله أو نفسه.

﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ :

أي: فإذا جاء ما يُثيرُ الخُوفَ في نفوسهم رأيتهم من شدة الخوف الذي لم يخف من الإيمان بالغاية المحققة للسعادة ينظرون إليك مذعورين تدور أعينهم كدوران غني الذي يُغتنى عليه من الموت.

﴿يُغْتَنَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ :

أي: يُغتنى عليه من خوف الموت، فيُغتنى بسبب انفعال الخوف في نفسه وفيه وإفراكه دُغراً وهلعاً.

وأصل مادة الكلمة من الستر العام بغطاءٍ أو نحوه. وفعلٌ «يُغتنى عليه» يُشعر بأنَّ سحابات الإغماء تُغشيهِ وتنشع عنه، وهكذا يتكرَّر الأمر.

فالذي يُغشَى عليه من الموت النازل به تدور عيناه زائغتين بين حالتي الوعي والإغماء الذي يَغْطِي وَجْهَهُ.

وهؤلاء المنافقون قوم جنباء جنباً عظيماً، وحريصون على الحياة حرصاً شديداً، لأنهم لا يؤمنون باليوم الآخر، فهم إذا جاءت الأسباب المخيفة من الموت، أثارت خوفهم الشديد، وذعرهم البالغ مذهباً، وظنوا أَنَّ الموت نازل بهم لا محالة، فأخذت سحباباً من الوهم تشبه غشاوات الموت تجلّل نفوسهم، فيكون من مظاهرها أن يُصابوا بالوجوم والسكون الأخذ بهم إلى الغيبوبة، فتراهم ينظرون إليك والحال أَنَّ أعينهم تدور مثل دوران عيني الذي يُغشَى عليه من الموت.

ومن التباين بين حالتهم عند الخوف وحالتهم إذا ذهب الخوف نلاحظ أَنَّ في الكلام محذوفاً مقدراً، وهو ما قدّرناه من مجيء الأسباب المخيفة للجنباء.

﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ جَدَادٍ﴾:

أي: فإذا ذهبت الأسباب المخيفة، وأخسوا بالآمن انطلقت جراتهم عليكم بالسنتهم السليطة.

﴿سَلَفُوكُمْ﴾: السلق في اللغة: الصباح وشدة الصوت. ويقال: سلقه بالكلام سلقاً، إذا أذاه بكلامه الشديد العنيف، وأسمعه منه ما يكره فأكثر عليه، وبالف في مخاصمته.

﴿بِالسِّنَةِ جَدَادٍ﴾: أي: بالسنة قوية جارحة للنفوس، كالسيوف والسكاكين المحددة المستونة القواطع للأجسام.

إنهم في ساعات الخوف جنباء صامتون مُبْلِسُونَ منهأرون لا تتحرك سيوفهم، ولا أي سلاح من أسلحتهم، بل تدور أعينهم ذعراً وهلعاً، كأن الموت نازل بهم، فإذا ذهب الخوف، وتحركت السنتهم، فلهم موقفان السنتهم فيهما سليطة جداد:

(١) فإن كانت المعركة لصالح العدو أخذوا يوجهون اللوم والشرب للمؤمنين، وقائد معركتهم، وبطانته الصادقة المخلصة، ويتجبحون بصحة آرائهم الانهزامية التي كانوا يطرحونها ولو بالهمس أو في الخفاء.

(٢) وإن كانت المعركة قد انتهت بانتصار المؤمنين أخذوا يطالبون بأوفر النصيب من الغنائم، وتنطلق ألسنتهم كالسيوف الحداد القواطع، وتعلو أصواتهم، كأنهم قد كانوا أصحاب الصولة الكبرى في القتال، ويتجحون ببطولاتهم، ويطالبون بأنصبتهم من الغنائم، كأنهم قد كانوا هم فرسان المعركة الأوائل، والمستحقين لأوفر النصيب.

على ضد ما يفعل المؤمنون الصادقون الباسلون الذين يقدمون أعظم التضحيات، ويلون أحسن البلاء، فسيوفهم وأسلحتهم هي العاملة في المعارك، ثم تكون ألسنتهم في حالة الهزيمة عاذرة، ونفوسهم صابرة. وعند توزيع الغنائم تكون ألسنتهم شريفة قاصرة، وتكون نفوسهم عفيفة شاكرة.

﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾:

أي: ليسوا فقط أشحَّةً بالأموال والأعمال والأنفس منهم ومن غيرهم عليكم لذواتكم وأشخاصكم، بل هم أشحَّةٌ بكلِّ ذلك على الخير أين كان الخير، لأنهم لا يؤمنون بفائدة البذل في سبيل الخير ومرضاة الله عزَّ وجلَّ، وظاهر أن من لم يؤمن بجدوى شيء من الأشياء، فلا بدَّ أن يكون شحيحاً عليه.

﴿أَوَّلَيْكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاحْبِطْ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾:

أي: أولئك البعداء عن مهابط رحمت الله عزَّ وجلَّ، وهم قسم من المنافقين الذين جاء وصفهم أنهم يتخلفون عادة عن مواطن البأس، ولا يأتونه إلا قليلاً، ويشطون إخوانهم، ويدعونهم للتخلف، وهم أشحَّةٌ على المؤمنين وعلى كلِّ خير، وهم جنباء خوارون إذا جاءت أسباب الخوف، فإذا ذهبت كانوا أصحاب السنة سليطة مؤذية في التلويح، وفي طلب أوفر نصيب من الغنائم.

﴿أَوَّلَيْكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾: وإن نظاها بالإسلام، بل هم كفارون من مستوى الكفر الذي لم تختلط به أضواء إيمانية.

﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾: أي: أبطل الله أعمالهم، فلم يجعل لها الآثار التي تُرجى منها عادة.

ولكن ما هي أعمالهم التي يلاحظ فيها أن الله عزَّ وجلَّ قد أحبطها؟

لدى التحليل نلاحظ أنَّ لهم صنفين من الأعمال، ولكلُّ منهما إحباطٌ مناسب له.

الصنف الأول: أعمال إسلامية في ظاهرها، كإقامة الصلاة مع المسلمين، وحضور معارك الجهاد في بعض الأحيان، ودفع الزكاة الملزمين بدفعها.

وإحباط هذا الصنف من الأعمال يكون بإسقاطه من سجلِّ حسناتهم، لأنَّه ليس نابعاً من منابع الإيمان، ولا أثراً من آثاره، فهو غير ذي قيمة عند الله، إنَّه مصانعة ونفاق ورياء، هم به كاذبون، وقد أخذوا جزاءه في الدنيا، بحَقِّن دماهم من القتل الذي كانوا يستحقونه لو أظهروا كُفْرهم.

الصنف الثاني: أعمال كَيْدٍ ضدَّ الإسلام والمسلمين، كأعمال التعويق والتخذيل والتشيط التي يقومون بها.

وإحباط هذا الصنف من الأعمال يكون بكشف عناصره للمسلمين، وإفساد الخطط التي تدبَّر فيه، وإبطال أثر المكائد التي تُحاك فيه.

وهذا الصنف من الأعمال هو الصنف الذي يلائمه قوله تعالى بعد قرار الإحباط:

﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾:

ونستطيع بالاستنباط أن نقدِّر للصنف الأوَّل المعنى الذي يناسبه، وفق قاعدة العدل الربَّانية، وتقدير الكلام يمكن أن يكون كما يلي:

أُولَئِكَ لَمْ يَؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ بِمَقْتَضَىٰ عَدْلِهِ أَعْمَالَهُم التي يظهر منها أنها أعمال حسنة؛ لأنها غير صادرة عن إيمان، وأحبط بمقتضى حكيمته ونصرته لأوليائه أعمالهم التي يكيدون بها المسلمين، وكان ذلك على الله يسيراً.

ويتابع النصُّ الكلام حول هؤلاء المتخلفين عن غزوة الأحزاب، والمبشطين لإخوانهم عن شهودها، فيصف حالهم بعد انصراف الأحزاب، وهو:

• قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوْا لَوْ أَنَّهُمْ بِأَدُوتٍ فِي
الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قُنُوا إِلَّا لَقِيلًا ۝﴾.

إنَّ الأحزاب قد انصرفوا عن حصار المدينة دون أن ينالوا خيراً، وكفى الله
المؤمنين القتال.

ولكن ما زال المنافقون المختبئون في منازلهم خائفين متوارين، يحسبون
الأحزاب لم يذهبوا، لأنهم لا يفارقون مخابثهم في منازلهم، ليعرفوا ماذا حدث في
المدينة.

وفي هذا تصوير بديع دقيق لشدة لصوقهم في أرض مخابثهم، وذعرهم من
الأحزاب، وتوقعهم أنهم لا بدّ مدهامون المدينة، ومتصرفون على المسلمين.
لكنهم بعد ذلك علموا من إخوانهم وذويهم برجوع أحزاب العرب خائبيين
وسلامة جيش الإسلام في المدينة.

وكان تخلفهم أمراً يذانون به، ويُحاسبهم عليه الرسول ﷺ والمؤمنون.

﴿وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوْا لَوْ أَنَّهُمْ بِأَدُوتٍ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ
وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قُنُوا إِلَّا لَقِيلًا ۝﴾:

﴿بادون﴾: جمع وباءة وهو الذي خرج إلى البادية، وترك الحاضرة.

أي: وإن يأت الأحزاب مرة أخرى لقتال المسلمين، يود هؤلاء المنافقون لو أنهم
بادون في الأعراب، بعيدين عن المدينة، ولا شأن لهم في الصراع الدائر بين
المسلمين، وبين أعدائهم من العرب، ومن هنالك يسألون حاملي الأخبار عن أنباء
الحرب الدائرة بين المسلمين وأعدائهم.

لقد كانوا عند قدوم الأحزاب يعتقدون أنهم لا محالة متصرفون على المسلمين،
اعتماداً على الظواهر السببية، فاكتموا بالتخلف عن المشاركة، ليكون ذلك عذراً لهم
عند جموع الأحزاب، بأنهم لم يكونوا مع المقاتلة من المسلمين.

لكنهم بتخلفهم قد عرّضوا أنفسهم للمحاسبة من قبل الرسول والمؤمنين، فلو

جاء الأحزاب مرةً أخرى فإن الأمر لا بُدَّ أن يختلف، إنهم لا يستطيعون أن يتخلصوا من الإدانة بالتخلف، ومن المعاقبة عليه، ولا يملكون الشجاعة على مشاركة المسلمين في قتال أعدائهم.

لذلك فهم يتمنون عندئذٍ لو أنهم كانوا بادين في الأعراب، يسألون من بعيد عن أنباء معركة المسلمين مع أعدائهم دون أن يكونوا مع هؤلاء أو مع هؤلاء، حرصاً على سلامة أنفسهم من مقاتلة الأحزاب، وسلامة أنفسهم من محاسبة المؤمنين.

﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَاعَانَتْكُمُ إِلَّا قَلِيلًا﴾:

أي: وإن يأت الأحزاب مرةً أخرى، واضطرَّ هؤلاء المنافقون أن يكونوا في صفوف مقاتليكم، لئلا تحاسبوهم على تخلفهم عنكم، ما قاتلوا معكم إلا قتالاً قليلاً كماً وكيفاً، يراءونكم به، ويصانعونكم فيه، محافظةً على مظهر انتمايهم إليكم بادعاء الإسلام.

ومع ما في هذا من بيان لصفات هؤلاء المنافقين، ففيه إشعارٌ ضمني للمؤمنين بأن لا يضعروهم في حساب القوى التي يملكونها ضدَّ أعدائهم، بل عليهم أن يعتبروهم قوةً تثبط.

وجاء في نص آخر بيان اعتبارهم قوًى سلبيةً لا قوًى إيجابية، وهو ما في قول الله عز وجل في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (١٧).

﴿خَبَالًا﴾:

أي: فساداً وإفساداً وإضراراً.

﴿وَلَا أُضْعِفُوا خِلَلَكُمْ﴾:

أي: ولا أضرعوا وهم بين صفوفكم ينشرون أسباب فتنة المسلمين المؤمنين عن دينهم، إذ بين المسلمين من قد يستمع لهم، ويصني لأقوالهم ويتأثر بها.

فتكاملت النصوص في الدلالة على أن وجود المنافقين في صفوف المسلمين أثناء معارك القتال بمثابة قُوَى سلبية، تضاف إلى قُوَى الأعداء، ولا تحسب ضمن قُوَى المسلمين.

والمعنى: أن على المؤمنين أن لا يعلقوا على المنافقين أملاً ما، مهما كان ضعيفاً، بل عليهم أن يثقوا بالله عز وجل ويتوكلوا عليه، ولا يضعوا في حسابهم إلا القُوَى المؤمنة الصادقة في إيمانها، والصادقة في جهادها، والمخلصة لربها ولدينها.

وعليهم أن يتأسوا في ذلك برسول الله ﷺ الذي يتوكل على الله وحده، ولا يضع في حسابه إلا الله ومن أتبعه من المؤمنين، امتثالاً لقول الله عز وجل لرسوله في سورة (الأنفال / ٨ مصحف / ٨٨ نزول):

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٤)

وإشارة إلى هذه المعاني خاطب الله المؤمنين بما في قوله:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٦١)

﴿أُسْوَةٌ﴾:

قُدْوَةٌ يُقْتَدَى بِهِ، في عمله وخلقه وكل ما يصدر عنه.

والمعنى المشار إليه المناسب للموضوع، مع عموم الآية في دلالتها الكلية، يمكن أن نوضحه بما يلي:

كما أن الرسول لا يقيم للمنافقين وزناً، لدى حساب قوة جيشه، بل يكتفي بربه، ويمن أتبعه من المؤمنين، فإياها المؤمنون اتخذوا رسولكم أُسْوَةً لكم في ذلك، إنكم ما اتخذتموه أُسْوَةً إِلَّا ظَفَرْتُمْ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ يستفيد منها ويستعد بها ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

﴿يَرْجُوا اللَّهَ﴾ :

أي : يرجو مترقباً عونه ومُذْذَه ونصره وثوابه ورضوانه .

﴿وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ :

أي : ويرجو السعادة الخالدة يوم الدين وما فيه من أجرٍ عظيم للمتقين والأبرار والمحسنين .

﴿وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ :

أي : وكان مع ذلك على صلةٍ بالله تعالى في معظم أوقاته ، لأنه كان كثير الذكر له .

فمن يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً فإنه يتخذ رسول الله أسوةً حسنةً له .

وهنا ينتهي الكلام في النصّ عن مواقف المنافقين في غزوة الأحزاب (الخنزق) ومواقف الذين في قلوبهم مرض ، منذ بداية قدوم الأحزاب حتى رجوعهم خائبين لم ينالوا خيراً .

وصف حال المؤمنين

بعد ذلك شرع النصّ يلخص مواقف المؤمنين بدءاً من أوّل قدوم الأحزاب .

* قول الله عز وجل :

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾ :

أي : ذلك ما كان من أمر المنافقين والذين في قلوبهم مرض ، وأما المؤمنون فحالهم هو ما أصف لكم .

لَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ جَيْشَ الْأَحْزَابِ ، لم يرهبوا ولم يخافوا ، ولم يقولوا مثل مقالة

المنافقين: ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً، ولكنهم قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله.

إن كثرة الجيش القادم لقتالهم لم تفت في أعضادهم، بل حدثتهم قلوبهم المؤمنة بأن الله قد ساق لهم هذا الجيش الكبير الذي يفوقهم عدداً وعدة، ليحقق لهم ما وعدهم به من التأييد والتمكين، والنصر والفتح المبين.

فالله عز وجل لم يخلفهم وعده، والرسول ﷺ لم يكذبهم في شيء، والأحداث الماضية شواهد، فلا بد في هذه الحادثة أن يكون الله معهم ظهيراً نصيراً.

إن ثقتهم بالله ورسوله قد كانت في حصن حصين، من ثبات الإيمان وروسخ اليقين، فلا تستطيع أن تتال منها شيئاً يبال الشكوك التي يقذفها الخوف، وإن كان جيش العدو أكثر منهم عدداً وعدة.

وما زادهم ما رأوا من كثرة عدوهم، إلا إيماناً بأن الله عز وجل سيحقق لهم ما وعدهم من التأييد والنصر، وما زادهم إلا تسليماً لقضائه الحكيم.

ولكنهم لا يعلمون كيف يكون تحقيق وعد الله، ولا يعلمون مدى الابتلاء الذي سيخوضونه قبل ذلك.

كل المؤمنين الصادقين كانوا كذلك تفاعلاً بإقبال بشائر تحقيق وعد الله، وزيادة إيمان بالله ورسوله حين قدوم الأحزاب لحربهم.

لكنهم فيما بعد، ولدى ممارستهم التطبيقية لأعمال المراقبة والمصابرة والجهاد، كانوا على درجات، بحسب ما لدى كل منهم من قوة وصبر.

• قول الله عز وجل:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا بَدِيلًا ۖ﴾ (١٢)

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ﴾ :

أي: بعض المؤمنين كان منهم هذا الصدق، ولم يُنفِ الله عزَّ وجلَّ الإيمان عن الذين لم يكونوا كذلك، بل أثبت أنهم من المؤمنين أيضاً.

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾:

أي: فمن هؤلاء المؤمنين الصادقين مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ.

النَّحْبُ في اللغة: يأتي بعدة معانٍ، منها ما يلي: «الحاجة - والمئة والأجل - والنذر، والعهد».

وهذه المعاني كلها تصلح هنا، فلقد كان المؤمنون قد عاهدوا الله أن ينصروا رسوله، ويقاتلوا معه أعداء الله حتى يُقتلوا أو تنقضي آجالهم، أو يتحقق النصر الذي هو حاجة كل مؤمن.

فكان منهم من قَضَىٰ نَحْبَهُ، فجاهد صادقاً مخلصاً، ومات موتاً طبيعياً، وكان منهم من قَضَىٰ نَحْبَهُ، فجاهد صادقاً مخلصاً، وقُتِلَ فكان شهيداً في سبيل الله، فنال حاجته من الشهادة.

وكلُّ منهما قضى نذره إن كان قد نذر، وقضى عهده الذي عاهد الله عليه إن كان ممن عاهد الله.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾:

أي: ومن هؤلاء المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه مَنْ يَنْتَظِرُ أن يقضى نَحْبُهُ بالشهادة، أو بانتهاء الأجل، أو بتحقيق نصر الإسلام والمسلمين الذي هو حاجة كل مؤمن، مع قيامه بما عاهد الله عليه.

﴿وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ (٢٢):

أي: وكلا الفريقين الذين قضوا نحبهم، والذين ينتظرون قضاءه حتى غايته، ما بدّلوا فيما عاهدوا الله عليه تبديلاً ما، بل حافظوا على عهودهم، ونفذوها ووفّوا بها.

وسكت النص عن قسم آخر من المؤمنين، وهم الذين لم تقوَ إراداتهم على الوفاء العملي الكامل بما عاهدوا الله عليه، مع سلامة إيمانهم، وتسليمهم لله

عَزَّوَجَلَّ. ولا بد أن يكون التبديل بين العهد والتنفيذ عند هؤلاء وهم من المؤمنين الصادقين على درجات ومستويات بعضها أدنى من بعض، وهي تناسب تفاوتهم في قُوَى إراداتهم، وتفاوتهم في نِسَب شجاعتهم، وفي نِسَب غَلَبَةِ أهوائهم عليهم، ونِسَبَةِ تعلُّقهم بالدُّنيا وما فيها.

* * *

بيان الغاية من

الابتلاء بمواجهة جيوش الأعداء

* قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝﴾.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾:

أي: لقد كان هذا الابتلاء بمواجهة جيوش الأعداء ليتحقَّق به كشف أحوال المتسبين إلى الإسلام، وبعد الكشف يأتي تحقيق قانون الجزاء.

أما المؤمنون الصادقون في إيمانهم فيجزئهم بحسب صدقهم، في إيمانهم، وفي عملهم، ويتفاوت الجزاء بحسب درجة كلِّ واحدٍ منهم، في الصِّدْقِ إيماناً، ووفاءً بالعهد، وعملاً.

وأما المنافقون الذين أعلنوا إسلامهم وهم في داخل قلوبهم كافرون، فيكشف بالامتحان نفاقهم، وكذبهم في ادِّعائهم الإيمان، وبعد الكشف يأتي تحقيق قانون الجزاء:

(١) فَإِنْ أَصْرُوا عَلَى نَفَاقِهِمْ، ولم يصلحوا من أحوالهم، استحقُّوا أن يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِمَشِئَتِهِ الْمُقْتَرَنَةِ بِكَمَالِ حِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ، فقال تعالى:

﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ﴾:

أي: ويعذب المنافقين الذين لم يتوبوا من نفاقهم، إِنْ شَاءَ تعذيبهم، وعلَّقَ الله

تعذيبهم بمشيئته، لبيان أن ظواهر عدله في خلقه سبحانه، لا تحصل بالضرورة الجبرية، وإنما تحصل بالمشيئة، لكننا نعلم أن مشيئته تعالى لا تنفك عن حكمته، ونعلم أن حكمته تعالى مقترنة بكمال علمه، وعظيم قدرته على كل ما يشاء.

(٢) وإن تابوا واستغفروا وأصلحوا وآمنوا إيماناً صادقاً، فإن الله عز وجل يتوب عليهم، ويقبل استغفارهم رحمةً منه، فقال تعالى:

﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾

أي: إذا تابوا من نفاقهم، وصحّحوا عقيدتهم، وقوموا سلوكهم.

ونلاحظ أن الله يفتح لهم بهذا باب التوبة ليتوبوا ويستغفروا، حتى يتوب عليهم، ويغفر لهم ويرحمهم، ودلّ على أن توبة الله عليهم إنما تكون بعد توبتهم هم من نفاقهم ما نعلم من قانون الله في الجزاء، فمن مواده أن الله لا يغفر أن يُشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، والنفاق أشدّ في دركات الكفر من الشرك.

وأطمعهم الله بمغفرته ورحمته إذا تابوا واستغفروا، فقال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

أي: هو سبحانه في الكينونة الدائمة المستمرة كثير الغفران لمن استغفره من عباده، كثير الرحمة بخلقهم.

بيان فصل الختام من فصول غزوة الأحزاب

• قول الله عز وجل:

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْطِهِمْ لَمَّا سَالُوا خِيَرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۝٢٥ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝٢٦ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَغْلِبْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝٢٧﴾

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ﴾:

أي: ردَّ الله الأحزاب عن المدينة إلى ديارهم مضحوبين بغیظهم، يكتسبون بنار الغیظ الذي اغتاظوه نتيجة خيبتهم، وعدم تحقيق شيء مما جمعوا جموعهم له.

وتحقَّق بذلك النصر المعنوي العظيم للمؤمنين على أحزاب العرب المشركين، لأنَّ الله قد قطع به دابر غزو العرب الكافرين لهم بعد يوم رجعة الأحزاب عن المدينة خائبين.

جاء في صحيح البخاري أنَّ الرسول ﷺ قال لأصحابه حين أُجِّلَى الله الأحزاب:

«الآنْ نَفْزُوهُمْ وَلَا يَفْزُونَا، نَحْنُ نَبِيرُ إِلَيْهِمْ».

وهذا في الحقيقة نصر عظيم وفتح مبين، فلقد كان مقدِّمة للفتح الذي جاء بعد ذلك.

﴿لَمَرَيْنَا لَوْ خَيْرًا﴾:

أي: ما نال الذين كفروا من جمعهم أحزابهم، وقُدومهم لحرب المسلمين في المدينة خيراً ما صغيراً ولا كبيراً.

﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾:

إذَّ أَلهم الله سلمان أن يُبشِّر بحفر الخندق، فكان بمثابة الدرع للمدينة، وإذَّ بعث على المحاصرين بعد أن أجهدهم طول الحصار، الريح الباردة والجنود الخفيفة، فازعجتهم، وحملتهم على أن يرتدوا على أعقابهم خائبين تميَّز قلوبهم من الغیظ.

﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾:

أي: ومن أوصاف الله في الكينونة الدائمة المستمرة أنه قوِّيٌّ على ما يشاء، عزيزٌ غالبٌ لكلِّ القوى.

وحقَّق الله عزَّ وجلَّ للمؤمنين نصراً مادِّياً عظيماً في توابع غزوة الأحزاب، على الذين ظاهروا أحزاب العرب من أهل الكتاب، وهم يهود بني قريظة، إذ انكفأ

المؤمنون على حصونهم، بعد جلاء الأحزاب عن حصار المدينة، فحاصروهم، فغذف الله في قلوبهم الرُّعب، فنزلوا من حصونهم مسلمين خائفين فقتل المسلمون رجالهم، وأسروا نساءهم وذرياتهم، وَغَنِمُوا أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فقال تعالى:

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾:

أي: من حصونهم، وكان هؤلاء المظاهرون من أهل الكتاب هم من اليهود.

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾:

في هذا بيان للسبب الذي جعلهم ينزلون من حصونهم مسلمين.

﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾:

أبانت روايات السيرة النبوية أَنَّ المسلمين قتلوا رجالهم، وأسروا نساءهم وذرياتهم.

ونلاحظ في هذه العبارة جمالاً في الأداء البياني، إذ جاءت كلمة «فريقاً» في البدء والختام، وبينهما فعلاً «تقتلون وتأسرون».

﴿وَأَوْرَثَكُمُ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّوها﴾:

أي: وجعل أرضهم وديارهم وأموالهم ميراثاً لكم، ووصف الله هذه الغنائم بأنها ميراث أورثه الله للمؤمنين، لأنَّ الرُّجَال المالكين لها قُتِلُوا، وللدلالة على أَنَّ عودة هذه الأرض والديار والأموال إليهم أو إلى نساءهم وذرياتهم أمر ميؤوس منه، كما أَنَّ من مات لا تعود أمواله إليه، إذ تصير ميراثاً لغيره.

ومع قرار الميراث المنجز الذي منح الله به المسلمين أرض بني قريظة، وديارهم وأموالهم، أنزل الله عز وجل قراراً آخر محققاً، هو بحكم القرار المنجز تامة ومُلتحق به، إلا أنَّ زمن التنفيذ لم يأت بعد، ألا وهو توريثهم أرضاً لم يطوُّوها بعد، وفسر الواقع بعد ذلك أَنَّها أرض الفتوحات الإسلامية في أرض العرب وغيرها من بلاد الدنيا.

وهذا من أنباء الغيوب القرآنية التي تحققت فيما بعد، وكان هذا القرار الرباني المحقق إعلاناً عن بدايات النصر العظيم، والفتح المبين.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ :

أي : ومن أوصاف الله في الكينونة الدائمة المستمرة أن الله قدير على كل شيء؛ يريد فعله وتكوينه ، فنصره لرسوله وللمؤمنين على الذين كفروا وعلى الذين ظاهروهم من أهل الكتاب، أمرٌ صغير من هذه الكلية العامة الكبرى.



نظرة عامة حول بعض ما جاء في سورة الأحزاب بعد هذا النص مما له تعلق ما به

(١)

ثم جاء في سورة (الأحزاب) بيان تربيوي من الله عز وجل لرسوله، حدّد له فيه وظيفته تجاه رسالته ودعوته، وهي تلخّص بمنهج إيجابي، ومنهج سلبي.

• فالمنهج الإيجابي يتناول العناصر التالية:

(١) التبليغ التام لحقائق الدين، ولواجبات الناس تجاه ربهم عز وجل، وهذا التبليغ يعطيه حق الشهادة عليهم يوم الدين.

(٢) التبشير لمن آمن وأطاع بالنعيم المقيم الخالد في جنات النعيم.

(٣) الإنذار لمن كفر وعصى بالعذاب الأليم في دار العذاب يوم الدين.

(٤) الدعوة إلى الله وإلى سبيله بالوسائل التي أذن بها، المقترنة بالحكمة والموعظة الحسنة.

(٥) أن يكون للناس سراجاً منيراً، أي: قدوة حسنة يقتدي به الناس في أقواله وأعماله وأخلاقه وسائر تصرفاته الاختيارية.

(٦) تبشير جماعة المؤمنين بأن لهم من الله في الدنيا فضلاً كبيراً، وهو ثواب يعجّله الله لهم، إذ ينصّرهم، ويستخلفهم في الأرض، ويذلّ لهم كنوزها وخيراتهم، ويُمكّن لهم سلطانهم، ويسخر لهم أسباب ووسائل التأيد والتمكين.

وهذا يتضمن التلويح بإنذار غير المؤمنين، بأن الهزائم ستلاحقهم ضمن

سنن الله في المجتمع البشري، وأن الله سيجعل الذين آمنوا خلفاءهم في ملكهم، ووارثي أرضهم والخيرات التي هي في أيديهم عند نزول النص.

وقد دلّ على هذا المنهج الإيجابي قول الله عز وجل في السورة:

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَصِرَاجًا مُنِيرًا ﴿١٦﴾ وَيَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

* والمنهج السلبي تجاه الكافرين والمنافقين في مجال الدعوة يتناول العناصر التالية:

(١) عدم طاعة الكافرين والمنافقين في أي أمر من الأمور التي تتنافى مع رسالة الرسول، أو تتنافى مع واجباته تجاه دعوته، أو تجاه ربه، أو تجاه آية فضيّة من قضايا المسلمين، فقال الله لرسوله:

﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ... ﴿١٨﴾﴾.

(٢) عدم الاشتغال بمدافعة أذاهم، أو الانتقام منهم إذا آذوه باتهامات، أو مطاعن، أو شتائم، أو طرح تشكيكات وشبهات.

وذلك لأن صرف جهده لمدافعة أذاهم قد يحقق للكافرين والمنافقين بعض ما يريدونه، من إيقاف الدعوة عن مسيرتها، وشغل الرسول وأصحابه بصراعات شخصية، فتحوّل الرسالة عن أهدافها وواجباتها، إلى نزاعات حول الأشخاص، ويضيع الجهد المبذول سدى، وتظهر العصبية والأنانيات.

لكن رسول الدعوة، وأمة الدعوة، ليس همهم أشخاصهم، إنما همهم الأكبر مبادئهم، وتبليغ رسالة ربهم، والرغبة بهداية عباد الله إلى دين الله، ودعوة الناس إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة، فقال الله تعالى لرسوله:

﴿وَدَعِ أَذْنَهُمْ... ﴿١٩﴾﴾.

أي: دع التفكير في أذاهم الموجه منهم لك وللمسلمين، ودع الاشتغال بدفعه، ودع تدبير الأمور الرامية إلى الانتقام منهم على أذاهم، وتجمّل بالصبر والصفح.

ويلاحظ أنَّ التعبير بقوله تعالى: ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ عن هذه المعاني التي فهمناها منه، فيها من الإيجاز والتعميم لكلِّ الصُّور ما لا يوجد بأسلوب بياني آخر.

(٣) التوكُّل على الله في التزام هذا المنهج، ثقة بأنَّ الله سيحقق له ولأصحابه نتائج يحبُّونها أعظم بكثير ممَّا لو شغلوا أنفسهم بمداغة الأذى، أو الانتقام من الذين يوجهونه ضدهم، فقال الله تعالى لرسوله:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

(٧)

ثم تحدَّثت السورة عن جملة أحكام: منها ما يتعلَّق بالنكاح والطلاق وما يستتبع، ومنها أحكام خاصَّة بالنبي، ومنها أحكام من أحكام آداب الدخول إلى بيوت النبي، وبيان أنَّ بعض تصرفات المسلمين كانت تؤذي النبي، ويستحيي أن ينهى عنها، والله لا يستحيي من الحق، والتوجيه لسؤال أزواج النبي من وراء حجاب، وتحريم نكاحهن من بعده، والأمر بالصلاة والسلام على النبي، ثم أتبع الله ذلك بقوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

فتولَّى الله عزَّ وجلَّ الدِّفاع المباشر عن رسوله، ضدَّ الذين يؤذونه بشكل عام، وجعلهم ملعونين في الدنيا والآخرة، وأنذرهم بعذاب مُهين.

واللَّيْب يلمح أنَّ ثقل هذا الدِّفاع موجه ضدَّ الكافرين والمنافقين، الذين قال الله لرسوله بشأنهم قبل ثمانين آيات: ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾.

لكنَّ الله عزَّ وجلَّ قد جعل هذا البيان ضمن أوامر موجهة للمؤمنين، ليشعُر الكافرون والمنافقون أنَّه إذا كان انتصار الله لرسوله بهذا الشكل ضدَّ الذين يؤذونه ولو كانوا من المؤمنين، فكيف يكون انتصار الله له ضدَّ الكافرين والمنافقين.

إنَّ هذا التعريض من أقوى أساليب التهديد، وذلك لأنَّ الذي يشتدُّ في معاقبة أوليائه شدَّة بالغة انتصاراً لحبيب له، لا بدَّ أن يكون عقابه لأعدائه أشدَّ وأعظم في انتصاره لهذا الحبيب.

وغلّف الله هذا الانتصار العظيم لرسوله بمتابعة بيان أحكام خاصة بالمؤمنين، فيها التحذير من إيذائهم بالاتهامات الباطلات، وفيها أمر المسلمات بالحجاب، كي يعرفن أنّهن حرائر عفيفات، فلا يؤذين بقول أو عمل.

(٣)

ثم توجهت السورة مباشرة للمنافقين، ومرضى القلوب، والمرجفين في المدينة، بإنذارهم بأنهم إذا لم ينتهوا عن أعمالهم، وحركاتهم المبطنّة بالعداء للإسلام والمسلمين، والتي فيها إيذاء للرسول، فسُيْلَطَ الله رسوله عليهم، ونُهي أسلوب التفاضي عنهم، والصبر عليهم، والتسامح معهم، كما سلط على أمثالهم فيما شرع لرسله السابقين، إذا تماذوا في غيهم، ولم ينتهوا عن إيذاء رسول الله فيهم، فقال الله عز وجل:

﴿لَيْنَ لَزِينَهُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦١﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أَخِذُوا وَقْصِبُوا قَطِيبًا ﴿٦٢﴾ سَنَنْتُ اللَّهَ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسَنَةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٣﴾﴾

وقد جعلهم الله في هذه الآيات ثلاثة أقسام:

القسم الأول: المنافقون الذين ينطبق عليهم كل صفات المنافقين.

القسم الثاني: الذين في قلوبهم مرض، وهؤلاء ناس قد أسلموا، ولكن في قلوبهم شكوك وشبهات، ولم تتكامل عناصر الإيمان في قلوبهم.

وهؤلاء يتأثرون بوساوس المنافقين والكافرين وتسويلاتهم، فهم يتابعون المنافقين، ويسرون معهم، ويتحركون مثل تحركهم تأثراً بهم، دون أن يكونوا منافقين تماماً.

القسم الثالث: المرجفون، وهم طائفة من المنافقين ومن الذين في قلوبهم مرض، تواقحوا فظهرت منهم عبارات التخذيل، والإرجاف بأن المسلمين مهزومون

لا محالة، كمقاتلتهم التي جاء ذكرها في أوائل السورة: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾.

ووصّفهم الله بأنهم مرجفون دمعاً لهم بما ظهر من صفاتهم، وهو الإرجاف بالهزيمة ورواية الأخبار الكاذبة المخدلة.

الإرجاف في اللغة: هو الإخبار بالكاذب، لإثارة الفتن والاضطرابات، وإحداث الرجفان من الخوف.

وهؤلاء الأقسام الثلاثة، إن لم يتنهوا عن تحركاتهم العدائية، فإن الله عز وجل سيغري رسوله بهم، أي: يوجهه للانتقام منهم، والتسلط عليهم، ومعاقتهم على أعمالهم، ثم طردهم أو فرارهم من المجتمع الإسلامي الذي يتحركون فيه تحرك عدا، ولا يقفون فيه عند حدود مظاهر النفاق والمسايرة، وتنفيذ واجبات الانتماء إلى الإسلام.

وبعد طردهم من المجتمع الإسلامي، أو فرارهم خشية إنزال العقوبات بهم، يكونون مطاردين أينما تقفوا، وحينئذ يكون حالهم حال ردّة عن الإسلام بعد الانتساب إليه، والمرتدون المحاربون يؤخذون ويقتلون تقتيلاً شنيعاً.

وليُعَلِّمَ أَنْ معاملتهم بهذا الأسلوب إن استمرروا على مكايدهم وتصرفاتهم العدائية، وهم داخل صفوف المسلمين، هي سنة الله في الذين خلّوا من قبل، من اتباع الرسائل الربّانية السالفة، وهذه السنة هي من السنن الثابتة في الشرائع الربّانية، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

وفي هذا دلالة على أن المنافقين متى بلغت بهم الحال إلى هذا المستوى من صناعة المكاييد، وتدبير الأمور العدائية للإسلام والمسلمين داخل المجتمع الإسلامي، فإن حكم الله فيهم هو معاقتهم ومحاسبتهم على أعمالهم، ثم نفيهم، ثم مطاردتهم في مواطنهم التي يدبرون فيها المكاييد، وملاحقتهم للقبض عليهم بجريمة الردّة والخيانة العظمى، وتقتيلهم تقتيلاً شنيعاً.

وهذه السنة هي سنة الله في كلّ ما أنزل على رسوله السابقين.

(٤)

ثم ختم الله سورة (الأحزاب) بقوله عز وجل :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾ .

فأبان الله عز وجل في هذا الختام للسورة مسؤولية أمانة الاختيار وشروطه، وثمرة هذه المسؤولية وهي الجزاء بالعدل والفضل .

أما الجزاء بالعدل : فقد دلَّ عليه قوله تعالى : ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ .

وأما الجزاء بالفضل : فقد دلَّ عليه قوله تعالى : ﴿ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .



مقدمة عامّة

حول عادة التّبيّ الجاهليّة وإلغائها وأحكامها
وكلّ آثارها وتكليف الرّسول أن يكون أول مطبّق
لهذا الإلغاء وموقف الكافرين والمنافقين من
ذلك

كان التّبيّ في الجاهلية عادةً متّبعةً ذات شريعةٍ من شرائعهم المتوارثة، وذات أحكام وأعراف ثابتة، هي لديهم بمثابة أحكام دينيّة لا يجوز الخروج عليها ولا مخالفتها.

وقضت حكمه الله في دينه الذي اصطفاه لعباده أن يُلغى عادة التّبيّ، لأنّها لا تقوم على أساس تكوينيّ، ولأعلى ضرورة اجتماعيّة، بل من شأنها أن تحرّم ذوي الحقوق الطّبيعيّين من بعض حقوقهم في الإرث، وتستلزم تحرّيم نكاح لم يُحرّمه الله على عباده.

ومعلوم أنّ إلغاء هذه العادة الجاهليّة التي صارت شريعة من شرائع القوم المتوارثة، والتي لها عندهم أحكام في الإرث وتحرّيم النكاح ثابتة، وأعراف متّبعة، لا بدّ أن يثير في نفوس الكافرين والمنافقين استعظام هذا الإلغاء واستنكاره، ولا بدّ أن يحرك أليبتهم بالنقد والاعتراض والاستنكار واستعظام الأمر، ومحاولات التشجيع على أحكام هذا الدين الجديد، باعتبار أنّ التّبيّ هو في ظاهره سلوك إنسانيّ نبيل، فيه عطف ورحمة وتواضع وتواصل.

فكيف يأتي محمّد الذي يقول: إنّه يُنلّغ عن الله، ويدعو إلى التّواضع والتّراحم والتّواصل، فيُعلِن إلغاء التّبيّ، وإلغاء كلّ آثاره التي هي من أحكام الجاهليّة

وتقاليدها، ثم يتزوج هو مطلقة «زيد بن حارثة» الذي كان قد نبأه على عادة الجاهلية، فكان يقال له: زيد بن محمد؟!

إن هذا الأمر مثير جداً لنفوس غير المؤمنين، من التقليديين المتأثرين بالأعراف الجاهلية.

إن قضية إبطال عادة التبني الجاهلية قد استدعت قبل إنزال أحكامها في الإسلام، وقبل تغيير التقليد الجاهلي فيها، عن طريق البيان القولي والعملي، التمهيد لها بإعداد نفس الرسول ﷺ ونفوس المؤمنين لذلك.

ولا سيما أن التغيير العملي لهذا التقليد الجاهلي بتطبيق حكم الله المنزل أمر سيتحمل الرسول نفسه عبء أول منفذ له، وهو بذلك يعرض نفسه لاتهامات تمس شخصه الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

وهذه الاتهامات تمكن الكافرين والمنافقين من توجيه مقالة السوء له، على اعتبار أنه يفعل في نظرهم وبحسب تقاليدهم الجاهلية كبيرة من الكبائر التي يستكف عن فعلها مشركو العرب، أتباعاً لتقاليدهم وأعرافهم، وأحكام جاهليتهم.

ولهذه المقالات التي يتهماً للأعداء من الكافرين والمنافقين أن يطلقوها ضغط اجتماعي يحذره عادة عظماء الرجال وقاداتهم، ويخشون منه على مكاناتهم الاجتماعية، ولا سيما إذا كانت لها ذرائع من شبه يمكن تفسير سلوكهم معها بأنه تابع لهوى شخصي ذاتي، ومن أجله قاموا بتغيير أعراف وتقاليد وأحكام مستندة في تصور الناس فضيلة إنسانية.

وقد جاء هذا التمهيد في أول سورة (الأحزاب) في خطاب الله لنبيه بقوله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝
وَأَتَّبِعْ مَا نُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَمَآعْمَلُونَ خَيْرًا ۝
وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝﴾

إن الرسول المبلغ عن الله، والذي يعلن دوماً تجرده عن الهوى والمصلحة

حول النبيّ الجاهلي وإلغائه وتكليف الرسول أن يكون أول مطبق لإلغائه وموقف المنافقين من ذلك

الخاصّة، ويشدّد على النَّاس لتزكية نفوسهم وتطهيرها من أهوائها الجانحة، ومن نزعاتها التي تدفعها إلى مخالفة شريعة الله، لتحقيق شهواتها ومصالحتها الخاصّة الدنيوية، ليجد أفسى امتحانٍ يتعرض له أن يكلف القيام بأعمالٍ يمكن أن تستغلّ ضدّ نزاهته وتجريده، ويمكن أن تستغلّ لانهائه بالهوى النفسي الخاصّ، وللشهير به تجريحاً في بلاغاته عن ربّه، وممارساته في أعماله الخاصّة.

وبالنظر إلى بشريّته صلوات الله عليه فقد يدفعه الحذر الشديد من أن تُمسّ قدسيّة رسالته بمطاعن الشبهات، إلى التردّد أو التمهّل والترثّب، في القيام بالتكليف الخاصّ المحاط بشبهات الاتهامات الشخصية.

لذلك بداه الله عزّ وجلّ بقوله له :

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾.

من المعلوم بداهة في صفات الرسول لدى المؤمنين أن التقوى بسمة الرسول الدائمة، فمن صفاته العصمة عن المعصية، بل هو صلوات الله عليه فوق مرتبة المتقين والأبرار، إنه قمة المحسنين.

لكنّ التمهيد للتكليف الخطير الذي يخاف فيه الرسول على قدسيّة رسالته من مطاعن الكافرين والمنافقين، التي يلقون فيها الشبهات الخادعات، يتطلب التحذير الشديد من التردّد أو التريث، وقمة هذا التحذير بالنسبة إلى الرسول ﷺ أمره بأن يتقي الله.

وقد جاء في البيان الإشارة إلى أن موضوع التكليف الآتي سوف لا يثير الشبهات حوله إلا الكافرون والمنافقون، وهؤلاء ليس من شأن الرسول أن يتأثر بمطاعنهم، واتهاماتهم أو بالشبهات التي يستغلونها، فلا ينبغي أن يكون لضغطهم الاجتماعي أي تأثير على نفسه.

ولما كان مثل هذا التأثير ربّما يولد حركة التباطؤ في تنفيذ حكم الله، وهذا التباطؤ يفهم منه الاستجابة للمؤثرات الاجتماعية، وهذه الاستجابة هي في معناها نوع من أنواع الطاعة لأصحابها، ولو مع الكراهة لها، قال الله عزّ وجلّ له :

﴿وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾:

أي: وَلَا تَتَأَثَّرْ بأقوال الكافرين والمنافقين وأتهاماتهم وضغوطهم الظالمة. ولما كانت أحكام الله وأفضيته القدرية والتشريعية، تستند إلى علمه الشامل لكل معلوم موجود أو معدوم، وإلى حكمته العظيمة التي يختار بها دون اضطرار ولا إجبار ما هو أحكم وأعدل، انسجاماً مع كمال صفاته عز وجل ختم الله الآية الأولى من السورة بقوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾:

أي: إِنَّ صفتي كمال العلم وكمال الحكمة هما من صفات الله الأزلية، فهما إذاً أبدنان، لأن ما كان أزلياً فهو أبدي لا محالة، ومن كان عليماً حكيماً فهو لا يختار في أحكامه وأفضيته القدرية والتشريعية إلا ما هو الأحكم والأعدل، ولا مُجْبِر له سبحانه، بل أفعاله وأوامره الحكيمة هي من مقتضى كمال صفاته عز وجل.

هذا التمهيد الموجه للرسول بطريقة مباشرة، يتضمن توجيهاً غير مباشر للمؤمنين، وللآخرين، إذ فيه إشعار بأن الرسول وهو النبي المجتبي، يقف تحت طائلة العقاب إذا عصي، فكيف يكون حال من دونه، وفيه إعلام بأن زواج الرسول من مطلقة زيد الذي كان قد تبناه قبل تحريم التبني وإلغائه، تكليف من الله له لا خيرة له فيه، ومخالفة هذا التكليف تعرضه للعقوبة.

بعد هذا التمهيد بين الله عز وجل لرسوله الحدود التي يكون بالتزامها متحققاً بتقوى الله، فقال تعالى له:

﴿وَأَتَّبِعْ مَا يوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾:

أي: مهما أمرك ربك أو نهاك عن شيء بطريق الوحي فأنت مكلف أن تنبئه، وإن خالف هواك، وإن تصوّرت أنه يؤثر على صدقك في رسالتك، وعلى كمال نزاهتك وتجربتك عن الهوى وعن المصالح الشخصية، فالله عليم حكيم.

وإشارة إلى أن أي إخلال أو تقصير بهذا الاتباع المأمور به لا يخفى على الله منه شيء، قال الله له في آخر هذه الآية الثانية من السورة:

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

هذه الخبرة الربانية المحيطة بكل ما يُعمل الخلاق، هي من صفات الله الأزلية، فما يجري من شيء من الخلاق إلا كان محاطاً مُلاحقاً بالعلم الرباني التفصيلي المتبع لكل الدقائق الظاهرة والباطنة بعد امتحان، وما كان أزلياً فهو أبدي لا محالة.

وتلطفاً بحال الرسول ﷺ مع فصْدِ التعميم جاء الكلام على صيغة الجمع، فقال تعالى: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ لا على صيغة المفرد: بما تعمل خبيراً.

لكن الرسول ﷺ قد يتعرض في قضية أتباعه لما يُؤخى إليه من ربه حول موضوع إلغاء عادة التَّبَنِّي وإلغاء كل آثارها وأحكامها الجاهلية قولاً وعملاً، لانتهاكات ومقالات سوء تُوجه ضده.

وهذا يستدعي في التربية الحكيمة نهية نفس الرسول وقلبه وفكره نهية نابعة من القاعدة الإيمانية، وهي في هذا الموضع التذكير بالتوكل على الله، الذي وجه له التكليف، فهو الذي يحميه ويصونه، ويجعل ما يخشى منه سبباً في زيادة التمكين لنُبُوته ورسالته، وكمال نزاهته، ورفع ذكره، مع ما يُصيب مما يشتهي لنفسه وجسده فقال الله عز وجل له في الآية الثالثة من السورة:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

بعد التمهيدات التربوية من الله عز وجل لرسوله محمد ﷺ في الآيات الثلاث الأولى من سورة (الأحزاب) انتقلت السورة إلى بيان حقائق عقلية وعلمية تكشف فساد مفهومات وأحكام جاهلية شائعة، منها التَّبَنِّي وما يستتبعه من أحكام متوارثة في العادات والتقاليد الجاهلية.

المفاهيم الجاهلية التي تعرض لها النص

المفهوم الأول: ادعاء بعض أهل الجاهلية أن له قلوبين:

* روي عن ابن عباس أنه قال: كان رجلٌ من قُرَيْشٍ يُسَمَّى مِنْ ذَهَبِهِ (أي: من دهبه) ذا القلبين فأُنزل الله في شأنه قوله:

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾.

* وروي في سبب نزول هذه الآية عن مجاهد، أنه قال: إن رجلاً من بني فهر قال: إن في جوفي قلبين أعقلُ بكلِّ واحد منهما أفضل من عقل محمد - وكذب - فأُنزل الله هذه الآية.

نعم: كذب وخبيء.

* وروي عن قتادة وعن عكرمة نحو ما روي عن ابن عباس.

وهذا الادعاء ادعاء كاذب ليس له في الواقع حقيقة ينطبق عليها وربما كانت فكرة وجود أفراد في الناس يمكن أن يكون للواحد منهم قلبان، من الأفكار الجاهلية الشائعة.

المفهوم الثاني: كان أهل الجاهلية يعتبرون الظهار طلاقاً تحرم به المرأة، وأصل الظهار في عرفهم أن يقول الزوج لزوجته: أنت علي كظهر أمي، أي: حرام علي معاشرتك كحرمة أمي علي.

وهذا كذب مخالف للحقيقة، فالزوجة لا تكون أمًا، والام لا تكون زوجة، وجعل الزوجة المأذون بمعاشرتها كالأم التي تحرم معاشرتها هو من قبيل الجمع بين الضدين اللذين لا يجتمعان، فهو كذب تنطق به الأفواه فقط، ولا يجد في الواقع حقيقة ينطبق عليها.

والجمع بين الضدين مرفوض بداهة في العقول.

المفهوم الثالث: التبني الذي يجعل بحسب التقاليد والأعراف الجاهلية من لبس ابنًا في الحقيقة ابنًا بالادعاء والإلزام بعقد اختياري إرادي يعلنه المتبني ويقبله المتبني.

وهذا التبني يستتبع عندهم جميع الأحكام الخاصة بالابن النسبي، ومنها الميراث، ومنها تحريم زوجة هذا الدعي على من تبناه تحريمًا مؤبدًا، كما لو كان ابنه

حقيقة، فلو طلقها أو مات عنها لم يحلَّ في عرفهم لمن تَبَنَاهُ أن يتزوجها، نظراً إلى أنها بمثابة زوجة ابنه النَّسَبِيِّ.

وهذا عدوانٌ على ما هو من خصائص الله عزَّ وجلَّ في قضية التحليل والتحریم، وكذبٌ على الواقع والحقيقة، وذلك لأنَّ تَبَنِيَّ مَنْ لَيْسَ ابْنًا فِي الْحَقِيقَةِ لَا يَزِيدُ عَلَى كونه كلاماً كذاباً صادراً عن الأفواه فقط، تفاخراً بعمل إنساني، لا تعبيراً عن الواقع، بل الواقع بخلافه تماماً.

• الواقع يقول: إِنَّ الْمُتَبَنِيَّ لَيْسَ ابْنًا فِي الْحَقِيقَةِ.

• والادعاء يقول: إِنَّهُ ابْنٌ.

هاتان قضيتان مُتَنَاقِضَتَانِ، والتناقضُ مرفوضٌ في بداهة العقول.

* * *

البيان القرآني

جاء البيان القرآني كاشفاً للحقيقة في هذه القضايا الجاهلية الثلاث، وذلك في قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأحزاب / ٣٣ مصحف / ٩٠ نزول):

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۖ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۖ ﴾

(١) مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ.

(٢) وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ.

(٣) وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ.

والجامع لهذه القضايا الجاهلية الثلاث أنها قضايا كاذبات، بينها وبين الواقع تناقض، والتناقض مرفوضٌ في العقول بداهة، لذلك فهو لا يستتبع أحكاماً تستند إلى اعتباره مقبولاً غير مرفوض.

فالقضية الأولى:

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۖ ... ﴾

أي: ولا لامرأة من باب أولى، وخُصَّ الرجلُ بالذكر، للردِّ على من ادَّعى ذلك من رجال العرب، أما النساءُ فما ادَّعت ذلك واحدةٌ منهنَّ.

والسياق يدلُّ على أنَّ المراد من نقيٍّ أنَّ يكون لأيِّ إنسانٍ قلبان، هو نفي ازدواجية المتناقضة في ذاتية الإنسان العاقلة المريدة، وهذا من جعل الله وخلقه، وفطرته التي فطر الناس عليها، ولو شاء غير ذلك لفعل.

فإذ ليس للإنسان إلا قلبٌ واحدٌ يعقل به ويُريدُ به، فإنه لا يُمكن لهذا القلب الواحد أن يكون متناقضاً مع نفسه، ولا أن يقبل المتناقضات، ولا أن يسلم بها.

إنَّه لا يُمكن للقلب الواحد العاقل المريد أن يؤمن بالله حقَّ الإيمان، وتكون عناصر هذا الإيمان واضحةً لديه، ثمَّ يؤمن مع ذلك بالطاغوت، لأنَّ الإيمان الصحيح بالله الواحد الأحد يستلزم استلزماً عقلياً الكُفْر بالطاغوت.

إنَّ الإيمان بـ«لا إله إلا الله» لا يمكن أن يجتمع في قلبٍ واحد مع الإيمان بـإله غير الله، لأنهما قضيتان متناقضتان:

الأولى: تنفي وجود إله غير الله.

والثانية: تثبت وجود إله غير الله.

وهذا تناقضٌ مرفوضٌ بداهة، والفكرُ الواحد، والقلب الواحد لا يمكن أن يقبل التناقض، تلك فطرةٌ قاهرةٌ فطر الله الخلقَ عليها.

ولكن قد يخفى التناقض، حين يكون بين لوازم المتناقضات، عندئذٍ فقد ينساق الإنسان مع المتناقضات في الحقيقة جهلاً منه بواقع تناقضها، لا ازدواجاً في هويته ذات الشخصية الواحدة.

إنَّ من لوازم الإيمان الصحيح الواضح الشامل لكلِّ عناصر القاعدة الإيمانية في الإسلام، أن لا يوجد في قلب المؤمن بها تناقض في التقوى.

فإنَّه عزَّ وجلَّ بموجب هذا الإيمان هو وحده الأهل لأن يتَّقَى، فإذا أمر بشيء، أو نهى عن شيء، فإنَّ المفروض في المؤمن ذي الإيمان الكامل أن يوجَّه كلُّ ما لديه من خوف وخشية لتقوى الله، لأنَّه هو الذي بيده كلُّ شيء، وهو القادر على كلِّ شيء،

والمحاذير الأخرى التي تخضع لسنن الله في كونه لا يصح أن تأخذ حظاً من الخوف والخشية مناقضاً لما يجب أن يكون لله وحده.

وَمِمَّا نَقُول: إِنَّ ملاحظة سنن الله فيما خلق وذراً ويراً، ومنها سننه في المجتمع البشري، قد يكون فيها مخاوف تستدعي من الإنسان أن يخافها ويخشها.

وإن أوامر الله ونواهيه وزواجره تستدعي من المؤمن أن يتقي مخالفتها.

فإذا تناقضت مقتضيات تقوى الله، مع مقتضيات الخوف من غير الله، فإن مقتضيات تقوى الله هي الأحق بأن تمتص كل عناصر الخوف والخشية في هذا المجال، وهذا ما تستلزمه الهويّة الواحدة للقلب الواحد في الإنسان.

لكن وضوح رؤية الحقيقة بهذا العمق انتقالاً من اللوازم إلى أصل عناصر القاعدة الإيمانية قلما يوجد عند الناس.

وإذ أمر الله عز وجل نبيه في الآية الأولى من سورة (الأحزاب) بأن يتقي الله ولا يطيع الكافرين والمنافقين خوفاً من تشيعاتهم عليه، وحفاظاً على قدسيّة رسالته، ونزاهته من الأغراض الشخصية الدنيوية في القضايا الدينية، وفي كل تبليغاته عن ربه، أرشده إلى الأساس العميق الذي يستلزم أن يحصر تقواه بالله، ولا يخشى أحداً سواه، مهما كانت الدواعي لهذه الخشية، وذلك بمقتضى وحدة الهويّة للقلب الواحد الذي لا يقبل بفطرته التناقض.

إن هذا البيان يقدم برهاناً عقلياً وعلمياً على ضرورة الالتزام بجانب تقوى الله، إذا تعارضت مع الخوف من غيره، وعلى أن هذا هو ما تقتضيه الفطرة التي فطر الله الناس عليها، إذا كمل الإيمان، ووضحت الرؤية.

وحين يقبل الإنسان التناقض في بعض الأمور فذلك لخفاء التناقض عليه، وعدم وضوح الرؤية له، باعتباره من لوازم المتناقضات.

وكثيراً ما يخفى التناقض على الناس بين لوازم المتناقضات، ولو وضحت لهم الرؤية تماماً لرفضوا التناقض وما قبلوه.

وإذا قال قائل: إن هذه المعاني العميقة التي دل عليها النص قل من يفهمها من الناس.

فإننا نقول له: إن الخطاب في هذه الآيات للرسول محمد صلوات الله عليه ومن كان مثله كفته الإشارات والتلميحات الضمنية، والموجزات اللفظية، وإن كانت خفية عميقة المذكر، يصعب على أكثر الناس إدراكها.

وهذا من أسرار القرآن وبدايته ورواياته.

القضية الثانية:

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ...﴾ (١)

أي: كما أن أزواجكم اللاتي لا يصح في حكم الله أن يكن أمهاتكم اللاتي ولدنكم فلا يجوز لأحد أن يتزوج بأمه، ما جعل الله أزواجكم إذا ظاهرتن منهن فقال قائل لزوجه: أنت علي كظهر أمي - أي: حرام علي كرحمة أمي علي - ما جعلهن أمهاتكم لفلوكم ذلك بأفواهكم، ولا جعلهن في التحريم مثل حرمة أمهاتكم.

فالزوجة ليست أمًا في الحقيقة، ولا تكون في التحريم مثل الأم إذا ظاهر زوجها منها.

ومرجع هذا أيضاً من الناحية العلمية والشرعية إلى التضاد بين حقيقتين:

الأولى: الزوجة التي ليست أمًا في الواقع لا تكون بالقول أمًا (الزوجة ليست أمًا).

الثانية: الأم لا يصح في حكم الشرع أن تكون زوجة (الأم ليست زوجة).

فكيف يجمع المظاهر من زوجته بين حقيقتين متضادتين، زوجتي ليست أمي، زوجتي أمي، لمجرد كلام بقوله بفيه، وهو لا أساس له في الواقع ولا في حكم الشرع.

وقد أوجب الله على من بظاهر من زوجته الكفارة عقوبة له، إذ حرم على نفسه ما أحل الله له. والكفارة هي: تحرير رقبة من قبل أن يتماشا، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماشا، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً.

وقد أنزل الله حكم هذه الكفارة في أول سورة (المجادلة) التي نزلت بعد أربع عشرة سورة من إنزال سورة (الأحزاب).

* * *

القضية الثالثة:

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ...﴾ (١)

الدَّعِي: المتَّبَنَّى الذي تبناه رجل فدعاه ابنه، وهو ليس بابنه في الحقيقة.

والدَّعِي: أيضاً المنسوب إلى غير أبيه، والجمع أدعياء.

أي: وما جعل الله أدعياءكم - الذين تتبنونهم وهم ليسوا بابنائكم نسباً - أبناءكم، ولا لهم أحكام أبائكم فيما اصطفى لكم من الدين.

فإذا قال قائلكم لمن ليس ابنه نسباً: أنت ابني ترثني وأرثك، فإن إنشاءه لعقد التَّبَنِّي هذا لاغٍ وباطل، ولا يغير من الحقيقة شيئاً. فالواقع بخلاف ذلك، إن الإرادة القدرية لم تجعله ابنه نسباً، بل جعلته نسل شخص آخر، كذلك إرادة الله التشريعية لم تجعله ابنه حكماً إذا تبناه، لأن التَّبَنِّي ولوازمه على خلاف مقتضيات الحكمة الربانية.

ومرجع هذه القضية أيضاً التَّضَادُّ بين حقيقتين:

الأولى: من ليس ابناً في النسب بمقتضى الأدلة المثبتة للنسب، لا يصح في حكم الشرع أن يلحق بغير أبيه، على آية صورة من صور الإلحاق النسبي، ومن ذلك عقد التَّبَنِّي، فلا أثر للتَّبَنِّي لا في النسب ولا في الحكم الشرعي.

الثانية: التَّبَنِّي يتضمن إثبات حقوق البُنى لمن ليس ابناً في النسب، فيكون المتَّبَنَّى شريكاً في الميراث كالابن، إلى غير ذلك من أحكام، وهو يتضمن إثبات شيء، مضاف للواقع.

وقد جاءت هذه القضية الثالثة تمهيداً لما سيأتي في السورة من تكليف الرسول ﷺ أن يتزوج بنت عمته: «زينب بنت جحش» التي كان قد زوجها على كراهية منها «زيد بن حارثة» الذي كان عبداً أهده إياه خديجة زوجته رضي الله عنها، ثم

أعتقه الرسول وتبناه قبل أن ينزل في الدين إلغاء حكم التبني، فلما قضى زيد منها وطراً طلقها، وأمر الله رسوله بأن يتزوجها، تأكيداً عملياً لإلغاء عادة التبني الجاهلية، التي نزل بإلغائها القرآن.

والفاصل بين هذا التمهيد وبين التكليف الآتي يناسب الفاصل الزمني الذي كان بين الأمرين.

* روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر قال: إن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد، حتى نزل القرآن: [أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ].

(الحديث رقم (٤٧٨٢) في فتح الباري)

* وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: «بلغنا أن هذه الآية: ﴿أَيُّ: وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ نزلت في زينب بنت جحش، وكانت أمها أمة بنت عبد المطلب عمه رسول الله ﷺ أراد أن يتزوجها زيد بن حارثة مولاه، فكرهت ذلك، ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله ﷺ فزوجها إياه.

ثم أعلم الله عز وجل نبيه ﷺ بعد أنها من أزواجه، فكان يستحي أن يأمر بطلاقها، وكان لا يزال يكون بين زيد وزينب ما يكون من الناس (أي: خصام وخلاف وشجار بين الأزواج، وهو بسبب ترفع زينب على زيد الذي كان عبداً) فأمره رسول الله ﷺ أن يمسك عليه زوجته وأن يتقي الله، وكان يخشى الناس أن يعيوه عليه، ويقولوا: تزوج امرأة أبيه، وكان قد تبني زيدا^(١).

* وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال: «جاء زيد بن حارثة فقال: يا رسول الله، إن زينب اشتد علي لسانها، وأنا أريد أن أطلقها، فقال له: اتق الله وأمسك عليك زوجك، قال: والنبي ﷺ يحب أن يطلقها ويخشى قالة الناس»^(٢).

* * *

(١) انظر فتح الباري، الجزء ٨/ الصفحة (٥٢٣).

(٢) انظر فتح الباري، الجزء ٨/ الصفحة (٥٢٤).

حول التَّبَيُّنِ الجاهلي وإلغائه وتكليف الرسول أن يكون أول مطبق لإلغائه وموقف المناهقين من ذلك

بعد بيان الحق والسبيل الأقوم حول القضايا الجاهلية الثلاث، قال الله عز وجل:

﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾.

أي: ذلك القول الذي نقولونه في القضايا الثلاث قاصر على كونه قولاً صادراً عنكم تملأون به أفواهكم فقط، ولا يطابق من الحق شيئاً، ولا يوافق حكماً شرعياً منزلاً من عند الله.

فهو منحصر في كونه كلاماً كاذباً، أو عُذواناً على حق الله فيما هو من خصائص الألوهية، لما في بعض هذه القضايا من تحريم ما لم يحرمه الله، وترتيب حقوق لم يقض بها الله عز وجل.

وقد دلَّ على القصر تعريف طرفي الجملة الخبرية: [ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ]:

[ذَلِكُمْ]: مبتدأ، وهو معرفة، لأنه اسم إشارة، أشير به إلى كلام معين معروف سبق بيانه.

[قَوْلُكُمْ]: خبر، وهو معرفة، لإضافة القول إلى ضمير المخاطب الذي هو معرفة جلية.

[بِأَفْوَاهِكُمْ]: قيد دلَّ على أنه ليس قولاً معتبراً، إذ هو مجرد قول بالفم فقط، ولو فُلاَّتْ به فراغ أفواهكم.

* * *

ولما كانت القضايا الجاهلية الثلاث بمجموعها تشتمل على نوعين:

النوع الأول: كلام يتحدث عن الواقع حديثاً كذباً باطلاً.

النوع الثاني: كلام ينشئ أحكاماً تشريعية جاهلية بجانب سبيل الهدى، وما أنزل الله بها من سلطان.

قال الله عز وجل عقب بيانها: وبيان كلمته حولها:

﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾.

أي: فهو سبحانه يقول الحق بالنسبة إلى الواقع والحقيقة.

وهو يهدي السبيل الأقوم الأحق بأن يكون هو السبيل لا غيره بالنسبة إلى الكلمة التشريعية.

(١) ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۖ ﴾

قول حق مطابق للواقع تماماً.

(٢) ﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ ﴾

قول حق مطابق للواقع من الناحية المادية الواقعية، وهو قول يهدي السبيل الأقوم من الناحية التشريعية التي قد تعتمد على أقوال الناس والتزاماتهم، كالنذور، وعقود الزواج، وكلمة الطلاق، وسائر عقود التمليك والتوكيل وغير ذلك.

لكن السبيل الأحكم والأقوم في كلمة الظهار أن لا تكون محرمة للزوجات اللاتي أباحهن الله لأزواجهن، فمن قال هذه الكلمة عوقب بالكفارة، حتى لا يقولها مرة أخرى.

(٣) ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۖ ﴾

قول حق مطابق للواقع تماماً من الناحية المادية الواقعية. وهو قول يهدي السبيل الأقوم والأحكم من الناحية التشريعية.

فالسبيل الأقوم يقضي بأن لا يؤسس عقد التبني حقوقاً واحكاماً تشريعية، هي في الأصل للأبناء من النسب.

إِذَا فَعَقَدَ التَّبَنِيَّ أَمْرٌ لِّغَوْ لَا أَثَرُ لَهُ فِي الْإِسْلَامِ.

ثم بين الله عز وجل الحكمة من إلغاء عادة التبني الجاهلية وأحكامها، في حكم الإسلام، وبين المنهج الأقوم في معاملة من يريد أن تعطف عليه بالتبني، وبين أحكام الخطأ والعمد في قضية الانتماء النسبي، فقال عز وجل:

﴿ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ

حول التَّبَنِي الجاهلي وإلغائه وتكليف الرسول أن يكون أول مطبق لإلغائه وموقف المنافقين من ذلك

اللَّهُ عَفْوٌ رَّحِيمٌ ﴿٦﴾

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ :

أي: أنسبوا الأبناء إلى آبائهم الَّذِينَ خرجوا من أضلابهم، بحسب ما يظهر لكم في الدلائل الإنسانية، ولا تنسبُوهم إلى غير آبائهم بالادِّعاء والتَّبَنِي.

﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ :

أي: نسبة الأبناء إلى آبائهم النَّسَبُ أعدل عند الله من نسبتهم إلى من يعطف عليهم فَيَتَّبِعُهُمْ.

وقال تعالى: ﴿أَقْسَطُ﴾: أي: أكثر قسْطاً، وإشعاراً بأن دافع التَّبَنِي في الأصل قد يكون دافعاً إنسانياً نبيلاً، فقد يكون رَحْمَةً بالمتَّبَنِي، أو تشريعاً له وتكريماً، وقد يكون ستراً لحاله إذا كان مجهول النسب كاللِّقْطَاء، وكالصَّغار الذين يُسْرِقُونَ من أهليهم، أو يؤسرون ويُسْرِقُونَ ظلماً وعدواناً.

فالدافع له قد يكون الرغبة بتحقيق عدالة اجتماعية تُعوّض الْمُتَّبَنِي عما فقده.

لكن التَّبَنِي قد يتولّد عنه مشكلات اجتماعية، ومنافاة لقواعد الحق والعدل، أكثر من العدالة الاجتماعية التي قد تتحقّق به.

فالتَّبَنِي يجعل المتَّبَنِي وارثاً موروثاً كالابن، وهنا يأتي الوارثون من النسب فتشور في نفوسهم اعتراضات وأحقاد، ويحاولون بكل الوسائل إلغاء عقد التَّبَنِي، لئلا يشاركهم في حقوقهم غريبٌ عن أسرهم.

والتَّبَنِي يجعل قسماً من النساء اللاتي يجوز الزواج منهنّ محرّمات لمجرّد كلمة التَّبَنِي، فتصير الغريبات بعقد التَّبَنِي بنات وأخوات وعمّات وخالات ونحو ذلك، وهنّ لسنّ كذلك.

إلى غير ذلك من مشكلات.

ولدى الموازنة بين رغبات العدالة الاجتماعية التي قد يحقّقها التَّبَنِي، والحقوق التي يهضمها التَّبَنِي، وأنواع الظلم التي قد يجلبها، والأحكام المنافية للحكمة التي

يستلزمها من تحليل وتحريم، نلاحظ أن نسبة الأبناء إلى آبائهم النسيين أقسط وأكثر عدلاً، وأعظم حكمة، وهو ما بينه الله عز وجل بقوله:

﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ...﴾ ﴿٥٠﴾

أما مشكلة مجهولي النسب الذين لا يعلم أبائهم من المسلمين، وهم في المجتمع الإسلامي قليلون نادرون، فالعطف عليهم يكون بإعلان أخوتهم الإسلامية، فإذا نُسِبَ أو انتسب سواء أكان حراً أو عبداً، فهو أخو بني فلان الذين جعلوه أخاهم في الدين، من ذوي الأنساب الظاهرة المعروفة، وهذه الأخوة تدخل ضمن الأخوة الإيمانية، ولا تستلزم أحكاماً خاصة مالية ولا غيرها، لأنها أخوة في الدين فقط لا أخوة في النسب.

وإذا كان رقيقاً واعتق فهو مولى من اعتقه.

وبياناً لذلك قال الله عز وجل:

﴿فَإِنْ لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ...﴾ ﴿٥١﴾

لكن الذين تنسبهم إلى آبائهم بحسب ما يظهر لنا من الأدلة والأمارات وانتماءات الناس، قد لا يكونون كذلك في واقع الأمر، فهل نحن مكلفون أن لا ننسب الناس إلى آبائهم إلا إذا كنا على يقين من ذلك؟

وجاء الجواب القرآني على هذا التساؤل بقول الله تعالى:

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ...﴾ ﴿٥٢﴾

أي: في نسبة الأبناء إلى آبائهم بحسب ما ظهر لكم من الأدلة والأمارات وانتماءات الناس، فليست مكلفين أن تتبعوا اليقين العلمي في هذا الأمر، والخطأ في هذا لا جناح فيه.

أما التعمد الإرادي في نسبة الإنسان إلى غير أبيه فهو محل المسؤولية الدينية، فقال الله عز وجل:

﴿وَلَكِنْ مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ...﴾ ﴿٥٣﴾

أي : ما تعمَّدتْ قلوبُكُمْ تعمُّداً إراديّاً من نسبة إنسان إلى غير أبيه ، وأنتم تعلمون أنه ليس أباه ، ففي هذه الحالة يكون عليكم جُنَاحٌ في هذه النسبة ، وأنتم بها آثمون تشهدون شهادة زور ، وأنتم عالمون بأنّها كذب وزور .

ومن رحمة الله وفضله أنّه يفتح لعباده باب غفرانه ورحمته ، ليستغفروه ممّا ارتكبوه من آثامٍ بَعْدَ بيانِ أحكامِ شريعته لهم ، أمّا مواقع الإثم فهي التي من سقط فيها عَصِيٌّ واستحقَّ المؤاخَذة والعقاب ، فقال الله عزَّ وجلَّ في ختام الآية مبيّناً لهم أنّه غفور رحيم بعباده دواماً :

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝﴾

وإذْ قد تَضَمَّنَتِ الآياتُ السابقات من السورة إلغاء التَّبَيُّ وأحكامه الجاهلية ، ومنها التوارث على أساسه ، تمهيداً لتكليف الرسول ﷺ أن يُطَبِّقَ إلغاءه عملياً بنفسه ، في أن يتزوَّج «زينب بنت جحش» ابنة عمته ، وهي مطلقة «زيد بن حارثة» الذي كان يقال له بمقتضى تَبَيُّه له : «زيد بن محمد» .

ولمّا كان في أصل قصّة تزويج الرسول زينب من زيد بن حارثة نوعٌ من الولاية الإلزامية بأن يتزوَّجا ، فقد جاءت الآية السادسة من السورة تعالج الإجابة على تساؤلات تدور حول ولاية الرسول ﷺ ، وحول حقّ التوارث ، والمخرج لمن أراد أن يُحَسِّنَ لوليّه من غير أولي الأرحام ، فقال الله عزَّ وجلَّ :

﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ۖ... ۝﴾

أي : فإذا تَوَلَّى لهم امرأة ، أو عقد لهم عقداً ، أو كَلَّفَهُمْ عملاً ، فهو نافذٌ عليهم بحكم ولايته الإلزامية ، ومن ذلك تزويجه «زينب بنت جحش» من «زيد بن حارثة» وهي لهذا الزواج كارهة .

ولمّا كان الرسول أُولَىٰ بالمؤمنين من أنفسهم ، فهو بمشابهة الأب المجبر ، وعليه فازواجه بمشابهة الأمهات لهم ، فلا يجوز لأحد أن يتزوَّج بإحداهن من بغيه ، مع كونهن مأمورات بالتستّرِ منهم ، فقال الله عزَّ وجلَّ :

﴿وَأَزْوَاجَهُنَّ أَمْهَاتُهُنَّ ۖ... ۝﴾

هذه قضية جرتُها المناسبة وهي ليست من أصل الموضوع، وتعتبر أمثال هذه الإضافة من الطرائف الفكرية في البيان، ومن روائع الأدب.

وإذ قد تمَّ إلغاء التَّبَيُّ وَمَا يَسْتَبَعُ من أحكام، ومنها التوارث، فلا بُدَّ من التنبيه على من هو أحقُّ بالتوارث، فقال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ...﴾ (٦).

فكان في هذا بيانٌ لإلغاء التوارث على أساس التَّبَيُّ الذي جاء في السابق، وإشعاراً بإلغاء التوارث على أساس الهجرة والمؤاخاة الذي كان بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة حتى نزلت آية الموارث.

ولكن ما المخرجُ لمن أراد أن يصنع لِوَلِيِّهِ أو صديقه أو أخٍ في الإسلام معروفاً؟
وجواباً على ذلك قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (٦).

أي: إنَّ باستطاعتكم أن تَفْعَلُوا إلى أوليائكم معروفاً بالوصية، أو بالعطاء وأنتم أحياء، فهو المخرج، ولا داعي لجعل ذلك ضمن حقوق التوارث.

وبعد ذلك ذكر الله عزَّ وجلَّ رسوله محمداً ﷺ بأنَّ التبليغ، وأتباع ما يُوحى إليه من ربِّه، والتزام كمال التقوى، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، القضايا التي بدأت بها السورة، هي ممَّا أخذ الله عليه ميثاق النَّبِيِّينَ، وجعله ميثاقاً غليظاً على أولي العزم من الرُّسُل، محمداً ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، فقال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (٧).

وظاهر أنَّ ميثاق التبليغ بصدقٍ يستلزم تقديم شهاداتهم يوم الدين بأنهم قد بلغوا الأمانة وأدَّوا الرُّسالة.

إِنَّهُمْ لَا شَكَّ صَادِقُونَ، وَهُمْ سَيُسْأَلُونَ يَوْمَ الدِّينِ عَمَّا بَلَّغُوا لَأَقْوَامِهِمْ، وَهُوَ مَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِتَبْلِيغِهِ بِصِدْقٍ وَأَمَانَةٍ، فَيَقْدُمُونَ شَهَادَتَهُمْ، وَبَيَانًا لَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿لَيْسَتِلَّ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ...﴾ (A)

فوصفهم بكونهم صادقين، ووصف ما بَلَّغُوهُ بأنه صِدْقٌ، فالسؤال للشهادة، التي هي من حجج الإدانة للذين تَبَلَّغُوا ولم يستجيبوا.

وبعد هذه الشهادة، ومحاسبة أهل الكفر على رفضهم بلاغات رُسُلِ رَبِّهِمْ، يصُدِّرُ الحُكْمَ على الذين كفروا بأنهم أصحاب النار هم فيها يعذبون عذاباً أليماً، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (A)

فاكتفى بذكر الإعداد عن ذكر تنفيذ الجزاء، كما اكتفى بالسؤال عن ذكر المحاسبة لأن الأشياء تدلُّ باللزوم الذهني على المقترنات بها، ولواحقها في سلسلة الموضوع.

وَقَضَتْ حُكْمُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مع إِنْزَالِ التشريع بإبطال عادة التَّبَيُّنِ الجاهلية، وإلغاء الأحكام المترتبة عليه، كالميراث، وتحريم الزواج من مطلقَةِ المتَّبَيَّنِ، أن يقضي بشزويج «زينب بنت جحش» من «زيد بن حارثة» الذي كان عبداً للرسول ثُمَّ أعتقه وتبنَّاه، ليشعر بإلغاء الفوارق الطبقية في مفهومات الإسلام، فهذا الرسول يزوج ابنة عمته لعمولاه وهي قرشية عريفة، وقضى الله أَنْ لَا يَتِمَّ بِفَاقٍ بَيْنَهُمَا حَتَّى طَلَّقَهَا زَيْدٌ، وَأَعْلَمَ اللَّهُ رُسُلَهُ بِأَنَّهُمَا سَتَكُونُ إِحْدَى زَوْجَاتِهِ، وَتَهَيَّبَ الرُّسُلَ ﷺ من مواجهة الناس بِحَدِيثِ يُبَايِئُهُ بِنَفْسِهِ، مُخَالِفٍ لِأَعْرَافِ الْقَوْمِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَصَدْرِ الْإِسْلَامِ، وَمُسْتَكْبِرٍ عِنْدَ الْعَرَبِ بِحَسَبِ تَقَالِيدِهِمْ، وَمِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُبَيِّرَ مَقَالِدَ سُوءِ تَمَسُّ نَزَاهَتِهِ، مِنْ جِهَةِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، فَحَاوَلَ الرَّسُولُ ﷺ تَهْدِئَةَ نَفْسِ «زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ» تَجَاهَ تَعَالِي زَيْنَبٍ عَلَيْهِ، حِينَ شَكَّى تَصَرُّفَاتِهَا نَحْوَهُ، وَقَالَ لَهُ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ، مع علمه بِأَنْ قَضَاءَ اللَّهِ نَافِذٌ لَا مَحَالَةَ.

لكن الخلاف اشتد بين زيد وزينب حتى طلقها، عندئذ أمر الله رسوله بأن يتزوج زينب، فاطاع لأمر الله عز وجل.

ولما تم الأمر أخذ المنافقون يقولون: إن محمداً يحرم نساء الأولاد، وقد تزوج امرأة ابنه زيد.

قال ابن الأثير: «وتكلم المنافقون في ذلك، وقالوا: إن محمداً يحرم نساء الأولاد، وقد تزوج امرأة ابنه زيد، لأنه كان يقال له: زيد بن محمد»^(١).

وإذ قد روي أن المنافقين وجهوا هذا الانتقاد للرسول ﷺ، فمن المرجح أن يكون الكافرون الصرخاء قد ردّدوا مثل هذه المقالة، وقد يدل عليه قول الله عز وجل له في صدر السورة:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ١﴾ :

وقول الله عز وجل له بعد عرض البيانات المتعلقة بزواجه من زينب بنت جحش في السورة نفسها أيضاً:

﴿وَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ٨﴾ .

فأضاف في التوجيه الثاني إرشاده بأن يدع أذاهم، أي: بأن يتركه ويهمله، ولا يشغل نفسه برده وبالاتصار لكرامته، فمن شأن هذا الترك والإهمال للأذى أن تنطفئ ناره، أو يذوب جليده وينساح في الأرض.

وصاحب الأذى يجد نفسه قميئاً أمام من سدد له سهام أقواله وتشنيعاته.



(١) انظر أسد الغابة، ج ٧ ص ١٢٦.

النص الثالث عشر

من سورة (الأحزاب / ٣٣ مصحف / ٩٠ نزول) رابع سورة مدنية

الآيات من (٣٦ - ٤٠) والآية (٤٨)

حول موقف المنافقين من زواج الرسول مطلقة

«زيد بن حارثة» الذي كان قد أعتقه وتبناه

* قال الله عز وجل فيها:

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُبِينًا ۝٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ۝٣٧ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ۝٣٨ الَّذِينَ يَلْفُفُونَ رِسَالَتِ اللَّهِ وَيَحْشُونَكُمْ لِآلِهِ إِلَّا اللَّهُ وَكُنِيَ بِاللَّهِ حَسِيبًا ۝٣٩ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٤٠﴾

* وقال الله عز وجل فيها:

﴿وَلَا تُطِيعُوا الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعُوا أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝٤٨﴾

مَا فِي النَّصِّ مِنَ الْقَرَاءَاتِ الْمُتَوَاتِرَاتِ (مِنَ الْفَرَشِ)

• قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف وهشام: [أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ] بياء التذكير.

• وقرأ باقي القراء العشرة: [أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ] ببناء التانيث.

وهما وجهان نحويان في استعمالات العرب لأن لفظ [الْخَيْرَةُ] مجازي التانيث.

(١)

المعنى العام للنص

ذكر الله عز وجل في هذا النص لفظات من قصة تزويج «زينب بنت جحش» من «زيد بن حارثة» أولاً، ثم تطلق زيد لها، وتكليف الله رسوله بأن يتزوجها، بُعْيَةُ إلغاء عرف النبي الذي كان عند أهل الجاهلية، وبقي في صدر الإسلام حتى نزل إلغائه نصاً، وبصورة عملية يتفادها الرسول بنفسه. وذكر فيه أيضاً بيانات تتعلق بهذا الموضوع.

(١) فجاء في اللَّقْطَةُ الأولى: الإشارة إلى أن تزويج الرسول ﷺ «زينب» من «زيد» قد كان بتوجيه من ربه. وجاءت فيها الإشارة الضمنية إلى أنه حصل مُنْعُ أَوَّل الأمر (أي: من زينب، لتعالها بطبقته الاجتماعية) حَتَّى علمت أنه أمر واجب الطاعة، فإطاعت وهي كارهة، لأنه ليس لمؤمن ولا مؤمنة خيار في أمرهم ولو كان من خصوصياتهم الشخصية، إذا قضى الله ورسوله فيه أمراً.

(٢) وجاء في اللَّقْطَةُ الثانية: بيان عما كان من الرسول محمد ﷺ حين شكَا «زيد بن حارثة» للرسول عدم صبره على تَرْفُعِ زينب عليه، وأنه يريد طلاقها، فقال له الرسول: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ» مع أن الله عز وجل كان قد أعلمه بأنها ستكون إحدى زوجاته، إلّا أنه خشي من قَالَةِ السوء أن تُوجَّهَ له من أجل أنه إذا تزوجها بعد طلاق زيد لها قال الناس: تزوج محمد زوجة ابنه (أي: من كان قد تبناه) لأنهم كانوا في الجاهلية يرون أن المتبني بمثابة الابن تماماً.

فوجه الله لرسوله عبارات التشجيع على تجاوز خشية الناس، وعدم الاكتراث لها، لدى تنفيذه حكماً دينياً من أحكام الله عز وجل، وإن كان يتعلّق بما قد يُقال فيه: إن له فيه هوى نفسياً.

(٣) وجاء في اللَّقْطَةُ الثالثة: بيان طلاق «زيد» لـ «زينب» وتزويج الله رسوله منها، ليكون أول مُنفَّذ بنفسه لإلغاء عرف التَّبَنِي وأحكامه وما يستتبعه، ويكون بذلك قُدْوَةٌ للمؤمنين، فلا يجدُ بعد ذلك أحدٌ منهم حرجاً في أن يتزوَّج من كانت زوجةً متبنَّاه على عرف أهل الجاهلية.

(٤) وأبان الله عز وجل للمؤمنين وللناس أجمعين: أن النبي بشرٌ من البشر في أحكام الدين حلاله وحرامه، وهو فيها كسائر الناس، فما أباحه الله للجميع ولم يحرمه عليه بالخصوص، فلا حرج عليه فيه.

وأبان أن النبي محمداً ﷺ في هذا شأنه كشأن سائر النبيين من قبله:

* فهم يشاركون الناس في فطرهم، وفي تناول المباحات التي أباحها الله من أكل وشرب وزواج وسائر لذات الحياة.

* وهم جميعاً يُبلِّغُونَ رسالات الله، فما أمرهم الله بقوله قالوه، وما أمرهم بفعله فعلوه، ليكونوا أسوةً لمن بعدهم من المؤمنين، فدلَّ بهذا على أن فعل الرسول تبليغٌ عمليٌ لرسالة الله.

* وهم جميعاً يخشون الله في تبليغ رسالاته، ولا يخشون أحداً غيره ويتوكّلون عليه، مكتفين بأنّه حسيب، أي: كافٍ لمن توكّل عليه، ومحاسبٌ لمن يتعرّضُ لهم بالأذى، أي: ومجازٍ، فالحساب يستتبع الجزاء.

(٥) وأبان الله للناس: أن مقولة النبي أو عقد التَّبَنِي لا يؤثر في تغيير الحقيقة شيئاً، فزيد هو ابنُ حارثة، وليس ابنُ محمد كما تُطلقون استناداً إلى تبنيّه له فيما سبق، لقد تمَّ إلغاء عرف التبني.

ومحمد لم يتي الله له ولداً ذكراً يُبلِّغ مبلِّغ الرجال، فما كان محمدُ أباً أحيد من رجالكم.

وأشار الله عز وجل إلى الحكمة من ذلك ضمناً، فقال تعالى:

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝﴾

أي: إن الله عز وجل لما شاء أن يختم النبوات التي جعلها في سلالة إبراهيم عليه السلام من بعده، أوقف الذريّات الذكور عند محمد بن عبد الله في عرق النبوة الموصول بشرط سلالة إسماعيل بن إبراهيم، كما أوقفها في عرق النبوة الموصول بشرط سلالة إسحق بن إبراهيم، عند يحيى وعيسى عليهم السلام.

نذكرُ هذا من قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ بعد قوله: ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ مع قوله تعالى بشأن إبراهيم عليه السلام في سورة (العنكبوت) / ٢٩ مصحف / ٨٥ نزول:

﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ... ۝﴾

(٦) وتعرض الرسول ﷺ للأذى من قِبَل الكافرين والمنافقين من أجل تنفيذه عملياً إلغاء حكم التَّبَنِّي، فَبَيَّنَّ اللَّهُ، فأكد له أن لا يطيع الكافرين والمنافقين، ونَصَحَهُ بأن يَدْعَ أذاهم، فَيَعْرِضَ عَنْهُ ولا يَقابله بشيء، وأن يتوكل على الله.

* فعدمُ مقابلة الأذى بمثله من شأنه نسيان أصل الموضوع في المجتمع البشري.

* ومن توكل على الله كفاه الله، فصرف عنه كلُّ همٍّ وغمٍّ وأذى، وردَّ عنه كيد أعدائه وخصومه.

(٢)

المفردات اللغوية للنص

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۝﴾

هذا الاستعمال ونظراؤه في القرآن، مما سُلط فيه النفي على جملة مصدرية بفعل

الكون يدلّ على نفي اجتماع خبر كان واسمها دواماً، نظراً إلى أنهما متنافيان، والمتنافيان لا يجتمعان.

فمعنى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

لا يجتمع بصورة دائمة موت نفس ما وإذن الله بموتها غير موجود، فموت أئمة نفس مع عدم إذن الله به، أمران متنافيان لا يجتمعان.

ومعنى: ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُؤَيِّسَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

لا يجتمع بصورة دائمة اصطفاء الله لبشر بالكتاب والحكم والنبوّة، وأمره للناس بأن يعبدوه من دون الله، إذ هما أمران متنافيان لا يجتمعان.

وحين يأتي في الكلام اسم كان أو خبرها وصفاً مشتقاً أو بمعناه، وراينا أن الاجتماع المنفي غير متحقّق دواماً في الأفراد، فالمراد من الوصف المشتقّ كماله، أو كمال مرتبة من مراتبه، أو أن هذا الوصف المشتقّ غير موجود في الحقيقة.

فمعنى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾.

لا يجتمع بصورة دائمة كمال الإيمان وقتل إنسان مؤمن غمداً.

ومعنى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾.

لا تجتمع النبوّة والغلول بحال من الأحوال، فإن وُجدت النبوّة فلا غلول، وإن وُجد الغلول فلا نبوّة.

وبناء على هذا البيان التحليلي أقول في قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ

أَمْرِهِمْ﴾.

المعنى: لا يجتمع بصورة دائمة كمال مرتبة التقوى، واختيار غير ما قضاه الله

ورسوله من أمر تكليفي. دلّ على أن المراد كمال مرتبة التقوى من مراتب الإيمان التّنبّه في الآية على أن المخالف عاص.

أَمَّا مَا قَضَاهُ اللَّهُ بِأَمْرِ تَكْوِينِي فَهُوَ نَافِذٌ حَتْمًا، وَلَا خَيْرَةَ فِيهِ لِأَحَدٍ أَصْلًا، مُؤْمِنٍ أَوْ كَافِرٍ.

﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ :

أي: إذا أمضى الله ورسوله أمرًا تكليفيًا، وتم إبلاغه للمكلف.

أصل الإمضاء الثبوت والإنهاء، ويكون بالنسبة إلى الإرادة التكليفية، يثبت التكليف وإنهائه وإعلامه للمكلف.

الْخَيْرَةُ: اسمٌ بمعنى الاختيار والتخير، تقول لغة: اختار الشيء وتخيرهُ إذا انتقاه وفضله على غيره. وتطلق «الخَيْرَةُ» على ما يُختار.

فالمؤمن المتقي لله لا يختار لنفسه غير ما قضاه الله ورسوله من تكليف.

﴿صَلَّ صَلَاتًا مَيِّنَةً﴾ :

أي: فقد خرج عن صراط الاستقامة على طاعة الله، ودخل في مناهات الضلال. المبين الواضح الذي لا شبهة فيه، وقذف بنفسه إلى المعصية واستحقاق العقاب والمؤاخذه.

﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ :

الْحَرَجُ: الضيق والشدة، والمضايق التي لا يستطيع السالك النفوذ منها، والخرج: غيضة الشجر الملتفة التي لا يستطيع الدخول إليها أن ينفذ فيها، وضد الخرج في المعنويات الأعمال والتكاليف التي فيها يسر وسهولة، وكذلك اليسر والسهولة.

ونفي الحرج في الشرعيات يدل على الإباحة، أو رفع التحريم والحظر.

﴿أَدْعِيَا بِهِمْ﴾ :

أدعية: جمع «دعي» وهو هنا المُنْتَبِئ، ويأتي بمعنى المتهم في نسبه، وبمعنى المنسوب إلى غير أبيه.

﴿وَطَرَأَ﴾ :

الْوَطْرُ: الحاجة التي فيها مَأْرَبٌ وَهَمَّةٌ، وجمعه «أوطار» ويُقَالُ: قَضَى مِنْهُ وَطْرَهُ، أي: نال منه بُغْيَتَهُ. وجاء التعبير بقضاء الوطر في هذا النَّصِّ كنايةً عن إنهاء الحاجة لمعاشرة الزوجة بطلاقها، فالطلاق عن عزمٍ إِرَادِيٍّ تعبيرٌ عن إنهاء رغبة الزوج بزوجه، وأنه لم يَبْقَ لَهُ وَطْرٌ لديها.

مُبيناً: اسم فاعل من: «أَبَانَ» الشيء إذا ظهر واتَّضَحَ من اللازم، وَاسْتَعْمَلَ الفعل متعدياً، فتقول: أَبَانَ فلانُ الشيء إذا أَوْضَحَهُ وأظهره، كما يستعمل «بَانَ» لازماً ومتعدياً أيضاً مثل «أَبَانَ».

* * *

(٣)

ما رُوي في سبب النزول

معظم الروايات تُدَلِّ على أَنَّ النَّصَّ نزل بشأن تزويج الرسول «زينب بنت جحش» ابنة عَمَّتِهِ، لمولاه «زيد بن حارثة» ثم طلاق «زيد» لها وزواج الرسول منها بأمر الله، كما سبق بيانه.

* * *

(٤)

مع النَّصِّ في التحليل والتدبر

• قول الله عز وجل:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ...﴾ ﴿٦٥﴾

هذه الجملة مَبْدُوءَةٌ بحرف العطف، وقد لَا يَظْهَرُ في السوابق القرية ما يُلائم أَنَّ تكونَ معطوفةً عليه، لَكِنْ إذا رَجَعْنَا إلى صدر السورة وتركنا ما عرضته من أحداث رُوي في ترتيب ذكرها حكْمٌ بيانيّ تستدعي تدبراً عميقاً، رأينا أنها معطوفة على ما جاء في الآية السادسة من السورة، وهي:

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولَئِذَا أَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ...﴾ (٦)

إذا تذكّرنا هذه الآية وما جاء فيها، وجدنا من المناسب جداً أن يُعطف عليه:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ...﴾ إلى آخر الآية.

ولا يضر كون الفاصل طويلاً، لأنَّ السورة القرآنية هي بمثابة شجرة متشابهة الأغصان، ولأواخرها صلة بأوائلها، وبالعناصر الرئيسة لموضوعها.

والمعنى: ليس من وصف المستكملين شروطاً مرتبة التقوى من المؤمنين والمؤمنات إذا أمضى الله ورسوله أمراً تكليفاً إلزامياً بفعل شيء أو ترك شيء أن يكون لهم اختيار آخر غير ما أمضى الله ورسوله، أو شيء آخر يختارونه غير ما أمضى الله ورسوله من أمر، وإن كانوا مُمكنين من ذلك بإرادة الله التكوينية، لكن تقواهم تمنعهم.

وجاء ذكر الله مع ذكر الرسول للإشعار بأنَّ ما يُعزَّم عليه الرسول من أمرٍ ويقضيه مُلزماً به، فهو من أمر الله وقضائه؛ إمّا بتكليف من الله وهو مُبلغ، أو بإذن من الله وإمضاء لما قضى به الرسول، فهو أيضاً من قضاء الله وأمره، وحين لا يكون لله في الأمر قضاء، فإنه يُوقف رسوله عن إمضائه ولا يأذن له به.

* قول الله عز وجل:

﴿وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ (٧)

المعصية: هي مخالفة الأمر الإلزامي أو النهي الإلزامي لمستحق الطاعة، وبين معصية الله ورسوله تلازم، فمن عصى الله فقد عصى رسوله، ومن عصى الرسول فقد عصى الله، وكذلك فمن أطاع الله فقد أطاع رسوله، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله. إذ كُلُّ مَا يَأْمُرُ بِهِ اللَّهُ يَأْمُرُ بِهِ الرَّسُولُ، وكُلُّ مَا يَنْهَى عَنْهُ اللَّهُ يَنْهَى عَنْهُ الرَّسُولُ، وكُلُّ مَا يَأْمُرُ بِهِ الرَّسُولُ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ يَأْمُرُ بِهِ اللَّهُ، وكُلُّ مَا يَنْهَى عَنْهُ الرَّسُولُ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ يَنْهَى عَنْهُ اللَّهُ.

ولما كانت معصية الله ورسوله تُخرِجُ العاصي عن صراط الله المستقيم، الذي

يُوصَلُ من التَّزَمَ إلى النجاة من عذاب الله، والظفر بثوابه، ولَمَّا كان الخروج عنه يرفع الخارج في استحقاق عذاب الله، والحرمان من ثوابه، على بِقْدَارِ نِسْبَةِ خروجه، فلا بُدَّ أن يكون العاصي لله ورسوله قد ضلَّ بعضيَّه فابتعد عن صراط النجاة والظفر بالثواب، وضلَّله هذا ظاهر واضح جلِّيُّ لَدُنَى كُلِّ مؤمنٍ صحيح الإيمان.

وهو أيضاً مُبَيَّنٌ كاشفٌ لَمَّا في نفسه من نقص في الإيمان، أوجبٌ للمعالجة وإثارة لها، أضعفٌ في الإرادة أمام مطالب الأهواء والشهوات.

والضلال: هو الضياع، والابتعاد عن طريق الهدى.

* قول الله عز وجل خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تُخْفِيَهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٧٧﴾﴾.

زيد بن حارثة هو الذي أَنْعَمَ الله عليه عن طريق الاسترقاق حتى صار لخديجه، فمحمد ﷺ، ثم أَنْعَمَ عليه بالإيمان والإسلام فكان من طليعة الصف الأول، ثم صار أحد كبار أصحاب الرسول ﷺ. وَأَنْعَمَ الرسولُ عليه بالتبني، وبالتبني قبل إغائه، فبتزويجه من «أُمِّ آيَمَن» مولاته، فبتزويجه من «زينب بنت جحش» وهي ابنة عمته «أميمة بنت عبد المطلب» فبإعلان أنه حُبُّ رَسُولِ اللَّهِ بعد إغاء التبني، إلى غير ذلك من إتمامات جاءت بعد ذلك، وبين ذلك.

لَمَّا جاء زيد يشكو لرسول الله تعالى «زينب» بأسرتها وحسبها ونسبها عليه، ورغبت في طلاقها، وكان قد أُعْلِمَ بأنها ستكون إحدى زوجاته بحكم من الله لِشَيْئَتِ حُكْمِ اللَّهِ بِإِغَاءِ التَّبْنِي وَكُلِّ تَوَابِعِهِ، قال الرسول له:

﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾.

وببدو أن زيداً كرّر شكواه، وكرّر الرسولُ مقالته هذه له، لذلك ذكره الله بما كان يقول لزيد عند متكررات شكواه، فاستعمل الفعل المضارع الذي يدلّ على تكرير الحَدَث.

أي: واذكرْ إذ كنتَ تقولُ هذا القول، وكان الرسول ﷺ في كُلِّ مَرَّةٍ يُخْفِي في نفسه ما الله مُبْدِيه.

ولو أن الحادثة جرت مرةً واحدةً لكان البيانُ المطابق يقتضي أن يجيء كما يلي: واذْ قُلْتُ... وأخفيتُ.

إذ: ظرف زمان لما مضى، متعلّق هنا بفعلٍ محذوف تقديره: اذكرْ.

ومقالة الرسول لزيد في المرات اشتملت على إرشادين بنصيحتين:

(١) أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ.

(٢) وَاتَّقِ اللَّهَ.

• أمّا قوله له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾:

فنلحُ فيه نصيحتين:

الأولى: أَنْ لَا يُطْلَقَهَا.

الثانية: أَنْ يَتَحَمَّلَ تَعَالِيهَا عَلَيْهِ.

فالأولى نأخذُها من «أَمْسِكْ» أي: لَا تَطْلُقْ، والثانية نأخذُها من «عَلَيْكَ» وذلك لأن الأصل في الزوجات أَنْ يَكُنَّ تَحْتَ أَزْوَاجِهِنَّ، لَا فَوْقَهُمْ، لكنَّ «زَيْنَبَ» لما كانت متعاليةً مُتَرَفِّعةً، غير واضِعةٍ نفسها موضع التَّخَيُّعِ، نصَّحه الرسول بأن يَصْبِرَ على تعاليها ويتحمَّلها، وإن كان مثلُ هذا يَشُقُّ على الرِّجَالِ، لكنَّ من فَعَلَهُ من أجل حُسْنِ المعاشرة الذي أمر الله به كان مأجوراً.

ولا تنسَ أَنْ «زَيْنَبَ» تزوجته طاعةً لله ورسوله وهي كارهة.

• وأمّا قوله له: ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾:

أي: واتقِ الله بحسن معاشرتها بالمعروف، ولا تَغْلِبْهَا من أجل نَفْسِهَا المتعالية الكارهة لهذا الزواج، والراضية به امتثالاً.

ومع تذكير الله رسوله بهذه الحادثة ذكّره أيضاً بأنه كان يخفي مع مرّات الشكوى في نفسه أمراً، فقال له: ﴿وَتَخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾.

أي: لكنّ هذا الأمر الذي تخفيه في نفسك أمر الله مُبْدِيهِ (أي: مظهره وكاشفه) الآن، دَلَّ عليه قول الله عزَّ وجلَّ في الآية نفسها.

﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا﴾.

أي: تُخْفِي علمك بأنها ستكون زوجة لك بأمر الله، وأن زيدا سيُطْلَقها لا محالة.

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

ونقول مع ذلك لزيد: أمْسِكْ عليك زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ.

وابان الله لرسوله دافعاً لمقالة النصيح وإخفاء ما أخفاه في نفسه فقال له:

﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾:

أي: توالى عليك في مرّات الشكوى خشية مقالة الناس فيك: إنَّ محمداً ينهى المؤمنين عن الزواج مَن كُنْ زَوْجَاتِ آبَائِهِمْ، وهو الآن يتزوج مُطْلَقَةً ابنته بالتبني، فتقول لزيد: «أمسك عليك زوجك واتق الله» ولا تقول له طلقها، أو افعل ما يناسبك، فإن الله قضاء بأن تكون زوجة لي، لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج ادعيائهم، تَخْشَى مقالة الناس، واللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فسرغ إلى تنفيذ أمر الله بجُرْأَةٍ وصراخَةٍ، دون اكتراث لما يعيب عليك الناس، ما دمت مطيعاً لربك تسقى في مرضاته.

بعد ذلك أَمَجَّ اللَّهُ إيداء ما كان يخفيه الرسول ضمن حكاية طلاق «زيد»

لـ «زينب» وتزويج الله زينب رسول الله، فقال تعالى:

﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا﴾.

جاء التعبير بعبارة «قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا» عن طلاقها، لأنَّ المطلق عن عزمٍ ونصميم لا عن انفعال طارئ لا يُطْلَقُ إِلَّا إذا انقطعت علاقات وطَرٍ نفسه بمطلقته، والوطر كما عرفنا: حاجة النفس المتعلقة بما تحتاج له.

فدل هذا التعبير بإبداعه على عنده قضايها:

الأولى: طلاق زيد لزيب.

الثانية: أنه كان طلاقاً عن إرادة جازمة منه ورغبة ذاتية فيه.

الثالثة: أن وطءه النفسي الذي كان متعلقاً بها قد انتهى فعلاً، فلم تعد بالنسبة إليه زوجة شهوة ولا مصلحة.

الرابعة: أنه لم يطلقها إشاراً للرسول على نفسه، ولا لأنه شعر برغبة الرسول فيها.

وفي هذا دفع لكل الأوهام التي يمكن أن ترد حول هذا الموضوع، والأكاذيب التي يختلقها الوضاعون.

وقد افترى الوضاعون قديماً مفتريات على الرسول لم تصح سنداً، وتمسك بها أعداء الإسلام بعد ذلك من مبشرين ومستشرقين، وأضافوا إليها أوهاماً مما يعرفون من سلوك عظمائهم ومقدسيهم، وغلبا بعض علمائنا السابقين في نقل كل ما يقع لهم من روايات فنقلوا السقيم مع السليم، وربما نقلوا الموضوعات، وجعلوها ضمن موسوعاتهم، فاتخذ منها أعداء الإسلام ذرائع لمحاربة دين الله ورسول الله.

وبأن الله عز وجل حكمة تزوجه زيب لرسوله فقال تعالى:

﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾:

أي: قضينا بهذا الزواج وأمرنا به لكي يكون الرسول فيما يطبق من أمر الله قُدوةً للمؤمنين، فلا يكون على المؤمنين بعد تطبيق الرسول بنفسه لحكم الله حرج ولا تخوف من مقالة الناس، في تزوجهم إذا رغبوا من اللواتي كن أزواج أدعيائهم الذين كانوا قد تبنوهم، وفق العرف القديم عند أهل الجاهلية.

والجمع بين اللام التي للتعليل و«كي» التي هي للتعليل أيضاً يفيد توكيد التعليل بالعلة المذكورة بعدهما مع بيان أهميتها.

ونلاحظ أن الجملة القرآنية التعليلية هذه مختزلة اختزالاً من كلام يدل على الفهم الذي وضع في الشرح. وأقل ما يمكن أن نبرزه من المطويات للتعبير عن كامل

المعنى بعبارة صريحة واضحة لا محاذيف فيها، أن نقول:

﴿لَكَيْلًا يَكُونُ﴾ بغد زواج النبي من زينب المطلقة زيد الذي كان قد نبأه ﴿خَرَجَ﴾
 في ﴿أن يتزوجوا من اللواتي كنَّ مِنْ﴾ ﴿أَزْوَاجِ أَذْعِيَانِهِمْ﴾ إذا صرُن خلياتٍ من زواج.
 بعد ذلك أبان الله عز وجل أنه إذا قضى الله أمراً أن يكون ولو من خلال إرادات
 الناس، فإنه لا بُدَّ أَنْ يتحقق ويكون أمراً مَفْعُولاً، فقال تعالى:

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ۖ﴾ (٣٧)

إنه سهل عليه سبحانه، فهو يُحَرِّكُ القلوب، فتتجه لتحقيق أمر الله، فتتحرك
 الإرادات، وتسير الأفعال على وفقها، وتتم النتائج على وفق مراد الله وأمره.
 والأمر هنا أمر تكويني، وليس أمراً تكليفيًا فيما يظهر، حتى يكون قابلاً للفعل
 أو الترك من الموجه لهم التكليف، والمفعول هو المراد بالأمر، فأمر الله مَكُونٌ،
 والمراد به مفعول وكان لا محالة.

بعد ذلك وجه الله الخطاب للمؤمنين وغيرهم ولا سيما أهل الكتاب الذين يؤمنون
 برسولهم وكتبهم، فأبان فيه أنه لا حرج على النبي المجتنب وهو بشرٌ من البشر في أن
 يكون له زوجات، وفي أن يستمتع بما أباح الله له من لذات، فشان كل رُسُلِ الله
 كذلك، ولا سيما حينما يكون الأمر يتضمن تبليغ رسالات الله عمليًا، ليكونوا بأفعالهم
 أسوة حسنة للناس من ورائهم، فجاء في النص:

* قول الله عز وجل:

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ
 قَدَرًا مَقْدُورًا ۖ﴾ (٣٨) الَّذِينَ يَلْفُغُونَ رِسَالَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ
 حَسِيبًا ۖ﴾ (٣٩)

فيما فرض الله له: أي: فيما أباحه له، أو خصه به من أحكام إباحة. وأصل
 الفرض حرٌ يُجْعَلُ على عُود، أو خشية، أو حَجَرٍ، أو نحو ذلك، لبيان المقادير، كالحَرْزِ
 المتدرج على المسطرة لبيان مقادير الأطوال، وكالفروض التي تُجعل على الرخامة
 لتكون ساعة شمسية تبين الوقت مع تحريك الظل، ونحو ذلك.

وأحكامُ الله حُدُودٌ على مقاديرٍ مفروضةٍ، أي: مبيّنة بفواصل.

— فما أباحه الله لعباده فقد فرضه لهم: أي حلّده لهم، وأبأنّ فيه الحدود، ومنه ﴿قد فرض الله لكم تحلةً إيمانكم﴾ أي: أباح لكم ذلك.

— وما حرّمه أو أوجبه على عباده فقد فرضه عليهم، أي: حلّده لهم وأبأنّ فيه الحدود، ومنه ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾.

فالفرقُ بينَ الفَرَضَيْنِ أَنَّ فرضَ الإباحةِ يُعَدُّ باللام، وأنَّ فرضَ الإلزام يُعَدُّ بحرف «على».

والْقَدْرُ المحدّد من الميراث فريضة، وجمعها فرائض، وسميت بذلك لما فيها من تحديدات تُعرَفُ بها قسمة الموارث، وهي تحديدات مبيّنة مفصلة مفروضة.

واستعملت كلمة «الفريضة» في القرآن بمعنى المهر المحدّد عند عقد النكاح.

والمعنى: ليس على النبيّ ذواماً وهو بشرٌ من البشر من أيّ حرجٍ يُضَافُهُ في استمتاعه بما أباح الله له، سواءً أكان ذلك مباحاً لسائر المؤمنين أيضاً، أو كان خاصاً به فقط.

فلذا اتّجهت نفسُ النبيّ للاستمتاع بما أباح الله له، فليس عليه أدنى حرجٍ في أن يستمتع، وليس من الفضيلة أن يُجَاهِذَ نفسه في كَفْهَها عن المباح المُتَسَوِّي الطرفين، بل من الخير أن يستمتع، ليستبقي طاقات مجاهدته حتى يستخدمها فيما هو من الفضائل من أفعال يمارسها، أو يكف نفسه عنها.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾:

أي: ليس على النبيّ محمّدٍ من حرجٍ قليلٍ ولا كثيرٍ فيما أباح الله له، حالة كون رفع هذا الحرج طريقة الله في منهاجه للأنبياء الذين خَلَوْا من قبلِ مُحمّد، والذين جعلهم الله بشراً.

فنصبُ «سُنَّةِ الله» فيما أَرَى نصبٌ على أنه حال وتقدير الكلام: النبيّ مرفوعٌ عنه الحرجُ فيما أباح الله له، حالة كون رفع الحرج هذا سُنَّةَ الله في الأنبياء الذين خَلَوْا

من قبل، إذ خلقهم بشراً، وجعل لهم طبائع البشرية، وأباح لهم أشياء من متاع الحياة الدنيا كما أباح لسائر البشر.

السُّنَّة: في اللُّغة الطريقة، والسَّيرة، والعادة الدائمة.

وسنة الله: طريقته الدائمة، وسُنَّته: طرائقه الدائمة في خلقه، أو في أحكامه وشرائعه. وسنة الله في الأنبياء أن يجعلهم عبداً بشراً، وأن يُبيح لهم مباحات تتطلبها طبيعتهم البشرية.

خَلَوْا: أي: مَضَوْا في الأزمان السابقة، فمعظم الأنبياء كانت لهم زوجات، وبعضهم كداود وسليمان كان له زوجات متعددت بكثره عدا الجواري اللواتي يستمتع بهنَّ.

والمعنى: ليس محمداً في هذا يدعاً في الرُّسل، بل شأنه كشأنهم، طعاماً، وشرباً، وزواجاً، واستمتاعاً باللذات المباحات في الحياة الدنيا، فليس لأحد من الناس أن يعيبه بشيء من ذلك، إن النبي بشرٌ من البشر، وعبدٌ من عباد الله، اصطفاه الله لتبليغ رسالته لنظرائه من عباد الله، وليكونَ لهم أسوة حسنة، مبلغاً دينَ الله بأقواله، وأفعاله، وإقراراته.

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾:

أي: وكان أمرُ الله في التكوين، وأمر الله في التشريع، مسبوقاً دوماً بقدرٍ وموجهاً بقدر، أي بتحديدٍ دقيقٍ لمقادير كُلِّ شيء: فأمرُ التكوين يتمُّ على وفق المقادير التي حددها الله بإرادته الحكيمة، ومن ذلك أن يجعل للبشر طبائعهم الجسدية والنفسية، ومنهم الأنبياء المصطفون. وأمرُ التشريع يتمُّ على وفق المقادير التي حددها الله بإرادته الحكيمة، وفرضٌ مُفَيَّزاً حَدُودَ ما ألزم به فعلاً أو تركاً، وحُدُودٌ مارَعَبٌ فيه فعلاً أو تركاً، وحُدُودٌ ما أباحه إباحةٌ مُسْتَوِيَةٌ طَرَفِي الْقَبْلِ والترك، وجعل أنبياءه وغيرهم سواءً في ذلك، ورُبُّما زاد الأنبياء تكليفاً، وربما خصَّهم ببعض المباحات لحكمةٍ من حكمه الجليلة. فأمرُ الله إذاً ذو قَدَرٍ.

وكان أمرُ الله أيضاً مَقْدُورًا، أي: نفُسُ الأمر وذاته أيضاً مَقْدُور.

مَقْدُور: اسم مَفْعُول من فعل «قَدَرَهُ يَقْدِرُهُ» فحين يُوَجِّهُ الله أَمْرَ التَّكْوِينِ أو أَمْرَ التشريع. فالأمر نفسه مَقْدُور، أي: مُحَدَّدٌ بِسَابِقِ الإرادة كما أَنَّهُ يُوجِّهُ لتنفيذ مُحَدَّدَاتِ المقادير.

ومن جملة النصوص نَسْتَفِيدُ أَنَّ أفعال الله، وأحكامه وتكاليفه تَتِمُّ مُسْبُوقَةً بما يلي:

الأول: شمول العلم المحيط بكل شيء.

الثاني: الإرادة الَّتِي تَتَوَجَّهُ لِتُخَصِّصَ من الأفعال والتشريعات وكل ما هو من متعلقاتها دون إجبار ولا إلزام ولا تلقائية طبيعية.

الثالث: الحكمة في اختيار ما تتَوَجَّهُ لتخصيصه الإرادة بمقاديره الصغرى والكبرى، ومن ذلك لحظة توجيه الأمر.

الرابع: إمضاء وبُتُّ ما تَمَّ اختياره، وهذا هو القضاء، والقضاء في اللغة الإنهاء والإمضاء.

وبهذه الأربع يتحقق القضاء والقدر، فالقضاء إمضاء والقدر يتم به تخصيص المراتد الحكيمة بكل مقاديرها، ومنها أوقات توجيه أوامر التكوين أو التشريع.

الخامس: وعند حُلُولِ الأجل لتنفيذ ما تَمَّ بالقضاء والقدر يتَوَجَّهُ أَمْرُ التكوين، أو أمر التشريع، والتكليف.

أما أَمْرُ التكوين فيتم تنفيذ المأمور به بِالْقُدْرَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي لَا يُعْجِزُهَا شَيْءٌ من مرادات الله، مِمَّا تَمَّ بقضائه وقدره.

وأما أَمْرُ التشريع والتكليف، فيتم بتوجيهه فقط، ويستتبع تبليغه وبيانه لِمَنْ يُرَادُ بِخَطَائِبِهِمْ به، ويستتبع التكليف الحساب والجزاء، وكل ذلك إِنَّمَا يتحقق بالعلم والحكمة والإرادة والقدرة وكثير من صفات الله عز وجل الأخرى.

بهذا التحليل نستطيع أن نفهم قول الله عز وجل:

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾.

وهذه الجملة مغترضة بين الموصوفين - وهم الأنبياء الذين خلّوا من قبل - وصفتهم بقوله تعالى :

﴿الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رَسُولَ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ :

أي : الذين يبلّغون رسالات الله بأقوالهم وأعمالهم وتقربراتهم، ومن تبليغ رسالات الله بأعمالهم أن يفعلوا ما أباح الله للناس، ليكونوا أسوة للناس في ذلك، وليس من شأنهم أن ينورعوا عما أباح الله إباحة مستوية الطرفين.

وأولاً الله لرسوله بهذا البيان إلى أن يهتدي الأنبياء والرسل من قبله، فيخشي الله، ولا يخشى أحداً إلا الله، كما أن الرسل من قبله كانوا يبلّغون رسالات الله بأقوالهم وأعمالهم، ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله.

الخشية : خوف مضروب بتقدير واحترام المخوف منه .

ولما كانت الخشية من الله لا تستلزم عدم الخشية من غيره اقتضى البيان التصريح بالأمرين فقال تعالى :

﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ .

والذي يجعلهم لا يخشون أحداً إلا الله هو أنهم توكّلوا على الله، واكتفوا بالاعتماد عليه، دلّ على هذا قول الله في آخر الآية :

﴿وَكُنْ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ .

حسيباً : أي : كافياً، من الحسب، وهو الاكتفاء، والمعنى : وكفى بالله كافياً لمن توكّل عليه .

أو فاعيل من الحساب، بمعنى سريع الحساب، فهو يحاسب من لم يتقدّ أوامره، والحساب يأتي بعده قرار الجزاء .

والمعنى الأول فيما أرى هو الأكثر ملاءمة في هذا النصّ .

* قول الله عز وجل :

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝﴾

بعد إلغاء عُرْبِ النَّبِيِّ بِحُكْمِ اللَّهِ أَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْقَوْمِ، وَالْمَغْنِيُّونَ مِنْهُمْ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ الَّذِينَ أَرْجَفُوا بِإِشَاعَةِ مَقَالَةِ السُّوءِ فَقَالُوا: «إِنَّ مُحَمَّدًا يُحْرَمُ نِكَاحُ نِسَاءِ الْأَوْلَادِ وَقَدْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً ابْنَهُ زَيْدٌ» إِذْ كَانَ يُقَالُ لَهُ: زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، أَبَانَ اللَّهُ لَهُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا مَا كَانَ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ، وَذَلِكَ لِأَنَّ أَوْلَادَهُ الذَّكَورَ «إِبْرَاهِيمَ الْقَاسِمَ، وَالطَّيِّبَ، وَالطَّاهِرَ» مَاتُوا وَهُمْ صُغَارٌ لَمْ يَلْفُوا مَبَالِغَ الرِّجَالِ.

أي: فزید لیس ابنَ مُحَمَّدٍ، واللّٰه إنّما حرّم زوجات الأبناء من الأصلاّب، ولم یحرّم زوجات الأدعیاء.

وينطلق الذهن فيتساءل: لماذا لم يبيّن الله لرسوله مُحَمَّدٌ وَلَدًا ذَكَرًا؟

وقد أجاب الله عَزَّ وَجَلَّ عن هذا التساؤل ببيان حكيمته في ذلك فقال:

﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝﴾

أي: لما قضى الله بختم الرّمالات والنّبوات كلّها بمحمدٍ، لم يبقَ له ولدٌ ذَكَرًا، حَتَّى لَا يَتَقَى مِنْ سُلَالَةِ النُّبُوَّةِ عَامِلٌ وَرَاثِي، إِذْ جَعَلَ اللَّهُ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فِي ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ، كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ، وَلَمْ يَبْقَ ذُرِّيَّةٌ ذَكَرًا لِأَخْرِ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِحَبِى وَعِيسَى.

وَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْعَامِلَ الْوَرَاثِيَّ النَّاظِلَ لِلْخُصَائِصِ الْمُؤَمَّلَةِ لِلْإِصْطِفَاءِ بِالنُّبُوَّةِ إِنَّمَا يُنْتَقَلُ فِي الذَّكَورِ لَا فِي الْإِنَاثِ، فَلَا تُنَبِّأُ امْرَأَةٌ.

وَدَلَّ عَلَى أَنَّ كُلَّ رَسُولٍ نَبِيٍّ، فَلِذَا انْتَفَتِ النُّبُوَّةُ فَلَا رِسَالَةَ، فَكَفَى ذَكَرُ كَوْنِهِ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ عَنْ ذِكْرِ كَوْنِهِ خَاتَمَ الْمُرْسَلِينَ، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ فَهُوَ خَاتَمَ الْمُرْسَلِينَ حَتْمًا.

وَحَتَمَ النَّبِيِّينَ بِمُحَمَّدٍ هُوَ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ، وَحِكْمَةُ اللَّهِ فِي اخْتِيَارَاتِهِ لَا تَبْتِمُّ مَا لَمْ يَكُنْ غَلِيمًا بِكُلِّ شَيْءٍ، فَقَالَ تَعَالَى فِي خَتَامِ الْآيَةِ:

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝﴾

أي: وهو عليم دوماً بكلّ شيء.

وبعد زواج الرسول من ابنة عمته «زينب بنت جحش» تعرّض لأذى الكافرين والمنافقين، وتوجّهت نحوه الضغوط الاجتماعية التي ربّما أثّرت على ضعفاء الإيمان من المسلمين، فوجه الله لرسوله ما يُبَيِّنُهُ به على طاعة الله، والقيام بما فرض الله له، والقيام بتبليغ رسالة ربّه بقوله وعمله فقال له ما جاء في الآية (٤٨) من السورة وهو:

• قول الله عز وجل:

﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (٤٨).

(١) ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾:

تأكيد لما جاء في صدر السورة، من جهة اللفظ، لكن هناك قبل أن يؤدّي رسالة ربّه في موضوع النبي، وهُنا بُعد أن أدّى رسالة ربّه بقوله، ويفعله.

(٢) ﴿وَدَعِ أَذْنَهُمْ﴾:

أي: اترك أذانهم، فلا تهتمّ له، ولا تنظر إليه، ولا تشغل نفسك بدفعه أو الانتصار لنفسك.

وهذه وصيّة ربّانية نفيسة لكلّ مَنْ يتعرّض للأذى، فترك الأذى، وعدم الاهتمام به من شأنه أن يُطْفِئ نار المؤذنين، ويبطئ حركتهم، ويجعل أقوالهم كالهباء المشور، بخلاف مقاومته، فإنّها توقد نار الأذى، وتضاعف من جهود المؤذنين، فتزيد من آلام الأذى.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾:

تأكيد لما جاء في صدر السورة أيضاً، أي: ومن توكل على الله كفاه ما أهمه، وردّ كيد أعدائه إلى نحورهم.

النص الرابع عشر

وهو من سورة (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول) سادس سورة مدنية

الآيات من (٥٩ - ٧٠)

حول محاكم المنافقين إلى الطاغوت وقد أُمروا أن يكفروا به

قال الله عز وجل فيها:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَفَقِفِينَ يُصَدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ٦١ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءَهُمْ بِخَلْفَةٍ مِنْ اللَّهِ إِنَّ أَرْدَنَّا إِلَّا إِحْسَنًا وَتَوْفِيقًا ٦٢ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ٦٣ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُلٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ٦٤ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ٦٥ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنِييْدًا ٦٦ وَإِذَا لَا تَأْتِيهِمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ٦٧ وَلَهْدِيَنَّهُمْ سِرطًا مُسْتَقِيمًا ٦٨

وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٧﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٨﴾ .

* * *

(١)

موضوع النص وسبب نزوله

في هذا النص بيان لظاهرة من ظواهر النفاق، وهي ظاهرة التحاكم إلى غير حكم الله ورسوله، والصد عن حكم الله والرسول، في كل ما هو مشمول بحكم شرعي ديني، حكم به الله، أو حكم به رسوله ﷺ، ودل عليه نص صريح الدلالة من قرآن أو سنة، أو استنبطه الفقهاء المجتهدون مما دلت عليه نصوص القرآن الكريم، أو دلت عليه السنة المطهرة.

وقد نزل هذا النص بسبب ما كان من بعض المنافقين قبل تنزيله، إزدعاء خصمه إلى حكم الله ورسوله في خصومة بينهما، فرفض التحاكم إلى الرسول، وصد عنه صدوداً منكراً، وأراد أن يتحاكما إلى الطاغوت، أي: إلى حكم أهل الكفر، من اليهود أو المشركين، ظناً، منه أنه سيجد لنفسه مخرجاً فيهم من حق صاحبه، أما الرسول ﷺ فسيحكم بالحق فلا يجد عنده مخرجاً.

وقد ورد في أسباب النزول عدة روايات تدور كلها حول ذلك.

(١) روى الطبري بسنده عن عامر، قال: كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة، فكان المنافق يدعو خصمه إلى اليهود، لأنه يعلم أنهم يقبلون الرشوة، وكان اليهودي يدعو إلى المسلمين، لأنه يعلم أنهم لا يقبلون الرشوة، فاصطلحا أن يتحاكما إلى كاهن من جُهينة، فانزل الله قوله:

﴿الَّذِينَ يَرْعَوْنَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَتَىٰكَ مِنْ بَلَدٍ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ...﴾ ﴿٧﴾ .

حَتَّىٰ نَلْعَ: ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

(٢) وروى الطبري بسنده عن الشعبي روايةً مشابهةً لروايته السابقة عن عامر، وروى عن قتادة أَنَّ المسلم المنافق هو رجلٌ من الأنصار يقال له: بَشْر.

(٣) وروى الطبري روايةً أخرى فيها أَنَّ المسلمَ المنافق هو من منافقة اليهود.

أقول: كون هذا المنافق من اليهود هو ما يشير إليه النصُّ بدلالاته، ففيه ما يلي:

﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

فَذَكَرُ ﴿وَمَا أَنزَلَ مِن قَبْلِكَ﴾ في هذا المقام يُشعر بأنهم كانوا من أهل الكتاب، قبل الإسلام.

وفيه أيضاً:

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِن دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ

مِّنْهُمْ﴾.

ففي هذا إلحاح إلى ما كتب الله على بني إسرائيل أيام موسى عليه السلام، وهؤلاء يزعمون أنهم أحفاد أولئك، وأنهم قبل الإسلام كانوا يهوداً، وأنهم يؤمنون بما أنزل على موسى وعلى سائر أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام.

ويؤيد كونه من اليهود الذين دخلوا في الإسلام نفاقاً ما جاء في الرواية التالية:

(٤) وروي عن السَّدي قال: كان ناسٌ من اليهود قد أسلموا، وناقى بعضهم،

وكان فريق منهم من بني النضير، وفريق منهم من بني قريظة، فقتل رجلٌ من بني النضير رجلاً من بني قريظة، فتحاكموا إلى النبي ﷺ، فقال النضيري: يا رسول الله، إِنَّا كُنَّا نعطِيهم في الجاهليَّة الذبَّة ستين وسقاً، ولا يقتلون منا مقابل قتيْلهم، فنحنُ نعطِيهم اليوم ذلك، فقال القرظيون: لا، ولكنَّا إخوانُكم في النسب والدين، ودماؤنا مثلُ دماءكم، ولكنَّكم كنْتُمْ تغلبوننا في الجاهليَّة، فقد جاء الله بالإسلام.

وحكم الرسول ﷺ بقتل النضيري، وقَتَلَهُ بصاحبه.

فتفأخرتِ النضيرُ وقُريظةُ:

فَقَالَتِ النَّصِيرُ: نَحْنُ أَكْرَمُ مِنْكُمْ.

وَقَالَتِ قُرَيْظَةُ: نَحْنُ أَكْرَمُ مِنْكُمْ.

وطالب المنافقون من قريظة والنضير بأن يحكم بينهم في مفاخرتهم أبو برة الأسلمي الكاهن.

وقال المسلمون منهما: بل النبي ﷺ هو الذي يحكم بيننا.

(٥) وروي عن ابن عباس، أن الطاغوت الذي أراد المنافق التحاكم إليه، هو اليهودي كعب بن الأشرف.

(٦) وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني بسنده إلى ابن عباس، قال: كان أبو برة الأسلمي كاهناً يقضي بين اليهود فيما يتنافرون فيه. (أي: يتفاخرون فيه). فتنافر إليه ناس من المسلمين فأنزل الله قوله:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ...﴾ (٥٠) الآيات.

* * *

(٢)

نظرة مجملة عامة إلى النص

(١) يبدأ النص بتكليف الذين آمنوا أن يطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منهم.

فإن حصل النزاع بينهم في شيء سواء أكان بينهم وبين أولي الأمر منهم، أو بين أفراد أو جماعات منهم، فهم مكلفون أن يردوه إلى الله والرسول، أي: إلى كتاب الله، وإلى رسول الله في حياته، ثم إلى سنته التي صحت عنه من بعده، هذا إذا كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً صحيحاً صادقاً.

(٢) بعد ذلك عرض النص قصة طائفة من المنافقين يزعمون أنهم مؤمنون، ثم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، أي: إلى حكم الجاهلية، وإلى حكم من يحكم بأحكام الجاهلية من الناس، كحكم الكهان، أو حكم طاغوت من طواغيت أهل

الكتاب، مثل: «كُتِبَ بِنِ الْأَشْرَفِ» عدو الإسلام، والعدو الكبير للرسول ﷺ من اليهود.

وقد جاء عرض قصة هؤلاء بأسلوب التعجيب من التناقض المستغرب بين زعمهم، وبين ما يريدون من التحاكم إلى الطاغوت.

وكان من أمر هؤلاء المنافقين أنهم إذا قيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله، وتعالوا إلى الرسول ليحكم بينكم نفروا، وصدوا عن الرسول صدوداً قبيحاً منكراً.

(٣) وبعد ذلك ألمح النص إلى احتمال تسلط الله عز وجل رسوله عليهم، لمعاقبتهم على أعمالهم المنافية لمقتضيات الإيمان، والدالة على باطن الكفر المستور بالتناقض، فتصيبهم مصيبة عقاب الرسول لهم، بسبب ما قدمت أيديهم من جرم عظيم، وأنهم حينئذ يسارعون إلى الاعتذار عن جرمهم المنافي لآدعائهم الإيمان منافاة كلية، بأن يحلفوا للرسول بالله، على أنهم ما أرادوا بعملهم هذا إلا إحساناً وتوفيقاً.

ويطرح المتدبر هنا سؤالاً، وهو: ما معنى أنهم ما أرادوا إلا إحساناً وتوفيقاً؟

أقول: حين نلاحظ أن الخصومة كانت بين مسلمين منافقين، وبين غير مسلمين، كما جاء في معظم روايات سبب النزول، يظهر لنا أنهم يسترون غرضهم الأساسي من التحاكم إلى الطاغوت، وهو أن يحكم لهم ولو كان الحق لخصمهم، ويتعللون أمام الرسول، وأمام المسلمين، فيما لو حوسبوا على عملهم، بأنهم قد كان لهم هدف ديني من وراء ذلك، وهو الإحسان والتوفيق.

ولكن كيف نتصور هذه التعللات التي يمكن أن يزينوا فيها، أنهم ما أرادوا بالتحاكم إلى غير حكم الله والرسول إلا الإحسان والتوفيق؟

ويخطر لي في ذلك أنهم يقولون مثلاً: إن خصمنا غير مسلم، وهو لا يؤمن بما أنزل الله، ولا يؤمن بالرسول، فلو دعوناهم إلى الرسول ليحكم بيننا، لكان في ذلك نعمة أننا ندعوهم إلى زعيمنا ليحكم بيننا فيحكم لنا.

ويقولون: إنهم لا يريدون أن يضعوا الرسول موضع الاتهام والتجريح من قبل الكافرين به، فمرتبة الإحسان لمقام الرسول تدعوهم إلى إبعاده عن مواضع الشبهات والاتهامات من قبل الكافرين به.

لذلك دعوناهم إلى رَجُلهم اليهودي «كعب بن الأشرف» أو إلى الكاهن الوثني «أبي بَرْزَةَ الأَسْلَمِي» الذي ليس هو مِنَّا ولا منهم.

ويقولون: إِنَّا نريد أن نصل إلى التوفيق بيننا وبين خصمنا، على يد أي مُوقِّف، وذلك بالمصالحة بيننا مصالحةً توفيقيةً، ولم نقصد رفضَ الحكم بالحق، ولم يخطر في بالنا أَنَّ حكم اليهودي أو الكاهن الوثني سيكون لصالحنا، هاضماً حقَّ خصمنا، فأثَرنا بذلك التحاكم إليه ليحكم لنا بالباطل.

وهكذا تبدو مَقَالَتُهُم مُزَيَّنَةً لِعَمَلِهِم، وسائِرةً لجَريمتِهِم، وما دامت إرادتهم الحقيقية شيئاً في ضمايرهم، وليس عليها بَيِّنَات قضائية، فَإِنَّ وسيلتهم لتأكيدِها هي أن يحلفوا بالله على ما زَيَّنُوهُ.

(٤) وهنا بَيَّنَ الله لرسوله إِدانتَهُم بعلمه بما في قلوبهم، ولكن لم يسمح له بأن يحاسبهم على جَريمتِهِم حساباً مادياً، إذ لا يملك بَيِّنَةٌ قضائيةً بشريةً تكشف إرادتهم الحقيقية.

وَبَيَّنَ لَهُ المنهج التربويُّ العلاجيُّ الذي يَتَّبِعُهُ معهم، وهو يَتَلَخَّصُ بثلاثة عناصر:

العنصر الأول: الإعراض عنهم، بعدم مؤاخذتهم، مع إشعارهم بأنَّ جَريمتَهُم مكشوفةٌ لَهُ، وقد استوجبت منه أن يُعْرَضَ عنهم إعراض مُستأًى من عملهم.

العنصر الثاني: أن يَعِظَهُم ببيان وجوب التحاكم إلى الله وإلى الرسول، مهما كانت الدواعي، ومهما زَيَّنَ لَهُم الشيطان أن يتحاكموا إلى الطاغوت، وبَيِّنَان عاقبتَهُم عند الله.

العنصر الثالث: أن يقول في سِرِّهِم قولاً كاشفاً حقيقة ما في أنفسهم، بالغاً ما أَسْرَوْهُ في أعماقها، ليعلموا أَنَّ الله يُطْلِع رسوله على خبايا قلوبهم، ونواياهم، فهم مهما تظاهروا بِحُسْنِ إسلامهم معروفون للرسول بنفاقهم، إذ يُعْلِمُهُ الله عَزَّ وَجَلَّ بحقيقة ما في قلوبهم.

(٥) بعد ذلك بَيَّنَ الله عَزَّ وَجَلَّ وجوب طاعة الرسول، وأنَّ مُحَمَّدًا ليس بِدُعَا

في الرُّسُل، بل كُلُّ رُسُولٍ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ السَّابِقِينَ، إِنَّمَا اصْطَفَاهُ اللَّهُ وَأَرْسَلَهُ إِلَى قَوْمِهِ، لِيَكُونَ قَائِداً مَطَاعاً مَنْ قَبِلَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ، فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ، وَفِي كُلِّ مَا يَنْهَاهُمْ عَنْهُ.

والمع الله عَزَّ وَجَلَّ إِلَى أَنَّ الرُّسُولَ لَا يَأْمُرُ وَلَا يَنْهَى إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، فَهُوَ مُأَذُونٌ مَنْ قَبِلَ اللَّهُ بِأَنْ يَأْمُرَ وَيَنْهَى فِي الدِّينِ، وَعَلَى مَنْ آمَنَ بِهِ أَنْ يُطِيعَهُ، فطَاعَتُهُ جَزْءٌ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ، كَمَا جَاءَ فِي نَصِّ لَاحِقٍ مِنْ سُورَةِ (النساء) نَفْسِهَا، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (٥٩).

(٦) بعد ذلك فتح الله باب الاستغفار والتوبة، فقال لرسوله:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (٦٠).

وفي هذا الأسلوب إطماعٌ لهم بأنهم إذا تابوا واستغفروا، وعفا عنهم الرسول واستغفرَ اللهَ لهم، تابَ الله عليهم، وشملهم برحمته.

ومع هذا الإطماع نلاحظ أَنَّ النَصْرَ لم يخاطبهم خطاباً مباشراً، بل خاطب الرسول بشأنهم، معرضاً عنهم، ليعظم جُزْبَهُمْ.

(٧) وبعد ذلك بينَ الله عَزَّ وَجَلَّ قاعدةَ كبرى من قواعد الإيمان، وشروطاً أساسياً من شروطه، فقال تعالى خطاباً لرسوله:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٦١).

فذلَّ هذا عَلَى أَنَّ سلامة الإيمان من النقصِ أو النقصِ مشروطةٌ بتحقيق كبرى لوائمه، ومن هذه اللوائِم الكُبرى، ما يلي:

(أ) تحكيمُ الَّذِينَ أَعْلَنُوا إسلامهم رُسُولَ اللَّهِ فِي كُلِّ مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ من خلافاتٍ وخصومات.

(ب) أن لا يجدوا في أنفسهم حرجاً (أي: ضيقاً وعدم ارتياح) مما قضى

الرسول، وهذا من آثار الإيمان الصحيح الكامل بالله ورسوله واليوم الآخر، النفسية الداخلية.

(ج) أن يُسلموا لحكمه تسليماً كاملاً لا يشوبه شك ولا اعتراض ولا معصية، وهذا من آثار الإيمان الظاهرة، بعد صدور الحكم.

(٨) وبعد ذلك كشف الله عز وجل أنهم لو لم يدخلوا في الإسلام نفاقاً، وبُقُوا على يهوديتهم، فإنهم ليسوا على مثل بني إسرائيل الأولين، الذين كانوا في عهد موسى عليه السلام، فإن أولئك لما كتب الله عليهم الخروج من مصر بقيادة موسى وهارون عليهما السلام خرجوا طائعين، وحين ظلموا أنفسهم باتخاذهم العجل، وكتب الله عليهم أن يتوبوا إلى بارئهم فيقتلوا أنفسهم، أطاعوا، فاجتمعوا يقتل بعضهم بعضاً.

لكن هؤلاء لو كتب الله عليهم هذا الذي كتبه على أسلافهم ما فعلوه إلا قليل منهم، فهم في اليهودية ليسوا ذوي دين صحيح، وهم حين دخلوا في الإسلام منافقون، أو قرييون من النفاق.

وأتبعه بيان أنهم لو فعلوا ما يوعدون به من التحاكم إلى الله وإلى الرسول لكان خيراً لهم، وأشدّ تثبيتاً لهم في الإيمان، وأنهم لو فعلوا ذلك لآتاهم الله من لدنه أجراً عظيماً، ولهداهم في حياتهم صراطاً مستقيماً، وهو صراط الإسلام، الذي يشرح الله له صدور الذين آمنوا حقاً وصدقاً، فكان سبب طمأنينتهم وسعادتهم في العاجل والآجل.

(٩) وأخيراً ختم الله النصّ ببيان الثمرة الأخروية لمن آمن وأطاع الله وأطاع الرسول وأولي الأمر من المؤمنين، وأن الذين يطيعون الله والرسول فإن الله عز وجل يجعلهم في جنات النعيم مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

ذلك الفضل من الله، يعطيه سبحانه الذين آمنوا وعملوا صالحاً، والتزموا في حياتهم الدنيا طاعة الله والرسول.

وأنهى الختام ببيان صفة من صفات الله عز وجل ذات صلة بموضوع النص،

لثببت عُضْرٍ من عناصر القاعدة الإيمانية، فالمنافقون يكتُمون نفاقهم، لكنَّ الله عليم بهم، وبما في سرائرهم، فقال تعالى :

﴿وَكَفَىٰ بَأْسَهُ عَظِيمًا ۝٧٠﴾ .

* * *

(٣)

المفردات اللغوية في النص

﴿أَطِيعُوا﴾ :

الطاعة : الانقياد، والعمل وفق رغبة المتقاد له . يُقال : طاعه يَطُوعُه طُوعًا، وطَاعَه يَطِيعُه طُيعًا، وطَاعَ لَهُ يَطُوعُ له، وَيَطِيعُ له، إذا انقاد له، وعمل على وفق رغبته .

ويقال : أطاعه، إذا انقاد وخضع له، وكذلك أنطاع له .

﴿وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ :

أولو الأمر : هم الذين لهم حق الأمر بحكم الشرع على من يتولون أمورهم، فالأمير من أولي الأمر، والخليفة من أولي الأمر، والزوج من أولي الأمر على زوجته، والأب على أولاده من أولي الأمر، ومن لهم حق الفتوى في الدين من أولي الأمر ضمن اختصاصهم، والقاضي في مجال القضاء من أولي الأمر، وكذلك كل راعٍ هو مسؤول عن رعيته .

﴿فَإِنْ لَسْتُمْ عَنْهُمْ﴾ :

أي : فإن اختلفتم، والمعنى أن كل فريق من المختلفين يحاول أن يتسزع الاعتراف بأن الحق هو ما يدعيه هو .

﴿فِي شَيْءٍ﴾ :

أي : في شيء ما، ممَّا له في الدين حكم، أو بيان، لما الأمور المتروكة للناس، كالعلوم التي تكتسب بالوسائل الإنسانية فمرجعها البحث الإنساني، فالعقليات لبراهين

العقل، والحسيَّات لمشاهدات الحواسِّ، والتجريبيَّات للتجارب، والخبريَّات للتبَيُّت من صحة الأخبار بمقتضى برهان العقل، لذلك جاء قوله تعالى:

﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾:

فدَّلَ فعل «رُدُّوه» على أنَّ مصدر الحكم أو البيان مصدر دينيٍّ، فوجب عند التنازع في الأحكام والبيانات ذات المصدر الديني رُدُّها إلى كتاب الله بحثاً واستنباطاً، وإلى ما ثبت عن الرسول ﷺ في أقواله أو أعماله أو أخلاقه أو إقراراته، أو إلى ما يقاس على ما جاء فيهما أو في أحدهما.

فَرَدَ الشيء إلى الشيء إنما يكون بإرجاعه إليه، وهذا يدلُّ على أنه كان لديه أولاً، فصدر عنه، فهو يُرَدُّ إليه.

﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾:

أي: وأحسن رَدًّا وإرجاعاً، يقال: أوَّلُهُ تَأْوِيلًا إِذَا رَدَّهُ وَأَرْجَعَهُ إِلَى مَكَانِهِ الَّذِي كَانَ فِيهِ. وتاويل الألفاظ يكون بإرجاع دلالاتها إلى المعاني المرادة منها، في أصل التعبير.

﴿يَرْعُمُونَ﴾:

يَدْعُونَ بالسِّتْم، بطلق الزعم على الظنِّ الضعيف، وعلى الادِّعاء دون بَيِّنَةٍ مُثَبِّتَةٍ لِلادِّعاء، وأكثر ما يستعمل في الادِّعاء الكاذب، والاعتقاد الباطل، وفي الادِّعاء الذي تحيط به شبهاتٌ وشكوكٌ بأنه ادِّعاء كاذب، ولذلك قالوا: الزعم أخو الكذب. وقالوا: «زَعَمُوا» مطَّية الكذب. وفي الحديث: بش مطَّية الرجل «زَعَمُوا» وقال شُرَّيْح: «زَعَمُوا» كنية الكذب.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا﴾:

أي: يريدون أن يرفعوا خصومتهم إلى حاكم ليفصل الحكم بينهم.

﴿إِلَى الطَّاغُوتِ﴾:

الطاغوت: هو كثير الطغيان، وكلُّ رأس في الضلال، ويطلق على الشيطان، والكاهن، والساحر، وكلُّ ما عُبِدَ من دون الله، وبيت الصنم، (يستوي فيه المفرد

وغيره، والمذكر والمؤنث، وأصله من فعل طَفَى طَفْيًا، وَطَفْيَانًا، إذا جاوز الحد المقبول، وصار ضارًّا، أو مفسدًا، أو ظالمًا معتدًّا جائرًا. والمراد من الطاغوت كل معبود أو مطاع من دون الله، ومنهم الكهَّان، والأحبار والرهبان.

﴿يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾:

أي: يُغْرِضُونَ عَنْكَ إِعْرَاضًا شديدًا، الصَّدُّ في اللُّغَةِ الإِعْرَاضُ، والانصراف عن الشيء، يقال: صَدَّ عَنْهُ يَصُدُّ وَيَصُدُّ صَدًّا وَصُدُودًا، إذا أَعْرَضَ وانصرف عنه، ويستعمل متعدًّا، فيقال: صَدَّهُ عَنِ الْأَمْرِ يَصُدُّهُ صَدًّا، إذا منعه وصرفه عنه.

﴿إِلَّا إِحْسَنًا وَتَوْفِيقًا﴾:

الإِحْسَانُ: فعل ما هو حسن وجيد، وأَحْسَنَ الشَّيْءُ إذا أَتَقَنَهُ. وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ وَأَحْسَنَ بِهِ، إذا فعل ما هو حَسَنٌ من أجله.

التوفيق: إذا كان بين خصمين فالمراد منه الإِصْلَاح بينهما، والتوفيق في الأمور تيسير ما هو ملائم لصلاحتها، وبلوغ المطلوب الحسن منها.

ويظهر أنَّ المراد هنا في النصِّ هو المعنى الأوَّل منهما.

﴿وَعِظُهُمْ﴾:

الوعظ: هو النصيح المقرون بما يثير الرغبة أو الرهبة للالتفاف بالنصح، واتباع ما هدى إليه فعلاً أو تركاً.

﴿قَوْلًا بَلِيغًا﴾:

بليغاً على وزن «فَعِيل» صيغة مبالغة لفاعل، يقال: بَلَغَ الْأَمْرُ بُلُوغًا وَبَلَاغًا، إذا وصل إلى غايته، فالقول البليغ هو الذي يصل إلى غاية مداه في قُوَّةِ التَّأْثِيرِ، فمن كان لديه استعدادٌ للتأثر بالقول البليغ أثر فيه على مقدار استعداده.

﴿إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾:

الظلم: تجاوز الحد، ووضع الشيء في غير موضعه، فمن عصى الله ورسوله فقد ظلم، ومن اعتدى على حقِّ غيره فقد ظلمه، ومن فعل شيئاً يُعَرِّضُهُ للعقوبة ويجرُّ

لَهُ مَا يَكْرَهُ فِي عَاجِلِ أَمْرِهِ أَوْ آجِلُهُ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، وَلَمَّا كَانَتْ مَعَاصِي الْعِبَادِ لِرَبِّهِمْ لَا تَضُرُّ اللَّهَ شَيْئاً، وَإِنَّمَا يُعَرِّضُونَ بِهَا أَنْفُسَهُمْ لِعُقُوبَاتِ اللَّهِ، فَإِنَّهُمْ يَكُونُونَ بِهَا ظَالِمِينَ لِنَفْسِهِمْ.

﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾:

شَجَرَ بَيْنَهُمْ: أي: اختلف الأمر بينهم. ويُقال: شَجَرَ بَيْنَهُمُ الْأَمْرُ يَشْجُرُ شَجْراً إِذَا تَنَازَعُوا فِيهِ. وَاشْتَجَرَ الْقَوْمُ تَخَالَفُوا. وَاشْتَجَرَ الْقَوْمُ وَتَشَاجَرُوا، أي: تَنَازَعُوا. والمُشَاجَرَةُ المنازعة.

قال الزجاج في قوله تعالى: ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: فيما وقع من الاختلاف في الخصومات حتى اشتجروا وتشاجروا، أي تشابكوا مختلفين.

والتشاجر مأخوذ من الشجر، لتشابك أغصانها بعضها ببعض.

﴿حَرَجاً﴾:

أي: ضيقاً. قال الزجاج: الْحَرَجُ فِي اللُّغَةِ: أَضْيَقُ الضِّيقِ أَي: إِنَّهُ ضَيْقٌ جَدّاً.

وَالْحَرَجُ فِي الْأَصْلِ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ هُوَ الْمَوْضِعُ الْكَثِيرُ الشَّجَرِ الَّذِي لَا يَصِلُ إِلَيْهِ الرَّاعِي، ففِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَجْعَلُ ضَدْرَهُ ضَيْقاً حَرَجاً﴾ قَالَ: وَكَذَلِكَ صَدْرُ الْكَافِرِ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ الْحِكْمَةُ.

فَالْمُؤْمِنُ لَا يَجِدُ فِي نَفْسِهِ ضَيْقاً مِنْ حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، إِذَا كَانَ عَلَى خِلَافِ مَا يَهْوَى، لِأَنَّ طَاعَةَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَحُبَّ الْحَقِّ، وَابْتِغَاءَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ، نَصُبٌ فِي نَفْسِهِ الرِّضَا، فَتَنْفَرُ سَعِيدَةً بِحُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

﴿وَيَسْأَلُكُمْ أَسْلِمًا﴾:

أي: وَيَقْدُوا لِحُكْمِ الرَّسُولِ انْقِياداً كَامِلاً، وَيَرْضَوْنَ بِهِ رِضاً صَاحِبِهَا لَا تَصَحُّبَهُ كِرَاهِيَةً وَلَا اسْتِيَاءَ.

﴿وَلَوْ أَنَا كُتِبْنَا عَلَيْهِمْ﴾:

أي: فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ. وَإِطْلَاقُ فِعْلِ «كُتِبَ» عَلَى مَعْنَى «فَرَضَ» هُوَ مِنْ قَبِيلِ الْمَجَازِ

المرسل، وهو من إطلاق المُسَبَّب على السَّبَب، فالإلزام التكليفي بالأمر سَبَبٌ يُنْزَلُ به بيان من الله، وهذا يُكْتَبُ في اللوح المحفوظ، وفي صحف الملائكة، وفي الكتب الربانية المنزلّة، فالكتابة مُسَيَّبة عنه.

وليست كل كتابة جاءت في القرآن أو في السنة هي على هذا المعنى، فالأصل في الكتابة تسجيل معلوم ما، سواء أكان أزلماً نفيّاً أو إثباتاً، أو كان حادثاً بقضاء الله وقدره، أو كان من اختيارات العباد التي جعلها الله من وسعهم.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾:

أي: ولو أنهم فعلوا ما يُتَّصَحون به، من أوامر الله ورسوله إلزاماً أو ترغيباً، ومنه تحكيم الرسول فيما شجر بينهم.

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾:

أي: لكان فعلهم خيراً لهم في عاجل أمرهم وآجله.

﴿وَأَشَدَّ تَنِييَةً﴾:

أي: وأشدّ تنيئاً في مواقع الإيمان الصادق، والإسلام الصحيح، الذي يكون فيه العمل الظاهر دالاً بصدق على ما في الباطن.

﴿وَإِذَا لَا تَنَبَّهُهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾:

إذا: حرف جواب وجزاء. أي: ولو أنهم فعلوا ما يُوعَظون به إذا لَا تَنَبَّهُهُمْ مِنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا. فَحَرَفُ (إذا) هنا واقع في جواب الشرط وجزائه.

﴿وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾:

أي: ولكانت لهم من معونة الله وتوفيقه في الحياة أن يسلكوا الصراط المستقيم، فيكون ذلك مُحَقَّقاً لهم طمانينة القلب، وسكينة النفس، وبلوغ المقاصد من أقصر الطرق، وأوسعها، وهو الصراط المستقيم، صراط الله الذي أبانه الله ورسوله للناس.

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ﴾:

أشار إليهم بإشارة البعيد، إشعاراً بارتفاع منزلتهم جداً عن سائر العباد.

﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ :

أي: مع الذين قضى الله بالإنتعام عليهم يوم الدين في جنات النعيم، وفي منازل الفردوس الأعلى منها.

الإنتعام: الإعطاء الزائد مما يُحَقِّقُ قدراً وافراً من النعيم وطيب العيش، وأهل الفردوس في الجنة هم أنعم أهل الجنة بفضل العطاء الزائد الذي بكرمهم الله به.

وقد جاء في هذا النص تفصيل ما جاء مُجْمَلاً في سورة (الفاتحة):

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ① صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

فقال تعالى هُنَا بَيَاناً للذين أنعم عليهم:

﴿مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ :

فدل على أنهم يكونون رفقاء النبيين في دار النعيم، وهم من أهل الفردوس الأعلى، والرفقاء يشاركون رفقاءهم.

﴿ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾.

أي: ذلك المقام الرفيع عطاء من الله بفضل منه، إنعاماً وإكراماً.

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عِلِمًا﴾ :

أي: كفى الله حالة كونه عليمًا بكل شيء، أو المعنى كفى علمه بأحوال عباده المنافقين، وعباده المؤمنين الصادقين، ليجزي كلاً بحسب حاله، فلفظ «عليماً» حالاً أو تمييزاً، ويرى بعضهم التمييز أرجح.

والباء في «بالله» حرف جر زائد يُزَادُ للتأكيد، وهو هنا تأكيدُ كفاية علم الله.

* * *

(٤)

مع النص في التحليل والتدبر

يأتي هذا التدبر في فقرات عشر:

الفقرة الأولى: بيان قاعدة وجوب طاعة الله وطاعة الرسول وأولي الأمر من المؤمنين، والرد إلى الله والرسول في حالة النزاع في شيء ما.

• قول الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩﴾

في هذه الآية ست قضايا:

القضية الأولى:

يُنَادِي الله عز وجل الَّذِينَ آمَنُوا، فيخص المؤمنين بهذا النداء مشيراً به إلى أن اتصافهم بصفة الإيمان الصحيح الصادق لا بُدَّ أن يكون وازعاً لهم ودافعاً إلى تنفيذ التكاليف التي يوجهها لهم، إذ يُذَكِّرُهُمْ بحق الله عليهم، ومسؤوليتهم تجاهه، وبالجزاء الذي أعدّه سبحانه، ثواباً أو عقاباً، نظراً إلى أنه من أركان الإيمان.

وفي ندائهم بوصف الذين آمنوا، إلماح إلى أن الإعراض عن تنفيذ التكاليف الربانية، وعدم الاهتمام بها والاكتراب لها، إنما يكون عند عدم صدق الإيمان المدعى، وذلك في حالة النفاق، أو يكون عند نقص الإيمان وضعفه، أو غلبة سلطان الهوى، وذلك في حالة العصيان والفسوق وتراكم الغفلات عن الله، واليوم الآخر.

القضية الثانية:

الأمر بطاعة الله عز وجل، بقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ أي: يا أيُّها الذين آمنوا يُطِيعُ كُلُّ فَرْدٍ مِنْكُمْ الله في كُلِّ ما يأمر به، وفي كُلِّ ما ينهى عنه، سواء أكان المطلوب من الأمور التي لها صفة العمل الفردي، أو من الأمور التي لها صفة العمل الجماعي.

فالطاعة لله عز وجل هي العبادة العملية له، وهي من كبريات ثمرات الإيمان الصحيح الصادق، بعد إعلان الخضوع لأوامر الله، بإعلان الإسلام له، والاستسلام لأوامره ونواهيه.

القضية الثالثة:

الأمر بطاعة الرسول ﷺ، بقوله تعالى: ﴿وَاطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي: يا أيها الذين آمنوا، يُطِيعُ كُلُّ فَرْدٍ مِنْكُمْ الرَّسُولَ فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُ بِهِ، وفي كُلِّ مَا يَنْهَى عَنْهُ، سواء أكان المطلوب من الأمور التي لها صفة العمل الفردي، أو من الأمور التي لها صفة العمل الجماعي.

طاعة الرسول ﷺ جزءٌ من طاعة الله عز وجل، لقول الله عز وجل في سورة (النساء) أيضاً:

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ ﴿٨٥﴾

والرسول مآذون بالتفويض الإلهي في أن يأمر وينهى وراء ما يبلغه عن ربه، إذ هو معصوم عن الخطأ في بيان الشرائع الربانية، ابتداءً أو بالمناجاة والتسديد.

وقد جاء التصريح بأنه مآذون من الله بأن يأمر وينهى في الشرائع في القيادة والإدارة، وهذا شامل لكل الرسل عليهم الصلاة والسلام، فقال الله عز وجل فيما يأتي من النص الذي نتدبره:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطِيعَ إِذْنِ اللَّهِ...﴾ ﴿٦٤﴾

فدلّت هذه النصوص على أن كل رسول أرسله الله قد أذن الله له بأن يأمر وينهى وراء تلييفه ما أمر الله به ونهى عنه، وأن أمته الذين استجابوا لدعوته فآمنوا قد أمرهم الله أمراً مباشراً بطاعته، دون البحث عن الدليل الخاص الذي استند إليه الرسول في الموضوع الذي أمر به أو نهى عنه.

القضية الرابعة:

الأمر الرباني للمؤمنين بأن يطيعوا أولي الأمر منهم، فقال الله عز وجل ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ أي: وأصحاب الأمر منكم.

أما أولو الأمر فهم كل من جعل الله له ولاية ما على رعيته ما، بدءاً بأمير المؤمنين والخليفة الأعلى، وتنزلاً إلى كل ذي ولاية، حتى الزوج في ولايته على زوجته وأولاده، والأم في ولايتها على من هم تحت رعايتها من أولادها. كل في حدود رعيته، وفي حدود اختصاصه.

- (١) فأصحاب السُّلطة التنفيذية والحكّام الإداريون وكلّ من له ولاية عامّة أو خاصة، يدخلون في عموم «أولي الأمر» ضمن حدود دوائريهم واختصاصاتهم.
- (٢) وأهل الاجتهاد والاستنباط من العلماء المجتهدين الموثوقين، الذين يستنبطون الأحكام الدينيّة من مصادرها التشريعية، يدخلون في عموم «أولي الأمر» ضمن حدود اختصاصاتهم.
- (٣) وأهل الحلّ والعقد في كلّ اختصاص من الاختصاصات، كالصحّة، والاقتصاد، والتعليم، والإدارة، والسياسة، وغير ذلك، يدخلون في عموم «أولي الأمر» ضمن حدود دوائريهم واختصاصاتهم.
- وهكذا..

ونلاحظ في الآية أنّ الله عزّ وجلّ لم يُعبّد فعل الأمر بطاعة أولي الأمر من المؤمنين، كما فعل في الأمر بطاعة الرسول، بل اكتفى بالعطف المباشر، أي: لم يقل: وأطيعوا أولي الأمر منكم.

ونستطيع بالتأمل مع دلالات نصوص أخرى أنّ نفهم أنّه سبحانه قد دَلّ بهذا على أنّ طاعة أولي الأمر من المؤمنين ليست مطلقة، كما هي حال طاعة الرسول.

وبالبحث ومتابعة تدبّر سائر النصوص من الكتاب والسنة، نعلم أنّ طاعة أولي الأمر من المؤمنين مشروطة بشرط عامّ، وهو أن لا يكون أمرهم أو نهيمهم في معصية الله أو الرسول، أو في تغيير أو مخالفة لحكم الله أو الرسول في آية قضية من القضايا.

فليس لأولي الأمر تفويض مطلق، بل لهم إذن مقيّد في أن لا يكون في معصية الله أو رسوله، أو في مخالفة لحكم جاء عن الله أو رسوله.

وطاعة أولي الأمر مشروطة أيضاً بأن يكونوا من المؤمنين، أمّا طاعة من ينولّي أمور المؤمنين من غير المؤمنين، فلا تدخل في عموم هذا الأمر الربّاني، وهي قضية تخضع - في غير معصية الله ورسوله - لمقتضيات جلب المصالح والمنافع، ودفع المضار والمفاسد، بحكم الضرورة.

وقد دلت النصوص على أنّ الطاعة إنّما تكون في المعروف، فلا تكون في المنكر، وأنّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وبنظرة عامة فاحصة نكتشف أن طاعة أولي الأمر من المؤمنين تكون على وجوه، فمعناها الوجوه التالية:

الوجه الأول: مباحات عامة يأمرهم أو ينهون عن شيء منها.

الوجه الثاني: أن يكون تكليفهم بياناً في فتوى شرعية، أو إعلاناً إدارياً، أو تنفيذاً قضائياً، لحكم الله أو حكم رسوله.

وفي هذا ليس لأولي الأمر من المؤمنين على من هم تحت ولايتهم من المؤمنين أي حكم استقلالي، إنما يستخدمون سلطانهم لحمل من هم تحت ولايتهم على تطبيق أحكام الله ورسوله، أو كشفها وبيانها لهم، وتعريفهم بها.

الوجه الثالث: أن يستنبطوا أحكاماً دينية بطرق الاستنباط الشرعية المأذون بها لأهل الاجتهاد في استنباط أحكام الدين، كَقَهْمِ النصوص، أو القياس عليها بإدراكات استنباطية تختلف فيها إدراكات أهل الاستنباط من المجتهدين، والهدف منها التعرف على حكم الله ورسوله، وهذا من خصائص فئة من المؤمنين ذات أهلية لهذه المهمة.

وبعد استنباط الحكم الذي يراه أهل الاجتهاد، يوجه أولو الأمر من المؤمنين الأمر به، فيكون واجب الطاعة.

الوجه الرابع: أن يضعوا أنظمة إدارية لتنظيم أمور المؤمنين المدنية، وهذا من خصائص ذوي الأهلية لوضع الأنظمة الإدارية المدنية. وبعد اعتمادها من ذوي الاختصاص، يوجه أولو الأمر من المؤمنين الأمر بها، وعندئذ يجب على المؤمنين طاعة الأمر والعمل بها.

وهذه خاضعة لاحتمالات التفسير والتبديل، بحسب المصلحة التي يراها ذوو الاختصاص، ويأمر بها بعد ذلك أولو الأمر.

القضية الخامسة:

ما تضمنه قول الله عز وجل:

﴿ فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٦٥ ﴾

أي: فإن تنازعتم في شئ من الأحكام، أو الأوامر التي يوجهها أولو الأمر من المؤمنين، فقال بعضكم: إن حكم الله، أو حكم رسوله في هذه المسألة كذا. وقال آخرون منكم: بل حكم الله أو حكم رسوله فيها كذا. أو قال بعضكم: إن هذا الأمر التنظيمي ليس فيه معصية لله والرسول. وقال آخرون منكم: بل فيه معصية لله والرسول. فإن عليكم جميعاً أن تردوه إلى الله والرسول، أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله، لمعرفة الحكم الشرعي منهما.

وطريق الرد إلى الكتاب والسنة هو الرد إلى أولي الأمر من أهل الاستنباط المجتهدين، الذين يبحثون في آيات كتاب الله، وفيما صح من سنة رسول الله، للتعرف على حكم الله ورسوله، فيما قام حوله النزاع، كما قد جاء التصريح بأن المجتهدين أهل الاستنباط هم الذين يعلمون بالاستنباط الحق والصواب في قضايا المسلمين العامة، من قضايا الأمن والخوف، أي: السلم والحرب، فقال تعالى في سورة (النساء):

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۖ﴾ .

أي: إلى الرسول في حياته وتحت قيادته، وإلى أولي الأمر منهم إذا كانوا في سراياهم أو أقاليمهم بعيدين عن الرسول، ثم بعد وفاته ﷺ في كل الأحوال.

وهذا الرد إلى الله والرسول، عن طريق اكتشاف أهل الاجتهاد والاستنباط، الذين يحسنون تدبر كلام الله في القرآن، وفهم بيانات الرسول عليه الصلاة والسلام، في حال النزاع في الأمر المهم، يدل على أمرين:

الأمر الأول: أن المؤمنين متى أجمعوا على أمر ولم يتنازعا فيه، فإن حكم الله فيه، أو وجه الحق والصواب، أو الوجه الأحسن والأفضل، هو فيما أجمعوا عليه، وهذا من عصمة الله لجماعة المؤمنين في هذه الأمة من أن تجتمع فتجمع على ضلالة.

إذ جعل النص الرد إلى الله والرسول مقيداً بظاهرة النزاع، فدل على أنه لا زد

في حالة الإجماع، نظراً إلى أنه لا يكون إجماع للمؤمنين على ضلالة، ولا على أمر فيه معصية لله ورسوله.

وقد روى البخاري ومسلم عن المغيرة أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ».

فإذا اتفقت أمة محمد ﷺ على أمر فهو الحق والصواب، أو الأحسن والأفضل، إذ تدخل فيهم الطائفة التي هي على الحق، والتي لا تزال في أمة محمد ﷺ.

وإذا اختلفوا وتنازعوا فالحق والصواب، أو الأحسن والأفضل، ما عليه طائفة منهم، وهذه الطائفة ظاهرة بيّنة، ليست خفية ولا مستورة.

الأمر الثاني: أن من لم يكن أهلاً لاستنباط خفايا الأحكام من مصادرها، أو استنباط وجه الحق والصواب، أو الأحسن والأفضل من أمارته، فلا يجوز له أن يتصدى للاستنباط ويثبت فيه رأياً.

وباستطاعتنا أن نفهم من الإحالة على أهل الاستنباط من المؤمنين، أنه إذا بقي التنازع والخلاف الاجتهادي، فالترجيح العقلي يقضي بترجيح رأي الأكثرية من أهل الاستنباط المعاصرين، وهذا قابل للتعديل في أزمان لاحقات، فقد يختلف الترجيح، أو يكثر عدد الذين كانوا قلة في زمن سابق، أو يحصل إجماع لاحق، وعندئذ يكون ما أجمعوا عليه هو الحق والصواب، أو الأحسن والأفضل.

وقد جاء تقييد الأمر بالرد إلى الله والرسول بقيد: «إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» للإشعار بأن عدم الرد إلى الله والرسول من الأمور المنافية لمقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر، وذلك لأمر:

(١) لأن الإيمان بالله يدفع إلى معرفة حق الله على عباده، وإفراجه بالعبادة، ومنها طاعته والعمل بأوامره ونواهيه، وتطبيق أحكام شريعته لعباده.

(٢) ولأن الإيمان باليوم الآخر يدفع إلى طاعة الله في أوامره ونواهيه، بدفعي الرغب بثوابه في دار النعيم، والرهب من عذابه وعقابه في دار العذاب.

وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ قِيداً لِكَلَامٍ مَطْوِيٍّ تَقْدِيرُهُ كَمَا يَلِي:

وأنتم تردونه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر.

والغرض بيان أن المؤمنين الذين يكون إيمانهم صحيحاً سليماً صادقاً حاضراً في تصوراتهم فإنهم يردون كل شيء يتنازعون في حكمه إلى الله والرسول بدوافع من إيمانهم الصحيح الصادق المأبئ في تصوراتهم.

وقوله تعالى: ﴿ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ أي: ذلك الرد الذي هو رفيع المقام في مراتب الدين هو خير لكم أيها المؤمنون، وهو أحسن تأويلاً، أي: إرجاعاً من أن تردوا ما تنازعتم فيه من أمر إلى حكم آخر، كتحكيم العقل، أو العرف، أو القوانين الوضعي، أو تحكيم الطاغوت، أو غير ذلك. وهو أيضاً أحسن عاقبة يؤول أمركم إليها.

الفقرة الثانية: عرض ظاهرة تحاكم المنافقين إلى الطاغوت، وتركهم التحاكم إلى كتاب الله وإلى الرسول في خصوماتهم، على خلاف مقتضيات الإيمان، دل عليها:

* قول الله عز وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿١٢﴾﴾

ألم تر: الخطاب للرسول أولاً، ثم من بعده المأحا وتعريضاً لكل من يصلح لأن يخاطب به، حتى المنافقين المتحدث عنهم في النص، للتعجب من سلوك المنافقين المتناقض، بين ادعاء الإيمان والعمل بخلاف مقتضياته من التحاكم في خصوماتهم إلى الطاغوت، مع إرادة ذلك عن تصميم.

والمعنى: انظر تجد سلوكاً متناقضاً عجباً، لفشة من المنتمين إلى الإسلام، وهم

الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك يا محمد، وما أنزل من قبلك، وهم مع ذلك يُريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت.

لقد جاء التعبير بأنهم ﴿يُريدون﴾ بصيغة الفعل المضارع الذي يدل على الحركة المتجددة، لإفادة أن سلوكهم لم يكن نتيجة نزوة طارئة، أو شهوة عارمة، أو رغبة في المعصية عارضة، وإنما كان نتيجة عمل إرادتي قلبي متجدد، لا يكون في العادة إلا أثراً لعقيدة مضادة لأدعاء الإيمان بالله ورسوله، وهذا يدل على أن إعلانهم بالاستسلام أنهم آمنوا بما أنزل إليك، وهو القرآن، وما أنزل من قبلك وهو التوراة وما أنزل على أنبياء بني إسرائيل، إعلان كاذب، فهو أحرق بأن يكون زعماً، لا خبراً يترجع فيه الصدق، أو يُظن فيه الصدق.

ولما كانوا يُكرِّرون دوماً هذا الإعلان جاء التعبير عنه بقوله تعالى: ﴿يَزْعُمُونَ﴾ بصيغة الفعل المضارع.

أي: فهم بتكرار يدعون الإيمان ادعاءً كاذباً، وهم بتكرار يُريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، أي: إلى غير حكم الله ورسوله - وقد سبق بيان هذا فيما ورد من أسباب النزول - مع أنهم قد أُمروا بأن يكفروا بالطاغوت، وذلك في عدة نصوص قرآنية منها ما يلي:

• قول الله عز وجل في سورة (الزمر / ٣٩ مصحف / ٥٩ نزول):

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَمَنْ عِبَادُ ۚ﴾ (١٧)

• وقول الله عز وجل في سورة (النحل / ١٦ مصحف / ٧٠ نزول):

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيروا في الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ۚ﴾ (١٨)

• وقول الله عز وجل في سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول):

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ

فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الظُّلُمَاتِ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٦٠﴾

أي: والكافر بالشيء لا تتوجه إرادته بتصميم للتحاكم إليه، فتوجه الإرادة له دليل عدم الكفر به.

وإرادتهم التحاكم إلى الطاغوت ضلالٌ بعيدٌ عن دائرة الإيمان والعمل بمقتضاه، وتحاكمهم الفعلي إلى الطاغوت ضلالٌ بعيد عن صراط الإسلام، وكلٌّ من هذين الضالين يطابق مراد الشيطان فيهم، إذ هو يريد أن يجدهم ضالين عن دائرة الإيمان، وعن صراط الإسلام ضلالاً بعيداً.

الم يتعهد بإغواء ذرية آدم أجمعين إلا عباد الله منهم المخلصين والمخلصين، منذ حكم الله عليه بالغواية إذ عصى أمر الله، وأصر على عصيانه، ولم يراجع ولم يتب ولم يستغفر؟

وقد أبان الله عز وجل إرادة الشيطان المتجددة دوماً أن يضلهم ضلالاً بعيداً في النص الذي نتدبره، فقال تعالى:

﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ﴿٦١﴾

وإذا كان الشيطان يريد دوماً أن يضلهم، فهو يتخذ دوماً كل ما يستطيع من وسائل إغواء لإضلالهم، وحين يضلون خروجاً عن دائرة الإيمان، أو خروجاً عن صراط الإسلام، فإنهم يحققون في أنفسهم مراد الشيطان فيهم، إذ إن أكبرهم أن يجدهم يوم الدين في جهنم يُعَذَّبُونَ معه.

ومن دلائل نفاق هؤلاء، وأنهم ليسوا مجرد عصاة بدوافع نزوات أو شهوات أو نزعات عارضا، أنهم إذا ذكروا بالله واليوم الآخر، وقيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله في كتابه فاعملوا به، وتعالوا إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينكم، كان رد فعلهم التلقائي السريع الذي يفطر عنهم دون روية، باعتباره أثر كفر مستقر في النفس، هو

أن يصدّوا عن الرسول أو عن دعوة الدّاعي إليه صدوداً كاشفاً هوّيتهم الحقيقية، ودالاً على أنهم منافقون.

ومن هذا نعلم أن ردود الأفعال التلقائية كواشف لما في البواطن، والله يُعلّمنا هذا الأسلوب من أساليب اختبار المنافقين، فقال الله عز وجل في النص:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾.

أي: أما غير المنافقين فتكون لهم أحوال أخرى غير هذا الصدود الكاشف للنفاق.

فالذي لا يكون منافقاً يلاحظ أن رد فعله استجابةً للدعوة، وتوبةً، أو لين وسكينة نفس، أو محاولةً للتغلب على الهوى، بقدر قوة الإيمان لديه، وقوة إرادته الإيمانية في التغلب على دوافع النفس المضادة.

إن وضع كلمة ﴿المنافقين﴾ في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ بدل الضمير، إذ كان السياق في البيان العادي، يقضي بأن يكون النص: رأيتهم يصدّون عنك صدوداً. قد دلّ على هذه المعاني التي وضحت لنا آنفاً، ودلّ على أنهم بسلوكهم الماديّ الإيجابي بتحاكيمهم إلى الطاغوت، والسُّلبي بصدودهم التلقائي السريع عن الاستجابة لدعوة الداعي إلى التحاكم إلى ما أنزل الله وإلى الرسول، قد كشفوا كُفْرهم الباطن، ونفاقهم فيما يدّعون بالاستتم فصار إدانتهم بالنفاق مقترنة بالسلوك المادي الذي يدل على حقيقتهم.

لذلك اقتضى الأداء البيانيّ الرفيع إعلان أنهم منافقون، وترك الكناية عنهم بالضمير، والعدول عنه إلى الاسم الصريح، وهو وصفهم بأنهم منافقون. مع ما في هذا الأسلوب من دلالة احترازية لإخراج عصاة المؤمنين من غير المنافقين، وهم الذين إذا ذكروا بالله واليوم الآخر، لأنوا، ولم يصدّوا هذا الصدود، وكان منهم سلوك ما يدل على عدم نفاقهم.

فكشف النص واقع التباين بين ما يُبلّغه المنافقون دوماً، وما يكون من سلوكهم،

وهذا أمر مثير للعجب حقاً، ليس عجباً أن يُكذَّب الواقع العملي الدعوى الكلامية، وأن يظهر ما بينهما من تباين وتناقض؟!

إن الأمر المنطقي الطبيعي الذي لا يثير العجب والاستغراب، هو التطابق بين الادعاء والواقع، أما التناقض أو التضاد بينهما فهو المثير للعجب حقاً.

هذا ما دلَّ عليه الاستفهام التعجيسي في قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ... ﴾

إلى آخر النص، فهي تثير التعجب من واقع حالهم المتناقض بين الادعاء والسلوك.

الفقرة الثالثة: طرح احتمال تمكين الله رسوله من معاقبتهم على نفاقهم الذي ظهرت أماراته، مع بيان تباينهم التي ستكون منهم للاعتذار عن سلوكهم، دلَّ عليها:

* قول الله عز وجل:

﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابْتَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءَ وَلَكِ مَحْلُفُونَ بِاللهِ إِنِ ارْدُنَا إِلَّا إِحْسَنًا وَتَوْفِيقًا ﴾ (١٢)

أي: فكيف تكون حالهم، إذا أذنَّا لك يا محمد بمعاقبتهم على نفاقهم الذي ظهر لك من أماراته ما يدينهم بالكفر والردة، فحلَّت بهم مصيبة حكمك عليهم بالردة، التي تجعل دماءهم مستباحة بسبب ما قدَّمت أيديهم؟

والجواب المطوي الذي لم يذكر في النص، ونستطيع فهمه: هو أنهم سيصابون بالهلع والخوف الشديد عندئذ، فيفكروُن في انتحال الاعذار التي يرون أنها تخرجهم من مواقع الإدانة والعقاب، ثم يسغون إليك مذعورين، يحلفون بالله على أنهم ما أرادوا بعملهم إلا إحساناً وتوفيقاً.

وبالتأمل في واقع حالهم، والتفكر فيما يمكن أن يقدموه من عذر، يظهر لنا أنهم يعتذرون بأمرين:

الأمر الأول: أن خصومتهم مع كافر غير مسلم، فهم لا يريدون أن يضعوا الرسول موضع الاتهام والتجريح من قبل أهل الكفر، إذ زُيِّمَ اتهموه بمحاباة من هو

مؤمن به، فمن الإحسان إلى الرسول إبعاده عن مواطن الاتهامات والشبهات، بالتحاكم إلى غيره من غير المسلمين.

الأمر الثاني: أنهم لم يتحاكموا إلى الطاغوت ليحكم بينهم بدل حكم الله ورسوله، وإنما ذهبوا إلى بعض أهل الخبرة في حل الخصومات، من غير المسلمين، ليوفق بينهم وبين خصومهم توفيقاً يقوم على المصالحة وترضية الفريقين، لا على الحكم بينهما بحكم مخالف لحكم الشرع.

دلّ على هذين الأمرين قولهم: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ أي: مَا أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا للرسول، وإجراء توفيق بيننا وبين خصمنا، وليس في هذين الأمرين منافاة لقاعدة الإيمان، ولا لصراط الإسلام.

ويؤكدون هذا الدفاع عن سلوكهم لتبرئة أنفسهم بالحلف بالله، والحلف بالله حجة من لا يئنه له، فهو من أكبر وسائل الكذابين والمنافقين، ولا سيما حين يتحدثون عن سرائرهم، وضمايرهم.

* * *

الفقرة الرابعة: المنهج الرباني في معالجة المنافقين حول مثل هذه الظاهرة من ظواهر سلوك المنافقين، يبيته:

* قول الله عز وجل:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾.

أولئك: أشار الله إليهم بإشارة البعيد، تعبيراً عن انحطاط درجتهم وبعدها الشديد إلى الأسفل. والمعنى: أولئك البعداء جداً عن الإيمان وعن مواطن القرب من الله ومن رحمته، أولئك: يعلم الله ما في قلوبهم من كفر، مع تظاهرهم بالإسلام نفاقاً، فلا تشغل قلبك يا محمد بهم، ولا توجه جهودك لمعاقبتهم على ما بدر منهم من دلائل نفاقهم وعاملهم وفق هذا المنهج ذي المراحل الثلاث:

المرحلة الأولى: أعرض عن معاقبتهم ومؤاخذتهم على ما بدر منهم، وأعطهم

من وجهك إعراضاً يُشعِرُهُمْ بِأَنَّكَ مستاءٌ مِمَّا فعلُوا، وَيُشْعِرُهُمْ بِأَنَّكَ خَيْرٌ بما فعلُوا.

المرحلة الثانية: عَظَّمَهُم بِالْتَحْذِيرِ مِنْ مَغَبَّةٍ تَحَاكِمُهُمْ إِلَى غَيْرِ حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وبالإطماعِ بِثَوَابِ الَّذِينَ يُحْكَمُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ فِي كُلِّ مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، وبما يَصْحَحُ إِيْمَانَهُمْ وَيَقْوِيهِ وَيَرْسُخُهُ.

فالوعظ هو النصيح بما هو خير، مع التحذير من المخالفة بسوء العاقبة، ومع تليين القلب بوسائل الإقناع والترغيب.

المرحلة الثالثة: قل لهم في أنفسهم، أي: في سِرِّهِمْ، أو في شأن حقيقة أنفسهم، قولاً بليغاً، أي: بالغاً عمق وجدانهم، حيث تكون غاية التأثير.

وإذا أمعنا النظر في نوع هذا القول البليغ، لم نجد أبلغ من أن يكشف الرسول لهم في كلام يُبَيِّرُ لَهُمْ به، حقيقة نفاقهم الذي يكتُمونه، مع بعض أعمالهم التي يخفونها، ممَّا يدلُّ على أنهم منافقون، ليعلموا أنهم مكشوفون للرسول، وأن الله عزَّ وجلَّ قد أطلعه على سرائرهم، فما يتظاهرون به من إسلام ومتابعة إنما هو نفاق، وما يقدِّمونه من معاذير وتعلَّات، لا يقبلها الرسول مصدِّقاً لهم، وإنما يقبلها لأنَّ السياسة اقتضت أن يعاملهم بحسب ظواهرهم، لا بحسب بواطن سرائرهم، وما يُخْفُونَ في صدورهم.

وبعد أن يكشف لهم في سِرِّهِمْ ما يُعْلَمُهُ من حقيقة أمرهم، يتوَعَّدُهُم بإعلان حقيقة كفرهم أمام المسلمين، وعندئذٍ فلا بدَّ أن يُدَانُوا ويعاملوا معاملة أهل الكفر، أو أهل الرِّدَّة.

الفقرة الخامسة: بيان أنَّ كُلَّ الأمم مأمورون بطاعة رُسُلِهِمْ وهو ما في:

* قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾ ﴿٢٤﴾

أي: وما أرسل الله من رسولٍ لآئِمَّةٍ من الأمم إلا جعل هذا الرسول في أمته قائداً وإماماً يطيعونه بإذن الله، فيجب عليهم طاعته فيما يأمرهم به أو ينهاهم عنه بإذن الله،

من كل أمر داخل في حدود إمامته وقيادته، إذ أذن الله له بأن يأمرهم وينهاهم، وكلفهم طاعته في ذلك.

فليس محمّد ﷺ بصاحب خصوصية في هذا الأمر، بل كل رُسُل الله لأقوامهم كانوا بالتولية الربانية والإذن الرباني كذلك. ونلاحظ أن التنبيه على هذه السنة الربانية الدائمة في شأن الإلزام بطاعة الأمم لرسولهم، من أساليب التربية النافعة، القائمة على الإقناع وقاعدة التساوي.

وفي هذا النص حصر بالنفي والاستثناء، وجيء فيه بلفظ (من) الزائدة لتأكيد استغراق النفي لكل أفراد الرُسُل.

* * *

الفقرة السادسة: إطماع الذين تحاكموا إلى الطاغوت بتوبة الله عليهم وغفرانه لهم، إذا استغفروا الله وتابوا إليه، وضدّوا في انتمائهم إلى الإسلام، أو صحّحوا إيمانهم، واستغفر لهم الرسول، دلّ عليها:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (١٦)

أي: ولو أنهم بعد أن ظلموا أنفسهم، فلم يضرّوا أحداً غير أنفسهم بالتحاكم إلى الطاغوت، جاءوك يا محمّد، فأعلنوا توبتهم مما فعلوا، واستغفروا الله، وطلبوا منك أن تستغفر لهم، فاستغفرت لهم بوصفك رسولا، ولذلك وُضع الوصف الظاهر «الرسول» موضع الضمير، إذ لم يقل: واستغفرت لهم، لوجدوا الله تواباً رحيمًا، فهو يتوب عليهم أي: يعود عليهم بتوبهاته كما تابوا، ويرحمهم فيغفر لهم ذنوبهم، ويزيدهم من فضله رحمةً منه.

فباب التوبة مفتوح لهم ولغيرهم، ماداموا أحياء، ولم يُقفل الباب العام للتوبة. وهنا نلاحظ أن التربية الربانية تقوم باستمرار، على الإطماع بالتوبة والاستغفار، مهما عظم جرم المذنب، وتبيد بقبول التوبة، وبالعفو والغفران لمن تاب واستغفر

صادقاً مخلصاً في توبته واستغفاره، ما دام باب التوبة مفتوحاً.

الفقرة السابعة: من دلائل صحة الإيمان وصدقه تحكيم الرسول ﷺ فيما شجر بين المسلمين، دون شعور بالحرج من أقضيته، ودون رفض أو عصيان لأوامره ونواهي، دل عليها:

قول الله عز وجل:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (١٥).

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

جاء في هذا التعبير تكرير حرف النفي، وبينهما قسم، ويمكن أن نفهم هذا التعبير بأحد وجهين:

الوجه الأول: أن يكون: «وَرَبِّكَ لَا» تأكيداً بالقسم وحرف النفي الثاني، لحرف النفي الأول. والاصل: «لا. لا» تأكيداً، وجاء القسم بينهما تأكيداً مضافاً لحرف النفي الثاني، وهذا من أساليب تأكيد النفي عند العرب.

الوجه الثاني: أن يكون حرف «لا» الأول جواباً لسؤال مطوًى، تقديره: أَيْكُونُ الَّذِينَ لَمْ يُحَكِّمُوا رَسُولَ اللَّهِ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْآخَرِينَ مُؤْمِنِينَ؟

والجواب «لا» ونسبى هذه حرف جواب، وهي تنفي ما جاء في السؤال، وهذه تُحَذِّفُ الجمل بعدها كثيراً. ثم جاء تأكيد الجملة بقوله تعالى:

﴿وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ...﴾

إلى آخر النص.

والمعنى: وَرَبِّكَ يَا مُحَمَّد لَا يَكُونُونَ مُؤْمِنِينَ صَادِقِينَ الْإِيمَانَ أَوْ كَامِلِي الْإِيمَانَ هُمْ وَلَا غَيْرَهُمْ، حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي كُلِّ خِلَافٍ عَلَى حَقِّ مُنَاشَبِكَ فِي مَا بَيْنَهُمْ، كَشَابِكَ أَغْصَانِ الشَّجَرِ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، الْأَمْرُ الَّذِي أَحْدَثَ خِصْوَمةَ بَيْنَهُمْ.

ولا يكفي مجرد تحكيمهم لك، بل لا بُدَّ أن يتحقَّق فيهم أمران آخران يأتيان بعد أن تقضي بينهم:

الأمر الأول: ألا يجدوا في داخل أنفسهم حرجاً وُأي: ضيقاً وانزعاجاً ممَّا قضيت به عليهم.

وهذا التكليف موجَّه لحركة نفوسهم الإرادية التي يؤثر فيها صدق الإيمان.

الأمر الثاني: أن يُسلِّموا تسليماً كاملاً، فلا يعارضوا ولا يمانعوا في تنفيذ قضائك، بل يسارعون في تنفيذه مسلمين مستسلمين. وهذا التكليف موجَّه لتصرفاتهم المادية الظاهرة.

ويتساءل المتدبِّر: هل المراد نفْي دخولهم في دائرة الإيمان إذا أرادوا ذلك؟ أو نفْي ارتقائهم إلى مرتبة الإيمان المائل في التَّصوُّر والمؤثر في السلوك بالتوبة، وترك العصيان؟

وأجيبُ بأن التعبير في الآية يصلح للامرين معاً، وذلك كما يلي:

(١) فهو بالنسبة إلى المنافقين يدلُّ على أنهم لا يدخلون في الإيمان الصحيح، حتَّى يتخلَّصوا من نفاقهم بصدق الإيمان، فيكون من آثاره تحكيم الرسول فيما شجر بينهم...

(٢) وهو بالنسبة إلى المؤمنين العصاة يدلُّ على أنهم لا يرتقون إلى مرتبة الإيمان المائل في التَّصوُّر، والمؤثر في سلوكهم، حتَّى يظهر من آثاره تحكيم الرسول فيما شجر بينهم...

وقد سبق في النصِّ ما يشير ضمناً إلى هذا الصنف في قول الله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَفَقِّهِينَ يُصَدُّونَ

عَنْكَ صُدُّودًا﴾

أي: أمَّا غير المنافقين من الذين قد يتحاكمون إلى الطاغوت فإنهم لا يُصدُّون صدوداً منكراً، بل يتعظون، أو تلين قلوبهم، أو تكون منهم محاولات ما للتغلب على أهوائهم، بمقدار نسبة ما لديهم من إيمان عامل مؤثر، كما سبق بيانه.

الفقرة الثامنة: استشارة دافع الاقتداء بأسلافهم، مع بيان أنهم أسوأ حالاً مما كان عليه أسلافهم حين كانوا يذنبون، دل عليها:

* قول الله عز وجل:

﴿وَلَوْ أَنَا كُنْنَا عَلَيْهِمْ آيِنًا قَتَلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرَجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا

قَلِيلٌ مِّنْهُمْ... ﴿١٦﴾﴾

قرا ابن عامر فقط: [إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ].

فالرفع على أنه بدل من الضمير في «ما فعلوه» والنصب على الاستثناء من الكلام المنفي.

وهما وجهان جائزان عند النحاة.

أي: ولو أنا كتبنا فريضة عليهم ليُكفروا عن ذنبهم الذي ارتكبهوا بتحاكُمهم إلى الطاغوت، كما كتبنا فريضةً على أسلافهم الذين عبدوا العجل:

﴿أَيُّ أَقْتَلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾:

«أن» حرف نفسير، و«أقتلوا أنفسكم» بيان للفريضة التكفيرية التي كتبها الله على أسلافهم، ويذكر الله أنه لو كتبها على هؤلاء ما فعلوا القتل لأنفسهم إلا قليل منهم.

وكذلك لو أنا كتبنا فريضةً عليهم من الفرائض الجهادية أن يخرجوا من ديارهم، كما كتبنا فريضةً جهاديةً على أسلافهم أن يخرجوا من مصر مهاجرين مجاهدين بقيادة موسى وهارون عليهما السلام، ما استجاب من هؤلاء الخُلوف لأمر التكليف إلا قليل منهم.

إذن: فهؤلاء أسوأ حالاً من أسلافهم اليهود، مع ما كان عليه أسلافهم من سوء حال، وقسوة قلب، وفسق ومعصية لله عز وجل ولرسله.

وبهذا نلاحظ أن الآية تُشعر بأن هؤلاء المنافقين قد كانوا من منافقة اليهود، وهو ما جاء في طائفة من روايات أسباب النزول.

* * *

الفقرة التاسعة: غَوَّدَ إِلَى مَعَالِجَنَّهُم بِالْمَوْعِظَةِ الْمَشْتَمِلَةِ عَلَى التَّرْغِيبِ، دَل عَلَيْهَا:

* قول الله عز وجل:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيهًا ﴿١٦﴾ وَإِذَا لَا يَأْتِنُهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَهَدَّ يَتَنَّهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٨﴾﴾.

في هذه الفقرة من النص شرط وجزاء:

* أما الشرط فهو:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾.

والذي يوعظون به في موضوع هذا النص نستخلصه مما سبق من بيان فيه وهو ما يلي:

(١) طاعة الله عز وجل.

(٢) طاعة رسوله ﷺ.

(٣) طاعة أولي الأمر منهم.

(٤) رد كل ما يتنازعون فيه من أمور الدين إلى الله والرسول.

(٥) عدم التحاكم إلى الطاغوت.

(٦) تحكيم الرسول فيما شجر بينهم.

(٧) الرضا النفسي الكامل بحكم الرسول، دون شعور بالضييق والكرهية، ولو خالف الهوى.

(٨) التسليم الكامل، بتنفيذ ما يقضي به الرسول دون معارضة ولا تهرب.

(٩) التوبة والاستغفار بعد أن ظلموا أنفسهم.

* * *

* وأما الجزاء فهو عطاء رباني يتكوّن من أربع ثمرات:

الثمرة الأولى: ما ذلَّ عليه قوله تعالى: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: لنألوها بفعلهم ما يُوعظون به خيراً ممَّا بقوتهم من دنياهم بسببه، إذ يُعَوِّضُ الله عنهم من فضله ما هو أفضل وأحسن، كسعة في الرزق، وطمانينة في النفس، وسلامة، ومجد، إلى غير ذلك من مطالب الحياة الدنيا التي كانوا يرجونها بالتحاكم إلى غير حكم الله ورسوله، وهذه الثمرة هي إحدى سنن الله في عباده في الحياة الدنيا.

الثمرة الثانية: ما ذلَّ عليه قوله تعالى:

﴿وَأَشَدُّ تَثْبِيثًا﴾:

أي: ولكان فعلهم ما يُوعظون به أشدَّ تثبيثاً لهم في الإيمان، وفي أماكنهم بين المسلمين، وهذا التثبيث يصرف عنهم قلق النفس الذي يجلبه النفاق، أو تجلبه المعصية التي هي ثمرة ضعف الإيمان، وينصرف عنهم الخوف من انكشاف حالهم للمسلمين الذي قد يعرضهم للعقاب والمواخظة، ويجعل لهم تمكيناً راسخاً مطمئناً بين صفوف المسلمين، الأمر الذي يجني لهم نفعاً عظيماً، إذ به ترتفع أقدارهم، وبه يكتسبون الثقة الاجتماعية، فتفتح لهم في المجتمع الإسلامي أبواب كثيرة من الخير الذي يرغبون فيه، ويكونون فيه أصحاب وزن اجتماعي ثقل، وهذا من التثبيث. وهذه الثمرة هي إحدى سنن الله في الأنفس، وفي الاجتماع البشري.

الثمرة الثالثة: ما دلَّ عليه قوله تعالى:

﴿وَإِذَا لَا يَأْتِيَنَّهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾:

أي: ولأيتناهم في الآخرة يوم الدين أجراً عظيماً، وهذا الأجر العظيم يكون في جنات النعيم، التي جاء وصفها في نصوص كثيرة من القرآن الكريم.

ولما كانت هذه الثمرة أمراً أخروياً على خلاف الثمرتين السابقتين، بدأها الله عز وجل بحرف «إِذَا» الذي هو حرف جواب وجزاء، مع أن البيان كان يكفي فيه: ولأيتناهم من لدنا أجراً عظيماً. لكن إضافة حرف «إِذَا» لا بُدَّ أن تُشعر بشيء، فما هو هذا الشيء الذي استدعى الاهتمام بذكر هذا الحرف الذي هو للجواب والجزاء، والكلام معطوف على ما فيه «اللام» الواقعة في جواب الشرط؟

أقول: إنه التنبيه على أنه جزاء أخروي عظيم جداً، وليس هو من نوع ما سبق حتى يعطف عليه عطفاً عادياً.

الثمرة الرابعة: ما دلّ عليه قوله تعالى:

﴿وَلَهَدَيْتَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾.

الصراط المستقيم هو صراط الله المبين في الإسلام بمعالمه الكبرى، وكثير من تفصيلاته، أما سائر التفصيلات التي تحتاج إليها مستجدات الحياة فتقاس عليها، ويُستهدى فيها بهديها.

لكن إدراك تفصيلات هذا الصراط يحتاج إلى هداية خاصة، زائدة على البيان العام، وزائدة أيضاً على ما يستنبطه المجتهدون، من أهل الاستنباط.

والهداية إليها تحتاج معونة من الله ونويفاً، فالذين يفعلون ما يوعظون به مما سبق بيانه، يُمدّهم الله بمعونته، ويوفّقهم، ويُنورُ بصائرهم لمعرفة الحق في الأمور، وإدراك وجه الخير، ومعرفة الأنفع والأقوم والأصلح، ويصرف عنهم وساوس الشياطين وتوسلاتهم، التي تُبعدهم عن الصراط المستقيم في مسيرتهم في حياتهم، وهكذا تكون هدايتهم إلى صراط مستقيم.

أما الذين لا يفعلون ما يوعظون به، من طاعة الله، وطاعة رسوله، وطاعة أولي الأمر منهم، وردّ كلّ ما يتنازعون فيه من أمور الدين إلى الله والرسول، وعدم التحاكم إلى الطاغوت، والرضا النفسي الكامل بحكم الله ورسوله، دون شعور بضيق أو كراهية، والتسليم الكامل بتنفيذ أحكام الله ورسوله، ومتابعة مخالفتهم بالتوبة والاستغفار، فإنهم سيتخبطون في حياتهم في سُبُلٍ ومناهاتٍ متشعبات، ولا يهتدون إلى صراط مستقيم.

وجاء عطف هذه الثمرة على ثمرة الأجر العظيم في الآخرة، لأنّهما ثمرتان متماسكتان، فالأجر العظيم طريقه الصراط المستقيم.

الفقرة العاشرة: إفعال النصّ ببيان أنّ الذين يطيعون الله والرسول على ما سبق بيانه، سيكونون في جنّات النعيم يوم الدين رفقاء الذين أنعم الله عليهم من النبيين

والصديقين والشهداء والصالحين، دل عليها:

• قول الله عز وجل:

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٦﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٦٧﴾﴾.

في هذه الفقرة ترغيب بالمنازل الرفيعة في جناب النعيم، مع رفاق أجلاء قد أنعم الله عليهم نعماً فائقات، في منازل الفردوس الأعلى، وهؤلاء الرفاق هم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

هذه المنازل الرفيعة والصحبة الجليلة المجيدة تكون لمن يطيع الله والرسول طاعة مستوفية شروطها، على ما سبق بيانه في النص.

وقد اشتملت هذه الفقرة على شرط وجزاء، وربط للنص بما يلائمه من القاعدة الإيمانية:

• أما الشرط ففي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ أي: طاعة مستوفية كامل شروطها، على ما سبق بيانه في فقرات النص التسع «من: اسم شرط جازم».

• وأما الجزاء ففي قوله تعالى:

﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾.

﴿فالولئك﴾: الفاء واقعة في جواب الشرط وجزائه، والكلام بعدها هو الجزاء، واسم الإشارة مبتدأ.

أي: فالمطيعون لله والرسول على ما سبق بيانه، وأشير إليهم بإشارة البعيد، تعبيراً عن ارتفاع مكانتهم، وارتقاء درجتهم، وبعد منزلتهم عند الله عن سائر الناس من دونهم.

﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾:

خبر للمبتدأ ﴿أُولَئِكَ﴾ والمعنى هم رفقاء الذين قضى الله بالإعدام عليهم يوم الدين، في منازل الفردوس الأعلى من جنات النعيم جزاء لهم بما كان منهم من أعمال صالحات، وابتغاء لرضوان الله، وعمل بمحبته.

وجاء بيان أصناف الذين أنعم الله عليهم بقوله تعالى:

﴿مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾.

(من) لبيان أصناف الذين أنعم الله عليهم، وهم:

(١) النبيون: وهم يُعْمَدون المرسلين، لأن كل رسول نبي، وهم من أهل الفردوس الأعلى في جنات النعيم، الذين أنعم الله عليهم بفضله العظيم، ولولم يكونوا أهل المرتبة العليا من عباد الله ما اصطفاهم الله بالنبوة، وهم على درجات متفاضلات.

(٢) الصديقون: الصديق هو الدائم التصديق بالحق، الذي لا يلوي عنه ولا ينحرف، مهما كانت الدواعي. وهو أيضاً الذي يُضَقُّ عمله قوله، فلا يكون لديه نفاق ولا رياء. وصيغة «فَعِيل» من صيغة المبالغة السماعية.

وإذا كانت صفة الصديق مما يتصف به غير الأنبياء من فضلاء المؤمنين، فلا بد أن تكون صفةً للأنبياء والمرسلين، ولذلك وصف الله بها إبراهيم عليه السلام وإدريس عليه السلام إشعاراً بأن كل النبيين صديقون، ووصف الذين آمنوا بالله ورُسُلِهِ إيماناً صحيحاً صادقاً بقوله: أولئك هم الصديقون، ويدخل فيهم بداهة النبيون، فقال الله عز وجل في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ...﴾ ﴿١١﴾

وفي مقدمة الصديقين من أتباع النبي محمد ﷺ سَيِّدُنَا أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه.

(٣) الشهداء: وهم مَنْ ثَبَّتَ لهم الشهادة في سبيل الله، بأن جاهدوا جهاداً صادقاً لتكون كلمة الله هي العليا، فقتلوا في سبيل الله.

الشهداء: جمع شهيد، وأصل «الشهيد» صيغة مبالغة لاسم الفاعل «الشاهد»

وهو الحاضر العالم بظواهر أشياء وأحداث أدركها وهو حاضر، فهو يقدم شهادته بها، وقد أطلق في لسان الشرع وفق هذا المعنى اللغوي، في عدة مواضع.

وأطلق لفظ «الشهيد» أيضاً وجمعه «الشهداء» في لسان الشرع على من قتل في سبيل الله، وهذا هو الأصل فيمن يستحق هذا الإطلاق.

وسمى الرسول ﷺ من مات من المؤمنين مبطوناً، أو غريقاً، أو بالحريق، أو تحت الهدم، أو بذات الجنب، أو نحو ذلك شهيداً، وينبغي أن تكون شهادة هؤلاء نوعاً آخر غير شهادة الذين يقتلون في سبيل الله فيكونون أحياء عند ربهم يرزقون، كما ثبت في القرآن والسنة.

وتخصيص بعض من يموت من المؤمنين بلقب أو بوصف «شهيد» فيه عدة احتمالات ذكرها العلماء:

الاحتمال الأول: أن لفظ «الشهيد» يطلق في اللغة على «الحي» فسمي الذي يقتل مؤمناً في سبيل الله، محتسباً أجره عند الله شهيداً، إذ تكون له بعد موته حياة عند ربه، كما قال الله عز وجل في سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول):

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٧٠﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَكَسَبَتْشُرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

وقد جاء بيان نوع حياتهم هذه عند ربهم، فيما رواه مسلم في صحيحه، أن عبد الله بن مسعود قال: أما إننا سألنا عن ذلك «يعني رسول الله ﷺ» فقال: (أي في بيان ما جاء في قوله تعالى: ﴿بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾):

«أزواحهم في جنوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش، تشرع من الجنة حيث شاءت ثم تأتي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم أطلاعة»:

فقال: هل تشتهون شيئاً؟

قالوا: أي شيء تشتهي ونحن نشرع من الجنة حيث شئنا؟!!

فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يَتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا: يَا رَبُّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نَقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تَرْتَكُوا.

الاحتمال الثاني: قال ابن الأنباري: سُمِّيَ الشهيد «شهيداً» لأن الله وملائكته شُهُودٌ لَهُ بِالْجَنَّةِ، أي: فهو مشهودٌ له بِالْجَنَّةِ، ففعل على هذا بمعنى «مفعول».

الاحتمال الثالث: وقيل: لأنه حيٌّ لم يمِت، فكأنه شاهد أي حاضر، ففعل على هذا بمعنى «فاعل».

الاحتمال الرابع: وقيل: لأنه يَشْهَدُ ما أعدَّ الله له من الكرامة بالقتل، ففعل على هذا بمعنى «فاعل».

الاحتمال الخامس: أنه مشهودٌ له بِحُسْنِ الْخَاتَمَةِ، باعتباره قُتِلَ وهو يجاهد في سبيل الله، ففعل على هذا بمعنى «مفعول».

أقول: كلُّ هذه المعاني صالحة، فلا مانع من ملاحظتها جميعاً في تعليل هذه التسمية، والله أعلم.

(٤) الصالحون: جمع «صالح» وقد جاء في القرآن وصفاً للأنبياء والمرسلين، إذ الصلاح شرطٌ لمن هم أدنى مرتبة من الأنبياء، وما هو شرط للمرتبة الأدنى هو شرط للمرتبة الأعلى بدهاء.

وجاء وصفاً لمن هم دون الأنبياء من المؤمنين، ودون الأبرار من الصالحين، فقد جاء وصفاً لمن هم أهل الدرجة العليا من المتقين، فهم من الصالحين أيضاً، ويلحق أيضاً بهم الذين يُقْصَرُونَ بحقوق هذه الدرجة لكنهم أَوْابُونَ، فقال الله عز وجل بشأنهم في سورة (الإسراء / ١٧ مصحف / ٥٠ نزول):

﴿رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُمْ كَانَ لِلْأَوَّلِينَ غَفُورًا ۝﴾.

أي: إن تكونوا مستوفين حقوقَ مرتبةِ المتقين بتأدية الواجبات وترك المحرمات بصورة إجمالية عامة، لكنكم تُذْنِبُونَ وتخطئون، فتتبعون ذنوبكم وخطاياكم بالتوبة إلى الله والاستغفار والرجوع إلى صراط الاستقامة، فإنه يُغْفِرُ لكم، ولا يخرجكم من

زَمِرِ الصَّالِحِينَ، وَهَذَا فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ دَوَاماً بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْأَوَابِينَ الرَّجَاعِينَ إِلَيْهِ:

﴿فَإِنَّكُمْ كَانُمْ لِلْأَوَابِينَ غَفُورًا﴾.

فلا تخرجكم إذن هذه الذُّنُوبُ والخطايا المتَّبوعةُ بالتوبة والاستغفار عن زُمرَةِ الصَّالِحِينَ، وكذلك حال الأبرار إذا كانوا خطَّائين أَوَابِينَ من باب أولى، وكذلك حال المحسنين بل هم أحقُّ.

فالصالحون وصف يطلق على أهل مرتبة الإحسان، وعلى أهل مرتبة البرِّ، وعلى أصحاب الدرجة العليا من مرتبة التقوى، ولا تخرجهم الخطايا عن زمرة الصَّالِحِينَ إذا كانوا أَوَابِينَ.

هذا ما هدى إليه تدبُّرُ نُصوصِ الصَّالِحِينَ في القرآن الكريم. فمن يُطع الله والرسولَ يَجْعَلْهُ اللَّهُ مع هؤلاء الزمر الأربع الذين أنعم الله عليهم يوم الدين في جنات النعيم.

بعد هذا البيان أثنى الله على مرافقة هؤلاء الزمر، فقال تعالى:

﴿وَحَسُنَ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾.

(الرفيق): المرافق المصاحب، يستوي فيه المفرد وغيره.

«حَسُنَ»: فعلٌ مَدَح، يَجْعُرِي مجرى «نَعِمَ» وفيه معنى التعجب: أي: أَحْسَنُ بأولئك رَفِيقًا «أَوْلَئِكَ» فاعل «حَسُنَ» و«رفيقاً» تمييز أو حال.

والمعنى: ونعمتِ الصَّحبةُ صُحبةُ هؤلاء الذين أنعم الله عليهم، فقد حَسُنَ هؤلاء رَفِيقًا، لأنَّ من كان رَفِيقًا للمُنْعَمِينَ كان معهم مُنْعَمًا، ومن كان رَفِيقًا للسَّعْدَاءِ كان معهم سَعِيدًا.

وأشار الله إليهم بإشارة البعيد تعبيراً عن ارتفاع منزلتهم عنده بالنسبة إلى من دونهم من الذين لا يكونون مع الذين أنعم الله عليهم.

ولكن هل ينالون هذا العطاء الرَّبَّاني بالاستحقاق الأصلي، أم بفضل من الله؟

ويأتي الجواب في قوله تعالى:

﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾:

أي: ذلك النعيم الذي يُصَيِّبه هؤلاء الذين أنعم الله عليهم، ويُصَيِّبه معهم الذين يطيعون الله والرسول كما سبق به البيان، هو فضل من الله يتفضل به على هؤلاء الزمر، بوعده الكريم، وليس باستحقاقهم الذاتي له.

وفي هذا ربط بعنصر من عناصر القاعدة الإيمانية في الجزاء، وهي أن العقاب بالعدل، وأن الثواب بالفضل.

وأخيراً ختم الله عز وجل ببيان عنصر آخر من عناصر القاعدة الإيمانية، ملائم لما جاء في النص، فالامتحان في الحياة الدنيا بالتكاليف الربانية، ومنها الإيمان، والطاعة لأوامر الله ونواهيه، ونَبْهٌ ابتغاء مرضاة الله في كلِّ مطلوب اختياري من العباد طلبه الله منهم، لا بد أن يكون كلُّ ذلك مُحاطاً إحاطة تامةً بعلم شامل، يجري على وفقه الحساب والجزاء بالفضل أو بالعدل، لمختلف زمر المكلَّفين على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم، فقال الله عز وجل:

﴿وَكُفِيَ بِاللَّهِ عَلِيماً﴾ (٧٠):

أي: والله بكلِّ شيءٍ عليم، وكُفِيَ بالله عليماً بكلِّ ما يفعل عباده، وبكلِّ ما يضمرون في قلوبهم ونفوسهم، من إيمان، أو كفر، ونيات، وغير ذلك وبكلِّ ما يُظهرونه من أعمال صادقة أو كاذبة.

فمن كان منافقاً متظاهراً بأنه من المؤمنين المسلمين، فالله عز وجل يعلم ما في قلبه، وكُفِيَ بالله عليماً يعلم حقيقة ما في القلوب والنفوس، لا تخدعه الظواهر، وهو سبحانه يضع الناس في الدرجات والمراتب بحسب ما يعلم من أحوال قلوبهم وسرائرهم، لا بحسب ظواهر أعمالهم المخالفة لما في دوائل نفوسهم.

وبهذا الختام أقفلت وحدة هذا النص.



النص الخامس عشر

وهو من سورة (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول)

سادس سورة مدنية

الآيات من (٧١ - ٨٤)

حول ظواهر من النفاق تبرز عند الدعوة إلى القتال وبعده

• قال الله عز وجل فيها:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اخذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَن لُّيْطَأَنَّ فَإِنْ أَصَبْتُمْ مُصِيبَةً قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

﴿فَلْيَقْتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾

﴿أَلَمْ نَرِ الْآلِينَ قَبْلَهُمْ كُفُوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَسُولُنَا رَبَّ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنِعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾

﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَإِلَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴿٨٠﴾﴾
 ﴿وَيَقُولُوا طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّسُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾
 ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾

﴿فَقَلِيلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَمَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَاسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾

(١)

موضوع النص

أمر الله عز وجل الَّذِينَ آمَنُوا بِأَن يَأْخُذُوا جُذُرَهُمْ فَيُتَأَثَّبُوا لِدَرِّهِمْ كَيْدَ أَعْدَائِهِمْ، آخِذِينَ بِأَسْبَابِ الْمَبَادِئِ، قَبْلَ أَنْ يُيَاغِتَّهُمْ عَدُوُّهُمْ وَهُمْ عَلَى غَيْرِ اسْتِعْدَادٍ لِمُوْاجِهَتِهِ وَصَدَّ كَيْدَهُ.

ومن أسباب المبادأة أن ينفروا إلى القتال أو التصدي للمواجهة جماعات متفرقة أو متتابعة، أو جيشاً واحداً، فالمبادأة هي الخطة الحربية الأكثر سلامة، والأرجح لتحقيق النصر.

عقب هذا أبان الله عز وجل مواقف من مواقف المنافقين وضعفاء الإيمان الذين يستجيبون لوساوسهم ومكرهم الإفسادي، وهي تَلَخُّصُ بما يلي:

(١) التباطؤ والتهاون والتواني عن الخروج مع المسلمين لقتال عدوهم.

(٢) تثبيط من يستجيب لهم من الجبناء وضعفاء الإيمان.

(٣) تحدث بعضهم بالفرح والمسرّة إذا أصاب الخارجين من المسلمين للقتال مصيبة أو مضرّة، ويرى أن الله قد أنعم عليه، إذ لم يشهد معهم قتال عدوهم فنجا بذلك من المصيبة.

(٤) التَحَسُّرُ والندم على ما فاتهم من الفوز بالغنيمة، إذا انتصر الخارجون من المسلمين، وأصابوا من عدوهم غنائم، وهم مع هذا التَحَسُّرِ يَحْسُدُونَ الخارجين على ما أصابوا من غنائم حَسَدٍ من لم يكن ذا وُدٍّ سابق، فيقول القائل منهم: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً.

(٥) ما يوجد لدى بعضهم من التناقض بين ما كانوا يُطَالِبُونَ به قبل الإذن بالقتال، وبين حالهم بعد أن كتب الله عليهم القتال.

فقبل الإذن بالقتال كانوا يُطَالِبُونَ بِأَن يُؤْذَنَ لَهُمْ بِهِ، فَيُؤْمَرُونَ بِأَن يَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ.

وبعد أن كتب الله على المسلمين القتال ذَبَّ الخوف في قلوبهم، فصاروا

يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية، وقالوا:

• رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ؟

• لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ.

(٦) أَنَّهُمْ إِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ مِنْ نَضْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ أَوْ أَيْ أَمْرٍ قَدَّرِي يُسْرُهُمْ كَتَبَتْ وَيُخْصِبُ وَسَعَةً رِزْقٍ وَصَحَّةٍ وَيَبِينُ قَالُوا: هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، أَيْ: لَمْ تَأْتِهِمْ بِبِرْكَةٍ دَعَا الرُّسُولَ، وَبِسَبَبِ إِكْرَامِ اللَّهِ لَهُ.

وَأَنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ مِنْ مَصِيبَةٍ فِي الْإِنْفُسِ أَوْ فِي الْأَمْوَالِ مِنْ أُمُورٍ قَدَّرِيَّةٍ يَبْتَلِيهِمُ اللَّهُ بِهَا قَالُوا: هَذِهِ مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ، أَيْ: لَمْ يُحْسِنِ التَّصَرُّفَ فِي إِدَارَتِهِ أَوْ قِيَادَتِهِ فِي السَّلَامِ وَالْحَرْبِ.

أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْهُمْ ذَا كُفْرٍ وَعِنَادٍ فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ مَقَالَةَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قَبْلِ: إِنْ مَا نَزَلَ بِنَا مِنْ سَيِّئَاتٍ وَمَصَائِبٍ إِنَّمَا كَانَ مِنْ شُومٍ دَعَا مُحَمَّدٌ الَّتِي فَرَقَتْ قَوْمَهُ، وَجَلِبَتْ التَّرَاوُعَ وَالْخِلَافَ وَالْحُرُوبَ.

(٧) التَّنَاقُضُ بَيْنَ مَا يُعْلَنُونَ لِلرُّسُولِ مِنَ الطَّاعَةِ وَالْخُضُوعِ عِنْدَ الْمَوَاجِهَةِ، وَبَيْنَ مَا يُبَيِّنُونَ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ مِنَ الْمَعْصِيَةِ وَالْمُخَالَفَةِ، وَالْعَمَلِ بِغَيْرِ مَا أَعْلَنُوا لَهُ. وَخِلَالِ عَرْضِ هَذِهِ التَّصَرُّفَاتِ الَّتِي تَصْدُرُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَمِنَ الَّذِينَ يَتَأَثَّرُونَ بِهِمْ مِنْ ضَعْفَاءِ الْإِيمَانِ، شَرَحْتُ الْآيَاتِ الْمَفْهُومَاتِ الْإِيمَانِيَّةَ الْمَلَامَةَ لِمَوْضُوعَاتِهَا.

فَالظَّاهِرَاتِ السَّلُوكِيَّةِ الَّتِي أَبَانَهَا هَذَا النَّصُّ هِيَ مِنْ أَعْمَالِ الْمُنَافِقِينَ أَسَاساً، ثُمَّ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الرَّيْبِ وَالشَّكِّ وَضَعْفَاءِ الْإِيمَانِ، وَرَبَّمَا يَشَارِكُهُمْ فِي بَعْضِهَا بَعْضُ أَهْلِ الْغَفْلَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

وَفِيهِ أَيْضاً بَيَانٌ لِبَعْضِ ظَاهِرَاتٍ أُخْرَى تَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَكِنَّهَا لَا تَتَلَاَمُ مَعَ صِدْقِ الْإِيمَانِ، وَلَا مَعَ انْدِفَاعَاتِهِ الْحَمَاسِيَّةِ الَّتِي قَدْ تَظْهَرُ قَبْلَ الْإِخْتِبَارِ بِالتَّطَبُّقِ الْعَمَلِيِّ، وَقَدْ ضُمَّتْ هَذِهِ لِبَعْضِ ظَاهِرَاتِ الْمُنَافِقِينَ فِي النَّصِّ، لِلإِشْعَارِ بِأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ لَا تَظْهَرُ إِلَّا مِنَ الْمُنَافِقِينَ، إِذْ هِيَ تَتَلَاَمُ مَعَ طَبِيعَةِ النِّفَاقِ، وَلَا تَتَلَاَمُ مَعَ طَبِيعَةِ الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ الصَّادِقِ، لَكِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي النُّفُوسِ فَيُعَامِلُ كُلَّ إِنْسَانٍ بِحَسَبِ مَا فِي نَفْسِهِ

وقلبه من إيمانٍ أو كفرٍ، أو شكٍّ، أو جبنٍ، أو حُبٍّ للحياة الدُّنيا وتعلُّقٍ بها، فيَحَاسِبُ ويُجَازِي بمقتضاها، لا بمقتضى ظاهرات الأعمال فقط.

واشتمل النصّ أيضاً على توجيهاتٍ رُبَانِيَّةٍ خَوَّلَ هذه الظاهرات التي أبانها، من خلال دعوة المؤمنين إلى الاستعداد، وأخذ الوسائل كلها التي يقتضيها الحذر من الأعداء دون تفريط، وأتبع ذلك بالأمر بالخروج لقتال العدو حسب الظروف الداعية بأسلوب الوُحْدَات التي تُنبِثُ عصاباتٍ موزَّعاتٍ تنالُ من العدو النّيل المطلوب، أو بأسلوب الجيش المجتمع الذي يخرج إلى القتال بقيادة واحدة.

ومن البدهي أنّ القيادة هي التي تقرّر القتال، وهي التي تقرّر أسلوب الوحدات التي تُنبِثُ على شكل عصابات، أو أسلوب خروج جيشٍ نظاميٍّ يقاتلُ جيشاً نظامياً.

واشتمل النصّ على الترغيب بالأجر العظيم لمن يُقاتل في سبيل الله، والتّنبية على بعض المقتضيات التي دعّت إلى أمر المؤمنين بقتال عدوهم من أهل الشرك في مكة، إبانَ تنزيل هذا النصّ، وهي الانتصار لدين الله، وإنقاذ المستضعفين من الرّجال والنساء والولدان، الذين يتعرّضون لظلم كفارٍ مكّة لهم من أجل إيمانهم وإسلامهم، وهم يدعون الله قائلين:

(١) ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾.

(٢) ﴿وَأَجْعَلْ لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾.

(٣) ﴿وَأَجْعَلْ لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾.

وقد دلّ النصّ على أنّ الله تبارك وتعالى اختار أن يجعل إنقاذهم وتلبية مطالبهم، بتكليف المؤمنين قتال قادة الكفر وجنودهم، لينصّروهم عليهم، فيتحقق بذلك انتصار الإيمان وقمّع الكفر، وابتلاء المؤمنين، وإنقاذ المستضعفين، وتحرير البلد الحرام من الشرك والمشركين، وتمحيص المؤمنين، وكشف نفاق المنافقين وأهل الرّيب وضعفاء الإيمان.



أما الظواهر التي أبانها النصّ فأعرضها بشيء من التفصيل فيما يلي:

الظاهرة الأولى: ما يُفَعِّلُه المَبْطُوثُ عن القتال، فإذا خرج المؤمنون إلى القتال لم يخرجوا معهم، ودَعَوْا من يستجيب لهم من أهل الريب وضعفاء الإيمان إلى عدم الخروج، ثم هم بعد المعركة على إحدى حالتين:

(١) إنْ تعرَّضَ المسلمون لمصيبة، كهزيمة أو كثرة شهداء، فرح هؤلاء المتخلفون، وقال قائلهم: قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن مع المسلمين حاضراً المعركة التي أصابتهم فيها المصيبة.

(٢) وإن انتصر المسلمون، ونالوا من عدوهم غنائم تتحلب لها أشداق أهل الطمع بالدنيا، تحسروا وندبوا حسداً، وقال قائلهم: يا ليتني كنت معهم فافوز فوزاً عظيماً، أي: بما أنال من نصيب من الغنائم، وبما أحافظ به عليه من سرّ حال بين المسلمين، إذ قد يكشف التخلف المتكرر نفاقه.

الظاهرة الثانية: ما يكون من أهل الاندفاع الحماسي من إظهار الرغبة بلقاء العدو ومقاتلته، قبل أن يجد الجدّ، ويأتي الإذن بالقتال، أو توجه نصوص الأمر به.

وهذا فريق يوجد في الناس دواماً، فمنهم صادقون ظاهراً وباطناً، إذا حَزَبَ الأمر وجاء الإذن بالقتال كانوا مع مقدمة المقاتلين الصادقين ومنهم صادقوا الرغبة، لكنهم إذا جدّ الجدّ وحزب الأمر، ودَعَوْا إلى القتال، جُنُّوا وتخاذلوا، وضعفوا عن مواجهة المقاتلين في معارك يكون فيها قتل وجراحة وآلام، وكانت رغبات حب السلامة وحب الحياة أقوى في قلوبهم ونفوسهم من رغبات قتال العدو ودواعيه. ومنهم كذّابون يتظاهرون نفاقاً أو رياء، وليس لديهم رغبة أصلاً في مواجهة العدو لأنهم غير مؤمنين، أو هم شاكون لم يصح إيمانهم بعد، أو هم ضعفاء الإيمان. فهم في ساعات الأمن والسلم يتظاهرون بالدعوى الكواذب، ويسابقون إلى إعلان رغباتهم بالقتال تفاخراً وتكبراً، يسترون بذلك حقائق ما في نفوسهم، ابتغاء مكانة أو مصلحة أو جوار بين المسلمين. إنهم رَغَاوُنْ نَفَاثُونْ كَذَّابُونْ، فإذا جاء الأمر بالقتال جعلوا يُسَوِّفُونْ ويُمَاطِلُونْ ويطلبون التأخير والتأجيل إلى أجل آخر قريب.

الظاهرة الثالثة: ظاهرة هي من ظواهر المنافقين أساساً، وتوجد عند أهل الريب، وضعفاء الإيمان بالرسول ﷺ.

من المعلوم أنَّ الرسول ﷺ في أَمَّتِهِ قَائِدٌ وَإِمَامٌ يُسَوِّهُمُ ضَمَنَ مَا يَرَى مِنْ مَصْلَحَةٍ وَخَيْرٍ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، لَكِنْ قَضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ أَنْ يُمْتَحَنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ الَّتِي تُسَرِّهُمُ، وَبِالسَّيِّئَاتِ الَّتِي تُزَعِّجُهُمْ أَوْ تُؤْلِمُهُمْ، وَهُمْ يُجِبُّونَ الْحَسَنَاتِ مِنْهَا، وَيَكْرَهُونَ السَّيِّئَاتِ، وَيَغْفُلُونَ عَنْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَلُوكُ عِبَادَهُ بِالْشَّرِّ (أَي: بِالصَّائِبِ) وَبِالْخَيْرِ (أَي: بِالنَّعَمِ) فِتْنَةً (أَي: اِمْتِحَانًا وَاجْتِبَارًا).

فإذا تصرف الرسول ﷺ بتصرفات بمقتضى إمامته وقيادته الإدارية والسياسية والعسكرية لأَمَّتِهِ، فكان من نتائجها حَسَنَاتٌ دُنْيَوِيَّةٌ كَنَصْرِ وَتَمْكِينِ وَغَنَائِمٍ، بِقِضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ، قَالَ الْمُنَافِقُونَ: هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، جاحدين حِكْمَةَ الرَّسُولِ فِي إِدَارَتِهِ وَسِيَاسَتِهِ، أَيْ: لَمْ نَكُنْ حِكْمَةُ الرَّسُولِ هِيَ السَّبَبُ فِي جَلْبِ هَذِهِ النَتِيجَةِ الْحَسَنَةِ الَّتِي سَرَتْ الْمُسْلِمِينَ.

وإذا تصرف الرسول ﷺ بمقتضى إمامته وقيادته الإدارية والسياسية والعسكرية لأَمَّتِهِ، فكان من نتائجها سَيِّئَاتٌ دُنْيَوِيَّةٌ، كَهَزِيمَةٍ وَخَسَارَةِ شُهَدَاءَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَظَفَرِ الْأَعْدَاءِ بِغَنَائِمٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ حَصَلَ ذَلِكَ بِقِضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ، قَالَ الْمُنَافِقُونَ، وَمَعَهُمْ أَهْلُ الرِّيبِ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ: هَٰذَا الَّذِي حَصَلَ هُوَ مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ، أَيْ: بِسَبَبِ تَصَرُّفِهِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ مُلَاسِمًا لِلْمَصْلَحَةِ، وَمِنْ أَمْثَلِهِ هَٰذَا مَا قَالَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي سَلُولٍ بَعْدَ غَزْوَةِ أُحُدٍ، وَسُقُوطِ مَنْ سَقَطَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ شُهَدَاءَ فِيهَا، إِذْ قَالَ: أَطَاعَ الْأَحْدَاثَ وَعَصَانِي، وَقَالَ الْمُنَافِقُونَ مَعَهُ: لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا، وَجَعَلُوا الرَّسُولَ هُوَ السَّبَبُ فِي مَا نَزَلَ مِنَ مَصِيبَةٍ بِالْمُسْلِمِينَ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ.

الظاهرة الرابعة: نَقَضُ مَا يُعْلِنُهُ الْمُنَافِقُونَ مِنْ طَاعَةِ لِأَوَامِرِ الرَّسُولِ، وَتَبَيَّنَتْ غَيْرُهُ حِينَمَا يَخْلُو بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، فَيَقْرَرُونَ أُمُورًا أُخْرَى غَيْرَ الَّتِي أَعْلَنُوهَا حِينَمَا كَانُوا عِنْدَ الرَّسُولِ فِي مَجْلِسِهِ يُظَاهِرُونَ الْوَلَاءَ وَالطَّاعَةَ، وَهَذِهِ ظَاهِرَةٌ تَتَنَاسَبُ مَعَ طَبِيعَةِ النِّفَاقِ لَا مُحَالَةٍ، وَقَدْ يَسِيرُ مَعَ الْمُنَافِقِينَ أَهْلُ الرِّيبِ وَضَعْفَاءُ الْإِيمَانِ، لَكِنَّهُمْ بِالتَّبَعِ لَا بِالْأَصَالَةِ، فَالَّذِينَ يُبَيِّنُونَ الْخِلَافَ بَعْدَ إِعْلَانِ الطَّاعَةِ هُمْ مُنَافِقُونَ حَقًّا.

الظاهرة الخامسة: أَنَّ الْمُنَافِقِينَ وَمَعَهُمْ أَهْلَ الرِّيبِ وَضَعْفَاءُ الْإِيمَانِ، وَرَبَّمَا انْسَاقَ مَعَهُمْ أَهْلُ الْخَفَةِ وَالطَّيْشِ، مِنْ صِفَاتِهِمُ الدَّائِمَةِ أَنَّهُمْ يَتَسَقَطُونَ الْأَحْدَاثَ وَالْأَنْبَاءَ

والأخبار التي تتعلق بالمسلمين، من قضايا الأمن وقضايا الخوف، أي: من أمور السلم والحرب، فيذيعونها وينشرونها، ويتحدثون فيها بزعم المشاركة في حل مشكلاتها، لأنهم لا يشعرون داخلياً بالولاء للمسلمين، فهم لا يهتمون لكتمان ما يضر المسلمين إذاعته من أمور السلم وأمور الحرب، وهذا يشمل كل القضايا.

فالمناققون ومن يسيرون معهم لا غيرة لهم على مصالح المسلمين، فلا يهتمون لكتمان شيء من أمورهم التي قد يضر إعلانها مصالحهم، وقد يصل بعضها إلى عدوهم، فيكيدهم، ويمكر بهم.

وخلال عرض هذه الظواهر شرحت الآيات المنطق الإيماني، وقدمت التوجيهات المناسبات، وعالجت ونصحت ووعدت وأوعدت.

* * *

(٢)

المفردات اللغوية في النص

﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾:

الحِذْرُ، والحِذْرُ: هو التيقظ والتأهب، واتخاذ الوسائل اللازمة مخافة مباغته المكاره، من عدو مداهم، أو صائل مهاجم، أو ذي ضرر مترصد، يتربص الغرات والغفلات، أو أي عارض من عوارض الكون يحمل المصائب.

نقول لغة: حَذِرَ يَحْذِرُ حِذْرًا وَحَذْرًا.

وأمر الله المؤمنين بأن يأخذوا حذرهم من عدوهم ليس أمراً بأن يخافوا عدوهم، ولكنه أمر باليقظة حتى لا يباغتهم وهم غافلون، وأمر باتخاذ الوسائل الكافية لصدهم وقمعهم، إذا داهموا مباغتين في حين غرة، أو مترصدين وقت غفلة.

﴿فَأَنْفِرُوا﴾:

أصل النفر التفرق عن دُعر، أو الشروء عن دُعر. ومنه نُفِرَ الدابة، ونُفِرَ الأطباء، ويقال: نُفِرَ عن الشيء خوفاً منه، ونُفِرَ إلى الشيء طلباً للأمن عنده.

ثُمَّ اسْتَعْمِلْ لِمَطْلُوقِ التَّفَرُّقِ. وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: نَفَرَ الْحِجَااجُ مِنْ مَنَى، يَنْفِرُونَ نَفَرًا وَنَفَرًا. وَيُسَمَّى الْيَوْمُ الثَّانِي مِنْ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ يَوْمَ النَّفَرِ، لِأَنَّ الْحِجَااجَ فِيهِ يَنْفَرُونَ.

وَاسْتَعْمِلَ النَّفَرَ أَيْضًا بِمَعْنَى الْخُرُوجِ لِدَفْعِ الْخَطَرِ، وَلِقِتَالِ الْعَدُوِّ، وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الْمُرَادُ هُنَا فِي النَّصِّ، وَهُوَ اصْطِلَاحٌ قُرْآنِي لِمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ.

وَالنَّفِيرُ: هُمُ الْقَوْمُ الَّذِينَ يَخْرُجُونَ لِدَفْعِ الْخَطَرِ، أَوْ لِقِتَالِ الْعَدُوِّ.

﴿ثُبَاتٍ﴾:

جَمْعُ ثُبَةٍ، أَيْ: جَمَاعَةٍ، قَالَ عُلَمَاءُ اللَّغَةِ: الثُّبَةُ: الْجَمَاعَةُ، وَالْعَصْبَةُ مِنَ الْقُرْسَانِ، وَالْجَمْعُ: ثُبَاتٌ، وَثُبُونٌ، وَثُبُونٌ.

فَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ﴾: اخْرُجُوا لِدَفْعِ خَطَرِ أَعْدَائِكُمْ، وَمُجَاهَدَتِهِمْ جَمَاعَاتٍ مُتَفَرِّقَاتٍ مُتَابِعَاتٍ، أَوْ مُتَفَرِّقَاتٍ لِحِجَااجٍ مُخْتَلِفَاتٍ بِحَسَبِ الْحَاجَةِ.

﴿أَوْانْفِرُوا جَمِيعًا﴾:

أَيْ: أَوْ اخْرُجُوا لِقِتَالِ عَدُوِّكُمْ جَيْشًا وَاحِدًا مُجْتَمِعًا مُتَمَاسِكًا قُوًيًا، فَكَلِمَةُ «جَمِيعٌ» تُفِيدُ الْاجْتِمَاعَ عَلَى الْأَمْرِ رَأْيًا وَعَمَلًا.

وَالتَّوْجِيهَ لِأَنَّ يَنْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ يَنْفِرُوا جَمِيعًا فِيهِ التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا مَا يَوْجِبُهُ عَلَيْهِمْ أَخْذُ الْحَذَرِ، أَيْ:

• فَإِنْ اقْتَضَى الْأَمْرُ أَنْ تَنْفِرُوا جَمَاعَاتٍ مُتَفَرِّقَاتٍ فَافْعَلُوا ذَلِكَ.

• وَإِنْ اقْتَضَى الْأَمْرُ أَنْ تَنْفِرُوا جَمِيعًا جَيْشًا وَاحِدًا مُتَمَاسِكًا قُوًيًا فَافْعَلُوا ذَلِكَ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْقِيَادَةَ الْمَسْؤُولَةَ الْمُرَاقِبَةَ لَوَاقِعِ الْعَدُوِّ، وَالتِّي تَخْطُطُ لِدَفْعِ خَطَرِهِ، أَوْ مَقَاتِلَتِهِ، هِيَ الَّتِي تَقَرَّرُ هَذَا أَوْ هَذَا.

وَجَاءَ فِي تَعْلِيمِ قُرْآنِي آخَرُ أَنَّهُ مَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَنْفِرُوا كَافَةً، فَظَهَرَ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿أَوْانْفِرُوا جَمِيعًا﴾:

أَنْ يَنْفِرَ الْجَيْشُ الْمَهْيَأَ لِلْخُرُوجِ بِصُورَةِ جَمَاعَةٍ لَا أَنْ يَنْفِرَ كُلُّ الْمُؤْمِنِينَ.

ونستطيع أن نفهم من ترتيب الأمر بالنفر على الأمر بأخذ الجذر، أن من عناصر أخذ الجذر الذي يُخشى عنده من أن يُباغت العدو جيش المسلمين على حين غرة، أن تختار القيادة المسلمة الجذرة خطوة البدء بالتحرك لمواجهة قتاله، وعدم ترك الفرصة له أن يكون هو البادئ بالقتال، مادام الأمر قد وصل إلى مرحلة التصادم المرتقب، فلما أن يكون هو البادئ، ولما أن يكون المسلمون هم البادئين.

أي: فمن أخذ الجذر حينئذ أن يكون المسلمون هم البادئين.

أشار إلى هذه القاعدة العسكرية قول الله عز وجل في النص:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اخذُوا جذركم فأنفروا ثباتاً أو أنفروا جميعاً﴾.

فرتب الأمر بالنفر بمعنى بدء القتال، على الأمر بأخذ الجذر، إذ عطفه بفاء العطف التي تدل على الترتيب مع التعقيب.

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ يُبْطِلُ﴾:

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ﴾: أي: وإن من جمعكم المشتمل على المؤمنين الصادقين، وأهل الرِّيب، وضعفاء الإيمان، والمنافقين.

﴿لَمَنْ﴾: أي: لفريقاً، واللام هذه لتأكيد وجود هذا الفريق.

﴿لِيُبْطِلُ﴾: اللام، قالوا: هي واقعة في جواب قسم محذوف، والمراد تأكيد المضمون. وقيل اللام للتأكيد أيضاً، فهو تأكيد بعد تأكيد.

البطء، والإبطاء، والتبطيء، هو تأخير العمل عن الوقت الذي ينبغي القيام به فيه، تكاسلاً، أو رغبة بعدم القيام به، لدافع من الدوافع.

ويقال: بَطَأَ فلان بفلان، إذا تباطأ عن أمرٍ عزم عليه.

ويمكن فهم ﴿لِيُبْطِلُ﴾ بمعنيين:

الأول: بمعنى أنه هو بنفسه يتباطأ عن الخروج إلى القتال في سبيل الله.

الثاني: بمعنى أنه يُبْطِئُ غيره عن الخروج، ويكون المعمول محذوفاً، تقديره:

وَأَنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَسُطُّنَ بِغَيْرِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ ضَعُفَاءَ الْإِيمَانِ وَأَهْلَ الرِّيبِ، فَيَجْعَلُهُ يَتَبَاطَأً.

ويمكن حمل ما جاء في النص هنا على المعنيين معاً، فهذا الفريق يُبْطِئُ هو بنفسه، ويبْطِئُ غيره، فيجعله بشيْطه يُبْطِئُ عن الخروج للقتال في سبيل الله.

﴿فَإِنْ أَصَابَكُمْ﴾ :

أصل المادة من أَصَابَ السُّهُمُ الهدفَ، إذا وقع فيه ولم يُخْطِئْهُ. والإصابة حين تكون مؤلِمةً لمن وقعت عليه أو على شيءٍ يخصُّه فهي بالنسبة إليه مُصِيبَةٌ له. ومنه أطلق العرب على النازلة المؤلِمة مصيبةً، وجمعها مصائب، وعلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَصَابَكُمْ مَصِيبَةٌ﴾.

ويرمي الصياد سهمه إلى الصيد، فإن أصابه ولم يخطئه، أثْبَتَهُ، فنالهُ صيداً، ومن هذا أطلق العرب عبارة: أصاب الشيءَ، بمعنى: ناله وظفر به. وأطلق العرب على الأفكار والأعمال المطابقة للحق أو الخير أو ما هو أحسن وأفضل، اسم «صواب»، وقالوا: «أصاب» إذا جاء بالصواب.

ولما كان مُسَدِّدُ السهم إلى هدف إنما يُسَدِّدُهُ بإرادته، أطلق العرب كلمة أصاب بمعنى أراد على وجه العموم، وبمعنى: قصد الصواب وأراده.

ويرمي ذو العطايا أعطياته إلى من يريد الإنعام عليهم، فمن أَصَابَتْهُ كانت له نعمةً وفضلاً، فالإصابة هنا سارة، وعلى هذا المعنى قول الله تعالى في النص: ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ﴾.

فَتَوَجَّهَ المادة في كل موضع بحسب المعنى الملائم للسباق والسباق.

﴿فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ﴾ :

أصل الفضل الزيادة، ولما كانت عطايا الله عز وجل لعباده فيضاً منه، دون استحقاقٍ أحدٍ لهذا العطاء مهما كان شأنه، كان عطاؤه جديراً بأن يوصف بأنه فضل، قاله ذو الفضل العظيم.

﴿مَوَدَّةٌ﴾ :

مصدر «وَدَّ» تقول: وَدَّ يُوَدُّ وَدًّا بتثنية الواو، ووَدَادًا بتثنية الواو أيضاً، ووَدَادَةً، ومَوَدَّةً.

الوَدُّ: نوع من الحبِّ الهادئ الثابت الذي يكون بين الأصحاب والإخوان وذوي العلاقات القويَّة، ولا يطلق على المشبوب بالعواطف الشائرة، أمَّا الحبُّ فهو لفظ عامٌ يطلق على كلِّ الأنواع وكلِّ المستويات، من الحبِّ بدافع الجنس، إلى الحبِّ السامي الرفيع فهو جنس لأنواع مختلفة، ومستويات متفاوتات.

﴿يَلَيْسَتَنِي﴾:

«يا» حرف تنبيه، أو حرف نداء، والمنادى به محذوف تقديره: يا هذا، أو يا هؤلاء، أو هو مجرد من نفسه مخاطباً فيناديه. «ليست» حرف تَمَنُّ، «التمني هو طلب ما لا طمع فيه، أو طلب ما فيه عُسْرُهُ وهو يعمل عَمَلٌ «إِنَّ» فينصبُ الاسم ويرفع الخبر، وضمير المتكلم اسمها، والنون للوقاية. وجملة «كُنْتُ مَعَهُمْ» خبر «لَيْتَ» والمراد من النداء وما بعده هنا التحسر.

﴿فَأَقْوَزُ﴾:

الْقَوَزُ يأتي بمعنى الحصول على أمرٍ مرغوب فيه. ويأتي بمعنى النجاة من مكروه والمراد هنا المعنى الأول، لأنه يتحسر على مرغوبٍ فاته بتخلُّفه، إذ فاته الظفر بمشاركة المجاهدين الذين خرجوا لملاقاة العدو في الغنائم التي نالوها، ويستر حاله بين المؤمنين، لأنَّ التخلُّف عنهم قد يكشف نفاقه.

﴿يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾:

يقال لغة: شَرَى الشيء واشتراه إذا باعه. قال الفراء: للعرب في شَرَوْا واشتَرَوْا مَذْهَبَانِ، فالأكثر منهما أن يكون شَرَوْا باعوا، واشتَرَوْا ابتاعوا، ورُبَّمَا جَعَلُوهُمَا بِمَعْنَى بَاعُوا.

ومما جاء في القرآن من استعمال «شَرَى» بمعنى باع ما يلي:

(١) قول الله تعالى في سورة (يوسف/١٢) بشأن يوسف عليه السلام:

﴿وَشَرَوْهُ شِمِينَ بِخَمْسٍ دَرَاهِمٍ مَّعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾:

أي: باعوه بضمن بخسر، والذين باعوه رجال القافلة الذين التقطوه من الجُب.

(٢) قول الله عز وجل في سورة (البقرة/٢):

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾

أي: يبيع نفسه لرَبِّه ابتغاء مرضاتِهِ.

أقول: إذا كان فعل «شَرى» أو «اشترى» بمعنى «باع» فالمأخوذ هو الذي دخلت عليه الباء. وإذا كان بالمعنى الآخر وهو المعنى الذي اشتهر عرفاً، فالمتروك هو الذي دخلت عليه الباء.

﴿وَالْمُسْتَغْفِينَ﴾

أي: المضطهدين بسبب ضعفهم عن المقاومة. وأصل المستضعف هو من وجد ضعيفاً، أو عُدَّ ضعيفاً، أي: فهم بسبب ضعفهم يضطهدهم المشركون ويذلونهم، ويحاولون إكراههم على الكفر والفسوق والعصيان لله ولرسوله.

﴿وَالْوِلْدَانَ﴾

وَلَدَانِ جُمُعٌ وَلِيدٌ، قال الجوهري: الصَّبِيُّ وَالْعَبْدُ، كَصَبِيٍّ وَصَبِيَّانٍ. وقال ثعلب: الوليد الطفل، والأنثى وَلِيْنَةٌ، وتجمع على وَلْدَانٍ وَوَلَدٍ، وقد تُطْلَقُ الْوَلِيدَةُ عَلَى الْجَارِيَةِ وَالْأَمَةِ وَإِنْ كَانَتْ كَبِيرَةً.

أقول: فَيَحْمَلُ لَفْظُ الْوِلْدَانِ فِي النَّصِّ عَلَى كُلِّ مَعَانِيهِ: الصَّبِيَّانَ وَالْعَبِيدَ، وَالْإِنَاثَ الصَّغِيرَاتِ، وَالْجَوَارِيَ وَالْإِمَاءَ، وهذا من الإيجاز في القرآن المجيد، ومعلوم أن هؤلاء جميعاً من الذين يُسْتَضْعَفُونَ فِي النَّاسِ.

﴿مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾

المراد مكة يومئذٍ بدلالة قرائن أحوال النص، لأن الصراع يومئذٍ كان بين المؤمنين في المدينة بقيادة الرسول ﷺ، وبين أئمة الشرك والكفر في مكة، وهؤلاء هم الذين كانوا يضطهدون المستضعفين فيها من الذين آمنوا ولم يستطيعوا الهجرة، واللحاق بالمؤمنين في المدينة.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ :

الطاغوت: صيغة مبالغة من الطغيان، وهي تطلق على الواحد والجميع والمذكر والمؤنث، وتجمع على «طَوَاغِيت».

ويُرَادُّ من الطاغوت كلُّ مَغْبُودٍ أو مُطَاعٍ من دون الله على غير منهج الله، كاهناً كان أو شيطاناً أو وثناً أو راساً مُضْلاً من الناس، كالأجبار والرهبان الذين يُشْرَعُونَ لأتباعهم شرائع وَيَضْعُونَ أحكاماً ما أنزل الله بها من سلطان، فيطيعهم أتباعهم فيها.

المعنى: والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت من أشخاص أو مبادئ باطلة، أو شياطين، أو نحو ذلك، وهم بذلك يكونون أولياء الشيطان، لذلك قال تعالى خطاباً للمؤمنين عقب هذه الفقرة:

﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾.

الكيد: هو تدبير الأمور بباطل أو بحق، بخير أو بشر، ويطلق على الحرب، وعلى إعداد الوسائل الحربية للنكاية بالعدو.

ويؤكد ربنا أن كيد الشيطان ضعيف دوماً، ففعل «كان» بصيغة الماضي يدلُّ في الصفات على الكينونة الدائمة المستمرة غالباً، ويظهر هذا في معظم النصوص القرآنية.

﴿الَّذِينَ الَّذِينَ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ :

الفعل في: ﴿الَّذِينَ قَاتِلُوا﴾ يتعدى بنفسه لغة، ولكن النص جاء هنا (وتكرر في القرآن) متعدياً بحرف الجر (إلى) فما الغرض البياني في هذا؟

بالتأمل يبدو لنا أن معمول: ﴿الَّذِينَ قَاتِلُوا﴾ محذوف، وأن عبارة ﴿إِلَى الَّذِينَ﴾ معمول لفعل محذوف، على طريقة التضمن، والتقدير: ألم تراها الرائي أمراً عجباً ناظراً إلى الذين قيل لهم:

﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ :

أي: امتنعوا عن قتال أهل الكفر، وكان هذا قبل أن ينزل الإذن بالقتال. يقال

لُغَةً: كَفَّ الرجلُ الشيءَ، إذا ضَمَّ بعضُهُ إلى بعض، فعبارة: «كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ» كِنَايَةٌ معناها: امتنعوا عن القتال، لأنَّ من ضَمَّ يده إلى جسده، تَعَذَّرَ عليه أن يقاتل بها عدوه، فالمقاتلة لا يَدَّ فيها من مَدِّ الأيدي إلى جهة العدو على آيَةٍ صورة من صُور المدِّ.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾:

أي: فحين أُذِنَ لَهُمْ بِالْقِتَالِ، ثُمَّ أُلْزِمُوا بِهِ، وَكُتِبَ ذَلِكَ فِي صُحُفِ الْمَلَائِكَةِ، وَأُنْزِلَ فِي الْقُرْآنِ، وَكُتِبَتِ الْآيَاتُ الْمُنْزَلَةُ فِيهِ، وَضَارَ قَضِيَّةٌ مُبْرَمَةٌ.

ولمَّا ظرفية بمعنى حين.

﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾:

الخَشْيَةُ هُنَا مُطْلَقُ الخوف. وخَشْيَةُ اللَّهِ تكون غالباً مقرونة بتعظيم وإجلال وحبُّ لَدَى صادقي الإيمان، لأنَّ فيها عَدَّةَ معانٍ: ففيها معنى الخوف من عقابه ونقمته، وفيها معنى الخوف من سخطه والإخراج من دائرة رضاه وَحُبِّهِ، وفيها معنى الخوف من فوات المَطْمَوع فيه من ثوابه العظيم، وفضله الجسيم، والحرمان من منازل المقربين.

وإذا حرف في الأرجح ومعناه المفاجأة، وتعرف بأنها: إذا الفجائية.

﴿لَوْ لَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾:

لولا: بمعنى «هَلَاءَ» حرف تحضيض. والأجل القريب يحتمل عَدَّةَ احتمالات، منها أجلٌ مَوْتُهُم الطبيعي، ومنها أجل الاستعداد بأنواع القوى المتفوقة على قوى المشركين، ومنها الأجل الذي يُتَرَقَّبُ معه بَدْءُ المشركين القتال، وأرى أنه مطلب مماثلة وتسويق.

﴿وَلَا تَظْلَمُونَ قَتِيلًا﴾:

القَتِيل: الخيط الذي في شِقِّ النَوَاة، وكلُّ ما قتلَه الإنسان بين أصابعه من خيطٍ أو وسخٍ ونحو ذلك.

المعنى: ولا تَظْلَمُونَ مقدار قَتِيل.

﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾:

بُروج جمع بُرج، وهو الحصن، والبناء العالي الذاهب في السماء، والبيت المحصن الذي يبنى على سور المدينة، وعلى سور الحصن.

مُشيدة: أي: محكمة البناء، ورفيعة البنيان، ومطلية بالشيد، وهو كل ما يُطلّى البناء به من جص ونحوه.

والمعنى: ولو كنتم في حصون محكمة البناء رفيعة مَحْبِيَّةٍ بالأسوار، مطلية بالشيد لا تنفذ إليها القواطل من الأسباب، كالأفات والحشرات وتغيرات الحر والبرد، وإذا كانت مُشيدة كاملة البناء، مكسوة بالشيد، فلا بد أن تكون أبوابها ونوافذها مستكملة كل ما يلزم لها من إتقان وإحكام وتحصين.

﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾:

الحسنة ضد السيئة من قول أو فعل، وتطلق الحسنة على النعمة التي تسر من نزلت به وتطلق السيئة على المصيبة، وكل ما يسوء من نزلت به. وهذا هو المراد من الحسنة والسيئة هنا في النص.

أما الحسنات والسيئات من أفعال المكلفين فهي ما يحب الله من عباده وأضداد ذلك، وقد وعد الله على الحسنات بالثواب، وأما السيئات فلما أن يعاقب عليها أو يغفر بمقتضى حكمته عز وجل، باستثناء الشرك فما هو أشد منه كالإلحاد والنفاق.

﴿وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾:

أي: ومن أدبر وأنصرف ولم يطعك فما أرسلناك يا محمد عليهم حفيظاً.

الحفيظ: والحافظ هو الموكل بالشيء ليحفظه. والمعنى: لست مأموراً بأن تحفظهم من التولي والانصراف عن صراط ربك، وتمنعهم بالإلزام والإكراه، لأنهم في ظروف امتحان إراداتهم الحرة، والإكراه يُنافي طبيعة الامتحان.

فما جاء هنا نظير قوله تعالى لرسوله في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/

٥٠ نزول):

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾:

أي لست وكيلًا عليهم حتى تكون مُلزماً لهم إلزاماً بالإكراه بمقتضى الوكالة، ولا وكيلًا عن ربك حتى تتولى محاسبتهم ومعاقبتهم.

﴿وَيَقُولُوا طَاعَةٌ﴾ :

أي: أمرنا وشأننا طاعةً لامرك، أو عَمَلْنَا طاعةً لامرك، وهذا قولٌ بالسنتهم غير صادر عن إرادة صادقة من قلوبهم لأنهم منافقون.

﴿فَإِذَا بَرِزُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ :

الْبَرَاؤُ: بفتح الباء المكان الفضاء من الأرض البعيد الواسع، وإذا خرج الإنسان إلى ذلك الموضع قيل: بَرَزَ يَبْرُزُ بَرُوزًا، أي: خرج إلى البراز.

والمراد أنهم خرجوا إلى المكان الذي يأمنون فيه، مطمئنين إلى أنهم غير واقعين تحت أعين الرقباء الذين يرصدون ما يُذْبرون ويُبَيِّتون.

﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ :

يُقَالُ لغة: بَيَّتَ الأمر إذا دَبَّرَهُ لَيْلًا، أو عَمَلَهُ أو نَوَاهُ لَيْلًا، وكلُّ عَمَلٍ يُعْمَلُ لَيْلًا يَسْمَى تَبْيِيتًا، أخذًا من البيت، لأنَّ الناس يَأْوِنُون إلى بيوتهم لَيْلًا. وكلُّ مَنْ أدركه اللَّيْلُ فقد بات، نام أولم يَنَمْ.

أي: فهم يستخفون بحذر شديد في اختيار المكان، وهو المكان الخالي من المراقبة، واختيار الزمان، وهو جوف اللَّيْلِ، ليدَبِّروا فيه أمرًا آخر غير ما أعلنوه من طاعة، ولا بدَّ أن يكون هذا الأمر عصيانًا ومكرًا سيئًا.

﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ :

أي: يَعْلَمُ وَيُسْجَلُ ما يبيِّتون ويدَبِّرونه من السوء لَيْلًا، وقد فهم العلم لزومًا ذهنيًا.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ :

أي: فأعْطِهم غَارِضَكَ، وهو جَانِبُ الوجه، والمعنى: فقابل توليَّهم وإدبارهم بالإعراض فقط، لا بمثل توليَّهم وإدبارهم.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتٌ﴾ :

التدبُّر هو التفكيرُ في القضايا وفي معاني النصوص حتى أدبارها وأواخر مواقعها الفكرية، وفي عواقب ماله عواقب منها. والمادة مشتقة من دُبُر الشيء وهو آخره، ولَمَّا كانت عواقب الأمور هي أواخر ذبولها كان التدبُّر النظر في العواقب، وإعداد ما ينبغي لها. وكلُّ ذلك من الحكمة في الفهم أو في التخطيط والعمل.

فتدبُّر القرآن هو التفكير العميق ببصيرة لفهم معانيه، حتَّى الأطراف البعيدة التي يدلُّ عليها النصُّ من نصوصه، ولو عن طريق اللوازم الذهنية، وفحوى الكلام، وما يقتضيه النصُّ لإحكام الترابط بين مفرداته وجُمْلته.

﴿لَوْ جَدُوا فِيهِ آخِلاً فَكَثِيراً﴾:

أي: اختلافاً بينه وبين الحق، أو بينه وبين ما هو خيرٌ وأفضل وأحكم وأقوم، أو بين بعض نصوصه وبين بعض آخر منها.

﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾:

يقال لغة: أذاع الأمر أو الخبر، وأذاع به إذا أنشأه ونشره، ويُقال: ذاع الخبر إذا فُشِيَ وانتشر.

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾:

أي: ولو أرجعوه، واستعمال الردِّ هنا يدلُّ على أنَّ الأمر هو بالأصل منوط بمرجع قيادي فيستفتى فيه الرسول أو أولو الأمر من قادة المسلمين، إذ هو فيما يظهر أمر يتعلق بأمور المسلمين العامة، التي لا يصحَّ فيها التصرف من قبل الأفراد، بل يجب ردها إلى ذويها، وهو قائلد الأمة، وأولو الأمر المختصون الذي هم مؤهلون لمعرفة البواطن، واستنباط ما هو الأنفع والأصلح لجماعة المسلمين.

﴿يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾:

استنباط الشيء استخراجُه من مواطن العمق التي هو فيها. وأصل الفعل من نَبَط الشيء نَبَطٌ إذا ظهر من مكانٍ كان خفياً في باطنه، يُقال لغة: حَفَرَ الأرضَ حتَّى نَبَطَ الماء، أي: ظهر، ويقال: جُدَّ في التنقيب حتَّى نَبَطَ المعدن، أي: ظهر، ويُقال: نَبَطَ الشيء إذا أظهره وأبرزه واستخرجه.

فلاستنباط من هذا، والقضايا الفكرية في أعماقها جوانب خفية إنما يستنبطها المؤهلون للاستخراج والبحث في أعماق الأفكار، والنصوص الرفيعة في أعماقها معانٍ خفية، إنما يستنبطها المؤهلون لتدبر النصوص واستخراج ما فيها.

﴿وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ﴾:

أي: حرضهم على القتال. التحريض هو الحث بتأكيد ومتابعة، والتحريض، قال الجوهري: التحريض على القتال الحث والإحماء عليه. قال الزجاج: تأويل التحريض في اللغة أن تحث الإنسان حثاً يعلم معه أنه حارص إن تخلف عنه، قال: والحارص الذي قد قارب الهلاك.

أقول: قد يكون أصل المعنى اللغوي الحض والإحماء على القتال ولودفعت بهم الحماسة إلى أن يقاربوا الهلاك، أو الحض والإحماء لدفع أن يكونوا مقاربين الهلاك.

﴿أَنْ يَكْفَ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾:

البأس: الشدة في الحرب. والعذاب الشديد.

﴿تَنكِيلًا﴾:

عقاباً رادعاً، يقال: نكل به إذا عقبه عقاباً رادعاً لغيره.

* * *

(٣)

مع النص في التحليل والتدبر

ويأتي هذا التدبر في فقرات:

الفقرة الأولى: تتضمن تكليف الله الذين آمنوا أن يأخذوا جذرهم، وأن يخرجوا لقتال عدوهم متفرقين على شكل عصابات أو فِرق، أو مجتمعين في جيش، بحسب ما تقتضيه المصلحة والحكمة في الحرب.

قال الله عز وجل:

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اخْذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ ﴿٧١﴾ .

في هذه الآية ثلاث قضايا:

القضية الأولى:

هي أَنَّ الخطاب فيها موجّه للَّذِينَ آمَنُوا، فيخصّهم الله عزّ وجلّ بالنداء، إشارة إلى أَنَّ اتّصافهم بصفة الإيمان الصحيح الصادق، لا بدّ أن يكون دافعاً لهم إلى إنضاء التكاليف الربّانية الموجهة لهم، إذ يتضمّن نداؤهم بوصف كونهم مؤمنين تذكيرهم بحقّ الله عليهم، وبمسؤوليتهم تجاهه، وبالجزاء الذي أعدّه سبحانه لعباده ثواباً أو عقاباً، فهذه أمور هي من عناصر القاعدة الإيمانية.

وفيه أيضاً إلماح إلى أَنَّ الإعراض عن إمضاء التكاليف الربّانية، يكون بسبب عدم صدق الإيمان، أو ضعفه، أو غلبة سلطان الأهواء والشهوات وضعف الإرادة تجاه مطالب الحياة الدنيا.

القضية الثانية:

أمر المؤمنين بأن يأخذوا حذرهم، فقال الله عزّ وجلّ لهم: ﴿اُخْذُوا حِذْرَكُمْ﴾.

لم يأت التعبير بصيغة: اخذوا، وإنما جاء بصيغة «اُخْذُوا حِذْرَكُمْ» فما الحكمة البينانية في هذا مع أنّ عبارة «احذروا» أخصر؟

بالفكر يظهر لنا أنّ الأخذ في اللغة هو في الأصل يُطْلَقُ على تناول أو حيازة شيءٍ ماديّ يُقْبَضُ بالأيدي، أو يُضَمُّ إلى التملّك بوسيلةٍ مشابهة، ثمّ حصل توسّع في دلالة مادّة الأخذ، فصارت تدلُّ على الأمور المعنوية التي ليس فيها أشياء ماديّة تُؤْخَذ، أو تُأْخَذ.

فجاءت التعبيرات في القرآن وفيها: اُخْذُ الميثاق، واُخْذُ الإصر، واُخْذُ الأمر، واُخْذُ العفو.

وجاءت فيه التعبيرات وفيها أنّ الأشياء المعنوية تأخذ أيضاً، فمنها: اخذته العزة — فآخذهم عذاب يوم الظلة — لا تأخذكم بهما رافة في دين الله — .

ولما كان الأخذ في أصله أمراً مادياً مُحَسَّساً، وكانت الطبائع البشرية تطمئنُّ

للحسبيات في التوثق من تحقق الأمور، أكثر مما يحصل لديها في الفكرية والنفسية وسائر المعنويات، مهما عظمت لديها البراهين والأدلة أو المشاعر كان استعمال الأخذ بجانب المعنويات أكثر تأكيداً على لزوم التحقق مما جاء الأمر بأخذه من هذه الأمور المعنوية، كأخذ الجذر، وأخذ الميثاق، وأخذ الإصر، وهو العهد، وأخذ العفو، ونحو ذلك، وكان استعمال أخذ المعنويات للحسبيات أول للمعنويات أكد في الدلالة على تحقق ما تضمنه الإسناد من مجرد نسبة المسند إلى المسند إليه، فعبارة: «أخذته العزة» أكد من عبارة: فاعتز، أو تعزز. وعبارة: «لا تأخذكم بهما رافة» أكد من عبارة: فلا ترفأوا بهما. مع ما في معنى الأخذ من إبعاد المأخوذ عن مكانه إلى مكان آخر مادي أو معنوي.

وهذا من دقائق البيان القرآني العجيب.

يضاف إلى ما سبق أن موضوع أخذ الجذر يلزم لتحقيقه في الواقع مع التيقظ والتأهب، اتخاذ الوسائل اللازمة لدرء المخاطر، وكثير منها أمور تجمع وتؤخذ، كالأسلحة، وأمر تغذ وتهيأ، كالحصون والخنادق، وأمر تكتب في الصحف والرقاع، كالعهد والمواثيق والانفاقات، وهي تؤخذ ويحتفظ بها، للتقاضي بمقتضاها. فالتعبير بأخذ الحذر من أدق التعبيرات الدالات على جملة معاني مرادة، لا تدل عليها عبارة: احذروا.

إن الأمر باتخاذ الوسائل قضية تفهم بفحوى الكلام ولوازمه الفكرية، وتفهم أيضاً بإشارة عبارة «خذوا».

القضية الثالثة:

أمر الله الذين آمنوا بالخروج إلى مقاتلة العدو، ومداهمته في مواقعه، وعدم انتظاره حتى يكون هو المهاجم، فإما أن يكون على طريقة عصابات أو جماعات متفرقات، أو على طريقة جيش موحد مستكمل شروطه القتالية، في الهجوم، والدفاع، والانسحاب، والكر والفر، كل ذلك بحسب ما تقتضيه المصلحة التي تقدرها القيادة العسكرية المؤهلة لتدبير شؤون الحرب، فقال الله عز وجل في الآية:

﴿فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ بَرُّوا جَمِيعًا﴾.

وقد جاء هذا الأمر مُرتباً بالفاء العاطفة على الأمر بأخذ الجُذُر، ليدلُّ على أن اليقظة والحذر واتخاذ الوسائل، يجب أن تكون قبل الخروج لقتال العدو، إذ هي شروط تسبق الشروع بالقتال المطلوب.

وقد خصَّ الله عزَّ وجلَّ في القرآن لفكرة الخروج للقتال في سبيله مادة «نَفَر» ومشتقاتها، وهي ما جاء في هذا النص من سورة (النساء) وما جاء في سورة (التوبة) ٩ (مصحف/ ١١٣ نزول) في ستة مواضع منها.

أما مادة «جاهد» ومشتقاتها فقد جاءت عامة، للدلالة على الجهاد بالدعوة والكلمة، والجهاد بالأموال، والجهاد بالأنفس، ومنه القتال.

وأما مادة «خرج» ومشتقاتها، فلم تستعمل في القرآن بجانب الدعوة إلى الخروج للقتال، إنما جاءت في معرض الهجرة، وجاءت في مناسبات الكلام عن المنافقين وخروجهم أو عدم خروجهم مع المسلمين لقتال المشركين.

وسائر النصوص القرآنية في هذا الموضوع جاء فيها استعمال مادة «القتال» ومشتقاته.

أما القتال فهو التعبير المباشر الذي يدلُّ على المقصود، والتعبير به يستدعي لوازمه من الإعداد التام، والخروج إلى جهة العدو إن اقتضى الأمر ذلك، وهذه تفهم بالضرورة الذهني، وقد يدلُّ عليها فحوى الكلام.

وأما «نَفَر» ومشتقاتها فالظاهر أنها اختيرت من الكلمات اللغوية لتكون مصطلحاً قرآنياً للدلالة على فكرة الخروج للقتال.

وبين هذا المصطلح وأصل المعنى اللغوي مناسبة ظاهرة مُراد، فالنَّفَر والنُّفُور حركة انزعاج تتجه إلى مواطن الأمن والسلامة بهمة وقوة ونشاط، والمطلوب في الخروج إلى القتال أن يكون مقترباً بهمة وقوة ونشاط، وحالة توثب نفسي وقلبي وحركي، لا أن يكون مجرد خروج بارد، فمُطلَق الخروج قد يكون مقروناً بتكاسل وتثاقل وضعف، والله عزَّ وجلَّ يُوصي المؤمنين بخلاف هذا، فكان اختيار مادة «نَفَر» ومشتقاتها مصطلحاً للخروج إلى القتال في سبيل الله اختياراً حكيماً ملاحظاً فيه المعاني التي سبق بيئتها، مع ما في النَّفَر والنُّفُور في سبيل الله من نهاية سعيدة فيها الأمن والفوز بجنت النعيم.

الفقرة الثانية: تتضمن بيان ظاهرة وتوابعها من المظاهر السلوكية للمنافقين، وقد يشاركونهم فيها من هم دون المنافقين من أهل الرّيب، وضعفاء الإيمان، وأصحاب الأهواء الذين تضعف إراداتهم عن التّضحيات، وعن مخالفة مطالب نفوسهم من الحياة الدنيا، هذه الظاهرة دلّ عليها:

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُبْلِئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ۚ﴾ (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولُنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾.

(١) قرأ ابن كثير وحفص ورؤيس: [كَأَنَّ لَمْ تَكُنْ] بالتاء الفوقية.

(٢) وقرأ باقي القراء العشرة: [كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ] بالياء التحتية.

فالقراءة الأولى جاءت مطابقة لتأنيث «مودة» والقراءة الأخرى روعي فيها أن «مودة» تانيثها مجازي، مع وجود الفاصل الذي يحسن معه التذكير.

في هذا النص أربع قضايا متداخلة منصوص عليها، وقضايا أخرى تفهم من فحوى النص بالزّوم الذهني، أو بدلالات نصوص أخرى مقيدة أو شارحة لبعض ما جاء فيه من أفكار، أو بدلالات إلماحية في النص.

ففيه خطاب المؤمنين بأن فريقاً يعدّونهم منهم بحسب ظاهر انتمايهم، توجد منهم ظواهر من السلوك عند الدعوة إلى النّفر لقتال الأعداء من أهل الكفر، منافية لما يدفع إليه الإيمان الصحيح الصادق، فهي من الأمارات على النفاق أو الشك أو ضعف الإيمان.

* فيوجد من هذا الفريق تباطؤ عن الخروج مع المؤمنين للقتال، أخذاً من بطأ اللّازم.

* ويوجد منه تباطؤ لغيره عن الخروج للقتال، أخذاً من بطأ المتعدي. ففعل «لِيُبْلِئَنَّ» مستعمل في معنيته.

هذا في بداية الأمر عند الدعوة إلى التفر، أما بعد انتهاء لقاء الأعداء في مواجهة قتالية، فالنص يخاطب المؤمنين بما يتضمن ما يلي: إنكم إما منتحنون بمصيبة أصابكم في لقاءكم لعدوكم، كقتل أو جرح أو هزيمة أو خسارة مالية، وإما مُنتحنون بفضل من الله أصابكم، من نصر وغنيمة وتحقيق لما ترغبون.

* فإن أصابكم مصيبة على أيدي عدوكم، وقد أذن الله بها لحكمة يُريدُها، كامتحانكم، وتربيتكم وتأديبكم، وإجراء سنته في عباده، قال هذا الفريق: قد أنعم الله عليّ إذ ألهمني أن لا أخرج مع المؤمنين، فلا أكون معهم شاهداً حاضراً هذا اللقاء الخاسر الذي جلب المصيبة لهم، وهو تعبير فيه نفثات السمات، ويدل على كذب ادعاء الإيمان، أو على الشك أو ضعف الإيمان.

* وإن أصابكم فضل من الله، فظفرتهم وغنمتم ندم وتحسر على ما فاتته من غنيمة ومن ستر حاله بين المسلمين، وقال متندماً متحسراً، يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً، إن كل همهم محصور بأمور الدنيا، لذلك لا يرى الفوز العظيم إلا المكاسب منها، والغنائم من زيتها ومتاعها.

لماذا يتندّم وتحسر؟ ألم يكن بحسب الظاهر واحداً منكم إسلاماً وإيماناً فيما يُظهر لكم من أمره، يُيادلكم المودة، ويُظهر لكم أنه يحب الخير لكم؟

لماذا طفق الحسد في نفسه، فعبر عنه لسانه بالتحسر؟ إن صاحب المودة الصادقة لا يحسد على نعمة أصابها من يوتّه، بل يفرح له بها، ويدعو الله أن يجعلها له متاعاً حسناً، وغوثاً له على طاعة الله وتحقيق مراضيه، واختيرت فكرة المودة دون صدق الإيمان للدلالة على أن العبارة عبارة حسد.

ما الذي كان يمنعه من الخروج مع المؤمنين حين دُعوا لقتال عدوهم؟ ألم يكن بحسب ادعائه واحداً منهم؟

إذن: فحال هذا الفريق المتخلف بعد انتهاء معركة المواجهة للعدو:

* إما شامت، أو قريب منه، بحسب كفره أو شكّه أو ضعف إيمانه، لذلك جاء التعبير القرآني صالِحاً ملائماً لكل ذلك، فقال تعالى معبراً عن مقاتله:

﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ (٧١).

• وإما حاسد، ويستوي في الحسد المنافق والشاك وضعيف الإيمان، فجاء التعبير القرآني ملائماً للمنافق الحسود، ومن يكون مثله في الحسد ممن هو دونه، فقال تعالى معبراً عن مقالته:

﴿يَلَيِّتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٧٢).

ونلاحظ في النص أن الله عز وجل قد جعل عبارة: ﴿كَأَنَّ لَمْ نَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ معترضة بين: ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ وبين: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ للدلالة على أنها عبارة حسدٍ ناثر، وتدلّ بالتقابل على أن عبارة ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ هي عبارة شماتة أو قريب منها.

أما الدوافع لهذه الظواهر السلوكية، فنستطيع استنباطها بالتأمل في أصل الموضوع المرتبط بالإيمان وجوداً، أو انعداماً، أو شكاً، أو نقصاناً. والله أعلم.

وننظر في المتقابلين:

(١) ﴿فَإِنْ أَصَبْتُمْ مَعْصِيَةَ اللَّهِ قَالَ﴾.

(٢) ﴿وَلَيْنَ أَصَبَكُمْ فَضَلَّ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ﴾.

فنرى الأول من غير تأكيد «فإن» للدلالة على نذرته وقلته.

ونرى الآخر مؤكداً «ولئن» للدلالة على أنه هو القاعدة المؤكدة بالنسبة إلى المؤمنين، إذا التزموا بالشروط التي يستحقون بها نصر الله لهم، وإمدادهم بمعونته وفضله. ونرى أن الأول جاء التعبير فيه بعبارة [معصية].

ونرى أن الآخر قد جاء التعبير فيه بعبارة [فضل من الله].

ومقتضى المتبادر من التقابل أن يكون التعبير بعبارة: «نعمة».

فما الحكمة من ترك هذا المتبادر؟

بالتفكير والتدبر نلاحظ أن أصل الكلام قبل اختصاره واختزاله هو على نحو

ما يلي:

فإن أصابتكم مصيبة بإذن الله وتمكينه على مقتضى حكمته في التربية والتأديب والامتحان وإجراء سنته العامة قال: قد أنعم الله علي إذ ألهمني فلم أكن معهم شهيداً حاضراً المعركة. ولئن أصابتكم نعمة من فضل الله عليكم بمقتضى حكمته، ليقولن: يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً.

وعند الاختزال والاختصار حُذِفَ من الكلام ما هو معلوم في تصاريف الله ومقاديره، إذ قد جاء بيانه في نصوص قرآنية أخرى، وهو ما يدل على حكمة الله، وحُذِفَ أيضاً ما يمكن إدراكه ولو لم يذكر في صريح اللفظ ما يدل عليه.

وحُذِفَ من ثاني المتقابلين ما يُقابل لفظ [مصيبة] مثل كلمة: «نعمة» استغناءً بدلالة التقابل، وحل محل المحذوف عبارة [فضل من الله].

وحُذِفَ من أول المتقابلين ما يُقابل عبارة [فضل من الله] مثل عبارة: «بإذن الله وتمكينه» استغناءً بدلالة التقابل أيضاً.

فجرى حذف من الأوائل لدلالة الأواخر، وحذف من الأواخر لدلالة الأوائل، وهذا ما يُسمى عند أهل البديع «الاحتباك».

ونلاحظ أنه جاء في أول المتقابلين فعل [قال] بصيغة الفعل الماضي، للإشارة إلى أن قوله هذا قد حصل فعلاً، بعد موقعة مضت، ونأخذ من فعل الشرط أنه سيقول هذا القول بعد كل موقعة قادمة تحصل فيها هزيمة للمسلمين. أما ثاني المتقابلين فقد جاء التعبير فيه بصيغة: [لَيَقُولُن] وهي صيغة مؤكدة تدل على المستقبل، ونفهم من هذا أنه لم يقل بعد هذا القول، لكن واقع حاله النفسي بسبب نفاقه أو شكه أو ضعف إيمانه، لا بُدَّ أن يُعَرِّضَ مثل هذا القول.



الفقرة الثالثة: تتضمن حث المؤمنين الراغبين في الآخرة وما أعد الله فيها من أجر عظيم، أن يبذلوا متاع الحياة الدنيا، ويضربوا بها، مقاتلين في سبيل الله، وهم إذا فعلوا ذلك أصابوا إحدى الحسينين مع الأجر العظيم عند الله، فلماذا أن يقتلوا وإما أن يغلبوا عدوهم إذ ينصرهم الله عليه.

قال الله عز وجل:

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾.

في هذه الآية قضيتان:

القضية الأولى:

دعوة المؤمنين الذين ارتقوا في مراتب الإيمان فكانوا من أهل مرتبة البر، أو أهل مرتبة الإحسان، إلى أن يقاتلوا في سبيل الله.

وقد دللنا على أنهم قد ارتقوا فوق مرتبة التقوى (وهي مرتبة تادية الواجبات وترك المحرمات) أن الله عز وجل ذكرهم بوصف متكرر فيهم، يبرز في متجدد سلوكهم، وهو كونهم يذلون الحياة الدنيا ومتاعها وشهواتها ومطالب أهوائهم منها، ابتغاء الظفر بشواب الآخرة، فهم كلما أرادوا سلوكاً ما ورأوا أن تحقيق ثواب الآخرة يتطلب منهم التضحية بما يجنون من زينة الحياة الدنيا، ضحوا به، طمعاً بما هو خير عند الله.

ففعّل [يشرون] بمعنى يبيعون، وهو فعل مضارع يفيد التجدد والدوام، يدل على تكرار هذه الظاهرة في سلوكهم.

وهذه التضحية المتجددة في السلوك تكون في أعمال البر، وأعمال الإحسان، كالإنفاق فوق ما يجب إنفاقه، وقيام الليل فوق الفرائض، وصيام النوافل المسنونة، وأنواع التطوع في مختلف العبادات، وكالصبر في البأساء والضراء، والعفو والصفح عن المسيء، والجلم، والاشتغال بمجاهدة النفس لاكتساب فضائل الأخلاق فوق المقادير الواجبة منها إلى غير ذلك، وتترك المكروهات وما هو خلاف الأولى مما لا يليق بالمقربين أن يفعلوه.

ومن هذا نذكر أن الأمر في قوله تعالى:

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾:

أمر ترغيسي، وليس أمراً إلزامياً، لأنه موجّه للذين من عاداتهم أنهم يشرون أي: يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة، وليس موجهاً لمطلق المؤمنين، ولمطلق المسلمين.

أما المراد من الحياة الدنيا، فما فيها من متاع وزينة وما تحبّ النفوس وتهوى وتشتهي. وأما المراد من الآخرة، فما فيها من ثواب جسيم وأجر عظيم في جنات النعيم.

والكلام على تقدير يبيعون متاع الحياة الدنيا بثواب الآخرة، أقيم المضاف إليه فيهما مقام المضاف المحذوف.

القضية الثانية:

وَعَدُ مَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ صَادَقًا مُحْتَسِبًا أَجْرَهُ عِنْدَ اللَّهِ، بِأَنَّ اللَّهَ سَوْفَ يُؤْتِيهِ يَوْمَ الدِّينِ أَجْرًا عَظِيمًا.

* قول الله تعالى:

﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

لا بد أن يُحْمَلْ عَلَى كونه صادقاً مُحْتَسِباً أَجْرَهُ عِنْدَ اللَّهِ، لَأَنَّ الْمَنَافِقَ وَالْمُرَائِيَّ لَا يَكُونُ قَاتِلُهُمَا - وَلَوْ قَاتِلًا - فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْكَافِرُ لَا يَكُونُ قِتَالَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِي يُقَاتِلُ لِلْمَغَانِمِ، أَوْ يُقَالُ إِنَّهُ شَجَاعٌ، أَوْ لِلْفَخْرِ، أَوْ لِيُدَافِعَ عَنْ أَحْسَابِ قَوْمِهِ، أَوْ لِيُحَقِّقَ أَمَجَادُ لَهُمْ، لَا يَكُونُ قِتَالُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَسَبِيلُ اللَّهِ لَهُ شَرْطَانِ:

الشرط الأول: قلبي، وهو أن ينوي به رضوان الله وطلب ثوابه، وهذا لا يكون إلا من مؤمن.

الشرط الثاني: أن يكون لإعلاء كلمة الله ونصرة دين الله، وضمن ما شرعه الله وأذن به في القتال.

إذا تحقق هذان الشرطان كان القتال في سبيل الله.

* قول الله تعالى:

﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾

نلاحظ فيه الاختصار على احتمالي الشهادة أو النصر، ولم يتعرض النص للاحتمال الثالث، وهو الهزيمة والفرار، ولا للاحتمال الرابع وهو الوقوع في الأسر، فما الحكمة في هذا؟

بالتفكر والتدبر ندرك ما يلي :

(١) أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ أمر في أَوَّل النصِّ بِأَخْذِ الجَدْرِ، وفهمنا من ذلك أَنَّ إعداد كامل الوسائل القتالية للمعركة ضمن أنظمة الله السببية في كونه هو من لوازم أخذ الحذر.

إذن فالمواجهة فيها كفاية لاكتساب النصر بالنسبة إلى الوسائل.

(٢) أَنَّ المؤمن يرجو من الله ما لا يرجو عدوه الكافر المقاتل له، فهو يباشر قتاله بكلِّ شجاعة، ثقةً بوعده الله، وطمعاً فيما عند الله من أجر عظيم.

إذن فهو لا يَجْبُن ولا يضعف، فلا ينهزم ولا يفرّ، ولا يَمْكُن العدو من أسره إلَّا عند الضرورة القصوى.

(٣) أَنَّ الدَّعوة موجَّهة للأبرار والمحسنين، وهؤلاء متفوقون في مراتب الإيمان، فالاستشهاد من قِبَل أفرادهم هو السبيل لتحقيق انتصار جماعة المسلمين على عدوهم.

إذن: فالواحد منهم إمَّا أن يُقْتَلَ وإمَّا أن يَغْلِب، فلا يفرّ، ولا يَمْكُن عدوه من أسره إلَّا مضطراً.

أما الانسحاب من المعركة فهو أمر لا يقرُّه الفرد المقاتل، وإنما يُقرُّه أمير الجيش وقادة عملياته، فمادام التوجيه للقتال قائماً مستمراً، فليس أمام الفرد المقاتل إلَّا أن يُقْتَلَ أو يَغْلِب، فإن قرَّ فهو متولٍّ عند الزحف، ويكون تولُّيه من الكبائر الكبرى، وهذا لا يفعله المتقون فضلاً عن الأبرار والمحسنين، وأما أسره فيستبعده النص من الذكر، ليستبعده المقاتل عن تصوُّره، حتى يكون ضرورة.

• قول الله تعالى :

﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ :

وعُدَّ ربَّانيُّ بأجرٍ عظيم.

الفاء واقعة في جواب الشرط (وَمَنْ يُقَاتِلْ).

﴿سوف﴾: حرف استقبال، قيل: هو مثل السين، يختص بالمضارع، ويخلصه للاستقبال. وقيل: هو أوسع من السين استقبالاً، أي: فهو للمستقبل البعيد.

﴿أجرًا عظيمًا﴾: جاء لفظ «اجره» منكرًا للدلالة على كثرته عددًا، ووُصِفَ بأنه عظيم للدلالة على جسامته في كیفيته ونوعه، وثوابُ الله في الآخرة كثير الكَمِّ، عظيم الكيف.

• • •

الفقرة الرابعة: تتضمَّن بيان الموجب لقتال المشركين، وهذا الموجب يتلخَّص بإبان نزول النصِّ بأمرين:

الأمر الأول: الانتصار لدين الله الذي يحاربه هؤلاء المشركون.

الأمر الثاني: إنقاذ المستضعفين في مكة من الرجال والنساء والولدان الذين يُضطهدون، ويدْعُون رَبَّهُمْ أَنْ يَخْرِجَهُمْ مِنْهَا، ويجعل لهم من لدنه وليًّا، ويجعل لهم من لدنه نصيرًا.

• فقال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمُ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِّنْ لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِّنْ لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾.

في هذه الآية قضية واحدة، هي بيان الموجب لقتال مشركي مكة إبان نزول النصِّ، مع الإلماح بالاستفهام إلى الإنكار على الذين يودُّون إعفاءهم من القتال المدعَّوين إليه.

• قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ؟﴾

صُدِّرَ بالعطف على ما جاء في الآيات السابقات، وهو من عطف الجمل، للدلالة على أنَّ المعطوف تابع للموضوع الذي بدأ به النص، وهو أخذ الحذر، والحثُّ على القتال في سبيل الله.

«ما اسم استفهام، وهو في محل رفع مبتدأ، ومعناه: أي شيء؟.
«لَكُمْ» متعلق بمحذوف هو خير، تقديره ثابت لكم.

والمعنى الذي يدلُّ عليه هذا التعبير هو: أي شيء من الأعذار ثابتٌ لكم حالة كونكم لا تُقاتلون... ؟ فجملة «لَا تُقَاتِلُونَ» ولواحقها في محل نصب على أنها حال. والغرض أنه لا عذر لكم.

والخطابُ تابعٌ لخطاب الذين آمنوا الذي بدأ به النص، فلا التَّفَاتٍ فيه فيما أرى.

• قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾:

أي: ما لكم لا تقاتلون قتالاً كائناً في سبيل الله، والمعنى أن سبيل الله ظرفٌ له، وسبيل الله يشمل كلَّ ما شرعه الله لعباده وارتضاه لهم من الدين، ويشمل استجماع النية في ابتغاء مرضاته، والأجر العظيم منه، في كلِّ عمل ظاهر أو باطن يكون مطابقاً لما شرعه، أو أوصى به، أو رغب فيه، أو أذن به.

• قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَالْمُسْتَضَعِّفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾.

أي: وفي سبيل نُصْرَةٍ وإنقاذ هؤلاء المستضعفين.

ومع أنَّ نصرة هؤلاء بالقتال، هي من القتال في سبيل الله، لأنَّ الله يأمرُ بنصرتهم ويحثُّ عليها، إلَّا أنَّ في ذكرهم استشارةً للعاطفة نحوهم، باعتبارهم إخواناً في الإيمان والإسلام، وهم في مكة يتعرَّضون لظلم واضطهاد من قبل أئمة المشركين فيها،

فالأخوة الإيمانية تُسَنِّحُ العاطفة لإنقاذهم، بعد أن جاء الإذن بقتال هؤلاء المشركين، وعدم كف الأيدي عنهم.

هذا النَّصَّ وارد بمناسبة المستضعفين في مَكَّةَ إِنْ بَنَى نَزُولُ سُورَةِ (النساء) ولكن له حكم القاعدة العامة، إذ يقاس عليه كلُّ أحوال المستضعفين من المؤمنين في كلِّ بلد وفي كلِّ عصر، إذا استطاع إخوانهم نصرتهُم، فالله عزَّ وجلَّ يقدِّم لنا الأمثلة والنماذج لنقيس عليها أمثالها وأشباهها.

والمستضعفون كانوا رجالاً لا يستطيعون المقاومة ولا الهجرة، ونساء، وصغاراً من صبيان وبناتٍ لا يجدون حيلة، وعبداً أرقاء وإماء.

وقد رُوِيَ عن ابن عباس أنه قال: «كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ».

• قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (٧٥):

أي: إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُسْتَضْعَفِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِهَذَا الدُّعَاءِ، فَيُخَبِّرُ اللَّهُ بِهِ إِخْوَانَهُمُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْمَدِينَةِ.

هذا الدُّعَاءُ يشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا. دَلُّ هَذَا الْمَطْلَبِ عَلَى أَنَّهُمْ غَيْرُ مُمَكِّنِينَ مِنَ الْهَجْرَةِ، وَأَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ حِيلَةَ وَلَا وَسِيلَةَ لِلْخُرُوجِ، بِغِيَةِ الْخُلَاصِ مِنْ ظُرُوفِ الْأَضْطِهَادِ الَّتِي هُمْ فِيهِ.

وَدَلُّ عَلَى أَنَّهُمْ مَظْلُومُونَ مُضْطَهَدُونَ وَصُفُّهُمْ الْقَرْيَةُ وَهِيَ مَكَّةُ يَوْمَئِذٍ بِأَنَّ أَهْلَهَا ظَالِمُونَ.

الظالم أَهْلُهَا: «الظالم» نَعْتُ سَبِيٍّ لِلْقَرْيَةِ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ وَصْفٌ لِأَهْلِهَا، وَالنَّعْتُ السَّبِيُّ يُطَابِقُ مَا قَبْلَهُ فِي حَرَكَةِ الْإِعْرَابِ، وَفِي التَّعْرِيفِ أَوْ التَّنْكِيرِ، وَيُرَاعَى

في تذكيره أو ثانيته ما بعده، ويكون مفرداً دائماً إلاّ جمع التكسير، فيجوز فيه الوجهان: الإفراد وجمع التكسير.

المطلب الثاني: **وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا**. أي: مَنْ يَتَوَلَّى أمورنا، غير أوليائنا الذين يظلمهدوننا ويظلموننا من المشركين، من أجل إيماننا بدينك، وإسلامنا لك ولرسولك.

الولي في اللغة: من يتولى أمور من هو تحت رعايته وإدارة شؤونه وتديرها، فولّي البيت هو الذي يلي أموره ويقوم بكفايته، وولّي المرأة الذي يتولّى عقد نكاحها.

المطلب الثالث: **وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا**. أي: ضاقت حيلتنا، فلا نجد من إخواننا مَنْ ينصرنا، وإننا نعدّهم فوضعهم ربّما لا يسمح لهم بنصرتنا، فاجعل لنا من لَدُنْكَ أنت نصيراً ينصرنا ويُقّذنا، فيرفع عنا الظلم والاضطهاد، حتى نمارس ديننا بحريّة.

الفقرة الخامسة: تتضمن بيان الفروق ما بين قتال المؤمنين وقتال الكافرين، مع حث المؤمنين على قتال الكافرين ملاحظين أن كيد الكافرين الحربي كَيْدٌ ضعيف دوماً، لأنّ الشيطان الذي يقاتلون في سبيله ذو كيد ضعيف دوماً، أمّا الله الذي يقاتل المؤمنون في سبيله فكَيْدُهُ الذي أوصاهم به في الحرب كَيْدٌ متين، مع ما يمدّهم به من عونٍ غيبيّ، لا يدخل في حساب الأسباب البشرية.

قال الله عزّ وجلّ:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ۝﴾

في هذه الآية ثلاث قضايا:

القضية الأولى:

بيان أنّ الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً بالله ورسوله واليوم الآخر، وبكلّ ما جاء به الرسول ﷺ عن ربّه وما أذن له به، إذا قاتلوا وفق ما يقتضيه إيمانهم منهم،

فإنهم يقاتلون في سبيل الله، أي: ضمن سبيله منهجاً وعملاً وغاية ونية، فلا ينحرفون عنه.

وحين يخالفون فلا يلتزمون المنهج، ولا يتقيدون بالعمل الإسلامي المشروع في القتال، ولا يتقيدون بالغاية الإسلامية، ولا بنية ابتغاء مرضاة الله وثواب الآخرة، فإنهم يتنكبون سبيله بمقدار المخالفة، فيُحرمون من السائج التي يحبونها على مقادير تنكبهم.

قول الله تعالى:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾:

أي: الذين يصح أن ينطبق عليهم كمال هذا الوصف.

قول الله تعالى:

﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾:

أي: يتقيدون في قتالهم بحدود سبيل الله منهجاً وعملاً وإعداداً وغاية ونية، ماداموا متحليين بكمال وصف الذين آمنوا، وسبيل الله يجمع كل عناصر الخير.

ومع أن التعبيرَ تعبيري خبري يدل على اللزوم بين كمال الإيمان والقتال في سبيل الله، فهو يتضمن توجيهاً للذين آمنوا بأن لا يقاتلوا إلا في سبيل الله منهجاً وعملاً وغاية ونية.

القضية الثانية:

بيان أن الذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، أي: في سبيل الشيطان الذي يمثل الداعي إلى كل شر، فسبيل الشيطان بوجه عام يحتوي على كل عناصر الشر، والسالكون فيه يمارسون من الشرور على مقادير تأثرهم بإغواء الشيطان.

قول الله:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾:

أي: والذين رفقوا بالإيمان وأبوا أن يسلموا، بعد إعلامهم بأركان الإيمان

مقرونّة بأدلتها، ما دفعهم إلى هذا الكفر إلا تأثرهم بإغواء الشيطان، فهم إذا قاتلوا المؤمنين فإنهم يقاتلونهم ضمن حدود سبيل الطاغوت.

لذلك وصفهم الله بقوله:

﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾.

وسبيل الطاغوت سبيل يحتوي على كلّ الشرور، فهم يسلكون في قتالهم هذا السبيل.

وقد دلّ على أنّ المراد من الطاغوت هنا الشيطان ما جاء في تمة الآية.

القضية الثالثة:

حَثّ الذين آمنوا على أن يقاتلوا الكافرين باعتبارهم أولياء الشيطان، وناصري الشرور التي يدعو إليها، مع ترغيبهم بأنهم أقوى منهم، وسيتصرون عليهم، نظراً إلى أن كيد الشيطان ضعيف دوماً، فكيد أوليائه الذين يقاتلون في سبيله، وضمن خططه ووصاياه التي يوسوس بها، وتهديهم إليها أفكارهم الشيطانية، هو كيد ضعيف، بالنسبة إلى قوى المؤمنين الذين يتقيدون بحدود سبيل الله إعداداً ومنهجاً وخطة وعملاً وغايةً، ويتلقون من الله المدد والعون، لينصرهم على عدوهم.

قول الله تعالى:

﴿فَقَاتِلُوا﴾:

خطاب للذين آمنوا، وهو أمر ترغيبي كما سبق بيانه.

قول الله تعالى:

﴿أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾:

أي: الذين كفّروا، وقد ذكرهم الله بوصف آخر من أوصافهم، وهو أنهم أولياء الشيطان، أي: نصراؤه ومؤيدو خططه وأعماله التي يدبرها لإغواء بني آدم أجمعين، فالذين كفروا قد جنّدوا أنفسهم في كتائب الشيطان، لكنهم مهما دبّروا من مكاييد ضدّ الذين آمنوا فمكايدهم شيطانية ضعيفة بالنسبة إلى قوى الذين آمنوا، إذا كانوا حقاً يقاتلون في سبيل الله منهجاً وخطة وعملاً وغايةً ونيةً وإعداداً.

قول الله تعالى :

﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ :

أي : إن كيد الشيطان هو ضعيف دوماً، إذ فعل «كان» يدل في الصفات على الكينونة المستقرّة المستمرة غالباً.

* * *

الفقرة السادسة : تتضمن بيان ظاهرة من ظواهر النفاق وهي ظاهرة إبداء الرغبة بالتعجّل قبل الإذن بالقتال، والخوف منه عند الإذن به أو الأمر به، مع التسويف وطلب تأخيرها إلى أجل قريب على سبيل المماطلة.

وهذه الظاهرة قد تكون من أهل الشك والريب، ومن ضعفاء الإيمان، ومن أهل الجبن والتعلّق بالحياة الدنيا، وربّما كان هؤلاء هم المقصودون، بالدرجة الأولى لأن المرحلة المكيّة لم يكن فيها نفاق، والمسلمون فيها هم الذين طُلب منهم كف أيديهم.

وتتضمن التوجيه الربّاني حول هذه الظاهرة.

قال الله عزّ وجلّ :

﴿أَتُورَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَسُولَنَا كَذَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾.

في هذا النصّ قضيتان :

الأولى : بيان الظاهرة المستكرة، مع التعجيب منها والتوجيه لاستكثارها.

الثانية : التوجيه الربّاني الإقناعي لمعالجتها.

القضية الأولى :

بروحه الله النظر الفكري بأسلوب الاستفهام الإنكارّي التعجيبّي، لاستشارة

العجب والاستنكار لظاهرة ذات طرفين متضادين متخالفين حول موضوع واحد، هي ظاهرة التحمس للقتال عند الأمر بالكف وعدم الإذن به، والتخاذل عنه وطلب التأجيل مماثلة وتسويفاً عند الأمر به.

والخطاب موجّه بصيغة المفرد للرّسول أولاً، ومن بعده إلى كلّ ذي نظر فكريّ.

قول الله تعالى:

﴿الَّذِينَ قَاتَلُوا بِأَمْرِ اللَّهِ فِي سَبِيلِهِ يَمُوتُونَ أَوْ قُتِلُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الَّذِينَ يَرْتَضُونَ أَمْرَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۖ﴾

أي: ألم تُدرِكْ ببصيرتك الفكرية؟ والاستفهام هنا استفهام تعجيسي استنكاري.

قول الله تعالى:

﴿إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ۖ﴾

أي: قيل لهم لا تقَاتِلُوا الكفّار والمشرّكين الذين يضطهدونكم من أجل دينكم، وكان هذا ظاهراً في المرحلة المكيّة، التي لم يكن فيها منافقون يومئذ، وروي عن ابن عبّاس أنّ من هؤلاء: «عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والمقداد بن الأسود، وقدامة بن مظعون، وأصحابهم».

وربّما كان من المنافقين وأهل الرب والشك وضعفاء الإيمان في أوائل المرحلة المدنية قبل الأمر بالقتال تظاهراً بالتحمس لمقاتلة مشرّكي مكّة لأسباب مختلفة، ف قيل لهم: كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ.

قول الله تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ۖ﴾

أي: حافظوا على حدود ركني إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فدلّ هذا على أن ركني الصلاة والزكاة من أركان الإسلام كانا قد شُرِعَا والمسلمون ما زالوا مأمورين بكفّ أيديهم عن قتال أعدائهم، وقد جاء في عدد من السور المكية الحث على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وهو في مضمونه أمر تكليفيّ.

(١) ففي معرض الحديث عن موسى عليه السلام وبنّي إسرائيل قال الله

عز وجل في سورة (الأعراف / ٧ مصحف / ٣٩ نزول):

﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُمِبُ الَّذِينَ يَنْقُوتَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَحْدُثُهُمْ
مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ...﴾.

(٢) ثم في صدر سورة (النمل / ٢٧ مصحف / ٤٨ نزول) المكية، قال الله عز وجل:

﴿طَسَّ بِكَ إِلَهَ الْفِرْعَوْنَ وَكَتَابَ مُوسَى هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ
الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾.

(٣) ثم أنزل الله عز وجل في صدر سورة (القمان / ٣١ مصحف / ٥٧ نزول) وهي سورة مكية قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ هَدَى الرَّحْمَةُ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿١﴾﴾.

(٤) ثم أنزل الله عز وجل في أواسط العهد المكي وعبدًا للمشركين بالربيل، ذاكراً من صفاتهم أنهم لا يؤتون الزكاة، فقال تعالى في سورة (فصلت / ٤١ مصحف / ٦١ نزول):

﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

(٥) ثم أنزل الله عز وجل في أواخر العهد المكي الأمر بإيتاء ذي القربى حقّه والمسكين وابن السبيل ووعده على ذلك بالفلاح لمن يريد به وجه الله، ومهّد لتحريم الربا بأنه لا يربو عند الله، ورغب في إيتاء الزكاة بالوعد بالإخلاص المضاعف، فقال تعالى في سورة (الروم / ٣٠ مصحف / ٨٤ نزول):

﴿فَقَاتِلْ أَكْثَرَ الَّذِينَ هَفَوْا وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَا آتَاكُمْ مِنْ رَبِّا لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيُوا عِنْدَ اللَّهِ

وَمَا أَيْسَرُ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٧١﴾

فهذه النصوص المكية تدلُّ على أنَّ الزكاة كانت واجبة منذ العهد المكي . فقول الفقهاء : إنَّ الزكاة شُرِعت في السنة الثانية من العهد المدني ينبغي أن يُحمَّل على معنى قيام الدولة الإسلامية بجبايتها، وتوزيعها على مستحقيها، أو على تحديد المقادير المفروضة منها في مختلف الأموال، بينما كان التكليف تكليفاً عاماً يتبع الحاجات والضرورات .

قول الله تعالى :

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ :

أي : فحين بُتَّ الإذن بالقتال ثمَّ الأمرُ به، وجاء التعبير عن إبرام الأمر وبثه بالكتابة، لأنَّ من عادة العظماء إذا بتوا وأبرموا أمراً عاماً كتبه، ولم يكتفوا بمجرد التوجيه الكلامي، وهو من باب إطلاق اللّازم وإرادة الملزوم .

قول الله عزَّ وجلَّ :

﴿إِذَا فِرْقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً قَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ... ﴿٧٢﴾﴾ .

«إذا» فجائية كما سبق، والمعنى أنَّ فريقاً من الذين كانوا يتعجلون المطالبة بالقتال قبل الإذن به، ولم يكن من الحكمة في بناء الأمة الإسلامية ذلك التعجل، يُفاجئون بعد الإذن بالقتال والأمر به بظواهر ثلاث مضادة لما كانوا يبدؤونه من رغبات التعجل .

الظاهرة الأولى : خشيَتُهُمْ مِنْ مُلَاقَاةِ النَّاسِ فِي الْقِتَالِ كَخَشْيَتِهِمْ مِنْ مُلَاقَاةِ اللَّهِ يوم الحساب أو أشدَّ خشية، أو من عقابه المعجل على مخالفة التكليف .

الخشية : حركة نفسية، ولكن لما كانت لها آثار في السلوك الظاهر كانت ظاهرة مُدرَكةً بآثارها .

وسبب هذه الخشية كفرٌ في الباطن وهو عند المنافقين . أو شكٌ وهو عند أهل

الرَّيْبَ بِالَّذِينَ وَمَا جَاءَ فِيهِ . أَوْ ضَعْفَ إِيمَانٍ وَهُوَ عِنْدَ الْعَصَاةِ ، أَوْ تَعَلُّقٌ بِالدُّنْيَا وَهُوَ عِنْدَ الْغَافِلِينَ الَّذِينَ يَحْبِرُونَ الْعَاجِلَةَ . وَقَدْ جَاءَ النَّصُّ عَامًّا لِيَشْمَلَ كُلَّ هَؤُلَاءِ .

وجاء ذكر هذه الظاهرة ضمن ظواهر النفاق للإشعار بأنها في الأصل هي من صفات المنافقين، فعلى المؤمنين أن يحذروها لئلا تجرهم إلى النفاق، ولئلا تكون علامة من علاماته فيهم، وكذلك الظاهرتان الثانية والثالثة.

الظاهرة الثانية: انزعاجهم وتدميرهم من إلزامهم بالقتال، حتى قالوا: رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ؟ .

أي: أما كان من الممكن أن تنصرونا على عدونا دون أن نُكَلِّفَنا قتاله، فتتولى أنت إهلاكهم، وهذه مقولة تصلح لأن يقولها المنافقون والشاككون وضعفاء الإيمان والغافلون الذين استأثرت بتصوراتهم الحياة الدنيا، وكذلك من شغلتهم الدنيا عن طلب الآخرة.

ويلاحظ أن المطلب هنا مشابه لمطلب بني إسرائيل، إذ قالوا لموسى عليه السلام:

﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ﴾ :

ولكنه بأسلوب آخر غير مباشر، إنه أسلوب المتسائل عن الحكمة.

وقد أجاب الله عز وجل عن هذا التساؤل فيما أنزل في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول) التي أنزلت بعد سورتين من نزول سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) فقال الله عز وجل فيها:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْصَرَكُمْ وَلَكِنْ لَبِلُوا بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ...﴾ :

أي: فحكمة الابتلاء في ظروف الحياة الدنيا هي الداعية إلى تكليف المؤمنين قتال المشركين، ولولاها لكان أمر الانتقام من الكافرين يسيراً.

أما أسلوب بني إسرائيل فهو خشن جاف يُغْلِنُ الرُّفْضَ بوقاحة.

الظاهرة الثالثة: التسيوف والمماطلة بطلب التأخير إلى أجل قريب، دل عليها

قولهم:

﴿لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ .

بمعنى : هلاً أَخَّرْنَا إلى أجل قَرِيبٍ ، والأجل القريب الذي يطلبون تأخير إلزامهم بالقتال إليه ، قد يُعَلِّلُونَهُ بتكاثر عدد المسلمين ، أو استكمال استعداداتهم لمقاتلة عدوهم .

يرى بعض أهل التفسير أَنَّ المراد من قولهم هذا تأخيرُهم حتى يموتوا موتاً عادياً في أجالهم .

لكنَّ هذا التفسير لا يُناسب الموضوع هنا ، ولو كان هو المراد لكان التعبير على نحو : لولا أعفينا حتى نموت في آجالنا .

فطلبُ التأخير تأجيل وتسويف ومماطلة ، ولهذا التمييز نظيران في القرآن هما بمعنى التأجيل لإصلاح الحال واستدراك ما فات :

الأول : ما جاء في سورة (إبراهيم) / ١٤ مصحف / ٧٢ نزول) بشأن بيان طلب الظالمين حين يرون نُذْرَ العذاب النازل بهم ، وهي مقدمات ما أنذرهم به رسولهم ، وهو قول الله عز وجل خطاباً لرسوله ﷺ :

﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ يُحِبِّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ وَلَمْ تَكُنْ تُكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿١١﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَبَبَّيْتَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿١٢﴾﴾ .

﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ :

أي : يُقْسِمُونَ أَنَّهُمْ لَا يَتَغَرَّضُونَ لإهلاكِ جماعِي عِقَاباً لهم ، مع أنهم سَكُنُوا في مساكن الذين أهلكوا من قبلهم إهلاكاً جماعياً بسبب أنهم ظلموا أنفسهم ، كما ضرب الله لهم الأمثال من الظالمين الأولين الَّذِينَ أَنزَلَ بِهِمْ عِقَابُهُ فَأهلكهم إهلاكاً جماعياً .

الثاني: ما جاء في سورة (المنافقون / ٦٣ مصحف / ١٠٤ نزول) وهو قول الله عز وجل:

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٠﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾.

فهذا عندما يأتيه الموت، ويُذكر أنه نازل به، وتكشف له أشياء من عالم الآخرة، يدعوه أن يؤخره إلى أجل قريب فيأشُر ببذل الصدقات وفعل الصالحات، لكن الله لا يستجيب لطلبه، ولا يغير سته في امتحان عباده، وإنهاء ظروفه بحلول الأجل المقرر للموت.

القضية الثانية:

ما تضمنه قول الله عز وجل:

﴿قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٢﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ﴿٧٣﴾﴾.

في هذا النص يعلم الله عز وجل رسوله فكل مؤهل لتقديم الحجج الإقناعية من بعده، كيف يقدم الحقائق الإقناعية للذين جئوا عن قتال الكافرين حينما أمر الله به، بعد أن كانوا يتظاهرون بالتحمس لمقاتلتهم حين كانوا مأمورين بكف أيديهم، وقالوا بعد الإذن به ثم الأمر به:

(١) ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْفِتَالَ؟﴾

(٢) ﴿لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ؟﴾.

وفي هذا النص التعليمي توجيه للإقناع بأربع حقائق:

الحقيقة الأولى: أن متاع الحياة الدنيا الذي يحرسون عليه متاع قليل:

﴿قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾.

حين يبحث المتفكر المجرب في الحياة الدنيا يجدّها مزيجاً من المتاعب والآلام والاكدار والمنقصات والكُدّ والكُدْح. ولَقَطَاتٍ من اللذات وسُحْباً ملونةً بأصباغ جميلة من أحلام الأمانى.

أما ما فيها من لذاتٍ ملتقطاتٍ من مجموع المزيج، فهي لذات سرّيات عابرات غير مستقرّات، فهي متاعٌ سريع الزوال قليل المقدار.

﴿متاع﴾: المتاع في اللغة، قال الأزهريّ فأما المتاع في الأصل فكلُّ شيءٍ يُتَنَعُّ به، وَيُتَبَلَّغُ به، وَيَتَرَوَّدُ، والفناء يأتي عليه في الدنيا.

أقول:

جاء استعمال هذه المادة ومشتقاتها في القرآن زائداً على ستين مرّة، وكلّها فيما يُتَنَعُّ به في الحياة الدنيا وهو غرصةٌ للفناء، وسُرعةُ الزوال.

إنّ الأشياء التي يُتَنَعُّ بها صائرة إلى الزوال بين زمنٍ قصير وزمنٍ أطول. والاستمتاع بالأشياء أكثره ينقضي في زمنٍ قصير يسير.

* وقد وصف الله عزّ وجلّ الحياة الدّنيا بأنّها متاعُ الغُرور، والغُرور هو الخدع والإطّماعُ بالباطل، فقال تعالى في سورة (الحديد / ٥٧ مصحف / ٩٤ نزول):

﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٦﴾﴾.

* ووصف الله عزّ وجلّ كلّ الحياة الدنيا بجانب الآخرة وبالقياس عليها بأنّها متاع، فقال تعالى في سورة (الرعد / ١٣ مصحف / ٩٦ نزول):

﴿وَفِرْحًا بِالْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٦﴾﴾.

* وأنذر الرسول صالح عليه السلام قومه ثمود بعد أن عقروا الناقة بالعذاب النازل بهم بعد ثلاثة أيّام وقال لهم كما جاء في سورة (هود / ١١ مصحف / ٥٢ نزول) في قوله تعالى:

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿١٥﴾﴾.

فكان بقاؤهم في دارهم في حياةٍ عاديةٍ ثلاثة أيّام ممّا يصحّ أن يقال بشأنه لهم: «تَمَتّعُوا».

فدللتنا الاستعمالات القرآنية على أن المتاع والتمتع والاستمتاع ونحوها تطلق ويراد منها ما يعقبه الفناء، أو هو سريع الزوال.

بخلاف ما في الجنة يوم الدين من خيرات حسان ولذات فقد سمأه الله نعيماً مقيماً، وجعل من خصائص أقسام الجنة أنها جنات النعيم، وقال تعالى في سورة (الإنسان / ٧٦ مصحف / ٩٨ نزل) بشأنها:

﴿وَلَا ذَارَآئَتْ ثُمَّ رَأَيْتَ ضِعَافًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾

إن من يؤمن بهذه الحقيقة يزهد في الحياة الدنيا، ويقلّ تعلُّقه بها.

الحقيقة الثانية: أن الأجرة خير لمن اتقى. أي: من أدنى درجات التقوى، بآتقاء الخلود في النار بكلمة التوحيد، حتى قمة المتقين، قمة الأبرار، قمة المحسنين.

خير: أفعل تفضيل، أي: أخير وأحسن وأفضل وأكثر تحقيقاً لمطالب النفوس ولذاتها. والأخيرة تشمل ما زاد بدرجة، وما زاد بدرجات لا تُقدَّر بمقدار، انطلاقاً إلى غير نهاية، وليس في اللغات كلمات تدلّ على نسب درجات التفاضل، فاقصر النصّ القرآني على التعبير بكلمة خير.

لكن جاء في بيان الرسول ﷺ ما يُصور كل لذات الحياة الدنيا وما فيها من متاع، وكل آلامها وما فيها من عذاب، بصورة كاشفة لِقَدْرِ كبير من الحقيقة، فقد روى الإمام مسلم، والإمام أحمد، والنسائي والبيهقي، عن أنس، أن النبي ﷺ قال:

«يُوتَى بِأَنعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَصْبَغُ فِي جَهَنَّمَ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟

فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ.

وَيُوتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَصْبَغُ فِي الْجَنَّةِ صَبْغَةً، فَيَقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟

فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ.

(حديث صحيح)

إِنَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِذِهِ الْحَقِيقَةُ تَهْوَنُ عِنْدَهُ الدُّنْيَا، وَيَسْهَلُ عَلَيْهِ أَنْ يَبْذُلَ نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَجْرٍ عَظِيمٍ.

الحقيقة الثالثة: أَنَّ الْجَزَاءَ يَوْمَ الدِّينِ عَلَى السَّيِّئَاتِ بِالْعَدْلِ الرَّبَّانِيِّ، وَأَنَّ الْجَزَاءَ عَلَى الْحَسَنَاتِ وَفِعْلِ الْخَيْرَاتِ بِالْفَضْلِ الرَّبَّانِيِّ، لِذَلِكَ فَلَا يُظْلَمُ الْمُسِيئُونَ وَلَا يُظْلَمُ الْمُحْسِنُونَ شَيْئاً مِمَّا قُلُّ، وَلَوْ كَانَ بِمَقْدَارِ أَقَلِّ الْأَشْيَاءِ وَأَحْقَرِهَا.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ أَي: وَلَا تُظْلَمُونَ يَوْمَ الدِّينِ، يَوْمَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ، عِنْدَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، شَيْئاً مِمَّا كَانَ ضَيْلاً حَقِيراً، كَالْخِيطِ الَّذِي يَكُونُ فِي شَقِّ النَّوَاةِ، أَوْ بِمَقْدَارِ مَا يَفْتُلُ الْإِنْسَانُ بَيْنَ إِبْهَامِهِ وَسَبَّابَتِهِ مِنْ وَسَخٍ يَجْمَعُهُ لِيَرْمِيهِ.

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ التَّوَابَ عَلَى الْحَسَنَاتِ يَضَاعِفُ أضعافاً كَثِيرَةً، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ عَطَاءٌ بِفَضْلِ اللَّهِ، فَلَا ظُلْمَ فِيهِ، أَمَّا الْعِقَابُ عَلَى السَّيِّئَاتِ فَيَقْتَرَنُ بِعَفْوٍ كَثِيرٍ، وَالْأَصْلُ فِي الْجَزَاءِ عَلَى السَّيِّئَاتِ هُوَ مَا أَبَانَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ (يُونُسَ) ١٠ مَصْحَفٍ / ٥١ نَزُولٍ:

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سِنِينَ يَبْتَلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ...﴾ ﴿٧١﴾

إِنَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِذِهِ الْحَقِيقَةُ، يَخْشَى اكْتِسَابَ السَّيِّئَاتِ مِنْ دَرَكَةِ النِّفَاقِ إِلَى دَرَكَةِ الْمَعَاصِي وَالْمَخَالَفَاتِ الْعَادِيَةِ، وَيَنْدَفِعُ لِفِعْلِ الطَّاعَاتِ وَالصَّالِحَاتِ طَمَعاً بِثَوَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

الحقيقة الرابعة: أَنَّ الْمَوْتَ الْمَقْدَرُ الْمُقَضِيُّ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ حَتْمٌ لَا مَهْرَبَ مِنْهُ وَلَا مَفْرَ، وَلَا يَسْتَطِيعُ مَخْلُوقٌ أَنْ يُتَّقِيَهُ مِمَّا اتَّخَذَ مِنْ وَسَائِلٍ يَتَصَوَّرُهَا عَاصِمَةً لَهُ مِنَ الْمَوْتِ، كَبُرُوجٍ مُشْبِلَةٍ مُخَصَّنَةٍ مُحْكَمَةٍ ضَمَّنَ أَسْوَارَ وَحُصُونٍ.

وَقَدْ جَاءَ بَيَانُ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ فِي التَّعْلِيمِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿أَيُّنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ...﴾ ﴿٧٨﴾

وَالْمَعْنَى: مَا الدَّاعِي إِلَى الْمِمَاطَلَةِ وَالتَّسْوِيفِ فِي مَوْضِعِ الْأَمْرِ بِقِتَالِ أَعْدَائِكُمْ، وَكُلِّ إِنْسَانٍ يَمُوتُ بِأَجَلِهِ، سِوَا أَقَاتِلٍ أَوْ لَمْ يَفْتُل.

إِنَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ يُؤَيَّرُ أَنْ يَمُوتَ شَهِيداً لِنِالِ كِرَامَةِ الشَّهَدَاءِ، وَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ مِنْ أَنْ يَمُوتَ مَوْتاً عَادِيّاً دُونَ أَنْ يَغْنَمَ الشَّهَادَةَ وَأَجْرَهَا الْعَظِيمَ وَكَرَامَتَهَا عِنْدَ اللَّهِ.

الفقرة السابعة: تتضمن بيان ظاهرة من ظواهر النفاق لدى المنافقين، وهي ظاهرة نسبة ما يُصيّبهم من حسنة بسبب حُسْنِ القيادة والإدارة النبوية إلى محض القضاء والقدر من الله، ونسبة ما يُصيّبهم من سيئة إلى سوء القيادة والإدارة النبوية، وتتضمن أيضاً التوجيه الرباني إلى الحق في الذي يصيب الناس من حسنات وسيئات.

قال الله عز وجل:

﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾ (٧٨).

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَرِيقٌ لِلَّهِ مَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَرِيقٌ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ (٧٩).

إيراد هاتين الآيتين ضمنَ موضوع الدعوة إلى القتال في سبيل الله كما يلاحظ من مِثاقِ النصِّ وسياقه، قبلهما وتعدُّهما، وما يُبرِّزُ من ظواهر هي في الأساس ظواهرُ نفاق، وقد تظهر من أهل الشك والريب، وقد يَظْهَرُ بعضها من ضعفاء الإيمان، ومن أهل الغفلات الذين سيطرت الحياة الدنيا على أفكارهم وتصوراتهم مع صحة إيمانهم، يدلُّ على أنَّ هذه الظاهرة التي كشفناها وعالجناها هاتان الآيتان ظاهرة نفاقية تبرز عند الحصائل التي تكونُ من النتائج القريبة للمعركة القتالية، في أثناء القتال أو بعد انتهاء المعركة. وهذه الحصائل منها ما يسُرُّ كالنصر والغنيمة، وكلُّ واحدة مما يسرُّ تُسمَّى في اللغة: حسنة، ومنها ما هو مكروه كالقتل والجرح والخسارة والهزيمة، وكلُّ واحدة من النوازل المكروهات تُسمَّى في اللغة: سيئة.

فالمنافقون في حالة ظفر المؤمنين بما يحبُّون من حسنات نصر وغنيمة، يقولون:

هذه من عند الله، أي: من محض فضل الله في عطائه، ولم يكن لحكمة الرسول في إدارته وسياسته وقيادته وأمره بقتال العدو سبب في إكرام الله لهم بالنصر والغنيمة.

وهذه في المنافقين بين المسلمين، وهم في باطنهم مشركون يؤمنون بالرب الخالق، ويشركون به، ولا يؤمنون بالرسول، نظير مقالة المادّيين الملحدين الذين يجحدون الرب الخالق، إذ يقولون عما يناله المؤمنون من فضل الله، هذا قد جاء على سبيل المصادفة.

والمنافقون في حالة إصابة المسلمين بما يكرهون من سيئات قتل أو جرح أو خسارة أو هزيمة، يلقون تبعاً ذلك على الرسول ﷺ، وأنه قد كان بإدارته، أو قيادته، أو أمره بالخروج إلى قتال العدو، هو السبب فيما نزل بالمسلمين من سيئات يكرهونها.

هذا ما يندل عليه سباق النص وسياقه، ولا يمنع أن تكون هذه الظاهرة من الظواهر التي تكون أيضاً في الأحوال العادية، عند نزول النعم والمصائب التي يصرّفها الله كما يشاء في عباده، للابتلاء، أو التربية، أو الجزاء، فحين تنزل النعم، يقول المنافقون: هذه من عند الله، أي: هي عطاء من خزان ملك الله. وحين تنزل المصائب، يقول المنافقون متطيرين بالرسول ضمن خرافة الشاؤم بالأشخاص ذوي الإدارة والسلطان والحكم: هذه من عندك. أي: من الشؤم الذي هو عندك، الجالب للمصائب والمكاره.

وهذا كلام لا بقوله إلا المنافقون، وأهل الرب الذين رجحت لذتهم بكفة التكذيب على كفة التصديق.

وهذه الطيرة معروفة في الناس قديماً، ولا سيما عند أهل الكفر بالله وبحكمته، فمن أمثلتها ما كان يقوله آل فرعون في عهد موسى عليه السلام، وهو ما ذكره الله بقوله في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٦﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيِّرُوا يَمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۖ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ آبَائِهِمْ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾﴾.

وتساءل: هل كانوا يواجهون الرسول ﷺ بقولهم حين نصيهم السيئة: «هذه من عندك»؟

لدبنا احتمالان:

— أرجحهما فيما أرى: أنهم كانوا يقولونها في نفوسهم وهمساً فيما بينهم وهم في مجلس الرسول. فالله أذاعها وكشفها لرسوله ولسائر متلقي الذكر الحكيم، وأعلمهم بذلك أن ما يُسرون به لا يخفى على الله منه شيء، ويتضمن هذا الإعلان حجة عليهم بأن محمداً هو رسول الله حقاً وصدقاً، ووسيلة إقناع لاهل الرئب بصدق الرسول.

— الاحتمال الثاني: أن الله يخبر رسوله خطاباً بمضمون ما يقولون في غيبته عنه، وهذا من أساليب الكلام الخبري القائم على إخبار المخاطب على سبيل الخطاب بما جرى الحديث عنه بضمير الغائب، كان تقول لمخاطبك: فلان أننى عليك، فقال: أنت عالم فصيح اللسان، شجاع في الحق، جواد. مع أنه قال في غيبته: هو عالم... إلى آخر الكلام.

أما موضوع ما ينزل بالناس من حسنات «أي: من نعم» وما ينزل بهم من سيئات «أي: من مصائب» فيتعلق به قضيتان:

القضية الأولى:

هي قضية الفاعل الحقيقي لما ينزل من نعم ومصائب، والمرسل لها من خزائن ملكه التي هي عنده في كونه.

ففاعلها جميعاً، ومُرسلها جميعاً من عنده، إنما هو الله عز وجل، وذلك إنما يتم بأمره سبحانه، وهو أمر التكوين، لما أراد مما قدره بمقاديره، وأمضاه بقضائه.

ودفعاً للأنبياس والخلط بين الأسباب والحكم والفعل التنفيذي الذي هو تكوين لما قضاه الله وقدره، قال الله عز وجل مُعَلِّماً رسوله فكل داعٍ من بعده، أن يقول للذين قالوا ما سبق بيانه، ولأشباههم:

﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾

أي: كل ما يجري في الكون ومن ضمنه الحسنات والسيئات «أي: النعم والمصائب» التي تنزل بالعباد هي من عند الله، وظاهر أنها لا تُفرز من خزائنه إلا بأمره، وبقضائه وقدره وإرادته.

وهذه قضية هي من بديهيات القاعدة الإيمانية، التي جاء بيانها فيما نزل من قرآن طوال العهد المكي ونحو ربع العهد المدني قبل نزول سورة «النساء» وجاء بيانها على لسان الرسول ﷺ خلال هذه المدة، وكان على الذين تحدث الله عنهم بقوله:

﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ...﴾ (٧٨)

ان لا نخطر على نفوسهم خواطر الشرك السيي، ولا خواطر الشرك الخرافي القائم على التطير، لذلك قال الله بشأنهم:

﴿قَالَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (٧٨) ١٩.

أي: أي شيء ثابت لهؤلاء من انحراف نفسي أو خلقي أو فكري حالة كونهم لا يكادون يفقهون حديثاً؟!

﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾:

أي: لا يقتربون من فقه حديث ما، والذي لا يقترب من الشيء، لا يتصف به، ولا يَدْخُل في حدوده.

الفقه: هو الفهم العميق للأشياء، وللنصوص، وعدم الاكتفاء بالإدراك السطحي.

والمعنى أن هؤلاء يدركون من الأحاديث سطوحها الظاهرة، ولا يكلفون أنفسهم أعمال أفكارهم لفقه دلالاتها العميقة، فيقعون في أغاليل فكرية، ينشأ عنها مثل الذي عبروا عنه بقولهم السابق بيانه.

ولو فقهوا لأدركوا أن الشيء يُنسب إلى فاعله الحقيقي نسبة الفعل والتكوين، ويُنسب إلى غير فاعله الحقيقي لعلاقة ما من العلاقات، كأن يكون هو السبب، أو هو المقتضي، أو من أجله فعل، ونحو ذلك.

يقال: هذا السارق قطع يد نفسه، أي: كان السبب بقطع يده. ويقول الرجل لمطلقة التي ردها: أولادي منك هم الذين ردوك إليّ، أي: من أجلهم أرجعتك إلي عصمتي، وهكذا.

وهنا تظهر لنا القضية الثانية:

القضية الثانية:

هي قضية نسبة الفعل أو الحدث أو الشيء إلى من كان هو السبب الداعي لوجوده، أو من أجله أو لمصلحته أو جده مُوجِّده أو جلبه، وأتى به، أو لأمرٍ ما يتعلّق به، كامتحانه، أو تربيته وتأديبه، أو ثوابه أو عقابه.

وبيناً لهذه القضية الثانية مقارنة بالقضية الأولى، قال الله عز وجل لرسوله، ويقاس عليه سائر الناس:

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ...﴾ (٧٦)

أي: كل الحسّنات «وهي النعم» التي تُصيّك فهي عطاء من فضل الله ليس لك تُنسبُ فيها.

وكل سيئة تُصيّك فهي بسبب أو مقتضٍ أو داعٍ من نفسك، والنفسُ هي الكاسية، فإذا كانت السيئة للامتحان والابتلاء، فاختبار نفسه هو الداعي، وإذا كانت للتربية والتأديب، فهما المقتضي، وإذا كانت للجزاء فنفسه الكاسية هي السبب. فكون ما أصاب الإنسان من سيئة هو من نفسه، ينبغي أن يفهم على هذا، فالإسناد ملاحظ فيه هذه العلاقة، لا الخلق والتكوين والإيجاد. فعلمنا الله عز وجل بهذا أن الحدّث يُنسبُ إلى فاعله وموجده، ويُنسبُ إلى مُسبِّبه، ويُنسبُ إلى من كان لمصلحته، أو من أجله، أو لأمرٍ ما يتعلّق به.

وإدراك هذه النسب في النصوص بحسب العلاقات يحتاج إلى فقه، وهو الفهم العميق الذي لا يقتصر على السطوح، بل يكون فيه تعمّق وتذبُّر.

ولما كانت مقالة المنافيين والشاكّين التي عرضها النص إنما قالوها بسبب تكذيبهم الرسول وعدم تصديقهم برسالاته، وأسّى الله رسوله بقوله له:

﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (٧١):

أي: لئن كذبتك أو شك فيك هؤلاء القلة من المنافقين وأهل الرّيب، فانت لست رسولاً لهم فقط، ولا رسولاً للعرب فقط، بل أنت رسول من الله للناس جميعاً. وإن كنت تحتاج من يشهد لك بأنك رسول حق وصدق، فكفى بالله شهيداً يشهد لك بذلك.

والمعنى: ألم يشهد لك بأنك رسول، عن طريق معجزة القرآن، والمعجزات الأخرى التي أمدك بها، وما آتاك من تأييد ونصر مبين، وما سيؤتيك من معجزات وتأييد ومغذٍ وفتح في البلاد والعباد وتمكين.

الفقرة الثامنة: تتضمن بيان أنّ طاعة الرسول من طاعة الله وخطاباً للرّسول بأنّ من تولّى عن طاعته، مديراً ظهره لأوامره ونواهيه، فعلى الرسول أن لا يهتم له، ولا يشغل به باله، فإنّ الله لم يرسله حفيظاً على الناس، ضابطاً لهم عن الانحراف، ومانعاً لهم من التّولي عن الخروج عن الصراط.

وفي هذا توجيه وتربية لكل داعٍ إلى دين الله وصراطه المستقيم من بعده، أو أمر بالمعروف ناه عن المنكر، إذ هم ليسوا مسؤولين عن حفظ الناس على التزام صراطه، إنما هم مسؤولون عن الدعوة لمن هم خارج الصراط، وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لمن هم داخله، ومحاولة إلزامهم الصراط ما أمكن عن طريق اختيارهم الحرّ.

قال الله عز وجل:

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (٨٠).

في هذه الآية قضيتان:

القضية الأولى:

أنّ طاعة الرسول في أوامره ونواهيه هي من طاعة الله، والسبب في ذلك أنّ الله عز وجل قد أمر بطاعته دون قيد، لأنّه قد عصمه جلّ وعلا في قضايا الدّين عن أن يأمر

بشيء، نهى الله عنه، أو ينهى عن شيء أمر الله به.

وهذه القضية واضحة من صيغة الشرط والجزاء في قوله تعالى:

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾.

وقد جاء النَّصُّ عاماً في الرسول، فلم يقل الله لرسوله: من يطعك فقد أطاعني، للدلالة على أن صفة الرسالة تقتضي هذه الطاعة، فهي إذاً تشتمل كلَّ رسول، فيلتقي النص هنا مع قوله تعالى في النص السابق له من سورة (النساء) نفسها:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطِيعَ بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾ (٦١).

ويزيد عليه فكرة أن طاعة الرسول هي من طاعة الله.

القضية الثانية:

أن الرسول لم يُرسله الله حفيظاً على الناس، إذن فهو ليس مسؤولاً عن تولي من تولي منهم، ويُفقد ذلك لزوماً إشعاره بأن لا يهتم لمن يتولى منهم، ولا يشغل به باله.

دل على هذه القضية قوله تعالى:

﴿وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

تولى: أدار ظهره وانصرف، وهذا إنما يفعله الكافرون، والمنافقون.

حفيظاً: الحفيظ هو الموكَّل بالشيء المؤمن عليه ليحفظه وهو «فعليل» صيغة مبالغة لحافظ. فالحفيظ على الشيء هو المسؤول عن سلامته، والمكلف أن يمنعه من الخروج عن موقع سلامته، ويمنع عنه ما يضر سلامته، كالحفيظ على الأموال في مخازنها، والأنعام والخيول ونحوها.

لكنَّ الرسول مبلغ للناس دين الله، وهادٍ وداع ومرشد، ولم يجعله الله عليهم حفيظاً، حتى يكون مسؤولاً عند الله عن تولي من تولي منهم، أو إدبار من أدبر، أو إعراض من أعرض وعرض نفسه لعذاب الله.

وإذا لم يجعله الله حفيظاً عليهم فمن الخير أن لا يشغل قلبه ونفسه بالذين يتولون، وعليه أن يهتم بوظيفته التي كلفه الله إياها.

وإذا كان الرسول كذلك فالدعاة من بعده هم أجدر بأن يكونوا غير مسؤولين
عمن تولّى، لأن الله لم يجعل أحداً حفيظاً على الناس.

وقد جاءت هذه الفقرة تمهيداً للفقرة التالية لها.



الفقرة التاسعة: تتضمن بيان ظاهرة من ظواهر النفاق لدى المنافقين، وهي
ظاهرة إعلان طاعة الرسول في أوامره ونواهيه في وجهه، فإذا خرجوا من عنده وخلوا
بعيدين عن الرُّقاء، بُتت طائفة منهم المعصية والمخالفة مع ما يبيّنون من أمور كيدية
أخرى.

وهذه الظاهرة هي من سمات المنافقين مع قادة من دخلوا فيهم نفاقاً، وهي
سمة متكررة فيهم.

وتتضمن أيضاً بيان ما ينبغي للرسول ﷺ أن يفعله إذا اكتشف هذه الظاهرة،
ويقاس على الرسول كلُّ قائد للمسلمين من بعده.

وتتضمن توجيهاً إقناعياً للمنافقين بصدق الرسول، عن طريق حُثِّهم على تدبر
القرآن ليعلموا أنه كلام الله حقاً وصدقاً، وإذا كان هو كذلك فمبلغه عن ربه صادق
لا محالة في أنه رسول الله.

قال الله عز وجل:

﴿وَيَقُولُوا طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ
وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾

في هذا النص ست قضايا:

(١) بيان الظاهرة النفاقية، وهي التضاد بين إعلان الطاعة وتبييت ما يضادها.

(٢) وبيان أنها معلومة لله، وأن الله يكتب عليهم ما يبيّنون، ومن الكتابة ما تقوم
به ملائكة تسجيل أعمال العباد في الكتب والصحف.

(٣) توجيه الرسول للإعراض عنهم، وعدم الاهتمام بهم، وكأن شيئاً لم يكن.

(٤) توجيه الرسول للتوكل على الله وتفويض أمرهم إليه.

(٥) بيان أن من توكل على الله ضمن حدود أوامر الله ونواهيه ووصاياه كفاه.

(٦) حضّ المنافقين بأسلوب الحديث عن الغائب على أن يتدبروا القرآن ليعلموا أنه كلام الله، مع لفت النظر إلى أنه لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً عن الواقع والحق، واختلافاً كثيراً بين بعض نصوصه وبعضها الآخر، فإذا ثبت لديهم أنه كلام الله ثبت لديهم أن مبلغه عن ربه هو رسول الله حقاً وصدقاً.

وتفصيل هذه القضايا فيما يلي:

القضية الأولى:

قال الله عز وجل في بيان هذه الظاهرة النفاقية:

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ...﴾ (٨١)

جاء بيان هذه الظاهرة ضمن الظواهر النفاقية التي تبرز عند الدعوة إلى القتال، للإشعار بأن ظهورها عند هذه المناسبة هو الأكثر والأغلب، وهو الذي يلفت الأنظار.

ولكن للنص دلالة عامة تشمل مناسبات أخرى، كمناسبات الأمر بالإنفاق في سبيل الله، والأمر بالدعوة إلى دين الله، والأمر بكتمان أسرار المسلمين عن أعدائهم، إلى غير ذلك من أمور تهم المسلمين بصفة عامة.

وقد دل قوله تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾:

على أن قولهم ﴿طَاعَةٌ﴾ مسبوق بتكليف من الرسول بأمر أو نهي، مثل: استعدوا لقتال العدو فإننا خارجون لملاقاتهم، فيقولون: طاعة، مع من يقول ذلك من المؤمنين الصادقين.

﴿طَاعَةٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: أمرنا طاعة.

﴿فَإِذَا بَرَأُوا مِنَ عِنْدِكَ﴾ :

جاء استعمال فعل ﴿بَرَأُوا﴾ هنا، وجاء استعمال فعل ﴿خَلَّوْا﴾ في النص الذي في (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول) بشأن المنافقين :

﴿وَإِذَا خَلَّوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ...﴾ ﴿١٤﴾

وفي النص الذي في سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول) بشأنهم أيضاً :

﴿وَإِذَا الْقَوْمُ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَّوْا عَصَوْا عَٰلَيْكُمْ إِلَّا نَمْلَ مِنَ الْغَيْظِ...﴾ ﴿١٧﴾

مع أن الهدف من الاستعمالين واحد، فهل هو مجرد تنوع في التعبير؟

بال تأمل والتفكير يظهر للمتدبر أن فعل ﴿بَرَأُوا﴾ الدال على خروجهم إلى الفضاء الواسع الخالي من الشجر ونحوه، بعيدين عن الرقباء والعيون الرواصد، هو الاليق هنا، لأن الموضوع يتناول غالباً الأوامر التي تتعلق بموضوعات القتال، وهي قد تكون أوامر صادرة خارج حدود البلد، والمكان الخالي الذي يمكن أن يثبت المنافقون فيه أمراً مخالفاً لما أعلنوا الطاعة فيه، هو «البراز» أي : الفضاء الواسع الخالي من الشجر ونحوه، ليكونوا فيه بعيدين عن الرقباء. وهذا من الدقة العجيبة في انتقاء الألفاظ القرآنية في مواضع استعمالاتها.

ومتابعةً للدقة التعبيرية الدالة على معانٍ مقصودة جاء استعمال فعل «بَرَأَ» في النص، الدال على أن تدبيرهم يكون في «البراز» من جهة اختيار المكان، وفي الليل من جهة اختيار الزمان، فالتبَيُّت هو التدبير أو العمل في الليل، ويشمل هذا التبَيُّت معصيتهم لما أعلنوا الطاعة فيه، وتدبير أمور أخرى تهدف إلى إحباط أعمال المسلمين، ونصرة أعدائهم عليهم.

ومن الدقة أيضاً عدم التعميم باستعمال كلمة «طائفة» الدالة على أن بعضهم يفعل ذلك لا جميعهم، لكن الظاهرة هي من ظواهر المنافقين التي قد يُفرِّزها النفاق في سلوك الناس.

القضية الثانية :

أن هذه الظاهرة النفاقية معلومة لله عز وجل، وأن الله يكتب عليهم ما يُبَيِّنون،

فقال تعالى في النص:

﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ﴾.

وظاهر أن الحادثة لا تُكْتَبُ من قِبَل الحكيم العليم إلا وهي معلومة له، فدلّت الكتابة على العلم لزوماً.

لكن قد يقال: لقد سبق في التنزيل القرآني قبل هذا النص ما يدلّ على علم الله بأعمال العباد، وعلى أن ما يعملونه يُسَجَّلُ عليهم في صحف أعمالهم، فما الذي أضافه النص هنا في هذا الموضوع؟ هل هو مجرد التأكيد والتنبيه على هذه الحقيقة من حقائق مراقبة أعمال العباد؟

أقول:

إن بيان أن الله يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُ المنافقون من أمور مضادة لإعلان الطاعة الذي كان منهم في مجلس الرسول، عند عرض هذه الظاهرة، يتضمّن إلماحاً بتهديد خاص هو لازم فكري لتوجيه العناية لكتابة ما يُبَيِّنُونَ تباعاً، دون إهمالٍ تُتَرَقَّبُ فيه التوبة، هذا التهديد الخاص يُمكن إدراكه استنباطاً، وهو أن الله عز وجل سَيَحِطُّ مَا يُبَيِّنُونَ، ويردّ عليهم مكرمهم وكيدهم، إذا مكروا مكرأ أو كادوا كيداً.

ويؤدّي هذا التهديد غرضين:

الغرض الأول: إلقاء الرعب والتخاذل في قلوب المنافقين.

الغرض الثاني: طمأننة قلوب الرسول والمؤمنين بأن الله مُحِيطٌ بكيد المنافقين، فلْيَسْتَمِرُوا فيما هم فيه، ولا يَكُنْ ما يُبَيِّنُ المنافقون سبباً في إقلاقهم وإلقاء الوهن والتخاذل في قلوبهم ونفوسهم، وجاءت القضية الثالثة مرتبة على هذه الطمأننة.

القضية الثالثة:

وهي توجيه الرسول ﷺ للإعراض عنهم، وعدم الاهتمام بهم، وطرح الفلق من جهتهم، دلّ عليها قول الله لرسوله:

﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾.

أي : أعطهم عارضك وجائتك إشعاراً بأنك عارف بما يُبَيِّتون، كاره لما يفعلون، غير مكترث لمكرهم وكيدهم.

ولا بد أن نفهم أن الإعراض عنهم وسيلة إيجابية تربوية بالنسبة إليهم، وليس إهمالاً لهم ولا تهاوناً بأمرهم.

فإن هذا الإعراض يُشجرهم بصغارهم، ويأنهم مكشوفون، ويُلقى في قلوبهم الرعب والوهن، ويجعلهم بين المسلمين كالمبذوقين الذين يكره الرسول النظر إليهم، فتتخاذل عزائمهم عن تنفيذ ما يبتوا، إذ أدركوا أنهم صاروا تحت المراقبة والمحاسبة، فهم لا يستطيعون التحرك بحرية المطمئن على سلامة نفسه، الواثق من أن العيون لا ترضده، وأن أعماله ستحقق غاياتها.

وما هو توجيه للرسول هو توجيه لكل قائد للمسلمين من بعده، ما لم يكن من خصوصيات النبوة والرسالة.

القضية الرابعة :

وهي توجيه الرسول للتوكل على الله، بقول الله تعالى له :

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾.

لما تضمن التوجيه للإعراض عن المنافقين، غدّم اتخاذ أعمالٍ فيها محاسبة لهم، ومكاشفة لهم بما يفعلون، إذ يلزم من ذلك معاقبتهم بصراحة، أو وضعهم موضع الأعداء الصرحاء، وهو أمرٌ منافٍ للحكمة الإدارية والسياسية، اقتضى الأمر الإشعار بأن الله عز وجل هو الذي يتولى إحباط ما يُبَيِّتون مكرأ وكيداً، ولكن شرط ذلك مع تنفيذ الإعراض عنهم صدق التوكل القلبي على الله، فأمر بالتوكل عليه.

واقضى التوجيه للتوكل على الله تقديم الوعد بأن يكفي الله من توكل عليه ما أمّمه، فجاءت القضية التالية تلمح إلى هذا الوعد.

القضية الخامسة :

وهي بيان أن من توكل على الله كفاه، بقول الله تعالى :

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

أي: ومن كان الله عز وجل وكيلاً عنه، يتولى أمره فيما هو وكيل عنه به، فإنه لا بد أن يكفيه كل ما يهيمه تحقيقه في ذلك الأمر.

وقد دللتنا النصوص القرآنية المنبئة في سور متعددة على أن التوكّل على الله وظيفة قلبية إيمانية، يجب أن تكون ضمن حدود أوامر الله ونواهيه ووصاياه، وضمن اتخاذ الأسباب التي أمر بها.

والمح قول الله تعالى:

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

إلى وعد من الله بأن يكفي من توكّل عليه، مع قيامه بما هو مطلوب منه دون تهاون ولا كسل ولا تفريط.

القضية السادسة:

وهي حضّ المنافقين بأسلوب الحديث عن الغائب على أن يتدبّروا القرآن، ليعلموا أنه كلام الله، وتنزيل من لدنه حقاً وصدقاً، مع التنبيه على أن القرآن لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، أي: اختلافاً بينه وبين الواقع والحق، واختلافاً بين بعض نصوصه وبعضها الآخر، فقال الله عز وجل:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾.

وفي هذا الحضّ عودٌ بهم إلى القاعدة الإيمانية التي لم تكتمل في قلوبهم، فهم لم يؤمنوا بعدُ بصدق الرسول محمد ﷺ، ولا بصدق بلاغاته عن ربه، ومنها القرآن.

فقدّم لهم دليلاً برهانياً على صدق القرآن، وصدق رسالة الرسول، ولكن إدراكهم لهذا الدليل البرهاني يتطلب أن يجتهدوا في تدبر القرآن، وتفهم دلالته، فإنهم إذا فعلوا ذلك أدركوا أنه مطابق للحق والواقع في كل قضاياها، وأدركوا أن نزوله منجماً مفرقاً لم يؤثر على وحدته وتكامل الحقائق فيه، وأدركوا أنه لو كان من أوضاع البشر، ومن تأليف الناس وصناعتهم، لوجدوا فيه تناقضات بينه وبين الحق والواقع، ولوجدوا فيه تناقضات بين بعض نصوصه المتقدمة نزولاً، وبعض نصوصه المتأخرة نزولاً، ولا سيما التي بينها أزمان تُقدّر بسنين.

إِنَّهُمْ لَوِ تَدَبَّرُوهُ بِإِنْصَافٍ وَتَجَرُّدٍ مِنْ سِوَايِقِ الرِّفْضِ، لَوَصَلُوا إِلَى الْاِقْتِنَاعِ بِأَنَّهُ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَحِينَ يَصِلُونَ إِلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ، يَتَقَلَّبُونَ تَلَقُّائِيًّا إِلَى الْاِقْتِنَاعِ بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا وَصِدْقًا.

ثم إذا كانت لديهم إرادة الاعتراف بالحق آمنوا، وصدقوا في إسلامهم، وتخلصوا من رجس النفاق، أو من رجس الرئب والشك.

وَيُعَلِّمُنَا اللَّهُ بِهَذَا الْأَسْلُوبِ الْإِقْنَاعِيَّ أَنَّ الْعِلَاجَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بِالرَّجُوعِ إِلَى مَوَاطِنِ الْعِلَلِ فِي الْجَذُورِ وَالْأَصُولِ وَالْقَوَاعِدِ الْأُولَى، وَلَا يَكُونَ الْعِلَاجُ مِنَ الْفُرُوعِ مَعَ فساد الجذور والأصول والقواعد، إِنَّ الْعِلَلَ يَجِبُ أَنْ تُعَالَجَ مِنْ مَوَاطِنِهَا.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾: حُضْ عَلَى التَّدَبُّرِ، وَالتَّدَبُّرُ تَفَكُّرٌ دَقِيقٌ عَمِيقٌ تُلَاحِظُ فِيهِ الْعَوَاقِبَ بِبَصِيرَةٍ، حَتَّى الْأَطْرَافَ الْبَعِيدَةَ الَّتِي يَدُلُّ عَلَيْهَا النَّصُّ.

والاختلاف: يشملُ التناقض والتضاد، فالمختلفان في اللغة هما اللذان قد لا يكون بينهما ائتلاف ولا اتفاق. وهذا المعنى اللغوي غيرُ المعنى الاصطلاحي عند علماء المنطق والأصوليين، الذين يجعلون التخالف هو التغاير بين معنيين، مع إمكان اجتماعهما وإمكان ارتفاعهما في شيء واحد.

وقد جاء خطابهم في الآية بأسلوب الخطاب بضمير الغائب ملائماً لوحيَّةِ اللَّهِ لرسوله بالإعراض عنهم، ففي المواجهة بخطاب الحاضر إقبال يشعر بالرضا، أما الخطاب بضمير الغائب فيُشْعِرُ بالإعراض وعدم الرضا.



الفقرة العاشرة: تنضمَّن بيان ظاهرة من ظواهر النفاق لدى المنافقين، وهي ظاهرة إفشاء أمور المسلمين، وإذاعتها ونشرها، من أمور السُّلْمِ والحرب، لأنهم لا يشعرون في أنفسهم بالولاء للمسلمين، فهم لا يهتمون لكتمان ما يضرُّ المسلمين إذاعته.

وهذا يشمل كلَّ القضايا، ولكنه في قضايا الحرب أشدَّ خطراً وأشدَّ ضرراً، فجاء بيان هذه الظاهرة ضمن الظواهر النفاقية التي تبرز عند الدعوة إلى القتال وبعده،

للإشعار بأن ظهورها عند هذه المناسبة شديد الخطورة، وقد يجلب شراً كبيراً لجماعة المسلمين، وللمصالح الإسلامية.

وقد توجد هذه الظاهرة عند أهل الشك والريب وضعفاء الإيمان، وعند أهل الخفة والطيش، ومن لا بصيرة لهم بعواقب الأمور.

وتتضمن هذه الفقرة أيضاً التوجيه لما يجب على جمهور المسلمين أن يفعلوه بالنسبة إلى قضايا المسلمين العامة، من أمور الأمن والخوف وأي: من أمور السلم والحرب.

قال الله عز وجل:

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ، وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

في هذه الفقرة من النص ثلاث قضايا:

(١) بيان الظاهرة النفاقية، وهي التسرع إلى إفشاء أمور المسلمين وإذاعتها ونشرها، تعلقاً بالرغبة في المشاركة في الأمور العامة، أو غفلة أو غباء وسوء تقدير لعواقب الأمور من قبل أهل الخفة والطيش من السواد العام.

(٢) التوجيه لما يجب على جماهير المسلمين بالنسبة إلى القضايا العامة التي تهم المسلمين، وتتعلق بمصالحهم العامة من أمور السلم والحرب.

(٣) بيان عناية الله بالمسلمين نجاه هذه الظاهرة الخطيرة، التي من شأنها إفساد أمور المسلمين، وإخباط أعمالهم الإسلامية، وهذه العناية الربانية تتناول أمرين:

الأمر الأول: فضل الله عليهم بالحماية والحفظ، إذ يكف بفضل السنة المؤمنين عن المشاركة في نشر ما يجب كتمانهم من معلومات، ويُلجئهم عن التسرع في التأثير بالإشاعات والإرجافات المذاعة بينهم.

الأمر الثاني: تدارك الله جماعة المسلمين برحمته، كلما بدرت من أفراد منهم بادرة خطيئة في هذا الأمر، إذ يعفو عنهم، ويتوب عليهم، ويجعل ما أخطؤوا فيه

مُتَدَارِكًا بما يقي من الآثار الضارة لجماعة المسلمين، وأعمالهم الإسلامية.

القضية الأولى:

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ...﴾.

الضمير في ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ﴾ يعود على من جرى الحديث عنهم في النص وهم المنافقون، وهم المعنيون بالدرجة الأولى، وقد يُلْحَقُ بهم في بعض الظاهرات التي هي من صفاتهم أساساً من هم لم يصلوا إلى دركة النفاق، كأهل الريب والشك، وضعفاء الإيمان، وقد يتأثر ببعض أخلاقهم بعض المؤمنين من أهل الخفة والطيش الذين ينخدعون بشياطين المنافقين الذين يتظاهرون بأنهم مؤمنون مسلمون.

وفعل «جاء» قد توسع العرب في معناه حتى صار يشمل كل مادي ومعنوي انتقل إلى مكان لم يكن فيه، فبالوسع يقال: جاء الخبر، وجاء الأمر، وجاء الخوف، ونحو ذلك.

﴿أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾:

أي: أمر ما على وجه العموم من أمور الأمن، التي يعبر عنها في متعارف عصرنا اليوم «أمور السلم» أو من أمور الخوف، التي يعبر عنها في متعارف عصرنا اليوم «أمور الحرب».

ودلّ إطلاق كلمة «أمر» بالتنكير الذي يفيد هنا التعميم، أوفيد أنه أمر ذو أهمية، على أنهم يُسَارِعُونَ إلى تلقّب الأمور المهمة من أخبار وأنباء وأحداث ووقائع، فيذيعونها وينشرونها، ويتحدثون بها، ويحاولون التدخل فيها، والمشاركة في حلّها، إظهاراً للاهتمام بها، والحرص على مصالح المسلمين العامة. فينخدع بهم بعض العامة من غيرهم فيشاركهم في الإذاعة والنشر، ومحاولات التدخل في الأمر لطرح الآراء والمقترحات، ومعالجة مشكلاته بصورة غوغائية، تسمح للمنافقين باستغلال المشاركات الغوغائية للإضرار بالمسلمين، وبالمصالح الإسلامية، وتمكين أعدائهم من تحقيق بعض أغراضهم، وأخطرها الأمور المتعلقة بقضايا الخوف والحرب مع الأعداء.

وجاء البدء بذكر «الامن» في النص لأن أزمان السلم أكثر وأطول من أزمان الحرب، على أن من أمور السلم ما يكون في إفشائه خطر جسيم، ونفع للعدو عظيم.

القضية الثانية:

قال الله عز وجل:

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنَيطُونَهُمْ

مِنْهُمْ... ﴿٤٧﴾﴾

دلّ التعبير بفعل «رَدُّوهُ» على أن المسؤول عن النظر في الأمور العامة، التي تتعلق بالمصالح العامة للإسلام وجماعة المسلمين، هو الرسول عند إمكان الردّ إليه، بوصفه إمام المسلمين وقائدهم وصاحب إدارتهم وسياستهم في حياته، فإن لم يمكن الردّ إليه لبُعْد المكان، أو لأن الرسول قد انتقل من الحياة الدنيا، فالردّ يكون لأولي الأمر من المسلمين، لأنهم هم المسؤولون عن النظر في الأمور العامة، الإدارية والسياسية والحربية وغير ذلك، وليس من حقّ جمهور المسلمين الثرثرة ببحث الأمور المهمة، ونشرها وإذاعتها، أما تقديم المشورة لأولي الأمر بطريقة لا إذاعة فيها ولا نشر، فهو من حقّ أهل الكفاية لتقديم المشورات النافعات، من قبل كل المسلمين.

ودلّ قوله تعالى بشأن أولي الأمر من المسلمين:

﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنَيطُونَهُمْ مِنْهُمْ... ﴿٤٧﴾﴾

جواباً للشرط في: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾ على أن الأمر الذي يقوم المنافقون ومن معهم بإذاعته، هو من الأمور المهمة المشكّلة التي تتطلّب استنباط الحلول لمعالجتها، دفعاً للمخاطر، وجلباً للمنافع، وتحقيقاً للعمل الأفضل الذي يتجج خيراً للإسلام والمسلمين، ويكون أقرب لمرضاة الله، وأوفق لمصالح المسلمين.

ونلاحظ أن جواب «لَوْ» في حالة الردّ إلى الرسول مطوًى في النصّ للعلم به، ويمكن تقديره كما يلي: لكفى المسلمين ما أهمهم منه، بالوحي، أو بحسن إدارته وسياسته ومشورته لأهل الرأي من أصحابه.

أما في حالة الردّ إلى أولي الأمر منهم، فقد جاء حوله البيان الذي يتضمن توجيهاً لأولي الأمر الأعلين، بأن يستشيروا أهل الرأي والاختصاص الذين يستنبطون الحلول المناسبة لمعالجة الأمر الطارئ، والذين يدخلون في عموم أولي الأمر من المسلمين.

ونستطيع أن نستخلص من هذه القضية ما يلي :

- (١) على المسلمين أن يردّوا الأمور المهمة العامة إلى الرسول في حياته، فهو صاحب الحق فيها، والمسؤول عن معالجتها، وسيجدون لديه الحلول المناسبة لها.
- (٢) على المسلمين أن يردّوا الأمور المهمة العامة بعد الرسول إلى أولي الأمر منهم، فهم أصحاب الحق الإداري فيها، والمسؤولون عن معالجتها. ونفهم من هذا أن أولي الأمر هم قادة، ومجالس شورى، فالقادة هم السلطة العليا الأمرة، وأعضاء مجالس الشورى هم السلطة المشيرة ذات المشورة الإلزامية^(١).

القضية الثالثة :

قال الله عزّ وجلّ :

﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

في هذه القضية يخاطب الله عامّة المؤمنين محذراً إياهم من أن يتأثروا بوساوس ودسائس المنافقين، الذين يتحركون في ظاهرات نفاقهم متبعين الشيطان، الذي يستخدمهم لإفساد أمور المؤمنين المسلمين، والإضرار بهم، ویرسالة الإسلام. ولما كان هؤلاء المنافقون مداخلين مخالطين، ومجهولي الهوية بالنسبة إلى عامّة المسلمين، كان لحركاتهم الشيطانية تأثير بين المسلمين صادقي الإسلام.

لكن الله عزّ وجلّ لما أمر بالإعراض عنهم، ولم يأذن بحريهم ومعاقبتهم وطردهم من صفوف المسلمين، حتّى يُدان من يُدان منهم، بما يُوجب محاسبته ومعاقبته بجُرم مشهود، كان من حكمته عزّ وجلّ أن يتدارك عامّة المؤمنين بأمرين :

الأمر الأول: أن يتفضل عليهم فيحفظهم من التأثير بطائفة من دسائس المنافقين، التي هي في الحقيقة أتباع لأوامر الشيطان، إذ يكشف لهم بما يشاء من منبب خطر

(١) بنظر تفصيل هذا الموضوع في الفصل الثاني من كتاب دكواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، للمؤلف ولا سيما ما في الصفحة (٦٩٦).

ما يكون من هؤلاء وضرره، ولو كان مع ظنهم أنهم مسلمون اجتهدوا فإخطؤوا، فهم ربّما لا يعتبرونهم منافقين، ولكن لا يتبعونهم، إذ يعدّونهم مخطئين، وهذا من فضل الله على المؤمنين، ومن معونته لهم.

الأمر الثاني: أن يرحمهم بالعفو والمغفرة، فإذا تأثر بعضهم ببعض دسائس المنافقين عن ضعف أو غفلة، تدارك الله برحمته فعفا وغفر، وحمى المسلمين والإسلام، من أن يكون لتأثرهم كبير خطر أو ضرر.

ولولا هذان الأمران: فضل الله على المؤمنين، ورحمته بهم، لكان للمنافقين تأثير كبير على جمهور المؤمنين إلا قليلاً منهم، فاتبعوا بهذا التأثير الشيطان، فنزل بالمؤمنين بلاء عظيم، وخطر جسيم، وتمكن أعداؤهم منهم.

ويدلّ هذا على أنهم إذا مكثوا المنافقين من أن يثبوا دسائسهم ووساوسهم في صفوفهم، فتأثروا بهم تأثراً عاماً، إذ لم يكن فيهم نسبة كافية ممن هم أهل لأن يحفظهم الله بما يعطيهم من رُشدٍ وبصيرة، بسبب ارتفاع درجتهم في الإيمان والإسلام، فإنّ البلاء العظيم والشرّ الجسيم واقع بهم لا محالة، بسبب المنافقين، الذين يجعلونهم بوساوسهم ودسائسهم يتبعون الشيطان.

هذه المفهومات قد دلّ عليها نصّ هذه القضية دلالة دقيقة عجيبة، من العسير إدراكها، لولا مراعاة قاعدة وحدة النصّ، وضرورة البحث عن روابطه، مع الاستعانة بالله وفتح منه سبحانه.

لكن بعد اكتشافها وعرضها تُصبح واضحة الروابط، سهلةً قريحةً المذكر.



الفقرة الحادية عشرة: تتضمن تكليف الرسول ﷺ (ويُقاسُ عليه خلفاء المؤمنين وأمرائهم وقادتهم من بعده) أن يقاتل في سبيل الله (أي: حين توجد دواعيه وتتوافر شروطه)، وتتضمّن بيان أنّ مسؤوليته عن القتال مسؤولية شخصية في العمل، ومسؤولية تحريض بالقول مع ما يجتمع معه من وسائل تحريض أخرى كالترقية وتقديم المغريات والمثيرات المشروعة. وترجيّة من الله بأنّ يكفّ بأس الذين كفروا، مع بيان أنّ الله أشدُّ بأساً من كل ذي بأس، وأشدّ تنكيلاً من كلّ ذي تنكيل.

قال الله عز وجل:

﴿فَقَتِّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ (٨٤).

في هذا النص بيان وظيفة إمام المسلمين وقائدهم الأعلى، بالنسبة إلى مهمة القتال، بدءاً بالرسول ﷺ فمن بعده من أئمة المسلمين وقادتهم.

لقد ظهر لنا أن موضوع النص بفقراته كلها يدور حول قتال من تدعو الضرورة أو الحاجة إلى قتالهم من أعداء المسلمين من أهل الكفر، ودعوة الذين آمنوا إلى أن يأخذوا جذرهم وينفروا إلى قتال عدوهم، وكشف الظواهر النفاقية من تخاذل وتبيط، وتضاد بين ما يعلنون من طاعة وما يبينون من أضدادها، وتشكيك في الرسول، ومحاولات بثّ القلاقل والفتن بإذاعة الأمور المهمة العامة المتعلقة بشؤون السلم والحرب.

بعد كل ذلك كان لا بدّ من تحديد وظيفة إمام المسلمين وقائدهم الأعلى، وما هي مسؤوليته، وكان لا بدّ من إطماعه وإطماع الذين آمنوا معه برجاء أن يمدّهم الله بمقدّر من عنده، وأن يكون معهم، فيكفّ عنهم بأس الذين كفروا.

فاشتملت هذه الآية الختامية من هذا النصّ على خمس قضايا:

القضية الأولى:

أمر الله الرسول (وكذلك كل إمام من أئمة المسلمين من بعده) بأن يقاتل في سبيل الله، باعتبار الرسول أوّل المسلمين المكلفين المطالبين بما يطالب به عامة المسلمين، وكذلك ينبغي أن يكون الأئمة من بعده، فقال الله عز وجل:

﴿فَقَتِّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾:

أي: حينما تتوافر الدواعي للقتال، وتتهيأ أسبابه وشروطه، فالأمر بالقتال يتناول أوّل ما يتناول إمامهم وقائدهم الأعلى، وهو الرسول في حياته، فإمامهم الأوّل من بعده.

ولم يُطلق الله عز وجل الأمر بالقتال، بل جعله مُقيّداً بأن يكون في سبيله،

وسبيل الله في القتال مُبَيَّن في عدة نصوص من القرآن الكريم .

القضية الثانية :

بيان أن إمام المسلمين وقائدهم لا يحمل من مهمّة القتال الفعلي أكثر من إلزام نفسه، لأنّ الإنسان مهما بلغت مكانته الإدارية والسياسية في الناس، فإنّه لا يملك إلّا نفسه، إذن فهو لا يكون مسؤولاً عن وزر غيره، مهما كان من أقرب الناس إليه، إلّا أن يكون متأثراً به، فيحمل وزر تأثيره فيه، وهذا من عمله، دون أن يُخَفَّفَ حَمْلُهُ هذا من مسؤولية من تأثّر به عما فعل بإرادته .

فقال الله عزّ وجلّ لرسوله :

﴿لَا تُكَلِّفُ الْإِنْسَانَ إِلَّا نَفْسَهُ﴾ :

أي : لا تُكَلِّفُ نَفْسَ غَيْرِكَ، والمعنى : لا تُكَلِّفُ إِلَّا الْإِزَامَ نَفْسِكَ فقط دون غيرك، فأقيم المضاف إليه مقام المضاف الذي حُذِفَ إيجازاً، والمعنى يقتضيه بدهاء .

القضية الثالثة :

تكليف الرّسول (وكذلك كلّ إمام من أئمة المسلمين من بعده) أن يحرض المؤمنين على القتال (أي : الذي وُجِدَتْ دواعيه وتوافرت شروطه وأسبابه). والمراد من القتال هو القتال في سبيل الله، لأنه هو الذي أمر الله به رسوله في صدر الآية .

والتحريض كما سبق بيانه هو الحث وإثارة الحماسة بتحريك الدوافع وإلهاب الحميّة .

ولمّا كانت مُقَاتَلَةُ الْمُؤْمِنِينَ لِلْكَافِرِينَ من مرتبة البرّ، بحسب مقتضيات المرحلة التي نزل فيها النصّ، وليس من مرتبة التقوى، قال الله لرسوله :

﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

ولم يُقَلْ له : وكلف المؤمنين، أو : وأمر المؤمنين. فما هو من مرتبة التقوى التي يُعْصِي مخالفاً تكاليفها، يكون التكليف فيه بالأمر والإلزام، وما هو من مرتبة البرّ والإحسان يكون توجيهه له بالحثّ والتحريض، وشدّة الترغيب .

وباستطاعتنا أن نفهم من هذا النصّ أنّ الرسول قد كان في هذه المرحلة مكلفاً

بالزام، وهذا بمثل أمره إلزاماً بقيام الليل، أما المؤمنون فدعوتهم إلى القتال هي من درجة التحريض والحث والترغيب دون تكليف إلزامي، فقتالهم إذا قاتلوا هو من مرتبة البر أو مرتبة الإحسان، وهما فوق مرتبة التقوى.

وهل نفيس أئمة المسلمين من بعد الرسول على الرسول في هذا، أو هم مثل سائر المسلمين؟

الجواب يحتاج بحثاً متأنياً طويلاً، والمسألة من المسائل الاجتهادية.

القضية الرابعة:

ترجىة الله عز وجل الرسول والذين آمنوا أن يكف بفضله عنهم بأس الذين كفروا، أي: إذا قاتلوا في سبيل الله، ضمن حدود أحكام دين الله ووصاياه، فقال الله عز وجل عقب القضايا الثلاث السابقة:

﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَكْفَّ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾:

«عسى» فعل جامد معناه الترجي. وقد جعل الله كف بأس الذين كفروا على سبيل الترجية، لا على سبيل الوعد المجزوم به، لأن الوعد المجزوم به يتطلب شروطاً، على المقاتلين من المؤمنين أن يحققوها بإراداتهم في أنفسهم وأعمالهم، وهذا أمر متروك لحرية المكلفين، ولما لم يشتمل النص هنا على ذكر هذه الشروط، كان المناسب الاكتفاء بالترجية هنا.

أما في سورة (محمد) ٤٧ مصحف / ٩٥ نزول) التي نزلت بعد (النساء) بسورتين، فقد جاء فيها الوعد مجزوماً لأنه جاء جزءاً لشرط يحققه المؤمنون في أنفسهم، فقال الله عز وجل فيها:

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ نَنْصُرُوا اللَّهَ نَنْصُرَكُمْ وَيُنْزِلُ أَفْئِدًا مَكْرُوءًا﴾.

وهم لا ينصرون الله إلا إذا التزموا بما أمر الله به ونهى عنه في كل ما يتعلق بقتال الكافرين، باعثاً، وشروطاً وأسباباً وغاية.

وكف بأس الذين كفروا يكون بإحباط أسبابهم القتالية، وتوهين قواهم في

حربهم للذين آمنوا، وإفساد خططهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، وضرب قلوب بعضهم ببعض، وغير ذلك.

القضية الخامسة:

ختم النص بالتنبيه على جزئية من جزئيات القاعدة الإيمانية، ذات صلة بالترجيبة التي أطمعهم الله بها، فقال الله عز وجل:

﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَاسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾:

أي: أشد بأساً منهم ومن كل ذي بأس، وأشد عقاباً رادعاً من كل ذي عقاب رادع.

والتنبيه على هذه الجزئية تنزلُ يراد منه التلويحُ بتهديد الكافرين، مع طمأننة المؤمنين، حول موضوع القتال بينهما، وذلك لأن من بيده ملكُ السماوات والأرض وهو على كل شيء قدير، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون، هو أسمى من عبارة: «أشد بأساً وأشد تنكيلاً» بحسب صفة قدرته القادرة على كل شيء. لكنه تعالى لا يطمع المؤمنين في تأييده ونصره بكامل قدرته، إنما يطمعهم منها بمعونته هي أشد بأساً من بأس عدوهم، وأشد عقاباً وتنكيلاً، وهذا المقدار يكفي لتهديد الذين كفروا، وبهذا يتحقق المقصود هنا والله أعلم.



النص السادس عشر

وهو من سورة (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول)

سادس سورة مدنية

(الآيات من ٨٨ - ٩١)

حول السياسة التي ينبغي معاملة المنافقين بها
بحسب اختلاف أحوالهم

قال الله عز وجل فيها:

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكَّهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَلْيَدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَذُؤَالُو تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتٌ صُدُّوهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يَقْتُلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَرَلُوكُمْ فَلَمْ يَقْتُلُوكُمْ وَالْقَوَالُ إِلَيْكُمْ أَلْسَلَّمَ مَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَارَدُوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَغْتَرِ لُوكُمْ وَلِقُوا إِلَيْكُمْ أَلْسَلَّمَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ يَقْتُلُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿٩١﴾﴾ :

(١)

ما في النص من القراءات المتواترات (من الفرش)

في الآية (٩٠):

(١) ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ خَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾: قراءة جمهور القراء [خَصِرَتْ]: أي: حالة كونهم قد خَصِرَتْ صُدُورُهُمْ على أَحْسَنِ وُجُوهِ الإعراب.

(٢) [أَوْ جَاءُوكُمْ خَصِرَةً صُدُورُهُمْ]: قراءة يعقوب فقط، أي: ضَيْقَةُ صُدُورُهُمْ، على الحال أيضاً، والقراءتان متكافئتان في الإعراب والمعنى، أما عدم وجود حرف «قد» قبل جملة الحال المصدرة بالفعل الماضي، فهو من الأدلة التي تشهد لرأي الكوفيين والأخفش من البصريين القائلين بأنه لا يشترط، لكثرة وروده في لسان العرب. واشتراطه دَفَعَ ببعض أهل التأويل إلى أن ينكفؤا تأويلات في الآية تَخْرُجُ بالنص عن دلالة التي تُذَرَكُ بالبداهة لدى تلاوته مترابطاً.

ومعنى: [خَصِرَتْ صُدُورُهُمْ]: ضَاقَتْ صُدُورُهُمْ. الْخَصَرُ: ضَرَبٌ مِنَ الْعِي فِي اللِّسَانِ، وَضَيْقُ الصُّدْرِ، يُقَالُ لَفَةً: خَصِرَ يَخْصِرُ فَهُوَ خَصِيرٌ.

* * *

(٢)

موضوع النص وما وَرَدَ فِي سَبَبِ نَزُولِهِ

تدور آيات هذا النص حول بيان السياسة التي ينبغي للمؤمنين معاملة المنافقين بها، بحسب اختلاف أحوالهم داخل المجتمع الإسلامي أو خارجه.

فالذين هم ضمن المجتمع الإسلامي مخالطون مداخلون يعاملون بمقتضى السياسة التي عاملهم بها الرسول ﷺ، وجاء بيان أطراف منها في نصوص متعددة.

والذين هم خارج ديار الإسلام، يعاملون بسياسة مختلفة، بحسب اختلاف أحوالهم، وقد جاء في هذا النص تفصيل هذه الأحوال، وبيان السياسة التي ينبغي اتباعها في كُلِّ حالة.

وما ورد من سَبَبِ النُّزُولِ يُسَاعِدُ عَلَى فَهْمِ دَلَالَاتِ آيَاتِ هَذَا النِّصِّ.

* * *

ما ورد من سبب النزول

(١) روى البخاري ومسلم والإمام أحمد عن زيد بن ثابت (واللفظ ما عند الإمام أحمد) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، خَرَجَ إِلَى أُحُدٍ فَرَجَعَ نَاسٌ خَرَجُوا مَعَهُ، فَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ فِيهِمْ فِرَقَتَيْنِ:

— فِرْقَةٌ تَقُولُ: نَقْتُلُهُمْ.

— وَفِرْقَةٌ تَقُولُ: لَا، هُمُ الْمُؤْمِنُونَ.

فَانزَلَ اللَّهُ: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ...﴾ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«إِنَّهَا طَبِيبَةٌ، وَإِنَّهَا تَنْفِي الْخُبْتَ كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ خُبْتَ الْحَدِيدِ». أَيْ: إِنَّ الْمَدِينَةَ طَبِيبَةٌ، لَا تَقْبَلُ الْأَخْبَاتَ دَوَامًا فِي أَرْضِهَا، وَإِنَّهَا بِمَا تَتَعَرَّضُ لَهُ مِنْ تَطْهِيرِ تَنْفِي الْأَخْبَاتِ مِنْهَا، كَمَا يَنْفِي كَبِيرُ الْحَدَادِ خُبْتَ الْحَدِيدِ بِحَرَارَتِهِ وَجُمْرِهِ وَمَطَارِقِ الْحَدَادِ عَلَى الْحَدِيدِ الَّذِي يُخْمَى فِيهِ، فَلَا ضَيْرَ مِنْ إغْضَاءِ النَّظَرِ عَنِ الْمُنَافِقِينَ الْمَخَالِطِينَ الْمُدَاخِلِينَ فِيهَا مُؤَقَّتًا، حَتَّى نَأْتِيَ أَحْدَاثَ جُمُرِيَّةٍ تَنْفِيهِمْ، وَتُبْعِدَهُمْ عَنِ مَجْتَمَعِ الْمُسْلِمِينَ فِيهَا.

وقد ذكر ابن إسحاق في موقعة أحد، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي بَكْرٍ سَلُولَ، رَجَعَ يَوْمَئِذٍ بَثْلَ الْجَبَرِ، مَنخُذِلًا عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَنِ الْمُؤْمِنِينَ، رَجَعَ بِثَلَاثِمِائَةٍ، وَبَقِيَ النَّبِيُّ ﷺ فِي سُبُعِمَائَةٍ.

(٢) وروى ابن أبي حاتم عن العوفي عن ابن عباس، أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ تَكَلَّمُوا بِالْإِسْلَامِ (أَيْ: أَعْلَنُوا أَنَّهُمْ أَسْلَمُوا، وَلَكِنَّهُمْ بَقُوا فِي مَكَّةَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ بِغَيْرِ إِذْنِ خَاصٍّ مِنَ الرَّسُولِ، وَمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ قَدْ كَانَتْ دَارَ حَرْبٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ).

قال ابن عباس: وكانوا يظاهرون المشركين، فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم، فقالوا: إِنَّ لَقِينَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ فَلَيْسَ عَلَيْنَا مِنْهُمْ بَأْسٌ (أَيْ: بسبب إعلانهم الإسلام، فالمسلمون يعتبرونهم منهم فلا يتعرضون لهم بأذى).

وإن المؤمنين لما أخبروا أنهم خرجوا من مكة، قالت فئة من المؤمنين: اركبوا إلى الجبناء فاقتلوهم، فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم. وقالت فئة أخرى من المؤمنين: سُبْحَانَ اللَّهِ (أو كما قالوا): انْقَتَلُونْ قَوْمًا قَدْ تَكَلَّمُوا بِمِثْلِ مَا تَكَلَّمْتُمْ بِهِ؟! من أجل

أنهم لم يهاجروا ولم يتركوا ديارهم نَسْتَجِلُّ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ!؟

فكانوا كذلك ففتين، والرَّسُولُ عندهم لَا يَنْهَى واحداً من الفريقين عن شيء، فنزلت: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ...﴾.

وروي قريبٌ من هذا عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، وعكرمة، ومجاهد والضحاك، وغيرهم.

وتردَّدَت أقوال أهل التأويل في اعتماد الرواية الأولى الأصحَّ التي جاءت في الصحيحين، ورواها الإمام أحمد. واعتماد الرواية الأخرى، إذ في النصِّ ما يلائمها صراحةً، وهو قوله تعالى فيه:

﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

أقول:

بإستطاعتنا أن نفهم النصَّ بطريقة ثلاثم الروايين معاً دون إشكال، وسيأتي تفصيلها إن شاء الله، لدى تدبر فقرات النصِّ.

(٣)

المفردات اللغوية في النصِّ

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ؟﴾:

أي: أي شيء حصل لكم أيُّها المؤمنون، في شأن المنافقين حالة كونكم افرقتم فيهم فرقتين؟

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ﴾:

﴿ما لكم﴾ مبتدأ وخبر، بمعنى: أي شيء حصل لكم، ﴿في المنافقين﴾ أي: في شأن المنافقين، وهو متعلّق بما تعلّق به الخبر.

﴿فِتْنَتَيْنِ﴾:

أي: حالة كونكم فتين. الفشة: الفرقة والطائفة، أصل الكلمة كما قال

أَبْنُ بَرَيٍّ: «بَثْو» والتاء عوض عن الواو، وهي من «فَأَوْتُ» أي: فرقت، لأن الفقة كالفرقة.

ولفظ «فَتَيْن» حال من ضمير المخاطبين في الخبر.

والاستفهام في الجملة يتضمّن معنى الإنكار على المؤمنين، في افتراقهم بشأن المنافقين فرقتين، إذ كان المفروض أن لا يفرقوا، لوضوح أمر المنافقين الذين أظهروا بما كسبوا ما يدل على ردّتهم عن ظاهر إسلامهم، وارتكاسهم في الكفر الذي دلّ عليه سلوكهم، فأجرى الله سنّة فيهم فأركسهم بما كسبوا، ومكنّكم من أن تحكموا عليهم بهذا الارتكاس.

﴿أَرْكَسَهُمْ﴾:

أي: ردّهم على أعقابهم ونكسهم، فقلّبهم على رؤوسهم.

الرُّكْسُ: ردّ أوّل الشيء على آخره، وقلّبه على رأسه. يُقال لغة: رَكَسَهُ يَرْكُسُهُ رَكْسًا، فهو مَرْكُوسٌ وَرَكِيسٌ، ويقال: أَرْكَسَهُ يَرْكُسُهُ إِرْكَاسًا، وَرَكَسَهُ يَرْكُسُهُ، بمعنى رَدّه على غيبه، وَنَكَسَهُ.

والمراد أنهم كَسَبُوا إثماً عظيماً دلّ على حقيقة كفرهم بعد ظاهر الإسلام الذي أعلنوه بالستهم، فَرَدّهم الله بسبب ذلك على أعقابهم منقلبين، مُنْكَبِين تنكيساً معنوياً، فهم بسبب ذلك تجري عليهم أحكام الكافرين، بما شرع الله للمؤمنين من أحكام إدانة بالكفر، استناداً إلى ما كان منهم من كَسَبٍ إجرامي.

﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾:

أي: فلا تتخذوا منهم جماعةً تُصَافُونَهُمْ، وتبادلون معهم الود والتعاون والأعمال الأخوية التي يتولّى بها بعض الجماعة عن بعض أمورهم أمانةً مطمئناً، غير حذِرٍ من الغدر والخيانة.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾:

أي: فإن أذنبوا وابتعدوا ولم يعملوا بمقتضى الإسلام الذي أعلنوه، ومنه المهاجرة من دار الكفر، وترك مظاهرة الكافرين المحاربين.

﴿يَبْلُغْكُمْ وَيَنْهَلْهُمْ مَيْثُقُ﴾:

الميثاق والموثق: العهد، وجمعه موثيق.

﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾:

أي: ضاقت صدورهم. الحَصْرُ في اللغة: ضيق الصدر، وضرب من الهم في اللسان، يُقال لغة: حَصِرَ يَحْصِرُ فهو حَصِرٌ.

﴿كُلَّ مَارِدٍ إِلَى الْفِتْنَةِ﴾:

أي: كلما رُدُّوا إلى اختبار صدق إسلامهم الذي أعلنوه، بما يخالف رغباتهم وما يهْوُونَ.

﴿أَزْكُوا فِيهَا﴾:

أي: نكبُوا في الفتنة، إذ يظهر من سلوكهم حقيقة كفرهم.

﴿وَيُلْقُوا إِلَيْكَ السَّلَمَ﴾:

السَّلَمُ: الاستسلام والانقياد، وهو مصدر يقع على الواحد والاثنين والجميع إذا وُصف به الأشخاص.

﴿حَيْثُ يَقْفَتُمُوهُمْ﴾:

أي: حيث ظفرتُم بهم، وقدرتُم على الإحاطة بهم.

(٤)

مع النص في التحليل والتدبر

* قول الله عز وجل:

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكَّهُمْ بِمَا كَسَبُوا؟﴾!.

يخاطب الله عز وجل بهذا المؤمنين من أصحاب الرسول الذين اختلفوا في شأن المنافقين، الذين كان منهم كسب من عمل ظاهر يدل على أنهم منافقون غير صادقين في إعلانهم الإسلام.

فمنافقوا المدينة انخذلوا عن الرسول ﷺ في معركة أحد، بقيادة كبيرهم عبد الله بن أبي بن سلول.

ومنافقو مكة الذين أعلنوا إسلامهم، ولم يُهاجروا في سبيل الله، إشاراً لمصالحهم، فقد ظهر من أعمالهم الدآلة على نفاقهم، أنهم كانوا يظاهرون المشركين.

فاشترك هذان الفريقان في ظاهرة متماثلة، وهي ارتكابهم من الأعمال ما يدل على حقيقة نفاقهم، إذ كان عملهم من قبيل الخيانة العظمى للمسلمين، التي لا تظهر غالباً إلا من الكافرين، وهي خذل المسلمين، ومظاهرة أعدائهم الكافرين المحاربين، العاملين على إلغاء الإسلام، وإفناء المسلمين.

ولما كانت هذه الظاهرة السلوكية ذات دلالة واضحة على أن مرتكبيها منافقون، غير صادقين في إعلانهم الإسلام، كان مقتضى الاستدلال بالظواهر يستدعي أن لا يفترق المؤمنون في الحكم على أصحاب هذه الظاهرة، بل كان عليهم أن يكونوا مجمعين على الحكم عليهم بالنفاق، إذ أمر الخيانة العظمى التي تعرض الإسلام والمسلمين لإلغاء الوجود، أو استعلاء الكفر والكافرين في الأرض، ليس من الكبائر التي قد يسقط بها المؤمنون في كتل مجتمعة، فاجتماع فريق على ارتكابها يدل على كفرهم في الباطن.

لذلك وجه الله عز وجل التلويح للمؤمنين بأسلوب الاستفهام الذي يحمل معنى الإنكار عليهم، وهذا الإنكار هو في الحقيقة موجّه للفتنة التي حاولت أن تبرئ المنافقين من الإدانة بالنفاق، أي: بأنهم في باطن أمرهم كافرون غير مؤمنين.

وأبان الله عز وجل سبب توجيه هذا الإنكار للفتنة التي حاولت تبرئتهم وإيجاد معاذير لهم، وهو أنهم ارتكسوا بما كُتبوا من خيانة عظمى، إذ إن هذه الكبيرة ذات دلالة واضحة على ارتدادهم عن ظاهر الإسلام إلى ظاهر الكفر، والله في أحكام شريعته قد مكّن المؤمنين من أن يستندوا إلى الظواهر للحكم على الباطن.

فمن سجد للصنم وعبّده حكمنا عليه بالشرك، ومن أهان كتاب الله ودأسه أو دسه في القاذرات عامداً متعمداً باختياره الحر، حكمنا عليه بالكفر والردة، وإذا اجتمع فريق

من المسلمين على مظاهر الكافرين ضد الإسلام والمسلمين حكمنا عليهم بالردة عن الإسلام، وعاملناهم معاملة المرتدين الكافرين.

وعبارة:

﴿وَاللَّهُ أَرْكَسُهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾.

التي هي جملة حالية وتبشير إلى حالة المنافقين، تدل على قضيتين:

القضية الأولى: أَنَّ المنافقين كسبوا إثماً عظيماً من مستوى الكبائر العظمى الذالة على ردتهم عن ظاهر الإسلام الذي يُعلنونه، فردَّهم الله به إلى الكفر، وجعلهم منكسين تنكيساً معنوياً، إذ كشف بما جنوا وأجرموا انكاسهم، في مجرى مقاديره.

كذلك كل من أسرَّ شراً فلا بُدَّ أن يعمل عملاً أو يتصرف تصرفاً يُظهر الله به ما أخفى من شر.

القضية الثانية: أَنَّ الله وضع للمؤمنين فيما أنزل على رسوله قواعد يستطيعون بمقتضاها أن يحكموا على من عمل أعمال الردة بالارتداد عن الإسلام، وأن يحكموا على من عمل أعمال الكفر بالكفر، وأن يحكموا على من عمل أعمال الفسق بالفسق، وهكذا، وهذه الأحكام أحكام أذن الله بها للمؤمنين، فهي منه سبحانه.

إذن: فمن أركسه الله في أحكام شريعته بما كسب، فعلياً أن نركسه، فنحكم عليه بالارتكاس، أي: بالردة والانقلاب منكساً.

• قول الله عز وجل:

﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَمْ يَجِدْ لَهُ سَبِيلًا﴾.

استفهام يحمل معنى الإنكار أيضاً موجّه للفتنة التي حاولت من المؤمنين تبرئة المنافقين المعنئين في النص كما ورد في سبب النزول.

والمعنى: أتريدون بفتواكم التي قدتموها أن تحكموا بالهداية لمن حكم الله عليهم بالضلالة، وأنزل إليكم القواعد التي تبين لكم إدانته بالكفر، وتدلكم على أن ظاهر إسلامهم إنما هو نفاق؟!

فالحُكْمُ لهم بالهداية حُكْمٌ على خلاف الأسس التي شرعها الله فيما أنزل على رسوله، وعلى خلاف قواعد الأحكام بين العباد.

وجاء استعمال التعبير بالإرادة دون الرغبة أو الود، لأن ما كان من هذه الفئة قد اقترن بسلوك ظاهر، ولم يقتصر على حركة داخلية نفسية.

ودلّ الفعل المضارع [أَتْرِيدُونَ] على تكرّر هذه المحاولة منهم، والمجادلة من أجل تبرئة المنافقين من الإدانة بالردة والكفر.

وأبان الله عزّ وجلّ لهذه الفئة أنّ حكمهم بالهداية للمنافقين المعنّين لا ينفع هؤلاء المنافقين شيئاً عند الله، ولا يكون سبيلاً لنجاتهم عنده تبارك وتعالى، فمنّ حكم الله عليه بالضلالة فأصله، فلن تجذّ له - يا مَنْ تُناصِرُهُ وتُخْرِصُ على نجاته وهدايته - سبيلاً لهدايته ونجاته عند ربّه، فما الحكمُ النافع عند الله إلاّ الله وحده لا شريك له، أمّا فتاوى المخلوقين في براءة الضالّين والحكم لهم بالهداية فهي لا تغني شيئاً عند ربّ العالمين، فقال تعالى:

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (٨٨)

أي: ومن يحكم الله عليه بالضلالة بسبب ما هو عليه من ضلالة فلن تجذّ له - يا من تريد الحكم له بالهداية - سبيلاً كي تجعله عند ربّه مهديّاً من أهل الإيمان والنجاة.

• قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَدُّوا أَنْ يُكْفَرُوا كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُوا سَوَاءً﴾.

أبان الله عزّ وجلّ بهذا صفة من صفات المنافقين النفسية، تُجاه المؤمنين، وهي حركة نفس لا يُعلنونها، لكنّها تُعمل في داخلهم عملاً.

والمعنى: ودّ المنافقون مُتَمَنّين أن يُكْفَرُوا أنتم أيّها المؤمنون الذين تدافعون عنهم كفرّاً باطنياً، كما كفروا هم في قلوبهم مع تظاهرهم بالإسلام نفاقاً، فتكونوا مباشرةً مثلهم في حاليّ الباطن والظاهر، وعندئذٍ يتهيأ لهم أن يتخلّصوا من التناقض بين الظاهر والباطن، فيما بينكم وبينهم.

ويعجبني هنا من كلام النحاة اعتبار أولوه مصدريةً، ولكن مع بقاء معنى التمني الذي تدلُّ عليه كلمة أولوه أحياناً.

وجاء استعمال التعبير بالود هنا لأن ما هو عند المنافقين نجاه المؤمنين قد اقتصر على حركة نفسية قلبية داخلية، ولم يكن له أثر في سلوك عملي ظاهر، على خلاف ما كان من الذين دافعوا عنهم من المؤمنين.

* * *

* قول الله عز وجل:

﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾:

أي: فلا تتخذوا أيها المؤمنون من المنافقين عصبية ذات ود لكم تصافقونهم وتتبادلون معهم التعاون والأعمال الأخوية التي يتولى فيها بعضكم عن بعض أموره أمناً مطمئناً، غير حذر من الغدر والخيانة، فالمنافقون خونة غير مأمونين على مصالح المؤمنين، وهم ليسوا مؤهلين لهذا الإخاء الذي يكون معه تبادل الولاء.

وفي هذا النهي إشارة إلى احتمال أن يكون دفاع من دافع عنهم من المؤمنين متأثراً برغبة أن تكون لهم عندهم يد، حتى يكونوا أولياء لهم، يحققون لهم مصالح، ويتبادلون معهم المنافع، ويتعاونون ويتناصرون فيما بينهم.

هنا نتوقف قليلاً عند نهاية قول الله عز وجل:

﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾:

ولدى مراجعة النص من أوله، وإمعان التدبر، يبدو لنا أن الله عز وجل تحدث أولاً عن قسمين من المنافقين، هما:

— الذين انخذلوا عن الرسول ﷺ في أحد من أهل المدينة.

— والذين أعلنوا الإسلام من أهل مكة، ولم يهاجروا، لكنهم صاروا بوالون المشركين ويظاهرونهم، ولم يكن بقاؤهم في مكة بتوجيه من الرسول، ليكونوا عيوناً للمسلمين على عدوهم.

هذان القسمان يجمع بينهما أن المؤمنين افترقوا في أمرهم إلى فئتين:

(١) ففتنة قالت: هؤلاء منافقون، ظهر من أعمالهم ما يدينهم بالكفر.

(٢) وفتنة قالت: هم مؤمنون، قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به، فجمع الله عز وجل البيان بشأنهما فقال تعالى:

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكَّهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَنْ يَدَّوْنَهُمْ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ۝٨٨﴾ وَذُو أَلْوَتَكَفَرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ ۝٨٩

وهنا سكنت النص عن القسم الأول، وهم منافقو أهل المدينة، اعتماداً على ما يفهمه المسلمون من سياسة الرسول ﷺ بشأنهم، وهو قبول ظاهرهم، وعدم معاقبتهم بالقتل الذي يستحقونه على أعمالهم التي تبين عن كفرهم، لئلا يقال: إن محمداً يقتل أصحابه، وهي سياسة تتعلق بالمنافقين المخالطين المداخلين الذين يعطون بحسب الظاهر ولا هم الكامل للمسلمين المؤمنين وقيادتهم، ولا سيما في أوائل بناء الدولة الإسلامية.

وإذا سكنت النص عن بيان السياسة التي ينبغي معاملتها هذا القسم من المنافقين بمقتضاها، أبان الله عز وجل الحكم بالنسبة إلى المنافقين الآخرين الذين هم في دار الكفر، ويظهرون الكفار المحاربين للمسلمين، فقال تعالى بشأنهم في استكمال الحديث عن المنافقين:

﴿حَتَّى يَهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾:

أي: فلا تتخذوا من المنافقين أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله، إذا لم يكونوا من أهل دار الإسلام وسكانها، والمعنى: حتى ينتقلوا من دار الكفر التي يحارب أهلها المسلمين إلى دار الإسلام، وتكون هجرتهم في سبيل الله، لا هجرة المكر والخديعة، لطعن المسلمين في ديارهم.

أما السياسة التي ينبغي اتباعها بالنسبة إلى هؤلاء المنافقين، الذين يظهرون الكافرين المحاربين، ولا يهاجرون في سبيل الله، فقد أبانها الله عز وجل بقوله في النص:

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَنَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلَا تَوَلَّوْا
نَصِيرًا﴾ (٨٩):

أي: فإن لم يستجيبوا لمطلب الهجرة الصادقة في سبيل الله الدالة على براءتهم من وصمة النفاق، أو تخلّصهم من رجسهم، بل أذبروا وبَقُوا في دار الكُفْرِ يظاهرون من هم في حالة حرب ضد المسلمين، فخذوهم أسرى إن استطعتم وخذوا ما معهم من أموالهم، واقتلوه في أي مكان وجدتموهم فيه إن ظفرتكم بذلك.

ولا تتخذوا منهم ولياً يتولّى أي أمر من أموركم، لأنه غير مأمون، ولا يصلح لإنشاء علاقة ولائ بينكم وبينه، ما دام ظهيراً للكفار المحاربين، ولا تتخذوا منهم على وجه الخصوص نصيراً يعتمدون عليه في نُصرة شيء من قضاياكم، فهم ليسوا أمناء على شيء من ذلك، إذ هم في حقيقتهم أعداء، والاعتراض بظاهر ما يقولون بالسستهم لا يلبق بأهل الإيمان الصادق الذين يعملون بوصايا الله عز وجل.

واستثنى الله عز وجل من هذا القسم من المنافقين فريقين:

الفريق الأول: من ينحاز منهم إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق، فيصلون إليهم، ويدخلون فيهم، فهؤلاء يعاملون معاملة هؤلاء القوم، فلا تُطبق بشأنهم قاعدة:

﴿فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾.

فقال الله عز وجل بشأن هذا الفريق:

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾.

وفي التعبير بـ «يصلون» دلالة على أنهم لا يحمون أنفسهم بمجرد الانتماء، أو عقد معاهدة مع هؤلاء القوم، بل لا بُدَّ أن يصلوا فعلياً إليهم، ويدخلوا ضمنهم، وبذلك يُعاملون كما يُعامل هؤلاء القوم.

وهذا من أحكام العلاقات الدولية التي شرعها الإسلام، ولم يكن للناس نصيب ما منها، وقد ألزم المسلمين بها، ولولم يلتزم بمثلها أعداؤهم.

الفريق الثاني: من يأتي المسلمين مُتَسَلِّماً مُعلنأ وقوفه على الحياد، فهو

لا يريد أن يقاتل المسلمين مع قومه، ولا يريد أن يقاتل قومه مع المسلمين، فقد ضاق صدره عن قتال المسلمين وعن قتال قومه، مؤثراً السلامة لنفسه.

إِنَّ هَذَا الْفَرِيقَ لَا تَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ أَيْضاً قَاعِدَةٌ:

﴿فَخُذْهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾.

بل يُتْرَكُ وَيُغْفَى النظر عنه، فقال الله عز وجل بشأنهم:

﴿أَوْجَاءُ وَكَمْ حَصَرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يَقْتُلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَنَلُوكُمْ فَإِنْ أَعَزَّلُوكُمْ فَلَمْ يَقْتُلُوكُمْ وَالْقَوْلَ الْإِيتِمُ السَّلَامُ فَاَجْعَلِ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾.

إِنَّ مَجِيئَهُمْ مُسْتَسْلِمِينَ قد يُغْرِي بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَعَاقِبَتِهِمْ بِالْقَتْلِ جِزَاءَ مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ مَظَاهِرَةِ لِلْكَافِرِينَ الْمُحَارِبِينَ، مع أَنَّهُمْ كَانُوا قد تَظَاهَرُوا بِالْإِسْلَامِ.

لَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ حَمَاهُمْ بِمَجِيئِهِمْ وَاسْتِسْلَامِهِمْ، وَحَسِبُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ مَجِيئِهِمْ وَاسْتِسْلَامِهِمْ أَنَّهُمْ انْفَضَّلُوا عَنْ قَوْمِهِمُ الْمُحَارِبِينَ، وَأَضْعَفُوا بِهَذَا الْانْفِصَالِ قُوَّةَ قَوْمِهِمْ.

ولو شاء الله لجعل في قلوبهم قدراً من الحمية والشجاعة، وبذلك يكونون محاربين للمسلمين مع قومهم المحاربين لهم، ويكونون بذلك مدداً وقوة للكفار المحاربين، هذا ما دَلَّ عَلَيْهِ قوله تعالى:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَنَلُوكُمْ﴾.

وفي هذا تحذير من عدم التزام حدود الله في معاملتهم، وإشعار للمؤمنين بأن مجيء هذا الفريق مستسلمين من عناية الله ومعونته لأوليائه.

إذن: فالسياسة التي يجب اتباعها معهم، هي قاعدة:

﴿فَإِنْ أَعَزَّلُوكُمْ فَلَمْ يَقْتُلُوكُمْ وَالْقَوْلَ الْإِيتِمُ السَّلَامُ فَاَجْعَلِ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾.

أي: فَإِنْ قَرَّرُوا اعتزال الدُّخُول في صفوفكم، واعتزال مشاركة جيشكم في قتال قومهم، واعتزال الدخول في المقاتلين من قومهم لقتالكم، وَأَلْفُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ، وأَعْلَنُوا حيادهم التام، وطَبَقُوا ذلك فِعْلاً، فَلَمْ تَبْدُرْ مِنْهُمْ بَادِرَةٌ تَسُوؤُكُمْ فما جعل الله لكم آيها المؤمنون عليهم سبيلاً، تتخذون منه ذريعةً لاخذهم وقتلهم.

إنه اختيار يجمعهم، وفي بيان هذا الاحتمال الذي قد يختاره جنباء المنافقين ليأمنوا على أنفسهم إضعاف لجيش العدو من جهة، ولعل بعضهم يصح إيمانه مستقبلاً، أو يكون من ذريته مؤمنون صادقون من جهة أخرى، فيكون ذلك خيراً لجماعة المؤمنين الصادقين.

قول الله عز وجل:

﴿سَتَجِدُونََ الْآخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوا بَكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَارَدُوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَرِلَوْكُمْ وَلَقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْلُبُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١١﴾﴾.

بعد بيان الفريقين اللذين سبق شرح أحوالهما واللذين مر المؤمنون في عصر الرسول معهم بتجارب واقعية، تحدث الله عز وجل عن منافقين آخرين، سيظهرون في المستقبل، يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بالنسبة إلى أعمال القتال موقف الحياد، طلباً للأمن من جهتكم ومن جهة قومهم، وهؤلاء يتظاهرون بالإسلام، ويؤثرون في القتال موقف الحياد، ثم تظهر منهم أعمال تدل على أنهم في الباطن كافرون، ويتهربون من أن يوضعوا موضع الامتحان الكاشف لهوية نفاقهم، لكنهم كلما رُدُّوا إلى الفتنة بامتحان صعب على نفوسهم أُرْكَسُوا فيها، أي: ظهر بها عدم صدقهم في إسلامهم، وأنهم مُنَافِقُونَ غير صادقين في إسلامهم.

والسياسة مع هؤلاء أَنْ يُعْطُوا الأمن كالفرق الذين جازوا مستسلمين معلنين حيادهم، بشروط ثلاثة:

(١) أَنْ يَعْتَزِلُوا صفوف المسلمين الصادقين.

(٢) أَنْ يُلْقُوا لِلْمُسْلِمِينَ الْإِسْلَامَ .

(٣) أَنْ يَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ عَنِ الْمُسْلِمِينَ .

فَإِنْ أَخْلَوْا بِشَرْطٍ مِنْ هَذِهِ الشَّرُوطِ انْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ قَاعِدَةٌ :

﴿ فَخُذُوهُمْ أَقْتُلُوهُمْ أَوْ فَتَقُوا حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ .

وَيُشَارُ هُؤُلَاءِ الَّذِينَ سَيُوجَدُونَ وَيُؤَاجَهُ الْمُسْلِمُونَ الْمُؤْمِنُونَ مُشْكِلَتَهُمْ ، قَالَ اللَّهُ

عَزَّ وَجَلَّ :

﴿ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ . . . ﴾ .

أَي : وَأُولَئِكَ الْآخِبَاتُ الْبُعْدَاءُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ جَعَلْنَا لَكُمْ أَيْهَا الْمُؤْمِنُونَ عَلَيْهِمْ

حُجَّةٌ وَاضِحَةٌ أَنْ تُعَامِلُوهُمْ بِمَقْتَضَاهَا مُعَامَلَةُ الْكُفَّارِ الْمُحَارِبِينَ ، إِذَا أَخْلَوْا بِالشَّرُوطِ الَّتِي

سَبَقَ بَيَانُهَا .



النص السابع عشر

وهو من سورة (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول) سادس سورة مدنية

(الآيات من ١٠٥ - ١١٦)

حول ما يجب على القضاة والخصوم وأنصارهم

بمناسبة حادثة سرقة المنافق من بني أبيرق

قال الله عز وجل خطاباً لرسوله :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ۝١٠٥ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝١٠٦ وَلَا تَجِدُ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ۝١٠٧ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ۝١٠٨ هَئِئَنتُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجِدِ لُ اللَّهِ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝١٠٩ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوًءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝١١٠ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١١١ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ لَئْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝١١٢ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ وَمَا بُضِّلُوا إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّوكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ۝١١٣ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مِنْ أَمْرِ بَصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتٍ

اللَّهُ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ
غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرُ
أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونِ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا
بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ .

* * *

(١)

ما في النص من القراءات المتواترات (من الفرش)

في الآية (١١٤):

(١) قرأ جمهور القراء [فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا] بنون المتكلم .

(٢) وقرأ أبو عمرو البصري وحمة وخلف [فَسَوْفَ يُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا] بياء

الغائب .

وفي القراءتين تكامل في الأداء البياني، فمن كان في حالة حضور مع الله كانت
قراءة [نُؤْتِيهِ] ملائمة لحالته، ومن كان غير ذلك كانت قراءة [يُؤْتِيهِ] ملائمة له .

* * *

(٢)

موضوع النص وما ورد في سبب نزوله

يدور هذا النص حول بيان وجوب الحكم بما أنزل الله من أصول وقواعد للفصل
بين الخصم، وتحذير القاضي من أن يقف موقف الدفاع عن أحد الخصمين لاحتمال
أن يكون من الخائنين، وتحذير كل صالح للخطاب من أن يكون مدافعاً محامياً
(= خصيماً) يجادل لمصلحة من كان من الخصمين خائناً، ومن أن يجادل عن الذين
يختانون أنفسهم، مع الترغيب في الاستغفار والتوبة، لدى السقوط في مخالفة هذه
التعاليم الربانية .

وفيه تحذير شديد للمذنب العاصي من اتهام غيره من البراء بما ارتكب هو من

إثم، ليخلص نفسه من تبعة جريمته، أو ليبتعد عن نفسه التهمة الملاحقة له بالدلائل والأمارات.

وفيه بيان أن التناجي في السر بين الناس داخل المجتمع المسلم أكثره لا خير فيه، إذ الخير لا يحتاج إلى التناجي في السر، باستثناء بعض الأمور، ومنها:

— الأمر بالصدقة، لستر حال المتصدق عليه.

— والأمر بالمعروف ويدخل فيه النهي عن المنكر، لستر حال من يوجه له ذلك، إذا كان من أهل الذنوب أو المقصرين المتهاونين.

— والإصلاح بين الناس، لأن المذاكرات العلنية في قضايا الإصلاح بين الناس قد تزيد بينهم شقة الخلاف.

وفيه التحذير من مشاقة الرسول، ومن اتباع غير سبيل المؤمنين، خارجاً عن جماعتهم لاحقاً بغيرهم، ويمكن أن يدخل في عموم اتباع غير سبيل المؤمنين مخالفة ما يقرّر جمهور أهل الحل والعقد منهم من الأمور التي هي من المصالح العامة، التي جعلها الله من أمرهم، وجعل البت فيها قائماً على قاعدة الشورى، التي يعتمد فيها رأي الأكثرية، ويمكن أن يدخل أيضاً ما يجمعون عليه من حكم شرعي.

وأخيراً فتح الله للمذنبين باب مغفرته، مبيناً أنه لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، وبما أن الشرك هو أول دركات الكفر، فإن الله لا يغفر ما هو أشد من الشرك حتماً، وهذا يفهم بأنه الأولى بالحكم.

والخطاب الموجه في النص للرسول موجه في الحقيقة لكل صالح للخطاب به من المسلمين حتى آخر الناس في الحياة الدنيا، لأن مضمونه ليس من خصائص النبي ﷺ، فمن أساليب القرآن في الخطاب أن يخاطب الله رسوله ببعض الأمور الشاملة لكل المؤمنين، باعتباره أول المؤمنين، وقائدهم، وأول المطيعين المسلمين الملتزمين لأوامر الله، المجتنبين لنواهيه، وللإشعار بأن الرسول أول المكلفين الملتزمين بشرائع الإسلام وأوامر الدين، فهو اتقاهم لله.

ما ورد في سبب النزول

روى الترمذي في سننه قال: حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي شُعَيْبٍ أَبُو مُسْلِمٍ الْحَرَّانِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلَمَةَ الْحَرَّانِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانَ قَالَ:

«كَانَ أَهْلُ بَيْتٍ مِنَّا يُقَالُ لَهُمْ بَنُو أَبِي رَافِيٍّ: يَشْرُونَ وَيَبِشِرُونَ وَمُبَشِّرُونَ، وَكَانَ بَشِيرُ رَجُلٍ مُنَافِقًا يَقُولُ الشَّعْرَ يَهْجُو بِهِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ يَنْحُلُهُ بَعْضُ الْعَرَبِ، ثُمَّ يَقُولُ: قَالَ فَلَانٌ كَذَا وَكَذَا، قَالَ فَلَانٌ كَذَا وَكَذَا، فَإِذَا سَمِعَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَلِكَ الشَّعْرَ، قَالُوا: وَاللَّهِ مَا يَقُولُ هَذَا الشَّعْرَ إِلَّا هَذَا الْخَبِيثُ، أَوْ كَمَا قَالُوا، وَقَالُوا ابْنُ الْأَبِيرِ قَالَهَا».

قال: «وَكَانَ أَهْلُ بَيْتٍ حَاجِبَةٌ وَفَاقَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ، وَكَانَ النَّاسُ إِذَا طَعَمَهُمْ بِالْمَدِينَةِ التَّمْرَ وَالشَّعِيرَ، وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا كَانَ لَهُ يَسَارٌ فَقَدِمَتْ ضَافِطَةٌ^(١) مِنَ الشَّامِ مِنَ الدُّرْمَكِ^(٢) ابْتِاعَ الرَّجُلُ مِنْهَا فَخَصَّ بِهَا نَفْسَهُ، وَأَمَّا الْعِيَالُ فَإِنَّمَا طَعَمَهُمُ التَّمْرَ وَالشَّعِيرُ».

فَقَدِمَتْ ضَافِطَةٌ^(١) مِنَ الشَّامِ فَأَبْتِاعَ عُمَيُّ رِفَاعَةُ بْنُ زَيْدٍ جَمَلًا مِنَ الدُّرْمَكِ^(٢)، فَجَعَلَهُ فِي مَشْرَبَةٍ^(٣) لَهُ، وَفِي الْمَشْرَبَةِ سِلَاحٌ وَدِرْعٌ وَسَيْفٌ، فَعُدِّيَ عَلَيْهِ مِنْ تَحْتِ الْبَيْتِ، فَتَقَبَّتِ الْمَشْرَبَةُ^(٣) وَأَخَذَ الطَّعَامُ وَالسِّلَاحُ.

فَلَمَّا أَصْبَحَ أَنَا بِي عُمَيُّ رِفَاعَةُ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّهُ قَدْ عُدِّيَ عَلَيْنَا فِي لَيْلَتِنَا هَذِهِ، فَتَقَبَّتْ مَشْرَبَتُنَا، فَذَهَبَ بِطَعَامِنَا وَسِلَاحِنَا».

(١) الضَّافِطَةُ: البعيرُ تحملُ المتاع. ومن الناس الحمَّالون والمُكَارُونَ الذين يَجْلِسُونَ الميرة والمتاع للْمُدُنِ، والمُكَارِي هو الذي يُكْرِي الأحمال، وكانوا يَوْمِئِذٍ قَوْمًا مِنَ الْأَنْبَاطِ يَحْمِلُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ الدقيق والزيت وغيرها. (عن لسان العرب).

(٢) الدُّرْمَكُ: الدقيق الأبيض.

(٣) الْمَشْرَبَةُ: الْغُرَّةُ، وَهِيَ عَلَيْهِ تَنْبِيٌّ فِي الْأَعْلَى فَوْقَ سَطْحِ الْمَبْنَى الْمَلِصِّ لِلْأَرْضِ. وَجَمْعُهَا: مَشْرَبَاتٌ، وَمَشَارِبٌ.

قال: «فَتَحَسُّنَا فِي الدَّارِ، وَسَأَلْنَا، فَقِيلَ لَنَا: قَدْ رَأَيْنَا بَنِي أَبِي رِقٍ اسْتَوْفَدُوا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، وَلَا نَرَى فِيمَا نَرَى إِلَّا عَلَى بَعْضِ طَعَامِكُمْ».

قال: «وَكَانَ بَنُو أَبِي رِقٍ قَالُوا وَنَحْنُ نَسْأَلُ فِي الدَّارِ: وَاللَّهِ مَا نَرَى صَاحِبَكُمْ إِلَّا لَيْدَ بْنَ سَهْلٍ: رَجُلٌ مَثَلُهُ صَلَاحٌ وَإِسْلَامٌ، فَلَمَّا سَمِعَ لَيْدٌ اخْتَرَطَ^(١) سَيْفَهُ، وَقَالَ: أَنَا أَسْرِقُ؟! قَوْلَ اللَّهِ لِيَخَالِطَكُمْ هَذَا الشَّيْثُ أَوْلَيْتَيْنِ هَذِهِ السَّرِقَةُ. قَالُوا: إِلَيْكَ عَنَّا أَيُّهَا الرَّجُلُ فَمَا أَنْتَ بِصَاحِبِهَا.

فَسَأَلْنَا فِي الدَّارِ حَتَّى لَمْ نَشْكُ أَنَّهُمْ أَصْحَابُهَا (أي: بنو أبيرق).

فَقَالَ لِي عَمِّي: يَا ابْنَ أُخِي، لَوْ أَنَّيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ».

قَالَ قَتَادَةُ: «فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: إِنَّ أَهْلَ بَيْتِ بَنِي أَهْلِ جَفَاهِ^(٢)، عَمَدُوا إِلَى عَمِّي رِفَاعَةَ بْنِ زَيْدٍ فَتَغَبَّوْا مَشْرَبَهُ لَهُ، وَأَخَذُوا بِسِلَاحِهِ وَطَعَامِهِ، فَلْيُرَدُّوا عَلَيْنَا بِسِلَاحِنَا، فَلَمَّا الطَّعَامُ فَلَا حَاجَةَ لَنَا فِيهِ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: سَأَمُرُّ فِي ذَلِكَ، فَلَمَّا سَمِعَ بَنُو أَبِي رِقٍ أَنَّهُمْ رَجُلًا مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ أَسِيدُ بْنُ عُرْوَةَ، فَكَلَّمُوهُ فِي ذَلِكَ، فَاجْتَمَعَ فِي ذَلِكَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الدَّارِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ قَتَادَةَ بْنَ النُّعْمَانِ وَغَمَهُ عَمَدُوا إِلَى أَهْلِ بَيْتِ بَنِي أَهْلِ إِسْلَامٍ وَصَلَاحٍ، يَرْمُونَهُمْ بِالسَّرِقَةِ مِنْ غَيْرِ بَيِّنَةٍ وَلَا ثَبَتٍ^(٣).

قَالَ قَتَادَةُ: فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمْتُهُ، فَقَالَ: «عَمَدْتُ إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ ذُكِرَ مِنْهُمْ إِسْلَامٌ وَصَلَاحٌ تَرْمِيهِمْ بِالسَّرِقَةِ عَلَى غَيْرِ ثَبَتٍ وَلَا بَيِّنَةٍ؟!».

قال: «فَرَجَعْتُ، وَلَوَدِدْتُ أَنِّي خَرَجْتُ مِنْ بَعْضِ مَالِي وَلَمْ أَكَلِّمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي ذَلِكَ.

فَأَتَانِي عَمِّي رِفَاعَةُ فَقَالَ: يَا ابْنَ أُخِي، مَا صَنَعْتَ؟ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

(١) اخترط الشَّيْثُ: إِذَا سَلَّهَ مِنْ غَمِّهِ لِيُقَاتِلَ بِهِ.

(٢) أَهْلُ جَفَاهِ: أَيُّ أَهْلِ سَوَاءٍ خُلِقَ.

(٣) الثَّبَتُ: الْحُجَّةُ.

فَلَمْ يَلَيْتْ أَنْ نَزَّلَ الْقُرْآنَ :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ لَتَحْكُمَ بِهِنَ النَّاسِ بِمَا أَرَدَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَافِينَ خَصِيمًا ١٠٥ ﴾ .

نبي أتيرق .

﴿ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ١٠٦ ﴾ :

أي : بما قلت لبقادة .

﴿ إِنْ أَلَّفَ اللَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ١٠٧ ﴾ وَلَا يُجَدِّلُ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ١٠٨ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٩ هَآتَتْهُمْ هَتُؤَلَاءُ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِّلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ١١٠ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ عَفُورًا رَحِيمًا ١١١ ﴾ .

أي : لو استغفروا الله لغفر لهم .

﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١١٢ ﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ١١٣ ﴾ .
قوله للبئس .

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصْرِفُونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ١١٤ ﴾ لَاحِظْ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ

فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ بِالسَّلَاحِ فَرَّثَهُ إِلَى رِفَاعَةٍ، فَقَالَ قَتَادَةُ: لَمَّا أَتَيْتُ غَمِي بِالسَّلَاحِ وَكَانَ شَيْخًا قَدْ غَبِيَ^(١) أَوْ غَشِيَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكُنْتُ أَرَى إِسْلَامَهُ مَذْخُولًا، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ بِالسَّلَاحِ قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي هُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَعَرَفْتُ أَنَّ إِسْلَامَهُ كَانَ صَحِيحًا.

فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ لَجَعَ بِشِيرَ الْمُشْرِكِينَ، فَتَزَلَّ عَلَى سُلَافَةٍ بَنَتْ سَعْدُ بْنُ سَعْيَةَ، فَانْزَلَ اللَّهُ:

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝١١٦﴾.

فَلَمَّا نَزَلَ عَلَى سُلَافَةٍ رَمَاهَا حُسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ بِأَثْيَابٍ مِنْ شِعْرِهِ، فَأَخَذَتْ رَحْلَهُ فَوَضَعَتْهُ عَلَى رَأْسِهَا، ثُمَّ خَرَجَتْ بِهِ فَرَمَتْ بِهِ فِي الْأَبْطَحِ، ثُمَّ قَالَتْ: أَهْذَيْتَ لِي شِعْرَ حُسَّانٍ، مَا كُنْتُ تَأْتِيَنِي بِخَيْرٍ.

قال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث غريب، لا نعلم أحداً أسنده غير محمد بن سلمة الخرائي.

وهذا الحديث رواه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه عن قَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانِ. ورواه آخرون مُرْسَلًا.

(٣)

المفردات اللغوية في النص

﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾:

الخائِبُ: اسم فاعل من (خَانَ يَخُونُ خَوْنًا وَخِيَانَةً وَمَخَانَةً) والخيانة ضد الامانة،

(١) غبي: أي كبرت به.

فهي تشمل كل نقص من الحق، وعدم أداء للواجب، وعدم وفاء بالعهد عمداً مع القدرة عليه، وكل عذوان على ما استؤمن الإنسان عليه، من جسد أو مال أو عرض أو قول أو عمل أو نية، أو سر أو مشورة، أو نحو ذلك.

﴿خَصِيمًا﴾:

الخصيم: المخاصم المجادل المنازع، لنفسه أو لغيره، في خصومة بين فريقين بحق أو باطل.

﴿يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾:

أي: يخونون أنفسهم، اختان مثل خان مع زيادة في معنى قباحة الخيانة، لأنها خيانة للنفس، وعبر الله عن المعاصي بأنها من قبيل خيانة الإنسان لنفسه، لأن نفسه أمانة بين يدي إرادته، فإذا عصى الله عز وجل من أجل أهوائه وشهواته عرض نفسه للعقوبة الإلهية، فيكون بذلك قد خان نفسه، وظلم نفسه، وأقبح الخيانة أن يخون الإنسان نفسه، وأقبح الظلم أن يظلم الإنسان نفسه.

وقد جاء في القرآن فعل «اختان» في خيانة الإنسان لنفسه فقط.

﴿يَسْتَخْفُونَ﴾:

استخفى وتخفى واختفى بمعنى استتر وتوارى، وفي «استخفى» معنى زيادة اتخاذ وسائل الاستتار، أخذاً من الصيغة المزيدة بالسین والتاء.

﴿إِذْ يُبَيِّنُونَ﴾:

أي: إذ يذبرون أمرهم بليل، التبييت: عمل الشيء أو تدبيره أو الاتفاق عليه ليلاً.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا﴾:

السوء: كل ما يفتح، واسم جامع للآفات، وكل فعل شائن.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا﴾:

أي: ومن يُضْمُ إلى نفسه بِعَمَلِهِ ذَنْبًا يَسْتَحِقُّ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةُ بِالْعَدْلِ، وهو بهذا الضَّمُّ بِحَمْلِهِ ثِقْلًا عَلَى نَفْسِهِ.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ لُثْمًا﴾:

الْخَطِيئَةُ: تَقَعُ عَلَى الْفِعْلِ الْمَخَالِفِ لِلصَّوَابِ بِقَصْدٍ أَوْ بَغَيْرِ قَصْدٍ، وَتَقَعُ عَلَى الذُّنُوبِ كُلِّهَا صَغَارًا وَكِبَارًا، أَمَّا الْإِثْمُ فَهُوَ الذَّنْبُ وَجَاءَ إِطْلَاقُهُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى جَمِيعِ الْمَعَاصِي صَغَارًا وَكِبَارًا.

﴿ثُمَّ يَرَى بِهِ بَرِيئًا﴾:

أي: ثُمَّ يَقْضَى بِهِ إِنْسَانًا بَرِيئًا، مُتَهَمًا إِنَاءً بِهِ، لِيُبْعِذَهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَلِيُخَيِّرَ نَفْسَهُ مِنْ تَبِعَتِهِ أَوْ عَقُوبَتِهِ.

﴿فَقَدْ أَحْتَمَلَ﴾:

أي: فَقَدْ كَلَّفَ نَفْسَهُ حَمْلَ عِبٍّ ثَقِيلٍ لَا يُحْمَلُ إِلَّا بِمَشَقَّةٍ.

﴿يَهْتَنَّا﴾:

الْيَهْتَانُ: افْتِرَاءُ الْكَذِبِ، وَاتِّهَامُ الْبَرِيِّ بِذَنْبٍ لَمْ يَزْنِكْهُ، ظُلْمًا وَعَدْوَانًا. ﴿وَلَا تَمَامِيْنَا﴾:

أي: وَذَنْبًا وَاضِحًا جَلِيًّا، لَا تَخَالِطُهُ شَبْهَةٌ قَدْ تُسَاعِدُ عَلَى تَخْفِيفِ حُجْمِ الْجَرِيْمَةِ، فَهُوَ مِنَ الْكِبَائِرِ.

﴿لَمَحَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾:

الْهَمُّ: حَرَكَةٌ نَفْسِيَّةٌ لِتَنْفِيزِ أَمْرٍ مَا، وَهُوَ فَوْقَ الرُّغْبَةِ، وَدُونَ الْإِرَادَةِ الَّتِي يَقْتَرِنُ بِهَا الْجَزْمُ، وَيَكُونُ التَّنْفِيزُ فِي وَقْتِهِ عِنْدَ عَدَمِ الْمَوَانِعِ وَمَعَ تَوَافُرِ وَسَائِلِ التَّنْفِيزِ. الطَّائِفَةُ: الْجَمَاعَةُ وَالْفِرْقَةُ مِنَ النَّاسِ، وَالْجُزْءُ وَالْقِطْعَةُ مِنَ الشَّيْءِ.

﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾:

الْكِتَابُ هُوَ الْقُرْآنُ، وَالْحِكْمَةُ كُلُّ مَا ذَلَّتْ عَلَيْهِ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ مِنْ قَوْلٍ، أَوْ فِعْلٍ، أَوْ إِقْرَارٍ، أَوْ خُلُقٍ.

وجاء عند الإمام أحمد في مسنده وأبي داود وغيرهما أن الرسول ﷺ قال: **وَأَلَّا أُوتِيَ الْكِتَابَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ**، وهو حديث صحيح.

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾:

يُقَالُ لَفَةً: نَجَا فُلَانًا الْحَدِيثَ يَنْجُوهُ نَجْوًا، أَي: أَسْرَأَ إِلَيْهِ الْحَدِيثَ.

فَالنَّجْوَى: الْإِسْرَارُ بِالْحَدِيثِ. وَيُطْلَقُ هَذَا اللَّفْظُ عَلَى الْمُتَنَاجِينَ، مِنْ قَبِيلِ الْوَصْفِ بِالْمَصْدَرِ، وَيَسْتَوِي فِيهِ الْوَاحِدُ وَغَيْرُهُ، يُقَالُ: هُمْ نَجْوَى.

﴿مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾:

أَي: رَضَى اللَّهُ، يُقَالُ لَفَةً: رَضِيَهُ، وَرَضِيَ بِهِ، وَرَضِيَ عَنْهُ، يَرْضَى رِضًا، وَرِضَاءً، وَرِضْوَانًا، وَمَرْضَاةً. وَالرِّضَى هُوَ قَبُولُ الشَّيْءِ مَعَ الْإِكْتِفَاءِ بِهِ.

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾:

أَي: وَمَنْ يُخَالِفِ الرَّسُولَ وَيُعَادِيهِ، وَيَتَّخِذُ لِنَفْسِهِ شِقَاقًا غَيْرَ شِقَاقِهِ.

﴿تَوَلَّاهُ مَا تَوَلَّى﴾:

تَوَلَّى فُلَانٌ فُلَانًا، أَوْ تَوَلَّى فُلَانٌ الشَّيْءَ، إِذَا أَحَبَّهُ، وَنَصَرَهُ، وَلَزِمَهُ، أَوْ اتَّخَذَهُ وَلِيًّا لَهُ.

فَمَنْ تَوَلَّى بِإِرَادَتِهِ شَيْئًا مَا طَائِعًا مَخْتَارًا، وَلَأَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ فِي مَجْرَى سُنْبِهِ التَّكْوِينِيَّةِ.

﴿وَتُصَلِّهِمْ جَهَنَّمَ﴾:

أَي: تُذَفِّقُهُ عَذَابَ الْإِحْتِرَاقِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، جَهَنَّمَ: اسْمٌ عَلِمَ مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْعَذَابِ فِيهَا الْكَافِرِينَ وَالْعَصَاةَ يَوْمَ الدِّينِ، وَهُوَ مَمْنُوعٌ مِنَ الصَّرْفِ لِلْعَلَمِيَّةِ وَالتَّائِيثِ.

وَيُقَالُ: بِئْرُ جَهَنَّمَ، أَي: بَعِيدَةُ الْفَقْرِ. وَيُقَالُ لِلْفَقْرِ الْبَعِيدِ «جَهَنَّمَ».

(٤)

مع النص في التحليل والتدبر

* قول الله عز وجل لرسوله :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ .

يتحدث الرب في هذا المقام بضمير المتكلم العظيم ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا ﴾ مؤكداً البيان بحرف التوكيد « إِنَّ » فيقول لرسوله : إِنَّا بعظمه العِلم الشامل والحكمة الكاملة، والتنزّه عما لا يليق بجلال الربوبية، أنزلنا إليك الكتاب القرآن مُتصِفاً بالحق الذي يقتضيه بكل قضيّة خبريّة من قضاياه .

وما أنزله الله إلى رسوله بوصفه مكلفاً، ومبلغاً ما أنزل الله إليه، هو أيضاً منزّل إلى الناس المأمورين بتدبيره والعمل بما جاء فيه، وهذا النص مُطالب بمضمونه القضاة والحكام على وجه الخصوص .

ومن الحق الذي أنزلهُ الله في القرآن أصول الحقوق بين الناس، وقواعد العدل، وقواعد الحكم بالحق والعدل بين الخصوم، فهذا هو ما أراه الله لرسوله فكل حاكم وقاضٍ من بعده، بمعنى أعلمهم به علماً بيناً لا غموض فيه، حتى كأنه مرئي بالجنس البصري دون غش، لمن تدبره بصدق وفهم سليم .

فجملة ﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ تعليلية، تُبين الحكمة من بعض ما جاء في القرآن وهو ما يتعلّق بأصول وقواعد الحكم بين الناس بالحق والعدل، وذلك لأن القرآن يشتمل على قضايا أخرى ذوات علل وجكم أخرى تكليفية وإرشادية وتعليمية وغير ذلك .

وبعد هذه الجملة توجد جملة محذوفة لفظاً مقدرة حكماً، وهي : فَأَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ، بدليل قوله تعالى بَعْدَ ذَلِكَ : ﴿ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائَتَيْنِ خَصِيماً ﴾ فدلّت جملة النهي هذه المصدّرة بحرف العطف، على أنها معطوفة على الجملة المحذوفة المقدّرة .

* * *

* قول الله عز وجل:

﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾:

أي: ولا تكن لأجل الخائنين ولتبرئتهم مخاصماً مُدافعاً عنهم من حيث لا تشعُر، بسبب عَدم تقيُّدك تقيُّداً تاماً بأصول وقواعد الحكم بين الناس بالحق والعدل، التي أراك الله إيّاها بيان تعليمي جليٍّ شبيه بالرؤية البَصْريّة.

وهذا النهي يشمل بعمومه ولوازم دلالة عدّة صور:

الصورة الأولى: نهْي كلِّ مؤمن عن أن يدافع عن الخائنين، ويجادل لتبرئتهم، سواء أكان قاضياً، أو وسيطاً، أو شفيعاً، أو وكيلاً، أو مُحامياً، أو شاهداً أو حَكماً، أو غير ذلك، فالدِّفاع عن الخائن والمجادلة لتبرئته خيانة، ومعصيةٌ من الكبائر، لأنها تُساعدُ على إبطال الحق وإحقاق الباطل.

الصورة الثانية: نهْي القَاضي أو الحاكم المؤمن عن أن يتأثر بعاطفة ما، فيَنحاز إلى أحد الخصمين ويُجادلُ عنه ظاناً أنه صاحب حق، فيقع في احتمال أن يكون للخائنين خصيماً.

الصورة الثالثة: نهْي القَاضي أو الحاكم المؤمن عن أن يتسرّع في حكمه أو إبداء رأيه في إذانة أو تبرئة أحد الخصمين قبل استكمال أصول وقواعد الحكم بين الناس بالحق والعدل، التي أبانها الله عز وجل، لأن ذلك مظنة الوقوع في احتمال أن يكون للخائنين خصيماً.

فترتُ مظنة الوقوع في تبرئة الخائن منزلة المخاصمة الفعلية عنه، والمجادلة من أجله.

وقد وُجد في قصة السارق من بني أبريق من جعل نفسه خصيماً لأجلهم مُدافعاً عن مجرمهم.

* * *

* قول الله عز وجل:

﴿وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾:

أي: واستغفر الله مما وقعت أو قد تقع فيه من تقصير أو مخالفة في هذه الأمور، يغفر الله لك، دل على جواب الطلب هذا وصف الله عز وجل بأنه غفور رحيم دوماً، الذي تضمنه قول الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ١٦٦﴾.

فعل «كان» في مثل هذا الاستعمال يدل على الكينونة الدائمة.

غفوراً: أي: كثير المغفرة عظيمها. رحيماً: أي: واسع الرحمة عظيمها. أخذاً من صيغتي المبالغة.

* قول الله عز وجل:

﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾:

جملة معطوفة على جملة ﴿وَلَا تُكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ وما عطف عليها.

وقد يبدو أن مضمون الجملتين واحد، فالخصيم لتبرئة الخائنين هو الذي يدافع ويُجادل عنهم، والمجادل عن الذين يختانون أنفسهم هو الذي يحاول بأقواله تبرئتهم، فالمعنان متماثلان بحسب الظاهر مع اختلاف في اللفظ.

ولكن إذا لاحظنا أن القرآن استعمل فعل «اخْتَانَ» في خيانة الإنسان لنفسه فقط، في هذا النص، وفي نص آيات الصيام في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) إذ جاء فيه:

﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ١٧٧﴾:

أي: كنتم تعاشرون الزوجات في ليالي رمضان، إذ كان هذا محرماً في أول الأمر ثم أذن الله به. ولم يأت استعمال فعل (اختان) في غير هذين النصين.

إذا لاحظنا هذا أدركنا أن الله عز وجل قد جعل الخيانة قسمين:

الخيانة الأولى: خيانة الإنسان لحقوق الآخرين من الناس، وجاء فيها استعمال فعل «خان».

الخيانة الثانية: خيانة الإنسان لنفسه فيما لله عليه من تكاليف وأمور تعبديّة، وجاء فيها استعمال فعل «اختان».

والله عز وجل نهى المؤمن سواء أكان حاكماً أو قاضياً أو وكيلاً أو شاهداً أو وسيطاً أو محامياً أو غير ذلك، عن أن يدافع ويُجادلَ عمن خان غيره من الناس وعمن اختان نفسه في أمرٍ يتعلّق بينه وبين ربّه فقط، ويؤكد هذا الفهم أنّ الله استعمل كلمة «خصيم» بجانب القسم الأول، وفعل المجادلة بجانب القسم الثاني.

ونحن نعلم أنّ دلالات النصوص المنزلة لا تقتصرُ على العناصر التي جاءت في سبب النزول ولو صحّ، لأنّ المناسبة قد كانت مفتاحاً لتنزيل النصّ ذي الصبغة الكلّية العامّة التي تشمل العناصر التي جاءت في سبب النزول، وتشمل غيرها.

وهذا المعنى هو ما يُريده الأصوليون بقولهم: العبرةُ بعموم النصّ لا بخصوص السبب.

وقد جادل عن المجرم من بني أريق مجادلون لتبرئتهم مما جنى جانبهم من كبيرة السرقة.

* قول الله عز وجل:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ (١٧).

الخَوَّان: هو كثير الخيانة، أو الذي صارت الخيانة عادة لازمة له، أخذاً من صيغة المبالغة «فعلال».

والأثيم: هو كثير ارتكاب المعاصي والذنوب، أو الذي صار ارتكاب الإثم عادة لازمة له، أخذاً من صيغة المبالغة «فعليل».

فالخَوَّانُ الأثيم لا يُجِبُّه الله، إذ أخرج نفسه بخياناته وآثامه التي يلازمها من دائرة محبة الله لعباده، ومن أخرج نفسه من هذه الدائرة تراكمت على قلبه ونفسه الظلمات، وصار محلاً لنساقط سخط الله عليه ونقمته، وأبتعد عن مجالات مغفرة الله ورحمته.

وجاء في سورة (الحج / ٢٢ مصحف / ١٠٣ نزول) قول الله عز وجل:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (٢٨):

أي: لا يحبُّ كلَّ خَوَّانٍ لحقوق الله عليه كفور بأنعمه، فلا يخرج المؤمن من كلِّ دائرة محبة الله حتى يكون خَوَّاناً أثيماً، أو خَوَّاناً كفوراً.

لكن خيانة قوم ما لجماعة المؤمنين في عهودهم، وتذبير المكاييد ضدهم كافية لإخراج هؤلاء الخائنين من دائرة محبة الله، ولولم يصلوا إلى دركة خَوَّانين، وفيها يقول الله عز وجل في سورة (الأنفال / ٨ مصحف / ٨٨ نزول):

﴿وَأَمَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ فَانْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ﴾ (٨٣):

أي: فانذِرْ إليهم عهدهم، وأعلمهم بذلك، وكُنْ معهم على سواءٍ في عدم الالتزام بالعهد السابق.

وهكذا تكاملت النصوص في دلالاتها.

وقد كان في قصة بني أبيرق من هو خَوَّانٌ أثيم، وهو منافقهم السارق.

* قول الله عز وجل:

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾:

أي: يحاولون جهدهم اتخاذ وسائل الاستار عن أعين الناس ومراقبتهم لارتكاب جرائمهم وأنامهم في الخفاء، وهم لا يستطيعون الاستخفاء عن الله العليم السميع البصير الذي هو معهم شاهد حاضر أينما كانوا، ومهما استخفوا. وقد كان من بني أبيرق أنهم استخفوا بجريمتهم من الناس، لكنهم لم يستطيعوا الاستخفاء من الله، وقد فضحهم الله.

* قول الله عز وجل:

﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾:

أي: والله عز وجل مع هؤلاء الخائنين ومع كلِّ خائنٍ حين يَبَيِّتُونَ في الليل حيث يستخفون عن أعين الرقباء ما لا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ الذي يجعلونه متضمناً خطط الخيانة التي سيعملون بمقتضاها.

وإذا كان الله معهم عليماً بما يُبَيِّنُونَ فَإِنَّهُمْ لَن يَسْتَطِيعُوا أَنْ يُفْلِتُوا مِنْ عِقَابِ اللَّهِ
مَنْ شَاءَ اللَّهُ إِنْزَالَ عِقَابَهُ فِيهِمْ، وَلَنْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يُنْفِذُوا أَمْرًا لَمْ يَأْذَنْهُ اللَّهُ بِتَنْفِيزِهِ ضِمَّنَ
مُقْتَضَى حِكْمَتِهِ.

وقد كان من بني أبريق تبَيِّتُ قولٍ فيما بينهم لا يرضاه الله.

* قول الله عز وجل:

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ۝١٠٨﴾

أي: واللَّهُ بما يعملون مُحِيطٌ دَوَامًا، لَا يَتْرُكُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ عَمَلًا يُحَقِّقُ أَهْدَافَهُمْ
مِنْهُ إِلَّا أَنْ يَأْذَنْ بِذَلِكَ ضِمَّنَ مَجَارِي حِكْمَتِهِ، فَإِنْ أَخْبَطَهُ فَبِحِكْمَتِهِ، وَإِنْ أَذِنَ بِنَفَاذِهِ
فَبِحِكْمَتِهِ، وَاللَّهُ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ.

* قول الله عز وجل:

﴿هَآئِنْتُمْ هَآؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِّدِ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ

الْقِيَمَةِ ۝١٠٩﴾

هذا الخطاب مَوْجَّهٌ عَلَى وجه الخصوص للذين جادلوا مدافعين عن الخائنين من
بني أُبْرِيقَ، بِأَنَّهُمْ أَهْلُ إِسْلَامٍ وَصَلَاحٍ، بَغْيَةٌ نَبَرْتَهُمْ وَإِبْعَادُ تَهْمَةِ السَّرْقَةِ عَنْهُمْ، وَمَوْجَّهٌ
عَلَى وجه العموم لِكُلِّ مَنْ أَخَذَ بِدَافِعٍ عَنْ أَيِّ خَائِنٍ أَوْ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْخَائِنِينَ حَتَّى آخِرِ
الدَّهْرِ.

وَيُلاحِظُ أَنَّهُ قَدْ كَانَ يَكْفِي فِي التَّعْبِيرِ لِتَوْجِيهِ الْخُطَابِ أَنْ يَقَالَ: هَآ أَنْتُمْ جَادَلْتُمْ،

فَلِمَاذَا جَاءَ التَّعْبِيرُ: هَآ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ؟

قَالَ النُّحَاةُ: إِنَّ حَرْفَ (هَآ) الَّذِي لِلتَّنْبِيهِ لَا يَدْخُلُ إِلَّا عَلَى اسْمِ الْإِشَارَةِ الَّذِي

لِغَيْرِ الْبَعِيدِ، وَعَلَى الضَّمِيرِ الرَّفْعِ الْمَخْبِرِ عَنْهُ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ، مِثْلُ: هَآ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ

— هَآ أَنْتُمْ أَوْلَاءُ — هَآ أَنَا ذَا — وَالْجُمْلَةُ بَعْدَ هَذَا التَّعْبِيرِ تَأْتِي حَالِيَةً أَوْ خَبَرًا بَعْدَ خَبَرٍ.

وَالثَّالِثُ أَنْ تَدْخُلَ بَعْدَ (أَيِّ) فِي التَّدَاوِي نَحْوُ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

واعتبر النحاة التعبير بنحو ﴿ها أنتم هؤلاء﴾ من التعبيرات العربية المتبعة، التي يلازمها هذا الأسلوب، وجعلوا: أنتم هؤلاء - أنتم أولاء - أنا ذا - مبتدأ وخبراً.

وقال بعض النحاة: إن «هؤلاء» في مثل [ها أنتم هؤلاء جادلتهم] و[ها أنتم هؤلاء حاججتم] و[ها أنتم آلاء تحبونهم] نداء معترض بين المبتدأ الذي هو ضمير الرفع والخبر الذي هو الجملة بعد اسم الإشارة المنادي بحرف نداء محذوف، ولم يرض سيويه.

أقول: هذا الفهم أقرب لكمال التعبير القرآني، ويكون نداء المخاطبين باسم الإشارة، فيه معنى التوبيخ لهم في هذه الاستعمالات القرآنية الثلاثة، كما يقول القائل: إليك عني أنت يا هذا، وابتعدوا عني أنتم يا هؤلاء.

أما تخريج العبارة على طريقة جمهور النحاة فتكلف لا يتلاءم مع ما يفهم من التعبير بالتلقائية، والله أعلم.

والمعنى: ها أنتم يا هؤلاء الذين اعتم الخائنين على تبرئتهم من جريمتهم، جادلتهم عنهم في الحياة الدنيا، فدفعتم عنهم أمام الناس التهمة، وحميتهم من العقوبة، فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة، حين يحاسبهم على خياناتهم، ويدينهم بجرائمهم، استناداً إلى صحف أعمالهم وشهادة جوارحهم عليهم، وعلمه بواقع حالهم؟! حالهم!!

إن الجواب البدهي لهذا السؤال: لا أحد، إنهم سيُدانون ويستحقون عقاب الله بالعدل.

* قول الله عز وجل:

﴿أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ (١٣)

(أم) هي هنا المنقطعة بمعنى «بل»، والمعنى: بل من يكون يوم القيامة عند رب العالمين وكيلًا على الخائنين، يتوكل أمر إبعاد عقاب الله عنهم وحمائيتهم منه؟!

إن الجواب البدهي لهذا السؤال: لا أحد.

الوكيل على إنسان أو غيره هو الذي يتولى مصالحته وحمائته وبقائه من السوء

ویرغی مختلف شؤونه، ویروم الحساب لا وکیل ولا نصیر من دون الله، ولا شفیع إلا بإذنه.

* قول الله عز وجل:

﴿وَمَنْ يَمَلِّ سَوْءًا أَوْ يَطْلَمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١١٠)

بعد الوعيد الضمني بالعقوبة على جريمة الخيانة، فتح الله عز وجل في هذه الآية للمذنبين باب الاستغفار والرجعة إليه بالاعتراف بالذنب، وطلب المغفرة، ولا يكون الصديق في هذا إلا مع الندم والعزم على الاستقامة، فمن صدق في رجعته لربه واستغفاره من ذنبه وجد الله كثير الغفران واسع الرحمة.

السوء: في اللغة كل ما يقيح، وكل ما يكرهه ونسأله منه من سوء، أو من شيئاً يحرص هو على سلامته.

وأطلق عمل سوء في القرآن على ارتكاب الذنب سواء أكان من الصغائر أو من الكبائر، لأنه عمل قبيح من جهة، وعقوبته تسوء مرتكبه من جهة أخرى، وإذا كان هذا العمل من قبيل العدوان على ذي شعور يذكرك العمل القبيح فإنه يسوؤه أن يغتدى عليه.

﴿أَوْ يَطْلَمْ نَفْسَهُ﴾

أي: بارتكاب معصية من المعاصي الظاهرة أو الباطنة مع الناس أو بينه وبين ربه، لأنه يعرض نفسه لعقوبة الله ونقمته، وظلم النفس يكون بارتكاب أعظم المعاصي كالكفر بالله والنفاق والشرك، بارتكاب الكبائر وكل معصية تجلب لمرتكبها عقوبة أو خسراناً عند الله.

ونتساءل: لم قسم الله في هذه الآية المعاصي إلى قسمين:

القسم الأول: سمأه الله سوءاً.

والقسم الثاني: وصفه الله بأنه من قبيل ظلم مرتكبه لنفسه.

وبالتأمل يُمكن أن نُجيب: بأنَّ عَمَلَ السُّوءِ يَشْمَلُ كُلَّ عَمَلٍ يُذْرِكُ النَّاسَ قُبْحَهُ، فَيَسُوُّوهُمْ أَنْ يَرْتَكِبَهُ مَذْنِبٌ، أَمَّا الْمَعَاصِي الَّتِي يَظْلِمُ الْإِنْسَانُ بِهَا نَفْسَهُ ففِيهَا أَنْوَاعٌ لَا يُذْرِكُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ قُبْحَهَا، كَالْأُمُورِ الْخَاصَّةِ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، وَبِذَا اللَّهُ بِمَا يُذْرِكُهُ النَّاسُ مِنْ عَمَلِ السُّوءِ، وَهُوَ بَعْضُ أَفْرَادٍ مَا يَظْلِمُ بِهِ الْعَبْدُ نَفْسَهُ، وَيَعْنَهُ ذِكْرُ الْعُنْوَانِ الَّذِي يَشْمَلُ كُلَّ الذُّنُوبِ، مَا يُذْرِكُ النَّاسَ سُوءَهُ مِنْهَا وَمَا لَا يُذْرِكُونَ، مِمَّا أَبَانَهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ فِيمَا أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ، وَلَا سِوَا الْأُمُورِ التَّعْبُدِيَّةِ.

• قول الله عز وجل:

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝﴾

أي: وَمَنْ يَضُمُّ إِلَى نَفْسِهِ بِعَمَلِهِ إِثْمًا يَحْمِلُ ثِقَلَهُ، فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ جَانِبًا عَلَى نَفْسِهِ ظَالِمًا لَهَا، وَلَا يَكْسِبُهُ لِنَفْسِهِ وَإِنْ بَدَأَ لَهُ فِي عَاجِلِ أَمْرِهِ أَنَّهُ لِمَنْفَعَتِهِ وَلِذَنْبِهِ، لِأَنَّ الْعِبْرَةَ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ، لَا بِأَوَائِلِهَا الَّتِي تَغُرُّ الْمُتَعَجِّلِينَ، وَالْإِثْمُ هُوَ الذَّنْبُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ مَرْتَكِبُهُ الْعُقُوبَةَ، مِنْ صَغَائِرِ الذُّنُوبِ وَكِبَائِرِهَا.

إِنَّهُ بِعَمَلِهِ الَّذِي يَظُنُّ أَنَّهُ يَكْسِبُ بِهِ شَيْئًا لِمَصْلَحَةِ نَفْسِهِ، إِثْمًا يَكْسِبُ بِهِ شَيْئًا يُنْزِلُ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ ضَرَرًا وَعُقُوبَةً، فَهُوَ عَلَى نَفْسِهِ لَا لَهَا.

إِنَّهُ سَيَكُونُ عَرْضَةً لِلْحِسَابِ وَفَصْلَ الْقَضَاءِ وَالْجَزَاءِ يَوْمَ الدِّينِ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْأُمُورِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝﴾

فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَعْلَمُ الشَّامِلَ بِحَاسِبِهِ عَلَى عَمَلِهِ، وَيَحْكُمُ بِهِ بِجَازِيهِ بِالْعَدْلِ، إِنْ لَمْ تَقْتَضِ حُكْمَةُ اللَّهِ أَنْ يَشْمَلَهُ بِمَغْفَرَتِهِ وَالتَّجَاوُزِ عَنْ مَعَاصِيهِ.

• قول الله عز وجل:

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِي بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ۝﴾

الْخَطِيئَةُ: تُطْلَقُ عَلَى مَا يُخَالِفُ الصُّوَابَ وَالْمَطْلُوبَ مِنَ الْعَبْدِ عَنْ عَمْدٍ أَوْ خَطَأً،

من صغار المخالفات وكبارها، وعلى الذنوب كلها.

والإثم: هو الذنب الذي يستحق عليه فاعله العقوبة من الصغائر والكبائر. والمعنى: ومن يعمل خطيئة أو يعمل إثماً، ثم يرم بالذي كسبه من خطيئة أو إثم إنساناً بريئاً، لئيبعد التهمة عن نفسه، أو ليوقع البريء في نظر الناس بارتكاب الإثم مكرأ به وكيداً له، وليتخلص منه أو من مكانه الاجتماعية، بما ينزل فيه من عقاب عمل لم يعمل. فقد احتمل من الجرائم جثلاً ثقيلاً لا يستطيع حمله إلا بتكليف ومشقة، وهذا الحمل يشبه على جريمتين كبيرين:

الجريمة الأولى: البهتان وهو افتراء الكذب.

والجريمة الأخرى: الإثم المبين، وهو ما كان منه من قذف للبريء بما يجزر عليه العقوبة، وهو ظلم عظيم، من الكبائر الكبرى، وبما يصبه في نظر الناس من ارتكاب الإثم الذي هو بريء منه، وربما يكون هذا أشدّ إيلاًماً له من العقوبة، وهو أيضاً ظلم عظيم من الكبائر الكبرى.

وقد اشتملت قصة بني أبيرق على هذا النوع من الجرائم، إذ ارتكب مرتكبهم الإثم الكبير، ثم رموا به شخصاً غيره من البراءة.

* قول الله عز وجل:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ وَمَا يُضْلُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصُرُونَكَ مِنْ شَيْءٍ...﴾ (١١٣)

أي: ولولا فضل الله عليك يا محمد بالبصرة والجفط، وكف المضلين عنك، ولولا رحمته أيضاً بالمغفرة لما لا يليق بمنزلتك العظيمة، لهمت طائفة منهم من أهل الكيد والمعصية والنفاق، أن يضلوك عن الحق بما رغبا في أن يقدموا لك من حجاج وأقوال كاذبة خادعة، لكنهم ما استطاعوا أن يصلوا إلى مستوى ألهم^(١) الذي هو دون

(١) أخطأ بعض أهل التأويل في تفسير ألهم بالإرادة الجازمة أو بالعزم، فواقعه هذا الخطأ في مفاهيم غير مرادة من النص، انظر في (الفصل الرابع) من كتاب الأخلاق الإسلامية وأسها للمؤلف: مستويات توجه النفس إلى العمل الإرادي بمواقع المسؤولية.

الإرادة الجازمة التي تدفع إلى التنفيذ عادة، فضلاً عن أن يصلوا إلى مستوى الإرادة الجازمة، ثم التنفيذ بسبب فضل الله عليك ورحمته، فوجود فضل الله عليك ورحمته، جعل رغبتهم لا تصل إلى مستوى الهم بأن يضلوك.

ولو أنهم حاولوا أن يضلوك فإنهم لا يضلون إلا أنفسهم، إذ ينكشفون ويسقطون في المكيدة التي سيكيدونها، وما يضرؤنك بضرر ما من شيء من الأشياء التي يمكن أن تضر.

فبسبب فضل الله عليك ورحمته ما وقع منهم هم بأن يضلوك، ولو وقع منهم هذا الهم لما أضلوا إلا أنفسهم، ولما استطاعوا أن يضرؤك ضرراً متزعماً من شيء من الأشياء.

وفي هذا البيان تنبيه موجّه لأهل الكيد والمكر أن يكفوا كل جيلهم، فالله حافظ رسوله من كل ما يمكن أن يكون منهم من مكر سيئ وكيد عظيم، وعاصم له من الناس.

* قول الله عز وجل:

﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

يتابع الله خطابه لرسوله فيمتن عليه بأنه أنزل عليه الكتاب الذي هو القرآن المجيد، وأنزل عليه الحكمة، وهي كل ما دلت عليه السنة النبوية من قول أو فعل أو خلق أو إقرار. وعلمه فوق ذلك من العلم في غير قضايا الدين ما لم يكن يعلم. وامتن عليه بأن فضله عليه بذلك وبغيره من عطاءات جليات كان عظيماً.

والمقصود من توجيه هذا الامتنان إشعاره بمسؤوليته العظيمة تجاه ربه، بالنسبة إلى كل ما تفضل الله به عليه، من تشريف بإنزال الكتاب والحكمة عليه، وهبة العلم، وعطاءات الفضل العظيم.

* قول الله عز وجل:

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

بمناسبة التناجي السري الذي حصل بين بني أبيرق وبعض الذين جادلوا عنهم من أوليائهم، وجه الله عز وجل عامة المسلمين بشأن الاجتماعات السرية، التي تكون داخل المجتمعات، بعيداً عن مراقبة قادة المسلمين ذوي البيعة الإسلامية الصحيحة، مبيناً لهم ضرورة البقطة والحذر من التجمعات التي تحدث داخل المجتمع المسلم، والتي تكون فيها النجوى، أي: الأحاديث السرية بعيداً عن علم ومراقبة القيادة المؤمنة المسلمة.

إن الاجتماعات السرية التي تكون فيها النجوى بعيداً عن علم ومراقبة قيادة المسلمين المؤمنة الرشيدة اجتماعات مشبوهة بصفة عامة لا خير في كثير منها:

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ﴾.

فالقاعدة العامة بالنسبة إلى هذه التجمعات والتكتلات التي لها مجالس نجوى تجري فيها أحاديث سرية، أنها لا خير في كثير من نجواها، بل احتمالات الإضرار فيها بمصالح المسلمين أفرادهم أو جماعاتهم أو دولتهم هي الاحتمالات الأكثر.

إذن فيجب مراقبتها والحذر منها، ويجب على جماهير المسلمين أن لا يلجؤوا إليها باستثناء بعض الصور، ومنها صور ثلاثة يمكن أن يقاس عليها أشباهها، وهي ما أبانته الله عز وجل بقوله:

﴿إِلَّا مَن أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾:

فالصورة الأولى: مجلس تكون فيه نجوى قائمة على أمر بصدقة لذي حاجة متعفف يكره أن تفتضح حاجته، محافظة على مكانته الاجتماعية، فالنجوى في هذا الأمر نجوى خير، يعطي الله من يفعلها ابتغاء مرضاته أجراً عظيماً.

والصورة الثانية: مجلس تكون فيه نجوى قائمة على أمر بمعروف أو نهي عن منكر، لشخص بعينه أو أشخاص بأعيانهم، فواجب النصيحة في مثل هذه الحالة أن

تكون نجوى، حديثاً في السر، لا حديثاً معلناً، وإلا كان فضيحةً لا نصيحة، وربما جرأته الفضيحة على التماذي في الغي، والمجاهرة بالإثم، مع المكابرة والعناد، فالنجوى القائمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأشخاص بأعيانهم يُعطي الله من يفعلها ابتغاء مرضاته أجراً عظيماً.

والصورة الثالثة: مجلس تكون فيه نجوى قائمة على محاولة إصلاح بين فريقين متخاصمين أو متعاديّين من الناس، فالنجوى في قضايا الإصلاح بين الناس تُهيئ أحسن الظروف لتقريب وجهات النظر، وتهديم عوامل الشقاق والخلاف، وتغيير الأفكار التي تستثير الغضب وتوقظ الحميات والأنانيات، وإطفاء نار الفتنة، وإعطاء فرصة للمُصلحين أن يكتموا عن الفريقين كثيراً مما يعلّمون ويُسْمعون منهما، وأن يقولوا من عندهم ما يكون سبباً في تأليف القلوب، وإنشاء المودات، عملاً بقول الرسول ﷺ:

«لَيْسَ الْكُذَّابُ بِالَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَنْبِي خَيْرًا، وَيَقُولُ خَيْرًا».

(حديث صحيح رواه البخاري ومسلم)

والإمام أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم)

فَيَنْبِي خَيْرًا: أي: يُلْغُ حديثاً ويرفعه على وجه الخير، للإصلاح. يُقَالُ لُغَةً: نَمَى الرَّجُلُ الْحَدِيثَ، إِذَا رَفَعَهُ وَبَلَّغَهُ عَلَى وَجْهِ الْإِصْلَاحِ.. أَمَا نَمَى الْحَدِيثَ بِالتَّشْدِيدِ يُنْعِمُهُ تَنْمِيَةً، فَهُوَ أَنْ يُلْغَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ كَلَاماً عَنِ الْفَرِيقِ الْآخَرِ، عَلَى وَجْهِ الْإِفْسَادِ وَالنِّمَةِ، وَهَذَا مَذْمُومٌ، وَهُوَ مِنَ الْكِبَائِرِ.

فلاحظ الفرق بين نَمَى الْحَدِيثِ يُنْعِمُهُ بالتخفيف وبين تَمَأَهُ يُنْعِمُهُ بالتشديد.

فالنجوى القائمة على الإصلاح بين الناس ابتغاء مرضاة الله يُعطي الله عليها أجراً عظيماً.

وبعد بيان الصّور الخيرة المستثناة من عموم النجوى، قال الله عز وجل:

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿١٧٤﴾

المشار إليه باسم الإشارة [ذَلِكَ] الصور الثلاث التي سبق شرحها.

قول الله عز وجل:

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولَٰئِكَ مَتَوَلَّيْهِمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝١١٥﴾

يدخل في عموم مشاققة الرسول كل عمل يخالف سبيل المؤمنين، ومنه التناجي في السر بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، بدليل الإحالة على هذا النص في النص اللاحق الذي أنزله الله في سورة (المجادلة) في الآية (٨) منها، كما سيأتي بيانه إن شاء الله^(١).

ومن هذه المشاققة ما كان من المناق السارق من بني أبيرق «بشير» على ما جاء في رواية سبب النزول، إذ فر من المدينة دار الإسلام يومئذ، وخرج عن جماعة المسلمين، وأتبع غير سبيلهم، ولحق بالمشركين في مكة، حين انكشف أمره، وخاف من إنزال عقوبة السرقة به، وقد أبان الله عز وجل سُنَّته الثابتة في كل من يشاقق الرسول من بعدما تبين له الهدى (وهو الحق الذي أنزله الله على رسوله) ويتبع غير سبيل المؤمنين، بإرادته الحرة، وهذه السُنَّة تلخص بثلاثة عناصر.

العنصر الأول: أن الله عز وجل يُمكنه من متابعة مسيرة حياته، وفق ما اختار هو لنفسه، حتى تنتهي رحلة امتحانه في الحياة الدنيا، ليلقى عند ربه يوم الدين حسابه وجزاءه.

فما اختار لنفسه فتولاه، بأن أحبه واعتقده ولزمه وأتبعه، من مفهومات، وأعمال، وشياطين إنس وجن، ولأه الله إياه، فسخر له الوسائل والأسباب، ومختلف الظروف لما يريد مما تولى، ومكنه من ذلك ضمن سته العامة لكل عباده، دل على هذا العنصر قول الله عز وجل:

﴿تُولَٰئِكَ مَتَوَلَّيْهِمْ﴾

(١) وهي قول الله تعالى فيها: ﴿أَلَمْ نَزَلْ إِلَى الَّذِينَ نُهَوُا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهَوُا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ...﴾ (من المجادلة/٥٨).

أي: نمكته من أن يتولى ما اختار هو لنفسه أن يتولاه، فنجري له الأسباب على وفق السنن العامة، دون أن نمنع عنه شيئاً منها، ما لم نقض الحكمة العامة له أو لغيره بعدم تحقيق مراده.

العنصر الثاني: أن يُدبِّقَه الله عذاب الحريق في جهنم. يُقَالُ لُغَةً: صَلَبِ النَّارِ وَصَلَبِي بِهَا يَصْلِي صَلًى وَصَلِيًّا، إذا احترق فيها. ويُقَالُ: أَصْلَاهُ النَّارَ وَأَصْلَاهُ بِهَا وفيها وعليها إذا شَوَّاهُ عليها وأحرقه.

دل على هذا العنصر قول الله عز وجل:

﴿وَتُصَلِّهِمْ جَهَنَّمَ﴾.

العنصر الثالث: أن يجعله الله خالداً في جهنم إذ تكون هي مصيره الأخير الذي هو صائر إليه، وساء ذلك المصير، دل على هذا العنصر قول الله عز وجل:

﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

إن التعذيب بنار جهنم قد يكون تعذيباً مؤقتاً، إذ يكون المصير الأخير لبعض المعدبين فيها الجنة دار النعيم، لكن هذا الذي شاق الرسول وأتبع غير سبيل المؤمنين يُصَلِّيه الله جهنم، ويجعلها مصيره الأخير، فيكون خالداً فيها، ولتأكيد الدلالة على هذا المعنى، جاءت جملة الذم: ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ مفصلة بالعطف الذي يقتضي نوعاً من التناير الذي فيه إضافة عنصر جديد للعنصرين السابقين، وليست مجرد جملة ذم لجهنم.

* * *

قول الله عز وجل:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

اشتملت قصة سرقة المناقب من بني أبيرق على كبيرة السرقة، والكبيرة الأشد التي هي قذف أحد البراء بها، وعلى الكبيرة المكفرة الكبرى التي هي مشاقة وبشيرة للرسول، وخروجه عن جماعة المسلمين، ولُحِقَ به بالمشركين.

إِنَّ هَذِهِ الْمُنَاسِبَةَ اسْتَدَعَتْ أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ بَيَاناً حَوْلَ مَا يُغْفَرُ وَمَا لَا يَغْفَرُهُ مِنَ الْمَعَاصِي .

فوضع الله عز وجلّ حدّاً فاصلاً، أبان فيه أوّل دركات الكبائر الكبرى التي لا يَغْفِرُهَا، إِذْ تَقَعُ تَحْتَ أَذْنَى تَرَجَاتِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، وتبدأ عندها أوّل دركات الكفر.

ونفهم من بيان هذا الحدّ الفاصل أَنَّ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْ هَذِهِ الدُّرَكَةِ مِنْ دركات الكفر، لا يَغْفَرُهُ اللَّهُ مِنْ بَابٍ «أَوَّلِي» .

إِنَّ أوّل دركات الكبائر التي لا يَغْفَرُهَا اللَّهُ دُرَكَةُ الشُّرْكِ بِهِ، إِذَنْ: فما هو أشدُّ مِنَ الشُّرْكِ كَالْكَفْرِ بِوُجُودِ اللَّهِ، وَالْكَفْرِ بِصِفَاتِهِ، وَالْكَفْرِ بِرُسُلِهِ وَمَا أُنْزِلَ، إِلَى سَائِرِ أَنْوَاعِ الْكَفْرِ وَصُورِهِ جَرَائِمَ لَا يَغْفَرُهَا اللَّهُ حَتْمًا.

وبعد بيان هذا الحدّ الفاصل أبان جلّ وعلا أَنَّ مَا هُوَ أَخْفُ مِنْ دُرَكَةِ الشُّرْكِ بِهِ مِنْ كُلِّ الْمَعَاصِي كِبَائِرُهَا وَصَغَائِرُهَا قَابِلَةٌ لِأَنْ يُغْفَرَهَا اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ .

بعد هذا أبان تعالى السبب في كونه لا يَغْفِرُ الشُّرْكَ بِهِ فما هو أشدُّ مِنَ الشُّرْكِ مِنْ أَنْوَاعِ الْكَفْرِ، وَهُوَ أَنَّهُ ضَلَالٌ بَعِيدٌ جَدًّا، فَصَاحِبُ هَذَا الْكَفْرِ قَدْ أَبْعَدَ نَفْسَهُ عَنْ كُلِّ دَائِرَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ بِالْعَفْوِ وَالْغُفْرَانِ، فَهِيَ لَا تَشْمَلُهُ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾

ونلاحظ في هذه الآية دليلاً لقول جمهور الفقهاء والعلماء من أَنَّ مِنْ تَرْكِ الصَّلَاةِ تَهَاوُنًا وَتَكَاسُلًا غَيْرَ جَا حِدٍ لَهَا وَلَا مُسْتَكْبِرٍ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ، فَلِئَنَّهُ لَا يَكْفُرُ، وَلَا يَخْرُجُ مِنَ الْمِلَّةِ، وَلَا يَكُونُ مُحَرَّمًا مِنْ احْتِمَالِ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُ إِذَا شَاءَ، لِأَنَّ تَرْكَ الصَّلَاةِ دُونَ الشُّرْكِ بِاللَّهِ حَتْمًا.



النص الثامن عشر

وهو من سورة (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول)

سادس سورة مدنية

الآيات من (١٣٦ - ١٤٧)

بشأن قسم المذبذبين من المنافقين،

وبعض صفات عموم المنافقين

قال الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ؕ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ؕ
وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ؕ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا
لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِيرِ الْمُتَّقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ
يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبِنُغُوتَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ
جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا
تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ؕ إِنَّكُمْ إِذَا أَنْتُمْ مُتَّفِقُونَ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُتَّقِينَ
وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا
أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُم مِّنَ
الْمُؤْمِنِينَ قَالَهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾
إِنَّ الْمُتَّقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى بُرَاءُونَ

النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٣٦﴾ مَذْهَبَيْنَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجْدَلَ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَانْتَحِدُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٣٨﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجْدَلَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٣٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٠﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤١﴾

(١)

ما في النص من القراءات المتواترات (من الفرش)

• في الآية (١٣٦):

(١) قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: [وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ] بالبناء لما لم يسم فاعله في «نَزَّلَ» و«أَنْزَلَ».

(٢) وقرأ باقي العشرة: [نَزَّلَ وَأَنْزَلَ] بالبناء للمعلوم في الفعلين.

وفي القراءتين تنوع في الأداء البياني، وقراءة جمهور القراء تُفسر القراءة الأخرى.

• في الآية (١٤٠):

(١) قرأ عاصم، ويعقوب: [وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ] بالبناء للمعلوم. في فعل [نَزَّلَ].

(٢) وقرأ باقي العشرة: [وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ] بالبناء لما لم يسم فاعله.

وفي هاتين القراءتين أيضاً تنوع في الأداء البياني.

• في الآية (١٤٥):

(١) قرأ الكوفيون «عاصم، وحمة، والكسائي، وخلف»: [في الدُّرْك] بإسكان الرءاء.

(٢) وقرأ باقي القراء العشرة: [في الدُّرْك] بفتح الرءاء.

والقراءتان وجهان غريبان للكلمة، وقيل: «الدُّرْك» بفتح الرءاء جمع «دَرَكَة».

* في الآية (١٤٦):

(١) قرأ يعقوب في الوقف: [وَسَوْفَ يُؤْتِي] بإثبات الياء على القاعدة النحوية.

(٢) وقرأ باقي القراء العشرة [وَسَوْفَ يُؤْتِي] بحذف الياء مطلقاً وصلماً ووقفاً، مراعاةً لرسم المصحف، وحذف الياء جاء للتخفيف ومراعاة حالة الوصل، فالقراءتان وجهان من الأداء العربي.

* * *

(٢)

موضوع النص

يتناول هذا النص الحديث عن صنف من المنافقين، وهم المنافقون المذبذبون بين المؤمنين والكافرين، المترددون بين الإيمان والكفر، فهم قَلْبُون لا استقرار لهم، ولا ثبات لهم على رأيٍ اعتقاديٍّ واحد، ولا منهج سلوكي صادق واحد.

وتناول هذا النص كشف طائفة من صفاتهم، فهم يؤمنون، ثُمَّ يَكْفُرُونَ، ثُمَّ يؤمنون، ثُمَّ يَكْفُرُونَ، وهذا التردد يجعلهم في حالة نوبة الإيمان يتطلعون إلى الكافرين ذوي القوة الظاهرة، فيتنفون أن يستندوا إليهم، ويتقوؤا بهم، ويوالوهم من دون المؤمنين، وهذا يدفعهم إلى أن يُكْبِرُوا من مجالستهم في مجالسهم، ويَغْضُوا النظر عما يسمعون منهم من كُفْرٍ بآيات الله المنزلة على رسوله واستهزاء بها.

وهذا التردد الذي هو وصفهم، إذ يتعاقب عليهم الإيمان والكفر، يجعلهم وهم في نوبة الكفر يطلون محافظين على الانتماء إلى الإسلام في الظاهر، ويجعلهم في حالة تريب دائم بين المؤمنين والكافرين، يُراقبون الأحداث بين الفريقين، فمن غلب أو غنم منهما أقبلوا عليه مطالبين بالمشاركة، زاعمين له أنهم منه.

وحالة التذبذب النفسي لدى هذا الصنف من المنافقين تدفعه إلى أن يتخذ أسلوب المخادعة لسر حقيقته .

ومن علامات هذا الصنف من المنافقين في ظاهرات السلوك الإسلامي، ومن علامات سائر المنافقين ما يلي :

(١) أنهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، يراءون الناس، إذ لم تستقر قلوبهم، على الإيمان حتى يؤمنوا بجدوى الصلاة، وكذلك سائر الأعمال الإسلامية، والمراي لا يستطيع أن يكون منفعلاً منفعلاً ذاتياً مع العمل الذي يؤديه رياء ومخادعة .

(٢) أنهم لا يذكرون الله إلا قليلاً، إذ هم في نوبة اتجاه قلوبهم للإيمان ويقاها فيه قد يذكر الله عز وجل، لكن هذه النوبة لا تطول، إذ سرعان ما يرتدون إلى الطرف الآخر الأقصى باطناً، وإن ظلوا محافظين في الظاهر على الإسلام ومشاركة المسلمين في أعمالهم، والانخراط في صفوفهم .

وجاء في النص مراعاة نوبة الإيمان الذي يكون له إشراق ما في قلوبهم، فيطالبهم بأن لا يتخذوا الكافرين أولياء، لئلا يجعلوا لله عليهم حجة واضحة بأنهم يستحقون العقاب الشديد، كما هو موجه لسائر المؤمنين .

وجاء في النص مراعاة نوبة الكفر الذي يغلف بصائرهم، مع محافظتهم على ظاهر إسلامهم، فيوجه لهم الوعيد بأن المنافقين في الدرك الأسفل من النار .

وبعد ذلك يفتح الله عز وجل لهم باب التوبة وإصلاح وضعهم بالإيمان الثابت المستمر، والاستقامة على مقتضيات الإيمان، وإخلاص دينهم لله عز وجل، ويعدهم بأن يكونوا مع المؤمنين، ويتجاوز عن تقلبهم السابق بين الإيمان والكفر، إذا تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله، وأخلصوا دينهم لله، ويبين الله لهم أنه ليس له سبحانه غرض خاص بعبادهم، أي: لكن قانون الجزاء العام الذي تقتضيه الحكمة لا بد أن يتفقد بالعدل، فإذا تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله، وأخلصوا دينهم لله، استحقوا بمقتضى قانون الجزاء العام وقانون الغفران لمن تاب قبل فوات الأوان أن يغفر الله لهم ما كان منهم قبل التوبة والاستقامة من تردد وتقلب بين الإيمان والكفر .

(٣)

المفردات اللغوية في النص

﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ﴾:

هذه من الصفات السلبية لله عز وجل، أي: من صفاته التي يتصف بها دوماً من الأزل إلى الأبد أنه سبحانه لا يغفر لمن تركدوا بين الإيمان والكفر، ثم استقرؤا أخيراً على الكفر وازدادوا فيه، وانتهت رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا وهم كذلك.

واللام في [يغفر] يُسميها النحاة لام الجحود، لوقوعها بعد كون منفي، أي: هي لتأكيد معنى النفي.

﴿يَشِيرَ الْمُتَنَفِّقِينَ يَأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾:

يقال لغة: يَشِرُ يَشِيرُ، إذا أَخْبَرَهُ بما يَسِرُّه ويَفْرِحُه، وكذلك أَبَشَرَهُ، وبَشَرَهُ يَبْشُرُهُ بَشَرًا وبُشْرًا وبُشُورًا، والاسم «البُشْرَى» وقد تُستعمل هذه العادة اللغوية في الإخبار بالبشر وبما يسوء، وقد يقال: هذا على سبيل التهكم، باستعمال اللفظ في ضد ما وُضِعَ له.

﴿الْعِزَّةُ﴾:

العِزَّة: هي القُوَّةُ الغالبة، يقول العرب: مَنْ عَزَّ بَرٌّ، أي: من غلب سلب.

﴿حَقَّ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾:

أصل الخَوْضِ: الغُثْيُ في الماء وتحريكه، ثم استعمل في التلبس بالامر والتصرف فيه. ومن التوسع استعمال «الخَوْضِ» بمعنى اللبس في الأمر، فالخَوْضُ من الكلام ما فيه الكذب والباطل.

تقول لغة: خاض الماء يَخُوضُه خَوْضًا وَجِياضًا، وتقول اختاض وتَخَوَّضَ.

واستعمل في بيانات الرسول التَخَوُّضُ في مال الله. بمعنى التصرف فيه بما لا يرضاه الله، وجاء في سورة (الأنعام/٦) استعمال الخوض في آيات الله بمعنى الطعن فيها والكفر والاستهزاء بها، فقال الله عز وجل فيها:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ﴾ (١٣٦)

وقد جاء بيان هذا الخوض في آيات الله في قوله تعالى الذي نتدبره من سورة (النساء):

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَعْدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِذَا أَثْمَلْتُمْ أَنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ۚ﴾ (١٣٧)

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ :

التربص الانظار، يقال لغة: ترَبَّصَ فلانُ بفلان، اي: انتظر به خيراً او شراً يحلُ به. وكذلك يقال: ربَّصَ بفلانٍ يَرَبِّصُ رَبْصاً. ويقال: ترَبَّصْ بسلعة الغلاء، اي: انتظره.

﴿فَتَحَّ مِنَ اللَّهِ﴾ :

اي: نصر من الله.

﴿نَصِيبٌ﴾ :

النصيب الحظ من كل شيء، والجمع: «أَنْصِبَاءُ وَأَنْصِبَةٌ وَنُصْبٌ».

﴿الَّذِينَ اسْتَحْوَذَ عَلَيْكُمْ﴾ :

يقال لغة: اسْتَحْوَذَ على الشيء، إذا حَوَّاهُ. والحاوي للشيء يضمه ويحميه. ويقال: استحوذ عليه إذا غلبه واستولى عليه.

قال أبو إسحق: أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ معناه: ألم نستولِ عليكم بالموالاة لكم. وقال الجوهري: اي: ألم نغلبْ على أُمُورِكُمْ ونستولِ على مَوَدَّتِكُمْ.

أقول:

بما أن من معاني استحوذ على الشيء معنى «حَوَّاهُ» فلا حاجة إلى اعتماد المعنى الآخر وهو الغلبة على الشيء والاستيلاء عليه بالقوة، وتكَلَّف تأويل الجملة حتى تتفق مع ما هو ظاهر من المراد منها.

وعلى هذا يكون المعنى: ألم نُحِطْ بِكُمْ إحاطة حماية ومعونة ونُصْرَة، وثاني جملة:

﴿وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾:

بمعنى ونحميكم ونحفظكم من تسلط المؤمنين عليكم، وغلبتهم لكم، متممة لفكرة الاستحواذ بمعنى الإحتواء والإحاطة، فالمنع في اللغة الحماية والحفظ.

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾:

المخادعة: هي إظهار ما يؤهم الصدق والسلامة والسداد، وإبطان ما فيه خلاف ذلك.

والمخادعة تتضمن استغلال من يُرادُ خدعه، لإيقاعه فيما يكره، بأن يُظهر له المخادع ما يُحب، ويخفي عنه ما يكره، تغريراً به.

وأصل مادة «خدع» فيها معنى الاستخفاء والتواري، ومنها «المخدع». وفعل «يُخادع» بهذه الصيغة يَدُلُّ في الأصل على المشاركة، ويَدُلُّ أيضاً على المبالغة والاجتهاد الزائد في العمل ولو كان من طرف واحد، لأنَّ مَنْ يُغالِبُ غيره في عمل ما يُبالغ من طرفه يَدُلُّ غاية الجهد الذي يَسْتَطِيعُ بِذَلِكَ، والمنافقون يُبالغون جداً في استخدام الخداع، ويؤمنون فيه يَدُلُّ غاية جهدهم، حتى كأنهم في معركة مخادعة بينهم وبين المؤمنين.

ويَدُلُّ الفعل المضارع في [يُخَادِعُونَ] على تجديد الخدع وتكريره مع مرور الزمن، وهو ما يحتاج إليه المنافقون باستمرار.

وتساءل: كيف يخادعون الله وهو العليم بسرّاتهم، ويكل ما يمكرون؟

والجواب: أنهم حين يخادعون الذين آمنوا مع أنَّ الله معهم، وهو وليهم، إنما يخادعون مغهم الله ربهم، الذي يتولاهم بتأييده ونصره، ويحميهم من مكر المنافقين والكافرين ومكائدهم. فالمنافقون بسبب غفلتهم عن هذه الحقيقة، أو بسبب جحودهم لها لا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، وذلك لأنهم هم الراقعون في شر أعمالهم، والساقطون في الحُفَر التي يحفرونها للمؤمنين، وهذا يبين أنهم هم المخدوعون لا الخادعون،

نظراً إلى أن خديعتهم مردودة عليهم من حيث لا يشعرون، وأن سيئاتهم مُتَقَلِّبَةٌ إلى نُحُورِهِمْ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، وبما أن ما يجري عليهم إنما يجري بتدبير الله العزيز الحكيم، وهذا التدبير خفي عنهم، والله يُعَاقِبُهُمْ بِمِثْلِ عَمَلِهِمْ، إذ يستدرجهم من حيث لا يشعرون، حتى يُوقِعَهُمْ بِشَرِّ عَمَلِهِمْ الذي يَمْكُرُونَ به، أو بنظيره، قال الله عز وجل: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾. أي: مجازيهم بمثل عملهم، أو موقعهم في عاقبة الأمر الذي أرادوه للمؤمنين، وخادعوا فيه.

﴿يَرَاءُونَ النَّاسَ﴾ :

أي: يُظْهِرُونَ للناس أنهم أهل خير وصلاح، وهم على ضد ذلك. يقال لغة: رَآهُ يُرَآئِيهِ مُرَاءَةً، ورِءَاءٌ ورِئَاءٌ، أي: أراه أنه منصفٌ بالخير والصلاح على ضد ما هو عليه.

﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ :

يقال لغة: ذَبَذَبَ فُلَانٌ فُلَانًا، إذا جعله حيرانَ يتردد بين طرفين، أو فريقين. وذَبَذَبَ الشيء إذا حركه، فصار قلقاً مضطرباً. ويُقال: ذَبَذَبَ الشيءُ المُعَلَّقُ، إذا تحرك وتردد في الهواء. ويُقال: ذَبَذَبَ فُلَانٌ: إذا تردد بين أمرين، أو بين رجلين مثلاً، فلا تثبتُ صُحْبَتُهُ لواحدٍ منهما.

فَمُذَبِّذٌ: اسم مفعول، من ذَبَذَبَهُ الْمُتَعَدِّي، فما الذي جعل هذا الصنف من المنافقين مُذَبِّذِينَ؟

بالتفكير يتبين لنا أن عوامل في داخلهم متضادة تجاذبهم بين أقصى متباعدتين، هما الإيمان والكفر، نجد الخير ونجد الشر، فالرؤية الفكرية السليمة، ومشاعر البصيرة الوجدانية، ولَمَسَ الْمَلِكِ في داخلهم، نجذبهم إلى جانب الإيمان والمؤمنين، وأهواء نفوسهم، وشهواتهم، وتعلقهم بالدنيا، وسواوس شياطين الإنس والجن، تجذبهم إلى جانب الكفر والكافرين، وإذ قد فقدوا الإرادة الجازمة الحازمة بعدم استعمالهم لها صاروا مُذَبِّذِينَ بَيْنَ قُوَّتَيْنِ مُكَافِئَتَيْنِ.

﴿سُلْطَنَا مُمَيَّنًا﴾ :

أي: حُجَّةٌ واضحةٌ.

﴿فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾:

الدَّرَكُ، والدَّرَكُ: اسْفَلُ كُلِّ شَيْءٍ ذِي عُمُقٍ. والدَّرَكُ الْأَسْفَلُ مِنَ النَّارِ، الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ طَبَقَاتِهَا النَّازِلَةِ فِي اتِّجَاهِ أَعْمَاقِهَا. فدار العذاب يومَ الدين كالبشر تبدأ من أعلى إلى أسفل، ودارُ النعيم يومَ الدين بعكس ذلك تبدأ من أدنى إلى أعلى، والفردوس منها أوسط الجنة وأعلاها.

وعلى اعتبار أن (الدَّرَكِ) بفتح الراء هو جمع دَرَكَةٍ، فإنَّ الدَّرَكَةَ هي عكس الدرجة، فالدرجة إلى الأعلى والدَّرَكَةَ إلى الأسفل.

﴿تَأْتُوا﴾:

أي: رَجِعُوا عَنْ مَعْصِيَتِهِمْ، يقال لغة: تَابَ، يَتُوبُ، تَوْبًا وَتَوْبَةً، وَمَتَابًا، وَتَابَةً، فَهُوَ تَائِبٌ وَتَوَّابٌ.

﴿وَأَصْلَحُوا﴾:

أي: فَعَلُوا مَا هُوَ صَالِحٌ بَعْدَ تَوْنَتِهِمْ وَأَصْلَحُوا الْفَسَادَ الَّذِي كَانَ فِي نَفْسِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ، مِنْ جَرَاءِ مَا كَانَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ نِفَاقٍ.

﴿وَأَعْتَصَمُوا بِاللهِ﴾: أي: تَقَوَّوْا بِاللهِ، وَامْتَنَعُوا بِهِ، وَلَمْ يَبْتَغُوا الْعِزَّةَ عِنْدَ الْكَافِرِينَ.

﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾:

الإخلاص لله في الدين، هو ابتغاء مرضاة الله في كُلِّ عَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ الدِّينِيَّةِ، الْقَوْلِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ.

(٤)

مع النص في التحليل والتدبر

• قول الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ

وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾

إن الإيمان حركةٌ قلبيةٌ تَحَرَّكَةُ الحياة، من آثاره حركةُ العبادات التي يجب أن
تتجدد دوماً، دليلاً على فاعلية الإيمان وحياته وحركته.

فإذا لم يَكُنْ للإيمان مدُّ يُغَذِّيه وَيُجَدِّدُهُ دوماً سَكَنٌ ويزد، وصار قابلاً لعوارض
الأمراض، وكلما طال تخزينه أوسجنته مُهملاً نائماً غافلاً، لا يأتيه مدُّ يُغَذِّيه بوسائل
حياته وحركته وفاعليته، كان أشدَّ عُرضَةً للضعف والأمراض التي تفسده، وإذا طال
عليه الأمد وهو على هذه الحالة كان بمثابة شيء لا فائدة منه من صنوف المهملات،
وربما نَبَذَهُ الْقَلْبُ وتخلَّى عنه، وتحول إلى الكُفْر الذي تُمدُّه دوماً الشُّبهات والشهوات
والأهواء ووساوسُ شياطين الإنس والجن.

من أجل ذلك، وبمناسبة الحديث الذي سيتناول المنافقين المذبذبين بين
الإيمان والكُفْر، إذ يُؤْمِنُونَ في نوبةٍ من حياتهم، ثم يَكْفُرُونَ في نوبةٍ أخرى، مع
المحافظة على ظاهر إسلامهم، ثم يعودون إلى الإيمان في نوبة، ثم يعودون إلى
الكُفْر، وهكذا. خاطَبَ الله عز وجل في بداية هذا النص الذين آمنوا، فأمرهم بأن
يُمِدُّوا إيمانهم دوماً، بما يُغَذِّيه ويجدده، ويجعله حياً يقظاً ذا حَرَكَةٍ كَحَرَكَةِ الحياة،
وذا فاعلية في السلوك الظاهر والباطن الملائم لمقتضياته، وبما يَمْنَعُ عنه العوارض التي
تُضَعِّفُهُ، وتُعْرِضُهُ، وتُضَيِّبُهُ، ثم قد تُمَيِّتُهُ.

إن الحب وهو من أشدَّ العواطف الفعالة في النفس، إذا لم يَكُنْ لَهُ وقودٌ دائم
سَكَنَ، ثم هَبَّجَ، ثم استولت عليه الغفلات، ثم سَلَا، ثم ضَعُفَ وهزُلَ، ثم مات،
فَنَبَذَ، وكذلك سائر العواطف.

والإيمان مع جانبه العقلي العلمي في دائرة الإسلام، لهُ في الْقَلْبِ حياةٌ
عاطفية، وهذه الحياة العاطفية هي التي تَجْعَلُهُ يُحَرِّكُ الإرادة التي توجّه السلوك، وحين
يَفْقِدُ الإيمان حياته العاطفية بسبب عدم إمداده بالأغذية التي ثلاثمه ليبقى حياً يقظاً،
فاعلاً، فإن الإرادة تستولي عليها عواطفٌ أخرى من عواطف النفس، وهذه العواطف
مضادةٌ للإيمان، فتوجّه سلوك الإنسان وجهةً أخرى مضادةً للسلوك الإيماني، وبمرور

الزمن لا يَتَقَيُّ للإيمان قُوَّةُ فاعلة، ولا أثر في السلوك، وينتهي به الأمر إلى أن يُمَيِّى مريضاً ضاويًا، ثم يكون عُرضَةً لَان يلفظ أنفاسه الأخيرة، ويُطْرَح خارجاً.

فالمؤمنون مطلوبٌ منهم أن يُجَدِّدُوا إيمانهم ويُمدِّدُوا دواماً بوسائل التنفيذ الملائمة له، التي تمدّه بالحياة والحركة والفاعلية، فقال الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ءَالِكِتِبِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُوْلِهِ ءَالِكِتِبِ الَّذِي اَنزَلَ مِنْ قَبْلُ...﴾ ﴿٦٧﴾

وهذا نظير أن تقول: يا أيها الأحياء أحيُوا أنفسكم دواماً بالغذاء والوقاية والدواء، وسائر وسائل استمرار الحياة.

إنهم وهم يُخَاطَبُونَ يَتَمَتَّعُونَ بالحياة، لكن هذه الحياة لا تستبِرُ فيهم ما لم يُبَلِّدوها بما يُغْذِيها وَيَقِيها وَيُحْيِيها ويُعالجها إذا مَسَّها عارضُ مَرَضٍ، فهم مُطَالَبُونَ بأن يُحْيُوا أنفسهم على هذا المعنى.

واقصر النص هنا على بعض أركان الإيمان لأن الإيمان بالكتاب الذي نَزَّلَهُ الله على رسوله، يَتَضَمَّنُ الإيمان بكل أركان الإيمان وعناصره، ولا يكون الإيمان بالكتاب إلا مسبوقاً بالإيمان بالله ورسوله.

وجاء الأمر بالإيمان بالكتب السابقة على وجه الخصوص، لتبرئة المؤمنين من التعصُّب للقرآن ضد سائر الكتب الربانية المنزلة من قبله، فالإيمان في الإسلام لا يتم ما لم يتحقَّق الإيمان بكل الأنبياء والمرسلين، وكل الكتب الربانية المنزلة.

والمراد من الكتاب الذي أنزل من قبل كل الكتب الربانية المنزلة من قبل القرآن، وذلك لأن أداة التعريف (أل) في [الكتاب] للجنس، فهي تشمل كل الكتب.

ولما كان إهمال الإيمان بعدم تغذيته الدائمة التي تجدد حياته وقوته وفاعليته، قد يُعرِّضُه للضعف والهزال والموت، وعندئذ يحلُّ الكفر محلَّه في القلب، حذَّر الله مَنْ يُخْبِثُ كُفْراً بَعْدَ إيمان، فقال تعالى:

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللّٰهِ وَمَلٰٓئِكَتِهٖ وَكُتُبِهٖ وَرُسُلِهٖ ءَالْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلٰلًا

بَعِيدًا﴾ ﴿٦٨﴾

فشمَل في التحذير من الكُفْرِ كلَّ عناصر الإيمان الأصول، وذلك لأنَّ الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى، هو من توابع الإيمان بالله في الحقيقة، وقد فُصِّل في البيان النبوي، فجاء رُكنًا خاصًا لأهميته، ولَمَّا يُلَاسُهُ من مسائل تُشكِّل على كثير من الناس.

ونفهم من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ﴾ بصيغة الفعل المضارع الدالَّة على إنشاء الكُفْرِ في الحال أو المستقبل، على تحذير المؤمنين على وجه الخصوص من أن يَنْشُؤُوا كُفْرًا بعد إيمانهم، ويقَعُلُوا كما يَقَعُلُ المنافِقُونَ المذبذبون الذين سيأتي الحديث عنهم، فهذا البيان هو بمثابة التوطئة للحديث عن هذا الصنف من المنافقين.

وجواب الشرط في قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ﴾ هو قوله تعالى:

﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾:

أي: فقد ابتعد عن صراط الهدى، وسلك مسالك الضياع، وأوغل في هذه المسالك إلى متاهات هو فيها بعيد جدًا عن مهبط رحمة الله وغفرانه وعفوه.

* قول الله عز وجل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾.

في هذه الآية بيان لصنف من المنافقين وهم المنافقون المذبذبون بين الإيمان والكفر، والمؤمنين والكافرين.

إنَّ هذا التذبذب ناتج عن تساوي قُوَّتي الجذب في داخل نفوسهم نحو الخير والشر، مع ضعف في إراداتهم عن أن يحزموا أمرهم، ويستقرُّوا كلياً في إحدى جهتي الجذب المتضادتين المتباعدتين في أقصى مُتَبَايِنَيْنِ.

وعلى سبيل المصالحة بين قُوَّتي الجذب المتكافئتين في داخلهم، التي لا يمكن أن تحصل في وقت واحد، للتناقض بين الإيمان والكفر، فهما لا يجتمعان معاً في قلب رجل واحد، إذ لم يجعل الله لرجلٍ من قلوبين في جوفه، بلجأ هؤلاء العاجزون

إلى اتخاذ أسلوب استرضاء القوتين بالتأوب في مختلف الأزمان والأوقات، فيؤمنون حيناً، ويكفرون حيناً، وتردّدون بين الإيمان والكفر، والمؤمنين والكافرين.

لكنّ هذا التردّد والتذبذب المتناوب لا يلبث طوَال عُمُر الواحد من هذا الصنف من المنافقين، إذ لا بُدّ بعد حين :

— إما أن تزداد لديه قوّة الجاذب إلى الإيمان، فيزداد إيماناً ويستقرّ فيه، وعندئذٍ يَسْمَلُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بمعوته، ويثبتهُ في الإيمان، ويحقّق له الهداية، ويَسْمَلُهُ بِمَغْفِرَتِهِ وعَفْوِهِ وواسع رحمته.

— وإما أن تزداد لديه قوّة الجاذب إلى الكفر، فيزداد كُفْراً ويستقرّ فيه، وعندئذٍ يجعله الله مع صنف المنافقين الكافرين في الباطن دواماً، ممن وصفهم الله بقوله في أوائل سورة (البقرة/٢) :

﴿صُمُّ بُكْمٌ عَلَىٰ قُهُمٍ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٢٨﴾

إنّه حين يزداد كُفْراً ويستقرّ فيه بعد طول تردّد يُعَمِّي إنساناً كافراً، لا يغفرُ الله له، ولا يَهْدِيهِ سَبِيلاً إلى نجاته وخلاصه ممّا هو فيه، بل يتركهُ وشأنه وكُفْرَهُ وما اختار هو لنفسه من سبيل، تطبقاً لسنّة العامّة في امتحان عباده ضمن ظروف اختيارهم الحرّ، ويُعَمِّي شأنه في هذا كُشْأَان سائر الكافرين عن إصرارٍ وتصميم، ذّا حالةٍ ميؤوسٍ من إصلاحها باختياره.

لكنّه حين كان في أطوار التردّد والتذبذب، كان حاله كحال المريض المحتار الذي يحتاج إلى مساعدة، فيساعدهُ الله بأنواع من المساعدات التي تُنَوِّرُ بصيرته عَنِ أن يتجه بإرادته الحرّة إلى الثبات في الإيمان، والاستقرار فيه.

فدلّ قوله تعالى في الآية :

﴿ثُمَّ زَادُوا كُفْرًا﴾ :

على أن عوامل الكفر فيهم قد زادت على مقدار التكافؤ مع عوامل الإيمان، فاستقرّوا في الكفر باطناً مع المحافظة على ظاهر الانتماء إلى الإسلام.

فانطبّق عليهم من موادّ قانون الامتحان مادّتان :

الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ﴾:

أي: من صفاته الدائمة سبحانه أنه لا يغفر لمن استقرَّ في الكُفْر وأصرَّ عليه دوماً، حتى لَبِّي ربه وهو على ذلك، وإنَّ زعم في الظاهر أنه مسلم.

الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾:

أي: ومن صفاته الدائمة سبحانه أنه لا يهدي من استقرَّ في الكفر بإرادة واعية جازمة، وأصرَّ عليه دوماً سبيلاً يحقق له النجاة والخلاص ممَّا هو فيه، بل يتركه وشأنه وكُفْرَهُ، وما اختار هو لنفسه من ضلالة، تطبيقاً لحكمة الاختبار القائم على حرية الإرادة في الاختيار.

* قول الله عز وجل:

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

خطابٌ مُوجَّه لكلِّ من يصلح للخطاب من المؤمنين، بأن يقول للمنافقين بأسلوب الإعلام العام: أَبَشِّرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ أَعَدَّهُ اللَّهُ لَكُمْ.

هذا الخطاب الموجَّه بأسلوب الخطاب الإفرادي لكلِّ مؤمنٍ صالح للخطاب يحقق غرضين:

الغرض الأول: إلزام أفراد المؤمنين بأن يوجهوا ضدَّ المنافقين ضغطاً اجتماعياً، يمارسه كلُّ واحدٍ بمفرده، ليجذَّ المنافقون أنفسهم منبوذين داخل المجتمع المسلم المؤمن.

الغرض الثاني: إشعار المنافقين بإعراض الله عنهم، وأنهم ليسوا أهلاً لمخاطبتهم بأسلوب الخطاب المباشر لهم، فهو يكلف كلِّ مؤمن بأن يوجَّه لهم هذا الخطاب.

* قول الله عز وجل:

﴿الَّذِينَ يَتَخَذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٩).

في هذا بيان لبعض صفات المنافقين، فمن صفاتهم أنهم يجعلون الكافرين أولياء لهم، يوادونهم، ويتعاونون معهم، ويتواعدون معهم على المناصرة والتأييد، من دون المؤمنين، أي: من غير المؤمنين الذين هم دون المؤمنين عند الله، لأنهم سافلون عقيدة وسلوكاً، وسافلون منزلة في دار العذاب يوم الدين.

﴿يَتَخَذُونَ﴾:

أي: يجعلون، «اتَّخَذَ» على وزن «افْعَلَ» من الأخذ، ومن معاني هذه الصيغة المبالغة في معنى الفعل، والاجتهاد في الطلب، فهم يعملون مجتهدين متخذين مختلف الوسائل لجعل الكافرين أولياء لهم.

﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾:

كلمة «دُون» في اللغة، تأتي في الأصل مقابلة لكلمة «فوق» فهي مثل: «تحت» وكل من «فوق ودُون» يُستعمل في الحسيات والمعنويات.

ودرج المفسرون على تفسير عبارة «من دُون» بعبارة: «من غير».

أقول:

من حُسْن التدبر أن نلاحظ في العبارة معنى الدونية إضافة إلى معنى المغايرة، في كُل ما تظهر فيه الدونية، مثل: [من دون الله - من دون المؤمنين - شهوة من دون النساء] إلى غير ذلك.

* * *

* قول الله عز وجل:

﴿أَيُّبْنُغُوتَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (١٤٠).

في هذا كشف للباغت على اتخاذ المنافقين الكافرين أولياء من دون المؤمنين. إنهم يَتَنَغُّون عند الكافرين القوة الغالبة، لأنهم يتصورون أن الكافرين أشد قوة

وَمَنْعَةً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّ الْغَلْبَةَ يَغْذُ الْحُرُوبُ الدَّائِرَةُ بَيْنَ الْقَرِيبَيْنِ سَتُكُونُ لِلْكَافِرِينَ، فَهُمْ يَحَاوِلُونَ أَنْ يُوَالُوهُمْ سِرًّا، لِيَكُونَ لَهُمْ حُظُوءٌ عِنْدَهُمْ، مَتَى كَانَ لَهُمُ النَّصْرُ وَالْغَلْبَةُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

فكشَفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذَا الْبَاعْثَ لَدَيْهِمْ بِأَسْلُوبِ طَرَحِ الاسْتِفْهَامِ دُونَ مُوَاجَهَتِهِمْ بِهِ، بَلْ خَاطَبَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾:

أي: أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْقُوَّةَ الْغَالِيَةَ.

بعد طرح هذا السؤال أَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ كُلَّ الْقُوَّةِ الْغَالِبَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ، فَهُوَ يَمْنَحُ مِنْهَا عِبَادَهُ بِحَسَبِ حِكْمَتِهِ، فِي مَجَارِي مَقَادِيرِهِ، فَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ حَقًّا اعْتَمَدَ عَلَيْهِ، وَسَلَكَ سَبِيلَ الْمُؤْمِنِينَ، وَانْضَمَّ إِلَيْهِمْ صَادِقًا مُخْلِصًا، وَلَمْ يَتَّخِذِ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ لَهُ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ هُمُ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ، فَهُوَ نَاصِرُهُمْ إِذَا صَدَقُوا، وَأَخْلَصُوا، وَاتَّخَذُوا الْأَسْبَابَ الَّتِي أَمَرَ بِهَا، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾:

أي: فَإِنَّ كَانُوا يَبْتَغُونَ عِنْدَ الْكَافِرِينَ الْعِزَّةَ، فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا، وَبِسَبَبِ ذَلِكَ فَانْهَمَ لَنْ يَحْصُلُوا عَلَى الْعِزَّةِ عِنْدَ الْكَافِرِينَ.

* قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ...﴾ (١٤٠)

يُذَكِّرُ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا بِمَا كَانَ قَدْ أَنْزَلَهُ فِي الْعَهْدِ الْمَكِّي، مِمَّا مَضْمُونُهُ النُّهْيُ عَنْ مَجَالَسَةِ الْكَافِرِينَ وَالْقَعُودِ مَعَهُمْ، إِذَا أَخَذُوا يَخُوضُونَ بِالسُّتْهِمْ فِي الْكُفْرِ بِآيَاتِ اللَّهِ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِهَا، وَنَهَمَ أَنَّ مَجَالَسَتَهُمُ وَالسُّكُوتَ عَلَى طَعْنِهِمْ فِي آيَاتِ اللَّهِ هُوَ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ مَوَالَاتِهِمْ، مِنْ إِيرَادِ هَذَا الْبَيَانِ بَعْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي وَصْفِ الْمُنَافِقِينَ:

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وهو أيضاً يُشير إلى ما يُمارسه المنافقون من مُجالسة اليهود في المدينة، والسُّكوت على ما يكون منهم من طُعن في دين الله، وآياته المتزلات، وما يمارسه بعض المنافقين من لقاءاتٍ لبعض المشركين من أهل مكة، في أسفار هؤلاء أو هؤلاء، وما يسمعونهم منهم من طعن في آيات الله وكفر واستهزاء بها، وهم يَسْكُتُونَ فلا يُفارقون مجالسهم، ولا يقومون بما يجب عليهم من دفاعٍ عن آيات ربهم.

وقد سبق ذكر النص الذي كان أنزل في العهد المكي في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) وهو قول الله عز وجل فيها خطاباً للرَسُول ولكل مسلم مؤمن من بعده:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ، وَإِمَّا يُبَيِّنُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرُنَا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

ويمكن أن يُقاس على الكفر بآيات الله والاستهزاء بها كل طعن في الدين ومظهر من مظاهر الكفر، إذ هو إما من قبيل المشاركة الصامتة، على طريقة الشيطان الأخرس، أو من قبيل موالة الأشخاص والسُّكوت عن جرائمهم.

وتحمل مجالسة عصاة المسلمين في حال ارتكابهم لمعاصيهم، دون موعظتهم أو مفارقتهم قدراً من الإثم يتلاءم مع نسبة المعصية وخجبتها في حكم الإسلام.

• قول الله عز وجل:

﴿إِنَّكُمْ إِذَا أَنشَأْتُمْ...﴾:

أي: إذا جالستمهم وقعدتم معهم وهم يخوضون في آيات الله كُفُراً واستهزاءً بها فإنكم تكونون في تلك الحالة مثلهم في ارتكاب الإثم العظيم.

وليس معنى هذا أنكم تكونون كافرين دَوَاماً، إلا إذا كان المُجالِس لهم من أهل

النفاق، فإنه حينئذ يكون من أهل الكُفْرِ باطناً وظاهراً، إذا انكشف للمسلمين أمره، أو إذا كان راضياً بما يقولون.

ومن العجيب ما رُوِيَ عن مقاتل بن حيان كما ذكر ابن كثير في تفسيره، وعن الكلبي كما ذكر الشوكاني في تفسيره أن هذه الجملة منسوخة بقول الله عز وجل في سورة (الأنعام/٦):

﴿وَمَاعَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ جَسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَٰكِنْ ذُكِّرُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ﴿٦﴾

وسبب العجب أن هذا النص من سورة (الأنعام) هو من أواسط التنزيل المكي، وأن النص المدعى نسخُه من سورة (النساء) هو من الثلث الأول من التنزيل المدني، فكيف يستقيم أن ينسخ تنزيل مكِّي تنزيلاً مدنيّاً، هذا آتٍ من عدم النظر في ترتيب النزول وعدم مراعاته.

إنه لا نسخ هنا، وقوله تعالى:

﴿إِن كُنتُمْ إِذًا مِّنْهُمْ﴾

نص مُحْكَم بلا ريب.

* قول الله عز وجل:

﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ ﴿١٤٧﴾

في هذا بيان عاقبة المنافقين الذين يجالسون الكافرين راضين بما يخوضون فيه من كُفْرٍ بآيات الله واستهزاء بها، غير تاركين مجالسهم ولا منكرين عليهم، لأن هذه المجالسة بهذه الأوصاف هي من علامات النفاق.

والعقوبة هي أن يجمع الله بين المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً، يذوقون معاً عذابها، ويمسهم الحريق منها، نظير ما اجتمعوا في الدنيا على الكفر بآيات الله والاستهزاء بها، بعضهم لبعض أولياء، لكنهم في جهنم يجمعهم الله وهم يومئذ

بعضهم لبعض أعداء، فالأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين.

* قول الله عز وجل:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمُ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ (١٥١)

في هذا بيان وصف آخر من أوصاف المنافقين، وهو الانتظار والترقب اليقظ، وتربُّب ما يجد من نتائج الأحداث بين المؤمنين والكافرين، طلباً للسلامة والمغرم، من هؤلاء أو هؤلاء.

أما نتائج الأحداث فتتردد بين احتمالين:

الأول: أن ينصر الله المؤمنين على الكافرين، وفي هذه الحالة يسارع المنافقون دون إبطاء للمشاركة في الغنائم، قائلين لجماعة المؤمنين: ألم نكن معكم في الموقعة؟ استفهام تقريرى، والمؤمنون لا بد أن يجيبوهم بحسب ما رأوا من ظاهر شهودهم الموقعة معهم، فيقولوا لهم: بلى.

عندئذ يطالب المنافقون بأن يُقسم لهم من الغنائم كما يُقسم لسائر المؤمنين المقاتلين المجاهدين في سبيل الله بصدق، ويخفي المنافقون ما كانوا عليهم من خذل في الحقيقة، وتظاهر كاذب بالمشاركة في القتال، فقال الله تعالى خطاباً للمؤمنين بشأن المنافقين:

﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ...﴾ (١٥١) ؟.

الثاني: أن يكون للكافرين نصيب مما كسبوا بأسيابهم، ضمن سنة الله عز وجل، في رحلة الابتلاء، وبمقتضى حكمته التربوية، أو الجزائية، أو الاستراجية والإمهالية، كما حصل لهم في معركة أحد ثانياً، وفي معركة خيبر أولاً.

وفي هذه الحالة يسارع المنافقون دون إبطاء قائلين لجماعة الكافرين: ألم نكن محتزين عليكم احتواء حماية وحفظ ومداغة، بغدْم مقاتلتكم في المعركة، وبالعَمَل على إضعاف صفوف المؤمنين، وإيجاد التخلخل فيها، مع حركات الإفساد والتشيط.

ولعلَّ الكافرين بحقيقة حالهم في المعركة وقبلها لا بُدَّ أن يقولوا لهم: بلى .
عندئذ يكون لدى المنافقين الجرأة الكافية لمطالبة الكافرين بتعويض ما فعلوا من
أجلهم داخل صفوف المؤمنين .

فقال الله تعالى :

﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُم مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .
اقتصر النص على إيراد التساؤل في الحالين، لأنه يدلُّ لزوماً على ما يُريدون من
ورائه من منافع ومكاسب .

ويلاحظ أنَّ الله عزَّ وجلَّ جعل ما يُصيبه المؤمنون في المعارك من عدوهم فتحاً
منه، أما ما يُصيبه الكافرون من جماعة المؤمنين، فهو نصيب، أي: حظٌّ من حظوظ
الدنيا، مكنتهم الله من الحصول عليه بأسبابهم التي اتخذوها، وطاقاتهم التي بذلوها،
ضمن مجاري سُنَّته في الحياة الدنيا لعباده جميعاً .

* * *

* قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾^(١٣٦)
نعقياً على حالة التربص التي تكون من المنافقين، وما يحدث بعدها من نصر
من الله للمؤمنين، أو نصيب يحصل للكافرين، اقتضى البيان أن يشتمل على إيضاح
قضييَّ:

القضية الأولى: عاقبة هؤلاء وهؤلاء يوم القيامة، وقد دلَّ عليها قول الله
عزَّ وجلَّ:

﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ...﴾^(١٣٧)

هذه الجملة على إيجازها ذات لوازم فكرية تشتمل البعث، والحساب، وفصل
الفضاء، والجزاء في جنات النعيم، أو في جهنم دار العذاب الأليم .

القضية الثانية: حالة هؤلاء وهؤلاء في ظروف الحياة الدنيا، وقد دلَّ عليها

قول الله عز وجل:

﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾

ولكن كيف نفهم هذا الوعد الرباني المقطوع به؟

أما الانتصارات الوقتية في بعض المعارك فهذه لا تتنافى ختماً مع الوعد الرباني، لأنها خاضعة لسُنن الأسباب والمسببات، وظروف الابتلاء والتربية والجزاء في الحياة الدنيا، وقد وُجد شيء منها في حياة الرسول ﷺ، وهو القائد لأمته، وأصحابه خيرة الأمة.

وأما الانتصارات الحاسمة والغلبة الدائمة واستباحة بيضة المسلمين العامة فهي التي تتنافى مع الوعد الرباني.

ولكن مَنْ هُم الموعودون بهذا الوعد الرباني؟

هل هم المسلمون الذين هم غنَاء كغنائ السيل، ليس لديهم من حقيقة الإسلام عقيدة وتطبيقاً إلا الاسم والانتماء إليه؟

هل هُم الكثرة المنافقون الموالون لأعداء الإسلام؟

هل هُم الذين حرّفوا مفهومات الإسلام وبدّلوا فيها؟

وهؤلاء جميعاً ليسوا بمؤمنين حقاً، حتّى يستحقّوا تطبيق الوعد الرباني بصفتهم الجماعية.

بقي أن الذين يستحقّون هذا الوعد هُم الأمة ذات الأكثرية المؤمنة المسلمة، العابِلون بوجه عام بمقتضى إيمانهم، في أفرادهم، وفي مجتمعهم، وفي دولتهم، هؤلاء هُم الذين ينطبق عليهم الوعد الرباني، فلنْ يَجْعَلَ الله للكافرين عليهم سبيلاً حتى يرث الله الأرض ومن عليها، بمعنى أن الله عز وجل لا يُمكن الكافرين من استخدام السُّبُل المهيّأة في الحياة الدنيا للناس، على وجه يستطيعون به التغلب الدائم على المؤمنين، والسيطرة عليهم سيطرة مستمرة، بل يساعد المؤمنين إذا عملوا بما أمرهم الله به من إعداد المستطاع من القوة، حتى يتفوقوا بأسبابهم على أعدائهم،

ويكونوا هم المنصورين الغالبين، وقد كان هذا مستمراً في قرونٍ غديلةٍ من الدهر، حتى كثر فيهم الملاحدة والمنافقون والفجرة.

ويستحقّ عموم المؤمنين ولو لم يحققوا في أنفسهم مقتضيات الإيمان على الوجه المطلوب، أن لا يستيبح عدوهم يبيّضتهم ويستأصل شافتهم ولو اجتمع عليهم من باقطار الأرض من الكافرين، كما جاء في بيان الرسول ﷺ.

روى مسلم عن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ^(١)، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنْ أُمِّتِي سَيَلَّغُ مُلْكُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَزْزَيْنِ: الْأَخْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمِّتِي أَنْ لَا يَهْلِكَهَا بَسَنَةٌ عَامَّةٌ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوٌّ مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيِّضَتَهُمْ^(٢)»، وَإِنْ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِذَا قَضَيْتَ قَضَاءَ فَإِنَّهُ لَا يَرُدُّ، وَإِنِّي أُعْطِيتُكَ لِأُمِّتِكَ أَنْ لَا أَهْلِكَهُمْ بَسَنَةً عَامَّةً، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيِّضَتَهُمْ وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يَهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

وهذا الوعد بالنسبة إلى عموم أمة محمد مع معاصيهم وانحرافاتهم مُتَحَقِّقٌ دوماً.

وأخيراً نَسْتَحِقُّ من عموم هذا الوعد طائفة من المؤمنين أن يظلوا ظاهرين على الحق يعملون به، لا يضرهم من خالفهم، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ.

روى البخاري ومسلم والإمام أحمد، عن معاوية، أن رسول الله ﷺ قال:

«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمِّتِي قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ».

وروى مسلم وغيره عن ثوبان، أن رسول الله ﷺ قال:

(١) زَوَى: أَي: قَبَضَ وَجَمَعَ. يُقَالُ لَغَةً: زَوَاهُ يَزْوِيهِ زَوًى إِذَا قَبَضَهُ وَجَمَعَهُ.

(٢) بَيِّضَةُ الشَّيْءِ: أَصْلُهُ، وَبَيِّضَةُ الْقَوْمِ: حُوزَتُهُمْ وَجَمَاعَتُهُمْ وَنَسَبَتُهُمْ.

وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ كَذَبُكُ.

وهذا أمر مشاهد في تاريخ المسلمين دوماً، والمراد من الظهور ظهور حجتهم واعتزازهم بإسلامهم وإعلانهم له.

• قول الله عز وجل:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَىٰ بُرَاءً وَنَاسًا وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾ (١٢٩) مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ... ﴿١٣٠﴾

في هذا بيان خمس صفات من صفات المنافقين السلوكية.

الصفة الأولى: أَنَّهُمْ يُخَادِعُونَ اللَّهَ، أي: يُخَادِعُونَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ، ظَانِّينَ أَنَّ خِدَاعَهُمْ تَنْطَلِي عَلَيْهِمْ، لَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِي هُوَ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ، يُسَاعِدُ الْمُؤْمِنِينَ شَدِيدِي الْحَذَرِ الْعَامِلِينَ بِمَقْتَضَىٰ إِيْمَاتِهِمْ، وَمِنْهُ اتَّخَاذُ الْأَسْبَابِ عَلَىٰ مَا يَنْبَغِي، ضَمَّنَ أَنْظِمَةً وَقَوَائِينَ الْأَسْبَابِ وَالْمَسَبِّاتِ الْكُونِيَّةِ، فَيُكْشِفُ اللَّهُ لَهُمْ خِدَائِعَ الْمُنَافِقِينَ، وَيَحْمِيهِمْ مِنْ تَأْثِيرَاتِهَا، فَيَرْتَدُّ كَيْدُ الْمُنَافِقِينَ إِلَىٰ نَحْوَرِهِمْ، وَبِذَلِكَ يَكُونُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ خَادِعُهُمْ، أي: رَادُّ خِدَائِهِمْ عَلَيْهِمْ، دَلَّ عَلَىٰ هَذِهِ الصِّفَةِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ...﴾ (١٢٩)

الصفة الثانية: أَنَّهُمْ إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَىٰ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مُؤْمِنِينَ بَاطِنًا، فَهَمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِجَدْوَى الصَّلَاةِ، وَإِنَّمَا يُؤَدُّونَهَا بِحُضُورِ الْمُؤْمِنِينَ سِتْرًا لِنَفْسِهِمْ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ يَعْمَلْ عَمَلًا مَا وَهُوَ غَيْرُ مُؤْمِنٍ بِجَدْوَاهُ لِنَفْسِهِ فَإِنَّمَا يُؤَدِّيهِ بِشَاقِلٍ وَكَسَلٍ وَفُتُورٍ، وَلَا يُعَارِسُهُ بِنَشَاطٍ وَهَمَّةٍ وَرَغْبَةٍ. دَلَّ عَلَىٰ هَذِهِ الصِّفَةِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَىٰ...﴾ (١٢٩)

الصفة الثالثة: أَنَّهُمْ يُرَاءُونَ النَّاسَ فِي أَعْمَالِهِمُ الدِّينِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَمِنْهَا الصَّلَاةُ، أي: فَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَمْ يُؤَدُّوا هَذِهِ الْأَعْمَالِ، لِأَنَّ أَصْلَ غَرَضِهِمْ مِنْ أَدَائِهَا أَنَّ

يُظْهِرُوا لَجَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ، أَنَّهُمْ مِنْهُمْ إِيْمَانًا وَإِسْلَامًا، وَأَنَّهُمْ صَادِقُونَ فِي إِسْلَامِهِمْ غَيْرُ كَاذِبِينَ.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿يُرَآءُونَ النَّاسَ﴾.

الصفة الرابعة: أَنَّهُمْ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا، وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ سَبَبِ ذِكْرِهِمْ اللَّهَ قَلِيلًا إِذَا كَانُوا مِنْ قِسْمِ الْمُنَافِقِينَ الْمُتَرَدِّدِينَ، الَّذِينَ لَمْ يَسْتَقِرُّوا بَعْدَ فِي الْكُفْرِ دَوَامًا فِي دَاخِلِهِمْ.

أَمَّا الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ اسْتَقَرُّوا فِي الْكُفْرِ دَوَامًا وَانْتَهَتْ لَدَيْهِمْ حَالَةُ التَّرَدُّدِ، أَوْ كَانُوا مُسْتَقَرِّينَ فِي الْكُفْرِ مُنْذُ الْبَدَايَةِ، فَإِنَّ ذِكْرَهُمُ الْقَلِيلَ لِلَّهِ هُوَ مِنْ قِبَلِ ذِكْرِ الْمُشْرِكِينَ وَسَائِرِ الْكَافِرِينَ الصَّرْحَاءِ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِرَبوبِيَّةِ اللَّهِ، لَكِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِإِلَهِيَّتِهِ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِرَسُولِهِ، وَلَا بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ، وَإِنْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَإِنَّهُمْ يَذْكُرُونَهُ لَدُنْيَاهُمْ لَا لِآخِرَتِهِمْ، دَلَّ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

الصفة الخامسة: أَنَّهُمْ مُتَذَبِّبُونَ يَتَأَرْجِحُونَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي وَلَائِهِمْ، وَفِي سُلُوكِهِمْ، فَلَا هُمْ مَتَمِّمُونَ حَقِيقَةَ الْإِلَى هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الْوَاقِفِينَ فِي أَقْصَى جِهَةِ الْيَمِينِ، وَلَا هُمْ مَتَمِّمُونَ إِلَى هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ الْوَاقِفِينَ فِي أَقْصَى جِهَةِ الشَّمَالِ، وَيُظَلُّونَ فِي حَيَاتِهِمْ هَكَذَا قَلْقَيْنَ لَا ثَبَاتَ لَهُمْ، يَتَذَبِّبُونَ عَلَى أَرْجُوهِ التَّنَقُّلِ بَيْنَ الْأَصْدَادِ، دَلَّ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿مُتَذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ...﴾ ﴿١٣٦﴾.

* قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾.

فِي هَذَا تَهْدِيدٌ لِلْمُنَافِقِينَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيَحْكُمُ عَلَيْهِمْ بِالضَّلَالِ، وَسَيَجَازِيهِمْ عَلَى ضَلَالِهِمْ بِمَا يَسْتَحِقُّونَ بِمَقْتَضَى قَانُونِ الْعَدْلِ، وَمَنْ يَحْكُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالضَّلَالِ

فليس له بعد الله من يحكُم له بالهداية، أي: ليس له من يُنَجِّيه من عذاب الله على ضلاله، وليس له من يتخذ له سبيلاً ما يجعله من أهل دار النعيم، أو من الناجين من عذاب الجحيم، بفِذْيَةٍ أو شفاعَةٍ أو غير ذلك.

• قول الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ
يَجْعَلُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مِثْلًا ۖ﴾.

بمناسبة بيان أن من صفات المنافقين أنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وهو ما جاء في الآية (١٣٩) التي سبق تدبر دلالاتها، وجه الله عز وجل للذين آمنوا النهي الخاص بصورة مباشرة أن لا يتخذ أحد منهم الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وخاطبهم بهذا النهي إشعاراً بخطورة المنهي عنه، وأنه ليس مجرد وصف يُصَفُّ به المنافقون من جملة ما يتصفون به، بل هو من الكبائر التي يُحذَرُ الله الذين آمنوا منها تحذيراً مشدداً، فقال الله تعالى في هذا الخطاب:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾.

وإبان الله عز وجل بعد هذا النهي الجازم الحازم أن الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين يرتكبون من كبائر الإثم ما يجعلون به لله عليهم سلطاناً مِثْلاً، أي: حجة واضحة جلية لا شبهة فيها وهي تقتضي أن يرفع عنهم ولايته، وينزل بهم عقوبته.

وجاء هذا البيان بأسلوب الاستفهام التحذيري قبل ارتكاب المنهي عنه، والإنكارِي بعد ارتكاب المنهي عنه، فقال الله تعالى:

﴿أُرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مِثْلًا ۖ﴾.

السلطان المبين هنا: هو الحجة الواضحة الجلية التي لا شبهة فيها تجعل لهم عُذْراً ما.

ومعلوم أن المؤمن الصادق الإيمان لا يُريد أن يرتكب من الإثم العظيم

ما يكون لله به عليه سلطانٌ مبين، يقضي تعرضه لعقاب الله، ورفع ولايته عنه.

* قول الله عز وجل:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ صَافِينَ ۖ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ﴾

بعد الحديث عن المنافقين المذبذبين، وبيان طائفة من صفات عموم المنافقين، أبان الله عاقبتهم يوم الدين، باستثناء التائبين منهم الذين تابوا توبة نصوحاً، وتخلصوا من كل عناصر النفاق التي كانت تترع فيهم لارتكاب الآثام الكبرى التي هي مظاهر سلوكية لا نجتمع غالباً إلا في المنافقين.

أما عاقبة المنافقين الذين يموتون وهم منافقون فهي أنهم يكونون يوم الدين بعد الحساب وفصل القضاء في الطبقة السفلى من طبقات دار العذاب النار، يذوقون فيها عذاباً خالداً.

ودل على هذه العاقبة قول الله تعالى:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ صَافِينَ ۖ﴾

فهم يوم الدين في الدرك الأسفل من النار، أي: في الطبقة السفلى من طبقاتها، وتدل قراءة «في الدرك» إذا قلنا: إنها جمع «ذركة» على تفاوت منازل المنافقين في الطبقة السفلى من النار، تبعاً لتفاوت شروهم في نفاقهم.

ولتبيسهم من النجاة خاطب الله عز وجل كل من يستمع هذا الخطاب أو يثله من الذين يصلحون للخطاب ويكونون خالدين يوم الدين فقال تعالى له:

﴿وَلَنْ تَجِدَهُمْ صَافِينَ ۖ﴾

أي: ولن تجد أيها المخاطب أيًا كنت للمنافقين نصيراً نصراً ينصرهم فيرفع عنهم عذاب الله، أو يحميمهم منه يوم الدين.

ولم يخاطب الله المنافقين بهذا الخطاب للإشعار بأنهم وصلوا إلى حالة من

الإصرار والعناد لا ينفعهم معها الاهتمام بتوجيه الخطاب لهم، إذ استوى لديهم الإنذار وعذمه، مع ما في عدم توجيه الخطاب لهم من الإعراض عنهم إعراض مُقْتَبِعٍ وغضب.

واستثنى الله من عموم هؤلاء المنافقين الَّذِينَ تابوا توبةً نَصُوحاً، وقد أبان الله عناصر هذه التوبة الصادقة النصوح:

العنصر الأول: أن يتوب المنافق إلى الله من نفاقه، وذلك بأن يرجع إلى الله معلناً رجوعه إلى الإيمان الصحيح الصادق، نادماً على ما كان منه.

العنصر الثاني: أن يُمارِسَ العملَ الصالح الذي يقتضيه الإيمان الصحيح الصادق، من ظاهر السلوك وباطنه، وأن يُصلِحَ من نفسه وسلوكه ما كان أفسدُه النفاق السابق، وأن يُصلِحَ من آثار سلوكه ما يستطيع إصلاحه منه.

العنصر الثالث: أن يصرف عن نفسه تصورات الاعتزاز بالكافرين، وأن يعتصم بالله يَتَغَيَّرُ العِزَّةَ والقُوَّةَ وَالْمَنْعَةَ لَدَيْهِ، منضمّاً إلى جماعة المؤمنين المسلمين الصادقين.

العنصر الرابع: أن يجعل أَعْمَالَهُ الدِّينِيَّةَ التي يُقُومُ بها خالصةً لله عز وجل، لا يبتغي منها مَرَاءةَ النَّاسِ، أو مغنم الدنيا ومنفعةً منها.

دل على هذه العناصر قول الله تعالى:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾.

وهنا يرد سؤال: هل استثناء هؤلاء الثائبين يُخْرِجُهُمْ من أن يكونوا في الدرك الأسفل من النار فقط، أم يجعلهم مع جماعة المؤمنين، تجري فيهم أحكام المؤمنين، ويُجَازَوْنَ جزاء المؤمنين في جناب النعيم؟

لقد أجاب الله على هذا التساؤل بقوله تعالى:

﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

ونلاحظ في هذا أن كون هؤلاء الثائبين مع المؤمنين لا يقتصر على الأحكام

الدنيوية، بل سوف تجري عليهم يوم الدين أحكام المؤمنين الآخروية بدليل قوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِبُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

• قول الله عز وجل:

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾.

صدرت هذه الآية باستفهام يُراد منه النفي، إذ هو موجه لانتزاع الجواب من المخاطبين بالنفي، أي: لا يفعل الله بعذاب المعذِّبين من عباده شيئاً لنفسه عز وجل، فهو لا يجلبُ به نفسه نفعاً، ولا يدفع به عن نفسه ضرراً، لكن قانون العدل العام لا بد أن يتحقق، هذه الحقيقة هي من بدهيات قواعد الإيمان في الدين الذي اصطفاه الله للناس، وقد جاء شرحها في الحديث القدسي الصحيح عن رسول الله ﷺ:

روى الإمام مسلم، عن أبي ذر جُنْدُبِ بْنِ جُنَادَةَ، عن النبي ﷺ، فيما يروي عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يَا عِبَادِي، إِنِّي خَرْتُ الظُّلُمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ وَمَحْرَمًا فَلَا تَظَالَمُوا».

يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي اهْدِكُمْ.

يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أَطْعِمَكُمْ.

يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسِكُمْ.

يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ.

يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرْيَ قَتْصُرُونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي.

يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَجْرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاجِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا.

يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَجْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاجِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا.

يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَجْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ قَامُوا فِي صَبِيحٍ وَاجِدٍ،

فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أَذْجَلَ الْبَحْرَ.

يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أَوْفِيكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمِدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ^(١).

فلا طاعة العباد تنفع الله شيئاً، ولا معصيتهم له تضره شيئاً، وإنما يُحْصِي الله أعمال عباده في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، ثُمَّ يُوفِّيهِم الجزاء عليها، ضَمَنَ قَانُونُ الْفَضْلِ، وَقَانُونُ الْعُدْلِ، فَمَنْ وَجَدَ مِنَ الْجَزَاءِ خَيْرًا، فَلْيَحْمِدِ اللَّهَ عَلَى فَضْلِهِ، وَمَنْ وَجَدَ مِنَ الْجَزَاءِ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ، لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي جَنَى عَلَى نَفْسِهِ، بِاسْتِخْدَامِهِ قَوَائِنَ اللَّهِ، وَسُنَّتِهِ الثَّابِتَةَ.

إِنَّ مَنْ أَدْخَلَ يَدَهُ فِي النَّارِ أَحْرَقَ اللَّهُ لَهُ يَدَهُ، ضَمَنَ سُنَّتُهُ الدَّائِمَةُ، الشَّامِلَةُ لِكُلِّ عِبَادِهِ، وَمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، أَوْ سَلَكَ سَبِيلَ النِّفَاقِ، عَاقَبَهُ اللَّهُ ضَمَنَ سُنَّتِهِ الدَّائِمَةُ، الشَّامِلَةُ لِكُلِّ عِبَادِهِ، وَمَنْ دَسَّ لَغْماً مَوْقُوتَ التَّغْجِيرِ وَلَوْ بَعْدَ سِنِينَ عَدِيدَةٍ تَحْتَ صَرْحِهِ، فَجَرَّ اللَّهُ لَهُ لَغْماً فِي الْوَقْتِ الْمَحْدَدِ فَذَمَّرَ لَهُ صَرْحَهُ، ضَمَنَ سُنَّتُهُ الدَّائِمَةُ، الشَّامِلَةُ لِكُلِّ عِبَادِهِ.

فمعنى قول الله عز وجل:

﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ ﴾.

بهذه الصيغة الاستفهامية التي يُقْصَدُ منها انتزاع الجواب: لَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِتَعْذِيْبِهِ لَكُمْ عَلَى آثَامِكُمْ وَجَرَائِمِكُمْ شيئاً لنفسه سبحانه، من جلب نفع أو دفع ضرر.

أي: وَإِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ يَحْصِيهَا اللَّهُ لَكُمْ ثُمَّ يُوفِّيكُمْ بِهَا، ضَمَنَ الْقَانُونُ الْعَامُّ، فَهُوَ سَبْحَانَهُ لَا يَفْعَلُ شَيْئاً لِنَفْسِهِ بِعَذَابِكُمْ إِنْ قَدَّمْتُمْ مِنَ الْعَمَلِ مَا يَقْتَضِي تَعْذِيْبَكُمْ.

أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى:

(١) عن «رياض الصالحين» للنووي، الباب الحادي عشر في المجاهدة الحديث رقم (١١١).

﴿إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾.

فهو شرط حذف جوابه، للعلم به، والمعنى: إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَنْتُمْ آتَاكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا، وَلَا يَنْقُصُ ذَلِكَ الْعَطَاءَ الْعَظِيمَ مِنْ مُلْكِهِ شَيْئًا، وَلَا يَزِيدُ شُكْرَكُمْ وَإِيمَانَكُمْ فِي مُلْكِهِ شَيْئًا.

وبعد هذا أبانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ من صفاته أَنَّهُ شَاكِرٌ عَلِيمٌ. أمَّا صفةُ الشكر، فهي تناسب مكافأة عباده المؤمنين الشاكرين، وأمَّا صفة العلم، فهي تناسب قضية إحاطته علماً بأعمال عباده جميعاً، من يستحقّ منهم الثواب، ومن يستحقّ منهم العقاب، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، فقال تعالى:

﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (١٤٧)

أي: إِنَّهُ شَاكِرٌ عَلِيمٌ دَوَامًا، وذكر كونه شَاكِرًا عَلِيمًا يوميًا إلى صفة عدله، بقرينة ما يفعلُ اللهُ بِعِبَادِهِمْ؟

وَيُلَاحَظُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدَّمَ شُكْرَ عباده على إيمانهم مع أَنَّ الشكر أثرٌ سلوكي من آثار الإيمان، فقال تعالى:

﴿إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾.

وبالتفكير يظهر لنا أَنَّهُ بدأ تعالى ببيان ما يُظْهَرُ للناس من سلوك، وأبان بعده شرط صحة هذا السلوك وقبوله عند الله، وهو الإيمان الذي تنعقد عليه القلوب، فمن لم يصحَّ إيمانه لم يكن لعمله الصالح ثمرة عند الله.



النص التاسع عشر

وهو من سورة (الحديد / ٥٧ مصحف / ٩٤ نزول)

ثامن سورة مدنية

الآيات من (١٢ - ١٥)

حول لقطات من مشاهد أحوال المنافقين يوم القيامة

قال الله عز وجل :

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ تُشْرِكُمْ يَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنِفِقُونَ وَالْمُنِفِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمْ مِنْ تُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَمْ يَأْخُذْ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَقَدْ ظَهَرُوا مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾ قَالِیَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَتْكُمُ النَّارُ مِنْ مَوَلَاتِكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ .

(١)

ما في النص من القراءات المتواترة (من الفرش)

* في الآية (١٣):

(١) قرأ جمهور القراء: [انظُرُونَا] بضم الظاء ووصل الهمزة من «نَظَرُهُ» بمعنى

انتظره .

وقرأ حمزة فقط [أَنْظِرُونَا] بِكَسْرِ الظاء من «أَنْظَرُهُ» بمعنى أَمَهْلُهُ، قال الزجاج: قيل: معنى «أَنْظِرُونَا» اُنْتَظِرُونَا أيضاً، ومنه قول عمرو بن كلثوم:

أَبَا هِنْدٍ فَلَا تُعْجِلْ عَلَيْنَا وَأَنْظِرْنَا نُخَبِّرَكَ الْيَقِينِ

وقال الفراء: تقول العرب: أَنْظِرْنِي، أي: اُنْتَظِرْنِي قليلاً، ويقول المتكلم لِمَنْ يُعْجِلُهُ: أَنْظِرْنِي أَبْتَلِغْ رِيقِي، أي: أَمَهْلَنِي.

فالقراءتان على هذا هما بمعنى: اُنْتَظِرُونَا وَتَمَهَّلُوا مِنْ أَجْلِنَا وَلَا تَسْبِقُونَا.

* في الآية (١٤):

(١) قرأ جمهور القراء [الْأَمَانِي] بِتَشْدِيدِ الْيَاءِ.

وقرأ أبو جعفر فقط بتخفيف الياء ساكنة.

والقراءتان وجهان عريان لهذه الكلمة، فهما متكافئتان، وكلاهما جمع أَمْنِيَّة، كما يُقال: فِي أَصْحَابِهِ أَصْحَابٌ وَأَصْحَابِي، وَفِي أَثْنَبَةٍ أَثْنَابٌ وَأَثْنَابِي.

* في الآية (١٥):

(١) قرأ جمهور القراء [لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ] بِالْيَاءِ مِنْ يُؤْخَذُ.

وقرأ ابنُ عامر وأبو جعفر ويعقوبُ [لَا تُؤْخَذُ] بِالتَّاءِ.

والقراءتان وجهان عريان لأن لفظ «فِدْيَةٌ» مجازي التأنيث، فيجوز في الفعل المسند إليها التذكير والتأنيث.

* * *

(٢)

موضوع النص ودلالاته بوجه عام

يقدّم هذا النصّ لقطات من مشاهد أحوال المنافقين يوم القيامة، مقابل بيان لقطات من مشاهد أحوال المؤمنين.

هذه اللَّقَطَاتُ تصوّرُ معاملة المنافقين يوم الحشر بمثل ما كان منهم في الدنيا، إذ كانوا بين صفوف المؤمنين، يتشبهون إليهم ظاهراً، ويعملون بمثل أعمالهم الظاهرة،

لكنهم كانوا منخذلين عنهم سرًا، ومتجهين لغير اتجاههم، وسالكين غير سبلهم باطنًا، وكانوا لا يملكون نور الإيمان الصادق والإسلام الصحيح، بخلاف أحوال المؤمنين، فقد كان لكل منهم من النور بمقدار قوة إيمانه والتزامه بشرائع الإسلام وتطبيقاته.

ففي يوم القيامة يتعرض أهل المحشر لظلمة شديدة لا يرون فيها مسيرهم الذي يُقادون أو يساقون فيه إلى موقف حسابهم، ثم إلى مصائرهم، باستثناء المؤمنين، فإن الله عز وجل يهبط نوراً يوجهونه بأيامانهم، وهذا النور يسقى بين أيديهم في مسالكهم مع سعيهم في مسيرهم، نظير النور الكهربائي الذي يوجهه راكب السيارة في الليل، إذ يكشف له الطريق أمامه، وعلى مقدار سرعة سيرته يسقى نوره بين يديه كاشفاً له طريقه.

أما المنافقون فيحشرون أول الأمر مع المؤمنين، باعتبار أنهم كانوا في الدنيا معهم بحسب الظاهر.

ثم يؤمر المؤمنون بأن يتوجهوا لموقف حسابهم، فيتوجهون ساعين، ويسرع كل منهم على مقدار ما كان يملك من قوة إيمان، وكثرة زاد من العمل الصالح، ويجعل الله لهم نوراً يمشون فيه، وهذا النور يسقى بين أيديهم، ويملكون به وتوجيهه بأيامانهم، ويقال لهم لتطمئن قلوبهم ونفوسهم:

﴿بَشِّرْكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

ولما كان المنافقون محرومين من الإيمان ومن زاد العمل الصالح فإنهم لا يملكون القدرة على السعي السريع في اتجاه موقف حساب المؤمنين، ولا يملكون بأيامانهم نوراً يثرونه ليسقى بين أيديهم، فهم في بداية المسيرة يستفيدون من نور المؤمنين، فيمشون وراءهم قليلاً، ثم ينقطعون عجزاً عن المتابعة، ويسبقهم المؤمنون، وتسبقهم معهم أنوارهم، حتى من كان لديه منهم من النور ما يكشف له بين يديه موطىء قدمه.

عندئذ يقول المنافقون والمنافقات لمعارفهم من المؤمنين، انتظرونا وتمهلوا قليلاً من أجلنا، لنستفيد من نوركم، ونسير معكم في سبلكم، فلا يستجيب لهم المؤمنون، لأنه لا يُسْمَحُ لهم بذلك.

وَيُقَالُ لِلْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ:

﴿أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾:

أي: فليست هذه الجهة جهة مَسْبِرِكُمْ، إنها جهة المؤمنين، وليست جهة الكافرين ولا المنافقين.

ويقال لهم أيضاً:

﴿قَالَتَسُوا نَوْرًا﴾:

أي: اَلْتَمَسُوا نَوْراً بَانْفَسِكُمْ مِمَّا قَدُمْتُمْ مِنْ كَسْبِ فِي دُنْيَاكُمْ، إِنْ كُنتُمْ قَادِرِينَ عَلَى التَّمَاسِ نَوْراً، فَلَيْسَ لِكَافِرٍ وَلَا لِمُنَافِقٍ يَوْمَ الدِّينِ أَنْ يَكُونَ كَلًّا عَلَى مُؤْمِنٍ فِي إِيمَانٍ أَوْ عَمَلٍ صَالِحٍ، أَوْ أَثَارَ ذَلِكَ وَثَمَرَاتِهِ.

هذا القول يُقَالُ لَهُمْ مِنْ قِبَلِ الْمُؤَكِّلِينَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ بِقِيَادَةِ النَّاسِ أَوْ سَوْفَهُمْ فِي يَوْمِ الْحَشْرِ، أَوْ هُوَ قَوْلُ يَخْلُقُهُ اللَّهُ جَوَاباً لَهُمْ، فَهُمْ يَسْمَعُونَهُ وَلَا يَرَوْنَ مَصْدَرَهُ.

حَيْثُ يُقِيمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ سُوراً يَحْجُبُ الْمُنَافِقِينَ عَنْ مُتَابَعَةِ السَّيْرِ فِي جِهَةِ مَسْبِرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَجْعَلُ اللَّهُ لِهَذَا السُّورِ بَاباً، يَدْخُلُ مِنْهُ بَقَايَا الْمُؤْمِنِينَ الْمُقْصِرِينَ فِي السَّيْرِ، الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْقُوَّةِ الْإِيمَانِيَّةِ، وَلَا مِنَ النُّورِ مَا يَجْعَلُهُمُ مِنَ السَّابِقِينَ، لَكِنْ لَدَيْهِمْ قَلِيلٌ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقِفُ الْحَرَّاسُ عَلَى الْبَابِ، وَيَسْمَحُونَ لَهُمْ بِالْدُخُولِ مِنْهُ بِحَسَبِ مَرَاتِبِهِمْ وَدَرَجَاتِهِمْ فِي الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، حَتَّى يَدْخُلَ أَضْعَافُهُمْ إِيمَاناً، وَأَقْرَبُهُمْ نَوْراً، وَعِنْدَئِذٍ يُقْفَلُ الْبَابُ عَلَى الْمُنَافِقِينَ، وَيُخَجَّرُونَ، وَيُضَرَّفُونَ إِلَى جِهَةِ الْكَافِرِينَ، فَيَكُونُونَ مَعَهُمْ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا مَعَ الْكَافِرِينَ فِي الدُّنْيَا بَاطِناً.

وهذا السور له باطنٌ حَسَنٌ جَمِيلٌ، وَهُوَ مَا هُوَ مِنْهُ إِلَى جِهَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَهُ ظَاهِرٌ مُخِيفٌ مُرَحِّشٌ، وَهُوَ مَا كَانَ مِنْهُ إِلَى جِهَةِ الْمُنَافِقِينَ، فَفِي جِهَةِ بَاطِنِ السُّورِ تَنْزِيلُ رَحِمَاتِ اللَّهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِمَا يَسْعُدُهُمْ وَيُفَرِّحُهُمْ وَيَطْمِئِنُّ قُلُوبُهُمْ وَنَفْسُهُمْ. أَمَّا ظَاهِرُ السُّورِ فَيَأْتِي مِنْ قِبَلِهِ أَنْوَاعٌ مِنَ الْعَذَابِ لِلْمُنَافِقِينَ، وَبِذَلِكَ يَشْتَدُّ عَلَيْهِمُ الْمَوْقِفُ حَتَّى يَحَاسِبُوا وَيَسْأَلُوا إِلَى دَارِ الْعَذَابِ.

حينئذ لا يبقى أمام المنافقين إلا وسيلة نداء المؤمنين، فينادونهم:
﴿أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ﴾.

يريد المنافقون أن يشهد لهم المؤمنون لدى ربهم أنهم كانوا معهم في الدنيا، فمن حقهم أن يكونوا معهم في الآخرة.
فَيُجِيبُهُمُ الْمُؤْمِنُونَ قَائِلِينَ: ﴿بَلَىٰ﴾:
أي: لقد كنتم معنا في الظاهر.

وأتبعوا هذه الإجابة بما يدل على أنهم لم يكونوا معهم في الباطن، أي: فليس من حقهم أن يكونوا معهم في باطن السور، ولا أن يكونوا بعد ذلك معهم في الجنة.
فذكروا بالتفصيل أموراً خمسة دالة على أنهم لم يكونوا مع المؤمنين في الباطن، وهي ما يلي:

الأمر الأول: أنهم فتنوا أنفسهم، أي: أضلوا أنفسهم وعرضوها لعقاب الله ونقمته، باختيار الكفر باطناً، ومخادعة المؤمنين ظاهراً، واتخاذ وجهين متناقضين.
الأمر الثاني: أنهم تزيّنوا أن تدور الدائرة على المؤمنين فينقضوا عليهم مع الكافرين.

الأمر الثالث: أنهم ارتابوا في الحق الذي جاءهم من عند ربهم على لسان رسوله، مع أنه لم يكن لهم عُذْرٌ في أن يرتابوا فيه، لوضوحه، وقوة أدلته وبراهينه الدامغة.

الأمر الرابع: أنهم غرّتهم الأمانى التي كانوا يُمنّون بها أنفسهم، وكان شياطين الإنس من اليهود والمشرّكين وغيرهم من الكافرين يُمنّونهم بها، واستمرت تغرهم هذه الأمانى حتى جاءتهم منايهم وماتوا على كفرهم ونفاقهم دون توبة.

الأمر الخامس: أنهم غرّهم بالله القُرُور، وهو الشيطان، بما كان يوسوس لهم من أفكار وضلالات، كالتشكيك في البعث والحساب وعذاب الآخرة، والتشكيك في الرسول والقرآن، وكترتين أنواع الشرك والكفریات التي كانوا يعتقدونها، إلى غير ذلك من زيوف.

بعد هذا البيان التفصيلي يقال للمنافقين: فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ما عما قدمتم ولا من الذين كفروا، ولا بُدَّ أن تُلاقوا جزاءكم بالعدل، وماؤاكم الذي ستأوون إليه النار، هي التي ستؤلى أمور عذابكم عن طريق خزنتها من الملائكة الغلاظ الشداد، وهي المصير الذي ستصيرون إليه، ويُسَّ المصير هي .

(٣)

المفردات اللغوية في النص

﴿بَشَرِكُمْ﴾:

أي: ما تبشرون به، التبشري: اسم يطلق على الشيء السار المفرح الذي يأتي به الخبر أو العلم.

﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾:

الفوز: الظفر، والنجاة من الشر، والريح.

﴿أَنْظُرُونَا﴾:

أي: انتظرونا، يقال: نظره بمعنى انتظره.

﴿أَنْظُرُونَا﴾:

أي: أمهلونا بالانتظار، أو انتظرونا.

﴿نَقَّيْسٍ مِنْ نُّورِكُمْ﴾:

أي: نستفيد من نوركم، يقال: اقتبس فلان من فلان نوراً أو علماً، إذا استفاده منه.

﴿فَالْتَمِسُوا﴾:

أي: فاطلبوا نوراً، وابحثوا عن نور بانفسكم ولا يسمع لكم أن تستفيدوا من نور غيركم.

﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ سُورًا﴾:

ضَرَبَ السُّورَ إقامته وإنشأه وإحداثه، يقول العربيّ: ضربت بيتاً إذا نصبته وأقامه أو بنّاه، وأطلق على إنشاء الأبنية فعل الضرب، لأنّ عمل الضرب باليد أو بالأدوات من أهمّ أعمال إنشائها. والسُّور: كلُّ ما يحيط بشيء من بناء أو غيره.

وعُدِّي فعل «ضَرَبَ» بحرف الجرّ «الباء» لأنّه ضَمَنَ معنى فعل «يحجز» أو «يفصل» فالمعنى: فَضَرَبَ بينهم حاجزاً أو فاصل بسورٍ يفصل بين المؤمنين والمنافقين.

﴿يَنْقَلِبُ﴾:

أي: من جهته، قَبْلُ الشيء: جِهَتُهُ وناحيته.

﴿فَلَنَنْتَفِئَنَّا أَنْفُسَكُمُ﴾:

أي: اضلَلْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَغَرَضْتُمُوهَا لعذابِ الله ونقمته، وهذا فيما أرى أولى المعاني بالاعتبار هنا من معاني الفتنة.

﴿وَتَرْيَضُنَّ﴾:

التَرْيَضُ الانتظار، يُقال لغة: تَرْيَضُ فُلَانٌ فُلَانًا، أي: انتظر شراً أو خيراً يحلُّ به.

﴿وَأَرْتَبْتُمْ﴾:

أي: شَكَّكْتُمْ، يقال لغة: ارتاب في الأمر وارتاب به إذا شك فيه. وارتاب به إذا اتهمه بأمرٍ مستنكر، ككذب أو سرقة أو خيانة ونحو ذلك.

﴿وَعَرَّكُمُ﴾:

أي: خَدَعْتَكُمْ وأطمعتكم بالباطل.

﴿الْأَمَانِيُّ﴾:

جمع «الأمينة» وهي ما يتمنى الإنسان حصوله مما هو بعيد المنال.

﴿الْفُرُورُ﴾: كلُّ خَدَاعٍ يُطْمَعُ بالباطل، وصيغة «غُرُور» من صيغ المبالغة، أي:

شديد الخدع عظيم الحيلة، ويطلق غالباً هذا اللفظ على الشيطان، ومن كان مثله في التفرير والمخادعة للإضلال.

﴿لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ﴾:

الفدية ما يُقدَّم من مالٍ أو غيره لإنقاذ مستحقِّ العقاب، وتخليصه من تبعه ما جنى.

﴿مَأْوَاكُمْ النَّارُ﴾:

أي: منزلكم الذي تأوون إليه النار، يقال: أوى إلى المكان إذا نزل فيه، فهو مأواه.

﴿هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾:

من معاني «المولى» من يتولى أمر من هو مشرف عليه، وهذا المعنى هو البقي معاني هذه الكلمة هنا. فالنار عن طريق خزنتها من الملائكة، هي التي تتولى أمور تعذيب المنافقين يوم الدين.

﴿وَيَنْشَأُ الْمَصِيرُ﴾:

ينشأ: فعل جامد لإنشاء الدَّم، وهو منقولٌ للدلالة على معنى الدَّم من «ينشأ» إذا أصاب بُؤساً، ضدَّ «نعم».

﴿الْمَصِيرُ﴾: اسم المكان الذي سيصرون إليه، أو مصدر ميمي من «صار».

والمعنى: وينشأ المصير النار التي سيصرون إليها.

يقال لغة: صار إلى كذا بمعنى انتقل إليه، أو تحول إليه، أو انتهى إليه.

(٤)

مع النص في التحليل والتدبر

• قول الله عز وجل:

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي

مِنْ نَحْيِهَا لَا تَهْرُخَلِيدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ :

أي : يا مَنْ تصلحُ للخطاب ضَعُ في ذَاكَرَتِكَ مشهداً من مشاهد يَوْمِ القيامة، فاذْكُرْ من حينٍ لآخر يَوْمَ تَرَى إِذْ تَقُومُ القيامة، وَيُخْشَرُ النَّاسُ لِلْحِسَابِ وفصل القضاء، المؤمنين والمؤمنات محظوظين بميزة خاصةٍ دون سائر أهل الحشر.

هذه الميزة هي أَنَّهُمْ أَصْحَابُ نُورٍ يَكْثِفُ لَهُمْ سُبُلُهُمْ فِي مَسِيرِهِمْ، فَكُلُّ مَنْتَهَمٍ لَهُ نُورٌ خَاصٌّ بِهِ يَكْثِفُ لَهُ الْمَسِيرَ الَّذِي يَسِيرُ فِيهِ غَيْرَ ظَلَامٍ مُّحِيطٌ مُّجَلَّلٌ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ نُورٌ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى مَقْدَارِ قُوَّةِ إِيمَانِهِ فِي الدُّنْيَا، وَمَقْدَارِ زَادِهِ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ.

هذا النور الذي يكون لكل مؤمن ومؤمنة نورٌ يَسْعَى فِي سُبُلِ أَرْضِ الْحَشْرِ أَمَامَ السَّاعِينَ فِيهَا عَلَى مَقَادِيرِ سَعْيِهِمْ شِدَّةً وَضَعْفًا، فَسَاعٍ مِنْهُمْ بِسُرْعَةٍ فَائِزَةٌ، وَنُورُهُ يَسْعَى بَيْنَ يَدَيْهِ بِمِثْلِ سُرْعَتِهِ، وَسَاعٍ مِنْهُمْ بِسُرْعَةٍ دُونَ ذَلِكَ، وَتَتَنَازَلُ السَّرْعَاتُ حَتَّى أَدْنَاهَا، وَنُورُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَسْعَى بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَى مَقْدَارِ سُرْعَتِهِ، وَسُرْعَتِهِ فِي سَعْيِهِ يَوْمَئِذٍ تَنَاسَبُ سَعْيُهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَمَرَاضِيهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وهذا النور يملكون بهُ وتوجيهه بآيمانهم، كالمصابيح الكهربائية التي اكتشفها الناس لإنارة طرقاتهم في الليل، ذاب الأنواع المختلفة، فمنها ما يستعمله الناس في مركباتهم، ومنها ما يحمله المشاة بأيديهم.

فالنص على تقدير: اذْكُرْ يَا مَنْ بَصَلِحْ لِلْخُطَابِ ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ حَالَةَ كَوْنِهِمْ ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ﴾ الْخَاصُّ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِحَسَبِ إِيمَانِهِ وَمَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ ﴿يَتَنَبَّهُ أَيْدِيهِمْ﴾ لِكَشْفِ طُرُقَاتِهِمْ بِحَسَبِ مَقْدَارِ سَعْيِهِ كُلِّ مِنْهُمْ، وَدَلَّتِ الْحَاجَةُ إِلَى النُّورِ عَلَى أَنَّ مُّحِيطَ الْمَكَانِ مُّحِيطٌ مُّظْلَمٌ لَا نُورَ فِيهِ إِلَّا مَا يَكُونُ سَاعِيًا بَيْنَ أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ السَّاعِينَ، ﴿و﴾ وَسِيلَةٌ بِثَ هَذَا النُّورِ وَتَوْجِيهِهِ تَكُونُ ﴿بِأَيْمَانِهِمْ﴾.

وضع في ذَاكَرَتِكَ أَيْضًا يَا مَنْ تَصَلِّحْ لِلْخُطَابِ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ لَهُمْ مِيزَةٌ أُخْرَى يَمَيِّزُهُمُ اللَّهُ بِهَا، دُونَ سَائِرِ أَهْلِ الْمَحْشَرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

هذه الميزة الأخرى هي أنهم يُبشرون قبل الحساب وفصل القضاء يُبشرون، فيقال لهم:

﴿بُشِّرْنَكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا...﴾ (١٢)

﴿بُشِّرْنَكُمْ﴾:

أي: الشيء السار المفرح الذي تبشرون به، وهو مبتداً.

﴿جَنَّاتٌ﴾:

خبر. إنها جنة عظيمة مفصلة إلى جنات.

ومن أوصافها أنها تجري من تحتها الأنهار التي جاء في نصوص قرآنية أخرى وصفها، فمنها أنهار ماء غير آسن، ومنها أنهار لبن، ومنها أنهار عسل مُصَفًّى، ومنها أنهار خمر لا غول فيه.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾:

أي: هي معدة لكم، فإذا دخلتموها كنتم خالدين فيها.

بعد عرض هذه اللقطات من مشاهد يوم القيامة مما هو خاص بالمؤمنين والمؤمنات، أبان الله لنا على سبيل الترغيب في أن نكون من أهل الإيمان، فقال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٣)

أي: ذلك الثواب الرفيع يوم الدين للمؤمنين والمؤمنات هو وحده الفوز العظيم، الجامع للظفر بما هو فوق آماني العباد ومحابهم، وللربح العظيم على العمل القليل، وللنجا مما هو معد للكاشرين والمنافقين من عذاب اليم، وضمير (هو) ضمير فصل لتأكيد التخصيص.

ونلاحظ أن هذا النور الذي عرضته هذه الآية على أنه خبر عن مشهد مقتطع من مشاهد يوم القيامة، قد جاء بيانه في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول) نفسها بأسلوب وعُد من الله للمؤمنين من أهل الكتاب إذا اتقوا وآمنوا برسوله محمد ولا سيما

النصارى الذين اتَّبَعُوا عِيسَىٰ بِصَدَقٍ، فقال تعالى فيها:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾:

أي: يا أيها الذين آمنوا برسل الله السابقين وبما جاؤوا به اتقوا الله وآمنوا برسوله محمد ﷺ، يؤتكم كفلين (أي: نصيبتين) من رحمته، مقابل إيمانكم أولاً برسلكم، ثم إيمانكم بمحمد. ويجعل لكم نوراً من الهداية تمشون به في الدنيا، ونوراً تمشون به يوم القيامة، ويغفر لكم، والله غفورٌ رحيم.

وجاء بيانه أيضاً في سورة (التحریم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول) بأسلوب وعِد من الله لعصاة المؤمنين، فقال تعالى فيها:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتَيْتُمُ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

نلاحظ في هذه الآية أن دُعاة المؤمنين يوم القيامة ربُّهم أن يُتِمَّ لَهُمْ نُورُهُمْ وَيَغْفِرَ لَهُمْ، يدلُّ على أن نور كل واحد منهم نور ناقص عن مرتبة الكمال التي يشاهدونها للأنبياء والمرسلين، ولا بد أن يكون ذلك بسبب ما كان منهم من تقصيرات وذنوب ارتكبوها وضعف في الإيمان، فهم يسألون الله أن يُتِمَّ لَهُمْ نُورُهُمْ وَيَغْفِرَ لَهُمْ، حتى يكونوا مع السابقين، ونفهم ذهنياً بمقتضى قانون العدل الرباني أن نقص النور لكل واحد منهم يعادل تقصيراته وما ارتكب في الحياة الدنيا من سيئات، وهذا يشهد للتصور الذي أظهره تدبر الآية التي هي موضوع البحث من سورة (الحديد) كما سبق البيان حولها.

* قول الله عز وجل:

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِس مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورَةٍ مَّا بَاطُنُهُمْ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُمْ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٢﴾ ينادونَهُمْ لَيْسَ بِنُورِكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا وَلِكُلِّ فِتْنَةٍ أَنفُسُكُمْ وَنُفُوسُهُمْ وَأَرْبَابُهُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانَةُ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٣﴾﴾

أي: وَضَع في ذاكرتك أيضاً يا من تصلح للخطاب مشهداً آخر من مشاهد يوم القيامة موصولاً بالمشهد السابق، فاذكر من حينٍ لآخر، يوم تَرَى إذ تقومُ القيامة، ويُحْشَرُ النَّاسُ لِلْحِسَابِ وفصل القضاء، المنافقين والمنافقات، يَحْشُونَ وراء المؤمنين والمؤمنات بتباطؤ وضعف وعجز، وهم يقولون للذين آمنوا انتظرونا وتمهلوا من أجلنا حتى نستفيد في مسيرنا خَلْفُكُمْ من نُورِكُمْ، في هذا الظلام الدامس.

ونستطيع أن ندرك أن هذا إنما يكون قبل الحساب وفصل القضاء، إذ يزعم المنافقون والمنافقات أن خداعهم للمؤمنين ما زال سارياً تبعاً لما كانوا فيه في الحياة الدنيا، أما بعد الحساب وفصل القضاء، فإن الحكم بشأنهم يكون قد صَدَرَ، وعندئذ يُجْمَعُونَ مع الكافرين، وتكشف سرائرهم للجميع، فما يذكره بعض المفسرين مما يخالف هذا لا يستقيم، ومنه قول بعضهم: إن هذا يكون على الصراط.

دل على هذه اللفظة من مشاهد يوم القيامة قول الله تعالى:

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِس مِنْ نُورِكُمْ﴾:

أي: اذكر يا من تصلح للخطاب ﴿يَوْمَ يَقُولُ...﴾، فضع هذا في ذاكرتك ليكون واعظاً لك ومُنْذِراً، فتكون شديد الحذر من أن تَسْلُكَ مسالك النفاق والمنافقين.

ولما كان المنافقون والمنافقات على علم بأن النور الذي يستهدي به المؤمنون والمؤمنات إنما هو نور إيمان كلٍّ منهم ونور عمله الصالح في الحياة الدنيا، فإنهم يقولون لهم:

﴿انظُرُونَا نَقْتِس مِنْ نُورِكُمْ﴾.

ولاً يقولون لهم: نقبس من النور الذي تستهْدُونَ به في ظلمات المحشر، إنهم يعلمون أنه نُورُهُم المنبعث من كلٍّ منهم.

ودَلَّ المشهد على أن الذين آمنوا يَسْعَوْنَ، أي: يُسْرِعُونَ في السَّيرِ لَأَنَّ نَوْرَهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، فَسَعَى نورهم جاء كنايةً عن سعيهم، ولو كانوا مستقرين في أماكنهم لكان نورهم مستقرّاً معهم.

ودَلَّ المشهد على أن المنافقين والمنافقات يحاولون اللَّحاق بالَّذِينَ آمنوا، استمراراً لما كانوا عليه من نفاقٍ في الحياة الدُّنيا، ولكنَّ الضعف والعجز الناجمين عما كانوا عليه من كفر في الباطن لا يمكنانهم من مسايرة أضعف المؤمنين إيماناً وأقلهم عملاً صالحاً.

ولا بدّ أن يكون هذا السَّعي في اتِّجاه موقف الحساب وفضلِ القضاء الخاصِّ بالمؤمنين والمؤمنات.

عندئذٍ يقال لهم:

﴿أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾:

أي: ليست هذه الجهة جهنكم، ولا تصلُّحون للِّحاق بالَّذِينَ آمنوا في مسيرهم، لا بالاستحقاق ولا بالتبعية، فمكانُكم الخاصُّ بكم هو وراءكم، فارجعوا إليه، وسيروا في الاتِّجاه المعاكس حيث يسيِّر الكافرون الصِّرخاء.

فالذي يظهر أنهم يُخَذَّعون في أوَّل الأمر فيُحْشَرُونَ مع الذين آمنوا، ثُمَّ إذا دُعي الذين آمنوا للسَّعي في اتِّجاه موقف حسابهم، مشى معهم المنافقون مشي الضعفاء العجزة، فيسبقهم كلُّ المؤمنين، عندئذٍ يكونون كالذيل، ثم يفصل الذيل عن مؤخره المؤمنين والمؤمنات، وتشتدُّ على المنافقين والمنافقات الظلمات، فلا يستطيعون متابعة اللَّحاق بالَّذِينَ آمنوا، فيطلبون منهم الانتظار، عندئذٍ يوجَّه لهم النداء الربَّاني، عن طريق الملائكة أو عن طريق خلقٍ صوّبَ سَمْعُونه:

﴿أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾.

إنهم يُجَاوِزُونَ في موقف الحشر بمثل ما كان منهم في الحياة الدُّنيا، كانوا يُخادعون الله والَّذِينَ آمنوا، فمن العدل أن يُعاملوا يوم القيامة بمثل عملهم في الحياة الدنيا.

ولست أرى أن عبارة ﴿وَرَاءَكُمْ﴾ تأكيدٌ لعبارة ﴿ارْجِعُوا﴾ على اعتبار أن الرجوع يستلزم السير إلى الوراء، بل أرى أن عبارة ﴿وَرَاءَكُمْ﴾ هي على معنى: إلزموا ورائكم، أي: فالجهة التي هي ورائكم المعاكسة لجهة الذين آمنوا هي الجهة التي ستخذون خطوط مسيركم فيها مع الكافرين، إلى موقف حسابكم، فإلى جهنم، أما جهة الذين آمنوا فهي إلى موقف حسابهم، فإلى الجنة، وإن استحق بعضهم مقدراً من التعذيب في النار.

ويقال لهم أيضاً بعد أمرهم بالرجوع، وأمرهم بأن يلزموا ورائهم: ﴿فَالْتَسُوا نَوْرًا﴾.

أي: فاطلبوا نوراً بجهدكم من عملكم، إن كنتم قادرين على ذلك، وابحثوا عن نور تستهدون به بأنفسكم، فإنه لا يُسمح لكم اليوم أن تستفيدوا نوراً من غيركم كما كنتم في الدنيا تشاركون الذين آمنوا في ثمرات أعمالهم، إذ كنتم تزعمون أنكم منهم، وأنتم كاذبون، فالיום لا كذب ولا مخادعة، إنه يوم الدين يوم الحق والعدل بالنسبة إلى الكافرين، ويوم الفضل والإحسان بالنسبة إلى المؤمنين.

وعقب هذا القول الذي يُوجّه للمنافقين والمنافقات يُقام سورٌ حاجزٌ بين المؤمنين والمنافقين، لئلا يتابع المنافقون السير خلف المؤمنين على سبيل المكابرة وتجاهل الإعلان، بظُلٍ ثقیل، وتطفّلٍ علیل، ويُجعل في وسط هذا السور باب، ولا بد أن يكون على الباب حُرّاس، ويظهر أن الغرض من هذا الباب فحص المتخلفين المقصرين في السير من عصاة المؤمنين، وضعفاء الإيمان الذين لم يبلغ ضعف إيمانهم إلى دركة الشرك أو النفاق، فمن كان له قلرٌ ما من نور الإيمان والعمل الصالح مهما قلّ أذن له بالدخول من هذا الباب إلى جهة المؤمنين، ويُمنع المنافقون ويرُدُّون.

هذا السور له باطنٌ يقع إلى جهة المؤمنين، وله ظاهر يقع إلى جهة المنافقين.

ونعلم من سنة الله في الخلق أن الباطن يكون في العادة ليناً ناعماً ضاماً لما يحتوي عليه برقي وحفظ، بخلاف الظاهر فإنه يكون عادة قاسياً خشناً، يجد من يقرب منه ما يصده ويردّه ويؤذيه.

ووفق هذه السّنة يجعل الله هذا السّور ذا باطنٍ لينٍ مؤنسٍ ناعمٍ حسنٍ جميلٍ،
وذا ظاهرٍ صلبٍ خشنٍ يأتي من جهته العذاب، الذي ينزل بمن يقترب منه، ويحاول
تسوّره، لينخرط في جماعة المؤمنين، وهو ليس منهم، فبطاقة الدخول من الباب لا بدّ
أن تكون بطاقة من نور الإيمان والعمل الصالح في الحياة الدنيا.
فقال تعالى :

﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُم بَابٌ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرٌ مِنْ
قِبَلِهِ الْعَذَابُ ۝١٣﴾.

فلا يستطيع المنافقون والمنافقات الاقتراب من السور، ولا يُسمَحُ لهم بالدخول
من الباب، نظراً إلى أنهم لا يملكون نور إيمان وعمل صالح، ولو من أقل الدرجات.
عندئذٍ لا يبقى أمام كل واحد منهم إلا أن ينادي معارفه من المؤمنين ألم أكن
معكم؟! لعل بعضهم يرضى أن يشهد له بأنه كان في الدنيا مع المؤمنين، فيشفع ذلك
له عند ربّه، فيأذن لملائكته بأن يلحقوه بهم.

لكن المؤمنين يكونون قد اكتشفوا حقيقة معارفهم من المنافقين، فيجيئونهم بما
يدلّ على أنهم كانوا منافقين كاذبين، مع المؤمنين ظاهراً، وليسوا مع المؤمنين باطناً.
فقال تعالى :

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ
الْأَمَانَةُ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ۝١٤﴾.

استعمل فعل ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ نظراً إلى حاجز السور الذي أقيم بين الفريقين،
فمنعهما من التحدث والتخاطب بصوت منخفض.

﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ۝١٤﴾!

يدعو المنافقون بهذا الاستهزام الذين آمنوا بأن يشهدوا لهم عند ربهم بأنهم
كانوا في الدنيا مع المؤمنين.

فيقول المؤمنون لهم: ﴿بلى﴾: أي: بلى لقد كنتم معنا في ظاهر انتسابكم

﴿وَلَيْكُنْكُمْ﴾ لم تكونوا معنا في حقيقة إيمانكم وولائكم، بل كنتم على خلاف ذلك ونقيضه في باطن أمركم.

واليوم نذكر لكم بالتفصيل حقيقة أمركم تجاه دين ربكم وتجاه رسوله والمؤمنين.

أولاً: ﴿فَنَنْتَرُ أَنْفُسَكُمْ﴾:

أي: أضللتكم أنفسكم وعرضتموها لعذاب الحريق في نار جهنم، باختياركم الحر سبيل الضلال والغواية وإبطان الكفر، ورفض الحق الذي جاء به رسول ربكم، وكيد الإسلام والمسلمين، ومخادعة الله ورسوله والمؤمنين.

ثانياً: ﴿وَتَرِيضَتُمْ﴾:

أي: وانتظرتكم أن تدور على الإسلام والمسلمين الدوائر، فتتقضوا على المسلمين الصادقين مع الكافرين الصرحاء قتلاً وسلباً وتشريداً، وعندئذ كنتم ستعلمون كفركم وعداوتكم الصريحة، ولكن الله عز وجل نصر المؤمنين وخذل الكافرين، فرد كيدكم عليكم، فكنتم أنتم المكيدين.

ثالثاً: ﴿وَأَرَبَّيْتُمْ﴾:

أي: وشككنتم بصدق رسول ربكم مع كل ما شاهدتموه من دلائل نبوته ورسالته، وشككنتم في صحة ما جاء به وبلغه عن ربه، مع أنه حق تشهد له براهين العقل، ويشهد له الواقع، وتشهد له التجارب.

رابعاً: ﴿وَعَزَّيْتُمْ الْأَمَانِي﴾:

أي: وأطمعتمكم الأماني التي كنتم تتمنونها بالباطل، وتوكلونها من حين إلى حين بعده، كلما توالى الأجل دون تحقيقها ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ بإنهاء أجالكم أنتم في الحياة الدنيا، فحلّت بكم منابكم، دون تحقيق أمانيتكم، وأنتم ما تزالون على نفاقكم، كُفراً في الباطن وإسلاماً في الظاهر.

خامساً: ﴿وَعَزَّيْتُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورَ﴾:

أي: وخدعكم بالله ربكم الشيطان الغرور، إذ كان يعدكم ويمنىكم ويوسوس لكم ويسول، فيزين لكم أنواع الشرك، وصور الكفر، ويقدم لكم زيف الأفكار

والضلالات بزخارف الأقوال، وما يصطنعه هو وجنوده من شياطين الإنس من فلسفات وسفسطات وأفكار باطلة، ويزين لكم التشبث بالحياة الدنيا وزيناتها، ويصرف عن تصوراتكم الآخرة وما أعد الله فيها من عذاب خالد للكافرين والمنافقين، ومن نعيم خالد للمؤمنين، بالتشكيك بأخبار الرُّسل عن الله ربهم.

• قول الله عز وجل:

﴿قَالِیَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَتْكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

هذا بيان رباني يُوجِّهُ لهم عَقَبَ الجَّوَارِ الَّذِي يَكُونُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، على طريقة النداء، إذ يحجز بين الفريقين السُّورَ المضروب بينهما.

هذا البيان الرباني يأتي إعلاناً عاماً يسمعه المنافقون جميعاً، في موقفهم يوم القيامة، لتبيسهم من النجاة، وقطع آمالهم، حتى لا يُحاولوا اتِّخاذ سببٍ ما أو حيلةٍ ما، طمعاً في الخلاص ممَّا هم فيه.

صوتٌ مَلَكٌ يَتَلَوُّ عليهم هذه الآية بحسب لغاتهم، أو إذاعةٌ تَبْثُّها عليهم بخلق الله، أو شيء آخر يوصلها إلى أسماعهم وقلوبهم بخلق الله، الله أعلم.

هذا البيان يشتمل على أربع قضايا:

القضية الأولى:

﴿قَالِیَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

أي: فالیوم لا تُقبلُ بِنُكْمٍ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا كُفْرًا صَرِيحًا فِدْيَةٌ ما لو كُنتُمْ تَمْلِكُونَ دَفْعَ فِدْيَةٍ تَدْرُونَ بها عذاب الله الخالد عنكم.

وجاء التعبيرُ بِنَفْيِ أَخْذِ الفِدْيَةِ عن قبولها، لَأَنَّ قبولها يستلزم أخذها، على أنهم لَا يملكون يوم القيامة شيئاً يُقدِّمونه، لا فِدْيَةً ولا دُونَهَا، إِنَّ ما يملكه المكلفُ يوم الدين هو عمله الصالح الذي قدَّمه في الحياة الدنيا، والمنافقون والكافرون ليس لهم أعمال صالحة مقبولة عند الله حتَّى يُقدِّموا منها فِدْيَةً ما.

القضية الثانية :

﴿ مَا أَوْتِكُمُ النَّارُ ﴾ :

أي : مكانكم الذي تأوون إليه وتنزلون فيه النار دار عذاب الكافرين والمنافقين والعصاة يوم الدين .

القضية الثالثة :

﴿ هِيَ مَوْلَاكُمْ ﴾ :

أي : النار دار العذاب يوم الدين هي التي تتولى شؤونكم، ومن كانت النار هي مولاه كانت ولايتها عليه ولاية تعذيب وتنكيل .

وقد نُزِلَتِ النار منزلةً ذي حياة وإرادةٍ يتولى شؤون من يقع تحت سيطرته على سبيل المجاز في التعبير، بتزويل غير ذي الحياة منزلة ذي الحياة، أو على سبيل ملاحظة خزنة النار من الملائكة الغلاظ الشداد الذين يتولون تعذيب أهلها، على سبيل المجاز المرسل، من إطلاق المحل وإرادة القائم على شؤونه .

القضية الرابعة :

﴿ وَيُشْسَ الْمَصِيرُ ﴾ :

أي : وهذه النار هي مصيركم الأخير الذي ستصيرون إليه، فلا خلاص لكم منها، لأنكم فيها خالدون، ويُسَّ المصير الذي ستصيرون إليه هي .
وينتهي النص بهذا الختام أعاذنا الله من الكفر والنفاق .



النص العشرون

وهو من سورة (محمد / ٤٧ مصحف / ٩٥ نزول)

تاسع سورة مدنية

الآيات من (١٦ - ٣٢)

حول عدم تفهم المنافقين لما يسمعون واهلهم
لدى سماعهم آيات الدعوة إلى القتال

قال الله عز وجل :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَفَقَا
أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَاهْتَدَوْا
تَقْوَاهُمْ ۚ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ
ذِكْرُهَا ۚ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِكُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
مُتَقَلِّبَكُمُ وَمَتَوَلَّيَكُمُ ۚ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ
وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ
الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَا وَصَدَّقُوا اللَّهَ لَكُنْ خَيْرًا
لَّهُمْ ۚ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۚ أُولَئِكَ
الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ۚ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانُ ۚ أَرَعَىٰ قُلُوبَ
أَفْقَاهَا ۚ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَىٰ آذَانِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ
سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ

سَطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُ ﴿٦٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْنَهُمْ ﴿٦٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَتَّبَعُوا مَا اسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٦٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَثَهُمْ ﴿٦٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَنزَلْنَاهُمْ فَلَاعَرَفْنَاهُمْ بِسِمَتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٧٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٧١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِيطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٧٢﴾

(١)

القراءات المتواترات في هذا النص (من الفرش)

* في الآية (١٦):

(١) قرا جمهور القراء [أنفأ] بعد الهمزة.

وللبزري رواية عن ابن كثير [أنفأ] بالقصر، والأخرى كقراءة الجمهور.

أنفأ: بالمد هي بمعنى الزمن الماضي القريب من زمن التكلم، أي: ماذا قال منذ قريب إذ كان يتكلم.

أنفأ: بالقصر هي بمعنى المتبرم المتشكي الذي يظهر انزعاجه، كالبعير الذي يُساق بالخطام من أنفه، فهو ينقاد كارهاً مُتشكياً، يقال: بعيرٌ مأنوفٌ، أي: يساق بأنفه فهو أنف، ويقال: أنف البعير إذا شكا أنفه من الخطام الذي فيه وساق منه.

ويقال أيضاً: بعيرٌ أنفٌ بالمد إذا كان دائم التشكي مثل: أنف، بالقصر.

ففي القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، أي: ماذا قال محمد في خطبته أو حديثه الذي قاله من قريب حالة كونه متشكياً متبرماً من أحوال بعض الناس، أي: ماذا يقصد من تشكيه، ومن هم الأشخاص الذين يتحدث عنهم متبرماً من أحوالهم؟

• في الآية (٢٢) :

(١) قرأ جمهور القراء العشرة [عَسَيْتُمْ] بفتح السين .

وقرأ نافع فقط [عَسَيْتُمْ] بكسر السين .

وهما وجهان عربيان في هذه الكلمة .

(٢) قرأ جمهور القراء العشرة [تَوَلَّيْتُمْ] على البناء للفاعل .

وقرأ رؤيس فقط عن يعقوب [تَوَلَّيْتُمْ] بضم التاء والواو وكسر اللام على البناء للمفعول .

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد .

تَوَلَّيْتُمْ : تأتي بمعنى تسلَّمْتُمْ ولاية أمور الناس ، وتأتي بمعنى أدبرتم عن الحق وانصرفتم عن طريقه .

تَوَلَّيْتُمْ : هي بمعنى أَسْبَذْتُمْ إِلَيْكُمْ ولاية أمور الناس .

(٣) قرأ جمهور القراء العشرة [وَتَقَطَّعُوا] بتشديد الفعل من «قَطَعَ» المشدَّد الطاء .

وقرأ يعقوب فقط [وَتَقَطَّعُوا] بالتخفيف .

وفي القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد ، إذ من الناس المرادين من يبالغ في تقطيع أرحامه ، ومنهم من يقطع رحمه دون إسراف .

• في الآية (٢٥) :

(١) قرأ جمهور القراء العشرة [وَأَمَلَيْ لَهُمْ] أي : أَمَلَى الشيطان لهم .

وقرأ أبو عمرو : [وَأَمَلَيْ لَهُمْ] بالبناء للمفعول وفتح الياء ، أي : وَأَمَلَيْ لَهُمْ من قبل من يؤثر عليهم .

وقرأ يعقوب [وَأَمَلَيْ لَهُمْ] بالبناء للفاعل على أن الفاعل ضمير المتكلم وهو الله عز وجل .

وفي هذه القراءات تكامل في الأداء البياني وتكامل في أداء المعنى المراد. يقال: أَمَلَى له: إذا أطال له وأَمَهَلَهُ.

• في الآية (٢٦):

(١) قرأ جمهور القراء العشرة [أَسْرَارَهُمْ] جمع «سِرٍّ».

وقرأ حفص عن عاصم، وحمزة والكسائي وخلف العاشر [إِسْرَارَهُمْ] بكسر الهمزة، مصدر اسرَّ إسْرَاراً.

وفي القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، فالله يعلم أسرارهم التي يخفونها، ويعلم عملهم إذ يُسِرُّون به.

• في الآية (٢٨):

(١) قرأ جمهور القراء العشرة [رِضْوَانَهُ] بكسر الراء.

وقرأ شعبة فقط [رُضْوَانَهُ] بضم الراء.

وهما وجهان عربيان لكلمة رضوان.

• في الآية (٣١):

(١) قرأ جمهور القراء العشرة: [وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ] بنون العظمة في الأفعال.

وقرأ شعبة فقط: [وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ] بياء الغائب.

وفي القراءتين تكامل في الأداء البياني.

وقرأ رؤيس عن يعقوب: [وَتَبْلُوَ] بإسكان الواو على استئناف الجملة دون عطف فعل [تَبْلُوَ] على فعل [تَعْلَمَ] فيكون فعل [تَبْلُوَ] مرفوعاً، أي: ونحن نبلو أخباركم، وهو وجه من الأداء البياني ذو دلالة خاصة مضافة.

(٢)

موضوع النص بوجه عام

يكشف هذا النص حالة المنافقين وهم في مجالس العلم الديني، ويبين أنهم يتصنعون التظاهر بأنهم يستمعون الأقوال ويصفون إليها، لكنهم في الحقيقة منصرفون عنها في نفوسهم، فلا يصل إلى أدمغتهم وقلوبهم منها شيء، إن قلوبهم مطبوع عليها بسبب انصرافهم عنها، وعدم إيمانهم بها أصلاً.

ويكشف أيضاً حالة المنافقين حين كانوا يستمعون الآيات المنزلات المتضمنات الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله بالأموال إعداداً لقتال الكافرين، وبالأنفس في الخروج لمقاتلتهم، وهي الآيات التي كان رسول الله ﷺ يتلوها على المسلمين في المجمع العامة التي كان يشهدها المسلمون، المؤمنون منهم والمنافقون.

فقد كان المنافقون إذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها الدعوة إلى قتال الكافرين أصابهم الهلع والجزع، فجعلوا ينظرون إلى الرسول ﷺ نظر المغشي عليه من الموت.

وبعد كشف هاتين الظاهرتين من أحوال المنافقين يتابع النص معالجتهما بالإقناع، والموعظة، والدعوة إلى تدبر آيات القرآن، والوعيد بالعاقبة الوخيمة والعذاب الأليم، والإنذار بفضحهم أمام سائر المسلمين، بإخراج ما في سرائرهم وضمائرهم من أضغان.

وضمن ذلك يبين الله عز وجل حكمته في الابتلاء الذي يكشف به المؤمنين والكافرين، والمطيعين والعاصين، والمجاهدين والقاعدين المتخاذلين، والصابرين والجزعين، إلى غير ذلك من تصرفات الناس الإرادية التي تصير بعد الوقوع أخباراً.

(٣)

المفردات اللغوية في النص

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾:

أي: ومن الذين كفروا منافقون ضمن جماعة المسلمين يستمعون إليك يا محمد، بمعنى يصغونَ سمعهم إليك، فيميلون آذانهم ورؤوسهم تظاهراً بأنهم مهتمون بما تقول، سترًا لنفاقهم.

يقال لغة: استمع له واستمع إليه، وكذلك تسمع إليه، بمعنى أصغى إليه، أي: آمال رأسه وأذنه إليه ليستمع منه ما يقول.

﴿مَاذَا قَالُوا إِذَا﴾:

أي: ماذا قال محمد في الزمن الماضي القريب إذ كُنَّا في مجلسه. وأحياناً يقولون هذا القول على معنى: ماذا قال محمد وماذا يقصِّدُ ومنْ يعني بقوله الذي يتشكى به، وذلك حين يُعرِّضُ بالمنافقين وأعمالهم غير السارة، وعلى هذا المعنى تُحمل قراءة «أَبْنَاءُ» أي: ماذا قال حالة كونه متشكياً متبرماً. فكلمتا «الأنف» و«الأنف» تاتيان في اللغة بمعنى المتشكي، كما سبق في البيان لدى توجيه القراءات.

﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾:

الطبع في الماديات كالختم، وقد كان من عادة الملوك وغيرهم إذا أرسلوا رسائل، وأرادوا المحافظة على سرية ما فيها، أفلوها بإحكام، ووضعوا عند مكان إقفالها طيناً خاصاً، يطبعون عليه خاتمهم الخاص بهم، فيجف الطين ومثال الخاتم مطبوع عليه، فلا يمكن معرفة ما في داخل الرسالة إلا بكسر خاتم الطين.

وعلى سبيل التوسع في التعبير بنقل ما هو للماديات إلى المعنويات، جاء في القرآن التعبير بالطبع والختم على القلوب، للدلالة على أنها صارت محجوبة عن إدراك أي شيء يتعلق بما هي محجوبة عنه.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾:

تُطلَقُ السَّاعَةُ في القرآن على الزمن الذي يكون عنده إنهاء نظام الحياة الدنيا

لجميع الخلائق، وتطلق أيضاً ورأى ساعة البعث إلى الحياة الأخرى، حياة الحساب والجزاء، ويُدْمَجُ المرادان في تعبير واحد لأن ساعة الإنهاء مقدّمة لساعة ابتداء الحياة الأخرى.

وساعة كل حي في الحياة الدنيا هي ساعة موته، وعند بعثه إلى الحياة الأخرى لا يشعر بالنسبة إلى الزمن إلا كما يشعر النائم إذا صحا من نومه، كأنه لم يلبث بين الموت والبعث إلا ساعة من نهار.

﴿بَعَثَهُ﴾ :

أي: فجأة. يُقال لغة: بَعَثَهُ يَبْعُثُهُ بَعَثًا وَبَعَثَةً، بمعنى فجأه يُفْجِئُهُ فُجْئًا وفجأةً. فالساعة الأولى والساعة الأخرى لا تأتيان بقضاء الله وقدره على جميع الأحياء إلا فجأةً.

﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ :

أشراط الساعة علامات قربها، وأماراتها، أشراط: جُمِعَ شَرَطٌ، بفتح الراء، وهو العلامة، ويقال: أَشْرَطَ الشَّيْءُ إذا جعل له علامة.

﴿فَإَنِّي لَمَّمُ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ :

﴿أَنِّي﴾: هنا بمعنى «كيف». ﴿ذِكْرُهُمْ﴾ أي: تذكّرهم، والمراد التذكّر النافع، لأن الساعة متى جاءت لم ينفع التذكّر صاجبه، لقد مضى زمن الابتلاء، وأقبل يوم الجزاء.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ :

التَقَلَّبُ: التَّنَقُّلُ، والتَصَرُّفُ في الأعمال، يقال لغة: تَقَلَّبَ في الأمور إذا تَصَرَّفَ فيها كيف يشاء. ويقال: تَقَلَّبَ في البلاد إذا تَنَقَّلَ فيها، فلفظ «مُتَقَلَّبٌ» اسم مفعول بمعنى الكسب الذي حصل نتيجة تَقَلَّب كاسبه وتَصَرُّفه. أو مصدر ميمي، بمعنى التَقَلَّب.

فالمعنى: والله يعلم ما تعملون في تصرفاتكم، ويعلم حركاتكم في تقلّبكم.

﴿وَمَثْوًى﴾ :

أي : وسكونكم واستقراركم ومكان إقامتكم وزمانه . يقال لغة : ثوى بالمكان وفي المكان يثوي ثواءً وثويًا ، إذا أقام فيه واستقر .

فلفظ «مَثْوًى» اسم مكان من ثوى ، واسمُ زمان ، ومصدرٌ ميمي . فالمعنى : والله يعلمُ ثواءكم ، أي : استقراركم وسكونكم ، ويعلم المكان الذي تَثْوُونَ فيه ، ويعلمُ الزمان الذي تثوون فيه ، لا يخفى عليه سبحانه من ذلك شيء .

﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ :

أي : هلا نُزِّلَتْ سورةٌ تأمر بالقتال ، فلفظ «لَوْلَا» هنا للتحضيض بمعنى «هلا» .

﴿مُحْكَمَةٌ﴾ :

أي : واضحة الدلالة ، لا غموض فيها ولا شبهة ولا تحتاج إلى تأويل . ولا يردُّ هنا أنها غير منسوخة ، لأنَّ السورة حين إنزالها لا تنزل منسوخة ، بل قد تكون ناسخة لما نزل قبلها ، فتفسير بعض أهل التأويل كلمة «محكمة» هنا بمعنى غير منسوخة ، من التَّسْرِع .

﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ :

هو مرضُ أشدِّه النفاق ، وقد يخفُّ إلى ما هو قريبٌ من النفاق ، كضعف الإيمان الشديد .

﴿نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ :

أي : مثل نظر الذي انتابه إغماءةٌ مقدمات الموت ، فجلَّلت بصره ، فصارت عيناه تدوران على غير هدى ، أو جَمَدَتْ عيناه عن الحركة كما ينظر الشاخص ببصره عند الموت ، وهذا يكون من شدة جزعهم وانزعاجهم .

﴿فَأَوَّلَىٰ لَهُمْ﴾ :

هذه عبارة تهديدٍ ووعيد ، قال الأصمعي : معنى قولهم في التهديد : أولى لك ، وَلِيكَ وقَارِبَكَ ما تكره . قال ثعلب : لَمْ يَقُلْ في «أَوَّلَىٰ» أَحْسَنُ ممَّا قَالَهُ الأصمعي .

﴿أَضْفَنَّهُمْ﴾ :

أي: أخفادهم وما يُضْمِرُونَ في صدورهم من عداوةٍ وغيظٍ وإرادةٍ كَيْدٍ للإسلام والمسلمين.

أضفان: جمع «ضفن» وهو الحقد الشديد. والحقد: هو إضمارُ العداوة، مع إرادة الكيد، وترتبط الفرصة للإيقاع بالمحقوق عليه.

﴿فَلَعَرَفْنَهُمْ رِسْمَهُمْ﴾ :

الرسم العلامة، والمعنى أن المنافقين لهم علامات خاصة في ظواهرهم تدل على نفاقهم، فمن عرفها عرفهم بأشخاصهم.

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ :

لحنُ القول هو القول الذي يُرادُ منه غير ظاهره، ويفهمه الفطن من وراء لفظه بالفطنة والتأمل، وأصل اللحن إمالة الكلام إلى نحوٍ من الانحاء لغرض التعمية والإخفاء عن لا يُراد إعلامه بالمقصود منه.

حكى ابن كثير عن عثمان بن عفان أنه قال: ما أسرَ أحدُ سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلمات لسانه.

قال: وفي الحديث: «ما أسرَ أحدُ سريرة إلا كساه الله تعالى جلبابها إن خيراً فخير أو شراً فشر».

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ :

الابتلاء الامتحان والاختبار وكشف ما في السرائر.

﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ :

الصدُّ الإعراض عن الشيء والانصراف عنه، وفعل «صدَّ» يستعمل لازماً ومتعدياً، يقال صدَّ عن السبيل إذا أعرض، ويقال صدَّ غيره عن السبيل إذا منعه وصرفه.

﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾ :

أي: وعادوا الرسول وخالقوه، يقال لغة: شاقه مُشاقَّةً وشِقَاقاً، إذا خالفه وعاداه، قال الزجاج: الشقاق العداوة بين فريقين، والخلاف بين اثنين، سُمي ذلك شِقَاقاً، لأن كل فريق من فرقتي العداوة قصَدَ شِقّاً، أي: ناحية، غير شِقِّ صاحبه.

(٤)

مع النص في التحليل والتدبر

• قول الله عز وجل:

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ هُزْ ۝﴾

في معرض الحديث عن الذين كفروا ابتداءً من أول السورة، تحدث هذا النص عن المنافقين، باعتبارهم يدخلون في عموم الكافرين، لأنهم كفرون باطنًا، وإن كانوا متسبين إلى الإسلام بحسب الظاهر، وتعرض أيضاً لضعفاء الإيمان الذين قد يشاركون المنافقين في طائفة من الظواهر السلوكية، لتحذيرهم من أن تجرهم أعمالهم للانغماس في خِمْاءِ النفاق.

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۚ﴾

أي: ومن الكافرين مُنافقون يَسْتَمِعُونَ إليك يا محمد مُظهري إصغاءهم إليك بإمالة رؤوسهم وتوجيه أذانهم مخادعين بأنهم مسلمون.

﴿حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنِفًا ۚ﴾

أي: ويستمررون مُظهري إقبالهم على تلقي العلم حتى إذا خرجوا من عندك وفارقوا مجلسك الذي كنت تحدث فيه وتتلو آيات الله، توجهوا لأولي العلم من المؤمنين الذين كانوا معهم في المجلس فقالوا لهم: ماذا قال محمد حين كنا عنده في الزمن القريب؟ فيكشفون بسؤالهم هذا أن ما كانوا يظهرونه من إصغاء لاستماع أقواله لم يقترن به توجه فكري مطلقاً، بل كانت أفكارهم وقلوبهم منصرفة عنه انصرافاً كلياً. وأحياناً يقولون كما دلّت القراءة الأخرى: ماذا قال حالة كونه منشكياً متذمراً،

وماذا يعني من قوله ، ويظهر أن هذا القول كانوا يقولونه حينما كان يتحدث عن صفات المنافقين ، يكشف سرائهم ، ويتذمر من أعمالهم غير السارة .

وقد استفدنا المعنيين من قراءتي : [أَيْناً] و [أَيْناً] كما سبق بيانه ، وهذه الظاهرة من منافقي عصر النبوة ، ظاهرة تتكرر من منافقي كل عصر وكل أمة .
﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ :

أي : أولئك البعداء عن رحمة الله ، والبعداء عن تفهم العلم النافع ليوم الدين ، والنافع لحياة دنيوية رضية سعيدة ، الذين اتخذوا من الأسباب الصارفة عن الحق والهداية إلى الصراط المستقيم ، ما كان من نتيجته ضمن سنن الله السببية أن تُقفل قلوبهم فلا تصل إليها دلائل أقوال الحق والهداية إلى الصراط المستقيم ، بل يُطَبِّع على أقفالها إيماناً بأنها صارت غير مستعدة لتقبل الحق والهداية مطلقاً ، أي : صارت بمثابة حُجَرَاتٍ صَمَاءٍ لها أبواب ، وهذه الأبواب سَكُرَتْ وأُقْفِلَتْ وَضُرِبَ الختم على هذه الأقفال .

فليس الطبع على قلوبهم أمراً جبرياً ، بل هو نتيجة ما يفعلون من أسباب .

ونتيجة لإقفال قلوبهم والطبع عليها بالنسبة إلى الحق والهدى إلى صراط الله ، فلا بد أن تكون أهواؤهم هي التي توجه إراداتهم وتحرك سلوكهم في الحياة ، فقال تعالى :

﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ :

الأهواء : رَغَبَاتُ الأنفس من زينة الحياة الدنيا ، ومتاعها ، وشهواتها ، وهذه الأهواء إذا لم تكن موجهة ومنضبطة بشريعة الله لعباده ، انطلقت في المعاصي والفساد والإفساد في الأرض ، وقادتُها الشياطين إلى الشرور والمهالك ، ومسالك الضلال والبغي والظلم والعدوان .

وَسُمِّيَتْ أهواء ، لأنَّ النفوس تَجَذِبُ إِلَيْهَا انجذاباً مَنْ يَهْوِي مِنْ مَكَانٍ مرتفع ، آمِنٍ إلى مَهْوَاةٍ مُهْلِكَةٍ ، تَسْتَقْبِلُ الهاوي إليها بالعذاب الاليم ، والشقاء الدائم .



* قول الله عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ آهَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ وَقَوْهُمْ ﴿١٧﴾﴾

أي: وفي مقابل أولئك المنافقين المندسين ضمن جماعة المسلمين، يظهر في الصورة المؤمنون الذين اختاروا لأنفسهم بإراداتهم الحرة الإيمان الصادق، فلم يسلكوا مسالك النفاق، فافْتَدَوْا بهذا الاختيار الحكيم إلى الحق وصراط الله المستقيم، فانطلقوا في مسيرتهم في الحياة متجهين ضمن حدود هذا الصراط، ابتداءً من أوله، إيماناً وعملاً صالحاً.

لكن السالك في طريق الحق والهدى يظل غُرْصَةً في رحلته في الحياة الدنيا للخروج عنه من ذات اليمين أو ذات الشمال، فهو بحاجة إلى مزيد من الهداية بالتوفيق والمعونة من الله، إذا استعان بالله وسأله التوفيق والسداد والرشاد، وصدق في الطلب، فيزيده الله هُدًى، حتى يُكْمِلَ مسيرته في الحياة مُعَاناً مَوْفِئاً على مقدار صحة إرادته، وصدقه في الطلب والاستعانة بالله وحسن التوجه في ابتغاء مرضي الله.

والهدى الذي يزيده الله عز وجل منه، يكون بفتح أبواب المعرفة له، فيزداد علماً بالله، ويزداد مما يُسْعِدُهُ في آخرته فهماً وبصيرة مشرقة، ويكون بإعانة الله له، على ذكره وشكره وحسن عبادته، والعمل بمرضيه، واجتناب ما يُسْخِطُهُ في حركته وسكونه.

دَلَّ عَلَى هَذَا كَلَمَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آهَدُوا زَادَهُمْ هُدًى﴾.

وبعد تغلبه في مختلف أعماله وتصرفاته في الحياة مُهْدِيًا، بعاملين:

فالأول منهما: إيمانه وصدقه ورغبته في الاستقامة على صراط الله، والتجازه إلى الله في أن يُعِدهُ بالعون والتوفيق والسداد.

والآخر منهما: توفيق الله ومعونته له، وشرح صدره للعمل الصالح، وتنوير بصيرته لإدراك المعارف الربانية.

بعد ذلك يُؤْتِيهِ الله عز وجل نَفْسَهُ، وإتقاء هذه التقوى يكون بمنحه مَلَكَةَ الاستقامة على ما يقيه من المعاصي والآثام، وذلك لَأَنَّ الممارسة الطويلة على أي

عمل من الأعمال، وآية مهارة من المهارات الجسدية أو النفسية أو الفكرية يُكسبُ العادة، التي تكونُ ملكةً تُصدّرُ عنها ظواهرها السلوكية بالتلقائية، دون تكلف زائد ومعاناة، وهذا مُشاهدٌ لدى كلّ أصحاب المهارات، حتى المهارات الفكرية والنفسية. والتقوى في السلوك الباطن والظاهر تنطبق عليها هذه السّنة من سُنن الله في الأحياء، وسُنن الله تتمُّ بخلقه في الأشياء وفي الأحياء.

وإنشاء هذه الضّوى يكون أيضاً بأن يُكتبه الله عنده من المتّقين، فيعرّفُ لدى الملائكة بهذه الصّفة، ويُلقِي الله في قُلُوبِ الناس ما يُشعرُهُم بأنّه من المتّقين، كما جاء في الحديث الصحيح: «وما يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْلُقُ وَيَتَحَرَّى الصُّلُقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقاً».

وما يكتبه الله عنده يقذفه في قلوب عباده.

لنا على هذه المعاني قوله تعالى:

﴿وَأَنذَرْتَهُمْ نَفْوَهمْ ۖ﴾ (٧)

* * *

* قول الله عز وجل:

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمُ ذِكْرُهُمْ ۖ﴾ (٨)

﴿فهل ينظرون؟﴾:

أي: فهل ينتظرون؟

طرح هذا السؤال يدلُّ على أن المنافقين ينتظرون شيئاً، وأن الله عز وجل يُقطع آمالهم ويبيّسُهُم من تحقيق ما ينتظرونه حتى قيام الساعة، التي ستأتي الناس وسائر الخلائق بغتة، أي: مفاجأة، فقد أخفى الله عز وجل العلم بوقتها عن كلّ عباده في الأرض والسماء.

فما هو الشيء الذي ينتظرونه؟

دَلَّ النَّصُّ السَّابِقُ مِنْ سُورَةِ (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول) عَلَى أَنَّ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا يَتَرَبَّصُونَ، أَي: يَنْتَظِرُونَ أَنْ تَدُورَ الدَّائِرَةُ عَلَى الرُّسُولِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، حَتَّى يَكْشِفُوا حَقِيقَتَهُمْ، وَيَنْقَلِبُوا صِرَاحَةً ضَدْ أُمَّةِ الْإِيمَانِ، مُنَاصِرِينَ وَمُؤَالِينَ أُمَّةِ الْكُفْرِ الصَّرِيحِ.

فَأَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا يَنْتَظِرُونَ شَيْئًا سَيَحْقُقُ بِلَا رَيْبٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ الشَّيْءَ يَنْحَصِرُ فِي السَّاعَةِ الَّتِي يَكُونُ بَعْدَ قِيَامِهَا حِسَابُهُمْ وَفَصْلُ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِمْ، ثُمَّ عَذَابُهُمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

إِنَّهُمْ يَنْكُرُونَ السَّاعَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَا فِيهِ مِنْ حِسَابٍ وَجَزَاءٍ، فَهُمْ لَا يَنْتَظِرُونَ ذَلِكَ بِتَصَوُّرِهِمْ وَإِرَادَاتِهِمْ، لَكِنْ وَاقِعٌ أَنْتَظَرَهُمْ لَنْ يَكُونَ بَعْدَهُ إِلَّا مَا سَيَكْرَهُونَ، إِنَّهُمْ يَنْتَظِرُونَ شَيْئًا لَا يَتَحَقَّقُ، وَلَكِنْ الَّذِي سَيَحْقُقُ بَعْدَ أَنْتَظَرَهُمْ هُوَ الْأَمْرُ الَّذِي لَمْ يَكُونُوا يَنْتَظِرُونَهُ وَلَا يَتَوَقَّعُونَهُ.

فَالْبَيَانُ تَحَدَّثَ عَنْ وَاقِعِ أَنْتَظَرَهُمْ، وَجَاءَ لِمُرَادِهِمْ مِنْ فَيَاسَتِهِمْ مِنْ وَقْعِهِ، بِأَسْلُوبِ حَصْرِ وَاقِعِ أَنْتَظَرَهُمْ فِي أَمْرِ حَتْمِيٍّ الْوُفُوعِ، وَهِيَ السَّاعَةُ.

وَهَذَا مِنْ بَدِيعِ دَمَجٍ عَدَّةِ بَيَانَاتٍ فِي جُمْلَةٍ اسْتِفْهَامِيَّةٍ قَصِيرَةٍ:

﴿هَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ؟﴾.

نَظِيرُ مَا لَوْ طَمَعَ جَمَاعَةٌ مِنَ النَّاسِ بِمُقَدِّمِ فَاتِحِ جَبَّارٍ مِثْلِ «هَوْلَاكِهِ» لِيَنْقُذَهُمْ مِنْ خُصُومِهِمُ السِّيَاسِيِّينَ فِي بِلَدِهِمُ الَّذِينَ يُنَاقِشُونَهُمْ فِي الْمَصَالِحِ، بِأَخُوَّةٍ وَرَحْمَةٍ، فَخَرَجُوا لِاسْتِقْبَالِ هَذَا الْفَاتِحِ الْجَبَّارِ وَجَيْشِهِ، وَقَامُوا يَنْتَظِرُونَ، فَجَاءَهُمْ خَبِيرٌ فَقَالَ لَهُمْ: هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا قَطْعَ رُؤُوسِكُمْ وَنَثْرَ أَشْلَاءِ أَجْسَادِكُمْ لِلسَّبَاحِ؟ أَي: إِنَّ مَا تَنْتَظِرُونَهُ لَنْ يَتَحَقَّقَ لَكُمْ، وَلَكِنَّ الَّذِي سَيَحْقُقُ هُوَ أَنَّ الْجَبَّارَ وَجَيْشَهُ سَوْفَ يَتَذَوَّنُونَ بِقَتْلِكُمْ وَإِبَادَتِكُمْ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِلَادَكُمْ وَيَقَاتِلَ خُصُومَكُمْ.

فَدَلَّ طَرَحُ هَذَا الاسْتِفْهَامِ عَلَى نَفْيِ حَصُولِ مَا يَنْتَظِرُونَ بِتَصَوُّرِهِمُ الْمَرِيضِ، وَإِثْبَاتِ حَصُولِ شَيْءٍ سَيَحْقُقُ بَعْدَ وَاقِعِ أَنْتَظَرَهُمْ، وَحَصْرِ وَاقِعِ حَالِ أَنْتَظَرَهُمْ فِي حَصُولِ هَذَا الشَّيْءِ.

وَقَدْ دَلَّ عَلَى الْحَصْرِ النَّفْيِ الْمُسْتَفَادِ مِنَ الاسْتِفْهَامِ مَعَ أَدَاةِ الْاسْتِثْنَاءِ «إِلَّا».

وإذ قد ورد ذكر الساعة فإن من الحكمة الرفيعة في البيان الديني أن يُصاف إلى المقصود من ذكرها بيان عنها، يتعلّق بزمنها، وأماراتها، مع توجيه العظة لمن شاء أن يذكّر.

— أما زمنها فإنها لا تأتي إلا بغتة، فقد أخفاه الله عن كل خلقه، فقال تعالى:

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ۚ﴾

﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾: بدل اشتمال من الساعة.

وجاء التعبير بهذا الأسلوب هنا وفي الآية (٦٦) من سورة (الزخرف)، ولم يأت بأسلوب: هل ينظرون إلا أن تأتيهم الساعة بغتة؟ لأن في تقديم ذكر الساعة لفت نظر إلى حقيقة الساعة أولاً، فهذه معرفة يُقصد تثبّتها ابتداءً، ثم يأتي موضوع وقت إثباتها، فهي جزئية معرفة تأتي في الدرجة الثانية بعد إثبات أصل قضية الساعة، ومع هذه الإضافة الفكرية لم تزد عبارة النص حرفاً واحداً، إذ لم يحصل في العبارة إلا تقديم كلمة الساعة، وهذه من بدائع القرآن.

— وأما أمارات الساعة، فقد قال الله عز وجل بشأنها في النص:

﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾

أي: جاءت علاماتها، ومن هذه العلامات ما تحقّق في الواقع، كبعثة الرسول محمد ﷺ بالذين الخاتم، وانشقاق القمر، ومن هذه العلامات ما أعلمنا الله ورسوله به ممّا سيتحقّق، ومجيء العلم بهذه الأشرطة على لسان الرسول المؤيّد بالمعجزات الباهرات هو بقوة مجيئها في الواقع، على أن القرآن يبقائه محفوظاً وتلاوته في توالي العصور هو بمثابة بيان ربّاني متجدّد، فكُلّمَا ظَهَرَ شَرَطٌ من أشرطة الساعة، يقرن به النصّ القرآني:

﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾.

يُضاف إلى هذين الأمرين أن القرآن من أساليبه أن يتحدث عن الأمر المتحقّق الوقوع في المستقبل بصيغة الفعل الماضي، للدلالة على أنه لا بدّ أن يتحقّق، كما نقول لمن أطلق قذيفةً إلى هدفٍ معيّن، وهذه القذيفة محكمة التسديد: لقد أصاب

الهدف. ولو أنها ما زالت سائرة في طريقها لم تُصَبْ هدفها، ومن هذا قول الله عز وجل في أول سورة (النحل / ١٦ مصحف / ٧٠ نزول):

﴿أَفَأَمَرَ اللَّهِ فَلَا تَسْعَى لَوْ سَبَحْنَاهُ وَتَعَلَّى عَمَائِشُ كُوتٍ ۝﴾

أما تفصيل أمارات الساعة فموجود في كتب الحديث وكتب العقيدة^(١).

— وأما توجيه العظة لمن شاء أن يتذكر منهم، فقد جاء في قوله تعالى:

﴿فَأَنذَرْتُهُمْ إِيَّاهُ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ ۝﴾

أي: فكيف تكون نافعة لهم ذكراهم للساعة، وصارفة عنهم عذابها، إذا لم تحصل لهم هذه الذكرى إلا بعد مجيئها.

إنهم يومئذ لا يملكون أن يعملوا عملاً ينفعهم، فقد انتهت رحلة الابتلاء وجاء يوم الحساب والجزاء.

من أجل ذلك فالعاقِلُ الحَصيفُ الرُّشِيدُ هو الذي يتدارك أمره وهو في رحلة ابتلائه، فيعمل فيها ما ينفعه عند ربّه في اليوم الآخر، يوم الحساب والجزاء، إذ يُدْرِكُ أنه إذا جاءت الساعة لم ينفعه من الإيمان والعمل الصالح إلا ما كان قد قدّمه قبل موته في الحياة الدنيا حين كان في رحلة الامتحان.

* قول الله عز وجل:

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ

مُنْقَلَبَكُمْ وَمَثَلُكُمْ ۝﴾

يوجه الله عز وجل في هذه الآية الخطاب للرسول فلكل من يصلح للخطاب بمضمونها من بعده بصورة إفرادية، لأن مسؤولية كل مخاطب بها مسؤولية فردية تجاه الله عز وجل.

(١) انظر بحث أمارات الساعة في كتاب «العقيدة الإسلامية وأسبغها للمؤلف».

والفاء في ﴿فاعلم﴾ جاءت تفريراً على ما تضمنه الكلام السابق في السورة، الذي تعرض للكافرين، ولفئة المنافقين منهم، وللمؤمنين، وتجمع هذه الأصناف الثلاثة جميع المكلفين، المأمورين بأن يعلموا دين الله لعباده، ويؤمنوا به، ويعملوا به.

وقد دلت هذه الآية على جملة قضايا أصول من قضايا الدين، وهذه القضايا بعضها مذكور بصريح اللفظ، وبعضها مطوي يفهم بدلالات اللزوم العقلي، وبالقرائن، وبما يفهم اقتضاء من ترتيب الجمل المستقيمت اختزالاً من موضوعاتها، وبدلالات نصوص أخرى موزعات في سور القرآن.

القضية الأولى:

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ :

أي: فاعلم أن الشأن العظيم الجليل في الوجود «لا إله إلا الله» أي: لا معبود يستحق العبادة كائن في الوجود كله إلا الله وحده، لا شريك له.

والأمر بالعلم بهذه الحقيقة العظمى من حقائق الدين يتضمن ويستلزم ثلاث قضايا هي: طلب العلم بهذه الحقيقة علماً فكرياً عقلياً مقروناً بأدلتها، وطلب الإيمان بهذه الحقيقة إيماناً إرادياً يتم بالاعتراف والتسليم القلبي مع الطمأنينة الشامة وانهقاد ذلك بالعاطفة، وطلب العمل بمقتضى توحيد الإلهية لله عز وجل. فالقضية الأولى من هذه القضايا الثلاث قد فهمت من صريح اللفظ، والقضيتان الثانية والثالثة تفهمان باللزوم العقلي، وبقرينة عطف جملة ﴿واستغفر لذنبك﴾ على جملة ﴿فاعلم﴾ لأن الاستغفار إنما يكون بعد مخالفة للعمل بمقتضى «لا إله إلا الله» والعمل بمقتضى «لا إله إلا الله» لا يكون إلا بعد الإيمان بمضمون «لا إله إلا الله» إيماناً صحيحاً، فظهرت لنا بهذا التحليل القضايا الثلاث، فمنها ما هو مصرح به، ومنها ما هو مطوي.

وكل من العلم والإيمان والعمل بمضمون «لا إله إلا الله» له مستويات، أدناها هو الذي يكون به أدنى الإيمان والنجاة من الخلود في النار، وأعلاها هو ما يكون به استحقاق الفردوس الأعلى في جنات النعيم، المخصص لخيرة عباد الله الصالحين، المصطفين الأخيار، من الأنبياء والصديقين ومن تبعهم بإحسان.

إِنَّ الْعِلْمَ بِاللَّهِ وَكَمالاته وصفاته الحسنى وأثار قدرته وإرادته وحكمته كلما ازداد
ازداد العلم بمضمون «لا إله إلا الله» وكلما ازداد هذا العلم ازدادت نسبة الإيمان
بمضمون «لا إله إلا الله» وازداد الدافع للقيام بأنواع من العبادات تستدعيها نسبة العلم
والإيمان للذين ازدادوا.

فمن الحكمة تجاه هذه النسب المتفاضلة ذوات الدرجات المرتقيات أن يكون
الخطاب في قول الله عز وجل: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ موجهاً لكل من يصلح لأن
يُخاطب بمضمونه، فغير المؤمن يطالب بالعلم بها وبالإيمان والعمل من مستوى الدرجة
الدنيا، والمؤمن يطالب بمثل ذلك ولكن بأن يرتقي في درجات العلم والإيمان
والعمل، بدءاً من درجته التي هو فيها، حتى الأنبياء والرسل مطالبون بزيادة العلم
والإيمان والعمل بمضمون «لا إله إلا الله»، ويشهد لهذا قول الله لرسوله محمد في
سورة (طه) / ٢٠ مصحف / ٤٥ نزول:

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.

وبهذا الفهم يسقط ما طرح من إشكال حول أمر الرسول بأن يعلم أنه «لا إله
إلا الله» مع أنه عالم بذلك، إذ الجواب أن مضمون «لا إله إلا الله» قابل دون حدود
لزيادة العلم فالإيمان فالعمل.

القضية الثانية:

﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.

إن الأمر بالاستغفار ملاحظ فيه قضية مطوية في النص سبق بيانها، وهي الأمر
بالعمل بمضمون «لا إله إلا الله» بعد الإيمان به.

ولكل أهل مرتبة من مراتب المؤمنين: «المتقين، والأبرار، والمحسنين» تكاليف
مطالبون بها ليكونوا حقاً من أهل تلك المرتبة، لكن بني آدم خطئون جميعاً، فكل
أهل مرتبة تقع منهم خطايا بالنسبة إلى حقوق تلك المرتبة، فهم بحاجة إلى أن
يستغفروا الله عز وجل من خطاياهم تلك، ليغفر الله لهم، فلا ينزلوا عن مرتبتهم.

إن أهل مرتبة «الإحسان» مثلاً إذا ارتكبوا تقصيرات تقتضي إنزالهم عن هذه

المرتبة إلى مرتبة «الأبرار» مطلوب منهم أن يستغفروا لذنوبهم حتى يحافظوا على مرتبتهم بفضل الله وغفرانه، وهكذا إلى سائر المراتب ودرجاتها.

ومطلوب من كل مؤمن بدءاً من الرسول ﷺ حتى آخر المؤمنين درجة، أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، توثيقاً للرابطة الجماعية والأخوة الإيمانية بين المؤمنين، وهذا من روائع الوحدة الجماعية الإيمانية.

القضية الثالثة:

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾:

أي: والله يعلم حركتكم التي بها تتصرفون وتتقلبون في الأعمال، ويعلم مكانها وزمانها، ويعلم سكونكم واستقراركم ومكانهما وزمانهما.

إن إثبات قضية العلم الرباني بكل ما يصدر عن العباد من حركة وسكون بعد الأمر بعلم «أنه لا إله إلا الله» والإيمان والعمل بمضمونها، يدل على أن التكليف يترتب عليه الحساب والجزاء، فهو يستدعي العلم بما يصدر عن المكلفين من أعمال صالحة وسيئة، فجاء ذكر العلم بعبارة:

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾.

وفي اختيار المتقلب والمثوى في هذا المقام إيجاز بديع، لانهما يدلان على الحدث ومكانه وزمانه، كما جاء بيانه فيما سبق لدى شرح المفردات اللغوية، والتدبر الأمثل يقتضي هنا أن نحمل اللفظ على كل معانيه التي يدل عليها، إذ صيغة «متقلب» وصيغة «مثوى» تصلح كل منهما لأن تكون اسم مكان واسم زمان ومصدراً ميمياً^(١).

* قول الله عز وجل:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ

رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ

(١) انظر القاعدة الثامنة والعشرين، من كتاب «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل» للمؤلف.

يعرض الله عز وجل موقفين متناقضين أمام قضية واحدة:
الأول: موقف الذين آمنوا إيماناً صادقاً.

الثاني: موقف الذين في قلوبهم مرض النفاق فما هو أقل من النفاق كضعف الإيمان، وعدم الصدق الكامل فيه.

أما القضية فهي قضية إنزال الأمر الصريح الواضح البين المحكم بقتال الذين كفروا، لإعلاء كلمة الله، وتأمين الدعوة إلى دين الله، ونشر الحق والعدل في الأرض. وقد كان موقف الذين آمنوا إيماناً صادقاً بالنسبة إلى هذه القضية أنهم كانوا يقولون من حين لآخر مطالبين بتحريض: لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةُ بَيِّنَةٍ وَاضِحَةٌ نُؤْمَرُ فِيهَا صِرَاحَةً بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الْأُمَمِ الْكَافِرَةِ لِقَاتِلِهَا، بغية إعلاء كلمة الله، وتأمين الدعوة إلى دين الله، ونشر الحق والعدل في الأرض.

لكن موقف الذين كان في قلوبهم مرض النفاق فما هو أقل منه، قد كان موقفاً مختلفاً، فلقد كانوا إذا أنزلت سورة محكمة بيّنة واضحة لا غموض فيها، وجاء فيها ذكر القتال، بوصفه والدعوة إليه، والحض عليه لاغتنام الأجر العظيم عند الله، ولو لم يفترون ذلك بما يجعله فريضة لازمة، فلبعوا وظهرت على وجوههم علامات الهلع ودلائله.

فكانوا إذا تلا الرسول ﷺ آيات القتال وهم حاضرون يستمعون، يُصابون بالهلع خوفاً أن يؤمروا بما هم به كافرون باطناً، أو بما لم يؤمنوا بهد به إيماناً صحيحاً كاملاً، ويستدعي منهم تعريض أنفسهم للقتل، وهم حريصون على الحياة، وهذا الهلع الذي تُصاب به قلوبهم ونفوسهم تدل عليه عيونهم، إذ ينظرون إلى الرسول ﷺ مبهُوتين نظراً المُنْشَبِي عليه من الموت، أي: كُنْظَرُ الذي انتابته إغفاءة مقدمات الموت، فجَلَّتْ بصره، فشَخِصَتْ عيناه جامدتين، أو صارت تدوران بخيرة على غير هدى، لأنهم لا يستطيعون أن يعترضوا بالسستهم، إذ يخشون انكشاف هويّتهم للمؤمنين، فتظهر انقياداً لأنهم الداخليّة أماراتٍ على وجوههم، وهذا شيء لا يملكون منعه ولا دفعه، إلا بالتدرب والممارسة الطويلة.

وبعد بيان هذه الظاهرة المنافية لمقتضى الإيمان الصحيح، والدالة على وجود

مرضٍ داخلي في مركز الإيمان داخل القلب قال الله عز وجل:

﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ﴾

أي: فقد اقترب منهم ما يكرهون، بمحاولتهم الخلاص من القتال الذي يكرهون، وفي هذا تهديد ووعد لهم.

* قول الله عز وجل:

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمْتَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾

جملة مستأنفة، حُذِفَ منها أَخَذُ رُكْنِي الإسناد فيها. والمعنى: المطلوب من المسلم في موضوع آيات القتال طاعةٌ وقولٌ معروف، أي: أن يعلن الطاعة وأن يقول بلسانه قولاً معروفاً، والقول المعروف من مسلم صادق الإسلام هو ما يدل على صدق إسلامه، كان يقول: سمعتُ وأطعت، حسبنا الله ونعم الوكيل، اللهم أمدنا بعونٍ من لدنك، اللهم ثبّت أقدامنا وأنصُرنا على القوم الكافرين، اللهم افض لنا الخير حيث كان الخير، واكتب لنا السلامة والعافية، ونحو ذلك، إنه لم يدخل بعد معركة القتال حتى يُصاب بالهلع، وينظر مثل نظر المغشي عليه من الموت.

لكن هؤلاء لا يستطيعون صرف الانفعالات المضادة عن قلوبهم ونفوسهم، وتجاه الدعوة العامة لقتال أوليائهم في الباطن، من المشركين واليهود والنصارى، إذ هم منافقون أو قريبون من النفاق، فالأمر بالنسبة إليهم أخطر من مجرد كونهم يخافون على أنفسهم من الموت إذا خرجوا إلى القتال.

وإذ كان هذا هو المعنى المراد قال الله تعالى:

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾

أي: بعد إعلان الطاعة والقول المعروف قبل أن يجذّ الجذّ، يأتي في المستقبل احتمال صدور الأمر الجازم بالخروج الفعلي إلى القتال، إذا عزم أولياء الأمر وهم قادة المسلمين على الإلزام بالخروج للقتال، وعندئذٍ فقد يُفسّر التخاذل بالجبن، الذي

لا يُناقض الإيمان، أما الهلع منذ نزول آيات القتال بوجه عام فهو من أمارات النفاق، أو الضعف الشديد في الإيمان المشوب بشوائب النفاق حتماً.

وهكذا أشار النص إلى أن الجبن عن قتال الكافرين في أيام المعارك لا يدل على النفاق، إذ قد يكون ظاهرة من ظواهر الضعف البشري، عند فريق من المؤمنين الصادقين في إيمانهم، فقال تعالى:

﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾:

أي: فلو صدقوا الله في قتال الكافرين حينئذٍ ولم يَضَعُوا عن القتال بسبب الجبن، لكان ذلك الصديق خيراً لهم عند ربهم، إذ يكون أجرهم عنده عظيماً.

والمعنى: ولو لم يَضَدُّوا في القتال يوم المعركة لما كان ذلك ذليلاً واضحاً على كفرهم، لاحتمال أن يكون أثر جبن في قلوبهم، الأمر الذي لا يتعارض مع صحة أصل الإيمان، وقد اشتهرت عبارة الصَّدَق في القتال بمعنى بذل غاية الوسع فيه، لأنه يدل حقاً على طلب ثواب الآخرة وابتغاء مرضاة الله بصدق.

عبارة [عَزَمَ الأمر] فيها إسناد فعل «عَزَمَ» إلى «الأمر»، فالأمر هو الفاعل في هذه الجملة، والمراد من الأمر أمر التوجيه الفعلي الجازم لقتال الكافرين، والمراد من العزم هنا الإرادة من مستواها الأعلى المعلنة من قِبَل وَلِي الأمر بالإلزام بالخروج للقتال.

فكيف يُسَنَدُ العزم الذي هو فعل وَلِي الأمر، إلى المأمور به، وهو التوجه للقتال. قال البلاغيون: هذا من المجاز العقلي، الذي يُسَنَدُ فيه الفعل أو ما في معناه لغير من هو له، مما يُلَابِسه بوجه من الوجوه، كالمفعول به، والمصدر والزمان والمكان والسبب.

وهنا أُسِنِدَ الفِعْلُ إلى المفعول، إذ الفاعل لفعل «عَزَمَ» هو وَلِي الأمر، والمفعول هو الأمر بالقتال، وقد أُسِنِدَ فِعْل «عَزَمَ» إلى المفعول به، وهو «الأمر» أي: الأمر بالقتال، فهو من قبيل المجاز العقلي، أما السَّكَاكِي فيدخل المجاز العقلي في عموم الاستعارة.

أقول: هذا الأسلوب المجازي هو من المجازات الموجودة كثيراً في كلام العرب، وهو من روائع مجازاتهم.

• قول الله عز وجل:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ۖ﴾

في هذا معالجة لأفكار يتحدث بها المنافقون في أنفسهم، ولا يفصحون عنها بالسلم، ونستطيع أن نستدل عليها من طريقة المعالجة.

إنهم يقولون في أنفسهم: لِمَاذَا نُؤْمَرُ بِالْقِتَالِ الَّذِي قَدْ يَنْجُمُ عَنْهُ إِفْسَادُ فِي الْأَرْضِ، وَخَرَابٌ لِلْعِمْرَانِ وَاهْلَاكٌ لِلْحَرْثِ، وَالَّذِينَ نُؤْمَرُ بِقِتَالِهِمْ قَدْ يَكُونُونَ مِنْ أَرْحَامِنَا، وَمَنْ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْنَا، فَلِمَاذَا نَقَاتِلُهُمْ وَنُقَطِّعُ أَرْحَامَنَا؟!

والجواب على هذا الحديث النفسي الذي يتردد في صدور المنافقين يكون بكشف ما سيكون من سلوكهم، لو كانوا هم أصحاب القوة، وكانوا هم أولياء الأمر، وكانت الدولة القائمة دولتهم، فَمَاذَا سَيَفْعَلُونَ؟

إنهم إِنْ تَوَلَّوْا فَيَكُونُونَ جَبَّارِينَ فِي الْأَرْضِ، لَا تُمْسِكُ بِهِمْ رَحْمَةٌ، وَلَا تَرْدَعُهُمْ مبادئ.

إنهم سَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أَيْمًا إِفْسَادًا، وَسَيَقَطُّعُونَ أَرْحَامَهُمْ، لِتَحْقِيقِ أَغْرَاضِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ، وَمَصَالِحِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَلَا تَكُونُ لَهُمْ مَبَادِئٌ وَلَا يَقِيمُ بِدَافِعُونَ عَنْهَا، إِنْ قِيمَهُمْ سَتَكُونُ أَهْوَاءُهُمْ وَشَهَوَاتُهُمْ وَرَغْبَاتُهُمُ الْخَاصَّةُ.

وقد عرض الله عز وجل عليهم هذا الجواب بأسلوب الاستفهام، فقال تعالى مخاطباً لهم:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۚ﴾

وقد دلت شواهد التاريخ على أن المنافقين ما ظهرت لهم دولة في الأرض، ولا قام لهم سلطان تَوَلَّوْا فِيهِ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ، إِلَّا أَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ إِفْسَادًا عَظِيمًا، وَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ، فَلَمْ يَقْبُضُوا بِقَوْمِيَّةٍ وَلَا دِينَ وَلَا مَبْدَأٍ، بَلْ كَانَتْ أَهْوَاؤُهُمْ وَمَصَالِحُهُمُ الْخَاصَّةُ هِيَ الْمَوْجِهَةُ لَهُمْ، بِأَنَانِيَّةٍ مَقِيَّتَةٍ لَا تَعْتَرِفُ بِمَبْدَأٍ وَلَا بِقِيَمَةٍ مِنَ الْقِيَمِ.

هكذا كان المنافقون في الشعوب النصرانية، وهكذا كان المنافقون في تاريخ

الامة الإسلامية، وقد شهدنا في عصرنا الحاضر الذي عشنا أمثلة كثيرة من تولي المنافقين وإفسادهم في الأرض، ونقطيعهم أرحامهم، وقتلهم لقومهم بلا شفقة ولا رحمة.

فمن الحكمة في البيان أن يُعرض الله عز وجل عنهم بعد أن وجه لهم الخطاب، ويخاطب الذين آمنوا بشأنهم فيقول:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ۖ﴾

أي: أولئك البعداء عن دائرة الإيمان، وعن الصراط المستقيم، الذين طردتهم الله فأخرجهم عن دائرة واسع رحمته، فهم في ضلالهم يترددون ويحيرون، وفي الظلمات يتقلبون، وفي المهالك يخبطون.

لقد اختاروا لأنفسهم السبيل في الظلمات، بعيداً عن دعوة الحق، وأنوار الهداية، فجرت فيهم سنة الله أن لا يسمعوا شيئاً من بيانات دعوة الحق، وأن لا يروا شيئاً من معالم الهدى، كمن في أدنياه صمم وفي عينيه عمى بالنسبة إلى ذلك، وهذا من كسبهم الذي جنوا به على أنفسهم، إذ استخدموا سنة الله التي تبصمهم وتعميهم باختيارهم، ولم يستخدوا سنة الله التي يكونون بها سميعين مبصرين.

* قول الله عز وجل:

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ قُلُوبُ أَقْفَالُهَا ۚ﴾

إن قوله تعالى خطاباً للمنافقين:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۚ﴾

تضمن مخاطبتهم بجواب إشكالي لهم يستند إلى ما في ضمائرهم وسرائرهم من رغبات إفساد في الأرض ونقطيع لأرحام لتحقيق مصالحهم وأهوائهم وشهواتهم الدنيوية.

أما الجواب الذي يتضمن تبرير قتال الكافرين بالاستناد إلى مبادئ الحق والخير ومصالح الإنسانية جمعاء، فهو موزع في سور القرآن المختلفة، وعلى طالب الجواب

أن يتدبّر القرآن، لا أن يطرح شبهاته، ويدعها تتردّد في نفسه، دون أن يتدبّر القرآن وآياته، وهو يزعم أنّه من المسلمين.

ولم يخاطبهم الله بهذا، بل أعرض عنهم وخاطب المؤمنين به، فقال تعالى:

﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ﴾

أي: ليتعرّفوا من خلال التدبّر على ما يدفعون به كلّ شبهاتهم وأوهامهم.

والاستفهام هنا هو من قبيل الاستفهام التوبيخيّ لهم على إعراضهم عن القرآن وتدبّر دلالات آياته، وترك نفوسهم وعقولهم وقلوبهم عرضة لوساوس الشياطين، تطرح فيها الشبهات.

بعد هذا الاستفهام التوبيخيّ لهم قال تعالى:

﴿أْمُرْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا﴾

أي: بل أحالهم التي هم عليها أنّ على قلوب مريضة في داخلهم أقفالها، التي ضربتها على أنفسها، بكفرها وعنادها، بعد أن غلقت أبوابها، ل تمنع واردات المعارف الدينية، والهداية الربّانية؟؟.

وهذا الاستفهام هو من قبيل الاستفهام التقريري، ويتضمّن التوبيخ أيضاً.

والمعنى أنهم أقفلوا قلوبهم، وأنصرفوا عن تدبّر القرآن، وظاهر أنّ جعل القلوب ذات أبواب وأقفال هو من قبيل الاستعارة.

• قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۚ﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۚ﴾

يكشف الله تعالى في هاتين الآيتين حالة ذوي النفاق الطاريء من عموم المنافقين، وهم الذين طرأ عليهم الاستقرار في النفاق بعد ضعف الإيمان الذي كانوا

فيه، وتبين لهم به الهدى، وقد طرأ عليهم الاستقرار في النفاق بعد أن وجدوا أنفسهم مدعوين للقتال، ويوجد في الذين سبقاتلونهم أقارب وأرحام لهم، وآخرون كانوا أولياءهم قبل الإسلام.

فوصف الله عز وجل هذه الفئة من المنافقين بأنهم ارتدوا على أديبارهم، أي: رجعوا إلى الكفر الذي كانوا فيه قبل الإسلام، بعد أن تبين لهم الهدى الذي تلقوه من تعاليم الإسلام، وبيانات آيات الله في كتابه.

ولم يرجعوا إلى الكفر في ردة ظاهرة، بل ارتدوا إلى الكفر بردة باطنة، فكانوا بذلك منافقين.

﴿عَلَىٰ أَذْبَرِهِمْ﴾ :

«أذبار»: جمع «ذبر» وذبر كل شيء غقبه ومؤخره، والشيء الذي كانوا قد تركوه بالإسلام وراء أديبارهم، هو الكفر، وحين ارتدوا سالكين جهة أديبارهم، ماشين في السبل التي كانوا فارقوها، فلإنهم قد انقلبوا بذلك على أديبارهم كافرين، لكنهم لم يعلنوا كفرهم وردتهم، بل استبقوا ظاهر انتمايهم إلى الإسلام، فهم بذلك قد نافقوا نفاقاً طارئاً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَذْبَرِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ :

اسم موصول وصلته وهو اسم «إن» التي جاءت لتأكيد الخبر، فما هو الخبر؟
الخبر هو جملة:

﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ :

أي: إن الذي جعلهم يرتدون على أديبارهم هو أن الشيطان سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ.

ونتساءل: كيف سَوَّلَ لَهُم الشيطان وأَمْلَى لَهُم؟

أقول:

إن الشيطان حرَّك في نفوسهم مصالحهم وأهواءهم تجاه أوليائهم السابقين من أهل الكفر، حينما وجد المشير، وهو دُعوتهم إلى قتالهم.

وهنا تنطلق في أذهانهم سلاسل الأفكار، وتتقلب في داخلهم أحاديث النفس، ومعلوم أن الشيطان يجري من أمي آدم مجرى الدم.

فيقولون: لماذا نقاتل من كانوا أوليائنا بالأمس قبل أن نُسلم، فنقتل منهم ويقتلون منا؟ ولماذا نخسر مصالحنا معهم؟ أليس العيش معهم بسلام خيراً لنا في حياتنا؟ ما هذا الدين الجديد الذي مَرَّق وحدتنا، وشق صفوفنا، وجعل أمتنا أمتين، وعرضنا للشقاق والخلاف والفتنة؟ ألا يمكن أن تكون قصة البعث والدار الآخرة مقولةً مخترعة؟ ألا يمكن أن يكون وجودنا مقتصرًا على وجودنا في هذه الحياة الدنيا؟

وهكذا إلى سلسلة تساؤلات تسويلية، صبر الشيطان طويلاً وهو يقذف بها واحدة بعد أخرى، فكلما ولّد تسويلُ شكاً، انتقل إلى تسويل آخر، بأسلوب الخطوات المتدرجة، فيكون الشيطان بذلك قد سَوَّل لهم، وأملأ لهم، أي طَوَّل صبره لأجل إغوائهم، أو طَوَّل لهم الجبل لينطلقوا في سلاسل الأفكار التي تُغويهم وتغريهم، وبهذا يكون بدءُ التسويل بالأفكار من الشيطان، ثم تتوارد سلاسل الأفكار الباطلة من تطويل الشيطان الجبل، حتى يسوموا في المرتع الذي يجعلهم فيه، كمن يأتي لدابته فيطعمها قبضة من نبات الأرض، حتى إذا استطابته وضعها في مكان ذلك النبات، وطَوَّل لها الرسن وأملأ لها، حتى ترتع بنفسها، لكنها لن تأكل إلا من النبات الذي وضعها هو فيه.

فما الذي جعل الشيطان يسيطر عليهم بالتسويل لهم والإملاء لهم، حتى أخرجهم من الإيمان إلى الكفر مرتدين منافقين؟

إنه ضعف إيمانهم الذي أزلهم فجعلهم يقولون لأهل الكفر من أوليائهم السابقين: المشركين واليهود والنصارى بمناسبة دعوتهم إلى قتالهم: سنطيعكم في بعض الأمر.

فالإنسان متى انزل في الخطيئة الأولى سهَّل على الشيطان أن يستدرجه إلى ما بعدها، حتى يطرحه في الهاوية، إذا لم يتب من قريب، ويرجع إلى الطاعة والاستقامة.

أبان الله عز وجل هذا السبب الذي جعل الشيطان يتسلط عليهم فيسول لهم

ويعلي لهم، فقال تعالى:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَاطِئُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ...﴾ ﴿١٧﴾

المشار إليه بلفظ ﴿ذَلِكَ﴾ هو مضمون:

﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾.

والمعنى: ذلك كان بسبب أنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله، وهم أهل الكفر من المشركين واليهود والنصارى، فهم الذين كرهوا ما نزل الله على رسوله بوجه عام، وكرهوا ما نزل الله من دعوة المؤمنين إلى قتالهم على وجه الخصوص.

ويظهر أن الكافرين استدرجوا من كانوا أولياءهم قبل الإسلام من ضعفاء الإيمان، فقالوا لهم: كيف تقاتلوننا مع محمد وأصحابه، وأنتم إخواننا قبل هذا الدين، وكان بنا وبينكم مودة وصفاء وموالاتة؟! فأجابوهم بأنهم لا يستطيعون أن يرجعوا إلى الكفر، ويحاربوا الرسول وأصحابه، ويتخذوا مفاوضة ومفاوضة، قالوا لهم مداراة لهم، ومحافظة على مودتهم: سنطيعكم في بعض الأمر، فقبلوا منهم ذلك.

ويمكن أن يدخل في بعض الأمر هذا إعلامهم ببعض الأخبار والتحركات، وأنهم إذا واجهوهم في القتال فإنهم يراءون بقتالهم ويكفون عنهم فعلاً.

فاتخذ الشيطان من هذا المنزلق سبباً يجر به هؤلاء إلى الكفر والنفاق.

ولما كان هذا الأمر قد حدث سراً بين الفريقين، كان من الحكمة في البيان أن يختتمه الله بقوله:

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَسْرَارَهُمْ﴾:

جمع «سراً» كما جاء في قراءة الجمهور.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَسْرَارَهُمْ﴾:

مصدر وأسره كما جاء في القراءة الأخرى.

فدلت القراءتان على أن الله عز وجل يعلم أسرارهم التي أسروا بها للذين كرهوا ما نزل الله من دعوة المؤمنين إلى قتالهم، ويعلم حدث الأسرار الذي كان منهم في زمانه ومكانه.

وبيان هذا العلم يتضمن إشعاراً بأنهم مهتدون بفضيحتهم لدى الرسول والمؤمنين، ومهتدون بمعاقبهم على ما كان منهم من اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، يسرون إليهم بالمودة، ويبعض المعونة والمناصرة.

* قول الله عز وجل:

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ﴾ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴿٢٨﴾

بعدما سبق من حديث حول المنافقين وبعض صفاتهم في السلوك الظاهر والباطن، اقتضت الحكمة الربانية في الدعوة والتربية، إنذارهم بما هو مُعد لهم عندما تتوفاهم ملائكة الموت، إذ يواجهون ساعتئذ أول عذابهم مع أول منازلهم في الآخرة.

إن ملائكة الموت إذا جاءتهم لتقبض أرواحهم، فإن أول ما تلقاهم به من تعذيب أن تضرب وُجُوهَهُمُ المنافقة الكاذبة التي كانوا يستقبلون بها المؤمنين، زاعمين بها لهم أنهم مؤمنون مثلهم، وهم كاذبون، وأن تضرب أذبارهم التي ارتدوا عليها من بعد ما تبين لهم الهدى، فكفروا بعد إيمانهم.

وقد جاء هذا الإنذار بأسلوب الاستفهام عن حالهم حين يضرب الملائكة وجوههم وأذبارهم ساعة قبض أرواحهم عند انتهاء آجالهم في الحياة الدنيا.

أي: فكيف تكون حالتهم النفسية والجسدية حينئذ؟ إن جواب هذا الاستفهام يُدرك بالبداهة، فلا حاجة إلى التصريح به في البيان البليغ، إن حالتهم تكون حالة الأشقياء التعساء الخاشعين المعذبين المخزيين النادمين على ما كان منهم من كفر ونفاق.

هذا ما نفهمه من قوله تعالى:

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ﴾ ﴿٢٧﴾ ١٩٤

بعد هذا الإنذار أبان الله عز وجل سبب إنزال العذاب بهم، فقال تعالى :
﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (٢٨).

المشار إليه بلفظ [ذَلِكَ] ما سبق بيانه من ضَرْب وجوبهم وأدبارهم عندما تنوفاهم الملائكة. والباء في [بأنهم] سببية، أي: بسبب أنهم، وجاء في الآية ذكر سببين:

الأول: أَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ، وذلك لأنهم حين ارتدوا على أدبارهم في الباطن كافرين، فإنهم منذ تلك اللحظة اتَّبَعُوا الأهواء والشهوات وخطوات الشياطين، وتعاليم المضلِّين من الإنس والجن، وكل ذلك من الأمور التي تسخط الله عز وجل، لأنها تناقض الدين الذي ارتضاه لعباده، دلَّ عليه قوله تعالى :
﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾.

الثاني: أَنَّهُمْ كَرِهُوا رِضْوَانَ اللَّهِ، وذلك لأنهم كَرِهُوا العمل بما أنزل الله لعباده من أوامر ونواهي، ومنها الإذن بقتال الذين كفروا لإعلاء كلمة الله وتأمين الدعوة إلى دينه، وإقامة الحق والعدل في الأرض، فهي الأمور التي رضيها لعباده، وجعل رضوانه على عباده لا يتحقق إلا إذا أطاعوه فيما رضي لهم من عمل.

فجمعوا بين الخسيتين، المعصية التطبيقية العملية، والكراهية القلبية لدين الله والعمل بمراضيه، فكانوا بذلك كافرين، لا مجرد عصاة مؤمنين، إذ كراهية رضوان الله من نواقض الإيمان.

أما أعمالهم الصالحة التي عملوها في مدة إيمانهم قبل ردتهم إلى الكفر في الباطن فإن الله عز وجل يُحِبُّهَا لهم، لأن الكفر كان السبب في إلغائها، ومعنى «يُحِبُّهَا» يُبْطِلُهَا وَيُلْغِيهَا.

وكذلك يحبط الله أعمالهم التي يعملونها ضد المؤمنين، لمناصرة الكافرين الصرحاء الذين اتفقوا معهم على أن يطيعوهم في بعض الأمور، وينصر الله أوليائه ضد أعدائه من الكافرين والمنافقين.

* قول الله عز وجل:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ ﴿١٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَمَرْنَاكُم بِالْحَمْدِ فَلَاحِقَهُمْ بِسِمَتِهِمْ وَلَنُتَبِّرَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٢٠﴾﴾.

هاتان الآيتان تغالجان قضية إخفاء المنافقين هوية أنفسهم، التي تُضَيِّرُ الأضْغَان، أي: الأحقاد المشتعلة على العداوة للإسلام والمسلمين، مع إرادة الكيد، وتربص الفرص الملائمة لمحو الإسلام واضطهاد المسلمين وتمزيقهم وإبادتهم.

وهذه المعالجة تناولت تحذير المنافقين من كشف هويتهم الحقيقية للرسل وللمؤمنين، وتناولت الإلماح للمؤمنين بأن باستطاعتهم التعرف عليهم بوسيلتين:

الوسيلة الأولى: التفرس في سيماهم، وهي العلامات التي قد تظهر أحياناً على وجوههم وفي أعمالهم وتصرفاتهم، ولكن هذه الفراسة تحتاج خاصية استشعار يمنحها الله لبعض عباده، وتقدم ظناً، يمكن بالبحث والمتابعة للتصرفات السرية تأكيده أو رفضه.

الوسيلة الثانية: التعرف عليهم من خلال أقوالهم التي لا يستطيعون أن يجعلوها صريحة واضحة تندفع بالتلقائية، بل لا بد أن تدخل فيها تعريضات وتلميحات ورمزيات وكتابات تكشف مراداتهم، وبالتالي تكشف هوياتهم الحقيقية، وقد جاء التعبير عنها بعبارة «لَحْنِ الْقَوْل».

فهي أمور ثلاثة قد يفضحهم الله عن طريقها:

الأمر الأول: وضعهم في اختبارات صعبة يكشف الله بها أضغاثهم، فيعرف المؤمنون بذلك حقيقتهم.

دل على هذا الأمر قول الله عز وجل:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ ﴿٢١﴾﴾:

أي: إذا تركنا أمر عقابهم منذ أول منازل الآخرة حتى بلوغهم الدرك الأسفل من النار يوم الدين، أحسب هؤلاء الذين في قلوبهم مرض النفاق أن لن يُعَرِّضَهُمُ الله في حياتهم الدنيا لاختبارات صعبة على نفوسهم يُضْطَرُّونَ معها أن يُعْبِرُوا عن أضغاثهم

المكتومة في صدورهم، بأعمالهم وأقوالهم، فينكشفوا للرّسول وللمؤمنين، فيعاملون بمقتضاها على أنهم كافرون مرتدّون، وعندئذ يُنزل المؤمنون بهم العقاب الملائم.

فعل «حَسِبَ» لم يأت في القرآن إلا بمعنى الظنّ الكاذب والتوهم الضعيف المردود.

الأمر الثاني: السّيما، وهي العلامة الظاهرة التي تدلّ على ما في الباطن، فمن سُنّة الله في الوجود كلّهُ أن جعل لكلّ أثرٍ مخفيٍّ في الباطن ما يدلّ عليه من الظاهر، يعرف هذا من يعرفه من أهل الفراسة أو الخبرة الطويلة، ويجهله من يجهله وهم الأكثرون.

إنّ لذّي النفس الثعلبيّة علاماتٍ في وجهه وتصرفاته تدلّ على ثعلبيّته، وللغضب الداخلي علامات في الظاهر، وللخوف علامات، وللحبّ علامات، وللكرهية علامات، وللشجرة الطيبة علامات، ولغيرها علامات، ولأحواض النّفط في باطن الأرض علامات في ظاهرها يستشعرها الخبراء، وللماء في باطن الأرض علامات في ظاهرها يدركها طائر الهدهد، وبعض المتنصّين على الأرض بأذانهم من الناس، إلى غير ذلك.

فمن أسرّ سريرة من خير أو شرّ ألبسه الله منها رداءً.

دلّ على هذا الأمر قول الله لرسوله:

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَلْعَقَ لُحْمُهُمْ رَبِّيمَنْهُمْ﴾:

أي: ولو نشاء لأريناكَهم بأشخاصهم، وعندئذ تكتشف أنّ لهم سيما في وجوههم وتصرفاتهم تدلّ عليهم، فمن وهبه الله قدرة التفرّس في الناس، أو كان ذا خبرة بأحوال المنافقين نتجت عن تعامله معهم، كان مؤهلاً لأن يعرف المنافق عن طريق العلامات الظاهرة التي خبرها في المنافقين، أو لديه القدرة الخاصة على استشعارها.

الأمر الثالث: لَحْنُ القول الذي يجري في أقوالهم في كثير من الأحيان، لأنهم لا يستطيعون دائماً أن يكونوا صُرحاء، يقولون ما هو في باطنهم، لذلك فهم يتكلّفون أن يقولوا في مجالس المؤمنين ما لا يعتقدون، ومع هذا التكلّف لا بدّ أن تغلبهم طبيعة

نفوسهم، فيظهر في فلتات الستهم ما يدل على حقيقتهم، أو يقولون أقوالاً مزدوجة الدلالة، فإحدى الدالتين لما يظهر من إسلام، والأخرى لما يُظنون من كفر، والالعمي القطن يدرك الدلالة الأخرى التي يكشف بها نفاقهم وباطن كفرهم، ومن لحن القول الذي يضدر عنهم أن يتابعوا اليهود في تحيتهم للرسول والمؤمنين، فيقولوا: «السّام عليكم» بدل «السلام عليكم» فيخفوا اللام من لفظ السلام، والسّام هو الموت، وسباني مزيد بيان إن شاء الله في النص (٢٧) من سورة (المجادلة).

دلّ على هذا الأمر قول الله تعالى لرسوله:

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾:

أي: ولتعرفنهم في لحن القول الذي يقولونه أمامك، ولو لم نعيّنهم لك بأشخاصهم. ويظهر أنّ هذه المعرفة لا تختص بالرسول، إلّا أن الرسول أكثر فطنة من غيره، فمعرفة المنافقين عن طريق لحن القول أسدّ وأشدّ.

واخبراً يوجه الله عز وجلّ الرسول والذين آمنوا للعمل على كشف المنافقين بمختلف الوسائل المتاحة، لا من أجل إدانتهم بالكفر ما لم يعلنوه، ولكن للحذر منهم، ولئلا يغتروا بهم، فيقعوا فريسة مكابدهم وهم داخل صفوفهم، فقال تعالى:

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾:

أي: وأعملوا للحذر من المنافقين بملاحظة علاماتهم، والتفطن إلى لحن أقوالهم وتتبع تصرفاتهم، لاستبطان هويّتهم الحقيقية، والله الذي يعلم أعمالكم يبيّنكم ويهديكم، ويكشف أضغاثهم لكم.

أقول:

ومع الأسف الشديد فقد سقط المسلمون في حائل كثير من المنافقين، لأنهم لم يتنبهوا لهذا التعليم والتوجيه الربّاني، وظنوا أنّ الأمر بمعاملة الناس بحسب ظواهرهم يلغي واجب التفرّس والتبع والحذر الشديد.

إنّ معاملة الناس بحسب ظواهرهم تقتصر على دائرة الحكم عليهم بالردة أو الإسلام، ولا تتعداها لاتخاذ بطانة من المشكوك في أمرهم، ولو بالتفرس والظنّ،

فتقريب المشكوك فيهم إلى مواطن معرفة الأسرار، أو إلى مراكز القيادة والتوجيه، أو إلى كراسي الاستشارة، وورطة عظمى تُذمر شؤون الأمة الإسلامية، وتسمح للأعداء بأن يتسللوا للقبض على نواصي إدارتها، وهي غافلة مُغرَّرة بها، تسير بغياء، بدعوى حسن الظن، والعمل بالظاهر.

وكم من عدو للإسلام أعلن إسلامه فقامت دعاية الفرحة به، ورفعت طائفة إلى مراكز القيادة والتوجيه، فكان الموجه والمستشار الكبير لمشكلات المسلمين.

هذا غباء، ومخالف لوصايا ربنا عز وجل، ويتضمن خيانة للأمة الإسلامية، وخيانة للإسلام.

* * *

* قول الله عز وجل:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ (٦١)

بمناسبة الكلام المتعلق بقتال الكافرين، وعلع المنافقين لدى سماعهم الآيات التي يُذكر فيها القتال، وشبهاتهم التي تتردد في صدورهم، وقد يظهر بعضها في لحن القول الذي يقولونه، وقد يرافق ذلك تساؤلات، منها: ألا يستطيع ربنا أن يتخذ من لُذنه وسائل ينصُر بها الذين آمنوا على الذين كفروا، دون أن يعرض أوليائه المؤمنين لقتال الكافرين؟.

وفي هذه الآية أبان عز وجل أن من أغراض أمر المؤمنين بأن يقاتلوا الكافرين، ابتلاء المؤمنين أنفسهم، فهذا الابتلاء يتميز المجاهدون بحسب مراتبهم ودرجاتهم من غير المجاهدين، ويتميز الصابرون بحسب مراتبهم ودرجاتهم من غير الصابرين، ذوي الهلع والجزع، وتكشف أمور كثيرة تُميز طلاب الآخرة من طلاب الدنيا، وتكشف المنافقين وأعمالهم، إلى غير ذلك، والخطاب في هذه الآية موجه لعموم المسلمين وفيهم المنافقون.

فأكد الله عز وجل بالقسم وتوابعه إرادته الجازمة في امتحان المسلمين فقال:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾

أي: ياليتها المسلمون جميعاً.

وَأَبَانَ أَنْ حِكْمَةَ الْإِبْتِلَاءِ سَتَسْتَمِرُّ مَعَ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، حَتَّى يَعْلَمَ فِي تَابَعِ الْأَجْيَالِ الْمَجَاهِدِينَ، أَي: عَلَى اخْتِلَافِ مَرَاتِبِهِمْ وَدَرَجَاتِهِمْ، وَحَتَّى يَعْلَمَ الصَّابِرِينَ، أَي: عَلَى اخْتِلَافِ مَرَاتِبِهِمْ وَدَرَجَاتِهِمْ.

وَحَتَّى يَعْلَمَ أَخْبَارَ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، فِي مَجَالِ نَصْرَةِ الدِّينِ، وَمَقَاتِلَةِ الْكَافِرِينَ، أَي: حَتَّى يَعْلَمَ مَا يَكُونُ مِنْ كُلِّ مِنْهُمْ مِنْ تَصَرُّفَاتٍ وَأَعْمَالٍ، وَسَمَاهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَخْبَاراً لِأَنَّهَا بَعْدَ الْوُقُوعِ تَغْدُو أَخْبَاراً كَاشِفَةً لِمَا فِي السَّرَائِرِ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَتَبْلُوْا أَخْبَارَكُمْ﴾.

وقد أكد الله عز وجل وفصل في هذه الآية بالقسم ما جاء في أوائل السورة نفسها من غير قسم ولا تفصيل، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْصَرَكُمْ وَلَكِنْ لَبَدَّلْنَا بِكُمْ بَعْضُ...﴾ ﴿١٦﴾.

إِنَّ وجود الإنسان في هذه الحياة الدنيا قائم على حكمة الابتلاء فيها، ليكون أساساً للحساب وفصل القضاء وتحقيق الجزاء بالفضل أو بالعدل في الحياة الأخرى يوم الدين.

* قول الله عز وجل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِيطُ أَعْمَالُهُمْ﴾ ﴿٣٢﴾.

في ختام هذا النص من سورة (محمد) الذي عالج قضايا تتعلق بالمنافقين، قضت حكمة الله بأن يبين لهم وللمؤمنين أن الاهتمام بمعالجتهم إنما هو من أجلهم، لإنقاذهم وإسعادهم، لا من أجله ولا من أجل دينه ولا من أجل رسوله، وذلك لأنهم مهما عملوا من عمل وكادوا من كيد ومكروا من مكرب، فإنهم لن يضرُوا الله شيئاً في ذاته أو دينه أو رسوله، لأنه عز وجل سيحيط أعمالهم، أي: يبطّلها ويلغي آثارها، أما الدين والقرآن فقد تكفل الله بحفظهما، وأما الرسول فقد تكفل الله بعصمته من الناس،

بقيت أعمالهم التي يعملونها ضد جماعة المسلمين، وهذه تدخل في حكمة الابتلاء، فإذا تفيد المسلمون بمنهاج الله واتبعوا تعاليمه في المنافقين، فسبكشهم الله لهم وينصرهم عليهم، وإن أهمل المسلمون منهاج الله، ولم يتبعوا تعاليمه في المنافقين، فمن سنة الله أن يتركهم وشأنهم، وينزل فيهم عقابه، ويمكن أعداءهم منهم، وهذا ما حصل في عصور تاريخ المسلمين.

فالمناققون الذين تعرضت لكشفهم ومعالجتهم معظم آيات هذا النص، هم الذين طرأ عليهم النفاق، من بعد أن أسلموا وتبين لهم الهدى، فارتدوا على أدبارهم كافرين.

فمن المناسب أن تبين آية الختام كفرهم في الباطن، وصددهم عن سبيل الله، ومشافتهم للرسول، وأن تبين أن ذلك كله قد حصل منهم بعد ما تبين لهم الهدى، وأن تبني على هذه الأوصاف التي حددتها لهم قضيتين:

الأولى: أنهم لن يضروا الله بكفرهم وصددهم ومشافتهم الرسول شيئاً.

الثانية: أن الله سيحبط أعمالهم ضد دينه وكتابه ورسوله، مهما كادوا ومكروا مكرًا كُباراً داخل صفوف المسلمين.

فقال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾:

أي: إن هؤلاء الذين كفروا مرتدين عن الإسلام في الباطن، وظلوا محافظين على انتمائهم للإسلام في الظاهر.

﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾:

أي: أعرضوا عن دين الله وامتنعوا عن متابعة المسير فيه، وربما منعوا غيرهم أيضاً عن ذلك سرّاً.

﴿وَسَأَفْوَأَ الرَّسُولَ﴾:

أي: وعادوا الرسول وخالفوه، وجعلوا أنفسهم باطناً في شق غير شقه.

﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ ﴾ :

أي : من بعد أن أسلموا وراوا وضوح صراط الله المستقيم، وتبين لهم أنه حق وخير ورشاد، وأن النور يملؤه.

﴿ لَنْ يَضُرُّوهُمُ اللَّهُ مَسِيئًا ﴾ :

أي : في ذاته، أو دينه، أو كتابه أو رسوله.

﴿ وَسَيَحِيطُ أَعْمَالُهُمْ ﴾ :

أي : وسيبطل ويلغى أثر أعمالهم التي يعملونها بالكيد والمكر عن طريق النفاق، ليحفظ دينه وكتابته ورسوله والمؤمنين الصادقين الملتزمين منهاج الله وتعاليمه وسنة رسوله.

وانتهى النص



النص الحادي والعشرون

وهو من سورة (الحشر / ٥٩ مصحف / ١٠١ نزول)

«السورة الخامسة عشرة من التنزيل المدني»

الآيات من (١١ - ١٧)

حول موقف المنافقين وخيانتهم
في أحداث إجلاء يهود بني النضير

قال الله عز وجل :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولِيَنَّ الْأَذْبُرُتَةَ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَسَدُّ أَسَدُّ رَهْبَةٍ فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يَقْبَلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَذَلِكَ قَالَ لِلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاتُوا أَوْبَالٍ أَمَرَهُمْ وَلَمْ يَنْصُرُوا أَلَيْسَ كَذَلِكَ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ فَكَانَ عَقِبَهُمَا اتِّمَامٌ فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٦﴾ ۞

(١)

القراءات المتواترة في هذا النص (من الفرش)

* في الآية (١٤):

(١) قرأ جمهور القراء العشرة: [مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ] جَمْع «جُدَار».

وقرأ ابن كثير المكي وأبو عمرو البصري: [مِنْ وَرَاءِ جُدَارٍ] بالإنفراد. فدلّت القراءتان على أنهم إن كانوا قلة يكفيهم جدار واحد، فإنهم لا يقاتلون إلا من وراء جدار، وإن كانوا كثيرين يحتاجون جُدراً كثيرة، فإنهم لا يُقَاتِلُونَ إلا مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ.

* في الآية (١٦):

(١) قرأ جمهور القراء العشرة: [إِنِّي أَخَافُ] بإسكان الياء من [إِنِّي].

وقرأ المدنيان نافع وأبو جعفر، والمكي ابن كثير، والبصري أبو عمرو: [إِنِّي] بفتح الياء.

والقراءتان لغتان في ياء المتكلم.

* * *

(٢)

موضوع النص وسبب نزوله

تعرّض هذا النص لبيان ما كان من المنافقين من خيانة للرسول وللمؤمنين، إذ بعثوا إلى يهود بني النضير يشذون أزرهم، ويعدّونهم بالنصر، حين حاصرهم الرسول وأصحابه، ثم أجلاهم، لأنهم دبّروا أمر قتله غيلة وهو في حَيِّهِمْ. ودار النصّ حول كشف خيانة المنافقين هذه، وما ينطّبه البيان الربّاني بشأنها يومئذ.

سبب النزول:

لا خلاف في أنّ سورة (الحشر) نزلت بمناسبة ما كان من يهود بني النضير من خيانة ونقض للعهد، بمحاولتهم اغتيال الرسول ﷺ في ديارهم، فحاصرهم، وألقى الله في قلوبهم الرعب، ثم طلبوا إجلاءهم، فوافقهم.

فمناسبة إنزال الآيات التي تكشف موقف بعض المنافقين الخائن خلال تلك الأحداث، تابعة لإنزال السورة كلها.

لذلك كان ابن عباس يسمي سورة «الحشر» سورة «بني النضير» كما روى البخاري ومسلم وغيرهما.

خلاصة القصة:

لما قدم الرسول ﷺ المدينة، وقامت فيها النواة الأولى لدولة الإسلام والمسلمين، كتب لليهود فيها عهداً أمّنهم فيه على أرواحهم، وأموالهم، وأعراضهم، وحريّاتهم الدينيّة، بشرط ألا يغدرُوا، ولا يخونُوا، ولا يبيعُوا أحداً على المسلمين، ولا يمدُّوا يداً بأذى، لكنهم ما لبثوا حتى خالفوا في كلّ ذلك.

فكان الرسول ﷺ يعاقب من ينقض العهد منهم أولاً بأول، بحسب قبائلهم، ولا يُعاملهم جميعاً بخيانة قبيلة واحدة منهم.

فخانت يهود بني قينقاع، فحاصروهم الرسول وأصحابه، وألقى الله الرعب في قلوبهم، ونزلوا بعد محاصرته لهم خمس عشرة ليلة على حكمه، فتوسط من أجلهم رئيس المنافقين «عبد الله بن أبي بن سلول» لدى الرسول، وكانوا حلفاء وحلفاء قبيلته الخزرجيين سابقاً، فاكْتَفَى الرسول بإجلالهم عن المدينة، فخرجوا منها إلى الشام، ونزلوا بأذرعَات، ولم يلبثوا حتّى هلك أكثرهم.

واستمرّ الرسول ﷺ يعامل سائر اليهود في المدينة بخُسنِ الجوار، ويمقتضى بنود العهد والموادعة، في الكتاب الذي كان قد كتبه لليهود، منذ قديم المدينة.

وقد تضمّن الكتاب إقرارهم على أوضاعهم الأولى، ومنها الاستمرار على ما كانوا عليه مع عرب المدينة في الديّات، فهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، ونظراً إلى الأخطاف التي كانت بين عرب المدينة ويهودها، فإنهم كانوا يشتركون في دفع الديّات، وقد أقرّ الرسول ﷺ هذا من أعرافهم.

ودعت المصلحة الأدبيّة أن يدفع المسلمون دية قتيلين مشركين من بني عامر، قتلها أحد المسلمين، واسمه: «عمرو بن أميّة» وكان معها عقد من رسول الله ﷺ لم يعلم به عمرو.

وقد فعل «عمرو بن أمية» ما فعل انتقاماً لوفد المسلمين، الذين ذهبوا إلى بني عامر، بجوار سيدهم «أبي براء بن مالك» وكانوا سبعين رجلاً، يحملون معهم بطلب من سيدهم «أبي براء بن مالك» كتاب رسول الله ﷺ، ولكنهم لما وصلوا إلى القوم عدا عليهم منهم «عامر بن الطفيل» واستصرخ على المسلمين بعض القبائل، فأجابوه، وأحاط بالمسلمين، فقتلهم كلهم، ولم يسلّم منهم إلا «كعب بن زيد الأنصاري» فقد تركوه وبه رمق، فعاش حتى قُتل يوم الخندق.

إلا أن النبي ﷺ - مع ذلك - رأى أن يدفع دية القتيلين من بني عامر، لأنّ مههما عقداً منه، فقال لعمر بن أمية: «لَقَدْ قَتَلْتَ قَتِيلَيْنِ لِأَبْنَيْهِمَا».

وعملًا بالأعراف والأحلاف المتبعة، في جمع الديات من القوم ومن أحلافهم، فقد جمع الرسول ﷺ من المسلمين ما جمع، وخرج مع نفر من أصحابه، فيهم أبو بكر، وعمر، وعلي، إلى بني النضير، وطلب منهم أن يُشاركوا في دية القتيلين، ليشعرهم بالتزامه بكتاب العهد، ويحسن الجوار، وسلامة نيّته نحوهم، وبأنّ إجلاء بني قينقاع قد كان بسبب ما كان منهم من شرّ ونقض للعهد.

فقال رؤساء بني النضير: «نعم يا أبا القاسم، نُعينُكَ على ما أحببت، ممّا استعنت بنا عليه».

وذهبوا ليفكروا فيما يدفعون من المال، مساهمة في دية القتيلين، وخلا بعضهم ببعض، ورسولُ الله ﷺ قاعدٌ إلى جنب جدارٍ من بيوتهم، مع نفر من أصحابه.

فقال اليهود في خلوتهم: «إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه، فَمَنْ رَجُلٌ يَغْلُو على هذا البيت، فيلقي عليه صخرةً فيريحنا منه؟»

فانتدب لذلك «عمرو بن جحاش» بن كعب أحد يهود بني النضير، فقال: «أنا لذلك، فنهاهم عنه أحد أبحارهم، وهو سلامٌ بن مشكم، وقال لهم: «هو يعلم» فلم يقبلوا منه.

وصعد «عمرو بن جحاش» ليلقي على الرسول ﷺ صخرةً يغتاله بها، فنزل على رسول الله ﷺ الوحي من السماء بما أراد القوم، وأنّ اليهود قد اتمروا به ليقتلوه،

وطلب منه الانسحاب في صمت، فقام وقال لأصحابه: لا تبرحوا حتى آتيكم، وخرج راجعاً إلى المدينة دون أن يُخبر أصحابه بالأمر، وظنوا أنه قد ذهب لبعض حاجته، وهو عائد إليهم.

فلما طال انتظار أصحاب الرسول قاموا في طلبه، فالتفتوا برجلٍ مُقبلٍ من المدينة، فسألوه عنه، فقال: رأيته داخلًا المدينة.

فأقبل أصحاب الرسول ﷺ حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر، وبما كانت اليهود قد دبرت من الغدر به، وشاع في المدينة خبر المكيدة التي دبرها يهود بني النضير، لقتل الرسول غيلةً وغدرًا، وضج المسلمون بالذعر، وأخذ اليهود يلوم بعضهم بعضاً على هذه الجريمة الشنعاء، ولم يُنكروا مكيدة الغدر بالرسول.

عندئذٍ أمر الرسول ﷺ بالتهيؤ لحرب بني النضير، والسير إليهم بعد الذي كان منهم، واستعمل على المدينة «ابن أم مكتوم».

وسار بالمسلمين في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة، حتى نزل بهم، فتحصنوا من المسلمين في حصونهم، وحاصروهم رسول الله ﷺ حصاراً دام ست ليالٍ.

وفي هذه الأثناء لعبت أصابع النفاق المروالية لليهود، فبعث إليهم رهنًا من المنافقين، منهم: «عبد الله بن أبي بن سلول» رئيس المنافقين في المدينة و«وديعة، ومالك بن قوئل، وسويد، وذاعس» أن اثبتوا وتمنعوا، فإننا لن نُسلمكم، فإن قُوتلتم قاتلنا معكم، وإن أُخرجتم خرجنا معكم.

فانتظر يهود بني النضير منهم أن يتصروهم فلم يفعلوا، وخافوا على أنفسهم، وقذف الله الرعب في قلوبهم، فسألوا رسول الله ﷺ أن يُجليهم كما أجلي بني قينقاع، ويكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من الأموال إلا السلاح، فوافق الرسول على ذلك، فاحتلوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف^(١) بابه، ليحملة معه، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به، فخرجوا إلى

(١) نجاف الباب: الخشب الذي يلمص بالجدار عند فتحه الباب، من الجانبين ومن الأعلى.

خير، ومنهم من سار إلى الشام، وأنزل الله فيهم وبمناسبة ما جرى من هذه الأحداث سورة (الحشر).

(٣)

المفردات اللغوية في النص

﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

استفهام عن عدم وجود الرؤية، بمعنى العلم، والغرض منه الإعلام بالمستفهم عنه، أولفت النظر إليه لمعرفة، أو التنبيه عليه لاستحضاره في الذهن، تمهيداً لبناء ما يراد التعريف به وبيانته من قضايا تتعلق به.

والخطاب موجّه لكل مؤمن بأسلوب الخطاب الإفرادي، ومع هذا الخطاب يسمع المنافقون، وإخوانهم من الكافرين الصرخاء، فيحذر من يحذر، أو يتوب من يتوب، أو يكف من يكف، ويعلم الجميع أنّ الله لا يخفى عليه شيء.

﴿إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾:

أي: إلى الذين سبق منهم النفاق، فهو مستمر فيهم، وبمقتضاه يكون منهم تصرفات منافية لمقتضى الإيمان، وعُدّي فعل «تري» بحرف الجر «إلى» لتضمينه معنى فعل «تنظر» فالمعنى: ألم ترّ ناظرأ إلى الذين نافقوا.

﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمْ﴾:

أي: ليهود بني النضير الذين كفروا بالرسول محمد وبما جاء به عن ربهم من الحق والهدى، وجعلهم الله إخوانهم لأنهم اشتركوا معهم في هذا الكفر، إذ المنافقون كافرون باطنأ بمحمد وبما جاء به عن الله.

﴿لَئِنْ أَخْرِجَـكُمْ لَنَخْرُجَنَّ بِكُمْ﴾:

أي: نفيسم لكم لئن أخرجكم محمد إذا أجهدكم الحصار، ولم تستطيعوا مقاتلة أصحابه، لنخرجنّ معكم. اللام في [لئن] موطئة للقسم، واللام في [لنخرجنّ] واقعة في جواب القسم، وجواب القسم سدّ مسدّ جواب الشرط.

﴿وَلَا تُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ :

أي : ولا تُطِيعُ في شأن حربكم وقتالهم ، أو إخراجكم ، أو سلبكم أحداً أبداً ، لا محمداً وصحبه ، ولا غيرهم ، فأنتم إخواننا وحلفاؤنا .

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ :

أي : والله يَعْلَمُ عِلْمَ شهود لأحوالهم ظاهراً وباطناً ، ويقدم شهادته بذلك في بيانه للمسلمين المؤمنين . والقرول الذي يشهد الله به هو : إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أي : فيما قالوا لإخوانهم من أهل الكتاب «يهود بني النضير» .

فعل «شَهِدَ» يأتي بمعنى «حَضَرَ» ويأتي بمعنى : أخبر بأنه يعلم بأن الواقع هو ما قدّمه من خبر عِلْمَ شهود ، أي : حضور ، والحاضر يُدْرِك ما حضره بحواسه .

﴿لَيُؤْتِيَنَّكَ الْأَذْبَرَ﴾ :

أي : ولئن حَضَرُوا المعركة لِنُصْرَتِهِمْ لَجَبُّوا عن مواجهة المؤمنين ، ولأداروا ظهورهم فارّين هاربين .

يأتي فعل «وَلَيَّ» بمعنى «استقبل» وعلى هذا فمعنى «لَيُؤْتِيَنَّكَ الْأَذْبَارُ» : لَيَسْتَقْبِلَنَّ الْأَذْبَارُ فارّين .

ودُبِّرَ كُلُّ شَيْءٍ : عقبه ومؤخره ، وجمعه «أدبار» .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ :

أي : لا يفهمون الأمور فهماً سديداً عميقاً . الفقه في اللغة : الفهم المؤدّي إلى العلم بحقيقة الأمر وباطنه ، يقال : فقه الرجل إذا فهم وعلم ، ويقال : فقه بضمّ القاف ، إذا تمكن من الفهم والعلم ، حتى صار ذلك ملكة له ، وذلك في الموضوع الذي صار فيه فقيهاً ، وعُلِبَ الفقه في الدلالة على علوم الدين ، لأنها أشرف العلوم التي تُفهم وتُعلم ، ويدلّ الفقه على فهم المعاني الدقيقة والخفية .

﴿وَقُلُوبُهُمْ سَقَى﴾ :

شَتَّى: جَمْعُ شَيْتٍ، أي: متفرق غير مجتمع، والمعنى: وقلوبهم متفرقة غير مجتمعة على رأي واحد، أو عاطفة واحدة.

﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾:

العقل يأتي بمعنيين، بمعنى الإمساك بالمعرفة في الأداة العاقلة داخل القوة الإدراكية. وبمعنى ضبط النفس عن اتباع الهوى بإرادة حازمة.

واليهود الذين لم يسلموا لله ولرسوله محمد لا يعقلون على المعنيين، فهم لا يمسكون في الأداة العاقلة لديهم ما قد يصلون إليه من معارف تخالف تحريفاتهم وأهواءهم، ولا يضبطون نفوسهم عن اتباع الهوى بإرادة حازمة.

﴿كَشَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾:

المراد يهود بني قينقاع الذين أجلاهم الرسول ﷺ أول من أجلى من اليهود في المدينة.

﴿وَيَا أَمْرِهِمْ﴾:

أي: سوء عاقبة أمرهم. الزنل في اللغة: الشدة، والثقل، وسوء العاقبة.

(٤)

مع النص في التحليل والتدبر

• قول الله عز وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ...﴾.

تحدث هذه الفقرات من هذا النص الموضوع للتدبر، عن ظاهرة من ظواهر نفاق الذين مردوا على النفاق في المدينة، وعلى رأسهم «عبد الله بن أبي بن سلول» وهي ما كان منهم من ولاء في السر ليهود بني النضير، حين حاصروهم الرسول، كما جاء بيانه في القصة التي سبق ذكرها في سبب نزول سورة (الحشر).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾:

أي: ألم ترَ ناظرًا إلى الذين نافقوا، وجاءت تعدية فعل «نرى» بحرف «إلى» لتضمينه معنى فعل «تنظر»، والغرض تأكيد الحث على المطلوب، فلاستفهام هنا ليس لطلب الفهم، بل هو مستعمل مجازاً لأغراض أخرى، منها ما يلي:

- (١) الإعلام بالمستفهم عنه وبيان حصوله.
- (٢) لفت النظر إلى المستفهم عنه لمعرفة.
- (٣) التنبيه على المستفهم عنه لاستحضاره في الذهن.

وكل ذلك يكون بمثابة التمهيد لما يراد التعريف به وبيان من قضايا تتعلق بالمستفهم عنه.

المراد: اعلم علماً يبنياً واضحاً شبيهاً بالذي يُدْرِكُ بالحوِسِّ البصري، أو وَجْهَ نظركَ للمعرفة، أو تَبَيَّنَ، أو أَحْضَرَ في ذاكرتك، يا من له بصيرة من كلِّ من يَصْلُحُ للمخاطب، ما جرى من الذين مردوا على النفاق في المدينة، وَخَذَ جُذْرَكَ منهم، وحاذر أن تسلك مسالك النفاق.

﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾:

أي: حالة كونهم يقولون لإخوانهم المشاركين لهم في الكفر الذي عقد بينهم أُخْرُوهُ خَاصَّةً، قائمة على الاتحاد في الكفر برسول الله محمد وبما جاء به عن ربه، والمراد من إخوان المنافقين هنا يَهُودُ بني النضير، وقد وصفهم الله بقوله: الذين كفروا من أهل الكتاب، وقد دلت المناسبة والقرائن على أنهم يهود بني النضير، فلم يمنع وصفهم بأنهم من أهل الكتاب أن يوصفوا أيضاً بأنهم كافرون، لأن من كفر ببعض ما يجب في دين الله الإيمانُ به فهو من الذين كفروا، ولو كان مؤمناً بعناصر أخرى من أركان الإيمان، لأن الإيمان الذي يُخْرِجُ من كلِّ دائرة الكفر هو الإيمان بكلِّ العناصر التي يجب الإيمان بها في دين الله، أما من يؤمن ببعضها ويكفر ببعضها فإنه يُحْكَمُ عليه بأنه كافر، على أن الكفر له منازل ودركات، بعضها أحسن من بعض، وأنزل من بعض.

ونفهم من النص أنهم كانوا يُكرِّرون لهم القول، دلَّ على هذا التكرير استعمال الفعل المضارع، إذ لو كان مرةً واحدة لكان المناسب أن تكون عبارة النص: إذ قالوا لإخوانيهم من أهل الكتاب.

فماذا كان يقول المنافقون لإخوانهم هؤلاء حين حاصرهم الرسول ﷺ وأصحابه؟
لقد جاء في النص بيان ثلاث مقالات:

المقالة الأولى:

﴿لَئِنْ أَخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾:

أي: نُنَبِّئُكُمْ لَكُمْ لئِنْ أَخْرِجْتُمْ من مساكنكم في المدينة، بأن عجزتم عن المقاومة والمواجهة، واضطُررتم إلى قبول الجلاء، لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ من ديارنا ولنرافقنكم في جلائكم.

هذه المقالة تدلُّ على مقالة مطوية، نستطيع فهمها دون إجهاد فكري، وهي: اثبتوا ولا تجبنوا وقاوموا الحصار، فنحن معكم وسند لكم ضمن صفوف أصحاب محمد. وقد جاء في قصّة الحادثة في السيرة، أنهم قالوا لهم: اثبتوا وتمنعوا فإننا لن نُسَلِّمَكُمْ.

المقالة الثانية:

﴿وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾:

أي: ونحن لا نطيع في قبول الإضرار بكم، ونترك موالائكم، أو عدم الخروج معكم أحداً كائناً مَنْ كان، على مدى المستقبل من الزمان، ولو كان من الأهل والذرية.

هذا المحذوف في عبارة [فيكم] يُفهم من سياق الكلام وسياقه، ومن قرائن الحدث، فمن أسلوب القرآن حذف ما يمكن إدراكه ذهنياً بالقرائن أو بإشارات بعض الألفاظ.

ومن الظاهر أن هذه الجملة غير داخلة في المُقَسِّم عليه، بل هي معطوفة على الجملة السابقة، فهي من مقول القول، وغير مؤكدة بالقسم، لكن إذا كانت مؤكدة مِنْ

جهة المعنى لجملة ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ﴾ فإنها تكون من توابع المقسم عليه .

المقالة الثالثة :

﴿وَإِنْ قُوَّتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ :

أي : وإن قوتلتم من قبل محمد وأصحابه ، لنزيدنكم ولنعاوننكم ولنُدافعنكم ، ولنكونن شركاءكم في جبهة القتال ، أو مُخْذِلين عن مقاتلتكم ، ونحن داخل صفوف المسلمين .

وفي التعقيب على هذه المقالات التي كرّر المنافقون قولها لإخوانهم في الكفر من يهود بني النضير ، جاء في النصّ القول التالي :

• قول الله عز وجل :

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أَخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولِيَنَّ الْأَظْفَارَ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ .

لقد جاء في مقدّمة هذا التعقيب الكاشف لأحوال المنافقين المبينة لأقوالهم ، بيان عام ينسب كل مقالاتهم نسفاً ، وفي هذه المقدمة يقول الله عز وجل :

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ :

أي : فلا صحة مطلقاً لأية مقالة من المقالات الثلاث التي قالوها ، فلا ينبغي الاهتمام بمواعيدهم لإخوانهم من الكافرين ، ولا ينبغي أن تفت مقالاتهم في أعضاد المؤمنين ، فالمنافقون يقولون بالسّتهم ما ليس في قلوبهم .

ولما كان الله عز وجل يعلم حقيقة المنافقين علم شهود لما في صدورهم ، فإنه إذا أخبر بما يعلم عنهم فإنه يُخبر خبر شهادة ، وهو لا يُحدث حديث ناقل أخبار عن غيره .

إن خبر الشهادة خبرٌ مُشاهدٍ حاضرٍ مُعّين ، فليطمئن الرسول والمؤمنون ، وليكن

إخوان المنافقين من الذين كفروا من أهل الكتاب وغيرهم على علم بحقيقتهم .
وَلْيَعْلَمِ الْمُنَافِقُونَ أَنفُسُهُمْ أَنَّهُمْ لَشُفُوعُونَ، وعند المؤمنين بصفتهم مفضوحون .

وبعد البيان العام المؤكد بصيغة «يشهد» وبأداة التوكيد «إِنَّ» وبإلام الابتداء
المزحلقة إلى الخبر «لَكَاذِبُونَ» جاء في النص تفصيل كذبهم في مقولاتهم الثلاث ،
بعبارة مؤكدة مسوقة بأسلوب القسم في كل واحدة منها .

وقد جاء هذا التفصيل بأسلوب طرح الاحتمالات التي يُتَصَوَّرُ حصولها وبيان
ما سيكون من المنافقين مع كل احتمال منها .

الاحتمال الأول: أن يَتَعَرَّضَ إخوانهم الذين كفروا للإخراج والطرده من المدينة ،
وموقف المنافقين عند حصول هذا الاحتمال ، هو ما أبانه الله بقوله :

﴿لَئِنْ أَخْرِجُوا لَا يَخْرُجُوا مَعَهُمْ﴾ :

أي : فهم كاذبون في قولهم لهم : ﴿لَئِنْ أَخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ وقد أثبت
الواقع ذلك ، فقد طلب بنو النضير من الرسول ﷺ الجلاء ، فوافق على جلائهم ،
ولم يجلب معهم من المنافقين أحد ، ولم يستطع المنافقون أن يدافعوا عنهم ، ويثبتوهم
في مساكنهم .

وبافتضاح هذه المقالة الكاذبة سقطت مقالاتهم الثانية التي قالوها ، وهي :
﴿وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ . فَسُكُوتُ الْمُنَافِقِينَ حينما أجلى الرسول بني النضير ،
وعدم تقديم أي شيء يثبت ولاهم لهم ، وعدم اتخاذ ما يحميهم من الجلاء طاعة
جبانة خرساء لإجراءات الرسول في إخوانهم .

الاحتمال الثاني: أن يَتَعَرَّضَ إخوانهم الذين كفروا لمواجهة قتالية يواجههم بها
الرسول وأصحابه .

وموقف المنافقين عند حصول هذا الاحتمال هو ما أبانه الله بقوله :

﴿وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْلُوانَ إِلَّا دَبْرًا﴾ :

أي : فهم كاذبون أيضاً في قولهم لهم : ﴿وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ .

إنَّ المنافقين لم يختاروا لأنفسهم سبيل النفاق إلَّا بسبب جُبْنِهِمْ ولو كانت لديهم الشجاعة الكافية لكانوا كسائر الكافرين الصَّرحاء، كاشفين حقيقة هَوَاتِهِمْ، ويُواجهون جماعة الذين آمنوا بعداءٍ سافر.

فكيف وهم منافقون مداخلون مخالطون ينصرون إخوانهم الذين كفروا إذا تعرَّضوا لمواجهة قتالية مع المؤمنين، إنَّ المنافقين لو بدرت منهم أَيْةٌ بادرة فيها مناصرة للذين كفروا، لكان ذلك منهم من قبيل الخيانة العظمى، ولانتقم منهم المؤمنون انتقاماً شديداً، والمنافقون يعرفون هذه الحقيقة، وَيَجْتَنُّونَ عن مواجهة ما هو أَوَّلُ منها بكثير، فكَيْفَ تكون منهم نصرَةٌ لإخوانهم الذين كفروا في قتالٍ وحالتهم هذه؟!

ومع ذلك فقد طرح النصّ احتمال أن تأخذهم ثورة الحمية عند قيام المعركة القتالية، فيدخلوا لمُناصرة إخوانهم الكافرين، لكن موقفهم حيثُ يكون موقف المُدْبِرِينَ لا المُقْبِلِينَ، إنهم يستقبلون جهة أَدبارهم فَارِّينَ هاربين جنباء، حينما يَرَوْنَ أن الأمر جدُّ، وأن المؤمنين أهلُ بأسٍ، يرون الموتَ طريقاً إلى الفردوس الأعلى في جنات النعيم، فلا يَهَابُونَهُ، وقد يُجْبُونَ الشهادة في سبيل الله أكثر من حبِّ الكافرين والمنافقين للحياة، فقال تعالى :

﴿وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَّيْنَّ الْأَدْبَرَ﴾ .

فماذا يكون حال المنافقين إذا وَلَّوْا الْأَدْبَارَ في مثل هذا الوُضْعِ الشائن الخائن؟ هل يَنْجُونَ بفرارهم؟ وهل يَسْلَمُونَ؟ وهل يَجِدُونَ مَنْ يَنْصُرُهُمْ من الله ومن مُلاحقة الذين آمنوا لهم؟

أجاب النصّ على هذا السؤال المطوَّي، فقال تعالى :

﴿ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾ ﴿١٢﴾ :

أي : ثم مهما تراخى بهم الزمن، فَارِّينَ بعد خيانتهم العظمى للمؤمنين، يُوَفُّوهُمْ ضُدَّهُم مناصرين للذين كفروا، فإنَّهُمْ لَا يُكْتَبُ لَهُمُ النِّصْرُ، عن طريق النجاة بالفرار، أو الخلاص من متابعة المؤمنين لهم، أو الخلاص من نزول عقوبة الله فيهم المعجَلة في الدنيا، فإنَّ واحداً من العقاب سينزل بهم لا محالة، وهذا إنذارٌ من الله لهم، إذا انحازوا إلى الذين كفروا مناصرين لهم ضدَّ المؤمنين.

هذا الفهم أولى فيما أرى من اعتبار ﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ راجعاً إلى إخوانهم الكافرين الصرحاء، فأمر أولئك تحكّمه سنّة الله العامة، بين المؤمنين والكافرين الذين يتقابلون بعداء سافر وتقاتل مكشوف.

وظاهر كلام المفسرين يفيد أنّ ضمير ﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ راجع إلى الكافرين الصرحاء.

* قول الله عز وجل:

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ۚ لَا يَقْنِئُ لَكُمُ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُّحْصَاةٍ أَوْ مَن وَرَاءَ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ۝١١﴾.

الذي يظهر لي أنّ الحديث في هذا النصّ يكشف واقع حال اليهود، بشكل عام، فبنو النضير الذين نزلت السورة بشأنهم هم من اليهود، وما ينطبق عليهم ينطبق على سائر اليهود.

أمّا المنافقون فليس من شأنهم أن يجتمعوا لقتال المؤمنين، إذ لا يجتمعون إلّا في حالة إظهار كفرهم، وحيثُ لا يكونون منافقين، فما جاء عند المفسرين من أنّ الآية تتحدث عن حال المنافقين واليهود معاً مستبعدٌ فيما أرى.

والخطابُ في الآية موجّه للمؤمنين، فالله عز وجل يخاطبهم بقوله:

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾.

يقال لغة: رَهَبٌ يَرْهَبُهُ، رَهَبًا، وَرَهَبَةً، وَرُهْبًا، إِذَا خَافَهُ. وَيُقَالُ: رَهَبَ فُلَانٌ إِذَا خَافَ.

فالرُّهْبَةُ وصفٌ يكون في صدر الخائف، وهم اليهود هنا، أمّا المؤمنون فمَرْهُوبُونَ مخوفٌ مِنْهُمْ، فكيف جاءت الرهبة في الآية وصفًا للذين آمنوا؟ وكيف يكون المؤمنون أشدَّ رهبةً في صدور اليهود من الله؟

فهل نقول كما قال الزمخشري: لأنتم أشدُّ مرهوبةً في صدورهم من الله؟

أقول:

إن الآية تجعلُ حُضُورَ الَّذِينَ آمَنُوا في صُورِ الْيَهُودِ حالةَ كونهم رجالاً قتالاً وبأساً، على شكلِ خَوَاطِرٍ ومشاهدٍ صُورٍ مقاتلين، بمثابة حضور الرُّهْبَةِ في صُورهم، فَكَأَنَّ الرُّهْبَةَ عُنْصُرٌ من عناصر صُورِ الْمُؤْمِنِينَ التي تَمُرُّ في صُورهم على شكلِ خَوَاطِرٍ.

والمعنى: لأنتم يا أيها المؤمنون إذا تمثَّلْتُمْ في صدورهم كان من صفاتكم في داخلهم صفةُ الرُّهْبَةِ الَّتِي تَخْلَعُ قُلُوبَهُمْ، وكنتم أشدَّ رُهْبَةً فيها مما يُحْدِثُهُ ذِكْرُهُمْ لَهِ.

إنها لفكرة عجيبة صَحَّ معها أن تكون الصفة التي هي للخائف صفةً للمخوف منه.

أو نقول: في الكلام مضافٌ محذوف، والتقدير: لأنتم بإزهابكُم لهم في القتال أشدُّ إحداث رُهْبَةٍ في صدورهم من رهبتهم من عقاب الله إِذْ يَذْكُرُونَ عقابه.

والمراد من الصدر دائرةٌ في عُمُقِ الْإِنْسَانِ تشتمل على دائرة أعمق منها يكون فيها القلب، وضمن دائرة القلب دائرة أعمق منها يكون فيها الفؤاد، وحول دائرة الصدر في الحاشية من الظاهر تكون دائرة عموم النفس، حيث ترتع الأهواء والشهوات السطحية داخل النفس.

فما يصل إلى الصُّدْر من الانفعالات والعواطف فقد دخل في مستوى عميق من النفس^(١).

وإبان الله عَزَّ وَجَلَّ السبب في كون الَّذِينَ كَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ وبما جاء به عن رَبِّهِ من اليهود يرهبون المؤمنين في القتال أكثر من رهبتهم من عقاب الله، فقال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿١٣﴾

(١) انظر تحليل النفس في الباب الثاني (الإنسان في دائرة الدلالات القرآنية) من كتاب الأخلاق الإسلامية وأسسهاء للمؤلف.

المشارُ إليه بعبارة ﴿ذَلِكَ﴾ هو ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ﴾، وقد رجع البيان في هذه العبارة إلى الخطاب الإفرادي، كما جاء في بداية النص ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فالكاف في ﴿ذَلِكَ﴾ لخطاب المفرد، ولما كانت الرهبة لا تحدث في قلوبهم إلا إذا اجتمع المؤمنون على قتالهم خاطب الله جماعة المؤمنين بقوله: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ﴾.

والباء في: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ سببية، أي: بسبب أنهم قومٌ لا يفقهون.

ولكن كيف نتصور أن يكون عدم فقههم سبباً في أنهم يرهبون الذين آمنوا أكثر مما يرهبون عقاب الله؟

لقد عرفنا أن الفقه هو فهم دقائق الأمور وأعماقها وخفاياها، وبعد التذكير بهذا نستطيع أن نذكر أن الذين كفروا قد تعلّقوا بالظواهر والسطحيّات التي يشهّدونها بحواسّهم، والتي يفهمونها من قريب دون تعمّق في التفكير، ودون أن يستندوا إلى مفهومات العقائد الإيمانيّة التي يشتمل عليها الإيمان بالله واليوم الآخر.

والنظرات السطحيّة تكشف لهم أن جماعة المؤمنين الصادقين حينما يواجهون أعداءهم في معارك القتال، فإنما يواجهونهم بقلوب ثابتة، كأنها تعشّق الموت والاستشهاد في سبيل الله فهم يقاتلون ببأس شديد يستعملون فيه كلّ طاقاتهم الجسديّة والثقفيّة.

والذين كفروا لا يستطيعون أن يُجْبروا الموت، لانقطاع آمالهم بما بعد الموت، فهم لا يستطيعون أن يقاتلوا بكلّ طاقاتهم الجسديّة والنفسيّة، وهذا يكشف لهم الفرق الكبير بين المقاتل المؤمن وبين المقاتل من جماعتهم، الأمر الذي يقذف الرعب والرّهبة في قلوبهم، بنسبة عظيمة.

أمّا إيمانهم بالله واليوم الآخر - إن كانوا من الذين يؤمنون بالآخرة - فهو إيمان لم يبلغ مبلغ الفقه الصحيح، حتّى يرهبوا من عقاب الله رهبة رادعة لهم عن الكفر، ودافعة لهم إلى الإيمان بمحمّد وبما جاء به عن ربّه.

إنّ من مفهوماتهم الاعتقادية ما جاء في قولهم: وَلَنْ نَمُسَّ النَّارَ إِلَّا آيَماً معدودة، فهم لا يرهبون من عذاب النار في الآخرة رهبة كبيرة، سببها عدم فقههم في دين الله.

ومن مفهوماتهم الاعتقادية ما جاء في قولهم: وَنَحْنُ أُنْبَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُهُ، فهم لا يرهبون من عقاب الله لهم في الدنيا رهبةً كبيرة، سببها عدمُ فقههم في دين الله. وعدمُ فقههم لعدل الله بالنسبة إلى جميع عبادِهِ، وعدمُ فقههم لتساوي الناس في عبوديتهم لله، وأنَّ الله يعامل عبادَهُ من مُخْتَلِفِ الأجناس والأصناف والألوان بقانون واحد، وسنة واحدة.

إلى غير ذلك من مفهومات فاسدة حول عقائد الدين، وسنن الله في الكون، وهي تدلُّ على أنهم محرومون من الفقه في واقعهم.

وبما أنهم قد أذنبوا وتولَّوا رافضين تفهُم الحقائق الدينيَّة والسُّنن الرِّبانيَّة الكونيَّة، مَهْمَا نَضَحْنَهُمُ النَّاصِحُونَ، وتابَعَهُمُ بِالْبَيَانِ وَالشَّرْحِ وَالتَّحْلِيلِ الْمُعَلِّمُونَ الْمُفَقِّهُونَ، لَتَنَشِيطُهُمْ بِمَفْهُومَاتِهِمُ الْفَاسِدَةِ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَفْقَهُونَ، أي: لا يُتَابِعُونَ أمارات المعرفة الدقيقة ودلائلها وبراهينها حتَّى يَفْقَهُوْهَا، فهم على توالي البيانات والنصائح والإرشادات والإنذارات في تتابع الأزمان لَا يَفْقَهُونَ.

كيف يَفْقَهُ مَنْ خَجَبَ عَنِ الْمَعْرِفَةِ حَوَاسِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَانْغَلَقَ عَلَى نَفْسِهِ، وَاسْتَحْجَرَ فِكْرَهُ عَلَى مَفْهُومَاتِهِ الْبَاطِلَةِ أَوِ الْفَاسِدَةِ أَوِ النَّاقِصَةِ؟! أَلَا فَلْيَذْمُقْهُمْ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿١٣﴾

ولو أنهم كانوا يَفْقَهُونَ لكانت رهبَتُهُم من الله أَشَدَّ من رهبَتِهِم من أي مرهوبٍ في الوجود، ولدفعتهم هذه الرهبة من الله إلى الإيمان بمحمدٍ وبما جاء به عن ربِّهِ، والعمل بمقتضى هذا الإيمان، ولكأنوا مع الذين آمَنُوا إِخْوَانًا مُتَحَابِّينَ، يعملون مثل عملهم، ويقاتلون مثل قتالهم.

نفى الفقه لا يستلزم نفى كُلِّ معرفة وعلم، فالذي لا يفقه حقائق المفهومات الدينيَّة والسُّنن الرِّبانيَّة الكونيَّة، قد يَعْلَمُ مما دون ذلك أشياء كثيرةً من أمور الحياة الدنيا، وشهواتها، ومتاعها، وزينتها، وما فيها من قوى وطاقات وأسبابٍ ومسببات، لكنَّه عَنِ اللَّهِ وَالْآخِرَةِ مُدْبِرٌ أَوْ مُعْرِضٌ أَوْ غَافِلٌ، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ بشأن عموم الكافرين وهم أكثر الناس، في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ١١ ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ ١٢

وبعد كشف حالة اليهود الداخلية بالنسبة إلى المؤمنين، ويبيان أنهم يرهبون المؤمنين أكثر مما يرهّبون الله، أبان الله عز وجل أثر هذه الرهبة النفسية في سلوكهم الظاهر، فقال تعالى:

﴿لَا يَقْتُلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِّنْ وَرَاءِ جُدُرٍ...﴾ ١٤

جميعاً: كلمة «جميع» على وزن «فعل» تأتي بمعنى «مجموع» اسم مفعول من «جَمَعَهُ» إذا ضَمَّ بعضه إلى بعض. وتأتي بمعنى «مُجْتَمِع» اسم فاعل من فعل «اجتمع» وهذا من التوسّع على غير القياس المنبع، وتأتي دالة على التأكيد بمعنى «كُل».

وكلمة «جميعاً» في النص هنا حال بمعنى «مجتمعين» أو «مجموعين» وهذه الحال تصلح لأن تكون حالاً من فاعل يقتلونكم وهو ضمير الرفع، أو من المفعول به، وهو ضمير النصب.

أي: لا يقتلونكم حالة كونهم مجتمعين لقتالكم، أو حالة كونكم مجتمعين لقتالهم.

وأرجح الاحتمال الثاني: أي: حالة كونكم مجتمعين لقتالهم، لأنني أرى أن المؤمنين إذا كانوا مُتَفَرِّقِينَ، أو لم يجتمعوا جميعاً بمعظم قوّاتهم لقتال اليهود، فإن اليهود لا يرهّبونهم حينئذٍ، فيقاتلونهم دون أن يكونوا في قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِّنْ وَرَاءِ جُدُرٍ، فينبغي أن نفهم النص على ما يطابق الواقع.

وقد رأيت ظاهراً عبارات المفسرين اقتصر على الاحتمال الأول، دون طرح الاحتمال الثاني، فضلاً عن اعتماده.

فدلّ هذا البيان على أن المسلمين إذا اجتمعوا لقتال اليهود قذف الله الرعب في قلوبهم، فلا يقتلونهم إذا قاتلوا إلا في قُرَى مُحَصَّنَةٍ، أو من وراء جُدُرٍ، كجُدُرِ

الذبابات والمصفحات، والبوارج البحرية، ويقتصر قتالهم غالباً على قتال الدِّفاع، دون قتال الهجوم وجهاً لوجه.

وليزيد الله المؤمنين طمأنينة بالنسبة إلى الذين كفروا من اليهود، أبان لهم أن ما قد يرونه ظاهراً من وحدة كلمة اليهود، واجتماعهم على قاداتهم، إنما هو اجتماع ظاهري مصطنع، غير قائم على أساس اتفاق حقيقي بين قلوبهم، قال تعالى:

﴿بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَرِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ۖ﴾ (١١)

أي: بأشهُم بين جماعاتهم وفرقهم ومذاهبهم وأحزابهم وأفرادهم بأس شديد، والمعنى: إذا وقعت حرب أو معارك فيما بينهم كانوا ذوي بأس شديد على بعضهم، لعلم كل فريق منهم بجبن الفريق الآخر، وجُرْصه على الحياة الدنيا.

البأس: الشدة في الحرب.

فإذا نظرت إليهم أيها الناظر من بُعد، ولم تُدْخِلْهُمْ ولم تخلطهم خببتهم متفكين مجتمعين، وأن هذا الوصف مستمر فيهم، لكن قلوبهم متفرقة «شَّتَّى» بسبب اختلاف أهوائهم، ومصالحهم، ونزعاتهم، ونزغاتهم، ومذاهبهم وأحزابهم.

والمراد: فلا تَحْشَوْا يا أيها الذين آمنوا من مُلَاقاة اليهود في قتال جاد تكونون فيه مؤمنين حقاً، ومجتمعين على قتالهم، فإنهم لَنْ يَثْبُتُوا لِقَاتِكُمْ.

بعد هذا أبان الله عز وجل السَّبَب في أن بأسَهُم بينهم شديد، وفي أن قلوبهم متفرقة متعادية متخالفة، ولو كانوا في الظاهر يُلِدُّون الاتفاق ووحدة الكلمة والصف، فقال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَمَعُقُونَ﴾ (١٢)

أي: لا يضببطون نفوسهم وسلوكهم بإرادات حازمات، عن اتباع أهوائهم وشهواتهم، والاستجابة للتحاسد والتباغض فيما بينهم.

العقل في اللغة: يدور حول معنى الإمساك بالشئ، وحبه وربطه، واستعملت مادة «عَقَلَ يَعْقِلُ» ومشتقاتها في القرآن، بمعنى العقل الإرادي، وبمعنى العقل العلمي.

فالعقل الإرادي: يكون بحبس النفس وضبطها عن فعل الشر والمعصية وكل ما لا يحسن فعله بإرادة حازمة قوية.

والعقل العلمي: يكون بربط الفهم وحبه وتبنيه في الدائرة التي من صفاتها داخل النفس التفكير والفهم والمعرفة والعلم، والتمييز بين الحق والباطل، والخير والشر، وتثبيت المعلومات، وتذكرها عند الحاجة إليها^(١).

* * *

* قول الله عز وجل:

﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

مثل: هنا بمعنى «وصف».

﴿ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ﴾

هم يهود بني قينقاع، الذين أجلاهم الرسول بسبب ما كان منهم من نقض للعهد، وخيانة، وتعرض بالأذى لبعض نساء المسلمين، واستعدادهم لحرب الرسول والذين آمنوا معه.

والمعنى: حال يهود بني النضير في خيانتهم واحتمائهم بحصونهم، ثم استسلامهم، وطلبهم قبول جلائهم، كما قبل الرسول من يهود بني قينقاع الجلاء، يشبه خال بني قينقاع الذي مضى قريباً، إذ ذاقوا سوء عاقبة الأمر الذي صدر عنهم، فحاصروهم الرسول ثم قبل جلاءهم عن المدينة، إرضاءً لوساطة عبد الله بن أبي ابن سلول رئيس المنافقين في المدينة، على أن يأخذوا أموالهم وأئقالهم وخفيف سلاحهم. فخرجوا من المدينة إلى الشام، حتى نزلوا بأذرعات وأقاموا فيها، ولكنهم لم يلبثوا إلا قليلاً، حتى هلك أكثرهم، ونالوا جزاء خيانتهم وغدرهم ومكرهم ومحاربتهم الله ورسوله.

[ولهم] فوق ذلك [عذاب أليم] عند ربهم يوم الدين.

* * *

(١) انظر تنمية بحث العقل في كتاب «الأخلاق الإسلامية وأسماها» للمؤلف.

• قول الله عز وجل:

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ
اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ فَكَانَ عَقِبَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ
الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

هاتان الآيتان تكشفان التشابه ما بين المنافقين الذين وعدوا إخوانهم من الكافرين الصُّرْحَاءِ ومنوَّهْمُ بنصرتهم، فذغوهم إلى الثبات والصُّمُودِ والتَّمَنُّعِ ضدَّ الرُّسُولِ والمؤمنين معه، وقالوا لهم: لئن أُخْرِجْتُمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا، وإن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ، ثم لما اشتدَّ عليهم الحصار خذلهم وأسلموهم، ولم ينصروهم بشيء، وبين الشيطان الذي يعدُّ الإنسان ويُعَمِّيه بغرور، ويقول له: اكْفُرْ، فيستجيب له فيكفر، وحين يأتي يوم الحساب والجزاء، يَدْعُو الإنسانُ الكابِرُ الشَّيْطَانَ لِنَصْرَتِهِ، فيَقُولُ الشَّيْطَانُ لَهُ: إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ وَمَنْ جَرَيْتُكَ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ.

الشَّيْطَانُ منافقٌ جَبَانٌ، وَسَوَاسُ خَنَاسٍ، والمنافق شيطان جبان وسواس خناس، وكلاهما إذا حدثا كذبا، وإذا وعدا أخلفا وإذا اتَّبعنا خانا، وإذا خاصما فَجَرًا، وإذا عاهدا غدرا، وإذا استنصرا خذلا، وكلاهما يُغَرِّيان ويُغَوِّيان، لاشتراكهما في الصفات الأساسية التي ينجم عنها النفاق، وأعمال الشياطين.

وإذ قد تماثل جنس الشيطان وجنس المنافق في صفاتهما وفي سلوكهما، وفي كفرهما، وفي تحريضهما على الكفر، ومقاومة الإيمان الحق والدين آمنوا، أبان الله عز وجل أن عاقبة الفريقين أنَّهما يوم الدين يكونان في النار خالدين فيها، عقاباً لهما، على ما كان منهما في حياة الابتلاء في الحياة الدنيا، فقال تعالى:

﴿ فَكَانَ عَقِبَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ... ﴾ ﴿٦٧﴾

وقد أثبت أنَّهما في النار اعتباراً بما سيكون متحققاً، فما سيَتَحَقَّقُ وفوقه حتماً هو بقوة الأمر الواقع فعلاً، فيُعَبَّرُ عنه بالماضي ويُعَبَّرُ عنه بالحال، كما يُعَبَّرُ عنه بالاستقبال.

ولبيان أن عمل المنافق وعمل الشيطان كلاهما من قبيل الظلم الشنيع، ولبيان أن كل من ظلم بثل ظلمهما كانت عاقبته أنه في النار خالداً فيها قال الله عز وجل في ختام النص:

﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ (١٧)

أي: وذلك الجزاء الذي ثبت لهما يثبت جزاء لكل الظالمين الذين يظلمون ظُلماً مشابهاً لظلمهما، فقاتلوا الله واحد، وسنة الله في عباده واحدة لا تبدل ولا تتغير ولا تتحول.

أقول:

إن قول الشيطان للإنسان: اكفر، فلما كفر قال: إني بريء منك، إني أخاف الله رب العالمين، ينبغي أن يكون شاملاً كل إنسان أغواه وأغراه ووسوس له الشيطان فاستجاب له فكفر، فشان كل إنسان كفر بتأثير دعوة الشيطان له أن يكون مع الشيطان يوم القيامة في النار خالداً فيها.

وحمل هذا النص على قصة بعينها لا يستقيم مع عموم النص، وشمول سنة الله في عباده.

أما الاستشهاد استثناساً بالحوادث والقصاص بعد بيان عموم دلالة النص فأنكر غير مرفوض.

ومن القصاص التي يمكن الاستشهاد بها في هذا المجال ما يلي:

(١) روى الطبراني بسنده عن ابن عباس قال: جاء إبليس يوم بدر، في جنح من الشياطين، معه رايته، في صورة رجل من بني مذلج، في صورة سراقفة بن مالك بن جعشم.

فقال الشيطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني جار لكم. فلما اصطف الناس، أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب، فرمى بها في وجوه المشركين، فويلوا مذبرين.

وأقبل جبريل إلى إبليس، فلما رآه، وكانت يده في يد رجل من المشركين،

انتزع إبليس يده، فولى مذبراً هو وشيعته.

فقال الرجل: يا سُرَاقَة، تزعم أنك لنا جار!

قال: «إني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله، والله شديد العقاب» وذلك حين رأى الملائكة.

وأنزل الله قوله في سورة (الأنفال / ٨ مصحف / ٨٨ نزول):

﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَغَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتْهُ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عِقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٌّ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٨﴾﴾:

﴿نكص﴾: اي: رجع القهقري على قفاه هارباً، يقال لُنُةٌ: نكص ينكص وينكص نكوصاً.

(٢) ومنها قصة العابد الراهب الذي ذكر القصاصون أن اسمه «برصيصا».

وقد وردت قصته دون ذكر اسمه في روايات عن عليّ وابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم، وعن طاوس ومقاتل بن حيان.

فروى ابن جرير بسنده عن عليّ رضي الله عنه قال: إن راهباً تعبد ستين سنة، وإن الشيطان أراه فاعياه، فعمد إلى امرأة فأجنّتها، ولها إخوة، فقال لإخوتها: عليكم بهذا القس، فیداوها.

قال: فجاءوا بها إليه، فداواها، وكانت عنده، فبينما هو يوماً عندها إذ أعجبته، فأتاها، فحملت، فعمد إليها فقتلها.

فجاء إخوتها، فقال الشيطان للراهب، أنا صاحبك، إنك أعيتني، أنا صنعت هذا بك، فاطعني أنجك مما صنعت بك، فاسجد لي سجدة، فسجد، فلما سجد له قال: إني بريء منك، إني أخاف الله رب العالمين، فذلك قوله تعالى:

﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾:

وروى ابن جرير في هذه الآية عن ابن مسعود: قال: كانت امرأة ترعى الغنم، وكان لها أربعة إخوة، وكانت تأوي بالليل إلى صومعة راهب، فنزل الراهب، ففجر بها، فحملت.

فأتاه الشيطان فقال له: اقتلها، ثم ادفنها، فإنك رجل مُصَدِّق، يُسَمِّعُ قَوْلُكَ. فقتلها، ثم دفنها.

قال: فأتى الشيطان إختوتها في المنام، فقال لهم: إن الراهب صاحب الصومعة فَجَّرَ بآخِثِكُمْ، فلَمَّا أَحْبَلَهَا قَتَلَهَا ثُمَّ دَفَنَهَا، فِي مَكَانٍ كَذَا وَكَذَا.

فلَمَّا أَصْبَحُوا قَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ الْبَارِحَةَ رُؤْيَا مَا أَدْرِي، أَقْصَاهَا عَلَيْكُمْ أَمْ أَتْرَكَ؟

قالوا: لَا بَلْ قُصَّهَا عَلَيْنَا. فَقَصَّهَا.

فقال الآخر: وَأَنَا وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ ذَلِكَ.

فقال الآخر: وَأَنَا وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ ذَلِكَ.

قالوا: فَوَاللَّهِ مَا هَذَا إِلَّا لَشَيْءٍ.

قال: فَانْطَلِقُوا، فَاسْتَعْنُوا مَلِكَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الرَّاهِبِ، فَاتَوْهُ، فَأَنْزَلَوْهُ، ثُمَّ انْطَلَقُوا بِهِ، فَلَقِيَ الشَّيْطَانُ، فَقَالَ: إِنِّي أَنَا الَّذِي أَوْقَعْتُكَ فِي هَذَا، وَلَنْ يَنْجِيَكَ مِنْهُ غَيْرِي، فَاسْجُدْ لِي سَجْدَةً وَاحِدَةً، وَأَنْجِيَكَ مِمَّا أَوْقَعْتُكَ فِيهِ. قَالَ: فَسَجَدَ لَهُ، فَلَمَّا أَتَوْا بِهِ مَلِكَهُمْ نَبَرًا مِنْهُ، وَأَخَذَ فَقُتِلَ.



الفهرس

الموضوع	الصفحة
بين يدي الكتاب	٧
القسم الأول	
مقدمة وتعريفات عامة	
الفصل الأول: مقدمة عامة	١٣
(١) النفاق وخطره العظيم	١٣
(٢) تسلل المنافقين وإفسادهم من الداخل	١٦
(٣) صناعتهم للنكبات والفن الدخيل	١٨
(٤) خطأ بعض الدعاة بشأن النفاق	٢٠
الفصل الثاني: الإيمان والإسلام	٢٥
أولاً: الإيمان	٢٥
ثانياً: الإسلام	٢٨
تعريف الإسلام	٢٨
أقسام معلمي الإسلام	٢٩
الفصل الثالث: الكفر والنفاق	٤٥
أولاً: الكفر	
(١) تمهيد	٤٥
(٢) تعريف الكفر	٤٥
(٣) الكفر دركات	٥٠

ثانياً: النفاق

- (١) تعريف النفاق ٥٢
- (٢) النفاق سلوك مركَّب ٥٤
- (٣) أقسام المنافقين باعتبار وضعهم عند نشأة نفاقهم ٥٦
- (٤) أقسام المنافقين باعتبار موقعهم في الكفر ٥٩
- (٥) دوافع النفاق ٦٦
- (٦) أقسام المنافقين باعتبار غاياتهم ودوافعهم ٦٨
- (٧) دركات النفاق ٧٢
- (٨) النفاق الأصغر ٧٣
- (٩) تخوُّف الصحابة من النفاق الأكبر والأصغر ٧٧
- (١٠) المنافق في التشبيهات النبوية ٨٢
- (١١) من صفات المنافقين الجسدية ٨٣

الفصل الرابع: مجالات النفاق وصور منها

- (١) مقدمة حول مجالات النفاق ٨٥
- (٢) النفاق الأصغر (وهو الرياء) ٨٧
- (٣) نفاق الجاسوسية ٩٨
- (٤) النفاق في السياسة والإدارة والحكم ١٠٠
- (٥) النفاق في التعامل المالي ١٠١
- (٦) النفاق بتقديم الخدمات والمساعدات الإنسانية ١٠٣
- (٧) النفاق الاجتماعي بين الأفراد ١٠٤

الفصل الخامس: ملخص صفات المنافقين النفسية وآثارها في سلوكهم الظاهر

- والباطن اقتباساً من النصوص القرآنية التي تدبرها في القسم الثاني ١٠٧
- (١) مقدمة ١٠٧
- (٢) ملخص صفات المنافقين المفتبسة من النصوص القرآنية ١٠٨

القسم الثاني

تدبر النصوص القرآنية التي نزلت بشأن المنافقين

مرتبة بحسب ترتيب النزول

- ١٤١ جدول النصوص الموضوعة للتدبر
- النص الأول: من سورة (المنكيات) الأيات (١٠ - ١١) حول بدايات ظاهرة النفاق في المجتمع الإسلامي ١٤٧
- النص الثاني: من سورة (البقرة) الأيات من (٨ - ٢٠) حول تعريف النفاق وذكر طائفة من صفات المنافقين وظواهر النفاق في السلوك ١٥٥
- النص الثالث: من سورة (البقرة) الأيات من (٧٥ - ٨٢) حول ترجيح المؤمنين أن لا يطمعوا في أن يؤمن لدعوتهم متلقو اليهود وسائرهم ١٨٣
- النص الرابع: من سورة (البقرة) الأيات من (١٤٢ - ١٤٥) حول مشاركة المنافقين بإثارة الشبهة بشأن تحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة ٢٠١
- النص الخامس: من سورة (البقرة) الأيات من (٢٠٤ - ٢٠٧) حول بعض صفات فريق من المنافقين وظواهر من سلوكهم وهم من الجبارين ٢٢٤
- النص السادس: من سورة (الأنفال) الأيات من (٤٩ - ٥٥) حول قول المنافقين بشأن النذرين من المؤمنين إبان غزوة بدر: غرّ هؤلاء دينهم ٢٤٠
- النص السابع: من سورة (آل عمران) الأيات من (٦٩ - ٧٤) حول مكيدة أخباث اليهود بالدخول في الإسلام نفاقاً ثم الارتداد عنه لإغراء غيرهم بالردة ٢٦٦
- النص الثامن: من سورة (آل عمران) الأيات من (١١٨ - ١٢٠) حول نهى المؤمنين عن اتخاذ بطانة من المنافقين لأنهم مفسدون ميقضون مغيطون ٢٨٤
- مقدمة عامة للنصوص (٩) و (١٠) و (١١) من سورة (آل عمران) حول ما جاء بشأن المنافقين وظواهرهم السلوكية بمناسبة أحداث غزوة أحد ٣٠٣
- (١) موجز معركة أحد ٣٠٣
- (٢) مواقف المنافقين في غزوة أحد ٣١٠

- النص التاسع: من سورة (آل عمران) الآيات من (١٥٢ - ١٥٨) حول أحداث غزوة أحد وبعض ما كان من المنافقين فيها ٣١٤
- النص العاشر: من سورة (آل عمران) الآيات من (١٦٥ - ١٦٨) حول بيان بعض مواقف المنافقين في غزوة أحد وإقناع المؤمنين بأن ما جرى لهم قد كان من أنفسهم ٣٤٥
- النص الحادي عشر: من سورة (آل عمران) الآيات من (١٧٦ - ١٧٩) حول الذين بدؤوا خطوات النفاق إبان غزوة أحد ومسارعتهم في الكفر وتربية الله رسوله والمؤمنين بشأنهم ٣٦٣
- * عظات حركة النفاق اقتباساً من النصوص القرآنية المنزلة في سورة (آل عمران) . ٣٧٧
- * مقدمة عامة: حول موجز غزوة الأحزاب ٣٧٩
- النص الثاني عشر: من سورة (الأحزاب) الآيات من (٩ - ٢٧) حول مواقف المنافقين وظواهرهم السلوكية إبان غزوة الأحزاب ٣٨٤
- * نظرة عامة حول بعض ما جاء في سورة (الأحزاب) بعد هذا النص مما له تعلُّق ما به ٤١٩
- * مقدمة عامة: حول عادة التَّبَيُّن الجاهلية والغائها وإلغاء أحكامها وكل آثارها وتكليف الرسول أن يكون أوَّل مطبق لهذا الإلغاء وموقف الكافرين والمنافقين من ذلك . ٤٢٥
- النص الثالث عشر: من سورة (الأحزاب) الآيات من (٣٦ - ٤٠) والآية (٤٨) حول موقف المنافقين من زواج الرسول مطلقة «زيد بن حارثة» الذي كان قد أعتقه وتبنَّاه ٤٤٥
- النص الرابع عشر: من سورة (النساء) الآيات من (٥٩ - ٧٠) حول تحاكم المنافقين إلى الطاغوت وقد أُبرِّوا أن يكفروا به ٤٦٤
- النص الخامس عشر: من سورة (النساء) الآيات من (٧١ - ٨٤) حول ظواهر من النفاق تبرز عند الدعوة إلى القتال وبعده ٥٠٤
- النص السادس عشر: من سورة (النساء) الآيات من (٨٨ - ٩١) حول السياسة التي ينبغي معاملة المنافقين بها حسب اختلاف أحوالهم ٥٧٢
- النص السابع عشر: من سورة (النساء) الآيات من (١٠٥ - ١١٦) حول ما يجب على

- القضاة والخصوم وأنصارهم بمناسبة حادثة سرقة المنافق من بني أبييرق ٥٨٧
- النص الثامن عشر: من سورة (النساء) الآيات من (١٣٦-١٤٧) بشأن قسم المذبذبين من المنافقين وبعض صفات عموم المنافقين ٦١٣
- النص التاسع عشر: من سورة (الحديد) الآيات من (١٢ - ١٥) حول لقطات من مشاهد أحوال المنافقين يوم القيامة ٦٤٣
- النص العشرون: من سورة (محمد) الآيات من (١٦ - ٣٢) حول عدم تفهم المنافقين لما يسمعون وعلفهم لدى سماعهم آيات الدعوة إلى القتال ٦٦١
- النص الحادي والعشرون: من سورة (الحشر) الآيات من (١١ - ١٧) حول موقف المنافقين وخباياهم في أحداث إجلاء يهود بني النضير ٦٩٩



إلى هنا ينتهي الجزء الأول
من كتاب ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين
ويليه الجزء الثاني ، وأوله :
النص الثاني والعشرون : من سورة (النور)

فِي سِلْسِلَةِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ (٧)

عبد الرحمن حسن بن سنان الميمني

ظَاهِرَةُ الْبِقَاعِ

وَحَبَائِثُ الْمُنَافِقِينَ فِي التَّارِيخِ

أَجْزَاءُ الثَّانِي

دار القلم - دمشق

ظَاهِرَةُ الْبِفَاقِ وَحَبَائِثُ الْمُنَافِقِينَ فِي التَّارِيخِ

دَاسَةُ تَحْلِيلِيَّةٍ وَتَوْجِيهِيَّةٍ لِلْمُنَافِقِ بِالْإِنْفَانِ وَالْمُنَافِقِينَ
تَبْرُؤُ مَوْضُوعِي شَامِلٌ لِلْمَوْضُوعِ الْقَرَأَنِيِّ فِي الْإِنْفَانِ وَالْمُنَافِقِينَ
نَظَرًا اسْتِغْرَاضِيَّةً لِلْمُنَافِقِينَ عِبْرَةَ تَارِيخٍ

عبد الرحمن بن حنبل الميذاني

المجلد الثاني

دار الفقه
دمشق

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ ~ ١٩٩٣ م

دار القلم

رئيس - هابوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥١ - هاتف : ٣١٦-٩٣

النص الثاني والعشرون

من سورة (النور / ٢٤ مصحف / ١٠٢ نزول)

«السورة (١٦) من التنزيل المدني»

الآية (١١)

حول موقف المنافقين من حادثة الإفك

• قال الله عز وجل :

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا نَحْسَبُهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لِّكُلِّ لَافٍ مِّنْهُمْ
مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾

• • •

(١)

القراءات المتواترة من الفرش

• قرأ جمهور القراء العشرة [كَبْرُهُ] بكسر الكاف.

وقرأ يعقوب [كَبْرُهُ] بضم الكاف.

الكَبِيرُ : الإثم الكبير، ومُعْظَمُ الشيء.

الكَبِيرُ : مصدر كَبُرَ إذا عَظُمَ وجُسِمَ. تقول لغة : كَبُرَ يَكْبُرُ كَبْرًا وكَبْرًا.

فالقراءتان تتكاملان في أداء المعنى المراد، فالمعنى : والذي تَوَلَّى الإثم الكبير
لحديث الإفك، وتولى معظم أحداث إشاعته والترويج له، وتولى تعظيمه وتكبيره في
صفوف المؤمنين.

• • •

(٢)

موضوع النص وسبب نزوله

هذه الآية أولى آيات عشر أنزلها الله بمناسبة حديث الإفك الذي نرد بين المسلمين حول أم المؤمنين الطاهرة عائشة رضي الله عنها وأرضاها، وتعرضت هذه الآية لمن تولّى قذّف هذه الفرية وإشاعتها «عبد الله بن أبي بن سلول» دون التصريح باسمه، وتوعّده بالعذاب العظيم.

سبب النزول:

في شهر شعبان من سنة «خمس» على الراجح، غزا رسول الله ﷺ وأصحابه بني المصطلق^(١) من خزاعة.

وفي هذه الغزوة بدرت علة بوادر نفاق من عبد الله بن أبي بن سلول وأعانه فيها بعض جماعته من المنافقين.

ولما قفل رسول الله ﷺ ومعه أصحابه من غزوة بني المصطلق، ولم تبق بينه وبين المدينة إلا مرحلة، أذن بالرحيل آخر الليل، فلما علمت أم المؤمنين «عائشة» رضي الله عنها بذلك، خرجت من هودجها، وابتعدت عن الجيش لقضاء حاجتها الطبيعية، كما هو شأن النساء قبل الترحّل، فلما فرغت أقبلت إلى رحلها، فافتقدت عقداً فيه جزع ظفار، كان في صدرها (جزع ظفار: أي خرز هو من صناعة مدينة ظفار باليمن قرب صنعاء) فزجعت تلتئمسه.

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها (كما عند ابن إسحاق): «ثم أذن في الناس بالرحيل، فارتحل الناس (أي: أخذوا يحملون أمتعتهم على رواحلهم) وخرجت لبعض حاجتي، وفي عُنقي عقد لي، فيه جزع ظفار، فلما فرغت أنسل من عُنقي ولا أدري،

(١) بنو المصطلق: حي من خزاعة. وخزاعة قحطانيون عند أكثر النسابين، كانت منازلهم بقرب الأبواء (بين مكة والمدينة) وفي وادي غزال، وروادي دوران وعسفان في تهامة الحجاز. قال المسعودي: كانت ولاية البيت الحرام في خزاعة ثلاثمائة سنة. والمصطلق في اللغة: هو المنزع على جنبه من الالم.

فلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى الرَّحْلِ ذَهَبْتُ أَلْتَمِسُهُ فِي عَنَقِي، فَلَمَّ أَجِدُهُ، وَقَدْ أَخَذَ النَّاسُ فِي الرَّحْلِ، فَرَجَعْتُ إِلَى مَكَانِي الَّذِي ذَهَبْتُ إِلَيْهِ، فَالْتَمَسْتُهُ حَتَّى وَجَدْتَهُ.

جَزَعُ: نَوْعٌ مِنَ الْعَقِينِ. وَظَفَارُ: مَدِينَةُ لَحْمِيرَ بِالْيَمَنِ.

وجاء القوم خلافي، الذين كانوا يُرَحِّلُونَ لِي الْبَعِيرَ، وَقَدْ قَرَعُوا مِنْ رَحْلَتِهِ، فَأَخَذُوا الْهُؤُوجَ، وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنِّي فِيهِ، كَمَا كُنْتُ أَصْنَعُ، فَاحْتَمَلُوهُ، فَشَدُّوا عَلَى الْبَعِيرِ، وَلَمْ يَشْكُوا أَنِّي فِيهِ، ثُمَّ أَخَذُوا بِرَأْسِ الْبَعِيرِ فَانْطَلَقُوا بِهِ، فَرَجَعْتُ إِلَى الْعَسْكَرِ، وَمَا فِيهِ مِنْ دَاعٍ وَلَا مُجِيبٍ، قَدْ انْطَلَقَ النَّاسُ.

قالت رضي الله عنها: فَتَلَفَّضْتُ بِجَلْبَابِي، ثُمَّ اضْطَجَعْتُ فِي مَكَانِي، وَعَرَفْتُ أَنَّ لَوْ افْتَقَدْتُ لَرُجِعَ إِلَيَّ.

قالت: فَوَاللَّهِ إِنِّي لَمُضْطَجِعَةٌ إِذْ مَرَّ بِي «صَفْوَانُ بْنُ الْمُعْطَلِ السُّلَمِيُّ».

وجاء في الرواية التي عند البخاري ومسلم هنا عن عائشة:

«وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعْطَلِ السُّلَمِيُّ، ثُمَّ الذُّكْوَانِي قَدْ عَرُسَ^(١) مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ، فَأَذْلَجَ^(٢)، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ، فَاتَّانِي، فَغَرَفَنِي جِيبَ رَأْيِي، وَكَانَ قَدْ رَأَى قَبْلَ الْحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ^(٣) حِينَ عَرَفَنِي، فَخَمَرْتُ وَجْهِي بِجَلْبَابِي، وَاللَّهِ مَا كَلَمَنِي كَلِمَةً، وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ، حِينَ أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ، فَوَطِئَ عَلَى يَدَيَّهَا، فَارْتَكَبَهَا، فَانْطَلَقَ بِقُوْدُ بَنِي الرَّاحِلَةِ، حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ، بَعْدَمَا نَزَلُوا مُوْغِرِينَ^(٤) فِي نَحْرِ الظُّهَيْرَةِ، فَهَلَكَ مِنْ هَلَكٍ فِي شَأْنِي، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَةَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَلُولٍ».

قال علماء السيرة: كَانَ «صَفْوَانُ بْنُ الْمُعْطَلِ» عَلَى سَاقَةِ الْعَسْكَرِ، يَلْتَقِطُ فِي

(١) عُرُسَ: أَي: نَزَلَ آخِرَ اللَّيْلِ لِلرَّاحَةِ.

(٢) أَذْلَجَ: أَي: سَارَ فِي آخِرِ اللَّيْلِ.

(٣) بِاسْتِرْجَاعِهِ: أَي: بِقَوْلِهِ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

(٤) مُوْغِرِينَ: أَوْغَرَ الْقَوْمَ، إِذَا دَخَلُوا فِي وَقْتِ الْوُغْرِ، وَهِيَ شِدَّةُ الْحَرِّ.

مؤخرة الجيش ما يسقط من متاع المسلمين، حتى يأتهم به، ولذلك تخلف عن الجيش.

وكان في الجيش «عبد الله بن أبي بن سلول» رأس المنافقين، فقال بين خاصته: والله ما نجت منه ولا نجا منها. وانطلقت كلمته تتردد، وانخدع بها بعض المسلمين من أهل الإيمان، فشاعت بينهم وذاعت.

وجاء في الصحيح أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كانت تقول في عبد الله بن أبي بن سلول وحديث الإفك: «وهو الذي كان يستوشيه ويجمعه، وهو الذي تولى كبره منهم».

يَسْتَوْشِيهِ: أي: يُخَرِّكُهُ وَيُرْسِلُهُ وَيُذِيعُهُ.

وَيَجْمَعُهُ: أي: يعزم على إثارتة ونشره، ويجمع عناصره ويرتبها ليروجه بين الناس. يقال لغة: جمع الأمر إذا عزم عليه، ويقال: جمع الأمر إذا صم بعضه إلى بعض.

وظلّت أم المؤمنين في كرب شديد، ومريض مُيَضَّر، حتى أنزل الله براءتها في كتابه، ونزل بشأنها عشر آيات من سورة (النور) من الآية (١١ - ٢٠).

جاء في رواية البخاري ومسلم عنها أن رسول الله ﷺ لما نزل عليه الوحي من السماء ببراءتها، قال:

«أبشيري يا عائشة، أما الله عز وجل فقد برأك».

قالت عائشة: «فقلت لي أُمِّي: قومي إليه، فقلت والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله عز وجل، هو الذي أنزل براءتي».

وجاء في الروايات أن من الذين ولّغوا في هذا الأمر من المؤمنين وأقام الرسول ﷺ عليهم حدّ القذف: حسان بن ثابت، ومسطح بن أثانة، وخمعة بنت جحش، أخت أم المؤمنين زينب بنت جحش، أما زينب فلم تقل إلا خيراً، عصمتها ورعها ودينها.



(٣)

المفردات اللغوية في النص

﴿يَا لَافِك﴾ :

هو في اللغة الكذب، والخديعة، يقال لغة: أَفَكَ فُلَانٌ يَأْفِكُ أَفْكَاً وَإِفْكَاً وَأَفْوْكَاً، ويقال أيضاً: أَفَكَ بكسر الفاء، يَأْفِكُ أَفْكَاً وَإِفْكَاً، إذا كذب أو حدث بكلام كذب.

قيل: وهو مشتق من الأفك بفتح الهمزة، وهو قلب الشيء عاليه سافله، ومنه سميت قرى قوم لوط «المؤتفكة» أي: التي قلب الله عليها سافلها، وخسف بها.

وحديث الإفك: صار علماً بالغلبة على ما جرى في القصة التي سبق بيانها، ونزل بشأنه قرآن يتلى.

﴿عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ :

العُصْبَةُ: الجماعة من الناس، قال جمهور أهل اللغة: العُصْبَةُ الجماعة من عشرة إلى أربعين. وقيل: من الثلاثة إلى العشرة، وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه.

﴿تَوَلَّى كِبَرَهُ﴾ :

يقال لغة: تَوَلَّى فُلَانٌ الْأَمْرَ، بمعنى: تقلده، وقام به، ولزم العمل به أو بما يتعلق به.

أما كِبَرُهُ: فقد سبق لدى توجيه القراءات بيانه.

(٤)

مع النص في التحليل والتدبر

• قول الله عز وجل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ .

يخاطب الله في هذا عموم المسلمين الذين يجمعون المؤمنين الصادقين والمنافقين، فَيُبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِحَدِيثِ الْإِفْكَ هُمْ عُصْبَةُ مِنْهُمْ.

أي: لم يُصَدِّرْهُ الَّذِينَ كَفَرُوا صِرَاحَةً، لا اليهود ولا النصارى، ولا المشركون من العرب، ومع أَنَّ المنافقين قد تَوَلَّوْا كِبْرَهُ، إِلَّا أَنَّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عُصْبَةُ مِنْكُمْ﴾ إلحاحاً إلى أَنَّ بعض المؤمنين قد تقع منهم معصية كبيرة، كمعصية قَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ بِالشَّبَهِةِ، دُونَ بَيِّنَةٍ مَقْبُولَةٍ شَرْعاً.

* قول الله عز وجل:

﴿لَا تَتَّبِعُوا شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾:

أي: لا تَحْسَبُوا يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ وجود ظاهرة حديث الإفك في مجتمعكم الإسلاميِّ الْأَمَثَلِ وَالرُّسُولِ فِيكُمْ، شَرًّا لَكُمْ، يُقْبِذُ مُجْتَمِعَكُمْ، وَيُكَبِّرُ وَحْدَتَكُمْ، وَيَمَزِقُ صَفْءَكُمْ.

والمعنى: لا يَقَعْ فِي تَوَهُمِكُمْ هَذَا، ففعل «حَسِبَ» في القرآن لم يُسْتَعْمَلْ إِلَّا فِي التَّوَهُمِ الْمَرْدُودِ الَّذِي لَا يُبْنِي أَنَّ يُحْسَبَ لَهُ جُنَابٌ مَا.

بل هو خَيْرٌ لَكُمْ بسبب النتائج التي نجمت بعد ذلك من وجود حديث الإفك فيكم، وهي نتائج فيها خير عظيم.

ونسأله عن هذه النتائج التي جعلت وجود حديث الإفك في المجتمع الإسلاميِّ الْأَوَّلِ خَيْرًا؟

وبالتأمل ينكشف لنا أَنَّ العلل الدَّخَلِيَّةَ، والأمراض الكَمِيَّةَ، إِذَا بَقِيَتْ خَفِيَّةً تَفَاقَمَ شَرُّهَا، وَعَظُمَ ضَرُّهَا، وَصَارَ مِنَ الْمُتَعَذَّرِ مُعَالَجَتِهَا وَاسْتِثْصَالِهَا، فَمِنْ الْخَيْرِ ظُهُورُ أَثَارِهَا مَعَ بَدَايَاتِهَا، لَتَدَارِكُ عِلَاجُهَا، وَاسْتِثْصَالُ دَائِهَا.

وهذا ما حصل فعلاً بالنسبة إلى ظهور حادثة الإفك، فقد كشفت للمسلمين بالنسبة إلى مجتمعهم وظواهراته الاجتماعية أمرين:

الأمر الأول: أَنَّ المنافقين لَا يَقْتُونُونَ يَتَهَيَّزُونَ كُلَّ حَدَثٍ، لِلْإِفْسَادِ، وَالْإِشَاعَةِ

البليلة والاضطراب، وشق صفوف المسلمين، وهدم وحدتهم وتمزيقها، بما ينشرون من أكاذيب ومفتريات وأنواع من الإفك، وبما يلذعونه ويشيعونه من إرجافات.

فعلى جماعة المسلمين أن يكونوا يقظين حذيرين، لا يستجيبون لدسائس المنافقين، ووساوس المغرضين، وهمسات الأعداء المخالطين.

الأمر الثاني: أن المجتمع المسلم مهما عظمت تربته الإسلامية، وصلاح حاله، وارتقى فوق سائر المجتمعات، فإنه لا يخلو من وجود أفراد فيه يتأثرون بالشائعات الكواذب، ويثنون على الظنون الضعيفة، ويتابعون بتحركاتهم أصحاب الأغراض الخاصة، وأهل الأهواء، ويستجيبون لوساوس المنافقين ودسائسهم.

وانكشاف هذين الأمرين في المجتمع الإسلامي الأول استدعى إنزال بيانات وتشريعات ربانية، يحمي الله بها المجتمعات الإسلامية القادمة من شرور هذين الأمرين، إذا التزموا بهذه البيانات وأحكام هذه التشريعات، وعملوا بما جاء فيهما.

وهذا خير عظيم جلبه حدوث هذه الظاهرة الاجتماعية في المجتمع الإسلامي الأول، إذ كان رسول الله فيه، وكانت آيات الله وشرائعه تنزل عليه.

وكان من حكمة الله أن المثمة في الحدث من أعف العفيفات وأطهر الطاهرات وهي زوجة الرسول المجنبي، وأن المثم فيه من أهل بدر، ولم يعرف النساء قط، واشتهد بعد ذلك في سبيل الله، وسئل عنه فوجدوه رجلاً حصوراً، ما يأتي النساء.

• قول الله عز وجل:

﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾:

أي: لكل امرئ من أفراد العصابة الذين جاءوا بالإفك جزاء بمقدار ما اكتسب من الإثم.

فإن الله أن قذف المحصنات والمحصنين من المؤمنين إثم يترتب عليه عقوبة عند الله عز وجل، تعادل ما حمل من ثقل الذنب.

وجاء فعل ﴿اُكْتَسَبَ﴾ بصيغة «افتعل» الدالة على التكلف، للدلالة على أن إثم القذف إثمٌ ثَقِيلٌ الجَمَلِ على ظهر حامله، لا يستطيع حَمْلُهُ إِلَّا بِكُلْفَةٍ.

وحسبُ هذا الإثم العظيم أن جعل الله له حدّاً شرعياً، أن يُجلد مرتكبه ثمانين جلدة، وأن يكون من الملعونين في الدنيا، وأن يكون له عذابٌ عظيم في الآخرة أيضاً، ما لم يُتَبَّ من ذنبه، ويغفر الله له.

• • •

• قول الله عز وجل:

﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرُ مِنْهُمْ لَعَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾:

أي: والذي تولى بته أولاً سرّاً بين جماعته، وتابع الوسوسة لترويجه وإشاعته، من أفراد هذه العصابة، له عذاب عظيم عند الله يوم الدين.

وقد سبق أن عرفنا أنه رأس المنافقين «عبد الله بن أبي بن سلول». أبي: أبوه، وسلول: أم أبيه.

ولم يثبت أن رسول الله ﷺ قد أقام عليه الحدّ، وأرى أن السبب في ذلك أنه كان يثبت مقالاته سرّاً بين المنافقين، ولم يصرّح بها أمام من يشهد عليه شهادة شرعية بأنه قاذف، بخلاف الذين أقيم عليهم الحدّ، فقد أدينوا بأقوالهم بمقتضى الشهود الذين شهدوا عليهم، والله أعلم.

• • •

النص الثالث والعشرون

من سورة (النور / ٢٤ مصحف / ١٠٢ نزول)

السورة (١٦) من التنزيل المدني

الآية (٣٣)

حول موقف بعض المنافقين من إكراه الإمام على البغاء

قال الله عز وجل:

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِنَتَكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ إِنْ أَرَدْتَ تَحَصُّنًا لِلْإِنْفِقَاءِ عَرْضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُمْ
فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾

* * *

(١)

موضوع النص وسبب نزوله

موضوع النص:

خصّ الله عز وجلّ الإمام في الإسلام بأحكام خاصة تخفيفية في موضوع تعرضهنّ لفاحشة الزنا، على خلاف الأحكام التي أنزلها بشأن الحرائر، وذلك مراعاة لأوضاعهنّ في المجتمع، بمقتضى كونهنّ رقياتٍ يتبعنّ في خدمة أوليائهنّ، وبمقتضى كونهنّ غير ملزّاتٍ بالحجاب المفروض على الحرائر، وهو الحجاب الساتر لمفاتنهنّ، من أجسادهنّ، إذ حُكِّمَ عورة المرأة الأمة كحكم عورة الرجل.

ويسبب ذلك فقد يتعرّضنّ في المجتمع لأمر لا تتعرّض لمثلها الحرائر، فيصعبُ عليهنّ أن يُحصننّ أنفسهنّ بالعفة، كما أنهنّ يجدنّ أنفسهنّ عرضة دوماً

لمعاشرة من ينتقلن إلى ملكه بعد التأكد من براءة أرحامهن من الحمل من قبل مالك أو زوج سابق.

وقد سبق في نجوم التنزيل بيان عقوبتهن إذا زني برغبتهن دون إكراه من أولياء أمورهن، وهي نصف ما على الزانيات المسلمات الحرائر المحصنات بالضوابط الاجتماعية من العذاب. فالإماء إذا زني جلدن خمسين جلدة دون تريب، ولو كانت إحداهن يعاشرها مالكها، أو كانت زوجة لعد أو حر.

فالرق حالة اجتماعية تستدعي الأحكام المخففة بحكمة الله عز وجل.

وما سبق في نجوم التنزيل هو قول الله عز وجل في سورة (النساء) ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) بشأن الإماء:

﴿فَإِذَا أَحْصَيْنَ فَإِنْ أَتَيْتَ بِفَحِشَةٍ فَلَعْنَيْنِ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ... ﴿٥﴾﴾

أي: فإذا أسلمن، فمعهن إسلامهن من ارتكاب فاحشة الزنا، أو إذا كن متزوجات، فإن أتيت بعد ذلك بفاحشة الزنا فإنه يكون عليهن من العذاب عقاباً لهن، نصف ما على المحصنات بالحرية وضوابطها من العذاب، وهو حد مقداره خمسون جلدة فقط، أما الرجم فلا يوجبن لأنه لا ينصف، ولو كن متزوجات.

هذا هو الحكم الذي دل عليه النص بالنسبة إلى الرقيقات المحصنات إذا ارتكبن فاحشة الزنا برغبتهن.

واختلف العلماء في المراد من إحصائهن، هل هو إسلامهن أو زواجهن؟ وعلى هذا فالإماء غير المسلمات اللواتي لم يحصن بالإسلام أنفسهن قد اختلف العلماء بشأنهن على رأيين:

الرأي الأول: وهو مذهب الجمهور، قالوا: إن الأمة إذا زنت فعليها خمسون جلدة، سواء أكانت مسلمة أو كافرة، مزوجة أو بكراً، عملاً بما ورد في السنة.

الرأي الثاني: أن الأمة الكافرة لا تجلد إذا زنت، عملاً بالمفهوم المخالف للشرط الوارد في الآية.

وقد ورد في السنة بشأن الأمة التي تزني عدة أحاديث منها:

(١) روى مسلم في صحيحه عن علي رضي الله عنه، أنه خطب فقال: (يا أيها الناس أقيموا الحد على إيمانكم، من أحصن منهن ومن لم يحصن، فإن أمة لرسول الله ﷺ زنت، فآمرني أن أجليدها، فإذا هي خديئة عهد بغياس، فخشيت أن جلدها أن أقتلها، فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فقال: «أحسن، أتركها حتى تتأمل»).

يقال لغن: تماثل العليل، أي: قارب أن ييرا من علته فصار أشبه بالصحيح.

(٢) وروى مسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إذا زنت أمة أحبككم فتبين زناها فليجلدها الحد، ولا يشرب عليها، ثم إن زنت الثانية فليجلدها الحد، ولا يشرب عليها، ثم إن زنت الثالثة فتبين زناها فليغها ولو بخيل من شعر».

* * *

بقي حكم الإماء اللواتي يكرههن أولياؤهن على البغاء، وهن يرذن النخصن بالعفة والتزام حكم تحريم الزنا، فهل يقام عليهن الحد الذي هو نصف ما على المحصنات من العذاب، أم لا؟

لقد ظل هذا الحكم معلقاً مدة من الزمن، لأن أكثر أحوال الإماء أن يزنن برغبتهن، لا بالإكراه على البغاء، في مهنة خاصة، وقد تتخذ لها بيوت ذات علامات خاصة، تسمى المواخير، حتى نزلت سورة (النور) بعد نزول تسع سور من نزول سورة (النساء) فتزل فيها قول الله عز وجل:

﴿وَلَا تُكْرَهُوا فَنِيَتِكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّبَنَفْسِ وَأَعْرَضَ عَنِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٢).

فنهى الله أولياء الإماء نهى تحريم عن إكراههن على ممارسة مهنة البغاء لكسب المال بكذ فروجهن، زاعمين على عادات أهل الجاهلية أن امتلاك رقابهن يبيح لهم تأجير فروجهن بالمال.

وأبان تبارك وتعالى أنهم إذا تعرضن لممارسة الزنا بإكراه من أولياء أمورهن،

وَهُنَّ يُرَدْنَ النِّحْصَنَ بِالْعَفَةِ وَالْإِتْمَانِ بِحُكْمِ تَحْرِيمِ الزَّانَا، فَإِنَّهُنَّ جَبِيضٌ لَا يُقَامُ عَلَيْهِنَّ الْحَدُّ الَّذِي سَبَقَ إِنْزَالَهُ فِي سُورَةِ (النساء).

ولمَّا كُنَّ قَدْ يَتَرَضَّنَ لِمَشَاعِرِ الْإِسْتِمْتَاعِ عِنْدَ الْمُمَارَسَةِ، مَعَ عَدَمِ رَغْبَتِهِنَّ أَصْلًا بِالْبَغَاءِ، فَقَدْ مَحَّ اللهُ لَهُنَّ أَنْ يَسْتَغْفِرْنَ، وَوَعَدَهُنَّ بِأَنْ يَغْفَرَ لَهُنَّ وَيَرْحَمَهُنَّ.

سبب النزول:

أورد الطبري في تفسيره عدة روايات في سبب نزول هذا النص، وهي في معظمها تبين أنها أنزلت لإلغاء عادة جاهلية، وقد بقي يفعلها رأس المنافقين في المدينة «عبد الله بن أبي بن سلول» وهي إكراه من يشاء من إمامه على البغاء، لكسب المال بالزنا.

وقد أنزل الله هذا النص للنهي عن هذه العادة الجاهلية الخبيثة، وليبين عذر المكرهة من الإماء، ورفع عقوبة الحد عنها، ودعوتها للاستغفار عما قد تستمع به عند المعاشرة، مع كونها كارهة مُكرهة، ليغفر الله لها ويرحمها.

فمن الروايات التي أوردها الطبري ما يلي:

(١) روى الطبري بسنده عن جابر بن عبد الله قال:

«كَانَتْ جَارِيَةً لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بِنِ سُلُولٍ، يُقَالُ لَهَا (مُسَيِّكَةٌ) فَاجْرَهَا وَأَكْرَهَهَا، فَاتَتْ النَّبِيَّ ﷺ فَشَكَتَ ذَلِكَ إِلَيْهِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ:

﴿وَلَا تُكْرَهُوا قَبْلَ أَنْ تُنْزِلَ عَلَيْكُمْ عَلَى الْإِغْلَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ نَحْصًا لِلْإِنْفِقَاءِ عَرْضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٣).

يعني: بهن.

(٢) وروى الطبري أيضاً بسنده عن عكرمة.

«أَمَةُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بِنِ سُلُولٍ أَمْرَهَا فَزَنَتْ، فَجَاءَتْ بِبُرْدٍ، فَقَالَ لَهَا: ارْجِعِي فَازْنِي، قَالَتْ: وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ، إِنْ يَكْ هَذَا خَيْرًا فَقَدْ اسْتَكْرَتْ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا فَقَدْ أَنْ لِي أَنْ أَدْعُهُ».

(٣) ويدل على أنها كانت عادة متبعة، ما رواه الطبري بسنده عن الزهري، أن رجلاً من قرش أسير يوم بدر، وكان عبد الله بن أبي بن سلول أسرته، وكان لعبد الله جارية، يقال لها: معاذة، فكان القرشي الأسير يريد بها على نفسها، وكانت مُسلمة، فكانت تمتنع منه لإسلامها، وكان ابن أبي يُكرِّمها على ذلك ويضربها، رجاء أن تحبل للقرشي، فيطلب فداءً ولده، فقال الله تعالى:

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْإِغْلَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ حَسَنًا﴾.

قال الزهري:

﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

يقول: غفور لهم ما أكرههم عليه.

(٤) وروى الطبري أيضاً بسنده عن ابن عباس في الآية قال: كانوا في الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنا، يأخذون أجورهم، فقال الله: لَا تُكْرِهُوهُمْ عَلَى الزَّنا من أجل التَّمَالُّةِ في الدنيا، ومن يكرههم فإن الله من بعد إكراههم غفور رحيم لهم، يعني إذا أكرههم.

(٥) وروى بسنده عن مجاهد، قال:

كانوا يأمرهم ولائهم بيباعين، يفعلن ذلك، فيُصْبَن، فيأتيهن بكسبهن، فكانت لعبد الله بن أبي بن سلول جارية، فكانت تُباعي، فكرهت، وحلفت أن لا تفعله، فأكرمها أهلها، فانطلقت فباغت بريد أخضر، فأتتهم به، فأنزل الله تبارك وتعالى:

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْإِغْلَاءِ...﴾.

وأورد الشيخ محمد بن الطاهر بن عاشور، أنه كانت في المدينة إماء بغايا، منهن ست إماء لعبد الله بن أبي بن سلول، وهن: ومُعاذة - مُسَيِّكة - أُمَيَّمة - عَمْرَة - أَرْوَى - قَتِيلَة. وكان يُكرِّمهن على البغاء بعد الإسلام.

قال: وقالوا: إن عبد الله بن أبي قد أعذ معاذة لإكرام ضيوفه، فإذا نزل عليه ضيف أرسلها إليه ليواقعها، إرادة الكرامة له.

فَأَقْبَلْتُ مَعَاذَهُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَشَكَتُ ذَلِكَ إِلَيْهِ، فَذَكَرَ أَبُو بَكْرٍ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَبَا بَكْرٍ بِقَبْضِهَا، فَصَاحَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي، مَنْ يُغْبِرُنَا^(١) مِنْ مُحَمَّدٍ، يَغْلِبُنَا عَلَى مَمَالِكِنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ.

قال: وكان بمكة تسع بغايا شهيرات، يجعلن على يسوتهن رابات، وذكر أسماءهن.

(٢)

المفردات اللغوية في النص

﴿وَلَا تُكْرِهُوا﴾:

الإكراه على العمل: ألْفَهْرُ عليه، وَالْحَمْلُ عَلَى فعله بالقوة، أو بالتهديد بإنزال مكره.

﴿فَتَيِّتِكُمْ﴾:

أي: إساءكم، جمع «فتاة» وأصل «الفتاة» مؤنث «الفتى» وهي الشابة أول شبابها. وقد كرم الله الإمام فسماهن فتيات.

وروى مسلم عن أبي هريرة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَقُولُنَّ أَحَدُكُمُ: عَبْدِي، وَأَمْتِي، كُلُّكُمُ عَبْدُ اللَّهِ، وَكُلُّ نِسَائِكُمُ إِمَاءُ اللَّهِ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: غُلَامِي، وَجَارِيتِي، وَفَتَاتِي وَفَتَاتِي».

﴿عَلَى الْفَلَا﴾:

أي: على الزنا. «وَبَغَاءٌ مُضْطَرُ بَغْتِ الْمَرَأَةِ وَبَاغَتْ إِذَا زَنَتْ. يُقَالُ لُغَةً: بَغَتْ الْأُمَةُ تَبْغِي بَغْيًا وَبَغَاءً، وَبَاغَتْ تُبَاغِي مُبَاغَةً وَبَغَاءً، أَي: فَجَزَتْ وَارْتَكَبَتْ فَاجِشَةَ الزَّانَا.

﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾:

التحصن: التَّمَنُّعُ بِالطَّاعَةِ مِنْ ارْتِكَابِ الْمَعْصِيَةِ، وَبِالتَّعَفُّفِ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الزَّانَا،

(١) مَنْ يُغْبِرُنَا مِنْ مُحَمَّدٍ: أَي: مَنْ يُنْصِفُنَا مِنْ مُحَمَّدٍ.

وفي الصيغة معنى التكلف وتحمل مشقة مغالبة النفس، وهو في الأصل من الدخول في حصن منيع، للاحتماء به، يقال لغة: تَحَصَّنَ يَتَحَصَّنُ تَحَصُّناً، إذا دخل في حصن واحتتمى به.

ويقال: امرأة حَصَان، وحاصن، أي: عفيفة.

[والمحصنات]: العفاف من النساء. والمُحَصَّنَةُ: التي أحصنها زوجها.

والمرأة تكون مُحَصَّنَةً بالإسلام، أو بالعفاف، أو بالحرية، أو بالتزويج.

وأصل الإحصان يدل على المنع، ويسمى المكان المنيع حصناً، لأنه يمنع العدو من الدخول فيه، والوصول إلى المحتمين به داخله.

﴿لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾:

أي: لتطلبوا بإكراه إيمانكم على البغاء مالاً، أو غير ذلك من متاع الحياة الدنيا الذي هو عَرَضٌ زائل.

﴿عَفْوٌ﴾:

أي: كثير المغفرة، كثير ستر الذنوب على عباده. يقال لغة: غَفَرَ الشيء إذا سَتَرَهُ، وغَفَرَ المتاع في الوعاء، إذا أَدْخَلَهُ فِيهِ وَسَتَرَهُ، وغَفَرَ الله للعبد ذنبه، غَفَراً وغَفَرَاناً وَمَغْفِرَةً، إذا سَتَرَهُ لَهُ.

﴿رَحِيمٌ﴾:

كثير الرحمة وعظيمها. الرحمة: صفة من آثارها العطاء، والمعونة وإزالة البؤس، والإمداد بما يسر ويسكن النفس، ويطمئن القلب، ويُمَتِّعُ ذا الحياة بما يطيّب لذه، ويكفّه عن الشر والضّرّ والسوء، ويهديه إلى ما فيه خير وسعادته، في عاجل أمره وآجله، ويبيّن له ما فيه شرّ له وضّرّ وأذى، ونحو ذلك.

والرحمة صفة من صفات الله الجليلة، وهي صفة نفسية تنبئها الله عز وجل على ما يليق بجلاله، فقد أثبت الله لنفسه الرحمة، فقال تعالى في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف / ٣٩ نزول):

﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ...﴾ ﴿٣٣﴾

(٣)

مع النص في التحليل والتدبر

* قول الله عز وجل:

﴿وَلَا تُكْرِهُوا إِفْتِيَتَكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّبَنَافِعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾:

أي: ولا تُكْرِهُوا إِمَاءَكُمْ عَلَى الزَّنا كَمَا كُنتُمْ تَفْعَلُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، لِتُجَلِّينَ لَكُمْ مَالًا أَوْ غَيْرَهُ مِنْ عَرْضِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، بِكَذِّ فُرُوجِهِمْ، زَاعِمِينَ أَنَّ لَكُمْ الْحَقَّ أَنْ تَكْتَسِبُوا بِأَجْسَادِ إِمَائِكُمْ اللَّوَاتِي تَمْلِكُونَ رِقَابَهُنَّ عَلَى مَا تَشْتَهُونَ، وَلَوْ كَانَ فِي أَمْرِ حُرْمَةِ اللَّهِ عَلَى النَّاسِ جَمِيعًا، أَحْرَارِهِمْ وَعَبِيدِهِمْ.

فحفظُ الفروج من الزنا هو من حقِّ الله على عباده جميعاً، والاستمتاع بالفروج يخضع لضوابط حُدَّها الله بأوامره ونواهيه، وليس التصرف بالفروج من توابع الملكية.

إِنَّ مَالَك رَقَبَةُ الْأَمَةِ لَهُ أَنْ يَبِيعَهَا، أَوْ يَهَبَهَا، أَوْ يُؤْجِرَهَا فِي الْخِدْمَةِ، أَوْ يَكْلَفَهَا مِنَ الْأَعْمَالِ، أَوْ يَنْسَرِّيَ بِهَا، أَوْ يَزَوِّجَهَا، وَلَكِنْ لَيْسَ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يُؤْجِرَهَا لِلْقِيَامِ بِعَمَلٍ حُرْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهَا، أَوْ يَكْلَفَهَا إِيَّاهُ كَالزَّنا وَاللَّوْطِ، وَالسَّرْقَةِ وَالْغِيْبَةِ وَالنَّمِيمَةِ، وَالْقَتْلِ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَهَكَذَا إِلَى سَائِرِ الْمُحْرَمَاتِ، أَوْ يُمْنَعُهَا عَنْ مَعَارَسَةِ حَقُوقِهَا الشَّخْصِيَّةِ وَوَاجِبَاتِهَا الدِّينِيَّةِ.

بقي أن نفهم فائدة تعليق النهي عن الإكراه على الزنا بشرط إرادة الإماء التَّحَصُّنُ، أي: التَّمَنُّعُ مِنَ الزَّنا، والدَّخُولُ فِي جِزْنِ طَاعَةِ اللَّهِ لِاتِّقَاءِ عَذَابِهِ، وَهَلْ إِنَّ كُنْ لَا يَرُدُّنَ التَّحَصُّنَ فَلَاوِلِيَّائِهِنَّ أَنْ يُكْرِهُوهُنَّ عَلَى الْبَغَاءِ؟

أشكل التعليق بهذا الشرط على عموم المفسرين، واعتبره بعضهم من المعضلات، وسلكوا مسالك متعدّدة لتأويل النصِّ بما يتفق مع ما يعلمون من حكم الشرع.

أقول:

إنَّ سبب وقوعهم في الإشكال، ولجؤهم إلى التأويلات، أنهم لم يجمعوا بين ما نزل في سورة (النساء) بشأن زنا الإمام، وما نزل بعد ذلك في سورة (النور) ولم ينظروا إلى النصين على أنهما متكاملان، وأن الموضوع قد جُزئ عليهما، وفق أسلوب القرآن في تجزئة موضوعاته، وتوزيعها في السور، وأنَّ على المتدبر أن يتدبرها متكاملة، يُضاف إلى هذا السبب أنهم لم ينتبهوا إلى التقسيم المنطقي بين النصين، وأنهما يكونان معاً قضية شرطية منفصلة حقيقية، وهي التي تكون كما يقول علماء المنطق مانعة الجمع والخلو معاً، كقولنا: الإنسان إما شاكِر وإما كفور، فإن كان شاكراً فمصيره أخيراً إلى الجنة، وإن كان كفوراً فليس له مصير إلا النار.

والمعنى: لا يخلو الإنسان المكلف من واحد من الأمرين: (شاكِر - كفور) ولا يمكن أن يكون معاً في وقت واحد (شاكراً - كفوراً) فالشاكِر ولو بكلمة «لا إله إلا الله» سبصر إلى الجنة، ولو عذب في النار، والكفور المبالغ في كفره لا دار له يوم الدين إلا النار خالداً مخلداً فيها أبداً.

هذه قضية شرطية منفصلة حقيقية، مانعة جمع ومانعة خلو معاً.

فلنجمع النصين: الذي في سورة (النساء) والذي في سورة (النور) ولنتدبرهما على أنهما يشتملان على قضية شرطية منفصلة حقيقية، وأنَّ للمقدم فيها حكماً، وللتالي فيها حكماً.

حينما نقول: العدد: إما زوج (هذا مقدم) وإما فرد (هذا تالي):

— فإن كان زوجاً فهو ينقسم إلى متساويين دون كسر (هذا حكم المقدم).

— وإن كان فرداً فهو لا ينقسم إلى متساويين دون كسر (هذا حكم التالي).

على وفق هذا المقياس نعرض النصين.

(١) الذي في سورة (النساء) حول الإمام:

﴿فَإِنْ آتَيْنَكَ بِهَا جُثَّةً مِّمَّا يَصِفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ...﴾ (٥٥)

المحصنات: الحرائر.

ونصف ما عليهن من العذاب: هو خمسون جلدة.

(٢) والذي في سورة (النور):

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا...﴾ (٣٣)

نضع مضمون هذين النصين بصيغة قضية شرطية منفصلة حقيقية، فنقول:

الإمام:

(١) إِمَّا أَنْ يَزْنِينَ بِاخْتِيَارِهِنَّ دُونَ إِكْرَاهٍ، فَيَأْتِيَنِ الْفَاحِشَةَ بِأَنْفُسِهِنَّ.

(٢) وَإِمَّا أَنْ يَكْرِهَنَّ مِنْ قَبْلِ أَوْلِيَائِهِنَّ عَلَى الزَّانَا.

أي: لا يخلو أمر زناهن عن أن يكون باختيارهن، أو بإكراه أوليائهن لهن، ولا يجتمع الأمران معاً، لأنه إن كان باختيارهن فلا إكراه، وإن كان بالإكراه فلا اختيار لهن.

الحكم:

— فإن زين باختيارهن فعليهن نصف ما على الحرائر من العذاب، وهو جلدتهن خمسين جلدة. وهذا الحكم هو ما جاء بيانه في سورة (النساء).

— وإن أردن تحصناً بطاعة الله لانتفاء عذابه، وأكْرِهَنَّ عَلَى الزَّانَا مِنْ قَبْلِ أَوْلِيَائِهِنَّ فَلَا يُقَامُ عَلَيْهِنَّ الْحَدُّ لِأَنَّهُنَّ مُعْذِرَاتٌ، والله من بعد إكراههن غفور لهن، رحيم بهن. وهذا الحكم هو ما جاء بيانه في سورة (النور).

فتكامل النصان، واستوفت القضية الشرطية المنفصلة كل عناصرها، وجاء حكم المقدم فيها في سورة (النساء) وجاء حكم التالي فيها في سورة (النور) واقتضت الحكمة البيانية إيراد الشرط في سورة (النور) لتوضع القضية بكاملها ضمن ميزانها ومقياسها، على أنها قضية شرطية منفصلة حقيقية، كما يلي:

— إِنْ لَمْ يَرُدْنَ تَحَصُّنًا فَيُقَامُ عَلَيْهِنَّ الْحَدُّ، وَلَا يَوْجَدُ حَيْثُ إِكْرَاهٍ.

— وَإِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا فَلَا يُقَامُ عَلَيْهِنَّ الْحَدُّ، إِذْ لَا يَزْنِينَ حَيْثُ إِلَّا بِالْإِكْرَاهِ.

وأضيف إلى هذا نهى أوليائهن عن إكراههن على الزنا.

أليس هذا من روائع هذا الكتاب العجيب وإعجازاته.
هذا ما فتح الله به عليّ هنا، والحمد لله على فتّحه وتوفيقه.

* قول الله عز وجل :

﴿وَمَنْ يُكَرِّهَهُنَّ فَإِنَّ أَفْلَهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ :

أي : ومن يكرههن فعليه إثم إكراههن، ومن لا يقام عليهن حد زنا الإمام، لأنهن أزدن تحصناً بطاعة الله، لاتقاء عذابه، ولم يفعلن ما فعلن بإرادتهن، بل أعلن رفضهن وعذم رغبتهن، كما حصل لإحدى إماء عبد الله بن أبي بن سلول.

والجملة التي تضمنت جواب الشرط هذا قد طويت، للعلم بها مما تضمن رفع عقوبة الحد عن المكروهات من الإمام، وهو قوله تعالى :

﴿فإن الله من بعد إكراههن غفورٌ رحيمٌ﴾ أي : فإن الله من بعد إكراه أوليائهن لهن على الزنا غفورٌ لهن رحيمٌ بهن.

ولم يأت التعبير بعبارة تقتضي رفع المؤاخذه عنهن مطلقاً وأنه لا مسؤولية عليهن، لاحتمال أن يكن في حالة المعاشرة يشعرون بالاستمتاع بالزنا وإن كن كارهات غير راغبات، فهذه تحتاج استغفاراً، والله غفور رحيم.

النص الرابع والعشرون

من سورة (النور / ٢٤ مصحف / ١٠٢ نزول) أيضاً

السورة (١٦) من التنزيل المدني

الآيات من (٤٧ - ٥٤)

حول كذب المنافقين في ادعائهم الطاعة

ورفضهم التحاكم لله ورسوله

قول الله عز وجل:

﴿وَيَقُولُونَ ءَأَمَنَا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَوَلَّى فِرْقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ١٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فِرْقٌ مِنْهُمْ مُتَعَرِّضُونَ ١٨
وإن يكن لهم الحق يأتوا إِلَيْهِ مُذِيعِينَ ١٩ أَمِ قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ أَرَأَيْتُمْ أَن يُخَافُوا أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ أَمْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ٢٠ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٢١ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِيَ اللَّهََ وَسَتَقَدِّمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ٢٢ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ٢٣ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ٢٤﴾

(١)

القراءات المتواترات في هذا النص (من الفرش وبعض الأداء)

* في الآية (٤٨) والآية (٥١):

(١) قرأ جمهور القراء العشرة: [لِيُحْكَمْ بَيْنَهُمْ] بالبناء للفاعل في الآيتين.

وقرأ أبو جعفر المدني: [لِيُحْكَمْ بَيْنَهُمْ] بالبناء للمفعول في الآيتين.

وفي القراءتين تكامل في الأداء البياني، وتكامل فكري، فقراءة الجمهور تفيد أنَّ الدعوة في حياة الرسول لِيُحْكَمْ الرسولُ بينهم، وهذا المعنى تفيد أيضاً قراءة أبي جعفر، ولكن بصيغة البناء للمجهول، أما قراءة أبي جعفر فتفيد أيضاً أنَّ هذه الظاهرة قد تحصل بعد حياة الرسول ليحكم الحاكم العادل من المسلمين بحكم الله ورسوله، أي: بحكم الكتاب والسنة.

* في الآية (٥٢):

(١) القراء في أداء [وَيَنْقُحْ] كما يلي:

أولاً: قرأ حفص عن عاصم [وَيَنْقُحْ] بإسكان القاف واختلاس كسرة الهاء.

ثانياً: قرأ قالون عن نافع، وقرأ يعقوب [وَيَنْقُحْ] بكسر القاف واختلاس كسرة الهاء.

ثالثاً: قرأ أبو عمرو وشعبة عن عاصم [وَيَنْقُحْ] بكسر القاف وإسكان الهاء.

رابعاً: قرأ ورش عن نافع، وابن كثير، وخلف عن حمزة، والكسائي، وخلف العاشر [وَيَنْقُحْ] بكسر القاف وإشباع كسرة الهاء.

خامساً: قرأ ابن ذكوان عن ابن عامر، وابن جُمَاز عن أبي جعفر [وَيَنْقُحْ] - وَيَنْقُحْ] بكسر القاف ولهما في الهاء الكسر مع الاختلاس، ومع الإشباع.

سادساً: قرأ خلاد عن حمزة، وابن وردان عن أبي جعفر: [وَيَنْقُحْ - وَيَنْقُحْ] بكسر القاف ولهما في الهاء الإسكان، والكسر مع الإشباع.

سابقاً: وقرا هشام عن ابن عامر [وَيَتَّقِهِ - وَيَتَّقِيهِ - وَيَتَّقِيهِ] بكسر القاف، وله في الهاء الإسكان، والكسر مع الاختلاس، ومع الإشباع.

وكُلُّها وجوه من الأداء لا يختلف بها بيان ولا معنى، وهي تخضع لللهجات العربية.



(٢)

موضوع النص وسبب نزوله

موضوع النص:

يشتمل هذا النص على كشف ثلاث ظواهر من صفات المنافقين:

الظاهرة الأولى: أَنَّ المنافقين يقولون بالسَّهْم: آمَنَّا بالله، وآمَنَّا بالرسول، وَأَطَعْنَا الأوامر والنواهي، ثم لدى التنفيذ لمقتضيات الإيمان وإعلان الطاعة يُذَبِّروْنَ، وَيَتَّبِعُونَ ابتعاداً كلياً عن مواقع الإيمان والطاعة، وجاء التعبير عن هذا بأنَّهُمْ يَتَوَلَّوْنَ، أي: يُذَبِّروْنَ وَيَتَوَلَّوْنَ.

الظاهرة الثانية: أَنَّهُ إذا وقعت خصومة بين أحد المنافقين وبين شخص آخر، ودَّعي المنافق إلى حُكْمِ الله ورسوله، فَإِنْ كان يَعْلَمُ أَنَّ الحقَّ لخصمه أَعْرَضَ متجاهلاً متغافلاً متحايلاً، وَإِنْ كان يَعْلَمُ أَنَّ الحقَّ له، فَإِنَّه يَأْتِي متظاهراً بالإذعان والاستسلام لحكم الله والرسول، ليحكم له الرسول، أو ليحكم له الحاكم المسلم العادل من بعده.

الظاهرة الثالثة: أَنَّ بعض المنافقين أقسموا بالله للرسول قَسْماً مُشَدِّداً مُؤَكِّداً بكلِّ وسائل التأكيد، قائلين له: لَئِنْ أَمَرْنَا بأن نخرج إلى القتال في سبيل الله، أو بأن نخرج من أموالنا وأهلينا لَنُخْرِجَنَّ طاعةً لك، وإيماناً واحتساباً.

ولدى التطبيق العملي ينكشف أَنَّهُمْ كانوا كاذبين.

واشتمل هذا النص أيضاً على تعليقات ربَّانِيَّة على هذه الظواهر، وعلى بعض معالجات تربويَّة، اقتضاها الموقف عند نزول النص.

سبب النزول:

(١) روى عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، قال في الآية (٤٧) من هذا النص:

«أناس من المنافقين أظهروا الإيمان والطاعة، وهم في ذلك يَصُدُّونَ عن سبيل الله وطاعته وجهاد مع رسوله ﷺ».

(٢) وَزَوَّاهُ أَيْضاً عَنْ الْحَسَنِ قَالَ: فِي الْآيَاتِ (٤٨ - ٤٩ - ٥٠):

«إِنَّ الرَّجُلَ كَانَ يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرَّجُلِ خَصُومَةٌ أَوْ مُنَازَعَةٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا دُعِيَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ مُحَقٌّ أَذْعَنَ وَعَلِمَ أَنَّ النَّبِيَّ سَيَقْضِي لَهُ بِالْحَقِّ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَظْلِمَ فَدُعِيَ إِلَى النَّبِيِّ أَعْرَضَ، وَقَالَ: انْطَلِقْ إِلَى فُلَانٍ، فَانْزِلِ اللَّهَ سَبْحَانَهُ: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿هَمَّ الظَّالِمُونَ﴾، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَيْءٌ فِدْعَاهُ إِلَى حُكْمٍ مِنْ حُكَمِ الْمُسْلِمِينَ فَلَمْ يُجِبْ فَهُوَ ظَالِمٌ لَا حَقَّ لَهُ».

قال ابن كثير: وهذا حديث غريب وهو مُرْسَلٌ.

أي: فهو ظالم إذ لم يُجِبْ الدعوة إلى حُكْمٍ يَقْضِي بَيْنَهُمَا مِنْ حُكَمِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَحْكُمُونَ بَكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، وَيَدُلُّ عَمَلُهُ هَذَا عَلَى أَنَّهُ يَخْشَى أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُمَا بِالْحَقِّ وَهُوَ لَا حَقَّ لَهُ، بَلِ الْحَقُّ لَخَصْمِهِ.

فَرَفُضَ التَّحَاكُمَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ أَمَارَةً ظَاهِرَةً عَلَى أَنَّ الرَّافِضَ لَا حَقَّ لَهُ، فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَتَحَاكَمَ إِلَى غَيْرِ حُكْمِ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، عَسَى أَنْ يَجِدَ فِي أَحْكَامِ النَّاسِ حُكْمًا بِالْبَاطِلِ يَنْفَعُهُ، وَهَذَا ظَاهِرٌ فِي مَعَامَلَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنَ النَّاسِ الْيَوْمَ، إِذَا رَأَى أَحَدُهُمْ أَنَّهُ هُوَ صَاحِبُ الْحَقِّ طَلَبَ التَّحَاكُمَ إِلَى الشَّرْعِ، لِأَنَّ الشَّرْعَ يُنْصَفُهُ، وَإِذَا رَأَى غَيْرَ ذَلِكَ طَلَبَ أَنْ يَحْكُمَ الْقَانُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَصْمِهِ، فِي الْمَحَاكِمِ الَّتِي تَحْكُمُ بِمَقْتَضَى الْقَوَانِينِ الْوَضْعِيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَهَذِهِ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ.

(٣) وَرَوَى ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:

«أَتَى قَوْمُ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَخْرُجَ مِنْ أَمْوَالِنَا لَخَرَجْنَا، فَانْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ...﴾ الْآيَةُ...».

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في هذه الآية قال: «ذلك في شأن الجهاد».

(٣)

المفردات اللغوية في النص

﴿وَأَطَعْنَا﴾.

أي: خَضَعْنَا وَاتَّبَعْنَا مُتَقَادِينَ بحسب ما يُطْلَبُ منا.

يقال لغة: أَطَاعَ رِبُّهُ إِطَاعَةً وَطَاعَةً إِذَا خَضَعَ لَهُ وَانْقَادَ، ويقال طَاعَ الْوَلَدُ أَبَاهُ طَاعَةً، وَطَاعَ لَهُ، أَي: لَأَنَ وَانْقَادَ لَهُ، وَيَأْتِي الْمَصْدَرُ أَيْضاً طَوْعاً وَطَوَاعِيَةً.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْ﴾.

أي: ثُمَّ يَذْهَبُ وَيَتَوَلَّى مَبْتَعِداً، فَالتَوَلَّى يَدُلُّ عَلَى الْإِدْبَارِ، وَيَدُلُّ عَلَى النَّأْيِ، وَقَدْ يَجْتَمِعُ الْإِدْبَارُ وَالنَّأْيُ، وَقَدْ يَكُونُ النَّأْيُ بَدُونِ إِدْبَارٍ.

﴿مُعْرِضُونَ﴾.

الإِعْرَاضُ مَتَزَلَّةٌ وَسَطِيٌّ بَيْنَ الْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ، وَأَصْلُ الْإِعْرَاضِ إِعْطَاءُ الْجَانِبِ. فَمُعْرِضُ الشَّيْءِ فِي اللُّغَةِ جَانِبُهُ، وَعَارِضُ الْإِنْسَانِ صَفْحَتَا خَدَيْهِ.

﴿مُدْعَيْنَ﴾.

أي: مُتَقَادِينَ، يَقَالُ لُغَةً: أَدْعَنَ فُلَانٌ، إِذَا انْقَادَ وَأَطَاعَ. وَيَقَالُ: ذَعَبَ يَذْعُنُ ذَعْنًا، إِذَا خَضَعَ وَذَلَّ. وَأَدْعَنَ بِالْحَقِّ، إِذَا أَقْرَبَهُ وَاعْتَرَفَ.

﴿أَمَّا رَأَوْنَا﴾.

أي: بَلْ أَخَذْتَ الْارْتِيَابَ - وَهُوَ الشُّكُ - لَدُنْهِمْ؟

﴿أَنْ يَحْيَفَ﴾.

أي: أَنْ يَجْهَرَ وَيُظْلِمَ، يَقَالُ لُغَةً: حَافَ عَلَيْهِ يَجْهِفُ خَيْفًا، أَي: جَارَ وَظَلَمَ. وَيَقَالُ: حَافَ الْأَبُ، إِذَا فَضَّلَ بَعْضَ أَوْلَادِهِ عَلَى بَعْضٍ فِي الْعَطَاءِ، فَهُوَ حَائِفٌ.

﴿جَهْدًا أَيْمَنَهُمْ﴾:

أي: غاية ما لديهم من إيمانٍ مؤكدة مشددة، جهْدُ الشيء في اللغة يأتي بمعنى نهايته وغايته، وبمعنى وسَّعه وطاقته، ويأتي الجَهْدُ بمعنى المُشَقَّة.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾:

أي: فإنَّ تَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَنَائِثِينَ.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ مَحْمَلٌ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾:

أي: فليس على الرسول إلَّا ما كُلِّفَ حَمْلُهُ من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، وليس عليكم إلَّا ما كُلِّفْتُمْ حَمْلُهُ.

﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾:

الْبَلَاغُ والتَّبْلِيغُ والإِبْلَاغُ، بمعنى إيصال الشيء إلى الموضع الذي هو له، فإبلاغ الأقوال أو المعاني يكون بإيصالها إلى من يُطَلَّبُ إيصالها إليه. والمعنى: وما على الرسول من واجب تجاه أمته في موضوع رسالته إلَّا أن يُبَلِّغَهُمْ ما كُلِّفَهُ الله تَبْلِيغُهُ بصورة مُبَيَّنَّة واضحة.

(٤)

مع النص في التحليل والتدبر

• قول الله عز وجل:

﴿وَيَقُولُونَ ءَأَمَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ فِرْقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧).

تكشِفُ هذه الآية حالَ فريقٍ من المسلمين الذين يُعْلِنُونَ قائلين بالاستسلام: آمَنَّا بالله وبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا، كما يَقُولُ سائر المسلمين، لكنَّ هذا القول يقتضي تحقيقَ مُقتَضاهُ بالعمل، ليكون دالًّا بِصِدْقِ على ما في القلب من إيمانٍ وعزمٍ على الطاعة.

ثمَّ ينقضِي زمنٌ متراخٍ على هذا القول، ويُمتَحَنُ هذا الفريقُ بالتكاليف التي

تُوجَّهُ عادةً لمن صَدَّقَ في إيمانه، وصدق في إعلانِه عزمه على الطاعة، كالجهاد بالأموال والأنفس، وكالدعوة إلى تطبيق حُكْمِ كتابِ الله وسُنَّةِ رَسُوْلِهِ في الْخُصُومَاتِ، لإقامة الحقِّ والْعَدْلِ، إذا بهذا الفريق يُكْشِفُ حَقِيقَةَ ما في باطنه، ويدل بعمله وسلوكه على أَنَّهُ قد كان في إعلانِه ما أعلنه بلسانه كاذباً، غَيْرَ صَادِقٍ.

دَلَّ على هذا قوله تعالى :

﴿ثُمَّ تَوَلَّى فِرْقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾.

فدلت كلمة ﴿ثُمَّ﴾ على الزمن المترامي الذي يَفْصِلُ بين القولِ الْمُعْلَنِ، والفعلِ المخالف له.

ودلت كلمة ﴿تَوَلَّى﴾ على أن هذا الفريق يُذْهِبُ عن التطبيق وينأى، ولا يكتفي بمجرد الإعراض، والتحايل بالمراوغة.

ودلت عبارة ﴿فِرْقٌ مِنْهُمْ﴾ على أن الإعلان يكون عادةً من قِبَلِ جمع من المسلمين، فيهم المؤمنون والمنافقون، ومن هم بين الفريقين، لكن الذين يتولَّون هم فريقٌ من المشاركين في إعلان القول، لا جميعهم.

ودلت عبارة ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ على شناعة التَّأْيِينِ بين قولهم السابق، وعملهم اللاحق، فالْمُشَارُ إليه بـ ﴿ذَلِكَ﴾ هو قولهم ضمنَ القائِلين :

﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾.

فليست عبارة ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ إطناباً، بل جيء بها لغرض، هو إبراز شناعة التباين بين القول والعمل.

ونلاحظ أن عبارة الإعلان لم يُكْتَفَ فيها بعطف ﴿الرسول﴾ على لفظ الجلالة دون إعادة حرف الجرّ [الباء] بل أعيد حرف الجرّ، وفي هذا إشارة إلى لزوم فصل عناصر الإيمان لدى إعلان الإسلام بما يجعل كلَّ عُضْوٍ مرتبطاً بكلمة الإيمان ارتباطاً مباشراً.

وأبان الله عزَّ وجلَّ أن الذين يكشفون بالتطبيق العملي أن أعمالهم مُبَايَنَةٌ مُبَايَنَةٌ كُلِّيَّةٌ لأقوالهم لَيْسُوا بمؤمنين، فقال تعالى :

﴿وَمَا أَوْلَيْتُكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ :

أي: وما أولئك البعده إلى جهة السفّل بالمؤمنين، وجاء في هذه العبارة تأكيد في إيمانهم بحرف الجر الزائد «الباء» سواء أَعْمَلْنَا «ما» على رأي البصريين إعمال ليس، تبعاً للغة الحجازين، أو لم نُعْمَلْهَا على رأي الكوفيين تبعاً للغة التميميين.

* قول الله عز وجل:

﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٥٩﴾ وَلَئِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٦٠﴾ أَفَى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَن يَحْكُمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أَوْلَيْتَهُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦١﴾﴾

في هذه الآيات كشف لحال فريق آخر من أصحاب الإعلان العام، هم أخفّ سوءاً من الفريق السابق.

الفريق السابق يتولّون مُذْبِرِينَ ونائبين، أمّا أفراد هذا الفريق فحالهم وسط بين الإقبال والإدبار، إنهم إذا كانت بين أحدهم وبين شخص آخر خصومة على حق، فإن كان الحق لخصمه ودعي إلى الرسول في عهد الرسول، أو إلى الحاكم المسلم الذي يحكم بكتاب الله وسنة رسوله في عهده أو من بعده، يكون مُعْرِضاً يُعْطِي عَارِضُهُ ويتظاهر بالتجاهل والتغافل، ويتحایل، دون أن يُعلن صراحة رفضه. وإن كان الحق له أتى مُتَفَادِئاً مُذْعِناً مظهرأ استسلامه لحكم كتاب الله وسنة رسوله، ومعلنأ غيرته على تطبيق شريعة الله.

ولم يَنْمَعْ الله هذا الفريق بعدَم الإيمان جزماً، بل طرح بالنسبة إليه ثلاثة احتمالات أوردتها على سبيل الاستفهام التقريري الذي يتضمّن معنى الإنكار عليهم ما هم فيه.

الاحتمال الأول: أن يكون في قلوبهم مَرَضٌ قَرِيبٌ من مرض النفاق، منذُ شَارَكُوا في إعلان الإيمان والطاعة، حتّى بَدَتْ منهم هذه الظاهرة، دلّ عليه:

﴿أَفَى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾

الاحتمال الثاني: أن يكونوا قد طرأ عليهم الشك بما كانوا قد آمنوا به سابقاً، وهو شك لم يصل إلى مستوى الكفر، وركوب مركب النفاق، حتى بذت منهم هذه الظاهرة، دل عليه:

﴿لَا يَرْتَابُوا﴾.

أي: بل ارتابوا؟، بمعنى: أطرأ عليهم الريب وهو الشك بعد أن كانوا مؤمنين حين شاركوا في إعلان الإيمان والطاعة؟.

الاحتمال الثالث:

﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ رَسُولَهُ﴾:

أي: بل أ هم يخافون أن يجور الله عليهم ورَسُولُهُ في الحكم، بمعنى: ابخافون أن تكون قواعد الحكم الشرعي في كتاب الله وسنة رَسُولِهِ قواعد لا تضمن إقامة الحق والعدل بين الخصوم، على تقدير أن الذين يفرض طاعة حكم الله ورَسُولِهِ تعبداً ولو كانت أحكاماً جائرة.

لكن هذا التصور مرفوض حتماً فحكم الله في كتابه، وحكم الرسول في سنته قائمان على الحق والعدل، والنصوص الإسلامية تأمر بهما دوماً بدءاً من الرسول، فكل حكم المسلمين وقضاتهم، وهذا أمر اتفقت عليه الأديان الربانية كلها، ومما أنزل في هذا قول الله عز وجل لداود كما جاء في سورة (ص / ٣٨ مصحف / ٣٨ نزل):

﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾.

بعد طرح هذه الاحتمالات التي ينحصر إغراض هذا الفريق عن حكم الله ورَسُولِهِ بأن يكون سبباً واحداً منها، وصفتهم الله عز وجل بأنهم هم الظالمون في هذا المجال بغد أولئك الكفرة المنافقين، فقال تعالى:

﴿بَلْ أَوْلَتْكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿بل﴾: للإغراب الانتقالي.

﴿أولئك﴾: إشارة إلى هذا الفريق باسم الإشارة الموضوع للبعيد، للدلالة على بُعْدِهِمْ عن صراط الله، وُبُعْدِهِمْ عن الالتزام بتطبيق مقتضى ما أعلنوا من إيمان وطاعة.

﴿هم﴾: ضمير فصل لتأكيد الحصر.

﴿الظالمون﴾: أي: الأخذون من صفات الظلم بمخالفة مقتضيات الإيمان والطاعة ما يجعلهم مُتَمَيِّزِينَ، كأنهم وحدهم هم الظالمون، والقَصْرُ هنا من قبيل القصر الإضافي، أي: هُمْ وَحْدَهُمْ أَشَدُّ الظالمين من جماعة المسلمين، بالإضافة إلى سائر الظالمين في موضوع الحكم بما أنزل الله في قضايا الحقوق بين الناس، إن لم يكونوا قد وصلوا إلى دركة الكفر وركوب مَرَكَبِ التَّفَاقُ حَقًّا، فإن وصلوا إلى هذه الدَّرَكَة فهم مع أفراد الفريق الأول، وهذا أمرٌ يفهمُ ذهنًا.

* قول الله عز وجل:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يَطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهََ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

في مقابل ما يفعل الفريق الأول الذين ليسوا بمؤمنين، إذ يُذَبِّرُونَ وينأون عن تطبيق مقتضيات إعلان الإيمان والطاعة، وما يَفْعَلُ الفريق الثاني الظالمون الذين يَتَرَدَّدُ حالهم بين أن يكونوا مرضى القلوب ابتداءً، أو طرأ عليهم الريب، أو يخافون أن يجور الله عليهم ورسوله في الحكم، يُبَيِّنُ الله عز وجل في هاتين الآيتين موقف المؤمنين الصادقين في إيمانهم وفي إعلانهم الطاعة لله ورسوله، إذا دُعُوا إلى الله ورسوله لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ، أي: إذا دُعُوا للحكم في خصوماتهم بكتاب الله وسنة رسوله.

إن موقف المؤمنين الصادقين مُنَحْصَرٌ في أَنْ يَقُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، أي: سَمِعْنَا القول، فَلَمْ تَكُنْ قُلُوبُنَا وأفكارنا شاردة عنه غَيْرَ واعيةٍ لمضمونه، وَأَطَعْنَا ما تَضَمَّنَهُ من أوامر ونواهي وتكاليف، فنحن نستجيب لتحكيم كتاب الله وسنة رسوله، ونَقْبَلُ بما

يَصُدُّهُم مِّنْ حُكْمٍ وَلَوْ كَانَ عَلَيْنَا، وَضَدَّ هَوَانَا، لَأَنَّا نُؤْمِنُ أَنَّ الْحُكْمَ بَكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ يَضْمَنُ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ، وَلَا يَجُورُ عَلَيْهِمْ.

وصارت عبارة: «سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا» في الاستعمال الديني دالَّةٌ على الاستجابة التطبيقية العملية للتكاليف الشرعية، وليست دالَّةٌ على مجرد القول، لأنَّ إِتِّبَاعَ الدَّعْوَةِ إلى ممارسة العمل المطلوب بعبارة «سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا» يقتضي في العرف المتَّبَعِ مباشرة التنفيذ، أو البدء باتِّخَاذِ الأسباب اللازمة له، دون تسويف ولا مراوغة.

وَوَعَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ فِي إِعْلَانِهِمُ الْإِيمَانَ وَالطَّاعَةَ بِالْفَلَاحِ، وَهُوَ الظَّفَرُ بِالسَّعَادَةِ الْخَالِدَةِ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ يَوْمَ الدِّينِ، فَقَالَ تَعَالَى بِشَأْنِهِمْ:

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾

يقال لغة: فَلَاحٌ، وَأَفْلَحَ، أَي: ظَفَرَ بما يريد، وفاز بنعيم الآخرة.

وبعد بيان حال المؤمنين الصادقين في هذه الجزئية من جزئيات السلوك الديني، أَتْبَعَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بيان شامل في قضية كُلِّيَّةٍ تُعْمُ كُلَّ جزئيات السلوك الديني في كُلِّ المجالات فقال تعالى:

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾

[مَنْ]: اسم شرط جازم يشمل عموم العقلاء المكلفين.

فالآية تشتمل على قضية كُلِّيَّةٍ شرطية متصلة موجبة، وهي تتألف كما هو معلوم من شرطٍ وَجْزَاءٍ.

أما الشرط فيها فقد جمع ثلاثة عناصر:

العنصر الأول: طاعةُ الله ورسوله، وهو عنصرٌ سلوكي في المؤمن، دل عليه قوله تعالى:

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾

العنصر الثاني: خشيةُ الله عَزَّ وَجَلَّ، وهو عنصر قلبي ونفسي، يَتَذَقُّ ذَوَاماً من منابع الإيمان، وليسَبَ الخشيةُ من الله مجردَ خوف ورهبة، بل هي خوفٌ مصحوبٌ

بإجلال وتعظيم وحب، وقد دلّ على هذا العنصر قوله تعالى :

﴿وَيَخَشَى اللَّهَ﴾ .

العنصر الثالث: تقوى الله، وهو العنصر الوسيط بين الخشية القلبية النفسية، وبين سلوك الطاعة، فالتقوى هي التحرك لاتخاذ الوقاية من العقاب، وقد دلّ على هذا العنصر قوله تعالى :

﴿وَيَتَّقِهِ﴾ .

الخشية: انفعال داخلي يُحدثه صدق الإيمان، وعن الخشية تتحرك الإرادة لاتخاذ الوقاية من عقاب الله، وأثر التقوى في السلوك يكون بطاعة الله ورسوله .

فالنص أبان أولاً الأثر الظاهر، ويعدّه أبان الباعث من الداخل، وأخيراً أبان الواسطة بينهما، وفي هذا إتيان في الترتيب عجيب، وقد جمعت هذه العناصر الثلاث كلّ ما يلزم للشرط بعد صدق الإيمان الذي جاء بيانه في الآية السابقة .

وأما الجزء لمن تحقق فيهم هذا الشرط فقد جاء في قوله تعالى :

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ :

أي: فأولئك هم الذين انحصر فيهم كمال الفوز يوم الدين، الفوز: هو الظفر، والنجاة من الشر، والربح العظيم .

* * *

* قول الله عز وجل:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُفْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ الْمُبِيتِ﴾ ﴿٥٤﴾ .

في هاتين الآيتين كشفت لظاهرة ثالثة من ظواهر نفاق المنافقين، مع التوجيه الرباني لمعالجتها بما تستدعي من تربية حكيمة هنا، إضافة إلى ما جاء من وسائل تربوية فيما سبق من نصوص مُنزلة في نجوم التنزيل .

هذه الظاهرة تبدو من المنافقين (ويكفي أن تظهر من بعضهم أحياناً) هي أن يتظاهروا بإعلان حماساتهم الشديدة لطاعة الرسول حتى في مجال بذل أموالهم وأنفسهم جهاداً في سبيل الله، إن وجه الرسول ﷺ لهم الأمر بذلك.

إن من المجرب في سلوك الناس أن من بالغ في أقواله الحماسية حالة الرخاء، قبل وقت الامتحان الفعلي، كان أكثر الناس تخاذلاً، ومعصية، وتولياً لدى الدعوة إلى تطبيق ما كان يبالغ في التحمس له، وكان أكثرهم فراراً عند الشدة، والمطالبة بالتنفيذ العملي لبذل النفس أو المال.

والسبب في ذلك أنه في حالة الرخاء يريد أن يكون ذا مكانة متفوقة بين الجماعة، بما يتظاهر بالحماسة له، انسجاماً مع مقتضيات التفاق، أما عند التطبيق العملي فإنه لا بد أن ينسجم مع ما يؤمن به، وما يؤمن به مخالف لما يتظاهر به، بل هو على النقيض منه تماماً.

وقد عرض الله عز وجل هذه الظاهرة على سبيل الحكاية لأمر كان من بعضهم، فقال تعالى خطاباً لرسوله :

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ﴾

لم يكتفوا بأن يعدوا الرسول بالطاعة إن أمرهم أن يخرجوا للقتال، أو يخرجوا من أموالهم، بل قدموا هذا الوعد موثقاً بأبلغ الأيمان وأشدّها، فأقسموا بالله من مستوى غاية ما لديهم من الفاظ قسبيّة يقسمون بها، والمقسم عليه قولهم للرسول: لئن أمرتنا بأن نخرج للقتال، أو بأن نخرج من أموالنا وأهلينا لنخرجن.

القسم المشدد، واللام المؤكدة، ونون التوكيد الثقيلة، كل هذه المؤكدات وثقوا بها وعُدّهم، لكنهم عند التطبيق لا يفعلون شيئاً، وتذهب وعودهم مع أقوالهم الذاهبات لا أثر لها في واقعهم العملي، كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف.

جهّد أيمانهم: صفة لمفعول مطلق محذوف، أي: وأقسموا بالله قسماً جهّد أيمانهم، أي: موصوفاً بأنه غاية أيمانهم.

وعقب بيان هذه الظاهرة من صفات المنافقين، علّم الله رسوله فكل قائد

للمسلمين من بعده، أن يقول لمن يُقسمون مثل هذا القسم أربع جمل مُسَكَّنة، وكاشفة، ومحدّرة، وهادية، فقال تعالى:

﴿قُلْ لَا تَقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ^{١٣٣} قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴿١٣٤﴾.

أربع جمل جُمعت ما يحتاجه الموقف من توجيه وتربية:

الجملة الأولى:

﴿لَا تَقْسِمُوا﴾:

أي: لا تظاهر ساعة الأمن والرخاء بإعلان حماسكم الشديدة في الالتزام بطاعتكم للرّسول حتى في أشدّ أوامره على نفوسكم، وهو الأمر بأن تخرجوا من أموالكم أو تخرجوا للقتال بأذلين نفوسكم، فهذا التظاهر لا يرفع منزلتكم عند الرسول، وليس له أثر نافع لكم عند الله، لأنّ أمركم سينكشف قريباً حينما تُدْعَوْنَ فعلاً للخروج عن بعض أموالكم، أو الخروج مقاتلين في سبيل الله.

ومعلوم في طبائع الناس أنّ الصادق الذي يُريد أن يفعل حقاً، يدّخر خماسته لساعة العمل التّجدي، ولا يُطْلِقُها صوتاً يصرّخ في الفضاء، في ساعات الأمن والرخاء، وتقديم الوعود بالأقوال التي ليس وراءها تنفيذ مباشر.

الجملة الثانية:

﴿طَاعَةً مَعْرُوفَةً﴾.

هذه الجملة تعطي عدّة دلالات صالحة في هذا المقام لأنّ تُقصد:

الأولى: المطلوب منكم طاعةً عمليةً فعليةً دائماً عند الأوامر والنواهي، وأن تكون هذه الطاعة معروفةً ظاهرةً بالتطبيق، لا أن تكون مزعومةً مُدعاةً ادّعاء غير مشهود الأثر، كالذي يغيب عن الأنظار ويقولُ فعلتُ وفعلتُ.

إذا دُعيتُم لبذل المال فابدلوا، وعندئذ يكون بذلك طاعةً معروفةً بأنها طاعةٌ للأمر.

وإذا دُعِيتُمْ للخروج مجاهدين في سبيل الله فاخرجوا، وقاتلوا في سبيل الله مع المؤمنين، وعندئذ يكون خروجكم طاعةً معروفةً بأنها طاعةٌ للأمر. وهكذا إلى سائر الأوامر والنواهي.

الثانية: طاعةٌ يَعْلَمُونَ بها قبل أوانها معروفةٌ لنا بأنها طاعةٌ كاذبة، فلا تَتَّبِعُوا أنفسكم في التظاهر بالوعد بها، وفي تقديم القسم المشدّد على جِزْصِكُمْ على الالتزام بها، وأنتم كاذبون.

إنّ هذا الكذب لا يجعلكم في نظرنا محلّ ثقة، ولا يُقَرِّبُكُمْ من قلوبنا ونفوسنا، حتّى تَتَّخِذَ منكم بطانةٌ تُشَارُ في الأمور المهمة من أمور المسلمين العامة، إنَّكُمْ مَكْشُوفُونَ مَعْرُوفُونَ بصفاتكم.

الثالثة: طاعةٌ عمليّةٌ معروفةٌ ظاهرةٌ عند التطبيق خيرٌ لكم وأولىٌ لاكتساب الثقة بكم، واغتنام مرضاة ربكم وثوابه، من الوعود بالطاعة الموثّقة بالآيمان المغلظة، وهذه الوعود إذا لم تفوا بها جرّت عليكم وبالاً، وجَلَبَتْ لكم نكالاً.

الجملة الثالثة:

﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ لِّمَنْ تَعْمَلُونَ﴾:

أي: إنّ الله يُتَابِعُكم بعلمه، المستند إلى خبرته بأعمالكم التي تُصَدِّرُ عنكم من أعمالٍ باطنة، وأعمالٍ ظاهرة، إيجابيةٌ أو سلبية، فلا تخفَى عليه من أعمالكم التي تعملونها خافية.

ومن أعمالكم الباطنة عزمُكُمْ في قلوبكم على عدم الوفاء بوعدكم، حالة كونكم تقدّمونها بحماسة ظاهرة، وتُؤَقِّقونها بالآيمان المغلظة، من مستوى جهْدِ الآيمان.

ومن أعمالكم ما تكيدونه سرّاً ضدّ الإسلام والمسلمين، وما تتركون من فُرُوضٍ وواجبات دينية حينما تشعرون بأنَّكُمْ غيرُ مراقبين من المسلمين، وما ترتكبون من محرمات ومحظورات في السرّ، إلى غير ذلك من كلّ عملٍ يُصَدِّرُ عنكم.

فلا تحسبوا أنّ مخادعتكم بأقوالكم مخادعةٌ غيرُ مُتَابَعَةٍ بالمراقبة والعلم القائم على الخبرة بما جرى ويَجْرِي منكم.

وبما أنّ الله خيرٌ بما تعملون فإنّه سيُحِبُّ أعمالكم التي تعملونها ضدّ دينه

ورسوله والمؤمنين حقاً، وَسَيُجَازِيكُمْ عَلَى كُفْرِكُمْ وَنِفَاقِكُمْ بِمَا أَنْتُمْ لَهُ أَهْلٌ، من جزاء بالعدل، عقاباً لكم على كُفْرِكُمْ وَنِفَاقِكُمْ وَمَعَاصِيكُمْ.

الجملة الرابعة:

﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾.

هذه الجملة تكشف أنهم كاذبون في ادعاء الطاعة حالاً، والعزم عليها مستقبلاً، بسبب أنهم منافقون.

فمن النصح لهم أن يُجَدِّدَ لَهُمْ تَوْجِيهَ التَّكْلِيفِ بِأَن يَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، ليخرجوا من واقع العصيان الذي هم عليه، إلى مواقع الإيمان الصادق، والتزام صراط الله المستقيم.

بعد هذا خاطبهم الله بقوله:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَمَا عَلَيَّ مَا مَحِلٌّ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥١﴾﴾.

﴿تَوَلَّوْا﴾: أضلها تتولوا.

أي: فَإِن تَوَلَّوْا مُذْبِرِينَ نَائِينَ عَنِ طَاعَةِ الرَّسُولِ، غَيْرَ مُنْقَذِينَ مَا يَجِبُ عَلَيْكُمْ تُجَاهَهُ، فَإِنَّكُمْ لَا تَضُرُّونَهُ أَمَامَ رَبِّهِ بِشَيْءٍ، بَلْ تَضُرُّونَ أَنْفُسَكُمْ، لأنكم بعدم طاعتكم له تُضِلُّونَ، خارجين عن صراط الله المستقيم، فَتَعْرِضُونَ أَنْفُسَكُمْ لِعَقُوبَةِ رَبِّكُمْ بِضَلَالِكُمْ.

- ﴿فَإِنَّمَا عَلَيَّ مَا مَحِلٌّ﴾:

أي: فَمَا عَلَى الرَّسُولِ مِنْ مَسْئُولِيَّةِ تَجَاهِ رَبِّهِ إِلَّا مَا كُتِّفَ حِمْلُهُ، وَالْعَمَلُ بِهِ، وَتَنْفِيذُهُ بِنَفْسِهِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ ظَاهِرٍ أَوْ بَاطِنٍ، وَلَيْسَ هُوَ مُلْزَمٌ بِأَن يُطِيعُوهُ، حَتَّى إِذَا لَمْ تَفْعَلُوا كَانَ مُوَآخَذَةً عَلَى ذَلِكَ عِنْدَ رَبِّهِ.

- ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾:

أي: وَمَا عَلَيْكُمْ مِنْ مَسْئُولِيَّةِ تَجَاهِ رَبِّكُمْ إِلَّا مَا كُتِّفْتُمْ حِمْلُهُ، وَالْعَمَلُ بِهِ، وَتَنْفِيذُهُ

بأنفسكم من قول أو فعل ظاهر أو باطن، ومن ذلك أن تطيعوا رسول ربكم فيما يأمركم به وفيما ينهاكم عنه، فإن عصيتم وتوليتُم فأنتم الذين تحملون أوزاركم بأنفسكم، ثم تحاسبون وتعاقبون عليها عند ربكم.

واستفيد الحصر في هذه الجملة من كونها معطوفة وتابعة في الحصر للجملة السابقة لها: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾.

— ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾:

أي: وإن تطيعوا رسول ربكم تهتدوا إلى ما فيه سعادتكم وفلاحكم وفوزكم في الدنيا وفي الآخرة.

ودلّ جواب الشرط في هذه الجملة [تهتدوا] على أن مُقَابِلَهُ في الجملة الأولى مطوًى، والتقدير فإن تتولوا عاصين له تضلوا، وإن تطيعوه تهتدوا. ويُقدَّرُ هنا مُقَابِلُ ما صُرح به في الجملة الأولى، أي: وإنما لهُ ما فعل من خير، ولكم ما فعلتم من خير.

— ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾:

أي: ليس على الرسول من تكاليف يُسأل عنها عند ربّه بالنسبة إلى قومه في شأن الرّسالة التي حُمِّلها، إلّا أن يُوصل إلى قومه ما أمره ربّه بأن يُوصله إليهم، وإن يكون ذلك بطريقة واضحة بيّنة صريحة لا غموض فيها، وهذا التوصيل الواضح البين الصريح، هو البلاغ المبين.

ويُنهَمُ من هذا أنّ الرسول ليس مسؤولاً عن تحويل قومه من الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، وليس مطالباً بأن يُكره الناس على سلوك الصراط المستقيم إذا أبوا ورفضوا سلوكه، ولم يستجيبوا لدعوة رسول ربهم، إذ خُطّة الامتحان الرباني قائمة على اختبار الناس في أن يؤمنوا ويسلكوا صراط الله المستقيم، عن طريق إراداتهم الحرة، لا بالإلزام والإجبار.

أقول هنا: إنّ على الدعاة إلى الله والأميرين بالمعروف والناهين عن المنكر أن يضعوا هذا المعنى نصب أعينهم دوماً، حتى لا تضيق صدورهم إذا لم يستجب لهم الناس.

النص الخامس والعشرون

من سورة (النور / ٢٤ مصحف / ١٠٢ نزول) أيضاً

«السورة (١٦) من التنزيل المدني»

الآيات من (٦٢ - ٦٤)

حول تسلل المنافقين من المجامع العامة
بدون إذن وسوء أدبهم في خطاب الرسول

• قول الله عز وجل:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَم يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرُ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُم لِيَؤَادُّوا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾ ۞

(١)

ما في هذا النص من القراءات المتواترة (من الفرش)

• في الآية (٦٤) منه:

(١) قرأ جمهور القراء [وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ] بالبناء للمفعول.

وقرأ يعقوب [وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ] بالبناء للفاعل.

فبين القراءتين تكامل في الأداء البياني، وذلك لأن الله يُرْجِعُهُمْ إليه يوم الدين للحساب وفصل القضاء والجزاء، فَيُطَاوَعُونَ بالجبر فيُرْجَعُونَ.

* * *

(٢)

موضوع النص وسبب نزوله

موضوع النص:

يشتمل هذا النص على كشف ظاهرتين من صفات المنافقين:

الظاهرة الأولى: أنهم إذا حضروا المجمع العامة ذات الأهمية العظيمة للإسلام والمسلمين، ضاقت صدورهم، وثقل عليهم أن يتصنعوا الصبر على ما يجري فيها بما لا يؤمنون به ولا بجذواه، وصعب عليهم أن يخسوا أنفسهم مع المؤمنين طوال مدة الاجتماع، ولا سيما إذا كانت فيه واجبات عملية يُضطرون أن يشاركوا فيها، وهم لا يريدون أن يكشفوا أنفسهم عن طريق الاستئذان بالانصراف، لقضاء بعض شؤونهم، لأن مدة الغياب ستكون محسوبة عليهم، ولأن كثرة تهربهم من مشاركة المسلمين في أمرهم قد تكشف نفاقهم.

لذلك فهم يتسللون مستخفين خروجا، وغيابا، وعودة إن رجعوا، دون استئذان من الرسول، أو من قائد المسلمين في المجمع العام.

فأبان الله عز وجل أن المؤمنين الصادقين إذا كانوا مع الرسول (أو مع قائده منهم قياساً) على أمر جامع لا يذهبون لبعض شأنهم حتى يستأذنه، ولا يفعلون ذلك إلا مضطرين، أو عند الحاجة الشديدة.

والمع إلى أن الذين يذهبون متسللين دون استئذان هم من أهل النفاق، فنهاهم وحذّروهم من العقاب.

الظاهرة الثانية: سوء أدب المنافقين لدى مخاطبتهم للرسول، بسبب أنهم

لا يؤمنون به نبياً رسولاً، فهم لا يُكْتَبُونَ له الحَبُّ والاحترام والتوقير والتعظيم، فهم بالتلقائية العادية التي لا يتصنعون فيها يُخاطَبُونَهُ وَيَدْعُونَهُ كما يُخاطَبُ بعض الناس بعضاً، وكَمَا يَدْعُو بعضُ الناس بعضاً.

بخلاف المؤمن الصادق الإيمان الذي يُكُنُّ في صدره للرَّسُولِ الحَبُّ والاحترام والإجلال، فإنه بالتلقائية العادية لا يستطيع إلا أن يَدْعُو الرسولَ وَيُخاطَبَهُ بِأَسْلُوبٍ مُشْبِعٍ بِالْحَبِّ والتعظيم والاحترام والتوقير والإجلال.

وكذلك الحال بالنسبة إلى القائد من قادة المسلمين قياساً فالمؤمن يحترم قائده المسلم بدافع إيماني، فيخاطبُهُ بما يليق به، وغير المؤمن لا يكثر له، فيستهين به، وَيُخاطَبُهُ كما يخاطب غيرهِ من الناس الذين ليس لهم مكانة ولا سلطان.

فنهى الله عزَّ وجلَّ عن خطاب الرَّسُولِ بمثل خطاب الناس بعضهم لبعض، وجعل هذا النهي ضِمْنَ الكلام عن الظاهرة الأولى التي تكون في المجامع العامة، للإشعار بأهمية مراعاة الأدب مع الرسول أو مع قائد المسلمين في الدُّعَاء والخطاب في المجامع العامة، التي ينبغي أن تُراعَى فيها آدابُ احترام أفراد الجمهور لقائدهم، محافظةً على مقتضيات الطاعة والانقياد والضبط والنظام، بخلاف حالات المباسطات العامة واللقاءات العادية، التي لا يكون فيها الاتِّبَاعُ على أمرٍ جامع ذي أهمية للإسلام والمسلمين، كاجتماعٍ لأُمُور الدفاع، أو الإعداد لقتال العدو، أو الدعوة لبذل الأموال، أو المشورة في أمر عام، وكالمجامع الدينية العامة لصلاة الجمعة وصلاة العيدين، ونحو ذلك.

وتُعَرَفُ هذه الاجتماعات في لغة عصرنا بأنها اجتماعات رسمية.

سبب النزول:

(١) أورد ابن إسحاق أَنَّ الرسول ﷺ لَمَّا بلغه خبر ما أجمعت عليه قريش ومعهما الأحزاب من قبائل العرب من أمر قتال الرسول والمسلمين في المدينة، أمر بحفر الخندق لمنع جيش المشركين من اقتحامها.

وعمل الرسول في حفر الخندق ترغيباً للمسلمين في الأجر، وعمل معه المسلمون فيه، فدأب فيه ودأبوا.

وجعل يتباطأ رجالاً من المنافقين في العمل، ويُؤزرون بالضعيف من الأعمال تظاهراً حتى لا ينكشف نفاقهم، وكانوا يتسللون إلى أهلهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن.

أما الرجلُ من المؤمنين الصادقين فكان إذا انتابته النائية من الحاجة التي لا بدَّ له منها، يذكر ذلك لرسول الله ﷺ، ويستأذنه في اللّحوق بحاجته، فيأذن له، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من علمه، رغبةً في الخير، واحتساباً له.

فأنزل الله تعالى الآيات من سورة (النور):

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ ... ﴾

[الآيات: ٦٢، ٦٣، ٦٤].

وأخرج نحو هذا ابن المنذر والبيهقي في دلائل النبوة.

(٢) وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير في الآيات قال: هي في الجهاد والجمعة والعيدين.

(٣) وأخرج أبو داود في مراسيله عن مقاتل، قال: كان لا يخرج أحد لرعايف أو أحداث حتى يستأذن النبي ﷺ يشير إليه بأصبعه التي تلي الإبهام، فيأذن له النبي يشير إليه بيده، وكان من المنافقين من يثقل عليه الخطبة والجلوس في المسجد، فكان إذا استأذن رجلٌ من المسلمين قام المنافق إلى جنبه يستتر به حتى يخرج، فأنزل الله:

﴿ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذٍ ﴾.

(٣)

المفردات اللغوية في النص

﴿ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾: أي: على أمرٍ ما من أمور العلم أو العبادة أو أمور المسلمين العامة من قضايا السلم أو الحرب، وهذا الأمر من شأنه أن يكون جامعاً للمسلمين.

﴿ يَسْتَنْذِرُونَكَ ﴾:

أي: يطلبون أن تأذن لهم، الإذن: إباحة القيام بما هو ممنوع منه.

﴿يَتَسَلَّلُونَ﴾:

أي: يذهبون في خُفْيَةٍ، دون أن يُحْدِثُوا جَلْبَةً أو صوتاً يدلُّ عليهم، أو حركة ظاهرة تُلْفِت الأنظار، يقال: تسَلَّل في الظلام، وتسَلَّل من الزحام، بمعنى أنسل في خُفْيَةٍ، كما تسَلُّ الشجرة من المعجين.

﴿لِوَاذًا﴾:

مصدر «لَاوَذَ» بمعنى استتر، وحاد، وراوغ. فالذين يَسَلَّلُونَ لِوَاذًا، هم الذين يذهبون في خُفْيَةٍ، مستترين بشيء يسترُهُمْ عن نظر الرسول، أو رئيس الاجتماع الذي هم فيه، حائدين، مراوغين، حتَّى لا يُخَايِبَهُمْ على انصرافهم عن الاجتماع بغير إذنه.

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾:

أي: فليَحْذَرِ الَّذِينَ يَعْصُونَ مُعْرِضِينَ عن أمر الرسول، أو مُذْبِرِينَ أو صَادِينَ.

يقال لغة: خالَفَهُ: إذا عصاه، فالتعديّة بحرف الجرّ «عن» على تضمين فعل «خالف» معنى فَعَلَ: «أعرض، أو أدبر، أو صدّه».

﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

تُطْلَقُ الفِتْنَةُ على التعذيب بالنار، وعلى ذهاب المال والعقل بمصيبة، وعلى إزالة الإنسان عما كان عليه من أمر محمود العاقبة إلى أمر مكروه العاقبة، وعلى بلبلّة الأفكار واضطرابها وتعارضها في المجتمع، إضافة إلى أصل معناها وهو الاختبار بما هو شاقٌّ على النفس.

ونظراً إلى مقابلة الفِتْنَةِ هُنَا بالعذاب الأليم، ينبغي أن نستبعد من معاني الفِتْنَةِ هنا معنى التعذيب والاختبار، فتكون بمعنى التحويل إلى ما يكرهون، جزاء مخالفتهم وتحويلهم عن مقتضيات الطاعة، وبمعنى وقوع الخلاف والبلبلّة بين مجتمعهم الخاص الذي يجتمع أفرادُه على النفاق، جزاء ما يكون منهم من خلخلة صفوف المسلمين،

وأحداث الخلاف داخل مجتمعهم القائم على وحدة القيادة والغاية والدين، ومعنى إصابة أفرادهم المخالفين بمصائب إفرادية نذهب بها أموالهم، أو تطيش بها أحلامهم، وكلّ هذه العقوبات مطروحة في الاحتمال والله يختار منها ما يشاء، لمن يشاء، على ما يشاء.

﴿قَدْ يَعْلَمُ﴾:

«قَدْ» من معانيها التحقيق، وهي بهذا المعنى تدخل على الفعل الماضي والفعل المضارع، فنقول: «قَدْ عَلِمَ» بمعنى نحقق علمه فيما مضى. و «قَدْ يَعْلَمُ» بمعنى يَتَحَقَّقُ علمه في الحال والمستقبل.

(1)

مع النص في التدبير

• قول الله عز وجل:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَم يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا إِنْ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَنْزَلْنَا مِنْ شَيْءٍ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿١٦﴾

تمهيداً لكشف سلوك المنافقين في المجامع الإسلامية العامة، بقيادة الرسول، ثُمَّ بقيادة أي قائد من قادة المسلمين من بعده، وهي المجامع التي تُعقد للتعليم والتوجيه، أو لإقامة العبادات الجماعية كصلاة الجمعة، وصلاة العيدين، وخطبتيهما، أو للمشاركة، أو للعمل في مصالح المسلمين العامة، سواء أكانت للسلم أو للحرب.

يُبَيِّنُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ النَّمُودَجَ الْكَامِلَ لِسُلُوكِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ الْعَامِلِينَ بِمَقْضَى إِيْمَانِهِمْ، الْمُنْتَزِمِينَ بِأَحْكَامِ الْإِسْلَامِ وَأَدَابِهِ، وَنِظَامِهِ، وَالْمَهْمَنِينَ بِمَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ الْعَامَّةِ.

فَيُبَيِّنُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى سَبِيلِ الْحَصْرِ بَعْبَارَةً وَأَنَّمَا أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا فِي مِثْلِ هَذِهِ
الْمَجَامِعِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَامَّةِ هُمْ:

أولاً: الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وهذه هي القاعدة الإيمانية الأساسية في الدين، فلا بد من ملاحظتها دوماً، بوصفها أول الشروط.

ثانياً: وإذا كانوا مع الرسول بوصفه قائد المسلمين، أو مع قائد من قادة المسلمين من أولي الأمر منهم، مجتمعين على أمرٍ جامع، أي: له صفة الأمر الذي يجمع المسلمين، لِمَا لَهُ من أهمية للإسلام أو للمسلمين، لم يذهبوا من الاجتماع بأنفسهم، مُتَخَلِّين عن مسؤولياتهم، ومُجَلِّين فيه بواجب الحضور والمشاركة، وبواجب الالتزام بالنظام الجماعي، لكن إذا عرضت لأحدهم ضرورة، أو حاجة شديدة، استأذن الرسول في أن يفارق الاجتماع لقضاء شأنه، أو يستأذن قائد الاجتماع ورئيسه.

وينظر الرسول أو قائد الاجتماع في طبيعة شأن المستأذن، فيأذن له إن شاء، وذلك إذا رأى الشأن يستدعي انصرافه من الاجتماع، لأجل أو لغير أجل. وقد لا يأذن له إن شاء، وذلك إذا رأى الشأن لا يستدعي انصرافه من الاجتماع، فالمشيئة ليست تصرفاً بالهوى، بل هي تصرف رشيد مستند إلى تقدير المصلحة الخاصة والعامة.

وهذه هي القاعدة النظامية التي يجب التزامها في المجامع العامة الإسلامية، فالْمُؤْمِنُونَ الصادقون في إيمانهم يلتزمون بها، ولا يُخْلُونَ بواجباتها.

ولبيان وجوب الالتزام بهذه القاعدة النظامية أبان الله عز وجل أن الالتزام بها من صفات الذين يؤمنون بالله ورسوله مرتين:

الأولى: بقوله تعالى في صدر الآية بأسلوب الحصر في وصف المؤمنين:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَم يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾.

أي: ما المؤمنون الصادقون العاملون بمقتضى إيمانهم إلا الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه مجتمعين على أمرٍ مُهمٍّ من أمور المسلمين جامع لهم، لم يذهبوا حتى يستأذنوه، فإن أذن لهم ذهبوا، وإن لم يأذن لهم أطاعوا ولم يذهبوا.

الثانية: بقوله تعالى في وصف المستأذنين الذين لا ينصرفون من المجامع العامة للمسلمين وهي قائمة إلا بإذن من قائدها أو رئيسها، خطاباً لرسوله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَفِيزُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

فأبان بهذا قضيتين:

القضية الأولى: أنَّ الاستئذان في مثل هذه المجامع العامة هو من مقتضيات الإيمان، فمن كان صادق الإيمان التزم به، طاعة لله ورسوله، ومن أبدى التزامه به أشعر بأنه صادق الإيمان حسن الطاعة.

القضية الثانية: الإلماح إلى أنَّ الذين لا يستأذنون، بل يتسللون مُستخفين قد يُشعِرُ عملهم بأنهم من أهل النفاق، لا مُجرَّد عصاة لما يجب عليهم في الدين، وذلك لأهمية المجامع العامة في المجتمع الإسلامي لعموم المسلمين، والإخلال بها بعد انعقادها أمرٌ يسمح بتوجيه الشكوك حول أصل الولاء للأمة الإسلامية، وهنا تتجه الظنون للاتهام بالنفاق.

ونظراً إلى احتمال أنَّ يكون بعض المستأذنين ليسوا أصحاب عُذرٍ حقيقي يفتضي الإذن لهم بمغادرة الاجتماع، قال الله لرسوله:

﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٠):

أي: واطلب من الله أنَّ يغفرَ لهم، لاحتمال أن يكون استئذانهم لا يستحق الإذن، وقد رأيت أن تأذن لهم.

وجاء الإلماح إلى أن الله سيغفر لهم، ببيان صفتين عظيمتين من صفاته، بجملة خبرية استثنائية مؤكدة ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿غفور﴾: صيغة مبالغة لغافر، أي: كثير الستر لذنوب عباده، وعظيمة.

﴿رحيم﴾: صيغة مبالغة لراحم، أي: واسع الرحمة وجليلها وعظيمها.

* قول الله عز وجل:

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً...﴾.

عقب بيان سلوك المؤمنين الصادقين في إيمانهم، الملتزمين بمقتضاه في المجالس الإسلامية العامة.

نهى الله عز وجل عن مخاطبة الرسول ومناداته كما يخاطب الناس بعضهم بعضاً، بأسمائهم دون تكريم، أو بصياح يدل على عدم التوقير والاحترام.

ونفهم من جعل الله هذا النهي بين أمرين مترابطين يتعلقان بأداب المجامع العامة، ونظام مغادرتها بالإذن، ومخالفة هذا النظام بالانصراف عنها تسلاً، ضرورة مراعاة أدب الخطاب بالاحترام والتوقير للرسول في المجالس العامة، محافظة على هيبة القائد، التي بها يكون الأفراد المجتمعون مُصْغِينَ مُتَبَتِّين، مشاركين بحواسهم وقلوبهم، لا يسمحون للفوضى أن تسلل إلى اجتماعهم.

فَيَخَاطَبُ الرَّسُولُ بَلَقِبِهِ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وبصوت ليس فيه خشونة ولا غلظة ولا صياح، ويكون خطابه عند الحاجة الماسة، للسؤال عن أمر، أو تقديم مشورة أو رأي أو خبر أو نحو ذلك.

ويقاس على الرسول فائذ الاجتماع أو رئيسه، فيخاطب بلقبه، مثل: «يا أمير المؤمنين - يا خليفة رسول الله - أيها القائد - أيها الزعيم - أيها الرئيس» ونحو ذلك من عبارات تتطلبها آداب المجلس.

دُعَاء: أي: نداء، يقال لغة: دعا الرَّجُلُ يَدْعُوهُ دَعْوًا، ودَعْوَةً، ودُعَاةً، ودَعْوَى، إذا ناداه وصاح به.

أما في غير المجالس العامة فَيُسْتَحْسَنُ التزام هذا الأدب، وإن كان التكليف به يخف، ولا سيما في مجالس المباسطات والمؤانسات.

* قول الله عز وجل:

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذٍ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٣).

بعد أن وصف الله تعالى سلوك المؤمنين الصادقين في إيمانهم، الملتزمين بمقتضياته في المجالس الإسلامية العامة، أبان الله سلوك المخالفين لأدب هذه المجالس، بالتسلل منها دون استئذان، وقد جاء هذا البيان بتأكيد تحقق علم الله بما

يكون من هؤلاء المتسليين، وإنهم مهما تسألوا مستخفين فإن الله يعلم ما يفعلون، ثم يُجازيهم بحسب أعمالهم، قال تعالى :

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْأَلُونَ مِنْكُمْ لَوَإِذَا ۖ ﴾

أي : إن الله يعلم خلق هؤلاء الذين يُغادرون المجالس الإسلامية العامة مُتسليين باستخفاء في تسرُّ وبرغبة دون استئذانٍ من الرسول، أو من قادة هذه المجالس العامة.

وبما أن الآية الأولى من هذا النص دلت على أن الله قد أمر المؤمنين بعدم الانصراف من هذه المجالس، قبل انتهائها، إلا بالإذن من قائدها، بمقتضى أن من لوازم صدي الإيمان والزم الطاعة عدم مغادرتها إلا بالإذن، قال الله تعالى :

﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۖ ﴾

فحذر من العقوبة الشديدة المخالفين العصاة الذين يتسألون منها بغير إذن، باعتبار أن الأمر للوجوب من درجة يستحق معها المخالف العقوبة، فترتيب العقاب يدل على أن الأمر التكليفي ثم الرأى مُشدد، وليس من الواجبات الدنيا، أو ما هو قريب منها.

والعقاب الذي حرَّاه الله قد جعله الله متردداً بين أمرين :

الأول : أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ في أنفسهم أو أموالهم تضطرب فيها أحوالهم، ويتعكر فيها نظام حياتهم.

الثاني : أَنْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

ويظهر لي أن مقدار العقوبة ونوعها مما يناسب أحوال المخالفين، إذ قد يكون منهم مؤمنون عصاة، وقد يكون منهم هم ضعفاء الإيمان، وقد يكون منهم منافقون، وهؤلاء أشدُّهم، وهم الذين يستحقون العذاب الأليم، والله أعلم.

• قول الله عز وجل :

﴿الْأَنكِرُهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ رُجِعُونَ
إِلَيْهِ فَيَنْتَقِبُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٦).

هذه آية البُخار لهذا النص، وهي تستعمل بمناسبة ما جاء فيه على كُليّات عامّة
من كُليّات الدين، أي: وما جاء في هذا النص إنما هي جزئيات تنطبق عليها هذه
الكليات العامّة كما تنطبق على غيرها.

الكَلِمَةُ الأولى:

﴿الْأَنكِرُهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾:

أي: اتَّهَبُوا - ف ﴿الْأَن﴾ أداة استفتاح للتنبيه - إنَّ لله جميع ما في السَّمَاوَاتِ
العظيمات والوابغات وجميع ما في الأرض، بكلِّ أنبيائها وأحيائها المكلفّة وغير
المكلفّة، نهر ما لِكُها وتلِكُها، ونواصي كلِّ شيء فيها يده يُصَرِّفها كيف يشاء بالإيجاد
والإعدام والتغيير والتبديل والتحويل وغير ذلك.

والمقصود هنا بمناسبة ما جاء من تكاليف في النص وفي سورة (النور) كلّها،
أنَّ الله ليس بحاجة إلى إيمان من يؤمن، ولا إلى صالح عمل من يعمل صالحاً،
ولا إلى طاعة منطيع، وأنَّ الله لا يضرُّه كُفْر من يكُفر، ولا سوء عمل من يعمل سيئاً،
ولا معصية من عصي. وليس بحاجة إلى من ينصّر له دينه ورسوله، ولا يضرُّه من
يخذلُهما، فكلُّ ما في السماوات وما في الأرض بلُكُها، يتصرّف فيه كيف يشاء، ولكن
حكيمته سبحانه أن يمتحن المكلفين في الحياة بالأوامر والنواهي، ليحاسبهم ويجازيهم
على أعمالهم، فبما يكشفه الابتلاء من أحوالهم، الخاضعة لعلمه الشامل، الذي
لا يغادر ضغيرة ولا كبيرة إلا أحاط بها وأحصاها، وكتبها في صحائف الأعمال
المخصصة لتسجيل أعمال المكلفين.

الكَلِمَةُ الثانية:

﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾:

أي: نأكلوا وكونوا على يقين بأنَّ الله يَعْلَمُ لَحْظَةً بَعْدَ لَحْظَةٍ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ
ذَوَاتِكُمْ وَجَفَائِكُمْ وَأَحْوَالِكُمْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، مِنْ صَالِحِ عَمَلٍ أَوْ سَيِّئَةٍ.

هذا بيان عن علمه سبحانه بما هو كائن في الحال مع كل اللحظات المنجذات، وفي نصوص أخرى جاء بيان أنه يُعَلِّمُ كل ما سيكون من أحداث مستقبلاً، وأنه يعلم كل ما كان في الماضي، فهو سبحانه وتعالى عليم بكل الماضي، وكل الحال، وكل المستقبل.

والمقصود هنا التذكير بأنه سبحانه عليم بكل ما عليه عباده، أي: فليُعبَدُوا أنفسهم للجزاء المعجل، ثم لِلْجَنَابِ وَفَضْلِ الْقَضَاءِ وَالْجَزَاءِ الْمُؤَجَّلِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

الكلية الثالثة:

﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنْتَبِهُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾:

أي: ويومئذ يُخَابِهُهُمْ وَيُجَازِيهِمْ على أعمالهم، فجزء الجملة المذكور دل على جزئها المحذوف، مع ما سبق العلم به من أحداث يوم الدين.

وفي بيان هذه الكلية تذكير بركن اليوم الآخر من أركان الإيمان، وما يتضمن من وعْدٍ ووَعِيدٍ.

الكلية الرابعة:

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾:

وفي ذكر هذه الكلية ثناء على الله بصفة علمه المحيط بكل شيء، مع التذكير بهذه الصفة الجليلة من صفاته تبارك وتعالى، لترسيخ الإيمان بها، وإحضارها في النفس، لتكون باعثاً على خشية الله، والعمل بمراضيه، لاتقاء عذابه، والظفر بثوابه في الدنيا والآخرة.



النص السادس والعشرون

وهو سورة (المنافقون / ٦٣ مصحف / ١٠٤ نزول)

(السورة (١٨) من التنزيل المدني)

حول بيان حقيقة المنافقين وبعض صفاتهم

الظاهرة والباطنة وبعض مواقفهم والتحذير منهم

* قال الله عز وجل :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ قَالُوا أَنشَهُدُكَ لِرَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ يَعْلَمُ إِنَّكَ لِرَسُولِهِمُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ
 إِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَكَذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا
 رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ يُحْسِبُونَ كُلَّ صَبِيحَةٍ
 عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ إِنَّهُمْ لَكَافِرُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ
 اللَّهِ لَوَارِثُكُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يُصْذَوْنَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ
 أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ
 يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَاللَّهُ خَرَّائِنُ السَّعَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَلَكِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا
 الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتْلُوا هَؤُلَاءِ قَوْلَهُمْ وَلَا تُولَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ
 فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ

رَبِّ لَوْلَا أَلْتَمَعْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴿١٢﴾

* * *

(١)

ما في هذه السورة من القراءات المتواترة
(من الفرش وشيء من الأداء)

* في الآية (٤):

(١) قرأ جمهور القراء العشرة [خُسْبُ] بِضَمِّ الشين.

وقرأ أبو عمرو البصري، والكسائي الكوفي وقبيل عن ابن كثير المكي [خُسْبُ] بِاسْكَانِ الشين.

وهما لغتان عربيّتان.

* في الآية (٥):

(١) قرأ جمهور القراء العشرة [لَوُوا] بِتَشْدِيدِ الْوَاوِ الْأُولَى.

وقرأ نافع المدني، وَرَوَّحَ عن يعقوب البصري [لَوُوا] بِتَخْفِيفِ الْوَاوِ الْأُولَى.

وفي القراءتين تكاملٌ في أداء المعنى المراد فقراءة [لَوُوا] بِالتَّشْدِيدِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ قِسْمًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ يُبَالِغُونَ فِي لَبِّ رُؤُوسِهِمْ بِإِمَالَتِهَا وَإِدَارَتِهَا تَعْبِيرًا عَنِ الرِّفْضِ، وَأَنَّ قِسْمًا آخَرَ مِنْهُمْ يَلُؤُونَ رُؤُوسَهُمْ بِصِفَةِ عَادِيَّةٍ لَا مَبَالِغَةَ فِيهَا، وَذَلِكَ بِحَسَبِ حَالَتِهِمُ النَّفْسِيَّةِ، وَمَقْدَارِ كُفْرِهِمْ وَنِفَاقِهِمْ.

* في الآية (١٠):

(١) قرأ جمهور القراء العشرة [وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ] بِجَزْمِ [أَكُنْ] عَلَى أَنَّهُ

جواب الطلب.

وقرأ أبو عمرو البصري [وَأَكُونُ مِنَ الصَّالِحِينَ] بِنَصْبِ [أَكُونُ] عَطْفًا عَلَى فِعْلِ

[فَأَصْدُقَ].

والقراءتان وجهان عربيان من وجوه الإعراب .

* في الآية (١١) :

(١) قرأ جمهور القراء العشرة [يُؤَخَّر] بهمزة مفتوحة بعد الياء .

وأبدل أبو جعفر المدني وورش عن نافع المدني الهمزة واواً في الرّوصل والوقف .

وأبدلها حمزة واواً في الوقف فقط . ورقق ورش الراء .

وهذه القراءات وجوه من الأداء تتبع اللهجات العربية .

(٢) قرأ جمهور القراء [وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ] بناء الخطاب .

وقرأ شعبة عن عاصم [بِمَا يَفْعَلُونَ] بياء الغيبة .

وفي القراءتين تكامل في الأداء البياني .

* * *

(٢)

موضوع السورة وسبب نزولها

موضوع السورة :

تحدث السورة عن كذب المنافقين في ادّعائهم للرسول ﷺ بأنهم مؤمنون به، وكذبهم إذ يحلفون الأيمان ليستروا بها نفاقهم، وليستروا بها عدم التزامهم بسلوك سبيل الله كلما ابتعدوا عن أعين الرقباء من المؤمنين، إعراضاً أو إدباراً أو ابتعاداً عنه، وليستروا بها ما هم عليه من عدم توجيه اهتمامهم لفهم البيانات التي تبصرهم بسبيل الله، مع بيان سبب ذلك .

وتصف حال فئة من المنافقين في عصر الرسول ﷺ، ذوي الأجسام التي تعجب من رآها، والأقوال المنمقة التي تجذب لاسماعتها فإذا حضروا مجالس العلم والذكر مع المؤمنين اختاروا لأنفسهم الأماكن التي يُسندون إليها ظهورهم كالجُنْدِ والسُّواري، لأنها مريحة لهم، وذات وَجَاهَةٍ، لكنهم لا يَعُونُ مِمَّا يُقَالُ فِي هَذِهِ

المجالس من علم وذكر شيئاً، لانصراف أذهانهم وقلوبهم، فهم كالخشب المسند قاماتها على الجذر لئلا تسقط، وهذا دليل على أنهم كالتائمين ظاهراً أو باطناً.

وتصف حالتهم النفسية بأنهم خائفون حذرون دوماً، يخشون أن ينكشف أمرهم فيؤخذوا ويعاقبوا على كذبهم ونفاقهم وخياناتهم، ولشدة حذرهم وترقبهم اقتضاح أمرهم يحسبون كل صيحة تحذير مريبة صيحة عليهم، وأنهم هم المقصودون بها، وذلك بسبب أنهم في الباطن أعداء حقيقيون، إلا أنهم مستخفون متسرون.

ويحذر الله الرسول وكل مؤمن منهم، ويبين أنهم هم أشد الأعداء وألذهم عداء للإسلام والمسلمين، وأنهم جديرون بأن يقاتلهم الله، إذ لم يأذن للمؤمنين بأن يقاتلوهما ماداموا يسرون كفرهم وعداءهم، ويظهرون إسلامهم وولاءهم.

وأبانت السورة من مواقفهم التي تدل على كفرهم في الباطن، أنهم إذا ارتكبوا ذنباً من الكبائر التي تمس الرسول أو جماعة المؤمنين، أو الإسلام، ودعاهم بعض المؤمنين إلى الرسول ليعتذروا ويطلبوا منه أن يستغفر لهم الله أعلنوا الرفض بأن يلثوا رؤوسهم، وبأن يحجموا بأجسادهم، بسبب أنهم مستكبرون في صدورهم وغير مؤمنين.

وأبانت من مواقفهم دعوتهم المسلمين من قومهم من الأنصار أن لا ينفقوا على الذين يجلسون في مجالس الرسول حتى ينفضوا عنه ويفارقوا مجلسه، وغرضهم من ذلك أن لا تكون له بهم قوة، وأن لا تكون له جماهير محيطة به دوماً.

وأبانت من مواقفهم ما كان من عبد الله بن أبي بن سلول في غزوة بني المصطلق إذ قال: لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعز منا الأذل يعني أنه هو الأعز الأقوى والرسول والمهاجرون من مكة إلى المدينة هم الأذلون.

واشتملت السورة على توجيه توصيات ونصائح للمؤمنين تتعلق بما جاء في السورة عن المنافقين.

سبب النزول:

(١) غزا الرسول ﷺ بني المصطلق من خزاعة في شعبان من سنة خمس للهجرة، إذ بلغه أنهم يجتمعون جموعهم ويعدون لقتال المسلمين في المدينة.

والتقى الجمعان على ماء لبني المصطلق اسمه «المربيع» فسُميت هذه الغزوة بهذا الاسم أيضاً، كما سُميت غزوة بني المصطلق.

وانتصر المسلمون وهزم الله بني المصطلق، وما غنمه المسلمون فيها ورَّعه الرسول ﷺ بينهم من أموال ونساء وأبناء.

ومما جرى في هذه الغزوة على ما روى ابن إسحاق، أن المسلمين لما كانوا عند ماء «المربيع» وردت واردة الناس، ومع عُمر بن الخطاب أجير له من بني غفار، يقال له: جَهْجَاهُ بن مسعود، يقود فرسه.

فازدحم على الماء جَهْجَاهُ أجير عُمر بن الخطاب، وبنان بن وبرة الجهني حليف بني عوف بن الخزرج، فاقتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، صرخ جَهْجَاهُ يا معشر المهاجرين.

فبلغ الخبر «عبد الله بن أبي بن سلول» وعنده رهط من قومه الخزرجيين، وفيهم زيد بن أرقم غلام حدث السن، فقال ابن سلول:

«أَوْ قَدْ فَعَلُوهَا؟ قَدْ نَافَرُونَا»^(١)، وَكَاثَرُونَا»^(٢) في بلادنا، والله ما أعدنا وجلايب قريش^(٣) إلا كما قال الأول: سَمَنْ كُلُّكَ بِأَكُلِّكَ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ.

(١) نافرونا: أي: افترخوا علينا بكثرة نفرهم وغلبونا بها.

(٢) وكاثرونا: وغلبونا بكثرة غنيمتهم.

(٣) جلايب قريش: لقب أطلقه المشركون على من كان أسلم من قريش وهاجر، لأنهم كانوا فقراء، ويلبسون الجلابيب، وهي أزر وأردية قليلة الثمن، الجلابب: يُطلق على الملاءة الساترة من الرأس إلى القدمين، ويطلق على الإزار والرداء في اللغة، والجمع جلابيب، وإطلاق الجلابيب على الناس كناية.

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَىٰ مَنْ حَضَرَهُ مِنْ قَوْمِهِ، فَقَالَ لَهُمْ: «هَذَا مَا فَعَلْتُمْ بِأَنْفُسِكُمْ، أَخْلَلْتُمْوَهُمْ بِلَادَكُمْ، وَقَاسَمْتُمُوهُمْ أَمْوَالَكُمْ، أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ أَمْسَكْتُمْ عَنْهُمْ مَا بِأَيْدِيكُمْ لَتَحُولُوا إِلَىٰ غَيْرِ ذَارِكُمْ».

فأبلغ الغلام «زَيْدُ بْنُ أَرْقَمٍ» ما سمع إلى رسول الله ﷺ بعد أن انتهت الغزوة، وكان عنده عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَقَالَ عُمَرُ: مَرُّ بِهِ عَبَادُ بْنُ بِشْرٍ فَلْيُقْتَلْهُ.

فقال رسول الله ﷺ: فكيف يا عُمَرُ إذا تحدثت النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يُقْتَلُ أصحابه؟! لَا وَلَكِنْ أَذْنُ بِالرَّحِيلِ، وَذَلِكَ فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَرْتَجِلُ فِيهَا.

فارتحل الناس.

وَعَلِمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَنْ سُلُولٍ، أَنَّ «زَيْدُ بْنُ أَرْقَمٍ» أَبْلَغَ الرَّسُولَ ﷺ بِمَا قَالَ، فَجَاءَ إِلَيْهِ فَحَلَفَ لَهُ بِاللَّهِ: مَا قُلْتُ مَا قَالَ زَيْدٌ عَنِّي، وَلَا تَكَلَّمْتُ بِهِ.

فقال من كان عند رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ الْغُلَامُ قَدْ أَوْهَمَ فِي حَدِيثِهِ، وَلَمْ يَحْفَظْ مَا قَالَ الرَّجُلُ، حَذْبًا عَلَىٰ ابْنِ سُلُولٍ وَدَفْعًا عَنْهُ.

وَلَقِيَ «أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ» رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي مَسِيرِهِ، فَحَيَّاهُ بِتَحِيَّةِ النَّبَوَةِ، وَسَلَّمْ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ:

يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَقَدْ رُحْتُ فِي سَاعَةٍ مُنْكَرَةٍ، مَا كُنْتُ تَرَوْحُ فِي مِثْلِهَا.

فقال له رسول الله ﷺ:

«أَوْ مَا بَلَغَكَ مَا قَالَ صَاحِبُكُمْ؟».

قال أُسَيْدُ: وَأَيُّ صَاحِبٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟.

قال: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي.

قال أُسَيْدُ: وَمَا قَالَ؟

قال: «زَعَمَ أَنَّهُ إِنْ رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ».

قال أسيد: فَأَتَى يَا رَسُولَ اللَّهِ تُخْرِجُهُ مِنْهَا إِنْ شِئْتَ، هُوَ وَاللَّهُ الذَّلِيلُ وَأَنْتَ الْعَزِيزُ.

ثم قال أسيد: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَفَقَ بِهِ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ جَاءَنَا اللَّهُ بِكَ، وَإِنْ قَوْمَهُ لَيَنْظِمُونَ لَهُ الْخَرْزَ لِيَتَوَجَّوهُ، فَإِنَّهُ يَرَى أَنَّكَ قَدْ اسْتَلَبْتَهُ مُلْكًا.

ثم مشى الرسول بالمسلمين يومهم ذَلِكَ حَتَّى أَمْسَى، وَلَيْلَتُهُمْ حَتَّى أَصْبَحَ، وَصَدَّرَ يَوْمَهُمْ ذَلِكَ حَتَّى آذَنَهُمُ الشَّمْسُ، ثُمَّ نَزَلَ بِالنَّاسِ، فَلَمْ يَلْبَسُوا أَنْ وَجَدُوا مَسَّ الْأَرْضِ فَوْقَهُمْ نِيَامًا.

وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس، من حديث عبد الله بن أبي بن سلول.

ثم راح رسول الله بالناس فهبَّت على الناس ريحٌ شديدةٌ آذَنَهُمْ، وَتَخَوَّنُوها، فقال الرسول:

«لَا تَخَافُوهَا، فَإِنَّمَا هَبَّتْ لَمَوْتٍ عَظِيمٍ مِنْ عُظْمَاءِ الْكُفَّارِ».

فلَمَّا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ بَلَغَهُمْ أَنَّ الْيَهُودِيَّ «رِفَاعَةَ بْنَ زَيْدِ بْنِ التَّابُوتِ» أَخَذَ بَنِي قَيْنِقَاعَ، قَدَمَاتٍ، وَكَانَ عَظِيمًا مِنْ عُظْمَاءِ الْيَهُودِ، وَكَهْفًا لِلْمُنَافِقِينَ قَبْلَ أَنْ يُجْلِيَ الرَّسُولُ بَنِي قَيْنِقَاعَ عَنِ الْمَدِينَةِ.

ونزلت النسوة التي ذكر الله فيها المنافقين، في عبد الله بن أبي بن سلول، ومن كان على مثل أمره، فلَمَّا نَزَلَتْ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأُذُنِ «زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ» ثُمَّ قَالَ:

«هَذَا الَّذِي أَوْفَى اللَّهُ بِأُذُنِهِ».

أي: صَدَّقَ اللَّهُ مَا سَمِعْتَ أُذُنُهُ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بْنِ سَلُولٍ.

وَبَلَغَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بْنِ سَلُولِ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِ أَبِيهِ. وَكَانَ رَجُلًا مُؤْمِنًا صَادِقًا، فَاتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ:

يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُرِيدُ قَتْلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِيٍّ فِيمَا بَلَغَكَ عَنْهُ، فَإِنْ

كُنْتُ لَأَبْدُ فَاعِلًا، فَمُرْنِي بِهِ، فَأَنَا أَحْمِلُ إِلَيْكَ رَأْسَهُ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ الْخَزْرَجُ مَا كَانَ لَهَا مِنْ رَجُلٍ أَكْبَرَ بِوَالِدِي مِنِّي، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَأْمُرَ بِهِ غَيْرِي فَيَقْتُلَهُ، فَلَا تَدْعُنِي نَفْسِي أَنْظُرَ إِلَى قَاتِلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي يَعْشِي فِي النَّاسِ، فَأَقْتُلَهُ، فَأَقْتُلَ رَجُلًا مُؤْمِنًا بِكَافِرٍ. فَادْخُلِ النَّارَ.

فقال رسول الله ﷺ:

«بَلْ تَتَرَفَّقُ بِهِ، وَنَحِينُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا».

أما عبد الله بن أبي بن سلول، فكان بعد ذلك إذا أحدث الحدث الذي يسوء الرسول والمسلمين، كان قومه هم الذين يُعَاتِيُونَهُ وَيَأْخُذُونَهُ وَيُعَنُّونَهُ.

فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنه:

«كَيْفَ تَرَى يَا عُمَرُ؟! أَمَا وَاللَّهِ لَوْ قَتَلْتَهُ يَوْمَ قُلْتُ لِي: اقْتُلْهُ، لَأَزَعَدْتَ لَهُ أَنْفُ، لَوْ أَمَرْتُهَا الْيَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلْتَهُ».

قال عمر: قد والله علمتُ لأمر رسول الله ﷺ أعظمَ بركةً مِن أَمْرِي.

(٢) وروى البيهقي بسنده عن جابر بن عبد الله، قال: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزَاةٍ، فَكَسَعَ^(١) رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لِلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لِلْمُهَاجِرِينَ.

فقال الرسول ﷺ:

«مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟! دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ».

وقال عبد الله بن أبي بن سلول: وَقَدْ فَعَلُوهَا؟! وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ.

قال جابر: وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قُبِمَ رسول الله ﷺ، ثُمَّ كَثُرَ الْمُهَاجِرُونَ بَعْدَ ذَلِكَ.

فقال عمر: دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ.

(١) فَكَسَعَ: أَي: ضَرَبَ دُبُرَهُ بِضَرْبٍ قَدِيمٍ، أَوْ بِيَدِهِ، أَوْ بِغَيْرِ ذَلِكَ.

فقال النبي ﷺ: «دَعُوهُ، لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ».

ونظير ما جاء عند البيهقي، روى الإمام أحمد عن سفيان بن عيينة، وكذلك عند البخاري ومسلم.

وتوجد روايات أخرى مشابهة تدل على أن سورة (المنافقون) نزلت بمناسبة ما جرى من المنافقين من أحداث أشارت إليها آيات السورة، وما تحدثت عنه هذه الروايات هو من هذه الأحداث، والله أعلم.

(٣) وروى الإمام أحمد بسنده عن «زيد بن أرقم» قال:

خَرَجْتُ مَعَ عَمِّي فِي غَزَاةٍ، فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي بَنْدَةَ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ: لَا تَتَفَقَّحُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ، وَلَيْتَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِنُخْرِجَنَّ الْأَعْزُ مِنْهَا الْأَذَلَّ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّي، فَذَكَرَهُ عَمِّي لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَارْسَلَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَخَدَّشَنِي، فَارْسَلَ إِلَيَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَنْدَةَ، وَأَصْحَابُهُ، فَحَلَفُوا بِاللَّهِ مَا قَالُوا، فَكَذَّبَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَدَّقَهُ، فَأَصَابَنِي هُمُ لَمْ يُصِيبْنِي مِثْلُهُ قَطُّ، وَجَلَسْتُ فِي الْبَيْتِ، فَقَالَ عَمِّي: مَا أَرَدْتُ إِلَّا أَنْ كَذَّبَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَقَّتَكَ؟

قال: حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ:

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾.

فبعث إلي رسول الله ﷺ، فقرأها رسول الله ﷺ عليّ، ثم قال: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكَ».

(٤) وأورد ابن كثير في تفسيره قال: وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما، أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول على باب المدينة، واستل سيفه، فجعل الناس يمرّون عليه، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي بن سلول قال له ابنه: ورأاك، فقال: مالك؟ ويملك؟ فقال: والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، فإنه العزيز وأنت الذليل، فلما جاء رسول الله ﷺ وكان إنما يبصر ساقاً (أي: مع المشاة) فشكا إليه عبد الله بن أبي بن سلول ابنه، فقال ابنه عبد الله: والله يا رسول الله لا يَدْخُلُهَا حَتَّى تَأْذَنَ لَهُ، فَأَذِنَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فقال: أما إذا أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن.

(٥) روى ابن إسحاق تعقيماً على أحداث غزوة أحد عن ابن شهاب الزهري، أن عبد الله بن أبي بن سلول كان له مقام يقومه كل جمعة لا ينكر، شراً له في نفسه وفي قومه، وكان فيهم شريفاً، إذا جلس رسول الله ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس، قام فقال: أيها الناس، هذا رسول الله بين أظهركم، أكرمكم الله وأعزكم به، فانصروه وعزروه، واسمعوا له وأطيعوا، ثم يجلس.

حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع (وهو انخذه عن الرسول بثلاث الجيش) ورجع بالناس، قام يفعل ذلك كما كان يفعله، فأخذ المسلمون بشيابه من نواحيه، وقالوا: اجلس، أي عدو الله، لست لذلك بأهل، وقد صنعت ما صنعت، فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول: والله لكأنما قلت بجرأ (وفي رواية: هجرأ - أي كلاماً قبيحاً) أن قمت أشدد أمره، فلقية رجل من الأنصار بباب المسجد، فقال: ما لك؟ وتلك! قال: قمت أشدد أمره، فوثب علي رجل من أصحابه يجذبوني، ويعنفوني، لكأنما قلت بجرأ أن قمت أشدد أمره، قال: ويلك، ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ، قال: والله ما أبتغي أن يستغفر لي.



(٣)

المفردات اللغوية

﴿قَالُوا نَشْهَدُ﴾:

أي: قالوا: نعلن شهادة بالستنا مطابقة لما نعتقده ونؤمن به في قلوبنا.

الشهادة: خبر باللسان عما هو مستقر في الجنان من علم أو اعتقاد أو عاطفة أو نحو ذلك.

﴿اتَّخَذُوا آيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾:

أي: جعلوا آيماهم التي يحلفونها ستر تستر نفاقهم. الجنة في اللغة: السُنة، وكل ما رقى من سلاح وغيره.

﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ :

أي : أخرجوا عن سلوكه ، أو عرضوا عنه ، أو أدبروا وتولوا ، ويأتي متعدياً بمعنى صرفوا غيرهم عن سلوكه .

﴿فَطُيِّعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ :

الطَّيِّعُ في المائتات الملموسة ، كالختم الذي يُخْتَمُ عَلَى الْمُقْفَلَاتِ حَتَّى لَا تَفْتَحَ .

واستعمل فيما بُحِثَ فِي الْقُلُوبِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهَا صَارَتْ مَحْجُوبَةً عَنْ إِدْرَاكِ أَيِّ شَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِمَا هِيَ مَحْجُوبَةٌ عَنْهُ .

﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ :

أي : فهم لا يفهمون بواطن الأمور ودقائقها ، وما تؤول إليه في المستقبل ، لأنَّ أذهانهم مشبَّهة بالظواهر السطوح ، والنتائج المستعجلة القريبة .

﴿كَأَنَّهُمْ خَشْبٌ مُسْنَدٌ﴾ :

الْخَشْبُ ، وَالْخَشْبُ : جَمْعُ خَشْبَةٍ وَاحِدَةِ الْخَشْبِ ، وَهُوَ مَا غُلِظَ مِنَ الْعِيدَانِ ، يُتَّخَذُ مِنْهَا السُّورِيُّ وَالْأَعْمِدَةُ الْخَشَبِيَّةُ ، وَتُحْمَلُ عَلَيْهَا السُّقُوفُ .

﴿مُسْنَدٌ﴾ :

أي : جُعِلَ لَهَا بِنَادٍ أَوْ عِمَادٌ كَجِدَارٍ تَسْتِنِدُ إِلَيْهِ وَهِيَ قَائِمَةٌ ، يُقَالُ لُغَةً : سَنَدُ الشَّيْءِ وَسُنْدُهُ ، إِذَا جُعِلَ لَهُ سِنَادٌ أَوْ عِمَادٌ يَسْتِنِدُ إِلَيْهِ .

﴿يَحْصِبُونَ﴾ :

أي : يتوقفون .

﴿أَلَّنْ يُؤَفِّكُونُ﴾ :

أي : كيف يفرفرون ! يُقَالُ لُغَةً : أَفَفَكَ الرَّجُلُ فَلَانًا عَنِ الشَّيْءِ أَفَفَا إِذَا صَرَفَهُ عَنْهُ . وَأَفَفَكَ الْأَمْرَ عَنْ رَجُلٍ إِذَا قَلَبَهُ وَصَرَفَهُ عَنْهُ .

﴿لَوْ أَرَادُوا سَمَٔ﴾

أي: أمالوها وأداروها تعبيراً عن الرفض، بتشديد الواو الأولى للمبالغة، أو بدون تشديدها لبيان حالة الإمالة دون مبالغة.

﴿حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾

أي: حتى يَنْفَرُوا، يقال لغة: انْفَضَّ الْجَمْعُ: إذا تَفَرَّقَ. ويُقَالُ: فَضَّ الشَّيْءُ وَفَضَّ الْقَوْمُ إِذَا فَرَّقَهُمْ. وَفَضَّ الْمَالُ عَلَى الْقَوْمِ إِذَا فَرَّقَهُ وَقَسَّمَهُ عَلَيْهِمْ.

الأعز: أي: الأقوى القادر على أن يَغْلِبَ.

الأذل: أي: الأضعف الذي لا يقدر على أن يكون هو المنتصر الغالب عند

المغالبة.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا أَنُؤَلِّكُمُ﴾

أي: لا تشغلُكم عما هو خير لكم في عاجلٍ أمركم وآجله.

﴿فَأَصْدَقَ﴾

أي: فأنصَدَقَ، سَكُنَتِ التاء وأذْغَمَتِ بالصاد، فصارت صاداً مشددة.

(٤)

مع النص في التحليل والتدبر

* قول الله عز وجل خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِّقُونَ قَالُوا أَشْهَدُكَ لِرَسُولِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لِرَسُولِهِمُ وَاللَّهُ شَهِدٌ

إِنَّ الْمُتَنَفِّقِينَ لَكَذِبُونَ ﴿٦﴾﴾.

الشهادة: تشتمل على قول ملفوظ به، وعلى ادعاء بأن معنى هذا القول

الملفوظ أمرٌ يؤمن به ويعتقده مُقَدِّمُ الشهادة.

فاقتضى الأمر أن يُعْطَى القول الملفوظ حُكْماً مُتَفَصِّلاً عن قائله، وأن يُعْطَى

أدعاء مطابقة الاعتقاد في القلب للمعنى الذي دلَّ عليه القول الملفوظ في الشهادة
حُكماً آخر مُنفصلاً عن معنى القول، إذ هُما قضيتان:

— أما القول الملفوظ في عبارة المنافقين، فمعناه حقٌ وصديق.

— وأما ادعاء المنافقين بأنهم يؤمنون بمضمون ما شهدوا به فهو ادعاء كاذب،
وهم به كاذبون.

وبهذا أخذت كل قضية حُكمها، وقد جاءت الآية رائعة حقاً في التنبيه على
الفصل بين القضيتين، وإعطاء القول الملفوظ في الشهادة حُكماً مخالفاً للحكم
الذي يتعلق بادعاء المنافقين الكاذب.

وعَدَمُ وضوح هذه الرؤية قد أوقع بعض البلاغيين في ارتباك حين أرادوا أن
يعرفوا الصدق والكذب، هل الصدق المطابق للواقع أو المطابق للاعتقاد.

ومن وضحت له الرؤية، أدرك أن صدق الكلام يكون بمطابقته للواقع منفصلاً
عن قائله، وأن كذب الكلام يكون بعدم مطابقته للواقع منفصلاً عن قائله. وأن
صدق المتكلم يكون بأن يُخبر بما يعتقد أنه حق، وأن كذب المتكلم يكون بأن
يخبر بما يعتقد أنه باطل، سواء أكان مضمون كلامه مطابقاً للواقع أو غير مطابق له.

فالقضيتان منفصلتان تماماً، ويُعلمنا الله عز وجل أن انفصل بينهما، بأسلوب
بيانه في هذه الآية.

وبهذا التحليل يتضح لنا معنى الآية تماماً، وهو: إذا جاءك يا مُحَمَّدُ
الْمُنَافِقُونَ الكاذبون في ادعاء الإيمان حين أعلنوا إسلامهم. قالوا: نَشْهَدُ إِنَّكَ
لَرَسُولُ اللَّهِ، وهذه الشهادة منهم اشتملت على قضيتين: ما تلفظوا به من حق،
وما ادَّعَوْه من إيمانهم به، أما ما تلفظوا به من حق فالله يعلمه: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ
لَرَسُولُهُ﴾ وأما ما ادَّعَوْه من إيمانهم بمضمونه فهو كذب، والله يُخبر بما يعلم عن
حقيقتهم، ويُقدِّم شهادته بذلك:

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾.

وقد كُبرِتْ همزة «إِنَّ» لوجود اللام المرحقة في خبرها ولولاها لَفُتِحَتْ وفق قاعدة فتح «أَنَّ».

* * *

* قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١﴾﴾.

من صفات المنافقين الظاهرة أَنَّهُمْ يَحْلِفُونَ الْإِيمَانَ عَلَى صَدَقِ ادِّعَائِهِمْ أَنَّهُمْ مسلمون مؤمنون، وإذا ارتكبوا كبيرةً من الكبائر، أو أحدثوا حدثاً يكشف نفاقهم، ويدلُّ على عدم ولائهم للرُّسُولِ وجماعة المسلمين، وبلغَ ذلك الرسول ﷺ أو جماعة المؤمنين بادروا فحلفوا الإيمان على أَنَّ مَا تُقَالُ عَنْهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا مِنْهُ شَيْئاً، وهم بذلك كاذبون.

إنهم سَتَرُوا وَيَسْتُرُونَ فضائحهم بإيمانهم، فجعلوا ويجعلون إيمانهم جُنَّةً (= سِتْرَةً) يَقُونَ بِهَا أَنْفُسَهُمْ مِنْ بَقْمَةِ الرُّسُولِ أو المؤمنين عليهم، وهذا ديدنهم دوماً في كُلِّ قَرْنٍ وفي كُلِّ عَصْرٍ وأمة، فقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾.

وإِذَا سَتَرُوا فَضَائِحَهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ رَأَوْا أَنَّهُمْ فِي مَأْمَنِ مِنْ أَنْ يَنْكَشِفَ نِفَاقُهُمْ، فَاحْجَمُوا عَنْ سُلُوكِ سَبِيلِ اللَّهِ، أو أَعْرَضُوا عَنْهُ، أو أَدْبَرُوا أو نَازَوْا عَنْهُ، أو صَرَفُوا مِنْ يَتَأَثَّرُ بِهِمْ عَنْ سُلُوكِهِ، أو فَعَلُوا كُلَّ ذَلِكَ أو بَعْضَهُ، كُلُّ ذَلِكَ يَفْعَلُونَهُ فِي السِّرِّ، حين يرون أنفسهم بعيدين عن أعين الرقباء من المؤمنين الصادقين، فقال تعالى:

﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

فَمَا حُكِّمَ عَلَيْهِمْ فِي مِيزَانِ اللَّهِ الْعَادِلِ؟ هل هو محمود أو مذموم؟

لقد أبان الله أَنَّهُ مذموم، فقال تعالى:

﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾.

فَعَلَ ﴿سَاءَ﴾ الْمُسْتَعْمَلُ فِي الذَّمِّ هُنَا مَعَ مَعْنَى التَّعَجُّبِ مِنْ سُوءِ مَا عَمَلُوا، فَاعْلَهُ: ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ومن سوء عَمَلُهُ الذي يعمل به بإرادته فقد ساء هو، فالمعنى: ما أشدَّ سوءُهُم بسبب ما كانوا يعملون من عملٍ شديد السوء.

والحديث عَمَّا كانوا يعملون في الماضي من عمل شديد السوء، ينسحب على ما يعملون مثله في الحال أو المستقبل، هم وغيرهم من كل منافق كذاب، يستُرُّ قبائحه وفضائحه بإيمانه الكواذِبِ الغموس، ويَصُدُّ عن سبيل الله.

• قول الله عز وجل:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَغَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٢﴾﴾

المشار إليه بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾: هو الْحُكْمُ على ما كانوا يعملون بأنه شديد السوء، الذي يسمح بأن يُقال بشأنه: ما أشدَّ سوءه.

﴿بِأَنَّهُمْ﴾: أي: بسبب أنهم.

﴿ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾: المنافقون المعنَّون هنا قسمان:

— قِسْمٌ أعلن إيمانه بلسانه كاذباً مُتَسَرِّعاً، على سبيل التَّفَيُّه، ظاناً أَنَّ قضية الدين كالانتماء لحزبٍ من الناس يُراد منه جلب منافع دنيوية، ودفع مضار دنيوية، ثُمَّ لَمَّا فُكِّرَ في أَنَّهُ ليس مجرد انتماء ظاهري، وَلَكِنَّهُ إيمانٌ قلبي يُرَجَىٰ منه جَلْبُ منافع ودفع مضار أخروية عند الله يوم الدين، كَفَرَ، فَلَمَّ يُطَابِقُ بين إيمانه بقلبه وبين ما أعلن بلسانه.

— وقِسْمٌ كان صادقاً في إسلامه وإيمانه، إِلَّا أَنَّ إيمانه كان ضعيفاً، غير واضح الرؤية، ثُمَّ لَمَّا رَأَىٰ أَنَّ الإيمان يستدعي منه تكاليف تخالف هواه كَفَرَ باطناً، واستبغى ظاهر الانتماء إلى الإسلام، فكان بذلك منافقاً.

وعبارة ﴿ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ تُشْمَلُ القسمين، وكُلُّ قِسْمٍ منهما يناسبه المعنى الذي يلائم حاله.

وبعد أن استمرَّ المنافقون مدَّةً فيما اختاروا لأنفسهم من نفاق، ومردوا عليه كان من نتيجة ذلك بمقتضى سننِ الله السبيَّةِ أَنْ يُطْبَعَ على قُلُوبِهِمْ، أي: أَنْ يُقْفَلَ عليها إقفالاً كاملاً، وَيُطْبَعَ على هذه الأقفال بالأختام، إيذاناً بأنها صارت غير

مستعدة لأن تستقبل واردات الهداية الموجهة لها، من آيات الله في كتابه، أو في كونه، ومن بيانات الرسول ﷺ القولية والعملية، فقال تعالى :

﴿ فَطُغِيَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ .

وبعد أن وصلوا إلى حالة مَرَضِيَّة شَنِيعَةٍ طُبِعَ فِيهَا عَلَى قُلُوبِهِمْ، حَتَّى صَارَتْ غَيْرَ مُسْتَعِدَّةٍ لاسْتِقْبَالِ أَيْ وَارِدٍ مِنْ وَارِدَاتِ الْهُدَايَةِ، فَلَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ وَاقِعُهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَفْقَهُونَ بَوَاطِنَ الْأُمُورِ وَذَفَائِقَهَا وَغَايَاتَهَا، وَمَا تَوَوَّلَ إِلَيْهِ فِي أَجْلِ أَمْرِهِمْ، فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ .

فأفكارهم ومفهوماتهم وكل طاقات ذكائهم مُنْشَبَّةٌ بِظَاهِرٍ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَبِكُلِّ عَاجِلٍ قَرِيبٍ مِنْهَا، وَأَنْظَارُهُمْ لَا تَمْتَدُّ إِلَى مَا وَرَاءَ مَوَاطِنِ أَقْدَامِهِمْ مِنْ شُؤُونَ دُنْيَاهُمْ .

وإذا كان أمرهم كذلك فكيف يفقهون حقائق الأمور وبواطنها وغاياتها ومصائرها؟! وكيف يتدبرون أمرهم!؟

وإشارة إلى كل هذه المعاني قال تعالى :

﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۖ ﴾ :

أي : فيترتب على مَرَضِ الطُّغْيِ عَلَى قُلُوبِهِمْ، الَّذِي هُوَ أَوَّلُ لاسْتِقْرَارِهِمْ فِي مَوَاقِعِ الْكُفْرِ بَاطِنًا، وَتَمَرُّبِهِمُ الدَّائِمِ فِي النِّفَاقِ أَنَّهُمْ لَا يَفْقَهُونَ .

* * *

* قول الله عز وجل :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ خَشَبٌ مُسْتَنْدَةٌ يَخْسِبُونَ كُلَّ صَبِيحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۖ ﴾ (١) .

هذه آية اشتملت على ثمانين جملاً، كل جملة منها عنوان لموضوع يتعلق بالمنافقين، كلهم أو بعضهم .

الجملة الأولى :

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ تَعَجَّبَكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ :

هذه الجملة معطوفة على ما سبق من بيان أوصاف المنافقين في السورة، وهي فيما يظهر تتحدث عن منافقين معينين معروفين بأشخاصهم، ذوي وجاهة وأجسام حسنة مهيبة، وهيئات حسنة تعجب من يراها. وقد ذكروا أَنَّ عبد الله بن أَبِي بن سلول رأس المنافقين في المدينة كان رجلاً فصيحاً جسيماً وسيماً، وكان يحضر مجلس النبي ﷺ، فإذا قال سمع النبي مقالته. وقال الكلبي: المراد: «عبد الله بن أبي بن سلول» و«جَدُّ بْنُ قَيْسٍ» و«مُعْتَبُ بْنُ قَيْسٍ» فقد كانت لهم أجسام، ومنظر، وفصاحة.

وهذا يدلُّ على أَنَّ العبارات العامة في القرآن قد يُراد بها أفراد معينون، وذلك لأغراض سياسية أو تربوية، ولتأخذ مع ذلك صبغة احتمال تكرارها في فئات من المنافقين في كلِّ حين، فما وُجد في وقت من الأوقات قابل لأن يوجد نظيره في كلِّ وقت، فعلى المؤمن البصير العاقل أن يكون على بصيرة بواقع حال الناس.

الجملة الثانية:

﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ :

أي: وهم يُحْسِنُونَ القولَ فصاحةً وبياناً وانتقاءً للمعاني التي يُريدون التعبير عنها، مخادعةً وتغريراً واستدعاءً لاستماع ما يقولون، والتنبُّه له.

ودلَّ حرف الشرط [إِنْ] على أَنَّهُمْ غير ثرثارين، فهم لا يُطلقون ألسنتهم للمشاركة فيما تحسَّن المشاركة فيه وفيما لا تحسَّن، بل يضبطون ألسنتهم، وربما كان هذا حذراً من أن تَبْدُ منهم فلتات أقوال تدلُّ على نفاقهم.

حرف الشرط [إِنْ] يُسْتَعْمَلُ فيما هو قليل الوقوع أو فيما هو مشكوك في وقوعه كما يقول علماء البلاغة، فاستعماله هنا دلُّ على قلة مشاركتهم بالكلام في مجالس الرسول، ومجالس المؤمنين الصادقين.

الجملة الثالثة:

﴿كَانَتْهُمْ حُسْبٌ مُسْنَدَةٌ﴾ :

أي: كأنهم أعمدة من خشبٍ مُسْنَدَةٌ على الجُدُر، فدلَّ هذا التشبيه على عدة أمور:

(١) أنهم لا يختارون الجلوس في أوساط المجالس مع حلقات المسلمين الذين يتقربون من الرسول للاستماع والانتفاع، بل يتبعُدون إلى الجُدُر ليُسْنِدُوا ظهورهم إليها بحسب الظاهر، وهم في الحقيقة لا يريدون الاستمتاع ولا الانتفاع.

(٢) أنهم مُسْتَكْبِرُونَ يَتَرَفَّعُونَ عن مشاركة عامَّة المسلمين في المجالس العامة.

(٣) أنهم إذا كانوا في مجالس المسلمين العامة، التي يكون فيها علم وموعظة وتلاوة لأيات كتاب الله، كانوا فيها أمثال الخشب المسند، لا يسمعون ولا يفقهون ما يقال فيها، وذلك لانصراف قلوبهم ونفوسهم وأفكارهم عن كلِّ ذلك، إنهم غير مؤمنين بالاصول فكيف يهتمون بمعرفة الفروع وكلِّ ما يتعلق بما لا يؤمنون به.

ويلاحظ هنا أنَّ الخشب عند علماء تعبير الاحلام تعبّر بالمنافقين، وبالنفاق.

الجملة الرابعة:

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾

الخائن الجبان المُنَدَّسُ في صفوف قوم، وهو ليس منهم، ويعمل لكيدهم وإفساد أوضاعهم، رغيدٌ شديد الحذر، مشدودُّ الجملة العصبية دوماً، لأنه في نفسه غير آمن، لذلك فهو يخشى كلَّ حركة تخالف الحركات المألوفة المعتادة، ويحسب أنه هو المقصود بها، فإذا نظر إليه أحدٌ نظرة غير عادية حسب أنه اكتشف أمره، وإذا أذيع نبأ عن خائن مُنَدَّسٍ حسب أنه هو المقصود، وإذا طرَّق باب داره طارِقٌ حسب أنه مطلوبٌ لمحاسبته ومحاكمته، وإذا سمع صيحةٌ تدعو إلى إلقاء القبض على الأعداء الخونة حسب أنه هو المقصود بها، وأبرز تعبير جامع يدلُّ على كلِّ ذلك وأشباهه بالنسبة إلى المنافقين قول الله عز وجل:

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾

أي: يحسبون كل صيحة بصيحها صائح ما بإنذار نازلة عليهم بما يكرهون، ويراد من عبارة «كل صيحة» بهذا التعميم نوع خاص من الصيحات، وهي التي تثير الخوف والحذر، مع ما في الإطلاق من تصوير حالة الذعر التي هم عليها في نفوسهم، حتى لو أن أحداً صاح صيحة لمنفعتهم لهزّ قلوبهم بخوف وحذر، ولو كان قريباً أو حبيباً.

والسبب في ذلك أنهم أعداء يلبسون ثياب أصدقاء وأهل ولاء.

الجملة الخامسة:

﴿هُرَّ الْعَدُوُّ﴾.

لفظ «عدو» معناه ذو العداوة، وهو يطلق على المذكر والمؤنث والواحد والمثنى والجمع.

والتعريف في لفظ ﴿الْعَدُوُّ﴾ لتعريف الجنس حتى كأنه مُعَيَّن، فهو يدل على وجود كامل حقيقة العداوة فيهم، وبهذا نفهم أن الحصر المستفاد من تعريف طَرَفِي الإسناد خاص بمن استوفى كامل عناصر العداوة، وهذا ينطبق تماماً على المنافقين، لأنهم أعداء للمسلمين من جهتين لا من جهة واحدة فقط:

الجهة الأولى: جهة كفرهم الذي يَبْطِنُونَهُ، فهم من هذه الجهة يشاركون سائر الكافرين في عداوتهم للمؤمنين، ولا سيما رسول الله ﷺ.

الجهة الثانية: جهة نفاقهم الذي أَلْجَأَهُمْ إِلَيْهِ جُبْنُهُمْ وَحِرْصُهُمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ فِي دُنْيَاهُمْ، فجعلتهم يُكَلِّفُونْ أَنْفُسَهُمْ دَوَاماً أَنْ يَتَظَاهَرُوا بِخِلَافِ مَا يَبْطِنُونَ، وَأَنْ يَحْرِمُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ يَوْذُونَ أَنْ يَفْعَلُوهَا بِحَرِيَّةٍ، وَأَنْ يَقُومُوا بِأَعْمَالٍ يَكْرَهُونَ عَمَلَهَا، وَيَبْذِلُوا أَمْوَالاً وَهُمْ كَارِهُونَ، وَيَشَارِكُوا فِي مَعَارِكٍ قِتَالِيَّةٍ لَا مَصْلَحَةَ لَهُمْ مِنْهَا، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِجِدْوَاهَا، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورٍ تَزِيدُ فِي نِسْبَةِ عداوتهم، وهذه الأمور لَا تُوجَدُ عِنْدَ الْكَفَّارِ الْمَصَارِحِينَ بِكُفْرِهِمْ وَعداوتهم.

فمن الحق تماماً أن يُقال على سبيل الحصر هُمُ الْعَدُوُّ، بمعنى: هم وحدهم الجامعون للعداوة الْقُصْوَى، بكل عناصرها المتصورة في الناس.

الجملة السادسة :

﴿ فَاحْذَرهُمْ ﴾ .

خطابٌ للرسول ﷺ . فلنلاحظ أن الرسول المؤيد بالوحي والملائكة وحفظ الله له من الناس، مأموراً بأن يحذر المنافقين، أي : بأن يتخذ كل الوسائل التي تحميه والمسلمين من مكرهم ومكايدهم، وأن لا يدع لهم منفذاً ينفذون منه للإضرار بالإسلام والمسلمين وإفساد أحوالهم وأوضاعهم وهم داخل المجتمع الإسلامي يترصون الدوائر، وبأن يوجه لهم عيون المراقبة الدائمة، حتى لا يأخذوا المسلمين على حين غرة وغفلة عن تحركاتهم الخفية ودسائسهم الماكرة، وأن لا يتخذ منهم بطانة تطلع على الأسرار وخفايا الخطط والتدبيرات !

وإذاً كان الرسول ﷺ مأموراً بأن يحذرهم كل هذا الحذر، لأنهم هم العدو الأكبر، فكيف يكون حال سائر المؤمنين، من أولياء أمورهم في القمة، حتى عامتهم في القاعدة العريضة الطويلة ؟!

إن جميع المؤمنين من بعد الرسول ﷺ مأمورون بهذا الأمر، باعتبار أنهم أكثر حاجة إليه، وأولى بهم أن يلتزموا من الرسول المؤيد من ربه .

الجملة السابعة :

﴿ قَاتِلْهُمْ أَفَّاَلَّهٗ ﴾ :

هذه جملة مُتَرَلَّةٌ منزلة جُمل التعجب، لجريانها مجرى الأمثال .

والمعنى : ما أشد قبائحهم وخبائثاتهم التي بلغت مبلغ أن يدعوا عليهم كل داعٍ مستجاب الدعوة بعبارة « قَاتِلْهُمْ أَفَّاَلَّهٗ » .

فالجملة إنشائية تحمل معنى التعجب من أمرهم والدعاء عليهم، وإيرادها عقب جمل خبرية تضمنت بيان طائفة من صفاتهم، يُشعر بأن الله عز وجل يبين لنا أن لهم مع تلك الصفات التي سبق بيانها صفات أخرى ذات شناعة لم تذكر في هذا البيان، فهم لا يليق بهم بحسب مجموع قبائحهم وخبائثاتهم إلا أن يقاتلهم الله رب العالمين، فليقل كل داعٍ يدعوه : قَاتِلْهُمْ أَفَّاَلَّهٗ . أي : اللهم تابع مقاتلتهم

الخفية للإسلام والمسلمين بمقاتلة من لدنك تُحِيطُ بها أعمالهم ومكائدهم وما يُمَكِّنُونَ نِياعاً، والتوجه لهذا الدِّعاء يحثُ المؤمنين على أن يكونوا شديدي الحذر من المنافقين.

الجملة الثامنة:

﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ؟﴾:

أي: كَيْفَ يُصْرَفُونَ؟!

﴿أَنَّى﴾: استفهامية وهي هنا بمعنى «كيف» مستفهم بها عن الحال، والاستفهام هنا إنكاري فيه معنى التعجب من أمرهم.

والمعنى: كَيْفَ يُصْرَفُونَ عن الحقِّ وهم في بيئة أمة مؤمنة مسلمة تَسْمَعُ الحكمة، وتَتْلُو آيات الله، وتقوم بأفعال الخير، وينبادل أفرادها فيما بينهم مشاعر الإيمان والرضا عن الله، والخوف من عذابه، والطمع في جنته، ويندفعون لبذل أموالهم وأرواحهم في سبيل الله؟؟؟
إنه لأمر يستحق العجب.

وإذا قلنا: إِنَّ ﴿أَنَّى﴾ ظرف مكان، أو ظرف زمان فعبارة ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ من توابع جملة ﴿قاتلهم الله﴾، والمعنى: قاتلهم الله في أي مكان يُصْرَفُونَ إليه، وفي أي زمان يصرفون فيه، ولا مانع من إرادة كل هذه المعاني فيما أرى، والله أعلم.

* قول الله عز وجل:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاهُ وَرَدَّهُمْ خَسْفًا وَقَالَتْهُمْ صُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

انتقلت السورة إلى بيان ظاهرة من ظواهر المنافقين في السلوك، وهي أنهم إذا بذرت منهم بادرة تبُّن عن سوء طوبيتهم، أو تدلُّ على عدم صدق ولانهم لله ولرسوله وللمؤمنين، ثم دعاهم بعض المؤمنين إلى رسول الله ﷺ كي يطلبوا منه أن

يدعوا الله لهم بأن يغفر لهم، كان منهم ما يلي :

أولاً: ففي الحركة التلقائية الأولى التي يقابلون بها هذه الدعوة، يُديرون ويميلون رؤوسهم بطريقة يذكّون بها على رفضهم الذهاب إلى الرسول، ورفضهم سؤاله أن يستغفر لهم، وعلى أنهم لا يريدون أن يستغفر لهم، نظير الذي كان من عبد الله بن أبي بن سلول، كما جاء في بعض الروايات التي سبق عرضها في سبب النزول.

والسبب في ذلك أنهم كافرون باطناً، فهم لا يؤمنون بأنهم عُصاة، حتى يشعروا بالحاجة إلى أن يستغفر الرسول لهم، وقد دلّ على هذه الحركة التلقائية قول الله تعالى :

﴿لَوْ زَاوَاهُمْ﴾ :

أي : أداروا وأمالوا رؤوسهم بسرعة وعُنف كما جاء في قراءة الجمهور، وهذا يكون من فريق منهم، و﴿لَوْ زَاوَاهُمْ﴾ : أي : بطريقة هادئة كما جاء في القراءة الأخرى، وهذا يكون من فريق آخر منهم.

ثانياً: وفي السلوك الدائم مع تنابع الأوقات، تكون حركاتهم إحجام أو إعراض أو إدار أو نأي وابتعاد، كلما دُعوا لعمل إسلامي فيه مرضاة لله، أو طاعة لرسوله، أو خدمة صادقة لجماعة المؤمنين، ويصرفون عن ذلك من يتأثر بأقوالهم ووساوسهم وتسويلاتهم.

وقد دلّ على هذا السلوك المتتابع قول الله تعالى :

﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ :

فعل «يَصُدُّونَ» كما سبق أن عرفنا لازم ومتعدّد، ويمكن حمله هنا عليهما معاً، فهم بأنفسهم يصدّون، ثم هم يصدّون غيرهم من الذين يتأثرون بهم.

ثالثاً: وفي حالتهم النفسية التي قد تبدل لها آثار ظاهرة في سلوكهم من جنبها، هم مُستَكْبِرُونَ، يستكبرون عن اتباع الرسول وطاعته ويرَوْنَ أنهم أحقّ بالزعامة والقيادة، وهذا ينطبق على طائفة منهم، كعبد الله بن أبي بن سلول، وقد

دلّ على هذه الحالة قوله تعالى :

﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ .

هذه الظاهرات والصفات تتكرّر في فريق من منافقي كلّ عصر، وكلّ أمة .

وفي التعقيب على موضوع استغفار الرسول لهم لوحصل ، أبان الله عزّ وجلّ أن استغفار الرسول لهم لا ينفعهم ، بسبب أنهم كافرون باطناً ، إنّما قد ينفع دعاء الرّسول بالمغفرة إذا دعا لمؤمنٍ عاصٍ ، فاستغفار الرسول وعدم استغفاره لهم سواء ، فلو دعا الرسول لهم بالمغفرة لما غفر الله لهم ، إذ لو غفر الله لهم لجعلهم بالمغفرة من أهل الهدى ، والله عزّ وجلّ قد قضت حكمته وعدله أن لا يجعل فاسقاً من دركة الكفر من أهل الهدى ، إنّما قد يجعل من أهل الهدى عنده من كان مؤمناً عاصياً إذا تاب واستغفر ، أو دعا الرسول له بأن يغفر الله له ، أو دعا له صالح من المؤمنين ، أو نحو ذلك .

والقاعدة الرّبانيّة مبينة في قول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء / ٤ مصحف /

٩٢ نزول) :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ...﴾ ﴿٤٨﴾ :

ففي بيان أن استغفار الرسول لهم لودعا لهم بالمغفرة لا ينفعهم قال تعالى خطاباً لرسوله :

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ .

هذا البيان دمج المنافقين بأنهم كافرون باطناً ، وقطع أمل من يرجو منهم أو من أقاربهم أن يغفر الله لهم ، ولو استغفر الرسول لهم ، فحالهم حالة خالد في النار ما لم يتب التائب منهم بنفسه ، ويؤمن إيماناً صحيحاً ، ويتخلص من النفاق ، قبل أن تدركه منيته .

وبعد بيان هذه الجزئية الخاصة بالمنافقين أبان الله عزّ وجلّ القضية الكلية

التي تشملُ المنافقين وسائر الكافرين والمشركين ، فقال تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٥﴾ :

أي: لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ فَيُخْرِجَ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرِ، بِمَعْنَى: لَا يَحْكُمُ لَهُمْ بِالْهَدَايَةِ، وَلَا يَغْفِرُ لَهُمْ حَتَّى يَكُونُوا بِالْمَغْفِرَةِ مِنَ الْمَهْدِيِّينَ، الَّذِينَ يَكُونُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَلَوْ بَعْدَ أَنْ يَأْخُذُوا نَصِيحَتَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ، فَالْحُكْمُ بِالْهَدَايَةِ، وَالْمَغْفِرَةُ الَّتِي تَجْعَلُ الْعَاصِيَ مِنْ أَهْلِ النِّجَاةِ وَالْهَدَايَةِ، إِنَّمَا يَكُونَانِ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ فَقَطْ، أَمَّا مَنْ هَبَطَ عَنْ أَدْنَى دَرَجَاتِ الْإِيمَانِ، وَدَخَلَ فِي ذُرَكَاتِ الْكُفْرِ وَلَوْ مِنْ مُسْتَوَى أَخْفَاهَا كُفْرًا فَلَا حَظَّ لَهُ بِشَيْءٍ مِنْهَا.

* قول الله عز وجل:

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَقَّ نِنْفِصُوا لِلَّهِ خَرَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۖ﴾.

تحدثت هذه الآية عن ظاهرة تخذيل عن الرسول ﷺ كان يمارسها ويكررها قادة المنافقين في المدينة، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول، إذ كانوا يقولون لجماعتهم من الأنصار: لَا تُنْفِقُوا مِنْ أَمْوَالِكُمْ عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مِنْ فَقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى يَتَفَرَّقُوا عَنْهُ، فَإِذَا انصرفوا عن مجلسه أكرمتهم رسول الله بما تريدون إكرامه به، وقد يعلنون وصيتهم هذه بأن هؤلاء الفقراء من المسلمين يعتادون أن يلازموا مجلس الرسول لينالوا مما تقدمونه أنتم للرسول، وتضطرون أنتم لأن تزيدوا مما تقدمون للرسول، لَأَنَّهُ سَيَذْعُوهُمْ لِمَشَارِكَةِ، وَلَا يَسْتَأْذِنُ بِهِ لِنَفْسِهِ.

وما يريدونه ضمناً مع ذلك هو أن يتفرق هؤلاء الناس عن مجالس الرسول ﷺ دوماً حَتَّى لَا يَكُونَ لَهُ مُجِبُونَ مُلَازِمُونَ مِنْ جَمَاهِيرِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْإِرَادَةُ لَا يَصْرَحُونَ بِهَا بَلْ يُغْلَقُونَهَا بِعِبَارَةٍ تَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى الْأَوَّلِ، وَهُوَ ائْتِظَارُ انْفِصَاصِهِمْ لِتَقْدِيمِ مَا يَرِيدُونَ إِكْرَامَ الرَّسُولِ بِهِ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ.

وهذا الكلام يقولونه لجمهور المؤمنين من الأنصار الذين يستمعون لأقوالهم.

وفي التعقيب على هذه الظاهرة أبان الله عز وجل لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنَّهُ قَدْ جَعَلَ لَهُمْ ظُرُوفًا يَغْنَمُونَ عَنْ طَرِيقِهَا سَعَادَةً دُنْيَاهُمْ وَأَخْرَاجَهُمْ فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، إِذْ هِيَ لَهُمْ أَنْ يُنْفِقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمُ الَّتِي وَهَبَهُمْ إِيَّاهَا فِي سَبِيلِهِ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ،

ولو شاء لأَغْنَى ذَوِي الْحَاجَاتِ عَنْ نَفَقَاتِ ذَوِي الْأَمْوَالِ فَحُرِّمُوا مِنْ ظُرُوفِ اغْتِنَامِ الْأَجْرِ الْعَظِيمِ، أَوْ لَعَكَسَ الْأَمْرَ فَجَعَلَ ذَوِي الْأَمْوَالِ هُمُ الْفُقَرَاءُ أَصْحَابُ الْحَاجَاتِ، وَجَعَلَ الْفُقَرَاءَ هُمُ أَصْحَابُ الْمَالِ وَالْيَسَارِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ لِلَّهِ خَزَائِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّهَا، يَهْبُ مِنْهَا بِحَسَبِ حِكْمَتِهِ وَمَشِيتِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ مَا يَشَاءُ لِيَتْلُو عِبَادَهُ بِالْقَبْضِ وَالْبَسْطِ، وَالْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَيَحَاسِبَهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ فِيمَا ابْتَلاَهُمْ بِهِ، وَفِي الْإِشَارَةِ إِلَى هَذِهِ الْمَعَانِي قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾:

أي: وبما أَنَّ خَزَائِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَهُ سُبْحَانَهُ فَهُوَ الَّذِي يَعْطِي مِنْهَا، وَهُوَ الَّذِي يَمْنَعُ، وَهُوَ الَّذِي يَسْطُو وَهُوَ الَّذِي يَقْبِضُ، وَقَضَّتْ سِتَّهُ أَنَّ مِنْ أَنْفَقِ ابْتِغَاءِ مَرْضَاةِ رَبِّهِ أَخْلَفَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَضَاعَفَ لَهُ الْأَجْرَ، وَأَنَّ مَنْ أَمْسَكَ أَمْسَكَ اللَّهُ عَنْهُ، أَوْ خَرَمَهُ مِنْ أَنْ يَسْتَمْتِعَ أَوْ يَنْتَفِعَ بِمَا وَهَبَهُ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْمَعَانِي الدَّقِيقَةَ الَّتِي تَنْجَرُ مِنْ مَنَابِعِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَبِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَأَنَّ لَهُ خَزَائِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَفْقَهُهَا الْمُنَافِقُونَ، لِأَنَّ أَذْهَانَهُمْ وَأَفْكَارَهُمْ لَا تَتَجَاوَزُ ظَوَاهِرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمَصَالِحَهُمُ الْقَرِيبَةَ الْعَاجِلَةَ مِنْهَا، وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ مَعْرُضُونَ، أَوْ مُنْكَرُونَ، وَعَنِ الْعَوَاقِبِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا غَافِلُونَ.

• قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾.

وَتَحَدَّثَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَنْ ظَاهِرَةٍ تَحْتَضِي رَأْسَ الْمُنَافِقِينَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَرْزَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُهَاجِرِينَ، بَيْنَ جَمَاعَتِهِ فِي غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، بَأَنَّهُ إِذَا رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَهُنَّ مِنْهَا، زَاعِمًا أَنَّهُ هُوَ وَأَنْصَارُهُ فِي الْمَدِينَةِ هُمُ الْأَعَزُّ الْأَقْوَى، وَأَنَّ الرَّسُولَ وَالْمُهَاجِرِينَ هُمُ الْأَضْعَفُ الْأَذَلُّ، كَمَا سَبَقَ بَيَانُ هَذَا فِي رَوَايَاتٍ سَبَبِ النُّزُولِ.

وذكر النص هذه الحادثة بأسلوب الحديث عن عموم المنافقين، دون ذكر قائلها بالتعيين، لأنَّ عُمومَ المنافقين موافقون على مقالة رأسهم، وَلَوْ وَجَدُوا أَنَّ الفرصة مواتية لهم لاجتمعوا ولقاتلوا الرسول والمؤمنين معه، ولا يخرجوهم من المدينة.

وفي التعقيب على ظاهرة التحدي هذه أبان الله عز وجل أَنَّ القُوَّةَ الغالبة في المدينة، هي لله ولرسوله وللمؤمنين، ولكنَّ المنافقين لا يعلمون هذه الحقيقة، ويَحْسَبُونَ أَنَّ لديهم من القوة ما يستطيعون بها إخراج الرسول والمهاجرين إلى المدينة من المؤمنين خارجها مطرودين بالقوة، وبسبب ذلك قالوا مقالتهُم: لِيُخْرِجُنَّ الْأَعْزُ مِنْهَا الْأَذْلَ.

كما أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين الصادقين دائماً في كل حين.

* * *

* قول الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْتُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْفِكَ أَحَدُكُمْ أَلْمُوتَ يَقُولُ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٣﴾﴾.

الحديث في السورة عن المنافقين وطائفة من صفاتهم وظواهر من سلوكهم وبعض مواقفهم من الإسلام والرسول والمؤمنين، استدعى تذكير الذين آمنوا ببعض ما يتطلب الموقف التذكير به، تحذيراً لهم من أن يُستدرجوا إلى مزالق قد تدفع بهم إلى النفاق، وتَجْعَلُهُمْ يَنْغِمُونَ في أحواله.

وهذا الاستدراج قد تكون بدايته بانحراف يسير عن صراط الله المستقيم، ثم يميل خط الانحراف بعيداً عن الصراط، فإلى المزالق، فإلى الهاوية، فإلى التهلكة العظمى.

وكانَ بدايةَ علَّةِ المنافقين النفسية بوجه عام هي تعلقُهُم الكامل وانشغالُ

قلوبهم بالأموال والأولاد من أمور الحياة الدنيا، فحذّر الله الذين آمنوا من أن تلبيهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله.

كما دعت مناسبة قول المنافقين لبعض المسلمين من الأنصار: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا، توجية هذا التحذير نفسه للذين آمنوا، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

إن من وجه كل هم في الحياة الدنيا للأموال وجمعها وعذها وتنميتها وتسميرها، وللأولاد وحاجاتهم ومشاكلهم الكثيرة التي لا تنتهي، اضطّر أن يُنفق في ذلك كل طاقات فكره وحركته نفسه، وأن يشغل به كل ساحة تصوراته المتحركة العاملة، فتلبيته الأموال والأولاد عن ذكر الله، أي: عن ذكر كل ما يتصل بالله من عقائد إيمانية، وواجبات أمر الله بها، ومُحرّمات نهى الله عنها، وصراط مستقيم. كلّف الله عباده أن يسلكوه، جزاءً بالثواب أو بالعقاب، إلى سائر ما جاء عن الله من أمور الدين.

ومتى ابتعد الإنسان عن ذكر هذه الأمور المتصلة بالله تعالى وطال عليه الأمد نسيها، ومتى نسيها أهمل العمل بمقتضاها، وحل محلها في ساحة تصوراته العاملة المتحركة مفهومات أخرى، هي من وادي مفهومات أهل الكفر التي يجعلها الكافرون قواعد لتحقيق مطالبهم من الحياة الدنيا، وليس في هذه المفهومات شيء يخدم قضايا الإيمان بالله واليوم الآخر.

ومن سيطرت عليه هذه المفهومات اتفق في سلوكه في الحياة مع الكفرة الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، وقد لا يبقى لديه إلا بقايا الانتساب لدين اسمه الإسلام، لكن مفهوماته منسيّة متروكة غير معمول بها، والمنسي المتروك هو بحكم المعلوم، فيكون بذلك كالمنافق مسلماً اسماً، غير مُسلم في مفهوماته وسلوكه وأعماله في الحياة.

وكانت بداية انحرافه أن الأموال والأولاد ألتهته عن ذكر الله، وما يتصل بالله عز وجل.

فنهى الله الذين آمنوا عن أن تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله، حماية لهم من الانحراف، فالابتعاد، فالانزلاق، فالسقوط في الهاوية، فالانغماس في أحوال النفاق.

وأبان الله عز وجل لهم أن من فعل ذلك كانوا هم أكبر الخاسرين، فقال تعالى :

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝﴾

لقد كان لديهم كنز الإيمان العظيم، والعمل بمقتضاه على مقدار اجتهاد كل منهم، ورغبته فيما عند الله من أجر جسيم، وثواب عظيم، فلما ألتهتهم أموالهم وأولادهم، وجرهم ذلك إلى ما جرهم إليه من أحوال، خسروا ذلك الكنز، فكانوا أكبر الخاسرين.

﴿فَأُولَٰئِكَ ۝﴾

أي : فأولئك البعداء عن مراتب المؤمنين العاملين.

﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝﴾

أي : هم الذين يختص بهم عنوان «الخاسرين» من دركة الخسران الأكبر، فالتعريف في لفظ [الخاسرين] هو لبيان أن لفظ «خاسره» قد جمع كل عناصر الخسران، والقصر هنا إضافي، أي : بالإضافة إلى سائر الخاسرين من فئة المؤمنين.

بعد ذلك نهاهم الله عن أن يستجيبوا لوساوس المنافقين وذمائمهم، في موضوع الإنفاق في سبيل الله، بأسلوب الأمر بأن يتفقوا مما رزقهم ربهم من رزق في الحياة الدنيا، قبل أن يأتيهم الموت، فيقطع به عملهم في الحياة الدنيا، وحينئذ لا يستطيعون تذكرك الأمر بحال من الأحوال، ويتركون أموالهم بسلطان الرب القاهر في الحياة الدنيا، ليخلفهم عليها الوارثون، ويحاول من نزل الموت بساحته منهم أن يؤخره ربّه إلى أجل قريب، ليتصدق وليكون من الصالحين، لكنه مطلب لا يستجاب له، فقد انتهت رحلة الامتحان عند حلول أجل الموت، وانقطع

كل عمل، ودخل الإنسان عتبة اليوم الآخر. فقال الله تعالى:

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾﴾:

أي: هلاً أخرتني في الحياة الدنيا إلى أجل قريب يسمح لي بأن أمرّ أو أعمل متصدقاً في سبيلك.

﴿فَأَصَّدَّقَ﴾:

أصلها فأنصتق، سكنت التاء وأدغمت بالصاد، فصارنا صاداً مشددة، التصدق هو بذل الصدقة تقريباً إلى الله، والصدقة هي المال المبذول في ذلك.

﴿وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾:

أي: فإذا بذلت الصدقات كنت من الصالحين، وذلك لأنه حينئذ يشعر بأن إمساكه لما كان يجب عليه أن يبذله من أموال جعله من القوم غير الصالحين في موازين الرحمن.

لكن طلبه هذا يرفض كسائر طلبات تأخير الأجل عند نزول الموت من أي طالب، مؤمناً كان أو كافراً، وقد دلّ على أن طلبه لا يستجاب له قول الله عز وجل:

﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾:

أي: ولن يؤخر الله نفساً ما، في الحياة الدنيا مهما علا شأن هذه النفس أو نزل إذا جاء أجل موتها، المقدر لها في علم الله عز وجل.

وختم الله السورة بالتذكير بكيفية الكليات الاعتقادية، وهذه الكلية تناسب ما جاء فيها من أمر بالعمل الصالح، ونهي عن العمل السيئ، فقال تعالى:

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

الخبرة هي العلم بالعمل عند ممارسته، على سبيل الشهود والحضور، المصاحب لكل أجزاء العمل ظواهره وبواطنه، وهي غير العلم بالعمل قبل

حصوله، أو العلم به بعد حصوله عن طريق الأخبار، أو ما يُدَوَّن في السَّجَلَاتِ والصُّور.

إنَّ الخبير بَعَمَلِ نفسه، هو الذي يمارسه، فيجمع عليه لدى ممارسته له كُلُّ فكره ومشاعره النفسية، ويَحُسُّ بكلِّ بواطن عمله وظواهرها.

كذلك علم الله بأعمال الناس هو من قبيل عِلْمِ الخبير جَلَّ وعلا.

وانتهت السورة



النص السابع والعشرون

وهو من سورة (المجادلة / ٥٨ مصحف / ١٠٥ نزول)
«السورة (١٩) من التزيل المدني نزلت بعد سورة المنافقون»
الآيات من (٥ - ١٠)
حول محادثة المنافقين لله ورسوله وتناجيهم في السر بذلك
وتحيتهم الرسول تحية منكرا

* قال الله عز وجل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا كَمَا كُنْتُمُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَفَدَأَنزَلْنَا إِلَيْنِكَ يَنْتَحِبُ
وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ
وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ
مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آذَنٌ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ
مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ شُؤَاعِنِ
التَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا شُؤَاعِنُوا عَنْهُ وَيَنْتَحِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّهُمْ وَالْعَدُوْنَ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ
خَبَرُوكَ بِمَا لَمْ يَحْجُبْكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا بَصُلُواهَا
فِيئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّا تَنْتَحِبْتُمْ فَلَا تَنْتَحِبُوا إِلَّا لِيُمْرَأَ الْعَدُوْنَ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ
وَتَنْتَحِبُوا بِاللَّهِ وَالْقَوَىٰ وَأَقُولُوا اللَّهُ الَّذِي إِلَيْنَا تَحْشَرُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا التَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

* * *

(١)

ما في النص من القراءات المتواترة
(من الفرش وشيء من الأداء)

* في الآية (٧):

(١) قرأ جمهور القراء [مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى] بالياء التحتية من «يكون» وقرأ أبو جعفر المدني: [مَا تَكُونُ] بالناء الفوقية.

القراءتان وجهان عريان، لأن كلمة [نَجْوَى] مجازية التانيث، فيجوز في فعلها التذكير والتانيث.

(٢) قرأ جمهور القراء العشرة: [وَلَا أَكْثَرُ] بفتح راء «أكثر».

وقرأ يعقوب البصري: [وَلَا أَكْثَرُ] بضم الراء.

القراءتان وجهان عريان، فالفتح على تقدير عطف «أكثر» على لفظ «نَجْوَى» المجرور بحرف الجر الزائد «مِنْ» والفتحة بدل الكسرة لأن «أكثر» ممنوع من الصرف يجر بالفتحة، والرفع على تقدير عطف «أكثر» على محل «نَجْوَى» المرفوع بـ «يكون» محلاً، وإن كان مجروراً لفظاً.

* في الآية (٨):

(١) قرأ جمهور القراء العشرة: [وَيَتَنَاجَوْنَ].

وقرأ حمزة ورؤيس عن يعقوب: [وَيَتَنَجَوْنَ].

القراءتان بمعنى واحد: ففعل «تَنَاجَى» وفعل «اتَّجَى» يأتیان بمعنى المسارة في الحديث.

(٢) في كلمة [وَمَعْصِيَتٍ] في هذه الآية وفي الآية (٩):

وقف جمهور القراء على آخر الكلمة بالهاء، ووقف ابن كثير المكي، والبصريان أبو عمرو ويعقوب، والكسائي الكوفي بالناء الساكنة، وهي وجوه من الأداء.

(٢)

موضوع النصّ وما روي من سبب نزوله

موضوع النصّ: نزلت سورة (المجادلة) بعد نزول سورة (المنافقون) فجاء فيها متابعةً بيانٍ ومعالجةً لطائفةٍ من أحوال المنافقين وسلوكهم ومواقفهم من الإسلام والرسول والمؤمنين.

وقد جاء في هذا النصّ من هذه السّورة بيان ما يلي:

الأول: أن المنافقين يمارسون تبعاً الوقوف في حدودٍ معارضةٍ ومخالفةٍ لحدود الله ورسوله، بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، كما يفعل الكافرون الصرحاء، إلا أن المنافقين يستخفون بأعمالهم ومواقفهم.

الثاني: أن المنافقين يتّاجون بأحاديث سرّية تشتمل على ما فيه إثم وعدوان ومعصية للرسول، مع أن الله عزّ وجلّ قد نهاهم فيما سبق عن هذا التناجي، وحذّره من في الآية (١١٤) من سورة (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول) وقد سبق شرح ذلك.

الثالث: أن المنافقين يُقلّدون اليهود في تحياتهم للرسول ﷺ، ضمن لحن القول الذي يمارسون، وهو ما جاء بيانه في النصّ (٢٠) من سورة (محمد) الآية (٣٠) منه، كأن يقولوا: السّام عليك بدل السّلام عليك.

ما روي من سبب النزول:

لم أجد في أسباب النزول المروية ما يُفيد في تدبّر هذا النصّ، وقد رأى مجاهد، ومقاتل بن حيان، وغيرهما من أهل التأويل، أن النصّ نزل بشأن ما كان يفعل اليهود من تّاج على رأى المسلمين لإغاثتهم، وإثارة الشكوك في قلوبهم.

لكنّي نظرت في جملة النصّ ودلالاته فرأيت أن المقصود به المنافقون، ويظهر هذا لدى تدبّر فقراته، ولدى النظر في النصّ الذي جاء بعده في السّورة، والله أعلم.

(٣)

المفردات اللغوية في النص

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ﴾ :

المحاذة هي ملازمة أحد الفريقين حدًّا مقابلًا أو مناقضًا أو معارضًا للحد الذي عليه الفريق الآخر، على سبيل الجداء والمخالفة والمضادة. يقال لغة: حدًّا فلانٌ فلاناً إذا عصاه وغازبه.

قال الزجاج: المحاذة أن تكون في حدٍّ يخالف صاحبك، وأصلها الممانعة. وهي فيما يظهر مشتقة من الحد الذي يوضع على الأرض لفصلها عن غيرها، وذلك لأن كل فريق من المتعادين يتخذ لنفسه حدًّا مضاداً لحد الفريق الآخر.

﴿كُنُوا كَمَا كُنْتُمُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ :

أي: أذلوا وأخزوا وأغيظوا، كما فعل بالذين من قبلهم من المنافقين، أمثال عبد الله بن أبي بن سلول، إذ كُتِبَ عقب غزوة «بني المصطلق» = «المُرَيْسِع» فلم يدخل المدينة إلا ذليلاً، وكان قد قال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ :

أي: عذاب مُذِلٌ مُخْزٍ.

﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَشَهِيدٌ﴾ :

أي: حاضر مراقب له مراقبة تامة، تتناول كل ما هو عليه من صفات وأحوال، وما يجري عليه أو فيه أو منه من أحداث، بالبصر والسمع وكل قوة مدركة، تدرك كل دقيقة فيه ظاهرة وباطنة، بعلم محيط شامل، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، إذ كل دقيقة في الوجود مهما كانت خفية، أو أمراً معنوياً فهي مما يُطلَقُ عليه لفظ «شيء» والله شهيد عليه، ولفظ «شهيد» على وزن «فعليل» من الصيغ الدالة على غاية المعنى.

﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ ﴾ :

يقال لغة: نَجَا فلان فلاناً الحديث، يَنْجُوهُ نَجْوًاً وَنَجْوَى، أي: أسر إليه الحديث.

فالنجوى: الإسرار بالحديث، ويُطلق هذا اللفظ أيضاً على المتناجين وهذا الإطلاق هو من قبيل الوصف بالمصدر، ويستوي فيه الواحد وغيره، يقال: هُوَ وهما وهُم نَجْوَى.

ويقال: تناجى الرجلان، إذا تَسَارَّا، وتناجى القوم إذا تَسَارَّوا وكذلك يقال: اتَّجَى الرجلان، واتَّجَى القوم، إذا تحدَّثوا فيما بينهم سرّاً.

﴿ لَوْلَا يَعَذِّبُنَا اللَّهُ ﴾ :

«لولا» هنا بمعنى «هلا» والمراد: لِمَ لم يُعَذِّبْنَا الله على أعمالنا التي فيها محادثة للرسول، لو أن محمداً رسول الله حقاً؟! أي: إنهم يعتبرون عدم تعجيل الله معاقبتهم دليلاً على عدم صدق محمد في ادّعائه أنه رسول الله.

والله من سته أن يُنْهَلَ وَيُوَخَّرَ العذاب، على أن الدنيا هي في الأصل دار ابتلاء، وليست دار جزاء، وإذا نزل بعض العقاب فيها فللتذكير والنَّهْيِ وَمَوْعِظَةٍ مَنْ لم يَنْزِلْ به العذاب بَعْدُ.

﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ :

أي: تكفيهم جهنم بما تشتمل عليه من عذاب يوم الدين لَهُمْ ولكُلِّ من يستحقُّ العذاب من أهل الكفر والعصيان، فهل يريدون عذاباً معجلاً أيضاً؟!

﴿ بِالْآثِمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ﴾ :

الإثم: الذنب، وقد أُطْلِقَ في القرآن على الكبائر والصغائر وما بينهما.

وَالْعُدْوَانُ: الظُّلْمُ وتجاوز الحدِّ المأذون به، وهو مصدر عَدَا عليه، بمعنى ظلمه، يَعْدُو عُدْواً، وَعُدُوّاً، وَعُدْوَاناً، وتعداء.

وُخِصَّتْ معصية الرسول ﷺ بالذكر هنا لأنَّ المعصِيَيْنَ بالذكر كانوا يَتَقَصَّدُونَ

معصية الرسول ﷺ على وجه الخصوص لتفاهمهم، وكرهيتهم التي يظنونها للرسول.
﴿وَتَنَجَّوْا إِلَى الْبِرِّ وَالْتَّقْوَى﴾:

البر: هو التوسع في أعمال الخير من نوافل العبادات فوق حدود الواجبات.
والتقوى: تكون بفعل الواجبات وترك المحرمات.
﴿لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾:

أي: ليحزن الشيطان الذين آمنوا. يقال لغة: حزن الأمر فلاناً يحزنه حزناً، إذا انزل به الغم أو جعله يتألم على ما فات.

(٤)

مع النص في التحليل والتدبر

• قول الله عز وجل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا كَمَا كَتَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَفَدَأَنزَلْنَا آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ
وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنْشِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَخَصَّنَهُ اللَّهُ
وَسُوَّهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾.

على الرغم من الذي حدث لرأس منافقي المدينة عبد الله بن أبي بن سلول
وجماعته من المنافقين، حين وصولهم إلى المدينة، بعد الانتهاء من غزوة بني
المصطلق = المرسيب، من إذلال وإهانة وكبت، وكان قد تبجح بين جماعته من
قومه بقوله: «لَيْسَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُنَا عَنْهَا أَذِلَّةً»، فلم يدخل هو إلى
المدينة إلا ذليلاً، ويأذن من الرسول ﷺ، إذ حبسه أبنته المؤمن الصادق عند مكان
الدخول إليها حتى يأذن له الرسول ﷺ.

وعلى الرغم من نزول الآيات البينات الواعظات في سورة (المنافقون) التي
نزلت قبل سورة (المجادلة)، والتي فضحتهم، وأبانت أنهم كاذبون، ولا يفقهون،
وفاسقون، ولا يعلمون، وجاء فيها التحذير منهم، وإشعارهم بأن الله يقاتلهم، أي:
يحبط ما يقومون به من حرب خفية مكريّة باردة.

على الرغم من كل ذلك بقي فريق من المنافقين يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، أي: يقفون في حدٍّ مضادٍّ أو حُدُودٍ مضادةٍ لِحُدُودِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، موقف المعادي المتربص للقتال، متى سنحت له الفرصة أن يقاتل.

لَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ أَجِبْنُ مِنْ أَنْ يُقَاتِلُوا الرَّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، إِنَّ الرُّعْبَ الخالغ لقلوبهم يجعلهم مكبوتين دوماً، أي: أذلاءً مُخْزِينَ، بما قَضَى اللَّهُ بِشَأْنِهِمْ مِنْ كَيْتٍ ملازم لهُمْ لَا يُغَارِقُهُمْ، مُنْذُ اضْطَرَّتْهُمْ خِلَافَتُهُمْ أَنْ يَسْلُكُوا مَسْلَكَ النِّفَاقِ، وَهُمْ مُلَاحِقُونَ بِكَيْتِ اللَّهِ لَهُمْ دوماً.

فقال الله تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ :

أي: إِنَّ الَّذِينَ اسْتَمَرُّوا يقفون مواقف العداء ضدَّ دين الله وضدَّ رسوله في السَّرِّ من المنافقين، هم قَوْمٌ قَضَى اللَّهُ بِشَأْنِهِمْ أَنَّهُمْ أَذِلَّةٌ مُخْزِيُونَ مُكْبُوتُونَ جبناءً، لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَقِفُوا مواقف حَرْبٍ علنيَّةٍ ضدَّ الرسول والذين آمنوا معه، شأنهم في هذا كشأن ما حصل للذين من قبلهم في أعقاب غزوة بني الْمُصْطَلِقِ، من كَيْتٍ وإذلالٍ وخِزْيٍ، بعد الذي كانوا قد تَبَجَّحُوا به في السَّرِّ.

﴿وَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْبَيِّنَاتِ﴾ :

أي: بشأن أولئك الذين كُتِبُوا من قبلهم، وهي الآيات التي أنزلها الله في سورة (المنافقون).

وفي هذا إشارة إلى أَنَّ الَّذِينَ اسْتَمَرُّوا يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لم يتعظوا بما حصل لإخوانهم في الواقع الذي كان قاسياً على نفوسهم وقلوبهم، ولا بالآيات البينات المنزلات بشأنهم.

فلا يتصوَّروا بعد هذا أَنَّ عقابهم سيقصر على إذلالهم وإخزائهم في الحياة الدنيا، بل لهُمْ أَيْضاً في الآخرة عَذَابٌ مُهِينٌ، فيه إِذْلَالٌ وإخْزَاءٌ، إِذَا اسْتَمَرُّوا على نفاقهم، وماتوا كافرين، لأنَّهُمْ يَدْخُلُونَ ضمن عموم الكافرين، ويشملُهُم العذاب المقرَّر للكافرين المستكبرين عن طاعة الله واتباع رسوله وطاعته، فقال تعالى :

﴿وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنْتَشَرُ بِمَا عَمِلُوا أَمْثَلُ أَصْنَهُ
اللَّهُ وَنُصُوءُهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾ :

أي : ولجميع الكافرين ومنهم المنافقون الذين يظنون الكفر عذابٌ مُدِلٌ مَخْزٍ
لَهُمْ، يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا لِلْحِسَابِ، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء بالعدل،
الذي سبق الوعيد به، منذ يوم الابتلاء، فَيَذَرُ يَوْمَئِذٍ حَسَابَهُمْ لفصل القضاء بشأنهم
بإنابائهم بكل ما عَمِلُوا في الحياة الدنيا.

﴿فَيُنْتَشَرُ بِمَا عَمِلُوا﴾ :

أي : فَيُخَبِّرُهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِكُلِّ مَا كَانُوا قَدْ عَمِلُوا في الحياة الدنيا، وهذا
الإنباء يكون عن طريق صُحُفِ أَعْمَالِهِمْ، وعن طريق الملائكة الْمُوَكَّلِينَ بِهِمْ،
وربما بإنباء اللَّهِ لَهُمْ بنفسه مباشرة :

﴿أَمْثَلُ أَصْنَهُ اللَّهُ﴾ :

أي : حفظه بعلمه، وَجَمَعَهُ جَمْعًا تَامًا لم يَذْغ صغيرة ولا كبيرة إلا جمعها.

﴿وَنُصُوءُهُ﴾ :

أي : وَنُصُوا مَا كَانُوا قَدْ عَمِلُوا في الحياة الدنيا، لَكِنَّهُمْ جِنَمًا يَذْكُرُونَ بِهِ
يَتَذَكَّرُونَهُ تَذَكُّرًا تَامًا، بدليل قولِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (النازعات) / ٧٩ مصحف /
٨١ (نزل) :

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿١٢﴾﴾ :

أي : مَا عَمِلَ في الحياة الدنيا، وهذا تَذَكُّرٌ بَعْدَ نَسْيَانٍ، جمعاً بين النُصَيْنِ
وإحصاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِكُلِّ مَا عَمِلُوا هو جزئية من كُليَّةٍ عامَّةٍ من كليات صفات الله
تبارك وتعالى، هذه الكليَّة دَلَّ عليها قوله تعالى :

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾ :

أي : والله مُهَيِّئٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ في الوجود، دقيقاً كان أو جليلاً، وهو عليه

شاهد حاضر معه، مراقب له، عليهم بدقائقه، مُدْرِك لكل صفاته وأحواله وتغيراته، لا يَنْدُ عن علمه منه شيء.

* قول الله عز وجل:

﴿الَّذِينَ تَرَى اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ الَّذِينَ تَرَى الَّذِينَ يُنَاجُونَهُ ثُمَّ يَعُوذُونَ لِمَا نُوحُوا عَنْهُ وَيَنْتَجِبُونَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصَلَوْنََهَا قُلْ أَلَمْ يَصِيرْ ﴿٨﴾﴾

في هاتين الآيتين يُبَيِّنُ الله عز وجل مُتَكْرِرِينَ مِنْ مُتَكْرَرَاتِ الْمُنَافِقِينَ فِي السُّلُوكِ:

المنكر الأول: تناجيهم في السرّ بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، وهذا التناجي قد يكون في خلواتهم، وقد يكون وهم في مجالس المسلمين، إلا أنهم يتهايمون فيما بينهم بما يريدون التحدث به، وكان الله عز وجل قد نهى عن مثل هذا التناجي، وحذّر منه بقوله تعالى في سورة (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول):

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ أَصْلَحَ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٥﴾﴾ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولَوْنَاهُ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٦﴾﴾

وقد سبق شرح هذه النجوى وهذه المشاققة للرسول، في النص (١٧) من هذه الدراسة، ونلاحظ أن التعبير بعبارة: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾ في سورة (النساء) نظير التعبير بعبارة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُخَادُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في سورة (المجادلة).

ونلاحظ أن التناجي في السِّرِّ بما لا خير فيه هو من مشاقفة الرسول التي حذر الله منها في سورة (النساء) وأن هذا التناجي أمرٌ قد نهى الله عنه وحذر تحذيراً شديداً من ممارسته، قد دلَّ عليهما الإحالة عليه في سورة (المجادلة) بقوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِاللَّسْرِ وَالْعُنُونِ وَمَعَصِيَتِ الرَّسُولِ﴾:

وبهذا يتكامل النصان في البيان، ويدلُّ اللاحق على المراد من السابق إذا خفي على المتدبر فهم المراد منه، أو انصرف ذهنه لأمرٍ آخر.

وأنبه هنا على أن المتدبر الذي لا يلاحظ ترتيب نزول النصوص القرآنية كما جاء في ترتيب النزول (وهو غير ترتيب سور القرآن المتبع في المصحف) لا يستطيع إدراك الإحالات القرآنية على ما سبق في النزول، ولا يستطيع معرفة التدرج في الأحكام وأساليب التربية، وعمليات التكامل الفكري في الموضوعات، ولا معرفة الناسخ من المنسوخ إن وُجد، وقد بعّل نصاً مكّي النزول بحادثة مدنية الوقوع على أنها سبب لنزوله، إلى غير ذلك من أخطاء^(١).

المنكر الثاني: تحية المنافقين للرَّسُول إذا قدموا إليه تحيةً منكراً، على خلاف التحية التي حيَّاه الله بها، وهي تحية الإسلام، السَّلام عليكم.

وإذا كان المنافقون يفعلون هذا مع الرَّسُول مع علمهم بفظائته العظيمة، التي تكشف مقاصدهم فيما يتلفظون به من لحن القول، فهم يفعلونه مع المؤمنين الذين قد لا يفطنون لما يفعلون ولما يقصدون من باب أولى.

ويغلب على الظن أن المنافقين تعلَّموا من شياطينهم اليهود أن يُسرِّعوا في لفظ «السَّلام عليكم» فيحذفوا اللَّام من «السَّلام»، فتكون التحية «السَّام عليكم» والسَّام في اللُّغة هو الموت.

(١) انظر «القاعدة التاسعة» حول تنبُّع مراحل التنزيل في كتاب «قواعد التدبُّر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجل» للمؤلف.

ذكر العوفي عن ابن عباس (كما جاء عند ابن كثير في تفسيره) في قوله تعالى:

﴿وَإِذَا جَاءَ مَوْكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾.

قال: كان المنافقون يقولون لرسول الله ﷺ إذا حيّوه: سَامَ عليك.

وانصرف ذهن كثير من أهل التأويل إلى أنّ النصّ نزل بشأن اليهود على خلاف ما يدلّ عليه السّباق والسّياق، تأثراً بما صَحَّ من أنّ اليهود كانوا إذا جاؤوا إلى الرسول ﷺ قالوا له في التحية: «السّام عليك يا أبا القاسم» يوهّمون أنّهم يريدون السلام في ظاهر أمرهم، وهم يريدون الموت باطناً.

وروى مسلم في صحيحه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْيَهُودَ إِذَا سَلَّمُوا عَلَيْكُمْ يَقُولُ أَخَذُكُمْ: السّامَ عليكم، فقل: عَلَيْكُمْ».

وروى مسلم أيضاً عن عائشة أم المؤمنين قالت: استأذن رهطٌ من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السّامَ عليكم، فقالت عائشة: بلْ عليكم السّامُ واللّعة، فقال رسول الله ﷺ:

«يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ يُجِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ».

قالت: أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا.

قال: وَقَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ».

وفي رواية عند مسلم أيضاً عن مسروق، عن عائشة قالت: أتى النبي ﷺ أناسٌ من اليهود، فقالوا: السّامُ عليك يا أبا القاسم، قال: «وَعَلَيْكُمْ» قالت عائشة: قُلْتُ: بلْ عليكم السّامُ والدّام، فقال رسول الله ﷺ: «يَا عَائِشَةُ فَاجْشِي» فقالت: مَا سَمِعْتُ مَا قَالُوا؟ قال: «وَأَوَلَيْسَ قَدْ رَدَدْتُ عَلَيْهِمُ الَّذِي قَالُوا، قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ».

وفي رواية أنّ عائشة فطنت بهم فسبّتهم فقال رسول الله ﷺ: «مَهْ يَا عَائِشَةُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُجِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ».

وزاد الراوي في هذه الرواية، فأَنزل الله: ﴿وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾. وهذه الزيادة ليست مما روي عن عائشة فيما يظهر، فلا يعتمد عليها في أنّ

النص نزل في اليهود، بل نقول: إِنَّ المنافقين الذين نزل بشأنهم النص تعلموا هذه التحية من اليهود، لأنَّ المنافقين هم المطلوب منهم بحسب ظاهر انتمائهم أن يُحيُوا الرسول ﷺ بما حيَّاه الله به، وهو لفظ السَّلام.

ونجد تحية الله بالسَّلام على رسوله في قوله تعالى في سورة (الصفات) / ٣٧ مصحف / ٥٦ (نزل):

﴿مُبَاحِنَ رَّبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

وهذه هي تحية الله لعباده الصالحين في الدنيا والآخرة، وتحية الملائكة للمؤمنين، وتحية المؤمنين فيما بينهم، وقد جاء في القرآن: ﴿فَقُلْ: سلام عليكم - ونادوا أصحاب الجنة أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ - دعواهم فيها سبحانه اللهم وتحيتهم فيها سلام - ولقد جاءت رُسُلنا إبراهيم بالبشرى قالوا: سلاماً. قال: سلام - سلام على نوح - سلام على إبراهيم - سلام على موسى وهارون﴾ إلى غير ذلك من نصوص. والسلام دعاء بالأمن، وتحية.

مع فقرات الآيتين:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ١٩:

الخطاب في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ موجه لكل مَنْ يصلح للخطاب من الذين يملكون رؤية فكرية علمية.

فالمخاطب مفرد شائع، والخطاب على سبيل الأفراد يقصد منه أن يتحمل كل فرد مخاطبة مسؤوليته بصورة فردية.

والغرض من الاستفهام عن عدم الرؤية:

(١) تعليم غير العالم وحته وخضه على التعلم.

(٢) تنبيه الغافل وتذكير الناسي.

(٣) توجيه العالم الذاكر لأن يهتم بالأمر المستفهم عنه ويعمل بمقتضى ما يعلم حوله.

ونتساءل: كيف يَعْلَمُ المخاطَبُ الصالحُ للخطاب أن الله يَعْلَمُ ما في السماوات وما في الأرض؟

أقول:

إذا كان المخاطَبُ من المؤمنين، فقد سبق أن أعلمه الله في آيات منزلات كثيرات هذه الحقيقة، حتى صارت معلومة لديه، بمثابة الأمر المعلوم بالرؤية البصرية. وإذا كان من غير المؤمنين، فإن باستطاعته أن يصل إلى هذه المعرفة، بأن ينظر إلى إتقان حركات كل ما في السماوات وما في الأرض، التي تجري بغير اختيار المخلوقات المدركة المريدة، فإن تفكره في ذلك يهديه إلى أنها محتاجة حتماً إلى رب يُسِيرها ويُدَبِّرُ أمورها، ولا يملك ذلك إلا مَنْ لديه علم شامل بكل ما في السماوات وما في الأرض، وقدرة على التصرف فيه، بالإحداث، والتغيير، والتحويل، والإيجاد، والإعدام.

والأمر الموجه له النظر هنا هو شمول العلم، وقد ذُكرت هذه الحقيقة الكلية من حقائق صفات الرب جلّ وعلاً، تمهيداً لتذكير الذين يتناجون من المنافقين بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، بأن الله عليهم بما يتناجون فيه، خبير به، لا تخفى عليه من أحوالهم خافية، لذلك جاء التعقيب على التذكير بهذه الكلية بقوله تعالى:

﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُمْ رَاْعُهُمْ وَلَا حَمِيسَةٍ إِلَّا هُمْ سَادِسُهُمْ وَلَا آذَنٌ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُمْ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾:

﴿ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ ﴾:

إذا كانت «نجوى» بمعنى حديث التناجي، فالتعبير هو من قبيل إضافة نجوى إلى ثلاثة، بمعنى نجوى ثلاثة متناجين، والإضافة هذه هي على تقدير «من»: أي: نجوى من ثلاثة أشخاص يتحدثون فيما بينهم سرّاً، أو على تقدير (اللام) أي: نجوى لثلاثة أشخاص فهي مختصة بهم.

وإذا كانت «نجوى» بمعنى أشخاص يتناجون، فلفظ «ثلاثة» بدل من «نجوى» أو عطف بيان.

﴿إِلَّا هُوَ رَٰبِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِثُهُمْ...﴾:

أي: إلا الله مَعَهُمْ يعلم ما يكون منهم من نجوى وغيرها، والمعنى: ما يكون من أحوال متناجين إلا حالات يكون الله معهم فيها، ففي هذا خَصْرُ أحوالهم بأحوال وجود الله معهم.

﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾:

أي: مصاحب لهم بعلمه وكل صفاته المراقبة لهم.

واختير في البيان هنا التفصيل مع إمكان ذكر عبارة عامة مختصرة، مثل: والله مع المتناجين أين ما كانوا، لبيان أن مؤامرات المكر تتألف في الغالب من أعداد أحادية: (ثلاثة - خمسة - سبعة - تسعة) ليكون بينهم صوت مُرْجَح عند الاختلاف في الرأي، وقد يحدث خلاف هذا، وهو يدخل في عموم:

﴿وَلَا أَدْفَنُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ﴾.

ويكون عندئذ صوت رأس المتناجين بصوتين.

﴿أَيْنَ مَا كَانُوا﴾:

أي: في أي مكان كانوا فيه «أَيْنَمَا» اسم شرط جازم، وهو يدل على عموم الأمكنة، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله، أي: أينما كانوا فالله معهم.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾:

أي: ليحاسبهم عليه، ويجازيهم، وقد دل هذا التعبير على أن التناجي الذي هو من قبيل القول - وقد يقتصر على مجرد القول دون أن يتبعه أفعال وتطبيقات - يدخل في عموم العمل، إذ القول من عمل اللسان، كما أن النيات والإرادات من أعمال القلوب.

ولبيان دخول هذه الجزئية من علمه سبحانه وتعالى ضمن كلية عامة من كليات صفاته، وهي شمول علمه لكل شيء، قال عز وجل:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءًا عَالِمٌ﴾.

وهذا من أسلوب القرآن، لترسيخ الإيمان بالكليات الاعتقادية، في كثير من خواتيم الآيات، أو الموضوعات.

وبعد التمهيد بأن الله عز وجل عليم بنجوى المتناجين، والتذكير بأن هذا العلم جزئية من جزئيات شمول علمه الدقيق لكل شيء، ذكر النص ما يفعل المنافقون من التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، متحذرين النهي الذي سبق أن أنزل الله به قرآنًا يتلى في سورة (النساء)، وبدأ بالتذكير بهذا النهي السابق، فقال تعالى:

﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ النَّجْوَى هُمْ يَعُودُونَ لِمَا هُمْ عَنْهُ وَيَنْجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾.

﴿الَّذِينَ﴾:

أي: اعلم، أو تنبه، أو احذر، أو تعجب، بحسب حال كل فرد يصلح للخطاب.

﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ النَّجْوَى﴾:

أي: ناظرًا إلى، فالتعدي بحرف الجر ﴿إِلَى﴾ لتضمين فعل ﴿تَرَى﴾ معنى فعل «تنظر» لتحمل العبارة دلالة الفعلين الرؤية العلمية والنظر، وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي مراقبة المنافقين مراقبة بصرية، لمعرفة ما يتناجون به مما يضر الإسلام وجماعة المسلمين.

﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ النَّجْوَى﴾:

هؤلاء المنافقون المتظاهرون بالإسلام، فقد سبق أن نهاهم الله عن النجوى، كما ذكرنا آنفًا.

﴿هُمْ يَعُودُونَ لِمَا هُمْ عَنْهُ﴾:

أي: هم يعودون لفعل ما نهوا عنه، غير متعظين ولا مباليين، ويخبر الله عنهم فيبين الكليات التي يتناجون بها، فيقول تعالى:

﴿وَيَنْجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾:

أي: إِنَّ مَا يَسَارُونَ بِهِ فِي خُلُوتِهِمْ، وَهَمْسَاتِهِمْ يَدْخُلُ تَحْتَ وَاحِدٍ مِنْ كَلِمَاتٍ
ثَلَاث:

الكَلِمَةُ الْأُولَى: الْإِثْمُ، وَهُوَ يُطْلَقُ عَلَى كُلِّ ذَنْبٍ، مِنْ صَغَائِرِ الذُّنُوبِ حَتَّى
كِبَائِرِهَا.

الكَلِمَةُ الثَّانِيَّةُ: الْعَدْوَانُ، وَهُوَ يُطْلَقُ عَلَى الظُّلْمِ، وَتَجَاوُزِ الْحَدِّ الْمَأْذُونِ بِهِ
شُرْعاً، وَيُرَادُ مِنْهُ هُنَا الْعَدْوَانُ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمَكْرُوبِ، وَالْعَدْوَانُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،
وِظْلَمِهِمْ، وَإِفْسَادِ أَوْضَاعِ جَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ.

الكَلِمَةُ الثَّلَاثَةُ: مَعْصِيَةُ الرَّسُولِ ﷺ، وَتَشْمَلُ هَذِهِ الْمَعْصِيَةُ أَوَامِرَ الرَّسُولِ ﷺ الدِّينِيَّةَ،
وَالْإِدَارِيَّةَ بِوصفه قَائِدَ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَمِنْ أَجْلِ هَذَا خُصِّتْ مَعْصِيَةُ الرَّسُولِ ﷺ بِالذِّكْرِ.
وَذَكَرَ النَّصُّ كِبِيرَةً أُخْرَى مِنْ كِبَائِرِ الْمُنَافِقِينَ، وَهِيَ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
لِرَسُولِهِ:

﴿وَإِذَا جَاءَكَ بِمَا لَمْ يَحِيطْ بِكَ بِهِ اللَّهُ﴾:

لَقَدْ تَعَلَّمُوا مِنَ الْيَهُودِ أَنْ يَقُولُوا: سَأَمُ عَلَيْكَ، كَمَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَهَذِهِ الْعِبَارَةُ
تَنَمُّ عَنْ كِرَاهِيَتِهِمْ الشَّدِيدَةِ لِلرَّسُولِ، وَعَنْ غُلُوبِهِمْ فِي الْكُفْرِ، وَتَمَادِيهِمْ فِي النِّفَاقِ،
وَعَدَمِ اتِّعَازِهِمْ بِالذِّلِّ وَالْخِزْيِ الَّذِي أَصَابَ رَأْسَ الْمُنَافِقِينَ فِي الْمَدِينَةِ بَعْدَ غَزْوَةِ
بَنِي الْمُصْطَلِقِ.

أَمَّا تَحِيَّةُ اللَّهِ فَهِيَ السَّلَامُ كَمَا سَبَقَ الْبَيَانُ أَنْفَاءً.

وَيَتَلَاَعَبُ بِهِمُ الشَّيْطَانُ بِالْوَسَاوِسِ، فَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَقُولُونَ فِي نَفْسِهِمْ: لَوْ كَانَ
مَا نَحْنُ عَلَيْهِ مِنْ نِفَاقٍ، وَكُفْرٍ بِمُحَمَّدٍ، وَتَنَاجٍ وَشَتِيمَةٍ بِعِبَارَةِ التَّحِيَّةِ، عَمَلًا يَسْخَطُ اللَّهُ
عَلَيْنَا لِعِقَابِنَا فَعَذَّبْنَا، لَكُنْهُ لَمْ يِعَاقِبْنَا وَلَمْ يَعْذِّبْنَا، مُسْتَعْبِدِينَ عَنْ تَصَوُّرِهِمْ أَنَّ اللَّهَ مِنْ
سُنَّتِهِ أَنْ يُهْمِلَ وَلَا يَعَجِّلَ لِعِبَادِهِ الْعِقَابَ، وَأَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كُلُّهَا هِيَ فِي الْأَصْلِ مَرَحَلَةٌ
امْتِحَانٍ، لَا مَرَحَلَةَ جَزَاءٍ، وَزَادُوا تَمَادِيًا فِي هَذِهِ الْوَسَاوِسِ، حَتَّى قَالُوا: هَلَّا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ،
لَوْ كُنَّا مُذْنِبِينَ حَقًّا، كَمَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ.

هَذِهِ مَقُولَةٌ يَقُولُونَهَا سِرًّا فِي أَنْفُسِهِمْ، كَشَفَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَرَبَّمَا كَانُوا يَقُولُونَهَا

أيضاً وهم يتناجون سرّاً، لأنهم إذا تناجوا بها فيما بينهم فقد قالوها في أنفسهم، فقال تعالى :

﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ :

أي : يقولون : هَلَّا يُعَذِّبُنَا الله بما نقول، ﴿لَوْلَا﴾ هنا تحضيضية بمعنى «هَلَّا». ولا تتصور أنهم يستحثون ربهم أن يُنزل بهم العذاب، ولكن يذّلون بهذا التعبير على أنهم لا يفعلون شيئاً يستدعي أن يُنزل الله بهم العذاب، والسبب في ذلك أنهم لم يؤمنوا بأن محمداً رسول الله، وبأن القرآن كتاب منزل من عند الله، فمعنى كلامهم : هَلَّا يُعَذِّبُنَا الله لَوْ كُنَّا كافرين برسول الله وكتابه حقاً، لكن محمداً ليس رسولاً، وليس ما يتلوه كلاماً منزلاً من عند الله.

وفي التعقيب على مقالتهم هذه التي قالوها في أنفسهم قال الله عز وجل :

﴿حَسَبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسَأَ الْمَصِيرُ﴾ (٨) :

أي : يكفيهم عذاب جهنم حالة كونهم يصلّونها. جهنم : اسم علم لدار العذاب يوم الدين.

﴿يَصَلُّونَهَا﴾ :

أي : يحترقون بلهب النار التي تنوقد فيها، يقال لغة : صَلَّى النار، وصَلَّى بها، يَصَلِّي صَلًى، وصلياً، أي : احترق فيها.

والمعنى : إذا كانت جهنم التي يحترقون بلهب النار فيها تكفيهم عذاباً على كفرهم ونفاقهم وشروهم ومنكراتهم، أفيريدون فوقه عذاباً معجلاً آخر في الدنيا؟! وهذا يتضمن أن خطة الله في الجزاء أن يكون مؤجلاً إلى يوم الدين.

﴿فَيَنْسَأَ الْمَصِيرُ﴾ :

أي : فينسأ المصير الذي سيصيرون إليه جهنم، ويلزم من ذم المكان الذي سيصيرون إليه عقاباً لهم ذمهم الشديد، لأنهم بذنوبهم قد استحقوا هذا المصير الذميمة، فالمكان الذميمة يعدل الله يلائم نُزْلَاهُ.

ونلاحظ أن هذا الوعيد يطابق الوعيد الذي سبق أن وجّه لهم في النص السابق الذي نزل في سورة (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزل) إذ جاء فيه:

﴿وَنُصَلِّهِمْ جَهَنَّمَ سَاءَتْ مَصِيرًا ۝١٥﴾

والمعنى: لا يستعملوا عذاباً في الدنيا، حبّهم ما سبق أن أوعدناهم به من حريق في جهنم.

* * *

* قول الله عز وجل:

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝١٦ إِنَّمَا التَّجَوُّىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُرَكَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِبَصَّارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝١٧﴾

نوبيخ المنافقين على تناجيهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، ووعدهم بالعذاب في جهنم، استدعياً توجيهاً حول الموضوع نفسه للذين آمنوا.

فنهاهم الله عز وجل عن أن يفعلوا في التناجي مثلما يفعل المنافقون، وأمرهم إذا تناجوا متسارين في الحديث أن يتناجوا ضمن إحدى كليتين:

الكليّة الأولى: البرّ، وهو كلّ ما فيه توسّع في فعل الخير، من نوافل العبادات وفعل الصالحات، زيادةً على فعل الواجبات وترك المحرّمات، ومن ذلك التناجي للإصلاح بين الناس، والجهاد في سبيل الله، ومساعدة ذوي الحاجات.

الكليّة الثانية: التقوى، وهي الالتزام بفعل الواجبات وترك المحرّمات، ومن ذلك التناجي لجمع الزكاة وتوزيعها على مستحقيها، والتناجي لنصح مسلم عاصٍ لله، غير مقيم لحدوده.

ولما كان ترك التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول أمراً من مقتضيات كليّة عامّة من كليات منهج السلوك الإسلامي للتأجيين، وجزئية من جزئياتها، كان من المناسب التذكير بهذه الكليّة، لتأصيلها وتعميقها في نفوس المؤمنين، وهي تقوى الله

في كل حركة وسكنة، خاطب الله الذين آمنوا بقوله:

﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ①

﴿تُحْشَرُونَ﴾:

أي: تجمعون مسوقين، الحشر: السوق والجمع.

أي: واجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية، وهي فعل ما أوجب عليكم على قدر استطاعتكم، وترك ما حرم عليكم، فمن صفاته عز وجل أنه الذي إليه تُحْشَرُونَ يَوْمَ تبعثون إلى الحياة بعد الموت، لتحاسبوا على ما قُدمتم في رحلة امتحانكم في الحياة الدنيا، وما أخرتم فلم تعملوه، من خير أو شر، ثم لتجاوزوا عليه بالفضل، أو بالعدل.

ولما كان تناسجي المنافقين فيما بينهم مما يُحدث قلقاً وضيقاً وغماً في صدور المؤمنين، وهم مأمورون أن يكفوا أيديهم عن معاقبتهم وإنزال نقماتهم بهم، حتى ينكشف من أمرهم ما يُدانون به، الأمر الذي يُحدث حُزناً في صدور المؤمنين، كان من الحكمة التربوية والعلاجية، أن يبين الله للذين آمنوا ثلاث قضايا:

القضية الأولى: أن هذه النجوى التي يمارسها المنافقون هي من وساوس الشيطان لهم، ليحزن بها الذين آمنوا، أي: ليلقي الشيطان في قلوب الذين آمنوا الحزن بسبب ما يفعل المنافقون من تناج فيما بينهم بحضور المؤمنين، إذ لن ينال المنافقون منها فائدة ولا مغنماً، لأن الله مُحِيطٌ كَيْدَهُمْ ومُبْطِلُ أعمالهم، ما دام المؤمنون على منهاج الله مستقيمين يَقْظِينَ حَذْرَيْن، فقال تعالى:

﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

القضية الثانية: أن الشيطان ليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله، لا عن طريق النجوى التي يستدرج المنافقين إليها، ولا عن طريق غيرها، وإذن الله بشيء من ذلك لا يكون إلا لحكمة، للابتلاء، أو التنبيه، أو التربية، أو العقوبة المعجلة وتكفير السيئات، أو الثواب ورفع الدرجات، وكل ذلك خير لا شر فيه، فقال تعالى:

﴿وَلَيْسَ بِضَارٍّ لَهُمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

القضية الثالثة : أَنَّ المؤمنين مطالبون بأن يتوكلُوا على الله بعد أن يتخذوا كامل الأسباب التي أمرهم الله بها، ليدفع عنهم الوسوس، ويشدّ فيهم العزائم، وينور بصيرتهم، ويكشف لهم أعداءهم، ويخبط لهم مكائدهم، فقال تعالى :

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾

• • •

النص الثامن والعشرون

وهو من سورة (المجادلة / ٥٨ مصحف / ١٠٥ نزول) أيضاً

«السورة (١٩) من التنزيل المدني»

الآيات من (١٤ - ٢٢)

حول اتخاذ المنافقين اليهود أولياء لهم

وتسترهم بالآيمان الكاذبة واستحواذ الشيطان عليهم

* قال الله عز وجل:

﴿الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِمَّا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٤ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٥ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ حُجَّةً فَعَصَوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝١٦ لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١٧ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ۝١٨ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ۝١٩ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ۝٢٠ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبُكَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٢١ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنَّا وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٢٢﴾

(١)

ما في النص من القراءات المتواترة (من الفرش)

• في الآية (٢١):

(١) قرأ جمهور القراء العشرة [وَرُسُلِي] بإسكان ياء المتكلم.

وقرأ المدنيان نافع وأبو جعفر، وابن عامر الشامي بفتح ياء المتكلم.

والقراءتان وجهان في اللّغة لنطق ياء المتكلم.

(٢)

موضوع النص وما روي حوله من أسباب النزول

موضوع النص:

(١) تناول هذا النص بيان كبيرتين منكرتين من كبائر المنافقين الشنيعة:

الكبيرة الأولى: اتّخاذهم اليهود الذين غضب الله عليهم أولياء لهم من دون المؤمنين، ينصرونهم ويستنصرون بهم، ويوآدونهم، ويحاذون الله.

الكبيرة الثانية: خِلْفُهُمُ الْإِيمَانُ عَلَى صِدْقٍ مَا يَقُولُونَهُ أَمَامَ الرُّسُولِ أَوْ الْمُؤْمِنِينَ إِبْثَاتًا أَوْ نِفْيًا، كتقديم عذر كاذب على تخلف عن واجب، أو ادّعاء القيام بعمل لم يعملوه، أو إنكار عمل عملوه أو قول قائلوه، أو ادّعاء إيمانٍ أو حبٍّ في قلوبهم، وقلوبُهُمْ كَافِرَةٌ كَارِهَةٌ، إلى غير ذلك.

فهم يجعلون خِلْفَ الْإِيمَانِ سِتْرًا يَقُونُ بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَمَامَ الرُّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ، من انكشاف نفاقهم وخياناتهم، وظهور قبائحهم، وكبائرهم التي يرتكبونها سرًّا، ومكايدهم التي يكيدونها ضدَّ الإسلام والمسلمين، وموالاتهم أعداء الله ورسوله الصرحاء من اليهود والمشركين.

ولِيَأْمَنُوا بِالْإِيمَانِ الْكَاذِبَةِ مِنَ الْعِقَابِ، فيستمرّوا بالنفاق صَادِقِينَ مُّحْجَمِينَ عَنْ اتِّبَاعِ سَبِيلِ اللَّهِ، وعاملين سرًّا في صرف غيرهم عن سلوكه، من ضعفاء الإيمان

الذين يستجيبون لهم، أو الكافرين الذين يجدون لديهم ميلاً إلى الدخول في الإسلام.

(٢) وتناول النص أيضاً وعيد المنافقين بعذاب شديد مُهين.

(٣) وجاء في النص بيان أن المنافقين لن تغنيهم أموالهم ولا أولادهم، فلن تكون دافعة عنهم من عذاب الله شيئاً، إذا أراد الله أن يُنزل بهم عقابه في الدنيا، بجائحة كونية من أمره، أو بمصيبة تنزل بهم على يد رُسوله وأيدي المؤمنين إذ يكشف من خياناتهم ما يستحقون عليه العقاب في الدنيا.

(٤) وجاء في النص بيان أن صفة الكذب، وحلب الأيمان على ما يقولون من كذب إثباتاً أو نفيّاً، ستلازمهم، حتى موقف حسابهم بين يدي ربهم يوم الدين، فيحلفون لله الأيمان الكاذبة على ما ينكرون أو ما يدعون، رجاء أن تنجيهم أيمانهم من عذاب الله، ظانين أن أكاذيبهم وأيمانهم تنفعهم عند الله، كما استطاعوا أن يسترُوا بها أنفسهم في الدنيا.

لقد أمر الله المؤمنين في الدنيا بأن يقبلوا من المنافقين ظاهرهم، إذا لم تثبت إدانتهم ببيّنة شرعية، فلا يُعاقبوه، ولكن ليس معنى هذا أن لا يحذروهم، أو أن يتخذوا منهم بطانة، أو أن يثقوا بهم في أمور السّلم أو الحرب، فهذه أمور لم يأذن بها الله، بل هي من الغفلات، أو التقصيرات، أو الخيانات، التي يؤاخذ الله المؤمنين عليها، وينزل بهم البلايا والنكبات بسببها، لأنها من التفريط بالحقوق والواجبات العامة، التي تضر بالإسلام وجماعة المسلمين.

أما إنزال العقاب على الرّدة أو الخيانة بالتهمة دون بيّنة شرعية فهذا هو الذي كَفَّ الله يد المؤمنين عنه في التعامل مع المنافقين.

(٥) وجاء في النص بيان أن المنافقين استحواذ عليهم الشيطان، أي: استولّى عليهم استيلاء كاملاً، وساقهم في السُّبُل الضالة على ما يريد، فهم حزب الشيطان ضمن صفوف المؤمنين.

(٦) وجاء في النص بيان أن الله سيجعلهم في الأذلين، جزاء أنهم يحادّون الله ورسوله.

(٧) وجاء في النص بيان إحدى سنن الله التي قضاها قضاء مبرماً، وهي:

﴿كَتَبَ اللَّهُ لَا غَلَبَ لَنَا وَأَوْرُسُنْ﴾.

وما قضاها الله نافذ حتماً:

﴿إِنَّا اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

(٨) وجاء في النص بيان الوصف الذي يتحلّى به المؤمنون، من أنهم لا يؤادون من حادّ الله ورسوله في آية حال من الأحوال، وبيان ما لهم عنده من تثبيت وتأييد وأجر عظيم ورضا عنهم وإرضاء لهم، على النقيض تماماً ممّا عليه المنافقون.

ما روي من سبب النزول:

(١) جاء عند ابن أبي حاتم والإمام أحمد وابن جرير والحاكم وصححه، وغيرهم عن ابن عباس: أن النبي ﷺ كان في ظلّ حُجْرَةٍ من حُجَرِهِ، وعنده نفر من المسلمين، قد كاد يُلْبِصُ عنهم الظلّ (أي: ينكمش وينضم) قال:

«إِنَّهُ سَيَأْتِيكُمْ إِنْسَانٌ يَنْظُرُ بِعَيْنِي شَيْطَانٍ، فَإِذَا أَنَا كُمْ فَلَا تُكَلِّمُوهُ، فجاء رجلٌ أزرَقُ، فدعا رسول الله ﷺ فكلّمه فقال:

«عَلَامٌ تَشْتُمْنِي أَنْتَ وَفُلَانٌ وَفُلَانٌ، نَفَرٌ دَعَاهُمْ (أي الرسول) بِأَسْمَائِهِمْ.

قال: فانطلق الرجل، فدعاهم، فحلفوا له واعتذروا إليه، فانزل الله عز وجل:

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِلَهُمُ هُمْ

الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾.

(٢) وذكر السّدي ومقاتل أنها نزلت في عبد الله بن أبيّ، وعبد الله بن نَبْتَل،

كان أحدهما وهو عبد الله بن نَبْتَل يجالس النبي ﷺ، ويرفع أخباره إلى اليهود، ويسبّ النبي ﷺ، فإذا بلغ النبي خبره، أو أطلعه الله عليه، جاء فاعتذر، وأقسم أنه ما فعل.

(٣)

المفردات اللغوية في النص

﴿تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾:

أي: اتخذوهم أولياء لهم من دون المؤمنين، ينصرونهم، ويستنصرون بهم، ويوادونهم، وينقلون لهم أخبار المسلمين، ويستشيرونهم، ويتأمرن معهم للإضرار بالإسلام والمسلمين.

﴿جُنَّةٌ﴾:

أي: سُرَّة واقية، وكل ما وقى من سلاح وغيره يُسمى جُنَّة.

﴿فَصَدُّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾:

أي: فأحجموا عن سلوكه، وانصرفوا عنه سرّاً، وصرفوا غيرهم من الذين يتأثرون بهم عن سلوكه.

فعل «صدّ» يُستعمل في اللغة لازماً بمعنى أحجم وأعرض وتولّى مدبراً، ويُستعمل متعدّياً بمعنى صرف غيره وحوله، أو منعه وأغراه بأن يعرض أو يدبر.

﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾:

أي: عذاب فيه إهانة لهم وتحقير.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾:

أي: أولئك ملازموها ملازمةً لصاحب لصاحبه، الصاحب الرفيق الملازم. ويأتي بمعنى مالك الشيء، أو مستحقه، أو القائم على أمره، والأصل في المعنى: المرافقة والملازمة.

﴿خَالِدُونَ﴾:

باقون دوماً.

﴿أَسْتَعِذَّ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾:

أي: استولى عليهم الشيطان، وغلبهم على أمرهم، وساقهم كما يريد.
 يقال لغة: حَاذَ الشيء، أي: حاطه وغلب عليه. وحَاذَ الدَّوَابَّ، أي: ساقها
 سَوْقًا عَنيفًا، ومنه الحوذي، وهو الطارد المستحث على السير دوابه، وسائق العربة.
 ويقال: اسْتَحَوَذَ عَلَى الشيء، إذا استولى عليه، واستحوذَ فُلَانٌ عَلَى فُلَانٍ،
 إذا غلبه. وقد يَأْتِي هذا الفعل بمعنى: أحاط به وحفظه، ومنه: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ
 عَلَيْكُمْ﴾، كما سبق بيانه، في النص (١٨) من سورة (النساء).
 ﴿حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾:

أي: الجماعة المتفقة فيما بينها على ما يريد منهم الشيطان، ويسوقهم إليه.
 ويأتي في مقابلهم حزب الله.
 الحزب: الجماعة المتفقة المتناصرة على أمر، أو الجماعة الذين تشاكلت
 مبادئهم وأهواؤهم واتفقت أعمالهم.
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ﴾:

سبق بيانه في النص (٢٧) من سورة (المجادلة).
 ﴿فِي الْأَذَلِّينَ﴾:

أي: في الأضعفين المهينين، جمع «أذل» أفعل تفضيل من «ذل» إذا ضعف
 وهان، يقال لغة: ذُلٌ يَذِلُّ ذُلًا، وَذِلَّةٌ، وَمَذَلَّةٌ.
 ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾:

أي: وقواهم بقوة خفية منه، يُطْلَقُ لفظ «الروح» على القوة غير المرئية، كما
 يطلق على ما تكون به الحياة، وعلى القرآن، والوحي، وغير ذلك.

(٤)

مع النص في التحليل والتدبر

* قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

يَصْرَحُونَ بِمَوالاتِهِمْ لَهُمْ جَهْرًا، كما فعل ابن سلول إِيَّانَ إِجْلَاءِ يَهُودِ بَنِي قَيْنِقَاعَ، ثُمَّ إِيَّانَ إِجْلَاءِ يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ.

وَدَلَّ عَلَى أَنَّ النَّصَّ نَزَلَ فِي الْمُنَافِقِينَ قَوْلُ اللَّهِ فِيهِ خُطَابًا لِلْمُؤْمِنِينَ:

﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾.

فهذا التعبير إنما ينطبق على المنافقين، لأنَّ اليهود ليسوا مظنةً لأن يكونوا من المؤمنين، حتى يقول الله لهم: ﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ بخلاف المنافقين، فظاهر حالهم أنهم من المؤمنين، فجاء البيان كاشفاً لحقيقتهم.

وَدَلَّ أَيْضًا عَلَى أَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْ مُنَافِقِي الْيَهُودِ، بَلْ مِنْ مُنَافِقِي الْعَرَبِ الْمُشْرِكِينَ، لِأَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا مِنْ مُنَافِقِي الْيَهُودِ لَمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾، فَالْمُنَافِقُونَ مِنَ الْيَهُودِ هُمْ مِنَ الْيَهُودِ بَاطِنًا، فَكَانَ هَذَا الْبَيَانُ وَصْفًا مُحَدَّدًا دَالًّا عَلَى أَنَّهُمْ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ الْمُنَافِقِينَ الْمُتَظَاهِرِينَ بِالْإِسْلَامِ، وَالْمُبْطِنِينَ لِلشَّرْكِ.

وَلَا يَقْتَصِرُ أَمْرُ هَؤُلَاءِ عَلَى أَنَّهُمْ يَتَّخِذُونَ الْيَهُودَ الَّذِينَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَوْلِيَاءَ سِرًّا، بَلْ يُضَيِّفُونَ إِلَى هَذِهِ الْخِيَانَةِ الْعُظْمَى أَنَّهُمْ يَحْلِفُونَ الْإِيمَانَ لِتَوْثِيقِ الْأَقْوَالِ الْكَاذِبَةِ الَّتِي يَقُولُونَهَا افْتِرَاءً، إِذْ هُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهَا أَقْوَالُ كَاذِبَةٍ يَقُولُونَهَا فِي إِثْبَاتِ قَضَايَا أَوْ نَفْيِ قَضَايَا، فَقَالَ تَعَالَى عَطْفًا عَلَى وَصْفِهِمُ السَّابِقِ:

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٤).

أي: يَصْنَعُونَ الْكَذِبَ، وَيَحْلِفُونَ الْإِيمَانَ عَلَيْهِ، لِلْإِغْرَاءِ بِتَصْدِيقِهِ، فَكَأَنَّهُمْ يَغْطُونَ رَجَسَ الْكَذِبِ بِمَا لِلْإِيمَانِ مِنْ قُدْسِيَّةٍ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، فَيَجْعَلُونَ الْإِيمَانَ أَغْطِيَةً عَلَى الْكَذِبِ لِئَسْتَرِ كَوْنَهُ كَذِبًا، وَخَدَاعَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُ صَدَقَ.

وَلَا بَدَّ أَنْ يُلَاحِظَ الْأَدِيبُ مَا فِي هَذَا التَّعْبِيرِ الْقُرْآنِيِّ مِنْ إِدْعَاءٍ فِي الْفِكْرَةِ، مَعَ إِجْجَازٍ فِي التَّعْبِيرِ.

هَاتَانِ الْخَصْلَتَانِ الذَّمِيمَتَانِ مِنْ خِصَالِ الْمُنَافِقِينَ تَسْتَحَقُّانِ تَوْجِيهَ وَعِيدٍ خَاصٍّ لَهُمَا بِسَبَبِهِمَا، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

وهذا العذاب الشديد يلذوقونه يوم الدين في جهنم دار عذاب الكافرين .
وإذا قيل يومئذٍ: لِمَ يُعَذَّبُونَ هذا العذاب الشديد؟ كان الجواب ما جاء في قوله تعالى:

﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٥ ﴾ .

أي: ومن ساء عمله في حياة الابتلاء، اشتدَّ عذابه السيئ في حياة الجزاء يوم الدين .

• قول الله عز وجل:

﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ١٦ ۝ لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ١٧ ۝ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ١٨ ﴾ .

في هذه الآيات الثلاث من هذا النص يُبين الله عز وجل سبع قضايا تتعلق بالمنافقين:

القضية الأولى: تتعلق ببيان غرضهم من خيلهم الإيمان على الكذب، فقال تعالى:

﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ۖ ﴾ :

أي: جعلوا أيمانهم سُترةً يَسْتُرُونَ بها بُفَاقَهُمْ، ومنكراتهم، وخياناتهم، ومواليتهم للذين غضب الله عليهم، وسائر أعمالهم التي تُعبر عن هُويَتهم الحقيقية، وهو الكفر بالرسول، وبما جاء به عن ربِّه، ولزومهم مواقع شركهم القديم في السر.

الجنة: السُترة، وكلُّ ما وقى من سلاحٍ وغيره، وسُمِّيَ التُّرسُ مِنجاً لذلك .

إنَّهم في موقع المحارب الجبان، الذي يُريد أن يقاتل، ولا يستطيع

المواجهة، فيستر نفسه بما يخفي تحركاته العدائية الكيدية، وبتأثرتهم هي الكذب، والْحَلْفُ على الكذب.

القضية الثانية: تتعلق ببيان صدقهم عن سبيل الله، إذ حَسِبُوا أَنَّهُمْ أَمِنُوا بِسِتْرِ أَنْفُسِهِمْ وَتَحَرُّكَاتِهِمُ الْمُرِيَةِ بِأَيْمَانِهِمُ الَّتِي يَحْلِفُونَهَا عَلَى الكذب، فَأَنْطَلَقُوا مِنْ وَرَاءِ السِّتْرِ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ.

وصدُّهم عن سبيل الله له وجهان: لازم، ومتعذّر.

فالوجه اللازم: يكون بإحجامهم وانصرافهم عن سلوك سبيل الله ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً غير فاضحٍ لهم.

والوجه المتعذّر: يكون بصرفٍ ومنعٍ من يتأثر بهم من ضعفاء الإيمان، أو الكافرين الذين لديهم ميل لأن يُسَلِّمُوا، عن سلوك سبيل الله.

فقال تعالى:

﴿فَصَدُّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

القضية الثالثة: تتعلق ببيان أن الله عز وجل قد قضى بأن للمنافقين عذاباً مُهِيناً، مُرْتَبِئاً عَلَى حَلْفِهِمْ عَلَى الكذب، وَصَدُّهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَنَّ هَذَا الْعَذَابُ الْمُهِينُ مُعَذِّبٌ لَهُمْ وَمُهَيِّئٌ، فَهُمْ يَنَالُونَهُ بَعْدَ مَفَارَقَتِهِمْ عَتَبَةَ حَيَاةِ الْإِبْتِلَاءِ، وَدُخُولِهِمْ عَتَبَةَ يَوْمِ الْجَزَاءِ، فقال تعالى:

﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (١٦).

وقد يكون هذا العذاب المهين عند موتهم، وفي مدة البرزخ بين الموت والبعث، وفي يوم الحشر.

القضية الرابعة: تتعلق بآثر اعتمادهم في الدنيا على أموالهم وأولادهم، لدفع نقمة الرسول أو المؤمنين عنهم، إذا انْكَشَفَ لَهُمْ أَمْرُهُمْ، وَظَهَرَتْ لَهُمْ خِيَانَاتُهُمْ، وَالْيَبَاسُ الْقِرَانِيُّ يُثَبِّتُ أَنَّ اللَّهَ قَضَى بِأَنَّهُ لَنْ تَغْنِيَهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ، فَلَا تَدْفَعُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ شَيْئاً، إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُنْزِلَ بِهِمْ عِقَابَهُ فِي الدُّنْيَا.

فَإِنْ أَرَادَ اللَّهُ تَعْذِيْبَهُمْ بِجَوَائِحِ كَوْنِيَّةٍ مِنْ أَمْرِهِ فَلَنْ تُغْنِيَهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ شَيْئًا، وَلَنْ تَدْفَعَ عَنْهُمْ عَذَابَهُ.

وَإِنْ سَلَّطَ اللَّهُ رِسْوَلَهُ أَوْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ، وَأَغْرَاهُمْ بِقِتَالِهِمْ فَلَنْ تُغْنِيَهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ شَيْئًا، وَسَيَنْصُرُ رِسْوَلُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْهِمْ. وَقَدْ حَذَّرَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ هَذَا التَّسْلِيْطِ بِقَوْلِهِ فِي سُورَةِ (الْأَحْزَابِ / ٣٣ / مَصْحُفٍ / ٩٠ نَزُولٍ):

﴿لَنْ لَزِمَنَّهُ الْمُتَنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا نَفْتِيلًا ﴿١٧﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿١٨﴾﴾.

وقد سبق شرح هذه الآيات في أواخر النص (١٣) من هذه الدراسة.

وفي بيان أَنَّ أموالهم وأولادهم لن تُغْنِيَهُمْ شَيْئًا، وَلَنْ تَدْفَعَ عَنْهُمْ عَذَابَ اللَّهِ، قال تعالى:

﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾:

أي: لن تُكْفِيَهُمْ قُصْرَ غِنَاهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ شَيْئًا.

أَصْلُ مَعْنَى «أَغْنَاهُ» كَفَاؤُهُ، وَالْكَفَايَةُ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى مَا يَدْفَعُ الْمَكْرُوهَ تَتَضَمَّنُ مَعْنَى الْكَفِّ وَالصَّرْفِ، أَي: كَفَاهُ فَصَرَفَ عَنْهُ مَا يَكْرَهُ، فَعُدِّيَ فَعْلٌ «أَغْنَى» عِنْدَ إِرَادَةِ هَذَا الْمَعْنَى تَعْدِيَّةً فَعْلٌ «كَفَّ أَوْ صَرَفَ» وَفِي اسْلُوبِ التَّضْمِينِ، وَقَدْ اسْتَعْمَلَ الْعَرَبُ هَذَا التَّضْمِينَ فِي فَعْلٍ «أَغْنَى» فَقَالُوا: أَغْنَى عَنَّا شَرُّكَ، أَي: أَصْرِفْهُ وَكُفَّهُ.

وَرُوِيَ أَنَّ عَلِيًّا بَعَثَ إِلَى عِثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِصَحِيفَةٍ، فَقَالَ عِثْمَانُ لِلرَّسُولِ: «أَغْنِيهَا عَنَّا» أَي: أَصْرِفْهَا عَنَّا.

وَجَاءَ تَكْرِيرُ النِّفْيِ فِي: ﴿وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ مِنَ الْمُنَافِقِينَ مَنْ لَدَيْهِ أَمْوَالٌ فَهُوَ يَسْتَغْنِي بِأَمْوَالِهِ وَيَرَى أَنَّهَا تَدْفَعُ عَنْهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَدَيْهِ أَوْلَادٌ فَهُوَ يَسْتَغْنِي بِأَوْلَادِهِ وَيَرَى أَنَّهُمْ يَدْفَعُونَ عَنْهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَدَيْهِ أَمْوَالٌ وَأَوْلَادٌ، فَيَأْخُذُ كُلُّ فَرِيقٍ حِظَّهُ الْخَاصَّ مِنَ النِّفْيِ، وَأَمَّا مَنْ لَدَيْهِ أَمْوَالٌ وَأَوْلَادٌ مَعًا فَيُؤَكِّدُ لَهُ النِّفْيَ مَرَّتَيْنِ، أَحَدُهُمَا مَعَ الْأَمْوَالِ، وَالْآخَرُ مَعَ الْأَوْلَادِ.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ هو على تقدير مضاف محذوف يُفْهَم من القرينة، والكلام على تقدير: لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً.

القضية الخامسة: تتعلق ببيان مصيرهم الأخير يوم الدين، فقال تعالى:

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

أي: أولئك البعداء عن رحمة الله، والبعداء في جهة الدرك الأسفل، هم مستحقو النار وملازموها، وهم فيها خالِدُونَ.

القضية السادسة: أنهم يوم يَبْعَثُونَ وَيُوقَفُونَ للحساب، يَخْلِفُونَ على الكذب بين يدي الله، كما كانوا يَخْلِفُونَ للرُّسُول وللمؤمنين على الكذب في الحياة الدنيا، متوهمين أَنَّ هذا الخداع يَنْقُصُهُمْ فيدفع عنهم عذاب الله، كما نفعهم في الدنيا، إذ دفع عنهم انتقام الرسول والمؤمنين.

لكنهم يجدون صحائفهم لم تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصتها، ويجدون شريط أعمالهم معروضاً بالصورة والصوت والنيات والخواطر وأحاديث النفس والقلب، ويجدون جوارحهم تشهدُ عليهم بما قَدَّمُوا، ويجدون أنهم مفضوحون بالكذب، وأنَّ العذاب نازل بهم لا محالة.

دَلَّ على هذه القضية قول الله تعالى:

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾.

أي: يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جميعاً ليَوْمَ القيامة، فَيَحْشَرُونَ، فَيَسْأَلُونَ العدل الربانية، فَيَسْأَلُونَ لِيَحْصِبُوا على أعمالهم فَيَحْلِفُونَ على الكذب، كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ اليوم أيها المؤمنون في الحياة الدنيا، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ بقدرتهم على الكذب بالاستهتم، وسَتَرِ أكاذيبهم بما يحلفون من إيمان قابضون أو مسيطرون على شيء يَنْقُصُهُمْ، فيدفع عنهم عذاب الله.

هذا الكلام هو جزء جملة يتطلَّب جزأها الآخر، وهو بمثابة المبتدأ الذي لم يأت بعد خبره، فإين جزء الجملة الآخر؟.

أقول:

هو مطوي يمكن إدراكه بأدنى تأمل، ومعناه، لكنهم يفتضحون، وتقام عليهم
البيّنات التي لا يستطيعون جحودها، وتشهد عليهم جوارحهم، ويدانون بكفرهم
ونفاقهم، وبما ارتكبوا من جرائم، ويحكم عليهم بالعذاب في النار خالدين فيها،
ويظهر لهم أنهم ليسوا على شيء يدفع عنهم أو يصرف عنهم عذاب الله.

لقد ماتوا وهم كذّابون، حلاقون على الكذب، ويتعشّون يوم القيامة على
ما ماتوا عليه كذّابين حلافين على الكذب.

روى الإمام مسلم وابن ماجه عن جابر، أن النبي ﷺ قال:
«يَبْتَغُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ».

القضية السابعة: بيان أنهم أكذب الكذّابين، حتّى كأن الكذب منحصر
فيهم، على معنى تفردهم باحتلال الدرّة السفلى من دركات الكذب، فقال تعالى
مستفتحاً بأداة التنبيه:

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾.

استفيد الحصر من تعريف طرفي الإسناد، مع التأكيد بضمير الفصل. أداة
التعريف هي هنا للكمال، أي: للدلالة على أنهم جمعوا كلّ أنواع الكذب،
واستكملوا كلّ عناصره، وهذا الجمع لا يوجد عند غيرهم، فهم أحسن الكذّابين،
لا يشاركونهم في دركة هذه الخسة أحد.

هذا الحصر لم يرد في القرآن إلا ثلاث مرات:

الأولى: في سورة (النحل) في معرض من يفترى الكذب على الله، ولا
يفترى الكذب على الله إلا منافق.

والثانية: في سورة (النور) بشأن الذين جاءوا بالإفك، والذين جاءوا بالإفك
ابتداءً هم المنافقون، ورأسهم ابن سلول.

والثالثة: هذا الذي في سورة (المجادلة) وهو بشأن المنافقين.

فلا اختلاف في دلالات النصوص القرآنية حول حصر كمال الكذب في المنافقين.

* قول الله عز وجل:

﴿أَسْتَحْذِرُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ فَاِنَّهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ أَوْ لَكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١١).

في هذه الآية بيان أربع قضايا بشأن المنافقين:

القضية الأولى: بيان أن الشيطان استحوذ عليهم، أي: استولى عليهم، وغلب على أمرهم، وجعل إراداتهم طوع أو أمره ونواهيه، وجعل أفكارهم ومفهوماتهم وتصوراتهم في الحياة انعكاساً لوساوسه وتوسلاته، وساقطهم كما يسوق الحوذي الدواب سوقاً سريعاً عنيفاً، وكانوا ممن صدق عليهم إبليس ظنه، إذ قال لربه حين لعنه وطرده، وأهبطه وأخرجه من موطن القرب مع الملائكة، مذهباً ومدحوراً، كما جاء في سورة (الإسراء / ١٧ مصحف / ٥٠ نزول):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ: أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾ (١١) قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (١٢).

أي: لأستميلنهم ولأستولين عليهم ولأسوقنهم كالذباب من أحنائهم.

﴿اِحْتَنَكَ الدَّابَّةُ﴾: أي: وضع في حنكها الأسفل جبلاً يفودها به. فالكفرة والمنافقون من بني آدم جعلهم إبليس كالبهائم من الدواب والأنعام، وساقطهم كما يسوق الحوذي دوابه.

أما الذين استعصوا على إبليس فهم الذين حافظوا على تكريم الله لهم إذ جعلهم في أحسن تقويم، ولم يستجيبوا للشيطان كما استجاب الذين ردّهم الله باستجابتهم له إلى أسفل سافلين، الذين هم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً، وقد دل على هذه القضية قول الله تعالى:

﴿أَسْتَحْذِرُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ﴾.

القضية الثانية: وهي تأتي أثراً من آثار القضية الأولى، وهي ما حصل لديهم من نسيان ذكر الله تماماً، فمن استحواذ عليه الشيطان، وملاً ساحة فكره بما نثر فيها وزرع من وساوسه وتسويلاته وشبهاته وضلالاته، وسقى وتغذى بالنماء، أنساه الشيطان ذكر الله، فهو لا يذكر الله حينما يتقلب في بغيه، ولا يذكر الله حين يتعرض لبلائه ومصائبه، بل يرى كل ذلك مصادفات من ظواهر الحركات الطبيعية، أو أثاراً لأعمال يقوم بها الناس لا سلطان لقضاء الله وقدره عليها، وإذا كانت له مطالب سعى يتخذ الأسباب المادية بلوغها دون أن يتحرك قلبه بالتوكل على الله عند اتخاذها، وحينما تتعسر عليه بلجاً إلى الغيبيات التي يؤمن بها المشركون، وهنا تتلاعب به الشياطين، وإذا كان لا يذكر الله عند هذه الأمور فهو لا يذكر الله ختماً ليحمده ويشكره ويغبطه، ليفعل ما أمر به، ويترك ما نهى عنه، وقد دل على هذه القضية قول الله تعالى :

﴿فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾

دلت والفاء العاطفة، على الترتيب مع التعقيب، ودلت على السببية، ودل حدوث النسيان على أنه أمر طارئ عليهم بسبب استحواذ الشيطان عليهم، ولم يكن من فطرتهم، ولا من أوائل رحلة امتحانهم قبل أن يستحواذ عليهم الشيطان عن طريق الأهواء والشهوات والشبهات والضلالات.

القضية الثالثة: وهي تأتي أثراً من آثار اجتماع القضيتين الأولى والثانية، وهي أن المنافقين حينما يتلاقون على مبادئ ومفاهيم وعقائد وأنواع سلوك في الحياة جرهم الشيطان إلى سلوكها، فلا بد أن يتألف منهم حزب تشاكلت مبادئ أفرادها، وأهواؤهم، وتشابهت أعمالهم، ولما كان الشيطان هو الذي يوسوس بها ويسول، ويستدرج إلى سلوك سبيلها، فلا بد أن يكون الشيطان هو رئيسها وقائدها، فحزبهم هو حزب الشيطان، لأنه هو قائده، ورئيسه، وواضع برامجه، وموجه أفرادها، وسائقهم سوق البهائم.

القضية الرابعة: تنضم بيان عاقبة هذا الحزب الشيطاني، وهي أنه هو الحزب الوحيد الخاسر لكل شيء، فكمال الخسران منحصراً به، فقال تعالى :

﴿الْأَإِنِّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

[الآ]: أداة استفتاح للتنبيه والتحذير.

[إن]: لتأكيد الخبر.

[هم]: ضمير فصل لتأكيد التأكيد، وإفادة الحصر الذي يحصل بتعريف طرفي الإسناد.

[الْخَاسِرُونَ]: أي: المستجمعون لخسارة كل شيء إذ خَسِرُوا أنفسهم، ودفعوا بها إلى العذاب الأليم الخالد في دار العذاب. فَهَلْ يَوجد خُسرَان أشَدَّ من هذا الخسران ١٩.

أداة التعريف هنا لاستغراق أفراد جنس الخسران، فتحقق بذلك القصر. ولم يأت هذا القصر في القرآن إلا وصفاً للكافرين، والكافرون جميعاً على اختلاف مذاهبهم وأهوائهم وبرامجهم هم حزب الشيطان.

أما غير الكافرين فقد يَخْسِرُونَ خسارات مختلفة الدرجات لكنَّهُمْ لا يكونون هم الخاسرين لكل شيء.

وهكذا يظهر لنا الانسجام والاتفاق في دلالات العبارات القرآنية، ولو كان هذا الكتاب من عند غير الله لوجد الباحثون المنقبون فيه اختلافاً كثيراً.

فالحمد لله الذي هدانا لهذا الكتاب، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

والحمد لله على توفيقه وفتحته في تدبر آيات كتابه.

* قول الله عز وجل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٦﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَّا وَرُسُلُنا إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٧﴾﴾.

سبق في صدر النص السابق (٢٧) من سورة (المجادلة) بيان أن المناققين يحادون الله ورسوله، أي: يقفون في حدٍّ معارض ومضادٍّ لحدِّ الله ورسوله سرّاً،

وَيَتَرَبَّصُونَ أَنْ تَنْسَحَ لَهُمُ الْفُرْصَةُ لِيَكُونُوا مَقَاتِلِينَ لِلتَّخْلُصِ مِنَ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ قِتَالًا عَلَنِيًّا، فَهُمْ أَعْدَاءُ حَقِيقِيونَ سِرًّا، إِلَّا أَنَّهُمْ جَبْنَاءُ.

فاقتضت الحكمة البيانية تطمين الرسول والذين آمنوا، ووَعِيدُ المنافقين، بأنهم سيكونون بسلطان القهر الرباني في الضعفاء المخذولين الأذلين، فقال الله تعالى:

﴿أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾.

هذه الجملة خبرٌ ﴿إِنْ﴾ واسم الموصول وصلته اسمُها، ومعنى: ﴿فِي الْأَذَلِّينَ﴾: أَذِلَّاءُ ضِعْفَاءُ مَخْذُولُونَ فِي مُجْمَعِ الْأَذَلِّينَ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، فَهُمْ رُكْعَةٌ مِنْ رُكَّامِ الْأَذَلِّينَ الْمُغْلُوبِينَ، لَيْسُوا مُؤَهَّلِينَ لِأَنْ يَتَّبَعُوا، مَهْمَا اتَّخَذُوا مِنْ وَسَائِلٍ وَأَسْبَابٍ.

وليس هذا الخبر عنهم أمراً معتمداً على ظنون وأمارات، بل هو قضاء بقدر رباني، دلَّ عليه قول الله تعالى:

﴿كَتَبَ اللَّهُ لَا غَلَبَ لَنَا وَرُسُلِي﴾.

قانون من قوانين الكون الربانية، أو سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ، قضاها وألزم الله بها نفسه، في ظروف الحياة الدنيا، حياة الابتلاء، قَبْلَ حياة الجزاء، هذه السُنَّةُ هي:

﴿لَا غَلَبَ لَنَا وَرُسُلِي﴾.

وَيُلْحَقُ الْمُؤْمِنُونَ الصَّادِقُونَ بِالرُّسُلِ إِذَا التَّزَمُوا مِنْهَجَ اللَّهِ، وَلَمْ يَنْحَرِفُوا عَنْهُ، أَوْ يَقْصُرُوا بِوَاجِبَاتِهِمْ تَجَاهَهُ.

﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾:

أي: سَجَّلَ اللَّهُ كِتَابَةً فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، ثُمَّ فِي الصُّحُفِ الَّتِي قَدْ يُكْتَبُ فِيهَا بَعْضُ مَا فِيهِ، كَصُحُفِ الْمَلَائِكَةِ.

الكتابة تدوين للكلام يشتمل على علمٍ ما، وقد تُحْمِلُ الكتابةُ دلالةَ الأمرِ المكتوب، فإذا كان المكتوبُ يُعَبِّرُ عَنْ قِضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، حَمَلَ فِعْلُ ﴿كَتَبَ﴾

معنى: «قَضَى وَقَدَّرَ». وإذا كان المكتوب يُعَبَّرُ عن أمرٍ أو نهيٍ، حمل فعل ﴿كُتِبَ﴾ معنى: «أَمَرَ أَوْ نَهَى». وإذا كان المكتوب يُعَبَّرُ عن شيءٍ فرضه الله على عباده، حمل فعل ﴿كُتِبَ﴾ معنى «فرض أو أوجب». وإذا كان المكتوب يُعَبَّرُ عن حقيقة أزلية، كان معنى ﴿كُتِبَ﴾ دَوْنُ معلومة من المعلومات الأزلية. وإذا كان المكتوب يُعَبَّرُ عن أمرٍ سيفعله العباد باختيارهم الحر، كان معنى ﴿كُتِبَ﴾ دَوْنُ معلومة من المعلومات التي يحيط بها عِلْمُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَوْ كانت مِمَّا سيفعله العباد باختيارهم الحر، وهذه من خصائص شمول العلم الرباني لكل شيء، ولا يُقَالُ في هذه: قضى وقدر، فمن فهم في هذه معنى «قَضَى وَقَدَّرَ» فقد أساء، وأفسد، ولم يتدبر.

ولَمَّا كَانَتْ سُنَّةُ اللَّهِ فِي: ﴿لَاغِلِينَ أَنَا وَرُسُلِي﴾ سُنَّةُ نَافِذَةٍ، وَكَانَ نَفَاذُهَا مظهرًا من مظاهر قُوَّةِ اللَّهِ وَعَزِّهِ الْغَالِيَةِ، وَجَزِئِيَّةٍ مِنْ جَزْئِيَّاتِ صِفَةِ كَلِيَّةٍ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ الْجَلِيلَةِ وَهِيَ أَنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ غَزِيرٌ، أَي: غَالِبٌ لِكُلِّ الْقَوَى مَتَى شَاءَ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي الْبَيَانِ التَّذْكِيرَ بِهَذِهِ الْكَلِيَّةِ الْإِعْتِقَادِيَّةِ، لِرَبْطِ الْفُرُوعِ بِالْأَصُولِ، وَلِتَعْمِيقِ الْإِيمَانِ وَتَثْبِيتهِ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَى الْكَافِرِينَ الْمَعَانِدِينَ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ غَزِيرٌ ۝﴾

غزير: أي: ذو عزة كاملة. العزة: هي القدرة على التغلب، تقول العرب، عزَّ إذا غلب، وفي المثل: (مَنْ عَزَّزَ) أي: من غلب سلب.

* قول الله عز وجل:

﴿لَا يَحْجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنَّا وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَوَضَعَا عَنْهُمْ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝﴾

في مقابل ما عليه المنافقون من اتخاذهم أعداء الله اليهود الذين غضب الله عليهم أولياء من دون المؤمنين، كان من الحكمة البيانية توضيح الموقف المنجّد باستمرار للذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، حول موضوع موالة من حادّ الله ورسوله من أهل الكفر الصّرحاء والمنافقين.

وهذه الآية قد ختم الله بها سورة (المجادلة) موضحة موقف المؤمنين في موضوع الموالة.

إنها آية خطيرة جدّاً، تذكّر الذين يؤادّون من حادّ الله، موادة موالة بنصرة ومعونة وتأييد ضدّ الإسلام والمسلمين، بأنهم لو كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر لما فعلوا ذلك، إذ:

﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾:

أي: لا تجد أيها الباحث المنقب الصالح للمخاطب قوماً لهم كتلة أو جماعة ما يؤادّون من حادّ الله ورسوله، وهم مع ذلك يؤمنون بالله واليوم الآخر.

إنهم لو كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر لخافوا من عذاب الله الشديد الذي يجعلهم مع أوليائهم الكافرين في النار، إن هذه الموالة للكافرين ضدّ المؤمنين خيانة عظيمة تقدّف بالموالين إلى صفوف الكافرين الذين يحادّون الله ورسوله.

إن إنساناً لديه ذرة من إيمان وعقل لا يرتكب هذه الكبيرة العظمى، فالآية لا تجعل هذه الموادة إحدى المكفّرات، لكنها تكشف أنها تدلّ على عدم وجود الإيمان بالله واليوم الآخر في القلب بصورة صحيحة سليمة مقبولة عند الله، ففعلها بين المسلمين من خصائص المنافقين في الجملة.

أمّا ما فعل حاطب ابن أبي بلتعة فلم يكن موادة من هذا القبيل، مع أنّ ما فعله قد كان مغصية كبيرة، إلا أنه لم يكن عن نفاق، وكان مع ذلك بصورة فردية، لحماية أهله، لا موادة لمن حادّ الله ورسوله.

ويدخل في عموم هذا الكلام الذين يؤادّون المنافقين، وهم يعلمون أنهم منافقون، أو ظهرت في أقوالهم وتصرفاتهم علامات النفاق.

وتساءل المتدبر لهذا البيان الخطير: ماذا يفعل المؤمنون بالله واليوم الآخر، مع آبائهم وأبنائهم وإخوانهم وعشيرتهم الأقربين من أهل الكفر، ألا يؤادونهم؟ ويأتيه الجواب في هذه الآية، مع تنأج فقراتها:

﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾.

إن موادة الأقربين التي تستلرج إلى موالاتهم من دون المؤمنين، هي من مناصرة الكفر ضد الإيمان، والكافرين ضد المؤمنين، وهذه كبيرة لا يفعلها إلا كافر صريح أو منافق.

حسناً: فما هو حال المؤمنين الذين لا يؤادون من حاد الله ورسوله، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم؟

لقد اشتملت الآية على بيان ست قضايا عظيمة كريمة تتعلق بهم:

القضية الأولى: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ، فقال عز وجل:

﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾:

أي: أولئك رفيعو المنزلة عند الله وملأناكته كتب الله في قلوبهم كلمات الإيمان، لتكون هذه الكلمات المكتوبات في قلوبهم شهادة من الله لهم بأنهم مؤمنون، ولما كان الإيمان محل القلب، كانت هذه الكلمات الشاهدات لهم بأنهم مؤمنون، مكتوبة بأمر الله أو بفعله ضمن قلوبهم، وهذه الشهادة الربانية في قلوبهم جواز دخولهم الجنة، وقد اعتادت الشعوب القديمة أن تكتب شعار قبيلتها على أجساد أفراد القبيلة، ويسمون: «التوتم» وهو بمثابة الهوية.

وفي المقابل نجد في النصوص النبوية أَنَّ الدِّجَالَ مكتوب على جبينه «كافر» شهادة عليه بأنه من أهل النار، ولا تبرز على جبينه ليقرأها المؤمنون، إلا بعد أن كُتِبَتْ في قلبه.

فالمؤمنون يحملون هويتهم الربانية في قلوبهم، وقد يحمل الكافرون في المقابل هوية كفرهم.

ولا أرى مقتضياً لتأويل هذه الكتابة، وحملها على معانٍ أخرى، كالجعل، أو التثبيت، أو غير ذلك، فالأصل حمل اللفظ على ظاهره إلا عند التعذر.
أقول:

وما يُكْتَبُ في القلوب يُقرأ يوم القيامة كالذي يُقرأ في الصحف، وقد يكون باستطاعة الملائكة الموكلين بأعمال العباد أن يقرؤوه في الدنيا أيضاً. والله أعلم.

القضية الثانية: أَنَّ الله عزَّ وجلَّ يُؤَيِّدُهُم بِرُوحٍ مِنْهُ، أي: بقوة معنوية، مقابل تخليهم عن الأقربين من أرحامهم وعشيرتهم الكافرين، والاستئصال بهم ومناصرتهم، فقال تعالى:

﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾:

أي: وقواهم على الثبات في مواقف الإيمان وفي المعارك ضدَّ الذين يحادون الله ورسوله، بروحٍ منه، أي: بقوة خفية غير منظورة.

وجاء التعبير بصيغة الفعل الماضي ﴿وَأَيَّدَهُم﴾ لبيان تحقُّق وقوع هذا التأيد، في مجرى حياتهم، ومن جعله الله مؤيداً منه فتأييده له مستمرٌّ مدى حياته، ما دام على وصفه الذي أيده من أجله.

القضية الثالثة: أَنَّ اللَّهَ يُدْخِلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خالدين فيها، فقال تعالى:

﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

إنَّها جَنَّاتٌ مُفَصَّلَاتٌ، ضمن جنَّةٍ عَظُمَى جَامِعَةٍ لَهَا، وكلُّ جنَّةٍ مِنْهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِ قُصُورٍ أَصْحَابُهَا فِيهَا الْأَنْهَارُ التي جاء وصفها في القرآن.

فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يُدْخِلُ هؤلاء الذين كتب في قلوبهم الإيمان جناتٍ تجري من تحتها الأنهار حالة كونهم خالدين فيها.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾:

حال من ضمير النصب في ﴿وَيُدْخِلُهُمْ﴾ وهذه الحال يسمونها حالاً مُقَدَّرَةً، لأنَّ الخلود ليس مقارناً لدخولهم الجنات.

القضية الرابعة: أَنَّ اللَّهَ رَضِيَ عَنْهُمْ إِذْ قَلَعُوا بِإِيمَانِهِمْ وَعَمَلِهِمْ مَا يُرْضِيهِ، وَأَنْتُمْ رَضُوا عَنْ اللَّهِ، إِذْ أَصَابُوا مِنْ عَطَاءَاتِهِ الْعَظِيمَةِ، فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ مَا لَمْ يَكُنْ يَخْطُرُ عَلَى بَالِهِمْ، فَوْقَ مَا نَالُوا مِنْ تَأْيِيدٍ وَمَجْدٍ وَسَعَادَةٍ قَبْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾.

الرضا: هو الشعور بالارتياح والاكْتفاء والقبول، وتحقيق المطلوب، أو إدراك ذلك في النفس.

القضية الخامسة: وهي تأتي أُنْثَرًا من آثار اجتماع المؤمنين على عقائد ومبادئ ومفاهيم وصراط ربّانيّ واحد، فلا بدّ أن يتألف منهم حزب واحد، متحد الوحدات الفكرية والنفسية والقلبية والسلوكية.

ولما كان الله هو الهادي إلى الإيمان، والمصطفى لعباده دين الإسلام، وكان هذا الحزب هو الحزب المؤمن بما هدَى الله له، والعامل بما شرع لعباده والسالك صراطه الذي وضعه لهم، كان هو الجدير بأن يكون عنوانه «حزب الله» فقال تعالى:

﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾:

أي: أولئك ذُووِ المَنْزِلَةِ الْعَلِيَّةِ والمَقَامِ الرَّفِيعِ عند الله هم حِزْبُ اللَّهِ، ومن كان من حزب الله جعله الله في كنفه، وأَمَدَّهُ بِمَدَدٍ من لدنه.

القضية السادسة: تتضمّن بيان عاقبة حِزْبِ اللَّهِ، في مقابل ما سبق من بيان عاقبة حزب الشيطان، فقال تعالى:

﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

أي: هم الفائزون الظافرون بكلّ ما يتمنون، وفقّ ما يتمنون.

ويقال في هذه الجملة ما سبق شرحه لدى تحليل الجملة المقابلة:

﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

فَلْيَرْجِعْ إِلَيْهِ، أَوْ فَلْيَلْحَظْ هُنَا.

وانتهى النص



النص التاسع والعشرون

وهو من سورة (التحریم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول)

«السورة (٢١) من التنزيل المدني»

الآية (٩)

حول مجاهدة الكفار والمنافقين والإغلاظ عليهم

* قال الله عز وجل:

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ۝٩﴾

* * *

مع الآية في التحليل والتدبر

تحليلات لفظية:

صُدِّرَت الآية بخطاب النبي بوصفه قائد الأمة الإسلامية في حياته، لأنه هو المسؤول عن إصدار القرار بمجاهدة الكفار والمنافقين، والإغلاظ عليهم، ضمن المستوى الجهادي الذي يراه.

ويُلْحَقُ بالنبي كل قائد للأمة الإسلامية من المؤمنين المسلمين، لأن شرائع الله لعباده شرائع مستمرة ولا تقتصر على عصر النبي، فخلفاء النبي من بعده وأمراء المؤمنين مسؤولون عن تنفيذ الأوامر الموجهة للنبي من كل ما يُعْمُ أمور المسلمين، أو يتعلق بحقوق الإدارة وواجباتها.

وقد علّمنا الله عز وجل في صدر سورة (الطلاق/ ٦٥ مصحف/ ٩٩ نزول)

أَنَّ خطابه للنبيّ هو خطاب في الحقيقة لكلّ المؤمنين، لأن موضوع الطلاق الذي جاء فيه موضوع عام وليس من خصوصيات الرسول.

وكذلك في صدر سورة (التحریم) مع أنه نزل بمناسبة حادثة جرت للنبيّ، إلا أنّ المضمون عامّ يشمل كلّ من يجري له مثل ما جرى للنبي ﷺ.

﴿جَهَادُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ﴾

يقال لغة: جَاهَدَ يُجَاهِدُ مُجَاهِدَةً وَجِهَادًا، أي: بذلَ جَهْدًا فيه معنى المغالبة أو المنافسة لمعارض يشارك ببذل الجُهد، مغالبًا، أو منافسًا، أو مقاومًا صادقًا.

هذا ما تدلُّ عليه الصيغة، وفي الجهاد على هذا المعنى يُبذل عادةً جَهْدٌ زائد، وقد يُطلَقَ الجهاد ويراد منه مُجَرَّدُ بذلِ الجُهدِ الزائد، ولو لم يكن في مُقابله مُشاركٌ مُغالبٌ أو منافسٌ أو مقاومٌ.

والجهاد المستعمل في القرآن تعبيرٌ يدخلُ في عُمومِ الْمَعْنَى اللَّغَوِي بِشكلٍ عامّ، إلا أنّ له قيداً عامًّا، وهو أن يكون في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وقبولا تفصيلية لكلّ نوعٍ من أنواع الجهاد، وهذه القيود مبينة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وفيما استنبطه علماء المسلمين وفقهاؤهم.

ومن استعراض النصوص القرآنية في الجهاد يتبيّن لنا أنّ المراد من الجهاد في سبيل الله أن يبذل المؤمن المسلم في سبيل الله ممّا يَمْلِكُ مِنْ جُهدٍ، أو طاقةٍ، أو مالٍ، أو فكرٍ، أو علمٍ، أو دعوةٍ إلى الله، أو جدالٍ بالتي هي أحسن، أو أيّ شيءٍ ذي نفعٍ، أو ذي تأثيرٍ ما، من أيّ شيءٍ يَخُصُّه، أو من أيّ شيءٍ له عليه سُلْطَةٌ ما، أو قدرةٌ على التصرف فيه إذا كان مأذوناً بذلك شرعاً، لنصرة الإسلام والمسلمين بالحق.

ومجالات الجهاد كثيرة، منها:

- بذل طاقة الفكر، لنصرة دين الله بالحق.
- بذل المال لنصرة الإسلام والمسلمين.
- بذل قدرات اللسان في البيان النافع المؤثر للهدف نفسه.

- بذل قدرات الكتابة والتأليف، والنشر والتوزيع.
- بذل حركة الجسد، في المشي، والسعي، والسفر، والتنقل في الأرض.
- التضحية بمطالب النفس من شهوات ولذات وأهواء ونحو ذلك.
- إعداد المستطاع من القوة للإرهاب، وكف العدوان القائم أو المحذور منه.
- القتال، والتضحية بالحياة حين تدعو الضرورة أو الحاجة الملحة لذلك، دفعاً لخطر قائم أو خطر مُتَوَقَّع، أو لتأمين وصول دعوة الإسلام إلى الناس، وحماية الشعوب من الظلم، والعدوان، والفتنة في الدين.
- قول الحق مع الخوف من التنكيل عقاباً على قوله، من أدنى درجات التعذيب حتى القتل.
- القيام بأعمال لخدمة الإسلام والمسلمين يتعرَّض القائم بها لمصائب في ماله أو نفسه حتى بذل حياته، كالتجسس ضمن صفوف الكافرين.
- إلى غير ذلك من أمور، بشرط أن تكون مأذوناً بها شرعاً.

﴿وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ﴾:

أي: كُنْ شديداً عليهم، فعاملهم بقسوة وتعنيف، فقد تعادوا فيما هم فيه منذ أوائل العهد المدني ولم يرتدعوا بمختلف الأساليب الرفيعة، وقد مضى من العهد المدني قرابة ثلثيه، ولم تجد معهم سياسة التفاوضي، والتخويف بعذاب الآخرة، ثم التهديد بالإذن بمحاربتهم.

﴿وَمَا وَنَّهُمْ جَهَنَّمَ﴾:

أي: منزلهم الذي سيصيرون إليه، ويقيمون فيه دواماً جهنم دار العذاب يوم الدين.

تدرج البیان الربّاني

حول معاملة المنافقين مع تدبر النصوص

نلاحظ أنّ التوجيه الربّاني في نجوم التنزيل القرآني الموجّه للرسول والمؤمنين حول معالجة المنافقين داخل المجتمع الإسلاميّ الأول، قد تدرّج على الوجه التالي :

(١) ففي المرحلة الأولى وجه الله عزّ وجلّ رسوله لعدم مقابلة أذاهم بالعقاب، ولأنّ يتوكّل على الله في كفّ أذاهم عنه، ويلحق المؤمنون بالرسول في هذا التوجيه، فقال الله عزّ وجلّ له في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) وهي رابع سور مدنية:

﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ٥٨﴾.

ويظهر أنّ المراد من الكافرين في هذه الآية قسمٌ منهم لم يكن قد أذن الله بعدُ بقتالهم، ولعلّهم من كفار اليهود في المدينة.

(٢) وعقب ذلك وجه الله عزّ وجلّ التحذير للمنافقين في سورة (الأحزاب) نفسها بقوله تعالى متحدثاً عنهم بأسلوب الحديث عن الغائب:

﴿لَئِنْ لَرَيْنَاهُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَارُوا رُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ٦٧ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا قَتْلًا ٦٨ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ٦٩﴾.

﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾:

أي: لنخرضنك على ملاحقتهم وتقتيلهم.

فالله عزّ وجلّ يُنذِر المنافقين في هذا النصّ بأنهم إذا لم ينتهوا ويكفوا عن

أعمالهم، وحركاتهم العدائية الكيدية السرية للرسول والإسلام والمسلمين، فَيَسْلُطُ الله رسوله والمؤمنين عليهم، وَيُنْهِي أسلوب التغاضي عنهم، والصُّبْر عليهم، والتسامح معهم، كما سَلَطَ على أمثالهم من أهل الأمم السالفة فيما شرع لِرُسُلِهِ الماضين، من مُلاحَقَةٍ بالأخذِ والتقتيل الشديد أَيْنَمَا وَجَدُوا.

فإذا تمادى المنافقون في الرسالة الربانية الخاتمة، معتبرين إمهالهم فرصةً سانحةً يكيّدون خلالها كيدهم، ويتابعون فيها شرورهم وخبائثهم، فسيُنْزِلُ الله الإذن لرسوله بالبحث عنهم، وملاحقتهم، وتقتيلهم، أو يأمره بذلك.

وهذا الإشعار، مع بيان أَنَّ أخذهم وتقتيلهم قد كان من سُنَّةِ الله في الأمم السابقة يَدُلُّ على أَنَّهُمْ إذا تفاقم أمرهم، وصاروا خطراً حقيقياً ضمن المجتمع الإسلامي، فَإِنَّ القيادة المؤمنة المسلمة مأذونة بتطبيق سُنَّةِ اللَّهِ فيهم، بدليل قوله تعالى:

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُنَّ اللَّهُ سُنةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (١٦)

وقد قَسَمَ الله المنافقين في هذا النصِّ إلى أقسام ثلاثة:

القسم الأول: المنافقون الذين ينطبق عليهم كل صفات المنافقين.

القسم الثاني: وهم الذين في قلوبهم مرض لم يبلغ مبلغ النفاق الأقصى، لكنهم يسرون مع المنافقين، ويتحرَّكون مثل تحرَّكهم.

القسم الثالث: المرجفون، وهم الذين تظهر على ألسنتهم عبارات التخذيل، والإرجاف بأن المسلمين مهزومون.

الإرجاف: الإخبار بالأكاذيب، لإثارة الفتن والاضطرابات.

(٣) وبعد ذلك أمر الله رسوله بأن يحذِّرهم، وَيُلْحِقْ بالرسول جميع المؤمنين ولا سيما الخلفاء والأمراء، فقال عز وجل بشأن المنافقين في سورة (المنافقون) ٦٣ مصحف / ١٠٤ نزول) السورة (١٨) من التنزيل المدني:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ خُشْبٌ مِّنْ سِنْدَةٍ

يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُوَّ فَأَحْذَرْتُمُ قِتْلَهُمْ اللَّهُ أَلَمْ يَوْفِكُمْ ﴿١﴾

فاشتملت هذه الآية على قضيتين مهمتين :

القضية الأولى : التحذيرُ منهم ، والحذرُ منهم يقتضي مراقبتهم الشديدة ، ومحاصرتهم بمن يَرُصد حركاتهم ، لاخذ من ينكشف منهم بالجرم المشهود .
القضية الثانية : التدخل الرباني لمقاتلتهم لإحباط أعمالهم الكيدية .

(٤) وبعد ذلك ألمح الله عز وجل إلى أَنَّ المنافقين يتوهمون أَنَّ أموالهم وأولادهم ستحميهم من نعمة الرسول والذين آمنوا إذا انكشف حالهم وظهرت خياناتهم ، ومع هذا الإلماح أبان الله عز وجل أَنَّ أموالهم وأولادهم لن تُصرف عنهم شيئاً من عذاب الله بأيدي أوليائه المؤمنين ، فقال تعالى في سورة (المجادلة) / ٥٨ مصحف / ١٠٥ نزول) السورة (١٩) من التنزيل المدني :

﴿لَنْ تَغِيْرَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧﴾﴾

وقد سبق شرح هذا النص .

(٥) وَلَمَّا لَمْ يَكْفُ المنافقون عن التمادي في خياناتهم ، وأعمال الكيد السرية التي لا بُدَّ أَنْ يظهر شيء منها بين حين وآخر ، أنزل الله عز وجل على رسوله في سورة (التحریم) / ٦٦ مصحف / ١٠٧ نزول) السورة (٢١) من التنزيل المدني ولم ينزل بعدها من القرآن إلا سبع سور .

﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ جَاهَدُوا الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَتْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾﴾

فجاء في هذا البيان الأمرُ بمجاهدة المنافقين والإغلاظ عليهم ، والأمر بمجاهدة الكفار الذين سبق أن أمر الله رسوله بالصبر على أذاهم في سورة (الأحزاب) / ٣٣ مصحف / ٩٠ نزول) ولعلهم فريق من كفار اليهود في المدينة .
وجاء اللفظُ عامّاً شاملاً لأنواع الجهاد ، لإلقاء الرُعب في قلوب المنافقين ،

بأنَّ باستطاعة الرسول والذين آمنوا أن يُدْخِلُوا في هذا العموم أعمال القتال، التي هي من مجالات الجهاد الكثيرة.

ولم يَأْتِ نَصّاً ضريحاً بالقتال لئلا يُضْطَرَّ الرسول والمؤمنون إلى مباشرة البحث عن المنافقين وتقتيلهم، لكنَّ النَصَّ صالح لأن يفهموا منه الإذن بقتالهم ضمن القيام بصور الجهاد الأخرى.

ومع الأمر بمجاهدتهم أبان الله عاقبتهم يوم القيامة فمأواهم جهنم وبئس المصير.



النص الثلاثون

وهو من سورة (الفتح / ٤٨ / مصحف / ١١١ نزول)

والسورة (٢٥) من التنزيل المدني

الآيات من (١ - ١٧)

حول أثر الفتح المين الذي حصل في صلح الحديبية

على نفوس المنافقين المخلفين وموقفهم

• قول الله عز وجل:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝١ ﴾ وَبَصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا ۝٢ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ۖ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۖ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٤ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ ۖ بِاللَّهِ ظُنُّكَ أَلْسُوهُ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝٥ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيمًا حَكِيمًا ۝٦ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٧ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٨ إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۖ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُومُهُ ۖ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٩ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْنَا

يَقُولُونَ بِالسَّيِّئَةِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا السَّوْءَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَازِمَ لِنَأْخُذْهَا ذُرُوءًا نَّفَعَكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْنُ مُخْشَدُونَ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرَةٌ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ بِأَمْرِ شَدِيدٍ فَنَقَّبُوا لُبُوبَهُمْ أَوْ تُسَلِّمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا أَمْرَكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَلِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴿١﴾

(١)

ما في النص من القراءات المتواترة (من الفرش)

* في الآية (٦):

(١) قرأ جمهور القراء العشرة [السوء] بفتح السين.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو [السوء] بضم السين.

القراءتان بمعنى سيتزل بهم ما يكرهون مما يكون مؤلماً لهم مادياً أو معنوياً.

* في الآية (٩):

(١) قرأ جمهور القراء العشرة: [تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ] بناء الخطاب في الأفعال الأربعة.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: بياء الغائب في الأفعال الأربعة.

وفي القراءتين تكاملٌ في الأداء البياني، أما قراءة الجمهور فهي تُخاطبُ الناس بعد خطاب الرسول وفق الأسلوب الذي يُسمَّى عند البلاغيين «الالتفات» وأما القراءة الأخرى فهي تنابع خطاب الرسول.

✽ في الآية (١٠):

(١) قرأ جمهور القراء العشرة: [بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ] بكسر هاء الضمير وصلًا.
 وقرأ حفص عن عاصم بضم هاء الضمير من [عَلَيْهِ] وصلًا.
 أما في الوقف فتسكنُ عند الجميع وفق قاعدة الوقف.
 والقراءتان لغتان عند العرب في نطق هاء الضمير.
 (٢) قرأ نصف القراء العشرة: [فَسَيُوتِيهِ] بياء الغائب.
 وقرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر وروح عن يعقوب [فَسَنُوتِيهِ] بنون المتكلم العظيم.

وفي القراءتين تكامل في الأداء البياني.

✽ في الآية (١١):

(١) قرأ جمهور القراء [ضُرًّا] بفتح الضاد.
 وقرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر [ضُرًّا] بضم الضاد.
 والقراءتان وجهان في نطق هذه الكلمة عند العرب، ضَرَّ وضُرَّ.

✽ في الآية (١٥):

(١) قرأ جمهور القراء: [كَلَامَ اللَّهِ] «كلام» اسم جنس يقع على القليل والكثير.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر [كَلِمَ اللَّهِ] «كلم» جمع كلمة، مثل: نَبَقَةٌ ونَبَقٌ، ويعرف مثل هذا الجمع باسم الجنس الجمعي الذي يفرق بينه وبين واحده بالتاء.

والقراءتان وجهان عربيان بمعنى واحد.

* في الآية (١٧):

(١) قرأ جمهور القراء [يُدْخِلُهُ - يُعَذِّبُهُ] بياء الغائب في الفعلين.

وقرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر: [نُدْخِلُهُ - نُعَذِّبُهُ] بنون المتكلم العظم في الفعلين.

وفي القراءتين تكامل في الأداء البياني.

* * *

(٢)

موضوع النص وما ورد من أسباب النزول حوله

(١) تدور سورة (الفتح) حول أحداث ونتائج صلح الحديبية، الذي كان في شهر ذي القعدة من سنة ست للهجرة، ونزلت السورة في طريق عودة الرسول والمسلمين إلى المدينة عقب صلح الحديبية، وقد مُنِعَ المسلمون من أداء عمرتهم في ذلك العام، فأحصروا فذبحوا هديهم، وتحللوا من إحرامهم محلّقين ومقصرين، بعد أن أبرم الرسول ﷺ صلح الهدنة مع قريش، في قصة تُستوفى إن شاء الله مع بيان سبب النزول.

(٢) وحظَّ المنافقين من هذا النص بيان ثلاث قضايا:

القضية الأولى: بيان أنَّ صلح الحديبية وَغَوَظَةُ الرسول والمسلمين ممكنين من نشر الإسلام بين أكبر خصومهم وهم مشركو مكة، قد طَعَنَ آمالَ المنافقين في العمق، أو ذبحها ذبحاً، فكان ذلك مؤلماً لِقُلُوبِهِمْ ونفوسهم، ومعذباً لهم تعذيباً أشدَّ عليهم من كُلِّ ما أصابهم سابقاً من خيبة آمال.

القضية الثانية: بيان أنَّ المنافقين من الأعراب وهم من قبائل بدويّة حول المدينة، قد دُعُوا إلى الخروج مع الرسول لأداء العمرة، فلم يخرجوا، ظانين أنَّ الرسول والمسلمين لن يُعَوِّدُوا سالمين من سفرهم ذلك، لأنَّ أهل مكة سيبيدونهم

إبادة تامة، فالمسلمون قلة، وقد خرجوا بسلاح خفيف معتمرين، والمشركون سيتهزون بها فرصة لاستئصال خضرائهم.

وقد أخبر الله بأن هؤلاء المنافقين المخلفين من الأعراب سيعتذرون عند عودة الرسول والمسلمين إلى المدينة قائلين للرسول وهم يكذبون: شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا.

وكشف الله عز وجل سبب تخلفهم الحقيقي، وهو نفاقهم، وظنهم أن المسلمين سيقتضى عليهم، وستتأصل شأفتهم.

القضية الثالثة: بيان أن المخلفين عن الخروج مع الرسول ﷺ لأداء العمرة عام الحديبية، يقولون حين يعلمون أن المؤمنين خارجون لغزو قوم ليسوا ذوي بأس شديد ومن السهل الظفر بمغانم كثيرة لديهم: ذرونا نتيغكم، يتغون المشاركة في الغنائم المطموح بتواردها وتكاثرها في الانتصارات والفتوحات، دون أن يكونوا قد شاركوا في أيام الشدائد، حين كانوا يظنون أن المسلمين قلة، غير مؤهلين للانتصار على أعدائهم، أهل القوة والبأس يومئذ، فإذا منعوهم من الخروج معهم، من أجل نفاقهم وسابق تخلفهم أيام الشدائد وتوقعهم هزائم المسلمين المنكرة قالوا لهم: إنكم تمنعوننا من مشاركتكم لأنكم تحسدوننا حين نأخذ معكم من الغنائم، إذ تريدون أن تكون لكم وحذكم لا تشارككم فيها.

وجاء في التعقيب على هذا توجيه الرسول أن يقول لهم ما معناه: هذه الأماكن القريبة في الحجاز قد أصبحت سهلة المنال وبكفي مسلمو المدينة للسيطرة عليها، والتخلص من سلطان أعداء الإسلام والمسلمين فيها، ولكن ستأتي بعدها خطوة أعظم، تمتد حركة الجهاد والفتح فيها إلى دوائر أخرى وراء دائرة الحجاز، دوائر في جزيرة العرب، ودوائر خارج جزيرة العرب، وفي بعض هذه الدوائر قوم أهل بأس شديد، وعندئذ سيحتاج إلى خروجكم مقاتلين فاتحين، مع جيوش المؤمنين المسلمين، وستدعون إلى مواجهة هؤلاء القوم، فإن أطعتم يومئذ وخرجتم صادقين معدين أنفسكم لنيل الشهادة في سبيل الله، لا لمجرد الظفر بالغنائم التي ترون الحصول عليها أمراً سهلاً، يؤتكم الله أجراً حسناً عنده، مع ما قد تنالونه من

غنائم. وإن توليتم مدبرين مبتعدين، كما توليتم من قبل حين كنتم نظنون أن مواجهة المؤمنين لأعدائهم مواجهة خاسرة حتماً، فأنتم منافقون، طالبو مغانم، ولستم طالبين رضوان الله ونشر دينه، والمنافق له عذابٌ عند الله أليم يستحقه ويناله، وكذلك العصي أمر الرسول، أو أمر أمير المؤمنين الداعي إلى القتال في سبيل الله بالزام لا بندب.

(٣) وجاء في النص بيان منة الله على المؤمنين، وإشارات إلى بدء انتهاء دور رسول الله ﷺ في الحياة الدنيا، بتحقيق الفتح المبين، وإلى قرب إكمال إنزال ما لم ينزل بعد من نعمة الله في هذا الدين.

(٤) وجاء في النص الثناء على المؤمنين الذين بايعوا رسول الله في الحديبية، وأن الله بارك بيعتهم، فجعل يده فوق أيديهم، فهم مطالبون بالوفاء بعهدهم وعدم الإخلال به ونكته.

* * *

ما ورد من أسباب النزول

(١) اتفق الرواة على أن سورة (الفتح) نزلت في طريق رجوع الرسول ﷺ من الحديبية، في شهر ذي القعدة، من سنة ست من الهجرة، حين صده مشركو مكة عن الوصول إلى المسجد الحرام ومعه المسلمون المعتمرون، ليقتضوا عمرتهم فيه، وحالوا بينهم وبين ذلك، ثم بعد مفاوضات قبلوا المصالحة والمهادنة، وأن يرجع الرسول والمسلمون معه عامهم هذا، ثم يأتي ومعه المسلمون في السنة القادمة إن شاء، وتم الصلح على هذا، ونود أخرى، وتحلل الرسول والمسلمون من عمرتهم تحلل المحصرين، بعد أن ذبحوا هديهم، وكان هذا التحلل أمراً صعباً على كثير من أصحاب الرسول، إلا أن إرادة الله الحكيمة شاءت ذلك، وبينما هم قافلون متجهين للمدينة، أنزل الله على رسوله سورة (الفتح) بموضع يقال له (كُراع الغميم)^(١).

(١) كُراع الغميم: موضع بين مكة والمدينة، وهو وادٍ أمام عُسفان بشمانية أميال أقرب إلى مكة، أي: بينه وبين عُسفان نحو (١٣) كم.

وقد نزلت بمناسبة الأحداث التي رافقت أو سبقت أو جاءت بعد صلح الحديبية.

(٢) رأى رسول الله ﷺ رؤيا تأويلها أن الرسول ومعه أصحابه سيدخلون المسجد الحرام زائرين معظمين البيت الحرام، ودعا الرسول المسلمين أن يخرجوا معه لأداء العمرة، ودعا من حول المدينة من الأعراب ليخرجوا معه معتمرين، لكي تطمئن قريش أن الرسول جاء معتمراً ولا يريد حرباً، فاستجاب له بعضهم، وتخلف الكثيرون.

وخرج مع الرسول ﷺ قرابة ألف وخمسمائة، معتمرين من المهاجرين والأنصار ومن لجق بهم من الأعراب، وساق الرسول معه الهدى سبعين بعيراً إيذاناً بأنه لم يرد حرباً، وإنما خرج معتمراً زائراً للبيت ومعظماً له.

وسار الرسول بالركب المعتمرين في اتجاه مكة، ولما بلغ «عُسفان»^(١) لقيه بشر بن سفيان الكعبي، فأخبره أن قريشاً سمعت بمسيره، فخرجوا ومعهم النساء والأولاد، قد لبسوا جلود النمور، ونزلوا بذئ طوى (مكان هو الآن داخل مكة) يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قدموا إلى كراع الغميم.

فقال رسول الله ﷺ:

«يَا وَجْهَ قُرَيْشٍ قَدْ أَكَلَتْهُمْ الْحَرْبُ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ الْعَرَبِ، فَإِنْ هُمْ أَصَابُونِي كَانَ ذَلِكَ الَّذِي ارَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَافَرِينَ، وَإِنْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّةٌ، فَمَا تَنْظُرُ قُرَيْشُ؟! قَوْلَ اللَّهِ لَا أَزَالُ أُجَاهِدُ عَلَىٰ هَذَا الَّذِي بَغَيْتِي اللَّهُ بِهِ حَتَّىٰ يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ تَنْفَرَدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ»^(٢).

وتفادى الرسول الاصطدام بخيل المشركين، فقال:

(١) عُسفان: قرية بينها وبين مكة مرحلتان، أي: مسير يومين.

(٢) السَّالِفَةُ: جانب العنق، وانفراد السالفة يعني انفصالها عن الجسم، أي: حتى أقتل.

«مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ بِنَا عَلَى طَرِيقٍ غَيْرِ طَرِيقِهِمُ الَّتِي هُمْ بِهَا؟» فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ «أَسْلَمَ»^(١): أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ .

فسلك بهم طريقاً وعرأً كثير الحجارة بين شعاب، فلما خرجوا منه، وقد شق عبوره على المسلمين، وأفضسوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي، قال رسول الله ﷺ للناس:

«قُولُوا: نَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ» .

فقالوا ذلك، فقال:

«وَاللَّهِ إِنَّهَا لِلْحِطَّةِ الَّتِي عُرِضَتْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمْ يَقُولُوهَا» .

ولما رأَت خيل قريش أن المسلمين سلكوا طريقاً آخر، رجعوا مسرعين إلى قريش .

وسلك المسلمون في اتجاه الحديبية من أسفل مكة، فلما وصلوا قُرب الحديبية، بركت ناقة رسول الله ﷺ .

فقال الناس: خَلَّتِ الناقة (أي: عَرَضَ لها مثل ما يعرض للدواب من جِرَان) .

قال رسول الله: «مَا خَلَّتْ، وَمَا هُوَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ عَنْ مَكَّةَ، لَا تَدْعُونِي قُرَيْشُ الْيَوْمَ إِلَى خُطَّةٍ يَسْأَلُونَنِي فِيهَا صِلَةَ الرَّجِمِ إِلَّا أُعْطِيَتْهُمْ إِيَّاهَا» .

ثم قال للناس: «انزِلُوا» .

قيل: يا رسول الله، ما بالوادي ماءً ننزل عليه، فأخرجَ سَهْمًا من كنانته، فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل به في قلب، من تلك القلب، فغرز في جوفه، فتدفق بالماء العذب الكثير، فشرب المسلمون وسَقَوْا دَوَابَّهُمْ وَارْتَوَوْا جميعاً .

(١) أسلم: بطن من خُزاعة، من قراهم «وَيْزَة» قرية ذات نخيل من اعراض المدينة، أي: من القرى التابعة للمدينة .

وروي عن جابر رضي الله عنه أنه قال: «لَوْ كُنَّا مِثَّةَ أَلْفٍ لَكَفَّانَا» وهذا من معجزات الرسول ﷺ التي أكرمها الله بها.

فلَمَّا اطمأنَّ المسلمون في المنزل الذي نزلوا فيه عند الحديبية، أقبلت إليه الوفود:

— أَنَاهُ بُذِلَ بِنُ وَرَقَاءَ الْخُزَاعِي فِي رِجَالٍ مِنْ خُزَاعَةٍ، فَكَلَّمُوهُ، وَسَلَّوْهُ: مَا الَّذِي جَاءَ بِهِ؟.

فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً، وإنما جاء زائراً للبيت، ومُعظماً لحرمة. فرجعوا إلى قريش، فقالوا: يا معشر قريش إنكم تَعَجَّلُونَ على محمد، إن محمداً لم يأت لقتال، وإنما جاء زائراً هذا البيت.

فأتهموهم وخاطبُوهم بما يكرهون، وقالوا: وإن كان جاء ولا يريد قتلاً، فوالله لا يدخلها علينا غنوة أبداً، وَلَا يَتَحَدَّثُ بِذَلِكَ غَنَّا الْعَرَبِ.

وكانت خزاعة ذات ولاءٍ لرسول الله ﷺ مُسلمها ومُشركها، لا يُخْفَوْنَ عَنْهُ شَيْئاً كان بمكة.

— ثم بعثت قريش إلى الرسول «مِكْرَزَ بْنَ خَفْصِ بْنِ الْأَخِيْفِ» فَلَمَّا رَأَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقْبِلاً، قَالَ: «هَذَا رَجُلٌ غَادِرٌ».

فلَمَّا انْتَهَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَلَّمَهُ، قَالَ لَهُ الرَّسُولُ مِثْلَ الَّذِي قَالَه يُبْدِلُ بِنُ وَرَقَاءَ وَأَصْحَابَهُ.

فرجع إلى قريش، فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ.

— ثم بعثت قريش إلى الرسول «الْحَلِيسَ بْنَ عَلَقْمَةَ، أَوْ ابْنَ زَبَانَ» وكان يومئذ سيد الأحابيش^(١)، فَلَمَّا رَأَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«إِنَّ هَذَا مِنْ قَوْمٍ يَتَأْلَهُونَ (أي: يَتَعَبَّدُونَ وَيُعَظَّمُونَ أَمْرَ الْإِلَهِ) فَابْتَغُوا الْهَذِي

(١) أحابيش قريش: جماعة من قريش، وكنانة وخزاعة، اجتمعوا عند حُبشي، وهو جبل بأسفل مكة، وتحالفوا.

في وجهه حتى يراه».

فلما رأى «الحُلَيْسُ» الهذلي يسير عليه من جانب الوادي في قلائده^(١)، وقد أَكَلَ أَوْبَارَهُ مِنْ طُورِ الْحَبَسِ عَنْ مَجْلِهِ^(٢)، رجع إلى قريش، ولم يصل إلى الرسول إعظاماً لما رأى، فأنابهم عما رأى.

فقال قريش له: اجلس، فإنما أنت أعرابي لا علم لك. فغضب الحُلَيْسُ، وقال: يا معشر قريش، والله ما على هذا حالناكم، ولأعلى هذا عاقدناكم، أَيْضُ عَنْ بَيْتِ اللَّهِ مِنْ جَاءَ مَعْظَمًا لَهُ؟! والذي نفس الحُلَيْسِ بيده، لَتُخْلَنَ بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَبَيْنَ مَا جَاءَ لَهُ، أَوْ لَا تَفِرُنْ بِالْأَخَابِشِ نَفْرَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ.

فقال قريش له: مَهْ، كُفْ عَنَّا يَا حُلَيْسُ، حَتَّى نَأْخُذَ لَأَنْفُسِنَا مَا نَرْضَى بِهِ.

— ثم بعث قريش إلى رسول الله ﷺ «عُرْوَةَ بْنَ مَسْعُودٍ الثَّقَفِي» فقال: يا معشر قريش، إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مَا يَلْقَى مِنْكُمْ مَنْ بَعَثْتُمُوهُ إِلَى مُحَمَّدٍ إِذْ جَاءَكُمْ، مِنْ التَّعْنِيفِ وَسُوءِ اللَّفْظِ، وَقَدْ عَرَفْتُمْ أَنَّكُمْ وَالِدَ (أَي: بِمَنَابَةِ الْوَالِدِ لِي) وَإِنِّي وَلَدٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ بِالَّذِي نَابَكُمْ، فَجَمَعْتُ مِنْ أَطَاعَنِي مِنْ قَوْمِي، ثُمَّ جِئْتُكُمْ حَتَّى آسَيْتُكُمْ بِنَفْسِي (أَي: جَعَلْتُكُمْ مِثْلَ نَفْسِي فَشَارَكْتُكُمْ فِي الْأَمْرِ).

قالوا: صَدَقْتَ، مَا أَنْتَ عِنْدَنَا بِمُتَّهِمٍ.

فخرج «عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِي» حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَجْمَعْتَ أَزْوَاجَ النَّاسِ (أَي: أَخْلَاطَ النَّاسِ) ثُمَّ جِئْتَ بِهِمْ إِلَى بَيْضَتِكَ^(٣) لِتَقْضِيَهَا بِهِمْ. إِنَّمَا قُرَيْشٌ قَدْ خَرَجَتْ مَعَهَا الْعَوْدُ الْمَطَافِيلُ^(٤). قَدْ لَبَسُوا جُلُودَ الثُّمُورِ، يُعَاهِدُونَ اللَّهَ لَا تَدْخُلْهَا عَلَيْهِمْ عَتَوَةٌ أَبَدًا، وَابْنُ اللَّهِ، لَكَائِي بِهِوْلَاءَ قَدْ انْكَشَفُوا عَنْكَ غَدًا.

(١) القلائد: ما يعلّق في أعتاق الهدي، إشعاراً بأنه هدي.

(٢) مجلّه: أي: الموضع الذي يُنخر فيه هدياً بالغ الكعبة.

(٣) بيضة الشيء أصله، وبيضة القوم: حوزتهم وحماهم.

(٤) عبارة يستعملها العرب كناية عن إخراج النساء والأولاد معهم، العود من الإبل ما كان حديث التاج، والمطافيل التي معها أولادها جمع مُطْفِل.

وكان أبو بكر الصديق جالساً خلف رسول الله ﷺ، فقال له: أمْضُضْ بظُرِ
اللَّاتِ، أَنْخُنْ نَنكُشْ عَنْهُ؟!

قال: مَنْ هَذَا يَا مُحَمَّدُ.

قال: هَذَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةٍ.

قال: أما والله، لَوْلَا يَدُ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي، لَكَافَأْتُكَ بِهَا، وَلَكِنْ هَذِهِ بِهَا.

وجعل يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه، والمغيرة بن شعبة يُقْرِعُ يَدَهُ
كلَّما تناول لحية الرسول يقول له: اكْفِفْ يَدَكَ عَنْ وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ قَبْلَ أَنْ لَا تَصِلَ
إِلَيْكَ، وكان المغيرة واقفاً في الحديد (أي: بلباس الحرب) فلم يعرفه عُرْوَةُ لَأَن
وَجْهَهُ مَسْتَوٍ بِالزَّرْدِ.

وكان عروة يقول له: وَيَحْكُ، مَا أَفْظَكَ وَأَغْلَظَكَ!

فتبسَّم رسول الله ﷺ، فقال له عروة: مَنْ هَذَا يَا مُحَمَّدُ؟ قال: هَذَا ابْنُ
أَخِيكَ الْمَغِيرَةَ بْنِ شُعْبَةَ (وكان المغيرة من ثقيف من أقرباء عروة). قال عروة
للمغيرة: أَي: غَدَرُ، وَهَلْ غَسَلْتَ سَوْءَتَكَ إِلَّا بِالْأَمْسِ. (وكان المغيرة بن شعبة
الثَّقَفِيُّ قَبْلَ إِسْلَامِهِ قَتَلَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي مَالِكٍ مِنْ ثَقِيفٍ، فَوَدَّى عُرْوَةَ
الْمَقْتُولِينَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ دِيَّةً، وَأَصْلَحَ بَيْنَ الْحَيِّينَ مِنْ ثَقِيفٍ).

فكلمه رسول الله ﷺ بنحو ما كَلَّمَ بِهِ مِنْ سَبْقِهِ مِنَ الْوَفُودِ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ
يُرِيدُ حَرْبًا.

ورجع عروة إلى قريش، فقال: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ كَسْرِي فِي
مُلْكِهِ، وَقِصْرَ فِي مُلْكِهِ، وَالنَّجَاشِي فِي مُلْكِهِ، وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مُلْكًا فِي قَوْمٍ قَطُّ
مِثْلَ مُحَمَّدٍ فِي أَصْحَابِهِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ قَوْمًا لَا يُسْلِمُونَهُ لَشَيْءٍ أَبَدًا، فَرَوْا رَأْيَكُمْ.

وبعث الرسول إلى قريش «خِرَاشُ بْنُ أُمَيَّةَ الْخُزَاعِي» عَلَى بَعِيرٍ لَهُ يَقَالُ لَهُ:
الْتَعَلِّبْ، لِيَبْلُغَ أَشْرَافَهُمْ عَنْهُ مَا جَاءَ لَهُ، فَعَقَرُوا بِهِ جَمَلَ الرَّسُولِ، وَأَرَادُوا قَتْلَهُ،
فَمَنَعَتْهُ الْأَحَابِيشُ، فَخَلُّوا سَبِيلَهُ، وَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنْبَاهَ بِمَا حَدَثَ.

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ قُرَيْشًا بَعَثُوا أَرْبَعِينَ رَجُلًا مِنْهُمْ، أَوْ خَمْسِينَ رَجُلًا،

وأمرهم أن يُطيفوا بعسكر المسلمين ليُصيِّبوا لهم منهم أحداً.

فأدركهم المسلمون وأخذُوهُمْ أخذاً، ولَمَّا جِئَ بِهِمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَفَا عَنْهُمْ، وَخَلَّى سَبِيلَهُمْ، وَكَانُوا قَدْ رَمَوْا فِي عَسْكَرِ الْمُسْلِمِينَ بِالْحِجَارَةِ وَالنَّبْلِ.

ثُمَّ دَعَا الرَّسُولَ ﷺ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، لِيَبْعَثَهُ إِلَى مَكَّةَ، فَيُبَلِّغَ عَنْهُ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مَا جَاءَ لَهُ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَخَافُ قُرَيْشاً عَلَى نَفْسِي، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ مِنْ بَنِي عَدِيٍّ بَنِ كَعْبٍ أَحَدٌ يَمْنَعُنِي، وَقَدْ عَرَفْتُ قُرَيْشَ عِدَاوَتِي إِيَّاهَا، وَغِلَظَتِي عَلَيْهَا، وَلَكِنِّي أَذْلكُ عَلَى رَجُلٍ أَعَزُّ بِهَا مِنِّي: عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ.

فَدَعَا الرَّسُولَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، فَبَعَثَهُ إِلَى أَبِي سَفْيَانَ وَأَشْرَافِ قُرَيْشٍ، يَخْبِرُهُمْ أَنَّهُ لَمْ يَأْتْ لِحَرْبٍ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا جَاءَ زَائِراً لِهَذَا الْبَيْتِ، وَمَعْظِماً لِحُرْمَتِهِ.

فَخَرَجَ عُثْمَانُ إِلَى مَكَّةَ، فَلَقِيَهُ أَبَانُ بْنُ سَعِيدٍ بْنُ الْعَاصِ، فَحَمَلَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ أَجَارَهُ، حَتَّى بَلَغَ رِسَالَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَقَالُوا لِعُثْمَانَ حِينَ فَرَّغَ مِنْ رِسَالَةِ الرَّسُولِ إِلَيْهِمْ: إِنَّ شَيْئاً أَنْ تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فَطُفْ.

فَقَالَ عُثْمَانُ: مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ حَتَّى يَطُوفَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَاحْتَبَسَتْهُ قُرَيْشٌ عِنْدَهَا، فَبَلَغَ الرُّسُولَ وَالْمُسْلِمِينَ أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ قَدْ قُتِلَ.

فَقَالَ الرَّسُولُ حِينَ بَلَغَهُ أَنَّ عُثْمَانَ قَدْ قُتِلَ:

وَلَا تَبْرَحُ حَتَّى تُنَاجِزَ الْقَوْمَ^(١).

فَدَعَا الرَّسُولَ ﷺ إِلَى الْبَيْعَةِ عَلَى مَقَاتِلَةِ الْقَوْمِ حَتَّى الْمَوْتِ، وَبَايَعَهُ مِنْ كَانَ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، لَمْ يَتَخَلَّفْ إِلَّا الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ، أَخُو بَنِي سَلَمَةَ، (وَهُوَ مِنْ مَنَافِقَةٍ بَنِي سَلَمَةَ مِنَ الْخَزْرَجِ، لَمْ يَتَلْ رِضْوَانَ الْبَيْعَةِ لِأَنَّهُ كَانَ مَنَافِقاً).

يَقُولُ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: وَاللَّهِ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ لَأَصِفَّأً يَبِيطُ نَاقَتَهُ، قَدْ ضَبَّأَ إِلَيْهَا (أَي: لَصِقَ بِهَا مُسْتَرّاً) يَسْتَرُ بِهَا مِنَ النَّاسِ.

(١) أَي: حَتَّى نَقَاتِلَهُمْ، يُقَالُ: نَاجَزَهُ إِذَا نَازَلَهُ وَقَاتَلَهُ، وَتَنَاجَزَ الْقَوْمُ: تَقَاتَلُوا.

وسميت هذه البيعة ببيعة الرضوان، لأن الله رضي عن المبايعين، وكانت عند شجرة من أشجار السمر، وكان أول المبايعين أبو سنان الأسدي، وورد الخبر عن عثمان بن عفان بأنه لم يقتل، ولكن احبسته قريش عندها فبايع رسول الله عنه وهو غائب، فضرب بإحدى يديه على الأخرى.

ثم بعث قريش «سُهَيْلَ بْنِ عَمْرٍو» إلى رسول الله ﷺ، وقالوا له: اثبت محمداً فصالحه، ولا يكن في صلحك إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا نتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا غنوة أبداً.

فأتى «سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو» رسول الله ﷺ، فلما رآه مقبلاً قال: قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل.

ولما وصل إلى الرسول تكلم فأطال الكلام، وتراجعا، ثم حصل الاتفاق على المصالحة.

ولما التام الأمر، ولم يبق إلا أن يكتب كتاب الصلح، وثب عمر بن الخطاب، فأتى أبا بكر، فقال: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟

قال أبو بكر: بلى.

قال عمر: أولسنا بالمسلمين؟

قال أبو بكر: بلى.

قال عمر: أوليسوا بالمشركين؟

قال أبو بكر: بلى.

قال عمر: فعَلَامَ نُعْطَى الدِّينَةَ فِي دِينِنَا (الدِّينَةُ كالدِّينَةِ أَي: الخسيسة الحقيرة الذليلة).

قال أبو بكر: يَا عُمَرُ، أَلَزِمَ غَرْزُهُ (أَي: ألزم أمر الرسول، الغرُّ للرجل بمتزلة الركاب للسرّج، والتعبير على سبيل الكتابة) فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ.

قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله.

وأثنى عمر بن الخطاب رسول الله ﷺ فقال له مثلما قال لأبي بكر.

فقال رسول الله ﷺ: «أنا عبدُ الله ورسولُهُ، لَنْ أُخَالِفَ أَمْرَهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي، وسألَ عُمَرَ الرِّسُولَ عَنِ الرُّوْيَا وَعَدِمَ تَحَقُّقَهَا، فقال له:

«إِذَا خَبَرْتُكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ هَذَا الْعَامُ؟!» قال: لا. قال: «فَأَنَّكَ آتِيهِ وَمَطَوَّفٌ بِهِ».

فكان عمر بعد ذلك يقول: مَا زِلْتُ أَتَصَدَّقُ وَأَصُومُ وَأَصَلِّي وَأَعْتِقُ، مِنْ الَّذِي صَنَعْتُ يَوْمَئِذٍ، مَخَافَةَ كَلَامِي الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ، حَتَّى زَجَرْتُ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا.

ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، لِيَكْتُبَ كِتَابَ الصُّلْحِ، فقال له بحضور سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، وَمَنْ مَعَهُ مِنْ وَقْدِ قُرَيْشٍ:

«اكتب، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ».

قال سُهَيْلٌ: لَا أَعْرِفُ هَذَا، وَلَكِنْ أَكْتُبُ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ.

فقال الرسول: «اكتب: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ» فكتبها.

ثم قال: «اكتب: هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو».

قال سُهَيْلٌ: لَوْ شَهِدْتُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ لَمْ أَقْبَلْكَ، وَلَكِنْ أَكْتُبُ اسْمَكَ وَاسْمَ أَبِيكَ، فَأَمْرٌ عَلَيَّ بِمَحْوِ مَا كُتِبَ، فَتَوَقَّفَ عَلَيَّ تَأْذِبًا، فَاخَذَ الرَّسُولُ الصَّحِيفَةَ فَمَحَاهَا. وقال لعلي: اكتب: هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، اضْطَلَحَا عَلَى وَضْعِ الْحَرْبِ عَنِ النَّاسِ عَشْرَ سِنِينَ، يَأْمَنُ فِيهِنَّ النَّاسُ، وَيَكْفُتُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَتَى مُحَمَّدًا مِنْ قُرَيْشٍ بِغَيْرِ إِذْنٍ وَلِيٍّ، رَدَّهُ عَلَيْهِمْ، وَمَنْ جَاءَ قُرَيْشًا مِنْ مَعَ مُحَمَّدٍ لَمْ يَرُدُّوهُ عَلَيْهِ، وَإِنْ بَيْنَنَا غَيِّبَةٌ مَكْفُوفَةٌ^(١)، وَأَنَّهُ لَا إِسْلَاحَ^(٢) وَلَا إِغْلَاحَ^(٣) وَأَنَّهُ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ دَخَلَ فِيهِ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ فِيهِ».

(١) العيبة: حافظة من خوص أو جلد أو غير ذلك توضع فيها الأمتعة، وكفُّها إغْلَاقُها، وهي عبارة تستعمل للكناية عما في النفوس، وطيه إلى غاية الأجل.

(٢) الإِسْلَاحُ: السَّرْقَةُ الخفية، التي تُسَلُّ بها المَسْرُوقَاتُ سُلًّا.

(٣) الإِغْلَاحُ: الخيانة.

وحصل الاتفاق على أن يرجع الرسول بالمسلمين دون أن يعتنوا عامهم
ذاك، وعلى أن يأتوا معتمرين في العام القادم، وكتب كتاب الصلح من نسختين
توزعان على الفريقين.

وشهد على كتاب الصلح رجال من المسلمين، ورجال من المشركين،
وكانت مضارب خيام المسلمين في الحل، فإذا أراد الرسول الصلاة دخل حدود
الحرم فصلى في أرض الحرم.

وحين فرغ الرسول من الصلح قال لأصحابه:

«قوموا فانحروا ثم اخلقوا» ثلاث مرات. فما قام منهم أحد، فدخل على
زوجه أم سلمة التي كانت معه في سفره هذا، فذكر لها ما وجد من الناس، فقالت:
يا نبي الله، اخرج، ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بطنك، وتدعو خالك
فيحلق لك.

فأخذ الرسول برأيها، فلما رأى المسلمون ما فعل الرسول قاموا فتحروا،
فحلق بعضهم وقصر آخرون.

فقال الرسول: «يرحم الله المحلقين».

قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟.

قال: «يرحم الله المحلقين».

قالوا: والمقصرين؟

قال: «يرحم الله المحلقين».

قالوا: والمقصرين؟

قال: «والمقصرين».

قالوا: لِمَ ظَاهَرْتَ^(١) التَّرجيمَ للمحلقين دون المقصرين؟

قال: «لأنهم لم يشكوا».

(١) ظاهرت، أي: قويت وأكثت بالكرير.

وقفل رسول الله ﷺ والمسلمون راجعين إلى المدينة، ونزلت في الطريق سورة (الفتح) كما سبق بيان ذلك.

(٣) روى ابن أبي حاتم بسنده عن إياس بن سلمة عن أبيه ينما نحن قاتلون (أي: ناثمون وقت القبلولة في الحديبية) إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، الْبَيْعَةُ الْبَيْعَةُ، نزل روح القدس.

فثرنا إلى رسول الله ﷺ، وهو تحت شجرة سمره، فبايعناه، فذلك قول الله تعالى:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾:

فبايع رسول الله ﷺ لعثمان رضي الله عنه بإحدى يديه على الأخرى. فقال الناس: هنيئاً لابن عفان، يطوف بالبيت ونحن ههنا، فقال رسول الله ﷺ:

«لَوْ مَكَتْ كَذَا وَكَذَا سَنَةً مَا طَافَ حَتَّى أَطُوفَ».

(٤) وجاء عند ليهقي عن أنس بن مالك قال: لما أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان، كان عثمان بن عفان رسول رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، فبايع الناس، فقال رسول الله ﷺ:

«اللَّهُمَّ إِنَّ عُثْمَانَ فِي حَاجَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَحَاجَةِ رَسُولِهِ فَضْرَبْ بِأَحْذَى يَدَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى، فَكَانَتْ يَدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِعُثْمَانَ خَيْراً مِنْ أَيْدِيهِمْ لَأَنْفُسِهِمْ».

(٣)

المفردات اللغوية في النص

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾:

يأتي الفتح بمعنى القضاء بين الخصمين، يقال لغة: فتح بين الخصمين يفتح فتحاً، أي: قضى بينهما وأمضى قضاءه.

ويأتي الفتح بمعنى إزالة العائق، يقال لغة: فتح الله له، إذا أزال ما كان عائقاً في طريقه من أمرٍ ماديٍّ أو معنويٍّ، فهيّا له أن ينطلق إلى ما يريد، ويدخل في عموم هذا الفتح إزالة العوائق الصّادة في سبيل الدعوة إلى الله، وإزالة العوائق المانعة من هداية الشعوب، وحكيمها بالعدل، وإقامة حكم الله فيها.

وأصل معنى الفتح مأخوذ من فتح الأبواب الذي هو ضدّ إغلاقها، ثمّ عمّم بالاستعمال فشمل كلّ ما يتضمّن إزالة العوائق الماديّة والمعنويّة، كالعوائق الفكرية والنفسية والقلبية وغير ذلك.

ولما كان النصر في محاربة جيوش الممالك يأتي غالباً قبل الفتح، قال الله عزّ وجل في سورة (النصر/ ١١٠ مصحف/ ١١٤ نزول):

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿٦﴾﴾

﴿يَغْفِرْ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴿٦﴾﴾

يفهم الناس أنّ الذنب المتقدّم هو ما فعل في الزّمان الماضي، وأنّ الذنب المتأخّر هو الذنب الذي سيُفعل في الزّمان المستقبل، هذا هو الفهم الشائع.

لكنني رأيت أنّ القرآن جاء في ثلاثه نصوص حول التقديم والتأخير معاً بالنسبة إلى أعمال العباد:

النص الأول: قول الله عزّ وجلّ في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/

٣١ نزول):

﴿يَبْنِئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَ يُؤْتَى بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٧﴾﴾

أي: يبنّي الإنسان يوم القيامة بأعماله الحسنّة والسيئة التي عملها فقدّمها إلى الآخرة، أو إلى سجلّ أعماله.

ويبنّي بأعماله التي لم يعملها، فأخبرها بتركها لها، من الأعمال الواجبة التي كان عليه أن يعملها فعصى الله بتركها، ومن الأعمال السيئة المحرمة فأطاع الله بتركها، فاستحقّ على تأخيرها لها ثواباً.

النص الثاني: قول الله عز وجل في سورة (الانفطار) ٨٢ مصحف / ٨٢ نزول):

﴿وَلِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ۚ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝﴾

أي: علمت يوم القيامة كل نفس كاسبة حينما تُعرضُ عليها صحف أعمالها، ما عَمِلَتْ من عمل طاعة أو معصية، فقدمته إلى الآخرة، أو إلى التسجيل في صحف الأعمال، وما لم تعمل من عمل بطاعة الله أو معصيته، فأخترته عن العمل ولم تقدمه، فهي تستحق الثواب على ما أخرت فلم تعمل من عمل فيه معصية لله، وتستحق العقاب على ما أخرت فلم تعمل من عمل كان يجب عليها أن تعمله طاعة لله.

فالتقديم في النصين يدل على القيام بالعمل خيراً كان أو شراً.

والتأخير في النصين يدل على ترك العمل الذي ينبغي فعله أو ينبغي تركه.

ويقال لغة: قَدَّمْتَهُ فتَقَدَّم، ويقال: أَخَّرْتَهُ فتَأَخَّر.

ويمكن أن نفهم من قوله تعالى لرسوله:

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾:

بمعنى هذا المعنى القرآني: ليغفر لك الله ما عَمِلْتَ من عمل كان الأولى بك أن لا تعمله، ففعله من إمام المرسلين يعتبر ذنباً، وإن كان من غيره قد يعتبر برأ أو إحساناً، فهو عمل قَدَّمْتَهُ فتَقَدَّم، وليغفر لك الله ما تركت من عمل كان الأولى بك أن تعمله، فتركه من إمام المرسلين يُعْتَبَرُ ذنباً، وإن كان من غيره قد لا يُجْزَلُ بمرتبة البرّ عنده، ولا بمرتبة الإحسان فهو عمل أَخَّرْتَهُ فلم تَعْمَلْهُ فتَأَخَّر.

وبهذا الفهم تنحل كل الإشكالات المطروحة على أساس الفهم الشائع لمعنى: ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، ولا يبقى لها وجود أصلاً، ولا يحتاج النص بهذا إلى تأويلات، والله أعلم.

﴿وَيَسِّرْ لَّعَمَلِكَ﴾:

جاء في القرآن استعمال تعبير «نِعْمَةُ اللَّهِ» بمعنى : ما أنزل الله لعباده من الدين الذي اصطفاه لهم في نصوص متعددة، منها ما يلي :

(١) في سورة (الضحى) / ٩٣ مصحف / ١١ نزول) قال الله عز وجل خطاباً لرسوله :

﴿وَأَمَّا نِعْمَةُ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝﴾

أي : فحدث الناس بما أنزل عليك من نعمة القرآن وعقائد الإيمان ومبادئ الإسلام وشرائعه وأحكامه، وبما أنعم عليك من نعمة البيان، وقوة الحجّة والبرهان، والقدرة على الإقناع، والتأثير في الأفكار والقلوب والأسماع.

(٢) وفي سورة (القلم) / ٦٨ مصحف / ٢ نزول) قال الله عز وجل لرسوله :

﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝﴾

أي : ما أنت يا محمد بنعمة ربك التي أنعم بها عليك إذ جعلك نبياً رسولاً، تبليغ عن ربك ما أنزل عليك من الدين الذي اصطفاه الله لعباده بمجنون، كما يزعم الكفرة المشركون، حين اتهموك بالمجنون بسبب ما أنعم الله به عليك من بيانات دينه وأمرك بتبليغه للناس.

(٣) وفي سورة (الطور) / ٥٢ مصحف / ٧٦ نزول) قال الله عز وجل لرسوله :

﴿فَذَكِّرْ مَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝﴾

أي : فذكر الناس بما كنت بلغتهم إياه، وتابع تذكير من نرجو أن تنفعه الذكرى، فما أنت يا محمد بنعمة ربك التي أنعم بها عليك إذ جعلك نبياً رسولاً، تبليغ عن ربك ما أنعم به عليك من نعمة تعاليم دين الإسلام وبياناته، بكاهن ولا مجنون، كما يزعم الكفرة المشركون، إذ اتهموك مرةً بالمجنون، وأخرى بالكهانة، فالمجنون لا يمكن أن يأتي الناس بالحق والهدى، وأنت بسبب نعمة الله عليك قد جئت الناس بالحق والهدى، والكاهن الذي يتلقى عن الجن والشياطين إنما يأتي الناس بالباطل والضلال، وأنت تأتيهم بالحق والهدى.

(٤) وفي سورة (المائدة) / ٥ مصحف / ١١٢ نزول) خاطب الله الذين آمنوا

بقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا... ﴿٢﴾﴾:

أي: اليوم أكملت لكم بيان شرائع دينكم وأحكامه، وأتممت عليكم بهذا البيان نعمتي التي أنعمت بها عليكم إذ اصطفت لكم الدين الذي يحقق لكم اتباعه سعادة الدارين، ورضيت لكم أن تستسلموا متقادين لما أنزلت عليكم ديناً تدينون به لي.

وبعد النظر في هذه النصوص أرى أن قوله تعالى لرسوله في سورة (الفتح):
﴿وَبِمَتَّ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾.

يراد منه إتمام شرائع الدين وأحكامه، وهو ما أبانه تعالى في الآية من سورة (المائدة) اللفظة الذكر.

﴿نَضْرَازُكُمْ﴾:

أي: نصراً غالباً لأعدائك، فالنصر قد يكون بنجاة المنصور من عدوه، كما حصل للرسول إذ كان ثاني اثنين في الغار، فقال تعالى:

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ إِثْنَيْنِ إِذْ هَمَّافِ الْفَكَارِ﴾.

وقد يكون نصراً بالغلبة، فالعزيم هو القوي الغالب، والنصر العزيز الغالب هو الذي تكون به النجاة للفتنة المنصورة، والهزيمة أو الهلاك لغدوها.

﴿السَّكِينَةِ﴾:

الطمأنينة والاستقرار، وتطلق على الرزاة والوقار، وضدهما الخفة.

﴿وَتُعْزِزُهُ﴾:

أي: ولتعيضوه، وتقووه، وتضروه، فمن معاني: «عَزَّرَهُ يُعْزِّرُهُ تَعْزِيرًا» أعانه وقواه ونصره، وهذا المعنى هو المراد هنا، وتحقيق هذا المعنى يكون بالدفاع عن دين الله وعن رسوله، وبالجهد معه، وينشر دينه، وتبليغ ما بلغه رسوله، وتعليمه

للناس، والإقناع به، والجهاد في سبيل الله بكل وسائل الجهاد، من مجاهدة النفس، إلى جهاد الدَّعوة، حتى الجهاد بالقتال.

﴿وَوَقِّرُوهُ﴾ :

أي: ولتُعظِّمُوا الله وتبجلوه بقلوبكم ونفوسكم، وتثبوا عليه بتمجيد صفات العظمة والجلال التي هي له بالستُّكم في ذِكْرِكُمْ وعباداتِكُمْ.

﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ :

أي: ولتُنزِّهوا الله وتقدِّسوه عن كلِّ ما لا يليق به من صفات النقص التي تتنافى مع أزليته، ووحدانيته، وكمال علمه وحكمته وقدرته وأنه يفعل ما يشاء ويختار، إلى سائر صفات الكمال التي هي له سبحانه.

﴿يُبَايِعُونَكَ﴾ :

أصل المبايعة عقد بيع بين طرفين، يبذل أحدهما فيه من جهته شيئاً للطرف الآخر، مقابل أن يبذل له الطرف الآخر شيئاً آخر من جهته على سبيل التبادل والمعاوضة.

والمبايعة مع الله بذل من النفس أو المال مقابل ثواب الله ورضوانه وجته.

واعتماد المتبايعون أن ينجزوا عقد مبايعاتهم بكلام مصحوب بوضع كفَّ يمين كلٍّ منهم بكفَّ يمين من يبايعه.

ثم صارت المبايعة تعني المعاهدة على أمر ما، ودلَّ على أنها معاهدة مع الله قول الله تعالى في الآية :

﴿وَمَنْ آوَىٰ بِمَاعَاهِدٍ عَلَيْهِ اللَّهُ﴾ .

﴿فَمَنْ نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ :

النَّكْثُ نَقْضُ الْبَيْعَةِ، أو العهد، أو اليمين، وعدمُ تَفْيِيزِ مَا تَمَّ عَلَيْهِ الْعَقْدُ أو العهد، وأصلُ النَّكْثِ مَاخُوضُ مِنْ نَقْضِ الْحَبْلِ بَعْدَ إِبرَامِهِ.

﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ :

أي: قوماً فاسدين لا خير فيكم، وفسادكم يؤدي بكم إلى أن تكونوا هلكى .
﴿مَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾:

المُرَاد من المخلفين هُنَا الَّذِينَ دُعُوا لِلخُرُوجِ مع الرسول لأداء العمرة، فتخلفوا ولم يستجيبوا لدعوة الرسول.

﴿إِذَا أَنْطَلَقْتُمْ﴾:

أي: إذا ذهبتم مُسْرِعِينَ، وذلك لِأَنَّ المَقِيدَ إِذَا أُطْلِقَ من قيده انطلق مُسْرِعاً شَطْرَ الجهة التي يُريد الذهاب إليها، ومنه انطلاق الخيل في حلبة السباق، وأصل الإطلاق التحرير من القيد.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾:

الحرج: الإثم، والضيق، وأصل الحرج، الموضع الذي تكثر فيه الأشجار متشابكة فلا تصل إليه البهائم التي ترعى الكلأ، قال ابن عباس:

الْحَرَجُ: الموضع الكثير الشجر الذي لا يصل إليه الراعية.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾:

أي: وَمَنْ يُذِبِرْ، وَيَتَبَعِذْ عن طاعة اللَّهِ ورسوله.

﴿يُعَذِّبُهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾:

أي: يُعَاقِبُهُ عِقَابًا مُؤْلِمًا، العذاب: العقاب، والنكال بمعنى الجزاء على العمل السيئ، وعقاب الله وعذابه يكون بالعدل.

ويأتي العذاب بمعنى ما ينزل بالإنسان من مشقات مُتَعَبَات ومؤلمات.

* * *

(٤)

مع النص في التحليل والتدبر

* قول الله عز وجل:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۚ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ

عَلَيْكَ وَبِهِدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَنُصْرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ .

لقد وصف الله عز وجل صلح الحديبية الذي جرى بين الرسول ومشركي مكة بأنه فتح مبين، أي: جلبي واضح، إذ كان من ثمراته أمران عظيمان:

الأمر الأول: أن الدعوة إلى الله قد انطلقت بسببه دون أن تقف في وجهها عوائق من الذّ أعدائها، وهم مشركو قريش، سواء في مكة، أو فيما حولها، أو في قبائل العرب، فقد أخذ بعدها الإسلام يتشرب بحرية، وأخذ الدعاة المسلمون من أصحاب رسول الله يدعون إلى الإسلام آمنين مطمئنين في أهل مكة وفي مختلف قبائل العرب، ودخل في الإسلام بعده خلق كثير.

قال الزهري: فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقي الناس، فلما كانت الهدنة، ووُضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضاً، والتفوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في دينك الستين (أي: منذ صلح الحديبية حتى فتح مكة عسكرياً) مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر^(١).

قال ابن هشام: والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربع مئة، في قول جابر بن عبد الله، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بستين في عشرة آلاف.

أقول:

إن الوضع الذي يتهيأ به انتشار الإسلام عن طريق الدعوة إلى الله هو الفتح الحقيقي الأعظم عند الله، أما نصر المسلمين على أعدائهم وسقوط بلدان الكفر في أيدي المسلمين بالقوة المسلحة، فهو فتح من الدرجة الثانية، إلا أن يكون سبباً لانتشار الإسلام ودخول الناس فيه أفواجا.

فعلى المسلمين ولا سيما الدعاة إلى الله أن يضعوا هذه الحقيقة ماثلة نصب أعينهم دوماً.

(١) انظر سيرة ابن هشام (في أخبار صلح الحديبية).

الأمر الثاني: أَنَّ صَلَاحَ الحديبية قد نجم عنه نَقْضُ المشركين لبعض بنوده، وسَقُوطُهُمْ فِي الْعَذْرِ، الأمر الذي مَكَّنَ الرسول ﷺ من التوجُّه لهم بجيش المسلمين الَّذِي بلغ قوامه عشرة آلاف مقاتل بعد أقل من سنتين، ودخولهم مَكَّة فاتحين لها فتحاً عسكرياً مظهرًا، مؤيداً بنصر الله وفتحه المبين.

فقال الله تعالى لرسوله:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ﴾

وذكر الله عز وجل من حكم هذا الفتح المبين الذي منحه الله لرسوله ﷺ في التاريخ الذي حصل فيه عُدَّةُ جُحَم:

الْحِكْمَةُ الْأُولَى: أَنَّ أَجَلَ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قد اقترب، فمن الحكمة إكرامه بالفتح المبين، الذي هو بداية نصر الله وفتحه العظيم للأمة الإسلامية، ودخول الناس في دين الله أفواجًا، وأن يستخلف الله الذين آمنوا في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، ويُمكنَ لهم دينهم الذي ارتضى لهم.

فكان الفتح المبين إشعاراً بانتهاء مُهِمَّةِ الرسول في الحياة الدنيا، إذ اقترب أجله، وجاء التعبير الإيماني عن ذلك بقوله تعالى:

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾

أي: ليغفر لك الله ما عملت من عمل كان الأولى بك أن لا تعمله، أو أن تعمل أفضل منه، بحسب مقامك العظيم عند ربك وإن كان ما عملته لو عمله غيرك لكان من درجة من درجات الإحسان أو البر أو التقوى، لكن من يَحْتَسِلُ أَسْمَى دَرَجَاتِ الْمُحْسِنِينَ يُطَلَّبُ منه أَسْمَى دَرَجَاتِ الإحسان، فحقوق هذه الدرجة تختلف عن حقوق ما دونها من الدرجات.

وليغفر لك الله ما أخرت من عمل فلم تعمله، وَقَدْ كان الأولى بك أن تعمله، فتأخير العمل كما وضح لنا في شرح المفردات يكون بتركه وعدم عمله، وهذا الفهم هو الذي لا ترد عليه الإشكالات التي ترد على الفهم الشائع، وهو الفهم الذي يتلاءم مع إيماء النص إلى اقتراب أجل وفاة الرسول ﷺ، أي: منحك

الله هذا الفتح المبين، لِيُنْهِيَ وَظَفَقَتْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلِيَتَوَفَّاكَ، وَلِيَغْفِرَ لَكَ عِنْدَ الْوَفَاةِ ذُنُوبَكَ كُلَّهَا، مَا كَانَ مِنْهَا بِسَبَبِ فَعَلٍ قَدْ مَتَّه، إِذْ فَعَلْتَهُ، وَمَا كَانَ مِنْهَا بِسَبَبِ مَطْلُوبٍ مِنْكَ أُخْرَتَهُ، إِذْ لَمْ تَفْعَلْهُ.

الحكمة الثانية: أَنَّ اقْتِرَابَ انْتِهَاءِ مُهِمَّةِ الرَّسُولِ ﷺ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يَسْتَدْعِي إِكْمَالَ أَنْزَالِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ، وَهَذِهِ الشَّرَائِعُ وَالْأَحْكَامُ هِيَ الْمَبِينَةُ لَدَيْنَ اللَّهِ الَّذِي هُوَ نِعْمَةُ اللَّهِ الْعَظِيمَى عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ، إِذْ يُحَقِّقُ اللَّهُ بِهِ لِمَنْ اتَّبَعَهُ السَّعَادَةَ الْعَظِيمَى فِي الدَّارَيْنِ.

فَمِنْ جَنَمِ الْفَتْحِ الْمَبِينِ الْإِشْعَارُ بِأَنَّ مَا تَبَقَّى مِنْ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ وَوَصَايَاهُ وَشَرَائِعِهِ سَيَتَمُّهُ اللَّهُ وَيَكْمُلُهُ عَمَّا قَرِيبَ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي حَصَلَ فِي الْوَاقِعِ، وَأَتَمَّ اللَّهُ الدِّينَ فِي حُجَّةِ الْوَدَاعِ بِقَوْلِهِ:

﴿أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (٢)

[المائدة/ ٥ مصحف ١١٢ نزول].

دل على هذه الحكمة الثانية قول الله عز وجل في النص لرسوله:

﴿وَيَتِمَّ نِعْمَتُكَ عَلَيْكَ﴾.

ونفهم من إتمام نعمة الله على رسوله بإنزال ما بقي من شرائع الإسلام وأحكامه ووصاياه، إتمام نعمة الله على الناس جميعاً بذلك، لكن الذين يستفيدون من هذه النعمة العامة الشاملة هم الذين يؤمنون بها، ويعملون بمقتضاها.

الحكمة الثالثة: أَنَّ مَا بَقِيَ لِلرَّسُولِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ سَنَوَاتٍ قَلِيلَاتٍ، يَسْتَدْعِي أَنْ يَهْدِيَهُ اللَّهُ فِيهَا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، يَحَقِّقُ اللَّهُ لَهُ بِهِ أَفْزَرَ نَصِيبٍ مِنَ النَّصْرِ والتوفيق والنجاح العظيم، الَّذِي يَتَشَبَّهُ بِهِ الْفَتْحُ وَيَدْخُلُ بِهِ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، وَهَذَا مَا تَحَقَّقَ فَعَلًا، إِذْ تَوَالَتْ الْإِنْتَصَارَاتُ، فَفَتَحَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ حِصُونَ خَيْرٍ وَسَائِرَ أَرْضِهَا فِي سَنَةِ سَبْعٍ لِلْهَجْرَةِ، وَبَعَثَ الرَّسُولَ بِعَثَا إِلَى جِهَةِ الشَّامِ فِي غَزْوَةِ مَوْتَةَ، فِي جُمَادِي الْأُولَى مِنْ سَنَةِ ثَمَانٍ لِلْهَجْرَةِ، وَدَخَلَ مَكَّةَ فَاتِحًا فِي شَهْرِ رَمَضَانَ مِنْ سَنَةِ ثَمَانٍ لِلْهَجْرَةِ، وَبَعَثَ الْبَعُوثَ لِهَدْمِ الْأَصْنَامِ فِي أَنْحَاءِ الْحِجَازِ، وَنَصَرَهُ اللَّهُ

على هوازن وثقيف في غزوة حنين، عقب فتح مكة، وغزا أطراف الشام في شهر رجب من سنة تسع للهجرة، فيما يُعرف بغزوة «تبوك» لدعوة الروم إلى الإسلام، أو فتح بلادهم لدعوة الإسلام، أو مناجزتهم القتال، وبعث الرسول البعوث، وجاءته الوفود، وكتب الكتب إلى الملوك، وجاء نصر الله والفتح من كل الجهات، ودخل الناس في دين الله أفواجا.

دل على هذه الحكمة الثالثة قول الله عز وجل في النص لرسوله:

﴿وَمَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝١ وَنُصْرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٢﴾.

الصراط المستقيم يُفسر في كل موضع من مواضع استعماله بما يلائم القرائن من سباق النص وببإيقه، فمنه ما يكون في العبادات، ومنه ما يكون في المعاملات، ومنه ما يكون في الإدارة والسياسة، ومنه ما يكون في الدعوة، ومنه ما يكون في القتال، إلى غير ذلك.

ولمّا تمّ كل ذلك أنزل الله عز وجل على رسوله سورة (النصر) ١١٠ مصحف / ١١٤ نزول) وهي آخر سور القرآن نزولاً:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّكَ تَوَّابٌ ۝٣﴾.

فأشارت هذه السورة، إلى انتهاء مهمة الرسول، واقترب أجل وفاته ﷺ. وقد أدرك هذه الإشارة بعض الصحابة منهم عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عباس، كما صح عند البخاري.

وهو فهم فهمه الرسول ﷺ، فقد روى الإمام أحمد، عن محمد بن فضيل، عن عطاء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال:

(لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نُبِئْتُ إِلَى نَفْسِي».

فإنه مقبوض في تلك السنة).

ومن هذا نفهم تدرج النصوص من التلميحات البعيدة التي لا يُدركها إلا أهل الفطنة العالية، إلى الإشارات التي قد يسهل إدراكها لدى بعض الأذكياء، في أمر هو من الرموز القرآنية بين الله ورسوله.

وقد نصر الله رسوله نصراً عزيزاً في حياته، ونصره بعد أن انتقل إلى جوار ربه، فكل الفتوحات التي كانت للمسلمين بعد الرسول هي نصر عزيز للرسول ﷺ، ولذلك قال: أوتيت الكنزين، وفتحت لي فارس والروم، وأتاني الله ما رزى لي من الأرض، وكل ذلك كان بعد وفاته صلوات الله عليه، حُظيت به أمته في الحياة الدنيا.

* * *

* قول الله عز وجل:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ٢ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ٣ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَعَصِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ٤ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ٥﴾.

يصف الله عز وجل حال المؤمنين الذين كانوا مع الرسول معتمرين مُحَضَّرِينَ في الحديبية، قد منعهم مشركو قريش من دخول مكة، وأداء مناسك عُمَرَتِهِمْ فيها، فأبان الله أنهم على الرغم من قتلهم، إذ لم يكونوا يزيدون على ألف وخمسمائة، فقد كانوا مطمئنين، ثابتين، وقورين، لم يستخفهم خوف ولا حذر، وكانوا على استعداد لمناجزة جيش قريش من المشركين القتال، ولو بالدخول عليهم غنوة وهم مُحَضَّرُونَ في مكة، ومعهم كامل أسلحتهم وعتادهم وتَمُومِينَهُمْ.

فَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَهِيَ الطَّمَأْنِينَةُ وَالِاسْتِقْرَارُ، ثَقَّةٌ بِتَأْيِيدِ اللَّهِ لَهُمْ وَنَصْرِهِ، وَتَحْقِيقِ وَعْدِهِ.

وهذه السَّكِينَةُ تأتي معونةً من اللَّهِ لِلتَّيْسِيتِ، وَشَدَّ الْعِزَائِمِ، فَمَنْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ السَّكِينَةَ كَانَ هَادِئاً رَازِئاً وَقُوراً، لَا يَعْتَرِيهِ طَيْشٌ وَلَا خَفَةٌ، وَلَا يُقْلِقُهُ خَوْفٌ، وَلَا تَسْتَخْفُهُ أَرَاغِيفٌ وَلَا تَهْدِيدَاتٌ تَأْتِي مِنْ قِبَلِ الْأَعْدَاءِ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾.

وهذه السَّكِينَةُ هي من جُنْدِ اللَّهِ، كَمَا أَنَّ مِنْ جُنْدِ اللَّهِ الرُّغْبَ يُلْقِيهِ فِي قُلُوبِ أَعْدَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمِنْ جُنْدِهِ الرِّيحُ، وَالصَّوَاعِقُ وَحِجَارَةُ مِنْ سَجِيلٍ، وَالْمَلَائِكَةُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ.

وَأَنْزَلَ السُّكُونِ وَالطَّمَأْنِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدُهُمْ إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ السَّابِقِ قَبْلَ أَنْزَالِهَا، لِأَنَّهُمْ بِهَا يَوجَّهُونَ أَعْدَاءَهُمْ ثَابِتِينَ مَطْمَئِنِينَ أَقْوِيَاءَ، غَيْرَ هَيَّابِينَ وَلَا وَجَلِينَ، وَهَذَا يَجْعَلُهُمْ وَاثِقِينَ إِيمَانًا كَامِلًا عَنْ وَعْيٍ وَبَصِيرَةٍ وَكَمَالٍ. إِذْ رَأَوْا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيَمْنَحُهُمْ حَتْمًا إِحْدَى الْحُسَيْنِ: أَمَّا الشَّهَادَةُ وَجَنَاتِ النَّعِيمِ، وَأَمَّا النَّصْرُ وَالْفَتْحُ الْمُبِينُ، وَهَذَا نُمُوٌّ فِي الْإِيمَانِ عِنْدَ أَشَدِّ الْأَزْمَاتِ.

بِخِلَافِ الْفَلَقِ وَالْخَوْفِ وَالِاضْطِرَابِ فَإِنَّهَا غَوَارِضُ تَأْتِي بِالشُّكُوكِ، فَتَنْقُصُ مِنْ مَشَاعِرِ الْإِيمَانِ، وَمِنْ مَشَاعِرِ الثِّقَةِ التَّامَةِ بِاللَّهِ الَّتِي هِيَ مِنْ آثَارِ كَمَالِ الْإِيمَانِ.

إِنَّ دَرَجَةَ حَرَارَةِ الْإِيمَانِ الْفَاعِلَةِ فِي السُّلُوكِ تَزْدَادُ بِالسَّكِينَةِ الَّتِي تُثَبِّتُ الْقَلْبَ وَتُدْفَعُ عَنْهُ الْخَوْفَ وَالْفَلَقَ وَالِاضْطِرَابَ، وَتَنْقُصُ بِغَوَارِضِ الشُّكُوكِ الَّتِي تَتَلَاَعِبُ بِالْأَفْكَارِ، وَتَجْلِبُ الْأَوْهَامَ، وَتُثِيرُ الْخَوْفَ وَالْفَلَقَ وَالِاضْطِرَابَ.

وَلَا تَقْتَصِرُ الْمَعُونَةُ الرَّبَّانِيَّةُ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْإِمْدَادِ بِالسَّكِينَةِ الَّتِي هِيَ مِنْ جُنُودِ اللَّهِ، بَلْ قَدْ يُعِينُ الْمُؤْمِنِينَ بِجُنُودٍ غَيْرِهَا مِنْ جُنُودِهِ الْكَثِيرَةِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَهُوَ يَعِينُ بِمَا يَشَاءُ مِنْهَا بِمَقْتَضَى عِلْمِهِ بِعِبَادِهِ، وَحُكْمَتِهِ فِي قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَإِشَارَةً إِلَى ذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي النَّصْرِ:

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أي: فهو يُعينُ المؤمنين من عباده بما يشاء من جنوده، معونةً ما على وفق علمه وحكمته، فكلُّ جنودِ السماوات والأرضِ ملُكُه، يصرفُها كيف يشاء، ويسخرُها فيما يريد، وهو العليمُ الحكيمُ دوماً.

وستساءلُ المتدبِّر: لِمَ يُوَضَّعُ المؤمنون في ظُروفٍ يُضْطَرُّون معها أن يُقاتِلُوا في سبيلِ اللهِ عدوَّ اللهِ وعدوَّهُم؟! أليس الله بقادر على إهلاكِ الكافرين والمنافقين دون أن يكلفَ المؤمنين قتالهم، ودون أن يكونوا بحاجة إلى معونةٍ من الله بجنودٍ منه؟!.

ويجب النصُّ على هذا السؤال المطوي غير المذكور في اللفظ، بما يدلُّ على أنَّ حكمةَ الامتحان في الحياة الدنيا تستدعي ذلك، فلو شاء الله لانتصر لدينه من الكافرين، ولكن ليبُلِّو الناس بعضهم ببعض، ونتيجةً لوضع الناس موضع الامتحان تأتي النتائج يوم الدين بمنح المؤمنين ثوابهم في جنات النعيم، وتعذيب الكافرين بالعدل في دار العذاب المعدة لهم، وتأتي النتائج في الحياة الدنيا ينصِّر المؤمنين الصادقين على عدوِّهم، وتعذيب المنافقين والمنافقات الذين أخذُوا عنهم، ولم يُشاركوهم فيما دُعُوا إليه، بعذابٍ من الغيظ والكمَدِ والهَمِّ والغَمِّ، إذ جاءت النتائج على غير ما كانوا يظنون، فخابت آمالهم، وتحطمت أوهامهم، وتعذيب المشركين والمشرَكَات كذلك، إذ خابت آمالهم بصلحِ الحديبية، فقد صار الناس يدخلون في دين الله أفواجا، وكانوا يظنون أنَّهم انتصروا على محمد والذين قدموا معتمرين معه، فصُدُّوهم عن مكة، واحتفظوا لأنفسهم بالسلطان عليها تجاه جميع قبائل العرب.

دلُّ على هذه المفهومات عن طريق صريح اللفظ وعن طريق لوازمه والمطويات فيه، قول الله عز وجل في النص:

﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ٥ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَيبُ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ ذَايِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ٦﴾.

فدلّ التعليل: ﴿لِيُذْجِلَ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ والعطف عليه بعبارة ﴿وَيُعَذِّبَ
المنافقين...﴾ على السؤال المطوي، الذي سبق بيانه.

ودلّ قوله تعالى:

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَمَا أَتَ مَصِيرًا﴾.

عطفاً على جملة:

﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾.

على أن هذا التعذيب تعذيب معجل في الدنيا، لأنّ العطف يقتضي التغاير،
كما أن الأصل فيه تأسيس فكرة جديدة.

ودلّ التعذيب المعجل للمنافقين والمنافقات والمشرّكين والمشركات، مما
يقتضيه التناظر على مقابله الذي هو إكرام الله المؤمنين بما يحبّون من نصر وفتح
ومغانم، وقد جاء مطوياً في اللفظ اكتفاءً بما دلّ عليه، فتأييدهم بالنصر، وتسليطهم
على أموال أعدائهم بأخذونها مغانم، هو الذي كان به تعذيب المنافقين والمشرّكين
المعجل مع دلالات نصوص لاحقة في السورة.

إنّ امتحان المؤمنين بتكليفهم قتالَ عدوّهم، قد جعله الله لِيُثَبِّتَ فضلًا منه
إذا أطاعوا ثواباً مؤجلاً وثواباً معجلاً.

— فالثواب المؤجلُ إلى يوم الدين قد دلّت عليه الآية (٥) من النصّ،

ويكون:

(١) بأن يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها.

(٢) وبأن يكفّر عنهم سيئاتهم، فلا يحاسبهم عليها.

وهذا عند الله فوز عظيم، الفوز: النجاة من الشر، والظفر، والربح.

— والثواب المعجل الذي يحبّونه يكون:

(١) بأن ينصرهم الله على عدوّهم.

(٢) وبأن يفتح لهم بلاد أعدائهم ويستخلفهم في الأرض.

(٣) وبأن يستولوا على مغنم كثيرة.

وهذا الثواب المعجل يُفهم مما يقتضيه التناظر في مقابل التعذيب المعجل للمنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات مع ما جاء تفصيله في سورة (الفتح) نفسها، في قوله تعالى لرسوله بعد (١٣) آية:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٩﴾ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

— والعقاب المعجل للمنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الذين تحدثت السورة عنهم بمناسبة صلح الحديبية، دلّ عليه قول الله تعالى:

﴿وَيُعَذِّبُ الْمُُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ظَلَمَ السَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ... ﴿٦﴾﴾.

إنّ المنافقين الذين دُعُوا للخروج مع الرسول في عُمرته، ليُكثِّروا أعداء المسلمين، فيُرْهب مشركو قريش كثرة العدد، فيُخلُّوا السبيل للرسول والمسلمين حتى يؤدوا عمرتهم آمنين، لم يستجيبوا لهذه الدعوة، وظنوا أنّ عذد المؤمنين لا يكفي لمواجهة قوَّات المشركين في مكة، وأنّ المشركين سيَقْضُونَ قضاء تاماً على الرسول والذين خرجوا معه من المؤمنين، وأنهم لن يرجعوا إلى مساكنهم وأهليهم أبداً، وزعموا أنّ الله لن ينصرهم بجُنود من عنده.

وكذلك ظنّ المشركون حين رأوا أنّ الرسول ومن معه من المعتمرين لا يزيدون على ألف وخمسمائة، وأنّ الفرصة سانحة للقضاء عليهم.

لكنّ تدبير الله بما أجرى من أمور انتهت بصلح الحديبية، قد كان من نتائجه تعذيبُ المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، بما منح الرسول والذين آمنوا من فتح إسلامي مبين، أنزل بالطرف المقابل خيبة الأمل، والحسرة والكد، والغمّ

والهم، لقد ظنوا بالله ظنَّ السوء، وهو أنه لن يتدخل بتدبيراته الحكيمة لنصرة رسوله والذين آمنوا معه.

فخيَّب الله ظنَّهم، وكانوا يحسبون أنَّ دائرة السوء، وهو الشرُّ والضُّرُّ والهلاكُ ستُدور على محمَّد ومن معه من المؤمنين، فدارت دائرة السوء على المنافقين والمنافقات، والمشركيين والمشركات.

ومع هذا العقاب المعجل عاقبهم الله بعقاب دائم دلَّ عليه قوله تعالى:

﴿وَعَصِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَلَعَنَهُمْ﴾.

ومن غضب الله عليه نكد عليه أمور حياته في نفسه، وأمواله، وأولاده وأهله، وكلَّ ما يتعلَّق به، وهذا من التعذيب المستمر.

ومن لعنه الله أبعدَه عن مواطن تنزَّل رحماته، ووكلَه لنفسه، وهذا من التعذيب المستمر.

— والعقاب المؤجل للمنافقين والمنافقات والمشركيين والمشركات، دلَّ عليه

قول الله تعالى:

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

أي: وهياً لهم داراً هي لعذاب المعذَّبين يوم الدين، ومن أسمائها جهنم فإذا ماتوا وهم منافقون أو مشركون كانوا من المعذَّبين فيها.

ودلَّ العطف بجمله الذم: ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ على معطوف عليه محذوف يتعلَّق بوصف جهنم، ويمكن فهمُه من القرائن واللوازم الفكرية، أي: وأعدَّ لهم جهنم يُعذَّبون فيها، وتكونُ هي مصيرهم الذي سيصيرون إليه، وساءت مصيراً. ولست أرى أنَّ العطف على محذوف مقدَّر ذهنياً يقتصر على الفاء التي تسمَّى الفاء الفصيحة، بل قد تكون الواو فصيحة أيضاً، وكذلك غيرهما من حروف العطف، وفي القرآن من ذلك الشيء الكثير.

وكما طمأن الله المؤمنين في الآية (٤) من السورة بأنَّ له جنود السماوات والأرض، فهو يؤيِّدهم بجنوده بحسب علمه وحكمته، لَوَحَّ للمنافقين والمنافقات

والمشركين والمشركات في الآية (٧) من السورة بأن له جنود السماوات والأرض، أي: فهو يسلط من جنوده عليهم فينكلون بهم ويستقمون منهم إذا شاء، بمقتضى عزته الغالبة، وصفة حكمته التي يدبر على وفقها مقاديره، فيقضي بالنصر للمؤمنين الصالحين، ويقضي بالهزيمة والخذلان والتغذيب والتكيل على الكافرين والمنافقين، فقال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝﴾

* قول الله عز وجل:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝۸ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝۹ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُسَوِّوِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝۱۰﴾

خاطب الله رسوله ببيان مهمّة رسالته، توطئة لخطاب الناس ببعض ما يجب عليهم تجاه ربه، وليكون هذا الخطاب تمهيداً للحديث عن المبايعة التي حصلت بين الرسول والمؤمنين عند الشجرة في الحديبية، وهذه المبايعة حدثت من أحداث رحلة العمرة التي أخصر بها الرسول والمؤمنون معه، وكان فيها صلح الحديبية، وكان فيها تحلل المسلمين دون أداء مناسكهم باعتبارهم مخضرين، وعودتهم إلى المدينة بفتح للإسلام مبين، كما سبق بيان ذلك.

وقد جاء في الآية (٨) بيان أن مهمّة الرسول في رسالته تشتمل على ثلاثة عناصر:

العنصر الأول: أنه شاهد، أي: هو مبلغ رسالة ربه التي أمره الله بتبليغها للناس، ويأتي يوم القيامة فيستدعى للشهادة بأنه قد بلغ جميع ما أمره الله بتبليغه، لم ينقص منه شيئاً، وبشهادته هذه الموثقة بالأدلة تتقبل المسؤولية فتكون على الذين تبليغوا عنه، لأنهم مكلفون بدورهم أن يبلغوا الرسالة إلى غيرهم كما تبليغوها،

وهكذا تباعاً في الأجيال وفي الشعوب، وهم مدعوون لتقديم شهاداتهم، ومسؤولية التبليغ هذه مسؤولية مُلقاة على الأمة الإسلامية التي أجابت فأمنت وأسلمت، ويحمل منها كلٌ منهم على قدره، ويؤاخذ على مقدار تقصيره.

ونلاحظ بهذا التحليل أن من الإيجاز في التعبير ذكر كَوْنِ الرُّسُولِ شَاهِداً، لِيَذُلَّ بِالزُّورِ الذَّهْنِي عَلَى مَا يَكُونُ قَبْلَ الشَّهَادَةِ مِنْ أُمُورٍ، وَأَوَّلُ هَذِهِ الْأُمُورِ تَبْلِيغُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِتَبْلِيغِهِ لِلنَّاسِ.

العُنْصُرُ الثَّانِي: أَنَّهُ مُبَشِّرٌ، أَي: هُوَ مُبَشِّرٌ مِنْ اسْتِجَابِ وَأَمْنٍ وَأَطَاعٍ، بِأَنَّهُ لَهُ رِضْوَانُ اللَّهِ وَالْجَنَّةُ يَوْمَ الدِّينِ، وَبِمَا جَاءَ فِي النُّصُوصِ مِنْ بَشَرِيَّاتٍ مَعْجَلَةٍ وَمُؤَجَّلَةٍ دُونَ ذَلِكَ.

العنصر الثالث: أَنَّهُ نَذِيرٌ، أَي: هُوَ مُنْذِرٌ مَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ، وَلَمْ يُؤْمِنْ، وَمُنْذِرٌ مَنْ عَصَى، بِعَذَابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ وَغَضَبِهِ، وَالطَّرْدِ مِنْ رَحْمَتِهِ، فِي الْعَاجِلَةِ وَفِي الْأَجَلَةِ، وَيَكُونُ لِكُلِّ مَنْ كَفَرَ وَعَصَى مِنْ ذَلِكَ عَلَى مِقْدَارِ جُرْمِهِ وَائْتِمِهِ.

فَقَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٨).

والنكت ربنا تعالى بعد هذا الخطاب الموجّه للرسول فخطب الناس مبيناً أُولَى واجباتهم نحو ربهم، بعد إرساله رسوله إليهم، وهي تشتمل على أربع واجبات عظيمة:

الواجب الأول: أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

ويدخل في هذا الإيمان كل ما يتعلق بذات الله وصفاته وأفعاله، وكل ما يتعلق بالرسول وصفاته وبلاغاته، وفق ما أنزل الله على رسوله وأمره بتبليغه للناس.

الواجب الثاني: أَنْ يَنْصَرُوا اللَّهَ بِنُصْرَةِ دِينِهِ وَنُصْرَةِ رَسُولِهِ، وَيَلْقُوا آيَاتِ كِتَابِهِ وَيَعْلَمُوهَا النَّاسُ، وَيَلْقُوا سُنَّةَ رَسُولِهِ وَبَيَانَاتِهِ وَيَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ

وأنفسهم، بمختلف أنواع الجهاد، على قدر الاستطاعة، وهذه الأمور تدخل في معنى «التعزير» فقال تعالى :

﴿وَتَعَزَّزُوا﴾ :

أي : وتنصروا الله .

الواجب الثالث : أن يعظّموا الله ويَجْلُوهُ بقلوبهم ونفوسهم، وأن يُثْنُوا عليه بتمجيد صفات العظمة والجلال التي هي له بآلستهم، في ذكرهم وعباداتهم، وهذه الأمور تدخل في معنى «التوقير» فقال تعالى :

﴿وَتُوقِرُوا﴾ :

أي : وتوقروا الله .

الواجب الرابع : أن يُتَزَّهُوا الله وَيُقَدِّسُوهُ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ من صفات النقص، التي تتنافى مع أزليته، ووحدانيته، وكمال علمه وحكمته وقدرته، وأنه يفعل ما يشاء ويختار، إلى سائر صفات الكمال التي هي له سبحانه .

وتتزيه الله عن كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بكمال صفاته يدخل في معنى «تَسْبِيحِهِ» فقال تعالى :

﴿وَتَسْبِيحُهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾

التسبيح : التزويه .

البُكْرَةُ : أولُ النهار إلى طُلُوعِ الشمس، وهو وقت صلاة الصَّحِاح .

الأصِيل : هو الوقت الذي يكون من حين اصفرار الشمس إلى غروبها .

فمن واجبات الدين الأولى تسبيح الله في هذين الوقتين، ومن صَلَّى الفجر والعصر يومياً فقد آتَى هذا الواجب .

وعوداً إلى بيان أمور تتعلق بأحداث موضوع السورة الأصلي، بعد التمهيد بكليات دينية عامة للربط بها، والتفريع عليها، ذكر الله حادثة مبايعة من كان مع الرسول من المؤمنين في رحلة العمرة التي كان فيها صَلُحَ الحديبية، فأبان الله

عَزَّ وَجَلَّ ثلاث قضايا حول هذه البيعة:

القضية الأولى: أَنَّ الذين يبايعون الرسول المأذون من اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بإجراء هذه البيعة إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ، فبِعَتُّهُمْ هي مع الله، لَأَنَّهُ تعالى هو الذي يحاسبُ بعد ذلك عليها، فَيُثَبِّبُ من أوفى بعهدِهِ بأجرٍ عظيم، وَيُجَازِي من يَنْكُثُ بالعدل، فنقض العهد مع الله من المعاصي الكبرى، وَالْقَصْرُ ملاحظٌ فيه الغرض الأساسي من البيعة وهو نُصْرَةُ دين الله، فالمبايعة في الحقيقة هي مع الله.

وأبان تعالى أَنَّ يَدَهُ عَزَّ وَجَلَّ فَوْقَ أيدي الذين يُبَايعُونَ رُسُلَهُ، مشاركة في توثيق البيعة، ومباركة لها، مع الإشعار بالتزام كلِّ ما يترتب عليها عنده من معونة وأجر عظيم، فقال تعالى لرسوله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.

وجاء استعمال الفعل المضارع «يُبَايِعُونَكَ» لتصوير حركة المبايعة المتابعة التي أجراها المؤمنون يومئذٍ.

القضية الثانية: تحذير من ينقض بيعته وهو قادر على الوفاء بها حتى آخر نفس من حياته، فَإِنَّهُ يَضُرُّ بِذَلِكَ نفسه، ولا يَضُرُّ اللَّهَ وَرُسُلَهُ وجماعة المؤمنين شيئاً، فقال تعالى:

﴿مَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾.

أي: فهو الخاسر بِنَكْبِهِ.

القضية الثالثة: ترغيب مَنْ يَفِي بعهدِهِ في بيعته بَأَنَّ اللهَ سَيُؤْتِيهِ أَجراً عظيماً، وهو يشمل الأجر المؤجل إلى يوم الدين، والأجر المعجل قبل ذلك، فقال تعالى:

﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَاقِدِهِ عَلَيْهِ اللَّهُ فَيَسْئُوتِ لَهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١).

أي: ومن أتمَّ الْعَمَلَ بِكُلِّ ما عاهد عليه الله في مبايعته التي بايع عليها، فَيَسْئُوتِ لَهُ المستقبل غير البعيد أجراً عظيماً، أما في المستقبل البعيد يوم الدين فقد أبانه الله في الآية الأخيرة من آيات سورة (الفتح) فقال تعالى:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٢٩).

الوفاء بالعهد: إتمام العمل بكل ما جاء في عناصره.

* * *

* قول الله عز وجل:

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسَيْنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ يُمَاطِعُ لَكُمْ خَيْرًا﴾ (٣٠) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا السَّوْءَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (٣١) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِرْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَمِنْآ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (٣٢) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٣٣).

يخبر الله رسوله وهو في طريق عودته إلى المدينة من صلح الحديبية، أن الذين لم يستجيبوا لدعوة الخروج مع الرسول لأداء العمرة، من الأعراب الذين حول المدينة، وكانوا من المنافقين، سيعتذرون بالسهم عن تخلفهم قائلين: شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا، أي: لم يكن تخلفنا جذلاً لك وتباطؤاً عن مناصرتك وعن تكثير سواد المسلمين.

قيل: وكانوا من أعراب غفار، ومزينة، وجهنية، وأسلم، وأشجع، والدليل (أو الدليل)، وكانت منازلهم حول المدينة.

وهذا خبر عما سيكون، لأن الله عالم بنفوسهم، وعالم بما يبتئوا أن يقولوه للرسول، حين بلغهم نبأ الصلح، وخاب أمْلُهُمْ بأن يُحَارِبُهُ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مشركو مكة، ويقضوا عليهم، ويتخلصوا من الرسول ودعوته.

وسمَّاهُمُ الله مخلفين (اسم مفعول) ولم يسمَّهم متخلفين، إشارة إلى علة عوامل جعلتهم يتخلفون، ومنها حكمة الله بأن يتخلصوا لأنهم منافقون، حتى ينصروا

رسوله بدونهم، وليكشفهم للرسول والمؤمنين، وليغيظهم ويعذبهم بما يقضي لرسوله من فتح مبين.

وأبان الله لرسوله أَنَّ ما سيقولونه من الاعتذار وطلب الاستغفار إنما هو قول بالاستئتم على خلاف ما يُضْمِرُونَهُ في قلوبهم، إذ هم مُناقضون، لم يَكُنْ لهم عذر، ولا يؤمنون بأنهم قد ارتكبوا ما يحتاجون أن يستغفروا الله منه، ولا يؤمنون بأن محمداً رسول الله حتى ينفعهم استغفاره لهم، ولكنهم يجارون المسلمين في مفهوماتهم، التي من ضمنها أَنَّ التخلف الذي كان منهم خطيئة تحتاج استغفاراً.

فما سيقولونه لا يَعُدُّوْا أَنْ يكون وسيلةً من وسائلهم التي يسترون بها كفرهم، ضمن خطة النفاق التي اختاروها لأنفسهم، فقال تعالى:

﴿يَقُولُونَ بِالسِّيَرَةِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

وعلم الله رسوله ما يقوله لهم، وهو في الحقيقة خطاب من الله لهم بأسلوب تكليف رسوله أن يقول لهم ما جاء في التعليم، ومع ما في هذا الأسلوب من إشعار بالإعراض عنهم، فهو يتضمن توجيه الرسول أن يبين لهم ويشرح ويُفَصِّل ما جاء في التعليم، وأن يبرز ما فيه من مطويات لم تذكر بصريح اللفظ، لكنها تفهم باللوازم الذهنية، وبالجمع بين مفهومات الجمل والربط بينها، وبدلالات بعض الألفاظ.

وبالتدبر نلاحظ أَنَّ هذا التعليم قد اشتمل على بيان القضايا التالية للمخلفين من الأعراب، وهي قضايا موجهة لكل ذي استعداد لأن يدرك حتى آخر الدهر:

القضية الأولى: أَنَّ التعامل في أمور الدين تعامل مع الله الرَّبِّ الخالق، ولو كان من خلال التعامل مع الناس والأحياء والأشياء، فالله هو الذي يراقب أعمال العباد، ويحاسبهم عليها، ويعلم ما في صدورهم من أغراض ونيات وعقائد، ويعلم مطابقة الظاهر للباطن ومخالفته له، ثم هو الذي يجازي على الأعمال، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فهو الرب الخالق مالك الوجود كله لا شريك له.

وهذه القضية هي من أصول الدين.

القضية الثانية: أَنَّ الذي يَمْلِكُ الضرَّ والنفع في الوجود هو الله وحده لا شريك له، فَإِنَّ أراد الله نَفَعَ عَبْدٌ من عباده لم يَمْلِكْ أَحَدٌ في الوجود مَنَعَ هذا النفع عنه، وَإِنْ أراد الله ضَرَّ عَبْدٌ من عباده لم يَمْلِكْ أَحَدٌ في الوجود دَفَعَ هذا الضرَّ عنه.

أي: فإذا كان غرض المخلفين من الأعراب عن الخروج مع الرسول ﷺ لأداء العمرة خَدْلُهُ، وتمكين مشركي قريش من القضاء عليه وعلى المؤمنين معه، وكان الله قد أراد حفظهم، ومنحهم الفتح المبين، وتهيئة الوسائل لينصُرَهُم بها نصراً عزيزاً، فَإِنَّه لا تُوجَدُ قُوَّةٌ قادرة على منع هذا الخير الذي إرادته الله لهم. دلَّ على هذه القضية من النص قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا...؟﴾ (١١) .
لَمْ يَأْتِ التعبير بأسلوب: إِنَّكُمْ لَا تَسْتَطِيعُونَ بوسائلكم حَجَبَ نَفْعِ إِرَادَةِ اللَّهِ لِرَسُولِهِ والمؤمنين معه، فَتَخَلَّفَكُمْ لَمْ يَجْلِبْ ضَرراً لهم، وَذَلِكَ لِأَنَّ الله أراد خلافَ ذَلِكَ، بل جاء التعبير بقلب الأمر عليهم أنفسهم، فهم لا يملكون دَفَعَ ضَرٍّ عن أَنْفُسِهِمْ إِنْ أراد الله بِهِمْ ضَرًّا، ولا يَمْلِكُ أَحَدٌ حَجَبَ نَفْعِ إِرَادَةِ اللَّهِ أَنْ يَنْفَعَهُمْ بِهِ، فليَعْمَمُوا هذه القاعدة الإيمانية، وليطبِّقوها على الرُّسُولِ والمؤمنين إِنْ كانوا أهلَ فِكْرٍ وَتَذَكُّرٍ.

وهذا من روائع أساليب الإقناع، ومن الحجج المسكتة الدامغة، لأنهم متى قالوا: إِنَّ اللَّهَ إِذَا أراد بنا نفعاً أو ضرراً فلا أحد يدفع ذلك عنا، لزمهم أن يطبقوا هذه القاعدة على جميع الناس، إذ ليست لهم خصوصية تحصر القاعدة فيهم.

وهذه العبارة دَلَّتْ أيضاً على القضية الأولى عن طريق اللُّزوم الذهني، باعتبار أَنَّ القضية الأولى هي الأساس الذي تَفَرَّعَ عنه القضية الثانية، وَتَقَهُمُ أيضاً من دلالة النفي الذي دَلَّ عليه الاستفهام، إذ معنى الكلام: لا أَحَدٌ يملك شيئاً من ذلك غير الله، لِأَنَّ الله هو الرَّبُّ الخالق المالك للوجود كُلِّه وحده لا شريك له، ولا أحد يستطيع أن ينازعه في أمر، وهو الذي خَلَقَ الناس ليلوهم ويحاسبهم ويجازيهم.

ودلّ حرف العطف (الفاء) في صدر جملة ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ...﴾، وهو كلامٌ تعليميٌّ مستأنف، دلّ على أنّه يوجد كلامٌ مطويٌّ ملاحظٌ ذهنياً غير مذكورٍ في اللفظ، وقد عطف الجملة المذكورة عليه، وأفضحت الفاء العاطفة عنه، وهذا الكلام المطوي لا بدّ أن يكون حول إثبات توحيد الربوبية والإلهية لله وحده، وأنّ التعامل الديني هو تعامل معه وحده لا شريك له، وأنّه هو الذي يحاسب ويجازي، وهذا المطويّ قد ترك للرّسول ولأهل التدبّر العميق بيانه.

القضية الثالثة: إشعارُ المخلفين من الأعراب بأنهم على ضلال، إذ يتصوّرون أنّ ما يقومون به من أعمال، وما يخفون من كفر يسترونه بأعمال ينافقون الرّسول والمؤمنين بها، وما يدبرون ويبتنون من مكر وكيد، أمورٌ مستورةٌ غير مكشوفة، بل كلّ أمرهم معلومٌ مشهودٌ لله عزّ وجلّ شهودٌ حضورٌ معهم في ظواهرهم وبواطنهم حتّى أعماقهم، في خبرة تامّة.

دلّ على هذه القضية من النصّ قول الله تعالى:

﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

أي: هو خبير دوماً بما تعملون، ودلّ حرف العطف «بل» على إبطال قضية ماثلة في أذهان المنافقين، وهذه القضية غير مذكورة في اللفظ، للعلم بها لزوماً من إبطالها بحرف العطف «بل» وهي تصوّرهم أنّ كفرهم ومكرهم وكيدهم أمورٌ مستورةٌ لا يعلمُ بها غيرهم، فأبأنّ الله عزّ وجلّ أنّه عليهم بما هم عليه من مستوى الخبرة، وعلمُ الخبرة هو الذي يكون مع الممارسة والملاحظة للدقائق والخفايا.

القضية الرابعة: تتضمّن تكذيب المخلفين المنافقين من الأعراب في ادّعائهم أنّهم شغلّتهم أمّوالهم وأهلّوهم عن مصاحبة الرّسول وشدّ أزره في خروجه إلى العمرة، وتكذيبهم في طلبهم أنّ يستغفر لهم، وتتضمّن بيان حقيقة ما كان في أذهانهم وما كان في قلوبهم، وبيان حقيقتهم الكلية.

* فالذي كان ماثلاً في أذهانهم هو أنّ عدّد المسلمين الخارجين لأداء العمرة مع الرّسول عدّدٌ قليل بالنسبة إلى القوّة الحربيّة التي يملكها مشركو قريش، وعلمُ المنافقون أنّ قريشاً لا يُمكّنون الرّسول والمؤمنين معه من أداء عمرتهم، وغلب على

ظَنَّهُمْ أَنَّ الْقِتَالَ سَيَنْشُبُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَأَنَّ الدَّائِرَةَ سَتَدُورُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَسَيَنْتَهِي أَمْرُهُمْ وَأَمْرُ الْإِسْلَامِ كُلِّهِ، وَأَنَّ الرَّسُولَ وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ لَنْ يَنْقَلِبُوا مِنْ هَذِهِ الرِّحْلَةِ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا، وَفَرِحَ الْمُنَافِقُونَ بِهَذَا الظَّنِّ حَتَّى صَارَ أَمْرًا مُزِينًا فِي قُلُوبِهِمْ، أَيْ: صَارَ عَقِيدَةً ثَابِتَةً مَمْتَرِجَةً بِعَاطِفَةِ رَغْبَةٍ وَطَمَعٍ وَتَلَهْفٍ، لِأَنَّهُمْ يَرِيدُونَ التَّخَلُّصَ مِنْ هَذَا الدِّينِ، وَمِنْ خُطَّةِ النِّفَاقِ الَّتِي يَمَارِسُونَهَا دَوَامًا، فِي اِزْدَوَاجِيَّةٍ مُتَنَاقِضَةٍ بَيْنَ السَّلُوكِ الظَّاهِرِ، وَمَا يَضْمُرُونَهُ فِي الْبَاطِنِ.

وهذا الظَّنُّ مِنْهُمْ قَدْ كَانَ مُسْتَنَدَهُ الظَّوَاهِرُ السَّبِيَّةُ الَّتِي بَدَتْ لَهُمْ، فِي مُوَازِينَ الْقُوَى الْمَنْظُورَةِ، وَلِذَلِكَ جَاءَ التَّعْبِيرُ بِمَادَّةِ «ظَنَّ» الَّتِي تَسْتَعْمَلُ فِي الظَّنِّ الضَّعِيفِ الْمَرْدُودِ، وَفِي الظَّنِّ الْمَتَوَسِّطِ، وَفِي الظَّنِّ الرَّاجِحِ، بِخِلَافِ مَادَّةِ «حَسِبَ» فَهِيَ لَمْ تَسْتَعْمَلْ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا فِي الظَّنِّ الضَّعِيفِ الْمَرْدُودِ، وَفِي التَّوَهُّمِ الَّذِي لَا تَقْتَرِنُ بِهِ أُمَارَاتٌ وَلَا أَدَلَّةٌ.

وَكَانَ لَهُمْ ظَنٌّ آخَرٌ نَابِعٌ مِنْ مَنَابِعِ كُفْرِهِمْ، وَهُوَ يَتَعَلَّقُ بِالْقُوَى غَيْرِ الْمَنْظُورَةِ الَّتِي قَدْ يُعْمِدُ اللَّهُ بِهَا، فَظَنُّوا بِاللَّهِ ظَنُّ السُّوءِ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ لَنْ يَنْصُرَ مُحَمَّدًا وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ، لِأَنَّهُمْ عَلَى غَيْرِ الْحَقِّ فِي مُحَارَبَةِ شُرَكَائِهِمْ مِنَ الْأَوْثَانِ وَغَيْرِهَا، أَوْ أَنَّ اللَّهَ اسْتَخْرَجَهُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ وَوَجَّهَهُمْ لِمَكَّةَ لِيَقْضِيَ عَلَيْهِمْ بِأَيْدِي مُشْرِكِي قُرَيْشٍ.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ بِكُلِّ فُرُوعِهَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولَ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السُّوءِ﴾.

الظَّنُّ الْأَوَّلُ هُوَ الظَّنُّ الْمُسْتَنَدُ إِلَى الظَّوَاهِرِ السَّبِيَّةِ الَّتِي بَدَتْ لَهُمْ فِي مُوَازِينَ الْقُوَى الْمَنْظُورَةِ.

وَالظَّنُّ الْآخَرُ هُوَ الظَّنُّ الْمُسْتَنَدُ إِلَى عِفَائِدِهِمُ الشَّرَكِيَّةِ الَّتِي يَظُنُّونَهَا.

وَتَزِينُ الظَّنِّ الْأَوَّلِ فِي قُلُوبِهِمْ قَدْ اشْتَرَكَتْ فِي تَوَلِيدِهِ عِدَّةُ عَوَامِلٍ: وَسَاوُسُ الشَّيَاطِينِ، وَأَهْوَاؤُهُمْ، وَرَغْبَتُهُمْ فِي أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنَ الْاِزْدَوَاجِيَّةِ الْمُنَاقِضَةِ بَيْنَ ظَاهِرِهِمْ وَبَاطِنِهِمْ، وَكَرَاهِيَتُهُمْ لِلرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَحَسَدُهُمْ مِنَ الْقُوَّةِ وَالسُّلْطَانِ

الذي وصلوا إليه في المدينة وفيما حولها، ولذلك جاء التعبير بصيغة الفعل الذي لم يُسمَّ فاعله، ليشمل كل هذه العوامل والله أعلم.

ويلاحظ أنَّ ظَنَّهُمْ قد كان ظناً قوياً في نفوسهم، بدليل وُصُولِهِ إِلَى أَنْ يَكُونَ مُزَيَّناً فِي قُلُوبِهِمْ، فمن المعلوم أن ما يصل إلى القلب لا بُدَّ أن يكون قوياً.

وجاء عطف جملة: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ...﴾ بحرف «بـ» الذي يدل على الإصرار الإبطالي للدلالة على كذب ادّعائهم أنهم شغلتهم أموالهم وأهلهم، وكذب اعترافهم بالخطيئة وبرغبتهم في أن يستغفر الرسول لهم.

القضية الخامسة: بيان أنهم قومٌ فاسدون، مصيرهم إلى أن يكونوا هالكين.

دلَّ على هذه القضية قوله تعالى:

﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ (١٢):

أي: وكتمتم قوماً فاسدين لا خير فيكم، وفسادكم يُفضي بكم إلى أن تكونوا هالكين، إنهم فاسدون وهالكون حتماً لأنهم منافقون.

«بُور» يقال للواحد وغيره، وقد يكون جمع «بائر» يقال لغة: باز يُورُ بُوراً فهو بائر، أي: هلك. ويقال: أباره الله إذا أهلكه.

و«البوار» في اللغة الهلاك، و«البُور» الهلكى. قال الجوهري: الرجلُ البور، الفاسدُ الهالك الذي لا خير فيه.

أقول:

ويمكن أن نفهم أن كل ذي فسادٍ يؤدي به فساده إلى الهلاك فهو «بُور» واللفظ يطلق على الواحد وغيره.

القضية السادسة: بيان أنهم مشمولون بحُكْم قرار جزائي ربّاني عام يدخل فيه الكافرون جميعاً سواءً أكانوا مجاهرين بكفرهم أو منافقين، وهذا القرار ينصّ على أن الكافرين جميعاً سيُعَذَّبون بعذاب السَّعِير، أي: بعذاب النار، إذا ماتوا على كفرهم ولم يتوبوا.

السَّعِيرُ في اللغة: يأتي بمعنى النار، وقيل: السَّعِير، لهبُ النار. ويُقال: نارٌ سَعِيرٌ، أي: نارٌ مُسْعُورَةٌ، بمعنى مُوقدة. ويقال: سَعَرَ النارَ يَسْعُرُها، وأسْعَرُها وسَعَرُها، إذا أوقدها وهيَّجها.

دلَّ على هذه القضية قول الله تعالى:

﴿وَمَنْ لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ (١٣):

أي: ومن لم يؤمن بالله ورسوله مستقبلاً، أو مرَّ عليه عمره في الحياة الدنيا ولم ينشأ هذا الإيمان، أولم يستبقه حتى يلقي ربه وهو عليه، فسيُعَذَّب بعذاب نارٍ محرقة، وهذا السَّعِير مهيباً قد أَعْتَدَهُ اللهُ بعناية، ليجازي الكافرين به.

أَعْتَدَ الشيء: أي: أَعَدَّهُ وهيَّأه بعناية، ويقال: شيءٌ عَتِيدٌ، أي: مُعَدٌّ حَاضِرٌ. و«الْعَتَادَةُ» الشيءُ يُعَدُّ لأمرٍ ما ويُهيَّأُ له.

وقد جاء الاستغناء بجملة: ﴿فإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ جواباً للشرط: ﴿وَمَنْ لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ عن ذكر جملة الجواب الأصلية وهي: نُعَذِّبُهُ يَوْمَ القيامة بعذاب السَّعِير، للعلم بها لزوماً، وهو من الكنايات.

والتنكير في لفظ ﴿سَعِيرًا﴾ لتعظيم أمرِ نار جهنم، أي: سَعِيرًا عظيماً شديداً على المعذبين به، أعادنا الله منه وحمانا بالإيمان والإسلام والاستقامة على الطاعة.

القضية السابعة: تتضمن الإغراء بالتوبة والحث عليها، والإشعار بأن من تاب قبل فوات الأوان تاب الله الربُّ الخالق عليه، فهو الذي له مُلْكُ السماوات والأرض، ومن صفاته أنه غفور رحيم، يغفر لمن يشاء، ومشيتُه لا تفارق حكمته، ويُعَذَّب من يشاء، ومشيتُه لا تفارق حكمته.

فالمخلَّفون المنافقون من الأعراب كغيرهم، ما ذأَمُوا في الحياة، وما دام بابُ التوبة مفتوحاً للعباد، فإنهم يملكون أن يتوبوا ويستغفروا ربَّهم، فإذا فعلوا ذلك وجدوا الله تواباً غفوراً رحيماً.

وفتح باب التوبة والغفران والتذكير به عند كل مناسبة داعية، هو من أساليب

الإصلاح التربوي للناس، في خطة الرب الخالق وحكمته، وهو من كمال جلّيه ورحمته.

دلّ على هذه القضية في النص قوله تعالى :

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ١١﴾.

لما كان النص موجهاً بالدرجة الأولى لمنافقين من المشركين، كان من الحكمة لدى إغرائهم بالتوبة وإطماعهم بأن يغفر الله لهم، أن يثنى ذلك على تصحيح الاعتقاد حول توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية لله الرب الخالق وحده لا شريك له، فجاء التمهيد بقوله تعالى :

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ١٢﴾ :

أي : هو الرب الخالق وحده للسموات الأرض، فهو المالك لهما وحده، ومن كان هو المالك لهما وحده فهو المستحق وحده للعبادة، فلا إله إلا هو.

فالتوجيه للتوبة اقتضى تصحيح الاعتقاد أولاً حول توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية لله وحده، لأن الكلام موجّه بالدرجة الأولى لمنافقين من المشركين.

وبناء على هذا الأساس تأتي الدعوة إلى التوبة التي يستحق بها التائب المغفرة، وقد جاءت هذه الدعوة بأسلوب التذكير بقضية كلية من قضايا صفات الله عز وجل، وهي أنه يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، فقال تعالى :

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ١٣﴾ :

أي : فلا سلطان لأحد عليه في قضايا المغفرة والتعذيب، لا من شريك، ولا من شفيع، وفي هذا تأكيد لتوحيد الربوبية والإلهية لله عز وجل.

وليس في هذا دلالة على أن مشيئة الله مشيئة مزاجية، غير موجّهة بحكمة الله وعذله ورحمته، فقد دلت النصوص على أن مشيئته تعالى لا تفارق حكمته، ومن حكمته تبارك وتعالى رحمته بعباده، وفضله وعذله، فهو يضع الأشياء في مواضعها

بحكمة تامة، ومن حكمته أن يتوب على التائبين إذا تابوا وهم في رحلة الابتلاء، وأن يغفر للمستغفرين إذا استغفروا ربهم ضمن الضوابط التي وضعها للمستغفرين. إن صفات الله عز وجل صفات متكاملات فيما بينها، لا ينقص بعضها بعضاً، ولا يظفي بعضها على بعض، فلا تظفي طلاقة المشيئة على صفة الحكمة، ولا تظفي القدرة الكاملة على صفات العدل والرحمة والعفو والغفران، ولا تعمل القدرة والإرادة بدون أن تكونا محاطتين بشمول العلم وقيود الحكمة، وهذا من مقتضيات كمال صفات الله عز وجل.

فلا بد أن يفهم هذا النص ضمن إطار الفهم المتكامل لصفات الله عز وجل.

وإطماعاً بغفران الله ورحمته قال تعالى:

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ١١﴾

أي: والله غفور رحيم دوماً، لأن ما كان الله من صفات فله صفة الكينونة الدائمة المستمرة.

وفي غرض أن الله غفور رحيم دوماً دعوة ضمنية للاستفادة من هذه الصفة العظيمة من صفات الله عز وجل، وذلك بالتوبة والاستغفار.

أما التوبة من النفاق وآثاره في السلوك فتكون بإعلان التوبة، وبالإيمان الصحيح الصادق، وبالعمل الصالح بمقتضى الإيمان الصحيح.

وأما الاستغفار فيكون بسؤال الله أن يغفر ما سلف من نفاق وعمل سيئ، مع اجتناب ممارسته عند الاستغفار.

* قول الله عز وجل:

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَفَاازٍ لَتَأْخُذُوهُمَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُل لَّنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالِ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ١٥﴾ قُلِ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَسْئَلَةٌ إِلَى قَوْمٍ

أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤَيِّدْكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتُ جَعَتِ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

أُعِيدُ التذكير بأن سورة (الفتح) نزلت في أواخر السنة السادسة من الهجرة عقب صلح الحديبية في طريق عودة الرسول والمؤمنين معه إلى المدينة، وهذا النص منها.

وقد اشتمل هذا النص على أخبار بأحداث قبل وقوعها، وهي من معجزات القرآن، واشتمل على تعليمات وأوامر ونواهي ربانية تتعلق بهذه الأحداث، أو كان ذكرها مناسبة لبيانها.

الخبر الأول: أن الرسول والذين كانوا معه من المؤمنين، وبايعوه عند الشجرة في الحديبية سينطلقون بتوجيه الله لهم إلى قوم ينصرهم الله عليهم، دون عناء كبير، ويهبهم من الأرض والقرى والأموال والأرزاق مغنم كثيرة، وأن هذه المنحة الربانية ستكون إكراماً من الله لرسوله ولأهل بيعة الرضوان، والإعلام بهذا الخبر المستقبلي فيه إلماح إلى الخطة الربانية المدبرة في حركة الفتوح الإسلامية.

وتحقق هذا الخبر الذي تضمن وعداً من الله بالنصر، ووعداً بجائزة مغنم كثيرة، فلم يقيم الرسول في المدينة بعد عودته من الحديبية إلا شهر ذي الحجة من سنة ست من الهجرة، وآيماً من شهر محرم لسنة سبع من الهجرة، ودعا من كان معه في الحديبية إلى الخروج لغزو خيبر بتوجيه من الله عز وجل، وكانت خيبر مساكن ومزارع لتزلاء الحجاز من اليهود، الذين سبق أن نزحوا إليها من بلاد الشام.

والأمر الرباني المتعلق بهذا الخبر هو منع الذين تخلّفوا عن الخروج مع الرسول في عمرته، من الخروج معه في غزوته هذه، لأن شرف الانتصار فيها والمغانم التي تؤخذ بها هبة من الله لأهل بيعة الرضوان إكراماً لهم.

وقد أشار النص إلى هذا الخبر بقول الله تعالى فيه :

﴿إِذَا أَنْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِرٍ لَتَأْخُذُوا﴾.

ودلت سوايق هذا القول على أن الخطاب فيه موجّه للرّسول وأهل بيعة الرضوان، ودلت العبارة على أنّ الانطلاق السّريع سيكون لأخذ المغانم مباشرة، دون حاجة إلى قتال يذكر ويسجل بعبارة تتلى.

وأشار النص إلى التكليف الرّباني المتضمّن منع المخلفين عن اتباع المؤمنين ومشاركتهم في غزوة خيبر، بقوله تعالى:

﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾.

فهذا تكليف من الله لرسوله نزل مقارناً للخبر عمّا سيقع قبل وقوع الحدث.

الخبر الثاني: أنّ المُخلفين عن الخروج مع الرّسول في عُمرته، سيُطالَبون بأن يخرجوا مع الرّسول والمؤمنين إلى غزو خيبر، حين يعلمون بأنّ الرّسول خارج لغزوها، ليعلمهم بأنّ سقوطها في أيدي المسلمين أمر سهل، وليعلمهم بأنّ فيها مغنم كثيرة.

لكنّ الأمر الرّباني قد نزل بمنعهم من الخروج مع المؤمنين، ولو على سبيل اتّباعهم في آخر صفوفهم، قبل الإعلان عن التوجّه لغزو خيبر.

إنهم مع علمهم بما جاء في القول التّكليفي الرّباني المنزّل من قبل أن يقع الحدث - فقد تليت عليهم سورة (الفتح) - يُريدون أن يبدّلوا كلام الله التّكليفي، محرّضين المؤمنين على معصيته، طمعاً في المشاركة بالمغانم، فيقولون للمؤمنين: ﴿ذَرُونَا تَتَّبِعْكُمْ﴾ ويظهر أنّهم لا يجرؤون أن يقولوا هذا الكلام للرّسول بعد أن تخلّفوا عن الخروج معه إلى العمرة، واعتذروا بأنّهم شغلّتهم أموالهم وأهلهم كاذبين، وخذلوه، وأعلن القرآن أنّهم ظنّوا أنّ مشركي قريش سيقضون عليه وعلى المؤمنين معه، وأنّهم ظنّوا بالله ظنّ السوء.

فيجيهم المؤمنون بأنّ الله عزّ وجلّ أمر رسوله بأن يقول لهم:

﴿لَنْ تَتَّبِعُونَا﴾:

أي: في هذه الغزوة. وإن يقول لهم:

﴿كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾:

أي: مُنْذُ أُنْزِلَ سُورَةُ (الفتح) وَقَبْلُ أَنْ يَتَوَجَّهَ الْأَمْرُ بِالْخُرُوجِ إِلَى غَزْوِ خَيْبَرَ، وَقَبْلُ أَنْ تُطَالِبُوا بِالمشاركة فِي هَذَا الْخُرُوجِ.

فَإِذْ عَلِيمٌ الْمَخْلُوقُونَ وَقَدْ طَمَسَ الطُّمُغُ بِصَائِرِهِمْ عَنْ إِذْرَاكِ دَلَالَةِ التَّعْلِيمِ الرَّبَّانِيِّ الْمُنْزَلِ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْخُرُوجِ إِلَى غَزْوِ خَيْبَرَ، فَيَقُولُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَزْعُمُونَ مِنَ التَّزَامِ التَّعْلِيمِ الرَّبَّانِيِّ، وَلَكِنَّ الْأَمْرَ مَذْبَرٌ، لِأَنَّكُمْ تَكْرَهُونَ أَنْ نَشَارَكَكُمْ فِي غَنَائِمِ خَيْبَرَ حَسْداً، فَأَنْتُمْ لَا تُحِبُّونَ لَنَا أَنْ نُصِيبَ مِنَ الْخَيْرِ الَّذِي سَتَحْصُلُونَ عَلَيْهِ فِي غَزْوَتِكُمْ هَذِهِ، وَتُرِيدُونَ أَنْ تَسْتَأْثِرُوا بِهِ لِأَنْفُسِكُمْ.

الْحَسَدُ: كَرَاهِيَةُ الْحَاسِدِ أَنْ يَنَالَ الْمَحْسُودُ الْخَيْرَ الَّذِي حَسَدَهُ فِيهِ، وَتَمَنَّى زَوَالَهُ عَنْهُ إِذَا نَالَ، وَإِسْكَاسَهُ عَنْهُ قَبْلَ أَنْ يَنَالَ، وَقَدْ يَصَاحِبُهُ إِرَادَةُ الْحَاسِدِ ذَلِكَ الْخَيْرَ لِنَفْسِهِ.

هَذِهِ طَبِيعَةُ الْمُنَافِقِينَ دَوَاماً، يَتَخَلَّفُونَ عِنْدَ الْمَغَارِمِ، وَيَتَهَايَتُونَ عِنْدَ الْمَغَانِمِ، وَيَفْجَرُونَ عِنْدَ الْمُخَاصِمَةِ، فَيَتَهَمُونَ أَهْلَ الْفَضْلِ وَالْبِرِّ وَالتَّقْوَى بِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مِنْ سَيِّئَاتٍ.

إِنَّهُمْ خَسُودُونَ، وَيَتَهَمُونَ بِالْحَسَدِ الْفَضْلَاءَ الشُّرَفَاءَ الَّذِينَ لَا يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ. وَهُمْ جَبَنَاءُ وَيَتَهَمُونَ الشُّجْعَانَ بِالْجَبَنِ. وَهُمْ بَخِلَاءُ وَيَتَهَمُونَ الْكِرْمَاءَ بِالْبَخْلِ، وَهَكَذَا.

وَقَدْ أَخْبَرَنَا الرَّسُولُ أَنَّ مِنْ خِصَالِ الْمُنَافِقِ أَنَّهُ إِذَا خَاصِمَ فَجَرَ، أَيْ: تَجَاوَزَ فِي الْخُصُومَةِ حُدُودَهُ، فَاسْتَعْدَّ فِيهَا الْإِتْهَامَ بِالْبَاطِلِ، وَالسَّبَابَ وَالشَّتَائِمَ بِغَيْرِ الْحَقِّ.

وَيَتَوَجَّهَ هُنَا سَوَالُ: هَلْ كَانَ هَؤُلَاءِ الْمَخْلُوقُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ يُدْرِكُونَ حَقِيقَةَ مَفْهُومَاتِ الدِّينِ، وَحَقِيقَةَ كَوْنِ مُحَمَّدٍ رَسُولَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، يُبَلِّغُ عَنْهُ رِسَالَاتِهِ، وَحَقِيقَةَ كَوْنِ الْقُرْآنِ كِتَاباً يُنْزَلُ بِهِ الْوَحْيُ عَلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ، أَوْ أَنَّهُمْ لَا يَفْهَمُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنَّهُ دَعْوَةٌ قَامَ بِهَا رَجُلٌ عَرَبِيٌّ مِنْ قُرَيْشٍ يُطَلَّبُ مُلْكاً، وَيَجْمَعُ مِنْ اسْتِطَاعَ لِمَنَاصِرَتِهِ مِنَ الْعَرَبِ، فَهُمْ إِنْ وَجَدُوهُ انْتَصَرُوا تَبِعُوهُ لِيُشَارِكُوهُ فِي الْغَنَائِمِ، وَإِنْ لَمْ يَتَّصِرْ انْقَلَبُوا عَلَيْهِ وَانْحَاذُوا مَنْضَمِينَ إِلَى أَعْدَائِهِ؟

القرآن يجيب على هذا السؤال المطوي، فيبطل بحرف «بَلْ» الاحتمال الأول، ويثبت الاحتمال الثاني، فيقول تعالى:

﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٥)

أي: لا يفقهون من قضايا الدين إلا شيئاً قليلاً، لا يكون لديهم عقيدة صالحة، ولا إيماناً صحيحاً مقبولاً، بسبب أنهم مشركون باطناً.

أقول:

وقد خفي في هذه الآية (١٥) على بعض أهل التأويل أن النص استخدم الكلام عما سيقول المخلفون، وعما ينبغي أن يجابوا به، للدلالة على التوجيه الرباني لغزو جهة ما، وللمنع المخلفين عن مشاركة أهل بيعة الرضوان فيه، وللدلالة على أن الغنائم فيه هبة من الله لهم ولرسوله، وليس للمخلفين نصيب منها، وأن هذا الكلام نفسه قد تضمن كلام الله الذي يريد المخلفون أن يبدلوه، فبحثوا عن نص غيره، فلم يجدوا فأحالوا الأمر على وحي غير متلو، وبعضهم أحال الأمر على نص في سورة (التوبة) وهو متأخر النزول عن كل أحداث صلح الحديبية وغزو خيبر.

فالنص القرآني هنا قد دفع عدة بلاغات في بلاغ واحد، نظير أن تقول لمن تريد أن تكبره: إذا جئت غداً لأطعمك طعاماً فاخراً نقل لفلان الطفيلي لا تبغني.

فقد دل هذا الكلام على وعد المدعو، ونهي الطفيلي عن الحضور، مع دلالة على أن الأمر قد أعدت العدة له، وأن الحدث سيقع غداً حسب الوعد، ما لم يأت مانع قاهر، ولا شيء في الوجود يمنع تحقيق وعد الله وخبره عما سيحدث.

الخبر الثالث: أن حركة الفتح الإسلامي المتطلعة شطر معالك الأرض ودولها العظمى يومئذ، ستوجه إلى قوم أولي بأس شديد بجيوشهم النظامية، وأسلحتهم وعتادهم، وتدريباتهم، وأن المخلفين من الأعراب عن مشاركة الرسول في عمرته، والمؤمنين عن مشاركته في الغزوة القريبة التي يصيب المؤمنون فيها مغنم كثيرة، سيدعون مستقبلاً للخروج لقتال قوم أولي بأس شديد، في حركة فتح داخل الجزيرة

العربية وخارجها، وأن هؤلاء القوم سيمتنعون عن دفع الجزية، وعن تأمين حركة انتشار الدعوة الإسلامية، وإعطاء الحرية لشعوبهم تختار من الدين ما تشاء، فلا يبقى أمام الجيش الإسلامي إلا أن يقاتلوا جيوش هذه الممالك وقياداتها، حتى يسلموا أو يستسلموا، وسكت النص عن ذكر احتمال هزيمة المسلمين، لأنهم إذا صدقوا واستقاموا على صراط الله في جهادهم فهم منصورون حتماً بمقتضى وعبد الله، إن الله لا يخلف الميعاد.

وقد دلت الآية (١٦) من النص على هذا الخبر ضمناً وعن طريق اللوازم الذهنية، لكن صريح اللفظ فيها يشتمل على تكليف الرسول أن يقول للمخلفين من الأعراب:

﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾:

أي: ستدعون إلى قتال قومٍ أولى بأسٍ شديد، وسيرفضون ما يقرض عليهم، وستقاتلونهم إن خرجتم لقتالهم مع المؤمنين، أو يسلمون بالدخول في الإسلام، أو بالاستسلام للمؤمنين، والتخلى بينهم وبين بلادهم وشعوبهم ينشرون الإسلام، ويقومون فيها حكم الله.

ويشتمل أيضاً على تكليف الرسول ﷺ أن يقول للمخلفين من الأعراب، وهو خطاب بضلع توجيهه للجميع:

﴿فَإِنْ تُطِيعُوا بُرُؤَكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾:

أي: فإن تطيعوا أمر الدعوة إلى قتال القوم المشار إليهم أولى البأس الشديد، فخرجوا للقتال مع المؤمنين الصادقين، يوتيكم الله أجراً حسناً معجلاً، وأجراً حسناً مؤجلاً إلى يوم الدين مشروطاً بصحة إيمانكم وابتغائكم رضوان الله والجنة، وهذا الشرط يعلم من نصوص أخرى كثيرة، فبيني ملاحظته هنا، وفي كل نص لم يصرح به فيه.

﴿وَلَنْ تَتَوَلَّوْا﴾:

أي: وإن تدبروا وتباعدوا ولم تستجيبوا لأمر الدعوة إلى قتالهم:

﴿كَأَنزَلْنَاهُ مِن قَبْلُ﴾

حين دُعِيتُمْ للخروج مع الرسول في عُمرته، لشد أزره، وتقوية جيشه:

﴿يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

لأن أمر الرسول بالخروج إلى القتال يجعل الخروج واجباً، وكذلك أمر قائد المؤمنين وإمامهم من بعده، وإن كان هو من دون أمر القائد عملاً من أعمال البر التي لا تجب إلا في أحوال النفي العام، فأمر قائد المؤمنين به يجعله فرضاً، وبناء على ذلك يستحق مخالفته العذاب الأليم.

واستثنى الله عز وجل ذوي العاهات، فهم لا يكلفون الخروج للقتال، فقال تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ...﴾ (١٧)

ويُقاس على أصحاب هذه العاهات أشباههم.

واقتضت الحكمة البيانية ذكر القاعدة الكلية التي تندرج فيها الحالة الخاصة التي وردت في النص، وفق أسلوب القرآن الذي يختم غالباً ببيان الكليات العامة بعد ذكر الجزئيات التي تندرج فيها، لتثبيت القواعد الدينية الكلية في أذهان المؤمنين، فقال الله تعالى:

﴿وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يَُعَذِّبْهُ عَذَابًا

أَلِيمًا﴾ (١٧)

وانتهى النص

• • •

النص الحادي والثلاثون

وهو من سورة (المائدة / ٥ مصحف / ١١٢ نزول)

«السورة (٢٦) من التنزيل المدني»

من الآية (٤١)

حول تكليف الرسول أن لا يحزن

من أجل المنافقين الذين يسارعون في الكفر

* قال الله عز وجل خطاباً لرسوله محمد ﷺ :

﴿يَتَأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا
ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ...﴾ (٤١)

* * *

(١)

ما في النص من القراءات المتواترة (من الفرش)

قرأ جمهور القراء العشرة: [لَا يَحْزُنْكَ] من حَزَنَهُ يَحْزِنُهُ حُزْنًا.

وقرأ نافع [لَا يَحْزِنْكَ] من أَحْزَنَهُ يُحْزِنُهُ إِحْزَانًا (الرباعي).

والقراءتان بمعنى واحد، وهما لغتان عربيتان، قال الجوهري: حَزَنَهُ: لُغَةٌ قريش، وأَحْزَنَهُ لُغَةٌ نعيم.

الْحُزْنُ وَالْحِزْنُ: ضِدُّ الْفَرْحِ وَالسُّرُورِ، وَهُوَ غَمٌّ وَكَرْبٌ يُصِيبُ النَّفْسَ، بِسَبَبِ أَمْرٍ مَكْرُوهٍ.

* * *

(٢)

موضوع النص وسبب نزوله

أخذ بعضُ الحزن يدبُّ إلى نفس الرسول ﷺ بسبب بعض المسلمين، وهم في الحقيقة منافقون، إذ اكتشف من تصرفاتهم ما يدلُّ على أنهم يُسارعون مُتَوَعِّلِينَ في طريق الكُفْرِ.

فنهاه الله عن أن يحزنه أمرهم، وإبان له أنهم ليسوا بمؤمنين حقاً، بل هم منافقون، قالوا: آمنا قولاً بأفواههم، ولكن قلوبهم لم تُؤْمِنْ، فهم لا يستحقُّون أن يحزن من أجلهم، على تصوُّر أنهم كانوا مؤمنين وأخذوا يتحولون إلى طريق الكفر، ويُسارعون فيه.

ويظهر ممَّا جاء في توابع هذا النص من الآية وممَّا بعدها أخذاً من دليل الاقتران، أنَّ المشار إليهم هم من منافقي اليهود، وأنَّ الرسول اكتشف بفطته أنَّ هؤلاء المسلمين بحسب الظاهر يتصرفون تصرفات تنافي مع صدق الإيمان بمناسبة مُقدِّم وفدٍ من اليهود ليحكم في أمر زَيْنَبٍ منهم، رجل وامرأة مُخصَّتين، رجاء أن يحكم بجُلْدِهما ونُفْضِهما والتشهير بهما فقط دون رجمهما، على ما اصطَلَحوا عليه مخالفين حُكْم التوراة، وقد جاء خبر هذه القصة عند البخاري ومسلم وغيرهما.

روى البخاري عن عبد الله بن عمر: (أنَّ اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أنَّ رجلاً منهم وامرأة زنياً، فقال لهم رسول الله ﷺ:

«مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ؟».

فقالوا: نَفْضُحُهُمْ وَجُلْدُونَ.

قال عبد الله بن سلام: كَذِبْتُمْ، إِنَّ فِيهَا الرَّجْمَ.

فَأَتَوْا بِالتَّوْرَةِ فَتَشَرُّوْهَا، فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ، فَقَرَأَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا.

فقال له عبد الله بن سلام: ارفَعْ يَدَكَ، فَرَفَعَ يَدَهُ، فَإِذَا آيَةُ الرَّجْمِ، فقالوا: صدق يا مُحَمَّدٌ، فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ، فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَرُجِمَا.

قال عبد الله بن عمر راوي الحديث: فرأيت الرجل يُخني على المرأة يقبها الحجارة).
فما جاء بعد هذا النص في السورة يعالج موضوع هذه القصة كما ذكر المفسرون.

* * *

(٣)

المفردات اللغوية في النص

﴿يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾:

سَارِعَ بمعنى «أسرع» مع زيادة في المعنى أخذاً من صيغة «فاعل» التي تدل في الأصل على المشاركة والمنافسة، والمنافسة تكون عادة مصحوبة بمضاعفة الجهد، فإن لم تكن مشاركة ومنافسة بقيت دلالة الصيغة على زيادة بذل الجهد في السرعة.
والسرعة: ضد البطء والسيير الهويني.

يقال: أَسْرَعَ السَّيْرَ، وأسرع في السَّيْرِ، ويقال: سَارَعَ إِلَى كَذَا، وسارَعَ في الطريق.

فمعنى: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ يسارعون السَّيْرَ فِي سَبِيلِ الْكُفْرِ.

﴿قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ﴾:

أَفْوَاه: جمع مفردة: «فوه» وهو الفم. ويقال لواسعة الفم فوهاء.

أي: قالوا: آمنا بَسْمَةِ أَفْوَاهِهِمْ، ولم يقولوا ذلك بالستهم فقط، وفي هذا إشارة إلى تَنَطُّعِهِمْ وَتَشْدُقِهِمْ بِأَدْعَاءِ أَنَّهُمْ آمَنُوا، وهذا من بسمات أصحاب الدعاوى الكاذبة، فاختيار لفظ «الأفواه» بدل «اللسنة» قد دل على أنهم يملؤون أفواههم بقولهم: آمنا.

* * *

(٤)

مع النص في التحليل والتدبر

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾.

نادى الله عز وجل النبي محمداً ﷺ بوصف كونه رسولاً، إشارة إلى أن الرسول مُبَلِّغُ رسالة ربه، فليس من مهماته في رسالته تحويل الناس من الكفر إلى الإيمان، أو إمسакهم في الإيمان ومنعهم عن أن يخرجوا منه، وعن أن يسارعوا السير في سُبُل الكفر، حتى إذا اختار بعض قومه لنفسه أن يكفر حزن من أجله، بدافع شعور خفي لذيه أنه لم يؤد واجبه الكامل نحوه.

إن الرسول مبلِّغ ناصح أمين، وليس مُكْرِهاً ولا مُجْبِراً ولا محولاً عن غير طريق لإرادة المبلِّغ الحرّة، فالمبلِّغون هم المسؤولون عن أنفسهم، وقد وهبهم الله الإرادات الحرّة ليختاروا بها في حياة الامتحان ما يشاءون لأنفسهم، وعليهم بعد ذلك أن يتحملوا نتائج ما اختاروا لأنفسهم، ولا يتحمل غيرهم عنهم شيئاً من المسؤولية.

وهذا أحد نداءين نادى الله بهما النبي محمداً بقوله له: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾، والنداء الآخر قول الله له في سورة (المائدة) أيضاً:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

فالنداءان اللذان ناداه الله فيهما بوصف كونه رسولاً يتعلّقان بتحديد مهمات رسالته، وإيقافه عند حدودها، ومن تجاوز حدود الرسالة أن يحزن من أجل الذين يسارعون في الكفر، وهم في باطن الأمر منافقون:

﴿قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ﴾:

أي: ملأوا أفواههم بكلمة «آمناء» تنطعاً وتشدّقاً.

﴿وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾:

مع أن المطلوب الأول في الدين أن يؤمن القلب، فمن لم يؤمن قلبه لم يصبح من إسلامه ولا من غمليه شيء، وهو من الكافرين، والله لا يهدي بالجبر القوم الكافرين، لأن المطلوب أن يؤمنوا باختيارهم، ولا يحكم بالهداية للقوم الكافرين، لأنه لا يحكم ولا يقضي إلا بالحق والعدل.

النص الثاني والثلاثون

وهو من سورة (المائدة / ٥ مصحف / ١١٢ نزول) أيضاً

«السورة (٢٦) من التنزيل المدني»

الآيات من (٥١ - ٥٣)

حول اتخاذ الذين في قلوبهم مرض
من النفاق اليهود والنصارى أولياء

* قال الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ
فَإِنَّهُمْ فَإِنَّهُمْ مِنْهُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَٰلِغِينَ ﴿٥١﴾ تَدْرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ
فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا
أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدِيمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ
إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

* * *

(١)

ما في النص من القراءات المتواترة (من الفرش)

* في الآية (٥٢):

(١) قرأ جمهور القراء العشرة: [يُسَارِعُونَ فِيهِمْ] بكسر هاء الضمير.

وقرأ يعقوب: [يُسَارِعُونَ فِيهِمْ] بضم هاء الضمير.

والقراءتان لغتان عربيتان في هاء الضمير.

* في الآية (٥٣):

(١) قرأ الكوفيون (عاصم وحمرزة والكسائي وخلف): [وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا] بإثبات حرف العطف (الواو) ورفع لام [يَقُولُ].

وقرأ البصريان (أبو عمرو ويعقوب): [وَيَقُولُ] بإثبات حرف العطف، ونصب لام [يَقُولُ].

وقرأ نافع وأبو جعفر (المدنيان) وابن كثير (المكي) وابن عامر (الشامي) [يَقُولُ] بدون حرف العطف الواو، ويرفع لام [يَقُولُ].

فالرفع عند من قرأ [وَيَقُولُ - يَقُولُ] وجُهِهُ الاستئناف في الجملة، فالفعل المضارع في الاستئناف يُرْفَعُ، أو الجملة معطوفة على جملة: [فَنَسِيَ اللَّهُ أَنْ].

والنصب عند مَنْ قرأ [وَيَقُولُ] مع إثبات حرف العطف، وجُهِهُ أَنَّ الفعل معطوف على الفعل المنصوب في الآية السابقة وهو [فَيُضَيِّحُوا].

وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني، فالاستئناف لا يقتضي ترتيب هذا القول على مجيء الفتح أو أمر من عند الله، وهذا يكون لدى المؤمنين الذين لهم معرفة بالمنافقين، والنصب يقتضي هذا الترتيب، وهو يكون لدى المؤمنين الذين لا يكشفون نفاق هؤلاء المنافقين إلا بعد مجيء الفتح أو أمر من عند الله.

وإثبات واو العطف وحذفها وجهان أيضاً من الأداء البياني في حالة الرفع، فإثبات الواو وجُهِهُ أَنَّ جملة [وَيَقُولُ] مستأنفة، أو معطوفة على جملة [فَنَسِيَ اللَّهُ أَنْ] في الآية السابقة، وحذف الواو وجهه أن الجملة مستأنفة وهي واقعة جواب سؤال مَقْدَرٍ ذَهْنًا، وهو: «مَاذَا يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا حِينَئِذٍ؟» الجواب: [يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْلُؤَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ؟!!] على وجه الاستفهام التعجبي من التباين بين قولهم وحقيقة أمرهم.

* * *

(٢)

موضوع النص وسبب نزوله

يَحذِّرُ الله الذين آمنوا بالنَّهي المشدَّد عن أن يتَّخذوا اليهود والنصارى أولياء، يُحَالِفُونَهُمْ، ويناصرونهم، ويُطْلَبُونَهُمْ على أسرار المسلمين، ويستتبرون بهم ضدَّ إخوانهم المؤمنين، ويداخلونهم ويخالطونهم، إلى غير ذلك ممَّا يدخل في معنى الموالاة.

وقد جاء هذا التحذير بمناسبة وجود فريق ضمن صفوف المؤمنين هم منافقون يوالون الكافرين سرّاً بكلّ جرأة وتصميم، وفريق آخر في قلوبهم مرض من الشُّك والريب وضعف الإيمان يُسارعون مشياً في طريق موالاة الكافرين، وباعت ذلك في نفوسهم تخوُّفَهُمْ من أن تدور الدائرة ضدَّ المسلمين، فيصيبهم بذلك ما يكرهون من أعداء الإسلام والمسلمين، فيُسرعون إلى عقد صفقاتٍ ولاءٍ في السِّرِّ مع اليهود والنصارى، لحماية أنفسهم من الدوائر السيِّئة التي قد تأتي بها الأيام.

يقولون هذا الكلام في أنفسهم سرّاً، ولا يُصرِّحون به أمام المؤمنين الصادقين، ولم يلبَّغوا أن يكونوا منافقين كاملي النفاق.

وقد جاء في هذا النص كشفُ لحال هذا الفريق المستخفي بما يُحدِّث به نفسه، وبما يحاول أن يُعقِّده من صفقاتٍ ولاءٍ مع النصارى أو اليهود.

والمدة الزمنية التي نزلت فيها سورة (المائدة) تقع في أواخر العهد المدني، بعد الانتصارات التي تحققت للرسول والمؤمنين في جزيرة العرب، وبداية التوجُّه لفتح البلدان خارجها، بدءاً بنصارى العرب جهة تبوك.

وتوجَّس الذين في قلوبهم مرض من تعرُّض المسلمين لحرب جيوش لا قِبَل لهُمَّ بها تأتي من جهة البلاد الواقعة تحت حكم القياصرة الروم.

فنزل سورة (المائدة) قد كان في الغالب بعد السنة الثامنة من الهجرة، وقد اختلفت الروايات في المدة التي نزلت فيها، ولكنَّ معظمها يدور حول السنتين الأخيرتين من حياة الرسول ﷺ.

أما روايات سبب النزول التي دارت حول عبد الله بن أبي بن سلول وتدخله لحماية بني قينقاع والاكتفاء بإجلائهم، ثم لحماية بني النضير والاكتفاء بإجلائهم، وقد كان إجلاء بني النضير سنة أربع من الهجرة، فلست أراها تستقيم مع تاريخ نزول سورة (المائدة) وهي أيضاً لا تنسجم مع قول الله تعالى في هذا النص من سورة (المائدة):

﴿فَيَصْبِرُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنفُسِهِمْ تَدِيرٌ﴾.

لأن ما كان من عبد الله بن أبي بن سلول قد كان أمراً قد صرح به علناً، ولم يكن أمراً مكتوماً في سره، وهو معروف النفاق، ومعلوم ولاؤه لليهود.

وكذلك ما ذكر من أنها نزلت في أبي لبابة وما كان منه في حصار بني قريظة عقب غزوة الخندق، وذلك لأن الذي حصل منه لم يكن نفاقاً، ولا قريباً من النفاق، ولكن أخذته الرقة على النساء والأطفال من بني قريظة، فلمّا استشاروه فيما سيفعل الرسول بهم إذا نزلوا على حكمه أشار بيده إلى حلقه، وأدرك خيانه فوراً، ورجع نادماً ثائباً وربط نفسه إلى سارية في المسجد، حتى تاب الله عليه.

ولكن قد كان ضمن صفوف المسلمين منافقون، وكان فيهم الذين في قلوبهم مرضٌ دون النفاق من الشكّ وضعف الإيمان، وقد ظهر الفريقان في غزوة تبوك، التي خرج إليها الرسول بالمسلمين في شهر رجب من سنة تسع للهجرة، وعقب غزوة تبوك، وما كان من أمر مسجد الضرار الذي أعدّه المنافقون بالاتفاق مع النصراني الخزرجي أبي عامر الذي كان يقال له أبو عامر الراهب، وأطلق عليه المسلمون اسم أبي عامر الفاسق في غزوة أحد، وانتهى به الأمر إلى قيصر الروم، واستنصره على النبي ﷺ، فوعده ومناه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعته من قومه من أهل الريب والنفاق يعدّهم ويمنّهم أنّه سيقدّم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويردّه عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يأتي من قبيله، فأقاموا مسجد الضرار مجاوراً لمسجد قباء، حتى أمر الرسول بهدمه عقب خروجه إلى غزوة تبوك، ونزول الوحي عليه بغرض المنافقين من بنائه.

وليس من الضروري فيما أرى ذكر أسماء باعبانهم، أو حادثة معينة، في بيان

سبب نزول النص، ولا سيما قد جاء فيه بيان أن الذين في قلوبهم مرض لم يَصْرَحُوا بما أسروا في أنفسهم.
والله أعلم.

(٣)

المفردات اللغوية في النص

﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾:

أي: لَا تَجْعَلُوا، وهذا من التوسع في استعمال فعل «اتَّخَذَ» بمعنى فعل «جعل» لذلك فهو ينصب مفعولين، فقال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾.

﴿أَوْلِيَاءَ﴾:

أي: قومًا يتبادلون معهم التواد، والتعاون، والتواعد على العناصر والتأييد والإمداد بالأخبار والقوى، أو ببعض ذلك.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَئِئًا مِنْهُمْ﴾:

أي: ومن يجعل نفسه منهم أولياء فإنه يكون منهم في انطباق الأحكام الإدارية عليه، كما تنطبق عليهم، فيعاقب من قبل الجهات الإدارية للأمة الإسلامية كما يعاقب الواحد منهم، فيؤخذ بخيانة التجسس، ويعامل معاملة العدو المحارب إذا كانوا أعداء محاربين، وتُحجَّب عنه امتيازات المسلم الأمين داخل المجتمع الإسلامي، إلى غير ذلك من أمور تراها الجهات الإدارية للأمة الإسلامية.

﴿فَقَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾:

هو مَرَضٌ دون النفاق، كالشك والشبهات القويَّة وضعف الإيمان، وغلبة الأهواء والشهوات.

﴿يُسْرِعُونَ فِيهِمْ﴾:

سبق شرح هذا الاستعمال في النص السابق (٣١).

﴿يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ﴾

الدائرة في الأصل ما أحاط بالشيء مستديراً حوله . واستعمل العرب الدائرة بمعنى الداهية التي تأتي بالشرّ والسوء، لأنها تحيط بمن نزلت به، وتأتي بمعنى الهزيمة، يقولون: دارت على القوم الدائرة في الحرب، أي: غلبوا وانتصر عليهم عدوهم، ويقولون: دارت عليهم الدوائر، أي: نزلت بهم الدواهي والمصائب والنكبات.

﴿أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۖ﴾

أي: أقسموا بالله قسماً موصوفاً بكونه غاية ما لديهم من إيمان مؤكدة مشددة. جهد الشيء في اللغة يأتي بمعنى نهايته وغايته، وبمعنى وسعه وطاقته، ويأتي الجهد بمعنى المشقة.

﴿حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ ۖ﴾

أي: بطلت أعمالهم، وكل عمل لا يُحقق الغاية منه فقد حُطَّ، أي: بطل. ويقال: أحبط الله أعمالهم، أي: أبطلها. ويقال: حبط ماء البشر، إذا ذهب ذهاباً كلياً لا يرجع معه أن يعود.

(٤)

مع النص في التحليل والتدبر

• قول الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَإِنَّهُمْ لَمِنَهُمْ إِنْ لَمْ يَهْدِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥١﴾

لما ضعف مشركو العرب وتحطمت مراكز قواهم وأخذت القبائل العربية تدخل في دين الله أفواجا، بدأت نفوس الذين في قلوبهم مرض من الشك وضعف الإيمان. تتوجه شطر موالاة بعض اليهود الذين لهم صلات خارج حدود مواطن السلطة

الإسلامية، وشطر موالاة النصارى الذين لهم ملك عربي عند الغسانيين، مدعوم
بإمبراطورية عظيمة هي دولة الروم، إضافة إلى المنافقين الضليعين في الكفر والتفاق.

وتمهيداً لبيان حال الموالين للكافرين من الفريقين، حذر الله الذين آمنوا من أن
يتخذوا اليهود والنصارى أولياء، يؤادونهم، ويتعاونون معهم، وينصرونهم ويستنصرون
بهم، ويطلبونهم على أسرارهم، لأن ذلك يضر بمصلحة الأمة الإسلامية، فناداهم الله
بأداة نداء البعيد، ويوصف كونهم مؤمنين لبيان الاهتمام، وللإشعار بأن اتخاذهم اليهود
والنصارى أولياء، يخالف مقتضى الإيمان، الذي يوجب طاعة الله في أوامره ونواهيه.

والتكليف بالأمر أو النهي حين يوجه لجماعة ذات وصف خاص باعتبار اتصافها
بذلك الوصف، فإنه يشمل كل فرد متهم لهذه الجماعة، ولو كان انتماءه لها كاذباً.

فالتداء بقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾.

يتضمن تكليفاً لجميع الذين يدعون أنهم مؤمنون، فمن خالف منهم ولو كان في
الحقيقة منافقاً غير مؤمن أجريت عليه في الدنيا أحكام العصاة المخالفين، أما في
الآخرة فهو فيها يعاقب على نفاقه وكفره.

ومنه خطاب الله للملائكة بالسجود لآدم فقد شمل من كان ضمنهم متبياً إليهم
نفاقاً، ولذلك حكم الله على إبليس بالمعصية والطرْد، والخلود في العذاب بسبب
عناده وكفره، ولو لم تقدر أن الخطاب قد كان في الأصل للملائكة ولَمَن كان معهم من
الجن، فقد كان في صفوف الملائكة منافقاً منسأً، وكان من الكافرين.

بعد هذا التكليف الرباني للذين آمنوا أبان الله تعالى أن اليهود والنصارى من
صفاتهم أن يتولّى بعضهم بعضاً، لأنهم حرقوا دين الله، وأنحرفوا عن صراطه
المستقيم، فقد يتولّى اليهودي النصارى ضد اليهود، وقد يتولّى النصراني اليهود ضد
النصارى، لأنهم لا دين لهم، لا هؤلاء ولا هؤلاء، فقال تعالى:

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

هذه العبارة تنطبق على موالاة النصارى للنصارى، وموالاة اليهود لليهود، وتنطبق

أيضاً على موالاة اليهود للنصارى وموالاة النصارى لليهود، لأنها لا تبين حكماً دينياً، إنما تصف واقعاً.

ولست أرى أن نستخرج منها أحكاماً شرعية تتعلق باليهود والنصارى فيما بينهم، إن أحكام الشريعة الإسلامية هي لمن آمن بها، لا لمن كفر بها، وغير المسلمين يتحكمون فيها بينهم بأحكامهم الطاغوتية.

فالحكم بالتوارث فيما بينهم أو عدم التوارث لا علاقة لشريعة الإسلام به فيما ظهر لي، واللَّهُ أعلم.

أما موالاة اليهود للنصارى وموالاة النصارى لليهود ضد الأمة الإسلامية، وضد كثير من شعوب الأرض، فقد برزت في عصرنا الحاضر بشكل قوي جداً، والأمة الإسلامية تعاني منه عناء مراً، ويشترك الفريقان في خطط المكر والكيد ضد شعوب الأمة الإسلامية، وفي الأعمال التنفيذية أيضاً، على الرغم من العداء الشديد الذي يحمله كل فريق منهما للآخر، ولا سيما عداء اليهود للنصارى، مع أنهم يستخرونهم في كل الأرض لتحقيق مخططاتهم اليهودية الرامية للسيطرة التامة على الشعوب النصرانية ودولها، قبل السيطرة على الشعوب الأخرى.

وبعد هذا البيان للواقع وجه الله التحذير الشديد للمؤمنين، فقال تعالى لهم:

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهمْ يَتَوَلَّهمْ وَنَكَّمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ :

أي: ومن يتول اليهود والنصارى كلهم أو بعضهم مجتمعين أو مفترقين موالاة تعاون وتناصر ضد شيء من مصالح المسلمين الدينية أو الدنيوية ممن هو منكم - ولو بالانتماء الظاهر إليكم - فإنه في حكم الله بمنهم، تجزى عليه الأحكام الإدارية التي تجزى عليهم حتى أقصى العقوبات، ومنها اجتماع المسلمين لقتال الموالين، ولو لم يكفروا بالإسلام، وكانت مولاتهم للكافرين من قبيل سقوط العصا في المعصية اتباعاً لأهوائه ومصالحه من دنياه، ورغبته في السلطان والعلو في الأرض، لأن المعصية في هذه الموالاة معصية من درجة الخيانة العظمى للأمة الإسلامية، فيعامل الموالون لليهود والنصارى معاملة أوليائهم في القضايا الإدارية، ولا تكون غالباً هذه

الموالاة موالاة كاملة إلا ممن هم كافرون حقيقة فهم منهم كفراً وخروجاً عن ملة الإسلام.

أما موالاة غير اليهود والنصارى من الكافرين فهي أشد جرمًا، وأعظم إنمًا، ويُطبق هذا الحكم على من يواليهم من باب أولى، لأن النصارى واليهود هم أهل كتاب رباني بوجه عام، وإن كانوا قد حرقوا ونذلوا وغيروا ما أنزل إليهم، فليكر اليهود والنصارى يغني عن ذكر سائر الكافرين.

بعد هذا البيان وصف الله الذين يوالون الكافرين بأنهم ظالمون، ولكن جاء هذا الوصف من خلال دلالة بأسلوب الكناية، دلّت عليها جملة مستأنفة، واقعة موقع التعليل للحكم السابق، فقال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ :

أي: حكم الله على الذين يوالون الكافرين بأن يعاملوا إداريًا من قبل الدولة الإسلامية الرشيدة معاملة الكافرين، لأنهم ارتكبوا ظلمًا هو من أقبح دركات الظلم وأخسها، فاستحقوا أن يبرزوا ويعرفوا دون سائر من يظلم نفسه من المسلمين بأنهم القوم الظالمون، وليس من حكمة الله أن يهدي القوم الظالمين، بأن يتجاوز عن ظلمهم الشنيع، ولا ينزل فيهم الحكم الذي يستحقونه، والذي يحمي به الأمة الإسلامية من أعدائها، ولولا هذه الأحكام المشددة لانقطع نظام الأمة الإسلامية، وانتشر عقدها، فامر موالاة أعداء الأمة الإسلامية من الأمور الخطيرة جدًا، التي إن لم تكن دالة على الكفر الحقيقي، فهي ذات عقوبة في الدنيا تشبه عقوبة الردة عن الإسلام.

وهكذا أبانت هذه الآية من النص فريق المؤمنين الصادقين، وفريق الذين يوالون الكافرين حتى أحط دركات الموالاة، وبقي الذين هم بين الفريقين.

* قول الله عز وجل:

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

ءَامَنُوا أَهْلُؤَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فَأَصْبَحُوا خُسِرِينَ ﴿٥٢﴾

يوجد فريق ثالث وهم الذين في قلوبهم مرضٌ لم يبلغ مبلغ النفاق المميت لها، لأن المنافق كافرٌ في الباطن فهو لا حياة لقلبه، بمقتضى المفهومات القرآنية، فالذين في قلوبهم مرضٌ هم أهل الشك والريب، وضعفاء الإيمان، ومنزلتهم في مراتب المسلمين بين المؤمنين الصادقين، وبين المنافقين الذين استقرؤا في النفاق، وهم في الكفر المكتوم مقيمون.

قوله تعالى:

﴿ فَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ ﴾.

أي: فبعد النهي المشدد عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، نرى أيها الباحث المتفكر فريق الذين في قلوبهم مرضٌ الشك والريب وضعب الإيمان يستدرجون إلى مؤالاة اليهود والنصارى، فيسارعون المشي في مضادقتهم، وإحداث العلاقات معهم، وتبادل الزيارات واللقاءات والمعاملات، حتى دركة عقد صفقات تبادل تناصّر وتعاون، قد تفضي في نهاية المسيرة المتسارعة إلى اتخاذهم أولياء.

فإذا شعروا بوخز الضمير مما يفعلون، طرخوا على أنفسهم السؤال التالي: أليس ما نفعله من الكبائر ونحن مسلمون، وقد نهى الله نهياً مشدداً عن اتخاذ الكافرين أولياء؟

ويجد الشيطان سبيلاً إلى نفوسهم، فيسؤل لهم أن المسلمين لا يقوون على مواجهة جيوش النصارى ومكر اليهود في الأرض، والمسلمون متوجهون لحرب الروم وفتح فارس، فإذا لم نصانع اليهود والنصارى دارت الدائرة المهلكة علينا، فنكبنا في أنفسنا وأهليتنا وأموالنا، مع سائر المسلمين، فيقولون في أنفسهم قولاً يجعل لهم عذراً فيما يفعلون، عبر عنه الله عز وجل بقوله:

﴿ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾:

أي: نخشى أن نصيبنا ذاهيةٌ بشرٌ وسوءٌ نحيط بنا من كل جانب، فلا نجدُ

لأنفسنا نَجاةً مِنْهَا، فإذا كانت لنا بَدْءُ مَصَانَعَةٍ مع اليهود والنصارى اُتِمَّكَ أَنْ نَجِدَ لأنفسنا وأهلينا وأموالنا مخارج سلامة.

وقد أجابهم الله عز وجل عما يقولون في أنفسهم.

﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ، فَيُصِيبُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ تَذِمِيرٌ﴾ ﴿٥٢﴾ :

أي: فَمِنْ الْمَرْجُو أَنْ يَأْتِيَ اللَّهُ بِالْفَتْحِ لِلأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي انتصارات متلاحقات، أو أَنْ يَأْتِيَ بأمر آخر من عنده يُحَقِّقُ به وَعْدَهُ لرسوله والمؤمنين، كالأمر الذي حصل للتتار إذ فتحوا بلاد المسلمين بالقوة العسكرية الغالبة، فَدَخَلُوا فِي الإسلام إعجاباً به.

فإذا وهب الله المسلمين الفتح المبين، أصبح الذين في قلوبهم مرض نادمين على ما كانوا قد أسروا في نفوسهم، إذ قالوا: نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ.

﴿تَذِمِيرٌ﴾ :

أي: كارهين ما كان منهم فيما سبق، مُتَمَنِّينَ لو لم يكن قد حصل، وهذا دليل على أن مرض قلوبهم لم يكن من دركة النفاق.

وحين يكتشف الذين آمنوا حال هؤلاء الذين في قلوبهم مَرَضٌ، وَكَانُوا قَدْ أَقْسَمُوا مِنْ قَبْلِ بَأِيْمَانٍ هِيَ غَايَةُ مَا لَدَيْهِمْ مِنْ أَيْمَانٍ يَحْلِفُونَهَا، مُؤَكِّدِينَ بِهَا أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ مع المؤمنين الصادقين فإنهم يقولون متعجبين:

يَا عَجِباً أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ: إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ، وفي بيان هذه المقولة التعجبية التي يقولها الذين آمنوا حين اكتشافهم حال الذين في قلوبهم مرض وكانوا يظنونهم صادقين في إيمانهم حقاً، قال الله عز وجل:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ .

بعد هذا أَبَانَ اللهُ عز وجل أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مِنَ الرِّيبِ وَالشَّكِّ وَضَعُفِ الْإِيمَانِ، الَّذِينَ لَمْ يَصِلُوا إِلَى دَرَكَةِ الْمَنَافِقِينَ، يُعَاقِبُونَ عَلَى مُسَارَعَتِهِمْ فِي طَرُقِ مُصَانَعَةِ الْكَافِرِينَ بِإِبْطَالِ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي عَمِلُوهَا مِنَ الْأَعْمَالِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي

لم يَعْمَلُوا نفاقاً، وإنما عَمِلُوا مع الشَّكِّ والرَّيبِ وضعف الإيمان، ضمن احتمال كون الإسلام حقاً وصدقاً، وضمن احتمال صدق الوعود التي جاءت في القرآن وفي أقوال الرسول ﷺ، فقال الله عز وجل:

﴿حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٢﴾﴾:

أي: بطلت صالحات أعمالهم الإسلامية بسبب شكهم ومصانعتهم الكافرين، وعدم ثباتهم في موقف الإيمان الصحيح، وبغذ الليل الذي كانوا فيه من ظلمات الشكوك والشبهات وضعف الإيمان يجدون أنفسهم في صباح الحقيقة التي يكتشفونها خاسرين أعمالهم، وأزمانهم التي أمضوها في الباطل، وأعمارهم وطاقاتهم التي ضيعوها فيما لا خير فيه.

• • •

النص الثالث والثلاثون

وهو من سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) أيضاً

«السورة (٢٦) من التنزيل المدني»

الآيات من (٥٧ - ٦٢)

بشأن المنافقين من اليهود

الذين دخلوا في الإسلام منافقين مكرراً وكيداً

• قال الله عز وجل :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمُ
وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُم مَّوْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَن آءَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن
قَبْلُ وَأَنَّا أَكْثَرُكُمْ فَتَسْمِعُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَعَنَ اللَّهُ وَعَظِبَ عَلَيْهِ
وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرَّةَ وَلِلْفَخْزِيرِ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا
جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِم بِاللَّهِ أَغْلَرِيماً كَانُوا يَكْشُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَى كَثِيرًا
مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْأَلْعَامِ وَالْعُدُونِ وَأَكْثِلَهُمُ الشُّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ
الرَّبِّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِنَّمَا وَأكْثِلَهُمُ الشُّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ .

(١)

ما في النص من القراءات المتواترة (من الفرش وبعض الأداء)

• في الآية (٥٧):

(١) قرأ حفص عن عاصم: [هُزُوا] بإبدال همزة «هُزُوا» واواً مع ضم الزاي وصلأ ووقفاً.

وقرأ حمزة: [هُزءاً] بالهمزة مع إسكان الزاي وصلأ فقط، ويقف عليها بنقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها وإبدال الهمزة واواً على الرسم.

وقرأ خلف العاشر: [هُزءاً] بالهمزة مع إسكان الزاي وصلأ ووقفاً.

وقرأ باقي القراء العشرة: [هُزءاً] بالهمزة مع ضم الزاي وصلأ ووقفاً.

وهذه وجوه من الأداء في نطق الكلمة ضمن اللهجات العربية.

(٢) قرأ أبو عمرو، والكسائي، ويعقوب: [وَالْكَفَّارِ] بالجر عطفأ على الموصول في قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

وقرأ باقي القراء العشرة: [وَالْكَفَّارِ] بالنصب، عطفأ على الموصول في قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوا وَلَعِباً﴾.

وفي القراءتين تكامل فكري، وذلك لأن من الكفار من غير أهل الكتاب من اتخذوا دين الإسلام لهُواً ولَعِباً، ومنهم من لم يفعل ذلك، وكل من الفريقين لا يجوز للمؤمنين أن يتخذوا منهم أولياء.

• في الآية (٥٨):

توجد في كلمة [هُزُوا] القراءات التي سبق بيانها في نظيرتها من الآية (٥٧).

• في الآية (٦٠):

(١) قرأ جمهور القراء العشرة: [وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ] بفتح الباء والذال من [عَبَدَ]

ونُصِبَ [الطاغوت] على أَنْ «عَبَدَ» فعل ماضٍ.

وقرأ حمزة فقط [وَعَبَّدَ الطَّاعُوتَ] بِضَمِّ الباء وفتح الدال من [عَبَّدَ] وَجَرَّ [الطَّاعُوتَ]. قال الأزهري: والمعنى فيما يقال: وَخَادِمَ الطَّاعُوتِ.

أقول:

واسم الجنس إذا أضيف يغم، فالمعنى: وَعَبَّادُ الطَّاعُوتِ.

وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني، فالذين عَبَّدُوا الطَّاعُوتِ، أي: الطواغيت، يَكُونُونَ عِبَاداً وَخُدَّاماً لِلطَّوَاعِيتِ.

• في الآية (٦٢) والآية (٦٣):

(١) قرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، وخلف: [السُّحْتِ] بِإِسْكَانِ الحاء.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو جعفر، ويعقوب [السُّحْتِ] بِضَمِّ الحاء. والقراءتان وجهان عربيان لنطق الكلمة.

(٢) للقرءاء في: [قَوْلِهِمْ] وفي [أَكْلِهِمْ] وجوه من الاداء:

فقرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر الهاء والميم وصلأ. وقرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بضم الهاء والميم وصلأ، وقرأ باقي القراء العشرة، بكسر الهاء وضم الميم وصلأ، أما في الوقف فكلهم يكسرون الهاء ويسكنون الميم.

(٢)

موضوع النص وسبب نزوله

يشتمل هذا النص على نهى الله عز وجل الَّذِينَ آمَنُوا عَنْ اتِّخَاذِ أَوْلِيَاءٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ (والسياق يتحدث عن اليهود) أَوْ مِنَ الْكُفَّارِ الْآخَرِينَ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ، كاشفاً من صفاتهم أَنَّهُمْ اتَّخَذُوا دِينَ الْإِسْلَامِ شَيْئاً يَسْتَهْزِئُ بِهِ، وَلُعَبَةً يُلْعَبُ بِهَا، كَأَنَّهُ خِرَافَةٌ مِنَ الْخِرَافَاتِ، وَأَمْرٌ لَا يَشْتَمِلُ عَلَى حَقَائِقَ، حَتَّى يَتَعَاطَلُوا مَعَهُ بِطَرِيقَةِ جَادَةٍ، مَعَ أَنَّهُ دِينَ اللَّهِ الْمُؤَيَّدُ بِالْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ، وَالْمَشْتَمَلُ عَلَى الْحَقَائِقِ الْجَلِيلَاتِ، وَالْبِرَاهِينِ الدَّامِغَاتِ.

ولمّا كان الدخول في الإسلام نفاقاً هو من الاستهزاء واللّعب بدين الله ، وكان من اليهود من دخلوا في الإسلام نفاقاً ، وما زالوا يكيدون الإسلام وهم بين صفوف المسلمين ، وقلوبهم قلوبٌ يهودية ، وجدنا هذا النصّ يكشف هذه الخيانة من خياناتهم باعتبارهم من أهل الكتاب المعنيين في النصّ ، ويحدّر المؤمنين من أن يتخذوا منهم أولياء ، باعتبارهم من اليهود باطناً وإن كانوا مسلمين في الظاهر ، فأمارات نفاقهم تدلّ على حقيقتهم .

أما سبب النزول فلم أجده في المرويات التي لم تبلغ مبلغ الصحيح ما يصلح أن يكون سبباً ظاهراً مباشراً لنزول هذا النصّ أو شيء منه ، وذلك لأنّ اليهود الظاهريين لم يبق لهم وجودٌ يكون مشكلة واضحة من بعد إجلاء اليهود عن المدينة والتخلّص من بني قريظة ، وسقوط خيبر في أوائل سنة سبع للهجرة ، وسورة (المائدة) قد نزلت بعد السنة الثامنة للهجرة غالباً ، لكنّ القرآن استمرّ يحذّر المؤمنين من مكاييد اليهود وسائر أهل الكتاب ، نظراً إلى أنهم ستكون لهم معهم مستقبلاً علاقات كثيرة حربية وسلمية ، فيجب عليهم أن يلتزموا تعاليم الله في التعامل معهم ، ويتبعوها ، حتّى لا يظنّوا أنّ متاعبهم مع اليهود قد انتهت بالتخلّص منهم في المدينة ، أو تنتهي بإجلالهم من جزيرة العرب ، فمشكلة المسلمين مع اليهود وسائر أهل الكتاب مشكلة مستمرة .

* * *

(٣)

المفردات اللغوية في النصّ

﴿ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا ﴾ :

أي : جعلوا دينكم شيئاً يهزأ به ويُسخر منه . ولَعِبٌ يَلْعَبُونَ بها .

الهُزْءُ - وَالْهُزُؤُ : السُّخْرِيَّة . يُقَالُ : هُزِئَ به وهُزِيَ منه . وَيُقَالُ : هَزَأَ به وهَزَأَ منه ، ويقال : هَزِئَ به وهَزِيَ منه ، أي : سَجَرَ منه .

اللَّعِبُ : ضِدُّ الجَدِّ ، يقالُ لَعْفٌ : لَعِبَ يَلْعَبُ لَعِبًا وَلَعِبًا . ويقال لكلّ من يعمل عملاً لا يجدي عليه نفعاً إنّما أنت لاعب .

والمعنى جعلوا دينكم شيئاً مهزوءاً به ، ومُلعوباً به ، فهو من إطلاق المصدر على

اسم المفعول، أو جعلوا أصل دينكم صورة من صور الهزل واللُّعب، فاعتبروا الصلاة مثلاً وبعض أعمال العبادات شكلاً من أشكال اللُّعب، وزعموا أن الغرض من الدين السُّخرية من الناس.

ومن اتَّخَذَ الدِّينَ هُزْواً ولعباً الدخولُ فيه نفاقاً، كأنه شيء صالح لأنَّ يُلْعَبَ به، ويُسَخَّرُ منه، مع أنَّ الدِّينَ كله جدُّ لا هزل فيه، إذ يَرْتَبِطُ به مصيرُ الإنسان، إمَّا إلى الجَنَّةِ وإمَّا إلى النار، وقَضِيَّةُ الدِّينِ قضية الرِّبِّ الخالق، وهل هذا شيء يصحُّ أن يُلْعَبَ به؟ هل يدخل الإنسان في النار لهواً ولعباً.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾:

أي: لا يعقلون أهواءهم وشهواتهم بإرادة حازمة عن التَّعرُّض لعذاب الله بارتكاب معصيته. ولا يعقلون في مراكز المعرفة لديهم الحقائق الخطيرة التي يرتبط بها مصيرهم من قضايا الدين.

﴿هَلْ تَتَّقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنَّا آمَنَّا بِاللَّهِ...﴾:

أي: هل تَكْهِنُونَ مِنَّا إِلَّا إيماننا، وهل تُتَكَبَّرُونَ علينا شيئاً آخر غَيْرِهِ.

يُقَالُ لغة: نَقِمَ الشَّيْءَ وَنَقَمَهُ إِذَا انْكَرَهُ وَكَرِهَهُ.

﴿مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾:

الْمَثُوبَةُ جَزَاءُ الْعَمَلِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، أَوْ شَرًّا فَشَرٌّ.

﴿الطَّافُوتُ﴾:

كثير الطغيان، وكلُّ رأسٍ في الضلال، ويطلق على الشيطان، وكلِّ ما عُبِدَ من دون الله (يستوي فيه الواحد وغيره). وقد يجمع على طواغيت.

﴿وَأَصْلُهُمُ السُّحَّتُ﴾:

السُّحَّتُ والسُّحْتُ: كُلُّ مَنْكَبٍ حَرَامٍ كَالرَّشْوَةِ، وَالرِّبَا وَالسَّرَقَةِ، وَأَكْلَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، وَسُمِّيَ سُحْتًا لِأَنَّهُ يَسْحَتُ الْبَرَكَةُ أَي: يُذْهِبُهَا. وَأَصْلُ السُّحْتِ قَشْرُ الشَّيْءِ قَلِيلاً قَلِيلاً، وَيُطْلَقُ السُّحْتُ عَلَى الْعَذَابِ.

(٤)

مع النص في التحليل والتدبر

* قول الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا هُزُوءًا وَلِعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُوءًا وَلِعِبًا ذَلِكَ يَأْذَنُهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾

يظهر لي من السياق أن الله عز وجل يحذر بأسلوب عام من اتخاذ اليهود والنصارى، واتخاذ الكفار الآخرين من غير أهل الكتاب أولياء، لأنهم أعداء، ويخص بالذكر المنافقين منهم، ولا سيما اليهود، وأحلافهم من منافقي المشركين، فالمنة الزمنية التي نزلت فيها سورة (المائدة) قد بقيت فيها مشكلة المنافقين من اليهود والمشركين هي المشكلة البارزة، بعد أن اضمحلت مشكلات عداء القبائل اليهودية والمجاهرة بعدائها، ومشكلات مشركي الحجاز المجاهرين بكفرهم وعدائهم.

فمن خلال العبارة العامة ينهى الله الذين آمنوا عن موالاة أهل الكتاب، لأنهم لم ينظروا إلى الإسلام على أنه دين رباني، فاتخذوه هزواً ولعباً، متهمين الرسول بأنه يهزأ بعقول الناس، ويلعب بهم، وينهاهم أيضاً عن موالاة الكفار بوجه عام أيضاً، لأنهم يعادون هذا الدين، ويعادون الرسول والمؤمنين، فجاءت قراءة نصب كلمة [وَالْكُفَّارَ] دالة على هذا العموم.

ومن خلال دلالة السياق ينهى الله الذين آمنوا عن موالاة خصوص المنافقين من أهل الكتاب ولا سيما اليهود، لأنهم دخلوا في الإسلام مستهزئين لاعبين، متجذبين دين الله شيئاً يستهزأ به ويلعب. وينهاهم أيضاً عن موالاة المنافقين من سائر الكافرين، ولا سيما المشركون، لأنهم في ذلك الوقت كانوا النسبة الأكثر من المنافقين، مع أحلافهم من منافقي اليهود، فجاءت قراءة جر كلمة [وَالْكُفَّارَ] دالة على هذا الخصوص، لأنهم بنفاقهم قد اتخذوا دين الله شيئاً يستهزأ به ويلعب، كما فعل المنافقون من اليهود.

وربما يتساءل بعض الناس: كيف نعرف المنافقين حتى لا نتخذهم أولياء؟

ونجيب بأنّ الأمارات والصفات التي يتصرفون بها، وقد أعلمنا الله بها، في مختلف النصوص، كافية لأن تدلّ عليهم، فيحذرهم المؤمنون، ولا يتخذوا منهم أولياء.

ولما كانت مخالفة هذا النهي معصيةً لأنه نهْيٌ تحريم، وليس مجرد نهْيٍ إرشاد قال الله عزّ وجلّ بعده:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّكُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٧﴾

أي: فإذا اتخذتُم منهم أولياء، عرضتُم أنفسكم لعقاب الله، ولم تتخذوا وقاية منه بالطاعة.

وقيد: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ فيه استشارة إيمانهم لالتزام طاعة الله، والمعنى: إن كنتم مؤمنين حقاً صادقين في إيمانكم كان إيمانكم باعثاً على تقوى الله بطاعته، فأنتم حينئذٍ تتقون الله ولا تتخذون منهم أولياء.

وقد تكرر هذا الأسلوب في القرآن، وهو على معنى: واتقوا الله وأنتم ستقونه ما استطعتم إن كنتم مؤمنين حقاً وصدقاً ملتزمين بمقتضاه.

وجاء استعمال حرف الشرط «إن» التي تُستعمل عادة في المشكوك فيه، إشارة إلى أن جمهور المؤمنين يغفلون عن الالتزام بهذا التعليم الربّاني، والعمل بطاعة الله في عدم اتّخاذهم المنافقين أولياء، لأنهم مخالطون مداخلون، ولهم ضمن المؤمنين علاقات قريبي، ومصاهرة، وغير ذلك من العلاقات الاجتماعية.

وأبان الله عزّ وجلّ من مظاهر اتّخاذهم دين الإسلام هزواً ولعباً، أنهم إذا سمعوا النداء إلى الصلاة اتّخذوا الصلاة هزواً ولعباً، أي: قاموا إلى الصلاة نفاقاً مستهزئين بمن يؤدّبها بصدق من المؤمنين، ومشاركين في أداؤها مشاركة اللاعب بالحركات، لا مشاركة المؤمن بطاعة الله والصلة به في أداؤها، فقال الله تعالى:

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُوءاً وَلَعِباً﴾

وأشارت عبارة ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ﴾ إلى أنهم لا يصلّون إذا لم يكونوا معكم ويسمعوا نداءكم للصلاة.

وأبان الله عز وجل سبب اتخاذهم دين الله هزواً ولعباً، فقال تعالى :

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٥٨).

المشار إليه بـ ﴿ذَلِكَ﴾ اتخذهم الدين هزواً ولعباً.

﴿بِأَنَّهُمْ﴾ : أي : بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فقسّم منهم لا يعلمون قيمة الدين، ولا يدركون ما سيلاقون من مصير عند ربهم، لأنهم لم يريدوا أن يعقلوا المعارف الدينية وحججها وبراهينها، مع أن الرسول والدعاة إلى الله بلغوهم إياها، ومع وجودها في كتاب الله الذي عليهم أن يقرؤوه ويتدبروه، وهؤلاء هم المنافقون من المشركين. وقسّم منهم لا يعقلون بإرادات حازمات أهواءهم الانانية المقيتة، وهم المنافقون من اليهود، فمنهم من يعلم قيمة الدين، ولكن كرهوا أن يتبعوا رسولاً من غير بني إسرائيل، وينهاهم عن اتباع أهوائهم وشهواتهم، ويصحح ما حرفوا من دين الله.

* قول الله عز وجل :

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَتَّقُونَ إِنَّا لَا أَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّا أَكْثَرُ فَاسِقُونَ﴾ (٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرَّةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (٦٠).

في الآية (٥٧) نهى الله الذين آمنوا نهى تحريم عن أن يتخذوا أولياء من الذين اتخذوا دين الإسلام لهواً ولعباً من أهل الكتاب، سواء أكانوا مجاهرين بكفرهم، أو منافقين مخالطين يكيدون وهم ضمن صفوف المؤمنين، فدل هذا على أنهم أعداء، يكرهون إيمان المؤمنين بالإسلام، ويكرهونه عليهم، فهم يتقنون بنهم ذلك، فافتضى حالهم أن يوضعوا موضع المناظرة والمجادلة بالتي هي أحسن، فعلم الله رسوله وكل

مؤمن قادر على مجادلتهم للإقناع أو للإفحام والإلزام، أن يطرح عليهم سؤالاً عن سبب نقتلهم من المؤمنين، وكراهيتهم لطريقتهم، وما يُنكرونه عليهم.

والسؤال هو: يا أهل الكتاب (أي: يا من تدعون أنكم تؤمنون بكتاب من عند الله منزّل على رسول من رسله موسى أو عيسى عليهما السلام) أي شيء تنقّمون منا، كارهينّه بنا، أو منكرينه علينا، فنحن لا نجد شيئاً يُمكن أن تُنكروهُ إن كنتم أهل كتاب ربّانيّ حقيقة، وذلك لأننا آمنّا بالله، وأنتم تزعمون أنكم آمنتم بالله، ونحن آمنّا بما أنزل إلينا من لدن ربنا على رسول من رسله مؤيد من قبّله بالمعجزات والآيات البينات، كما أنكم آمنتم بما أنزل إليكم من ربكم على رسول من رسله، ونحن آمنّا بكل ما أنزل من قبل عن الله عز وجل على أي رسول من رسل الله، فلم نكفر بما أنزل إليكم، حتى يكون كفرنا به مثيراً لنقمتكم؟!!

فهل في كلّ هذا داعٍ لأن تنقّموا بنا؟!!

بقي شيءٌ أخير يمكن أن يكون سبب نقمتكم هو أن رسول هذا الدين الذي آمنّا به ليس من بني إسرائيل، وهذا شيء قد أغضبكم من ربكم لأنكم فاسقون، فنقمتم منا اتباعه، وأن هذا الذين قد كشف تحريفاتكم في دين الله، وجاء بالحق، وهذه التحريفات قد أدخلتموها في دينكم اتباعاً للأهواء والشهوات، وطاعةً لكبرائكم، بسبب أنكم فاسقون، فنقمتم منا أن نستقيم على دين الله الحقّ مخالفين طريقتكم التي هي نتيجة فسقكم، لا ثمرة تدينكم بدين الله الحق، فإن كان هذا هو الذي تنقّمونه منا فليس سببه أننا مخطئون أو مخالفون منهج الحق والصواب، ولكن سببه أن أكثركم فاسقون، ولا نقول لأن جميعكم فاسقون لأن منكم من أسلم معنا إسلاماً صحيحاً صادقاً، وآمن بما آمنّا به، فهو منا، وإن كان هو أيضاً من أهل الكتاب باعتبار ما كان عليه، قبل أن يدخل في الإسلام.

هذه المناظرة الجدلية قد جاء التعليم القرآني لها على طريقة تسليم مفاتيح أبوابها، وترك تفصيلات عناصرها للرسول، وللمؤمن العالم الحصيف الكفّ من بعده.

فمفتاح الباب الأول: هل تنعمون منا أن آمنّا بالله؟ فإن قالوا: لا، جاء دور الباب الثاني.

ومفتاح الباب الثاني: هل تنعمون منا أن آمنّا بما أنزل إلينا من ربنا، وكل ما أنزل من قبل من لدنه؟ فإن وصل المناظر معهم إلى أن هذا لا يستدعي نعمتهم، واعترفوا بذلك، جاء دور الباب الثالث.

ومفتاح الباب الثالث: هل تنعمون منا أن آمنّا بالرسول محمد النبي العربي، المتصل نسه بإسماعيل بن إبراهيم. وخالفناكم في تحريفاتكم في دين الله؟

وهنا تحتم المناظرة، والمناظر الكفء قادر على أن يُنعمهم أو يُلزمهم أو يفحمهم أخيراً بأن السب لا يرجع إلى أن المؤمنين بالإسلام على باطل، ولكن يرجع إلى أن الكافرين بالإسلام من أهل الكتاب هم المبتلون، بسبب أنهم فاسقون، دفعهم فسقهم إلى إنكار الحق وجحوده، والإصرار بعناد على التمسك بتحريفاتهم التي يرضون بها أهواءهم وشهواتهم وكبراءهم.

وهذا الباب الثالث لم يُقط النص القرآني مفتاحه صراحةً، بل أشار إليه بالتنبيه على إقفاله بعد جولات المناظرة، التي تنتهي بإقناعهم أو إلزامهم أو إفحامهم، ويتم إقفال المناظرة بدمغهم بأن أكثرهم فاسقون، وأكثرهم هم الذين لم يُسلموا أصلاً، أو كانوا في إسلامهم منافقين.

فجاء التعليم حاصراً المناظرة بثلاث جولات كبرى:

الجولة الأولى: عنوانها: هل تنعمون منا أن آمنّا بالله؟!

الجولة الثانية: عنوانها: هل تنعمون منا أن آمنّا بما أنزل إلينا وما أنزل من قبل؟!

الجولة الثالثة: قفلها عند الانتهاء منها: علّتكم أن أكثركم فاسقون.

وقد أشكل على المفسرين قوله تعالى:

﴿وَأَنَّا أَكْثَرُكُمْ فٰسِقُونَ﴾.

لدى حصر أسباب نعمة كفر أهل الكتاب من المؤمنين، إذ فسق أهل الكتاب ليس من كسب المؤمنين حتى ينقموا منهم بسببه، وقد ندّ عنهم أن يُذركوا أن الله

عَزَّوَجَلَّ يُعْطِي المناظر المجادل من المؤمنين إشارات لجولات المناظرة، فالجولتان الأولى والثانية أعطاه الله مفتاحيهما، والآخرى أعطاه الله قفلها.

فالتعليم الذي بدأه الله بقوله:

﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ﴾.

قد جاء حَصْرُ مناظرة المناظر لهم فيه بقوله:

﴿هَلْ تَنقِمُونَ﴾:

أي: هل تَنْكُرُهُونَ وَتَنْكِرُونَ منا ﴿إِلَّا﴾ واحداً من أمور ثلاثة:

(١) ﴿أَنَّا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾.

(٢) ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾.

(٣) وإيماننا بمحمد النبي الرسول العربي الذي ليس من بني إسرائيل،

وما جاء به من كشفٍ لتحريفاتكم في دين الله، وهذا أمرٌ لا نَعَابُ عليه نَحْنُ، بل تُعَابُونَ أُنْتُمْ عليه، إذ لم تؤمنوا به ولم تتبعوه ﴿و﴾ علنكم ﴿أَن أَكْثَرُكُمْ فَايْقُنُونَ﴾.

ولا شك أن هذا أسلوبٌ من الإيجاز عجيب، وهو فنٌ من فنون البيان، ويُعَبَّرُ بغض كبار المربين بنظيره.

ومن الأمثلة أن يَشْتَكِي طلابٌ من مادةٍ مقرَّرةٍ عليهم، فيأتي المدير أو عميد

الكلية فيقول لهم، ماذا تشتكون؟ إنكم لا تَشْكُونَ إلا:

(١) من أستاذها الذي هو أفضل الأساتذة في نظر الجميع.

(٢) أو من الكتاب الذي هو أفضل كتب المواد الدراسية.

(٣) أو من المادة نفسها التي يجب أن يتعلَّمها الطلبة في نظر جميع المربين.

(٤) أو من بناء المدرسة وحجرة الفصل الدراسي التي تدرسون فيها، وهي

أفضل حجر المدرسة على الإطلاق.

(٥) أو من أنكم كُسالَى لا تَجِبُونَ أَنْ تَبْذُلُوا جُهْداً لتعلَّم ما ينفعكم وينفع أمتكم.

وهذا أسلوب من الإلجاء لردّ شكواهم على أنفسهم، فقد كان الحق أن يشتكوا من أنفسهم، لا من غيرهم.

وعلى هذا الأساس نفهم أنه كان من الحق أن ينقم أهل الكتاب من أنفسهم بسبب أن أكثرهم فاسقون، لا أن ينقموا من المؤمنين الذين آمنوا بالرسول الخاتم، وبالدين الذي لم يدخل فيه تحريف ولا تبديل.

وبعد إقفال باب المناظرة بإدانتهم بأن أكثرهم فاسقون، يأتي دور إنذارهم بعذاب الله على فسقهم، على سبيل موعظتهم بالترهيب، وأن مكائهم عند الله يوم الدين سيكون مكاناً شراً وضراً وعقاباً أليماً.

وقد طوّى النصّ توجيه الداعي المؤمن لهذا، اكتفاءً بتوجيهه لأن يبين لهم طرفاً من حال بعض أسلافهم الذين كانوا شراً منهم مكاناً، وأضلّ عن سواء السبيل، من عبّدهم الطاغوت، ولعنّه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير، على سبيل العقوبة المعجّلة من جملة عقوباتهم.

والترية هنا تربية بالتوجيه للاعتبار بما جرى للكفار من أسلافهم، الذين تماذوا في الإثم والفسق ومعاندة الحق والمكابرة بالباطل.

فقال تعالى للمناظر الداعي :

﴿ قُلْ هَلْ أَنْتُمْ مُنْكَم ﴾ :

أي : يا أهل الكتاب، والخطاب مع واحد منهم هو من جرّث معه المناظرة السابقة :

﴿ يَشْرِكُونَ ذَلِكَ مُتُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ ﴾ :

أي : بما هو أشدّ عقوبة عند الله من ذلك الفسق الذي أنتم الآن عليه، والذي جعلكم تنقمون منا؟

هذا السؤال يتطلب جواباً، ولو لم يقل المناظر منهم أنبئنا.

والجواب :

﴿ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ :

أي: من أسلافكم من اليهود المذكورين في تواريتكم.

﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ﴾:

أي: من جملة الملعونين المغضوب عليهم:

﴿الْقِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾.

وكان قد مسح الله فريقاً من كفرة اليهود قردةً وَخَنَازِيرَ، وهلكوا دون أن يكون لهم ذُرِّيَّةٌ بعد مسحهم ﴿وَمِنْ﴾ ﴿غَبَذَ الطَّاغُوتُ﴾ من أسلافكم تاركاً عبادة الله، فهؤلاء أشد عقوبة عند الله أيضاً من فُسَاقِكُمْ.

وجمع الله هؤلاء المشار إليهم من أسلاف اليهود المخاطبين بقوله:

﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (١٦).

أي: أولئك البعداء عن رحمة الله من أسلافكم شَرٌّ مَكَانًا منحطاً سافلاً منكم، وأكثر ضللاً وَبُعْداً عن سواء السبيل.

سواء السبيل: هو وسط سبيل الله المستقيم، إِنَّ السبيلَ المستقيمَ يُحْسَبُ من وسطه فهو أعدلُه وأعلاه، والبعدُ عنه يُقَاسُ بِالْبُعْدِ عن وسطه من ذات البعين، أو ذات الشمال.

وفي بيان هذا عن أسلافهم تحذيرٌ لهم من اتباع طريقتهم لئلا ينزل بهم من عقاب الله ما نزل وسينزل يوم الدين بأولئك البعداء عن رحمة الله من الأسلاف الأخيار.

وقد صحَّ عن النبي ﷺ قوله: «إِنَّ اللهَ لم يُهْلِكْ قوماً أَوْ قال لم يُفْسَخْ قوماً فيجعل لهم نسلاً ولا عقباً، وَإِنَّ القردة والخنازير كانت قَبْلَ ذلك».

* قول الله عز وجل:

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِدْعِ اللَّهِ عَلَيْهِمُ أَنْ يَكُونُوا يُكْفَرُونَ

﴿١٦﴾ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسِرُّونَ فِي الْأَثَرِ وَالْعُدُونِ وَأَكْثِلُهُمُ الشُّحْتُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١٦)

لَوْلَا بَيِّنَتُهُمُ الرَّتَبِيَّتُونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٦﴾ .

أخذ البيان بهذا يكشف هُويَّةَ المقصودين الأولين بعمومات النص سابقاً، فهم منافقون من اليهود، وهم الذين يشير إليهم النص بالدرجَةِ الأولى، مع من يشاركونهم في صفاتهم من سائر أهل الكتاب، والمشرّكين من المجاهرين بكفرهم ومن المنافقين .

فأله يخاطب الذين آمنوا فبيّن لهم أَنَّ المقصودين الأولين بالنهي عن اتّخاذهم أولياء من أهل الكتاب، من صفاتهم أَنهم إذا جاءوكم قالوا: آمَنَّا، وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ، والله أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ .

وهذه صفة المنافقين، فهم الذين يدخلون في الإسلام ظاهراً، ويدْعُونَ كاذِبِينَ أَنَّهُمْ آمَنُوا، مع أَنهم حين دخلوا في الإسلام كانوا مُصاحِبِينَ للكفر به في باطنهم وسِرِّهم، ومنذ دخلوا في الإسلام مصاحِبِينَ للكفر فقد خرجوا منه فوراً مصاحِبِينَ للكفر أيضاً، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يَقْبَلُ إسلاماً في الظاهر مصاحباً لكُفْرٍ في الباطن، إنَّ طبيعة الإسلام الحقَّ لا تقبل تلقائياً مُسْلِماً مزيفاً كاذباً، فمن دخل كذلك نفته فوراً وأخرجته، من دخل وفي باطنه الكفر، أخرجته مطروداً وفي باطنه الكفر، لأنَّ الإسلام هو دين الله، والله أعلم من كلِّ عليم حتى من أنفسهم بما يكتُمون من كفر، كيف يقبلهم الله مسلمين، وقد أسلموا بالسُّتْم كاذِبين مخادعين؟

إذا استطاعوا أن يَخْدَعُوا عوامَ المسلمين فهل يستطيعون أن يخدعوا الله العليم بما في صدورهم وسرائرهم .

وكشف الله من الظواهر الدالَّة على نفاقهم أَنهم يندفعون بسرعة سيراً في سُبُل الإثم والعدوان وأكل المال الحرام، فقال الله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتُ ﴾ :

أي: وتَرَى أَيُّهَا الرَّائِي المتبَّع لأحوالهم المراقب لسلوكهم، أَنَّ كثيراً مِنْهُمْ لا يملكون أنفسهم في المحافظة على السلوك الذي يفرضه عليهم تظاهُرُهُم بالإسلام، مخالفين مقتضيات كفرهم في قلوبهم، الذي يدفعهم بقوة إلى ممارسات الأعمال التي

تدخل تحت عنوان الإثم، والأعمال التي تدخل تحت عنوان العدوان، والأعمال التي تدخل تحت عنوان أكل السحت.

الإثم: هو في اللغة الذنب، وهو في الاستعمال القرآني يشمل كل المعاصي التي نهى الله عنها، بدءاً من صفاتها حتى أكبر كبرائها.

العدوان: الظلم، وتجاوز الحد المأذون به، وهو مصدر عدا عليه بمعنى ظلمه، تقول: عدا عليه يعدو غدواً، وعدواً، وعدواناً وتعداءً.

والجمع بين الإثم والعدوان يُشير إلى أن المراد من العدوان ما يكون ظلماً واعتداءً على حقوق الآخرين من خلق الله.

أكل السحت: هو تملك المال الحرام، وسُمي تملك المال الذي يحرّم تملكه ولو كان برضى باذله أكلاً، لأن الأكل اعظم ما تستهلك به الأموال، وأخذ المال الحرام يجزئ على أن يأكله ويبيني به جسمه، مع أنه قد يتعرض بأكله له لعذاب السحت، وهو الاستئصال، أو القشر شيئاً فشيئاً.

ومن تملك المال الحرام بإذن باذله الرشوة والرّبا، وأجرأ الناس على أخذ الرشوة وأكل الربا اليهود، والمنافقون في المسلمين من اليهود هم في الباطن يهود.

وقد ذمّ الله عز وجل كل عملهم السابق فقال تعالى:

﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢)

أي: لقد كانوا قبل أن يدخلوا في الإسلام منافقين أصحاب أعمال سيئة في اليهودية، عنوانها: «لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

وأبان تعالى أنهم حين كانوا يهوداً ظاهراً وباطناً، لم يكن الذين يزعمون أنهم ربّانيون من اليهود، والذين يُقال لهم أحبار منهم يهودونهم عن قولهم الإثم، ولا عن أكليهم السحت.

الربّانيون: هم العبّاد عن علم.

الأحبار: هم العلماء بالدين اليهودي، المفرد «خبير» بفتح الحاء وكسرها، والفتح أغلب وأشهر.

فقال تعالى :

﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ :

أي : هَلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ الَّذِينَ هُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَاطِنِ عَنْ قَبِيحَتَيْنِ ظَاهِرَتَيْنِ مِنْ قَبَائِحِهِمْ ، هُمَا قَبِيحَةُ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ ، وَقَبِيحَةُ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ ، وَمِنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ إِعْلَانُهُمُ الْإِسْلَامَ وَإِبْطَانُهُمُ الْكُفْرَ .

وَأخِيرًا ذَمَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ ، فَقَالَ تَعَالَى :

﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ .

وانتهى النص



النص الرابع والثلاثون

من سورة (التوبة / ٩ مصحف / ١١٣ نزول)

«السورة (٢٧) من التنزيل المدني»

ولم ينزل بعدها من السور إلا سورة «النصر»

الآيات من (٤٢ - ١٢٩ آخر السورة)

حول عدّة ظواهر سلوكية للمنافقين

بمناسبة أحداث غزوة تبوك وأخرى إبانها

وتشتمل دراسة هذا النصّ على قسمين:

القسم الأول: مقدمات حول أحداث غزوة تبوك وما رافقها.

القسم الثاني: دراسة النصّ دراسة تدبرية.

وهو مفصّل على سبعة عقود.

القسم الأول

مقدمات حول أحداث غزوة تبوك وما رافقها

قبل دراسة هذا النص الرابع والثلاثين وهو من سورة (التوبة) / ٩ مصحف / ١١٣ نزول). الآيات من (٤١ - ١٢٩ آخر السورة) أقدم مقدمات يستدعي تدبر النص تقديمها.

إن هذا النص الموضوع للدراسة التدبرية يشتمل على بيانات متعدّات فضحت المنافقين، بمناسبة الأحداث التي اشتملت عليها غزوة تبوك، التي كان خروج الرسول والمؤمنين إليها في شهر رجب من سنة تسع للهجرة، وبمناسبة الأحداث التي كانت قبيلها ونعّذها حتى نزول سورة (التوبة).

ومع أن بعض هذه الآيات يشتمل على بيانات لا تتعلق بالمنافقين، فقد أثرت وضع النص كلّ للدراسة، لأن الحديث عن المنافقين وظواهرهم السلوكية وجزائهم، يستدعي الحديث عن المؤمنين وثوابهم عند ربهم، وهو ما اشتملت عليه الآيات التي لا تتعلق بالمنافقين من هذا النص الذي يُعادل ثلثي السورة تقريباً، أمّا ثلثها الأول فهو يتعلّق بالمشركين، والبراءة منهم ومن عهدهم، وأحكام تأمينهم وقتالهم، ومنعهم من أن يقربوا المسجد الحرام، وقتال الكافرين من أهل الكتاب، وعرض بعض كفرياتهم، ومكابدهم ضدّ الإسلام، وصور من سلوك أبحارهم وربهانهم، وعرض بعض تحريفات المشركين، وحثّ المؤمنين على القتال، وتلويهم على الشاغل والتباطؤ، تمهيداً للدخول في التوجيهات والتعليقات النافعات بمناسبة أحداث غزوة تبوك، وما رافقها، أو حدث إبانها، أو قبيلها، أو بعديها.

موجز غزوة تبوك

(١)

تاريخ هذه الغزوة

وقعت هذه الغزوة في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة، وهي آخر غزوة غزاها الرسول ﷺ.

وفي هذه السنة حجَّ أبو بكر رضي الله عنه بالمسلمين، فقد أمَّره رسول الله ﷺ على الحجيج عامئذٍ.

وفي السنة العاشرة حجَّ الرسول بالنَّاس حُجَّةَ الوداع. وفي يوم الاثنين من أوائل شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة توفي رسول الله ﷺ.

* * *

(٢)

السبب الداعي

تواردت الأنباء إلى الرسول ﷺ بأنَّ الروم قد جمعوا الجُمُوع لغزوه، والقضاء عليه وعلى المسلمين في المدينة، وكان من حكمة الرسول العسكرية أن يَغْزُوَ القوم الَّذِينَ يُعَدُّونَ الْعُدَّةَ لغزوه، وَيَهْمُونَ بِمِاِغَتِهِ، قبل أن يَغْزَوْه.

* * *

(٣)

الأمر بالتهيؤ للخروج

وجَّه الرسول ﷺ أمره للمسلمين بأن يتهيؤوا لغزو الروم الذين يُعَدُّونَ ما يلزم لغزو المسلمين، حتَّى لا يجعل للروم مطمعا في أن يَلْجُوا بجيوشهم في جزيرة العرب، التي بدأت تجتمع قواها تحت راية الإسلام.

وكان الوقت الذي وجَّه الرسول فيه أمره وَقْتُ عُسْرَةٍ، وَحَرٍّ شَدِيدٍ، وَأَرْضٍ مُجْدِبَةٍ لا خضرة فيها إذا خرجوا إلى البوادي، بينما طابت الثمار في البساتين

والأشجار، والنَّاسُ يُحِبُّونَ المَقَامَ فِي ثَمَارِهِمْ وَظِلَالِهِمْ، ويكرهون الأسفار، فكيف يكون الحال إذا كانت الدعوة إلى غزوٍ وقتال، وهم في هذه الحال.

وكان من سياسة الرسول الحكيمة أَنَّهُ قَلَّمَا يَخْرُجُ فِي غَزْوَةٍ إِلَّا كَثُرَ عَنْهَا وَلَمْ يُصْرَحْ بِوَجْهَتِهِ، وَرَبَّمَا أَشْعَرَ بِالتَّوَجُّهِ لِحُجَّةٍ مَا دُونَ تَصْرِيحٍ وَلَا تَكُونُ هِيَ وَجْهَتَهُ، تَعْبِيَةً عَلَى الَّذِينَ يَتَوَجَّهَ لَغَزْوِهِمْ، وَهَذَا مِنْ قَوَاعِدِ الْحِكْمَةِ فِي أَصُولِ السِّيَاسَةِ الْحَرَبِيَّةِ، بِاسْتِثْنَاءِ غَزْوَةِ تَبُوكَ، فَإِنَّ الرُّسُولَ بَيَّنَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُسْلِمِينَ وَجْهَتَهُ، وَذَلِكَ لِبَعْدِ الْمَسَافَةِ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَأَطْرَافِ الْبِلَادِ الَّتِي يَحْكُمُهَا الرُّومُ عِنْدَ تَبُوكَ، وَلَشِدَّةِ الزَّمَانِ، وَلَكثْرَةِ الْعَدُوِّ وَقُوَّةِ جَيْشِهِ.

لذلك أمر الرسول المستطيعين بأنَّ يَتَجَهَّزُوا لِحَرْبِ الرُّومِ، وَيُعِدُّوا مَا يَسْتَطِيعُونَ مِنْ عُدَّةٍ وَعَتَادٍ.

وَحَثَّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ أَهْلَ الْغَنَى وَالْيَسَارِ عَلَى الْبَذْلِ وَالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لِتَجْهِيْزِ هَذَا الْجَيْشِ، الَّذِي عُرِفَ بِجَيْشِ الْعُسْرَةِ، وَقَالَ: «مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَلَهُ الْجَنَّةُ».

وأقبل المؤمنون الصادقون يتبرعون:

— فَقَدَّمَ عَثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٣٠٠) بَعِيرٍ عَلَيْهَا أَحْلَاسُهَا (الْجُلُسُ: الْكِسَاءُ الَّذِي يُوَضَّعُ عَلَى ظَهْرِ الْبَعِيرِ تَحْتَ الرَّحْلِ) وَعَلَيْهَا أَقْتَابُهَا (الْقَتَبُ: هُوَ مَا يُوَضَّعُ عَلَى ظَهْرِ الْبَعِيرِ لِلرُّكُوبِ). وَقَدَّمَ أَيْضاً أَلْفَ دِينَارٍ، جَاءَ بِهَا فَصْبَاهَا فِي جَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَجَعَلَ الرُّسُولُ يَقْلِبُهَا وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ ارْضَ عَنْ عَثْمَانَ فَإِنِّي عَنْهُ رَاضٍ» وَيَقُولُ: «مَا عَلَى عَثْمَانَ مَا غَبِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ».

— وَقَدَّمَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كُلَّ مَالِهِ، وَكَانَ أَرْبَعَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ، فَقَالَ لَهُ الرُّسُولُ:

«هَلْ أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ شَيْئاً؟».

فَقَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ.

— وَقَدَّمَ عُمرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نِصْفَ مَالِهِ.

- وقَدَّم عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه مائة أوقية من ذهب، أي: نحو (٣ كيلوغرام من ذهب) تقريباً. فالأوقية من الرطل البغدادي تعادل «٣٤» غراماً.
- وقَدَّم عاصم بن عدي رضي الله عنه مائة وَسَقٍ من تمر (الْوَسَقُ: مكيال سعة ستون صاعاً) أي: قَدَّم نحو (١٢٠) طناً من التمر، أو تزيد.
- وقَدَّم أحد الأنصار صاعاً من تمر هو قَدْرُ استطاعته.
- وأرسلت النساء المسلمات ما جُذِّنَ به من حلِيَّهنَّ.
- وكانت دعوة القادرين على الخروج دعوة عزيمة، لا دعوة نَدْبٍ على الاختيار.

فكان المسلمون يومئذٍ على أربعة أقسام:

القسم الأول: الذين تجهَّزوا وخرجوا مع الرسول.

القسم الثاني: الذين تشوَّفوا للخروج، لكنَّهم لم يجدوا ما يحملهم في هذا السفر البعيد الشاق، فسألوا رسول الله أن يحملهم فلم يجد فيما تجمَّع لديه ما يحملهم عليه، فتولَّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً لأنَّهم لم يجدوا ما ينفقونه، للترزود لهذه الرحلة، وعرفوا بالبُكَائين، وكانوا سبعة رجال.

القسم الثالث: الذين تخلفوا تباطؤاً وتكاسلاً، وإشارة للراحة والاستمتاع بأهلٍ وظلٍّ وتمر.

القسم الرابع: الذين تخلفوا نفاقاً، فمنهم المبطلون، وهم نفر من المنافقين كانوا يقولون للناس لا تنفروا في الحرِّ، وكان من المشيطين نفر يجتمعون في بيت سُؤَيْلَم اليهودي، يشبطون الناس عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فبعث إليهم النبيُّ طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه، وأمره أن يُحرِّق عليهم بيت سُؤَيْلَم، ففعل طلحة، فاقتحم الضحَّاك بْنُ خليفة وهو واحد منهم من ظهر البيت فانكسرت رجله، واقتحم أصحابه فأفلتوا. ومنهم من جاء يستأذن الرسول ﷺ بعدم الخروج قبل مسير جيش المسلمين إلى تبوك ويتحللون المعاذير فيأذن لهم. ومنهم من تخلف دون استئذان، فلَمَّا عاد الرسول ﷺ إلى المدينة أقبِلوا يعتذرون عن تخلفهم، ويحلفون

الأيمان الكاذبة، وَيُلْفِقُونَ المعاذير، فيُعرض الرسول عنهم، ويترك حسابهم لله عز وجل.

ومن هؤلاء عبد الله بن أبي بن سلول فقد تخلف وتخلف معه كثير من المنافقين، وقال بعضهم لبعض: يغزو محمد بنى الأصفر (أي: الروم) والله لكأنى أنظر إلى أصحابه مقرنين في الجبال.

وكان قد خرج عبد الله بن أبي ابن سلول وعسكر مع الذين معه دون معسكر الرسول، عند جبل دُباب، أما معسكر الرسول فقد كان عند ثنية الوداع، خارج بيوت المدينة، فلما سار رسول الله تخلف بن سلول ومعه جمع من المنافقين وأهل الرِّيب، وهلك ابن سلول بعد رجوع الرسول من غزوة تبوك، في ذي القعدة من سنة تسع للهجرة^(١).

وقد تعرضت سورة (التوبة) لبيانات تتعلق بهؤلاء الأقسام الأربعة، ونحاول اكتشاف ذلك لدى تدبر النصوص إن شاء الله.



(٤)

خروج الجيش بقيادة الرسول وذكر بعض ما حصل في الطريق

ولما رأى الرسول ﷺ أن المسلمين تجهزوا للخروج معه ابتغاء غزو الروم من أطراف مواقع سلطانهم في تبوك، خرج بالمسلمين يوم الخميس^(٢)، وقد بلغوا ثلاثين ألفاً ويزيدون، يتقدمهم قرابة عشرة آلاف فارس، وعسكر بالجيش عند ثنية الوداع، واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري^(٣)، واستخلف على أهله علي بن

(١) قال ابن حجر في شرح الحديث (٤٦٧٠) من الفتح: ذكر الواقدي ثم الحاكم في «الإكليل» أن عبد الله بن أبي بن سلول مات بعد منصرف المسلمين من تبوك، وذلك في ذي القعدة سنة تسع، وكانت مدة مرضه عشرين يوماً ابتدأت من ليالٍ بقيت من شوال.

(٢) وكان الرسول ﷺ يحب أن يخرج يوم الخميس.

(٣) وقيل: استخلف سباع بن عرفطة الغفاري.

أبى طالب، فقال المنافقون: ما خلفه في أهله إلا استقلالاً له وتحققاً منه، فبلغ ذلك علياً رضي الله عنه فأخذ سلاحه وخرج حتى أتى رسول الله ﷺ وهو نازل بالجرف (موضع على ثلاثة أميال من المدينة - نحو ٥٥٤٠ م) فقال: يا نبي الله، زعم المنافقون أنك إنما خلقتني أنك استقلتني وتحقق مني.

فقال رسول الله ﷺ: «كذبوا، ولكني خلقتك لما تركت ورائي، فأرجع فاخلقني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي؟».

فرجع علي رضي الله عنه إلى المدينة، ومضى رسول الله ﷺ إلى وجهته، وأعطى اللواء الأعظم الصديق أبا بكر رضي الله عنه، وأعطى الزبير بن العوام راية المهاجرين، وأعطى أسيد بن حضير راية الأوس، وأعطى الجباب بن المنذر راية الخزرج.

وسار الجيش في جهد شديد، فكان الرجال والثلاثة يعقبون على بعير واحد، وتعرضت أحمالهم من المؤن والأزواد إلى اقتراب النفاد، فجمع الرسول ما فضل من الأزواد فدعا بالبركة، ثم قال: «خذوا في أوعيتكم» فأخذوا حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملؤها، وأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة، فقال رسول الله ﷺ:

«أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بها عبد غير شاك فيحجب عن الجنة».

وتعرضوا لنفاد ما معهم من الماء، حتى عطشوا عطشاً شديداً، فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن الله قد عودك في الدعاء خيراً، فادع الله لنا، فرفع يديه نحو السماء، فلم ينزلها حتى أغاثهم الله، فأمطرت السماء، فشربوا وملؤوا أوعية الماء التي لديهم، وكان هذا حين مر الرسول ومعه الجيش بالحجر، مساكن ثمود، قوم النبي صالح عليه السلام، فنزلها، وأخذ الناس يستقون من بئرها، فقال لهم الرسول لا تشربوا من مائها شيئاً، ولا تروضوا منه للصلاة، وما كان من عجيب عجتهم فاعلفوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئاً، وأصبح الناس ولا ماء معهم.

قال محمود بن لبيد من بني عبد الأشهل: أخبرني رجال من قومي عن رجل من

المنافقين معروف بالثفاق، كان يسير مع رسول الله ﷺ حيث سار، فلما كان من أمر الناس بالحجر ما كان، ودعا رسول الله ﷺ حين دعا، فأرسل الله الصحابة، فأمرت حتى ارتوى الناس، قالوا: أقبلنا عليه نقول: ويحك، هل بعد هذا شيء؟! قال: صحابة مارة، ثم ارتحل الرسول بالناس حتى نزل عند البشر التي كانت تشرب منها الناقة.

وسار الرسول ومن معه، حتى إذا كان ببعض الطريق ضلّت ناقته، فخرج بعض أصحابه في طلبها، وكان عند رسول الله ﷺ عُمارة بن حزم (عَقْبِي بِذَرِي) فسمع رسول الله ﷺ يقول: إن رجلاً قال: هذا محمدٌ يُخبركم أنه نبي، ويَزعمُ أنه يُخبركم بأمر السماء، وهو لا يدري أين ناقته، وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلّني الله عليها، وهي في هذا الوادي، في شُعب كذا وكذا، قد خبستها شجرةٌ بزمانها، فانطلقوا حتى تأتوني بها، فذهبوا، فجاءوا بها.

فرجع عُمارة بن حزم إلى رحله، فقال: والله لعجبٌ من شيء حدثناه رسول الله ﷺ آنفاً، عن مقالة قائل أخبره الله عنه بكذا وكذا، كما سمع من الرسول. فقال رجلٌ ممن كان في رَحْلِ عُمارة، ولم يكن عند رسول الله ﷺ: زيدُ بنُ اللُصيت (ويقال: ابنُ لُصيب) والله قال هذه المقالة قبل أن تأتي.

فأقبل عُمارة على زيدٍ يَجأ في عُقبه (أي: يدفعه بجمع كَفه) ويقول: إليّ عباد الله، إن في رَحْلِي لداهيةً وما أشعر، أخرج أيّ عدوٍّ لله من رَحْلِي فلا تَصْحَبْنِي. زيدُ بنُ اللُصيت: كان من منافقي يهود بني قينقاع.

وكان رهط من المنافقين منهم «وديعه بن ثابت» يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: اتَّحَسِبُونَ جَلادَ بني الأصفر (أي: الروم) كقتال العرب بعضهم بعضاً، والله لكأنّا بكم غداً مُقَرَّنِينَ في الجبال.

وروي أن رسول الله ﷺ قال لعمار بن ياسر:

«أَدْرِكِ الْقَوْمَ فَإِنَّهُمْ قَدْ اخْتَرَقُوا، فَسَلُّهُمْ عَمَّا قَالُوا، فَإِنْ أَنْكَرُوا فَقُلْ: بلى، قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا».

قد احترقوا: أي: عرَّضوا أنفسهم للهلاك بسبب ما كانوا يخوضون فيه من إرجاف.

فانطلق إليهم عمار بن ياسر، فقال لهم ذلك، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، وقال وديعة بن ثابت: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، أي: نقول على سبيل المزاح لا الجد.

* * *

(٥)

وصول الرسول بجيشه إلى تبوك

بلغ الروم مسير جيش محمد إليهم، فرأت قيادتهم الانسحاب بجمعهم من جهة تبوك إلى بلاد الشام ليتحصنوا بحصونها، وحقق الله لرسوله بذلك التمكين والرهبة داخل جزيرة العرب، وأقام الرسول بالجيش عند تبوك مشعراً أمراء المواقع الحدودية بأنه متهيئ لقتال من شاء القتال منهم، فرهبوه، وتوافدوا إليه طالبين تأمينهم وتأمين حدودهم، مقابل جزية يدفعونها، فكتب لهم الرسول كتاباً بذلك، وكانت إقامة بتبوك بضعة عشر يوماً.

* * *

(٦)

كتب الصلح

أمير أيلة (بلدة على خليج العقبة):
أتى صاحب أيلة ليخنة بن ربيعة، فسأل رسول الله الصلح، مقابل جزية يدفعها إلى المسلمين، فقبل الرسول ذلك منه، وكتب له كتاب الصلح التالي:

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله، ليخنة بن ربيعة، وأهل أيلة، سفينهم وسياراتهم في البر والبحر، لهم ذمة الله، وذمة محمد النبي، ومن كان معهم من أهل الشام، وأهل اليمن، وأهل البحر، فمن أخذت منهم خذناً، فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيب لمن أخذ من الناس، وإنه لا يجزأ أن يمتنعوا ماء يردونه، ولا طريقاً يريدونه، من بر أو بحر».

وأهدى صاحبُ أيلة النبي ﷺ بغلةً بيضاء، وكساه برداً، وأعطاه النبي ﷺ بُردَهُ مع كتاب الصلح.

أهل جزيئة وأذرح:

وأتى أهلُ جَزِيءَة وأذُرَح^(١) إلى النبي ﷺ، وطلبوا منه أن يصالحهم، مقابل جزية يدفعونها، فقبل الرسول ذلك منهم، وكتب لهم الكتاب التالي:

«بسم الله الرحمن الرحيم: مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ رَسُولِ اللَّهِ لِأَهْلِ جَزِيءَة وَأذُرَح، إِنَّهُمْ آمَنُوا بِأَمَانِ اللَّهِ وَأَمَانِ مُحَمَّدٍ، وَإِنْ عَلَيْهِمْ مِائَةُ دِينَارٍ فِي كُلِّ رَجَبٍ، وَمِائَةُ أَوْقِيَّةٍ طَبِيعَةٍ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمْ كَفِيلٌ بِالنُّصْحِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، وَمَنْ لَجَأَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ».

أهل دومة الجندل، وملكها أكيدر بن عبد الملك، من كتبه، وكان نصرانياً:

بقي على الحدود إلى جهة الشام، أهل دُومَة الجندل، لم يفدوا إلى الرسول ﷺ طالبين الأمان والصلح.

فبعث الرسول خالد بن الوليد إلى ملكهم أكيدر بن عبد الملك، وقال له الرسول ﷺ: إِنَّكَ سَتَجِدُهُ يَصِيدُ الْبَقْرَ.

فخرج خالدُ أميراً على سريةٍ من خمسمائة فارس، حتَّى إِذَا كَانَ مِنْ حَضِيئِهِ بِمَنْظَرِ الْعَيْنِ، وَفِي لَيْلَةٍ مَقَرَّةٍ صَائِفَةٍ، وَهُوَ عَلَى سَطْحٍ لَهُ وَمَعَهُ امْرَأَتُهُ، فَبَاتَتْ بَقْرُ الْوَحْشِ تَحْكُ بِقَرُونِهَا بَابَ الْقَصْرِ، فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: هَلْ رَأَيْتَ بِثَلَّ هَذَا قَطًّا؟!

قال: لَا وَاللَّهِ. قَالَتْ: فَمَنْ يَتْرُكُ هَذِهِ؟ قال: لَا أَحَدٌ، فَتَزَلُ فَاَمْرُ بَفَرَسِهِ، فَأَسْرَجَ لَهُ، وَرَكِبَ مَعَهُ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ فِيهِمْ أَخٌ لَهُ يُقَالُ لَهُ حُسَّانٌ، فَركب، وخرجوا معه لمطاردة البقر، فلما خرجوا تَلَقَّتْهُمْ خَيْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فقبضَ الفرسان على أكيدر، ملك دُومَة الجندل، وقاتل أخوه حسان، فقتلوه، وكان على أكيدر قباء من ديباج مُزَيَّنٌ بالذهب، فاستلبه خالدُ منه، وبعث به إلى

(١) جَزِيءَة وأذُرَح: قرينان متقاربتان.

رسول الله ﷺ قبل أن يقدّم بِأَكْبَدِرَ عليه، فلَمَّا وُضِعَ القَبَاءُ بين يَدَيِ الرسول جعل الصحابة يَلْمُسُونَهُ بأيديهم ويتعجبون منه، فقال الرسول لهم: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ هَذَا؟ قَوْلَ الَّذِي نَفْسِي بِسَبِّهِ لَمُنَادِيْلُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِي الْجَنَّةِ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا».

وقَدِمَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِأَكْبَدِرَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَحَقَّقَ الرَّسُولُ ذَمَّهُ، وَصَالَحَهُ عَلَى الْجَزِيَةِ، ثُمَّ خَلَّى سَبِيلَهُ، فَرَجَعَ إِلَى بَلَدِهِ وَقَوْمِهِ.

وَحَقَّقَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ النَّصْرَ، وَأَحْسَنَتْ قِبَائِلُ الْعَرَبِ أَنَّ الرَّسُولَ مَلَكَ أَمْرِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَأَنَّ الْإِسْلَامَ صَارَ قُوَّةً مَرْهُومَةً الْجَانِبِ، مِنْ قِبَلِ دَوْلَةِ الرُّومِ، وَاسْتَشَارَ الرَّسُولُ أَصْحَابَهُ فِي مَلَا حَقَّةِ جَمْعِ الرُّومِ وَرَاءَ تَبُوكَ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ عُمَرُ بِالْاِكْتِفَاءِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ بِمَا حَصَلَ، فَاسْتَحْسَنَ رَأْيَهُ وَعَمَلَ بِهِ.

(٧)

رحلة العودة إلى المدينة

بعد أن أقام الرسول ﷺ ومعه الجيش بتبوك بضعة عشرة ليلة، أَدْنَى بِالرَّحِيلِ عَائِدًا إِلَى الْمَدِينَةِ.

حادثة الوشل:

يُوجَدُ فِي طَرِيقِ الْعُودَةِ وَادٍ يُقَالُ لَهُ: وَادِي الْمُسَّقِقِ، فِيهِ وَشَلٌ (أَي: نَبْعُ مَاءٍ قَلِيلٍ يَتَحَلَّبُ مِتْقَاطَرًا وَيَتَجَمَّعُ) مَا يُرَوِّي الرَّكَّابَ أَوِ الرَّاكِبِينَ أَوِ الثَّلَاثَةَ.

فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «مَنْ سَبَقَنَا إِلَى ذَلِكَ الْوَادِي، أَوْ إِلَى ذَلِكَ الْمَاءِ فَلَا يَسْتَقِينُ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُ».

فَسَبَقَهُ إِلَيْهِ نَفَرٌ مِنَ الْمَنَافِقِينَ، فَاسْتَقَرَّ مَا فِيهِ، فَلَمَّا أَتَاهُ وَقَفَ عِنْدَهُ فَلَمْ يَرِ فِيهِ شَيْئًا، فَقَالَ مُسْتَكْرَأً:

«مَنْ سَبَقَنَا إِلَى هَذَا الْمَاءِ؟؟»

فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلَانٌ وَفُلَانٌ، فَقَالَ:
«أَوَلَمْ أَنَّهُمْ أَنْ يَسْتَقُوا مِنْهُ شَيْئًا حَتَّى آتِيَهُ؟!»

وَغَضِبَ مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ وَدَعَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ نَزَلَ عَنْ رَاحِلَتِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ تَحْتَ الْوُشْلِ
حَيْثُ يَتَقَاطَرُ مِنَ الْمَاءِ، حَتَّى إِذَا تَجَمَّعَ فِيهَا مَقْدَارٌ مَا مِنْهُ نَضْحٌ مَكَانَ تَقَاطُرِ الْمَاءِ بِمَا
تَجَمَّعَ فِي يَدِهِ مِنْهُ، وَمَسَحَهُ بِيَدِهِ، وَدَعَا بِمَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعُو بِهِ، فَتَفَجَّرَ مِنْهُ الْمَاءُ
تَفَجُّرًا، وَقَالَ مَنْ سَمِعَهُ: إِنَّ لَهُ جَسًا كَجَسِّ الصَّوَاعِقِ، فَشَرِبَ النَّاسُ، وَاسْتَقُوا مِنْهُ حَاجَتَهُمْ.

● ● ●

حَادِثَةٌ تَأْمُرُ بَعْضَ الْمَنَافِقِينَ لِمَزَاحِمَةِ الرَّسُولِ

فِي الطَّرِيقِ ابْتِغَاءَ إِلْقَائِهِ عَنْ رَاحِلَتِهِ فِي مُنَحْدَرٍ:

رَوَى الْبَيْهَقِيُّ عَنْ حَذِيفَةَ بْنِ الْيَمَانِ قَالَ: كُنْتُ آخِذًا بِخَطَامِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ،
وَعُمَارِ يُسُوقِ النَّاقَةِ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْعُقْبَةِ (العقبة: مَرْقَى صَعْبٌ مِنَ الْجِبَالِ) إِذَا
بِائْتِي عَشْرَ رِجَالٍ قَدْ اعْتَرَضُوهُ فِيهَا، قَالَ: فَأَتَيْتُهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَصَرَخَ فِيهِمْ، فَوَلَّوْا
مُدْبِرِينَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «هَلْ عَرَفْتُمُ الْقَوْمَ؟» قُلْنَا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ كَانُوا مُتَلَبِّسِينَ
قَالَ: «هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَذَرُونَ مَا أَرَادُوا؟» قُلْنَا: لَا، قَالَ: «أَرَادُوا أَنْ
يَزْحُمُوا رَسُولَ اللَّهِ فِي الْعُقْبَةِ فَيَلْقَوْهُ مِنْهَا» قُلْنَا: أَوْ لَا نَبْعَثُ إِلَى عَشَائِرِهِمْ حَتَّى يَبْعَثَ
إِلَيْكَ كُلُّ قَوْمٍ بِرَأْسِ صَاحِبِهِمْ؟ قَالَ: لَا، أَكْثَرُهُ أَنْ يَنْحَدِثَ الْعَرَبُ أَنْ مُحَمَّدًا قَاتِلَ
بِقَوْمِهِ، حَتَّى إِذَا أَظْهَرَهُ اللَّهُ بِهِمْ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ يَقْتُلُهُمْ، وَدَعَا عَلَيْهِمْ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ نَحْوَ هَذَا الَّذِي رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ، وَزَادَ أَنَّ عُمَارًا صَارَ
يَضْرِبُ وَجْهَهُ وَجْهَهُمْ يُنَحِّيهِمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، حَتَّى قَالَ: «قَدْ. قَدْ. أَي: كَفَى كَفَى».

وَهُمُ الَّذِينَ عَنَاهُمْ اللَّهُ بِقَوْلِهِ فِي سُورَةِ (التوبة):

﴿وَهُمْ أَيْمَانُكَ يَؤْتُونَ...﴾ ٧٦ ﴿

كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَدَى تَدْبِيرِ النَّصْرِ.

● ● ●

قِصَّةُ مَسْجِدِ الضَّرَارِ:

كَانَ فِي الْمَدِينَةِ قَبْلَ مَقْدَمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهَا رَجُلٌ مِنَ الْخَزَرَجِ يُقَالُ لَهُ أَبُو عَامِرٍ

الراهب، واسمه «عبد عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان» أحد بني ضبيعة، وكان قد تنصّر في الجاهلية، وقرأ علّم أهل الكتاب، وكانت له عبادة في الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير، فلما قدم الرسول مهاجراً إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر على مشركي مكة، بارز أبو عامر الراهب بالعداوة، وظاهر بها، وخرج فارّاً إلى كفّار مكة من مشركي قريش، يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ والمؤمنين به، وخرج معه خمسون غلاماً أو دون ذلك، وكان الرسول قد دعاه إلى الله وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرد، فدعا الرسول عليه أن يموت بعيداً طريداً، فنالت دعوة الرسول ﷺ.

كان يُطلق عليه في الجاهلية لقب «الراهب» لعباداته على دين النصرانية، فلما كان منه ما كان من عداة للإسلام والرسول والمؤمنين أطلق الرسول عليه لقب «الفاسق» فكان المسلمون يلقبونه بالفاسق.

وكان يبعد قريشاً أن لو قد لقي قومه لم يختلف عليه منهم رجلاً، فلما كانت غزوة أحد، قدم لخرب المسلمين مع مشركي قريش، وكان مقدماً بين الأحابيش وعبدان أهل مكة، فدعا إلى خفر خفائر بين الصّفيين، لينسقط فيها المسلمون، وهم لا يعلمون بوجودها، وسقط الرسول ﷺ في إحداها.

وحين التقي المسلمون بالكافرين للقتال كان أول من لقي المسلمين أبو عامر الفاسق في الأحابيش وعبدان أهل مكة، فتأذى قومه من الانصار يستميلهم إلى نصرته وموافقته، وقال لهم: أنا أبو عامر، فلما عرفوه قالوا له: لا أنعم الله بك غنياً يا فاسق، يا عدوّ الله، ونالوا منه وسبوه، فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شر.

وعاد إلى مكة بعد أحد، ورأى أن أمر الرسول أخذ في الارتفاع والظهور، فرأى أن يذهب إلى هرقل ملك الروم، يستنصره على محمد وصحبه، فوعده ومثاه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار، من أهل التفلق والريب يبعدهم ويمنيهم أنه سيقدّم بجيش يقاتل به الرسول، ويغلبه ويردّه عما هر فيه، وأمرهم أن يتخلّوا له معقبلاً يقدّم عليهم فيه من يقدّم من عنده لإبصال كتبه، ويكون مرصداً له إذا قدّم عليهم بعد ذلك.

فَشَرَعَ الْمَتَابِرُونَ مَعَهُ فِي بِنَاءِ مَسْجِدٍ مُجَاوِرٍ لِمَسْجِدِ قُبَاءَ، فَبَنَوْهُ وَأَحْكَمُوهُ قَبْلَ خُرُوجِ الرَّسُولِ إِلَى تَبُوكَ، وَجَاءُوا إِلَى الرَّسُولِ فَسَأَلُوهُ أَنْ يَأْتِيَ إِلَيْهِمْ فَيُصَلِّيَ فِي مَسْجِدِهِمْ، لَتَكُونَ صَلَاةُ الرَّسُولِ فِيهِ حِجَّةً لَهُمْ عَلَى أَنَّهُ قَدْ بَنِيَ لِذَنْبِهِ وَمُبَارَكْتِهِ، وَذَكَرُوا أَنَّهُمْ إِنَّمَا بَنَوْهُ لِلضُّعْفَاءِ مِنْهُمْ وَأَهْلِ الْعِلَّةِ وَالْحَاجَةِ فِي اللَّيْلَةِ الْمَطِيرَةِ، فَعَضَمَهُ اللَّهُ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ، وَقَالَ لَهُمْ: إِنِّي عَلَى جَنَاحِ سَفَرٍ، وَلَوْ قَدْ قَدِمْنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَأَتَيْنَاكُمْ، فَصَلَّيْنَا لَكُمْ فِيهِ.

وَلَمَّا قَفَلَ الرَّسُولُ ﷺ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ تَبُوكَ، وَلَمْ يَتَّبِعْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ إِلَّا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، نَزَلَ عَلَيْهِ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِخَبَرِ مَسْجِدِ الضَّرَارِ، وَمَا أَعْدَّ لَهُ هَذَا الْمَسْجِدَ، فَدَعَا ﷺ مَالِكَ بْنِ الدُّخَشُمِ، أَخَا بَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ، وَمَعْنُ بْنُ عَدِيٍّ، أَوْ أَخَاهُ عَاصِمَ بْنَ عَدِيٍّ، أَخَا بَنِي الْعَجْلَانِ، فَقَالَ لَهُمَا: وَأَنْطَلِقَا إِلَى هَذَا الْمَسْجِدِ الظَّالِمِ أَهْلُهُ، فَاهْدِمَاهُ وَحَرِّقَاهُ.

فَخَرَجَا سَرِيعَيْنِ، حَتَّى أَتَيَا بَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ، وَهُمْ رَهْطُ مَالِكِ بْنِ الدُّخَشُمِ، فَقَالَ مَالِكٌ لِمَعْنٍ: أَنْظِرْنِي حَتَّى أَخْرُجَ إِلَيْكَ بِنَارٍ مِنْ أَهْلِي، فَدَخَلَ إِلَى أَهْلِهِ، فَاتَّخَذَ سَعْفًا مِنَ النَّخْلِ، فَاشْعَلَّ فِيهِ نَارًا، وَخَرَجَا يَشْتَدَانِ، حَتَّى دَخَلَا الْمَسْجِدَ، وَفِيهِ أَهْلُهُ فَحَرَّقَاهُ وَهَدَمَاهُ، وَتَفَرَّقَ بَنَاتُهُ عَنْهُ.

وَذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ كَمَا جَاءَ فِي السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ لِابْنِ هِشَامٍ أَسْمَاءَ الْمَنَافِقِينَ الَّذِينَ بَنَوْا مَسْجِدَ الضَّرَارِ، وَأَنَّهُمْ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، وَهُمْ:

(١) جَذَامُ بْنُ خَالِدٍ، مِنْ بَنِي عُبَيْدِ بْنِ زَيْدٍ، أَخِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَمِنْ دَارِهِ أَخْرَجَ مَسْجِدَ الشَّقَاقِ.

(٢) ثَعْلَبَةُ بْنُ خَاطِبٍ أَوْ ثَعْلَبَةُ بْنُ أَبِي حَاطِبٍ، وَهُوَ الَّذِي رُوِيَ أَنَّهُ مَنَعَ الزَّكَاةَ لَمَّا اغْتَنَى، وَتَرَكَ الْجُمُعَةَ وَالْجَمَاعَةَ، وَهُوَ غَيْرُ ثَعْلَبَةَ بْنِ حَاطِبِ الْأَنْصَارِيِّ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ، فَهَذَا مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ، وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ الْكَلْبِيِّ أَنَّهُ مَاتَ بِأَحُدٍ، وَتَبَّ عَلَى الْفَرْقِ بَيْنَ الشَّخْصَيْنِ الْحَافِظِ ابْنَ حَجَرٍ فِي الْإِصَابَةِ (ج ١ ص ١٩٨).

(٣) مُعْتَبُ بْنُ قُسَيْرٍ، مِنْ بَنِي ضَبِيعَةَ بْنِ زَيْدٍ.

- (٤) أبو حبيبة بْنُ الْأَزْعَرِ، من بني ضبيعة بن زيد أيضاً.
 - (٥) عَبَّادُ بْنُ حُنَيْفٍ، أخو سهلِ بْنِ حُنَيْفٍ، من بني عمرو بن عوف.
 - (٦) جاريةُ بْنُ عامر.
 - (٧) مُجَمِّعُ بْنُ جاريةِ بْنِ عامر.
 - (٨) زَيْدُ بْنُ جاريةِ بْنِ عامر.
 - (٩) تَبْتَلُ بْنُ الْحَارِثِ، من بني ضبيعة.
 - (١٠) بَخْرَجُ، من بني ضبيعة.
 - (١١) بِجَادُ بْنُ عثمان، من بني ضبيعة.
 - (١٢) وديعةُ بْنُ ثابت، من بني أميةِ بْنِ زَيْدٍ، رهط أبي لُبَابَةَ بن عَبْدِ المنذر.
- وقد نزل بشأن مسجد الضرار الأيتان (١٠٧ - ١٠٨) من سورة (التوبة) كما سيأتي بيان ذلك لدى تدبرِ النص إن شاء الله.

(٨)

الوصول إلى المدينة

وصل الرسول والمسلمون معه مظفرين منصورين، وتلقاهم النساء والصبيان والولائد عند ثنية الدواع مبهجين فرحين بنصر الله، ودخل المدينة، وبدأ بالمسجد، فصلّى ركعتين، كعادته إذا قَدِمَ من سفر، ثم جَلَسَ للناس، وكان لا يَقْدُمُ من سَفَرٍ إِلَّا نهاراً في الصبح.

● ● ●

المخلفون من المنافقين:

فجاءه المخلفون عنه في هذه الغزوة، وأخذوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً، فقبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ علانيتهم، ونَسْتَغْفِرُ لَهُمْ، وَيَكِلُ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ تعالى.

● ● ●

الْمُخَلَّفُونَ الصَّادِقُونَ الْمُؤْمِنُونَ الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ جَاءُوا

إِلَى الرِّسُولِ وَأَعْلَنُوا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَذْرٌ

وَكَانَ قَدْ تَخَلَّفَ عَنِ الرِّسُولِ فِي هَذِهِ الْغَزَاةِ ثَلَاثَةٌ مُؤْمِنُونَ صَادِقُونَ، قَدِمُوا

لِلسَّلَامِ عَلَى الرِّسُولِ ﷺ، فَسَأَلَهُمْ عَنِ سَبَبِ تَخَلُّفِهِمْ، فَاعْتَرَفُوا بِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عُذْرٌ

يَجِيزُ لَهُمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا بِسَبَبِهِ، إِلَّا أَنَّهُمْ تَبَاطَلُوا وَأَثَرُوا الرَّاحَةَ، وَالْبَقَاءَ فِي أَهْلِ وَطَنِهِمْ

وَتَمَرٍّ وَمَاءٍ، وَقَالَ الرِّسُولُ بِشَأْنِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ: «أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَّقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ

اللَّهُ فِيكَ» وَهُمْ:

(١) كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ، لَمْ يَتَخَلَّفَ عَنِ غَزَاةِ غَزَاةِ الرِّسُولِ قَطُّ إِلَّا فِي غَزَاةِ تَبُوكَ.

(٢) مُزَاةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَامِرِيُّ، مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا.

(٣) هِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ، مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا أَيْضًا.

وَأَمَرَ الرِّسُولُ بِمَقَاطَعَةِ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ، وَنَهَى الْمُسْلِمِينَ عَنِ مَكَالَتِهِمْ، مِنْ دُونِ

سَائِرِ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا، وَلَوْ كَانُوا كَاذِبِينَ فِي مَعَاذِيرِهِمْ.

وَاشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ، حَتَّى ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، وَوَصَلَ خَبِيرُ

مَقَاطَعَتِهِمْ إِلَى مَلِكِ غَسَّانَ، فَكَتَبَ كِتَابًا لَكَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، وَيَعِثُهُ إِلَيْهِ مَعَ تَاجِرِ نَبْطِيٍّ مِنْ

أَنْبَاطِ الشَّامِ^(١)، مِنَ الَّذِينَ قَدِمُوا بِطَعَامٍ يَبِيعُونَهُ فِي الْمَدِينَةِ، وَجَعَلَ يَقُولُ فِي سَوَاقِ

الْمَدِينَةِ: مَنْ يَذُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ؟ قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: فَطَفِقَ النَّاسُ يَشِيرُونَ لَهُ

إِلَيْهِ، حَتَّى جَاءَ فَدَفَعَ إِلَيْهِ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ، وَكَتَبَتْ كَاتِبًا، فِإِذَا فِيهِ:

«أَمَّا بَعْدُ: فَقَدْ بَلَغْنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْكَ فِي دَارِ هَوَانٍ

وَلَا مُضِيعَةٍ، فَالْحَقُّ بِنَا نَوَاسِكَ».

قَالَ مَالِكٌ: فَقُلْتُ حِينَ قَرَأْتُهُ، وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ، فَنِيْمْتُ بِهِ التَّوَرَّ، فَسَجَرْتُهُ

بِهِ.

وَمَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً، فَوَجَّهَ الرِّسُولُ لَهُمْ أَمْرًا بِأَنْ يَعْتَزِلُوا نِسَاءَهُمْ وَلَا يَقْرُبُوهُنَّ.

(١) الْأَنْبَاطُ: شُعْبٌ سَامِيٌّ كَانَتْ لَهُمْ دَوْلَةٌ فِي شِمَالِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَعَاصِمَتُهُمْ «سَلْعٌ»، وَتُعْرَفُ الْآنَ بِـ «الْبِزْرَاءِ».

ومرّت عشر ليالٍ أخرى على هذه المقاطعة التأديبية الجزائية، فانزل الله عزّ وجلّ قرآنًا بتوبته عليهم، فأرسل الرسول إليهم من يبشّره بذلك، ففرحوا بتوبة الله عليهم فرحاً لم يفرحوا مثله في حياتهم قطّ، وقال الرسول ﷺ لكعب بن مالك: «أَبَشِّرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ».

قال كعب: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ؟

قال: «لَا، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ».

نزلت بتوبة الله عليهم الآيتان (١١٨ - ١١٩) من سورة (التوبة) كما سيأتي بيان ذلك لدى تدبّر النصّ إن شاء الله.



المخلفون من المؤمنين الذين أوثقوا أنفسهم

في سواري المسجد دون أن يأتوا إلى الرسول:

قال ابن عباس وآخرون في قول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة):

﴿وَأَخْرَجُوا عَرِفُوا يُذْنِبُهُمْ خَلْفُوا أَعْمَالًا صَالِحًا وَأَخْرَسَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٨﴾﴾:

نزل في أبي ثبابة وجماعة من أصحابه (قيل: هم معه ستة، وقيل: ثمانية

وقيل: عشرة) تخلّفوا عن رسول الله في غزوة تبوك، فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوته

رَبَطُوا أنفسهم بسواري المسجد، وخلّفوا لا يخلّهم من رباطهم إلا رسول الله ﷺ،

فلما نزلت الآية أطلقهم الرسول وعفا عنهم.

وروي أنهم جاءوا بأموالهم إلى رسول الله وقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا،

فصدق بها عنا، واستغفر لنا، فقال: «مَا أَمَرْتُ أَنْ أَخْذَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ شَيْئًا، فَاَنْزِلَ اللَّهُ

عزّ وجلّ قوله:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ

سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ الَّذِي يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ

اللَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٢٥﴾﴾.

فأخذ رسول الله ﷺ ثُلُثَ أموالهم وترك لهم الباقي .

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وآخرون ، نزلت توبة الذين ربطوا أنفسهم بسواري المسجد (أبي لُبَابَةَ وأصحابه) قبل أن تنزل توبة الله على الثلاثة الذين خَلَفُوا (كعب بن مالك ، ومُرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية) .

* * *

(٩)

خاتمة

هذه خلاصة أحداث غزوة تبوك ، وسيأتي تفصيلات وشروح وبيانات أخرى إن شاء الله لدى تدبر النص من سورة (التوبة) والله هو المستعان ، ومنه التوفيق والفتح والتسديد .

● ● ●

القسم الثاني

دراسة النص دراسة تدبرية

وفيه سبعة عقود

بلاحظ في آيات هذا النص أنها سارت وفق أسلوب ازدواجية البيان نشرأ وطياً بين المنافقين على اختلاف صفاتهم وظواهرهم السلوكية، ودركاتهم في النفاق، وبين المؤمنين على اختلاف صفاتهم ودرجاتهم في الإيمان، كحبلين مختلفين أبيض مختلف الصفات ومتدرج الألوان، وأسود مختلف الصفات ومتدرج الألوان، وقد قتل كل منهما على الآخر، فظهر في السطح المنظور مقطع من الجبل الأبيض، وبعده مقطع من الجبل الأسود، وهكذا إلى النهاية.

العقد الأول: استعراض أكبر وقائع المنافقين وغيرهم، إبان أحداث غزوة تبوك وتجربتها، مع التعقيبات والتوجيهات الربانية، وبعض المقدمات.

العقد الثاني: بيان أقسام مجتمع المسلمين يومئذ بعد استعراض أهم الوقائع، مع التعقيبات والتوجيهات الربانية.

العقد الثالث: قصة مسجد الضرار مع التعقيبات والتوجيهات الربانية.

العقد الرابع: بيانات وتوجيهات تتعلّق بقضايا وردت في العقود السابقة.

العقد الخامس: تعليمات وتوجيهات حول الخروج للقتال في سبيل الله.

العقد السادس: بيان موقف المنافقين تجاه ما كان ينزل من القرآن تباعاً في مقابل موقف المؤمنين.

العقد السابع: آخر توجيه من الله للناس بالنسبة إلى الرسول محمد ﷺ، ومعه وصية من الله للرسول.

المقد الأول

هذا استعراض أكبر وقائع المنافقين وغيرهم من المسلمين إبان أحداث غزوة تبوك مع التعقيبات والتوجيهات الربانية وبعض المقدمات.

* قول الله عز وجل خطاباً للذين آمنوا:

﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١١).

سبق هذه الآية توجيه اللوم للذين آمنوا بسبب تشاقلهم إلى الأرض وعدم نهوضهم بهمة ونشاط، إذا أمرُوا أن ينفروا في سبيل الله، وتبع هذا اللوم تهديدهم بعذاب أليم إن لم ينفروا استجابة لأمر الرسول لهم بأن ينفروا مقاتلين في سبيل الله، وتهديدهم باستبدال قوم غيرهم لنصرة رسوله ولنصرة دينه، يقاتلون في سبيله غير متاقلين ولا متباطين ولا متكاسلين.

وجاءت هذه الآية تتضمن أمراً مباشراً من الله لهم بأن ينفروا على أية حالة صالحة لقتال العدو خفافاً وثقلاً.

والخطاب موجّه لغير ذوي الأعذار التي تعني أصحابها من القتال في سبيل الله، بمقتضى بيانات أخرى، جاءت في القرآن، كالمرضى والأعمى والأعرج وأشباههم.

وتتضمن أيضاً أمراً مباشراً من الله عز وجل لهم بأن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، بمختلف أنواع الجهاد.

الأمر بالنفر أمر بالخروج من مكان الإقامة، والضرب في الأرض بسرعة لتأدية عمل يبيته الأمر بالنفر، وهو في الدين الجهاد في سبيل الله على اختلاف أنواعه وأشكاله وصوره، ومنه جهاد الدعوة إلى دين الله، وجهاد القتال في سبيل الله.

يقال لغة: نَفَرَ يَنْفِرُ نَفْراً وَنَفُوراً إذا أَسْرَعَ مُفَارِقاً مكان إقامته، ضارباً في الأرض مُرْتَحِلاً مسافراً.

ومنه يُقال: نَفَرَ الْحُجَّاجُ مِنْ مَنْى، إذا دَفَعُوا مُتَوَجِّهِينَ لِمَكَّةَ، والنَّفَرُ نَصَاحَةٌ عَادَةُ الْهَيْمَةِ وَسُرْعَةُ الْحَرَكَةِ وَالنَّشَاطُ.

والنَّفَرُ لثَانِيَّةٌ وَظِيفَةٌ دِينِيَّةٌ يَكُونُ بِحَسَبِ هَذِهِ الْوِظِيفَةِ، فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْوِظِيفَةُ لَا تَحْتَاجُ أَنْ يَكُونَ النَّافِرُ ثَقِيلًا بَعْتَادَ وَأَسْلِحَةً وَمُؤَنَّةً، نَفَرَ خَفِيفًا، كَأَنْ تَكُونَ وَظِيفَتُهُ الْمَأْمُورُ بِأَنْ يَاقُمَ بِهَا، دَعْوَةً إِلَى دِينِ اللَّهِ، أَوْ اسْتِطْلَاعًا لِأَخْبَارِ الْعَدُوِّ، أَوْ مَنَاقِشَةً خَفِيفَةً تَعْتَمِدُ عَلَى الْكَرْ وَالْفَرِّ. وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْوِظِيفَةُ تَحْتَاجُ أَنْ يَكُونَ النَّافِرُ ثَقِيلًا بَعْتَادَ وَأَسْلِحَةً وَمُؤَنَّةً وَنَحْوَ ذَلِكَ، نَفَرَ ثَقِيلًا، أَي: مُسْتَصْحِبًا هَذِهِ الْأَثْقَالَ.

لذلك جاء النص يخاطب الله فيه الذين آمنوا بقوله:

﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾

أي: إذا أَمَرْتُمْ بِأَنْ تَنْفِرُوا خِفَافًا فَانْفِرُوا خِفَافًا، وإذا أَمَرْتُمْ بِأَنْ تَنْفِرُوا ثِقَالًا فَانْفِرُوا ثِقَالًا، فَالتَّكْلِيفُ يَتَّبِعُ طَبِيعَةَ الْعَمَلِ الْمَطْلُوبِ فِي النَّفَرِ، وَيَكُونُ عَلَى التَّوْزِيعِ بِحَسَبِ الْقُدْرَاتِ وَالِاخْتِصَاصَاتِ، وَيَنْبَغُ ذَلِكَ مِنْ قِبَلِ الْقِيَادَةِ الْأَمْرَةِ بِالنَّفَرِ.

ولَمَّا كَانَ النَّفَرُ الَّذِي يَأْمُرُ بِهِ الرَّسُولُ أَوْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَعْدِهِ وَسِيلَةً لِلْقِيَامِ بِعَمَلٍ جِهَادِيٍّ لِنُصْرَةِ الْإِسْلَامِ أَوْ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، سَوَاءً أَكَانَ جِهَادًا بِقِتَالٍ أَوْ بَغِيرِهِ، أَتَّبَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْأَمْرَ بِالنَّفَرِ بِقَوْلِهِ خَطَابًا لِلَّذِينَ آمَنُوا:

﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

الْمُجَاهَدَةُ: هِيَ بَذْلُ جَهْدٍ زَائِدٍ لِتَحْقِيقِ الْغَايَةِ مِنَ الْعَمَلِ الْمَطْلُوبِ، وَهِيَ تَكُونُ بِالْبَذْلِ مِنَ الْأَمْوَالِ، وَبِالْبَذْلِ مِنَ الْأَنْفُسِ، أَي: مِنْ طَاقَةِ الْجِسْمِ وَقُدْرَاتِهِ، حَتَّى تَعْرِضَ الْحَيَاةَ لِلْقَتْلِ، وَهُوَ غَايَةُ الْبَذْلِ الْمُسْتَطَاعِ لَذِي الْحَيَاةِ.

وجاء في النص تقديم المجاهدة بالأموال على المجاهدة بالأنفس، لِأَنَّ الْمُجَاهَدَةَ بِالْأَمْوَالِ هِيَ الْوِظِيفَةُ الْأُولَى الَّتِي يَتَحَقَّقُ بِهَا الْإِعْدَادُ بِالْأَسْلِحَةِ وَالْعِتَادُ وَالْمُؤْنُ وَالْخَطُّ وَالتَّدْبِيرَاتُ اللَّازِمَةُ لِلتَّنَقُّلِ وَالِارْتِحَالِ وَالسُّفَرِ قَبْلَ الْمُجَاهَدَةِ بِالْأَنْفُسِ.

وجاء تقييدُ الجهاد بأن يكون في سبيل الله، لأن بذل الجُهد إن لم يكن في سبيل الله، فهو إما عملٌ غير مأجور عند الله، أو عملٌ يتحمّل به باذله وزراً، والعمل غير المأجور هو ما كان للحصول على شهوة مباحة دون اقترانه بنية تجعله بحكم الشرع طاعة لله، والعمل الذي يتحمّل به باذله وزراً هو ما كان في معصية الله.

وسبيل الله هو دينه، وصراطه المستقيم الذي رسمه لعباده حتى يسيروا فيه. وهو أيضاً ابتغاء مرضاته في اتباع أوامره واجتناب نواهيه، والتقيّد بأحكام شريعته، والوقوف عند حدوده، والمراد من الجهاد في سبيل الله هنا ما يكون به نشر دين الله، والدعوة إليه، ونصرة المسلمين والدفاع عنهم، وإقامة الحق والعدل في الأرض.

وبعد الأمر بالنفر والجهاد بالأموال والأنفس طاعةً لأمر الرسول أو أمر أمير المؤمنين من بعده، استحثّ الله عز وجلّ عواطف الذين آمنوا لتنفيذ ما أمروا به، بأنّه خيرٌ لهم ممّا يتصوّرُونَ المحافظةَ عليه من أموالٍ أو أنفس، فيما لو أثاقلوا إلى الأرض وتباطؤوا وتكاسلوا، ولم ينفروا مجاهدين في سبيل الله، فقال تعالى لهم.

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١١)

المشار إليه بـ ﴿ذَلِكُمْ﴾ هو النفر والجهاد بالأموال والأنفس.

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ :

أي : أكثر نفعاً وفائدة لكم عاجلةً وأجلةً من إثارة الإفساد والسلامة.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١١)

أي : إن كنتم تعلمون ما يعطيكم الله من خير عاجل وأجل علم يقين، غلبتم أن النفر والجهاد طاعةً للرسول أو لأميركم من بعده أكثر نفعاً وفائدة لكم، فلم تقصروا بالقيام بهذا الواجب الجهادي.



• قول الله عز وجلّ يتحدث عن المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك :

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَدَّتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ

وَسَيُخْلَفُونَ بِاللَّهِ لَوْ آسَظَطْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾

في هذه الآية يتحدث الله عز وجل عن عموم المنافقين المتخلفين عن الرسول ﷺ في غزوة تبوك، سواء من استأذن منهم ومن لم يستأذن، ولكن جاء بعد الغزوة معتذراً، مع أن الرسول قد أمر المسلمين بأن يتفروا أمر الزام، ولم يقتصر على التذنب، باستثناء ذوي الأعذار الشرعية، فعموم المنافقين سيخلفون للرسول وللمؤمنين مقسمين بالله على أنهم لو استطاعوا الخروج مع المؤمنين لخرجوا، وهم كاذبون، فقد كانوا يستطيعون الخروج، ولكن وجدوا أن الخروج إلى هذه الغزوة محفوف بالمتاعب الشديدة، والمخاطر الكثيرة، فالمواجهة ستكون مع جيش دولة عظيمة ذات إمبراطورية كبرى، لا مع جموع قبائل عربية، وهم إنما يخرجون للمشاركة في تحقيق مغانم، أو في غزوات قريبة يسرون بالخروج مع المسلمين فيها نفاقهم، ويقدرّون أنهم يملكون فيها سلامتهم.

جاء في سيرة ابن هشام: أن ناساً من المنافقين كانوا يجتمعون في بيت «سؤيلم» اليهودي، يبطون الناس عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فبعث إليهم النبي ﷺ طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه، وأمره أن يخرق عليهم بيت «سؤيلم» ففعل طلحة، فاقتحم الضحاك بن خليفة، من ظهر البيت فانكسرت رجله، واقتحم أصحابه فافلتوا، وكان منهم «ابن أبيرق» كما ذكر الضحاك في شعر له.

فيقول الله عز وجل بشأن المتخلفين من المنافقين:

﴿لَوْ كَانُوا﴾

أي: المأمور بالخروج إليه.

﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾

أي: شيئاً من متاع الدنيا قريباً يُمكن الحصول عليه وتناوله من قريب، كشأن غنائم خيبر.

الْعَرَضُ: كُلُّ مَا كَانَ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قَلَّ أَوْ كَثُرَ، سُمِّيَ عَرَضاً لِأَنَّهُ يَغْرِضُ وَيَزُولُ.

﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾:

أي: ولو كان المأمور بالخروج إليه سفراً سهلاً، فالقاصدُ من الأسفار السهلُ الذي لا عُسرَ فيه ولا شدة، يقال لغة: بيننا وبين الماء ليلة قاصدة، أي: هينة السَّير لا تعب فيها ولا مشقة.

﴿لَا تَبْعُوكَ﴾:

أي: لا تبتعد يا مُحَمَّدُ هؤلاء المتخلفون من المنافقين.

﴿وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾:

أي: ولكن بعدت عليهم المسافة التي يشق اجتيازها. تُطلقُ الشُّقَّةُ في اللغة ويراد منها السفرُ البعيدُ، والمسافة التي يشق اجتيازها، والمعنى: ولكن بعدت عليهم الشُّقَّة فلم يتبعوك ﴿و﴾ أخبر الله عز وجل المؤمنين عنهم قاتلاً لهم: إنهم بعد غَوْدَتِكُمْ من غزوة تبوك سيحلفون بالله لكم لو استطعنا لخرجنا معكم، دل عليه:

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾:

أي: لكم ﴿لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ وأبان الله عز وجل أنهم بهذه الأيمان الكاذبة ﴿يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: لأنهم يعرضونها لعقاب الله المعجل والمؤجل، وفي العقاب المعجل هلاك لهم، الهلاك: الموت، والتناقض المتدرج حتى الفناء، وذلك لأن الله الذي يحلفون باسمه كاذبين يعلم أنهم كاذبون، فيعاقبهم عقاباً مهلكاً لهم في الحياة العاجلة على كذبهم المؤقت عند الناس بالقسم باسمه، فقال تعالى:

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

فاكذ سبحانه أنهم كاذبون بعدة مؤكدات، هي: إن - والجملة الاسمية - واللام المزحلقة، وكبرت همزة «إن» بعد فعل «يعلم» لوجود اللام المزحلقة في خبرها.

• قول الله عز وجل :

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ
الْكَاذِبِينَ﴾ (١٢) لَا يَسْتَفِذُنَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١﴾ إِنَّمَا يَسْتَفِذُنَكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَزَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿١٥﴾ .

جاء فريق من المنافقين قبل خروج الرسول إلى غزوة تبوك يستأذنونهم في أن
لا يخرجوا معه، مُتَعَلِّلِينَ بأعذار لِقُوعِهَا، فقبل الرسول منهم أعذارهم بحسب ما أظهروا
من أحوالهم، وأذن لهم بعدم الخروج، فعاتبه الله عز وجل ونلطف معه بالعتاب، إذ
قدَّم عبارة العفو عنه، قبل سؤاليه سؤال عتاب عن سبب تعجله في الإذن لهم، دون أن
يتبين أحوالهم، ويتعلم الصادقين منهم في أعذارهم ويعلم الكاذبين، فقال له :

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ؟﴾ .

العفو أبلغ من الغفران، لأن العفو منحو للأثر، أما الغفران فهو ستر له .

وعبارة ﴿لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ؟﴾ استفهام فيه معنى العتاب .

وعبارة ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ مبنية على جملة محذوفة
تقديرها: كان ينبغي أن تترث في الإذن لهم، أو أن لا تأذن لهم حتى يتبين لك الذين
صدقوا وتعلم الكاذبين، وهذه الجملة المحذوفة يمكن إدراكها من توجيه السؤال
العتابي .

ولم يكن إذن الرسول لهم ذنباً أصلاً، لأنه لم يخالف فيه تكليفاً ولا توجيهاً
سابقاً، وإنما أرشده الله بهذا الأسلوب التعبيري إلى ما هو الأكمل والأحسن من تصرف
إداري في هذا الموضوع، فلقد كان من الأحكم والأحزم أن يتبين أحوالهم قبل أن
يأذن لمن أذن له منهم، ليكشف حقيقة هوياتهم صدقاً وكذباً، وبذلك يكشف نفاق
المنافقين من المستأذنين، وهذا الإرشاد له يتضمن أيضاً إرشاداً لقادة المسلمين
وأمرائهم من بعده، إن المفروض فيمن يؤلى الإمارة أن يكون مأذوناً له بأن يتصرف بما

يراه الأصلح ولو أخطأ في اجتهاده ولم يوافق ما هو الأصلح والأحكم، والتعقيب عليه يكون بلفت نظره إلى ما هو الأحكم والأحسن والأصلح.

وبعد هذا أبان الله عز وجل أن من صفات الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً صادقاً متجدداً حياً في قلوبهم وتصوراتهم، أنهم لا يستأذنون الرسول في ترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم على قدر استطاعتهم، إذا أمرهم بذلك أمر إلزام، بل تدفعهم بواعث تقوى الله إلى طاعة الرسول، فمن استطاع أن يبذل من ماله بذل منه، ومن استطاع أن يبذل من نفسه على قدره بذل، ومن استطاع أن يبذل من ماله ونفسه فعل، وذو العذر يعرض حاله على الرسول عرضاً منتظراً ما يأمر به، إن لم يكن من أهل الأعذار الظاهرة الذين جعل الله لهم استثناء، كما فعل البكلاء حين جاءوا إليه عارضين عليه أنهم لا يملكون ما يحتاجون إليه في هذه الغزوة، وطالبين أن يعطيهم ما يحملهم فيها، فقال لهم الرسول: لا أجد ما أحملكم عليه، وأذن لهم بالتخلف، فانصرفوا وهم يبكون حزناً لأنهم لا يجدون ما يُنفقون.

إن عرض الحال مع بيان الاستعداد للقيام بالعمل المستطاع يُمكن الرسول من توجيه كل فرد للعمل الذي يستطيعه مقيماً أو مسافراً، ضمن الخطة العامة.

وفي بيان هذا الوصف من صفات الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر قال الله عز وجل لرسوله:

﴿لَا يَسْتَفِذُنَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ١١٠﴾.

استعمل الفعل المضارع ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ للدلالة على أن إيمانهم متجدد متحرك حاضر في التصور، غير ساكن ولا غافل ولا غائب.

وذكر من أركان الإيمان الإيمان بالله واليوم الآخر لأنهما الركنان الرئيسان الباعثان على التقوى، بالطاعة في فعل ما أمر الله به وترك ما نهى عنه، وطاعة من أمر الله بطاعته.

وجاء المطلوب الإذن به بصيغة ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ وهذه الصيغة على تاويل مصدر

هو المجاهدة، والإِذْنُ بالمجاهدة يكون بفعلها، ويكون بتركها، أما فعلها فهو مأمور به كما دلت سوابق الآية، فبقي أنهم يطلبون الإِذْنَ بترك المجاهدة، فالكلامُ إِذْنَ على تقدير: لا يَطْلُبُ الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر الإِذْنَ بِتَرْكِ المجاهدةِ بأموالهم وأنفسهم.

ولما كان من الذين يخرجون ولا يستأذنون بالتخلف مؤمنون متقون ومنافقون، قال الله عز وجل:

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (٤٤)

أي: من الذين خرجوا ولم يستأذنوك، فالمتقون هم الذين يشيهم الله على خروجهم مجاهدين بأموالهم وأنفسهم، وهو عليم أيضاً بكل المتقين سواء الذين جاهدوا والذين لم يجاهدوا لسقوط الجهاد عنهم بسبب أعمارهم الحقيقية.

وأكد الله خَصَرَ طَلَبِ الاستِذْانِ بأقسام من المتمعين إلى المسلمين أخفهم الذين لا يكون إيمانهم بالله واليوم الآخر إيماناً مُتَجَدِّداً حياً عاملاً حاضراً في تصوّرهم المثير لإراداتهم، لذلك فهم يتعرضون لإِوَارِذَاتِ الشُّكُوكِ التي ترتاب بها قلوبهم حول قضايا الإيمان، فإذا ارتابت صاروا في ريبهم يترددون، لا يثبت فيهم إيمانٌ مستقرٌ يدفعهم بلا تردد إلى الجهاد بأموالهم وأنفسهم، وهؤلاء هم قسم ضعفاء الإيمان، وأشد منهم المنافقون المذبذبون بين الإيمان والكفر، وهم إلى الكفر أقرب، وأشد الأقسام المنافقون المستقرون في الكفر الذين مردوا على النفاق.

واستغنى النصّ بذكر أخف الأقسام لأن ذكرهم يدلّ من باب أولى على الذين هم أشد منهم، فقال الله عز وجل:

﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ

فِي رَيْبٍ مِّنْ رَّدِّدُون﴾ (٤٥)

﴿إِنَّمَا﴾:

أداة حصر.

﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

أي: الذين لا يجددون إيمانهم حتى يكون حياً فاعلاً مثلاً في تصوره: «أخذاً من صيغة الفعل المضارع» ولم يقل: الذين لم يؤمنوا، أو الذين ما آمنوا.

﴿وَأَزْنَابٌ قُلُوبُهُمْ﴾:

أي: وبسبب عدم تجديد إيمانهم، تعرّضوا للشكوك، فأنثرت تواردها على تصوراتهم حتى أرتابت قلوبهم.

﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ تَرَددُّونَ﴾:

أي: فهم في الشكوك التي انتقلت من تصوراتهم إلى قلوبهم، فزاحمت إيمانهم، فصاروا في قلوبهم وإراداتهم يترددون بين دواعي الإيمان، ونوازغ الشكوك، وهذا من أمراض القلوب التي قد يتعرض لها أهل الإيمان.

التردد: هو التقل بين طرفين ذهاباً ورجوعاً.

إن فهم الآية وفق هذا التحليل يكشف مدى العمق القرآني المعبر عن حركات النفوس البشرية فيما تتعرض إليه، ويكشف مدى دقته في الأداء.

ومن أساليب القرآن ذكر الأخف تنبيهاً على ما هو أشد منه، وذكر أعلى المراتب وأدناها تنبيهاً على ما بينهما، وكذلك ذكر أعلى الدرجات وأدناها، وذكر أول الأقسام وآخرها.

* قول الله عز وجل:

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِىكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا ضَعُفًا خَلَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِىكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ لَقَدْ اِسْتَفْزَأَ الْفِتْنَةُ مِنْ قَبْلِ وَلَقَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونِ﴾ ﴿١٨﴾

يتابع الله بهذا بيان حقيقة المستأذنين عن الخروج مع الرسول إلى غزوة تبوك، فيكشف أنهم منذ وجه الرسول الأمر بإعداد العدة والتجهز لغزو الروم في جهة تبوك لم تتوجه إرادتهم لطاعة الأمر، ومشاركة الرسول والمؤمنين معه في هذه الغزوة، بل كانوا عازمين على عدم الخروج، وكارهين له.

والدليل على ذلك أنهم لم يحاولوا إعداد عدة ما، منذ بدء توجيه الأمر، فأعذارهم الطارئة التي ذكروها أعذارٌ مخترعة كاذبة، إنهم لو أرادوا الخروج منذ توجيه الأمر بالاستعداد له، لآخذوا في محاولة إعداد عدة ما، ولو كانت دون المطلوب لهذه الغزوة، لكن شيئاً من ذلك لم يحصل فهم إذن ما أرادوا الخروج منذ بداية الأمر.

إن الله عز وجل يعلمنا بهذا أن ننظر إلى الامارات الظاهرات وأن نبحت عنها، لنستفيد منها في معرفة ما تخفي النفوس من إرادات ونيات ومعتقدات وغواطف حب وكراهية، فقال تعالى:

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا الْعُدَّةَ﴾:

أي: عدة ما، ولو كانت عدة قليلة لا تنفي بالمطلوب لهذه الغزوة.

لقد علم الله أحوال قلوبهم على اختلاف درجاتهم، من ضعفاء الإيمان الذين ارتابت قلوبهم، حتى المنافقين المذبذبين بين الإيمان والكفر وهم إلى الكفر أقرب، فأخس المنافقين وهم الذين مردوا على النفاق مستقرين في الكفر.

وعلم سبحانه وتعالى كراهيتهم الخروج مع الرسول ﷺ لغزو الروم، الأمر الذي كان قد ألمح الله إليه في الآية (١٦) من سورة (الفتح) كما جاء في النص (٣٠) من هذه الدراسة، وهو قوله تعالى فيها:

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدَّ عَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤَيِّدْكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

وإذ قد علم الله منهم كراهيتهم طاعة رسوله والجهاد في سبيله قابلهم بمثل ما في قلوبهم، فكرة أنبغائهم من مفاعدهم، فنبطهم عن النهوض للخروج مع الرسول في غزوة تبوك، ففعدوا مع القاعدين من أهل الأعذار العجزة.

التَّشْيِيطُ: إِقَامَةُ الْعَوَاقِقِ الْمَادِّيَةِ أَوْ النَّفْسِيَةِ عَنِ الْقِيَامِ بِالْعَمَلِ.

وكرهيةُ اللَّهِ أَنْبِعَانَهُمْ وَتَشْيِيطُهُ إِثَابُهُمْ مِنْ مَظَاهِرِ سُنَّةِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ، فِي الْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ، فِي الْحَبِّ وَالْكَرَاهِيَةِ، فِي إِرَادَةِ الْخَيْرِ وَإِرَادَةِ الشَّرِّ، وَنَحْوِ هَذِهِ الْأَصْدَادِ الْمُتَقَابِلَةِ.

فَمَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ.

وَمَنْ أَقْبَلَ نَحْوَ رَبِّهِ أَقْبَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ رَبِّهِ أَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَمَنْ أَرَادَ طَاعَةَ اللَّهِ وَفَعَلَ الْخَيْرَ أَعَانَهُ اللَّهُ وَأَمَدَّهُ بِالْقُوَّةِ وَالنَّشَاطِ، وَمَنْ لَمْ يُرِدْ فَعَلَ الْخَيْرَ وَلَمْ يُرِدْ طَاعَةَ اللَّهِ تَبَطَّ اللَّهُ وَأَقْعَدَهُ عَنْ فَعْلِ الْخَيْرِ، وَلَمْ يُعِنِّهِ عَلَى فَعْلِهِ.

وَمَنْ أَرَادَ مَعْصِيَةً مِنَ الْمَعَاصِي سَخَّرَ اللَّهُ لَهُ الْأَسْبَابَ وَمَكَّنَهُ مِنْ تَعَاطِيهَا.

وهكذا إلى سائر أعمال العباد ضمن دائرة قضاء الله وقدره وخلقه، وحكمته في امتحان عباده.

فالمعنى: ﴿وَلَكِنْ﴾ ما أرادوا الخروج، بل كرهوا الانبعاث من مقاعدهم ومشاركة المؤمنين الجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله فـ ﴿كَرِهَ اللَّهُ أَنْبِعَانَهُمْ﴾ فَيَسَّرَ اللَّهُ لَهُمُ الْأَسْبَابَ الَّتِي تُحَقِّقُ لَهُمْ مَا يُرِيدُونَ ﴿فَتَبَطَّهُمْ﴾ بها، فَفَعَدُوا عَنِ الْخُرُوجِ وَتَخَلَّفُوا ﴿وَقِيلَ﴾ لهم على سبيل التحقير والإهانة والازدراء: ﴿أَقْعُدُوا مَعَ الْفَاعِدِينَ﴾ مِنَ الْأُولَى الضَّرَرِ كَالْعُمَيَّانِ وَالْعُرْجِ وَالْمَرْضَى وَالْعَجْزَةِ، وَمَعَ الْفَاعِدِينَ مِنَ الصَّبِيَّانِ وَالنِّسَاءِ.

ولما كان هذا القول يَصْلُحُ أَنْ يَقُولَهُ لَهُمْ كُلُّ ذِي بَصِيرَةٍ، كَانَ الْمُنَاسِبُ أَنْ يَأْتِيَ بِصِيغَةِ الْمُبْنِيِّ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ.

فالله والرسول والملائكة والمؤمنون يزدرونهم على تخاذلهم وجبنهم وخذلهم للرسول والمؤمنين، فيقولون لهم: أَقْعُدُوا مَعَ الْفَاعِدِينَ مِنَ الضَّعَفَاءِ وَالْعَجْزَةِ وَأُولَى الضَّرَرِ.

بعد هذا الكشف لهوَيَةِ الْمُسْتَأَذِنِينَ عَنِ الْخُرُوجِ مَعَ الرَّسُولِ إِلَى غَزْوَةِ نَبُوكَ، أَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُ قَدْ كَانَ مِنَ الْخَبِيرِ لَهُمْ أَنْ لَا يَخْرُجُوا مَعَهُمْ فِي هَذِهِ

الغزوة ولا في غيرها، وذلك لثلاثة أسباب:

السبب الأول: دلَّ عليه قول الله تعالى:

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَازَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾:

أي: لو خرجوا معكم مختلطين فيكم ما زادوكم قوةً ومنعةً وتمكيناً، وإن يزيدوكم شيئاً فإنهم يزيدونكم خبالاً.

الخبال: الفساد في الفكر، أو في عضو من الأعضاء بسبب داء فيه كالشلل، أو بسبب قطعه، ويسمى الخبال بمعنى نقصان، وبمعنى الهلاك، وبمعنى السُّمِّ القاتل، وأعمالهم التي تزيد في الخبال هي الكذب والنميمة، وإثارة الشكوك والشبهات، وتثبيط العزائم بالأراجيف، والانخدال عند الشدائد وغير ذلك.

ولمَّا كان يوجد ضمن الذين خرجوا مع الرسول منافقون قد خرجوا لا ليجاهدوا ولكن لِيُفْسِدُوا، وليكونوا كعضوٍ أشلَّ، وليُدسُّوا الدسائس، وليُسْرِعُوا في الفتنة ما وجدوا لها سبيلاً، كان الذين استأذنوا في التخلُّف لو خرجوا مع الخارجين ما زادوا المؤمنين إلَّا جانب الخبال الذي يصنعه المنافقون الخارجون معهم مختلطين فيهم، وقد ظهر بعض هذا الخبال من المنافقين المشاركين في الغزوة.

فالاستثناء على هذا استثناء مُتَّصِل، ولا داعي لتصور كونه استثناءً منقطعاً، ولا للبحث عن تخريجات متكلفة.

السبب الثاني: دلَّ عليه قول الله تعالى:

﴿وَلَا وَضَعُوا لَكُمْ يَغْوَنَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾.

﴿وَلَا وَضَعُوا﴾:

أي: ولأفسدوا، وفي الشرِّ والضَّرِّ أسرعوا.

يقال لُغَةً: أَوْضَعَ الرَّجُلُ بَيْنَ الْقَوْمِ إِذَا أَسْرَعَ فِي الْإِفْسَادِ بَيْنَهُمْ، ويقال: أَوْضَعَ فِي الشَّرِّ إِذَا أَسْرَعَ فِيهِ، ويقال من الثلاثي: وَضَعَ الرَّجُلُ إِذَا أَسْرَعَ فِي سَبِّهِ.

﴿خَلَلَكُمْ﴾:

أي: في أماكن الفُرَج بين جَمْعِكُمْ أيها المؤمنون.
الْخِلَالُ: جَمْعُ الْخَلَّةِ، وهي الْفُرْجَةُ بين شيئين.
﴿يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ﴾:

أي: يَطْلُبُونَ لكم الفتنة، سَاعِينَ في فِتْنَتِكُمْ عن دينكم، واجتماع كلمتكم،
وترابط قواكم.

يقال لُغَةً: بَغَيْتُ لَكَ الْأَمْرَ، وَبَغَيْتُكَ الْأَمْرَ، أي: طلبته لك.

الفتنة: تُطْلَقُ للدلالة على معاني متعددة، منها: الضلال وارتياب الإثم، ومنها
الاضطراب وبلبلة الأفكار وتعارضها في المجتمع، ومنها إزالة الإنسان عما هو عليه من
أمر محمود العاقبة إلى أمر ذي عاقبة سيئة ذميمة. وهذه المعاني مجتمعة تصلح لأن
تراد هنا.

فالمعنى: ولو خرجوا معكم مختلطين في جماعاتكم لَأَسْرَعُوا ذَاخِلَ الْفُرَجِ التي
يجدونها بين صفوفكم وتجمعاتكم مُفْسِدِينَ، قاذفين شرارات الشر والضّر، طالبين مع
سعي خبيث فِتْنَتَكُمْ عن دينكم، وتشكيككم بوعد الله لكم، وتمزيق وحدتكم،
واضعاف قوتكم، وإثارة الاضطراب والبلبلة بين أفرادكم وأسرركم وجماعاتكم.

فمن الخير لكم أن لا يخرجوا معكم ولا يختلطوا فيكم.

السبب الثالث: دلّ عليه قول الله تعالى:

﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونُ وَأُمِّي﴾:

أي: وفيكم من أهل الإيمان والصلاح مَنْ لست لديهم حصانة فكرية ونفسية
ضدّ وساوسهم ودسائسهم وتسويلاتهم، فهم يُحْسِنُونَ الظَّنَّ بهم، ويتأثرون بأقوالهم
وأرائهم، وقد يندفعون معهم بحُسن ظنٍّ، وهم يحسبون أنهم يُحْسِنُونَ صُنْعاً، ففي
هؤلاء المعتذرين أفراد هم وجوه قومهم قبل الإسلام، وهم أهل رأي وحسن بيان،
ولهم صفات قيادية مؤثرة، فمن الخير أن لا يخرجوا معكم ويختلطوا فيكم حتّى
لا يؤثروا على فريق من أهل الإيمان والصلاح منكم بوساوسهم وتسويلاتهم وما يقذفون
به من دسائس وشبهات وشكوك وإرجافات مغلفة بمكر شديد.

وعلى المسلمين أن يعملوا بهذه النصيحة حتى آخر الدهر، فيستبعدوا في المواقف الحاسمة الرهيبة المنافقين والمرجفين والمتخاذلين وضعفاء الإيمان، لأن وجودهم سيكون له تأثير عكسي عليهم، فلا يزيد وجودهم عدداً ولا مدداً، ولكن يزيد ضعفاً وهناً وتخاذلاً وتفرقاً.

ووصف الله هؤلاء المعتذرين بأنهم ظالمون، لأنهم إما مرتابون أو منافقون، وإبان تعالى أنه عليم بهم، ظاهراً، وباطناً، فقال تعالى:

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٥٧):

أي: والله عليم بكل الظالمين، ومنهم المتحدث عنهم في النص.

وبعد بيان الأسباب الداعية إلى اعتبار عدم خروج المعتذرين مع المؤمنين خيراً للمؤمنين، وأكثر أمناً وسلامة لهم، لفت الله عز وجل أنظار المؤمنين إلى الشواهد التجريبية السابقة مع المنافقين وأهل الرب، فهذه الشواهد كافية للإقناع بأن من الخير أن لا يخرجوا معهم إلى قتال، وأن لا يكونوا معهم في المواقف الرهيبة الحاسمة، وأن من الخير لهم أن يعزلوهم عنهم، فقال الله عز وجل لرسوله:

﴿لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ (٥٨):

﴿لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾:

أي: فيما كان بينهم من أحداث وتصرفات منذ بداية ظهور النفاق في هذه الأمة الإسلامية، فسوابق النصوص القرآنية كافية شافية لمن أراد أن يطلع على تصرفاتهم في ابتغاء الفتنة، ومراجعة نصوص هذه الدراسة تكفي الباحث المتدبر.

﴿وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾:

يقال لغة: قلب الشيء قلبه قلباً، إذا جعل أعلاه أسفله، ويمينه شماله، وباطنه ظاهره، بحثاً عن كل دخائله وخفائيه.

وفعل «قلب» مضارع اللام ففيه زيادة في اللفظ تدل على زيادة في حركة القلب بحثاً

وتنقيباً. والتاجر حين يُقْلَبُ السلعة يَفْحَصُهَا، ليعرف مواضع العيوب والجودة فيها، والباحث حين يُقْلَبُ عناصر بحثه يُعَاوِلُ اكتشاف جُلُور هذه العناصر وفروعها وعلاقات بعضها ببعض، والماكر المحتال يجمع أكوام جيله ويُقْلَبُ بها ويتفتي منها واحدة فواحدة ويُصَرِّفُ أمره بها، فَإِنْ حَقَّقَتْ لَهُ مُرَادَهُ فذاك ما يَتَمَنَّى، وإلاَّ عَادَ يُقْلَبُ فِي أكوام حيله ليتفتي منها ما يَمَكُرُ به، وهكذا، حتى يستفد اختبار كُلِّ ما يَسْتَطِيع من حيلة، كذلك فعل المنافقون ضَدَّ الرسول مُحَمَّد ﷺ ودعوة الإسلام التي جاء بها، منذ مقدمه مهاجراً إلى المدينة، وكانت نبوء مكابدهم وأنواع مكرهم بالفشل والخيبة.

والأمور الَّتِي قَلَّبُوهَا هي ما كان لديهم من أمور المكر والكيد والحيلة مما يستطيعون اختباره أو ابتكاره، وتقليبها يكون بالبحث فيها، والانتقاء منها، ونطبق المتفتي منها بالعمل.

﴿ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُون ﴾ (٥٨):

أي: وظلُّوا كذلك يبتغون الفتنة، ويجربون أنواع مكرهم وكيدهم وحيلتهم ضَدَّ الرسول والإسلام والمسلمين، حَتَّىٰ أدركوا أَنَّهُمْ منهزمون خائبون في كُلِّ تصرفاتهم، وذلك حين جاء الحق بفتح مكة، وزهق الباطل، وظهر أمر الله وهو الإسلام على الشرك والمشركين، وسائر الكافرين في الحجاز، وَهُمْ كارهون، لأنهم كانوا يتربصون بالرسول والمؤمنين الدوائر، ويتربصون أن يتصر العرب المشركون في آخر الأمر، فلما صارت مكة دار إسلام، وانتهت زعامة مشركيها، وقامت فيها دولة الإسلام سُبُطَ في أيديهم، ولم يبقَ لديهم إلاَّ محاولات ضعيفة يخشون عواقبها، وأنَّ يتهربوا من مشاركة المسلمين في المواقف الصعبة والرهية، والَّتِي تكلفهم جهاداً بأموالهم وأنفسهم.

* قول الله عز وجل:

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أُنْذِرْنِي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ

لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (٩١):

روي أنَّ هذه الآية نزلت بشأن رأس من رؤوس النفاق وواحد من أعيانهم هو «الجدُّ بن قيس» أحد بني سُلَيمَة، وكان من أشرافهم.

وذلك أنَّ الرسول ﷺ بعد أن أمر بالتَّجْهِزَ لِقِتَالِ بني الأصفر (= الروم) في غزوة تبوك، لَقِيَ الجُدُّ بنَ قَيْسٍ والمسلمون يتجهَّزون ويُهَيِّئون ما يلزم لهذه الغزوة، فقال الرسول له: «هَلْ لَكَ الْعَامُ فِي جَلَادِ بَنِي الْأَصْفَرِ؟».

فقال الجُدُّ بنُ قَيْسٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ نَأْذُنُ لِي، وَلَا تَغْتَنِي، فوالله لقد عرف قومي أَنَّهُ ما من رجلٍ بأشدَّ عَجَبًا بالنِّسَاءِ مِنِّي، وَإِنِّي أَخْشَى إِنْ رَأَيْتُ نِسَاءَ بَنِي الْأَصْفَرِ أَنْ لَا أَصْبِرَ.

فأَعْرَضَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وقال له: «قَدْ أَذْنُتُ لَكَ». فقيه نزلت هذه الآية.

﴿وَمِنْهُمْ﴾: أي: ومن المنافقين الذين استأذنوا بأن لا يخرجوا مع الرسول في غزوة تبوك ﴿مَنْ يَقُولُ أَتَذُنُ لِي﴾: أي: دأبه أَنْ يَنْخَذِلَ عن الرسول في المواقف الصعبة، ففي حادثة بيعة الرضوان عند الحديبية، بايع جميع الذين كانوا مع الرسول يومئذٍ على أن يُقاتلوا ولا يفرّوا إذا لزم الأمر، إلّا الجُدُّ بنُ قَيْسٍ هذا، فقد توارى عن الناس مُسْتَتِرًا لاصِقًا بإبط ناقته، حتّى لا يروّوه فيدعوه إلى المبايعه، وكان جابر بن عبد الله يقول: وَاللَّهِ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ لاصِقًا بإبط ناقته، قَدْ ضَبَأَ إِلَيْهَا (أي: لجأ إليها) يَسْتَتِرُ بِهَا مِنَ النَّاسِ.

﴿وَلَا تَغْتَنِي﴾ ولا تُلْزِمُنِي بالخروج، فلَمَنِي إذا خرجت ورايت نساء بني الأصفر افْتَنَّتُ بهنَّ، فتكون يلزماك لي أن أخرج قد فتننتي، أي: تَسَبَّبَتْ بفتنتي، والمراد من الفتنة هنا الميل إلى النساء والشغف بهنَّ المؤدّي إلى الخروج عن المطلوب الجهادي الذي يخرج من أجله، أو الوقوع في كبيرة الزنا.

وجاء في الصحيح على ما ذكر ابن كثير، أن رسول الله ﷺ سأل بني سَلَمَةَ: «مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سَلَمَةَ؟».

قالوا: الجُدُّ بنُ قَيْسٍ، عَلَى أَنَا نُبْخَلُهُ.

فقال رسول الله ﷺ: «وَأَيُّ ذَاكَ أَتَوْا مِنَ الْبُخْلِ؟! وَلَكِنْ سَيِّدُكُمْ أَلْفَتَى الْجَعْدُ الْأَبْيَضُ يَشْرُبُ الْبَرَاءَ بْنَ مَعْرُورٍ».

وفي التعليق على المعتزتين بأعذار مختلفة كاذبة كاعتذار الجذ بن قيس قال الله تعالى :

﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾.

الأ: حرفٌ يستفتح به الكلام لغرض التنبيه، والإشعار بأهمية مضمون الكلام الذي يأتي بعده، وهو يدخل على الجملتين الاسمية والفعلية.

في الفتنة سَقَطُوا: تُطْلَقُ الْفِتْنَةُ عَلَى الضَّلَالِ وَارْتِكَابِ الْإِثْمِ، وَتُطْلَقُ عَلَى الْإِحْرَاقِ وَالتَّعْذِيبِ بِالنَّارِ، وَهَذَانِ الْمَعْنَيَانِ مِنْ مَعَانِي الْفِتْنَةِ هُمَا الْمَلَاثِمَانِ هُنَا، فَاعْتَذَرَهُمُ الْكَاذِبُ لِلتَّهَرُّبِ مِنْ وَاجِبِ الْخُرُوجِ لِلْقِتَالِ الَّذِي أَمَرَ بِهِ الرَّسُولُ إلِزاماً، هُوَ مِنَ الْمَعَاصِي الْكَبِيرَةِ الَّتِي سَقَطُوا بِهَا فِي أَوْحَالِ الْإِثْمِ الْعَظِيمِ، وَفِي اسْتِحْقَاقِ التَّعْذِيبِ بِالْإِحْرَاقِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

وجاء التعبير بالسقوط ملائماً لكلِّ مَنْ مَعْنِيهِ الْوُقُوعُ فِي حُفْرَةِ الْإِثْمِ الْكَبِيرِ، وَالْوُقُوعُ فِي حُفْرَةِ عَذَابِ السَّعِيرِ، الَّذِي يَسْتَحِقُّونَهُ بِتَفَاقِهِمْ.

وجاء تقديم المعمول وهو «في الفتنة» على عامله وهو فعل «سَقَطُوا» للدلالة على أَنَّ اعْتَذَرَهُمُ الَّذِي أَوْهَمُوا أَنَّهُمْ قَدْ حَمَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنَ السَّقُوطِ فِي الْفِتْنَةِ، لَمْ يَكُنْ مِنْ نَتَائِجِهِ إِلَّا أَنَّهُمْ سَقَطُوا فِي الْفِتْنَةِ الْأَشَدِّ، وَبِهَذَا نَفْهَمُ مَعْنَى الْقَصْرِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ تَقْدِيمُ الْمَعْمُولِ عَلَى عَامِلِهِ، أَي: مَا اكْتَسَبُوا إِلَّا السَّقُوطَ فِي الْفِتْنَةِ الْأَشَدِّ.

وَإِذْ سَقَطُوا فِي الْفِتْنَةِ الَّتِي يَتَعَرَّضُونَ بِسَبِيلِهَا لِعَذَابِ جَهَنَّمَ، فَلْيَعْلَمُوا أَنَّ جَهَنَّمَ مُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ جَمِيعاً، سَوَاءٌ أَكَانُوا مُعَلِّينَ كُفْرِهِمْ، أَوْ كَانُوا مُخْفِينَ لَهُ مُخَادَعَةً وَنِفَاقاً، فَلْيَعْبُدُوا أَنْفُسَهُمْ لِعَذَابِهَا إِنْ كَانُوا مُنَاقِقِينَ، فَهُمْ يَكُونُونَ دَاخِلِينَ فِي عُمُومِ الْكَافِرِينَ، فَقَالَ تَعَالَى :

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

واستعملت الإحاطة للدلالة على أَنَّ مِنْ تَحِيطِ بِهِ النَّارُ لَا يَجِدُ لِنَفْسِهِ مَخْرَجاً يَنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ الْحَرِيقِ فِيهَا، مَتَى جَاءَ زَمَنُ تَعْذِيبِهِ فِيهَا بِالْعَدْلِ عِقَاباً عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ مِنْ كُفْرٍ وَظُلْمٍ وَإِثْمٍ.

• قول الله عز وجل:

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسُوءُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا أَقْدَأَخَذْنَا
أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا
هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى
الْحُسْنَيْنِ وَمَنْ نَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا
فَرَبِّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

في هذه الفقرة بيان لحالة المنافقين النفسية بالنسبة إلى النعم والمصائب التي
تنزل بالرسول أو بالمؤمنين، ولا سيما في المواجهات الحربية التي تكون بينهم وبين
أعدائهم من المشركين، أو من الكافرين الآخرين، فسوابق هذه الفقرة قد تحدثت عن
غزو الروم في غزوة تبوك، وهم نصارى أهل كتاب.

إن حالة المنافقين النفسية التي يكتُمونها وقد تظهر أماراتها أمام الرسول
والمؤمنين الصادقين، أنهم إذا نزل بالمسلمين ما يسرهم ويفرحهم، ساءهم ذلك، وإذا
نزل بالمسلمين ما يسوؤهم ويحزنهم، سرهم ذلك وأفرحهم.

والسبب في هذه الحالة النفسية التي يتقلبون فيها أنهم في حقيقة أمرهم
كافرون، وأنهم أعداء للرسول وللمؤمنين الصادقين، وأنهم يترَبَّصون بهم الدوائر، وأن
قلوبهم ونفوسهم وعواطفهم مع إخوانهم الذين هم مثلهم في الكفر، فالمنافقون من
المشركين هم مع المشركين، والمنافقون من اليهود هم مع اليهود، والمنافقون من
النصارى هم مع النصارى، وجميعهم على وجه العموم يتمنون الشر والضرر والهزائم
للرسول وللمؤمنين معه، فيفرحون إذا نزل بهم شيء من ذلك، ويستأذون إذا نزل بهم
خير، أو حقق الله لهم النصر والظفر بالغنائم.

وإذا جاء هذا البيان في معرض الأحداث التي تكون بسبب المواجهات الحربية
بين المسلمين وأعدائهم، فإن أول ما يدخل فيما يسوء ويسر، نصرة المسلمين وظفرهم
بالغنائم، وهزيمتهم وتبيل عذوبهم منهم، فما يسر المسلمين منها يسوء المنافقين، وما
يسوء المسلمين منها يسر المنافقين.

ولَمَّا كَانَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ هُوَ قَائِدُ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَإِنَّ آيَةَ حَسَنَةِ تَصِيبِ أَمْتِهِ فِي حَسَنَةِ تَصِيبِهِ، وَإِنَّ آيَةَ سَيِّئَةِ تَصِيبِ أَمْتِهِ فِي سَيِّئَةِ تَصِيبِهِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ:

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسُّوهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَكَتَلُوا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ ﴿٥٠﴾.

وقد سبق أن أنزل الله عز وجل في سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول) في النص الثامن من هذه الدراسة قوله بشأن المنافقين خطاباً للذين آمنوا:

﴿إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً فُسُّوهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ ﴿١٢٠﴾.

وكان إنزال هذه الآية في أوائل العهد المدني، ثم أنزل الله عز وجل في أواخر العهد المدني في سورة (التوبة) الآية المسوقة للتدبر.

ونلاحظ في هذين النصين أنَّ الحالة النفسية للمنافقين قد بقيت على ما كانت عليه لم تتغير، مع مرور السنين المتعددة على مخالطتهم للمؤمنين، ومشاركتهم لهم في كثير من ظواهر السلوك، وهذا يدلُّ على أنَّ العدوَّ المنافق الكافر بما يؤمن به المؤمنون لا تتغير حالة قلبه ونفسه بطول المعاشرة والمخالطة، ما لم يتخلص من كفره بالإيمان الصحيح الصادق.

وإضافةً إلى هذه الدلالة ذات الفائدة العظيمة للمؤمنين فقد جاء في النص الذي نزل متأخراً في أواخر العهد المدني دلالات لم يدلَّ عليها النص السابق.

الدلالة الأولى: أنَّ ما ينزل بالمسلمين من حسنات ومصائب فهي تُصيب الرسول ﷺ، وهو يشعر بأعظم المشاعر التي يشعر بها المؤمنون، إذ هو قائدهم، وإمامهم، وهمة من أجلهم على مقدار همومهم مجتمعة، فقضيتهم جميعاً هي قضيتهم، فهذه الدلالة قد دلَّ عليها النص اللاحق.

الدلالة الثانية: أنَّ المنافقين يُخاوِلُون دوماً التهرب من المواقف التي يتوقعون أن تنزل فيها بالرسول والمؤمنين معه مصيبة ما، كَهَزِيمَةٍ وَانْكَسَارٍ فِي مَعْرَكَةٍ قِتَالِيَّةٍ مَعَ عَدُوِّهِمْ، فَإِذَا حَصَلَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَقَدْ كَانُوا مِمَّنْ تَخَلَّفَ أَوْ اخْتَذَلَ قَالُوا: قَدْ اخْتَطْنَا لَأَنْفُسِنَا، فَلَمْ تَتَوَرَّطْ مَعَ الَّذِينَ تَوَرَّطُوا مِنَ الَّذِينَ غَرَّهُمْ إِيْمَانُهُمْ وَهَذِهِ الدلالة قد دلَّ

عليها النصّ اللاحق أيضاً، وربما أعلنوا أنهم كانوا أهل عقل وروية وحكمة من قبل.

الدلالة الثالثة: أنّ المنافقين إذا كانوا في بعض مجالس المؤمنين، وبلغهم ما نزل بالرسول والمؤمنين من مصيبة في غزوة من الغزوات، قاموا وأذبروا وابتعدوا إلى بيوتهم أو مجامعهم الخاصة فرحين بالمصيبة التي نزلت، وهذه الدلالة قد دلّ عليها النصّ اللاحق أيضاً.

الدلالة الرابعة: أنّ المنافقين إذا مست المؤمنين حسنة ما مسّ سطجياً خفيفاً ساءهم ذلك، لأنهم لا يريدون أيّ خيرٍ منهما كان قليلاً أن يُسرّ به المؤمنون، إذ هم أعداء حقيقيون، وهذه الدلالة قد دلّ عليها النصّ السابق فقط.

فتكاملت دلالات النصّين بصورة بديعة:

﴿إِنْ تُصِيبْكَ﴾:

أي: إن تنزل بك يا مُحَمَّد، وما نزل بالمؤمنين فقد نزل بك.

﴿حَسَنَةً﴾:

أي: نعمة سارة لك.

﴿شُؤْهُمْ﴾:

أي: تجعلهم يشعرون بالألم أو النفور والكراهية.

﴿وَإِنْ تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ﴾:

أي: وإن تنزل بك يا مُحَمَّد مُصِيبَةٌ ما، وما نزل بالمؤمنين فقد نزل بك.

المصيبة: كلُّ مكرّوه ينزل بالإنسان، وتجمع على مصائب.

﴿يَقُولُوا أَقَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ﴾:

أي: يقولوا: قد أخذنا لأنفسنا بالرأي السديد العمل والتصرف الذي نحفظ به أمرَ سلامتنا من التعرّض للمصيبة، من قبل أن تقع المصيبة، إذ لم نُعرّض أنفسنا لأسباب حدوثها، بالعقل والروية والحكمة.

﴿وَيَسْتَوِلُّوا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾:

التولي: الإدبار والابتعاد والانصراف من المجلس. والمعنى أنهم يتعدون من مجالس المؤمنين وهم فرحون. إذ لم تنزل بهم المصيبة التي نزلت بالمؤمنين، بسبب أنهم لم يشاركوهم فيما اتجهوا له.

وبعد بيان هذه الحالة النفسية للمنافقين، التي قد تظهر أماراتها أمام الرسول والمؤمنين الصادقين من أهل الفطنة والخبرة بالناس، علم الله رسوله وكل مؤمن أن يبين لهم بأسلوب الخطاب أو بأسلوب التعريض، بحسب مقتضيات الأحوال ست مقولات تعالج موقفهم هذا:

المقولة الأولى: دل عليها قول الله في التعليم:

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾:

أي: لن يصيبنا من حسنة نسرنا أو مصيبة تسوؤنا إلا شيئاً قد سبق أن قضاه الله وقدره وكتبه لنا قبل أن يحدث، وكل ما قضاه الله مما يسرنا أو يسوؤنا فهو لخيرنا ومصلحتنا، فما كتبه الله من ذلك - ونحن مؤمنون به، لم نتخذ ولياً غيره - فهو لنا، أي: لخيرنا ومصلحتنا، وليس علينا، وإن كان بحسب الظاهر مصيبة تسوؤنا، ونحن نكرها لأنها تخالف ما نحب ونهوى من أمور دنيانا، فكم يكره الإنسان بنظره القاصر وحبه النفع العاجل شيئاً، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً.

المقولة الثانية: دل عليها قول الله تعالى في التعليم:

﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾:

أي: الله مولانا، لا مولى لنا غيره، فهو ربنا، وسيدنا والمتولي جميع أمورنا، ونحن عبيده المعترفون له بالعبودية التامة، المسلمون له كل أمورنا، المتمنون له، والمستنصرون به، والمفوضون له، ومن اتخذ الله ولياً تولاه الله، فلم يقض له إلا ما هو خير له في عاجل أمره وأجله، وإن كان بحسب الظاهر مصيبة تسوء قاصري النظر، الذين لا يحيطون علماً بالعواقب.

المقولة الثالثة: دل عليها قول الله في التعليم:

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٥١):

أي: ونَحْنُ قَدْ تَوَكَّلْنَا عَلَى اللَّهِ، لَأَنَّا مُؤْمِنُونَ بِهِ، مع اتِّخَاذِنَا الْأَسْبَابَ الَّتِي أَمَرْنَا بِهَا، وَأَوْصَانَا بِاتِّخَاذِهَا، وعدم التفریط بشيءٍ منها، طَاعَةً لَهُ، فالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الرَّبِّ الْخَالِقِ الَّذِي هُوَ مَوْلَاهُمْ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ، يَجِبُ عَلَيْهِمْ مَعَ قِيَامِهِمْ بِمَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ مِنْ أَسْبَابٍ أَنْ يَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لِيَحَقَّقَ لَهُمْ أَفْضَلَ مَا يَرْجُونَ مِنْ خَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَيُعْذِّبَهُمْ بِعَوْنِهِ وَتَأْيِيدِهِ وَنَصْرِهِ، وَيُصَرِّفَ عَنْهُمْ فِي سُبُلِ حَيَاتِهِمُ الْمَوَانِعَ وَالْعِقَابَ، وَيُسِّرَ لَهُمُ الْأَسْبَابَ.

المقولة الرابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ فِي التَّعْلِيمِ:

﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بَنًا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ؟﴾.

التَّرِئُصُ: الْإِنْتِظَارُ، بِقَالَ لُغَةٍ: تَرِئُصُ فُلَانٌ فُلَانًا، أَي: انْتَظِرْ خَيْرًا أَوْ شَرًّا يَحُلُّ بِهِ.

تَرِئُصُونَ: تَتَرِئُصُونَ حَذَفَتْ إِحْدَى التَّاءَيْنِ نَخْفِيفًا.

أي: إِنَّكُمْ بِتَصَوُّرِكُمْ وَبِحَسَبِ رَغْبَاتِكُمْ وَمَا تَتَمَنَّوْنَ أَنْ يَحُلَّ بِنَا تَنْتَظِرُونَ أَنْ تَدُورَ الدَّوَائِرُ عَلَيْنَا، وَيَنْصَرَّ عَلَيْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا، الَّذِينَ أَنْتُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَاطِنِ وَلَكِنْ كُنْتُمْ فِي الْوَاقِعِ وَحَقِيقَةِ الْأَمْرِ لَا تَتَرِئُصُونَ بِنَا - وَاللَّهُ مَوْلَانَا - إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ:

الْحُسَيْنِيُّ الْأَوَّلَى: هِيَ أَنْ يَنْصُرَنَا اللَّهُ، وَيُحَقِّقَ لَنَا التَّمَكِينَ فِي الْأَرْضِ، وَالْمَجْدَ، وَمَا يَتَّبِعُ ذَلِكَ مِنْ تَأْيِيدِ الدِّينِ، وَانْتِشَارِهِ، وَالْفَتْحِ الْمُبِينِ، مَعَ مَا نَنْظُرُ بِهِ مِنْ غَنَائِمٍ وَمَنَافِعَ دُنْيَوِيَّةٍ، وَأَجْرٍ عَظِيمٍ آخِرَوِيٍّ عِنْدَهُ.

الْحُسَيْنِيُّ الثَّانِيَّةُ: هِيَ أَنْ يَقْضِيَ اللَّهُ بِالشَّهَادَةِ لِمَنْ انْتَهَى أَجَلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَنَّا، فَيُنَالِ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْأَجْرِ وَالْكَرَامَةِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ مُلْكِ الدُّنْيَا كُلِّهَا.

الْحُسَيْنِيُّ: مُؤَنَّثٌ وَأَحْسَنُ الَّذِي هُوَ عَلَى رُؤْيٍ وَأَفْعَلٌ لِلتَّفْصِيلِ، وَالْحُسَيْنِيُّ وَصِفٌ لِمَوْصُوفٍ مُؤَنَّثٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: النُّعْمَةُ، أَوِ الْعَطِيَّةُ الرَّبَّانِيَّةُ، أَوِ الْمَقْضِيَّةُ بِقَضَاءِ اللَّهِ الْحُسَيْنِيُّ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ.

وَهَلْ تُوجَدُ مَنَحٌ هِيَ أَفْضَلُ وَأَحْسَنُ مِنَ النَّصْرِ أَوْ الشَّهَادَةِ.

وَالْتَّرِيدُ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْحُسَيْنَيْنِ لَا يَمْنَعُ مَنْ تَحَقَّقَهُمَا مَعًا، فَيَغْنُصُ الْمُؤْمِنِينَ يَنَالُونَ

الشهادة والباقون ينالون النُصْرَ والتمكين، فهما بالنسبة إلى مَجْمُوعِ المؤمنين لا يَمْتَنِعُ اجتماعهما^(١).

المقولة الخامسة: دلَّ عليها قول الله في التعليم:

﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ يَأْتِيَ بِنَا﴾:

أي: ونَحْنُ أيضاً نَنتظر أن تجلَّ عليكم إحدى نَقَمَتَيْنِ مُعْجَلَتَيْنِ في الحياة الدنيا من رَبِّكُمْ، ولا مانع من اجتماعهما:

النقمة الأولى: أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ، كما أنزل بالَّذِينَ كَفَرُوا وَنَافَقُوا مِنْ قَبْلِكُمْ، إِنَّ الْعُقُوبَاتِ الَّتِي تَأْتِي بِالْكَوَارِثِ وَالْمَصَائِبِ مُخْتَلِفَةٌ الْأَشْكَالِ وَالْأَنْوَاعِ، منها الزلازل، والفيضانات، والصواعق، والأمراض الوبائية، والرياح والصَّيْحَاتِ المهلِكة، وتقاتل الناس بعضهم مع بعض، في فِتْنٍ قَوْمِيَّةٍ أَوْ إقْلِيمِيَّةٍ، أو غير ذلك.

النقمة الثانية: أَنْ يُسَلِّطَنَا اللَّهُ عَلَيْكُمْ، فيأذنَ لَنَا بِقِتَالِكُمْ، وأخذكم حيث وجدناكم، واستتصالحكم، حتَّى لَا يَكُونَ بَيْنَ صَفُوفِنَا وَمَجْتَمَعِنَا الْإِسْلَامِيِّ مُنَافِقُونَ.

المقولة السادسة: دلَّ عليها قول الله في التعليم:

﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾:

أي: فتَرَبَّصُوا بنا كما يَحُلُّو لَكُمْ، فَتَحْنُ وَابِقُونَ مِنْ رَبَّنَا الَّذِي هُوَ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَنَا غَيْرُهُ، وعليه توكُّلْنَا.

وَإِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ مَا يُحَقِّقُهُ اللَّهُ لَنَا مِنْ خَيْرٍ، وما يَحَقِّقُهُ لَكُمْ مِنْ عَذَابٍ وَنِقْمَةٍ، ضمن مجاري حكمته في قضاائه وَقَدَرِهِ، وَنُصْرَتِهِ لِأَوْلِيَائِهِ، وَجَذْلَانِهِ لِأَعْدَائِهِ.

* * *

* قول الله عز وجل:

(١) هذه القضية (هل تَرَبَّصُونَ بنا إلَّا إحدى الحسين؟) تصلُّحُ مثالاً لما يُسَمَّى في المنطق بِمَانِعَةٍ الْخَلْوِ فَقَطْ، أي: لَا يَخْلُو الْأَمْرُ مِنْ إِحْدَاهُمَا، مع إمكان اجتماعهما.

﴿قُلْ أَنِفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَن يَقْبَلَنَّ مِنْكُمُ الْإِثْمَ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٧﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن يَقْبَلُوا مِنْهُمْ نَفَقَتَهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَسَالَى وَلَا يَنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

في هذه الفقرة يُعلِّم الله رسوله وكل مؤمن كيف يَغيظون المنافقين في شأن النفقات الإسلامية التي ينفقونها مضطرين كارهين، لستر نفاقهم ببذلها كما يتذللها أهل الإيمان، وهي قسمان من النفقات:

القسم الأول: النفقات الواجبة التي تؤخذ منهم بسلطان الدولة الإسلامية كالزكاة، وهذه يبذلونها أو تؤخذ منهم على سبيل الإكراه.

القسم الثاني: النفقات غير الواجبة التي يبذلونها طائعين كما يبذل المؤمنون الصادقون، ولكنهم لا يبذلونها إيماناً مُحْتَسِبِينَ عند الله أجراً عليها، بل يبذلونها تَقِيَّةً، وليحققوا ببذلها مصالح لهم عند الرسول أو جماعة المؤمنين، كالمعونات التي يقدمونها للجهاد في سبيل الله، وكالصدقات التي يُنْذِبُ المسلمون لبذلها، من أجل الفقراء والمساكين، أو المصالح العامة.

وإغاطة المنافقين بشأن ما يُنْفِقُونَ من أموال طائعين أو مُكْرَهين، تكون بإعلامهم أنها تؤخذ منهم بحسب ظاهر إسلامهم، ثم لا تكون لها ثمرة عند الله، لأن الله لَا يَقْبَلُهَا مِنْهُمْ، وَلَا يُثَبِّتُهَا عَلَيْهَا، أي: لَا يُدَوِّنُهَا لَهُمْ ضمن الأعمال الصالحة التي يثيب عليها، فشرط قبول العمل الصالح عند الله، أن يكون مبنياً على القاعدة الإيمانية الصحيحة بالله عز وجل وبكل ما أُمِرَ بالإيمان به، وأن يَتَنَفَّى به وجه الله، وأن يكون على ما شرع الله أو أذن به.

والمنافقون كافرون باطنًا، ولا يعملون الصالحات ابتغاء مرضاة الله، فإله لا يقبل منهم الأعمال التي يرى الناس أنها تدخل في جداول الأعمال الصالحة.

ولذلك جاء في التعليم:

﴿قُلْ أَنِفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَن يَقْبَلَنَّ مِنْكُمُ الْإِثْمَ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

طَوْعاً أَوْ كَرْهاً: أي: مختارين أو مجبورين.

الطَّوْعُ: هو الانقياد للفعل بالاختيار.

والكَرْهُ: هو أداء الفعل بالجبَر دون اختيار.

قرأ جمهور القراء العشرة [كَرْهاً] بفتح الكاف، وقرأ حمزة والكسائي وخلف [كُرْهاً] بضَم الكاف. وهما مصدران بمعنى الإكراه، فالقراءتان اشتملتا على وجهين لِنُطْقِ الكلمة في العربية.

وانتصب [طَوْعاً أَوْ كَرْهاً] على الحالية بتأويلهما بمشتق، أي: طائعين أو مُكْرَهين.

﴿لَنْ يُقْبَلَ مِنْكُمْ﴾:

أي: عند الله يوم الدين ضمن قبوله لصالحات أعمال العباد، أما في الإجراء البشري فتؤخذ مِنْهُمْ النفقات الواجبة إذا تمتعوا من أداؤها، وَهُمْ مُكْرَهُونَ، وتؤخذ منهم النفقات التي يذلونها طائعين في أبواب البر، مع أنهم غير متفيعين بها عند الله.

ويقال لكم يوم الدين:

﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾:

أي: إنكم كنتم خارجين عن دائرة الإيمان بما كان يجب عليكم أن تؤمنوا به، وعن دائرة الطاعة لربكم التي كان يجب عليكم أن ترغوها.

بعد هذا أبان الله عز وجل السبب في عدم تقبل الله نفقاتهم التي يذللونها في وجوه الخير بحسب الظاهر، فقال تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾.

كان المتبادر بحسب مفهومات الناس أن يُقال: وَمَا مَنَعَ اللَّهُ أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُمْ نفقاتهم إلا أنهم... إلى آخر ما جاء في الآية.

لكنَّ اللَّهَ لَا يَمْنَعُ شَيْءٌ لَوْ شَاءَ أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتِهِمْ بَقِيَ أَنَّهُمْ هُمُ الْمَمْنُوعُونَ من أن يُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ، فجاء التعبير القرآني مبيناً أن كُفْرَهُمْ في الباطن الذي تدلُّ

عليه أماراته في الظاهر، هو الذي كان مانعاً لهم من أن تكون نفقاتهم واصله إلى الله ومقبولة عنده، إن ما كان لغير الله فهو لا يصل إلى الله، فالمانع له من الوصول إلى الله هو كونه لغير الله بسبب أنهم كفروا بالله وبرسوله، والفاعل الحقيقي في هذا المنع هو الله عز وجل.

قرأ جمهور القراء العشرة [أن يُقبل] بالتأنيث لأن نائب الفاعل مؤنث.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف [أن يُقبل] بالتذكير لأن نائب الفاعل مجازي التأنيث فيجوز فيه التذكير.

فالقراءتان وجهان عربيان جائزان.

قد يقال: إن كفرهم هو المانع من وصول نفقاتهم إلى الله ومن قبولها عنده، فلم يحطف عليه كونهم لا يأتون الصلاة إلا كسالى، ولا ينفقون إلا وهم كارهون؟ فهل المانع مركب من هذه الثلاثة؟

ويمكن أن نجيب بأن حرف العطف الذي هو «الواو» في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ...﴾ هو بمعنى «الفاء» فقد ذكر علماء اللغة العربية أن «الواو» تأتي أحياناً بمعنى «الفاء» فالمعنى على هذا أن المانع هو كفرهم الذي ترتب عليه في سلوكهم أنهم لا يأتون الصلاة إلا في حال أنهم كسالى، ولا ينفقون طوعاً أو كرهاً إلا في حال أنهم كارهون أن ينفقوا، غير راغبين في البذل، وقد جاء هذا البيان لإعلام المؤمنين بأن يستبدلوا بظواهر السلوك وأمارات هذه الظواهر على ما في الضمائر.

سبق أن كشف الله من صفات المتأففين أنهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس، وذلك في الآية (١٤٢) من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) وسبق شرح هذه الآية في النص (١٨) من هذه الدراسة. والسبب في تكاسلهم وكراهيتهم أنهم غير مؤمنين بجذوى ما يؤدون، ومن المعلوم في طبائع الناس أن من يعمل عملاً ما وهو غير مؤمن بجذواه لنفسه، فإنه لا يؤديه إلا كرهاً، وإذا كان يحتاج إلى بذل طاقة جسدية فإنه لا يبذل هذه الطاقة إلا بشاغل وكسل وقنور، لا بنشاط وهمة ورغبة.

وفائدة إعادة ظاهرة تكاسلهم في أداء الصلاة ما في النصين من تكامل، مع لفت أنظار المؤمنين هنا إلى أن هذه الظاهرة هي إحدى الامارات المهمة الدالة على نفاق المنافقين.

فالآية التي في سورة (النساء) توجه لملاحظة تكاسلهم حين القيام إلى الصلاة ضمن جماعة المصلين من المؤمنين.

والآية التي في سورة (التوبة) توجه لملاحظة تكاسلهم حين إتيانهم من بيوتهم أو مواقع وجودهم إلى أداء الصلاة مع المصلين، وأنهم لا يأتونها إلا كسالى. فالربط بين الملاحظتين يقوي دلالة الأمانة على نفاقهم مع دلالة الحصر في آية (التوبة).

والآية التي في سورة (النساء) تكشف أنهم يراءون الناس بصلاتهم، ولا يؤدونها إيماناً بجذواها وابتغاء مرضاة الله منها.

والآية التي في سورة (التوبة) تكشف أنهم يؤدون الأعمال الإسلامية وهم كارهون لأدائها، وذلك عن طريق دلالة قياس أدائهم للصلاة التي لا يأتونها إلا كسالى على الإنفاق الذي لا يفعلونه إلا وهم كارهون فعله. فتكاملت الدلالات في النصين.



• قول الله عز وجل خطاباً لرسوله فكل مؤمن بأسلوب الخطاب الإفرادي:

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ﴾ :

الإعجاب بالشيء استحسانه، وقد يصاحب هذا الاستحسان الشعور بأنه أمر مفاجئ جاء على خلاف التوقع بالنسبة إلى سابق التصور.

لذلك فقد يولد عند الجاحد إنكاراً، وقد يولد شكوكاً حول حقيقته، وقد يولد

تساؤلات حول سبب وجوده، وقد يولد إعظماً وإكباراً عند المندعش به، وقد يقتصر الإعجاب على الاستغراب دون الاستحسان.

يقال لغة: عَجِبَ من الشيء يَعْجُبُ عَجْباً، وَعَجْباً، وَعُجْباً، ويقال: أَعْجَبَهُ الأمرُ، إذا حَمَلَهُ على الْعَجَبِ منه، وكذا إذا عَجِبَ مِنْهُ وَسُرَّ بِهِ، وَأَعْجَبَ بِالْأَمْرِ، أي: عَجِبَ مِنْهُ واستحسنه.

﴿وَتَزَهَّقَ أَنْفُسُهُمْ﴾:

أي: وتزول أنفسهم وتضمحل بخروج أرواحهم وانفصالها عنهم بشدة وصُعوبة.

أصل الزهوق السبق والتقدم، وزهوق الباطل يكون بسرعة زواله واضمحلاله، وزهوق النفس يكون بأن تسبق إلى أن تذوق الموت وغصته قبل أن تحقق مراداتها من دنياها.

والخطابُ في الآية موجّه بأسلوب الخطاب الفردي للرسول فلكلّ مؤمنٍ قد يتعرّض للإعجاب بأموال وأولاد المنافقين، والمقصود إقناع المؤمنين، وخُوطب الرسولُ باعتباره أولهم وقائدهم، مع أنه صلوات الله عليه وسلاماته لا يتعرّض لمثل هذا الإعجاب، فهو عالم بحكمة الله في تصاريفه في كونه، وعطائه ومنعه لعباده.

لكن المؤمن الذي لم يدرك بُعدَ حكمة الله في مقاديره، قد يتعجّب إذا رأى المنافقين قد وسّع الله عليهم في الرزق، فكثّر أموالهم، ومنحهم أولاداً يحمونهم ويشدون أزهرهم في الحياة الدنيا.

وإجابةً على التساؤلات التي قد يطرحها المؤمن في نفسه عن الحكمة من إمداد الله بعض المنافقين بالأموال الكثيرة وبالأولاد الذين يكونون لهم قوةً في الحياة الدنيا، ولئلا يتعجّب تعجّب المعترض على حكمة الله، قال الله له:

﴿فَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾:

أي: إذا نظرت إلى بعض المنافقين فوجدتهم يتقلّبون في أموال كثيرة، ومُحَوِّطِينَ بِأَوْلَادٍ مُتَعَدِّينَ، فَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ.

وهنا يتساءل هذا المؤمن: أليس إمدادهم بالأموال والأولاد إكراماً لهم في الحياة الدنيا، وتقوية لهم ضدّ المؤمنين؟!

وأجاب الله عز وجل على هذا التساؤل بقوله:

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ٥٥ ﴾ :

أي: ما يريد الله إكرامهم ولا تقويتهم بها في الحياة الدنيا، إنما يريد مُرَادَاتٍ أُخْرَى، منها ابتلاؤهم وابتلاء المؤمنين بهم، ومنها استدراجهم وتعريضهم بسبب أموالهم وأولادهم لمشكلات ومصائب ومتاعب وهموم وغُوم وعوارض وكوارث، وكذّ في الجمع والحفظ والمراقبة، دون أن يستمتعوا بما يجمعون وما يملكون، ودون أن يسعدوا بأولادهم، إذ يجعل الله أولادهم أعداء لهم، يتمنّون موتهم ليرثوا أموالهم.

فما يريد الله من إمدادهم بالأموال والأولاد إلا أن يجعلهم في محيط من المشكلات التي تُسيبها لِيُعَذِّبَهُمْ بها.

ولا يدلّ هذا على أن كلّ من يُمدُّهُمُ الله بالأموال والأولاد إنما يُمدُّهُمُ بها لِيُعَذِّبَهُمْ بها في الحياة الدنيا، ولكن هذا الخُصْرُ خاصٌّ بذوي الأموال الكثيرة والأولاد المتعدّدين من المنافقين، إذ يجعل الله أموالهم وأولادهم من أسباب شقائهم وآلامهم ومتاعبهم في الحياة الدنيا، وهذا مُشَاهِدٌ لدى بعض أصحاب الأموال الكثيرة والأولاد المتعدّدين، فما ظاهره في أعين الناس نعمة، قد يكونُ في الواقع بتصاريف الله وتدابيره نقمة، وقد يُعَذِّبُ الله غير المنافقين بمثل هذا العذاب من أهل الكفر والمعاصي.

ولما اقتضت حكمة امتحانهم إمدادهم بالأموال والأولاد، باعتبار أن نفوسهم شديدة الحب لها والتعلّق بها، فامتحانهم بها هو الذي يكشف حقيقتهم، كان من مقتضى هذه الحكمة أيضاً إبقاء هذا الإمداد لهم بالأموال والأولاد حتّى مَوْتُهُمْ، وبما أنّ امتحانهم على الوجه الأمل لا بدّ أن يكشف كفرهم فإنّهم سيظلّون على كفرهم حتّى تزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ.

هذا ما نفهمه من عموم الآية، فكيف نستخرجه من ألفاظها؟

الجواب:

إذا نظرت آيها المؤمن إلى بعض المنافقين فوجدتهم محظوظين بكثرة من الأموال والأولاد ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ إعجاب مستغرب من إمداد الله لهم بذلك وهم كفرة منافقون، فإن الله لا يريد إكرامهم وإسعادهم بها، إنما يريد مرادات أخرى: ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾ أي: بأموالهم وأولادهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بما نسيه لهم من متاعب وهموم وغموم ومشكلات ﴿و﴾ لـ ﴿تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ﴾ عند موتهم في ختام رحلة امتحانهم مفتونين بما يحبون ويهوون من أموال وأولاد ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ وبعد ذلك يلقون عذابهم الأكبر على كفرهم ونفاقهم.

* * *

* قول الله عز وجل:

﴿وَيُخَلِّفُونَ بِاللَّهِ إِثْمَهُمْ لِمَنْعِكُمْ وَمَا هُمْ بِمَنْكُورٍ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلَجًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مَدْخَلًا لَّوَلُوا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

قرأ جمهور القراء العشرة: [مَدْخَلًا] بضم الميم وتشديد الدال المفتوحة.

وقرأ يعقوب [مَدْخَلًا] بفتح الميم وسكون الدال.

الْمَدْخَلُ: مكانٌ يَدْخُلُ فِيهِ لِلإِخْتِبَاءِ، دُونَ الْمَغَارَةِ ذَاتِ الْجَوْفِ الَّذِي يَخْتْفِي الدَّخَالُ فِيهِ اخْتِفَاءً كَامِلًا.

الْمَدْخَلُ: مكانٌ مَا يَدْخُلُ الدَّخَالُ فِيهِ لِلإِخْتِبَاءِ، وَلَوْ لَمْ يَبْلُغْ أَنْ يَكُونَ مَدْخَلًا شَبِيهًا بِالْمَغَارَةِ، كَحُفْرَةٍ فِي الْأَرْضِ، أَوْ فَرَاغٍ بَيْنَ صَخْرَتَيْنِ، أَوْ جِدَارَيْنِ، أَوْ آيِ جَوْفٍ سَاتِرٍ.

فبين القراءتين تكامل فكري.

﴿مَغْرَبًا﴾:

جمع «مغارة» وهي الْغَارُ فِي الْجَبَلِ، جَوْفٌ فَارِغٌ دَاخِلُ جَبَلٍ مَا، كَثِيبٌ يَحْتَمِي فِيهِ إِنْسَانٌ أَوْ حَيَوَانٌ مِنَ الْوَحْشِ، كَالضَّبُعِ.

﴿مَلَجًا﴾:

الْمَلَجُ المكان المحصن الذي يَلْتَجِيءُ إليه الْخَائِفُ لِيَحْتَمِيَ وَيَتَحَصَّنَ بِهِ، وهو في العادة أَحْصَنُ من المغارة، كقلعة أو حصن.

فشملت الآية الاحتمالات الأربع ذات المستويات المختلفة، في نسبة حمايتها وإخفائها مَنْ يَخْتَبِئُ بها خائفاً.

فأحضرها الْمَلَجُ، ثم الْمَغَارَاتُ العظمى والصُّغرى التي تكون في الجبال عادة، ثم يَأْتِي دُونَ الْمَغَارَاتِ الْمُدْخَلُ الذي يُشَبِّه المغارة لكنه دُونُهَا إخفاءً وحمايةً، ثم يَأْتِي دُونَهُ مَدْخَلٌ ما يَخْتَبِئُ به من لا يجد ما هو أَسْتَرُ بِهِ وأَحْصَن.

﴿يَفْرُقُونَ﴾:

أي: يَجْزَعُونَ ويخافون خوفاً شديداً، يُقَالُ لغة: فَرَّقَ بِهِ يَفْرُقُ فَرْقاً، إذا اشْتَدَّ خَوْفُهُ مِنْهُ وَجَزِعَ.

﴿لَوْلَوْ أَلَيْهِ﴾:

أي: لَأَذْبَرُوا وَابْتَعَدُوا مُلْتَجِينَ إِلَيْهِ وَمَخْبِئِينَ فِيهِ.

﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾:

أي: حالة كَوْنِهِمْ يَجْمَحُونَ حين تَوَلَّيْهِم إلى المكان الذي يجدونه للاختباء به.

يُقَالُ لغةً: جَمَحَ الْفَرَسُ يَجْمَحُ جَمْحاً وَجُمُوحاً، إذا خَرَجَ عَنْ طَاعَةِ صَاحِبِهِ بَعْثَ وَانْطَلَقَ فِي غَيْرِ مَا يُرِيدُ مِنْهُ. وَيُقَالُ: جَمَحَ الرَّجُلُ إِذَا رَكِبَ هَوَاهُ، وَانْطَلَقَ عَلَى غَيْرِ هَدًى، وَاسْتَعْصَى عَلَى مَنْ يُرِيدُ رَدَّهُ، وَيُقَالُ: جَمَحَتِ السَّفِينَةُ إِذَا خَرَجَتْ عَنْ طَرِيقِهَا الصَّالِحِ فَلَمْ يُضَيِّطْهَا الْمَلَاخُونَ، فَالْجُمُوحُ هُوَ الانْطِلَاقُ بِعَنْفٍ وَمَعَانِدَةٍ مَعَ رُكُوبِ الْهَوَى.

كشفت هاتان الآيتان ثلاث صفات من صفات المنافقين:

الصفة الأولى: أنهم لا يكتفون بادعاء أنهم مؤمنون مسلمون، وهم في الحقيقة كاذبون، بل هم يحلفون بالإيمان بالله قائلين للمؤمنين وهم يكذبون: وَاللَّهِ إِنَّا لَمِنْكُمْ،

وما هم في الحقيقة مِنْهُمْ، بل هم كافرون، قُلُوبُهُمْ مع إخوانهم في الكُفر لا مع الذين آمنوا.

ذَلَّ عَلَىٰ هَذِهِ الصِّفَةِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿وَيَخْلُقُونَ بِاللَّهِ إِيمَانَهُمْ لِيَمْنَكُمْ وَمَا هُمْ بِمُتَّكِرُونَ﴾.

واو العطف في ﴿وَيَخْلُقُونَ﴾ يحتمل أن تكون عاطفةً على ما جاء في سوابق هذه الجملة من صفات المنافقين، ويحتمل أن تكون استثنائية، وفائدة الاستثناف التنبؤ على أن ما بعده غير متصل بما قبله اتصالاً مباشراً ضمن عناصر موضوعه.

فهم إذا كانوا بين المؤمنين وخافوا افتضاح حقيقتهم، وأن يكتشف المؤمنون أنهم منافقون، فَيَنْزِلُوا بِهِمْ عِقَابَ الرُّدَّةِ عن الإسلام، سارعوا إلى سَرِّ أَنْفُسِهِمْ بأن يَخْلُقُوا بِاللَّهِ كاذبين، وذلك كلما ظهر من بعض المؤمنين عبارات أو إشارات استفسار عن حقيقة صدق إيمانهم، وهل هم من أهل الإيمان أم من أهل الكُفر، ويكون هذا عادة حينما يتصرف المنافقون تصرفات مُثِيرَةً لِلشَّكِّ في أمرهم، فيقول المنافقون حينئذٍ للمؤمنين: نَخْلُقُ بِاللَّهِ إِنَّا لَبِئْسَ كُفْرًا مَعَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلُ الْكِتَابِ، أو غيرهم.

وَيَبَيِّنُ اللَّهُ كَذِبَهُمْ بِقَوْلِهِ:

﴿وَمَا هُمْ بِمُتَّكِرُونَ﴾.

الصفة الثانية: أنهم يَتَجَلَّدُ خَوْفُهُمُ الشَّدِيدُ إِلَى حَذِّ الْجَزَعِ مِنْ أَنْ يُنْزَلَ الْمُؤْمِنُونَ بِهِمْ عِقَابَ الرُّدَّةِ، كلما اكتشف المؤمنون بعض أمارات نفاقهم، وارتابوا، ووجهوا لهم عبارات الاستفسار عن هَوِيَّتِهِمُ الْحَقِيقِيَّةِ، أو نظرات الارتياب، وهو الأمر الذي يجعلهم يبادرون بِخَلْفِ الْإِيمَانِ الْكَاذِبَةِ، لِيَذَرُوا عَنْ أَنْفُسِهِمُ الْعِقَابَ.

ذَلَّ عَلَىٰ هَذِهِ الصِّفَةِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿وَلِكَيْتُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾.

عبارة ﴿وَمَا هُمْ بِمُتَّكِرُونَ﴾ مساوية لعبارة: وَمَا هُمْ صَادِقُونَ فيما يخلفون بالله عليه، فيأتي قوله تعالى: ﴿وَلِكَيْتُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ لبيان السبب الذي يجعلهم يخلفون بالله

كاذبين، أي: لَيْسَ غَرَضُهُمْ إثبات أنهم مع المؤمنين حقاً، ولكنَّ غَرَضَهُمْ سَتْرُ كُفْرِهِمْ ونِفَاقِهِمْ، بسبب أنهم يَخَافُونَ خوفاً شديداً مُجْزِعاً من معاقبة المؤمنين لهم، إذا تَأَكَّدَ لهم كُفْرُهُمْ ونِفَاقُهُمْ.

الصفة الثالثة: أنهم لو يَجِدُونَ - حينَ يكتشف المؤمنون أَسْرَارَ كُفْرِهِمْ في الباطن - أي مَخْبِئاً يَخْتَبِئُونَ به، فوق سِتْرِ أَنْفُسِهِمْ بالآيمان الكاذبة، لاداروا ظُهُورَهُمْ وَأَسْرَعُوا للاختباء به من شِدَّةِ خوفِهِمْ وَجَزَعِهِمْ، شعوراً مِنْهُمْ في داخل نفوسهم بأنهم يَسْتَحِقُّونَ أَنْ يُنْزَلَ المؤمنون بهم أَشَدَّ العقاب، فهم أعداء مخادعون، وهم مخالفون مداخلون.

وقد عبَّرَ الله عَزَّ وَجَلَّ عن حالة نفوسهم هذه بقوله:

﴿لَوْ يَحِذُّونَ مَلْجَأًا أَوْ مَفْزَعًا أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ ﴿٥٧﴾

إنهم يفكرون أولاً بأن يجدوا ملجأً يلجؤون إليه ويتحصنون فيه، وهذا في حركة نفوسهم السريعة.

فإن لم يَبْدُ لَهُمْ مَلْجَأٌ فَكَّرُوا بأن يجدوا مغارات في الجبال يَخْتَبِئُونَ بها.

فإن لم تكن المغارات قريبة مِنْهُمْ فَكَّرُوا بأن يَجِدُوا مُدْخَلًا يَسْتَرُونَ به، كما جاء في قراءة جمهور القراء العشرة.

فإن لم يَجِدُوا مُدْخَلًا قَرِيباً مِنْهُمْ اِكْتَفَوْا بأن يَجِدُوا مُدْخَلًا ما يسترون أنفسهم فيه، كما جاء في قراءة يعقوب.

كُلُّ ذَلِكَ في حركة فكرية نفسية تمر داخلهم، صَوَّرَهَا القرآن أبدع تصوير، فدلَّ على الحركة النفسية السريعة التي تعترِبهم عند شِدَّةِ خوفِهِمْ من عقاب المؤمنين لهم، وعلى نهالكهم النفسي على أن يجدوا مَخْبِئاً، بدءاً من أحسن المخابى، حتى أهونها وأضعفها.

ولو أنهم يَجِدُونَ على توالي أزمانهم شيئاً من ذلك لاذَّبَرُوا عن المؤمنين، وأسْرَعُوا إليه بَعْنِبِ إِسْرَاحِ الْجُمُوحِ الذي يعاند الحقَّ وسبيل الهدى، ولاثَرُوا

المخابىء على الإيمان بالحق، واتباع سبيل الهدى بصدق، مع أن هذا متيسر لهم بالتوبة وصدق الإيمان، وبالتخلص من مضلات النفاق بالإرادة الصادقة الحازمة.

وهذه الصفات من صفات المنافقين يصلح تعميمها على مختلف الأحوال، والقياس عليها.

• قول الله عز وجل:

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَحْطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَيْنَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

قرأ جمهور القراء العشرة: [يَلْمِزُكَ] بكسر الميم.

وقرأ يعقوب فقط: [يَلْمُزُكَ] بضم الميم.

والقراءتان وجهان عريان لنطق فعل «يلمز» يقال لغة: لَمَزَهُ يَلْمِزُهُ وَيَلْمُزُهُ لَمَزًا إذا عابه، أو أشار إليه إشارة تدل على أنه يعبئه بشيء ما، والإشارة تكون بحركات العين أو الشفة أو نحوهما مع كلام خفي. ورجل لَمَازٌ وَلَمَزَةٌ، إذا كان دأبه أن يفعل ذلك.

﴿فِي الصَّدَقَاتِ﴾:

أي: في توزيع الصدقات على مستحقيها، والمراد من الصدقات هنا ما يُجمع من الزكاة، بدليل الآية التي جاءت بعد هذا النص التي تحصر مصارف الصدقات في الأصناف الثمانية، وهي مصارف الزكاة.

لكن «الصدقات» قد تُطلق على ما يبدل تطوعاً فوق الزكاة، ويُستدل عليها بالقرائن، كما سيأتي في الآية (٧٩) من سورة (التوبة): ففيها قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ...﴾

مما روي في سبب النزول:

(١) قال ابن جريج، أخبرني داود بن أبي عاصم قال: أتى النبي ﷺ بصدقة،

فَقَسَمُوا هَهْنَا وَهَهْنَا حَتَّى ذُهِبَتْ، قَالَ وَوَرَاءَهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: مَا هَذَا بِالْعَدْلِ، فَتَرَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ، أَيْ:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ (٣٤)

(٢) روى البخاري بسنده عن أبي سعيد الخدري قال: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَقْسِمُ وَفِي رَاوِيَةٍ «قَسَمًا»، جَاءَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ ذِي الْحَوَيْصَةِ التَّمِيمِيُّ فَقَالَ: اعْدِلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ: «وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟!».

قال عمر بن الخطاب: دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَهُ.

قال ﷺ: «دَعْنِي»، فَإِنْ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرُّمِيَّةِ، يُنْظَرُ فِي قُلُوبِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى نَصْلِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى رِصَابِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى نَضْبِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، قَدْ سَبَقَ الْفَرْتُ وَالذَّمُّ، آتَيْتَهُمْ رَجُلٌ إِحْدَى يَدَيْهِ - أَوْ قَالَ تَدْيِيهِ - مِثْلُ تَدْيِ الْمَرْأَةِ، أَوْ قَالَ: مِثْلُ الْبُضْعَةِ تَذَرْدُرُ، يُخْرِجُونَ عَلَى جِبِنِ قُرْفَةٍ مِنَ النَّاسِ».

قال أبو سعيد: أَشْهَدُ سَمِعْتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَشْهَدُ أَنْ عَلِيًّا قَتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ، جِيءَ بِالرَّجُلِ عَلَى النَّعَبِ الَّذِي نَعَتَهُ النَّبِيُّ ﷺ، قَالَ: فَتَرَلَّتْ فِيهِمْ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ...﴾.

انظر فتح الباري ج (١٢) الحديث (٦٩٣٣) وأخرجه غير البخاري

يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ: أَيْ: يُخْرِجُونَ مِنْهُ، يُقَالُ لَعَنَ: مَرَقَ السَّهْمُ مِنَ الرُّمِيَّةِ يَمْرُقُ مَرُوقًا، إِذَا اخْتَرَفَهَا وَخَرَجَ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ فِي سُرْعَةٍ.

الرَّمِيَّةُ: الْهَدَفُ وَالْغَرَضُ الَّذِي يُرْمَى إِلَيْهِ السَّهْمُ لِإِصَابَتِهِ، صَيْدًا كَانَ أَوْ غَيْرَهُ.

يُنْظَرُ فِي قُلُوبِهِمْ: قُلُوبُهُمْ: جَمْعُ «قُلُوبَةٍ» وَهِيَ رِيْشَةُ الطَّائِرِ بَعْدَ تَسْوِيَتِهَا وَإِعْدَادِهَا لِتُرْكُوبِ فِي السَّهْمِ مِنْ جِهَةِ ذَيْلِهِ مَعَ أَشْبَاهِهَا، لِحِفْظِ تَوَازُنِ السَّهْمِ عِنْدَ انْطِلَاقِهِ.

ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى نُضْلِهِ: نُضْلُ السُّهُمِ الْحَدِيدَةِ الْحَادَّةِ الَّتِي تَوْضَعُ فِي رَأْسِ عُودِهِ.

ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى رِصَافِهِ: «رِصَافٌ» جَمْعُ «رِصْفَةٍ» وَهِيَ عَصَبَةٌ مِنَ الْأَوْتَارِ، وَيُقَالُ لَهَا «عَقَبَةٌ» تَلَوَّى قَوْفٌ مَذْخَلِ اسْفَلِ نُضْلِ السُّهُمِ فِي عُودِهِ، وَتَشْدُ لِتَيْبِ النَّضْلِ، وَهَذَا الْقِسْمُ الْأَسْفَلُ مِنَ النَّضْلِ يُسَمَّى «سِنَخًا».

ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى نَضِيهِ: نَضِيُّ السُّهُمِ هُوَ مَا بَيْنَ رِيشِهِ وَنَضْلِهِ.

وَالْمَرَادُ مِنْ هَذَا الْبَيَانِ التَّفْصِيلِي أَنَّهُ لَمْ يَغْلُقْ فِي السُّهُمِ مِنَ الرِّيشَةِ الَّتِي هِيَ الصَّيْدُ شَيْءٌ، لِأَنَّهُ مَرَّقَ مِنْهَا بَسْرَعَةً فَائِقَةً، أَيْ: لَمْ يَبْقَ فِيهِمْ مِنَ الْإِسْلَامِ شَيْءٌ.

سَبَقَ الْفَرْتُ وَالْدَمُّ: أَيْ: سَبَقَ السُّهُمُ بَسْرَعَتِهِ أَنْ يَغْلُقَ بِهِ شَيْءٌ مِنَ الْحَيَوَانِ الَّذِي هُوَ هَدَفُ الرَّامِي، لَا شَيْءٌ مِنْ فَرْثِهِ، وَلَا شَيْءٌ مِنْ ذَبِهِ.

بِمَثَلِ الْبُضْعَةِ تَذَرْدَرُ: الْبُضْعَةُ: أَيْ: قِطْعَةٌ مِنَ اللَّحْمِ.

تَذَرْدَرُ: أَيْ تَتَرَجَّرُجُ وَتَضْطَرِبُ كَمَا يَتَرَجَّرُجُ ثَدْيُ الْمَرْأَةِ.

وَقَدْ ظَهَرَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ فِي خِلَافَةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُمْ الْقَوْمُ الَّذِينَ خَرَجُوا عَلَيْهِ وَقَاتَلَهُمْ، وَاسْتَأْصَلَ مُعْظَمَهُمْ وَقَتْلَ آبَتِهِمْ، أَيْ: الْعَلَامَةُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهِمْ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنْهُمْ، وَلَمَّا بَحِثُوا عَنْهُ فِي الْقَتْلِ وَجَدُوا أَنَّهُ عَلَى الْوَصْفِ الَّذِي جَاءَ فِي كَلَامِ الرَّسُولِ ﷺ، وَلَمَّا رَأَاهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ كَبَّرَ شُكْرًا لِلَّهِ، وَسُرُورًا بِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ عَنَاهُمُ الرَّسُولُ ﷺ فِي حَدِيثِهِ عَنْهُمْ.

* * *

التدبير

فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ يَبَيِّنُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ظَاهِرَةً مِنْ ظَوَاهِرِ الْغَفَاكِ، تَوْجِدَ لَدَى بَعْضِ الْمُنَافِقِينَ، وَهِيَ لَمَزُ الرَّسُولِ ﷺ وَالطَّمَعُ فِيهِ بِالْقَوْلِ أَوْ بغيره، فِي تَصَرُّفِهِ لَدَى تَوَازِيهِ الصَّدَقَاتِ عَلَى الْمُسْتَحَقِّينَ، وَأَتَهَامِهِ بِمُجَانِبَةِ الْعَدْلِ إِذَا لَمْ يُعْطِهِمْ مِنْهَا، فَإِنَّ أَعْطَاهُمْ مِنَ الصَّدَقَاتِ وَلَوْ لَمْ يَكُونُوا مِنَ الْمُسْتَحَقِّينَ رِضْوًا، وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِمْ وَهُمْ غَيْرُ مُسْتَحَقِّينَ فَاجْرَأُوا عَلَى الرَّسُولِ وَحُكْمِهِ بِإِعْلَانِ سَخَطِهِمْ، كَأَنَّهُمْ كَانُوا يَتَرَقَّبُونَ أَنْ يُعْطِيَهُمْ مِنْهَا مُنَحَلَّةً أَشْدَّاقَهُمْ لِلْأَخْذِ مِنَ الصَّدَقَاتِ دُونَ اسْتِحْقَاقِ، وَحِينَ يَرَى الرَّسُولُ بِحُكْمَتِهِ أَنَّهُمْ

أغنياء ليس لهم حق في الصدقات، إذ هي تصرف في مصارف الزكاة، تنطلق منهم عبارات أو إشارات السخط واللّمز طعناً في الرسول بصورة مفاجئة غير مرتقبة.

إِنْ تَسْخَطُهُمْ يَأْتِي مُفَاجِئًا لِلرَّسُولِ وَلِحَاضِرِي مَجْلِسِ تَوْزِيْعِهِ الصَّدَقَاتِ، لَأَنَّهُ لَا دَاعِيَ لَهُ مُطْلَقًا، فَهُوَ أَمْرٌ مُسْتَغْرَبٌ جَدًّا، بِاعْتِبَارِ أَنَّهُمْ غَيْرُ مُسْتَحْقِينَ، أَمَّا مِنْ جِهَتِهِمْ فَإِنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ إِلَّا أَنْ تَنْفَجِرَ فِيهِمْ قُبْلَةُ التَّسْخُطِ، لِأَنَّهُمْ كَافِرُونَ بَاطِنًا، وَمُشْحُونُونَ بِالطَّمَعِ، وَمُتَرَقِّبُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ مِنَ الصَّدَقَاتِ نَصِيبٌ، وَيُفَاجِئُونَ بِخِيَةِ الْأَمَلِ حِينَ لَا يُعْطِيهِمُ الرِّسُولُ، فَيَنْفَجِرُ فِيهِمُ السَّخَطُ مِمَّا تَجَمُّعُ بِدَاخِلِهِمْ مِنْ غَضَبٍ.

فقال الله تعالى خطاباً لرسوله محمد ﷺ :

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ (٣٤)

أي : ومن المنافقين من يَلْمِزُكَ يا مُحَمَّدُ في توزيع الصَّدَقَاتِ على مستحقيها، طاعناً لك بأنك لَا تُقَسِّمُ بِالْعَدْلِ، وَحَالُ هَذَا الصَّنْفِ مِنَ النَّاسِ أَنَّهُمْ إِنْ أُعْطُوا مِنَ الصَّدَقَاتِ وَلَوْ لَمْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْإِسْتِحْقَاقِ رَضُوا فَلَمْ يَلْمِزُوا، وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا وَهُمْ غَيْرُ مُسْتَحْقِينَ فَاجْزُوا بِالسَّخَطِ وَالتَّذَمُّرِ، وَاللَّمْزِ طَعْنًا وَعَيْبًا.

وَأَرْشَدَهُمُ اللَّهُ إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ، دُونَ أَنْ يُوَاجِهَهُمُ بِالخَطَابِ، إِعْرَاضاً عَنْهُمْ، وَإِسْعَاراً لَهُمْ بِسُوءِ أَدْبِهِمْ مَعَ الرِّسُولِ، وَأَنْ لَّمْزَهُمْ لَهُ كِبِيرَةٌ مِنَ الْكِبَائِرِ، وَهِيَ تَدُلُّ عَلَى نِفَاقِهِمْ وَعَدَمِ صِحَّةِ إِيمَانِهِمْ بِالرَّسُولِ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى :

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ (٣٥)

﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ :

أي : إِنَّا إِلَى اللَّهِ مُتَبَهِّلُونَ مُتَضَرِّعُونَ سَائِلُونَ، يُقَالُ لِفَعْلٍ : رَغِبَ إِلَيْهِ فِي كَذَا، إِذَا سَأَلَهُ إِيَّاهُ، وَرَغِبَ إِلَيْهِ، إِذَا ابْتَهَلَ وَتَضَرَّعَ وَطَلَّبَ.

وقد جاء في الإرشاد بيان أربع وصايا لو اتَّبَعُوهَا لَنَالُوا خَيْرًا عَظِيمًا، وهذه الوصايا

جاءت بصيغة جُمْلٍ شرطية مُصدّرة بحرف الشرط ولو، والجواب محذوف لأنّ الذهن يستطيع إدراكه بيّسر، فاقتضت بلاغة الإيجاز حذفه.

الوصية الأولى: دلّ عليها قول الله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ بِإِغْتِيَارٍ أَنَّهُ هُوَ الْمُعْطِي الْمُتَفَضِّلُ، وَمَا آتَاهُمُ
الرسول باعتبار أنّه القاسم المنفذ لِعطاء الله، وَرَضُوا أيضاً ما لَمْ يُؤْتِهِمُ الله وَرَسُولُهُ،
وَأَتَى غيرهم ما لَمْ يُؤْتِهِمْ مِنْهُ لَمَّا لَمْ يَكُنْ فِي تَدْبِيرِهِ مِنْ حِكْمَةٍ.

وأغنى ذكر إيتائهم عن ذكر عدم إيتائهم، لإشعارهم بأنّ نعم الله عليهم عظيمة جدّاً، فعليهم أن يَرْضَوْا بها ويشْكُرُوا الله عليها، لا أن يَلُمُوا على ما لَمْ يُعْطِهِمْ وأن يتسخطوا، وأن يلمزوا الرسول.

الوصية الثانية: دلّ عليها قول الله تعالى:

﴿وَقَالُوا أَحْسَبُنَا اللَّهَ﴾

أي: قالوا: يكفينا الله بعطاءاته، فهو المعطي، وهو الذي بيده الأمر كلّ، يجري مقاديره بمقتضى مشيئته الحكيمة.

الوصية الثالثة: دلّ عليها قول الله تعالى:

﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾

أي: وقالوا: إذا سألنا الله وتوكلنا عليه فسيؤتينا الله من فضله مستجيباً دُعائنا، ففضله عظيم، وخيره كثير، وإذا كان غطاء الله عن طريق توزيع رسوله فسيؤتينا رسوله من فضل الله، وسيُلهِمه الله أن يُؤتينا.

الوصية الرابعة: دلّ عليها قول الله تعالى:

﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾

أي: وقالوا داعين ربهم مُتضرّعين، رَبَّنَا آتِنَا مِنْ فَضْلِكَ، إِنَّا إِلَيْكَ رَاغِبُونَ، نسالك ونبتهل إليك ونتضرّع.

* قول الله عز وجل:

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْفَرَيمِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١١٠ ﴾

* قرأ جمهور القراء العشرة [وَالْمُؤَلَّفَةِ] بتحقيق الهمزة.

وقرأ ورش وأبو جعفر [وَالْمُؤَلَّفَةِ] بإبدال الهمزة واواً في الوصل والوقف، وحمزة كذلك في الوقف فقط.

بمناسبة الحديث عن المنافقين الذين كانوا يلجزون الرسول ﷺ لَدَى توزيعه الصَّدَقَاتِ، إن لم يعطهم منها، لأنهم ليسوا من الأصناف الذين تُبَذَّلُ لهم، أبان الله عز وجل بِنَصِّ صريح مفصل الأصناف الَّذِينَ تُدْفَعُ إِلَيْهِمُ الصَّدَقَاتِ، وأبان أن توزيعها يجب أن يكون محصوراً بهم، بدلالة أداة الحصر «إنما» التي بدأ الله بها الآية، فقال تعالى:

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ ﴾

أي: لَا تُبَذَّلُ الصَّدَقَاتُ إِلَّا للأصناف المذكورين في الآية.

الصنف الأول: الفقراء، جمع «الفقير» وهو من كان ذا حاجة حَقِيقَةً لنفقاته ونفقات من يعولهم، سواء أكان مُعَدِّماً أو دون ذلك إلى ما دون الكفاية، ولكن قد لا تكون هذه الحاجة ظاهرة عليه، فيحسبه الجاهل بحاله غنياً، من تعففه، أو من نشاطه وجلادته في العمل، فيظن أنه يكسب ما يكفيه.

واصل الافتقار إلى الشيء الحاجة إليه.

الصنف الثاني: المساكين، جمع «المسكين» وهو من كان ظاهره يدل على أنه ذو حاجة، بسبب تعرضه لصدقات الناس، بما يبدي من حالٍ تُشعر بأنه فقير محتاج، أو بتصريحه بأنه ذو حاجة، وبسؤاله صدقات الناس وزكوات أموالهم، وربما يكون في واقع حاله على خلاف ما يظهر بأقواله وأعماله.

فالمسكنة صفةٌ تظهر على الإنسان، تُشعرُ بأنه فقير ذو حاجة، سواءً أكان صادقاً بمسكنته أو كاذباً فيها.

فالبذلُّ لكلُّ من الفقير والمسكين سببه الحاجة لنفقاته، وأنه لا يملك كفايته، والفرق بينهما أنَّ الفقير هو من كان فقيراً في حقيقته، ولو كان ظاهره قد يشعر بأنه غني، فيحسبه الجاهل بحاله غنياً. أما المسكين فهو من يتظاهر بالفقر ويتعرَّض لأخذ صدقات الناس، أو يسألهم صراحة، وقد يكون في حقيقة أمره فقيراً، وقد يكون غير ذي حاجة.

هذا ما ظهر لي من الفرق بين الفقير والمسكين، من خلال سبب النصوص واستقراءها، ومن خلال النظر في جذور كلمتي الفقر والمسكنة لغة^(١).

واختلف فقهاء المذاهب في الفرق بين الفقير والمسكين إلى حدِّ اختلاف التضادِّ، لكن سببَ النصوص أكد لي صحة ما انتهيت إليه والله أعلم، وهو ما يُفهم ممَّا روي عن ابن عباس، فقد أخرج ابن المنذر والنحاس عنه أنه قال: الفقراء فقراء المسلمين، والمساكين الطَّوافون.

الصف الثالث: العاملون عليها، وهمُ جُباةُ الزكاة، السُّعاةُ المكلفون أن يجمعوها من ذوي الأموال، تُبذلُ لَهُم أجورهم ورواتبهم من الصدقات التي يجمعونها. ويُطلق على العامل الذي يجبي الزكوات ممَّن تجب عليهم اسم «مُضَلِّق».

وكذلك كلُّ من يعمل في دائرة جمع الزكوات ونقلها وحفظها وتسجيلها وتوزيعها على ذوي الاستحقاق.

الصف الرابع: المؤلِّفة قُلُوبُهُم، وهم الذين يرى إمام المسلمين، أنه إذا أعطاهم استعمالهم لنُصرة الإسلام ونُشره وتثبيتة ونُصرة المسلمين، فله أن يُعطيَهُم من الأموال العامة التي أعطاه الله حقَّ التصرف فيها، وله أن يُعطيَهُم أيضاً من الزكاة التي

(١) انظر القاعدة السادسة عشرة من كتاب «قواعد التدبير الأمثل لكتاب الله عزَّ وجله للمؤلف (المثال الرابع).

يجمعها من المسلمين إذا اقتضى الأمر ذلك، فأمر إعطائهم يرجع إلى تقدير أمير المؤمنين، بعد استشارة أهل المشورة في هذا الأمر.

واختلف الفقهاء: هل يُعطى من الزكاة مَنْ يُستَمال للإسلام أو لخدمة المسلمين من أهل الكُفر، فَيُتَأَلَّفُ بذلك قَلْبُهُ، أَمْ يُعْطَى فقط من الأموال العامة كأموال الفيء، فمنهم من يرى أنَّ للإمام أن يتألف بأموال الزكاة غَيْرَ المُسلمين، ومنهم من يرى أنَّ ذلك لا يكون من أموال الزكاة، بل يكون من الأموال العامة أو من الأموال الخاصة التي يتبرع بها المتبرعون.

ولكلٍّ من الفريقين حُجَّتُهُ، والأمر في ذلك يَسِير، وهو يرجع إلى تقدير إمام المسلمين وأهل مشورته.

ومصرف المؤلفه قلوبهم مصرفٌ يَرْجَعُ البَذْلُ فيه لتقدير إمام المسلمين، ومراعاة المصلحة العامة للإسلام والمسلمين، فإن رأى أن يبذل فيه من الزكاة أو من الأموال العامة ببذل، وإن رأى أن المصلحة لا تستدعي ذلك في عهد من العهود لم يبذل، فالمؤلفه قلوبهم ليس لهم حق في الزكاة أوفي الأموال العامة، حتى يطالبوا به، كَحَقِّ الفقراء والمساكين في الزكاة، ولكن من حق إمام المسلمين أن يبذل من الزكاة للمؤلفه قلوبهم إذا رأى في ذلك مصلحة للإسلام والمسلمين، وهذا الفهم هو الذي فهمه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حين توقف عن إعطاء المؤلفه قلوبهم، يوم أن وجد الإسلام عزيزاً منصوراً.

وفهم بعض الناس فعل عمر رضي الله عنه على غير وجهه، فاتخذوا فعله هذا ذريعة لإباحة إيقاف بعض شرائع الإسلام، بدعوى أنَّ الأحكام تتبدل بتبدل الأزمان، مع أنَّ عمر قد فهم النص وطبقه على ما فهمه، ولم يوقف العمل بالنص القرآني.

الصفحة الخامسة: الأرقاء، أي: لإمام المسلمين، ونائبه في توجيه الزكاة لمصارفها، أن يبذل من الزكاة لِعِتْقِ الأرقاء، عبيداً أو إماء، ويكون ذلك بتسديد أقساط المُكاتب، وبشراء العبيد والإماء وإعتاقهم، وبمساعدة من يشتري الأرقاء ويعتقهم، أو يريد أن يعتقهم وهم في ملكه، وبأن يُعْتَقَ مَالِكُ الرقيق ويحتسب قيمة مَنْ أَعْتَقَ من زكاة ماله.

الصف السادس: الغارمون، أي: المدينون، تسديداً لديونهم، والذين أصابهم جوائح تعويضاً لهم عما نزل بهم، والذين يغرمون من أموالهم لإصلاح ذات البين، فيتعهدون أن يبذلوا قدراً من المال للإصلاح، ويلتزمون ذلك في ذمتهم، فيُسَدُّ عنهم من الزكاة، أو يُسَاعَدُونَ في ذلك.

الصف السابع: سبيل الله، فما المراد من إنفاق السهم السابع من أسهم الزكاة في سبيل الله؟

(١) رأى معظم فقهاء المذاهب أن المراد بذلك في المقاتلين لإعلاء كلمة الله.
(٢) ورأى آخرون جواز صرفه في كل مصالح الإسلام والمسلمين العامة، فهي تدخل في عموم عنوان «في سبيل الله» لأن سبيل الله هو دينه، وكل الأحكام والوصايا التي أبانها فيه لعباده.

(٣) والرأي الثالث المعاصر المتوسط بين الرأيين السابقين، وهو ما تنطبق عليه عبارة «الجهاد في سبيل الله» بمعناها الواسع الذي دلت عليه نصوص الجهاد في سبيل الله في القرآن، وقد سَبَرَتْها في كتاب «بصائر للمسلم المعاصر» في الباب الرابع منه، فوجدت أن هذا الجهاد يشمل تعليم الإسلام وتربية الدعاة إلى دين الله، ومساعدتهم وتوظيفهم للقيام بواجب الدعوة إليه بالحكمة، وللقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالفكر والقلم واللسان، وغير ذلك من وسائل مؤثرة تُكْتَشَفُ لتوصيل دين الله إلى عباد الله، في مختلف بقاء الأرض كالإذاعة، ويشمل إعداد المستطاع من القوة لإرهاب أعداء الله، ويشمل إمداد المقاتلين في سبيل الله لإعلاء دينه والدفاع عن المسلمين وبلدانهم ودولته بما يحتاجون إليه من أسلحة وموئ، ويشمل كفالة أسرهم ورعاية هذه الأسر ما داموا غزاة في سبيل الله، فمن جَهَّزَ غازياً في سبيل الله فقد غزا ومن خلف غازياً في أهله فقد غزا، وهكذا إلى أشباه هذه المجالات.

أما إطلاق عبارة «في سبيل الله» لتشمل كل إنفاق فيما يُرْضَى الله من مصالح المسلمين العامة والخاصة، دون تقييدها بمفهوم كلمة الجهاد الشاملة لما سلف بيانه، والتي لا تقتصر على القتال في سبيل الله، فهو أمر مستبعد، لأن البذل في سائر

الأصناف الثمانية ينطبق عليه أنه بذل في سبيل الله، فلا يكون لتحديد الأصناف الثمانية في الآية كبير فائدة، وبلاغة البيان القرآني يُستبعد معها مثل هذا الإجراء.

وأما تقييد عبارة «في سبيل الله» بالمقاتلين في سبيل الله، فلا دليل عليه من القرآن، ولا دليل عليه من السنة.

بقي أن نفهم أن المراد هو الجهاد في سبيل الله بمعناه الواسع الذي دلّت عليه نصوص القرآن المجيد، فهو الذي أراه الأرجح والأقرب إلى التدبر الصحيح في هذا الموضوع، والله أعلم.

وأنه هنا على أن العالم الداعية الدكتور الشيخ «يوسف القرضاوي» قد ذهب إلى هذا الرأي فيما انتهى إليه بكتابه «فقه الزكاة» بعد أن عرض آراء الفقهاء والباحثين المتقدمين والمحدثين، وأنعم بما ذهب إليه.

الصف الثامن: ابن السبيل، فما المراد من إنفاق السهم الثامن من أسهم الزكاة في ابن السبيل.

السبيل: هو الطريق، والمسافر الذي انقطع في الطريق فعجز عن أن يعود إلى بلده، لأن ما يحتاج إليه في سفره من زاد أو كساء أو مركب أو مأوى قد نفذ يقال له: «ابن السبيل» وهو على سبيل المجاز، أي: كأنه لا أب له يؤويه أو يحميه أو يغذيه إلا الطريق، والطريق العام لا يفعل شيئاً من ذلك، فهو منقطع.

فهذا الصنف يُصرف له من الزكاة ما يحتاجه حتى يعود إلى بلده، ولو كان في بلده غنياً، ولا يُسترد منه ما بذل له إذا وصل إلى بلده وماله.

وقد ذكر الفقهاء الشروط التي يجب توافرها في ابن السبيل حتى يكون ممن يستحق أن يُبذل له من هذا السهم الثامن من أسهم الزكاة الثمانية.

وهل يدخل في هذا الصنف من يريد إنشاء سفر في طاعة، وهو لا يملك ما يحتاج إليه في هذا السفر، فيعطى من الزكاة ليسافر؟

جمهور الفقهاء على أن المراد من «ابن السبيل» المسلم المنقطع في سفره، يُعطى أو يصرف من أجله ما يحتاج إليه حتى يصل إلى بلده أو ماله، وأما من يريد أن

ينشئ سفرًا فلا يُعطى إلا أن يدخل في صف آخر من الأصناف الثمانية، كأن يكون داعياً إلى دين الله فيدخل في صف «في سبيل الله».

ورأى بعض الفقهاء جواز إعطاء من يريد أن ينشئ سفرًا في طاعة ولو لم ينقطع بُعد في سفره، ويتباعد هذا الرأي، لأن من يريد إنشاء سفر لا ينطبق عليه اسم «ابن السبيل» بل هو ابن بلده والله أعلم.

ملاحظة حول: ﴿لِلْفُقَرَاءِ...﴾ و ﴿وَفِي الرِّقَابِ...﴾:

جاء التعبير الحاصر في الأصناف الثمانية بجانب الأربعة الأولى بعبارة:

﴿لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾.

فاستخدم حرف الجر «اللام».

أما بجانب الأصناف الأربعة الأخيرة فقد جاء التعبير بعبارة:

﴿وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَنَمِمْ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾.

فاستخدم حرف الجر «في».

فما السر في هذا؟

رأى الزمخشري أن استعمال «في» بجانب الأربعة الأخيرة، قد كان لأن هؤلاء الأصناف الأربعة أرسخ في استحقاق الزكاة من الأصناف الأربعة الأولى، أخذاً من دلالة لفظ «في» على الظرفية، فالزكاة تُصَبُّ فيهم، وقد خالف في هذا من اهتم بهم القرآن في الترتيب فذكرهم أولاً، وهمُ الفقراء والمساكين، وما جاء في نصوص أخرى من بيان أنهم المستحقون الأولون للزكاة، كقوله تعالى في سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول):

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٦٩﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٧٠﴾﴾.

ورأى ابن المنير في تعليقه على الزمخشري، أن الأربعة الأولين يملكون ما يُدْفَع إليهم، فيأخذونه ملكاً، فكان استعمال اللام هو اللائق بهم، وأما الأربعة الآخرون فالأصل أن تُصَرَّف أسهُمُهُم من الزكاة في المصالح التي تتعلق بهم، لا أن تُدْفَع إليهم تمليكاً، فالأرقاء تُعْتَق رقابهم بالبدل لمالكهم، والغارمون تُدْفَع ديُونُهُم للذائنين.

أقول:

هذا فهم سليم، وعليه يكون سهم «في سبيل الله» وسهم «ابن السبيل» يمكن أن يوضعا في مؤسسات لتحقيق الأهداف منهما، وهو الأصل الذي جاءت الإشارة إليه بحرف الجر «في» ولا يُمنع من بذلهما مباشرة للأفراد المجاهدين، ولأبناء السبيل المنقطعين.

وجاء تكرير حرف الجر «في» بجانب الصنفين الآخرين، للإشارة إلى أنهما صنفان متشابهان، كما أن الخامس والسادس صنفان متشابهان ذُكرا مبدوئين بحرف الجر «في».

أما الأصناف الأربعة الأولى فيمَلُكُون استحقاقاتهم، فَبَدَتْ بحرف الجر «اللام» داخلاً على الصف الأول منها وعُطفت الأصناف الثلاثة عليه دون إعادة حرف الجر، لتشابه الأصناف في التملك، والله أعلم.

قوله تعالى:

﴿فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾:

أي: قسمة محددة من الله أوجب الله اتباعها، يقال لغة: فَرَضَ الشيء إذا أَوْجَبَهُ وألزم به، وحدد له حدوداً.

وأصل الفَرَض في اللغة: الْقَطْع، والحز في الشيء لبیان الحد الذي ينتهي عنده مقدار ما، ويبدأ عنده مقدار آخر، كخشبة أو حديدة يُقاسُ بها الذراع مثلاً، يُحَزُّ فيها عند نهاية الذراع وعند بدايته حَزَان، هذا الحز يُقال له في اللغة فَرَض، ومنه الحزوز التي تُجْعَلُ على خِجَرَةِ السَّاعَةِ الشمسية، أو في المكايل، أو في غيرها، فهي تُسَمَّى فُرُوضاً، فكل تحديد يجب اتباعه شرعاً فهو فَرَض.

وعلى هذا فالقسمة المحددة، والنفقة التي يجب بذلها، بأمر من الله عز وجل، هي فريضة من الله، أي: قسمة ذات حدود يجب اتباعها. ومنه سُميت الفرائض، أي: القسمة التي حددها الله في الموارث، وعلم الفرائض هو العلم الذي يبحث في قسمة الموارث.

وختم الله عز وجل الآية بقوله:

﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾:

أي: وبما أنه سبحانه عليم بكل شيء، وحكيم فيما يدبر من أمر، وفيما ينزل لعباده من شرائع وأحكام وفرائض، فإن حُصْرَهُ للصدقات التي هي زكاة الأموال، في الأصناف الثمانية هو الأمر الذي تقتضيه الحكمة المستندة إلى العلم الشامل المحيط بكل شيء.

• قول الله عز وجل:

﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١١).

— قرأ جمهور القراء العشرة [أُذُنٌ — أُذُنٌ] في الموضعين بضم الـذال.

وقرأ نافع [أُذُنٌ — أُذُنٌ] في الموضعين بإسكان الـذال.

والقراءتان وجهان عربيان لنطق الكلمة.

— قرأ جمهور القراء العشرة [وَرَحْمَةٌ] بالرفع عطفاً على [أُذُنٌ] من [أُذُنُ خَيْرٍ]

أي: هو أذن خير، وهو رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ.

وقرأ حمزة فقط [وَرَحْمَةٌ] بالجر عطفاً على [خير] أي: هو أذن خير لكم، وأُذُنُ

رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ.

وفي القراءتين تكامل فكري، فقراءة الجمهور تدل على أن النبي كُله رَحْمَةٌ

لِلَّذِينَ آمَنُوا، فيما يسمع بأذنه وفيما يتلقى بسائر جوارحه، وفي قلبه ونفسه وفكره وكل مشاعره.

وقراءة حمزة، تدل على أنه ﷺ أُذُنُ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا، وهذه جاءت للرد على

اتَّهَامُ الْمُنَافِقِينَ لَهُ بِأَنَّهُ أُذُنٌ، أَي: يَتَأَثَّرُ بِمَا يَسْمَعُ وَيُنْقَلُ السَّاقِلُونَ إِلَيْهِ مِنْ أَخْبَارٍ، دُونَ بَحْثٍ وَتَبَيُّنٍ عَنِ الْحَقِيقَةِ وَتَبَيُّنٍ لَهَا.

وَقَدْ تَضَمَّنَ هَذَا الرَّدُّ أَنَّ مَا يَسْمَعُهُ بِأَذَنِهِ مِنْ أَخْبَارٍ لَا يَتَجَعَّلُ عَنْهُ إِلَّا رَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا، أَمَّا غَيْرُ الْمُؤْمِنِينَ وَهُمْ أَهْلُ الْغَفَاكِ الَّذِينَ يَتَهَمُونَهُ بِأَنَّهُ أُذُنٌ، وَيُؤْذِنُهُ مَعَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، فَلَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذِنُونَ النَّبِيَّ﴾.

يَتَابِعُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْحَدِيثَ عَنِ الْمُنَافِقِينَ فَيُبَيِّنُ أَنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ يَتَطَارَلُونَ عَلَى مَقَامِ النَّبُوَّةِ، فَيُؤْذِنُونَ النَّبِيَّ فِي صِفَةِ نُبُوَّتِهِ الَّتِي اصْطَفَاهُ اللَّهُ بِهَا، وَهِيَ أَنَّهُ يُنبَأُ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ، فَيَتَلَقَّى مَا يَنْزِلُ عَلَيْهِ، وَيُبَلِّغُهُ كَمَا تَلَقَّاهُ لَا يَزِيدُ فِيهِ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ شَيْئًا.

﴿يُؤْذِنُونَ﴾:

الَّذِي هُوَ مَا يُزَجِّجُ وَيُؤْلِمُ الْمَأْلِسَ بِالشَّدِيدِ، كَالْكَلَامِ بِشَأْنِهِ فِي غَيْبَتِهِ بِمَا يَنْتَقِصُ مِنْ كَمَالَاتِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ.

وَأَشَارَتْ عِبَارَةُ ﴿النَّبِيِّ﴾ الدَّالَّةُ عَلَى وَضْعِهِ بِالنَّبُوَّةِ، إِلَى أَنَّ إِيْذَاءَهُمْ لَهُ يَتَعَلَّقُ بِمَا هُوَ مِنْ خَصَائِصِهِ الَّتِي رَسَخَتْهُ عِنْدَ رَبِّهِ لِأَنَّهُ يَصْطَفِيهِ بِالنَّبُوَّةِ، وَجَاءَ بَيَانُ إِيْذَائِهِمْ لَهُ عَامًّا لِيَشْمَلَ صُورًا كَثِيرَةً مِنَ الَّذِي يَمَارِسُهَا الْمُنَافِقُونَ بِشَأْنِهِ فِي غَيْبَتِهِ، وَقَدْ يَلْبِغُهُ بَعْضُ مِنْهَا، وَعَطَفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى هَذِهِ الْأَذْيَاتِ الَّتِي لَمْ يَأْتِ فِي النَّصِّ تَفْصِيلُهَا صُورَةً تَدْخُلُ فِي عُمُومِهَا، مِنْ قَبِيلِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ: فَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾:

أَي: يُؤْذِنُونَ النَّبِيَّ أَذْيَاتٍ تَمَسُّ خَصَائِصَ نُبُوَّتِهِ، وَمَعَ هَذِهِ الْأَذْيَاتِ، أَوْ مِنْ هَذِهِ الْأَذْيَاتِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: هُوَ أُذُنٌ، أَي: هُوَ يَسْمَعُ مَا يُقَالُ لَهُ وَيُصَدِّقُهُ، فَإِذَا أَذْيَنَاهُ بِكَلَامٍ مَا فِي غَيْبَتِهِ وَبَلَّغَهُ مَا تَكَلَّمْنَا بِشَأْنِهِ، جِئْنَا إِلَيْهِ فَاعْتَذَرْنَا إِلَيْهِ بِكَلَامٍ يَقْبَلُهُ مِنَّا، لِأَنَّ مِنْ طَبْعِهِ أَنَّهُ يَسْمَعُ مَا يُقَالُ لَهُ فَيُصَدِّقُهُ، إِذْ هُوَ أُذُنٌ، فَلَا خَوْفَ مِنْ أَنْ نَبْطِئَ فِيهِ أَلَسْتَنَا فِيمَا يَبْتَئَا، أَوْ أَمَامَ بَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، لِإِضْعَافِ إِيمَانِهِمْ بِهِ، وَقَدْ وَرَدَ فِي سَبَبِ النُّزُولِ مَا يَلِي:

(١) أخرج ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال:

كَانَ نَبْتُ بْنُ الْحَارِثِ (وهو من بني لؤذان بن عمرو بن عوف) يَأْتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَيَجْلِسُ إِلَيْهِ فَيَسْتَمِعُ مِنْهُ، ثُمَّ يَنْقُلُ حَدِيثَهُ إِلَى الْمُنَافِقِينَ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ: إِنَّمَا مُحَمَّدٌ أُذُنٌ، مِنْ حَدِيثِهِ بَشِيءٌ صَدَقَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ هَذَا النَّصَّ.

وقال ابن إسحاق: وهو الذي قال له رسول الله ﷺ فيما بلغني: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى شَيْطَانٍ فَلْيَنْظُرْ إِلَى نَبْتِ بْنِ الْحَارِثِ.

(٢) أخرج ابن أبي حاتم عن السَّدي قال: اجتمع ناسٌ من المنافقين، مِنْهُمْ جُلَاسُ بْنُ سُؤَيْدِ بْنِ الصَّامِتِ، وَمُخَشَّنُ بْنُ حُمَيْرٍ، وَوَدِيعَةُ بْنُ ثَابِتٍ، فَأَرَادُوا أَنْ يَقْعُوا فِي النَّبِيِّ ﷺ، فَنهَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَقَالُوا: إِنَّا نَخَافُ أَنْ يَبْلُغَ مُحَمَّدًا فَيَقْعَ بِكُمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا مُحَمَّدٌ أُذُنٌ، نَخْلِفُ لَهُ فَيُصَدِّقُنَا.

هُوَ أُذُنٌ: أَيُّ: هُوَ كَالْأُذُنِ الَّتِي تَنْقُلُ مَا تَسْمَعُ، دُونَ تَمْحِصٍ وَلَا مُحَاكَمَةٍ عَقْلِيَّةٍ. قَالَ أَهْلُ اللَّغَةِ: تَقُولُ الْعَرَبُ لِمَنْ يَسْمَعُ مَا يَقَالُ لَهُ فَيُصَدِّقُهُ: أُذُنٌ، وَيَطْلُقُ بِالْإِفْرَادِ هَكَذَا عَلَى الْمَذْكَرِ وَالْمُؤنَّثِ وَالْمُثَنَّى وَالْجَمْعِ، فَيَقَالُ: رَجُلٌ أُذُنٌ، وَامْرَأَةٌ أُذُنٌ، وَهُمَا وَهُمْ وَهُنَّ أُذُنٌ.

وَلَا يَخْفَى مَا فِي قَوْلِ الْمُنَافِقِينَ هَذَا مِنْ طَعْنٍ فِي النَّبِيِّ وَإِذَاءٍ لَهُ.

وَقَدْ عَلَّمَ اللَّهُ كُلَّ مُؤْمِنٍ بِأَسْلُوبِ التَّعْلِيمِ الْإِفْرَادِيِّ كَيْفَ يَرُدُّ مَقَالَةَ الْمُنَافِقِينَ فِي الرِّسَالَةِ إِنَّهُ أُذُنٌ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ...﴾.

وَنُذِرُكَ مِنْ هَذَا التَّعْلِيمِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعَلِّمُ كُلَّ مُؤْمِنٍ أَنْ يُعْلِنَ عِنْدَ مَقْتَضِيَّاتِ الْأَحْوَالِ أَمَامَ مَنْ يُوَاجِهُ مِنْ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ بِصِفَةِ غَامِئَةٍ، مُلَاحِظًا مَنْ فِي صَفْوَتِهِمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، مَضْمُونِ الْقَضَايَا الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا التَّعْلِيمُ، لِإِبْجَادِ رَأْيِ عَامِّ بَهَا، وَهِيَ الْقَضَايَا الْأَرْبَعُ التَّالِيَةُ:

القضية الأولى: ما تضمنه قول الله عز وجل:

﴿أُذِّنْ خَيْرَ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾

أي: هو بحسن تلقّيه بأذنيه ما يتلى عليه من الوحي المعصوم من الخطأ، أذن خير، فهو بضبط تلقّيه عن ربه، وضبط تبليغه لما تلقّاه عنه، قد جلب لكم خيراً عظيماً، يضمن لكم خير العاجلة وخير الآجلة.

فإذا كنتم ترونه ضابطاً لما يسمع، وأميناً فيما يتلقّاه، فهذا من كمالاته التي اصطفاه الله بها للنبوّة، فجعله نبياً، نبياً بأخبار السماء وينبئ عنها كما تبلّغها.

هذه الإجابة تتضمن قبول ما أطلقوا من وصف، مع تحويله من صفة ذم إلى صفة مدح عظيم، ولكن في موضوع ما يتلقّى من الوحي عن ربه، لا ما يتلقّاه من أمور أخرى، ومعلوم أن ما ينزل به الوحي معصوم عن الخطأ والشر والفساد، فهو خير كله.

والسبب في أنه لا يفكر بطرح أي شك حول ما يأتي به الوحي عن الله أنه يؤمن بالله إيماناً كاملاً، لا يخالطه شك ولا تردد، فمن آمن بالله الرب الخالق العليم الخبير الذي لا يخفى عليه شيء في السماوات والأرض، المتصف بكل صفات الكمال، والمنزه عن كل صفات النقائص، لا يمكن إلا أن يسلم تسليماً تاماً بكل ما يوجهه الله إليه، وكل عمله تجاهه أن يتلقّاه ويفهمه، لأنه يؤمن بأنه لا يمكن إلا أن يكون حقاً أو خيراً ورشداً وسبب سعادة ونجاح وفلاح.

القضية الثانية: دل عليها قول الله عز وجل:

﴿يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

أي: وهو يصدق المؤمنين في أخبارهم لأنهم مؤمنون بالله، وبسبب إيمانهم به وخوفهم من عذابه لا يكذبون مفترين على أحد، إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون، فمعنى ﴿يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يطمئن لإيمانهم فيصدقهم.

وبيان أنه يصدق المؤمنين في أخبارهم يشير إلحاحاً إلى أنه لا يصدق أخبار الفاسقين، حتى يتبينها ويتثبت منها، ولا يصدق أخبار المنافقين، عملاً بما أمر الله به في الآية (٦) من سورة (الحجرات) ٤٩ مصحف / ١٠٦ نزول) ففيها قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْحَرُوا عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ بِنَدِمٍ ۖ﴾

ففي بيان أن النبي يؤمن للمؤمنين إشعاراً للمنافقين بأن ما تصوّروه من أنهم يستطيعون أن يرضوه بالكذب عليه في اعتذارهم له عما يتلغّه عنهم، أمر لا ينطلي على الرسول، ولو تغاضى عنهم في الظاهر، فإذا لم يكشف بفراسته أحوالهم، نزل عليه بشأنهم خبر الوحي، فجلبه وضبره عليهم وتغاضيه عنهم غرهم، فظنوا أن ما يقولونه في معاذيرهم الكاذبة له يصدّقه.

القضية الثالثة: دلّ عليها قول الله عز وجل:

﴿وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾

أي: والرسول هو رحمة للذين آمنوا منكم أيها المعلنون إسلامهم، أو هو أذن رحمة لهم، وتظهر رحمته لهم في مجال ما يسمع بأذنه منهم في أمور كثيرة، منها ما يلي:

— إذا عرض أحد المؤمنين عليه شكوى من أمر في نفسه، أو ماله، أو أهله، وطلب منه مساعدة ما أسرع إلى نجاته، ما وجد إلى ذلك سبيلاً، أودع الله له، فكان بذلك رحمة له، أي: سبباً في استفادته خيراً هو من آثار الرحمة.

— إذا جاء أحد المذنبين من المؤمنين فسأل الرسول أن يستغفر الله له، استجاب لطلبه، فاستغفر له، فغفر الله له، فكان بذلك رحمة له، أي: سبباً في استفادته خيراً عظيماً هو من آثار الرحمة.

— إذا جاءه مؤمن يسأله عن شيء من أمور دينه يجهله، سمع سؤاله وعلمه، فكان بذلك رحمة له، أي: سبباً في استفادته علماً دينياً هو خير عظيم له، وهو من آثار الرحمة.

إلى غير ذلك من أمور.

القضية الرابعة: دلّ عليها قول الله عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

هذه القضية تتضمن توجية تحذير للمنافقين من العذاب الأليم الذي أعده الله عز وجل للذين يؤذون رسوله.

واختير هنا من صفات النبي ﷺ كونه رَسُولَ اللَّهِ، للإشارة إلى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُدَّ أَنْ يَتَّبِعَ لِرَسُولِهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِتَبْلِيغِ رِسَالَاتِهِ لِلنَّاسِ، وللإشعار بِأَنَّ إِيْذَاءَ الرَّسُولِ إِيْذَاءُ اللَّهِ، لِأَنَّهُ مَبْعُوثٌ مِنْ قِبَلِهِ، وَيَحْمِلُ لَهُمْ مَا أَوْحَى اللَّهُ بِهِ إِلَيْهِ، وَكَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ وَيُعِزُّوهُ وَيُوقِرُوهُ وَيُنْصُرُوهُ، لَا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُؤْذُوهُ.

فالمؤمن مُطالب في الردّ على المنافقين الذين يؤذون النبيّ بأن ينذرهم أخيراً بعذاب الله الأليم، مُعلّلاً بأنّ النبيّ هو رسول الله، والله لا يتركُ رسوله يؤذَى دون أن يُعاقب الذين يؤذونه بعذاب أليم.

• قول الله عز وجل:

﴿يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٦﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿١٧﴾ .

سبق في عدة نصوص بيان أن المنافقين يلجؤون إلى ستر قبائحهم، وأنواع سلوكهم الدالة على بفاقهم، بأن يحلفوا بالله أيماناً كاذبة، ليصدقهم الرسول وليصدقهم المؤمنون، على اعتبار أن الأصل في المسلم أن لا يخلف بالله كاذباً، وما دامت البينة التي تُثبت جريمته لم تصل إلى مستوى إدانتهم إدانة شرعية، فإنهم يجدون أن أيمانهم الكاذبة تُدرك غنم العقوبة على يد الرسول، أو على أيدي المؤمنين.

ولمّا كان المنافقون يتخذون وسيلة حلف الايمان الكاذبة مع كلّ نوع من أنواع سلوكهم الدالّ على نفاقهم، اقتضى فضح حالهم تكرير بيان أنّهم يحلفون الايمان

الكاذبة لستّر نفاقهم، عند المناسبات الداعيات لذلك، مع إضافات تعليلية أو توجيهية أو تحذيرية، ليُعطي التكرير فائدة التأكيد مع التمهيد لإضافة البيان الجديد.

وفي مناسبة بيان إيذاء بعضهم للنبي ﷺ أذنبات تزعج الرسول وتغضب المؤمنين، الأمر الذي قد يدفع بعض المؤمنين للانتقام منهم، أبان الله عز وجل أنّ الذين تبذّر منهم بادرآت الأذى للرسول، بمقتضى ما يضمرونه من كفر وعداء، يسارعون للتخلص من تبعية ما تبذر منهم بأنّ يجحدوا ما نُقِل عنهم، ويُنكروه إنكاراً كلياً، وبأنّ يؤكّدوا إنكارهم له بحلف الأيمان الكاذبة، فيحلفون بالله على أنّهم بُرّاء مما نُسب إليهم، من أقوال أو أفعال أدّوا بها رسول الله، فخطب الله المؤمنين بقوله:

﴿يَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ لَكُمْ لِرِضْوَانِكُمْ﴾:

أي: يحلفون بالله ليُطْفئوا حرارة الغضب الذي توهج في قلوبكم ضدهم، فيَرْضُوكم بالإيمان الكاذبة، فتسكّن نائرتكم، فلا تنقموا منهم.

وقد جاء في كثير من الأخبار أنّ الرسول كان إذا تعرّض لأذى من أحد من الناس، ثار بعض أصحابه كعمر بن الخطاب غاضباً، وقال: دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فبابى رسول الله ﷺ، ويأخذ الرجل بالحلم والصفح، وبالإكرام والعطاء أحياناً، وربما صلح حال الرجل، وصار بعد ذلك من فضلاء المسلمين.

بعد بيان هذا من سلوك المنافقين وجّه الله عز وجل موعظة عامّة، يستفيد منها من كان مؤمناً بالله واليوم الآخر، فقال تعالى:

﴿وَاللّٰهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنَّ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ١٦.

أي: وإن كانوا مؤمنين حقّاً علّموا بأنّ الله أحقّ بأن يُرضوه من محاولتهم إرضاء المؤمنين بالإيمان الكاذبة ليدفعوا عن أنفسهم النقمة، وعلّموا بأنّ الرسول أحقّ بأن يُرضوه كذلك، وإرضاء الله ورسوله يكون بالحذر الشديد من أذى الرسول الذي يعرضون أنفسهم بسببه لعذاب اليم، من قبل الرّبّ العزيز العليم.

وإذا أدركوا هذه الحقيقة وآمنوا بها أرضوا الله ورسوله، باجتناّب ما يسخطهما من أذى وغيره.

فمعنى العبارة باختصار: وإن كانوا مؤمنين وجَّهوا همَّهم الأكبر لإرضاء الله ورسوله، فالله أحقُّ بأن يُرضوه، ورسوله أحقُّ بأن يرضوه، ليُذَرَّوْا عن أنفسهم العقاب الشديد، فهو عقابٌ لا تحمي منه الأيمان الكاذبة، بل تزيد منه لأنها هي أيضاً تستوجب عقاباً.

وإذا تركنا الصناعة النحويَّة، ونظرنا إلى معنى الجملة، وجدنا أنَّ جواب الشرط الذي في: ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ قد جاء سابقاً له، وقد دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ أي: إن كانوا مؤمنين أرضوا الله ورسوله، فالله ورسوله أحقُّ أن يُرضوهما، من إرضاء المؤمنين بالآيمان الكاذبة. ويقول النحاة البصريون: إنَّ جواب الشرط في مثل هذا محذوف دلَّ عليه ما قبله.

أما أفراد الضمير في ﴿يُرْضَوْهُ﴾ مع أنَّ المراد يُرضوهما، فهو على تقدير: واللَّهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ، ورسوله أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ، والغرض الدلالة على أنَّ كُلًّا منهما أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ من محاولتهم إرضاء المؤمنين بالحلف الكاذب، وعليه يكون الكلام من قبيل عطف الجمل، فتأخذ كلَّ جملة حقها من الدلالة المستقلة.

ولبيان كون الله ورسوله أحقُّ بالإرضاء من محاولة إرضاء الناس قال الله تعالى بشأن المنافقين:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَأَبْدَلَهُمْ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيفَةً فِيهِمْ ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾:

﴿مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ﴾:

المُحَادَّةُ هي التَّصَدِّي للمقاومة والمحاربة، وذلك بملازمة أحد الفريقين حداً مقابلًا أو مناقضاً أو معارضاً للحدِّ الذي عليه الفريق الآخر، على سبيل العداء والمخالفة والمضادة، وهي مشتقة من الحدِّ الذي يوضع على طرف الأرض لفصلها عن غيرها، ولَمَّا كان كلُّ فريق من المتعاديَّين يتخذ لنفسه حداً مضاداً لحدِّ الفريق الآخر سميت حالة التقابل العدائي بينهما أو من أحدهما مُحَادَّةً، وتظهر المحادَّة بممارسة بعض الأعمال الكيدية.

والمحاذة كالمشاقفة، إذ كل فريق من المتعاديتين يتخذ لنفسه شيقاً من الأرض مضاداً لشقّ عدوه.

في هذه الآية يخاطب الله عز وجل المؤمنين متحدثاً عن المنافقين بما سبق أن أعلمهم به بشأن الذين يحادون الله ورسوله، وذلك فيما أنزله سابقاً في سورة (المجادلة/ ٥٨ مصحف/ ١٠٥ نزول) فقد جاء فيها قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ مُهِينٍ ٥٨﴾.

وجاء فيها قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ٥٩﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ٦٠﴾.

وجاء فيها قوله تعالى بشأن المنافقين الذين يحادون الله ورسوله:

﴿حَسْبُ لَهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسُ الْغَيْبُ ٦١﴾.

وقوله تعالى فيها:

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٦٢﴾.

وقد سبق تدبر هذه النصوص في النصين (٢٧) و (٢٨) من هذه الدراسة عن المنافقين.

ولما كان إنزال هذه النصوص فيما سبق إعلاماً تعليمياً، وكان المنافقون متظاهرين بأنهم مسلمون مؤمنون، كان من المفروض أنهم قد علموا مضمونها، فكان من المناسب أن يقال بشأنهم:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولَهُ فَأَبْدُوا أَنْفُسَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَئِنْ فُتِحَ لَهُمْ فِيهَا سَبِيلٌ ٦٣﴾.

أي: فجزاؤه أن له نار جهنم حالة كونه خالداً فيها. والضمير في ﴿أنه﴾ ضمير الشأن الخطير العظيم، والاستفهام هنا استفهام تقرير وتقرير وإدانة، أي: قد علموا

ذلك فليَعِدُوا أَنْفُسَهُمْ لِحَمْلِ الْعَذَابِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا، مَا لَمْ يُتُوبُوا إِلَى اللَّهِ، وَيُؤْمِنُوا، وَيَقْلَعُوا عَنْ مُحَادَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَيَتَخَلَّصُوا مِنْ خَسَةِ النَّفَاقِ، وَذَرِكِ اللَّئِيمِ ذِي الْعَاقِبَةِ الرَّخِيمَةِ.

وبعد تذكيرهم بما سبق أن غلِّموه من عذاب في نار جهنم مع الخلود فيها، لمن يحادِّد الله ورسوله، أبان الله تعالى أن من يصير أمره يوم القيامة إلى هذا العذاب يكون يومئذ في خزي عظيم، فقال تعالى مشيراً إلى العذاب المذكور باسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد:

﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ (٦٢):

أي: ذلك العذاب في قعر جهنم البعيد مع الخلود فيها هو الخِزْيُ العظيم. أو ذلك الحكم عليهم يوم الدين باستحقاق العذاب المذكور هو الخِزْيُ العظيم.

الخِزْيُ: الوقوع في الشر والعذاب، والذلُّ والهوان، والافتِضَاحُ بالقبائح والسيئات والآثام المكتومة المورثة للخلل الشديد منها، والاستحياء ممَّا نزل من ذل وهوانٍ وعذابٍ بحق.

* * *

* قول الله عز وجل:

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مِمَّا تُخْتَفُونَ﴾ (٦٣) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوشُ وَلَعَبٌ قُلْ أَيْلَهُمْ وَأَيَّنُهُمْ وَرَسُولُهُ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (٦٥).

القراءات:

* قرا جمهور القراء العشرة: [أَنْ تُنْزَلَ] بالبناء للمجهول مع تشديد الزاي.

وقرا ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: [أَنْ تُنْزَلَ] بالبناء للمعلوم مع تخفيف الزاي.

وفي القراءتين تكامل في الأداء البياني، فإذا نَزَلَ اللَّهُ السُّورَةَ الَّتِي يَحْذَرُ المنافقون من تَنْزِيلِهَا، نَجَّ عَنْهُ نَزْوُلُهَا الَّذِي هو اثر التنزيل.

* قرأ جمهور القراء العشرة: [عَلَيْهِمْ] بكسر هاء الضمير.

وقرأ حمزة ويعقوب: [عَلَيْهِنَّ] بضم هاء الضمير.

والقراءتان وجهان عربيان لنطقي الكلمة.

* قرأ جمهور القراء العشرة [اسْتَهْزَؤُوا - تَسْتَهْزِئُونَ] بكسر الزاي فيهما وإثبات الهمزة المضمومة.

وقرأ أبو جعفر [اسْتَهْزَؤُوا - تَسْتَهْزِئُونَ] بضم الزاي فيهما وحذف الهمزة في الوصل والوقف. وهو وجه لحمزة عند الوقف فقط.

والقراءتان وجهان عربيان لنطق هذا الفعل.

* قرأ عاصم فقط [إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ تُعَذِّبُ طَائِفَةً] بنون المتكلم العظيم في: [نَعْفَ] و[تُعَذِّبُ] مع البناء للفاعل ونصب [طَائِفَةً].

وقرأ جمهور القراء العشرة [إِنَّ يُنْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ تُعَذِّبُ طَائِفَةً] بالياء مع البناء للمجهول في [يُنْفَ] وبالتاء مع البناء للمجهول في [تُعَذِّبُ] ورفع [طَائِفَةً] على أَنْ اللفظ نائب فاعل.

وفي القراءتين تكامل في الأداء البياني وتكامل فكري، فقراءة عاصم يتحدث الله فيها عن نفسه بنون العظمة، وقراءة جمهور القراء يتحدث الله فيها ببناء الفعلين لما لم يُسَمَّ فاعله، لتشمل القراءة في دلالتها ما يحتمل أن يصدر من الرسول أو من المؤمنين من عفو وتعذيب للمنافقين.

* * *

التدبير

جاء في النص الثاني من هذه الدراسة عن المنافقين، وهو ما جاء في الآيات من (٨ - ٢٠) من سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول) بيان أنهم إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا: إنا معكم إنما نحن مستهزئون.

وكان هذا في أوائل المرحلة المدنية، وأوائل ظهور النفاق في المسلمين، واستمر المنافقون الذين لم يهلكوا ولم يتوبوا من نفاقهم بإيمان صحيح صادق، على حالهم إبطاناً للكفر، وتظاهراً بالإسلام على سبيل الاستهزاء بالمؤمنين.

ولما صارت الآيات القرآنية تنزل مع مراحل التزليل فاضحة صفاتهم، ومحدثة عن تصرفاتهم الدالة على نفاقهم، ومحدثة لهم، ومُنذرة بإنزال النعمة بهم، صاروا يحذرون أن تنزل على رؤوسهم مصيبة سورة كاشفة أشخاصهم بالأوصاف المعينة، أشد من سورة (المنافقون) وأن تخاطبهم هذه السورة بصورة مباشرة، فتنبههم بكل ما في قلوبهم من كفر وكيد ومكر وعداوة للرسول والمؤمنين، وأن تحاصرهم بالأوصاف التعيينية التي توضح أشخاصهم، وعندئذ يقعون تحت طائلة المساءلة والمحاسبة والانتقام، من قبل الرسول والمؤمنين.

وقد كشف الله حالة حذرهم المتجدد في نفوسهم، والمثير فيهم القلق والاضطراب وعدم الشعور بالأمن، بقوله:

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾:

أي: تواجهم بالخطاب، وتنبههم بما في قلوبهم من كفر وكيد ومكر وعداوة للرسول والمؤمنين، وتكشف أنهم في استمرار تظاهرهم بالإسلام ما زالوا يستهزئون، فهم على حالهم منذ بدؤوا رحلتهم مع النفاق، كافرون باطنياً ويعلمون إسلامهم استهزاءً، ويعاملون الرسول والمؤمنين معاملة المستهزئين بالدين، والمستهزئين بأشخاص الذين يتعاملون معهم من أهل الإيمان، على اعتبار أن حيلهم الخداعية منطوية عليهم، إذ هم سفهاء ناقصو الذكاء، لا يستطيعون كشف أعدائهم المخالطين لهم، والمتظاهرين لهم بالولاء.

وحين تنزل مثل هذه السورة التي يتخوف المنافقون من نزولها إلى الرسول ﷺ وفيها مواجهة للمنافقين بإناباتهم بما في قلوبهم من كفر وكيد ومكر وعداوة، فإنها تنزل بركة عليهم، بوساطة تبليغ الرسول ﷺ.

وقد جاء في القرآن التعبير بإنزال الكتب الربانية إلى الناس، وإنزالها على الناس في عدة نصوص، ملاحظاً في هذا الإنزال تبليغ الرسول لهم، مثل:

(١) قول الله تعالى بشأن اليهود في سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول):

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَأْتُونَنَا بِمَاءٍ كَرِيمٍ ﴿١٦﴾﴾

(٢) وقول الله عز وجل في سورة (البقرة) أيضاً خطاباً للمسلمين:

﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣١﴾﴾

(٣) وقول الله عز وجل بشأن اليهود والنصارى في سورة (المائدة / ٥ مصحف /

١١٢ نزول):

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنزَلْنَا إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَآكُلُوا مِن قَوْفِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْنَصَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٨١﴾﴾

ونلاحظ أنه عُذِّي فعل الإنزال بحرف الجر «على» في قوله تعالى:

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾

لما في إنزال مثل هذه السورة التي يحذرونها من نقمة نازلة عليهم بسببها.

وقد يلاحظ في النصوص التي عُذِّي فيها الإنزال بحرف الجر «على» ما في

النصوص المنزلة من تكاليف ألزم بها الربُّ العليُّ الأعلى.

وأكثر النصوص قد عُذِّي فيها الإنزال بحرف الجر «إلى» إشارة إلى ما في

المنزل من خير عظيم يهديه الله لعباده.

وبعد كشف هذا الحذر الذي يتجدد في نفوس المنافقين حتى عُقِيَ قلوبهم كلما

نزلت آيات تكشف بعض صفاتهم دون تعيين أشخاصهم لعامة المؤمنين، علم الله

عز وجل رسوله وكل مؤمن معه أن يقول لهم مضمون ما جاء في قوله تعالى:

﴿قُلِ اسْتَخِرُوا إِلَهَ اللَّهِ فَيُخْرِجَ مَا تُخْذَرُونَ ﴿١٦٦﴾﴾

أي: قل لهم بأسلوب التوجيه العام لا بأسلوب الخطاب الإفرادي: استهزئوا بالله والرسول والمؤمنين بتظاهركم بالإسلام مخادعة وكذباً كما يخلو لَكُمْ، فَإِنَّ الْأَمْرَ لَن يَطُولَ بِكُمْ كَثِيراً، فقد أخبرنا ربنا بأنه مُخْرِجٌ من بواطنكم إلى ظواهركم ما تَحْذَرُونَ أَنْ يظهر وينكشف للرسول وللمؤمنين.

وجاء التعبير باسم الفاعل «مخرج» الذي يُستَعْمَلُ في الحال بحسب الأصل، للدلالة على أَنَّ عمليات إخراج ما في صدورهم بالبيان القرآني، أو بالامتحانات القاسية، كالامتحان في غزوة تبوك، عملياتٌ قد بدأت فعلاً.

وما يحذرونه هو كُشْفُ هُويَّاتهم المشيرة بالتعيين إلى أشخاصهم.

وقد كشفت أحداث غزوة تبوك عدداً من أفرادهم بالتعيين، فمنهم من كشفهم الرسول ﷺ بما نزل عليه من وحي بشأنهم، ووضعهم موضع المساءلة للإدانة، ومنهم من كشفهم بعض المسلمين وأخبر الرسول بمقالاتهم.

وخطب الله رسوله بقوله:

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ

كُنْتُمْ تُسْتَهْزِئُونَ ﴿٥٠﴾ لَا تَعْنِدُوا فِكْرَ تُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ

أي: وَلَمَّا وَضَعْتَهُمْ مَوْضِعَ الْمَسْأَلَةِ فِي مَجْلَسِ مُحَاكَمَةٍ عَنْ أَقْوَالِهِمْ الَّتِي يَقُولُونَهَا فِيمَا بَيْنَهُمْ مِنْ أَقْوَالٍ تَدُلُّ عَلَى كُفْرِهِمْ وَاسْتِهْزَائِهِمْ، وَأُثِّبَتْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوهَا بِاعْتِرَافِهِمْ أَوْ بِالْبَيِّنَةِ، لَيَقُولُنَّ: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، أي: لَمْ نَكُنْ جَادِينَ فِيمَا قُلْنَا، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ مَنَاعِي سَبِيلِ الْمُزَاحِ وَالْمَدَاعِبَةِ وَاللَّعِبِ بِالْأَقْوَالِ وَالْخَوْضِ فِيمَا لَا يُرَادُّ مِنْهُ مَعْنَاهُ، بِقَصْدِ التَّرْوِيجِ عَنِ النَّفْسِ، وَعِبَارَتِهِمْ فِيهَا قَصْرٌ.

وهذا دفاعٌ اعتذارِيٌّ مِنْهُمْ، بِأَنَّهُمْ لَمْ يَقْصِدُوا مَضْمُونُ مَا قَالُوا، وَإِنَّمَا كَانُوا يَخُوضُونَ وَيَلْعَبُونَ فِي الْأَقْوَالِ عَلَى سَبِيلِ الْمُزَاحِ.

ومن وقائع هذه الظاهرة من ظواهر المنافقين السلوكية ما يلي:

• جاء في السيرة عند ابن إسحاق قوله:

وقد كان رهطٌ من المنافقين، منهم ودِيعَةُ بْنُ ثَابِتٍ، أَخُو بَنِي عَمْرُو بْنِ عَوْفٍ،

ومنهم رجلٌ من أشجع، حليفٌ لبني سلمة، يُقالُ له مُخْشَنُ بْنُ حُمَيْرٍ^(١)، يُبَيِّسِرُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وهو مُنْطَلِقٌ إِلَى تَبُوكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَتَحْسِبُونَ جِلَادَ بَنِي الْأَصْفَرِ (أي: الروم) كَقِتَالِ الْعَرَبِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَاللَّهِ لَكَأَنَّا بِكُمْ غَدًا مُقَرَّبِينَ فِي الْجِبَالِ، إِرْجَافًا وَتَرْهِيًا لِلْمُؤْمِنِينَ.

فَقَالَ مُخْشَنُ بْنُ حُمَيْرٍ، وَاللَّهِ لَوَبَّدْتُ أَنِّي أَفَاضِي عَلَى أَنْ يُضْرَبَ كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا مِثَّةَ جِلْدَةٍ، وَإِنَّا نَتَغَلَّبُ أَنْ يَنْزِلَ فِينَا قُرْآنٌ لِمَقَالَتِكُمْ هَذِهِ.

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَمَارِ بْنِ يَاسِرٍ: أَذْرَكَ الْقَوْمَ فَلَانَهُمْ قَدْ اخْتَرَقُوا^(٢)، فَسَلَّهُمْ عَمَّا قَالُوا، فَإِنْ أَنْكَرُوا فَقُلْ: بَلَى، قُلْتُمْ كَذًا وَكَذَا.

فَانْطَلَقَ إِلَيْهِمْ عُمَارُ، فَقَالَ لَهُمْ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَخْتَبِرُونَ إِلَيْهِ، فَقَالَ وَدِيعَةُ بْنُ ثَابِتٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ وَاقِفٌ عَلَى نَاقَتِهِ، فَجَعَلَ يَقُولُ وهو آخِذٌ بِحَقَبِهَا (وهو خَبْلٌ يُشَدُّ عَلَى بَطْنِ الْبَعِيرِ غَيْرِ الْحِزَامِ الَّذِي يُشَدُّ بِهِ الرَّحْلُ) يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ.

• وَرَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فِي مَجْلَسٍ: مَا رَأَيْتُ مِثْلَ قَرَانِنَا هَؤُلَاءِ، أَرْغَبُ بَطُونًا، وَلَا أَكْذَبُ أَلْسِنًا، وَلَا أَجَبَنَ عِنْدَ اللَّقَاءِ، فَقَالَ رَجُلٌ فِي الْمَجْلَسِ: كَذِبْتَ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لِأَخْبَرَنُ رَسُولَ اللَّهِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

وَقَدْ عَلَّمَ اللَّهُ رَسُولَهُ كَيْفَ يَسْتَكْمِلُ مُحَاكِمَةَ الْمُنَافِقِينَ عَلَى مَقَالَتِهِمْ وَاعْتِذَاهِمْ بِأَنَّهُمْ إِنَّمَا كَانُوا يَخُوضُونَ وَيَلْعَبُونَ، أَيْ: يَخُوضُونَ فِي الْكَلَامِ وَيَلْعَبُونَ، كَمَا يَخُوضُ اللَّاعِبُونَ فِي نَهْرٍ أَوْ بَرَكَةٍ مِنَ الْمَاءِ بِقَصْدِ التَّرْوِيعِ عَنِ النَّفْسِ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَرَسُولُهُ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ لَا تَعْتَذِرُوا فَعْدَكُمْ مُبَدَّدَ إِيْمَانِكُمْ...﴾.

(١) قَالَ ابْنُ هِشَامٍ وَيُقَالُ: مُخْشِي.

(٢) اخْتَرَقُوا: أَيْ: هَلَكُوا بِسَبَبِ الْمَقَالَةِ الَّتِي قَالُوهَا فِيمَا بَيْنَهُمْ.

اشتمل هذا التعليم على بقية عناصر مجلس محاكمتهم بعد إثبات ما قالوا باعترافهم أو بالبينّة، وبعد اعتذارهم بأنهم كانوا يخوضون ويلعبون.

أولاً: رفض الاعتذار وإثبات أن ما كان منهم هو من قبيل الاستهزاء بالله وآياته ورسوله.

ثانياً: توبيخهم وتقريهم على استهزائهم بالله وآياته ورسوله وهم يدعون أنهم مسلمون.

دلّ عليهما قول الله في التعليم.

﴿أَيُّهَا اللَّهُ وَآيَاتُهُ وَرَسُولُهُ كَسَبُوا سَيِّئَةً ذُوًّا﴾: ١٩

أي: إن الخوض واللعب في القضايا الجادة التي تتعلق بأمور الدين، سواء أكانت من العقائد، أو العبادات، أو الأخلاق، أو الجهاد في سبيل الله، أو سياسة الدولة الإسلامية، أو غير ذلك، من الاستهانة والاستهزاء بالله وآياته المتزلات بالوصايا والأحكام، ورسوله المبعوث لتبليغ دينه، ودعوة الناس إلى سبيله، وقيادة من آمن به، وتوجيههم لمجاهدة من أبى وكفر حتى تكون كلمة الله هي العليا.

فمن سخر بعقل ما يقصد منه تحقيق مطلوب ما من مطالب الدين في أي أمر من أموره فهو في الحقيقة يسخر ويستهزئ بالله وآياته ورسوله.

لذلك فهو يقاضى على عمله الذي يتنافى مع مقتضى ولائه للإسلام الذي أعلنه، ولجماعة المسلمين الذين انتمى إليهم، ويؤيخ ويقرع ويدان بجريمته.
وعبارة:

﴿أَيُّهَا اللَّهُ وَآيَاتُهُ وَرَسُولُهُ كَسَبُوا سَيِّئَةً ذُوًّا﴾: ١٩

فيها تقديم المعمول على عامله للإشعار بشناعة الاستهزاء بالله وآياته ورسوله، أو للدلالة على القصر، أي: ما حلا لكم أن تستهزئوا إلا بالله وآياته ورسوله.

ثالثاً: إيقاف محاولتهم الدفاع عن أنفسهم بتلفيق المعاذير، دلّ على هذا قول الله تعالى في التعليم:

﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾:

أي: قد انكشف أمركم، وظهر جرمكم، فلا تتعجبوا أنفسكم وتتعبوا من يحاكمكم بأن تتحلوا الأعذار الكاذبة، لتخلصوا أنفسكم من جريمة المقالات التي تدينكم بالكفر، بعد أن كنتم أعلنتم مقالات إسلامية جعلتكم بحسب الظاهر ضمن أهل الإسلام والإيمان.

رابعاً: إصدار الحكم عليهم بالردة، أي: بالكفر بعد الإيمان.

دلّ على هذا قول الله تعالى في التعليم:

﴿كَذَلِكَ كُفِّرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

وقد دلّ هذا على أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله من التصرفات التي تدین بالكفر.

وبعد الحكم عليهم بالكفر يكونون بين حالتين:

* إما أن يتوبوا، ويتخلصوا من النفاق، ويصلح حالهم ظاهراً وباطناً.

* وإما أن يصبروا على كفرهم ونفاقهم.

وقد إبان الله عز وجل أنّ المنافقين بعد أن تتواتر عليهم أدلة صدق الرسول، وأن الإسلام حق، ولا سيما حينما يكشف الرسول من أمرهم بما ينزل عليه من الوحي، ما لم يطلع عليه أحد من الناس غيرهم، يكونون طائفتين:

* طائفة تتوب إلى الله، وتؤمن إيماناً صادقاً، فيعفو الله عنها، ما دامت على قيد الحياة ولم ينزل بها عقاب الله.

وتصدق الطائفة بواحد فأكثر.

* وطائفة يصبرون على كفرهم ونفاقهم، فيعذبهم الله يوم الدين، بسبب أنهم كانوا في الدنيا مجرمين.

فقال الله عز وجل:

﴿إِنْ تَعَفُّ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ تُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

أي: إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ تُرْجَى تَوْبَتُهُمْ نُغَذِّبْ طَائِفَةً أُخْرَى لَا تَرْجَى تَوْبَتَهُمْ
لأنهم مَرَدُّوا عَلَى الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ، وتعذيبهم يكون بسبب أنهم كانوا في الدنيا مجرمين،
أي: كافرين منافقين.

وفي هذا البيان إلماح إلى أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يُسْتَأْبِرُونَ بَعْدَ إِدَانَتِهِمْ بِمَا يُثَبِّتُ رَدَّتَهُمْ،
فمن تاب غُفِيَ عَنْهُ، وَوُضِعَ مَوْضِعُ الْمَرَاقَبَةِ، ومن لم يُعْلِنْ تَوْبَتَهُ أُدِينَ بِالرَّكَّةِ، وَعُوقِبَ
عِقَابَ الْمُرْتَدِّينَ.

وقد روي أَنَّ أَحَدَ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّمَا كُنَّا نَخْرُصُ وَنَلْعَبُ قَدْ تَابَ وَتَخَلَّصَ مِنَ
النِّفَاقِ، وَهُوَ مُخَشَّنُ بْنُ حُمَيْرٍ - أَوْ اسْمُهُ مُخَشِّنٌ - وَقَدْ غَيَّرَ اسْمَهُ وَجَعَلَ اسْمَهُ عَبْدَ
الرَّحْمَنِ، وَسَأَلَ اللَّهَ أَنْ يَقْتُلَ شَهِيداً لَا يَعْلَمُ بِمَكَانِهِ، فَقَتَلَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ وَلَمْ يَوْجَدْ لَهُ أَثَرٌ.

قال عكرمة في تفسير هذه الآية، كَانَ رَجُلٌ بِمَنْ إِذَا شَاءَ اللَّهُ عَفَا عَنْهُ يَقُولُ:
اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْمِعُ آيَةَ أَنَا أُغْنِي بِهَا، تَقْشَعُرُ مِنْهَا الْجُلُودُ، وَتَجَلُّ مِنْهَا الْقُلُوبُ، اللَّهُمَّ
فاجعل وفاتي قتلاً في سبيلك، لا يقول أحدٌ أَنَا غَسَلْتُ، أَنَا كَفَنْتُ، أَنَا دَفَنْتُ.

قال: فَاصْبِ يَوْمَ الْيَمَامَةِ فَمَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا وَقَدْ وَجَدَ غَيْرُهُ.

قال ابن إسحاق: وَكَانَ الَّذِي غُفِيَ عَنْهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مُخَشَّنُ بْنُ حُمَيْرٍ، فَتَسَمَّى
عَبْدَ الرَّحْمَنِ، وَسَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَقْتُلَهُ شَهِيداً لَا يَعْلَمُ بِمَكَانِهِ، فَقَتَلَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ، فَلَمْ
يُوجَدْ لَهُ أَثَرٌ.

الْجُرْمُ وَالْجَرِيمَةُ: التَّعْذِي، وَالذَّنْبُ الْكَبِيرُ. وَقَدْ أُطْلِقَ لَفْظُ «الْمُجْرِمِينَ» فِي
الْقُرْآنِ مُقَابِلًا لِلْمُسْلِمِينَ، وَوَصُفًا لِلْمُعْذِبِينَ فِي النَّارِ.

فيظهر أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُمْ فِي الْإِصْطِلَاحِ الْقُرْآنِيِّ مَرْتَكِبُو الْإِثْمِ مِنْ مَسْنُوءِ دَرَكَةِ
الْكُفْرِ، لِذَلِكَ فَهَمُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ.

* قول الله عز وجل:

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمْ

الْفَاسِقُونَ ﴿٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٨﴾ كَذَلِكَ مِنْ قَبْلِكَ مَا نَأْتُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّةُ آَعَمَلْتُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾

إن تشابه الظواهر السلوكية يَدُلُّ على تشابه الصفات النفسية، وهو الأمر الذي يجعل المتشابهين جنساً واحداً، أو نوعاً واحداً أو صنفاً واحداً متميزاً من سائر أصناف الناس، فبعضهم من جنس بعضهم الآخر، أو من نوعه أو من صنفه.

هذا ما دلَّ عليه قول الله تعالى يُمَيِّزُ صَنَفَ الْمُنَافِقِينَ مِنْ سَائِرِ أَصْنَافِ النَّاسِ:

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾:

أي: هم ذكورهم وإناثهم صنف متميز من سائر أصناف الناس، وإذا تركنا مصطلح علماء المنطق قلنا: بَعْضُهُمْ مِنْ جِنْسِ بَعْضِهِمْ الآخر، إذ هم متشابهون في ظواهرهم السلوكية، وفي صفاتهم النفسية، فإذا نظرت إلى بعض منهم فرداً أو جماعة وَجَدْتَهُ مِنْ جِنْسِ بَعْضٍ آخر منهم، للتشابه الشديد بين أفراد المنافقين والمنافقات، والضمير في [بعضهم] يعود على المنافقين والمنافقات جميعاً، واستُخِذَ ضميرُ الذكور من باب التغليب.

والدليل على أنهم جنس متميز تشابه أفرادهم في ظواهرهم السلوكية، وفي صفاتهم النفسية.

* فمن ظواهرهم السلوكية ظاهرتان:

الظاهرة الأولى: أنهم يَأْمُرُونَ بالمنكر وينهون عن المعروف، وقد دلَّ على هذه الظاهرة قوله تعالى:

﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَنكِرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾:

أي: يأمرون بما نهى الدين عنه، وينهون عما أمر الدين به، على نقيض ما هو

مطلوبٌ منهم، بمقتضى انتمائهم إلى الإسلام وجماعة المسلمين، فالمؤمنون يأْمُرُونَ بالمعروف وينهَوْنَ عن المنكر، أمَّا المنافقون فعلى النقيض من ذلك.

المَعْرُوفُ: بعد نزول الوصايا الربّانية والشرائع والأحكام الدينية، هو ما جاء في الدين الأمرُ به إلزاماً أو ترغيباً، وكلُّ ما أمر به الدين هو خيرٌ، وكلُّ ما هو خيرٌ للناس فقد أمر به الدين إلزاماً أو ترغيباً.

والمُنكَرُ: بعد نزول الوصايا الربّانية والشرائع والأحكام الدينية، هو ما جاء في الدين النهي عنه، إلزاماً أو ترغيباً، وكلُّ ما نهى الدين عنه فهو لا خير فيه، أو ما فيه من شرٍّ وضُرٍّ أكثر ممّا فيه من خير ونفع، وكلُّ ما شرٌّ أو ضُرٌّ أكثر من نفعه فقد نهى عنه الدين إلزاماً أو ترغيباً.

الظاهرة الثانية: أَنَّهُمْ بُخْلَاءُ شَحِيحُونَ، وقد دلَّ على هذا الخلق من أخلاقهم أَنَّهُمْ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ عن الإنفاق في سبيل الله وفي وجوه الخير بوجه عام، كما قال تعالى:

﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾.

أصل قبض اليد يدلُّ على ضمِّ أصابعها على بطن الكف، واستعمل قبض اليد كناية عن البخل والشح، لأنَّ البخل بالعطاء يقبض أصابعه على بطن كَفِّه، ولا يَسْطُهَا.

* ومن صفاتهم النفسية أَنَّهُمْ نَسُوا الله، أي: تركوا العمل بكلِّ ما جاء عن الله في كتابه، وعلى لسان رسوله.

دلَّ على هذه الصفة قول الله تعالى:

﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾:

أي: تركوا العمل بما أمر الله بالعمل به وأهملوه، حتى لم يَبْقَ له في ذاكرتهم وجود، فتركهم الله لأنفسهم ولم يَغْنِ بهم، ولم يمدِّهم بالتوفيق والمعونة.

أصل النسيان في اللغة: هو التَرْكُ، والتَرْكُ ينشأ عن الاستهانة بالشئ والإهمال له، والإنسان متى ترك شيئاً زمناً طويلاً ذهب من ذاكرته، فلم يبق له فيها وجود، وهذا

هو النسيان المشهور. لكن الله عز وجل لا يضل ولا ينسى وفق هذا المعنى للنسيان، فبقي أن المراد الترك، وفق أصل المعنى اللغوي للنسيان.

ولا ذاعي لفهم النسيان بالنسبة إلى الله على معنى الغياب عن دائرة التذكر الحاضر، وحمل الاستعمال على المشاكلة التي يذكرها علماء البلاغة، ما دام أصل المعنى اللغوي صحيحاً ولا يحتاج إلى تاويل.

* ولهم صفات أخرى كثيرة في ظواهرهم السلوكية، وفي صفاتهم النفسية، يجمعها عنوان عام هو أنهم فاسقون.

دل على هذه الكلية الجامعة لكل صفاتهم السلوكية الظاهرة والباطنة، قول الله تعالى:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٦٧):

الفسق: هو العصيان، والخروج عن طريق الهدى والدين القويم، والخروج عن طاعة الله، وهو استعمال إسلامي، وأصل الفسق في اللغة خروج الرطبة من قشرتها، فالعرب تقول: إذا خرجت الرطبة من قشرتها: فسقت الرطبة، ومعلوم أنه متى خرجت الرطبة من قشرتها تعرضت للفساد بسرعة، وكذلك الفاسق من الناس.

وجاء تعريف طرفي الإسناد في [هُمُ الْفَاسِقُونَ] للدلالة على أن المنافقين هم المستوفون في أنواع سلوكهم كل عناصر الفسق، حتى كأنهم هم المنفردون باستيعاب كمال حقيقة الفسق.

وبعد أن ميز الله عز وجل صنف المنافقين من سائر أصناف الناس، أبان عقوبتهم التي وعدهم بها هم وسائر الكفار، فقال تعالى:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَّ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (٦٨):

يُستعمل فعل «وَعَدَ» في الخير والشر، وكذلك فعل «أوعد» يقال وعده وأوعده خيراً أو شراً. فلذا لم يُذكر الموعود كأن فعل «وَعَدَ» في الخير، وفعل «أوعد» في الشر، على رأي الأزهري.

وَيُعَذِّبَانِ إِلَى الْمَفْعُولِ بِهِ الثَّانِي دُونَ حَرْفِ فَيَقَالُ: وَعَذُّهُ كَذَا وَأَوْعَدَهُ كَذَا، وَيُعَذِّبَانِ إِلَى الْمَفْعُولِ بِهِ الثَّانِي بِالْبَاءِ، فَيَقَالُ: وَعَدَهُ وَأَوْعَدَهُ بِكَذَا.

دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الْعُقُوبَةَ الْمَقْرَّرَةَ لِلْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكَافِرِينَ وَالْكَافِرَاتِ تَشْتَمِلُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ:

الأول: أَنْ يَدْخُلُوا نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا يَوْمَ الدِّينِ، لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا.

الثاني: طُرْدُهُمْ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَإِبْعَادُهُمْ عَنْ مَجَالَاتِ تَنْزِلَاتِهَا.

الثالث: أَنْ عَذَابُهُمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ عَذَابٌ مُقِيمٌ لَا يَنْتَحِيلُ وَلَا يَفْتَرُ وَلَا يَسْكُنُ. كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٦﴾ لَا يُفَرِّغُهُمْ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿مُبْلِسُونَ﴾:

أي: سَاكُونَ، يَأْسُونَ، نَادِمُونَ.

﴿جَهَنَّمَ﴾:

اسْمٌ عَلِمَ مِنْ أَسْمَاءِ دَارِ الْعَذَابِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ لِيُعَذَّبَ فِيهَا الْكَافِرِينَ وَالْعَصَاةَ يَوْمَ الدِّينِ، وَهُوَ مَمْنُوعٌ مِنَ الصَّرْفِ لِلْعِلْمِيَّةِ وَالنَّاتِيَةِ.

وَيَقَالُ لِلْقَعْرِ الْبَعِيدِ فِي اللَّغَةِ: جَهَنَّمَ، وَبَثْرُ جَهَنَّمَ، أَي: بَعِيدَةُ الْقَعْرِ.

وَاسْتَعْمِلَ هُنَا لَفْظَ جَهَنَّمَ اسْمًا لِلْمَكَانِ، لِذَلِكَ أَضِيفَ [إِلَيْهِ لَفْظُ «نَارٍ» عَلَى مَعْنَى مَا فِي الْمَكَانِ مِنْ أَجْرَامٍ مُشْتَعِلَةٍ وَلَهَبٍ.

وَمَعْنَى وَعَذَّبَهُمْ نَارَ جَهَنَّمَ: وَعَذَّبَهُمْ دُخُولَ نَارِ جَهَنَّمَ.

﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾:

أي: هِيَ تَكْفِيهِمْ بِمَا فِيهَا مِنْ عَذَابٍ لَا يَحْتَاجُ مَزِيدًا.

﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾:

أي: وَطَرَدَهُمْ مِنْ مَوَاطِنِ تَنْزِلَاتِ رَحْمَاتِهِ، وَأَبْعَدَهُمْ عَنْهُ.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ ٦٨ :

أي: لا يقتصر عذابهم في جهنم على عذاب يأتيهم فيها حيناً بعد حين، تتخلله فترات راحة وسكون، بل لهم فيها عذاب مقيم دائم، لا يتحول عنهم، ولا يفتر ولا يسكن.

بعد هذا إبان الله عز وجل أنّ المنافقين والكفار بعد بعثة محمد ﷺ حالهم كحال الكافرين والمنافقين الذين كانوا من قبلهم من أهل القرون الأولى، فقال تعالى:

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأُولَئِكَ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضِعْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ٦٩.

﴿بِخَلْقِهِمْ﴾ :

الخلق الحظ والنصيب من الأمور المحبوبة المرغوبة للنفس.

﴿فَاسْتَمْتَعُوا﴾ :

الاستمتاع هو الانتفاع بالشيء مدة طويلة من الزمن ولكن لا بُد أن يأتي على المستمتع به الفناء والزوال.

﴿وَخُضِعْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ :

أصل الخوض المشي في الماء وتحريكه، وإثارة ما في أرض النهر من طين يُعكر صفاء الماء، ثم استعجل في التلبس بالأمر والتصرف فيه.

ومن التوسع استعمال الخوض بمعنى اللبس في الأمر للتضليل، والخوض في الكلام اللبس فيه، بإدخال الباطل والكذب فيه ضمن الحق.

وأطلق الخوض في مال الله بمعنى التصرف فيه بما لا يرضاه الله، وأطلق الخوض بمعنى الطعن والكفر والاستهزاء بآيات الله.

والمراد اللعب واللهو في دين الله للناس، وعدم أخذه بجدّ، رغم أنّ عواقب المخالفة وخيمة.

الذي: موصول حرفي يؤوّل هو وما بعده بمصدر، والتقدير: وخضتم كخوضهم، هذا على مذهب الفراء ويونس، وهو واضح وله شواهد عربية.
وموصول اسمي على رأي الآخرين، والتقدير: وخضتم خوضاً كالخوض الذي خاضوه.

* * *

التدبر

كما أبان الله عزّ وجلّ التشابه بين أفراد المنافقين الأمر الذي يجعلهم صفّاً مميّزاً من سائر أصناف الناس، أبان أيضاً أنّ الكافرين والمنافقين بعد بعثة محمد ﷺ يشبهون الكافرين والمنافقين السابقين من أهل القرون الأولى، في ظواهرهم السلوكية وفي أحوالهم النفسية، فالإنسان هو الإنسان، متى اتخذ لنفسه مبدأ في الحياة، تشابهت تصرفاته مع الذين اتخذوا مثل مبدئه، في باطنه، وفي ظاهره، فخاطب الله المنافقين والكافرين الذين جاء ذكرهم في الآية السابقة بأسلوب الحديث عن الغائب، وهذا من الالتفات في أساليب الكلام، وهو هنا من الغيبة إلى الخطاب، فقال تعالى لهم:

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾

أي: أنتم أيها المنافقون والكافرون المخاطبون كالكافرين والمنافقين الذين من قبلكم من أهل القرون الأولى.

فالذين كانوا من قبلكم:

﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَدًا﴾:

أي: فأنتم أشباههم في هذا مع نقص في قوتكم عنهم وفي أموالكم وأولادكم، ولم تحم السابقين قوتهم وكثرة أموالهم وأولادهم، من نعمة الله، فأهلكهم الله بسبب كفرهم وفسقهم وفجورهم وعدوانهم على رسل ربهم.

ووجد الذين من قبلكم ما لديهم من قُوَّةٍ وأموالٍ وأولادٍ فاغترَوا.
﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ﴾ :

أي: فاستمتعوا مُدَّةً من الزَّمنِ بنصيبهم المقدَّر لهم من متاع الحياة الدنيا في رحلة امتحانهم فيها.
ووجدتم أنتم ما لذيكم من قُوَّةٍ وأموالٍ وأولادٍ فاغترزتم.

﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ﴾ :

أي: فاستمتعتم مُدَّةً مِنَ الزَّمنِ بنصيبكم المقدَّر لَكُمْ من متاع الحياة الدنيا في رحلة امتحانكم فيها، كما استمتع الذين من قبلكم، فأنتم عُرضَةٌ لأن ينزل بكم مثل ما نزل بهم من عذاب الله.

واستهْتُم بِأُمُورِ الدِّينِ كما استهان الذين من قبلكم، واتَّخَذْتُمْ دِينَ الله لكم لَهْوَاً وَلَعِباً.

﴿وَحُضُّنَّ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ :

أي: وسلكنكم مُسَلَكَ الطُّغْيَانِ والكُفْرِ والاستهزاء بآيات الله، وبدينه لعباده، وبرسوله المبعوث إليكم، كما فعل الذين كفروا وناقضوا من قبلكم من أهل القرون الأولى بآيات الله وبدينه لعباده وبرُسلِهِ الذين أرسلهم إليهم.

أفتريدون أن تعرفوا كيف كانت عاقبة الذين كَفَرُوا وناقضوا من قبلكم من أهل القرون الأولى، ليكون ما جرى لهم موعظة لكم؟

﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٣٠).

حَبِطَتْ: أي: بَطَلَتْ وذهبت دون أن تحقق لَهُمْ ما يَرْجُونَ، وكلَّ عَمَلٍ لَا يَحَقُّ الغاية المرجوة منه فقد حَبِطَ، أي: بَطُلَ، فلا يَرْجَى منه نفع.

إنَّ أعمال الكافرين والمنافقين التي عملوها لتحقيق غاياتٍ غير الاستمتاع

بحفظهم المقدّرة لهم في الحياة الدنيا، ذات غايين:

الغاية الأولى: انتصارهم على رسل الله والذين آمنوا بهم وأتبعوهم بصدق، وهذه الغاية لم تتحقق لهم، لأن الله نصر رسله والذين آمنوا معهم، وأهلك الكافرين والمنافقين، فأحبط أعمالهم التي كانوا قد عملوها ضد الرسل والمؤمنين، وهذا من إحباط أعمالهم في الدنيا.

الغاية الثانية: تحقيق فوائد ومنافع أخروية لهم على أعمال صالحة يعملونها، على تقدير صحة أبناء يوم القيامة وما فيه من دينونة، أو منافع وفوائد أخروية على أعمال يتقرب بها المشركون إلى شركائهم، لتقربهم إلى الله زلفى، فيثيبهم عليها يوم الدين.

وهذه الأعمال كلها أعمال باطلة لا يقبلها الله عز وجل، فلا يكون لهم منها نفع عند الله في الآخرة، لأن شرط قبول الأعمال عند الله، أن تكون في طاعته، وابتغاء مرضاته، وأن لا يشرك فيها العامل مع الله أحداً، وأن تكون أثراً من آثار الإيمان الصحيح الصادق، بكل عناصر القاعدة الإيمانية.

وهذا من إحباط أعمالهم في الآخرة.

وبهذا التحليل نفهم معنى قوله تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

وإذ قد حبطت كل أعمالهم في الدنيا والآخرة، فقد استحقوا بعدل الله الخلود في عذاب جهنم، فكانوا بذلك أشد الخاسرين، لأنهم خسروا أنفسهم، وخسروا نجاتهم، وخسروا سعادتهم، وأدخلوا أنفسهم بكسبهم في العذاب الأليم الخالد، فمن الواضح البين أن يكونوا هم الخاسرين المستجمعين لكل عناصر الخسران، فقال الله تعالى:

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

أي: أولئك البعداء عن رحمة الله، والبعداء في عمق جهنم دار العذاب هم الخاسرون من أهل القرون الأولى، ويلحق بهم أمثالهم من الكافرين والمنافقين بعد

بعثة محمد ﷺ، في إحباط الأعمال، وأنطباق وصف الخسران الأكبر، لأن سنة الله في عباده واحدة.

• قول الله عز وجل:

﴿الَّذِينَ يَبْتِغِي السَّعَادَةَ مِنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمُؤْمِنُونَ وَكَافَرُونَ﴾
وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧﴾

• قرأ جمهور القراء العشرة [رُسُلُهُم] بضم السين.

وقرأ أبو عمرو فقط [رُسُلُهُم] بإسكان السين.

والقراءتان وجهان عربيان لنطق الكلمة، فالتسكين تخفيف يستعمله بعض العرب.

بعد أن واجه الله عز وجل المنافقين والمنافقات وسائر الكفار بالخطاب في الآية السابقة بقوله: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ...﴾ عاد إلى الكلام عنهم بأسلوب الحديث عن الغائب، وفق الأسلوب الذي يسميه البلاغيون الالتفات، والغرض إثارة الأفكار والنفوس لتكون في حالة انتباه، مع إشعار سائر زمر الناس بأنهم معنيون بالخطاب، ولو لم يكونوا من الزمرة المتحدث عنها، ففهم مختلف البيانات الدينية أمر مطلوب من الجميع، يضاف إلى ذلك أغراض أخرى تستفاد من الالتفات، كالإعراض عن المعرضين، أو المدبرين، واستخدام الأسلوب غير المباشر.

فقال الله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَبْتِغِي السَّعَادَةَ مِنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾

أي: ألم يصب إلى المنافقين والمنافقات وسائر الكفار خبر بارز مؤثر مخيف عن إهلاك الكفار الذين كانوا من قبلهم من أهل القرون الأولى.

جعل وُصول الخبر بوساطة تبليغ المخبرين بمشابهة إتيان الخبر بنفسه، فعبر عن

وصوله بالإتيان، ولَمَّا كان خبر إهلاكهم أمراً عظيماً بارزاً مثيراً سَمَاءُ الله نَبَأً، فالتبأ من الأخبار ماله بروز وظهور ويهتم به الناس عادةً.

ونبأ إهلاك كُفَّار أهل القرون الأولى قد كان متداولاً مستفيضاً عند أهل الأخبار ورؤاتها، باعتبار أن آثار إهلاكهم في بلدانهم ما زالت باقية، وجاء أيضاً التذكير به، وتفصيل ما تستدعي الحكمة تفصيله من أحوالهم التي كانوا عليها، والتي أدت إلى إهلاك الله لهم، فيما نزل قبل سورة (التوبة) من قرآن.

واستدعت الحكمة البيانية ذكر أسماء بعض الذين أهلكهم الله من كُفَّار أهل القرون الأولى، فذكر الله ستة أقوام منهم كانوا يعيشون في الأرض التي تتحرك ضمنها قبائل العرب من عَدَن إلى الشام وإلى العراق، وقد جاء ذكرهم في الآية على طريقة بذل بعض من كل، اكتفاء بذكر معظمهم الدال على المقصود من لفت الأنظار إلى مواطن العظة.

فقال الله تعالى :

﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ﴾.

(١) أما قوم نوح فقد أهلكهم الله بالطوفان، كما هو مبين في القرآن وعند أهل الأخبار.

(٢) وأما عاد قوم هود عليه السلام فقد أهلكوا بريح صرصر عاتية.

(٣) وأما ثمود قوم صالح عليه السلام فقد أهلكوا بالصيحة.

(٤) وأما قوم إبراهيم عليه السلام فقد كانوا في العراق، وقد كان ملكهم النمرود، كان ملكاً جباراً ذا سلطانٍ عظيم، وقد أراد إحراق إبراهيم عليه السلام بالنار، فجعلها الله على إبراهيم برداً وسلاماً، وروي أن الله أهلك جيش النمرود بالبعوض، وأنه عذب النمرود ببعوضة دخلت أنفه، وأنها سببت له أوجاعاً شديدة مستديمة في رأسه، والله أعلم كيف تم إهلاك كفار قوم إبراهيم عليه السلام.

(٥) وأما أصحاب مدين قوم شعيب عليه السلام فقد أهلكوا بالرجفة، أي: بزلزال دمر ديارهم وكان سبب إهلاكهم.

(٦) وأما المؤتفكات فهي قرى قوم لوط عليه السلام، وقد أهلكهم الله برفع أرضهم وكفنها، أي بقلبيها، وجعل أعاليها أسافلها، ويقذفها بحجارة من سجيل مسومة، ولأنها اتفكت أي انقلبت، سماها الله مؤتفكات، بمعنى منقلبات.

واكتفى القرآن بالإشارة الضمنية إلى إهلاك هؤلاء الأقوام، ويعد ذلك أوجز الله سبب إهلاكهم فقال تعالى :

﴿أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ يَآبَسَتْ﴾ :

أي : أتتهم رسلهم بالمعجزات البينات، والآيات المنزلات البينات، والحجج والبراهين البينات، فلم يستجيبوا وأصرّوا على عنادهم وكفرهم ومقاومة رسل ربهم، فأنذرهم رسلهم بعذاب الله، فلم يردعوا، فأهلكهم الله .

فهل كان إهلاك الله لهم ظلماً؟!

الجواب : هذا لا يمكن أن يكون بحالٍ من الأحوال، فقال الله تعالى :

﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ يَظْلِمُهُمْ وَلَكِنَّ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٧).

اللام في : ﴿يَظْلِمُهُمْ﴾ جاءت بعد كونه منفي، فهي على ما يقول علماء العربية لامُ الجحود، ويؤتى بهذه اللام بعد كونه منفي لتأكيد النفي بأبلغ تعبير.

ولكن الله في كونه قوانيناً ومنناً ثابتة لا تبديل لها ولا تحويل فيها، ومن هذه السنن ما يظهر في الأشياء المادية، فمن أدخل يده في النار أحرق الله بالنار يده، ومن رمى نفسه من شاطئ على صخرة، حطمه الله وأهلكه بالصخرة التي رمى نفسه عليها، ومن هذه السنن ما يظهر في غير الأشياء المادية، فمن أسرف في الفواحش من الأمم سلط الله عليهم الأمراض والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم، ومن كفر وفسق وفجر من الأمم سلط الله عليهم المهلكات.

إذن، فالذين يباشرون الأسباب المهلكة بمقتضى سنن الله في الأسباب والمسببات هم الذين يظلمون أنفسهم، فقال الله تعالى :

﴿وَلَكِنَّ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٧).

أَنْفُسَهُمْ: مَفْعُولُ بِهِ لـ ﴿يُظْلَمُونَ﴾ قَدْ مَ عَلَى فَعْلِهِ لِإِفَادَةِ الْحَصَرِ، أَي: لَمْ يَظْلَمْهُمْ أَحَدٌ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ.

وَجَاءَ التَّعْيِيرُ بِـ ﴿كَانُوا﴾ لِأَنَّهُمْ سَاعَةَ إِهْلَاكِهِمْ لَمْ يَكُونُوا مُبَاشِرِينَ لظَلَمِ أَنْفُسِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُبَاشِرِينَ الْأَسْبَابِ الَّتِي ظَلَمُوا بِهَا أَنْفُسَهُمْ، بِاعْتِبَارِ أَنَّهَا تَوْذِي بِمَقْتَضَى سُنَنِ اللَّهِ لِإِهْلَاكِهِمْ.

* قول الله عز وجل:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَبِالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

* قرأ جمهور القراء العشرة: [وَرِضْوَانٌ] بكسر الراء.

وقرأ شعبة عن عاصم: [وَرِضْوَانٌ] بضم الراء.

والقراءتان وجهان عربيان لنطق الكلمة.

التدبر

في مقابل بيان أَنَّ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ يَكُونُونَ فِي الْمَجْتَمَعِ الْبَشَرِيِّ صَفَاءً مُتَمَيِّزاً فِي صِفَاتِهِ النَّفْسِيَّةِ، وَظَوَاهِرِهِ السُّلُوكِيَّةِ، وَبَيَانِ مَا وَعَدَ اللَّهُ هَذَا الصَّنْفَ مِنَ النَّاسِ مَعَ سَائِرِ الْكَفَّارِ مِنْ جَزَاءِ يَوْمِ الدِّينِ، وَذَلِكَ فِي الْآيَاتِ مِنْ (٦٧ - ٦٩).

أَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ مِنَ السُّورَةِ (٧١ - ٧٢) أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَكُونُونَ فِي الْمَجْتَمَعِ الْبَشَرِيِّ صَفَاءً مُتَمَيِّزاً أَيْضاً، فِي صِفَاتِهِ النَّفْسِيَّةِ وَظَوَاهِرِهِ السُّلُوكِيَّةِ، وَأَبَانَ أَيْضاً مَا وَعَدَ اللَّهُ هَذَا الصَّنْفَ الْمُقَابِلَ مِنَ النَّاسِ مِنْ جَزَاءِ يَوْمِ الدِّينِ.

فالمؤمنون والمؤمنات لا يقتصرون على أنهم صنف متميز في صفات أفرادهم النفسية، وظواهرهم السلوكية، فبعضهم من بعض، وبعضهم أيضاً أولياء بعض، واقتصر النص على ذكر أن بعضهم أولياء بعض، لأنه يلزم من كون بعضهم أولياء بعض، أن يكون بعضهم من بعض، أي: وهم صنف واحد متميز من بين سائر أصناف الناس، في الصفات النفسية والسلوكية، فقال الله عز وجل:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾:

أي: المؤمنون والمؤمنات يتبادلون فيما بينهم الحب والود والتناصر والتآخي والتعاون والتكافل، وكل ما يدخل تحت مفهوم الموالاة.

وجاء في غير هذا النص بيان أن اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض، وأن الظالمين بعضهم أولياء بعض، وأن الكافرين أولياء الشيطان.

وفي مقابل كون المنافقين والمنافقات يأمرُونَ بالمنكر وينهَوْنَ عن المعروف، لأن حالة نفوسهم منكوسة، فالمؤمنون والمؤمنات يأمرُونَ بالمعروف وينهَوْنَ عن المنكر، لأن حالة نفوسهم سوية، متلائمة مع الفطرة التي فطر الله الأشياء عليها، لم تفسد ولم تتكسر، فقال الله تعالى في وصفهم:

﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.

وقيامهم بهذه الوظيفة يحمي المجتمع الإسلامي من الانحراف والفساد، ومن تغلب عوامل الشر فيه على عوامل الخير.

وفي مقابل كون المنافقين والمنافقات قَطَعُوا صلتهم بالله حتى نسوا الله، وقبضوا أيديهم شحاً فلا يؤدُّونَ زكواتِ أموالهم، فالمؤمنون والمؤمنات يجددون صلتهم بالله دوماً؛ فيقيمون الصلاة ويؤدُّون ما يجب عليهم أن يؤدُّوه من أموالهم فيؤدُّون الزكاة، فقال الله تعالى في وصفهم:

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾.

وفي مقابل كون المنافقين والمنافقات فاسقين عصاة لله ورسوله، فالمؤمنون والمؤمنات يطيعون الله ورسوله ويؤدُّون جهدهم حتى يكونوا عاملين بما أمر الله

ورسوله، ومجتنبين ما نهى الله عنه ورسوله، فقال الله تعالى في وصفهم:

﴿وَطُيعُونَ أَلَّهَ وَرَسُولَهُ﴾:

أي: ويجتذون طاعتهم لله ورسوله، مع كل عمل لله فيه أو لرسوله أمر أو نهى.

وإذا غلبتهم أهواؤهم وشهواتهم فوقعوا في المعاصي فسبحهم الله ويغفر لهم، إذا استغفروا وأتبعوا السيئات الحسنات، وإشارة إلى هذا قال الله عز وجل:

﴿أُولَئِكَ سَرَّحْنَاهُمُ اللَّهُ﴾.

وهذا للمؤمنين والمؤمنات مقابل معاملة المنافقين والمنافقات بالنسيان أي: بالترك والإهمال ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾. إن سقوط المؤمنين والمؤمنات في المعاصي يستدعي أن يعاملهم الله بعزته وقوته الغالبة، تطبيقاً لمقتضى العدل، لكن رحمة الله سبقت غضبه، فهو يعاملهم برحمته فيغفر لهم ويعفو عنهم، وقد يُبدل الله سيئاتهم حسنات، فقال الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾:

أي: فمن حكمته تعالى أن يعامل المؤمنين والمؤمنات النائبين المستغفرين بالرحمة، فيعفو عنهم، أو يغفر لهم، ولا يعاملهم بالعزة التي من مقتضاها أن يجازيهم بالعدل.

وفي مقابل وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم، أبان الله عز وجل أنه وعد المؤمنين والمؤمنات وعداً يشتمل على ثواب عظيم جاء تفصيله في قوله تعالى:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

الجنة: اسم لما يحتوي على أشجار وثمار وزروع وأنهار وقصور، وكل ما يمتنع النفس والحواس، وأطلقت اسماً لدار النعيم التي أعدّها الله لسكنى المؤمنين يوم الدين، وهي تشتمل على جنات باعتبار أقسامها، ووصفت الجنات في القرآن غالباً

بأنها تجري من تحتها الأنهار، لأنَّ الجنات لا تستوفي عناصر كمالها إلا بالأنهار التي تجري من تحتها.

وأضيفت جنات يوم الدين إلى كلمة «عَذْنٍ» إحدى عشرة مرة في القرآن، ومعنى «جَنَاتِ عَذْنٍ» جنات ثبات واستقرار دائم، و«جَنَاتِ عَذْنٍ» هي ما يكون منها وسط الجنات أيضاً.

يقال لغة: عَذَنَ بالمكان يَعْدُنُ وَيَعْدُنُ عَذْنًا وَعُدُونًا إِذَا اسْتَقَرَّ فِيهِ وَثَبَتْ، وَمَرَكَزُ كُلِّ شَيْءٍ مَعْدِنُهُ. وتَقُولُ لغة: عَذَنْتُ الْبَلَدَ إِذَا تَوَطَّيْتُهُ.

وقد أبانت هذه الآية أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ قد وعَدَ المؤمنين والمؤمنات أَنْ يُدْخِلَهُمْ يَوْمَ الَّذِينَ جَنَّتْ تجري من تحتها الأنهار، أي: أنساباً مُفَصَّلَةً، كُلُّ قِسْمٍ مِنْهَا يُسَمَّى جَنَّةً، ضِمَّنَ الْجَنَّةَ الْعَظْمَى الجامعة لهذه الجنات، وَتَجْرِي تَحْتَهَا جَمِيعاً الْأَنْهَارُ المختلفة الأصناف والأوصاف.

وَوَعَدَهُمْ أَيْضاً أَنْ يُسَكِّنَهُمْ مَسَاكِنَ طَيِّبَةً هِيَ قُصُورٌ عَظِيمَةٌ، فِيهَا كُلُّ مَا يَشْتَهُي سَاكِنُوهَا، وَفَوْقَ مَا يَخْطُرُ عَلَى بَالِهِمْ حَتَّى يَرْضَوْا، وَحَتَّى لَا يَجِدُوا فِي تَصَوُّرِهِمْ مَا يَطْلُبُونَ، وَهَذِهِ الْمَسَاكِنُ الطَّيِّبَةُ قَدْ جَعَلَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ فِي جَنَاتِ عَذْنٍ، أَيْ: فِي جَنَاتِ ثَبَاتٍ وَاسْتِقْرَارٍ دَائِمٍ، وَلَعَلَّهَا تَكُونُ فِي وَسْطِ جَنَاتٍ مِنْ حَوْلِهَا كَثِيرَةٌ وَاسِعَةٌ وَمَمْتَدَّةٌ فَوْقَ مَا يَطْمَعُ الطَّامِعُونَ.

وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ مَا فِي الْجَنَاتِ مِنْ نَعِيمٍ يُفَرِّغُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ بَعْدَ أَنْ يَجِدُوا أَنَّهُمْ قَدْ نَالُوا مَا لَا يَتَصَوَّرُونَ مَزِيداً عَلَيْهِ، فإِذَا أَفْرَغَ اللهُ عَلَيْهِمْ رِضْوَانَهُ وَجَدُوا هَذَا الرِّضْوَانَ أَعْظَمَ مِنْ كُلِّ مَا نَالُوا مِنْ نَعِيمِ الْجَنَاتِ.

روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَيْكَ زَيْنَا وَسَعْدَتُكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ. فيقول: هل رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ نَعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيَكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟. فَيَقُولُونَ: يَا رَبُّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟. فيقول: أَجَلُ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا».

فهذا الرضوان الذي يُجِلُّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ على المؤمنين والمؤمنات في جنات النعيم يوم الدين، هو أَكْبَرُ وَأَعْظَمُ مِنْ كُلِّ مَا فِيهَا مِنْ نَعِيمٍ.

ويعد بيان هذا الجزاء العظيم الذي أعدَّه الله عَزَّ وَجَلَّ للمؤمنين والمؤمنات يوم الدين قال تعالى:

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٧٦):

أي: ذَلِكَ الجزاء الرَّفِيعُ النَّفِيسُ الذي يناله المؤمنون والمؤمنات يوم الدين، هو الفوز العظيم.

الفوز: يأتي بمعنى النجاة من الشر، وبمعنى الظفر، وبمعنى الرِّيح، وكلُّ هذه المعاني تتحقَّق للمؤمنين والمؤمنات في الجنات، إذ قد خلصوا من عذاب النار، وظفروا بالجنة، ونالوا ربحاً عظيماً جليلاً.

* قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ جَهْدُ الْكَفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ﴾ (٧٣):

سبق في سورة (الأحزاب / ٣٣ مصحف / ٩٠ نزول) في أواسط العهد المدني أن أُنذِر الله عَزَّ وَجَلَّ المنافقين والذين في قلوبهم مَرَضٌ والمرجفين في المدينة، بأنهم إن لم يتوبوا عن أعمالهم الكبدية ضدَّ الرسول والإسلام وجماعة المسلمين، فإنَّه سيَلْطَمُ رسولُه عليهم، فيُفْرِيه بالانتقام منهم، وعدم الإغضاء عن أعمالهم، حتَّى يُلْجِنَهُمْ ذَلِكَ إلى الخروج من المدينة، وعدم مجاورة الرسول فيها، أو يُخْرِجُوا طَرْدًا، وعندئذ ينكشف ما في قلوبهم من كفر، وما في نفوسهم من شرٍّ، ويسقط قناعُ النفاق، فيُلاحِقُونَ بأنهم مَرْتَدُونَ كافرين، فيؤْخَذُونَ بأيدي المؤمنين ويُقَتَّلُونَ قَتِيلًا أَيْنَمَا وُجِدُوا، وهو ما جاء بيانه في الآيات من (٦٠ - ٦٢) من سورة (الأحزاب).

وقد سبق تدبُّر هذه الآيات في رقم (٣) من توابع النص (١٣) من هذه الدراسة، وهو الآيات من (٩ - ٢٧).

وفي الثلث الأخير من المرحلة المدنية اقتضت الحكمة البَذءَ بالمراحل الأولى من تسليط النبي ﷺ على المنافقين، إذ ما زالت طوائف منهم تمارس الأعمال الكيدية ضدَّ الرسول والإسلام وجماعة المسلمين، فأنزل الله عزَّ وجلَّ على رسوله في سورة (التحریم / ٦٦ مصحف ١٠٧ نزول):

﴿يَتَأْتِيَهِمُ النَّبِيُّ جِهْدُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ ۝١﴾

وقد سبق تدبر هذه الآية في النص (٢٩) من هذه الدراسة عن المنافقين، فليُرجع إليه.

وهذه الآية نفسها قد أعاد الله إنزالها في سورة (التوبة / ٩ مصحف / ١١٣ نزول) مع اقتراب انتهاء مهمَّة الرسول ﷺ في الحياة الدنيا، واستمرار بعض أهل النفاق في ممارسة أعمالهم الكيدية ضدَّ الرسول والإسلام وجماعة المسلمين.

ونتساءل عن الحكمة من إعادة تنزيلها دون تغيير في أي لفظ من ألفاظها؟

الذي يظهر لي - والله أعلم - ما يلي:

إنَّ الجهاد المأمور به في القرآن ذو مستويات بعضها أشدَّ من بعض، وهو بالنسبة إلى جهاد الكُفَّار الصرَّحاء يبدأ بجهاد الدعوة، فجهاد الجدل بالتي هي أحسن، فجهاد الصَّبر على أذاهم، فجهاد مضايقتهم بما يكرهون، فجهاد عدم التغاضي عن سيئاتهم بالعقاب عند القدرة على ذلك، وهكذا حتى جهاد قتالهم قتالاً عاماً، مع جهاد تأليف قلوبهم بالمال.

أما المنافقون فإنَّ جهادهم يتَّخذ في مراحله الأولى أسلوباً غير أسلوب الكافرين الصرَّحاء، وهو الأسلوب الذي اتَّبعه الله معهم، والذي تدلَّ عليه نجوم التنزيل التي عالجت أمورهم ومشكلاتهم ومكايدهم ونفوسهم وأفكارهم منذ بدء المرحلة المدنية، ويظهر في هذا الأسلوب كشف صفاتهم دون تحديد أشخاصهم، ومعالجتهم بالبيان والإقناع والإنذار مع الإغضاء، وعدم تنفيذ العقوبات التي تقتضيها بعض أعمالهم، ماداموا يتسترُّون، ويتذرَّعون بالمعاذير، والأكاذيب، ويشاركون في ظواهر الأعمال

الإسلامية الجماعية، ويحلفون الأيمان بالله على الكذب لستر مكايدهم، وتغطية نفاقهم المحشور بالكفر.

ثم إبان نزول سورة (التحریم) في أوائل الثلث الأخير من العهد المدني، اقتضت الحكمة الربانية التوجيه لمجاهدتهم مثل مجاهدة الكفار المجاهرين بكفرهم، فأشركهم الله مع الكفار في توجيه النبي لمجاهدتهم.

وفهم من هذا التوجيه اتباع أسلوب التدرج في مجاهدتهم، وهو الأسلوب الذي إبان الله عز وجل في كتابه حول جهاد الكافرين الصرحاء، منذ بدايات العهد المكي، حتى مرحلة التوجيه لمقاتلتهم فالأمر به، والذي كانت الدعوة الحكيمة أوله، وكان القتال قمته وذروة سنامه^(١).

ولما استمر بعض أهل النفاق يمارسون أعمالهم الكيدية، واقتربت مهمة الرسول ﷺ تنتهي في الحياة الدنيا، وكان هذا إبان نزول سورة (التوبة) اقتضت الحكمة تكرير إنزال هذه الآية بنصها دون تغيير في أي لفظ من ألفاظها.

وفي تكرير هذا الإنزال إشارة إلى أن الوقت قد حان لاتخاذ بعض أساليب القوة والعنف ضد المنافقين، تحت عنوان الجهاد المأمور به بشكل عام، لأنه يشمل كل مستوياته.

وهذا يؤذن بأنه إذا اقتضت الحكمة معاقبتهم ولو بالقتل فإنهم يعاقبون بذلك، ويبقى اختيار معاملتهم بما تقتضيه أحوالهم متروكاً للرسول ﷺ، فلخلفائه من بعده، ولأمراء المؤمنين ما دام للمسلمين دولة قائمة، تعمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.



* قول الله عز وجل:

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ هُمَا
يَمُوتَانِ أَوْ مَاتَ أَحَدُهُمَا لَئِنْ أَعْثَبَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبَا يَكْ خَيْرًا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِمْ

(١) انظر «باب الجهاد» في كتاب «بصائر المسلم المعاصر» للمؤلف.

يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧١﴾

في هذه الآية بيان خمس ظواهر سلوكية لبعض المنافقين هي من آيات كُفْرِهِمْ باطنًا، وسترهم لهذا الكفر بقناع النفاق:

الظاهرة الأولى: أَنَّهُمْ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ كَاذِبِينَ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا مَا نُقِيلُ عَنْهُمْ مِنْ كَلَامٍ يَدِينُهُمْ بِالْكَفْرِ.

الظاهرة الثانية: أَنَّهُمْ قَالُوا كَلَامًا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَافِرُونَ بَاطِنًا، فَمَا نُقِيلُ عَنْهُمْ حَقًّا، وَهَذِهِ شَهَادَةٌ مِنْ اللَّهِ يُصَلِّقُ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ الرِّسُولَ عَنْهُمْ بِمَا قَالُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

دَلَّ عَلَى هَاتَيْنِ الظَّاهِرَتَيْنِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ:

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾.

عبارة ﴿كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ تنازع عليها عاملان هما الفعلان في: ﴿مَا قَالُوا﴾ وفي ﴿وَلَقَدْ قَالُوا﴾.

أما على رأي البصريين من النحاة فـ ﴿كَلِمَةَ﴾ مفعول به لـ ﴿وَلَقَدْ قَالُوا﴾، ومعمول: ﴿مَا قَالُوا﴾ ضميرٌ محذوف يعود على ﴿كَلِمَةَ﴾ وجاز حذفه لأنه فضلة، وليس عُمْدَةً (أي: ليس أحد رُكْنِي الإسناد). وأما على رأي الكوفيين فيجعلون المتنازع عليه معمولاً للفعل الأول على عكس رأي البصريين.

﴿كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾:

أي: كلاماً مُكْفَرًا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَافِرُونَ.

وقد ورد في سبب نزول هَاتَيْنِ الظَّاهِرَتَيْنِ أَنَّهُ لَمَّا كَثُرَ نَزُولُ الْقُرْآنِ فِي أَحْدَادِ غَزْوَةِ تَبُوكَ بِشَأْنِ الْمُنَافِقِينَ وَذَمِّهِمْ، قَالَ الْجَلَّاسُ بْنُ سُوَيْدِ بْنِ الصَّامِتِ، وَوَدِيعَةُ بْنُ ثَابِتٍ: كَانَ مُحَمَّدٌ صَادِقًا عَلَى إِخْوَانِنَا الَّذِينَ هُمْ سَادَتُنَا وَخِيَارُنَا لَنَحْنُ شَرُّ مَنْ الْحَمِيرِ، فَقَالَ عَامِرُ بْنُ قَيْسٍ لِلْجَلَّاسِ: أَجَلْ، وَاللَّهِ إِنَّ مُحَمَّدًا لَصَادِقٌ مُصَلِّقٌ، وَإِنَّكَ لَشَرُّ مِنْ الْجِمَارِ، وَأَخْبَرَ عَامِرُ بْنُ قَيْسٍ النَّبِيَّ ﷺ بِذَلِكَ، وَجَاءَ الْجَلَّاسُ فَحَلَفَ بِاللَّهِ إِنَّ

عامراً لكاذب، وحلف عابراً: لَقَدْ قَالَ، وقال: اللَّهُمَّ أَنْزِلْ عَلَى نَبِيِّكَ شَيْئاً، فنزل قول الله تعالى:

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾.

وأخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن كعب بن مالك قال: لما نزل القرآن فيه ذكر المنافقين، قال الْجَلَّاسُ: وَاللَّهِ لَئِنْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ صَادِقاً لَتَحْنُ شَرُّهُ مِنَ الْحَمِيرِ، فَسَمِعَهَا عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ، فَقَالَ: وَاللَّهِ يَا جَلَّاسُ إِنَّكَ لَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَأَحْسَنُهُمْ عِنْدِي اثْراً، وَأَعَزُّهُمْ عَلَيَّ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهِ شَيْءٌ يَكْرَهُهُ، وَلَقَدْ قُلْتُ مَقَالَةً لَئِنْ ذَكَرْتُهَا لَتَنْفَضَحَنَّكَ، وَلَئِنْ سَكَتَ عَلَيْهَا لَتَهْلِكَنِي، وَإِلْحَادُهُمَا أَشَدُّ عَلَيَّ مِنَ الْآخَرَى، فَمَشَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ لَهُ مَا قَالَ الْجَلَّاسُ. فَخَلَفَ بِاللَّهِ مَا قَالَ، وَلَكِنْ خَلَبَ عَلَيَّ عُمَيْرٌ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أنس بن مالك قال: سَمِعَ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ رَجُلًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ يَقُولُ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ: إِنْ كَانَ هَذَا صَادِقاً لَتَحْنُ شَرُّهُ مِنَ الْحَمِيرِ، قَالَ زَيْدٌ: هُوَ وَاللَّهِ صَادِقٌ وَأَنْتَ شَرُّهُ مِنَ الْحَمَارِ، فَرَفَعَ ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَجَحَدَ الْقَائِلُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا...﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن أبي عباس قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظِلِّ شَجَرَةٍ فَقَالَ:

«إِنَّهُ سَيَأْتِيكُمْ إِنْسَانٌ يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ بِغَيْنِي شَيْطَانٍ، فَإِذَا جَاءَكُمْ فَلَا تَكَلِّمُوهُ».

فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ طَلَعَ رَجُلٌ أَرْزَقَ، فَدَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ:

«غَلَامٌ تَشْتُمْنِي أَنْتَ وَاصْحَابُكَ؟».

فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ فَجَاءَ بِاصْحَابِهِ فَخَلَفُوا بِاللَّهِ مَا قَالُوا، حَتَّى تَجَاوَزَ عَنْهُمْ، وَأَنْزَلَ

الله:

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا...﴾ الآية.

أقول:

هذه الروايات تدلُّ على أَنَّ الآيةَ تتحدَّث عن ظاهرةٍ للمنافقين تكررُ حدوثُها من عِدَّة أفراد أو جماعاتٍ منهم، وأنَّ الأقوالَ التي قالوها تعبِّرُ عن كُفْرِهِم برسولِ الله ﷺ، وبما جاء به عن ربِّه.

الظاهرة الثالثة: وُصُولُ بعضهم بعدُ الصبر الطويل على كتم ما في قلوبهم، إلى أن يتفجَّر ما في باطنهم، فَيُعْلِنُوا في بعض مجالسهم الخاصة أمام بعض المسلمين الصادقين كُفْرَهُمْ، بعد أن كانوا قد أعلنوا إسلامَهُمْ واستسلامَهُمْ.

دَلَّ على هذه الظاهرة قول الله تعالى في الآية:

﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾.

إنَّ عطف هذه الجملة بحرف العطف «والواو» يدلُّ على أَنَّها تتحدَّث عن ظاهرةٍ غير ما بذُر من بعضهم إذ قالوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ، لأنَّها لو كانت هي سَبَبُ الحكم عليهم بالكُفر لكان الظاهر أن يكون العطف بالفاء، فيُقال: ولقد قالوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ فَكَفَرُوا بعد إسلامهم، لكنَّ لما جاء العطف بالواو كان علينا أن نفهم أنَّ ما بعدها يُؤسِّسُ قضيةً جديدةً، يضاف إلى هذا أنَّ النطق بكلمة الكفر قد لا يدلُّ على الكفر لاحتمال أن يكون نطقها عن إكراه، أو عن غلط، أو عن تأويل لمعنى غير مكفِّر.

الظاهرة الرابعة: أَنَّهُمْ هَمُّوا بإحداثِ حَدَثٍ خطيرٍ بينَ المسلمين، لكنَّ الله عزَّ وجلَّ خيَّبَهُمْ، وأَفْسَدَ خططَهُمْ، وقد دَلَّ على هذه الظاهرة قول الله تعالى في الآية:

﴿وَهُمُومًا لَّمْ يَنَالُوا﴾.

أَنَّهُمْ تَوَجَّهُوا النَّفْسَ للقيام بفعلٍ ما، دون أن يصل إلى مستوى الإرادة القويَّةِ الجازمة، التي من أثرها التنفيذ بحزم.

ونوال الشيء هو الحصول عليه.

ورد في حادثة هذا الهمِّ أنَّ اثني عشر رجلاً من المنافقين اتفقوا فيما بينهم، حينما كان الرَّسولُ راجعاً إلى المدينة من غزوة تبوك مع جيش المسلمين، أن يترصَّدوه

عند غَفَبَةٍ بالطريق مشرفة على وادٍ، فإذا اعتلاها ليلاً زحموا راحلته ببرواجلهم، ودفعوه عن راحلته إلى الوادي.

وبينما كان رسول الله ﷺ سائراً، وقد أخذ عَمَارُ بْنُ يَاسِرٍ بخطام راحلته يقودها، وكان حذيفة بْنُ الْيَمَانِ يسوقها، إِذْ أَحْسَسَ حذيفةُ بْنُ الْيَمَانِ بأنهم مقبلون نحو ركب رسول الله ﷺ، فصاح بهم حذيفةُ ففروا وتفرقوا، وقد سبق في الفقرة (٧) من موجز غزوة تبوك عرض قصّة هؤلاء كما جاءت في رواية البيهقي عن حذيفة، وما جاء عند الإمام أحمد من زيادة.

الظاهرة الخامسة: أنهم ناقمون من الإسلام والرسول والمسلمين على الرغم من كلّ الخيرات التي استغنّوا بها بسبب الإسلام، والفوائد التي حصلوا عليها من غنائم وغيرها، وقد دلّ على هذه الظاهرة قول الله تعالى في الآية:

﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ...﴾ (٧٤)

يقال لغة: نَقَمَ الشَّيْءُ نَقْمَهُ وَيَقْمَهُ يَقْمُهُ، إِذَا أَنْكَرَهُ وَكَرِهَهُ، فمعنى ﴿وَمَا نَقَمُوا﴾: وما أنكروا وما كرهوا ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

أي: لا يوجد في الواقع أمر يقتضي نَقْمَتَهُمْ من الله ورسوله بسبب الإسلام الذي اضطُّروا أن يَتَّبِعُوا إليه نفاقاً، إنهم لم يحصل لهم بسبب إسلامهم إِلَّا غِنًى بَعْدَ فَقْرٍ، وَعِزٌّ بَعْدَ ذُلٍّ، وَأَمْنٌ بَعْدَ خَوْفٍ، وهذه أمور لا تُبَيِّرُ نَقْمَةَ إِنْسَانٍ عَاقِلٍ سَوِيٍّ، إِنَّ مَا أَظْهَرَهُ مِنْ إِسْلَامٍ وَمُتَابَعَةٍ لِلرُّسُولِ عَلَى سَبِيلِ الْمَخَادَعَةِ وَالنِّفَاقِ لَمْ يَجْلِبْ لَهُمْ إِلَّا خَيْراً دُنْيَوِيّاً، فَمَا بِالْهَمِّ يَكِيدُونَ وَيَعْمَلُونَ أَعْمَالاً يَقْبِصُونَ بِهَا التَّخْلُصَ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَمِنَ الرُّسُولِ وَمِنْ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، أَيْرِيدُونَ أَنْ يَقْلِبُوا الْأَوْضَاعَ لِيُحَرِّمُوا مِنْ هَذَا الْخَيْرِ الَّذِي أَصَابَهُ؟

ففي حصر دواعي نَقْمَتِهِمْ بإغناء الله لهم من فضله تأكيدٌ لنفي وجود أي شيء يقتضي نَقْمَتَهُمْ بآبلغ تعبير.

وهذا من تأكيد مضمون الخبر بما يشبه ضده، ويُعرف عن البلاغيين بتأكيد المدح بما يشبه الذم، إِلَّا أَنَّ عبارة البلاغيين قاصرة على موضوع المدح، مع أَنَّ الأمر يشمل كل خبر في المدح وغيره.

والضمير في ﴿مَنْ قَضَيْهِ﴾ يعود على الله عز وجل، وعطاء الرسول الذي كان سبب إغنائهم إنما هو عطاء من فضل الله.

الفَضْلُ: هو في الأصل الزيادة، والبقية من الشيء، واستعمل الفضل بمعنى الابتداء بالإحسان والعطاء من الخير ماديًّا كان أو معنويًّا، واشتهر بهذا المعنى.

بعد بيان هذه الظواهر الخمس من ظواهر المنافقين السلوكية فتح الله لهم باب التوبة وأغراهم بها، وأنبههم بالتحذير والإنذار بالعذاب الأليم إن تولَّوْا ولم يتوبوا، ولم يكثرثوا للإغراء ولا للتحذير، فقال الله تعالى:

﴿فَإِنْ يَتُوبُوا إِلَيْكَ خَيْرٌ لَّهُمْ﴾:

أي: فإن يرجعوا إلى الإيمان الصادق الصحيح الذي فطروا عليه، وإلى الطاعة والاستقامة عملاً بدواعي فطرتهم الأولى يَكُنْ رجوعهم ذلك خيراً لهم.

﴿يَكُ﴾ أصلها ﴿يَكُنْ﴾ حُذِفَت النون تخفيفاً، وهذا الحذف عند العرب جائز في فعل ﴿يَكُونُ﴾ بشرط كونه مجزوماً بالسكون، غير متصل بضمير نصب، ولا بساكن، كما في النص هنا.

والخير الذي يفرهم الله به يكون بتوبة الله عليهم، وبالظفر بالجنة مع أهل الإيمان، وروى أن الجلاس بن سويد تاب وحسن إسلامه.

وفي التحذير قال الله تعالى:

﴿وَإِنْ يَسْأَلُوا عَذَابَ اللَّهِ عَذَابًا أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾:

أي: وإن يُذْهِبُوا وَيَتَّعِدُوا عن الإيمان والطاعة مصرين على الكفر والنفاق يُعَذِّبُهُمُ الله عذابين: عذاباً أليماً مُعْجَلاً في الدنيا، وعذاباً أليماً مُؤْجَلاً يذوقونه في الآخرة يوم الدين.

وحين ينزل بهم العذاب المعجل في الدنيا، لا يكون لهم في الأرض أدنى ولي يتولَّى أمرهم لدفع عذاب الله عنهم، أو التخفيف منه، أو الشفاعة لهم فيه، ولا يكون

لهم في الأرض أدنى نصير يُنصروهم ضدَّ جُنْدِ الله الذين يُسَلِّطون عليهم.

أما في الآخرة فالأمر كله يومئذ لله وحده، ويومئذ لا بدع الله لذي سلطان سلطاناً، ولا لذي سبب سبباً، لقد انتهى يوم الابتلاء والتسخير، وحلَّ يوم الجزاء الذي لا يكون فيه سلطان إلا لله، ولا يشفع فيه أحدٌ لأحد إلا بإذنه.

* قول الله عز وجل:

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عٰهَدَ اللّٰهَ لَئِىۡنَ اٰتٰنَا مِنْ فَضْلِهٖ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُوْنَنَّ مِنَ الصّٰلِحِيْنَ ﴾ (٧٥) ﴿ فَلَمَّآ اٰتٰهُمْ مِنْ فَضْلِهٖ يَجْحَلُوْا بِهٖ وَيَتَوَلَّوْا وَّهُمْ مُّعْرِضُوْنَ ﴾ (٧٦) ﴿ فَاَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِىۡ قُلُوْبِهِمْ اِلَىۡ يَوْمٍ يَلْقَوْنَہُمْ بِمَا اٰخَفَوْا اللّٰهَ مَا وَعَدُوْهُ وَبِمَا كَانُوْا يَكْذِبُوْنَ ﴾ (٧٧) ﴿ اَلَمْ يَعْلَمُوْا اَنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَاَنَّ اللّٰهَ عَلٰمُ الْغُیُوْبِ ﴾ (٧٨) ﴿

* قرا جمهور القراء العشرة: ﴿الْغُيُوبِ﴾ بضم الغين.

وقرا حمزة وشعبة عن عاصم: ﴿الْغُيُوبِ﴾ بكسر الغين.

والقراءتان وجهان عريان لنطق الكلمة.

تحدثت هذه الآيات عن بعض المنافقين، وقد كان من شأنهم أنهم قالوا: لئن آتانا الله من فضله مالا كثيراً لنصدقنَّ ولنكوننَّ من الصالحين، فلما آتاهم الله من فضله مالا كثيراً نقضوا عهدهم، ويحلُّوا به، فلم يؤدوا ما فرض الله في أموالهم، فكان نقضهم لعهدهم ويحلُّهم بما أوجب الله عليهم سبباً في استقرار النفاق في قلوبهم بمقتضى سنة الله في القلوب والنفوس، حتى نهاية آجالهم في الحياة الدنيا، ولقائهم ربهم للحساب والجزاء.

وفي قصص من نزلت هذه الآيات بسبب ما كان منهم، ذكر الرواة عدة روايات:

(١) أخرج أبو الشيخ عن الحسن، أن رجلاً من الأنصار عاهد الله هذا العهد، فعات ابن عم له فورث منه مالا، فبخل به، ولم يقب بما عاهد الله عليه، فأعقبه بذلك نفاقاً في قلبه إلى أن يلقاه.

(٢) وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مَرْذُوقِه، والبيهقي في دلائل النبوة: عن ابن عباس، في قول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ...﴾ الآية: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ ثَعْلَبَةٌ، أَتَى مُجَلِّسًا فَأَشْهَدَهُمْ فَقَالَ: لَيْتَ أَتَانِي اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ آتَيْتُ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وَتَصَدَّقْتُ مِنْهُ، وَجَعَلْتُ مِنْهُ لِلْقَرَابَةِ، فَأَبْتَلَاهُ اللَّهُ، فَأَتَاهُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، فَأَخْلَفَ مَا وَعَدَهُ، فَأَغْضَبَ اللَّهُ بِمَا أَخْلَفَهُ مَا وَعَدَهُ، فَقَصَّصَ اللَّهُ شَأْنَهُ فِي الْقُرْآنِ.

(٣) قصة ثَعْلَبَةَ بْنِ حَاطِبٍ، أو ابن أبي حاطب، المنافق، أحد بناء مسجد الضرار كما ذكر ابن هشام، وهو غير ثعلبة بن حاطب الأنصاري الذي هو من بني أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ، فهذا صحابي مؤمن، وهو من أهل بدر، وذكر ابن الكلبي أَنَّهُ مَاتَ بِأَحَدٍ^(١).

وقصة ثعلبة بن حاطب أو ابن أبي حاطب أخرجها ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والعسكري في الأمثال، والطبراني، وابن منده، والبارودي، وأبو نعيم، وابن مَرْذُوقِه، والبيهقي، وابن عساكر (بأسانيد لا يصح الاعتماد عليها لضعفها)^(٢).

(١) أخذاً من محمد بن محمد أبو شهية في كتابه (السيرة النبوية) في بحث (هدم مسجد الضرار وتحريقه) ص (٥٠٧) من الجزء الثاني، قال: وقد تَبَّه على ذلك الحافظ ابن حجر في الإصابة (ج ١ ص ١٩٨)، وساق أدلة على ذلك، وقد وهم ابن إسحاق حيث عدَّ الثاني مَن بَنَى مَسْجِدَ الضَّرَارِ، وهم ابن عبد البر في الاستيعاب حيث نسب إليه القصة في شأن من عاهد الله ثم نقض عهده.

(٢) كتب الأخ الفاضل الشيخ «عذاب الحمش» رسالة بعنوان «ثعلبة بن حاطب المفترى عليه»، نقل فيها عن طائفة من العلماء بالأسانيد، أَنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ الَّتِي نَقَلَهَا الْمَفْسُورُونَ ضَعِيفَةٌ، لَا يَصَحُّ الْأَعْتِمَادُ عَلَيْهَا، وَاسْتَتَجَّ مِنْ كَوْنِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَدُوًّا بِطَلَانِهَا، وَوَجُوبِ رَدِّهَا وَعَدَمِ الْإِسْتِشْهَادِ بِهَا، وَلَا بِمِثْلِهَا.

أقول: أمَّا نسبتها إلى صحابي من أهل بدر، فهي نسبة باطلة حتمًا، وأمَّا نسبتها إلى مسلمٍ عاصر الرسول ﷺ فليست باطلة، لأنَّ المنافقين الذين تحدَّث القرآن عنهم باستغاضة هم مسلمون في الظاهر، وقد عاصروا الرسول وكان لهم معه لقاءات، ولا بدَّ أن ينطبق قول الله عزَّ وجلَّ على بعضهم، ولكن ينبغي عند تعيين الاسم التوثق من أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمُشْهُودِ لَهُمْ بِالْإِيمَانِ، أو من أهل الجنة، أو من فضلاء الصحابة، كما ينبغي التحري عن صحة الرواية. =

عن أبي أمية الباهلي، قال :

جاء ثعلبة بن حاطب (هو غير ثعلبة بن حاطب البديري) إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالاً، قال:

«وَيْلَكَ يَا ثُعْلَبَةُ، قَلِيلٌ تُودِي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لَا تُطِيقُهُ» قال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً، قال:

«وَيْحَكَ يَا ثُعْلَبَةُ، أَمَا تُحِبُّ أَنْ تَكُونَ بِمِثْلِي، فَلَوْ شِئْتُ أَنْ يُسَيِّرَ رَبِّي هَذِهِ الْجِبَالَ مَعِيَ ذَهَباً لَسَارَتْ».

فَقَالَ: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالاً، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنْ آتَانِي مَالاً لَا أُعْطِيَنَّ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، قال:

«وَيْحَكَ يَا ثُعْلَبَةُ، قَلِيلٌ يُطِيقُ شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لَا يُطِيقُهُ».

قال: يا رسول الله ادع الله تعالى، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ ارْزُقْهُ مَالاً».

قال الراوي: فاتخذ غنماً، فَنَمَتْ كَمَا تَنُمُو الدَّودُ، حَتَّى ضَاقَتْ بِهَا الْمَدِينَةُ، فَتَنَحَّى بِهَا، فَكَانَ يَشْهَدُ الصَّلَاةَ بِالنَّهَارِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا يَشْهَدُهَا بِاللَّيْلِ.

ثُمَّ نَمَتْ كَمَا تَنُمُو الدَّودُ، فَتَنَحَّى بِهَا، فَكَانَ لَا يَشْهَدُ الصَّلَاةَ بِاللَّيْلِ وَلَا بِالنَّهَارِ، إِلَّا مِنْ جُمُعَةٍ إِلَى جُمُعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

ثُمَّ نَمَتْ كَمَا تَنُمُو الدَّودُ، فَضَاقَ بِهَا مَكَانُهُ فَتَنَحَّى بِهَا، فَكَانَ لَا يَشْهَدُ جُمُعَةً وَلَا جَنَازَةً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَجَعَلَ يَنْتَقِي الرُّكْبَانَ وَيَسْأَلُهُمْ عَنِ الْأَخْبَارِ.

وَفَقَدَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلَ عَنْهُ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُ اشْتَرَى غَنَمًا، وَأَنَّ الْمَدِينَةَ ضَاقَتْ بِهِ، وَأَخْبَرُوهُ خَبْرَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

وهذه القصة يمكن الاستئناس بها لمعرفة صفات فريق من المنافقين، عاصروا الرسول وكانوا بين المسلمين حتمًا، وكان بعض المؤمنين يجهلون حقيقتهم، وهذا لا يطعن بسرواة الحديث من أصحاب رسول الله العدول، لأن رواية الحديث منهم عدول عند جمهور الصحابة.

«وَبِئْسَ ثَلَاثَةٌ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَبِئْسَ ثَلَاثَةٌ بَيْنَ خَلْفَيْهِ».

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ رَسُولَهُ أَنْ يَأْخُذَ الصَّدَقَاتِ (أي: الزكاة) وَأَنْزَلَ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا...﴾ (الآية ١٠٣) مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ.

فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلَيْنِ: رَجُلًا مِنْ جُهَيْنَةَ، وَرَجُلًا مِنْ بَنِي سُلَيْمَةَ يَأْخُذَانِ الصَّدَقَاتِ، وَكَتَبَ لَهُمَا أَسْنَانَ الْإِبِلِ وَالْغَنَمِ كَيْفَ يَأْخُذَانَهَا عَلَى وَجُوهِهَا، وَأَمَرَهُمَا أَنْ يَمْرُؤَا عَلَى ثَلَاثَةِ بَنِي حَاطِبٍ، وَبِرَجُلٍ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ، فَخَرَجَا، فَمَرُّوا بِثَلَاثَةٍ، فَسَالَا الصَّدَقَةَ، فَقَالَ: أَرِيَانِي كِتَابَكُمَا، فَنَظَرَ فِيهِ، فَقَالَ: مَا هَذِهِ إِلَّا جَزِيَّةٌ، انْطَلِقَا حَتَّى تَفْرُغَا، ثُمَّ مَرَّا إِلَيَّ، فَانْطَلَقَا، وَسَمِعَ بِهِمَا السُّلَمِيُّ فَاسْتَقْبَلَهُمَا بِخِيَارِ إِبِلِهِ، فَقَالَا: إِنَّمَا عَلَيْكَ دُونَ هَذَا، فَقَالَ: مَا كُنْتُ أَتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ إِلَّا بِخَيْرٍ مَالِي، فَقَبِلَا.

فَلَمَّا فَرَّغَا مَرًّا بِثَلَاثَةٍ، فَقَالَ: أَرِيَانِي كِتَابَكُمَا، فَنَظَرَ فِيهِ، فَقَالَ: مَا هَذِهِ إِلَّا جَزِيَّةٌ، انْطَلِقَا حَتَّى أَرَى رَأْيِي.

فَانْطَلَقَا حَتَّى قَدِمَا الْمَدِينَةَ، فَلَمَّا رَأَاهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَهُمَا:

«وَبِئْسَ ثَلَاثَةٌ بَيْنَ خَلْفَيْهِ» وَدَعَا لِلسَّلَامِ بِالْبَرَكَةِ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ: لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ...﴾ (الآيات الثلاث من (٧٥ - ٧٨)).

قَالَ الرَّوَايُ: فَسَمِعَ بَعْضُ أَقَارِبِ ثَلَاثَةٍ، فَأَتَى ثَلَاثَةً فَقَالَ: وَيْحَكَ يَا ثَلَاثَةُ، أَنْزَلَ فِيكَ كَذًّا وَكَذًّا.

قَالَ: فَقَدِمْتُ ثَلَاثَةً عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذِهِ صَدَقَةٌ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ قَدْ مَنَعَنِي أَنْ أَقْبَلَ مِنْكَ».

فَجَعَلَ ثَلَاثَةُ يَبْكِي وَيُخْفِي التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«هَذَا عَمَلُكَ بِفَيْسِكَ، أَمَرْتُكَ فَلَمْ تُطِيعْنِي».

فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى مَضَى، ثُمَّ أَتَى أَبَا بَكْرٍ، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَقْبَلَ مِنِّْي صَدَقَتِي، فَقَدْ عَرَفْتُ مَنْزِلَتِي مِنَ الْإِنصَارِ.

فقال أبو بكر: لم يَقْبَلْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَقْبَلَهَا؟ فلم يَقْبَلْهَا أبو بكر.

ثُمَّ وَلَّى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَاتَاهُ فَقَالَ: يَا أَبَا حَفْصٍ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَقْبِلْ مِنِّي صَدَقَتِي، وَجَعَلَ يُثْقَلُ عَلَيْهِ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَأَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ.

فقال عمر: لم يَقْبَلْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَا أَبُو بَكْرٍ، أَقْبَلَهَا أَنَا؟ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا.

ثُمَّ وَلَّى عُثْمَانُ، فَسَأَلَهُ أَنْ يَقْبَلَ صَدَقَتَهُ، فَقَالَ: لَمْ يَقْبَلْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَا أَبُو بَكْرٍ، وَلَا عُمَرُ، وَأَنَا أَقْبَلُهَا مِنْكَ؟ فَلَمْ يَقْبَلْهَا مِنْهُ.

فَهَلَكْتُ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ.

أقول:

إذا كان لهذه القصة أصل، فالمانع من قبول زكاة مال هذا المنافق بعد أن امتنع عن بذلها أول مرة، هو معاقبته بعزله عن جماعة المسلمين عزلاً جزئياً، بسبب نقضه ما عاهد الله عليه، وكان قد سأل الرسول أن يدعوا الله بأن يؤتیه مالاً، فمن سنة الله أن من طلب آية على صدقي الرسول، فدعا الرسول ربه، فأعطاه ما طلب، فنقض عهده، أنزل الله به العقوبة لا محالة.

لَمَّا طَلَبَتْ ثَمُودُ آيَةَ النَّاقَةِ، فَاتَاهُمُ اللَّهُ مَا طَلَبُوا، أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ عَقُوبَةً لَهُمْ عَلَى عَقْرِهِمْ لَهَا، وَنَقَضَ عَهْدَهُمْ بِشَانِهَا.

ولمَّا طلب هذا المنافق كثرة المال، وعاهد الله على أن يتصدق ولا يبخل، فلمَّا امتنع ونقض عهده، استحق العقوبة بعزله جزئياً عن المجتمع الإسلامي، لانكشاف حاله في موضوع بذل الصدقات، ولم يُعامل حول موضوع الصدقات معاملة سائر المنافقين، الذين أعلم الله رسوله بحقيقة نفاقهم، لأنّه كشف أمر نفسه في هذا الموضوع الخاص الذي عاهد الله عليه.

وهذا من الأسلوب الحكيم في معاملة المنافقين، وتربية الذين لم ينقضوا بعد عهودهم منهم، بالذين نقضوا عهودهم، والتربية تكفي فيها الحادثة الواحدة.



التدبير

﴿وَمِنْهُمْ﴾:

أي: ومن المنافقين، لأن الآيات السابقة تتحدث عنهم.

﴿مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ﴾:

أي: فريق عاهد الله، ويكفي أن ينطبق هذا على أقل الجمع فأكثر، لأن التعبير جاء بصيغة جماعة عاهدوا الله.

﴿لَيْسَ أَتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ﴾:

أي: قال في معاهدته الله: والله أو نقسم لئن آتانا الله مالاً وفيراً من زيادات إحسانه.

﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥):

هذا جواب القسم، وقد أغنى ذكره عن ذكر جواب الشرط لاتحادهما في المعنى، والمعنى: لنبدلُ زكوات أموالنا، وقد يدل اللفظ على صدقات فوق الواجب أيضاً، ولنكونن من الصالحين، بصنفي الإيمان وحسن العمل الذي هو أثر الإيمان الصحيح الصادق.

﴿فَلَمَّا أَتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾:

أي: فاستجاب الله لهم دون إبطاء، وحين آتاهم ما طلبوا من أموال، من زيادات إحسانه على غير سبيل العوض أو الجزاء.

﴿بِحُلُولِهِ﴾:

أي: لم يتدّلوا الواجب الذي فرضه الله فيما يؤتيهم من أموال، فضلاً عن أن يتدّلوا مما آتاهم الله من فضله تطوعاً.

﴿وَتَوَلَّوْا﴾:

أي: ابتعدوا واجتنبوا طاعة الله.

﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ :

أي: والحال أنهم يُعْطُونَ للتكاليف الربانيّة عارضهم، أي: جانبهم، لأنهم في ظاهر أمرهم مسلمون لا يستطيعون أن يُدْبِرُوا، ويُظْهِرُوا بإدبارهم كُفْرَهُمُ الَّذِي يَبْطُنُونَهُ. فالإعراض حالةٌ وَسَطَى بَيْنَ الإِدْبَارِ والإِقْبَالِ، والتولّي قد يكون إدباراً وابتعاداً، وقد يكون ابتعاداً واجتناباً في حالة إعراضٍ دون إدبار ظاهر، لكن التولّي بمعنى الابتعاد مع حالة الإعراض يُساوي في الحقيقة المستورة الإِدْبَارَ، أي: الكُفْرَ في الباطن، فجاء التعبير: ﴿وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ بِالْبَلْغِ الدَّقَّةِ في الدَّلَالَةِ عَلَى سلوكهم الذي هو أَثَرٌ من آثار نفاقهم الذي هو كُفْرٌ في الباطن، وإسلامٌ في الظاهر، مصحوبٌ بمعصية لا تنقُضُ الإسلام بحسب الظاهر.

﴿فَأَعَقَبَهُمُ﴾ :

أي: فجازاهمُ اللَّهُ عَقَبَ نَقْصِهِمْ مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ، ضمن مجاري سُنَنِهِ في قلوب عباده وتُفَوِّسِهِمْ.

﴿يَنفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ :

أي: يَنفَاقًا مُتَمَكِّنًا رَاسِخًا مُتَغَلِّلاً في قُلُوبِهِمْ، لَا يُشْفَوْنَ مِنْهُ، حتى نهاية آجالهم في الحياة الدُّنْيَا، ولِقَائِهِمْ رَبَّهُمْ مِنْذُ دُخُولِهِمْ عَتَبَةَ الآخِرَةِ بالموت.

وذلك لأن من كان منافقاً من دركةٍ قابِلَةٍ للشفاء، إذا عَاهَدَ اللَّهَ عَهْداً مشروطاً بشرط على رَبِّهِ، فَحَقَّقَ اللَّهَ لَهُ مَا شَرَطَ، فَتَنَقَّضَ مَا عَاهَدَ عَلَيْهِ رَبَّهُ، كان من نتائج عمله هذا في سُنَنِ اللَّهِ السَّيِّئَةِ، أن يَنْزِلَ فِيهِ النِّفَاقُ إِلَى أَحْسَنِ الدَّرَكَاتِ، وَيَرْسُخَ فِي قَلْبِهِ، كَمَنْ يَضَعُ جِسْمَهُ فِي النَّارِ فَإِنَّ اللَّهَ يُحْرِقُهُ بِالنَّارِ التي وضع جِسْمَهُ فيها ضمن مجاري سننه العامة.

﴿يَمَّا آخَفَوْا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ :

أي: جازاهم الله ضمن مجاري سننه العامة برُسُوخِ النِّفَاقِ في قلوبهم، واستقراره فيها حتى ملاقاتهم له بعد انتهاء رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، بسبب أمرين:

الأمر الأول: إختلافهم في التطبيق العملي ما كانوا عاهدوا الله عليه بالسنتهم، ففوله تعالى:

﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾:

أي: بسبب إختلافهم ما عاهدوا الله عليه، وهو أن يتصدقوا ويكونوا من الصالحين. ﴿مَا﴾ في ﴿بِمَا أَخْلَفُوا﴾ مصدرية تُؤوّل مع ما بعدها بمصدر، والعهد قد تضمّن وعداً.

الأمر الثاني: أنهم كانوا يكذبون حينما وعدوا الله، يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم، فهم منذ البداية قد أعطوا بالسنتهم العهد والوعد وهم لا يريدون الوفاء به، لأنهم منافقون غير مؤمنين، يعطون العهد بالسنتهم فقط، فإذا حقّق الله لهم ما شرطوا أحالوا ما تحقّق لهم على الأسباب، وهم لا يؤمنون بأن الله هو الذي أجراها ليمتحن إيمانهم وطاعتهم ووفاءهم بوعودهم، ففوله تعالى:

﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾:

أي: وبسبب كذبهم الذي كانوا يكذبونه في إعطائهم وعودهم، وفي أصل ادّعائهم أنهم مؤمنون ومسلمون صادقون، وصفة الكذب هذه صفة متكررة متجددة فيهم، وكذلك كل المنافقين.

﴿الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾:

أي: ألم يعلموا مما سبق لهم في تجاربهم الكثيرة التي كشف الله لهم بها فيما أنزل من بيانات قرآنية ما كانوا يُبشرون في قلوبهم، وما كانوا يُسارون به إخوانهم في نجواهم (النجوى: الإسرار بالحديث) أن الله يعلم سرهم ونجواهم؟

﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾:

أي: وأنهم يعلموا من هذه التجارب وغيرها مما يشاهدون في الظواهر الكونية التي تجري بمقادير الله المحكمة، والتي لا يتم إتقانها وإحكامها إلا بعلم محيط بكل شيء مشهود وغائب في السماوات والأرض، أن الله رب الخالق البارئ المصور الذي يصرف الأمور بحكمته علّام الغيوب كلها، لا يخفى عليه شيء منها؟!

عَلَامٌ: صيغة مبالغة وتكثير لِعَالِمٍ، على وزن «فَعَالٌ».

الغيوب: جَمْعُ الغَيْبِ، وهو ما غاب عن حواس وإدراكات المخلوقات، و«أَلْ» في الغيوب لاستغراق الجنس، أي: عَلَامٌ كُلُّ أنواع الغيوب وأفرادها في السماوات والأرض.

* * *

* قول الله عز وجل:

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

* قرأ جمهور القراء العشرة: [يَلْمِزُونَ] بكسر الميم.

وقرأ يعقوب فقط: [يَلْمُزُونَ] بضم الميم.

والقراءتان وجهان عربيان لتُنطق الكلمة.

اللَّمَزُ: نِسْبَةُ الغَيْبِ إِلَى المَلْمُوزِ، يُقَالُ لَفَنَ: لَمَزَهُ يَلْمِزُهُ وَيَلْمِزُهُ إِذَا عَابَهُ، أو أشار إليه إشارة تدلُّ على أنه يعيبه بشيء ما، والإشارة تكون بحركات العين أو الشفة أو نحوهما مع كلام خفي.

﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾:

أي: المتطوعين، المتطوع هو المتنفل الذي يتقرب إلى الله بعمل صالح غير واجب عليه.

﴿فِي الصَّدَقَاتِ﴾:

المراد من الصَّدَقَاتِ هنا صَدَقَاتُ التَّطَوُّعِ لا الزكاة الواجبة، بدليل قرينة «الْمُطَّوِّعِينَ» أو هي أعم فتشمل الزكاة وغيرها.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾:

أي: لا يجدون إِلَّا الشَّيْءَ الْقَلِيلَ، وهو ما في وَسْعِهِمْ أَنْ يَبْذُلُوهُ.

الْجُهْدُ: بَضَمُ الْجِيمِ الرُّسْعُ وَالطَّاقَةُ وَالشَّيْءُ الْقَلِيلُ الَّذِي يَبْعِثُ بِهِ الْمُقِلُّ، أَمَّا الْجُهْدُ بِفَتْحِ الْجِيمِ فَهُوَ مُضْدَرُّ جَهْدٍ يَجْهَدُ بِمَعْنَى «جَدَّ» وَبِمَعْنَى بَذَلَ طاقته وَقُدْرَتَهُ حَتَّى بَلَغَ الْغَايَةَ وَحَلَّتْ بِهِ الْمَشَقَّةُ.

هذه الآية تتحدث عن ظاهرة من ظواهر سلوك المنافقين، وهي ظاهرة لَمَزِ المتطوعين ببذل صدقاتهم عموماً، مع السخرية من الأشياء القليلة التي يبذلها المؤمنون الصادقون الفقراء، الذين لا يجدون فيما يملكون أشياء ذات قيمة كبيرة يبذلونها.

أما من يبذل الكثير فيلمزونه بالرياء، وأما من يبذل الشيء القليل الذي هو جُهدُهُ، فيلمزونه بأنه يُذكرُ بنفسِهِ وحاجتِهِ حَتَّى يُعْطَى مِنَ الصَّدَقَاتِ، وَيُسَخَّرُونَ مِمَّا قَدَّمْ لِقُلَيْبِهِ.

ورود في قِصَّةِ هَذَا اللَّمَزِ مَا يَلِي:

(١) روى البخاري بسنده عن أبي مسعود قال:

لَمَّا أَمَرْنَا بِالصَّدَقَةِ كُنَّا تَنَحَّضُ (أي: نَعْمَلُ حُمَالِينَ بِالْأَجْرَةِ) فَجَاءَ أَبُو عَقِيلٍ يَنْصُبُ صَاعًا، وَجَاءَ إِنْسَانٌ بِأَكْثَرِ مَنَّهُ، فَقَالَ الْمَنَافِقُونَ: إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَدَقَةِ هَذَا، وَمَا فَعَلَ هَذَا الْآخَرُ إِلَّا رِيَاءً، فَتَرَلْتُ:

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ...﴾ الآية.

وعند مسلم نظيره، واسم أبي عقيل هذا «الْحَبَّابُ».

(٢) وذكر عبد بن حميد بسنده عن قتادة «مُرْسَلًا» في تفسير الآية، قال:

جاء رجلٌ من الأنصار يُقَالُ لَهُ: «الْحَبَّابُ أَبُو عَقِيلٍ» فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ يَتُّ أَجْرُ الْجَبْرِزِ عَلَى صَاعَيْنِ مِنْ تَمَرٍ، فَأَمَّا صَاعٌ فَأَمْسَكَهُ لَاهِلِي، وَأَمَّا صَاعٌ فَهَا هُوَذَا.

فقال المنافقون: إِنَّ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ لَغَنِيَّيْنِ عَنْ صَاعِ أَبِي عَقِيلٍ، فَتَرَلْتُ.

ووصل الطبراني والبارودي والطبري هذا الحديث من طريق آخر إلى أبي عقيل.

وسمى الواقدي من المنافقين اللامزين: «مُعْتَبَ بْنَ قُشَيْرٍ» و«عَبْدُ اللَّهِ بْنُ نُبَيْلٍ».

(٣) وجاء عند الطبري عن قتادة، وكذلك عند ابن أبي حاتم عن عكرمة، قال: حث رسول الله ﷺ على الصَّدقة - يعني في غزوة تبوك - فجا عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف، فقال: يا رسول الله، مالي ثمانية آلاف، جشك بنصفها وأمسكت نصفها، فقال:

«بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيمَا امْسَكْتَ وَفِيمَا أَعْطَيْتَ».

وتصدق يومئذ عاصم بن عدي بمئة وستمائة^(١) من تمر، وجاء أبو عقيل بصاع من تمر.

فقال المنافقون: ما أخرج هؤلاء صدقاتهم إلا رياء، وأما أبو عقيل فإنما جاء بصاعه ليذكر نفسه، فنزلت الآية.

التدبير

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْأَصْدَقَاتِ﴾:

أي: الذين يعيبون المتطوعين من المؤمنين ذوي اليسار في بذلهم الصدقات بأنهم مراءون، إذا كانوا من المكشرين من صدقاتهم، كعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، وعاصم بن عدي، وأمثالهم.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾:

أي: ويلبزون المتطوعين من المؤمنين الفقراء الذين لا يجدون إلا الشيء القليل الذي يستطيعون بذله، فهو جهدهم، يلمزونهم بأنهم يريدون التذكير بأنفسهم، والإشعار بأنهم فقراء، لتبذل لهم الصدقات.

﴿وَالَّذِينَ﴾ معطوفة على المطَّوعين على تقدير حذف مضاف، أي: والمطَّوعين الذين لا يجدون إلا جهدهم، أو منصوبة بفعل محذوف تقديره: وأخص الذين...

﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾:

(١) الوُسْئُ ستون صاعاً، والصاع يعادل (٢١٧٥) غرام من القمح.

أي: فَيَقَابِلُونَ صدقات المقلين الفقراء عَقِبَ إحضارهم لها بالشُّخْرية، كأن يضحكوا ساخرين منهم ومن الشيء القليل الذي تقدّموا به.

﴿سَخَّرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾:

أي: جازاهم على عملهم بمثلِهِ، فأَعْلَنَ لملائكته وأنزل في كتابه أَنَّهُ سَخَّرَ مِنْهُمْ، لِأَنَّهُمْ بسفاهتهم التي جعلتهم يسخرون من أعمال المؤمنين عَرَضُوا أنفسهم لعذاب الله، فهم الأحرى بأن يكونوا مسخوراً منهم.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

أي: وأَعِدُّ لَهُمْ أَنْ يذوقوا عذاباً أليماً، فهو لهم سيذوقونه لا محالة، ما لم يتوبوا من كفرهم ونفاقهم، وهذا القيد مفهوم من مختلف النصوص القرآنية، فلا حاجة إلى إعادته مع كل بيان يقتضيه.

* قول الله عز وجل:

﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٥٠).

خاطب الله عز وجل بهذه الآية الرسول ﷺ ويُلْحَقُ بِهِ جميع المؤمنين، فقال له بشأن المنافقين:

﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ...﴾.

فَهُمُ الرُّسُولُ من هذه الآية أَنَّ الله عز وجل خَيْرُهُ بين أن يستغفر للمنافقين أو لا يَسْتَغْفِرُ لَهُمْ، وَأَنَّهُ إِنْ يَسْتَغْفِرُ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ، ولم يفهم الرسول من هذه الآية أَنَّ الله حَرَّمَ عليه أن يستغفر للمنافقين، وفهم أَنَّهُ مَأْذُونٌ لَهُ بِأَنْ يُعَامِلَ المنافقين في موضوع الاستغفار والصلاة على موتاهم بحسب ظاهر إسلامهم، كسائر الإجراءات في الحياة الدُّنْيَا، ولو كان يَعْلَمُ أَنَّهُمْ منافقون، ولا سيما إذا كان في الأمر مصلحة سياسية أو إدارية.

وفهم صلوات الله عليه من حصر العدد الأعلى بالسبعين اَحْتِمَالُ أَنَّ الزيادة على السبعين قد تُفِيد مَنْ يَسْتَغْفِرُ لَهُمْ، ولو بتخفيف العذاب عنهم.

وقد سبق أن أنزل الله في سورة (المنافقون/ ٦٣ / مصحف/ ١٠٤ / نزول) قوله لرسوله بشأن المنافقين:

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾﴾.

وسبق أن أنزل قبل هذه الآية في سورة (الممتحنة/ ٦٠ / مصحف/ ٩١ / نزول) قوله خطاباً للرسول والمؤمنين:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا الْقَوْمِ هُمْ إِنَّا بَرَاءٌ مِنْكُمْ وَهُمْ لَا يُعْبَدُونَ مِنَ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا تُشْفِقْ عَلَيَّ إِنَّكَ سَتَعْمَلُ مَعِيَ شَأْنَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾﴾.

فوجههم لاتخاذ إبراهيم والذين معه أسوة حسنة لهم باستثناء وغد إبراهيم أباه أن يستغفر له، فذل هذا على أن المؤمن لا يسأل الله أن يغفر لكافر.

لكن موضوع المنافقين يختلف عن الكافرين الصُّرَحَاءِ، باعتبار أن الله جعل معاملتهم في الإجراءات الدنيوية كمعاملة المسلمين بحسب ظاهر انتمائهم إلى الإسلام، ما لم ينزل نص صريح بخلاف ذلك.

والدليل على هذه المفهومات التي فهمها الرسول ﷺ، ما رواه البخاري عن عبد الله بن عمر، قال:

لَمَّا تَوَفَّى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي جَاهٍ ابْنَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ فَبِيضَهُ يَكْفُرُ فِيهِ أَبَاهُ، فَأَعْطَاهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَقَامَ عُمَرُ وَأَخَذَ بِثَوْبِ رَسُولِ اللَّهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُصَلِّيُ عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَاكَ رَبُّكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«إِنَّمَا خَيْرِي اللَّهُ فَقَالَ: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ وَسَازِيدُهُ عَلَى السَّبْعِينَ».

قال: إنه منافق!!

قال: فصلّى عليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٤١﴾ [التوبة].

فتح الباري رقم الحديث (٤٦٧٠)

وما رواه البخاري عن عمر بن الخطاب، أنه قال:

لَمَّا مَاتَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَنٍ سُلُوكٌ، دُعِيَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَبَّتَ إِلَيْهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُصَلِّي عَلَى ابْنِ أَبِي؟ وَقَدْ قَالَ يَوْمَ كَذَا: كَذَا وَكَذَا؟! أَعَدُّدُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ^(١). فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ:

«أَخْرُغَنِي يَا عُمَرُ».

فلما أَكْثَرْتُ عَلَيْهِ قَالَ:

«إِنِّي خَيْرْتُ فَأَخْتَرْتُ، لَوْ أَعْلَمْتُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرُ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهَا».

قال: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ انْصَرَفَ، فَلَمْ يَمُكِّثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى نَزَلَتْ الْآيَةُ مِنْ بَرَاءَةِ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا... إِلَى نَوَلِهِ: وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

قال عُمَرُ: «فَعَجِبْتُ بَعْدُ مِنْ جُرْأَتِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَاللَّهِ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ».

وروى الطبري عن الشعبي أن النبي ﷺ قال: «فَأَنَا اسْتَغْفِرُ لَهُمْ سَبْعِينَ وَسَبْعِينَ».

وروي عن قتادة، ومجاهد، وعن هشام بن عروة عن أبيه، أن النبي ﷺ قال:

(١) يشير إلى مثل قوله: ﴿لَا تَغْفِرُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ وقوله: ﴿لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزَّ مِنْهَا الْأَذْلَ﴾.

«قَدْ خَيْرَنِي رَبِّي قَوْلَهُ لَا زِيْدُنَّ عَلَيَّ السُّبْعِيْنَ».

قال ابن حجر في الفتح: وهذه طرق وإن كانت مراسيل فإن بعضها يغضد بعضها^(١). وذكر عن الواقدي، أن مجمع بن جارية قال: ما رأيت رسول الله ﷺ أطال على جنازة قط ما أطال على جنازة عبد الله بن أبي من الوقوف.

قال ابن إسحاق في المغازي: «حدثني الزهري بسنده قال: فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعده ولا قام على قبره حَتَّى قَبَضَهُ اللَّهُ».

ونقل ابن حجر عن الخطابي أنه قال: إنما فعل النبي ﷺ مع عبد الله بن أبي ما فعل لكمال شففته على من تعلق بطرف من الدين، ولتطيب قلب ولده عبد الله الرجل الصالح، ولتألف قومه من الخرج لرياسته فيهم، فلو لم يُجِبْ سؤال ابنه، وترك الصلاة عليه قَبْلَ وُرُودِ النُّهْيِ الصَّريح لَكَانَ سَبًّا عَلَى ابْنِهِ وَغَارًا عَلَى قَوْمِهِ، فاستعمل أَحْسَنَ الْأَمْرَيْنِ فِي السِّيَاسَةِ، إِلَى أَنْ نُهِيَ فَانْتَهَى.

أقول:

هذا الذي ذكره الخطابي فهم سديد، وأما قول عُمر رضي الله عنه للرسول: «تُصَلِّيْ عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَاكَ رَبُّكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ»^{١٢}. فقد بناه على ما فهمه هو من قوله تعالى: «قُلْ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُمْ» أي: فلا تستغفر لهم، والنهي عن الاستغفار يلزم منه النهي عن الصلاة عليهم، وقد أبان الرسول ﷺ يُعْمَرُ أَنَّ الْآيَةَ تُفِيدُ التَّخْيِيرَ بَيْنَ الاستغفار وعدمه بالنسبة إلى المنافقين، ولا تُفِيدُ النَّهْيَ عَنِ الاستغفار، ولو كان الله لا يغفر لهم، فالعمل بظاهر أحوالهم قد تكون له مصلحة غير تحقيق المغفرة لهم.

ودلت الروايات الأخرى على أَنَّ الرسول ﷺ فهم من تحديد «سبعين مرة» احتمال أنه لو زاد على السبعين لنفعهم ذلك ولو بتخفيف العذاب عنهم، وهذا يدل على أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْعِدَدِ إِرَادَةُ معناه، فيبقى المفهوم المخالف أمراً مسكوتاً عنه، وَالْمُسْكُوتُ عَنْهُ مُحْتَمَلٌ أَكْثَرُ: أَنْ يُوَافِقَ حُكْمَ الْعِدَدِ الْمَذْكُورِ، وَأَنْ يَخَالِفَهُ.

وبعد أن أبان الله عز وجل أنه لا يغفر للمنافقين ولو استغفر لهم الرسول سبعين

(١) فتح الباري ص ٣٣٥ من الجزء الثامن.

مرة، أبان سبب ذلك، فقال تعالى:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآلِهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٨٠).

﴿ذَلِكَ﴾:

المشار إليه ما تضمنته قول الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُمْ﴾.

﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآلِهِ وَرَسُولِهِ﴾:

أي: بسبب أنهم كفروا بالله ورسوله.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٨١):

أي: لو غفر الله لهم وهم كافرون فاسقون لكان ذلك مساواة لهم بالمؤمنين المهديين، ولكان ذلك هداية من الله لهم، أي: حكماً منه بأنهم قد سلكوا مسلك الهداية، على خلاف واقع حالهم، ولو كان ذلك عن طريق المغفرة، والله لا يحكم للمجرم بأنه مسلم، ولا يحكم للكافر الفاسق بأنه ذو هداية، فهذا الحكم مناقض لواقع حالهم.

الفاسق: هو الخارج عن طاعة الله خروجاً كلياً إيماناً وعملاً، فد (ال) للكمال.

وهذه الجملة هي من متمات بيان سبب عدم مغفرة الله للمنافقين، أي: فالسبب يرجع إلى أمرين:

الأول: أنهم كافرون بالله ورسوله.

الثاني: أن الله لا يجعل الكافر الفاسق ذا هداية فهو لا يحكم إلا بالحق.

• قول الله عز وجل:

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (٨١)
فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٢) فَإِنْ رَجَعْتَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ

مِنْهُمْ فَاسْتَدْنُوكَ لِخُروُجٍ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَقْصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقِمَّ عَلَى قَبْرِهِمْ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَا تَعْلِيْكَ أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَ بِهِمُ الْبَاقِيَ الَّذِي أَوْزَهَقَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٩﴾

القراءات

• قرا جمهور القراء العشرة: [مَبِيْ أَبَدًا] يَفْتَحُ يَاءُ الْمُتَكَلِّمِ.

وقرا شعبة عن عاصم، وحزمة والكسائي وخلف: [مَبِيْ أَبَدًا] يَأْسَكَانِ الْيَاءُ.
والقراءتان وجهان لِنَظْقِ يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ عِنْدَ الْعَرَبِ.

• وقرا جمهور القراء العشرة: [مَبِيْ عَدُوًّا] يَأْسَكَانِ يَاءُ الْمُتَكَلِّمِ.

وقرا حفصُ فقط: [مَبِيْ عَدُوًّا] يَفْتَحُ يَاءُ الْمُتَكَلِّمِ.

اشتملت هذه الآيات على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: تَضَمَّنَ بَيَانَ ثَلَاثِ ظَاهِرَاتٍ مِنْ ظَوَاهِرِ الْمُنَافِقِينَ النَّفْسِيَّةِ، وَالسُّلُوكِيَّةِ مَعَ أَحْدَاثِ غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَهِيَ ظَاهِرَاتٌ لَمْ يَسْبِقِ الْحَدِيثُ عَنْهَا فِي السُّورَةِ:

الظاهرة الأولى: أَنَّ الَّذِينَ قَعَدُوا عَنِ الْخُرُوجِ إِلَى غَزْوَةِ تَبُوكَ، بَعْدَ أَنْ خَرَجَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَهُ إِلَيْهَا، فَرَحُوا بِقُعُودِهِمْ، وَفَرَحُوا بِمَكَانِ قُعُودِهِمْ الَّذِي وَجَدُوا فِيهِ الظِّلَّ وَالْأَنْسَ وَالْأَمْنَ وَالْعَيْشَ الَّذِي لَا مَشَقَّةَ فِيهِ، وَفَرَحُوا بِزَمَانِ قُعُودِهِمْ إِذْ كَانَ الزَّمَانُ زَمَانًا حَرًّا شَدِيدًا، وَالْمَرِيضُ فِيهِ أَنْ يَسْكُنَ الْإِنْسَانُ فِي مَكَانِهِ الظِّلِيلِ، لَا أَنْ يَخْرُجَ مُجَاهِدًا، وَيَعْرِضَ نَفْسَهُ لِحُمْلِ الْمَشَقَّاتِ.

الظاهرة الثانية: أَنَّهُمْ كَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ.

الظاهرة الثالثة: أَنَّهُمْ كَانُوا يَشْبُطُونَ مِنْ يَطْمَعُونَ فِي أَنْ يَسْتَجِيبَ لَهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ مِنْ إِخْوَانِهِمِ الْمُنَافِقِينَ، بِقَوْلِهِمْ لَهُمْ: لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ.

وقد جاء بيان هذه الظواهر الثلاث في الآية (٨١).

الفصل الثاني: تَضَمَّنَ إِنْذَارُ الْمُنَافِقِينَ بِعَذَابٍ مُؤَجَّلٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَعَذَابٍ مُعَجَّلٍ، جَزَاءَ تَخَلُّفِهِمْ عَنْ وَاجِبِ الْجِهَادِ الَّذِي أُمِرُوا بِهِ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ أَمْرٌ لِلزَّامِ لَا أَمْرَ نَدَبٍ، وَجَزَاءَ تَثْيِيلِهِمُ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْخُرُوجِ.

فَالْجَزَاءُ الْمَوْجَّلُ جَاءَ بَيَانَهُ فِي الْآيَتَيْنِ: (٨١ - ٨٢) وَالْجَزَاءُ الْمُعَجَّلُ جَاءَ بَيَانُهُ فِي الْآيَةِ (٨٥).

الفصل الثالث: تَضَمَّنَ تَوْجِيهَ تَعْلِيمَاتٍ مِنْ اللَّهِ لِرَسُولِهِ حَوْلَ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَهُ لِهَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ الْمُتَخَلِّفِينَ الْمُثْبِطِينَ، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَعامِلَهُمْ بِهِ، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ مَشَاعِرُهُ نَحْوَهُمْ.

والتعليمات الموجهة للرسول لتعليمات موجهة لسائر المؤمنين، ولا سيما ولاية أمورهم.

وقد جاء بيان هذه التعليمات في الآيات (٨٣ - ٨٤ - ٨٥).

التدبير

قول الله تعالى:

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ﴾.

﴿فَرِحَ﴾:

الفرحُ السرور والابتهاج، وهو حالة نفسية من مشاعر السعادة، يُجسُّ بها الإنسان في داخله، إذا حظي بما هو محبوب لديه.

﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾:

أي: الْمُؤَخَّرُونَ في منازلهم وراء الخارجين إلى الجهاد في غزوة تبوك.

تقول: خَلْفَ فَلَانٍ خَادِمُهُ فِي الدَّارِ وَسَافِرٌ، إِذَا أُخِرَهُ، أَوْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ.

وَسَمَّاهُمُ اللَّهُ «مُخَلَّفِينَ» بِاسْمِ الْمَفْعُولِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْ خَيْرٍ عَظِيمٍ

بإرادته فهو في الحقيقة الْمُشْرُوك لا التَّارِك، والمُهْجُورُ لا الهَاجِر، وقد أدرك المتنبّي هذا المعنى بابتداعاته الفكرية الأدبية فقال لممدوحه سيف الدولة:

إِذَا تَرَحَّلْتُ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَرُوا أَنْ لَا تُفَارِقَهُمْ فَالرَّاجِلُونَ هُمْ

﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾:

الْمَقْعَدُ يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ مُصَدِّراً مِثْلَ مَعْنَى الْقَعُودِ، وَيَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ اسْمَ مَكَانِ الْقَعُودِ، وَيَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ اسْمَ زَمَانِ الْقَعُودِ.

ويمكن حملُه هنا على هذه المعاني الثلاثة، إذ المنافقون قد فرحوا بعودهم وعدم خروجهم إلى الغزوة، وفرحوا بمكان قعودهم الأيمن الرَّخِي الظِّلِيل، وفرحوا بزمان قعودهم لأنَّ الوقت قد كان شديد الحرِّ، والخروج فيه للجهاد في سبيل الله عمل شاقُّ، فنخصبص زمن الحرِّ بجعله زمن قعود أمر يُفَرِّحُ به المنافقون.

﴿يَخْلَفَ رَسُولُ اللَّهِ﴾:

خِلَافٌ: يَأْتِي بِمَعْنَى نَعْدٍ، يُقَالُ: جَاءَ خِلَافُهُ، أَوْ قَعَدَ خِلَافُهُ، أَي: بَعْدَهُ. وَيَأْتِي بِمَعْنَى الْمَخَالَفَةِ أَي: الْمَضَادَّةِ يُقَالُ لُغَةً: خَالَفَهُ مَخَالَفَةً وَخِلَافاً، إِذَا عَمِلَ عَمَلاً ضَدَّ عَمَلِهِ أَوْ أَمْرِهِ، وَهَذَانِ الْمَعْنَيَانِ يَصْلُحَانِ هُنَا، فَالْمَنَافِقُونَ قَعَدُوا بَعْدَ انْصِرَافِ الرَّسُولِ إِلَى غَزْوَةِ تَبُوكَ فَلَمْ يَلْحَقُوا بِهِ، وَعَلَى هَذَا تَكُونُ كَلِمَةُ [خِلَافٌ] مَنْصُوبَةً عَلَى الظَّرْفِيَّةِ.

وهم أيضاً خالفوا الرسول في قوله وعمله، وعلى هذا تكون كلمة [خِلَافٌ] مَنْصُوبَةً عَلَى أَنَّهَا حَالٌ، أَي: فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ مَخَالَفِينَ رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ صِفَةً لِمَفْعُولٍ مُطْلَقٍ مُحذُوفٍ، أَي: فَرَحُوا بِمَقْعَدِهِمْ قَعُوداً خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ، وَهَذَا عَلَى تَأْوِيلِ الْمَصْدَرِ بِمَشْتَقٍّ، أَي: عَلَى تَأْوِيلِهِ بِاسْمِ الْفَاعِلِ.

هذه الظاهرة الأولى من ظواهر المنافقين في بيانات هذا النص، وهي فرحهم بالقعود وعدم الخروج مع الرسول إلى غزوة تبوك، وفرحهم بأنهم تمكنوا من مخالفة الرسول باصطناع المعاذير الكواذب.

• قول الله تعالى :

﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ :

وهذه هي الظاهرة الثانية من ظواهر المنافقين في بيانات هذا النص، وهي كراهِيتهم في نفوسهم أن يُجاهدوا في سبيل الله، سواء بأموالهم في إمداد من يريد الجهاد بنفسه، لكنه لا يملك ما يُحبُّله، أو بأنفسهم بالخروج على نفقة غيرهم، أو بهما معاً.

كُرهُ الشيء : حالة نفسية من آثارها النفور منه والابتعاد عنه.

فهؤلاء المخلفون المنافقون اجتمعت في نفوسهم وقلوبهم رذيلتان :

الأولى : قَرَحُهُمْ بأن يقعدوا في مكان طرقي آمين وزمانٍ يَشُقُّ فيه السفر، بعد خروج الرسول للجهاد في سبيل الله، وفرَحُهُمْ بأنهم آيُنُون من معاقبة الرسول لهم على مخالفتهم له، بتفليق المعاذير الكاذب، وقبول الرسول لها معاملةً لهم بحسب ظاهر أحوالهم.

الثانية : كراهِيتُهُمْ أن يجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم معاً، أو بواحدٍ منهما لأنهم لا يؤمنون بجذوى هذا الجهاد لكفرهم بالرسول ويوم الدين . وهاتان الرذيلتان لا تجتمعان في قلب مؤمن صادق الإيمان .

• قول الله تعالى :

﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ :

هذه مقالة نفر من المنافقين كانوا يشطون الناس بها عن الخروج مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك، كما سبق لدى استعراض ملخص الغزوة.

وقد سبق شرح النفر لدى تدبر الآية (٤١) من هذا النص من سورة (التوبة).

وسبق لدى استعراض ملخص غزوة تبوك أنها قد كانت في وقت شديد الحر، وفي ظروف عسيرة صعبة .

• قول الله تعالى :

﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾.

يُعَلِّمُ الله بهذا البيان الرسول وكل مؤمن يجد مناسبة مواتية لنصح المخلفين عن الرسول تعللاً بالحر، مع أن التكليف للخروج معه قد كان عزيمة وأمرًا واجبًا، باستثناء أهل الأعذار الحقيقية، ولإنذار المخذلين المشيطين عن الخروج من المنافقين، أن يقول لهم مذكراً ومخوفاً: نار جهنم التي يستحق التعذيب بها عصاة الله ورسوله، ويستحق الخلود فيها الكافرون والمنافقون أشد حرًا، من حر الصيف الذي أمروا أن يخرجوا مجاهدين فيه، فلم يفعلوا.

بعد هذا التعليم قال الله تعالى :

﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (٨١).

«لو» هنا يُمكن أن يكون لبيان أن ما جاء بعدها أمرٌ محبوبٌ لصاحب القول مرغوبٌ فيه، والمرغوب فيه إذا كان بعيد المنال كانت الرغبة فيه تمنياً، قال علماء العربية: تأتي «لو» للتمني.

وعلى هذا فالله عز وجل يبين أنه يحب لهم في رحلة امتحانهم أن يفقهوا حقائق ما هم فيه، حتى يكون فقههم دافعاً لهم لطاعة الله ورسوله، والتخلص من الكفر والنفاق، والقيام بواجب الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، ونصرة دينه ونشره وتبليغه للعالمين.

الفقه: الفهم والفطنة، ويُستعمل للدلالة على العلم بواطن الأمور وخفاياها، والبحث عنها للتوصل إلى معرفتها، فهو أخص من مطلق العلم.

ويمكن أن تكون «لو» هنا شرطية، وعلى هذا فجملة الشرط هي: [كانوا يفقهون] أما جواب الشرط فمَحذوفٌ يُدركُ بآدنى تأمل في الكلام السابق، والتقدير: لَمَا كَفَرُوا وَلَمَا نَافَقُوا، وَلَمَا غَضُوا.

• قول الله تعالى :

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءَ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ .

اللام في ﴿فَلْيَضْحَكُوا﴾ وفي ﴿وَلْيَبْكُوا﴾ هي لام الأمر، ولكن لا بُرَاد من الأمر التكليف هنا، فصيغة الأمر هنا مستعملة في معنى غير طلب القيام بالضحك والبكاء .

وبالتأمل نذكر أن الأمر في ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾ للتهديد بالعذاب الذي سينزل بهم فيجعلهم يتكئون كثيراً، وفي هذه الجملة محذوف تقديره: فليضْحَكُوا الْيَوْمَ ضُجْكَاً قَلِيلاً اغتراراً بما هم فيه .

ونذكر أيضاً أن الأمر في ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ هي للتهديد أيضاً بالعذاب الشديد الذي سينزل بهم فيجعلهم مضطرين إلى أن يتكوا كثيراً يوم الدين، وفي هذه الجملة محذوف تقديره: وَلْيَبْكُوا يَوْمَ الدِّينِ بكاءً كثيراً مما ينزل فيهم من عذاب جزاء بما كانوا في الحياة الدنيا يكسبون من شرٍّ واثم وكُفْرٍ ونفاق .

وَيُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ هذه الجملة الثانية تعبيراً عما سَيُقَال بشأنهم يَوْمَ الدِّينِ حينما يَتَكُونُونَ فعلاً، وَهُمْ فِي جَهَنَّمَ يُعَذِّبُونَ جزاءً بما كانوا يَعْمَلُونَ في الحياة الدنيا، وصيغة الأمر على هذا تكون للتوبيخ من الخلاص، أي: مهما تابعوا بكاءهم فلا خلاص لهم مما هو مقرر لهم من عذاب على نفاقهم وتبيطهم للمؤمنين عن الجهاد في سبيل الله .

• قول الله تعالى لرسوله :

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْرَكَ لَِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَائِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ .

يقال لغة: رَجَعَ إِلَى بَلَدِهِ أو قومه، إذا عَادَ، ويُقَالُ: رَجَعَهُ اللَّهُ إِلَى بَلَدِهِ أو قومه، إذا أعاده، فالفعل يُسْتَعْمَل لازماً ومُتَعَدِياً .

﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ :

أي: إلى طائفة من المنافقين، الطائفة: الجماعة والفرقة، ويُطْلَقُ لفظ الطائفة على الواحد فأكثر .

وفي قوله تعالى: ﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ إشارة إلى أن بعض المنافقين المخلفين عن غزوة تبوك سَتَلِرُكُهُ مِنِّيَّةً قبل أن يرجع الرسول ﷺ من غزوة تبوك إلى المدينة.

وظاهر أن هذه الآية نزلت على الرسول ﷺ أثناء سفره وقبل عودته من الغزوة.

في هذه الآية يبين الله عز وجل لرسوله العمل الإداري والسياسي، الذي ينبغي أن يعامل به المنافقين المخلفين بأعذار كاذبات عن الخروج معه في غزوة تبوك، إن أعاده الله إلى المدينة، وبقي في المدينة طائفة منهم، أي: ودعا المسلمين إلى الخروج لغزوة أخرى مجاهدين بأموالهم وأنفسهم.

ولما كان أجل الرسول ﷺ قد اقترب، وقد علم الله أن غزوة تبوك هي آخر الغزوات التي يخرج فيها الرسول قائداً لها بنفسه، جاء في الآية استعمال حرف الشرط «إن» الذي يدخل على الأمر المستبعد وقوعه، أو الذي لا يؤجى وقوعه، فجملة الشرط هي كل الكلام المتضمن رجوعه إلى طائفة منهم ودعوته إلى خروج آخر يكون هو قائده واستئذانهم أن يخرجوا معه، وهذا لم يحدث في الواقع.

أما التصرف الإداري والسياسي الذي أمر الله رسوله أن يعاملهم به، وهو في الحقيقة أمر أيضاً لخلفاء الرسول وأئمة المسلمين من بعده، فيتلخص بعزلهم عزلاً تاماً عن جيش المسلمين، فلا يدعون إلى الجهاد، ولا يؤذن لهم بأن يخرجوا مع جيش مجاهد في سبيل الله.

وهذا العزل شبيه بعزل الذين عاهدوا الله بنهم قائلين: لئن آتانا الله من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين، فلما آتاهم الله من فضله وأغناهم بخلوا، فلم يصدقوا ما فرض الله عليهم في أموالهم من زكاة، فعزلهم الرسول عزلاً تاماً عن مشاركة جماعة المسلمين في صندوق الصدقات العامة، كما سبق بيانه لدى تدبر الآيات من (٧٥ - ٧٨).

وكل من العزلين هو من قبيل العزل الجزئي عن جماعة المسلمين، في مجالات محددة، توطئة لطردهم طرداً تاماً من جماعة المسلمين، إذا أضافوا إلى هذه الكبار أموراً أخرى أشباهها، ليس لها في الأحكام حدود شرعية يعاقبون بها.

وفي توجيه قرار عزلهم عن جيش المسلمين علم الله رسوله أن يقول لهم أربع مقالات:

المقالة الأولى:

﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾:

أي: لن تخرجوا معي مجاهدين مقاتلين في سبيل الله أبداً.

هذه أولى مواد قرار العزل، وهي تدل على منعهم من الخروج مع جيش المسلمين للقتال على سبيل التأيد.

المقالة الثانية:

﴿وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾:

أي: ولن أسمع لكم بأن تقاتلوا معي عدوًّا أبداً أيضاً، ولن أخرجهم بغير إذني، أو دأبهم العدو موافقنا دون أن نخرج إليه غزاة.

وهذه هي المادة الثانية من مواد قرار العزل، وهي تدل على منعهم من المشاركة في القتال، على أية حال، ولو دون خروجهم مع جيش الجهاد المقاتل.

المقالة الثالثة:

﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾:

في هذا القول بيان السبب الداعي إلى توجيه ما ذني العزل الأولى والثانية، وجاء التعبير هنا بأنهم رضوا بالقعود عن الخروج للقتال مع الرسول في أول مرة وجه الرسول فيها أمراً إلزامياً بالخروج معه، بعد أن كانت الدعوات السابقة للخروج معه على سبيل الندب والتحريض، لا على سبيل التكليف الإلزامي، وقد سبق أن أبان الله أنهم فرحوا بمقعدهم بخلاف رسول الله، وكبرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، فدل على أن المراد من رضاهم بالقعود أول مرة، هو ما يشمل فرحهم بمقعدهم، وكراهيتهم أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم.

ولا شك أن هذه الحالة النفسية لهم تنافى مع الإيمان، فهم بسبب ذلك

يَسْتَجِبُّونَ الْعِزْلَ عَنِ الْجِيْشِ، وَالْعِزْلُ عَنْ مَقَاتِلَةِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، لِأَنَّهُمْ لَا يَزِيدُونَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا خَبَالًا.

المقالة الرابعة :

﴿فَأَقْصُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ﴾ :

الْخُلَفَاءُ: يُطْلَقُ عَلَى الْعَاصِي الْكَثِيرِ الْخِلَافِ، وَيُطْلَقُ عَلَى الْفَاسِدِ مِنَ النَّاسِ الَّذِي لَا خَيْرَ فِيهِ.

أي : وبما أنكم رضيتم بالقعود خلاف رسول الله ، عند أول إلزام لكم بالخروج معه مجاهدين ، ففرحتهم بمقعدكم ، وكرهتم أن تجاهدوا بأموالكم وأنفسكم ، فأقعدوا مع العصاة الكثيرة الخلاف ، ومع الفاسدين من الناس الذين لا خير فيهم ، وفي هذا إشعار لهم بأنهم قد شَفَّ سُلُوكُهُمْ عَنْ كُفْرِهِمْ ، فالفاسد الذي لا خير فيه يترجح كونه كافرًا ، بل هو كافر باطنًا ، ولو لم تبطل تصرفاته إلى إدانته بالكفر ظاهراً وإقامة حد المرتد عليه .

وهذه المقالة من قرار العزل مائة توبيخ وتقريع وتشهير بما يشعر بعزلهم وفصلهم عن جماعة المسلمين في مجال الجهاد ، الذي هو مقدمة لفصلهم وعزلهم كلياً عن جماعة المسلمين في كل المجالات .

• قول الله تعالى لرسوله :

﴿وَلَا تَقْصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقِمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾ (١٤١).

هذا خطاب للرسول إذ قد أعلمه الله بأشخاص المنافقين يومئذ ، ويُلتحق به كل من عرفهم أو عرف بعضاً منهم بإخبار الرسول ، أو بدلائل الامارات والعلامات القولية والفعالية .

واشتمل هذا الخطاب على الإلزام بمعاملتهم بعد موتهم معاملة الكافرين الصُّرْحَاءِ ، من قَبْلِ مَنْ عَلِمَ حالهم ولو بالدلائل التي تُفيد غلبة الظن ، فكيف بمن عَلِمَ

حَالَهُمْ يَقِينًا عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ، كَالرَّسُولِ ﷺ، وَكَحَذِيفَةَ بْنِ الْيَمَانِ الَّذِي كَانَ صَاحِبَ سِرِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمُنَافِقِينَ.

وقد سبق لدى تدبر الآية (٨٠) بيان سبب نزول هذه الآية (٨٤).

والبيان في هذه الآية اشتمل على تكليفين وعلى بيان السبب لما جاء فيهما:

التكليف الأول: النَّهْيُ عَنْ الصَّلَاةِ عَلَى أَحَدٍ مَاتَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، نَهْيًا أَبَدِيًّا، وَالصَّلَاةُ تَشْمَلُ الصَّلَاةَ ذَاتَ التَّكْبِيرَاتِ الْأَرْبَعِ، الَّتِي يَتَخَلَّلُهَا الدُّعَاءُ لِلْمَيِّتِ، وَتَشْمَلُ الدُّعَاءَ لَهُ بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ وَلَوْ فِي غَيْرِ هَذِهِ الصَّلَاةِ الْخَاصَّةِ، لِأَنَّ الدُّعَاءَ يَدْخُلُ فِي عُمُومِ الصَّلَاةِ لَفَعْلًا، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّا تَأْتِيكُم بِهِ﴾.

التكليف الثاني: النَّهْيُ عَنِ الْقِيَامِ عَلَى قَبْرِ أَحَدٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَهَذَا النَّهْيُ يَشْمَلُ الْوُقُوفَ عَلَى قَبْرِهِ لِلدُّعَاءِ لَهُ، وَالْقِيَامَ بِمَهْمَاتِ دَفْنِهِ وَإِصْلَاحِ قَبْرِهِ، وَهَذَانِ هُمَا الْإِحْتِمَالَانِ اللَّذَانِ أوردتهما المفسرون، وَرَجَّحَ بَعْضُهُمُ الْأَوَّلَ، لِأَنَّ الرَّسُولَ كَانَ يَقِفُ عَلَى قُبُورِ الْمُسْلِمِينَ وَيَدْعُو لَهُمْ.

أقول أما الاحتمال الأول فيدخل في عموم التكليف الأول وهو النهي عن الصلاة عليه، إلا إذا حملنا الصلاة على الصلاة ذات التكبيرات المعروفة بالصلاة على الميت. وأما الاحتمال الثاني فيقتضي تخصيص النهي بالرسول ﷺ، لِأَنَّ الْمَيِّتَ لَا يَدْخُلُ فِيهِ دَفْنُهُ، وَلَوْ كَانَ كَافِرًا صَرِيحَ الْكُفْرِ، فَمَنْ مَاتَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ ظَاهَرَهُ الْإِسْلَامُ، فَالْمُسْلِمُونَ مُطَالِبُونَ بِدَفْنِهِ مَهْمَا كَانَ شَأْنُهُ، وَلَوْ كَانَ مُنَافِقًا مَعْلُومَ النِّفَاقِ.

ولكن يوجد احتمال ثالث وهو القيام على قبر المنافق، بمعنى المكث عنده طويلاً، إِذَا الْمَطْلُوبُ مِنَ الْمُؤْمِنِ إِذَا مَرَّ عَلَى مَقَابِرِ الْكَافِرِينَ أَوْ زَارَهَا، أَنْ لَا يَمْكُثَ عِنْدَهَا طَوِيلًا، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يُسْرِعَ الْخَطُو وَيَتَجَاوَزَهَا، لِأَنَّهَا مَوَاطِنُ مَوِئَةٍ بِالنَّفْسِ الْمَعَذَّبَةِ الَّتِي تَنْزَلُ عَلَيْهَا اللَّعْنَةُ مِنَ اللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ، بِاسْتِثْنَاءِ أَحْوَالٍ خَاصَّةٍ كَزِيَارَةِ الرَّسُولِ ﷺ لِقَبْرِ أُمِّهِ.

ولذلك لَمَّا مَرَّ الرَّسُولُ ﷺ بِالْحَجَرِ (وهي مساكن ثمود) ومعه المسلمون في غزوة

تبوك، غطى وجهه بثوبه، واستحث راحلته لتسرع، ثم قال: لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون، خوفاً أن يصيبكم مثل ما أصابهم.

وقد جاء في اللغة استعمال «قام» بمعنى وقف وثبت فلم يتقدم ولم يتأخر، وهذا المعنى هو أحد معاني هذا الفعل، ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾.

قال أهل اللغة والتفسير: قاموا هنا بمعنى وقفوا وثبتوا في مكانهم غير متقدمين ولا متأخرين.

وبعد بيان التكليفين أبان الله السبب لما جاء فيهما فقال تعالى:

﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٩٨).

كلامٌ مستأنف في أسلوبه اللفظي، ولكن إirاده عقب التكليفين السابقين، مع ملاحظة الروابط الفكرية، وسوابق المفهومات القرآنية، يجعله بقوة الكلام المقترن بأداة من أدوات التعليل.

فالسبب في توجيه الأمر بعدم الصلاة على من مات منافقاً، وعدم القيام على قبره، كونه كفر بالله ورسوله، واستمر كذلك طوال حياته حتى مات وهو فاسق فسقاً من دركة الكفر، وقد قضى الله بحكمته أن لا يغفر لمن مات كافراً، ولو كان كفره من أخف دركات الكفر، وهو الشرك.

الفسق: هو العصيان والخروج عن الحق والواجب وأوامر الله ونواهيه، وهو مصطلح إسلامي، مأخوذ من قول العرب: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها، ومعلوم أن الرطبة متى خرجت من قشرتها تعرضت للفساد السريع.

وللفسق دركات، أخفها يكون بارتكاب المحرمات، أو ترك الواجبات مع سلامة الإيمان والإسلام، وأشدّها وأخسها يكون بالكفر بالله وبما جاء عن الله جحوداً وعناداً وإصراراً على الباطل واتباع الهوى.

ويُحتمل لفظ الفسق ومشتقاته في النصوص على الدركة التي تقتضيها القرائن، من سوابق الكلام ولواحقه.

فقد تقتضي القرائن أن يكون المراد من الفسق في النص المعاصي التي

لا تنقض الإيمان والإسلام، فيُحْمَلُ عليها.

وقد تقتضي القرائن أن يكون المراد من الفسق في النص المعاصي من ذرّة الكفر، فيكون مساوياً للكفر عندئذ، وأكثر ما استعملت هذه المادة في القرآن للدلالة على الفسق من ذرّة الكفر.

* قول الله لرسوله ويلحق به المؤمنون:

﴿وَلَا تَعِجْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَ بِهِم بِمَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٥٥)

سبق شبيه هذه الآية مع اختلاف في بعض ألفاظها، وهي الآية (٥٥) من السورة، وهي قوله تعالى فيها:

﴿فَلَا تَعِجْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِمَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٥٥).

وقد سبق أن تدبرنا هذه الآية على قدرنا، ونحسُن بنا هنا أن نبحت عن الغرض من إعادة الفكرة التي اشتملت عليها الأيتان، وأن تدبر دلالات الفروق اللفظية بينهما. لا يحسُن أن أعيد هنا ما سبق شرحه وبيانه وتفصيله هناك، بل ينبغي أن اقتصر هنا على ما يمكن إضافته إلى ما سبق.

يبدو للمتدبر أن الآيات لما بدأت تنزل في سورة (التوبة) تبعاً بشأن المنافقين، الأمر الذي يشعر بأن التوجّه الربّاني قد أخذ في سياسة كشفهم وفضحهم، تمهيداً لعزلهم عن المجتمع الإسلامي، تحركت نفوس المؤمنين ناظرة نظرات إعجاب بأموالهم وأولادهم، أي: إذا كان أمرهم كذلك، فلم يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بالأموال والأولاد؟

فأنزل الله عز وجل عقب تحرك النفوس بهذه المشاعر قوله خطاباً لرسوله:

﴿فَلَا تَعِجْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾.

فجعل الخطاب مبدوءاً بحرف العطف (الفاء) التي تدل على الترتيب مع

التعقيب، ووجه الخطاب للرسول، وهو خطابٌ لكل مؤمن حصل لديه هذا الشعور، وجاء الخطاب على طريقة الخطاب الإفرادي ليكون أوقع في نفس من تحرك لديه هذا الشعور المصحوب بالتساؤل.

ولما كانت نظرات المعجبين تتجه مرةً لأموال المنافقين، ومرةً أخرى لأولادهم، جاء فيها إعادة حرف النفي (لا) فقال تعالى:

﴿فَلَا تَعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾.

وجاء في هذه الآية قوله تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾ بإضافة اللام الجازة، للدلالة على أنَّ مفعول [يُرِيدُ] محذوف، والحذف يقتضي إرادة أشياء كثيرة مختلفة يريدُها الله عزَّ وجلَّ، كمتاعب جمع الأموال، ومتاعب حمايتها وحفظها، ومتاعب الخوف عليها، وآلام تعرضها للمتالف والخسارات، وتسلُّط أصحاب المطامع عليها، إلى غير ذلك، وكمتعاب عقوق الأولاد، وأمراضهم، ومشاكلهم الكثيرة، وموت من يموت منهم.

وجاء في هذه الآية قوله تعالى: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ مُصَرِّحاً فيها بلفظ الحياة، للنص على أنَّ تعذيبهم يكون وهم أحياء في هذه الدنيا قبل الرحيل عنها بالموت، والدخول في أول منازل الآخرة.

وتتابعت بعد هذه الآية الآيات تنزُّل بشأن المنافقين، فضيحةً وإنذاراً وتهديداً وتوبيخاً [في سورة (التوبة)] وظلَّت بعض نفوس المؤمنين تتحرك ناظرةً إلى المنافقين نظرات إعجاب بأموالهم وأولادهم، فدعا هذا إلى إنزال الآية (٨٥)، وقال الله تعالى فيها:

﴿وَلَا تَعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ﴾.

فلم يجعلها مبدوءةً بالفاء، بل بحرف العطف (الواو) لأنَّ النهي هنا قد جاء تأكيداً للنهي الأول، ما دام بعض المؤمنين لم يصرفوا عن أنفسهم هذا الإعجاب، اقتناعاً بما دلَّت عليه الآية السابقة.

ولم يأت في هذه الآية الثانية إعادة حرف العطف (لا) بجانب الأولاد، لأنَّ حال المخاطبين قد وصل نظرهم إلى الإعجاب بأموال بعض المنافقين وأولادهم معاً في وقت واحد، فاستدعى هذا الحال أنَّ يكون الأداء البياني مطابقاً له.

ولمَّا أَصْرُ الْمُعْنِيُونَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ عَلَى مَوَاقِفِهِمُ الْعُنَادِيَّةِ، وَبَقِيَ فِي الظُّنُونِ أَنَّ التَّعْذِيبَ بِالْمَرَادَاتِ الْمُخْتَلِفَاتِ الَّتِي تَرَفَّقُ جَمْعُ الْأَمْوَالِ وَحِفْظُهَا، وَتَرَافَقُ تَرْبِيَةُ الْأَوْلَادِ وَنَشْتِهِمْ، قَدْ لَا يَسْتَسْبِغُ التَّعْذِيبُ بِأَعْيَانِ الْأَمْوَالِ وَأَشْخَاصِ الْأَوْلَادِ الَّتِي يُبَدُّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ بِهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْآخِرَةِ:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾:

أي: يُرِيدُ تَعْذِيبَهُمْ بِهَا، فَتَكَامِلُ النَّصَانِ، إِذْ ذَلَّ السَّابِقُ عَلَى تَعْذِيبِهِمْ بِأَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ مُرَافِقَةٍ لَجَمْعِ الْأَمْوَالِ وَحِفْظُهَا، وَتَرْبِيَةِ الْأَوْلَادِ وَنَشْتِهِمْ، وَذَلَّ النَّصُّ الْآخِرُ عَلَى تَعْذِيبِهِمْ بِأَعْيَانِ الْأَمْوَالِ وَأَشْخَاصِ الْأَوْلَادِ.

وَحُذِبَ مِنَ النَّصِّ الْآخِرِ لَفْظُ (الْحَيَاةِ) اسْتِغْنَاءً بِمَا جَاءَ فِي النَّصِّ السَّابِقِ.

وهكذا تَكَشَّفَتْ لَنَا فُرُوقُ الدَّلَالَاتِ، وَظَهَرَ لَنَا الْغَرَضُ مِنْ إِعَادَةِ فِكْرَةِ النَّصِّ، مَعَ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ النَّصُّ الْآخِرُ مِنْ إِضَافَاتٍ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى فَتْحِهِ وَتَوْفِيقِهِ.

أَمَا تَدَبَّرُ بَقِيَّةَ مَا جَاءَ فِي الْآيَةِ الْآخِرَةِ فَهُوَ مُطَابِقٌ لِمَا جَاءَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ، فَلْيَرْجِعْ إِلَيْهِ.

• قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِهَا لِلَّهِ وَجَّهَدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطُّوَلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ادْرَأْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَائِمِينَ ﴿٨٦﴾ رَسُوًا إِنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَيْكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْغَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالَاتِ مِنَ الْأَغْرَابِ لِيُوْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾.

• قَرَأَ جَمْهُورُ الْقُرَاءِ الْعَشْرَةَ: [الْمُعْذِرُونَ] بِفَتْحِ الْعَيْنِ وَتَشْدِيدِ الذَّالِ الْمَكْسُورَةِ.

وقرأ يعقوب فقط: [الْمُعْذِرُونَ] بإسكان العين وكسر الذال من غير تشديد.

الْمُعْذِرُونَ: بتشديد الذال هم الذين يعتذرون وهم كاذبون ليس لهم أعذار حقيقية، إنما يوهمون أن لهم أعذاراً، فالْمُعْذِرُ هُوَ الذي يتكلف إظهار العذر اعتلالاً من غير أن يكون له عذر في الواقع.

الْمُعْذِرُونَ: بإسكان العين وتخفيف الذال، هم الذين يَعْتَذِرُونَ وهم صادقون، فالْمُعْذِرُ هُوَ الذي له عذر في الحقيقة وواقع الأمر.

فبين القراءتين تكامل فكري، لأنّ الذين اعتذروا من الأعراب عن الخروج مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك كانوا فريقين:

الفريق الأول: الذين اعتذروا عن الخروج كاذبين، قيل: ومنهم نفر من بني عامر، قوم عامرين الطفيل، وينطبق عليهم عنوان «الْمُعْذِرِينَ» بتشديد الذال وفتح العين.

الفريق الثاني: الذين اعتذروا عن الخروج صادقين، قيل: ومنهم نفر من بني غفار، وينطبق عليهم عنوان «الْمُعْذِرِينَ» بتخفيف الذال وإسكان العين.

* * *

موضوع هذه الآيات

يُعَلِّمُ الله عزَّ وجلَّ رسوله وسائر المؤمنين في هذه الآيات مع لواحق لها في السورة طريقة الحكم على أحوال الناس المستقبلية، بالاستناد إلى تجربتهم في الماضي، وأخذ ذلك بالملاحظة والاعتبار لدى إعداد خطط الأعمال الْمُزْمَعِ القيام بها في المستقبل.

فالمناققون من شأنهم إذا أُنْزِلَتْ سورةٌ تدعو إلى صدق الإيمان بالله والجهاد مع رسوله بالأموال والأنفس، استأذن القادرون على الجهاد، وقالوا للرسول أُولَئِیُّ الأمر من بعده: ذَرْنَا نَكُنْ مع القاعدين، هذا في أحسن أحوالهم، أو تخلفوا دون استئذان، أو كانوا مَبْطِلِينَ داعين إلى التخلف، كالذين سَبَقَ أن قالوا: لا تنفروا في الحرّ.

وتجارب الماضي التي حدثت بعد الأمر بالخروج إلى غزوة تبوك تدل على أنهم سيكونون كذلك في المستقبل، فعلى الرسول وكذا على إمام المسلمين من بعده أن يضع هذه التجربة في اعتباره لدى إعداد خطط المستقبل، فلا يُدْخِلُ ضِمْنَ قُوَّتِهِ التي يضعها في حسابه أشخاص المنافقين ولا قواهم المالية وغيرها، لأن المنافقين إن لم يكونوا قوياً سالباً تعمل لحساب الأعداء فهم قوى مُعْطَلَةٌ سَاكِنَةٌ لَا تَعْمَلُ.

أما الرسول والمؤمنون الصادقون فقد أثبتت التجربة أنهم جاهدوا فعلاً بأموالهم وأنفسهم، ولم يتخلف منهم إلا ذوو الأعذار الحقيقية، كالعاجزين في أجسامهم، وكالذين لم يجدوا ما يخملهم في رحلتهم الجهادية، ولم يوجد فيهم إلا قلة قليلة تخلقوا تكاسلاً وتسويفاً، ولما فاتهم شرف المشاركة كبر عليهم الأمر ونديموا، وحين سئلوا عن سبب تخلفهم اعترفوا بذنوبهم، واستغفروا ربهم، وتابوا، فتاب الله عليهم، فهؤلاء هم الذين يوضعون في الحساب، لدى إعداد الخطط المستقبلية الجهادية.

هذا الدرس التعليمي من هذه السورة درس يضعب اكتشاف موضوعه، لكن من تدبره منذ بدايته تدبراً دقيقاً، ولا حظ حرف الشرط (إذا) الذي في أول الموضوع لما يُستقبل من الزمن، واكتشف المطويات خلاله، وأسعفته معونة الله وتوفيقه استطاع أن يذكر موضوعه على ما سبق بيانه.

* * *

التدبير

﴿وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨١﴾﴾

الطَّوْلُ فِي اللَّغَةِ: الْغِنَى وَالْيَسَارُ وَالسَّعَةُ وَالْقُدْرَةُ وَالْفَضْلُ وَالْعُلُو.

﴿ذَرَّنَا﴾

أي: اتركنا. مُضَارِعَةٌ «يَذَرُ»، أما ماضي هذا الفعل ومصدره فقد أمانتهما العرب، وهما: «وَذَرَ وَذَرًا» وكذلك لا يُسْتَعْمَلُ منه اسمُ الفاعل، فلا يُقال: «واذِر» بمعنى: تارك، واستغنوا بفعل تَرَكَ تَرْكاً فهو تارك.

﴿مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾:

أي: مع الَّذِينَ يُؤْذَنُ لَهُمْ بَأَن يَقْعُدُوا فِي بِلَدِهِمْ، أَوْ مَنَازِلِهِمْ وَلَا يَخْرُجُوا لِقِتَالِ الْعَدُوِّ، لِعَجْزِهِمْ عَنِ الْقِيَامِ بِمَهْمَاتِ الْقِتَالِ، كَذَوِي الْعَاهَاتِ وَالْمَرْضَى وَالْعَجْزَةِ وَالصَّغَارِ.

والمعنى: سَبَقَ أَنْ غَرَضْنَا الظواهر السلوكية للمنافقين لدى أَمْرِكَ يَا مُحَمَّدُ لَهُمْ أَمْرُ الزَّامِ بِالْخُرُوجِ إِلَى غَزْوَةِ تَبُوكَ، فَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ اعْتَذَرَ كَاذِبًا، وَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ تَخَلَّفَ دُونَ أَنْ يَغْتَذِرَ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ قَائِدٌ لَا عُذْرَ لَهُ، وَكَانَ مِنْهُمْ مُبْطِطُونَ عَنِ الْخُرُوجِ مَعَكَ، فَخَذَ عِزَّةً مِنْ تَجَرِبَتِكَ لَهُمْ فِيمَا مَضَى، وَقَسَّ عَلَيْهِ مُسْتَتِجًا مَا سَيَكُونُ مِنْهُمْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ رَبِّكَ تَأْمُرُهُمْ أَمْرًا مُبَاشِرًا صَرِيحًا، أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ، إِيْمَانًا صَادِقًا، وَتَخَلَّصُوا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ نِفَاقٍ، وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي حُدُودِ مَا لَدَيْكُمْ مِنْ قُدْرَةٍ عَلَى الْجِهَادِ بَأَنْفُسِكُمْ، وَنَسَافٍ فِي أَمْوَالِكُمْ، جَاءَكَ يَا مُحَمَّدُ أَهْلُ الْغَنَى مِنْهُمْ، وَأَهْلُ الْقُدْرَةِ عَلَى الْجِهَادِ، وَمِنْهُمْ ذَوُو الْمَكَانَةِ الْعَالِيَةِ فِيهِمْ، فَاسْتَأْذَنُوكَ، أَي: طَلَبُوا أَنْ تَأْذِنَ لَهُمْ فِي أَنْ لَا يَخْرُجُوا مَعَ الْمُقَاتِلِينَ، مَعَ صَرِيحِ الْأَمْرِ الرَّبَّانِيِّ لَهُمْ بَأَن يَجَاهِدُوا بِمَقْتَضَى السُّورَةِ الْمَشَارِ إِلَيْهَا، فِيمَا لَوْ أُنْزِلَتْ كَذَلِكَ، وَلَمَّا كُنْتَ لَا تَأْذِنُ لَهُمْ بِمُخَالَفَةِ أَمْرِ اللَّهِ الْمَوْجِبِ لِلْقَادِرِينَ، فَإِنَّكَ سَتَرَاهُمْ يَتَذَرِعُونَ بِذَرَائِعٍ بَاطِلَةٍ، وَيَعْتَذِرُونَ بِأَعْذَارٍ كَاذِبَةٍ، لِتَأْذِنَ لَهُمْ بِمَقْتَضَى هَذِهِ الْأَعْذَارِ، إِذْ يَكُونُ حَالُهُمْ بِمَقْتَضَى هَذِهِ الْأَعْذَارِ كَحَالِ الْقَاعِدِينَ أُولِي الضَّرَرِ الَّذِينَ لَمْ يَكْلَفَهُمُ اللَّهُ أَنْ يَخْرُجُوا مُقَاتِلِينَ، دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿وَقَالُوا أَذِنَ اللَّهُ لَنَا بِأَن لَا نَخْرُجَ لِعُدُوِّ كَذَا، وَلَعُدُوِّ كَذَا، وَاتْرَكْنَا بِسَبَبِ هَذِهِ الْأَعْذَارِ الْبَاطِنَةِ الَّتِي لَا تَنْظُرُ لِلنَّاسِ نَكْرًا مَعَ أَصْحَابِ الْأَعْذَارِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي يَرَاهَا الْجَمِيعُ، وَهُمْ الْعُمِيُّ وَالْعُرْجُ وَالْمَرْضَى وَالشُّبُوحُ الْهَرَمُونَ، وَنَحْوُهُمْ، فَحَالُ الْأَعْذَارِ الْبَاطِنَةِ كَحَالِ الْأَعْذَارِ الظَّاهِرَةِ، فَصَلَحَ لِرَفْعِ التَّكْلِيفِ، وَلِلْإِذْنِ بِعَدَمِ الْخُرُوجِ.

هَكَذَا يَصُورُونَ قَضِيَّتَهُمْ فِيمَا يُلْفَقُونَ مِنْ أَعْذَارِ.



• قول الله تعالى :

﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٤٧)

الْخَوَالِفُ: جَمْعُ خَالِفَةٍ، وهي المرأة التي تخلف الرجل في القعود، في البيت، ولا تخرج للقتال.

الكلام في هذه الآية تابع لما دخلت عليه «إذا» في الآية السابقة، فهو مبدوء بصيغة الفعل الماضي، لكن «إذا» تجعل الماضي الذي تدخل عليه في معنى المستقبل.

أي: إنهم يطلبون بمقتضى ما يلقون من أعداء كاذبة أن يكونوا مع القاعدين من الرجال أهل الأعداء، لكنهم في الحقيقة يَرْضُونَ بأن يكونوا مع النساء الخوالف للرجال في البيوت.

وفي هذا التعبير توجيه إهانة لهم بأنهم رجال في الصورة، لكنهم في الحقيقة بحكم النساء جُنُبًا، وتهرباً من الواجبات التي يتحمل أعباءها الرجال، وأنهم يَرْضُونَ بأن تُلصَقَ بهم هذه الصفة التي تنافي كونهم ذوي رفعة في قومهم، ولا يُعرضوا أنفسهم لما يكرهون من جهاد بأموالهم وأنفسهم.

ومعلوم أن أهل الجاهلية كانوا يرون من المهانة أن يوصف الرجل منهم بأنه في الحرب مع الخوالف مع النساء.

ومع هذه المهانة في طبيعة نفوسهم يوجد في قلوبهم داء آخر، دل عليه قوله تعالى :

﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

الطبع في الماديات الملموسة كالختم، وكان من عادة الملوك وغيرهم إذا أرسلوا رسائل، وأرادوا المحافظة على سرية ما فيها أفلوها بإحكام، ووضعوا عند مكان إقبالها طيناً خاصاً يطبعون عليه خاتمهم الخاص بهم، فيجف الطين ومثال الخاتم عليه مطبوع، فلا يمكن معرفة ما في داخل الرسالة إلا بكسر خاتم الطين.

وعلى سبيل التوسع في التعبير بنقل ما هو للماديات للمعنويات جاء في القرآن

المجيد التعبير بالطُّع وبالختم على القلوب، للدلالة على أنها مغلقة محجوبة عن إدراك أي شيء يتعلّق بما هي محجوبة عنه.

وطُبع الله على القلوب لا يكون بصورة ابتدائية جبرية، ولكن يكون نتيجة ما يكسبه العبد بإرادته من أعمال ظاهرة وباطنة يتولّد عنها بمقتضى سُنّة الله في قوانين الأسباب والمسببات الثابتة الطُّع، وقوانين الأسباب والمسببات إنما تتحقق نتائجها بخلق الله، فهي من أفعاله سبحانه.

فَمَعْنَى ﴿وُطِّعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾: وَكَانَ مِنْ نَتِيجَةِ كُفْرِهِمْ وَتَوَلَّيْهِمْ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ الْبَيِّنَاتِ، وَعَنِ الِاسْتِجَابَةِ الصَّادِقَةِ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، أَنْ جَرَتْ سُنَّةُ اللَّهِ فِيهِمْ، فَأُغْفِلَتْ قُلُوبُهُمْ إِغْفَالًا كَامِلًا، وَطُيْعَ عَلَى هَذِهِ الْأَقْفَالِ إِيْذَانًا بِأَنَّهَا غَيْرُ مُسْتَعْبِدَةٍ لِأَنْ تُفْتَحَ.

وَمَا أَنَّ قُلُوبَهُمْ أُغْفِلَتْ هَذَا الْإِغْفَالَ وَطُيْعَ عَلَيْهَا:

﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾:

أي: لَا يَفْهَمُونَ فَهُمَا دَقِيقًا حَقَائِقُ الْأُمُورِ، وَيُقَسِّرُونَ الْأُمُورَ تَفْسِيرَاتٍ سَطْحِيَّةٍ بَعِيدَةٍ عَنْ حَقَائِقِهَا الْخَفِيَّةِ عَلَيْهِمْ، الَّتِي تَقَعُ دَلَالَتُهَا وَأَمَارَاتُهَا مِنْ وَرَاءِ السُّطُوحِ، وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَآيَاتِهِ إِمَانًا صَحِيحًا، فَتَوَقَّعَتْ أَفْهَامُهُمْ عِنْدَ الظَّوَاهِرِ السَّبِيَّةِ، فَلَا يَعْلَمُونَ إِلَّا ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

* قول الله تعالى:

﴿لَيْكِنَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَوْلِيَّتِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأَوْلِيَّتِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾.

أي: لَكِنْ دَلَّتِ التَّجَارِبُ السَّابِقَةُ عَلَى أَنَّ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا فَعَلًا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَهَذِهِ التَّجَارِبُ السَّابِقَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ إِذَا انْزَلَتْ سُورَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَأْمُرُ بِالْجِهَادِ لَمْ يَتَوَانَوْا وَلَمْ يَتَخَلَّفُوا، بَلْ يُسَارِعُونَ إِلَى مَرْضَاةِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ.

فالمعنى: لَكِنِ الرُّسُولُ والذين آمنوا معه إيماناً صادقاً جاهدوا فيما سبق بأمرالهم وأنفسهم، وسبجاهدون فيما يأتي طاعةً لله، وأولئك لهم الخيرات، وأولئك هم الْمُفْلِحُونَ.

الْخَيْرَاتُ: جمع «خَيْرَةٍ» وهي الفاضلة من كل شيء، ويقال لغة: امرأةٌ خَيْرَةٌ، أي: جميلة حسنة، كريمة النسب، شريفة الحسب، كثيرة المال، إذا ولدت أنجبت.

الْمُفْلِحُونَ: أي الظافرون بما يُحبون وبما يريدون وبما يشتهون.

إن الله عز وجل يُخَبِّرُ خَبَرًا عَمَّا سيكون للمؤمنين الصادقين المجاهدين بأموالهم وأنفسهم، من أن الْخَيْرَاتِ ستكون متحققَةً لهم، وأنهم سيكونون هم الْمُخْصُوصِينَ بالفلاح الأكبر.

وهذا الخير من الله عَمَّا سيكون لهم يَدُلُّ باللُّزوم العقلي على وعد الله لهم بذلك، لأن أحداً غير الله عز وجل لا يَمْلِكُ أن يُحَقِّقَ لهم الخيرات في الدنيا والآخرة، والظَّفَرُ الأكبر بما يُحبون ويريدون ويشتهون في جنات النعيم يوم الدين.

وذكر الله عز وجل المكان الذي يُحَقِّقُ لهم فيه الحظَّ الأكبر من هذا الوعد الكريم بالخيرات والفلاح الأعظم الذي يخصُّهم به، فقال تعالى:

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٨٩).

أَعَدَّ: يقال لغة: أَعَدَّ الشيء إذا هيَّأه وجَهَّزه.

الْفَوْزُ: الظَّفَرُ - النجاة من الشر - الرِّيح. وكلُّ هذه المعاني صالحة هنا. وقد سبق تدبر مثل هذه الآية عدَّة مرَّات.

• قول الله تعالى:

﴿وَجَلَّةَ الْمَعَذِرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٩٠).

سبق أن عرفنا أن الْمُعْذِرِينَ هم الذين يَخْتَلِقُونَ الأعذار كاذبين، وأن الْمُعْذِرِينَ هم الذين يَغْتَبِرُونَ صَادِقِينَ.

وقد كان في الذين قَدَّمُوا اعْتِدَارَهُمْ عن الخروج مع الرسول في غزوة تبوك مُعْذِرُونَ كاذبون، وكان هؤلاء من المنافقين وكان فيهم مُعْذِرُونَ صادقون في أعذارهم، وكان هؤلاء من المؤمنين الصادقين، فجاءت القراءتان للدلالة على وجود هذين الفريقين من الأعراب.

أعراب: اسم جنس جمعي، من الذي يفرق بينه وبين واحده بالياء فيقال في مفردة أعرابي، والأعراب سكان البادية.

في هذه الآية يبين الله عز وجل أمثلة من التجارب السابقة التي اُنتج بها الأعراب، حين أبروا بالخروج مع الرسول في غزوة تبوك، وهم سُكَّانُ البادية، فكانوا أربعة أقسام:

القِسْمُ الأول: مُعْذِرُونَ، أي: مُعْذِرُونَ كاذبون، وفق قراءة التشديد.

القِسْمُ الثاني: مُعْذِرُونَ، أي: مُعْذِرُونَ صادقون، وفق قراءة التخفيف.

القِسْمُ الثالث: قَاعِدُونَ مُتَخَلِّفُونَ دُونَ أَنْ يَغْتَبِرُوا، وهم منافقون كَذَّبُوا الله ورسوله، في ادعاء أنهم مؤمنون مسلمون.

وسكت النص عن قسم رابع محتمل الوجود، وهم قَاعِدُونَ مُتَخَلِّفُونَ من الأعراب تهاوناً وكسلاً مع أنهم مؤمنون صادقون غير منافقين، وأرى أن سكوت النص عن هذا القسم قد كان لإمكان استخراجه بالتأمل، وبالقياص على الثلاثة الذين خُلِّفُوا من أهل المدينة.

هذه التجربة السابقة للأعراب من أهل البادية يُستفاد منها لذى التخطيط مستقبلاً للقيام بغزوات.

وأخبر الله عز وجل أن المنافقين الكافرين باطناً من الْمُعْذِرِينَ والقاعدين سَيُصِيبُهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، وهذا الخبر من الله يَدُلُّ بِاللَّزُومِ العقلي على وَجْهِ اللَّهِ لَهُمْ بذلك، وهذا العذاب الأليم يُعَذِّبُونَ به في دار العذاب يوم الدين، وربما قُبِلَ ذَلِكَ

أيضاً، كأنواع عذاب في الموقف، وفي البرزخ، وفي الدنيا، فقال تعالى :

﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٣٠ ﴾ .

* قول الله عز وجل :

﴿ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٣١ ﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَيْنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ١٣٢ ﴾ . إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٣٣ ﴾ .

موضوع هذه الايات

يُبين الله عز وجل في هذه الايات بالوصف العام أهل الاعذار الذين لا حرج عليهم في ترك الخروج إلى القتال في سبيل الله، ويبين أيضاً الذين لا عُذْر لهم فهم عصاة في تخلفهم عن الخروج إذا أُمرُوا به أمر إلزام وإيجاب، لا مجرد أمر ترغيب وندب .

إن الحديث عن المنافقين الذين يعتذرون كاذبين عن الخروج إلى القتال قبل انطلاق الجيش، أو يتخلفون دون اعتذار، ثم يعتذرون بعد عودة الجيش، والحديث أيضاً عن المؤمنين المجاهدين وعن المؤمنين الذين يتخلفون بأعذار حقيقية، استدعى الإتيان بآيات يصف الله فيها أهل الاعذار الحقيقية، ويُشير فيها إلى صفات الذين ليس لهم اعذار حقيقية .

التدبر

• قول الله تعالى :

﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١١) .
﴿الضَّعَفَاءُ﴾ :

هم الذين لا قدرة لهم على القتال، ومعاناة الأسفار والأعمال الشاقة، ومقاومة الأحداث الجسام التي يقاومها الرجال الأصحاء عادةً. مثل: النساء، والولدان، والعجزة من الرجال كالعمي والعرج وأصحاب العاهات الدائمة، والأمراض المعقدة المزمنة.

﴿الْمَرْضَى﴾ :

هم أصحاب الأمراض العارضة الطارئة.

﴿حَرَجٌ﴾ :

الْحَرَجُ في اللغة: الإثْمُ والضيقُ، وقال الزجاج: هو أَضيقُ الضيق، وأصل الحرج في اللغة الموضوع الكثير الشجر الذي لا تُقبلُ إليه الراعية لضيق مداخله.

﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ :

أي: خلصت قلوبهم من النفاق، وعوارض أمراض المعصية باعتماد أعذار لا تكفي للتخلف عن واجب الجهاد في سبيل الله، وخلصت قلوبهم لله ورسوله من شوائب الهوى والشك والارتياب.

يقال لغة: نَصَحَ الرجلُ، أو نَصَحَ قلبه إذا خَلَصَ عمله من الغش، ويقال: نَصَحَ فلانٌ فلاناً، ونَصَحَ له، إذا وَجَّهَ له مشورة أو رأياً، أو قَدَّمَ له شيئاً ما أو عملاً ما خالصاً من الغش.

فالنصح في الإيمان خلوصه من الشرك، والنصح في العمل الديني خلوصه من

الشرك والرياء، والنُصْحُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ خُلُوصُ الْإِيمَانِ وَالنِّيَّةِ وَالْعَمَلِ مِنَ الشَّوَابِ الَّتِي تُتَافَى مَرْضَاةُ اللَّهِ تَعَالَى، وَطَاعَةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فِي أَوَامِرِهِمَا وَنَوَاهِيهِمَا، وَإِخْلَاصُ الْوَلَاءِ لِلرَّسُولِ، وَمَوَالَاةُ مَنْ وَالَاهُ وَمَعَادَاةُ مَنْ عَادَاهُ، وَاجْتِنَابُ كُلِّ أَمْرٍ فِيهِ مَعَاوَنَةٌ أَوْ مَنَاصَرَةٌ لِأَهْلِ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ وَالنِّفَاقِ.

فالمعنى: لَا إِيَّاهُمْ وَلَا تُضَيِّقُ عَلَى الَّذِينَ يَتَخَلَّفُونَ عَنِ الْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْمَأْمُورِ بِهِ أَمْرٌ لِإِلْزَامِ، إِذَا كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْأَعْذَارِ الْحَقِيقَةِ، وَهُمْ:

(١) الضعفاء أصحاب العُجْزِ عَنِ الْقِتَالِ عَجْزاً مُسْتَدِيماً، كَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ وَالْعُمَى وَالْعُرْجَ وَذَوِي الْعَاهَاتِ وَالْأَمْرَاضِ الْمَزْمَنَةِ.

(٢) أصحاب الأَعْرَاضِ الطَّارِئَةِ الْمَانِعَةِ مِنَ الْخُرُوجِ لِلْقِتَالِ، كَالَّذِينَ يَغْرُضُ لَهُمْ مَرَضٌ طَارِئٌ غَيْرُ مَزْمَنٍ.

(٣) الَّذِينَ لَيْسَتْ لَهُمْ أَمْوَالٌ يُنْفِقُونَهَا فِيمَا يَخْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ التَّجْهِيزِ لِلْخُرُوجِ لِلْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا يَجِدُونَ مِنْ يَتَذَلُّ لَهُمْ ذَلِكَ، مِنْ الْإِنْفَادِ، أَوْ مِنْ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ.

وقد سبق في مناسبة الحديث عن المخلفين عن الخروج مع الرسول إلى العمرة، حين صَدَّه الْمُشْرِكُونَ، وَتَمَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمُ الصُّلْحُ الْمَعْرُوفُ بِصُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ أَنْ أَنْزَلَ اللَّهُ قَوْلَهُ فِي سُورَةِ (الْفَتْحِ / ٤٨ / مِصْحَفٍ / ١١١ نَزُولٍ):

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ... ﴿١٧﴾﴾

ففي هذه الآية ضرب الله مثلاً للضعفاء بالأعمى والأعرج، وفي آية (التوبة) ذكر الله لفظ الضَّعْفَاءِ الْعَامَّ لِيُبَيِّنَ لَنَا أَنَّهُ ذَكَرَ فِي آيَةِ سُورَةِ (الْفَتْحِ) الْأَعْمَى وَالْأَعْرَجَ لِنَقِيسَ عَلَيْهِمَا مَنْ كَانَ مِثْلَهُمَا مِنْ أَصْحَابِ الْعُجْزِ الْمُسْتَدِيمِ، وَلِنَفْهَمُ أَسْلُوبَ الْقُرْآنِ فِي الْبَيَانِ الَّذِي يَعْتَمِدُ عَلَى قَاعِدَةِ قِيَاسِ الْأَشْيَاءِ وَالنَّظَائِرِ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ.

وَيُشْتَرَطُ لِرَفْعِ الْحَرْجِ عَنْ أَهْلِ الْأَعْذَارِ أَنْ يُنْصَحُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فِي إِيْمَانِهِمْ وَإِسْلَامِهِمْ وَنِيَّاتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ.

هذه هي حدود مرتبة التقوى، أَمَّا مَنْ أَرَادَ مِنْ هَؤُلَاءِ أَصْحَابِ الْأَعْذَارِ أَنْ يَتَحَمَّلَ

المشاق، وَيُخْرِجُ مجاهداً في سبيل الله، مع أَنَّ الله قد عَذَرَهُ فَرَفَعَ عَنْهُ الحرج، فإنه يَكُونُ حيثُ من المحسنين، الذين يُريدون أن يقوموا بأعمال تُقَرِّبُهُمْ إلى اللَّهِ هي من مرتبة الإحسان، أعلى مراتب المؤمنين.

لَكِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لَا يُكَلِّفُ عباده المؤمنين العاديين تكليفاً إلزامياً أن يقوموا بأعمالٍ هي من مرتبة الإحسان، غير أَنَّهُمْ إذا قاموا بها أثابهم عليها ثواب المحسنين، وإذا لم يقوموا بها لم يؤاخذهم على تركها، لأنَّ فَعْلَهَا هو من مرتبة الإحسان، والمحسنون لَيْسَ عَلَيْهِمْ سَبِيلٌ يقتضي مؤاخذتهم إذا تركوا العمل الذي هو من مرتبة الإحسان، وإشارةً إلى هذه القضية قَالَ الله تعالى:

﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾:

أي: لَا يُوجَدُ عَلَى الَّذِينَ يُمْكِنُ أَنْ يَقُومُوا بأعمالٍ هي من مرتبة الإحسان سَبِيلٌ ما يُسَلِّكُ للوصول إلى مؤاخذتهم، إذا لم يقوموا بهذه الأعمال، لأنهم غير مأمورين بها أَمْرٌ إلزامٍ وإيجاب، بل قد يُدْعَوْنَ للقيام بها على سبيل النذب والترغيب، فإذا فَعَلُوهَا كانوا مُحْسِنِينَ بها، لأنها أعمال هي من مُرْتَبَةِ الإحسان.

وقد تَكَرَّرَ في القرآن مِثْلُ هذا الاستعمال وفق هذا المعنى:

(١) فقال الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الشورى / ٤٢ مصحف / ٦٢ نزول):

﴿ وَلَمَنْ ائْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢﴾ ﴾:

أي: لَا يُوجَدُ سَبِيلٌ يَسْتَعْلِي على مَنْ ائْتَصَرَ لِنَفْسِهِ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ، وهذا السبيلُ يُوَصِّلُ إلى مؤاخذته، إِنَّمَا السبِيلُ الذي يستعلي للوصول إلى المؤاخذة، إِنَّمَا يكون في هذا الموضوع على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق.

(٢) وقال الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول) بشأن قوامه

الرجال على النساء خطاباً للرجال:

﴿ فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٦﴾ ﴾:

أي: فَلَا تَطْلُبُوا بَعْدَ طَاعَتِهِمْ لَكُمْ سَبِيلًا مُسْتَعْلِيًا عَلَيْهِمْ يَكُونُ لَكُمْ بِهِ عَلَيْهِمْ تَسَلُّطٌ بِغَيْرِ حَقٍّ، لِأَنَّ هَذَا ظَلَمٌ، وَاسْتِعْمَالُ لِسُلْطَةِ الْقَوَامَةِ فِي غَيْرِ مَا أذنَ اللهُ بِهِ، فَلَا يَجُوزُ هَجْرُهُمْ عِنْدُنَا وَلَا ضَرْبُهُمْ.

(٣) وقال الله تعالى في سورة (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول) أيضاً بشأن فريق من المنافقين، كرهوا أن يقاتلوا المؤمنين، وكرهوا أن يقاتلوا قومهم مع المؤمنين، وأرادوا اعتزال الفريقين:

﴿وَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْكُمْ فَلَمْ يَقْبَلُوا إِلَيْكُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ۖ﴾

أي: فما جعل الله لكم سبيلاً مستعلياً عليهم يجوز لكم أن تسلكوه لأخذهم وقتلهم، وقد سبق تدبر هذه الآية في النص (١٦) من هذه الدراسة عن المنافقين.

استعمل «السبيل» في هذه النصوص بمعنى ما يوصل إلى المؤاخضة، أو التسلط، أو العقوبة والانتقام، واستعمل حرف «على» للدلالة على معنى الاستعلاء الذي يتصف به عادة المؤاخذه أو التسلط أو المعاقبة المتتمة، إذ ينفذ ما يقضي به وهو عالٍ على من ينفذه فيه.

وهذا من التوسع في استعمال لفظ «السبيل» بنقله من الماديات إلى المعنويات.

ويعد أن إبان الله أنه ما على المحسنين من سبيل قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝﴾

في هذا إشارة إلى أن أصحاب الأعداء من الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما يُنْفِقُونَ، قد لا تبلغ أعدائهم في حقيقة الأمر قدراً يكفي لإعفائهم من التكليف ورفع الحرج عنهم، وهو أمر يُرْجَع إلى تقدير حالتهم بأنفسهم، إنهم بحسب الظاهر لديهم أعداء ترفع عنهم الحرج، لكنهم لو تحمّلوا بعض المشقة لكانوا مثل أهل الاستطاعة، وهؤلاء يحتاجون ديانةً للاستغفار وطلب الرحمة من الله، والله غفور رحيم لهم ولغيرهم من أهل الإساءة.

• قول الله تعالى:

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَتُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ (٣٤):

أي: وليس على هؤلاء وامثالهم حرج إذا تخلّفوا عن الخروج، لأنهم حريصون عليه، طالبون له، يسألون تزويدهم بما يحتاج إليه المسافر الخارج للقتال في سبيل الله.

وقد نزلت هذه الآية بمناسبة الفقراء الذين لم يجدوا ما يحتاجون إليه ليخرجوا مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك، فجاءوا إلى الرسول وعرضوا عليه حاجتهم، وطلبوا منه أن يزودهم بما يحملهم في هذه الغزوة، وكان ما عند الرسول قد تمّ توزيعه على ذوي الحاجات الخارجين معه، فلم يجد الرسول ما يحملهم عليه، فقال لهم: لا أجِدُ ما أحملكم عليه، فرجعوا وهم يتكفون حزنًا لأنهم لم يجدوا عندهم، ولم يجدوا عند الرسول ما يُنفقونه لشراء ما يحملهم، وعُرف هؤلاء عند مُدوّني أحداث غزوة تبوك بالبُكّائين.

وقد وردت في قصة هؤلاء عدّة روايات جاء في بعضها ذكر أسمائهم.

أخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن الزهري، ويزيد بن رومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم، أن رجلاً من المسلمين، أتوا رسول الله ﷺ وهم البُكّاءون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، وكانوا أهل حاجة، فاستَحْمَلُوا رسول الله ﷺ، فلم يجد عنده ما يحملهم عليه، فانصرفوا من عنده يكون. وهم:

- (١) سَالِمُ بْنُ عُمَيْرٍ (من بني عُمر بن عوف).
- (٢) جُرْمِي بْنُ غَمْرٍو (من بني واقف).
- (٣) أَبُو لَيْلَى عَبْد الرَّحْمَنِ بْنُ كَعْبٍ (من بني مازن بن النجّار).
- (٤) سَلْمَانُ بْنُ صَخْرٍ (من بني المعلّى).
- (٥) أَبُو عُبَلَةَ عَبْد الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ (من بني حارثة).
- (٦) غَمْرُ بْنُ غَنَمَةَ (من بني سَلِمة).
- (٧) عَبْدَ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو المَزْنِي.

وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب نحو ذلك.
وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن الحسن قال: كان «مُعْقِلُ بْنُ نَسَارٍ» من البكائين.

﴿إِذَا مَا﴾:

حرف «ما» زائد للتأكيد.

﴿أَتَوَلَّكَ﴾:

أي: يا محمد، ويُقاس عليه خلفاؤه من بعده.

﴿مَا أَجْمَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾:

أي: ما تحتاجون إليه لتخرجوا مع المقاتلين، فالزاد والماء والمركب والسلاح والمال الذي يشتري به ذلك هي الوسائل التي تحبل الخارج للقتال حملاً ظاهراً كحمل الدابة لراكبها، أو حملاً معنوياً لأنها هي التي تنهض بجسمه، وتمد قوته، فترفعه عن الإخلاء إلى الأرض.

﴿تَوَلَّوْا﴾:

أي: أدبروا وانصرفوا.

﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾:

أي: والحال أنهم باكون، يقال لغة: فاض الماء، أي: كثر في مكان وجوده حتى سال وخرج عنه إلى غيره، فالمعنى: انصرفوا حالة كون أعينهم قد امتلأت دمعاً فجعلت تفيض من الدمع الذي فيها، وسيل الدمع من أعينهم على وجوههم.

﴿حَزَنًا﴾:

أي: لاجل الحزن الذي في قلوبهم ونفوسهم، الحزن والحزن ما يصيب النفس من مشاعر ألم على ما فات، وألم من مصيبة نازلة.

﴿أَلَا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾:

أي: وكان حزنهم بسبب أن لا يجدوا ما ينفقون. «أن» ناصبة مصدرية،

والتقدير: بسبب أو لأجل عدم وجدانهم لما يُنفقون.

وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنَّ أصحاب الأعداء الحقيقية لهم مثل أجر الخارجين.

روى أبو داود والإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه الخارجين معه:

«لَقَدْ تَرَكْتُمْ بَعْدَكُمْ قَوْمًا مَا بَرْتُمْ مِنْ مَسِيرٍ، وَلَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ، وَلَا قَطَعْتُمْ وادِيًا إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ فِيهِ».

قالوا: يا رسول الله: وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟

قال: «حِسْبَهُمُ الْعُذْرُ».

وعند البخاري ومسلم نحو هذا الحديث، وكذلك عند أحمد ومسلم من حديث جابر.



* قول الله تعالى:

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

بعد أن أبان الله عز وجل أنه لا حرج على الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما يُنفقون، وأنه ما على المحسنين من سبيل، أبان بالتعبير الحاصر أنَّ سبيل المؤاخذه الشرعية يستعلي على الذين يستأذنون وهم أغنياء قادرُونَ على أن يخرجوا للجهاد في سبيل الله مقاتلين، حينما يؤمرون بالخروج أمر إلزامي وإيجاب.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾:

أي: ما السبيل الذي سبق ذكره وهو سبيل المؤاخذه على المخالفة ومعصية الأمر الإلزامي، إلا على الذين يستأذنونك يا محمد وهم أغنياء، غير ذوي حاجة أو ضرورة يُعذرون بسببها عن الخروج.

ويُقاس على الرسول خلفاؤه من بعده.

﴿وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾:

أي: والحال هم أصحاب كفاية تكفيهم للخروج مقاتلين، بأجسادهم ونفوسهم وأموالهم. الغني: هو الذي يستغني بما يملك لإقضاء مطلوبه أو المطلوب منه عما لا يملك، فيشمل الاستغناء بالقوى الجسدية والنفسية، والخلوص من الأعذار المقيدة، ويشمل الاستغناء بما لديه من مال، وسائر ما يحمله للخروج مقاتلاً في سبيل الله.

﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾:

هذه الجملة قيد آخر للجملة الحالية: ﴿وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾:

أي: اجتمع فيهم وصفان:

الأول: الغنى كما سبق بيانه.

الثاني: رضاهم بأن يكونوا مع الخوالف، أي: مع القواعد من النساء في المنازل بعد خروج الرجال للقتال.

فجُملة: ﴿رَضُوا...﴾ على هذا خبر بعد خبر، أحوال من الضمير في ﴿أغنياء﴾ العائد على ﴿هُمْ﴾ صدر الجملة الحالية الأولى.

وفائدة هذا القيد استثناء من كان غنياً لكنه أمر بالتخلف من قبل الرسول، أو من قبل خلفائه من بعده، كحال علي بن أبي طالب إذ أمره الرسول ﷺ أن يتخلف، وقال له: اخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون بيني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي؟!

﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾:

في هذه الجملة بيان للوصف الذي تصف به قلوب وعقول الذين يستأذنون في أن لا يخرجوا إلى القتال، مع أنهم مأمورون به أمر إيجاب وإلزام، حالة كونهم أغنياء راضين بأن يكونوا مع القواعد من النساء الخوالف للرجال في المنازل.

هذا الوصف هو أَنَّهُمْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فهم بسبب إقفال قُلُوبِهِمْ والطَّبَع عليها لَا يَعْلَمُونَ مَا هُوَ الْخَيْرُ لَهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَأَخْرَاهُمْ، لَأَنَّهُمْ لَا يَتَفَكَّرُونَ فِي حَقَائِقِ الْأُمُور، بَلْ يَنْظُرُونَ إِلَى سَطُوحِهَا الظَّاهِرَةِ الْقَرِيبَةِ مِنْهُمْ، وَهِيَ الْأُمُور الْقَرِيبَةُ جَدًّا مِنْ أُمُور الدُّنْيَا.

وقد سبق قريباً تحليل تعبير الطَّبَع على القلوب، لدى تَدْبِير الآية (٨٧) من هذا النص، وهذا الوصف ينطبق على المنافقين، ولعصاة المؤمنين منه نصيب على مقادير معاصيهم وإعراضهم عن تَدْبِير آيات الله.

* قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ وَسَبَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ سَيَخْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِعَرْضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآ وَهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٨﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُبْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُومِ الدُّوَابِّ عَلَيْهِمْ ذَايِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾.

* قرا جمهور القراء العشرة: [عَلَيْهِمْ ذَايِرَةُ السَّوْءِ] بفتح السين.

وقرا ابن كثير المكي وأبو عمرو البصري: [عَلَيْهِمْ ذَايِرَةُ السَّوْءِ] بضم السين.

والقراءتان وجهان لنطق الكلمة في العربية، يقال لغة: سَاءَ فُلَانٌ فُلَانًا يَسُوءُهُ سُوءًا وَسُوءًا وَمَسَاءَةً، إذا فعل به ما يَكْرَهُ من ضَرٍّ أَوْ أذى، أَوْ السَّوْءُ بفتح السين المصدر، وَبُضْمُهَا اسْمٌ لما هو مَكْرُوه.

فالمعنى: أَنَّ الدَّائِرَةَ الَّتِي نَدُورُ فَتَصِيبُ بِمَا هُوَ مَكْرُوهٌ سَتَدُورُ عَلَيْهِمْ، إِنَّهُمْ

يَتَرَبَّصُونَ أَنْ تَلْجُزَ دَوَائِرُ تَقَلُّبَاتِ الْأَيَّامِ وَأَحْدَاثِ الدَّهْرِ بِمَا يَكْرَهُ الْمُؤْمِنُونَ، لَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيَجْعَلُ دَائِرَةً مَا يَكْرَهُونَ مِنْ سُوءٍ تَدُورُ عَلَيْهِمْ هُمْ، فَتَنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ مَا يَسُوءُهُمْ مِنْ مَكْرُوهٍ، عَلَى خِلَافِ الْأَمْرِ الَّذِي كَانُوا يَتَرَبَّصُونَهُ بِالْمُؤْمِنِينَ.

موضوع هذه الآيات

يتابع الله عز وجل في هذه الآيات بيان أحوال المنافقين من الأعراب سُكَّانِ البادية، الذين جاء في الآية (٩٠) السابقة بيان قسمين منهم:

القسم الأول: هُمُ الْمُعْذِرُونَ الذين جاءوا الرسول قبل الخروج لغزوة تبوك يُلْفِقُونَ أَعْذَاراً كاذبة ليأذن لهم بعدم الخروج معه.

القسم الثاني: هُمُ الَّذِينَ قَعَدُوا مُتَخَلِّفِينَ دُونَ أَنْ يَعْتَذِرُوا، وهم منافقون كَذَّبُوا الله وَرَسُولَهُ في ادِّعَائِهِمْ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ مُسْلِمُونَ.

ولمَّا كَانَ مِنَ الْأَعْرَابِ مُؤْمِنُونَ مُعْتَذِرُونَ صَادِقُونَ فِي أَعْذَارِهِمْ كَمَا جَاءَ فِي قِرَاءَةِ: [وَجَاءَ الْمُعْذِرُونَ] بِأَسْكَانِ الْعَيْنِ وَتَخْفِيفِ الذَّالِ أَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَاتِ مِنْ (٩١ - ٩٣) أَمْثَلَةً مِنَ الْأَعْذَارِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي يُعْذَرُ بِهَا الْمُتَخَلِّفُونَ عَنِ الْخُرُوجِ لِلْقِتَالِ، وَأَنَّ هَؤُلَاءِ لَا سَبِيلَ لِمُؤَاخَذَتِهِمْ، إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ عَذْرٌ حَقِيقِي، وَرِضَا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْقَوَاعِدِ مِنَ النِّسَاءِ الْخَوَالَفِ لِلرِّجَالِ فِي الْمَنَازِلِ.

• وفي متابعة الحديث عن الأعراب أبانت هذه الآيات من (٩٤ - ٩٨) أَنَّ الْأَعْرَابِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ قَعَدُوا مُتَخَلِّفِينَ دُونَ أَنْ يَعْتَذِرُوا قَبْلَ خُرُوجِ الرَّسُولِ فِي غَزْوَةِ تَبُوكِ سَيَأْتُونَ مُعْتَذِرِينَ بِأَعْذَارٍ كَاذِبَاتٍ إِذَا رَجَعَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَهُ إِلَيْهِمْ، وَاقْتَرَنَ هَذَا الْبَيَانُ بِتَعْلِيمِ اللَّهِ لِرَسُولِهِ فَكُلَّ مُؤْمِنٍ مَا يَقُولُهُ لَهُمْ تَعْقِيباً عَلَى اعْتِذَارِهِمْ، وَيَتَضَمَّنُ هَذَا التَّعْلِيمُ رَفْضَ قَبُولِ اعْتِذَارِهِمْ، لِأَنَّ اللَّهَ أَنْبَاهُمْ بِحَقِيقَةِ أَمْرِهِمْ فِيمَا أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ، وَيَتَضَمَّنُ أَيْضاً تَوْجِيهَ النَّصْحِ لَهُمْ بِإِصْلَاحِ حَالِهِمْ مُسْتَقْبَلاً، وَمَوْعِظَتِهِمْ بِأَنَّ اللَّهَ سَيَرَى مَا يَكُونُ مِنْهُمْ، وَسَيَحَاسِبُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ.

• وَأَبَانَ أَيْضاً لِلْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ سَيُحْلِقُونَ بِاللَّهِ لَهُمْ إِذَا انْقَلَبُوا رَاجِعِينَ مِنَ الْغَزْوَةِ

إليهم، ليُصَدِّقُوهم فيما يُقَدِّمونه من أَعذار كاذبات، فيُعْرِضُوا عن مؤاخَذتهم وتلويهم وتعنيفهم على تخلفهم، واقرن هذا البيان بتعليم الرسول والمؤمنين أمرين:

الأمر الأول: أن يُعْرِضُوا عنهم إِعراض الساخطين عليهم، لا إِعراض الراضين عنهم، لأنهم بسبب كفرهم ونفاقهم رجسٌ، ولأنَّ ماؤاهم إذا ماتوا على ما هم عليه جهنم جزاءً بسبب ما كانوا يكسبون.

الأمر الثاني: أن لا يَرْضُوا بقلوبهم عنهم، لأنَّ الله غير راضٍ عنهم، إذ هم فاسقون من مستوى فسق الكفر، والله لا يرضى عن القوم الفاسقين.

• وأبانت أيضاً أن الأعراب المنافقين أشدَّ كُفْراً ونفاقاً من منافقي أهل الحضر، بسبب ظروف عيشهم في البادية، ويُعْذِرهم عن أماكن بثِّ العِلْمِ الدِّينِيِّ، والتعريف بِحُدُودِ ما أنزل الله على رسوله من آيات وبيانات وأحكام.

وفي هذا توجيهٌ ضمنيٌّ لتحضير أهل البادية، لينالوا من العِلْمِ الذي يُبَثُّ عادةً في مساجد المَدَنِ والقُرَى، وليكتسبوا الفضائل الحضارية التي تُكْتَسَبُ عن طريق شبكة العلاقات الاجتماعية، التي تُراعَى فيها الحقوق والواجبات، وتنمو فيها بالتوجيه الديني فضائل الآداب والأخلاق الاجتماعية الراقية، وتُخْضَدُ فيها أشواكُ من الأنانيات الفردية، وتَقْلَمُ فيها أظافر الوحشة والجفاء، والحذر من كلِّ وافدٍ وطارئ.

• وأبانت أيضاً صفات أخرى لهؤلاء الأعراب المنافقين، غير تخلفهم عن مشاركة المؤمنين في الغزوات، وغير تعلُّلهم بالأعذار الكاذبة، وحلف الأيمان الكاذبة: (١) فمنهم من يرى أنَّ ما يُكَلَّفُ دَفْعُهُ زكاةَ ماله، أو غير ذلك من الواجبات المالية، هو مُغْرَمٌ يَغْرُمُهُ بغير حقٍّ، فلو كانت له قُوَّةٌ تحميه لامتنع عن بذلِ ما يُضْطَرُّ لبذله، وهذا من أثر كفره باطناً، وعدم إيمانه بهذا الدين الذي أعلن انتماءه إليه نفاقاً، مع شعور الأعرابي باستقلاله في باديته، وعدم إدراكه لمفهوم الواجبات الاجتماعية التي يدرکہا أهل الحضر، ولو لم يكونوا يشعرون بواجبات دينية.

(٢) ومنهم من يترصَّصُ بالرُّسُولِ والمؤمنين أن تدور عليهم دوائر الدهر، فتُنْزِلَ بهم ما يكرهون من موتٍ أو هزيمة أو غير ذلك من مصائب، فيقبلوا عليهم، ويتخلَّصوا ممَّا هم فيه من وفاقٍ الجاهم إليه النفاق.

واقترن هذا البيان ببيان ما دبر الله لهم بقضائه وقدره، فقد قضى أن تدور عليهم دائرة السوء، فما يترصونه بالرؤسول والمؤمنين سينزل بهم، والله غالب على أمره، وهو سميع لما يقولون في خلواتهم، عليهم بما يضمرونه في قلوبهم.

التدبر

* قول الله تعالى:

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالِيْنَ وَالشَّهَادَةُ فِيَتُّكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾

الكلام في هذه الآية يتعلق بقسم الأعراب الذين فعدوا متخلفين دون أن يعتذروا، وهم منافقون كذبوا الله ورسوله.

فالضمير في ﴿يَعْتَذِرُونَ﴾ يعود على الفاعل في ﴿وَفَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الآية (٩٠) أما الآيات من (٩١ - ٩٣) فاستطراد لبيان من يعتذر ومن لا يعتذر، وحسنه غرض تميم الفائدة، وهو يشبه الاعتراض.

أي: إن الذين فعدوا متخلفين عن غزوة تبوك دون أن يعتذروا قبلها وهم لا عذر لهم سيأتون متابعين ويعتذرون إليكم، إذا رجعتم إليهم من الغزوة.

الخطاب للرسول وللمؤمنين الذين خرجوا معه في هذه الغزوة، ودلت كلمة ﴿إِذَا﴾ التي هي ظرف لما يستقبل من الزمن، على أن هذه الآية قد نزلت قبل الرجوع من الغزوة، ويظهر أنها نزلت على الرسول وهو قافل بالمؤمنين منها.

وأمر الله الرسول وكل مؤمن يستقبل منهم اعتذارهم أمراً إفرادياً بلفظ ﴿قُلْ﴾ وجاء في التعليم بعده خمس مقولات:

المقولة الأولى:

﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾

والغرض من النهي عن الاعتذار إسكاتهم منذ بدء محاولة المعتذر منهم تَلْفِيقِ الأعذار الكاذبة، وعَدَمُ تمكينهم من تزوير الكلام وتزويقه وزخرفته، لئلا تُؤَثَّرَ أقوالهم على بعض المؤمنين إذا أَصْغَوْا إليهم، واستمعوا لهم حتى آخِرَ كلامهم، فمن أهل النفاق من يُعْجِبُ قوله في الحياة الدُّنْيَا، وَيُشْهَدُ اللَّهُ على ما يَزْعُمُ أَنَّهُ بَصْرُهُ في قلبه، وهو الَّذِي الْخَصَامُ.

المقولة الثانية:

﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾:

أي: لَنْ تُصَلِّقَ أقوالكم في تقديم أعذاركم، وَلَنْ نَطْمِئِنَّ لكم، وَلَنْ يَحْصَلَ لدينا أَمْنٌ نَأْمَنُ به كَذِبكم.

يقال لغة: آمَنَ بالشيء، إذا صدَّقه واطمأنَّ قلبه له، ويقال: آمَنَ لَهُ، إذا صدَّق قوله، واطمأنَّ له واستسلمَ لَهُ، آمِنًا كَذِبُهُ وَعَذْرُهُ وخيافته.

واستعمال حرف النفي ﴿لَنْ﴾ يدلُّ على تأكيد عدم تصديقهم وعدم الاطمئنان لهم، فحرف «لن» في النفي أكد من «ما» و«لا».

المقولة الثالثة:

﴿قَدْ بَيَّنَّا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾.

الإنباء: الإخبار والإعلام، يُقال: نَبَأَهُ الْخَبْرَ وَبَيَّنَّاهُ بِالْخَبَرِ وكذلك أنبأه، أي: أعلمه به. ويستعملُ النبا كثيراً في الخبر ذي الأهمية، لأنَّ أصلَ الكلمة تدور حول الارتفاع والظهور.

والمعنى: قد أعلمنا الله من أخباركم أنكم كاذبون لا عُذْرَ لكم، كذبتم الله ورسوله، فكيف نصدِّقكم بعد أن أنزل الله بشأنكم ما أنزل؟! وكيف نطمئنُّ لكم بعد أن أعلمنا الله من أخباركم أنكم كاذبون لا عذر لكم في التخلُّف عن الخروج مع رسول الله في غزوة تبوك، وكاذبون في أصل ادِّعَائِكُمْ أنكم مسلمون مؤمنون حقاً.

المقولة الرابعة:

﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾:

أي: وأمامكم فرصة للتوبة في المستقبل، وللإستقامة والعمل الصالح، وصلّي
الإيمان والإسلام، وسيرى الله عملكم ما ظهر منه وما بطن، وسيرى رسوله في تجارب
المستقبل عملكم إن أظعنتم وإن عصيتم، فإن تبتم واستقمتم قبل الله توبتكم، وصفح
رسوله عنكم، وإن أضرتكم على ما أنتم عليه عرضتم أنفسكم للمواخلة والعقاب.

هذه المعاني تفهم بدلالة اللوازم الذهنية من عبارة: ﴿وسيرى الله عملكم
ورسوله﴾ لأنها تحدث عن عملهم في المستقبل، وما دام المستقبل داخلاً ضمن
مرحلة ابتلائهم فاستطاعتهم تدارك أمرهم بالاستغفار والتوبة وإصلاح العمل، ومعلوم
من قواعد الإسلام الكبرى أن الله يقبل توبة التائبين ما داموا ضمن مدة ابتلائهم في
الحياة الدنيا، فكانت هذه العبارة مثيرة باللوازم الذهنية إلى هذه المفهومات.

المقولة الخامسة:

﴿ثُمَّ تُرْجَعُونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.
﴿ثُمَّ﴾:

أي: بعد الموت، ومدة البرزخ، والبعث إلى الحياة الأخرى.
﴿تُرْجَعُونَ﴾:

أي: تُرجعون، الرد الإرجاع. ولما كان البعث إلى الحياة بعد الموت إعادة إلى
الحياة بعد سلبها بالموت، جاء التعبير عنه في القرآن بالرد والإرجاع وبالإعادة، ولما
كان هذا الإرجاع هو لملاقة الله في موقف الحساب وفضل القضاء، وإنفاذ ما يقضي
به الله من جزاء، دون أن يكون لأحد غير الله يومئذ تصرف بغير أمر الله أو إذنه، كان
من الدقة في الأداء في التعبير أن يقال: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ - ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ -
ثُمَّ إِنَّا تُرْجَعُونَ - ثُمَّ تُرْجَعُونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ونحو هذه العبارات.
﴿إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾:

أي: إلى الله الذي هو عالم الغيب والشهادة.

الغيب: ما غاب عن إدراك ذي إدراك ما، فهو بالنسبة إليه غيب، وقد يكون
بالنسبة إلى غيره أمراً مشهوداً.

الشهادة: يُطْلَقُ هذا اللفظ على ما يُدْرِكُ بالحواس.

فعالمُ الشهادة هو عالم الأَكْوَانِ الظاهرة التي تُدْرِكُ بالحواس، ويقابله عالمُ الغيب، وهو ما لا يُدْرِكُ بالحواس.

وكلُّ شيءٍ بالنسبة إلى الله عز وجل شيءٌ مشهود، لقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ - وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ - إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾.

فليس شيءٌ بالنسبة إلى الله هو من الغيب، والتعبير بأنه تبارك عالم الغيب والشهادة، هو على معنى: غالمُ كلِّ ما هو غيبٌ عن ذوي الإدراك من خلقه، لا ما هو غيب بالنسبة إليه، إذ لا شيءٌ هو غيب بالنسبة إلى الله عز وجل.

﴿فَيَنْتَظِرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

أي: فيُخَبِّرُكُمْ في موقف الحساب وفَضْلُ القضاء بكلِّ ما كنتم تعملون من أعمال ظاهرة وأعمال باطنة، ليحاسبكم عليها، وليَقْضِيَ بينكم في محكمة العدل عنده، وليجازيكم بما تستحقون من جزاء.

وفي إعلان هذه المقولة ترهيب وترغيب، لأنَّ الجزاء إما أن يكون بالفضل في جنات النعيم، وإما أن يكون بالعدل في دركات الجحيم.

* * *

* قول الله تعالى:

﴿سَيَخْلُقُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا أَنْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآ وَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٥﴾ يَخْلُقُونَ لَكُمْ لَتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٦﴾﴾.

ما زال الكلام متعلقاً بشأن المنافقين من الأعراب الذين تحدثت الآية السابقة (٩٤) عنهم.

والخطاب موجه للرسول وللمؤمنين، وفي هاتين الآيتين إخبارٌ عما سيكون من

هؤلاء المنافقين إذا انقلب المسلمون الغزاة من غزوة تبوك راجعين إلى مواطنهم، حيث يجدون فيها المنافقين المتخلفين بغير استئذان سابق.

﴿إِذَا انْقَلَبْتُمْ﴾ :

أي : إذا رجعتم، وعُدل عن ﴿إذا رجعتم﴾ إلى ﴿إذا انقلبتم﴾ لثلا يتكرر التعبير نفسه في الآيتين .

إنهم يحاولون تلفيق الأعذار أولاً، فإذا قُبِلُوا برفض أعذارهم الكاذبة التي تعللوا بها، فإنهم يلجؤون إلى توثيق ما يقولون بأن يحلفوا بالله أيماناً كاذبة، ليذروا بها عن أنفسهم المؤاخذه التي يستحقونها، اعتقاداً منهم بأن هذه الأيمان ستجعل الرسول والمؤمنين يعرضون عن متابعة محاسبتهم ومقاصاتهم على معصيتهم .

وفي بيان هذا الأمر الذي سيحدث منهم مستقبلاً قال الله تعالى خطاباً للرسول والمؤمنين معه :

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ﴾ .

وأتبع الله هذا البيان بتعليم الرسول والمؤمنين ما ينبغي أن يقابلوه به، فقال تعالى :

﴿فَاعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ :

الإعراض : هو إعطاء عارض الوجه، وهو وسط بين الإقبال والإدبار .

أي : فاعرضوا عن مؤاخذتهم ومعاقبتهم عقاباً مادياً، ولكن ليكن إعراضكم عنهم إعراضاً ساطعاً عليهم، قال، ومجانب لهم، كاره لا كاذبهم والاعيةهم .

بدليل قول الله تعالى بعد ذلك :

﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَا وَدَّ اللَّهُ جَزَاءَ إِيْمَانِكُمْ أَنْ يَكْسِبُوكَ﴾ :

أي : إنهم ذوو رجس بسبب كفرهم ونفاقهم، ولما كان رجس الكفر والنفاق مالىء قلوبهم ونفوسهم وكثير من ظواهر سلوكهم، كانوا جديرين بأن يُطلقَ عليهم أنهم رجس، وأصل الرجس في اللغة القدر والنجس، ثم حصل توسع في إطلاق اللفظ،

فَصَارَ يُطْلَقُ عَلَى الرذائل والفبائح المعنوية من الأفكار والعقائد والنيات والأعمال.

فالكفر رجس، والنفاق رجس، والميسر رجس، وكذلك الأنصاب والأزلام والخمر، وكلُّ خَلْقٍ وسلوك قبيح ذميم، وكلُّ فكرة ضارة، وكلُّ مادة وأداة مخصصة للاستعمال في الشر.

فبسبب أنهم رجس يستحقون أن تعرضوا عنهم إغراض الساخط القالي المجاني الكاره.

ولما وصلت ذواتهم إلى حالة من الخسة يستحقون عليها أن يُخْبَرَ عنهم بأنهم رجس، فمن العدل ضمن قواعد ابتلاء الله للناس في هذه الحياة الدنيا، أن يكون مأواهم في الآخرة، بعد الحساب وفصل القضاء جهنم دار عذاب الكافرين.

المأوى: المكان والمنزل الذي يُتْرَل فيه.

﴿جَزَاءُ يَمَاكَانُوا يَكْسِبُونَ﴾:

أي: يصيرون إلى جهنم التي تكون في الآخرة مأواهم بعد الحساب وفصل القضاء، حالة كون ذلك جزاء لهم بسبب ما كانوا يكسبون من عمل في الحياة الدنيا، وهو الكفر النفاق والإثم والفسوق والعصيان.

وبدليل قوله تعالى:

﴿يَخْلُقُونَ لَكُم لِرَضَا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ

الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾:

أي: إنهم سيخلقون بالله لكم لتعرضوا عن مؤاخذتهم، ولترضوا عنهم، وأعيذ في هذه الآية فعل ﴿يَخْلُقُونَ لَكُمْ﴾ لبعد الفاصل بين ﴿لَتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ وبين ﴿لَتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ فحلفهم بالله له غایتان.

الأولى: الإغراض عن مؤاخذتهم وعن البحث عن صدقهم أو كذبهم في تعللهم بأعذارهم.

الثانية: الرضا عنهم باعتقاد أنهم صادقون فيما ذكروه من أعذار في تخلفهم عن غزوة تبوك.

وجاء التوجيه الرباني للمؤمنين حول هذه الغاية الثانية للمنافقين متضمناً أن لا يَرْضُوا عنهم، لَأَنْهُمْ فَاسِقُونَ فسُق كُفْر ونفاق.

وقد دلَّ على هذا التوجيه الضمني عبارة:

﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

إِنَّ استعمال حرف الشرط ﴿إِنْ﴾ يَدُلُّ على استبعاد أن يرضى المؤمنون عنهم، لأنهم لا يفعلون شيئاً على خلاف ما يَرْضِي الله، وعلى أنه يَنْذُرُ في المؤمنين من يرضى عنهم، فهذا الحرف يستعمل غالباً في الأمر المستبعد حصوله، أو يندر حصوله.

وعبارة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ تدل على أنه لا يَرْضَى عنهم لأنهم فَاسِقُونَ، فأغنى بيان القضية الكلية الشاملة لقضيتهم ولاشباهاها عن ذكر قضيتهم الخاصة، وهذا من الإبداع في الإيجاز.

وبيان أن الله لا يرضى عنهم فيه إلماح للمؤمنين بأن لا يرضوا عن قوم لا يرضى الله عنهم.

* قول الله تعالى:

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

بعد الحديث عن المنافقين من الأعراب الذين تخلفوا عن الخروج مع الرسول والمسلمين في غزوة تبوك في الآيات (٩٠ - ٩٤ و ٩٥ و ٩٦) جاءت هذه الآية لتكشف طبيعة صف الأعراب وتأثير بيئة البادية عليهم، بالنسبة إلى طبيعة صف أهل الحضر، وتأثير بيئة القرى والمدن عليهم.

وقد أبانت هذه الآية أن صف الأعراب إذا كان أحدهم كافراً أو منافقاً كان أَشَدَّ كُفْرًا وَنِفَاقًا من كافراً أو منافقاً من أهل الحضر.

ونفهم من الملاحظة ومن التجربة أن سبب ذلك هو العيش المستمر في البادية

مع الأنعام، وطبيعة الترحل والتنقل وعدم الاستقرار، ومؤثرات الإقامة في الأرض الخلاء، التي ينعدم فيها الأمن النفسي الذي تُحدثه البيوت المحمية في المُدُن والقرى.

فالأعراب إذا كفروا كانوا أشد في الكفر من غيرهم، لما في طبائعهم المكتسبة من البيئة من نفور، وعدم استسلام، واعتياد على عدم الطاعة والانقياد والانصياع للنظام.

وهم إذا نافقوا كانوا أشد في النفاق من غيرهم، لما في طبائعهم المكتسبة من البيئة، ولما في أخلاقهم وعاداتهم من دُربة على المصانعة والمداهنة والمخادعة، التي ولدها فيهم الحذر الدائم من كل ما حولهم، ولا سيما الذين يخشون غزوهم لهم، فاعتادوا بذلك الكذب والتظاهر بخلاف ما يظنون، فهم إذا نافقوا في الدين كانوا أشد نفاقاً من أهل الحضرة.

فـ «ال» في «الأعراب» هي «ال» الجنسية كما يقول النحاة، وهي تدل على جنس ما دخلت عليه، ولا تدل على استغراق الأفراد، والحكم على الجنس لا يفيد الحكم على كل فرد من أفراد الجنس، وعلامة «ال» الجنسية أن كلمة «كل» لا يصح أن تكون بدلاً عنها.

وقد دلنا على أن «ال» هنا جنسية أن من هؤلاء الأعراب المتحدّث عنهم من يؤمن بالله واليوم الآخر، وهؤلاء ليسوا كافرين ولا منافقين أصلاً كما جاء في قراءة «المُعذِّرين» وكما جاء في الآية (٩٩) الآتية.

فالمعنى فيما يظهر أن البدواة تجعل كفار البداية أشد كفراً، ومنافقي البداية أشد نفاقاً، بسبب مؤثرات البيئة التي يعيشون فيها، ويتج عن هذا أن يكون كفار الأعراب أشد كفراً من غيرهم، وأن يكون منافقو الأعراب أشد نفاقاً من غيرهم.

ولما كان أهل الحواضر والمدن هم القسم المقابل للأعراب أهل البداية حسن الاستغناء في النص عن ذكرهم في اللفظ، فلم يأت فيه: الأعراب أشد كفراً ونفاقاً من أهل المدن والقرى، وهذا من الإيجاز البديع.

ونلمح من هذا البيان القرآني الحث الضمني على جعل الأعراب أهل مدني وقرى وحواضر، في مشاريع دولة المسلمين للمستقبل، لتخليص الأعراب من بيئة البادية الجافية، التي تكسبهم الطباع والأخلاق والعادات غير المستحبات التي سبق ذكر شيء منها.

قوله تعالى:

﴿وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾:

أي: وأكثر قابلية للجهل بأمور الدين، لبُعدهم عن مراكز التوجيه والتعليم، ومواطن بث أنوار المعرفة الربانية، فطبيعة ترحلهم وتغلبهم تبعاً لمواطن الماء والكلاء، تجعلهم بعيدين عن مجامع العلم والعلماء، وعن مساجد المدني والقرى التي يتخذها العلماء والفقهاء والوعاظ والدعاة مراكز للتعليم والتوجيه وبيان حدود الله للناس.

ويجد الأعراب لأنفسهم العذر في عدم ارتيادها لأن طبيعة حياتهم في البادية، لا تساعدهم على ذلك إلا قليلاً.

والجهل بحدود الله في شرائعه وأحكامه بيئة تثبت فيها وترعرع الانحرافات والضلالات والخرافات، والطباع السيئة، والأخلاق الأنانية المردولة، وأنواع السلوك الفاسد الضار.

فلو أن يعيش مؤهلة لمتابعتهم بالتعليم والتوجيه والنصح والإرشاد والتعريف بحدود الله، لاختلف حالهم، ولصاروا قابلين للتهديب والتشذيب والتثقيف الديني.

إن هذا البيان عن صفات الأعراب ليس ذمّاً لذواتهم في أشخاصهم باعتبارهم صنفاً من بني آدم، إنما هو ذم للبيئة التي تؤثر في الناشئين بها هذه الآثار الضارة، وتوجيه إسلامي لاستبدال بيئة خير منها بها، للمساعدة على إنشاء أجيال منهم تنهياً لهم بيشات أفضل تساعدهم على اكتساب العلم النافع، وفضائل الطباع والأخلاق والعادات، وأنواع السلوك الحضاري الراقي.

ألا يذل هذا على أن الإسلام دين حضاري مدني راقٍ؟!.

وجاء قول الله عز وجل في آخر الآية:

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

بإثبات صفتي العلم والحكمة لله عز وجل بمثابة الدليل على الفهم الذي فتح الله به . فعلم الله بتأثير البيئة البدوية على الأعراب، وحكمته في اختيار الأفضل لعباده، يقتضيان توجيه المسلمين والدولة الإسلامية إلى جعل الأعراب أهل مدُنٍ وقُرى مؤسّسة تأسيساً إسلامياً، بمساجدها، ومدارسها ومنشأتها الحضارية المختلفة النظيفة من الفسق والفجور والعصيان.

ولذلك نجد في توجيهات الرسول الترغيب بعدم سكنى البادية، أخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال:

«مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ جَفَا، وَمَنْ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ، وَمَنْ أَتَى السُّلْطَانَ افْتِنَ».

* * *

* قول الله تعالى:

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَرْمِي بِهِ الدَّوَابَّ عَلَيْهِمْ ذَايِرَةٌ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

أي: ومن ظواهر نفاق الأعراب المنافقين ظاهران ناتجتان عن كفرهم بالله واليوم الآخر باطناً.

الظاهرة الأولى: اعتبارهم الذي هو نتيجة كفرهم أنّ ما ينفقونه من نفقات واجبة يكفون - بمقتضى أحكام الإسلام - إنفاقها كالزكاة، مَغْرَمٌ يَفْرُمُونَهُ دون وجه حق، وأنه يُؤْخَذُ منهم إكراهاً بقوة السلطة، فلو كانت لهم خيرةٌ من أمرهم لما أنفقوا هذه النفقات، إذ هم لا يرجون ببذلها ثواباً عند الله ولا جزاءً حسناً، بل يدفعونها كرهاً. المَغْرَمُ: هو ما يُدْفَعُ مِنَ الْمَالِ قَهْرًا وظُلماً، كالإتاوة والجزية وكل ما يُدْفَعُ تَقِيَّةً وخَوْفاً من ذي قَهْرٍ بقوته.

الظاهرة الثانية: تَرْبُصُهُمُ بِالرُّسُولِ وبالمؤمنين الدوائر، للتخلص منهم، والتحرُّر

مِمَّا يُضْطَرُّونَ أَنْ يَصَانِعُوا الْمُؤْمِنِينَ وَيُذَاهِبُوهُمْ بِهِ، تَقِيَّةً وَنِفَاقاً، مِمَّا يَكْلَفُهُمْ بَذْلاً يَكْرَهُونَهُ، أَوْ أَعْمَالاً لَا يُحِبُّونَ أَنْ يَعْمَلُوهَا.

التَّرْبُيْصُ: الانتظار، يقال لغة: تَرَبَّصَ فُلَانٌ بِفُلَانٍ خَيْرًا أَوْ شَرًّا يَجُلُّ بِهِ، أَي: انتظر أن ينزل به أو يُحَلَّ بِهِ ذَلِكَ.

الدَّوَائِرُ: الدواهي والمصائب، جمع «دائرة» وهي في الأصل ما أحاط بالشيء مستديراً حوله، واستعمل العرب الدائرة بمعنى الداهية التي تأتي بالشرّ والسوء، لأنها تحيط بمن نزلت به، ويقولون: دارت على القوم الدوائر، أي: نزلت بهم الدواهي والمصائب والنكبات.

وتعقياً على تَرَبَّصِهِم بِالْمُؤْمِنِينَ دَوَائِرَ السُّوءِ أعلن الله قضاءه الذي سيكون نافذاً لا محالة، وقد كان بعد ذلك، فقال تعالى:

﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾.

أي: كائنة عليهم وحدهم دائرة السُّوءِ، في مقادير المستقبل، التي هي حاصلة لا محالة.

استُفيدَ التخصيص من تقديم الخبر وهو ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على المبتدأ وهو ﴿دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾.

ولما كانت دوائر أحداث القضاء والقدر تدور بما يسوء وبما يُسرُّ، على خلاف مفهوم العرب لدوائر الدهر، إذ يَخَصِّصُونَهَا بِالدَّوَاهِيِ وَالْمَصَائِبِ، خَصَّصَ اللهُ لَفْظَ الدَّائِرَةِ الَّتِي تَدُورُ عَلَيْهِمْ بِإِضَافَتِهَا إِلَى السَّوْءِ.

وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي تصحيح مفهوم العرب لدوائر الدهر، وأنها ليست كلها مصائب ودواهي، فهي أَوَّلًا دوائر قضاء الله وقدره، وهي ثانياً تدور أحياناً بما يُسرُّ، وتدور أحياناً بما يُسُوْءُ، ضمن حكمة الله في امتحان عباده وتربيتهم ومُجَازَاتِهِمْ.

وإذ خَصَّصَ اللهُ الْمَنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ تَنَزَّلُ بِهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ، فَقَدْ قَضَى بِأَنْ تَكُونَ دَوَائِرُ الْخَيْرِ السَّارَةِ سَتُورَ لِمُؤْمِنِينَ، أَخْذاً مِنْ مَفْهُومِ التَّخْصِيسِ.

وختم الله عز وجل الآية بقوله :

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ :

أي : والله سميع لأقوال المؤمنين والمنافقين ، عليمٌ بأعمالهم وأوصافهم ونياتهم ، وأحوال قلوبهم ونفوسهم ، فهو يعامل كل فريق منهم بعدله أو بفضله على وفق حكمته .



العقد الثاني

بيان أقسام مجتمع المسلمين
إبان أحداث غزوة تبوك وتجربتها
مع التعقيبات والتوجيهات الربانية

مقدمة:

من الملاحظ في الأسلوب القرآني أنه كلما طال الحديث في هذه السورة عن المنافقين كان من الحكمة الربانية إعطاء المؤمنين حظاً من البيان يتصل بهم.

وفي هذا الأسلوب شدُّ لانتباه المتلقين، بعرض المتقابلات (المتناقضات والمتضادات والمتخالفات) وذلك لأن سرُّد الكلام حول نموذج واحد يُجلُّ، ويورث الغفلة أو القنور.

ومعلوم أن من عناصر الجمال المراوحة بين النقاظ والأصداد والمتخالفات، مع ما في هذا الأسلوب من شحذٍ لهمم المؤمنين، ليزدادوا إيماناً وعملاً صالحاً، واستئثاراً لدوافع الغيرة لدى الكافرين والمنافقين، عسى أن يصححو منهم من في قلوبهم بزور خير، أو جذور فضيلة.

ولإذ جاء فيما سبق بيان عقاب المنافقين بأن ماوهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون (الآية ٩٥) فلا بد أن يتساءل بعض المتلقين للنص في نفسه عن أحوال المؤمنين، فجاء عقد من الآيات ليجيب على هذا التساؤل، واقتضت فتية المتابعة في الآيات عطف هذا العقد من الآيات على ما جاء قبله في السورة.

ونلاحظ في هذا العقد أن الله عز وجل قسم المؤمنين خمسة أقسام رئيسية:

القسم الأول: المؤمنون الصادقون المستوفون لحدود مرتبة التقوى بمناسبة الغزوة، ويُلحق بهم أمثالهم.

القسم الثاني: المؤمنون الصادقون السابقون في فعل الخيرات وأعمال البر والإحسان، زيادة على واجبات مرتبة التقوى، ويلحق بهم أمثالهم من بعدهم.

القسم الثالث: المنافقون إبان التنزيل بمناسبة الغزوة، ويُلحق بهم أمثالهم من بعدهم.

القسم الرابع: العصاة التائبون المستغفرون يومئذ، ويُلحق بهم أمثالهم من بعدهم.

القسم الخامس: العصاة المسرفون على أنفسهم المستغرقون في معاصيهم يومئذ، ويلحق بهم أمثالهم من بعدهم.

* * *

فالقسم الأول: وهم المؤمنون الصادقون المستوفون لحدود مرتبة التقوى بمناسبة الغزوة ويُلحق بهم أمثالهم فقد دلّ عليهم:

* قول الله عز وجل:

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَخَذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَةً عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ إِلَّا إِنْهَا قُرْبَةً لَهُمْ سَيَدْخُلُوهَا اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

﴿قُرْبَةً﴾:

جمع «قربة» وهي ما ينترب به العبد لربه من أعمال ظاهرة وباطنة تُرضيه وتُقرِّبه إليه، وهذه قراءة جمهور القراء العشرة.

وقرأ ورش: [قربة] بالإنفراد مع ضمِّ الراء، وبين القراءتين تكامل فكري، نظراً إلى تعدد الإنفاق أو عدمه بحسب اختلاف أحوال المتفقين.

﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾:

وهي دعواتهم بالرحمة الشاملة للمغفرة والعفو وجزيل العطاء. في هذه الآية استدراكٌ لدفع توهم أن كل الأعراب كفرة منافقون لا دين لهم، وليبان أن ما سبق من الحديث عنهم إنما هو حديث عن قسم منهم ولو كان هو القسم الأكثر عدداً، وحديث عن مؤثرات بيئة البادية على سُكَّانها المترحلين المتقلين طلباً لمنابِت الكلا ومواقع الماء.

فأبان الله عز وجل في هذه الآية أنه يوجد من الأعراب سُكَّان البادية إبان تنزيل سورة (التوبة) قسم يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً صحيحاً صادقاً، ويؤدُّون فرائض الإسلام، ويجعلون ما يُنْفِقُونَ للجهاد في سبيل الله وغيره من الواجبات والنشَوعات الإسلامية قُرْبَاتٍ من الطاعات والعبادات وصالح الأعمال يتقربون بها إلى الله لينالوا وليأخذوا بسببها مرضاة الله وليظفروا برحمته وجنته، ويتقربون بها إلى الرسول ﷺ ليُصَلِّيَ عليهم، أي: ليدعو لهم بالرحمة، وسيأتي في الآية (١٠٣) من سورة (التوبة) بيان أمر الله لرسوله بأن يُصَلِّيَ على المتصدِّقين الذين يأخذ منهم صدقات أموالهم طيبة بها نفوسهم، وهي قوله عز وجل خطاباً لرسوله:

﴿حُذِّمْنَ أَمْوَالُهُمْ صَدَقَةٌ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٠٣).

ومن تطبيقات هذا الأمر الرِّبَّاني للرسول ﷺ ما رواه الإمام مسلم في صحيحه، عن عبد الله بن أبي أوفى، قال:

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَتَى بِصَدَقَةِ قَوْمٍ صَلَّى عَلَيْهِمْ، فَأَتَاهُ أَبِي بِصَدَقَتِهِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى».

وروي أن امرأة قالت: يا رسول الله صَلِّ عَلَى وَعَلَى زَوْجِي، فقال: «صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ وَعَلَى زَوْجِكَ».

وتعقياً على سلوك هذا الفريق المؤمن من الأعراب، قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا قَرَّبَهُ لَكُمْ سَيِّدُكُمْ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١).

﴿آلَا﴾:

أداة تنبيه، والغرض من استفتاح الكلام بها توجيه الاهتمام لتفهّم الكلام الذي يأتي بعدها.

﴿إِنَّمَا قُرْبَةٌ﴾:

أي: إنّ النّفقات التي يُنفقونها طاعة لله وتقرباً إليه، واستدعاءً لدعاء الرسول لهم بالرحمة، هي لهم قُرْبَةٌ مقبولة عند الله، سيّيبهم الله عليها ثواباً جزيلاً، وسيُذْجِلُهُمْ في رحمته الواسعة الشاملة لغفرانه وعفوه وجنته، فجنته يوم الدين هي من رحمته عزّ وجلّ، كما ثبت في الصحيح.

وختم الله الآية بقوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

لتعميق الإيمان بصفاته وأسمائه الحسنى، واستدعت المناسبة ذكر هذين الاسمين من أسماء الله الحسنى، لأنّ هذا الفريق من الأعراب المؤمنين الصادقين في إيمانهم يحتاجون أن ينالوا حظاً وافراً من غفران الله ورحمته الواسعة، كسائر المؤمنين. قد يقال: لمْ ذُكِرَ هذا القسم الذي يوجد في الأعراب وغيرهم تحت عنوان: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ؟﴾

أقول: قد يُفْهَم من هذا التعبير أنّ أكثر المؤمنين الصادقين من الأعراب هم من هذا القسم.

أمّا أكثر المؤمنين الصادقين في المدينة من المهاجرين والأنصار فهم من قسم السابقين الآتي بيانهم في الآية (١٠٠) وبسبب ذلك كان من الحكمة طيُّ ذكر وجود هذا القسم في المدينة، اكتفاءً بأنّه إذا وُجِدَ بعضُ أفرادٍ منه في المدينة فهم معتبرون من هذا القسم بمقتضى الاتحاد في الوصف، وذلك باعتبار أنّ الأقلّ لا يُتحدّث عنه في البيانات الكلّية، ورُبّما كان هذا الطيُّ بسبب أنّ الله عزّ وجلّ علّم أنّ كلّ المؤمنين المستوفين لحقوق مرتبة التقوى من أهل المدينة قد ارتَقَوْا ببعض ما قدّموا من نوافل الطاعات وصالح الأعمال حتى كانوا ملحقين بالسابقين، فهم من السابقين.

القسم الثاني: وهم المؤمنون الصادقون السابقون في فعل الخيرات وأعمال البرّ والإحسان، زيادةً على واجبات مرتبة التقوى، ويُلقَّبُ بهم أمثالهم من بعدهم، فقد دلَّ عليهم:

* قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالْأُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْتَمَرُونَ الَّذِينَ أَتَّبَعْتَهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَرَضُوا عَنْهُ وَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

أولاً:

١ - قرأ جمهور القراء العشرة: [والأنصار] بالجرّ.

٢ - وقرأ يعقوب فقط: [والأنصار] بالرفع.

ثانياً:

١ - قرأ جمهور القراء العشرة: [تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ].

٢ - وقرأ ابن كثير المكي: [تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ] بزيادة حرف الجرّ «من»

كسائر ما جاء في القرآن من أمثال هذه العبارة.

وسأبني في التدبّر توجيه القراءات إن شاء الله.

* * *

التدبّر

﴿وَالسَّابِقُونَ﴾:

أي: والسابقون في فعل الخيرات وأعمال البرّ والإحسان، زيادةً على واجبات مرتبة التقوى، وقد جمع الله في السابقين هنا الأبرار والمحسنين من أهل الإيمان.

دلَّ على هذا المعنى ثلاثة نصوص قرآنية، وهي على حسب ترتيب نزولها ما يلي:

النص الأول: قول الله عز وجل في سورة (فاطر / ٣٥ مصحف / ٤٣ نزول) بشأن هذه الأمة المحمدية.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٥﴾﴾

فأبانت هذه الآية أن أمة محمد ﷺ هم الذين جعلهم الله وارثي كتابه، واصطفاهم من عباده لهذا الإرث العظيم، وسماه الله إرثاً لأن القرآن قد جمع كل ما في زُبر الأولين من أصول الدين وشرائعه وأحكامه ذات الثبات والدوام، وهو دين الإسلام الذي اصطفاه الله للناس، وتابع إنزاله على رُسُلِهِ، بحسب مقتضيات التطور البشري، وحاجات الناس، حتى ختمه برسالة محمد ﷺ مستوفي العناصر كاملاً، غير عُرْضة بعد إكماله لأي تغيير أو نسخ.

وأبانت أن هذه الأمة المحمدية المصطفاة من عباد الله تنقسم إلى ثلاث فئات:

الفئة الدنيا: الظالمون لأنفسهم، وهم العصاة من المؤمنين، الذين لا يؤدُّون حقوق مرتبة التقوى بفعل الواجبات، وترك المحرمات، وهذا القسم على درجات بحسب كثرة المعاصي وقُلَّتْها.

الفئة الوسطى: المقتصدون، وهم الذين يؤدُّون حقوق مرتبة التقوى، بفعل الواجبات وترك المحرمات، ولا يحرصون على أن يزدادوا من نوافل الطاعات والعبادات وفعل الخيرات، ممَّا يرفع المتقي إلى درجات مرتبة الأبرار، أو درجات مرتبة المحسنين.

الفئة العليا: السَّابِقون بالخيرات بإذن الله، وهم الذين زادوا في عباداتهم وطاعاتهم وأفعال الخير مما يرضي الله عز وجل، حتَّى ارتَقَوْا إلى مرتبة الأبرار أو مرتبة المحسنين.

ومرتبة الأبرار ذات درجات متفاضلات، ومرتبة المحسنين ذات درجات متفاضلات، وقد جمع الله في هذه الآية الأبرار والمحسنين في عنوان «السَّابِقين» لأنهم قد سبقوا بالأعمال الصالحة القسمين الأدنى، والأوسط.

النص الثاني: قول الله عز وجل في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) في بيان تصنيف الناس يوم الدين إلى أصناف رئيسية ثلاثة، أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، والسابقين:

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۖ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۖ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ۖ وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ ۚ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۚ﴾

﴿أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾:

أي: أصنافاً ثلاثة.

﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾:

هم المؤمنون على درجاتهم من ظالمي أنفسهم ومقتصدين.

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾:

هم الكافرون المجرمون، على درجاتهم، من أخف درجات الكفر، حتى أخسها وأسفلها.

﴿وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ﴾:

هم أهل مرتبة البر والإحسان، فمنهم أبرار، ومنهم محسنون، وهم على درجات متفاوتات، وقد أدخلهم الله تحت عنوان «المقربين».

فالسابقون، هم المقربون، منهم أبرار، ومنهم محسنون، ومرتبة الإحسان أعلى مراتب المؤمنين، كما دللت النصوص القرآنية^(١).

النص الثالث: قول الله عز وجل في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) في بيان صفات فريق من المؤمنين:

﴿أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْحَزَنِ وَيَسْتَسْقُونَ ۖ﴾

(١) انظر المثال الخامس حول (التقوى - البر - والإحسان) من القاعدة (١٨) من كتاب «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل» للمؤلف.

أي: وهم لفعل الخيرات سابقون، وعنوان الخيرات يشمل صالحات الأعمال الزائدة على فعل الواجبات وترك المحرمات، وهذه الزائدة ترفع إلى مرتبة الأبرار، ثم إلى مرتبة المحسنين.

بعد هذا البيان التفصيلي عن المراد من السابقين نلاحظ أن الله عز وجل أدخل في فئة السابقين أربع زمر:

الزمرة الأولى: الأولون من المهاجرين، ولهم الدرجة الأولى من السابقين.

الزمرة الثانية: الأولون من الأنصار، أخذاً من قراءة: [وَالْأَنْصَارُ] بالجر التي هي قراءة جمهور القراء العشرة، ولهم الدرجة الثانية في السابقين.

الزمرة الثالثة: المؤمنون الصادقون من الأنصار، ولو لم يكونوا من الأولين أهل بيعة العقبة، أخذاً من قراءة: [وَالْأَنْصَارُ] بالرفع التي هي قراءة يعقوب البصري، ولهم الدرجة الثالثة في السابقين، وقد يشارك بعضهم أهل الدرجة الثانية من السابقين.

الزمرة الرابعة: المؤمنون الصادقون الذين اتبعوا الزمر الثلاث السابقة بإحسان من أهل القرن الأول والقرون اللاحقة حتى يرث الله الأرض ومن عليها، والشرط في هؤلاء حتى يكونوا مع السابقين، أن يرتقوا إلى مرتبة الإحسان في اتباعهم، ولا يكفي لواحد منهم أن يكون من المتقين فقط، أو من الأبرار فقط، بدليل قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾.

إذ جعل الاتباع مفيداً بكونه ملتبساً ومقترباً بإحسان، والإحسان كما جاء في بيان الرسول ﷺ هو أن تعبد الله كأنك تراه، وهو فوق مرتبة البر.

وقد منح الله السابقين جميعاً من التكريم والاجر العظيم أمرين:

الأمر الأول: دل عليه قوله تعالى:

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾.

أي: رضي عنهم بسبب ما قدموا من أعمال صالحة ابتغاء مرضاته، وما يقدمون دوماً من أعمال صالحة، وبلغت بهم السعادة بما هم فيه من إيمانٍ وأنشراحٍ صدرٍ مع

أنهم ما زالوا في رحلة امتحانهم يتقلبون في مختلف أنواع الامتحان، أن كانوا في رضا دائم عن الله فيما تجري به مقاديره، وهذا الرضا هو أحد عناصر سعادتهم في الحياة الدنيا.

الأمر الثاني: دلّ عليه قوله تعالى:

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

وكما في قراءة ابن كثير: [تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا].

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾:

أي: وهيا لهم جنّات، وقد جاءت الجنّات مجموعة للدلالة على أقسام متعدّدة كثيرة داخل الجنة العظمى التي أعدها الله للمتقين، إذ كلّ قسم من أقسامها يصحّ أن يُسمّى جنّة، فإذا لاحظنا الأقسام ظهرت أنها جنّات، وإذا لاحظنا أنها كلّها دار واحدة للمتقين ظهر أنها بجميع أقسامها جنّة واحدة.

وقد جاءت جنّة الخلد في القرآن مفردة «٦٧» مرّة وجاءت مجموعة باعتبار أقسامها «٦٩» مرّة، وجاءت مُشْتَبَةً في بيان ثواب بعض مستحقيها من المؤمنين، باعتبار أن حظّ كلّ منهم جنتان من أقسامها «٣» مرات.

[تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ] أو: [تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ] كما في قراءة ابن كثير.

قد يسأل سائل ما الحكمة من هذا التعبير؟ ولمّ لم يأت بعبارة تجري فيها الأنهار؟

أقول:

إنّ الجنّة لا تُسمّى جنّة إلا بأشجارها ونباتاتها، فالأرض الخالية الجرداء لا تُسمّى جنّة، والأنهار التي تجري في أرضها إنّما تجري تحت أشجارها، وتحت سكّان قُصُورها ومساكنها الطيِّبة العالية المشرفة، فالذِّقَّةُ في التعبير تستدعي أن يقال تجري من تحتها أو تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ.

و«من» في [مِنْ تَحْتِهَا] لابتداء الغاية، ووجودها في كلّ الاستعمالات القرآنية باستثناء هذه الآية في قراءة جمهور القراء، مع إثباتها في قراءة ابن كثير، يشير إلى أن

منايع هذه الأنهار تنفجر من الأرض التي هي تحت الجنات، فتجري تحتها، فدلّت القراءتان على المعنيين، فهي تنبع جارية من تحتها، وتجري بعد ذلك في المسالك المتنوعة تحتها.

وكلمة النهر تطلق في اللغة على مجرى الماء، ثم حصل توسع في إطلاقها، فصارت تطلق على الماء الجاري في النهر، ويسمى مثل هذا الإطلاق عند علماء البلاغة مجازاً مرسلأ، من إطلاق المحل وإرادة الحال فيه.

أقول:

وجريان هذا الاستعمال على الألسنة جعل إطلاق النهر على الماء الجاري نفسه في النهر حقيقة عرفية، ونسب فيها المعنى المجازي السابق. ويقال لغة: نهر الماء إذا جرى في الأرض وشق لنفسه نهراً. ويجمع النهر على «أنهار، ونهر، ونهور».

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾:

أي: خالدين في هذه الجنات المعدة لهم سابقاً قبل وضعهم موضع الامتحان في الحياة الدنيا خلوداً أبدياً لا نهاية له، وذلك بإمداد الله لها ولهم بالبقاء الدائم.

﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾:

الفوز: النجاة والربح والظفر، والمعنى: ذلك الخلود في الجنات المعدة لهم هو الفوز العظيم، وقد أشير إليه بالإشارة الموضوعية للمشار إليه البعيد، للإشعار بارتفاع منزلته ارتفاعاً عظيماً، الأمر الذي جعله بالنسبة إلى من أعِدَّ لهم أمراً بعيداً جداً، لكنه بفضل الله وفيض عطائه سيحصل لهم، وسينالونه لا محالة، فقد وعدهم الله به، والله لا يخلف الميعاد.

• • •

الأقسام الثلاثة الأخيرة: المنافقون - والعصاة الثابتون - والعصاة المسرفون على أنفسهم، وقد دلَّ عليهم:

* قول الله عز وجل:

﴿وَمَنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنتَفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْإِنْفَاقِ لَا يَعْلَمُونَ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَعَدِ لَهُمْ مَّرَتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٤١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرًا مَّيْتًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٤٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٤﴾ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَىٰ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَرَدُوكَ إِلَىٰ عَالِي الْقَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنشِرُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤٥﴾ وَآخَرُونَ مُرْجُونَ لِلَّهِ إِمَآئِعُهُمْ وَإِمَآئُوتُوبٌ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٤٦﴾﴾.

القراءات

● [سَيِّئًا]: وقف عليها حمزة فقط بإبدال الهمزة ياءً خالصة.

● [وَتُزَكِّيهِمْ]: ضم يعقوب هاء الضمير، وقراءة سائر القراء بكسرها، والقراءتان وجهان عربيان لنطق هاء الضمير:

● (١) قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص عن عاصم: [إِنْ صَلَاتُكَ] بالإنفراد.

(٢) وقرأ باقي القراء العشرة: [إِنْ صَلَّاتِكَ] بالجمع.

ودلت القراءتان على أن دعاء الرسول لهم بالرحمة يستوي إفراده وتكريره، لأن دعاءه مستجاب.

● (١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة عن عاصم: [مُرْجُونَ] بهمزة مضمومة بعدها واو.

(٢) قرأ باقي القراء: [مُرْجُونَ] بواو ساكنة بدل الهمزة، وليس بعدها واو

أخرى.

والقراءتان لغتان لمادة الكلمة، يقال في الفعل: [أَرْجَأْتُهُ] وَيُقَالُ: [أَرْجَيْتُهُ].
والمعنى: مؤخرون ليحكم الله فيهم يوم الدين، مع الأمل بأن يتوب الله عليهم، لأنَّ
في الرجاء والإرجاء معنى التوقع والانتظار لأمر مطموح فيه.

* * *

موضوع هذه الآيات

في هذه الآيات متابعة لبيان أقسام مجتمع المسلمين إبان التنزيل بعد بيان قسم
السابقين وفئاتهم، مع التعقيبات والتوجيهات الربانية.

* وقد أبانت قسم المنافقين من الأعراب، والمنافقين من أهل المدينة، وما لهم
عند الله من عذاب مرتين، وعذاب آخر عظيم يوم الدين في جهنم.

* وأبانت قسم العصاة من المؤمنين الذين يُتَّبَعُونَ معاصيهم بالاستغفار والتوبة،
وأعطتهم الرجاء بأن يتوب الله عليهم، مع توجيههم للتكفير عن خطاياهم بالصدقات.

* وأبانت قسم العصاة من المؤمنين الذين لَا يُتَّبَعُونَ معاصيهم بالاستغفار
والتوبة، وذكرت أنهم مؤخرون لأمر الله، فإِذَا أن يعذبهم، وإِذَا أن يتوب عليهم، وهو
سبحانه سيعامل كل واحد منهم بحسب حاله في نفسه وقلبه وظروفه التي كان فيها في
رحلة امتحانه، وذلك بمقتضى علمه بهم، وحكمته في عدله وفضله تبارك وتعالى.

* * *

التدبير

القسم الثالث: وهم المنافقون من الأعراب والمنافقون من أهل المدينة،
بمناسبة أحداث غزوة تبوك وتجربتها، ويُلاحق بهم أمثالهم من بعدهم.

* قول الله تعالى:

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّو عَلَى الْإِنْفَاقِ
لَا تَعْلَمُهُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَهُمُ مَّسْعِدُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يَردُّوكَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١١١﴾﴾.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾:

الخطابُ للرُّسُول وللمؤمنين الصادقين في المدينة، يقول الله فيه لهم: وَبَعْضُ مَنْ خَوَّلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ، وَهُمْ سُكَّانُ الْبَادِيَةِ حَوْلَ الْمَدِينَةِ، هُمْ مُنَافِقُونَ، قَالُوا وَكَانَ يَسْكُنُ بَادِيَةَ الْمَدِينَةِ مِنَ الْأَعْرَابِ قِبَائِلُ: «جُهَيْنَةَ، وَمُرَيْنَةَ، وَأَشْجَعَ، وَغِفَّارَ، وَأَسْلَمَ، وَلَحِيَّانَ، وَعُصَيْبَةَ».

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوْا عَلَى الْنِّفَاقِ﴾:

مَرَدُّوْا عَلَى النِّفَاقِ: أي: مَرَّنُوا عَلَيْهِ، وصارت لهم به ممارسة مستديمة، وخبرة طويلة، فَهُمْ بِهِ وَبِفَنُونِهِ وَإِتْقَانِ اصْطِنَاعِ الظَّوَاهِرِ الَّتِي تَخْفِيهِ مُجَاهِرُونَ. يقال لغة: مَرَدَّ يَمَرُدُّ مَرْدُودًا وَمَرَادَةً فَهُوَ مَارِدٌ وَمَرِيدٌ، أي: بَلَغَ الْغَايَةَ الَّتِي تَفُوقُ فِي الْعَتَمَةِ عَلَيْهِ أَحْوَالُ أَهْلِ الْوَصْفِ الَّذِي مَرَدَّ فِيهِ، نِفَاقًا، أَوْ مَكْرًا، أَوْ لُصُوصِيَّةً، أَوْ فِسْقًا، أَوْ سَفْكًَا لِلدَّمَاءِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

وَالْمَرِيدُ الْخَبِيثُ الشَّرِيرُ الْمُتَمَرِّدُ، وَمَنْ أَطْلَقَ عَلَى الشَّيْطَانِ الْعَاتِي مِنَ الْإِنْسِ وَالْجَنِّ مَارِدًا وَمَرِيدًا.

وَالْمَعْنَى: وَبَعْضُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مُنَافِقُونَ مَرَدُّوْا عَلَى النِّفَاقِ إِضَافَةً إِلَى مَنْ نَعَلِمُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ كَشَفَ سُلُوكَهُمْ نِفَاقَهُمْ.

هؤلاء المنافقون المعتبرون من أهل المدينة، قد مارسوا النِّفَاقَ واصْطِنَاعَ الظَّوَاهِرِ الَّتِي تُخْفِيهِ مِنْذُ مُقَدِّمِ الرُّسُولِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ حَتَّى غَزْوَةِ تَبُوكَ فِي السَّنَةِ الْتَّاسِعَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ، إِنَّهَا سَنَوَاتٌ تَسَعُ كَافِيَاتٍ لَاجْتِسَابِ الْمَهَارَةِ الْفَائِقَةِ فِي النِّفَاقِ.

﴿لَا تَعْلَمُوهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾:

الخطابُ للرُّسُولِ، وَيَصْلَحُ أَنْ يَكُونَ خُطَابًا لَهُ وَلِكُلِّ مُؤْمِنٍ عَلَى سَبِيلِ الْخُطَابِ الْإِفْرَادِيِّ، وَلَمَّا كَانَ الرُّسُولُ ﷺ يَعْلَمُ بَعْضَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ، وَكَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْرَادٌ يَعْلَمُونَ أَفْرَادًا مِنْهُمْ، كَانَ مِنْ حُسْنِ التَّدَبُّرِ أَنْ نَفْهَمَ أَنَّ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ عَلَى نَفْيِ الْعِلْمِ الْمُسْتَفْرَقِ لِكُلِّ أَفْرَادِهِمْ، فَتَنَفَّى عِلْمَ الْجَمِيعِ لَا يُفِيدُ نَفْيَ عِلْمِ أَفْرَادٍ مِنْهُمْ، فَلَا تَعَارُضُ بِهَذَا بَيْنَ هَذَا النَّصِّ وَبَيْنَ مَا ثَبَتَ مِنْ وَاقِعِ حَالِ الرُّسُولِ وَبَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ عِلْمِهِمْ بِبَعْضِ أَفْرَادِ الْمُنَافِقِينَ، وَالضَّمِيرُ فِي الْفَعْلَيْنِ يَعُودُ فِيمَا أَرَى عَلَى مُنَافِقِي الْأَعْرَابِ وَمُنَافِقِي أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَعًا.

وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ جاء التعبير فيه بضمير المتكلم العظيم، المناسب لشمول علم الله بواطن الأمور وأسرار قلوب العباد، وربما يكون المراد التعبير عن علم الله وملائكته الموكلين بمراقبة العبادة وكتابة أعمالهم الظاهرة والباطنة، فناسب ذلك أن يأتي بضمير المتكلم ومعه غيره.

﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّوْنَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾:

أما الرد إلى عذاب عظيم فهو إعادتهم إلى الحياة بعد الموت، ليعذبوا في جهنم بعد جنايهم وفصل القضاء بشأنهم.

وأما تعذيبهم مرتين فأرى أن المرة الأولى ما يلاقونه من عذاب في الحياة الدنيا. وأن المرة الثانية ما يلاقونه من عذاب في مدة البرزخ بين الموت والحياة، وهو ما يُعرف بعذاب القبر.

والنون في: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ﴾ هي نون المتكلم العظيم، وهي تناسب مقام عزة المنتقم الجبار.

القسم الرابع: العصاة التائبون المستغفرون إبان التنزيل، بمناسبة التخلف عن غزوة تبوك، ويلحق بهم أمثالهم من بعدهم.

* قول الله تعالى:

﴿وَأَخْرَجُوا عَرِفُوْا بِذُنُوْبِهِمْ خَلَطُوْا أَعْمَالًا صَالِحًا وَّآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ ۝١١٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيْعٌ عَلِيْمٌ ۝١١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوْا أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيْمُ ۝١١٤﴾ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَيَسِّرَ ٱللَّهُ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَرَسُولُهُ ٱلْمُؤْمِنُوْنَ وَسُورَةُ ٱلْأَنْعَامِ ۖ وَٱلشَّهَادَةُ فَيُتَشَكَّرُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ ۝١١٥﴾.

﴿وَأَخْرَجُوا﴾:

شروع في بيان القسم الرابع، والعطف هو من قبيل عطف الأقسام بعضها على بعض.

أي: وفيكم قسمٌ آخرون ممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة:

﴿اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾.

أي: أذنبوا واعتَرَفُوا بذُنُوبِهِمْ وتَابُوا واستغفروا، فمن لوازم الاعتراف بالذنب، أن يكونَ مسبوقاً بفعل الذنب، ومن خلائق المعترفين بذُنُوبِهِمْ أن يُتُوبُوا ويستغفروا، فيَكُنَى بالاعتراف عن التوبة والاستغفار.

الاعتراف بالذنب: هو إقرار المذنب بأنه يغرف أنه قد أذنب، اعترف على صيغة «افْتَعَلَ» من فَعَلَ «عَرَفَ». ومن معاني هذه الصيغة الإظهار والمطوعة، وهذان المعنيان يَصْلُحَان هنا، فالمعترف بذنبه يُظْهِرُ أنه مذنب، وإذا طُلِبَ منه أن يُقِرَّ بذنبه أَقَرَّ به على نفسه.

﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾:

أي: هذا القسم من المؤمنين قَسَمَ تعادلت حسناتهم وسيئاتهم، إذ كان سلوكهم ينحَلُّ إلى عملٍ صالح وعملٍ آخر سَيِّئٍ، إنهم إذا تحركت عاطفتهم الدينية عملوا عملاً صالحاً، فإذا تحركت بهم أهواؤهم وشهواتهم ونزغات نفوسهم عملوا عملاً سيئاً، وهكذا دواليك، تَدَوَّرَ حركة أعمالهم في حياتهم فتأخذ إيمانهم قبضة من الأعمال الصالحة، وتأخذ شمائلهم قبضة من الأعمال السيئة، ويختلط حالهم بالنسبة إلى الناظر إليهم، هل هم يعملون الصالحات أم هم يعملون السيئات؟

لكنهم مع ذلك يَعْتَرِفُونَ بذُنُوبِهِمْ، ويتوبون، ويستغفرون. ومعنى الجملة: خلطوا أعمالهم بعضها ببعض، عملاً صالحاً وآخر سيئاً، يقال لغة: خلط الشيء بالشيء.

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾:

في هذه الفقرة يفتح الله لهم باب رجاء أن يتوبَ عليهم، فيَغْفِيَهُمْ من العقاب على سيئاتهم، إذا كانوا صادقين في توبتهم، مخلصين في استغفارهم.

فعل «عَسَى» من الأفعال التي تدلُّ على الترجي، أي: إِنَّ تَوْبَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَمْرٌ
مَرْجُوٌّ غَيْرٌ مَيْتُوسٌ مِنْهُ، وهذا التعبير هو إلى الإطماع والوعد بالتوبة أقرب، حَتَّى كَأَنَّهُ
وَعْدٌ سَيُنْجِزُ، لِأَنَّ الْمُرْجَى بِهِ رَبٌّ غَفُورٌ كَرِيمٌ وَاسِعُ الرَّحْمَةِ.
﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

هذه الجملة بمثابة التعليل لما فُهِمَ ضمناً من الجملة السابقة، أي: سَيُفْضَلُ اللَّهُ
عليهم بالتوبة لِأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.
غَفُورٌ: أي: كثير المغفرة.
رَحِيمٌ: أي: كثير الرحمة.

وفي شأن عموم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، لا في شأن خصوص
الذين نزل القرآن بتوبة الله عليهم من أصحاب الرسول ﷺ، روى البخاري في
صحيحه عن سَمُرَةَ بِنْتِ جُنْدُبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَنَا:

«أَتَانِي اللَّيْلَةُ آتِيَانِ فَابْتَغَانِي، فَأَتْنِيهِمَا إِلَى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَيْنٍ ذَهَبٌ وَلَيْنٍ فِضَّةٌ،
فَتَلْقَانَا رَجَالٌ شَطْرَ مَنْ خَلَقَهُمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَأَوْا، وَشَطْرَ كَأَفْجَحٍ مَا أَنْتَ رَأَوْا.

قَالَا لَهُمْ: اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهْرِ، فَوَقَعُوا فِيهِ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا، فَذُذْ ذَهَبٌ
ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ، فَصَارُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ.

قَالَا لِي: هَذِهِ جَنَّةٌ غَدَنٌ، وَهَذَاكَ مَنَزِلُكَ.

قَالَا: أَمَّا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانَ شَطْرُ مِنْهُمْ حَسَنٌ وَشَطْرُ مِنْهُمْ فَبِيعَ فَإِنَّهُمْ خَلَطُوا عَمَلًا
صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، نَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُمْ»^(١).

هذا الحديث قَصَّ الرسول فيه رؤيا رآها في منامه، ورؤيا الأنبياء حق. وجاء في
بعض روايات الحديث أن الآتيان اللذان أتياه في المنام هما «جبريل وميكائيل» فقد
جاء فيها بعد تفسير المشاهد: «وأنا جبريل وهذا ميكائيل».

(١) البخاري «كتاب تفسير القرآن» الحديث (٤٦٧٤) من الفتح، وأورده في التعبير عن سمرة أيضاً
بأطول وأكثر أحداثاً (الحديث ٧٠٤٧) من الفتح.

وأمر الله عز وجل رسوله بأن يقبل من المذنبين التائبين ما يذلون من أموالهم من صدقة، لتكون هذه الصدقة مطهرة لهم من ذنوبهم، ومعوضة الخسران الذي خسروه بسببها، فتتمو بها صالحات أعمالهم.

وأمره أيضاً أن يصلّي عليهم، أي: أن يدعوا لهم بالرحمة، فإذا دعا لهم بها، سكنت قلوبهم، واطمأنّت، وتخلّصت من القلق والاضطراب الذي نزل بها بسبب ما أصابوه من الذنوب، لإيمانهم بأن صلاة الرسول عليهم صلاة مقبولة حتماً عند بارئهم، فالله لا يردّ دعاء رسوله فيما هو مأذون بأن يدعو به.

• فقال تعالى له:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٥٦).

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾:

إذّن من الله لرسوله بأن يأخذ من المذنبين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ما يذلون من أموالهم صدقة لله تعالى ابتغاء تطهيرهم وتزكيتهم بها.

الصدقة: ما يُبذل لذوي الحاجات من الفقراء والمساكين ابتغاء مرضاة الله.

وأخذ الرسول الصدقة منهم هو أخذ لا ليمتلكها، ولكن ليضعها فيمن يستحقها من الفقراء والمساكين.

﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾:

أي: تُزيل عنهم أدران ما ارتكبوا من ذنوب، وذلك لأن الحسنات يذهبن السيئات.

﴿وَتُزَكِّيهِمْ﴾:

التزكية تأتي في اللغة بمعنيين، الأول: التطهير. والثاني: الزيادة والنماء. وبما أنّ التطهير قد جاء مدلولاً عليه بقوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ لزم أن نفهم أنّ ﴿وَتُزَكِّيهِمْ﴾

بمعنى وتتميمهم وتزويدهم، والمراد نماء وزيادة أعمالهم الصالحة، التي تعوضهم ما خسروه بسبب الذنوب.

والمعنى أن الرسول إذا قبل منهم ما يقدمون من أموالهم صدقةً للتطهير والتزكية، فإنه يطهرهم ويؤزكهم بقبولها منهم، أي: إنه يكون سبباً في ذلك.

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾:

أي: وادع لهم بأن يغفر الله لهم ويرحمهم فيطهرهم ويؤزكهم.

﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾:

السكنُ يُطلقُ على الشيء الذي تسكنُ إليه النفسُ، وتطمئنُ، وتستأنسُ به، ويُطلقُ على الرحمة، وعلى البركة.

والمعنى: إن صلاتك عليهم تمنح قلوبهم ونفوسهم السكون والطمأنينة، وهي أيضاً رحمة لهم وبركة، لأن الله يزيدهم بها رحمةً وعطاءً.

وختم الله الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لربط عملهم في بذل الصدقة، وصلاة الرسول عليهم، بما يلائمهما من القاعدة الإيمانية، فدعاء الرسول لهم يلائمه اسم الله السميع، وعملهم ابتغاء مرضاة الله يلائمه اسم الله العليم.

وجاء في سبب نزول هذا النص ما يلي:

أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مَرْدُويه، والبيهقي في دلائل النبوة، عن ابن عباسٍ في قوله تعالى:

﴿وَأَخْرَجُوا عَنَّا زَكَاةً وَأَسْرَارًا ۚ لَقَدْ أَنذَرْتُكُمْ خُلُوفًا أُخْرَجَتْ مِنَ الْغَيْثِ ۚ إِنَّهَا غُلُظٌ خَبِيثَةٌ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۚ﴾ .

قال: كانوا عشرة رهطٍ تخلّفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فلما حضر رجوع رسول الله ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد، وكان ممرُ النبي ﷺ إذا رجع عليهم، فلما رآهم قال:

«مَنْ هَؤُلَاءِ الْمُؤْتِقُونَ أَنْفُسَهُمْ؟»

قالوا: هذا أبو لُبَابَةَ وَأَصْحَابُ لَهُ تَخَلَّفُوا عَنْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَتَّى تُطْلِقَهُمْ

وتعذرهم. قال:

«وَأَنَا أَقْسِمُ بِاللَّهِ لَا أَطْلُبُهُمْ وَلَا أَعْذَرُهُمْ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يُطْلِقُهُمْ، رَغِبُوا عَنِّي، وَتَخَلَّفُوا عَنِ الْغَزْوِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ».

فلما بلغهم ذلك قالوا: ونحنُ لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يطلقنا، فنزلت:

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾.

وعسى من الله واجب، فلما نزلت أرسل إليهم النبي ﷺ، فأطلقهم وعذرهم، فجاءوا بأموالهم فقالوا: يا رسول الله، هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا، قال:

«مَا أَمَرْتُ أَنْ أَخْذَ أَمْوَالَكُمْ»

فأنزل الله عز وجل:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾.

يقول: استغفر لهم ﴿إِنْ صَلَاتُكَ سَكُنَ لَهُمْ﴾، يقول: رحمة لهم. فأخذ منهم الصدقة واستغفر لهم.

وكان ثلاثة نفر لم يؤثقوا أنفسهم بالسواري، فأزجئوا سنة، لا يلدرون، أيعذبون أو يتأب عليهم؟ فأنزل الله:

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّجِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٧):

وفي دعاء الرسول ﷺ للمتصدقين تطبيقاً لقول الله له: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنْ صَلَاتُكَ سَكُنَ لَهُمْ﴾:

روى البخاري ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن أبي أوفى، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى بصدقة قال:

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ فُلَانٍ».

فأتاه أبي بصدقته، فقال: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى».

ولما كانت العبرة في النصوص القرآنية بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كان علينا أن نفهم أنه يحسن بكلِّ عاصٍ تائب أن يتصدق صدقة رجاء أن تُطهره وتُزكّيه، ولا بأس أن يلتبس مع ذلك دُعاء وارثي الرسول ﷺ، أن يغفر الله له ويرحمه، من الذين يرى فيهم الصلاح والاستقامة وأنهم من أئمة المتقين.

وإذا كان العصاة التائبون المستغفرون وجِلين قلقين خائفين أن يعاقبهم الله بسبب ذُنوبهم، كان من الحكمة الربّانية التخفيف عنهم، بِتَرْجِيَّتِهِمْ وَطَمَآنَةِ قُلُوبِهِمْ، فقال الله تعالى:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَنِ اللَّهُ يُؤْتِيهِمُ الْتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٠٤).

الاستغفار في: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ استغفار تقريرى، أي: قد سبق أن علموا أن الله يقبل توبة عباده، فلا داعي لقلقهم واضطرابهم، وخوفهم الشديد مما فعلوا من ذنوب، بعد أن تابوا واستغفروا.

وقبول توبتهم يلزم منه تجاوز الله عن سيئاتهم، وللدلالة على هذا المعنى قال تعالى: ﴿يُقْبَلُ التَّوْبَةُ عَنْ عِبَادِهِ﴾ أي: يقبل التوبة متجاوزاً عن سيئات عباده. وملاحظة لحالة قلقهم وخوفهم أكد الله الجملة بضمير الفصل «هو» في: ﴿هُوَ يَقْبَلُ﴾ مع التأكيد بحرف التأكيد «أن».

﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ معطوف على: ﴿يُقْبَلُ﴾ فالجملة ينسحب عليها مؤكّداً الجملة الأولى.

والتعبير بأنّه سبحانه يأخذ الصدقات التي يذلونها للفقراء، يدلُّ على أنه يقبلها منهم، ويكافئهم عليها، فيتوب عليهم ويكفر عنهم سيئاتهم ويرحمهم.

وذكرهم الله بما يلائم قبول توبتهم وصدقاتهم من صفاته وأسمائه الحسنى في آخر الآية بقوله:

﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

التَّوَّابُ: أي: الذي يتوبُ على عباده كثيراً، فالصيغة من صيغ المبالغة. يقال لغة: تَابَ يَتُوبُ تَوْباً وَتَوْتَةً وَمَتَاباً إذا رجع، وَتَوْتَةُ الْعَبْدِ رُجُوعُهُ إِلَى طَاعَةِ رَبِّهِ، وَتَوْتَةُ اللَّهِ عَلَى عَبْدِهِ رُجُوعُهُ إِلَيْهِ بِالْإِقْبَالِ وَالْغَفْرَانِ وَالْعَفْوِ وَالرِّضَا.

الرحيم: أي: الذي يرحم عباده كثيراً، فصيغة «الرحيم» من صيغ المبالغة.

وإذ طُوِّبَتْ صفحة الماضي بالتوبة والغفران، كان من الحكمة التوجيهية التربوية استحثاث همم أفراد هذا القسم العصاة التائبين المستغفرين الباذلين من أموالهم صدقات ابتغاء مرضاة الله للتطهير والتركية، وذلك بأمرهم بفعل الصالحات في المستقبل، وبلاستقامة على الطاعة والبعد عن اقتراف الذنوب، فقال الله لرسوله:

﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا بِمَا أَمَرَ اللَّهُ وَعَمَلَكُمْ وَعَسَلَكُمْ رَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَارِدُونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشَرِكُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٤٩).

والمعنى: وقل يا محمد لهم: قد تداركنم ما وقعتم فيه من ذنب فيما مضى بالتوبة والاستغفار، وبذل الصدقات، فتاب الله عليكم وغفر لكم، فأرأوا الله ورسوله والمؤمنين في المستقبل أعمالاً صالحات، واستقامة على الطاعات، ويبتعدوا عن ارتكاب السيئات، فسيرى الله عملكم (أي: أعمالكم فالمفرد المضاف إلى معرفة يعم) وسيرى رسوله والمؤمنون كذلك عملكم، فَيُنْشَرِكُونَ لَكُمْ بِمَا يَرَوْنَ مِنْكُمْ، وَيَغْضُضُونَ النَّظَرَ عَنْ مَاضِيكُمْ، وَيَعَامِلُونَكُمْ بِمَقْتَضَى مَا نَحَلْتُمْ إِلَيْهِ مِنْ خَيْرٍ وَصَلَحٍ وَاسْتِقَامَةٍ.

وَالَا تُصْلِحُوا وَتَسْتَقِيمُوا فَإِنَّمَا أَنْ تَكْرَرُوا مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْخُلُطِ، وَإِنَّمَا أَنْ تَنْزِلُوا إِلَى ذَرَكَةِ الْمُسْرِفِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ.

وفي كل الأحوال: فسيرى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ، ما دتم في الحياة الدنيا، وبعد ذلك ستموتون.

﴿وَسَارِدُونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾:

اللَّهُ رَبُّكُمْ: أي: وَسَارِدُونَ إِلَى الْحَيَاةِ يَوْمَ الْبَعْثِ لَتَلْقَاوْا رَبَّكُمْ الَّذِي يَعْلَمُ كُلَّ

ما هو غيب عن عباده، وكلّ ما هو شهادة، أمّا هو فلا غيب بالنسبة إليه، بل كلّ شيء بالنسبة إليه شهادة، وستفقون بين بديه في موقف الحساب وفصل القضاء.

﴿فَيُتَشْكُرُ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

أي: من أعمالكم الظاهرة، وأعمالكم الباطنة، ويُحاسبُكم عليها، ويكون قضاؤه الفضلُ يوم الدين بينكم بحكمته وفق مقتضى عذله أو فضله.

وَيُقَاسُ عَلَى الْمُغْنِيِّينَ بِالْخَطَابِ فِي هَذَا النَّصِّ غَيْرُهُمْ مِمَّنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ، وَيَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ مَا انْطَبَقَ عَلَى هَؤُلَاءِ، وَيُطَالَبُ حَمَلَةُ مِيرَاثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِأَنْ يَقُولُوا لَهُمْ إِذَا تَابُوا وَاسْتَغْفَرُوا وَيَذَلُّوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَاتٍ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ:

﴿اعْمَلُوا فَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسُرَدُّوْنَ إِلَىٰ عِلِّيِّهِمُ وَالشَّهَادَةُ فَيُنْفِقُ كَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

القسم الخامس: العصاة المرفون على أنفسهم المستغرقون في معاصيهم إيان التنزيل ويلحق بهم أمثالهم من بعدهم.

• قول الله عز وجل:

﴿وَالْآخِرُوتَ مُرْجُونَ لِلَّهِ ۖ إِلَهُهِمَا يَبْعَثُ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمُ ۚ وَإِلَهُهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ۝﴾

* قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابنُ عامر وشعبة عن عاصم: [مَرْجُؤُنْ] بالهمزة وواو بعدها.

وقرأ سائر القراء العشرة [مُرْجُون] بحذف الهمزة وواو ساكنة.

قال أهل اللغة: أَرْجَأَ الأمرَ، أي: أَخْرَجَهُ، وتركُ الهمز لُغَةً، قال ابنُ السَّكَيْتِ: أَرْجَأْتُ الأمرَ، وَأَرْجَيْتُهُ إِذَا أَخْرَجْتَهُ، فيقال في هذا الفعل إِذَا: أَرْجَأَ، وَأَرْجَيْ، والمعنى واحد.

والمعنى: وآخرون من العصاة لم يُتوبوا ولم يستغفروا كما فعل أهل القسم

الرابع، وهؤلاء مؤخرون لم يقض الله بتوبته عليهم، وتأخيرهم إنما هو لأمر الله وشأنه فيهم، يوم الحساب وفصل القضاء.

ويومئذ إما أن يقضي الله بعذاب من تقتضي حكمته تعذيبه، وإما أن يتوب على من تقتضي حكمته أن يتوب عليه.

وختم الله الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ إشارة إلى أنه سبحانه يُعَابِلُ كُلَّ واحدٍ منهم بحسب مقتضى حكمته، المستندة إلى علمه الشامل به، ويكُلُّ ظروفه، ودوافعه النفسية، وبيئته، وما وهبه من قدرات، ومقدار رغبته في المعصية، وجملة المؤثرات على إرادته.



العقد الثالث

قصة مسجد الضرار

مع التعقيبات والتوجيهات الربانية

* قول الله عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِصْرًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقْعُدُوا فِيهِ أَبَدًا مَسْجِدًا اتَّخَذَ عَلَى الشَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّبِعَهُمْ وَأَلَّاهُ يَحِبُّ الْمُطْهَرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَتَسَسَّ بِئْسَ كُنْهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَتَسَسَّ بِئْسَ كُنْهُ عَلَى شِقَاجِرٍ هَاسِرًا فَاتَّهَارِبُهُ فِي نَارِجَهْمُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَتُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

* * *

القراءات

* قرأ المدنيان: نافع وأبو جعفر، والشامي ابن عامر: [الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا] بحذف حرف العطف قبل «الَّذِينَ».

وقرأ باقي القراء العشرة: [وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا] بإثبات حرف العطف.

وفي القراءتين مُراعاة لاختصاصين، فتسلسل الأحداث السابقة في السورة يقتضي الوصل، إذ الحديث فيها عن ظواهر سلوكية للمنافقين، يقتضي عطف ظاهرة بناء

مَسْجِدُ الضَّرَارِ عَلَيْهَا، فَجَاءَتْ قِرَاءَةُ أَكْثَرِ الْقُرَّاءِ بِالْعُطْفِ. وَوُجُودُ الْفَاصِلِ الطَّوِيلِ مِنَ الْآيَةِ (٩٩) إِلَى الْآيَةِ (١٠٦) الَّتِي تَضَمَّنَتْ الْحَدِيثَ عَنْ أَقْسَامِ مَجْتَمَعِ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَفْتَضِي الْفَصْلَ، وَيَبْدَأُ الْكَلَامَ بِاسْلُوبِ الْاسْتِنْفَافِ لَا الْعُطْفِ، فَجَاءَتْ مُرَاعَاةُ هَذَا الْمَقْتَضَى فِي قِرَاءَةِ حَذْفِ حَرْفِ الْعُطْفِ، وَبِالْقِرَاءَتَيْنِ تَمَّتْ مُرَاعَاةُ الْاِقْتِضَاءَيْنِ، وَهَذَا مِنْ بَدَائِعِ التَّنْزِيلِ الْحَكِيمِ.

• قَرَأَ نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ: [أَقَمَنْ أَسَسَ بُيَانَهُ] وَ[أَمْ مَنْ أَسَسَ بُيَانَهُ] بِنَاءِ فِعْلٍ «أَسَسَ» لِلْمَجْهُولِ، وَرَفَعَ «بُيَانَهُ» عَلَى أَنَّهُ نَائِبٌ فَاعِلٌ، فِي الْمَوْضِعَيْنِ.

وَقَرَأَ بَاقِي الْقُرَّاءُ الْعَشْرَةَ بِالنِّبَاءِ لِلْمَعْلُومِ وَنَصَبَ «بُيَانَهُ» فِي الْمَوْضِعَيْنِ أَيْضاً.

وَفِي هَاتَيْنِ الْقِرَاءَتَيْنِ تَكَامُلٌ فِي الْأَدَاءِ الْبَيَانِيِّ، فَفِي قِرَاءَةِ النِّبَاءِ لِلْمَعْلُومِ يَتَحَدَّثُ النَّصُّ عَنِ الَّذِي شَارَكَ فِي تَأْسِيسِ مَسْجِدِ الضَّرَارِ بِالْعَمَلِ أَوْ بِالرَّأْيِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَفِي قِرَاءَةِ النِّبَاءِ لِلْمَجْهُولِ يَتَحَدَّثُ النَّصُّ عَنْ سَائِرِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ أَسَسَ لَهُمْ هَذَا الْبِنْيَانِ، وَلَوْ لَمْ يَكُونُوا مِنَ الْمَشَارِكِينَ فَعَلًا فِي مُؤَامَرَةِ بِنَاءِ مَسْجِدِ الضَّرَارِ.

• قَرَأَ شُعْبَةُ عَنْ عَاصِمٍ: [وَرُضْوَانٍ] بِضَمِّ الرَّاءِ.

وَقَرَأَ بَاقِي الْقُرَّاءُ: [وَرِضْوَانٍ] بِكَسْرِ الرَّاءِ.

وَالْقِرَاءَتَانِ وَجْهَانِ عَرَبِيَّانِ لِنَطْقِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ.

• قَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ وَحُمَزَةُ وَخَلْفٌ وَشُعْبَةُ عَنْ عَاصِمٍ: [جُرْفٍ] بِإِسْكَانِ الرَّاءِ.

وَقَرَأَ بَاقِي الْقُرَّاءُ الْعَشْرَةَ: [جُرْفٍ] بِضَمِّ الرَّاءِ.

وَالْقِرَاءَتَانِ وَجْهَانِ عَرَبِيَّانِ لِنَطْقِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ: فَالْجُرْفُ وَالْجُرْفُ شِقُّ الْوَادِي إِذَا خَفَرَ الْمَاءُ فِي أَسْفَلِهِ فَصَارَ عُرْضَةً لِلانْهِيَارِ السَّرِيعِ.

• قَرَأَ يَعْقُوبُ الْبَصْرِيُّ: [إِلَى أَنْ تَقْطَعَ قُلُوبُهُمْ] أَيْ: إِلَى أَنْ تَقْطَعَ قُلُوبُهُمْ.

وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ وَحُمَزَةُ وَأَبُو جَعْفَرٍ وَحَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ: [إِلَّا أَنْ تَقْطَعَ قُلُوبُهُمْ] أَيْ: إِلَّا أَنْ تَقْطَعَ قُلُوبُهُمْ.

وَقَرَأَ بَاقِي الْقُرَّاءُ الْعَشْرَةَ: [إِلَّا أَنْ تَقْطَعَ قُلُوبُهُمْ] بِالنِّبَاءِ لِلْمَجْهُولِ.

وَفِي هَذِهِ الْقِرَاءَاتِ تَكَامُلٌ فِكْرِيٌّ وَتَكَامُلٌ فِي الْأَدَاءِ الْبَيَانِيِّ.

أما قراءة يعقوب فتدُلُّ على أَنَّ الرِّبِّيَّةَ في قلوبهم ستستمرُّ حتَّى تَنقَطَعَ قلوبهم،
وأما قراءة ابن عامر ومن معه فهي تدُلُّ على أَنَّ هذا الاستمرار يُسْتَتْنَى منه زَمَنٌ تَقْطَعُ
قُلُوبُهُمْ، فهي تشير إلى احتمال مفاجأتهم بالعقاب قبل حلول آجالهم المقررة.

وأما قراءة باقي القراء فهي تدُلُّ على احتمال أَنَّ تَقْطَعُ قُلُوبُهُمْ بفعلٍ فاعل، فهي
تَنقَطَعُ بذلك مجبورة غير مُختارة.

سبب نزول هذه الآيات

سبق في استعراض أحداث غزوة تبوك وما رافقها بيان سبب نزول هذه الآيات،
فليرجع إليه^(١)، ومنه نلاحظ أَنَّ الله عزَّ وجلَّ يبيِّن فيها ظاهرة من الظواهر السلوكية
للمنافقين، وقد كانت إبان أحداث غزوة تبوك، إنها ظاهرة بناء مسجد الضرار، ليكون
قاعدة مَكْرٍ وكفرٍ وإصرار بالإسلام والمسلمين.

التدبير

قول الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا
لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ
لَا تَقْرَفُ فِيهِ أَبَدًا﴾.

تحدَّث الله عزَّ وجلَّ في هذه السورة عن المنافقين بعدة أساليب:

أولاً:

في بدء الحديث عنهم قد كان العرض بأسلوب تمهيدِيٍّ غير صريح في أوله
بأنهم منافقون، وانتهى في وسطه وآخره بما يدمغهم بالنفاق، وكان هذا في الآيات من
(٤٢ - إلى ٤٧).

(١) انظر الفقرة (٧): «رحلة العودة إلى المدينة».

فقد بدأت هذه الآيات بقول الله تعالى بشأن الذين استأذنوا في أن لا يخرجوا مع الرسول إلى غزوة تبوك:

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ السَّفَرَةُ...﴾ (١٢)

وجاء في أثنائها:

﴿إِنَّمَا يَسْتَفِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآزَنَاتٌ قُلُوبُهُنَّ فَهُنَّ فِي رَبِّهِنَّ يَكْدَرُ دُونَكَ﴾ (١٣)

وجاء في آخرها:

﴿لَوْ خَرَجُوا فِئَكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا...﴾ (١٤)

ثانياً:

ثم تابعت الآيات تكشف ظواهر نفاقهم بصراحة، مثل:

- ﴿إِنْ قُصِبَتْ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ...﴾ (١٥)

- ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ...﴾ (١٦)

- ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ...﴾ (١٧)

- ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ...﴾ (١٨)

- ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ...﴾ (١٩)

- ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى

النِّفَاقِ...﴾ (٢٠)

ثالثاً:

ثم جاء دور الحديث عن بناء مسجد الضرار من المنافقين، الذين بذؤوا بتنفيذ مؤامرة كيدية كبرى ضد الإسلام والمسلمين، مع أبي عامر الراهب الذي حارب الرسول والمسلمين في أحد مع مشركي قريش، وهو من أهل المدينة من بني غنم بن

عرف، وكان قد تنصّر في الجاهلية، وأقام بمكة قبل فتحها، ولَمَّا فُتِحَتِ للرسول ﷺ هَرَبَ إلى الطائف، وَلَمَّا فُتِحَتِ الطائفُ خرج إلى الشام، واستنصر بقيصر، وكتب إلى المنافقين من قومه يأمرهم بأن يبنوا مسجداً خاصاً بهم، ليكون قاعدة انطلاق لحرب المسلمين في المدينة، ووَعَدَهُمْ بأنه سيأتي بجيش من الروم، لقتال المسلمين وإخراجهم من المدينة.

فلَمَّا جاء دُورُ الحديث عن بُنَاةِ مَسْجِدِ الضَّرَارِ هُؤَلاءِ، كان من الحكمة البيانية التَّيْبَةُ عَلَى تخصيصهم بالذكر، لتوجيه الاهتمام بأمرهم الخطير، فقال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضَرَارًا...﴾.

على أَنَّ ﴿الَّذِينَ﴾ مفعولٌ به لفعلٍ محذوفٍ تقديره: ﴿أَخْصُ﴾ أي: وأُخْصُ بالذكر من المنافقين الذين اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضَرَارًا، والمعنى: أَنَّ هؤلاء أشدَّهم عداً، وأعظمهم خطراً، لِتَحْوِيلِ عِدَائِهِمُ الكمين إلى أعمال كيدية تُعَدُّ لحَرْبٍ تُشَارِكُ فيها دولة الروم بجيش يُبعث به من الشام إلى المدينة.

وقد ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ عناصر الكيد التي اشتمل عليها بناء مسجد الضَّرَارِ بجوار مسجد قُبَاءَ، وهي أربعة عناصر:

العنصر الأول: كونه ضَرَارًا، أي: قصد المنافقون من إنشائه مضارة المسلمين المؤمنين.

والضَّرَارُ في اللغة يأتي بمعنيين:

الأول: المخالفة، تقول لغة: ضَارَزْتُ الرَّجُلَ مُضَارَةً وَضَرَارًا، إِذَا خَالَفْتَهُ، وَاخْتَدَّتْ أَتْجَاهًا غَيْرَ أَتْجَاهِهِ، وطريقاً غير طريقه.

الثاني: إِنْزَالُ الضَّرَرِ، تقول لغة: ضَارَهُ مُضَارَةً وَضَرَارًا، إِذَا اتَّخَذَ السَّبَابَ لِإِنْزَالِ الضَّرَرِ بِهِ، وأصل صيغة «فاعل» تدلُّ على المشاركة، ولكن حين لا يكون من يُرَادُ إِنْزَالُ الضَّرَرِ به مشاركاً فعلاً، فَإِنَّ الصيغة تدلُّ على مضاعفة الجهد لإِنْزَالِ الضَّرَرِ به.

وهذان المعنيان ينطبقان على حالة بناء هؤلاء المنافقين لمسجدهم إلى جوار مسجد قباء.

العنصر الثاني: كونه كُفْرًا، أي: أنشأه المنافقون بباطل الكفر الذي يُكْتَنُوهُ في صُدُورهم، وليكون قاعدة نشر الكفر، وانطلاق الأعمال الكافرة المحاربة للإيمان والمؤمنين.

العنصر الثالث: كونه تَفْرِيقًا بين المؤمنين، أي: أنشأه المنافقون لاستدراج بعض المؤمنين إليه، بغية ضمهم مستقبلًا إلى صفوفهم.

العنصر الرابع: كونه إِرْضَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ. الإِرْضَادُ: الإعدادُ والتهيئة، يقال لغة: أَرَضَدَ الْجَيْشَ لِلْقِتَالِ، إِذَا أَعَدَّهُ لَهُ. وَأَرَضَدَ الْقَلْعَةَ لِلْحِرَاسِ، أي: أَعَدَّهَا لَهُمْ، ويلزم من الإعداد والتهيئة الانتظار والترقب لما أَعَدَّ لَهُ.

والمعنى: أن هؤلاء المنافقين قد أَعَدُّوا مسجدهم الذي بنوه لأبي عامر الراهب الذي كان من قَبْلُ قد حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وتآمر مع قيصر الروم أن ينصره بجيش يُقاتل به الرُّسُولَ والمؤمنين في المدينة.

والإعراب الملائم للمعنى المتبادر من اتخاذهم مسجدهم: «ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْضَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» أن تكون هذه المصادر منصوبة على أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا مَفْعُولٌ لِأَجْلِهِ، فـ «ضِرَارًا» مَفْعُولٌ لِأَجْلِهِ، أي: لأجل الضرار، والبقية معطوفة عليه، فلها مثل حكمه، وتُوجَدُ وجوه أخرى لإعرابها، ولكن هذا أظهرها، وهو الملائم لما يتبادر من النَّصِّ من دون تكلُّف.

وحين أنزل الله على رسوله خبر متخذي مسجد الضرار، وهو في طريق عودته من غزوة تبوك قافلاً إلى المدينة، أبان له أنهم سيحاولون التَّنَصُّلَ من ابتغاء التآمر الكيدي ضدَّ الإسلام والمؤمنين ببناء مَسْجِدِهِمْ، بأنَّ يَحْلِفُوا بِاللَّهِ عَلَى أَنَّهُمْ مَا أَرَادُوا بِنَاءِهِ إِلَّا الْغَايَةَ الْحُسْنَى الَّتِي لَا يُبْلَمُونَ عَلَيْهَا، لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ، فقال تعالى:

﴿وَلَيْخَلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾:

أي: وسينخلفون حين كشف أنهم منافقون يَمَكُرُونَ ويكيدون، وحين يَذْهَبُ مَبْعُوثُ الرَسُولِ لهدم مسجدهم وتحريقه، قائلين: ما أَرَدْنَا بِنَاك إِلَّا الْغَايَةَ الْحُسْنَىٰ.

﴿وَإِنْ﴾: حرف نفى بمعنى «ما» ولا يُشْتَرَطُ أَنْ تَأْتِيَ «إِلَّا» أو «لَمَّا» بعدها. فقد جاءت في القرآن نافية دون هذا الشرط. مثل قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتَ أَقْرَبُ مَا تَوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لِمُرَرِّي أَمَدًا﴾.

من سورة (الجن/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول).

﴿إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾: أي: إِلَّا الْغَايَةَ الْحُسْنَىٰ، وهي أَنْ يَكُونَ لِلضُّعَفَاءِ مِنْهُمْ وَأَهْلِ الْعِلَّةِ وَاللَّيْلَةِ الْمُطْبِرَةِ. الْحُسْنَىٰ: مؤنث الأَحْسَن، فهو أَفْعَلُ تَفْضِيل.

ولَمَّا كَانَتْ مَكِيدَتُهُمْ أَمْرًا بَرًّا لَا يُوجَدُ عَلَيْهِ شَهَادَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا دَلَالٌ مَكْشُوفَةٌ تَدِينُهُمْ بِأَمْرِهِمْ، قَدَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ شَهَادَتَهُ بِأَنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ فِي أَيْمَانِهِمُ الَّتِي سِيحَلِفُونَهَا، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

ونلاحظ أَنَّ اللَّهَ قَدَّمَ شَهَادَتَهُ مُؤَكَّدَةً، بَعْدَةَ مُؤَكَّدَاتٍ، هِيَ: «وَإِنْ» — وَالْجُمْلَةُ الْاسْمِيَّةُ — وَاللَّامُ الْمَرْحَلَةُ» مَعَ أَنَّ خَبْرَهُ لِلرُّسُولِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ لَا يَحْتَاجُ مُؤَكَّدَاتٍ، وَلَا سَبْعًا قَدْ نَزَلَ بِهِ قُرْآنٌ يُتْلَى، وَالْغَرَضُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يُعْلَمَنَا قَوَاعِدُ آدَاءِ الشَّهَادَاتِ، فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ شَهَادَةُ الشَّاهِدِ بِصِيغَةِ «أَشْهَدُ» وَأَنْ يَقْتَرْنَ الْخَبْرَ الَّذِي يَشْهَدُ بِهِ بِالْمُؤَكَّدَاتِ الَّتِي تَرْفَعُ احْتِمَالَ الْإِخْبَارِ دُونَ تَوْثُقٍ.

وَإِذْ كَانَ مَسْجِدُ الْمُنَافِقِينَ هَذَا مُؤَسَّسَةً ضِرَارٍ وَكُفْرٍ وَتَفْرِيقٍ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَارْصَادٍ لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، كَانَتِ الْحِكْمَةُ الْإِدَارِيَّةُ تَقْضِي بِهَدْمِهِ وَإِزَالَةِ أَثَرِهِ، وَالتَّشْهِيرِ بَيْنَاتِهِ، تَحْذِيرًا مِنْهُمْ، وَقِطْعًا لِذَايِرِ الْفِتْنَةِ، وَدَفْنًا فِي الْمَكَانِ الَّذِي أُعِدَّ لَهَا فَقَالَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ:

﴿لَا تَقْعُرْ فِيهِ أَبَدًا﴾:

أي: لا تستجب لدعوة الذين بنوه في أن تُصَلِّيَ لهم فيه، بل لا تدخل ولا تقم فيه داعياً لهم بالبركة، ولا تقرهم عليه، ولا تعطهم بقيامك فيه حجة على أنك أفرزتهم عليه.

وأشعرت كلمة: ﴿أبدأ﴾ الدالة على عموم أزمنة المستقبل بأنه ينبغي منح كل أثر لهذا البناء الذي بُني للشر والضرر، ولذلك أمر الرسول بهدمه.

ونهي الله رسوله عن أن يقوم فيه يعم جميع المؤمنين، فمؤسسات المنافقين لا يجوز أن يشارك فيها المؤمنون، لئلا تتخذ مشاركتهم ذريعة وجوراً تعبر عليها مكابدة الكفر والنفاق، ضد الإسلام وجماعة المسلمين المؤمنين الصادقين.

واقترضت حكمة ذكر الأضداد عند ذكر أضدادها أن ينوه الله بشأن كل مسجد آخر أسس على التقوى من أول يوم، في مقابل الحديث عن مسجد الضرار الذي أسس على الكفر، فقال الله عز وجل:

﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا لِلَّهِ الْحِجَابَ الْمَظْهَرِينَ﴾ (١٠٨).

اللام في ﴿لَمَسْجِدٌ﴾ هي لام الابتداء، ويؤتى بها لتوكيد الجملة بعدها.

أي: لَمَسْجِدٌ آخر - غير مسجد الضرار الذي نهينا عن القيام فيه - موصوف بأنه أسس على التقوى من أول يوم جرى التفكير في تأسيسه، أو الإعداد لبنائه، أو الشروع بالتنفيذ، أحق أن تقوم فيه، والمراد تقوى مؤسسه، إذ أرادوا من تأسيسه أن يكون لعبادة الله وحده، وأن يقوم مؤسسوه وغيرهم فيه بما يجب عليهم من صلاة وذكر وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، ومن أمارات كونه أسس على التقوى وصف حال أهله القائمين فيه، الذين يحبون أن يتطهروا حسياً ومعنوياً ليظفروا بحب الله لهم، فالله يحب المطهرين.

نزلت تقوى المؤمنين التي تكون في قلوبهم منزلة الأرض الصالحة الصلبة الثابتة التي تقوم عليها المباني المشهودة بالحسن، لأن البناء الحسني يلاحظ فيه الغاية منه، والغاية منه قضية معنوية إرادية، وهذه الغاية المعنوية إما أن يكون أساسها خيراً

كالتقوى والبر والإحسان، وإما أن يكون أساسها مصلحة دنيوية كالنظاير والتفاخر وابتغاء عرض من أعراض الحياة الدنيا، وإما أن يكون أساسها شراً، كمسجد الضرار الذي بناه المنافقون.

• أما المسجد الذي كان أساسه شراً فحكمه حكم مسجد الضرار، وقد نهى الله عن القيام فيه، فلا يُشارك في استحقاق القيام فيه أصلاً.

• وأما المسجد الذي كان أساسه مصلحة دنيوية، ولا يشتمل على شرٍّ وضُرٍّ للإسلام والمسلمين، فلا مانع من القيام فيه.

• وأما المسجد الذي كان أساسه خيراً، وأدنى عناصر الخير أن يكون قد أُسس على التقوى، فهو أحقُّ أن تقوم فيه من الذي دخل في أساسه مصلحة دنيوية.

ويُفهم من باب أولى أن ما أُسس على البر الذي هو فوق مرتبة التقوى، أو على الإحسان أعلى مراتب الإيمان، أكثر درجة في أخقية القيام فيه، واقتصر النص على ذكر التقوى لأنها أدنى المراتب، فيفهم ما فوقها من باب أولى.

﴿أَحَقُّ﴾:

أي: أكثر استحقاقاً لأن يُعمر عِمارة معنوية بالقيام فيه بأعمال العبادات المختلفة الخالصات لله عز وجل.

ولهذا كان الحرم المكي أحق المساجد بأن يُعمر بالعبادة لله، لأنه أُسس على أعلى مراتب الإيمان، فهو أول بيت عبادة وضع للناس، والصلاة فيه بمئة ألف صلاة، وكان مسجد الرسول ﷺ في المدينة بعده في الأحقية، وكان المسجد الأقصى بعد مسجد الرسول، ثم تاتي المساجد التي أُسست على الإحسان أو البر أو التقوى من أول يوم.

﴿أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾:

أي: أن تمكث فيه زمناً ما للعبادة بالصلاة أو غيرها، وخُصَّ القيام بالذكر لأن مكث القائم أقل درجات المكث، فيُلحق فيه من باب أولى الجلوس لتلاوة القرآن، والصلاة التي فيها قيام وركوع وسجود.

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا﴾:

هذه إحدى علامات المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى، فَمُرْتَادُوهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا طَهَارَةً مَادِّيَّةً مِنَ النِّجَاسَاتِ وَالْقَذَارَاتِ، وَطَهَارَةً مَعْنَوِيَّةً مِنَ الذُّنُوبِ وَالْإِثَامِ بِالصَّلَاةِ وَالْإِذْكَارِ وَالْأَدْبَعِيَّةِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ.

وَإِذْ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا فَإِنَّهُمْ يُوَدُّونَ مِنَ الْأَعْمَالِ مَا يَجْعَلُهُمْ طَاهِرِينَ نَظْفِيفِينَ جَسَدِيًّا وَمَعْنَوِيًّا.

وهنا سؤال هو: لِمَاذَا يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا؟

والجواب الذي يكشفه التأمل: لِأَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ صَادِقُوا الْإِيمَانَ، وَحَرِيصُونَ عَلَى أَنْ يَنْظُرُوا بِمَحَبَّةِ اللَّهِ لَهُمْ، لِيَنَالُوا مِنْهُ فَيُفُوضَ إِحْسَانُهُ.

وَهَلْ يُحِبُّ اللَّهُ الْمُتَطَهِّرِينَ، فَيَغْفُرُهُمْ بِفِيوضِ إِحْسَانِهِ.

الجواب:

أَمَّا حُبُّ اللَّهِ لَهُمْ فَقَدْ ذَلَّ عَلَيْهِ فِي النَّصِّ قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾:

أي: الْمُتَطَهِّرِينَ، أَذْغَمْتَ النَّاءَ بِالطَّاءِ فَصَارَتْ طَاءٌ مُشَدَّدَةٌ.

وَأَمَّا أَنَّهُ يَغْفُرُهُمْ بِفِيوضِ إِحْسَانِهِ، فَيُفْهَمُ ذَهْنًا بِدَلَالَةِ اللَّزُومِ الْعَقْلِيِّ، وَدَلَالَاتِ نصوص قرآنية كثيرة، فَمَنْ أَحَبَّهُ اللَّهُ ضَاعَفَ لَهُ الثَّوَابَ عَلَى أَعْمَالِهِ، وَزَادَهُ مِنْهُ قُرْبًا، وَكَرِهَ مَسَاءَتَهُ، وَأَحَبَّ مَسْرَتَهُ، فَأَعْطَاهُ حَتَّى يَرْضِيَهُ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ فَيُوضِ إِحْسَانِهِ.

وأولى المساجد بأن ينطبق عليه - إِبَانُ التَّنْزِيلِ فِي الْمَدِينَةِ بِالمُقَارَنَةِ مَعَ مَسْجِدِ الضَّرَارِ - أَنَّهُ لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ وَفِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا مَسْجِدَانِ: أَرْفَعُهُمَا مَسْجِدُ الرَّسُولِ، وَبَعْدَهُ مَسْجِدُ قُبَاءَ.

أَمَّا مَسْجِدُ الرَّسُولِ، فَقَدْ وَرَدَ بِشَأْنِهِ مَا يَلِي:

رَوَى مُسْلِمٌ وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُمَا عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ:

اختلف رجلان: رجلٌ من بني خُذْرَةَ، ورجُلٌ من بني عَمْرُو بْنِ عَوْفٍ، في
المَسْجِدِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى.

فقال الخُذْرِيُّ: هو مسجد رسول الله ﷺ.

وقال العَمْرِيُّ: هو مسجد قُبَاء.

فأتى رسول الله ﷺ فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ فقال:

«هُوَ هَذَا الْمَسْجِدُ لمسجد رسول الله ﷺ وقال: «وفي ذلك خيرٌ كثيرٌ» يعني
مَسْجِدَ قُبَاء.

وروي عن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ، وعن أَبِي بِنِ كَعْبٍ، وعن زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ،
عن النَّبِيِّ ﷺ نحو ما جاء في حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، وبه قال ابْنُ عُمَرَ وَجَمَاعَةٌ
غير رِوَاةِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ.

وأما مَسْجِدُ قُبَاءَ فَقَدْ رُوِيَ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ هُوَ الْمَقْصُودُ
بِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾.

وجاءت عدّة روايات في المراد من قوله تعالى:

﴿فَيَذَرُهَا لِيُحِبُّونَ أَنْ يَنْظَهُرُوا﴾.

تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ أَهْلُ مَسْجِدِ قُبَاءَ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا اسْتَنْجَوْا يَغْسِلُونَ أَذْيَارَهُمْ
بِالْمَاءِ، وَلَا يَفْتَنِرُونَ عَلَى الْاسْتِجْمَارِ بِالْحِجَارَةِ، وَبَعْضُ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ ذَاتُ أَصَانِيدٍ
صَحِيحَةٍ.

وجاءت بعض روايات أخرى تدلّ على أَنَّهُمْ أَهْلُ مَسْجِدِ الرُّسُولِ.

بعد هذا أقول:

إِنَّ النَّصَّ الْقُرْآنِيَّ عَامٌ يَنْطَبِقُ بِمَقْتَضَى عَمُومِهِ عَلَى كُلِّ مَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى
مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ، وَفِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَنْظَهُرُوا طَهَارَةً حَسْبَهُ وَطَهَارَةً مَعْنَوِيَّةً، بِاعْتِبَارِ أَنَّهُمْ
مُؤْمِنُونَ صَادِقُوا الْإِيمَانِ.

وفي مقدمة المساجد التي ينطبق عليها هذا الوصف في المدينة يومئذ مسجد الرسول، ثم مسجد قباء، وقد يفهم هذا من بيان الرسول على ما روى أبو سعيد الخدري في الحديث الصحيح، إذ ذكر مسجده أولاً، على اعتبار أنه هو الآخر، وبعد ذلك قال بشأن مسجد قباء: «وفي ذلك خير كثير» فجعله مشاركاً في استحقاق القيام فيه بإثبات أن فيه خيراً كثيراً، فالبيان هو من باب تخصيص الدرجات الأولى في مساجد المدينة وما حولها يومئذ، ولا يقتضي هذا نفي مشاركة كل مسجد آخر يتحقق فيه الوصف الوارد في النص، كما لا يقتضي نفي ما هو خير منهما وهو المسجد الحرام في مكة.

ومن حسن التدبر أن نفهم أن النص باقٍ على عمومته، وليس من قبيل العام الذي أريد به الخصوص.

وفي فضل مسجد الرسول وردت أحاديث متعددة، منها:

(١) روى مسلم والنسائي عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال:

«صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام، فإني آجر الأنبياء، وإن مسجدي آجر المساجد».

أي: آجر مساجد الأنبياء والمرسلين، لا آخر المساجد على الإطلاق، فقد بُنيت مساجد أخرى في عهده ﷺ.

(٢) وروى الإمام أحمد والبيهقي بإسناد صحيح عن جابر، أن الرسول ﷺ قال:

«صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مئة ألف صلاة فيما سواه».

وفي فضل مسجد قباء وردت أحاديث أخرى أيضاً منها:

(١) روى البخاري ومسلم عن ابن عمر قال:

«كان النبي ﷺ يأتي مسجد قباء كل سنة ماشياً وزاكياً فيصلي فيه ركعتين».

(٢) وروى ابن ماجه عن «أسيد بن ظهير الأنصاري» وكان من أصحاب

النبي ﷺ، أن النبي ﷺ قال:

«صَلَاةً فِي مَسْجِدٍ قِبَاءٍ كَعُمْرَةٍ».

ذكر ابن كثير في تفسيره، أنه حديث صحيح، وقال في جمع الفوائد هو للمستة إلا الترمذي.

(٣) وروى ابن ماجه أيضاً عن «سَهْلِ بْنِ حَنْظَلٍ» قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ نَظَهَرَ فِي بَيْتِهِ، ثُمَّ أَتَى مَسْجِدَ قِبَاءٍ فَصَلَّى فِيهِ صَلَاةً كَانَ لَهُ كَأَجْرِ عُمْرَةٍ».

(٤) قال ابن كثير في تفسير الآية التي نحن بصددھا: وفي الحديث أن

رسول الله ﷺ لما بنى مسجد قباء وأسمه أول قدمه، ونزوله على بني عمرو بن عوف، كان جبريل هو الذي عيّن له جهة القبلة.

• قول الله تعالى:

﴿أَفَمَنْ أَسْسَ بَلِيكُنْهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسْسَ بَلِيكُنْهُ عَلَىٰ شَفَا حُرْفٍ حَارٍ فَاتَّخَذَهُ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٨﴾﴾.

البيان: مصدر بنى بُنِيَ بُنْيَانًا وبناء بُنْيَانًا، ويُطلقُ البُنْيَانُ على الشيء الذي بُنِيَ.

يَعْقُدُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ في هذه الآية مقارنة بين فريقين:

الفريق الأول: فريق مؤمن مُسْلِمٌ صادق الإيمان حسن الإسلام، ائْتَجَعَ قَلْبُهُ بِتَأْيِيدِ بَوَاعِثِ إِيْمَانِهِ الصَّادِقِ وَإِسْلَامِهِ الْحَسَنِ، القَائِمِ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَابْتِغَاءِ رِضْوَانِهِ، لِتَأْسِيسِ بُنْيَانٍ مِنَ الْإِنْبِيَةِ الْحُسْبَى كَمَسْجِدٍ لِلْعِبَادَةِ وَالذِّكْرِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتَعْلِيمِ الْعُلُومِ النَّافِعَةِ الَّتِي يُرْضِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ تَعْلِيمُهَا وَمُدَارَسَتُهَا وَنَشْرُهَا.

وهذا الفريق قد أقام بعمله بُنْيَانًا مُعْنَوِيًّا من خلال البيان الحسِّي قائمًا على قاعدتين عظيمتين: قاعدة: «تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ أَي: قَاعِدَةُ اتَّقَاءِ عَذَابِ اللَّهِ بِإِذَاءٍ مَا فَرَضَ وَاجْتَنَابِ مَا حَرَّمَ. وقاعدة: «رِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَيضًا، بالتوسُّعِ فِي أَعْمَالِ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ، أَي: قاعدة ابتغاءِ رِضْوَانِ يَغْمُرُهُمْ مِنَ اللَّهِ، تَأْتِيهِمْ بِسَبِيهِ قِيُوضُ إِحْسَانِهِ، وهاتان القاعدتان تشبهان أرضاً صُلْبَةً راسخة ثابتة ذات منافع ثرة تتفجر بالعطاء السخي.

الرُّضْوَانُ: كالرُّضَا مُضْدَرُ فَعَلَ رَضِيَ، نقول: رَضِيَ بِهِ وَعَنهُ وَعَلَيْهِ رِضًا، وَرِضَاءً، وَرِضْوَانًا، وَمَرْضَاةً.

وفي التعبير بقوله تعالى:

﴿أَفَمَنْ أَسَمَىٰ بُنْيَكُنْهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ؟﴾:

إِبْدَاعُ قَائِمٍ عَلَى دَمَجِ صَوْرَتَيْنِ: جَسَدِيَّةٍ وَمَعْنَوِيَّةٍ فِي صُورَةٍ وَاجِدَةٍ، أُخِذَ مِنَ الصُّورَةِ الْجَسَدِيَّةِ عِبَارَةٌ: ﴿أَسَمَىٰ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ﴾ وَأُخِذَ مِنَ الصُّورَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ عِبَارَةٌ: ﴿تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ﴾.

فقام هذا التعبير مقامَ كلامٍ طويلٍ يمكن أن نُوجِزُهُ بأن نقول: أَفَمَنْ غَمِلَ أَعْمَالًا صَالِحَةً فِي مَظْهَرِهَا وَحَقِيقَتِهَا، وَمَثَّلَهَا كِبَاءً حَسَنًا مِنَ الْأَبْنِيَةِ الْمَادِيَّةِ، وَهَذِهِ الْأَعْمَالُ تَرْتَكِزُ عَلَى قَاعِدَتَيْنِ إِيمَانِيَّتَيْنِ مُؤَثِّرَتَيْنِ، هُمَا تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ، وَهَاتَانِ الْقَاعِدَتَانِ الْمَعْنَوِيَّتَانِ تَشْبِهَانِ أَرْضًا صُلْبَةً رَاسِخَةً ثَابِتَةً ذَاتَ مَنَافِعٍ ثَرَّةٍ تَنْفَعُ بِالْعَطَاءِ السَّخِيِّ؟

أفصاحبُ هذا البناءِ خيرٌ أم صاحبُ البناءِ الآخر الذي أسَّسه الفريقُ الثاني؟!

الفريقُ الثاني: فريقُ كَافِرٍ بَاطِنًا مُنَافِقٍ سَلَوَكًا، يَتَظَاهَرُ بِالْإِسْلَامِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فِي ظَاهِرِهَا، وَقَدْ اتَّجَهَتْ بِوَاعِثِ كُفْرِهِ وَمَكْرِهِ وَكَيْدِهِ لِتَأْسِيسِ بِنْيَانٍ مِنَ الْأَبْنِيَةِ الْحَسِيَّةِ، كَمَسْجِدِ ضَرَارٍ، وَكُفْرِهِ، وَتَفْرِيقِ بَيْنِ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِرْصَادِ لَمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ.

وهذا الفريقُ قد أَقَامَ بِعَمَلِهِ بِنْيَانًا مَعْنَوِيًّا مِنْ خِلَالِ الْبِنْيَانِ الْجَسَدِيِّ قَائِمًا عَلَى مَظْهَرِ إِسْلَامٍ تَحْتَهُ كُفْرٌ وَمَكْرٌ وَكَيْدٌ ضِدَّ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَهَذَا الْمَظْهَرُ الْإِسْلَامِيُّ الْكَاذِبُ يُشَبِّهُ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ.

الشُّفَا: حَرْفُ الشَّيْءِ وَطَرَفُهُ، وَبَعْدَهُ تَكُونُ الْهَاطِيَّةُ.

وَالْجُرْفُ: شِقُّ الْوَادِي إِذَا خَفَرَ الْوَادِي مِنْ أَسْفَلِهِ، فَهُوَ عُرْضَةٌ لِلانْهِيَارِ السَّرِيعِ.

هَارٍ: أَي: مُتْساقط، أَوْ هُوَ قَرِيبٌ مِنَ السَّقُوطِ وَالانْهِيَارِ إِلَى أَسْفَلِ الْوَادِي.

ويلاحظ أنَّ التعبيرَ بقوله تعالى:

﴿أَمْ مَنْ أَسْخَسَ بُنْيَكُنْهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَتَاهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ :

إبداعاً أيضاً قائم على ذمّج صورتين جسيّة ومعنويّة في صورة واجدة، نظير التعبير السابق الوارد بشأن الفريق الأول.

وهنا أخذ من الصورة الحسيّة عبارة:

﴿أَسْخَسَ بُنْيَكُنْهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَتَاهَارَ﴾ .

وأخذ من الصورة المعنويّة عبارة:

﴿بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ :

أي : فأتاهار بناءؤه المعنوي في جُرم عقابه عند الله العذاب في نار جهنم يوم الدين .

وقام التعبير هنا أيضاً مقام كلام طويل يمكن أن نُوجزه بأن نقول : أم من عمل أعمالاً صالحاً في مظهرها إجرامية في حقيقتها، ومثلها كبناءه جسي من الابنية الماديّة، وهذه الأعمال ترتكز على النفاق الذي ليس من تحته إلّا الكفر، وهذا النفاق يشبه شفا جُرفٍ متداعٍ إلى الانهيار، فلا يلبث البناء أن يرتفع قليلاً حتّى ينهار في الوادي، وكذلك ينهار البناء المعنوي الذي يؤسسه المنافق هو وبانيه في نار جهنم، أو ينهار بانيه بسببه في نار جهنم؟!

والاستفهام الوارد في الآية يُراد منه انتزاع الاعتراف بنفي التساوي بين الفريقين، من خلال تقديم البيان التصويري الكاشف للفرق الشاسع بين الرضوان من الله للمتقين الذي يقترن بالثواب العظيم في جنّات النعيم، وبين الانهيار في نار جهنم الذي يجلبه سخط الله وغضبه على المجرمين .

وختم الله عز وجل الآية بقوله :

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ .

أي : ومن حكمه الله عز وجل أنّه لا يحكم بالهداية للقوم الظالمين من مستوى

الظلم الذي يكون به صاحبه كافرًا، و«أَل» في كلمة: «الظالمين» هي للدلالة على استجماع أنقل عناصر الظلم التي يكفر بها مرتكبها.

وبما أن مؤسسي مسجد الضرار منافقون مجرمون مرتكبون أقبح انواع الظلم الذي هو من مستوى الكفر، فإن الله لا يحكم لهم بالهداية، لذلك فهم يستحقون العذاب في نار جهنم.

* قول الله تعالى :

﴿لَا يَزَالُ بَيِّنُهُمُ الَّذِي بَوَّارِبُهُ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ﴾ (١١).

و[إلى أن تقطع قلوبهم] في قراءة أخرى.

و[إلا أن تقطع قلوبهم] في قراءة ثالثة.

الرؤية: تأتي بمعنى الشك، والظن، والتهمة، وتأتي بمعنى المساءة والانزعاج والخوف، لأن الشك في سوء العاقبة يولد الخوف المستمر في القلوب والانزعاج.

تقول لغة: رابه الأمر يريه زياً وريه، أي ادخل عليه شراً وخوفاً، ورابه إذا ساءه وأزعجه.

فالمعنى فيما يظهر: لا يزال بيان المنافقين لمسجد الضرار الذي بنوه قريباً من مسجد قباء، يسبب لهم خوفاً وقلقاً وانزعاجاً، حذراً من سوء المصير الذي يتوقعونه على سبيل الشك والظن، إذ يخشون أن يكشف أمرهم، وإنزال العقوبة بهم من قبل الرسول والمؤمنين. وأن هذه الحالة ستلازمهم حتى تقطع قلوبهم، مما يعانونه من خوف وقلق، فبشدة الخوف تقطع القلوب، فتنتهي الحياة بتقطعها، وهذا كناية عن موتهم من شدة الخوف، وجاء التعبير عن احتمال تعرضهم لهذه الحالة بعبارات ثلاث، وردت في قراءات ثلاث، هي: [إلا أن تقطع قلوبهم] - [إلا أن تقطع قلوبهم] - [إلى أن تقطع قلوبهم].

وختم الله الآية بقوله :

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١١٠)

إشارة إلى أنه سبحانه عليم بما في قلوبهم من كُفر ونفاق وكيد ومكر، حكيم فيما يدبر من أمر بشأنهم في عاجل أمرهم وآجله .

● ● ●

العقد الرابع

بيانات وتوجيهات تتعلق

بقضايا وردت في العقود السابقة

• قول الله عز وجل:

[illegible]

وَعَفَوْا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٣﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٤﴾

القراءات

* قرأ جمهور القراء العشرة: [فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ] بالفعل المبني للمعلوم أولاً،
فالفعل المبني للمجهول.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف: [فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ] بالفعل المبني للمجهول أولاً،
فالفعل المبني للمعلوم.

وقد دلت القراءة الأولى على سبق تسلط الله المؤمنين على عدوهم، إذ يكونون
هم القاتلين من الكافرين أولاً، ودلت القراءة الأخرى على سبق تسلط الله الكافرين
على المؤمنين، إذ يكون المؤمنون هم المقتول منهم أولاً.

والحالتان كلتاها تحدثان، فجاءت القراءتان دالّتين عليهما.

* قرأ جمهور القراء العشرة: [إِبْرَاهِيمَ] في الموضعين من الآية (١١٤).

وقرأ هشام عن ابن عامر الشامي [إِبْرَاهِمَ] في الموضعين أيضاً.

والقراءتان لغتان في نطق لفظ اسم الرسول إبراهيم عليه السلام عند العرب.

* قرأ جمهور القراء العشرة: [الْعُسْرَةَ] بإسكان السين.

وقرأ أبو جعفر المدني: [الْعُسْرَةَ] بضم السين.

والقراءتان لغتان في نطق الكلمة عند العرب.

* قرأ جمهور القراء العشرة: [تَزْيِغٌ] بالتاء مراعاة لتأنيث جمع قلوب، فكل
جمع مؤنث في لسان العرب.

وقرأ حمزة، وحفص عن عاصم: [يَزْيِغُ] بالياء نظراً إلى أن لفظ [قلوب] مجازي
التأنيث.

والقراءتان وجهان عربيان في كل ما هو مجازي التأنيث.

التدبر

في الآية (٣٨) من هذه السورة نادى الله الذين آمنوا بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْخُذْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾

وفي الآية (٤١) قال الله لهم:

﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

هذا الخطاب للمؤمنين في أثناء السورة، الذي تبعه بيان ظواهر المنافقين السلوكية في آيات كثيرات، وثناء على الرسول والمؤمنين معه، بأنهم جاهدوا فعلاً بأموالهم وأنفسهم في الآية (٨٨) استدعى حث جميع المؤمنين على القتال في سبيل الله، حينما تقتضي المصلحة الإسلامية ذلك، وترغيبهم فيه، بأنه مبايعة مع الله فيها معاوضة، هم يذلون أنفسهم وأموالهم في سبيله، والله يُقدِّم لهم مقابل ذلك الجنة يوم الدين، فمن عقل استبشر بهذه الصفقة الربحية ربحاً عظيماً، فأنجز المبايعة مع الله، فقال بذلك فوزاً عظيماً.

وإذ بُتَّ الله عز وجل من جهة عقد المبايعة لمن شاء أن يُبايع من المؤمنين حتى آخر مؤمن في الحياة الدنيا، وجعله مفتوحاً، فما على من يريد هذه المبايعة إلا أن يَبْتَ من طرفه العقد بالإرادة والتنفيذ لتكون له الجنة عوضاً، قال عز وجل:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآبٍ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴿١١١﴾﴾

فأبان تبارك وتعالى مؤكداً أنه قد أنجز من جهته عقد هذه المبايعة، بصيغة

﴿اشْتَرَيْ﴾ أي: أتمَّ الشراءَ وَتَشْتَهُ، ولكنَّ استكمال عقد المبايعة إنما يتم حينما يثبتُ المؤمن في أي وقت قادم من قبْلِهِ هذا العقد مع ربِّهِ بالإرادة الصادقة، الَّتِي تَسْتَبِيعُ التنفيذَ كُلِّمَا اقتضى الأمر ذلك .

والمظهر التنفيذيُّ لهذا العقد مع الله من جِهَةِ المؤمنين دَلَّ عليه قوله تعالى :

﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ...﴾ ﴿٣٤﴾ :

أي: إنَّهُم يدخلون في حرب مع الكافرين إذا اقتضت مصلحة الإسلام والمسلمين قيام حرب معهم، فَيُقَاتِلُونَهُمْ في سبيل الله وابتغاء مرضاته، لا في سبيل آخر غير سبيل الله، فقد يُقَاتِلُونَ مَنْ عَدُوَّهُمْ، وقد يُقَاتِلُونَ بِأَيْدِي أعدائهم، والمعارك سبجاً، فمرة تكون فواتح النصر للمؤمنين، ومرة تكون هذه الفواتح للكافرين، لكن خاتمة النصر المبين تكون للمؤمنين الصادقين الملتزمين منهج الله وتعاليمه في السلم والحرب، وهذا ما دلت عليه القراءتان في [يُقَاتِلُونَ وَيُقْتَلُونَ] ودلت على النصر المبين للمؤمنين الصادقين نصوص قرآنية أخرى.

ولمَّا كان العوض الذي يظفر المؤمنون به من رَبِّهِمْ عوضاً مؤجَّلاً إلى يوم الدين كبيع السلم، كان في الحياة الدنيا وعداً من الله، أمَّا وفاء هذا الوعد فيكون بعد البعث إلى الحياة الأخرى، وليبان هذا قال تعالى :

﴿وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقًّا...﴾ ﴿٣٥﴾ :

أي: وعداً حقاً عليه سبحانه وتعالى، ألزم نفسه بأدائه فمن حقَّ المؤمن أن يطالبَ ربَّه به يوم الدين.

﴿عليه﴾ متعلق بـ ﴿حَقًّا﴾ قُدِّم على عامله للتنبية على أنَّ الله يلتزم لعباده بوفاء حقوق جعلها لهم بالوعد الصادق، الذي هو ثمرة عقد مبايعة بين الله وعباده المؤمنين.

وقد شُبِّهَتْ عملية الاتفاق القائمة على بذل المؤمن نفسه وماله مقابل مجازاة الله له بالجنة يوم الدين، بصفقة شراء وبيع، والثمن الموعود به هو استحقاق امتلاك الإقامة الأبدية بالجنة والتنعم الأبدية بنعيمها العظيم.

ولمَّا كان عقدُ الشراء والبيع هذا عقدًا ثابتاً في الشرائع الربانية منذ رسالة موسى

عليه السلام، حتى بعثة محمد ﷺ، وكان مبيناً في التوراة، ومبيناً في الإنجيل، ومبيناً في القرآن، وكان الجهاد في سبيل الله بالقتال شريعة منزلة على بني إسرائيل وكل أنبياء ورسل بني إسرائيل منذ عهد موسى، أبان الله تعالى أن هذا العقد منزل في التوراة والإنجيل والقرآن، فقال تعالى:

﴿وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ...﴾ (٣٣)

ولذلك دعا موسى عليه السلام بني إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدسة مقاتلين، فجنّوا، وطبق بنو إسرائيل بعد موسى شريعة القتال في سبيل الله في عهود متعدّدة من عهود أنبيائهم ورسلهم.

أما اتباع عيسى عليه السلام في عهده وفي نحو ثلاث قرون تلت، فلم تكن لديهم قوة يستطيعون بها مقاتلة الدولة الرومانية الوثنية، وكان جهادهم في هذه الأحقاب مقتصر على جهاد الدعوة إلى دين الله.

وبعد هذا البيان استثار الله عز وجل في المؤمنين عنصراً من عناصر إيمانهم بصفاته، وهو أنه لا أوفى من الله وعداً، وقدم هذه الاستشارة بصيغة الاستفهام التقريري، فقال تعالى:

﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟...﴾ (٣٤)

المعهد: الوعد المؤكّد، والتعاقد المؤثّق على أمر ما، ومنه المبايعة.

وجواب هذا الاستفهام يأتي من قبل المؤمنين: لا أحد أوفى بعهد من الله. «أوفى» أفعّل تفضيل من قولهم: أوفى بوعده أو عهده إذا أذاه وافيّاً غير منقوص.

إذن فالجنة ودخولها والتثمّن بنعيمها بلا نهاية أمرٌ مُحَقَّق لا ريب فيه، لمن باع نفسه وماله لربه مقاتلاً في سبيله، لا يشكُّ بهذه الحقيقة مؤمن بربه، وبما أنزل على رسوله.

وتوجّه الله عز وجل للمؤمنين الذين عقّدوا مع ربهم هذه المبايعة الرابحة، ووضعوها بأعمالهم موضع التنفيذ، فقال لهم:

﴿فَاسْتَبَشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ...﴾ (٣٥)

أي: فافرحوا واستمتعوا بالسرور بسبب بيعكم الذي بايعتم عليه ربكم، فقد ربحتم به ربحاً عظيماً.

يقال لغة: بايع فلان فلاناً على كذا، أي: عاهده وعاقده عليه. فموقع: «به» بعد: «بَايَعْتُمْ» بَدَلُ: «عليه» يَدُلُّ على أَنَّ فِعْلَ: «بَايَعْتُمْ» قد ضَمَّنَ معنى فعل: «رَبَّحْتُمْ» فَعَدِّي تعديته، والتقدير: فاستبشروا ببيعكم الذي بَايَعْتُمْ عليه رابحين به.

ولَمَّا كَانَ هَذَا الْبَيْعَ الرَّابِعَ رِبْحًا عَظِيمًا يُحَقِّقُ لِمَنْ بَاعَ وَنَقَذَ فَوْزًا عَظِيمًا، قَالَ
الله تَعَالَى فِي آخِرِ الْآيَةِ:

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿١١١﴾ :

الفوز في اللُّغة يأتي بمعنى: الظفر، والنجاة من الشرّ، والربح، وهذه كلّها ستَحَقُّ لأصحاب هذا البيع يوم الدين، وللدلالة على ارتفاع منزلته أشار الله إليه باسم الإشارة الخاص بالمشار إليه البعيد.

بعد هذا أبان الله تعالى الصفات المعتادة لأصحاب هذا البيع من المؤمنين، الذي يبايعون عليه عند مقتضيات القتال في سبيل الله، فقال تعالى:

﴿التَّائِبُونَ الْعَمِدُونَ الْمُغَيَّرُونَ السَّامِعُونَ الرَّكْعُونَ
السَّاجِدُونَ الَّذِينَ أَلَمُوا بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ
اللَّهِ وَيَشِرُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١١٢﴾ :

أي: هم المستجمعون لهذه الصفات، الممارسون لها فيما هو من عاداتهم، ولذلك يهون عليهم أن يبيعوا أنفسهم وأموالهم، ويذلّوها راضين فرحين مستبشرين.

وجاءت الصفات مرفوعة مع أنَّ الموصوف وهو لفظ: ﴿المؤمنين﴾ في الآية السابقة مجرور، على طريقة قطع الصفة عن موصوفها، وفي حالة قطع الصفة عن الموصوف المتعین بدونها يجوز الرفع بتقدير مبتدأ محذوف، ويكون من الضمائر، ويجوز النصب بتقدير فعل مناسب محذوف، مثل (أَمْدَحُ - أَحْصُ - أَدُمُّ - أَذْكَرُهُ ونحو ذلك، كما يقرّر علماء العربية).

وصفات المؤمنين الذين يهون عليهم بذل أنفسهم وأموالهم ابتغاء مرضاة ربهم،
فرحين راضين مستبشرين بما أعد الله لهم من أجر عظيم، هي صفات ثمان:

الصفة الأولى: ﴿التَّائِبُونَ﴾:

أي: الذين تابوا إلى بارئهم من ذنوبهم، راجعين إلى طاعته، والعمل بمراضيه،
والمحافظون على توبتهم.

تَابَ: هي في اللغة بمعنى: رجع، وُحِصَتْ في الاستعمال بمعنى رجوع العبد
إلى طاعة ربه، معترفاً بسابق ذنبه، ورجوع الله إلى عبده بالرضا والتوفيق وعطاءات
العفو والغفران، وفيوض الإحسان.

وجاء ذكر وصف التوبة في أول الأوصاف لأنه الشرط الأول لبدء الارتقاء في
درجات الكمال، وللإشعار بأنه لا يخلو حال المؤمن مهما بلغت استقامته من أن يكون
قد تعرض إلى سوابق ذنوب تستدعي منه أن يتوب إلى ربه منها.

الصفة الثانية: ﴿الْعَائِدُونَ﴾:

أي: العابدون ربهم بمختلف أنواع العبادة المشروعة التي أنزلها على رسوله،
والمحافظون على عباداتهم له طاعة وبراً.

العبادة لله: هي الانقياد والخضوع والتذلل له، والقيام بما يُرضيه من قول
أو عمل ظاهر أو باطن، في السر أو في العلن.

والعبادة التي تبدأ بالطاعة لأوامر الله ونواهيه، هي الخطوة التالية للتوبة، كما أن
التوبة هي الخطوة الأولى بعد الوقوع في المعاصي التي يرتكبها المؤمن، أما توبة غير
المؤمن فتكون بالإيمان بعد الكفر، وبالطاعة بعد المعاصي المرافقة له والناجمة عنه.

الصفة الثالثة: ﴿الْحَامِدُونَ﴾:

أي: المحافظون على الشاء على الله بما هو أهله من صفات كمال، وبما هو منزّه عنه من صفات نقص.

ويجمع كل ذلك عبارة: «الحمد لله» أي: كل الشاء الذي يشمل العلم الربّاني هو لله دون استثناء.

وتفصيل هذا الشاء يأتي من خلال تدبر أسماء الله الحسنى، والتفكير في آثار صفاته في الوجود.

الحَمْدُ في اللّغة: هو الشاء بذكر الجميل من الصفات الموهوبة والمكتسبة، وهو يرادف الممدح.

الصفة الرابعة: ﴿السَّائِحُونَ﴾:

أصل السياحة في اللّغة الذهابُ في الأرض للعبادة والترهّب، مأخوذة من سبّحان الماء إذا جرى على وجه الأرض.

وقد ذكر أكثر أهل التفسير أنّ السائحين والسائحات هم الصائمون والصائمات، رُوِيَ عن ابن عباس وعبد الله بن مسعود أنّ المراد بالسائحين الصائمون، وروى في هذا حديث عن النبي ﷺ لم يبلغ مبلغ الصّحة، وروى عن عائشة قالت: سياحة هذه الأمة الصيام.

وإلى هذا التفسير ذهب مجاهد، وسعيد بن جبیر، وعطاء، وعبد الرحمن السلمي، والضحاك بن مزاحم، وسفيان بن عيينة، وقال الحسن البصري: «السائحون» الصائمون شهر رمضان، وقيل الذين يديمون الصيام.

قيل: وسُمّي الصائم سائحاً، لأنّه يترك اللذات كما يتركها السائح في الأرض.

وقال بعض أهل التفسير السائحون هم المهاجرون، وقال بعضهم هم المجاهدون، وقيل غير ذلك.

وروى أبو داود عن القاسم أبي عبد الرحمن^(١)، عن أبي أمامة، أن رجلاً قال: يا رسول الله ائذن لي بالسياسة، قال النبي ﷺ: «إِنَّ سِيَاخَةَ أُمْنِي الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» وصححه عبد الحق.

وروى ابن المبارك عن ابن لهيعة، قال: أخبرني عمارة بن غزيرة أن السياسة ذكرت عند رسول الله ﷺ فقال:

«أَبَدَلْنَا اللَّهُ بِذَلِكَ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالتَّكْبِيرَ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ».

أقول:

وهذا المعنى الوارد في هذين الحديثين يترجح على غيره، ويُحتمل جهاد السياسة على جهاد الدعوة إلى الله، ونشر الإسلام في الأرض، مقابل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل المجتمع الإسلامي، وهذه السياسة بهذا المعنى هي التي تليق بالذين يُسَاطِعُونَ الله بأن لهم الجنة، باذلين أنفسهم وأموالهم في سبيله، ومن لم يجاهد فالجح إلى بيت الله سياحته، وفي الحج يُكَبِّرُ الله على كُلِّ شَرَفٍ، أي: كُلِّ مرتفع من الأرض، والحج بالنسبة إلى النساء بمثابة الجهاد كما صرح عن النبي ﷺ.

أما الصيام وكذلك الحج وسائر شرائع الإسلام فيمكن إدخالها في صفة الحافظين لحدود الله الآتية، ويمكن أن يقال: من لم يكن في جهاد أو حج أو عمرة فالصيام سياحته، وبهذا نجتمع بين أَوْجِهِ الأقوال.

الصفة الخامسة: ﴿الَّذِينَ كَفُّوا السَّيِّئَاتِ﴾:

أي: الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُحَافِظُونَ عَلَيْهَا، وجاء في النص الاستثناء عن ذكر لفظ الصلاة بذكر الركوع والسُّجُود، لأنهما أَجَلُ أركانها، باعتبارهما المعبرين عن الخضوع لله، والتذلل لوجهه الكريم، أما القيام فهو إقبال إلى الله وتوجه لوجهه،

(١) قال المنذري في مختصره لأبي داود: «القاسم» تكلم فيه أكثر من واحد. قال أحمد محمد شاكر في تعليقه: «القاسم هو ابن عبد الرحمن الشامي، وكنته أبو عبد الرحمن، وهو ثقة، ونفاة ابن معين وغيره، وترجمه البخاري في الكبير، ولم يذكر فيه جرحاً».

وهو أول المراحل، ثم يأتي الركوع تعبيراً عن الخضوع والطاعة، ثم يأتي السجود تعبيراً عن غاية التذلل وأقصى الخضوع، وبه يكون العبد أقرب ما يكون إلى ربه.

الصفة السادسة: ﴿الْأَمِيرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾:

أي: المواظبون على القيام بوظيفة الأمر بالمعروف داخل المجتمع الإسلامي.

والمعروف داخل المجتمع الإسلامي هو ما جاء تحسينه والأمر به في الإسلام، حتى صار معروفاً أنه حسن، وأنه من الفضائل ومن الخير عند المسلمين، سواء أكان الأمر به على سبيل الإيجاب أو على سبيل الندب، وكل ما هو حسن في العقول السوية هو حسن في الإسلام، ومن الأحكام الإسلامية أمور تعبدية لا حكم للعقل فيها.

الصفة السابعة: ﴿وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾:

أي: والمواظبون على القيام بوظيفة النهي عن المنكر داخل المجتمع الإسلامي.

والمنكر داخل المجتمع الإسلامي هو ما جاء تقييده والنهي عنه في الإسلام، حتى صار عند المسلمين أمراً مستقبلاً يستكرونها ويعيبون من يفعله، وكل ما هو قبيح في العقول السوية هو قبيح في الإسلام، وجاء في الإسلام تحريم أمور تعبدنا الله بتحريمها لا حكم للعقل فيها، وعلى المؤمن اجتنابها طاعة لله.

وينبغي أن نعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل المجتمع الإسلامي غير الدعوة إلى دين الله خارج المجتمع الإسلامي، فغير المسلمين يُدْعَوْنَ إلى الحق، وإلى فعل الفضائل التي تدرك عقولهم أنها فضائل، مما أمر به الإسلام، وإلى ترك الرذائل التي تدرك عقولهم أنها رذائل مما نهى عنه الإسلام، فليس كل ما هو معروف أو منكر عند المسلمين هو معروف أو منكر عند غيرهم، حتى إذا دخل داخلون منهم في الإسلام شرعنا في تعليمهم مفردات المعروف، ومفردات المنكر، في المفهومات والتعليمات الإسلامية، وذلك ليعرفوا المعروف منها، ويستكروا المنكر منها.

وجاء فصل صفة النهي عن المنكر عن صفة الأمر بالمعروف بحرف العطف، للدلالة على أنهما صفتان مُتميزتان قد تنفكان عن بعضهما، وذلك لأن كثيراً من مؤدي وظيفة الأمر بالمعروف قد يصعبُ عليهم النهي عن المنكر، خشية غضب مرتكبي المنكر من ذوي الجاه والسلطان، أو الأقربين والأصحاب وذوي الولاء، فيأمرون بالمعروف ويُفَضُّون النظر عن القيام بوظيفة النهي عن المنكر.

الصفة الثامنة: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾:

جَفُظُ الشيء يكون بحراسته وصيانته، وأداء حقوقه بأمانة، وعدم الخيانة فيه، وبالمواظبة على القيام برعايته وبفعل ما يجب نحوه، واجتناب ما يجب تركه بالنسبة إليه.

حُدُودُ الله: هي أحكام شريعته لعباده ذات المقادير المحددة المقدرة، وفيها أحكام تحریم، وأحكام إيجاب، وأحكام إباحة ورخصة، وأحكام ترغيب في الفعل أو ترغيب في الترك.

وأصل الحد ما يُقام عند الجنى لمنع الذين هم خارج الحمى من الدُخول إلى باطن الحمى، أو لمنع الذين هم داخله من الخروج إلى ظاهره.

وقد نهى الله عز وجل عن اقتراب حدوده في بعض النصوص، ونهى عن تعدّيها في بعض النصوص، وتوعّد من بعضي الله وتعدّاهما بالنار وعذاب مهين، ووصف من يتعدّى حدوده تعدّياً مسرفاً بأنهم هم الظالمون، ووصف من يتعدّى حدوده بأنه ظلم نفسه، ووصف النخبة الممتازة من المؤمنين بأنهم حافظون لحدود الله، وهو ما جاء في النص الذي نتدبره.

وهذه النصوص متكاملة فيما بينها، فبعض تُعَدِّي حدود الله يخرج من الإسلام إلى الكفر، وبعضه يوقع في الكبائر، وبعضه يوقع في الصفائر، والمحافظة على حدود الله يرفع إلى مرتبة عليّة من مراتب المؤمنين، كمرتبة الأبرار أو مرتبة المحسنين.

فالحافظون لحدود الله: هم القائمون بما أوجب الله فيها، والمجتنبون

ما حَرَّمَ الله فيها، والمؤدّون حقوقها بأمانة، والمواظبون على القيام برعايتها، ولا يخونون فيما استأنهم الله عليه منها.

وختم الآية التي عدّد فيها صفاتهم بقوله:

﴿وَيُشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١٢)

أي: ويشير جميع المؤمنين الصادقين في إيمانهم بالعاقبة الحسنة ولو لم يكونوا من هؤلاء المبايعين، ولكنّ درجة من دونهم تكون أقلّ من درجتهم.

وجاء في الآية (٨٠) من السورة بالنسبة إلى المنافقين قول الله تعالى لرسوله:

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٨٠).

وجاء في الآية (٨٤) بالنسبة إلى المنافقين أيضاً قول الله تعالى لرسوله:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٨٤).

ثم جاء في هذا البعْد الذي تنديبه بعد بضع وعشرين آية من السورة إكمال البيان حول موضوع الاستغفار للكافرين عموماً، فقال الله عز وجل:

﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (١١٣).

وهنا يرد سؤال، وهو: كيف أذن الله لإبراهيم عليه السلام أن يستغفر لأبيه مع أن أباه كان كافراً؟

فاجاب الله عز وجل على هذا السؤال بقوله تعالى:

﴿وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ

لَهُ وَأَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٣﴾

جاء في سبب نزول هاتين الآيتين عدة روايات ضعيفة بدور أكثرها حول رغبة الرسول في أن يستغفر لأمه، أو لعمه أبي طالب، فلم يأذن الله له بذلك، وجاء في بعض هذه الروايات أن بعض المؤمنين كانوا يستغفرون لأبائهم من المشركين، فنهاهم الله عن ذلك، والحديث الوارد في هذا قال الترمذي بشأنه: حديث حسن. ومهما يكن من أمر فالآيتان مرتبطتان بما ذكرت أنفاً بالنظر إلى وحدة موضوع السورة.

* قول الله تعالى :

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ...﴾ ﴿١١٣﴾

اللام في ﴿لِلنَّبِيِّ﴾ جاءت بعد كون منفي، فهي على ما يقول علماء العربية لام الجحود، ويؤتى بهذه اللام بعد كون منفي لتأكيد النفي بالبلغ تعبير.

والنفي في مثل هذا المقام يراد منه النهي المشدد المؤكد، لأن تأكيد عدم وجود المنفي من قبل المكلفين ذوي الإرادات الحرة يدل على أنه منهي عنه نهياً مشدداً حتى صار من المستبعد جداً وقوع المؤمنين به.

قال أهل التفسير: إن مثل هذا التعبير: [فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ — وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ — مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا — وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً — وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ] ونحو ذلك، يأتي على وجهين:

الوجه الأول: النفي المؤكد، مثل:

﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ﴾.

الوجه الثاني: النهي المشدد، مثل:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾.

فالمعنى: لا يُباح للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين، واقتصر النص

على المشركين، لِأَنَّ الشُّرْكَ أَخْفُ منازل الكفر، وَأَوَّلُ ذُرَكَةٍ من دركاته، فما هو أشدُّ من الشرك من دركات الكفر، كالكفر بوجود الله أصلاً، وكالتفاني الذي يجمع بين الكفر والنفاق، يُفْهَمُ من باب أولي، فلا يجوز للمؤمن أن يستغفر لأي كافر من أخف دركات الكفر حتى أشدها وأخبثها.

ولما كان من ضمن الكافرين مَنْ هُمْ أولو قريبي، وكانت عواطف المؤمنين تتحرك بقوة رغبةً بنجاة الأقربين من الخلود في العذاب، فتدفعهم إلى سؤال الله أن يغفر لهم، قال تعالى عقب النهي السابق:

﴿وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ...﴾ (١١٣)

﴿أولي﴾: بمعنى أصحاب، وهو جَمْعٌ لا واحد له من لفظه، أو اسمُ جَمْعٍ لذو، وتُغْرَبُ مثل إعراب جمع المذكر السالم إلحاقاً به، فيُرْفَعُ بالواو، وينصبُ ويَجْرُ بالياء.

﴿أولي قريبي﴾: أي: أصحاب قرابة كاب وأم وإخ وأخت وابن وابنة ونحوهم. والمعنى: ولو كان المشركون أولي قريبي فلا يجوز للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا لهم.

وجعل الله عز وجل هذا النهي عن الاستغفار للكافرين مقيداً بحالة معرفة المؤمنين كُفْرَ مَنْ يريدون أن يسألوا الله أن يغفر لهم، وعليهم بأنهم من أصحاب الجحيم، فقال تعالى:

﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (١١٣)

أي: من بعد ما ظهر لهم إصرارهم على الكفر، أو موتهم وهم كافرين، فمن مات كافراً فقد تبين أنه من أصحاب الجحيم، ومن أظهر عناده وإصراره على الكفر بعد كل وسائل الإقناع والترغيب والترهيب القرآنية، فقد تبين أنه كافر من أصحاب الجحيم، كالذين قال الله بشأنهم في أوائل سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١)

بعد هذا البيان أجاب الله عز وجل على السؤال الذي يرد عقب توجيه النهي عن

الاستغفار للكافرين حتى أخفهم كُفراً، وهو: كيف أذن الله لإبراهيم عليه السلام بأن يستغفر لأبيه الكافر، فقال تعالى:

﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾:

﴿مَوْعِدَةٌ﴾: مصدر لفعل «وَعَدَ» كالوعد، يقال لغة: وَعَدَهُ يَعِدُهُ وَعْدًا وَمَوْعِدَةً وَمَوْعِدًا.

فأبان الله تعالى في هذه الآية عذر إبراهيم في استغفاره لأبيه، وهو أنه أراد أن يبر بوعده وعده إياه، إذ كان قال له: لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ رَبِّي، أي: وتوسم فيه أن يؤمن مستقبلًا بعد أن فازق بلذته وقومه، وذلك أن أباه خرج معه حين هاجر من العراق هو وزوجته سارة وابن أخيه لوط، فنزلوا أولاً في حران، وهنالك مات أبوه، ثم ارتحلوا إلى أرض الكنعانيين، وهي بلاد بيت المقدس، وكان ذلك بعد أحداث تعرض إبراهيم للتحريق بالنار على يد نمرود، لكن الله خيب نمرود وقومه المشركين إذ أمر النار بأن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم، فكانت كذلك فلم تمسه بأذى، فلما رأى أبوه ذلك، قال «نعم الرب ربك يا إبراهيم» كما روي عن أبي هريرة.

وقد سبق أن أنزل الله عز وجل قبل هذه الآية في سورة (الممتحنة/ ٦٠ مصحف/ ٩١ نزول) أي: قبل التوبة باثنتين وعشرين سورة، قوله تعالى خطاباً للذين آمنوا بعد تحذيرهم من اتخاذ الكافرين أولياء، والتعريض بتلويح حاطب بن أبي بلتعة فيما كان منه من محاولة اتخاذ يد عند مشركي قريش إبان أحداث فتح مكة:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كُفْرًا بِكُرْبَىٰ إِنَّنَا بَيْنَكُمْ وَاَلْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿١﴾﴾.

﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾:

أي: قُدْوَةٌ حَسَنَةٌ.

الأسوة: المقتدى به في قول أو عمل، وإنما يُقْتَدَى عادةً بمن يكون له ظهور محترم بين الناس يُثِيرُ الإعجاب والتقدير، لكنه قد يكون أسوةً حسنة، وقد يكون أسوةً سيئة، كائنة الضلال والإضلال في الناس.

فَعَلَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَتْبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يَقْتَدُوا بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ مُؤْمِنِينَ فِي تَبَرُّهِمْ مِنْ قَوْمِهِمُ الْكَافِرِينَ بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَالَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ مُؤْمِنِينَ هُمْ زَوْجَتُهُ سَارَةَ، وَأَبْنُ أَخِيهِ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فَتَبَرُّهُمْ مِنْهُمْ بِالْقَوْلِ دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾.

وَتَبَرُّهُمْ مِنْهُمْ بِالْعَمَلِ دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ﴾.

فَاتَّبَعَ مُحَمَّدٌ ﷺ مَطَالِبُونَ أَنَّ يَقْتَدُوا بِإِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ مُؤْمِنِينَ فِي هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ.

واستثنى الله من عموم هذا القول والعمل ما كان من إبراهيم تجاه أبيه، وهو أمر لم يُصْرَحْ به في اللفظ، وذلك أنه وعده بأن يستغفر له، فاشتمل هذا على قول باللسان، ووعد أنجزه بالعمل، فقد جعل إبراهيم يستغفر لأبيه تنفيذاً لوعده له، متوسماً منه أنه سيكفر بما كان عليه، ويؤمن بالله وحده، ويثب على ما دعاه إليه، فقد هاجر معه مع من آمن به وأتبعه، وابتعد عن مشركي قومه عبادة النجوم، ودل الاستثناء على أنه مقدر ذهنياً.

أي: لا يحسن أن تقتدوا بإبراهيم عليه السلام في هذا الذي كان منه لأبيه، لأن أباه كان كافراً، والكافر لا يجوز الدعاء له بالمغفرة، لأن الله لا يَغْفِرُ الْكُفْرَ به ولو كان من أخف دركات الكفر، وهو الشرك به.

وأبان الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة (التوبة) أَنَّ عُذْرَ إِبْرَاهِيمَ فِي اسْتِغْفَارِهِ لِأَبِيهِ حَرَصُهُ

على أن يفى بوعده له، وأنه لم يَنْتَهِ بعد أن هاجر معه، أنه ما زال مصراً على الكفر، مُتَمَسِّكاً بما يؤمن به قومه، فلما تبين له ذلك وربما كان هذا حين اقتربت منيته، وأبى أن يعلن إيمانه بالله وحده لا شريك له، وتبين له بذلك أنه عدو لله تبراً منه.

ومع وجود هذا العذر لإبراهيم عليه السلام فإن الله تعالى لم يأذن بالاعتداء به فيه، فقال تعالى في الاستثناء في سورة (الممتحنة/ ٦٠ مصحف/ ٩١ نزول):

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا تُشْفِقَنَّ لَكَ ...﴾ ﴿٤١﴾

أي: وما تبعه من تنفيذ هذا الوعد.

ولا يدخل في الاستثناء قوله:

﴿وَمَا أَمِلْتُكَ لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿٤٢﴾

للعلم بعدم دخوله بداهة، بل هو مما يُقْتَضَى بإبراهيم فيه.

وأثنى الله عز وجل على إبراهيم في آخر آية (التوبة) فقال تعالى:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ ﴿١١١﴾

هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: «إِنَّ» - والجملة الاسمية - والسلام المرحلة.

أواه: الأواه عند أهل اللغة هو الذي يُكْثَرُ من قول «أواه» تعبيراً عن توجعه وحزنه، فالأواه في المعنى هو كثير التوجع الذي يُعبر عنه بقول: «أواه».

يقال لغة: أواه الرجل تأويهاً، إذا قال: «أواه» وهذا اللفظ هو اسم فعل مضارع، بمعنى: «أتوجع» وفي نطقه لغات تزيد على العشر.

وكثرة التأوه تدلُّ بالضرورة الذهني على أن صاحبه كثير الحزن كثير التوجع، ومثل إبراهيم عليه السلام، لا يحزن ولا يتوجع من أجل أمور الدنيا، بل هو يتوجع ويحزن من أجل أمور يراها على غير ما يرضي الله عز وجل، لكنه في ذاته حريص جداً على القيام بمواضي الله عز وجل، فهو إذن لا يتوجع من أجل نفسه، ولا يحزن بسبب ذنوب ارتكبتها، فلم يبق إلا أنه يتوجع ويحزن من أجل أبيه وقومه الكافرين، إذ كان حريصاً

على نجاتهم بالإيمان من الخلود في عذاب الجحيم، وهم لا يستجيئون له، وهذا ينبع من منابع رحمته العظيمة بقومه وبالناس أجمعين.

وَكثْرَةُ نَأْوِهِ الدَّالَّةُ عَلَى كَثْرَةِ تَوَجُّعِهِ وَحُزْنِهِ تَدْفَعُهُ إِلَى أَنْ يَدْعُو اللَّهَ مُتَضَرِّعاً لِمَنْ هُوَ خَرِصٌ عَلَى نَجَاتِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَمَعَ تَضَرُّعِهِ يَكْثُرُ ذِكْرُ اللَّهِ وَيُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ.

فرحمته، وكثرة شفقته، ودعاؤه وتسبيحه، نفهم لزوماً من كونه كثير التأوه، فلا تعارض بين المعنى اللغوي وما ورد من تفسير ماثور للمراد من «أواه» لأن هذه التفسيرات الماثورة تعبّر عن اللوازم التي تقتضيها كثرة تأوه إبراهيم، فقد جاء في الماثور من التفسير لكلمة «أواه» أنه الدعاء، أي: كثير الدعاء لربه، وأنه المتضرّع، وأنه المتضرّع كثير الدعاء، وأنه الرحيم، وأنه المسبح.

وقد وصف الله إبراهيم بأنه «أواه» في موضعين من القرآن الكريم:

الأول: قول الله تعالى في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزل):

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَهُ نُهُ الْبَشَرِئِ يَجِدْ لَنَا فِي قَوْلِ لُوطٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾.

فوصفه الله بأنه أواه إذ أخذ يدعو ويتضرّع من أجل رفع الإهلاك عن قوم لوط، لما أخبره ضيوفه من الملائكة بذلك.

الثاني: ما جاء في النص الذي نتدبره في سورة (التوبة) وقد وصفه الله فيه بأنه أواه في معرض ما كان منه من استغفار لآبيه، رحمةً به وشفقة عليه.

خليمٌ: أي: كثير الحلم، لا تثيره المغضبات التي تستثير بالغضب معظم الناس.

وبعد أن أبان الله عز وجل بياناً جلياً أنه لا يجوز للنبي ولا للذين آمنوا أن يستغفروا للكافرين من بعد ما تبين لهم أنهم كافرون من أصحاب الجحيم، لا بُدَّ أنه قد تخوف من كان من المؤمنين يستغفر لآولي قُرباه أو غيرهم من المشركين من أن يكون قد وقع في الإثم ومخالفة حكم الله، وعرض نفسه للعقوبة، ولو لم يكن لديه

بيان جلي بالتحريم، إذ كان البيان السابق الوارد في سورة (المتحنة) / ٦٠ مصحف / ٩١ نزول) يُمكن أن يُحمل على الترغيب في عدم الاقتداء بإبراهيم عليه السلام في استغفاره لأبيه الكافر، لا على التحريم.

فاقتضى هذا التخوف الذي قد يجعل المؤمنين في حرج من أمرهم إتباع بيان التحريم بيان رفع الحرج عن الذين كانوا يستغفرون للمشركين وهم لا يعلمون أن استغفارهم لهم حرام في دين الله.

ونلاحظ أنه جاء بيان رفع الحرج في صيغة قاعدة كلية عامة تنطبق على هذه الجزئية، وعلى كل أشباهها وأمثالها، وهذه القاعدة الكلية تثبت أن مسؤولية العباد تجاه ربهم، في قضايا أحكام الدين الواجبة أو المحرمة لا تكون إلا بعد أن يبين لهم فيما يُنزل من أحكام ما يجب عليهم فعله، وما يجب عليهم تركه، ليتقوا الوقوع في الإثم وترتب العقاب، بفعل الواجبات وترك المحرمات، فقال الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٦٥)

المعنى: ولا تكونوا في حرج بالنسبة إلى ما كنتم تفعلون قبل أن يبين الله لكم ما يجب عليكم أن تفعلوه، وما يحرم عليكم أن تفعلوه، فليس من سنة الله في محاسبة أي قوم في كل رسالته المنزلة على عباده أن يؤاخذ على فعل شيء أو ترك شيء حتى يبين لهم ما يتقون عقوبة المخالفة فيه فعلاً أو تركاً.

وهذه القاعدة هي إحدى مظاهر صفات العلم والحكمة والعدل من صفات الله عز وجل، فمن مسائل علم الله الشامل أنه ليس من الحكمة ولا من العدل أن يؤاخذ قبل بيان الحكم الديني في المسائل التي لا يُدرك العباد وجوبها أو تحريمها إلا ببيان الشارع لذلك.

إن المواخذة شرطها العلم بالتكليف، والعلم بالتكليف الديني الذي لا يُدرك بالفطرة أو ببداهة العقول، لا بد أن يكون مسبوقاً بالبيان الثابت عن الله بنص منزل، أو ببيان الرسول في سنة ثابتة، وبيان الرسول فرع من فروع بيان الله عز وجل.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾:

نفي بأبلغ أساليب النفي، فاللام في: ﴿لِيُضِلَّ﴾ هي لام الجحود، لورودها بعد كون منفي، وقد سبق شرح هذه الصيغة عند تدبر قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾.

ومعنى ﴿لِيُضِلَّ﴾ هنا: ليقضي وليحكم بضلال قوم ما من آية أمية سابقة وحاضرة ولاحقة، وذلك بأن يحكم عليهم بأنهم عصاة مذنبون مخالفون لأحكام التكليف الدينية في قضايا الواجبات والمحرمات.

﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ﴾:

أي: بعد إذ دعاهم إلى الإيمان، فاستجابوا، وآمنوا، فحكم لهم بالهدى في موضوع الإيمان، وإعلان الإسلام.

﴿حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾:

أي: حتى يبين لهم فيما ينزل من كتاب، أو على لسان رسول من رسله، ما يجب عليهم أن يفعلوه، أو يتركوه، فيتقوا بفعل ما أمروا بفعله، وترك ما نهوا عن فعله، ما يترتب على المخالفة من استحقاق المؤاخاة والعقاب.

ولما كان من مسائل علم الله المحيط بكل شيء أنه ليس من الحكمة ولا من العدل مؤاخاة العباد في أفعال أو تروك هي من أحكام الدين، التي لا تذرك إلا ببيان في كتاب الله أو سنة رسوله، ختم الله الآية بقوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِ﴾:

أي: ومن علمه الشامل لكل شيء أنه ليس من الحكمة ولا من العدل أن يضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون.

وبعد بيان رفع المؤاخاة عن الذين يقعون في مخالفة أحكام الله الدينية وهم يجهلونها دون تقصير منهم، لَوْحِ الله عز وجل بتهديد العصاة وهم في موقع المؤاخاة على المعصية، فقال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ

وَلِي وَلَا نَصِير ﴿١٧٦﴾

في هذه الآية تذكير بثلاث قضايا من قضايا القاعدة الإيمانية، تستثير بواعث الطاعة في قلب المؤمن، حتى لا يقع فيما يعلم أنه مخالف لأحكام الله في الدين فعلاً أو تركاً.

القضية الأولى: أن الله له ملك السموات والأرض، أي: فلا شريك له في الملك، ويلزم عن هذا أن جميع الخلق عباده، مملوكون له، ومن له الملك كله فهو وحده المستحق للطاعة والعبادة فإذا أمر بشيء أو نهى عن شيء لم يكن لعباده خيرة في أن يخالفوا ويعصوا، فإذا عصوا كان من مقتضى ملكه سبحانه أن يسألهم، ويحاسبهم، ويقضي فيهم بالعدل، ويضعهم موضع المؤاخذه، وكان له أن يعاقبهم بالعدل.

دل على هذه القضية قول الله تعالى في الآية:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

القضية الثانية: أن الله هو الذي أحيا الأحياء كلها، وهو الذي يميت، وهو الذي إذا شاء أعاد الحياة للموتى، ولا سيما الذين وضعهم في الحياة الأولى موضع الابتلاء، ولم نجزيهم في الحياة الأولى على أعمالهم الاختيارية، وكان من الحكمة والعدل إعادتهم إلى الحياة للحساب وفصل القضاء وتنفيذ الجزاء، وفي هذا إشارة ضمنية إلى يوم الدين، ومعلوم أن المؤمنين لا يحتاجون في التذكير بيوم الدين لأكثر من أن يأتي في البيان مثل قوله تعالى:

﴿يَحْيِي وَيُمِيتُ﴾

كما جاء في الآية.

القضية الثالثة: أن الذين يقفون يوم الدين للحساب وفصل القضاء وتنفيذ الجزاء على ما كان منهم في الحياة الدنيا بين يدي الله الخالق الباري الذي له ملك السماوات والأرض، لا يجدون يومئذ من دون الله ولياً يتولاهم، بجلب نفع أو ثواب،

أو دفع ضرّاً أو عقاب، ولا يجدون نصيراً ينصّرهم فيغلبُ جنْدُ الله إذا أراد الله تعذيبهم على ما سلف من ذنوبهم.

وتعقيماً على ما سبق من بيان في الآية (٨٨) من أن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وقد دلّ السّباق والسّباق على أن خروجهم إلى غزوة تبوك، وجهادهم فيها من الجهاد الداخل في المراد دخولاً أولياً، أبان الله عز وجل في الآية (١١٧) أنه قد تاب على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة، أي: في الخروج إلى غزوة تبوك، وسمّى الله زمنها ساعة العسرة، لأنها كانت في زمن شديد الحرّ، مع قلة المؤونة، وقلة العتاد، وهذا فوق ما ذكر في الآية (٨٩) من أنه عز وجل أعد لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، فقال تعالى:

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١١٧)

تاب: هي في اللغة بمعنى: رَجَعَ، وَخَصَّتْ في الاستعمال بمعنى رجوع العبد إلى طاعة ربه، معترفاً بسابق ذنبه، ورجوع الله إلى عبده بالرضا والتوفيق وعطاءات العفو والغفران، وفيوض الإحسان.

في ساعة العسرة: العُسْرَةُ: الضيقُ والشدة، وَقِلَّةُ ذات اليد، والأُمُور الَّتِي تَعُسر ولا تَتيسر.

وساعة العسرة يراد منها الزّمن الذي خرج فيه الرسول والمسلمون معه إلى غزوة تبوك، إذ كان زمن شدة حرّ، وكان المسلمون في حالة عُسْرٍ من أمرهم، في الزّاد، والماء، والسّلاح، والعتاد، والمراكب، وتعرّضوا في سفرهم لظمّاً شديداً، وجوعٍ ممض، بسبب قلة الماء والزاد وشدة الحرّ.

﴿كَادَ﴾

يقال لغة: كاد الرجل يفعل كذا، أي: قارب أن يفعله ولم يفعله.

﴿يَزِيغُ﴾:

يميلُ عن القصد، وعن الطريق، يقال لغة: زاع عن الشيء يزيغُ زِيغاً وزُيُوغاً وَزَيَّغَاناً، وزاع يزوغُ زُوعاً وَزُوعَاناً، إذا مال عن القصد، وانحرف عن الصراط السوي، وجاز في منطقه، وكل ميل عن الحق والخير والهدى والطاعة الواجبة زُوغان.

وزيغ القلب وزُوعُهُ: ميلُهُ عن إرادة الاستقامة والطاعة وفعل الخير وميله عن الحق والخير والهدى.

فقوله تعالى:

﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾

أي: من بعد ما قارب حال فريق من الذين اتبعوا النبي في غزوة تبوك أن تعيل قلوبهم عن اتباعه، ويكسبوا مع المخلفين، لكنهم تداركوا أمرهم فلجأوا بالغرزة، فألحقهم الله بمن تاب عليهم أولاً منذ تاب على رسوله.

وكان ممن تابوا أولاً ثم لجأ بالرسول حتى أدركه حين نزل تبوك أبو خيثمة رضي الله عنه، كما ذكر ابن إسحاق.

وكان يتخلف عن ركب المسلمين في الطريق بعض الخارجين مع الرسول ﷺ، فيقول بعض المسلمين له: يا رسول الله، تخلف فلان، فيقول: دَعُوهُ، فَإِنَّ بَكَ فِيهِ خَيْرٌ فَنَسِلْجُهُ الله بِكُمْ، وَإِنْ بَكَ غَيَّرَ ذَلِكَ فَقَدْ أَرَاخَكُمُ الله مِنْهُ.

ولدى تدبر هذه الآية نلاحظ أن الله عز وجل قد أبان أنه قد أنجز توبته على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه خارجين معه إلى غزوة تبوك في ساعة العسرة، ودلت القرائن على أن هذه التوبة من الله عليهم قد كانت ثواباً لهم على خروجهم مجاهدين في ذلك الزمن الصعب الشديد.

وبدا الله بالنبي لارتفاع منزلته وعلو مقامه عنده، وتوبته عليه إنما هي من بعض

تقصيراته بالنسبة إلى حقوق الدرجات العليا من مرتبة المحسنين، لا من تقصيراته بالنسبة إلى حقوق درجات مرتبة المتقين، فهذه معصوم عنها، لأن الله جعله أسوة حسنة للمتقين في كل ما يصدر عنه، أما حقوق مرتبة الأبرار، أو مرتبة المحسنين فهي بالنسبة إلى أهل مرتبة المتقين من نوافل الطاعات، التي لا يفعلها إلا قليل منهم، وإذا فعلوها ارتقوا بها إلى مرتبة الأبرار، أو إلى مرتبة المحسنين.

وذكر الله المهاجرين قبل الأنصار للإشعار بتقدم منزلة خيار المهاجرين على خيار الأنصار، لأنهم آمنوا وتركوا مساكنهم وأموالهم في سبيل الله مهاجرين، وجاهدوا بعد ذلك بأموالهم وأنفسهم، ومنزلة المهاجر المجاهد أعلى من منزلة من آوى ونصر.

فقال تعالى في هذا البيان مؤكداً بلام الابتداء وحرف التحقيق:

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ...﴾ (١١٧)

وكان من الذين اتبعوه فريق اشتد عليهم الخروج في ذلك الزمان العسير الصعب، فذب بعض الوهن والتخاذل إلى قلوبهم، حتى كادت قلوبهم تميل إلى التخلف عن الخروج، أو التخاذل في بعض الطريق، وإلى معصية الرسول في تكليفه الإلزامي بالخروج والمتابعة.

ودل على هذا الفريق قول الله تعالى في الآية:

﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ...﴾ (١١٧)

«كاذ» من أفعال المقاربة تعمل عمل «كان» ترفع الاسم وتنصب الخبر، إلا أن خبرها يجب أن يكون جملة فعلية مشتملة على فعل مضارع فاعله ضمير يعود على اسمها، واسم «كاذ» هنا ضمير الشأن الذي يفيد خطورته. وجملة: «يَزِيغُ قُلُوبُ...» في محل نصب خبر «كاذ».

لكنهم تداركوا أمرهم، فاعتصموا بحبل الطاعة، واتبعوا الرسول إلى تبوك. ويحتمل أن يكون ضمير «منهم» عائداً على مجموع المهاجرين والأنصار، وأن يكون

المراد من هذا الفريق أبا لبابة ومن تخلف معه من أصحابه الذين ربطوا أنفسهم بسواري المسجد.

وهنا يرد سؤال مطوّي وهو: فكيف عامل الله هؤلاء الفريق الذين كادت تزيع قلوبهم؟

فاجاب الله عز وجل على هذا السؤال المطوّي بقوله:

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ...﴾ (١٧)

فدلّ حرف «ثم» على تأخير التوبة عليهم عن توبة الله على المهاجرين والأنصار الذين اتبعوا النبي دون أن تتعرض قلوبهم لمقاربة الزين.

وختم الله الآية بما يناسب توبته من صفاته الحسنى، فقال تعالى:

﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٨)

وهذا من أساليب القرآن المجيد، إذ يربط سبحانه وتعالى تصاريفه بما يلائمها من عناصر القاعدة الإيمانية، ترسيخاً للقاعدة الإيمانية، في صورتها الكلية وفي عناصرها التفصيلية.

وهنا يرد أيضاً سؤال آخر بشأن الذين أمر الرسول بمقاطعتهم، وهم:

(١) كعب بن مالك من بني سلمة.

(٢) ومزاة بن الربيع الغمري، من بني عمرو بن عوف.

(٣) وهلال بن أمية الواقفي، من بني واقف.

وهم الثلاثة الذين صدّقوا رسول الله ﷺ بأنهم تخلفوا عن غزوة تبوك بغير عذر، فخلّفهم الرسول وأرجأ أمرهم، حتى يقضي الله بشأنهم، وأمر بمقاطعتهم نادياً لهم ولغيرهم من المؤمنين الذين قد تحدّثهم نفوسهم بمعصية أمر الرسول، في مثل موضوع التكليف الإلزامي بالخروج للقتال.

والسؤال الذي يرد بالنسبة إلى هؤلاء الثلاثة هو: فماذا فعل الله بهؤلاء الثلاثة الذين أرجأ الرسول أمرهم، وأمر بمقاطعتهم، حتى يقضي الله بأمرهم؟

وقد اجاب الله على هذا السؤال بقوله تعالى :

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوْا أَنَّ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِسُوءِ أَلَّا إِنْ اللَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ :

اي : وتاب أيضاً على الثلاثة الذين خُلِفُوا فلم يقصر الرسول بأمرهم، وأرجأ أمرهم حتى يقضي الله بشأنهم، واستمر إرجاؤهم مُخَلَّفِينَ عن إخوانهم الذين تاب الله عليهم، ومُفَاطِعِينَ من الرسول. ومن المؤمنين، حتى ضَاقَتْ عليهم الأرض بما رَحُبَتْ، وضَاقَتْ عليهم أَنْفُسُهُمْ، وظَنُّوا أَنَّ اللَّهَ مُعَاقِبُهُمْ، وهذا منهم ظَنٌّ لاحتمال أن يتوب عليهم ويغفر لهم، فإذا تحقَّق ظَنُّهُمْ فلا مَلْجَأَ من اللَّه إِلَّا إِلَيْهِ، وهذا من اليقين الإيماني، وقد استدعاه خوفهم من الله ومن أن يُنزل بهم العقاب.

وظلُّوا في هذه الحالة خمسين ليلة هي من أشدَّ ما يكون على قلب مؤمن صادق الإيمان، وكانت مدَّة طويلة بالنسبة إليهم، لذلك قال تعالى حين أنزل البيان بتوبته عليهم :

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِسُوءِ أَلَّا إِنْ اللَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ .

فذكر أنَّ توبته عليهم جاءت متأخرةً بدليل العطف بحرف العطف «ثم» الذي يدلُّ على الترتيب مع التراخي .

قد يقال : أما كان يكفي هذا البيان عن ذكر توبة الله عليهم في صدر الآية؟

وأقول :

نلاحظ بالتدبُّر المتأنِّي أنَّ الله تعالى أراد أن يُبَيِّنَ أَنَّهُم صاروا مشاركين في الدرجة لمن ذكر الله في الآية السابقة أَنَّهُ تَابَ عليهم، وإنَّ أرجأ اللَّه توبته عليهم حتى ضَاقَتْ عليهم الأرض بما رَحُبَتْ وضَاقَتْ عليهم أَنْفُسُهُمْ، فالغرض من هذا الإرجاء التربية والتأديب، لا بيان نزول درجاتهم عن الذين نَلَقُوا قَبْلَهُمْ نَبَأَ توبة الله عليهم .

وقوله تعالى :

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِسُوءِ أَلَّا إِنْ اللَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ .

يدلُّ على غرض التربية والتأديب، حتى لا يغصوا مستقبلاً.

إنهم بالنسبة إلى ما سبق منهم من ذنبٍ قد تابوا إلى الله بالاعتراف بالذنب والاستغفار والندم، وبقي أن يتوبوا إلى الله في المستقبل بالتزام الطاعة وعدم تكرير المعصية، فتأخير توبة الله عليهم بالنسبة إلى ما مضى يُقصدُ منه أن يحافظوا على الرجوع إلى الله دوماً بالتزام الطاعة في المستقبل، وأن لا يكرروا المعصية، لئلا يتعرضوا لما تعرضوا له من همٍّ وغمٍّ في الأولى، فهم من السابقين الذين لا يليقُ بهم ارتكاب مثل هذه المعصية التي تتعلق بقضايا الإسلام والمسلمين الكبرى.

﴿صَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾:

أي: صاقت عليهم الأرض مع رحابتها، فالباء للمصاحبة بمعنى «مع» و«ما» مصدرية تؤوّل هي وما بعدها بمصدر.

يقال لغة: رَحِبَ الْمَكَانُ يَرْحُبُ رُحْباً وَرَحَابَةً، وَرَجِبَ الْمَكَانُ يَرْحُبُ رُحْباً، أي: اتسع، فهو مكانٌ رَحْبٌ، وَرَجِبٌ، وَرُحَابٌ.

هذا التعبير يدلُّ على أن حالة الضيق في النفس تُشعرُ صاحبها بأن الأرض ضيقة عليه، مهما اتسعت حَوْلُهُ أَرْجَافُهَا، ومهما امتدَّ حَوْلُهُ فِصَالُهَا، فحَوَاسُهُمُ الظاهرة تُجسُّ بأنها سجيئة حبيسة ضَمْنِ جُدُرٍ ضاغطة، وهذا من شدة الهمِّ والغمِّ والكرب.

﴿وَصَاقَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ﴾:

أي: وَشَعُرُوا فِي دَاخِلِهِمْ بِأَنَّهُمْ ضَاطِقُونَ بِأَنَّهُمْ ضَاطِقُونَ، فهم في حالة ألمٍ داخليٍّ مضنّرة أنفسهم التي زَيَّنَتْ لَهُمْ ارتكاب المعصية أولاً، ثم أدركوا ما جنوا فخافوا، فصاقت عليهم أنفسهم من شدة الخوف من نعمة الله عليهم.

ومن خلال التعبيرين نُذركَ مبلغَ الشاء عليهم بشدة إيمانهم، وقوّته وعُميقه في قلوبهم، فلو لم يكونوا من أهل الإيمان العظيم القوي العميق ما شعروا بمشاعر الضيق الشديد، والكرب العظيم، بسبب تخلفهم عن الخروج مع الرسول والمؤمنين في غزوة تبوك، ولا استطاعوا أن يلقوا الأعداء، ويتخلصوا من نتائج الاعتراف بالذنب للرسول ﷺ كما اعتذر الآخرون وكانوا بضعاً وثمانين رجلاً.

تفصيل قصة الثلاثة كما قصها كعب بن مالك أحدهم:

روى البخاري ومسلم والإمام أحمد بالفاظ متماثلة أو متقاربة:

قال كعب بن مالك: لم أنخلف عن رسول الله ﷺ في غزاة غزاهما قط، إلا في غزاة تبوك، غير أنني كنت تخلقت في غزاة بدر، ولم يعاتب أحد تخلف عنها^(١)، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد عيمر قرين، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير بيعاد.

ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواقنا على الإسلام، وما أجب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر.

وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، أنني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما جمعت قبلها راجلتين قط، حتى جمعتهما في تلك الغزاة.

وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، فغزاه رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، وعدواً كثيراً، فجلى للمسلمين أمرهم، ليتأهبوا أهبة عدوهم، فأخبرهم بوجههم الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ (يريد بذلك الديوان).

قال كعب: فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى، ما لم ينزل فيه وخي من الله تعالى.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظلال، وأنا إليها أصغر^(٢)، فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه، وطفقت أعدو لي أنجهز معهم، فأرجع ولم أقص من جهازي شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت.

(١) لأن الدعوة إلى غزوة بدر قد كانت نذياً، لا تكليفاً إلزامياً، لذلك لم يعاتب الرسول أحدًا تخلف عنها.

(٢) أصغر: أي: أميل، يقال لغة: ضجر يضرع ضعراً، أي: مال عنقه أو وجهه إلى أحد الجانبين.

قَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتِمَادِي بِـي، حَتَّى اسْتَمَرَّ بِالنَّاسِ الْجَدُّ، فَاصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَادِيًا، وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، وَلَمْ أَقْصِرْ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا.

وَقُلْتُ: أَتَجْهَزُ بَعْدَ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ثُمَّ أَلْحَقُهُ، فَغَدَوْتُ بَعْدَ مَا صَلَّوْا لِأَتَجْهَزُ، فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْصِرْ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْصِرْ شَيْئًا، قَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتِمَادِي بِـي حَتَّى اسْرِعُوا، وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ^(١)، فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَجِلَ فَأَلْحَقَهُمْ فَيَا كَيْتِي فَعَلْتُ، ثُمَّ لَمْ يُقَدَّرْ ذَلِكَ لِي.

فَطَفِئْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَحْزُنُنِي أَنِّي لَا أَرَى لِي أَسْوَةً إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ فِي النِّفَاقِ (أي: يُذَكَّرُ بِأَنَّهُ مُنَافِقٌ) أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الضُّعَفَاءِ.

وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ يَتَّبِعُكَ: «مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ؟».

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِيمَةَ: حَبَسَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَرَكَةُ، وَالنَّظَرُ فِي عِطْفِيهِ.

فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: بِسْمَا قُلْتُ، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا.

فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

فَبَيْنَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ رَأَى رَجُلًا مَبْيُضًا^(٢) يَزُولُ بِهِ السَّرَابُ^(٣)، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ».

فَإِذَا هُوَ أَبُو خَيْثَمَةَ الْأَنْصَارِيُّ، وَهُوَ الَّذِي تَصَلَّقَ بِضَاعِ التَّمْرِ جِئْنَ لَمَرَّةً الْمَنَافِقُونَ.

(١) تَفَارَطَ الْغَزْوُ: أي: فَاتَ وَقْتُهُ. يُقَالُ: تَفَارَطَ الشَّيْءُ إِذَا فَاتَ وَقْتُهُ.

(٢) مَبْيُضًا: أي: يَظْهَرُ لَشَخْصَةٍ بِيَاضٍ مِنْ بَعِيدٍ، وَرَبَّمَا كَانَ يَلْبَسُ ثِيَابًا بِيضَاءً.

(٣) يَزُولُ بِهِ السَّرَابُ: أي: يَرْفَعُهُ السَّرَابُ وَيُظْهِرُهُ.

قال كعبُ بْنُ مَالِكٍ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلًا مِنْ تَبُوكَ حَضْرَنِي بَنِي^(١)، فَطَفَعْتُ أَنْذَكُرَ الْكَذِبِ، وَأَقُولُ: بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا؟ وَأَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي.

فَلَمَّا قِيلَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا، رَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ، وَعَرَفْتُ أَنِّي لَمْ أَنْجُ مِنْهُ بِشَيْءٍ أَبَدًا، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ.

وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَادِمًا، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ يَذَا بِالْمَسْجِدِ، فَرَكَعَ فِيهِ رَكَعَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ، وَيُخْلِفُونَ لَهُ، وَكَانُوا بِضْعًا وَثَمَانِينَ رَجُلًا، فَقَبِلَ مِنْهُمْ عِلَائِيَّتَهُمْ، وَبَايَعَهُمْ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَوَكَّلَ سَرَارِيَّهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

حَتَّى جِئْتُ، فَلَمَّا سَلَّمْتُ نَبَسَ تَبَسُّمُ الْمُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ: «تَعَالِ» فَجِئْتُ أُمِيبِي، حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي:

«مَا خَلَقَكَ؟! أَلَمْ تَكُنْ قَدِ ابْتِغَيْتَ ظَهْرًا؟!»،

قال كعب: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، لَرَأَيْتُ أَنِّي سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، لَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، وَلِكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَيْسَ حَدِيثُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي، لِيُوشِكَنَّ اللَّهُ يُسَخِّطَكَ عَلَيَّ، وَإِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ نَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عُقْبَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرُ مِنِّي جِئْتُ تَخْلُقْتُ عَنْكَ.

قال كعب: فقال رسول الله ﷺ:

«أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ».

وَنَارَ رَجُلًا مِنْ بَنِي سُلَيْمَةَ، فَاتَّبَعُونِي، فَقَالُوا لِي: وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ أَذْبَتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، لَقَدْ عَجِزْتَ فِي أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ بِهِ إِلَيْهِ الْمُخَلَّفُونَ، فَقَدْ كَانَ كَأَنِّيكَ ذَنْبُكَ اسْتَغْفَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَكَ.

(١) حَضْرَنِي بَنِي: أي: حَضْرَنِي حَزْنِي الشَّدِيد.

قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤْتُونَنِي حَتَّى أَزِدْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي. ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيْتُ هَذَا مَعِيَ مِنْ أَحَدٍ؟

قَالُوا: نَعَمْ، لَقِيَهُ مَعَكَ رَجُلَانِ فَلَا بَتْلَ مَا قُلْتَ، وَقِيلَ لَهُمَا بَتْلُ مَا قِيلَ لَكَ.

قَالَ كَعَب: قُلْتُ: مَنْ هُمَا؟

قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَامِرِيُّ، وَهَلَالُ بْنُ أُمَيَّةِ الْوَاقِئِيِّ، فَذَكَرُوا رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَذْرًا، لِي فِيهِمَا أَسُوءَةٌ.

قَالَ: فَمَضَيْتُ جِئْتُ ذَكَرُهُمَا لِي.

وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ.

قَالَ: فَاجْتَمَعْنَا النَّاسُ، وَتَغَيَّرُوا لَنَا، حَتَّى تَنَكَّرْتُ لِي فِي نَفْسِي الْأَرْضِ، فَمَا هِيَ بِالْأَرْضِ الَّتِي كُنْتُ أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً.

فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكْنَا وَقَعَدَا فِي يَوْتِهِمَا يَتَكِنَانِ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبُّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدُهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ، وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَأَتِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَسْلَمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ خَرَكُ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ أَمْ لَا؟، ثُمَّ أَصْلِي قَرِيبًا مِنْهُ، وَأَسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي نَظَرَ إِلَيَّ، وَإِذَا التَّقْتُ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي.

حَتَّى إِذَا طَالَ ذَلِكَ عَلَيَّ مِنْ جَفْوَةِ الْمُسْلِمِينَ، مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّي، وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ، أَنْشُدْكَ اللَّهَ، هَلْ تَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَسَكَتَ، فَعُدْتُ فَنَاشِدْتُهُ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ فَنَاشِدْتُهُ فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ.

فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي فِي سُوقِ الْمَدِينَةِ، إِذَا أَنَا بِنَبِيطٍ^(١) مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، مِمَّنْ

(١) الْأَنْبِطَاءُ شَعْبٌ سَامِيٌّ، كَانَتْ لَهُمْ دَوْلَةٌ فِي شِمَالِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَعَاصِمَتُهُمْ سَلْعٌ، وَتُعْرَفُ الْيَوْمَ بِالْبِئْرَاءِ.

قَدِمَ بِطَعَامٍ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ، يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إِلَيْهِ، حَتَّى جَاءَنِي فَذَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ، وَكُنْتُ كَاتِبًا، فَقَرَأْتُهُ، فإِذَا فِيهِ:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِذَارِ هَوَانٍ وَلَا مُضَيِّعَةٍ، فَالْحَقُّ بِنَا نَوَاسِكَ».

فَقُلْتُ جِئَ قَرَأْتُهُ: وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ، فَتَيَمَّمْتُ بِهِ التَّوَرَّ فَسَجَرْتُهُ بِهِ.

حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الْخَمْسِينَ، إِذَا بِرَسُولِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَأْتِينِي فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزَلَ أَمْرَانِكَ.

فَقُلْتُ: أَطْلُقُهَا، أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟

فَقَالَ: لَا، بَلِ اعْتَزِلْهَا فَلَا تَقْرُبْنَهَا.

وَأَرْسَلَ إِلَيَّ صَاحِبِي بِمِثْلِ ذَلِكَ، فَقُلْتُ لِأَمْرَاتِي: الْخَبِيءُ بِأَهْلِكَ فَكُونِي عَنْدَهُمْ، حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ. فَجَاءَتْ أَمْرَاءَ هَلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَلَالِ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ، لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْلُصَهُ؟ قَالَ: «وَلَا، وَلَكِنْ لَا يَقْرُبَنَّكَ» فَقَالَتْ: إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ، وَوَاللَّهِ مَا زَالَ يَتَّبِعِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا.

فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي أَمْرَانِكَ، فَقَدْ أَذِنَ لَأَمْرَاءَ هَلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ؟

فَقُلْتُ: لَا اسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَمَا يُدْرِينِي مَاذَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنَتْ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ؟.

فَلَبِثْتُ بِذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ، فَكَمَلْتُ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً، مِنْ جِئِ نَهْيٍ عَنْ كَلَامِنَا، ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صَبَاحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بَيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْخَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِنَا، قَدْ ضَافَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَافَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا

رَحُبْتُ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى سَلْعٍ^(١)، يَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ أَبَشِرْ، فَخَرَزْتُ لِلَّهِ سَاجِدًا، وَغَرَفْتُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ الْفَرَجُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالتَّوْبَةِ عَلَيْنَا، فَأَذَنَ^(٢) رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْنَا جِئْنَا صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُشْرُونَ، وَذَهَبَ قَبْلَ صَاحِبِي يُشْرُونَ، وَزَكَّضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا، وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ قَبْلِي، وَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ، فَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ.

فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُشْرِنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبِي، فَكَسَوْتُهُمَا إِثَاءَ بِيَارَتِهِ، وَاللَّهُ مَا أَمْلِكُ يَوْمَئِذٍ غَيْرُهُمَا، وَاسْتَعْرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا.

وَانْطَلَقْتُ أَوَّلُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَتَلَقَّيَانِي النَّاسُ فَوَجَأً فَوَجَأً يُهْتَوِي بِتَوْبَةِ اللَّهِ، يَقُولُونَ: لِيَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ، حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ، وَالنَّاسُ حَوْلَهُ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ يَهْرُولُ، حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَانِي، وَاللَّهُ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرِهِ، فَكَانَ كَعْبٌ لَا يَسْأَلُهَا يُطْلَحَةُ.

قال كعب بن مالك: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قال: وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُوبِ:

«أَبَشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدْتُكَ أُمَّكَ».

فَقُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟

قال: «لَا، بَلَى مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ».

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَبَارَ وَجْهُهُ، حَتَّى كَأَنَّ وَجْهَهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ.

فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِجَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ.

(١) أَوْفَى عَلَى سَلْعٍ: أي: وقف مُشْرِفًا عَلَى جَبَلٍ سَلْعٍ، وهو جبل في المدينة معروف.

(٢) فَأَذَنَ: أي: فَأَعْلَمَ.

فقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَغْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ».

فَقُلْتُ: إِنِّي أَمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بَخَّيْرٌ، وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا نَجَّيْنِي اللَّهَ بِالْصَّدَقِ، وَإِنْ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيْتُ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَتْلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الصَّدَقِ فِي الْحَدِيثِ، مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ بِمَا أَتْلَانِي اللَّهُ تَعَالَى، وَاللَّهِ مَا تَعَمَّدْتُ كَذِبَةً مُنْذُ قُلْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ تَعَالَى فِيمَا بَقِيَ.

قال: وأنزل الله تعالى:

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فِرْقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِهِمْ رءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

قال كعبُ بْنُ مَالِكٍ: فَوَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ فَطُ بَعْدَ إِذْ هَدَانِي اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ. أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ لَا أَكُونَ كَذِبْتُهُ، فَأَمْلِكَ كَمَا مَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ شَرُّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿مَنْ خَلَفَ عَنْ يَدِ اللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَا وَنَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٠﴾ يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٢١﴾﴾.

قال كعبُ بْنُ مَالِكٍ: وَكُنَّا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ خَلَفْنَا عَنْ أَمْرِ أَوْلِيَّكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جِئْنَا خُلَفَاءَ، فَسَابَعْنَاهُمْ، وَاسْتَغْفَرْنَا لَهُمْ، وَارْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْرَنَا، حَتَّىٰ

فَقَضَى اللَّهُ فِيهِ، فَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِقُوا...﴾ وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ بِمَا خُلِقْنَا تَخَلُّفًا عَنِ الْغَزْوِ، وَإِنَّمَا هُوَ تَخْلِيْفُهُ إِيَّانَا، وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ خَلَفَ لَهُ، وَاعْتَدَلَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ.

وختم الله عز وجل هذا البعْدَ مِنَ السُّورَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى خُطَاباً لِلَّذِينَ آمَنُوا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (١١٩):

أي: اتَّقُوا طَاعَةَ اللَّهِ وَرُسُولَهُ، وَلَا تَفْضُوا بِتَرْكِ الْوَاجِبَاتِ وَفَعْلِ الْمَحْرَمَاتِ، لِيَتَّقُوا عِقَابَ اللَّهِ الْعَاجِلَ وَالْآجِلَ.

وَكُونُوا مَعَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ الْمُتَمَتِّعِينَ بِفَعْلِ الْوَاجِبَاتِ وَتَرْكِ الْمَحْرَمَاتِ، وَلَا تَكُونُوا فِي سُلُوكِكُمْ مَعَ غَيْرِ الصَّادِقِينَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، وَضَعْفَاءُ الْإِيمَانِ.

ويظهر أَنَّ هَذَا الْخُطَابَ يُقْصَدُ مِنْهُ بِالذَّرَجَةِ الْأُولَى الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ، ثُمَّ يَدْخُلُ فِي عَمُومِهِ جَمِيعُ الَّذِينَ آمَنُوا، تَحْذِيرًا لَهُمْ مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَرُسُولِهِ، وَمِنْ مَعْصِيَةِ ذَلِكَ.

وقد دعا إلى هذا الختام التوجيهي ما جاء في سوابق هذه الآية من شأنِ الْمُخَلَّفِينَ الثَّلَاثَةَ، وَمَا تَعَرَّضُوا لَهُ مِنْ مُعَاقِبَةٍ بِالْقُطْعَةِ وَالْهَجْرِ مِنَ الرُّسُولِ وَجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ مَا جَرَى لَهُمْ تَرْبِيَةً بِالْعَزْلِ الْمُؤَقَّتِ.

العقد الخامس

تعليمات وتوجيهات حول الخروج للقتال في سبيل الله

• قال الله عز وجل:

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخَصَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْشُونَ مَوْطِنًا يَعْصِمُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿١٢٦﴾ وَلَا يَنْفَقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿١٢٧﴾ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ ﴿١٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اقْبَلُوا إِلَيْنَا يَوْمَ يُكْفَرُ الْكُفَّارُ وَلِيَجْزِيَ الْغُلَاظَةَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿١٢٩﴾

• **قرأ جمهور القراء العشرة:** [وَلَا يَطُورُونَ مَوْطِنًا] بإثبات الهمزة في الكلمتين.

وقرأ أبو جعفر: [وَلَا يَطْوُونَ] بحذف الهمزة، ولحمزة في الوقف وجهان:
الحذف، والتسهيل بين يين.

وقرأ أبو جعفر: [مَوْطِئاً] بإبدال الهمزة ياءً خالصةً وصلًا ووقفًا، وله وجه آخر كالجمهور، وقرأ حمزة في الوقف [مَوْطِئاً] كأبي جعفر.

وهي وجوه من الأداء في النطق.

* * *

نظرة إجمالية حول قضايا هذا العقد

اشتمل هذا العقد من سورة (التوبة) على بيان ثلاث قضايا تتعلق بالخروج إلى القتال في سبيل الله.

القضية الأولى: إلزام سكان عاصمة الإسلام والمسلمين، والمقيمين حولها، بأن يتحمل كل قادر منهم على القتال مسؤولية المشاركة بحسب أوامر القيادة، في بناء الدرع الأول الذي يحمي كيان الدولة الإسلامية، وفي مقدمة هذا الكيان دولتها، وقيادتها، وعاصمتها.

القضية الثانية: تحذير المؤمنين من أن يتفروا للقتال جميعاً، حتى لا يتعرضوا لاحتمال الاستئصال إذا هزموا بل عليهم أن يقسموا أنفسهم إلى نافرين خارجين للقتال، ومقيمين مرابطين في ديارهم، وهذا يكون ضمن تخطيط القيادة.

فلذا تعرض النافرون الخارجون إلى القتال لمصيبة كبيرة في أنفسهم، أو عتادهم، كان المقيمون المرابطون بمثابة مخازن القوة، التي تُمدُّ بالقوى تباعاً، جيشاً بعد جيش.

وحين يرجع النافرون منصورين أو غير منصورين، فإنهم يقدمون للمقيمين المرابطين ما استفادوه من فقه القتال جهاداً في سبيل الله الذي هو من الدين، حول قوى أعدائهم، وطرائقهم وأساليبهم في القتال، وليبينوا لهم ما يجب عليهم أن يحذروه، مما شهدوه في خروجهم، واكتسبوه من خبرات، ولينبذوهم بأن يبينوا لهم مواطن الخطر التي تعرضوا لها، أو اكتشفوها، ومراكز قوى الأعداء، ومدى ما تحتاج إليه من قوى مضادة.

القضية الثالثة: وصية الله للمؤمنين بأن لا ينتقلوا إلى قتال أعداء بعيدين عن ديار الإسلام حتى ينتهوا من قتال الذين يلونهم في ديارهم أولاً بأول، فكلما انتهوا من قتال قوم وصارت أرضهم ضمن رقعة ديار الإسلام، حسن في تدابير الخطط الحربية أن ينتقلوا إلى قتال الذين يلونهم من الأعداء، وهكذا.

فإذا لم يتبعوا هذه الوصية تعرضوا لوجود ثغرات عدوة كافرة ضمن رقعة الدولة الإسلامية، التي تتوسع دائرتها شيئاً فشيئاً، وجرت لهم هذه الثغرات متاعب كثيرة، ومشكلات خطيرة، تُفقد عليهم في الداخل، وتُفقد عليهم خطط توسيع دائرة ديار الإسلام، وربما جاءتهم النكبات من وراء ظهورهم، ومن خلال دائرة ديار الإسلام.

* * *

التدبير

تدبر ما جاء في هذا العقد حول القضية الأولى:

* قول الله تعالى:

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ...﴾ (١٢٠)

كانت المدينة في عصر الرسول ﷺ هي عاصمة الإسلام والمسلمين، فسكانها هم الدرع اللبيق للإسلام وللدولة الإسلامية وقيادتها، وكانت القبائل العربية المستوطنة أو المتنقلة حول المدينة ظاهرة الدرع اللبيق لهذه العاصمة.

لذلك كانت مسؤولية هؤلاء وهؤلاء تُجابه حماية الإسلام ودولته ومسؤولية مضاعفة، فلا يتصور منهم أن يتخلوا عن هذه المسؤولية أو يقصروا فيها، ما داموا هم بطانة درع حماية الإسلام ودولته وظهارتها، إذا كانوا مؤمنين مسلمين حقاً، والمفروض فيهم أن يكونوا صفوة المؤمنين المسلمين، وأن يكونوا تجاه مسؤولية حماية عاصمة الإسلام ودولته من أهل مرتبة الإحسان جهاداً وتضحية وفداء، لا أن يكتفوا بأن يكونوا من أهل مرتبة المتقين فقط.

إن شرف الإقامة في عاصمة الإسلام والمسلمين، وشرف الإقامة في الأسرة المحيطة بها، يتطلب منهم أن يتحملوا أعباء إضافية هي فوق أعباء مرتبة المتقين العاديين من أهل الإيمان، فتقصرهم في واجب الإحاطة بالرسول إذا خرج مقاتلاً في سبيل الله، أو في واجب الإحاطة بأمر المؤمنين من بعده إذا خرج مقاتلاً في سبيل الله،

ليس كقصير المؤمنين الآخرين، من سُكَّانِ الأماكن البعيدة عن العاصمة الإسلامية وما حولها من نُزُلِ الأُسُورَةِ المحيطة بها.

فمن لم يستبعد أن يكون في هذا المجال من المحسنين، فعليه أن يتخذ إقانة أخرى بعيداً عن عاصمة الإسلام ودولته، ويبعداً عن المنازل المحيطة بها، التي هي أسورة حمايتها.

ولكن هذه المسؤولية الإضافية لها عند الله عز وجل ثوابٌ مضاعفٌ يتناسب مع أجر المحسنين، والله لا يضع أجر المحسنين.

فالذي نفهمه من عبارة:

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ...﴾.

هو: ما كان مُستَحَقّاً لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب يتخلفهم عن رسول الله إذا دعاهم إلى الخروج معه مقاتلين في سبيل الله، على مثل دعوته إليهم إلى الخروج لغزوة نبوك، وهذه القيود تفهم من القرائن التي جاءت في سوابق النص.

اسم «كان» هو المصدر المؤول من عبارة: ﴿أَنْ يَتَخَلَّفُوا﴾ وخبرها متعلق ﴿لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ وهذا المتعلق المحذوف يفهم من معنى حرف الجر ﴿لِأَهْلِ﴾ وهو الاستحقاق، وقُدِّمَ خبر «كَانَ» على اسمها للإشعار بالاهتمام ببيان عدم الاستحقاق هذا.

وهنا نلاحظ أن نفي الكينونة الدائم لهذا الاستحقاق يدل على النهي عن التخلّف بآبلغ من عبارة النهي عنه في مثل: يا أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب لا تتخلفوا عن رسول الله، وذلك لأن نفي وجود فعل الشيء من موصوف بوصف ما آبلغ من نهيه عنه، وأدّل على التلازم بين وجود هذا الوصف وانتفاء هذا الفعل، فدرعُ عاصمة الإسلام ودولته، في بطانيته وظهارته، لا يتصور من أفرادها أن يتخلفوا عن قائدهم إذا دعاهم إلى الخروج معهم مقاتلين عدوهم.

إن لكل دولة درعاً بشرياً يتحمّل أعظم العبء، ويضطلع بأكبر مسؤوليات الحماية والدفاع والحراسة. وعاصمة دولة الإسلام والمسلمين لا بد أن يكون جميع

سُكَّانَهَا وَكَذَلِكَ نُنْزِلُهَا هُم الدَّرْعُ الْقَوِيُّ الْبَشَرِيُّ الدَّائِمُ لَهَا، وَمَتَى وَهَنَ هَذَا الدَّنْرُ تُعْرَضُ دَوْلَةُ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ لِلْأَنْهِيَارِ، وَطَمَعَ بِهَا أَعْدَاؤُهَا الْكَثِيرُونَ، وَاسْقَطُوهَا.

وقوله تعالى :

﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ :

معطوفٌ على جملة :

﴿أَن يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ :

أي : وَمَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ، وَمَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يُفْضَلُوا أَنفُسَهُمْ بِالسَّلَامَةِ وَالْأَمْنِ وَالرَّاحَةِ عَلَى نَفْسِهِ.

يقال لغة : رَغِبَ فُلَانٌ بِنَفْسِهِ عَنْ فُلَانٍ، إِذَا رَأَى لِنَفْسِهِ فَضْلًا عَلَيْهِ فِي الْأَمْرِ الَّذِي رَغِبَ بِنَفْسِهِ عَنْهُ، فَلَمْ يُرِدْهُ لِنَفْسِهِ، وَتَرَكَ غَيْرَهُ يَحْمِلُ الْمَسْئُولِيَّةَ وَحْدَهُ.

فعل : «رَغِبَ» يستعمل بوجهين : فيقال : رَغِبَ فِي الشَّيْءِ، إِذَا أَرَادَهُ أَطْمَعَ فِيهِ وَمَالَ إِلَيْهِ. وَيُقَالُ : رَغِبَ عَنِ الشَّيْءِ، إِذَا لَمْ يُرِدْهُ، أَوْ زَهَدَ فِيهِ، أَوْ تَرَكَهُ مُتَعَمِّدًا.

وأبان الله عَزَّ وَجَلَّ السَّبَبَ الدَّاعِيَ إِلَى أَنْ يَحْرَصَ أَهْلُ دَرْعِ عَاصِمَةِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنْ لَا يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ إِذَا خَرَجَ مُقَاتِلًا فِي سَبِيلِهِ، وَدَعَاهُمْ إِلَى الْخُرُوجِ مَعَهُ، وَأَنْ لَا يَتَخَلَّفُوا عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَعْدِهِ إِذَا دَعَاهُمْ إِلَى ذَلِكَ، قِيَاسًا عَلَى حَالَةِ عَصْرِ الرُّسُولِ، أَنَّ أَجْرَهُمْ عَظِيمٌ جَدًّا، فَهُمْ يَشَابُونَ عَلَى كُلِّ مَا يُصِيبُهُمْ مِنْ ظَمًا وَنَصَبٍ وَمَخْمَصَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَكُلُّ مَا يَطُؤُونَ مِنْ مَوَاطِيءٍ يَغِیْظُ الْكُفَّارَ، وَكُلُّ مَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ مِنْ نَيْلٍ، إِذْ يُكْتَبُ لَهُمْ بِكُلِّ صَغِيرٍ مِنْ ذَلِكَ وَكَبِيرٍ عَمَلٌ صَالِحٌ، وَيُنَابِرُونَ عَلَيْهِ ثَوَابَ الْمُحْسِنِينَ، فَقَالَ تَعَالَى :

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمًا وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِیْظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا أَكُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً

وَلَا يَقْطَعُونَ وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ جُنْدٌ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ كَافِرُونَ ﴿١٧٦﴾

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾

المشار إليه عدم تخلفهم عن رسول الله وعدم رغبتهم بأنفسهم عن نفسه.

﴿بِأَنَّهُمْ﴾

أي: بسبب أنهم على يقين بأنهم مجزيون جزاءً عظيماً، هو من نوع جزاء المحسنين، وهو ما جاءت الإشارة إليه بتفصيل ما يصيبهم في خروجهم، أو يكون منهم من عمل.

﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾

أي: مهما كان ظمأً قليلاً.

﴿وَلَا نَصَبٌ﴾

أي: ولا إعياء أو تعب مهما كان قليلاً.

النَّصَبُ في اللغة: الإعياء والتعب، يقال لغة: نَصَبَ نَصْباً، إذا تعب وأغيا.

﴿وَلَا مَخَصَصَةٌ﴾

أي: ولا جوع ناشئ عن خلو البطن من الغذاء، يُقال لغة: خَمَصَ الْبَطْنُ يَخْمَصُ خَمْصاً وَخُمُوصاً وَمَخْمَصَةً إِذَا خَلَا وَضُرَّ، وهو من العلامات الظاهرة الدالة على الجوع.

﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

في الخروج جهاداً في سبيل الله، وسبيل الله يكون بأمرين: بابتغاء مرضاته، وبالتزام المنهاج الذي حدده لطاعته وسلوك عبادته في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا.

﴿وَلَا يَطْعَمُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾

وطء الشيء: دوسه بالقدم، أي: ولا يضعون أقدامهم على موضع يغيظ الكفار

أَنْ يَضَعَ الْمُؤْمِنُونَ أَقْدَامَهُمْ عَلَيْهِ، أَوْ تَضَعَ دَوَابُّهُمْ أَوْ مَرَاقِبُهُمْ مَا هُوَ مِنْهَا بِمَنْزِلَةِ الْأَقْدَامِ.
﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا﴾:

أي: ولا يحصلون من عدو على غنيمه أو ينزلون به مكروهاً.
يقال: نَالَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْالٌ نَيْلًا إِذَا أَصَابَ مِنْهُ شَيْئًا فَهُوَ نَائِلٌ. وَنَالَ يَنَالُ مِنْ عَدُوٍّ إِذَا وَثَرَهُ فِي مَالٍ أَوْ شَيْءٍ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ نَيْلٍ أَتَى، أَي: أَصَبْتُ، وَادْرَكَتُ.
﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾:

أي: لا يكون منهم شيء مما سبق مهما صغر إلا كُتِبَ لَهُمْ به عند الله عمل صالح، والمراد كتابة ذلك لِمَنْ اتَّصَفَ به من المؤمنين المجاهدين في سبيل الله.
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾:

في هذه الجملة دلالة على أن الخروج إلى القتال على ما جاء بيانه سابقاً، هو من أعمال مرتبة الإحسان، وهي أعلى مراتب المؤمنين، ومع أنها من أعمال مرتبة الإحسان التي لا تجب على عموم المؤمنين فهي من واجبات المختارين لأن يكونوا درع عاصمة دولة الإسلام والمسلمين.

أما عموم المؤمنين الذين ليس لهم امتياز خاص بأشخاصهم، أو مهماتهم، أو بيئاتهم فإنهم لا يطالبون إلزاماً إلا بفعل الواجبات وترك المحرمات، التي تقع في حدود مرتبة التقوى، فإذا زادوا عليها من نوافل الأعمال الصالحة كانوا من الأبرار، وربما ارتقوا إلى مرتبة المحسنين، إذا وصلوا إلى حالة: أَنْ يَعْْبُدُوا اللَّهَ كَانَهُمْ يَرُونَهُ.

﴿وَلَا يَفْقُرُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾

أي: في خروجهم مجاهدين في سبيل الله.

يلحظ في أسلوب القرآن أن عبارة التعميم التي يؤتى بها للدلالة على أن الإحصاء يشمل الأشياء صغارها وكبارها، يأتي فيها البدء بالصغير، وبعده يأتي ذكر الكبير، وهذا من الأساليب المعتادة الدارجة على السنة فصحاء العرب، والحكمة في ذلك توجيه الاهتمام إلى ذكر ما قد يتوهم أنه لا يشمل الإحصاء، قبل ذكر غيره، إنلّا يسبق إلى ذهن المخاطب احتمال التغاضي عن الأشياء الصغيرة وإهمالها لدى

الإحصاء، فإذا سبق مثل هذا إلى الوهم كان البيان اللاحق يحتاج تأكيداً لإزالة ما سبق إليه التوهم، بخلاف ما لو ذكر أولاً، فإنه يحصل به العلم على صفحة بيضاء لم تتعرض لغش توهم مخالف، أما بدء الإعلام بإحصاء الصغير، فإنه يعطي دلالة لزومية عقلية على أن الكبير داخل في الإحصاء حتماً، ويأتي البيان ناصراً بالعبارة على ما فهمه ذهننا، وهكذا يكون الأسلوب البياني ملائماً لمقتضيات الحكمة في مراعاة حالة النفس الإنسانية.

﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾:

أي: في رحلتهم الجهادية.

الوادي: كل ما انفرج بين الجبال، أو التلال.

﴿إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ﴾:

أي: لا يكون منهم عمل - مهما قل - مما سبق إلا كُتِبَ لَهُمْ غملاً صالحاً، وذلك لأنه لا يُكْتَبُ لمن هو في الامتحان إلا العمل الصالح، أما العمل السيئ فإنه يُكْتَبُ عَلَيْهِ لَا لَهُ، وأما العمل الذي لا يدخل في الأعمال الصالحة ولا في الأعمال السيئة فإنه لا يُكْتَبُ لَهُ وَلَا عَلَيْهِ.

ويسأل المتدبر: لماذا يكتب لهم ذلك؟

ويأتي الجواب القرآني بقوله تعالى:

﴿لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿لِيَجْزِيََهُمُ﴾:

أي: ليكافئهم ويُثيبهم.

والمعنى: لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ يُعْطِيَهُمْ أَجْرَ أَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ، لأنها هي التي تبقى في صحائف أعمالهم التي يُجْزَوْنَ عليها.

ودلت هذه الجملة بلوازمها الفكرية على أن الغرض من جعل كل حركة من حركاتهم ضمن أعمالهم الصالحة، منذ خروجهم مجاهدين في سبيل الله حتى

عودتهم، أو استشهدهم، تَكثِيرُ ما هُوَ دُخْرُ لَهُم من الأعمال الصالحة، وعند الحساب تمحر الحسنات العادية سيئاتهم، فتكون هذه بهذه، فلا يَبْقَى في الذخيرة إِلَّا أَحْسَنُ ما كانوا يعملون، فيجزئهم اللَّهُ فيعطيه أجر أَحْسَنِ ما كانوا يعملون.

تدبر ما جاء في هذا العقد حول القضية الثانية:

* قول الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْفَرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَسْفَحَهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (١٢٢).

التفَرُّ: مفارقة مكان الإقامة بسرعة ضرباً في الأرض على سبيل السفر والارتحال، وَتُسَعَّمْ كثيرأ بمعنى الخروج للجهاد والقتال في سبيل الله، وهو المراد هنا في هذه الآية.

والقضية التي دلت عليها هذه الآية، تتضمن تعليماً لقادة المؤمنين، الذين يملكون إصدار قرارات القتال في سبيل الله، حينما تقضي مصلحة الإسلام والمسلمين بذلك، فُتُبِّنْ لهم منهج الحكمة الذي عليهم أن يتبعوه لدى توجيه أوامره بالخروج إلى القتال.

ومنهج الحكمة الذي يوصيه الله به، أن لَا يُوجَّهوا الأمر بأن يَنْفَرُ كَافَّةً المؤمنين للقتال في سبيل الله، لِئَلَّا يَتَعَرَّضُوا لاحتمال الاستئصال إذا هُزِمُوا، وأن يقتصر الأمر على تكليف أو نَذْب طائفةٍ منهم تقضي المصلحة العامة بتكليفها إلزاماً، أو نَذْبها تَطَوُّعاً.

ويوصيه الله بأن يُخَصَّصُوا للخروج عدداً أو مقداراً ما من كُلِّ فِرْقَةٍ من فِرَقِ المسلمين الطبيعية، يكون هذا المقدار هو الطائفة المحددة من الفرقة.

— فمن فرقة العمال الصناعيين طائفة.

— ومن فرقة الزَّراع طائفة.

— ومن فرقة التجار طائفة.

— ومن فرقة المهندسين طائفة.

— ومن فرقة الأطباء طائفة.

— ومن فرقة الفقهاء في الدين والدعاة إلى سبيل ربهم طائفة.

وهكذا إلى سائر الفرق في الأمة بحسب مهنتها واختصاصاتها العلمية والعملية.

وهذه الطائفة تُختار بالنسبة المئوية من فرقتها، أو تُعَيَّن بِعَدَدٍ مُحَدَّدٍ من فرقتها، وَفَقَّ مقتضيات مصلحة الأمة، النافرين وغير النافرين، وَيُعَيَّنُ ذلك من يَمْلِكُ صنْعَ القرار وإصدار الأوامر الحربية والسياسية والإدارية في الأمة.

وفي تخصيص طائفةٍ من كلِّ فرقةٍ مصلحتان كبيرتان:

المصلحة الأولى: المحافظة على بقاء قاعدةٍ من كلِّ فرقةٍ في الأمة، لا تتعرض لاحتمال الاستئصال.

المصلحة الثانية: الاستفادة من تخصص الطائفة النافرة في أعمال الجهاد المختلفة، وفي اكتساب المعلومات الجديدة التي تكتسب بالممارسة العلمية التي يمارسها الخارجون، فما يُذِرُّه أهل الاختصاص لا يدركه غيرهم من أمور ومعارف في التجارب والملاحظات، ولو عن طريق الاستفادة ممَّا توصل إليه الأعداء من أسلحة، ومعارف، وأساليب حربية يمكن الاستفادة منها شرعاً.

﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾:

أي: ليس من شأن المؤمنين العاملين بوصايا الله أن ينفروا للقتال في سبيل الله جميعاً نفرةً واحدةً. اللام في ﴿لِيَنْفِرُوا﴾ هي لام الجحود، لوقوعها بعد كَوْنٍ منفيٍّ. ﴿كَافَّةً﴾: أي: جميعاً.

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾:

أي: فهلاً خرج للقتال إذا دعا داعي القتال من كلِّ فرقة من فرقهم الاجتماعية بحسب مهنتها وتخصصاتها طائفةً محدَّدةً بعَدَدِها، أو بالنسبة المئوية من فرقتها، لولا: هنا حرف تحضيض بمعنى «هلاً».

وظاهر أن مثل هذا إنما يكون بتدبير أولي الأمر الذين يملكون صُنع القرارات وإصدار الأوامر، وهم مكلفون أن يراعوا مصالح الإسلام والمسلمين بشكل عام، وليس الأمر متروكاً لاختيار الأفراد بصورة فوضوية.

﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾:

أي: لِيَتَفَقَّهُوا عن طريق التجارب والممارسات العملية، والملاحظات، في أمور القتال والحرب من مختلف الجوانب، كالأسلحة، وفنون القتال، وطرائق الأعداء فيها، وجغرافية الأرض، والمناخ الذي تجري فيه المعارك، وكل ما يمكن أن يُفيد الأمة الإسلامية من قديم أو جديد، فهذا من التفقه في الدين، وذلك لأن القتال في سبيل الله هو من الدين، فكل معرفة تكتسب عن طريق الخبرة والتجربة والملاحظة ولو عن طريق الأعداء المحاربين هو من التفقه في الدين، والتفقه: هو الفهم الدقيق العميق.

﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾:

أي: ونبعث أن يتفقهوا في الأمور التي سبق بيانها - والتي هي من الدين، لتعلقها بالجهاد في سبيل الله الذي هو من الدين، وظاهر أن استفادتها إنما تكون بالخبرة والممارسة والملاحظة الدقيقة، ومعلوم أن معارف من هذا القبيل تتجدد وتتطور دوماً - بعد أن يتفقهوا في ذلك يقومون بوظيفة إعلام قومهم بما توصلوا إليه من معلومات يُعتبر الجهل بها نُقْرَةً خَطِرَةً على الإسلام والأمة الإسلامية، فإعلامهم بها هو بمثابة الإنذار لهم بمواطن الخطر، ويكون ذلك بعد رجوعهم من رحلة النُفَر إلى قومهم.

وحين يعلم قومهم بوجه عام ما توصل إليه كل ذوي اختصاص في اختصاصهم، يُرجى من جميع القوم أن يحذروا مواطن الخطر، فيتخذوا الوسائل والأسباب المضادة الواقية من جهة، والكفيلة من جهة أخرى بإحباط وسائل الأعداء، ويتخذوا الوسائل والأسباب التي يُرجى منها تحقيق النصر مما يباغثون الأعداء به. ويضطلع بمهمات اقتراح الوسائل والأسباب الواقية والتي يُرجى منها تحقيق النصر أولو الأمر المختصون، بحسب اختصاصاتهم المختلفة.

فقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾: أي: رجاء أن يتخذوا وسائل الحماية التي

يدعو إليها الحذر، والمعنى: لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم رجااء حذرهم، فإذا حذروا اتخذوا وسائل الحماية.

وجاء في الآية استعمال حرف الشرط ﴿إِذَا﴾ للإشعار بأن رجوع معظم النافرين سالمين، متفهمين في شؤون الحرب المختلفة التي هي من الدين، هو الأمر المحقق بمعونة الله وتسديده وتوفيقه إذا كانوا مؤمنين حقاً.

تدبر ما جاء في هذا البعد حول القضية الثالثة:

• قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٢٧﴾

في هذه الآيات ثلاث وصايا ربانية للذين آمنوا:

الوصية الأولى: أن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار، وهم الأقربون إلى حدود بلادهم.

الوصية الثانية: أن يكونوا أشداء في قتال الكفار شدة يجد فيها الكفار أن المؤمنين غلاظ في قتالهم، أي: قساة غيفون ليس فيهم رقة ولا لين، لذلك فلا يسهل الانتصار عليهم، والغلظة مدمومة في المعاملات والمعاملات، لكنها في القتال محمودة جداً، لأنها إحدى وسائل تحقيق النصر، وبها ترتفع معنويات المقاتل، وتتخاذل وتضعف معنويات عدوه.

الوصية الثالثة: الالتزام بتقوى الله في السلم والحرب، فإذا اتقوه كان الله معهم معيناً ونصيراً.

تدبر ما جاء في هذه الآية حول الوصية الأولى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾

في هذه الجملة أثرٌ من الله للذين آمنوا بأنَّ يذُوبوا حين يقاتلون الكفار بقتال الأقرب فالأقرب إليهم منهم.

يقال لغة: وَلَاءٌ يَلِيهِ وَلِيًّا، وَوَلِيَّةٌ يَلِيهِ وَلِيًّا، إذا دنا منه وقرب.

هذه الوصية الربانية من الله للمؤمنين تلزمهم بأن لا ينتقلوا في عمليات قتال الأعداء من الكفار إلى قتال الكفار البعداء، حتى يتتهدوا من تصفية مشكلاتهم مع الأعداء الأقربين إليهم المجاورين لحدود أرضهم وبلادهم، حتى تصير أرض هؤلاء القريبين وبلادهم ضمن دائرة دار الإسلام.

هذه الوصية تتضمن قاعدة عظمى من قواعد السياسة الحكيمة، في إعداد الخطط الحرية المستقبلية، ضد أعداء الإسلام المتشربين في طول الأرض وعرضها. فالواجب أولاً تحديد خريطة الأرض التي تقع تحت سلطان الدولة الإسلامية تحديداً دقيقاً، وتحقيق الأمن الداخلي ضمن حدود هذه الخريطة، ثم تجميع القوة تحت راية إدارية قيادية واحدة، ثم النظر إلى خطط مذهب حدود خريطة أرض الدولة الإسلامية داخل بلاد الكفار وأرضهم شيئاً فشيئاً، بالبذء بالأقرب من الكفار الذين تلاصق حدود أرضهم حدود أرض الإسلام والمسلمين.

ونفسي الحكمة بالبذء بالذين هم أقرب منالاً من الذين لهم مع أرض المسلمين حدوداً متلاصقة، لسهولة التغلب عليهم، والتخلص من مشكلاتهم، ولإلقاء الرعب في قلوب الآخرين، ذوي الحدود الملاصقة، ممن هم أشد قوة، وأعظم بأساً، وأكثر عدداً ومعدداً.

وقد طبق الرسول ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده هذه السياسة الحكيمة، التي أوصى الله بها، فممنحهم باتباعها فتحاً عالمياً عظيماً.

لقد بدأ الرسول ﷺ بعد أن استقرت له العاصمة الإسلامية في المدينة وما حولها، بقتال الذين أخرجوه من بلده أولاً، وهم مشركو مكة، ثم انتقل شيئاً فشيئاً إلى سائر المشركين في جزيرة العرب، على طريقة الدوائر التي تنداح باتساع في بحيرة الماء إذا رميت في الماء حجراً، حتى إذا فتح الله عليه مكة والطائف واليمامة وسائر نجد وحضرموت واليمن وهجر وخيبر ومعظم الأقاليم الواقعة تحت سيطرة العرب من

شبه الجزيرة العربية، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجا، شرع الرسول ﷺ في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم، الذين هم أقرب الكفار إلى دار الإسلام يومئذ، وهم محتلون أقاليم من أقاليم شبه جزيرة العرب يومئذ، وانطلق بالمسلمين في غزوة تبوك، لقتال الروم عند أقرب حدود لهم مع أرض العرب التي أصبحت ضمن دائرة دار الإسلام والمسلمين يومئذ.

وقام أبو بكر رضي الله عنه في خلافته بتوطيد دعائم الدولة الإسلامية داخل دار الإسلام، إذ بدأت تختل بالمرتدين ومناعي الزكاة بعد الرسول ﷺ، ولما توطد له الأمر، شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية لغزو الروم عَبْدَةَ الصُّلْبَانِ، ثم إلى غزو الفرس عَبْدَةَ النِّيرانِ، وفتح الله عليه البلدان فتحاً ميبئاً.

وقام بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأطلق جيوش الفتح الإسلامي ملتزماً هذه السياسة الربانية، ومكّنه الله من الاستيلاء على ممالك كثيرة شرقاً وغرباً وشمالاً.

وقام بعده عثمان بن عفان رضي الله عنه، فأظهر الله به الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وكان المسلمون كلما علّوا أمة انتقلوا إلى ما بعدهم، ثم الذين يلونهم من الكفار، تطبيقاً لقاعدة:

﴿قَتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾.

وقام بعده الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فسار على سياسة توطيد دعائم الدولة في الداخل، والأخذ بسياسة البدء بالأقرب فالأقرب.

تدبر ما جاء في هذه الآية حول الوصية الثانية:

﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾.

أي: ولْيَجِدِ الْكُفَّارُ فِي قِتَالِكُمْ لَهُمْ غِلْظَةً.

الْغِلْظَةُ: الشدة، والعنف، وقوة البأس، ومجافاة كل رقة ولين.

هذه الغلظة صفة محمودة في حالة القتال فقط، وهي مذمومة في غيرها، لذلك

كان من صفات المؤمنين ما يلي:

- (١) أَنَّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الْكُفَّارِ رَحْمَةً بَيْنَهُمْ .
 - (٢) أَنَّهُمْ أَهْلُ حِكْمَةٍ وَرَفَقَةٍ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ .
 - (٣) أَنَّهُمْ فِي الْجِدَالِ يَجَادِلُونَ بِأَنَّهُ هِيَ أَحْسَنُ .
 - (٤) أَنَّهُمْ بِتَأْلُفِ قُلُوبِ النَّاسِ بِالتَّوَدُّدِ وَالْعَطَاءِ وَلَوْ مِنْ زَكَوَاتِ أَمْوَالِهِمْ .
 - (٥) أَنَّهُمْ لَا تَحْمِلُهُمْ عِدَاوَتُهُمْ لِلْكَافِرِينَ عَلَى تَرْكِ مُعَامَلَتِهِمْ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ .
- إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ فَضَائِلِ الْأَخْلَاقِ، وَمَكَارِمِ الشِّيمِ .

تدبر ما جاء في هذه الآية حول الوصية الثالثة :

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

أي : واثقوا الله دوماً في السلم والحرب، حتى يكون الله معكم معيناً ومُبدئاً وناصراً، لأنَّ الله مع المتقين، ومن كان الله معه فإنه يجد من معية الله له تأييداً ونصراً وتسييداً وتوفيقاً.

وإذا كان الله مع المتقين، فإنه مع الأبرار من باب أولى، وإنه مع المحسنين من باب أولى فوق ذلك، لأنَّ مرتبة المحسنين هي أعلى مراتب المؤمنين.

وقد جاء في القرآن : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ - إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُحْسِنِينَ - إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ - وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ - وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ .

ونلاحظ أنَّ قول الله تعالى في الآية :

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

قد أغنى عن التصريح بقوله : «واثقوا الله» فهذا القول مطوي في اللفظ دلَّ عليه الجملة المُضَرَّحُ بها في الآية .

ونظير هذا الطي كثير في القرآن المجيد، وهو من الإيجاز، الذي يدخل في عناصر الإعجاز.

• • •

العقد السادس

بيان موقف المنافقين تجاه
ما كان ينزل من القرآن تبعاً
في مقابل موقف المؤمنين

* قول الله عز وجل :

﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ ۖ إِمَّنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَّادَتْهُمْ إِمَّنَا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَا تَوَّأَوْهُمْ كَاِفِرُونَ ﴿١٧﴾ أَوْ لَا يَرْوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَآرٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿١٨﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٩﴾﴾ .

* * *

* قرأ جمهور القراء العشرة : [أَوَّلًا يَرَوْنَ] بياء الغائب .

وقرأ يعقوب البصري وحزمة الكوفي : [أَوَّلًا تَرَوْنَ] بناء الخطاب .

وفي هاتين القراءتين تكامل بياني ، فقراءة الجمهور تتحدث عن المنافقين بأسلوب الحديث عن الغائب ، وقراءة يعقوب وحزمة فيها توجيه الخطاب للمؤمنين مبيّنة لهم حال المنافقين ، وفي كلا القراءتين إعراض عن مواجهة المنافقين بالخطاب ، إهانة لهم في آخر بيان قرآني يتعلّق بهم .

مقدمة عامة

قبل تدبر فقرات هذا النص

منذ بداية العهد المدني من حياة الرسول ﷺ، أو قبيلته بقليل، والمنافقون يتعرّضون لامتحانات متتابعات، كانت لهم فيها مواقف باطنة وظاهرة من سلوكهم النفسي والظاهر، هي من آثار كفرهم الذي يكتُمونه، ونفاقهم الذي يخادعون به، وكانت البيانات القرآنية تُتابع مواقفهم هذه، فاضحة لما يكتُمون، وواعظة، ومحدّرة ومنذرة.

ودلّتنا الدراسة القرآنية للنصوص التي نزلت لنا بشأن المنافقين، على أنها بلغت أربعة وثلاثين نصّاً، منها الموجز، ومنها المطوّل والمفصل كالذي في سورة (التوبة) والذي في سورة (المنافقون)، وجاءت هذه النصوص في ست عشرة سورة وهي ما يلي:

- (١) العنكبوت: وهي من أواخر التنزيل المكي.
- (٢) البقرة: الأولى من التنزيل المدني.
- (٣) الأنفال: الثانية من التنزيل المدني.
- (٤) آل عمران: الثالثة من التنزيل المدني.
- (٥) الأحزاب: الرابعة من التنزيل المدني.
- (٦) النساء: الخامسة من التنزيل المدني.
- (٧) الحديد: الثامنة من التنزيل المدني.
- (٨) محمد: التاسعة من التنزيل المدني.
- (٩) الحشر: الخامسة عشرة من التنزيل المدني.
- (١٠) النور: السادسة عشرة من التنزيل المدني.
- (١١) المنافقون: الثامنة عشرة من التنزيل المدني.
- (١٢) المجادلة: العشرون من التنزيل المدني.
- (١٣) التحريم: الحادية والعشرون من التنزيل المدني.
- (١٤) الفتح: الخامسة والعشرون من التنزيل المدني.

(١٥) المائدة: السادسة والعشرون من التنزيل المدني .

(١٦) التوبة: السابعة والعشرون من التنزيل المدني .

واقترضت الحكمة في آخر بيان قرآني يتعلّق بهم، أن يكشف الله موافقهم تجاه هذه الامتحانات، التي تعرّضوا لها طوال العهد المدني، حتّى نزول سورة (التوبة) آخر سورة قرآنية نزلت قبل سورة (النصر - ذات الآيات الثلاث) وتجاه البيانات الفاضحات والبيانات الواعظات والمحدّرات المنذرات .

إنّ هذا الصبر الطويل عليهم مع المتابعات الدالات على صدق الرسول وصدق القرآن في كشف خبايا نفوسهم، وما كانوا يعملون من أعمال سرّية ضدّ الإسلام والرسول والمؤمنين الصادقين، قد كان كافياً لأن يكون دافعاً لهم في اتّجاه الإيمان، حتّى يتخلّصوا من مرض النفاق الذي ملأ جوانب قلوبهم حتّى أفسدها، وأن يساعدهم على أن يتحوّلوا شيئاً فشيئاً إلى الإيمان، وأن يتوبوا مما هم فيه من كفر ونفاق ولوازمهما وظواهرهما في السلوك، بل كان زائداً عن حاجة العلاج الدوائي الذي من شأنه أن يُلصَح أشدّ مرضى القلوب، لو كان لديهم استعداد إراديّ لاستبصار الحقّ ببراهينه وأدلّته، وقبوله والاستجابة لنداءاته، وطاعة أوامره ورسوله ونواهيها .

لكنّهم بسبب نظرهم إلى ظاهر من الحياة الدنيا في سطوحها الخادعة، وبسبب تشبّهم بزيّنتها، وسيطرة أهوائهم وشهواتهم على إراداتهم، قد كانت أفكارهم منغلقة لا تفقه حقائق الأمور، ولا تدرك شيئاً من الامتحانات التي توالّت عليهم، وما استتبع من بيانات، ولا سيما كبريات هذه الامتحانات التي كانت تأتيهم في كلّ عام مرّة أو مرّتين .

إنّ كلّ البيانات الفاضحات والمواعظ والتحذيرات والإنذارات لم تكن لتندلّهم على أنّ القرآن حقٌّ من عند الله، وأنّ الرسول هو رسول الله حقّاً وصدقاً، بل كانت تزيدهم فيما هم فيه من رجس الكفر وقبائح السلوك وذنابل النفاق .

إنّ من اتّخذ باختياره الحرّ الوسائل المؤدّية إلى طمس بصيرته، لا يكون مستعدّاً لاستقبال البيانات والمواعظ التي تنصحه بأن يترك الطريق الذي سلكه، ووجد فيه

هوى نفسه، وبعض لذاتها، مهما اقترنت هذه البيانات والمواظ بالبراهين القاطعة، والحجج الدامغة المقنعة.

هذه هي سنة الله التي فطر النفوس عليها، وهكذا كان حال هؤلاء المنافقين، وهو على الضد من حال المؤمنين الصادقين.

التدبر

* قول الله تعالى :

﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

في هذا النص غودٌ للحديث عن المنافقين، وهو آخر حديث عنهم نزل في القرآن، وهو يبين قصة موقفهم الذي تكرر نجاه المتكرر من نزول سور القرآن.

لقد كان موقفهم أنهم إذا ما أنزلت سورة جديدة من سور القرآن، تحدث بعضهم قائلاً على سبيل الاستهزاء أو الاستخفاف بها: أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه السورة الجديدة إيماناً؟

أي: أَيُّكُمْ زادته إيماناً بأن محمداً رسول الله حقاً وصدقاً، وأن هذا الكلام منزل من عند الله حقاً وصدقاً؟

والمعروف من أسلوب المنافقين المعتاد، أنهم يوجهون مثل هذا القول في المجالس العامة، التي يكون فيها مؤمنون ومنافقون، عند حدوث أشياء جديدة لا يؤمنون هم بها.

والذي يدعوهم إلى مثل هذا القول النفور الحذر، إنهم بعوامل الكفر يشمترون، ويريدون أن يُعبروا عن اشمئزازهم بأن هذه السورة الجديدة لم تورثهم إيماناً، ولم تُغيّر من كفرهم شيئاً، وهم بعوامل الحذر من انكشاف نفاقهم يحاولون أن يُلجموا ألسنتهم

عن مقالات تكشف كفرهم ونفاقهم، وتضغط في نفوسهم ضواغط الرغبة في التعبير عن مشاعرهم، فيخاطبون الحاضرين في المجلس بقولهم: أَيْكُم زَادَتْهُ هَذِهِ السُّورَةُ إِيْمَانًا؟ وقد يقصدون التأثير بها على ضعفاء الإيمان.

أما عامة المؤمنين فلا يتفكرون في تحليل نفوس أصحاب هذه المقالة، وقد يُحَسِّنُونَ الظَّنَّ بِهِمْ، وقد يتحدث بعضهم عن بعض جوانب من السورة الجديدة ازدادوا بها إيماناً.

وأما فطناء المؤمنين فيُدْرِكُونَ ما وراء إطلاق هذا التساؤل من عوامل نفسية، مُبْكَرَةٌ لكل ما نزل من القرآن، أو شاكَّةٌ فيه، ولكنهم لا يجدون في العبارة مستمسكاً صريحاً للإدانة، لأن صاحبها يستطيع أن يتملص بخفة، وَيُبَيِّنُ أَنَّ غَرَضَهُ حُثُّ الْأَفْكَارِ عَلَى حُسْنِ التَّذَبُّرِ، لاستنباط المعاني التي تزيد الإيمان، مما تشتمل عليه دلالات الآيات في السورة.

وأما المنافقون المشاركون في المجلس دون أن يطرحوا مثل هذا التساؤل، فإنهم يعرفون شياطينهم، ويدركون الغرض من سؤالهم.

[إذا] ظُفِرَ لما يُسْتَقْبَلُ مِنَ الزَّمَنِ، وَلَكِنْ النَّصُّ لِمَا كَانَ يَقْصُ قِصَّةَ مَا كَانَ مِنْهُمْ خِلَالَ مَرَاكِحِ التَّنْزِيلِ الْمَدْنِيِّ لِلْقُرْآنِ، وهذا النص جاء في ختام هذه المراحل، كانت [إذا] هُنَا بمثابة قول القائل: كُنْتُ فِي حَيَاتِي الْمَاضِيَةِ إِذَا جَاءَ أَوَّلُ الشَّهْرِ الْجَدِيدِ وَقَبِضْتُ رَاتِبَ الشَّهْرِ الْمَاضِي دَفَعْتُ رِبْعَ رَاتِبِي لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَوَجَّهْتُ الْخَيْرَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ، وهذا على سبيل حكاية أحداث الماضي وفق ترتيب أزمانها.

ولفظ [ما] بعد [إذا] لفظ مضاف للتأكيد، واصطلح النحاة أن يُسَمَّوْهَا زَائِدَةً لغرض التأكيد، وليس مرادهم أنها زائدة في اللفظ دون غرض، وقد جاءت في القرآن «ما» بعد «إذا» زائدة إحدى عشرة مرة فقط من مجموع ما يزيد على (٤٠٠) مرة.

واكتفى النص ببيان ما يطرح فريق من المنافقين من تساؤل إذا أنزلت سورة جديدة، ليدل على ما في نفوسهم من عوامل، وترك بيان ما يحدث في المجالس نتيجة طرحهم هذا السؤال، إذ ليس في مثل هذا البيان غرض توجيهي، على أن ذهن المتدبر الحصيف يستطيع تصوّر ما يحدث بالقياس على الأشباه والنظائر في مجالس الناس.

لَكَرَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ تَوَلَّى بَيَاناً آخَرَ كَشَفَ فِيهِ مَا يَحْدُثُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا يَحْدُثُ لَدَى الْآخَرِينَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ بَدَأَ مِنَ الشَّكِّ، حَتَّى أَخْسَرَ دَرَكَاتِ الْكُفْرِ، فَقَالَ تَعَالَى بِشَأْنِ الَّذِينَ آمَنُوا:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾:

أي: كَانَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ سُورِ الْقُرْآنِ، زَادَتْهُمْ هَذِهِ السُّورَةُ بِمَا فِيهَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْبَيِّنَاتِ، وَبِمَا فِيهَا مِنْ أَدَلَّةٍ وَعِلْمٍ وَمَعَانٍ جَلِيلَةٍ، إِيمَانًا يُضَافُ إِلَى مَقْدَارِ إِيمَانِهِمُ السَّابِقِ، وَقَضِيَّةُ زِيَادَةِ الْإِيمَانِ أَوْ نَقْصُهُ أَمْرٌ يَشْعُرُ بِهِ الْمُؤْمِنُ فِي عُمُقِ وَجْدَانِهِ، وَيُمْكِنُ قِيَاسُهُ مِنْ ظَوَاهِرِ السُّلُوكِ، لِأَنَّ الْإِيمَانَ لَيْسَ مَجْرَدَ فِكْرَةٍ ذَهْنِيَّةٍ أَوْ تَصْدِيقٍ إِرَادِيٍّ قَلْبِيِّ، بَلِ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَكُتَابِهِ وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَسَائِرِ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ وَتَفْصِيْلَاتِهَا مَرْكَبٌ مِنْ يَقِينٍ عِلْمِيٍّ، وَتَصْدِيقٍ إِرَادِيٍّ، وَعَوَاطِفٍ وَجْدَانِيَّةٍ مُتَنَوِّعَةٍ فِيهَا الْحُبُّ وَالْبَغْضُ وَالْكَرَاهِيَّةُ، وَالطَّمَعُ وَالْخَوْفُ، وَالشُّوقُ لَتَحْقِيقِ الْمَطَالِبِ السَّامِيَةِ مِنْ سَعَادَتِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَهَذَا الْمَرْكَبُ يَزْدَادُ بِإِلَاقَةِ حُدُودِ تَقَاسٍ، وَيَتَنَاقَصُ إِلَى أَدْنَى الْحُدُودِ، فَإِذَا نَزَلَ عَنْهَا بَدَأَ الشُّرْكَ فَمَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ مِنَ الْكُفْرِ.

إِنَّ عِنَصَرًا وَاحِدًا مِنْ عِنَاصِرِ عَوَاطِفِ الْإِيمَانِ وَهُوَ الْحُبُّ، يَزْدَادُ حَتَّى يُضْحِي الْعَاشِقُ بِنَفْسِهِ مِنْ أَجْلِ مَحْبُوبِهِ، فَكَيْفَ إِذَا اجْتَمَعَ مَرْكَبٌ مِنْ جُمْلَةِ عَوَاطِفِ قَاعِدَتِهَا فِي الْقَلْبِ يَقِينٌ عِلْمِيٌّ.

وَلَمَّا خَفِيَ عَلَى بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ هَذَا التَّحْلِيلَ لِعِنَاصِرِ الْإِيمَانِ، زَعَمُوا أَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ، وَأَخَذُوا يُؤَوِّلُونَ النُّصُوصَ الدِّينِيَّةَ الصَّرِيحَةَ فِي دَلَالَتِهَا عَلَى زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَنَقْصِهِ.

﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾:

أي: زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَالحَالُ أَنَّهُمْ فَرِحُوا بِمَسْرُورٍ بِنَزُولِ سُورَةٍ جَدِيدَةٍ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ، تَزِيدُهُمْ فِي الدِّينِ عِلْمًا وَهُدَايَةً وَبَشْرِيَّاتٍ بِمُسْتَقْبَلِ سَعِيدٍ، فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

وَقَالَ تَعَالَى بِشَأْنِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ بَدَأَ بِمَرَضِ الشَّكِّ وَالْجَبَرَةِ وَالتَّرَدُّدِ، حَتَّى أَخْسَرَ دَرَكَاتِ الْكُفْرِ وَالْجُحُودِ الْمَسْتَوْرَ بِالنَّفَاقِ:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (١٧٥).

سمى الله عز وجل في هذه الآية الكفر أو الريب الذي ينتاب قلوب المنافقين، والدوافع التي تدفعهم إلى الكفر أو الريب والنفاق من انحرافات خلقية، ورغبات في اتباع الأهواء والشهوات، رجساً، باعتبار أن الرذائل النفسية هي أرجاس وأقذار، على مثل الأرجاس والأقذار الحسية في الأبدان والشياب ونحوها.

وبما أن ما ينزل من قرآن لا يفيدهم تثبيت إيمان أو زيادة فيه، فإن إنكارهم وجحودهم لما ينزل، من شأنه أن يزيدهم عناداً وإصراراً على ما هم فيه من ريب أو كفر ونفاق، وهذا رجس يضاف إلى رجسهم السابق، ولكل فرد منهم نصيب من هذا الرجس بحسبه، هذا إذا لم يجعلهم يضاعفون مكابدهم ضد الإسلام والرسول والمؤمنين، فإن فعلوا شيئاً من ذلك تزايدت أرجاسهم السلوكية، مع أرجاسهم النفسية.

ولما كان بعض هؤلاء المنافقين قد ماتوا قبل نزول هذا النص، قال الله تعالى بشأن هؤلاء:

﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (١٧٥).

وقد وصفهم الله عز وجل بأنهم كافرون، لأن قناع النفاق يسقط عند الموت، ولا يبقى للمنافق ساعة الموت إلا الكفر.

وتعقياً على موقف المنافقين تجاه ما ينزل تبعاً من سور القرآن، قال الله عز وجل.

﴿أُولَٰئِكَ يَنْفَكُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (١٧٦).

واو العطف في ﴿أُولَٰئِكَ يَنْفَكُونَ﴾ تعطف على محذوف مُقَدَّر، تقديره الا يُفَكِّرُونَ من خلال الأحداث التي تمرُّ عليهم ويرون أنهم يفتنون في كل عام مرةً أو مرتين.

الاستفهام مَوْجَهٌ للدلالة على تَلْوِيمِهِمْ وتَوْبِيخِهِمْ لأنَّهُمْ لَا يَتَفَكَّرُونَ وَلَا يَرْوُونَ وَلَا يَتَعَذَّلُونَ.

ويظهر لي - والله أعلم - أَنَّ المراد من فتنهم في كُلِّ عامٍ مَرَّةً أو مَرَّتَيْنِ، مَا كَانُوا يَتَعَرَّضُونَ لَهُ مِنْ امْتِحَانَاتٍ كَبِيرَةٍ تَكُونُ لَهُمْ فِيهَا مَوَاقِفٌ تَدُلُّ عَلَى كُفْرِهِمْ وَنِفَاقِهِمْ، ثُمَّ يَنْزِلُ الْقُرْآنُ بِكُشْفِ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ، وَفُضَحِهِمْ فِيهَا، وَمَوْعِظَتِهِمْ، وَتَحْذِيرِهِمْ وَإِنْذَارِهِمْ وَإِطْمَاعِهِمْ بِالتَّوْبَةِ، وَلَوْ كَانُوا يُسِرُّونَ مَوَاقِفَهُمْ فِي نَفْسِهِمْ وَلَا يَصْرَحُونَ بِهَا، أَوْ يَفْعَلُونَ أَفْعَالًا دَالَّةً عَلَى كُفْرِهِمْ وَنِفَاقِهِمْ سِرًّا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَلَا يَظْلَعُونَ عَلَيْهَا أَحَدًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ.

وَمَطَالُعُ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ الْقُرْآنِيَّةِ عَنِ الْمَنَافِقِينَ يَسْتَطِيعُ التَّقَاطُفُ الْأَحْدَاثِ الْكُبْرَى الَّتِي امْتَحَنُوا بِهَا، وَتَبَعَتْهَا الْبَيِّنَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ الْوَاعِظَةُ وَالْفَاضِحَةُ وَالْمَحْذَرَةُ وَالْمُنْذِرَةُ وَالْمَطْمَعَةُ بِالتَّوْبَةِ، وَهَذِهِ الْأَحْدَاثُ وَمَا تَبِعَهَا نَكْفِي وَحْدَهَا لِإِقْنَاعِهِمْ بِأَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ مِنْ لَدُنِّ عَالِمٍ حَكِيمٍ خَبِيرٍ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا وَصِدْقًا، لِأَنَّهَا تَجَارِبُهُمُ الشَّخْصِيَّةُ، وَهُمْ أَعْرَفُ النَّاسِ بِهَا، وَبِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ وَيُسِرُّونَ، وَبِمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ كُشْفِ ذَلِكَ، فَالتَّجَارِبُ الشَّخْصِيَّةُ ذَوَاتُ أَدَلَّةٍ مُبَاشِرَةٍ تُشَبِّهُ الْإِدْرَاكَ الْحَسِّيَّ، وَهِيَ مِنَ الْأَوَّلِيَّاتِ الَّتِي تُقَامُ الْأَدَلَّةُ بِهَا، وَلَا تُقَامُ الْأَدَلَّةُ عَلَيْهَا.

وَإِذَا وَزَعْنَا هَذِهِ الْأَحْدَاثَ الْكُبْرَى الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَى فِتْنَتِهِمْ، أَيُّ: عَلَى امْتِحَانِهِمْ مَعَ سَقُوطِهِمْ فِي الْامْتِحَانِ، وَمَعَ مَا تَبَعَ ذَلِكَ مِنْ بَيِّنَاتٍ قُرْآنِيَّةٍ، عَلَى الْمَرَحَلَةِ الْمَدِينِيَّةِ مِنْ حَيَاةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَجَدْنَاهَا فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً أو مَرَّتَيْنِ، كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

إِنَّ هَذِهِ التَّجَارِبُ فِي وَسَائِلِ اكْتِسَابِ الْمَعْرِفَةِ الَّتِي تَمَحُّو الشُّكُوكَ مَهْمَا كَانَتْ، كَافِيَةٌ لِإِقْنَاعِ أَشَدِّ الْمُتَشَكِّكِينَ، وَأَشَدِّ النَّاسِ اسْتِعْصَاءً عَلَى أَدَلَّةِ الْحَقِّ، إِلَّا الْمَكَابِرِينَ بِالْبَاطِلِ وَالْمَعَانِدِينَ الَّذِينَ يَرُونَ الشَّمْسَ فِي كِبْدِ السَّمَاءِ وَيَجْحَدُونَ وَجُودَ النَّهَارِ فِي الْمَوْقِعِ الَّذِي هُمْ فِيهِ.

وَمِنْ عَجِيبِ أَمْرِهِمْ وَشِدَّةِ تَشَبُّهِهِمْ بِالْبَاطِلِ الَّذِي هُمْ فِيهِ، أَنَّهُمْ يَمُرُّونَ بِهِذِهِ التَّجَارِبِ، ثُمَّ لَا يُتَوَبُّونَ مِنْ كُفْرِهِمْ وَنِفَاقِهِمْ، وَلَا هُمْ يَتَذَكَّرُونَ، أَيُّ: وَلَا هُمْ يُثَبِّتُونَ فِي

ذاكرتهم المعاني التي دلت عليها هذه التجارب، حتّى يَكُونُوا تَرَاكُمُهَا ذَا قُوَّةٍ فَاعِلَةٌ فِي إِقْنَاعِهِمْ، وَتَحْوِيلِهِمْ - عَنْ طَرِيقِ إِرَادَتِهِمْ وَحِرْصِهِمْ عَلَى نَجَاتِهِمْ وَسَعَادَةِ أَنْفُسِهِمْ - مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ، وَلَوْ عَلَى سَبِيلِ التَّدْرِجِ شَيْئاً فَشِئْئاً، لَكِنَّهُمْ لَا يُوجِّهُونَ أَفْكَارَهُمْ وَأَذْهَانَهُمْ لِدَلَالَاتِ هَذِهِ التَّجَارِبِ حَتَّى يَحْفَظُوهَا فِي ذَاكِرَتِهِمْ، وَيَتَذَكَّرُوهَا مِنْ حِينٍ لآخر.

هذا البيان عن التذكّر يدلّ على أَنَّ الذّاكرةَ فِي الْإِنْسَانِ ذاتُ تأثير كبير في كيانهِ، فَمَنْ لَمْ تَكُنْ لَدَيْهِ ذَاكِرَةٌ تَسْتَعِيدُ الْمَعَارِفَ وَالتَّجَارِبَ السَّابِقَةَ دَوَاماً، كَانَتْ تَصَرُّفَاتِهِ اسْتِجَابَةً لِمُغْرَاثِهِ وَأَهْوَاؤِهِ وَشَهْوَاتِهِ، وَرُدُّوْذُ أَفْعَالِهِ تَلَقّائِيَّةٌ لِلْعَوَارِضِ الطَّارِئَةِ، فَهُوَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُوَ أَضَلُّ مِنْهَا سَبِيلاً.

وأبَانَ هَذَا الْبَيِّنَاتُ مِنَ السُّورَةِ أَنَّ لِلْمُنافِقِينَ تَجَاهَ مَا يَنْزِلُ مِنْ سُورِ الْقُرْآنِ سُلُوكاً آخَرَ غَيْرَ قَوْلِ بَعْضِهِمْ: أَلَيْكُمُ زَادَتِ هَذِهِ إِيْمَانَانَا؟

إِنَّهُ الْإِنْسِلَالُ مِنَ الْمَجْلِسِ الَّذِي تَتَلَوُّ فِيهِ السُّورَةُ الْجَدِيدَةُ، بَعْدَ أَنْ تَتَحَادَثَ عِيُونُهُمْ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ، فَهَمَّ يَتَخَاطَبُونَ عَنْ طَرِيقِ عِيُونِهِمْ لَا عَنْ طَرِيقِ السَّمْعِ، وَمُضْمُونُ هَذَا الْحَدِيثِ عَنْ طَرِيقِ حَرَكَاتِ الْعِيُونِ: هَلْ يَرَاكُمُ مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا انْصَرَفْتُمْ مِنَ الْمَجْلِسِ؟ حَتَّى إِذَا شَعَرُوا بِأَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يَنْسَلُوا وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ انْصَرَفُوا حَتَّى لَا يَسْمَعُوا تِلَاوَةَ السُّورَةِ الْمُنْزَلَةِ، وَيَبْدُو أَنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى أَنْ يَنْصَرَفُوا مِنَ مَجْلِسِ الرُّسُولِ، كُلَّمَا نَزَلَتْ عَلَيْهِ سُورَةٌ جَدِيدَةٌ وَتَلَاهَا عَلَى أَصْحَابِهِ.

• فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ قُلُوبِهِمْ يَأْتِمُرُ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ۖ﴾

الْمُنافِقُونَ فِي مَجَالِسِ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَسْتَطِيعُونَ غَالِباً أَنْ يَتَحَادَثُوا عَنْ طَرِيقِ السَّمْعِ، خَشْيَةَ افْتِضَاحِ أَمْرِهِمْ، أَوْ إِثَارَةَ الْارْتِيَابِ فِيهِمْ دَاخِلَ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، لِذَلِكَ فَهَمَّ يَلْجَأُونَ إِلَى حَدِيثِ الْعِيُونِ، وَالتَّخَاطُبِ الْإِشَارِيِّ بِحَرَكَاتِهَا.

وبما أنهم يعرف بعضهم بعضاً، إذ لهم مجالس خاصة يتكاشفون فيها عن هوياتهم، فمن الغالب أنهم كانوا يتواصون فيما بينهم أنه إذا أنزلت على الرسول ﷺ سورة جديدة فإنَّ عليهم أن ينسلوا من مجلسه منصرفين، دون أن يشعر بهم أحد، ولكن عليهم أن يستوثقوا من أنه لا يراهم الرسول أو أحد من المؤمنين إذا انسلوا.

فإذا كانوا في مجلس الرسول وبدأ الرسول ﷺ يتلو على المسلمين ما نزل عليه من قرآن في سورة جديدة تحدّثوا عن طريق حديث العيون بإشارات يتساءلون فيها: هل يراكم من أحد؟

﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا﴾ :

أي: وبعد المحادثة فيما بينهم عن طريق حركات العيون التي ينظر بها بعضهم إلى بعض، لا ينصرفون بسرعة، بل يترثون، لئلا يكتشف الفطناء أمرهم، فإذا اطمأنوا وشعروا بأن أحداً لم يظن إليهم أنصرفوا، كراهية أن يسمعوها السورة المنزلة، ولعل هذا بسبب خوفهم من أن تكون فيها آيات تتحدّث عن المنافقين، فيضطربوا عند سماعها، فيعترفوا.

وجاء التعقيب القرآني على هذه الظاهرة من سلوك المنافقين، بقوله تعالى:

﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٢٧).

تجري السلسلة السببية في هذا الموضوع لدى المنافقين كما يلي:

(١) تبدأ بانحراف خلقي نفسي تسيطر عليهم فيه أهواؤهم وشهواتهم ومطالبهم من زينة الحياة الدنيا، مع التقاليد العمياء التي اتبعوا فيها آباءهم وقومهم السابقين، وهذا من آثار استخدامهم لإراداتهم الحرة غير المجبورة.

(٢) تشغل ضمن سنن الله السببية ساحة تصوّره وتذكّره دواماً، بما هو مسيطر عليهم في داخلهم.

(٣) تتحرّك غرائزهم وعواطفهم بالعنصر الذي شغل أكبر مساحة من تصوّراتهم وتذكّراتهم الحاضرة المتحرّكة الفاعلة.

(٤) تتوجه إراداتهم الحرة في داخلهم متأثرة بما تحرك من غرائزهم وعواطفهم ومطالبهم من الدنيا، ومصدرة أوامرها بالتنفيذ.

(٥) عندئذ تكون قواهم العملية مسخرة لما أرادوا تنفيذه.

(٦) فإذا جاء عارض من العوارض الفكرية يقتضي منهم أن يغيروا مسيرة سلوكهم النفسي ويحولوا اتجاههم إلى مطالب أخروية، لم يلتفتوا إليها ولم يفقهوا بياناتها، لأنهم متشبثون بالظواهر لا يدركون بواطن الأمور ولا يفقهونها.

(٧) وإذا اضطروا أن يجاروا ظاهراً بمشاركة جسدية فإن قلوبهم تكون منصرفة بسبب انشغالها بما هو مسيطر عليهم في داخل نفوسهم.

ولما كان هذا الانصراف خاضعاً لسنن الله السببية في كونه، وتسخيراته للأسباب التي تكون بخلقه سبحانه، كان هو الذي صرف قلوبهم خلقاً، لكنهم كانوا هم السبب في ذلك باستخدام إراداتهم الحرة فيما سخر الله لهم.

وقد جاء البيان القرآني بادئاً بهذه النتيجة، ومقروناً ببيان سبب حصولها للكائن منهم، ومن اختيارهم الحر، فقال تعالى: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: بسبب أنهم قوم لا يفقهون.



العقد السابع

آخر توجيه من الله للناس
بالنسبة إلى الرسول محمد ﷺ
ومعه وصية من الله للرسول

* قول الله عز وجل:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾:

أي: شديد عليه، وشاق عليه، يقال لغة: عز الأمر عليه إذا اشتد وشق. ويقال: عز عليّ أن تفعل كذا، أي: اشتد عليّ ذلك وشق.

﴿مَا عَنِتُّمْ﴾:

أي: غتتكم «ماء» مصدرية فهي تؤول مع الفعل الذي بعدها بمصدر.

الغنت: الشدة والمشقة، يقال لغة: غبت فلان إذا وقع في مشقة وشدة.

فالمعنى: شاق عليه ما يشق عليكم، وشديد عليه ما هو شديد عليكم، لأنه من أنفسكم، يشارككم مشاعرهم وأحاسيسكم.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾:

الحرص على الشيء شدة الرغبة فيه. والحرص على الأهل أو العشيرة أو القوم

أو الأمة الإشفاق عليهم، والاجتهاد في نصحتهم وتحقيق ما ينفعهم ويدفع الضر والأذى عنهم.

أي: فهو يشفق عليكم ويثذل غاية جهده في نصحتكم وتحقيق ما ينفعكم ويدفع الضر والأذى عنكم.

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ﴾:

قرأ أبو عمرو، ويعقوب، وحمزة، والكسائي، وخلف، وشُعْبَةُ عن عاصم [رَوْفٌ] بقصر الهمزة. وقرأ باقي القراء العشرة [رَوْفٌ] بمد الهمزة، والمد والقصر لغتان عربيتان متكافئتان، فروف على وزن فَعُول، ورؤف على وزن فَعْل.

قال أهل اللغة: الرافة أخص من عموم الرحمة وأرق. وقال صاحب الصحاح الجوهري: الرافة أشد الرحمة. يقال لغة: رَافٌ به يرأف رَأْفَةً، ورَيفٌ به يرأف رَأْفًا، ورُوفٌ به يرؤف رَأْفَةً.

وصيغة «رؤوف» من صيغ المبالغة، أي: هو ذو رافة عظيمة.

﴿رَحِيمٌ﴾:

أي: وهو بالمؤمنين رحيم، وصيغة «رحيم» من صيغ المبالغة، أي: وهو ذو رحمة عظيمة.

وقد وصف الله رسوله محمداً بصفتي الرافة والرحمة كما وصف بهما نفسه، وجمع بين الوصفين الأخص والأعم للدلالة على أن من تتطلب الحكمة الرافة به راف به، ومن تتطلب الحكمة أن يشملها بعموم رحمته رَحِمَهُ.

الرحمة: هي في المخلوقات عاطفة تستلزم المشاركة فيما يسرُّ المرحوم وفيما يؤلمه، ومُسَاعَدَتُهُ بما يحتاج إليه لمسرته، ولدفع سوء والضر عنه، وفي الخالق صفة تليق بجلاله سبحانه، من آثارها المعونة والمساعدة، ورفع الضر والأذى، والإنعام والإكرام، وكذلك الرافة.

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾:

معمول لـ ﴿رؤوف رحيم﴾ مقدّم عليهما لإفادة تخصيص رافته ورحمته بهما .
﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ :

أي : فإن أدبروا عن الاستجابة لنداء رسالتك التي أرسلك الله بها، وابتدعوا
منصرفين متبعين غير سبيلك .
﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ :

أي : قل : يكفيني رضا الله عني ، على ما قمت به من واجب كلّفني إياه ،
ويكفيني الله بمعونته وتأييده ونصره في أمري كله .

لفظ «حَسْب» اسم بمعنى «كاف» ويأتي «اسم فعل مضارع» بمعنى «يكفي»
فيقال : حَسْبُكَ من شَرِّ سَمَاعِهِ ، أي : يكفيك أن تسمعه لنشمتز منه ، ويأتي «اسم فعل»
أمره بمعنى «اكتف» فيقال : حَسْبُكَ هذا ، أي : اكتف به .

* * *

التدبير

• في الآية الأولى من هذا النص يصف الله محمداً للناس أجمعين بسبع
صفات، وهي آخر ما نزل من قرآن بشأنه .

إن الله يبين للناس مؤكداً بعبارة ﴿لَقَدْ﴾ اللام ابتدائية للتأكيد، أو هي لام القسم
وهي تفيد تأكيد الجملة بعدها، و﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق لتأكيد مضمون الجملة بعده .

والمؤكد مضمون كل الجملة التي اشتملت على كل صفات محمد ﷺ الواردة
في الآية :

الصفة الأولى :

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ :

أي : ليس محمد مجرد إنسان بشر ظهر بينكم كسائر الناس، بل هو موجه لكم،
وقد جاءكم بما هو موجه لكم به، فهو ذو صفة ثانية :

الصفة الثانية: أنه:

﴿رَسُولٌ﴾:

أي: هو حامل رسالة من ربكم إليكم، ولا يكون الرسول رسولاً من رب العالمين، حتى يكون نبيّاً، من الذين اصطفاهم الله بالنبوة، فأوحى إليهم، فهو نبيُّ رسول.

وكلمة «رَسُول» تغني عن كلمة «نبي» لأن الرسول في دين الله للناس هو نبيُّ كُلف أن يحمل رسالةً لآمته.

وهذا الرسول هو كسائر الرسل، ليس ذا طبيعة مخالفة لطبيعتكم البشرية، بل هو ذو صفة ثالثة:

الصفة الثالثة: هي أنه:

﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾:

أي: من نوع أنفسكم المشتقة من نفس واحدة.

إنكم جميعاً مخلوقون من نفس واحدة، هي نفس آدم، وحواء زوجته هي أيضاً من نفسه، لأن الله خلقها منه، وخلق من نفسيهما جميع أنفسكم، ومحمد هو واحد من هذه الأنفس.

إن طبيعة نفس محمد ليست من طبيعة أنفس الملائكة، ولا من طبيعة أنفس الجن، بل من أنفسكم أنتم، فكلّ خصائص البشر فيه، عواطفه من عواطفكم، ومشاعره من مشاعركم، فلا تحجب نفسه عنكم جفوة اختلاف الطبيعة، واختلاف خصائص النفس.

وبما أنه يشعر بالعت إذا متته مشقة، أو نزل به مكروه، فإنه ذو صفة رابعة:

الصفة الرابعة: هي أنه:

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾:

أي: شديد عليه وشاق على نفسه كل ما هو شديد عليكم وشاق على نفوسكم، إذ هو من وحدة أنفسكم يؤلمه ما يؤلمكم، ويشق عليه ما يشق عليكم، فكيف تكون

حالة نفسه بالنسبة إلى ما يَعْلَمُ أَنَّهُ يُنْزَلُ بِكُمْ آلاماً وَعَذَاباً، لذلك فَإِنَّهُ يُؤْلِمُهُ أَنْ تَكْفُرُوا، وَأَنْ تَعْرِضُوا أَنْفُسَكُمْ لِلْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ، وَيُؤْلِمُهُ أَنْ تَعْصُوا رَبَّكُمْ فَيَمْسُكُكُمْ بِذَلِكَ عَنَتِ الْعِقَابِ مِنْ بَارِئِكُمْ.

وهو يشعر أيضاً أَنَّكُمْ بِمِثَابَةِ أَهْلِهِ وَأَبْنَائِهِ وَأَسْرَتِهِ الْخَاصَّةِ، لذلك فَإِنَّهُ ذُو صِفَةٍ خَامِسَةٍ.

الصفة الخامسة: هي أَنَّهُ:

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾:

أي: مَسْتَمْسِكٌ بِكُمْ، يُشْفِقُ عَلَيْكُمْ كَمَا يَشْفِقُ أَحَدُكُمْ عَلَى أَهْلِهِ وَقَرَابَتِهِ، وَيَجْتَهِدُ فِي نَصْحِكُمْ وَتَحْقِيقِ مَا يَنْفَعُكُمْ وَيُدْفِعُ الضَّرَّ وَالْأَذَى عَنْكُمْ غَايَةَ الْجَهْدِ، وَيَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تَجْثَاكَمُ الشَّيَاطِينُ، وَتَسْوَفَكُم أَوْ تَفُودَكُم إِلَى شَقَائِكُمْ بِإِغْرَائِكُمْ وَإِغْوَائِكُمْ حَتَّى تَسْقُطُوا فِي مَسَاخِطِ رَبِّكُمْ.

هذا حاله بالنسبة إلى عموم شركائه في وحدة الأنفس البشرية، المخلوقة من نفس واحدة.

أَمَّا حاله بالنسبة إلى الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِدَعْوَتِهِ فَأَمَّنُوا، فَإِنَّهُ ذُو صِفَتَيْنِ زَائِدَتَيْنِ عَلَى مَا سَبَقَ، صِفَةٍ سَادِسَةٍ، وَصِفَةٍ سَابِعَةٍ:

الصفتان السادسة والسابعة: هما أَنَّهُ:

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾:

أي: هو شَدِيدُ الرَّافَةِ بِالْمُؤْمِنِينَ، عَظِيمُ الرَّحْمَةِ بِهِمْ.

وَلَمَّا كَانَتِ الرَّافَةُ أَخْصَ وَأَرْقَ مِنْ عَمُومِ الرَّحْمَةِ، فَإِنَّهُ ﷻ كَانَ إِذَا رَأَى حَالَ بَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ تَتَطَلَّبُ مِنْهُ خُصُوصُ الرَّافَةِ كَانَ بِهِ رُؤُوفاً، وَكَانَ إِذَا رَأَى حَالَ بَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ يَكْفِيهِ مِنْهُ عَمُومُ الرَّحْمَةِ كَانَ بِهِ رَحِيماً.

وَمِنْ آثَارِ ذَلِكَ فِي سِتِّهِ أَنَّهُ كَانَ لَا يُحِبُّ أَنْ يُشَقَّ عَلَى أُمَّتِهِ فِي التَّكَالِيفِ، حَتَّى لَا يَكُونَ فِي ذَلِكَ إِحْرَاجٌ لَهُمْ يَدْفَعُهُمْ إِلَى الْوُقُوعِ فِي الْمَخَالَفَةِ، وَالتَّعَرُّضِ لِلْعُقُوبَةِ، فَمِنْ أَقْوَالِهِ ﷻ: «دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ».

روى البخاري عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال:

«دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ سُؤَالُهُمْ وَاجْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا بِهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ».

وفي رواية عند مسلم عن أبي هريرة قال: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قَدْ قَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا».

فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلُّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ، لَوَجِبَتْ وَلَمَّا اسْتَطَعْتُمْ».

ثُمَّ قَالَ:

«دُرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ...» إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ السَّابِقِ.

* وفي الآية الثانية من هذا النص توجيه وصية من الله لرسوله بشأن الذين أبوا أن يستجيبوا لدعوته، ويؤمنوا به وبما جاءهم به عن ربه، بل تَوَلَّوْا مدبرين مبتعدين، سالكين مسالك مبينة لصراطه المستقيم.

وهذه الوصية تشتمل على تكليفه أن يَرُدَّدَ ذكراً مؤلفاً من أربع جُمَلٍ:

الجملة الأولى:

﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾:

أي: أكتفي برضا الله ومعونته، لأنه كافٍ من اكتفى به، فإنا ادعوه أن يكون حَسْبِي.

الجملة الثانية:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾:

أي: لا معبود بحق في الوجود كله إلا هو، فإنا لا نعبد غيره، لذلك فإنا ادعوه مسائلًا متضرعًا، ولا ادعوه معه أحدًا.

الجملة الثالثة :

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ :

أي : عليه وحده توكلتُ في امري كله ، حفظاً ومعونة وتوفيقاً للخيرات ، إلى غير ذلك من شؤوني العاجلة والأجلة .

الجملة الرابعة :

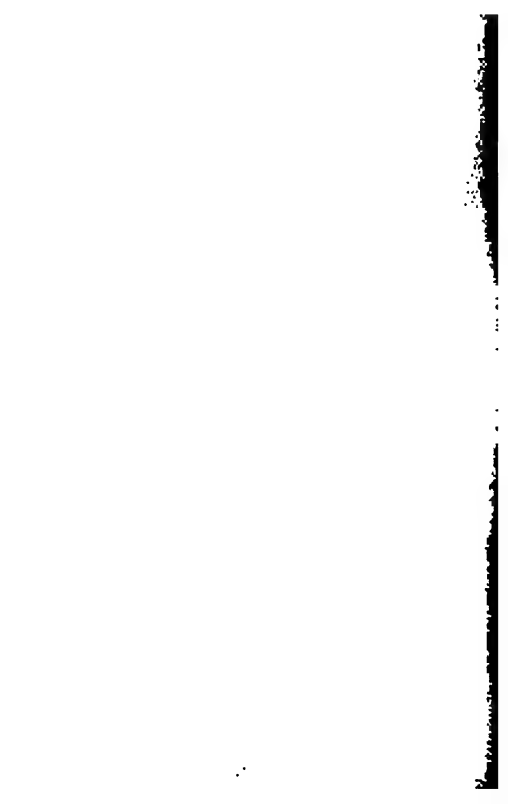
﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ :

أي : وهو وَخْذُهُ رَبُّ العرش العظيم ، المحيط بالسموات والأرض وما فيهن ، فهو رَبِّي وَرَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ، أي : هو الموجد لكل شيء ، والممدد له بالبقاء ، والمتصرف بكل ما يجري فيه من حركة وسكنة وتغيرات .

هذه الجمل الأربع هي ذكر ودعاء منبعثان من جوهر القاعدة الإيمانية ، بالله وصفاته العظمى ، ويمنح الله بها الذاكر خيراً عظيماً ، ويفيض في قلبه الراحة والطمانينة ، وينفحه بها بنسمات السعادة ، مع ما يقضي له من أمور في الحياة ترضيه ، ويدخر له للأخرة من الخيرات الحسان ، ما لا عين رأت ، ولا أُذُن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وانتهى تدبر النص بعون الله وتوفيقه





القِسمُ الثالث

الْمُنَافِقُونَ وَصُورُ مَنْ خَبَائِثِهِمْ فِي التَّارِيخِ

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول : مُنافقون قبل بعثة محمد ﷺ .

الفصل الثاني : المنافقون في عصر الرسول ﷺ وخبائثهم .

الفصل الثالث : منافقون عبر تاريخ المسلمين بعد عصر الرسول ﷺ .

الفصل الأول

مُنافِقُونَ قَبْلَ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ

وفيه مقلتان :

المقولة الأولى : إبليس أول المنافقين .

المقولة الثانية : المنافق اليهودي بولس = شاول قبل أن يتنصر ،
وتحريفه الديانة النصرانية .

إبليس أول المنافقين

دلت النصوص القرآنية على أن إبليس عليه لعنة الله عز وجل قد كان أول منافقٍ فيما كُشف لنا من تاريخ الخليقة.

لقد كان إبليس من الجن المخلوقين من مارج من نار، بطبيعة ذات إرادة حرة قابلة للطاعة والمعصية، وذات أهواء وشهوات ونفس نزاعة لفعل الخير ولفعل الشر، ولم يكن من الملائكة المخلوقين من نور بطبيعة مطيعة للباري عز وجل بالفطرة التي فطرهم الله عليها، فهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

دل على هذه الحقيقة قول الله عز وجل في سورة (الكهف/ ١٨) مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ... ﴿٥٠﴾﴾

وآبان الله لنا أن الجن مخلوقون من مارج من نار، أي: من أخلاط نارية، وهذه الأخلاط النارية ترجع إلى أصل العناصر التي توقدت منها النار، كالحديد والنحاس والحجر والعناصر النباتية، وغير ذلك، فقال تعالى في سورة (الرحمن/ ٥٥) مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾

﴿الجان﴾: هو أبو الجن كما قال المفسرون.

وحين احتج إبليس لرفضه السجود لآدم احتج بأنه مخلوق من نار، التي هي

بحسب زعمه أشرف عنصراً من الطين الذي خلق الله منه آدم، فقال لربه كما جاء في سورة (ص/ ٣٨/ مصحف/ ٣٨/ نزول):

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي ۖ اسْتَكْبَرْتَ ۖ أَتَكُنُ مِنَ الْغَالِينَ ﴿٧٦﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُمْ مِنْ طِينٍ ﴿٧٧﴾ ۝ ﴾

أما الملائكة فهم مخلوقون من نور، فقد روى مسلم بسنده عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال:

«خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِنْ مِثْأَى وَصِفَتْ لَهُمْ».

فالجنّ نوع من العالمين، سُموا جنّاً لاستبّارهم عن أبصار الناس.

ويلتقي الجنّ مع نوع الملائكة الذين هم نوعٌ آخرٌ من العالمين، غير نوع الجن، وغير نوع الإنس، بعدة صفات، منها ما يلي:

(١) أن أجسامهم غير ذات كثافة أرضية، فليسوا كأجسام الأحياء المخلوقات من تراب وماء، والتي تنجذب بسببها إلى كتلة الأرض.

(٢) أن أجسامهم قادرة على التشكل بأشكال الأحياء المخلوقة من الطين.

(٣) أنه قد كان باستطاعة الجنّي أن يندسّ بمقتضى طبيعته في نوع من الملائكة، ويضعّد السماء مثل صعودهم، ويُغَمِّل مثل أعمالهم، مع الاختلاف في أصل تكوينه، وفي صفاته النفسية، بدليل وجود إبليس ضمن الملائكة الذين أمروا بالسجود لآدم وهو من الجن.

وبسبب عناصر التشابه هذه استطاع إبليس أن يندسّ في صفوف الملائكة، ويشاركهم في عباداتهم، ويتحلّى بصفات أهل الملا الأعلى منهم، اعتقاداً منه أنه سيستغلي بذلك إلى نوع الملائكة المخلوقين من عنصر النور، الذي هو في تقديره أشرف من عنصر النار، وكان بمقتضى طبيعته طامعاً في أن ينال بين الملائكة المقام الأسمى، وهو يعلم أن طبيعته مختلفة عن طبيعة الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وكان إبليس يؤمن بالله رباً خالقاً مُبِداً بكلّ عطاءات الربوبية، لكنه كان كافراً غير مؤمن بتوحيد الإلهية لله عز وجل، وكفره هو من قبيل كفر الشرك، إذ كان يعتقد بتأثير العناصر التي يتكوّن منها المخلوق، ويعتقد بتفاضل العناصر تفاضلاً ذاتياً، وقد جرّه هذا الاعتقاد إلى الكفر بحق الله عز وجل في أن يكلف من خلق تكليفاً مُنافياً لما يقتضيه التفاضل العنصري.

وبما أنه كان مندساً في صفوف الملائكة المكرمين، ونزاعاً بعوامل كبر في نفسه إلى مراتب المقربين من أهل الملا الأعلى من الملائكة، فقد شاء الله عز وجل أن يكشف ما في نفسه بالابتلاء، فيضعه موضع الامتحان، من خلال عقدة الكبر والكفر التي في نفسه.

فلما توجه الأمر للملائكة بالسجود لآدم الذي خلقه الله من طين، وكان إبليس مندساً فيهم، ومعتبراً نفسه واحداً منهم، وقد شمله التكليف بمقتضى إلحاقه نفسه بالملائكة، وانتمائه إليهم، نزعت نفسه بدافع الكبر والكفر بحق الله عز وجل في إلهيته، التي منها طاعته في أوامره ونواهيه، فأنسى أن يطيع أمر ربه واستكبر عن أن يسجد لآدم سجود احترام له وطاعة لله عز وجل.

وعقد الله له عدّة جلسات لمحاكمته، عسى أن يتراجع عن كبره وكفره بحق الرب الخالق في أن يكون هو الإله المعبود وحده، بلا شرك ولا شك في حكمته، ولا اعتراض على تكليف ما من تكليفاته بأوامره ونواهيه.

وفي كل مرّة كان يُصرّ على أن عنصره الناري خير من عنصر آدم الطيني، وفي هذا الإصرار نشب بادعاء أفضلية عنصر النار على عنصر الطين، مع أن العناصر كلّها من خلق الله، وادّعاء إبليس مبني على وهم باطل، جرّه إليه الاغترار بالظواهر، والإغراض عن حق الرب في وجوب طاعة أمره ولو أمره بأن يسجد لجماد، لأن السجود لأمر الله، لا لعبادة المسجود له من دون الله.

فالامتحان الرباني كشف أن إبليس كان من الكافرين بتوحيد الإلهية لله عز وجل، وبحق الله الرب الخالق في الطاعة، وكان من المشركين الذين يجعلون

العناصر الكونية ذات خصائص ذاتية تستدعي حقوقاً مقدّمة على حقّ الله عزّ وجلّ في طاعته .

وقد أبان الله عزّ وجلّ أنّ إبليس كان من الكافرين، أي: من كفّرة الجنّ، قبل أن يأمره الله بالسجود لآدم، فقال تعالى في سورة (ص/ ٣٨/ مصحف/ ٣٨/ نزول):

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٦﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ يَبْنَؤُا مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِدَيِّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ خَلْقِنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتُم مِّن طِينٍ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَاهْجُرْ مِنهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٨٠﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٨١﴾﴾

وقال تعالى في سورة (البقرة/ ٢/ مصحف/ ٨٧/ نزول):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٦﴾﴾

طرّد الله إبليس من منازل أهل الملا الأعلى من الملائكة، ولعنهُ لعناً إلى يوم الدين، عقوبةً معجّلةً له، قبل العقوبة المؤجلة في جهنّم يوم الدين، وأدخل آدم وزوجه الجنّة إذخال امتحانٍ وابتلاء، لا إذخال جزاء وبقاء، وفي ابتلائهما نهاهما الله عن أن يأكلا من شجرةٍ عيّنهما الله لهما، فإنّ أكلا منها غضباً وعاقبهما بالإخراج من الجنّة، وأمطهما إلى الأرض، ليقاسيا رحلة الابتلاء عليها، هما وذريّاتهما، فمن آمن وصلّح كوفىء بالدخول إلى دار النعيم الجنّة دخول جزاء وخلود، ومن كفر وأبى أن يستجيب لأوامر الله ونواهيه، وجحد حقّ الله عليه كان من أصحاب العذاب الخالد في دار العذاب، المقابلة لدار النعيم، دخول جزاء وخلود، ومن آمن وعصى استحق من العذاب بمقدار معاصيه .

وحذّر الله آدم وزوجه من إبليس ووساوسه ودسائسه، وأبان لهما أنّه لهما عدوّ مبین، وأبان لهما أنّه سيسعى لإغوائهما وإغرائهما بمعصية الله، بغية إخراجهما من الجنة .

وحمل إبليس في نفسه العداوة الشديدة لآدم وزوجه وفُرِيَاتهما، وأمتلأت نفسه حقدًا عليهما، وقرَّر أن يسعى جهَّده لإغوائهما، حتى يعصيا رَّبَّهما، فيخرجهما الله من الجنة، وأن يسعى بعد ذلك هو وجنوده لإغواء ذُرِّيَّاتِهِ حتَّى يكونوا من أهل النار.

ومكَّنه الله من الوسوسة والتسويل، ولم يجعل له سلطاناً على إرادات الناس، ولا قدراتٍ جبرية، وكان التمكين من الوسوسة لإيجاد التوازن في ابتلاء الإرادات الحرة.

وسبَّر إبليس ما يمكنه من جيلٍ يتخذها للإغراء والإغواء، فوجد وسيلة النفاق هي السلاح الأقوى، فقرَّر أن يركب مركب النفاق.

فلبس قناع الناصح الأمين، وأخذ يغري آدم وزوجه بأن يأكلَا من الشجرة التي نهاهما الله عن أن يأكلَا منها في الجنة واستشار فيهما الرغبة في أن يكونا ملكين نورانيين، أو يكونا في الجنة من الخالدين، وقال لهما: ما نهاكما ربُّكما عن هذه الشجرة، إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، وأقسم لهما بالآيمان المغلظة أنه لهما لمن الناصحين، وما زال يذليها إلى بشر المعصية بتغريز قدرأ فقدرأ، حتَّى جعلهما يأكلان من الشجرة المحرَّمة، فكان السبب في إخراجهما من الجنة.

ولما حاكمهما الله على معصيتهما اعترفا بالذنب، وسألاه المغفرة والرحمة.

قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (الاعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِئِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿١٩﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ ﴿٢٠﴾ فَنَلَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢١﴾ فَلَا رَيْبَآ ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ أَهْبِطَا بَعْضُكُمَا لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٣﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

ومَهَر إبليسُ أسلوبَ النفاق، فسعى هُوَ وَجُنُودُهُ لِيَسْبِيْنَ أَمْتَعَةَ النِّفَاقِ لِإِغْوَاءِ بَنِي آدَمَ، بُغْيَةً صَدَّهِمْ وَابْتِعَادَهُمْ عَنِ صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، عداوةً وكيداً، حَتَّى يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ النَّارِ.

وجنود إبليس هم شياطين الجن والإنس، وكان النفاق أخطر الطرق التي عرفها الخلق في عالم الأحياء ذوي الإرادات الحرة، وهو أسلوب الشياطين الأعظم للإفساد والتضليل والإغواء.



المنافق اليهودي بولس «شاوول - قبل أن يتنصر» وتحريفه الديانة النصرانية

من الذين احتلوا مركزاً قيادياً خطيراً في الديانة النصرانية رجل اسمه «بولس» وكان اسمه قبل أن يتنصر «شاوول».

إن قصته في النصرانية قصة عجيبة غريبة، فهو صاحب الشأن الخطير في تحريف الديانة النصرانية عن أصولها الربانية الصحيحة التي أنزلها الله على عيسى عليه السلام.

كان في أول عهده من كبار أعداء النصارى الذين آمنوا بعيسى وصدقوه وأتبعوه، حتى كان من أشد من أنزل بهم ألواناً من الاضطهاد والقتل والتعذيب، بسلطان الدولة الرومانية التي كان يعمل فيها، وسلطان كبار الكهنة من اليهود في أورشليم.

فقد جاء في رسالته إلى أهل غلاطية (الإصحاح الأول) ما يلي:

[١٣) فَأَنْتُمْ سَمِعْتُمْ بِسِيرَتِي قَبْلًا فِي الدِّينَانِ الْيَهُودِيَّةِ أَنِّي كُنْتُ اضْطَهَدُ كَنِيسَةَ اللَّهِ بِإِفْرَاطٍ وَأَتَلَفْتُهَا (١٤) وَكُنْتُ أَتَقَدَّمُ فِي الدِّينَانِ الْيَهُودِيَّةِ عَلَى كَثِيرِينَ مِنْ أَتْرَابِي فِي جَنْبِي إِذْ كُنْتُ أَوْفَرُ غَيْرَةً فِي تَقْلِيدَاتِ آبَائِي].

وجاء في الإصحاح الثامن من أعمال الرسل ما يلي:

[١) وَخِذْتُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ اضْطِهَادًا عَظِيمًا عَلَى الْكَنِيسَةِ الَّتِي فِي أُورُشَلِيمَ فَتَشَتَّتِ الْجَمِيعُ فِي كَوْرِ الْيَهُودِيَّةِ وَالسَّامِرَةِ مَا عَدَا الرُّسُلَ (٢) وَحَمَلَ رِجَالُ اتَّقِيَاءِ إِسْتِفَانُوسَ وَغَمَلُوا عَلَيْهِ مَنَاحَةَ عَظِيمَةً (٣) وَأَمَّا شَاوُولُ فَكَانَ يَسْطُو عَلَى الْكَنِيسَةِ وَهُوَ يَدْخُلُ الْبُيُوتَ وَيَجْرُ رِجَالًا وَنِسَاءً وَيُسَلِّمُهُمْ إِلَى السَّجَنِ].

وجاء في الإصحاح السادس والعشرين منه ما يلي حكاية عنه :

[٩) فَأَنَا ارْتَأَيْتُ فِي نَفْسِي أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ أَصْنَعَ أُمُوراً كَثِيرَةً مُضَادَّةً لِاسْمِ يَسُوعَ النَّاصِرِيِّ (١٠) وَفَعَلْتُ ذَلِكَ أَيْضاً فِي أُورُشَلِيمَ فَخَبَسْتُ فِي سُجُونٍ كَثِيرِينَ مِنَ الْيَهُودِيِّينَ أَخْذاً السُّلْطَانَ مِنْ قِبَلِ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ. وَلَمَّا كَانُوا يَقْتُلُونَ أَلْقَيْتُ قُرْعَةً بِذَلِكَ (١١) وَفِي كُلِّ الْمَجَامِعِ كُنْتُ أَعَاقِبُهُمْ مِرَاراً كَثِيرَةً وَأَضْطَرُّهُمْ إِلَى التَّجْدِيفِ. وَإِذَا أَقْرَطُ حَتَّى عَلَيْهِمْ كُنْتُ أَطْرُدُهُمْ إِلَى الْمَدِينِ الَّتِي فِي الْخَارِجِ].

وكان «بولس = شاول» يهودياً طرطوسياً من الفريسيين وهو لم يَرِ عيسى عليه السلام، ولا سمعه يدعو الناس ويُبشِّرُ بدين الله، مع أنه قد أدرك زمانه.

وكان يحمل الرعوية (= الجنسية) الرومانية، إذ كان مولوداً فيها، في حين أن اكتسابها كان صعباً، وكان يتدُلُّ طالبو اكتسابها أموالاً كثيرة للحصول عليها، واستفاد من هذه الرعوية واستغلَّها في التسلُّط وفي حماية نفسه، من خصومه في اليهودية طائفة «الصدوقيين»^(١) المعارضة لطائفة «الفريسيين»^(٢).

جاء في الإصحاح الثاني والعشرين من أعمال الرسل في معرض الحديث عن بولس ما يلي :

(١) الصَّدُوقِيُّونَ: طائفة يهودية متلاشية الآن. كانت لا تؤمن بقيامة الأموات من القبور. ولا تؤمن بالحياة الأبدية للبشر بأفرادهم وأشخاصهم كما كانوا في الدنيا. وترفض الشواب والعقاب في الآخرة. وتنكر وجود الملائكة والشياطين. وتنكر القضاء والقدر وكتابة أعمال الناس في اللوح المحفوظ قبل وقوعها. وتعتقد أن الإنسان خالق أفعال نفسه. وتؤمن بقدسية العهد القديم ولا تؤمن بالتلمود. وكانوا يقولون: إنَّ عزيراً ابن الله، وكان الصدوقيون موجودين في اليمن قبل الإسلام.

(٢) الْفَرِيسِيُّونَ: هم إحدى طائفتين دينيتين كبيرتين لليهود، كانتا ذواتي شأن في العهد المسيحي الأول، وقد ظهر الفريسيون بعد أن استطاعت أسرة المكابيين تخليص الشعب اليهودي من طبقات السلوقيين. وامتاز الفريسيون بحرصهم الشديد على التعاليم اليهودية شغوية كانت أو مكتوبة، وبحرصهم على تخليص هذه التعاليم من الشواب والبدع الدخيلة، فأحدثوا حركة فكرية كان لها أثرها في حياة الشعب اليهودي عامة، وفي نزعة الدينية بوجه خاص.

[٢٥) فَلَمَّا مَدَّوهُ لِلسَّيَاطِ قَالَ بُولُسُ لِقَائِدِ الْيَمَةِ الْوَاقِبِ أَيْجُورُ لَكُمْ أَنْ تَجْلِسُوا
إِنْسَانًا رُومَانِيًّا غَيْرَ مَقْضِيٍّ عَلَيْهِ (٢٦) فَإِذَا سَمِعَ قَائِدُ الْيَمَةِ ذَهَبَ إِلَى الْأَمِيرِ وَأَخْبَرَهُ قَائِلًا:
أَنْظُرْ مَاذَا أَنْتَ مُزْمِعٌ أَنْ تَفْعَلَ. لِأَنَّ هَذَا الرَّجُلَ رُومَانِي (٢٧) فَجَاءَ الْأَمِيرُ وَقَالَ لَهُ: قُلْ
لِي أَنْتَ رُومَانِي. فَقَالَ نَعَمْ (٢٨) فَأَجَابَ الْأَمِيرُ أَمَا أَنَا فَمَبْلَغُ كَبِيرٍ اقْتَنَيْتُ هَذِهِ
الرَّعَوِيَّةَ. فَقَالَ بُولُسُ أَمَا أَنَا فَقَدْ وَلَدْتُ فِيهَا (٢٩) وَلِلْوَقْتِ تَنْحَى عَنْهُ الَّذِينَ كَانُوا
مُزْمِعِينَ أَنْ يَفْخَصُوهُ وَاحْتَشَى الْأَمِيرُ لَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ رُومَانِي وَلِأَنَّهُ قَدْ قَيَّدَهُ.

(٣٠) وَفِي الْغَدِ إِذْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَعْلَمَ الْيَقِينُ لِمَاذَا يَشْتَكِي الْيَهُودُ عَلَيْهِ حَلَهُ مِنَ
الرِّبَاطِ وَأَمَرَ أَنْ يَحْضُرَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَكُلُّ مَجْمَعِهِمْ فَاخَذَ بُولُسُ وَأَقَامَهُ لَدَيْهِمْ.]

الإصحاح الثالث والعشرون

[١) فَتَفَرَّسَ بُولُسُ فِي الْمَجْمَعِ وَقَالَ أَيُّهَا الرِّجَالُ الْإِخْوَةُ إِنِّي بِكُلِّ ضَمِيرٍ صَالِحٍ
قَدْ عَشْتُ لِلَّهِ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ (٢) فَأَمَرَ خَنَانِيَّا رَئِيسَ الْكَهَنَةِ الْوَاقِبِينَ عَنْهُ أَنْ يَضْرِبُوهُ
عَلَى فَعِهِ (٣) جَبِيئًا قَالَ لَهُ بُولُسُ سَيَضْرِبُكَ اللَّهُ أَيُّهَا الْخَائِطُ الْمَبِيضُ. أَفَأَنْتَ جَالِسٌ
تَحْكُمُ عَلَيَّ حَسْبَ النَّامُوسِ وَأَنْتَ تَأْمُرُ بِضَرْبِي مُخَالِفًا لِلنَّامُوسِ (٤) فَقَالَ الْوَاقِفُونَ
أَتَشْتُمُ رَئِيسَ كَهَنَةِ اللَّهِ (٥) فَقَالَ بُولُسُ لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ أَنَّهُ رَئِيسُ كَهَنَةٍ لِأَنَّهُ
مَكْتُوبٌ رَئِيسُ شَعْبِكَ لَا تَقُلْ فِيهِ سُوءًا.

(٦) وَلَمَّا عَلِمَ بُولُسُ أَنَّ قِسْمًا مِنْهُمْ صَدُوقِيُونَ وَالْآخَرُ فَرِيسِيُّونَ صَرَخَ فِي
الْمَجْمَعِ أَيُّهَا الرِّجَالُ الْإِخْوَةُ أَنَا فَرِيسِيٌّ ابْنُ فَرِيسِيٍّ. عَلَى رَجَاءِ قِيَامَةِ الْأَمْوَاتِ أَنَا
أَحَاكِمُ (٧) وَلَمَّا قَالَ هَذَا حَدَثَتْ مَنَازَعَةٌ بَيْنَ الْفَرِيسِيِّينَ وَالصَّدُوقِيِّينَ وَانْشَقَّتِ الْجَمَاعَةُ
(٨) لِأَنَّ الصَّدُوقِيِّينَ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَيْسَ قِيَامَةٌ وَلَا مَلَائِكَةٌ وَلَا رُوحٌ. وَأَمَّا الْفَرِيسِيُّونَ فَيَقِرُّونَ
بِكُلِّ ذَلِكَ (٩) فَحَدَّثَ صِيَاحٌ عَظِيمٌ وَنَهَضَ كَثَرٌ قِسْمِ الْفَرِيسِيِّينَ وَطَفِقُوا يُخَاصِمُونَ
قَائِلِينَ لَنَا نَجِدُ شَيْئًا رَدِيًّا فِي هَذَا الْإِنْسَانِ. وَإِنْ كَانَ رُوحٌ أَوْ مَلَائِكَةٌ قَدْ كَلَّمَهُ
فَلَا نَحَابِرُ لَهِ اللَّهِ.]

قِصَّةُ دُخُولِهِ فِي النِّصْرَانِيَّةِ

(١) قال ابن حزم في كتابه (الفصل) في مَعْرِضِ الحديث عن أجبار اليهود:

«وفيما سمعنا علماءهم يذكرونه وَلَا يَتَذَكَّرُونَهُ مَعْنَى، أَنَّ أَحْبَارَهُمُ الَّذِينَ أَخَذُوا عَنْهُمْ دِينَهُمُ وَالتَّوْرَةَ وَكُتِبَ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ رَسُوًا بُوَلَسَ النَّبِيَّامِينِي — لعنه الله — وَأَمَرُوهُ بِإِظْهَارِ دِينِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنْ يُبْصَلَ أَتْبَاعُهُ، وَيُدْخَلَهُمْ إِلَى الْقُيُودِ بِأَلْهَيْتِهِ، وَقَالُوا لَهُ: نَحْنُ نَتَحَمَّلُ إِيْتَمَكَ فِي هَذَا، وَنَبْلُغُ مِنْ ذَلِكَ حَيْثُ قَدْ ظَهَرَ»^(١).

(٢) من الثابت لدى النصارى وكلِّ الباحثين أنه بعد أن رفع الله عيسى عليه السَّلَامُ إليه بِمَدَّةٍ مِنَ الزَّمَنِ أَغْلَنَ «بُولُسُ» دُخُولَهُ فِي النِّصْرَانِيَّةِ بِشَكْلِ مُفَاجِئٍ، وَاحْطَ دُخُولَهُ فِيهَا بِأَدْعَاءٍ غَرِيبَةٍ جَرَتْ لَهُ، وَمُشَاهَدَاتٍ رُوحِيَّةٍ خَاصَّةٍ، ادَّعَى فِيهَا أَنَّ يَسُوعَ هَبَطَ عَلَيْهِ بِنُورِهِ الْبَاهِرِ، عِنْدَمَا كَانَ قَادِمًا إِلَى دِمَشْقَ وَفَرِيًّا مِنْهَا، وَقَالَ لَهُ: لِمَاذَا تَضْطَهِدُنِي؟

فَقَالَ لَهُ «بُولُسُ» = شَاوُلُ، وَهُوَ مُرْتَبِعٌ وَمُتَحَيِّرٌ: يَا رَبُّ مَاذَا تُرِيدُ أَنْ أَفْعَلَ؟

فَقَالَ لَهُ: وَقُمْ، وَادْخُلِ الْمَدِينَةَ فَيَقَالَ لَكَ مَاذَا يَنْبَغِي أَنْ تَفْعَلَ.

وَبَعْدَ أَنْ قَادَهُ رِفَاقُهُ إِلَى دِمَشْقَ وَاسْتَقَرَّ فِيهَا، أَتَاهُ خَنَانِيَا، وَكَانَ هَذَا رَجُلًا مَشْهُودًا لَهُ بِالتَّقْوَى مِنْ جَمِيعِ الْيَهُودِ السَّكَّانِ كَمَا يَذْكُرُ «بُولُسُ» فَأَخْبَرَهُ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ اخْتَارَهُ لِيُعَلِّمَ الدِّينَ وَيُكْرِّزَ بِالْمَسِيحِيَّةِ، أَي: يَبْغِظُ بِهَا، وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَيْهَا.

وَبِلَاخِظْ أَنْ خَنَانِيَا هَذَا رَجُلٌ يَهُودِيٌّ، قَرَّبَ مَا رَأَى مِنْ «بُولُسٍ» مِنْ مُشَاهَدَاتٍ رُوحِيَّةٍ بِتَعْلِيمَاتٍ يُوْجِّهُهَا لَهُ خَنَانِيَا الْحَبْرُ الْيَهُودِيُّ يُشْعِرُ بِأَنَّ قِصَّتَهُ مُوَاظَرَةٌ يَهُودِيَّةٌ مُدْبِرَةٌ، كَمَا ذَكَرَ ابْنُ حَزْمٍ، فَقُلَمَاءُ يَهُودِ الْأَنْدَلُسِ يَعْرِفُونَهَا وَتَتَدَاوَلُونَهَا فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَيَذْكُرُونَ أَنَّ قُلَمَاءَ أَحْبَارِهِمْ هُمُ الَّذِينَ رَسَوْا «بُولُسُ» = شَاوُلُ لِكَيْ يَدْخُلَ فِي النِّصْرَانِيَّةِ، وَيُقْبِلَ

(١) انظر كتاب «الفصل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم الأندلسي الجزء الأول ص (٢٢١) نشر مكتبة الخانجي بمصر.

عقائد أتباع عيسى عليه السلام، بفكرة تأليهه، وجعله ابناً لله، ويخرب الديانة التي أنزلها الله على عيسى.

(٣) وقد أتى «بولس» أخطر دورٍ نفاقٍ صنعه منافقٌ في تاريخ الناس، إذ استطاع بادعاءاته مع انصاره اليهود المنافقين في النصرانية أن يجعلوا ما وضعه «بولس» هودين النصرانية الذي أقرته الدولة الرومانية فيما بعد، لا ما أنزل الله على عيسى عليه السلام.

(٤) جاء في الإصحاح التاسع من أعمال الرسل ما يلي:

(١) [أما شاول فكان لم يزل ينفث تهديداً وقتلاً على تلاميذ الرب. فتقدم إلى رئيس الكهنة (٢) وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى الجماعات حتى إذا وجد أناساً في الطريق رجالاً أو نساء يسوقهم موفيقين إلى أورشليم (٣) وفي ذهابه حدث أنه اقترب إلى دمشق فبغتة أبرق حوله نور من السماء (٤) فسقط على الأرض. وسمع صوتاً قائلاً له شاول شاول لماذا تضطهذي (٥) فقال من أنت يا سيد. فقال الرب أنا يسوع الذي أنت تضطهده صعب عليك أن ترثس مناجس (٦) فقال وهو مرتعد ومتحير يا رب ماذا تريد أن أفعل. فقال له الرب قم وادخل المدينة فيقال لك ماذا ينبغي أن تفعل (٧) وأما الرجال المسافرون معه فوقفوا صامتين يسمعون الصوت ولا ينظرون أحداً (٨) فنهض شاول عن الأرض وكان وهو مفتوح العينين لا يبصر أحداً فاقناده يديه وأدخلوه إلى دمشق (٩) وكان ثلاثة أيام لا يبصر فلم يأكل ولم يشرب. (١٠) وكان في دمشق تلميذ اسمه خنانيا فقال له الرب في رؤيا يا خنانيا. فقال هأنذا يا رب (١١) فقال له الرب قم واذهب إلى الرزاق الذي يقال له المستقيم واطلب في بيت يهوذا رجلاً طرسوسياً اسمه شاول. لأنه هوذا يصلي (١٢) وقد رأى في رؤيا رجلاً اسمه خنانيا داخلاً وواضعاً يده عليه لكي يبصر (١٣) فأجاب خنانيا يا رب قد سمعت من كثيرين عن هذا الرجل. كم من الشرور فعل بقديسيك في أورشليم (١٤) وهنأ له سلطان من قبل رؤساء الكهنة أن يوثق جميع الذين يذعون باسمك (١٥) فقال له الرب اذهب لأن هذا لي إساءة مختار ليحمل اسمي أمام أمم وملوك وبنين إسرائيل (١٦) لأنني سأريه كم ينبغي أن يتألم من أجل اسمي (١٧) فمضى خنانيا ودخل البيت

وَوَضَعَ عَلَيْهِ يَدَهُ وَقَالَ أَيُّهَا الْأَخْ شَاوُلُ قَدْ أَرْسَلَنِي الرَّبُّ يُسَوِّعُ الَّذِي ظَهَرَ لَكَ فِي الطَّرِيقِ الَّذِي جِئْتَ فِيهِ لِكَيْ تُبْصِرَ وَتَمْتَلِئَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ . (١٨) فَلِلْوَقْتِ وَقَعَ مِنْ عَيْنَيْهِ شَيْءٌ كَأَنَّهُ قُشُورٌ فَلَبَضَ فِي الْحَالِ وَقَامَ وَاعْتَمَدَ (١٩) وَتَنَاوَلَ طَعَاماً فَتَقَوَّى . وَكَانَ شَاوُلُ مَعَ التَّلَامِيذِ أَيَّاماً (٢٠) وَلِلْوَقْتِ جَعَلَ يَكْرُرُ فِي الْمَجَامِعِ بِالْمَسِيحِ أَنَّ هَذَا هُوَ ابْنُ اللَّهِ (٢١) فَبُهِتَ جَمِيعُ الَّذِينَ كَانُوا يَسْمَعُونَ وَقَالُوا أَلَيْسَ هَذَا هُوَ الَّذِي أَعْلَكَ فِي أُورُشَلِيمَ الَّذِينَ يَدْعُونَ بِهَذَا الْأَسْمِ . وَقَدْ جَاءَ إِلَى هُنَا لِهَذَا لِيَسَوْفَهُمْ مُرْتَقِينَ إِلَى رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ (٢٢) وَأَمَّا شَاوُلُ فَكَانَ يَزْدَادُ قُوَّةً وَيُخَيِّرُ الْيَهُودَ السَّاكِنِينَ فِي بَمَثَقَ مُحَقِّقاً أَنَّ هَذَا هُوَ الْمَسِيحُ .]

أقول:

يلاحظ في هذا النص بيان أن الرجال المسافرين مع بولس وقفوا صامتين يَسْمَعُونَ الصَّوْتَ وَلَا يَنْظُرُونَ أَحَدًا.

بينما جاء في الإصحاح السادس والعشرين ما ينصُّ على أنهم سقطوا جميعاً على الأرض فقيه:

[(١٢) وَلَمَّا كُنْتُ ذَاهِباً فِي ذَلِكَ إِلَى بَمَثَقَ بِسُلْطَانٍ وَوَصِيٍّ مِنْ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ (١٣) رَأَيْتُ فِي نَضَبِ النَّهَارِ فِي الطَّرِيقِ أَيُّهَا الْمَلِكُ نُوراً مِنَ السَّمَاءِ أَفْضَلَ مِنْ لَمْعَانِ الشَّمْسِ قَدْ أَتَرَقَّ حَوْلِي وَحَوْلَ الذَّاهِبِينَ مَعِيَ (١٤) فَلَمَّا سَقَطْنَا جَمِيعُنَا عَلَى الْأَرْضِ سَمِعْتُ صَوْتاً يُكَلِّمُنِي وَيَقُولُ بِاللُّغَةِ الْعِبْرَانِيَّةِ شَاوُلُ شَاوُلُ لِمَاذَا تَضْطَهْدُنِي . صَعُبَ عَلَيْكَ أَنْ تَرْفُسَ مَنَاجِسَ (١٥) فَقُلْتُ أَنَا مَنْ أَنْتَ يَا سَيِّدَ فَقَالَ أَنَا يُسُوْعُ الَّذِي تَضْطَهْدُهُ .]

فَالَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ سَقَطُوا جَمِيعاً عَلَى الْأَرْضِ عَلَى خِلَافِ مَا جَاءَ فِي النَّصِّ السَّابِقِ مِنْ أَنَّهُمْ وَقَفُوا صَامِتِينَ يَسْمَعُونَ الصَّوْتَ وَلَا يَنْظُرُونَ .

ويلاحظ أيضاً أن ما جاء في الإصحاح التاسع ينصُّ على أن الذين كانوا معه قد سمعوا الصوت ولا ينظرون أحداً، بينما جاء في النص الذي في الإصحاح الثاني والعشرين الاتي أن الذين كانوا معه نظروا النور وارتعبوا ولكنهم لم يسمعوا صوت الذي كلمه (انظر رقم (٩) منه).

فما هذه المتناقضات .

(٥) ما جاء في الإصحاح الثاني والعشرين من أعمال الرسل في مَعْرِضِ الكلام عن «بولس = شاول» فَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ نَفْسِهِ فيقول:

[٣) أَنَا رَجُلٌ يَهُودِيٌّ وَلِدْتُ فِي طَرَسُوسَ بِيَلِيكِيَّةَ، وَلَكِنْ رَيْتُ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ مُوَدَّبًا عِنْدَ رَجُلِي غَمَلَايِيلَ عَلَى تَحْقِيقِ النَّامُوسِ الْأَبَوِيِّ. وَكُنْتُ غَيُورًا لِلَّهِ كَمَا أَنْتُمْ جَمِيعُكُمْ الْيَوْمَ (٤) وَاضْطَهَدْتُ هَذَا الطَّرِيقَ حَتَّى الْمَوْتِ مُقَيَّدًا وَمُسْلَمًا إِلَى السُّجُونِ رَجَالًا وَنِسَاءً (٥) كَمَا يَشْهَدُ لِي أَيْضًا رَئِيسُ الْكَهَنَةِ وَجَمِيعُ الْمَشِيخَةِ الَّذِينَ إِذْ أَخَذْتُ أَيْضًا مِنْهُمْ رَسَائِلَ لِلْإِخْوَةِ إِلَى دِمَشْقَ ذَهَبْتُ لِأَنِّي بِالَّذِينَ هُنَاكَ إِلَى أُورُشَلِيمَ مُقَيَّدِينَ لَكِنِّي يُعَاقِبُونِي (٦) فَحَدَّثْتُ لِي وَأَنَا ذَاهِبٌ إِلَى دِمَشْقَ أَنَّهُ نَحْوُ نِصْفِ النَّهَارِ بَغْتَةً أَبْرَقَ خَوْلِي مِنَ السَّمَاءِ نُورٌ عَظِيمٌ (٧) فَسَقَطْتُ عَلَى الْأَرْضِ وَسَمِعْتُ صَوْتًا قَائِلًا لِي شَاوُلُ شَاوُلُ لِمَاذَا تَضْطَهِدُنِي؟ (٨) فَاجِبْتُ مِنْ أَنْتَ يَا سَيِّدُ؟ فَقَالَ لِي أَنَا يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ الَّذِي أَنْتَ تَضْطَهِدُهُ (٩) وَالَّذِينَ كَانُوا مَعِيَ نَظَرُوا النُّورَ وَارْتَعَبُوا وَلَكِنْهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا صَوْتَ الَّذِي كَلَّمَنِي (١٠) فَقُلْتُ مَاذَا أَفْعَلُ يَا رَبُّ؟ فَقَالَ لِي الرَّبُّ قُمْ وَادْخُبْ إِلَى دِمَشْقَ وَهَنَّاكَ يُقَالُ لَكَ عَنْ جَمِيعٍ مَا تَرْتَبُّ لَكَ أَنْ تَفْعَلَ (١١) وَإِذْ كُنْتُ لَا أَبْصِرُ مِنْ أَجْلِ بَهَاءِ ذَلِكَ النُّورِ اقْتَادَنِي بِيَدِي الَّذِينَ كَانُوا مَعِيَ فَجِئْتُ إِلَى دِمَشْقَ].

أقول:

يُلاحَظُ فِي هَذِهِ الْحَادِثَةِ الْمَصْطَنَعَةُ تُغَرَّتَانِ:

الأولى: أَنَّ النُّورَ الَّذِي ظَهَرَ رُبَّمَا كَانَ حَادِثَةً بَرَقَ اسْتَعْلَاهَا «بولس = شاول» إِذْ كَانَ يَرْتَصِدُّ أَنْ يَظْهَرَ لَمَعٌ بَرَقَ حَتَّى يَسْتَعْلَاهُ، بِدَلِيلِ مَا جَاءَ فِي رَوَايَةِ أَنَّ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ قَدْ رَأَوْا النُّورَ، لَكِنْهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا صَوْتَ مَنْ كَلَّمَهُ.

الثانية: أَنَّ النُّورَ الَّذِي بَهَرَ عَيْنَيْهِ قَدْ غَشَى عَلَى بَصَرِهِ وَخَذَهُ دُونَ أَنْ يُؤَثَّرَ عَلَى الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الَّذِينَ يَتَلَقَّوْنَ وَخِيًا أَوْ إِلَهَامَاتٍ غَيْبِيَّةً يَكُونُونَ عَادَةً أَقْوَى مِنْ غَيْرِهِمْ عَلَى تَحْمُلِ وَارِدَاتِ الْأَنْوَارِ وَالْقُوَى الرُّوحِيَّةِ الْغَيْبِيَّةِ مِنْ غَيْرِهِمْ، لَا أضعف من غيرهم.

ويتابع «بولس = شاول» كما جاء في هذا الإصحاح فيقول:

[١٢) ثُمَّ إِنَّ خُنَايِيًّا رَجُلًا تَقِيًّا حَسَبَ النَّامُوسِ وَمَشْهُودًا لَهُ مِنْ جَمِيعِ الْيَهُودِ

السُّكَّانِ (١٣) أَنِّي إِنِّي وَزَفْتُ وَقَالَ لِي أَيُّهَا الشَّوُلُ أَبْصُرْ. فَبَيَّ بَلَكَ السَّاعَةِ نَظَرْتُ إِلَيْهِ (٤) فَقَالَ إِلَهَ آبَائِنَا انْتَحَبِكَ لِتَعْلَمَ مَشِيَّتَهُ وَتُبْصِرَ الْبَارَّ وَتَسْمَعَ صَوْتًا مِنْ فَمِهِ (١٥) لِأَنَّكَ سَتَكُونُ لَهُ شَاهِدًا لِجَمِيعِ النَّاسِ بِمَا رَأَيْتَ وَسَمِعْتَ (١٦) وَالْآنَ لِمَاذَا تَتَوَانَى. قُمْ وَاعْتَمِدْ وَاعْبِلْ خَطَايَاكَ دَاعِيًا بِاسْمِ الرَّبِّ].

أقول:

اليس عجيباً أن «خناييا» الرجل اليهودي النقي حسب التاموس، والمشهود له من جميع اليهود السُّكَّانِ، هو الذي يأتي لِيُزِيلَ الْغِشَاوَةَ عَنْ بَصَرِ «بولس» وهو الذي يقول له: إِلَهَ آبَائِنَا انْتَحَبِكَ لِتَعْلَمَ مَشِيَّتَهُ، وَتُبْصِرَ الْبَارَّ، وَتَسْمَعَ صَوْتًا مِنْ فَمِهِ، وَهُوَ الَّذِي يَأْمُرُهُ بِأَنْ يَنْهَضَ بِسُرْعَةٍ وَيَدْعُو بِاسْمِ الرَّبِّ الْمَسِيحِ عَيْسَى، إِنْ كُنْ «خناييا» نَقِيًّا حسب التاموس ومشهوداً له بالتقوى من جميع اليهود يدلُّ على أنه يهودي، وليس من تلاميذ عيسى كما جاء في الإصحاح التاسع.

اليس هذا دليلاً واضحاً على أن «بولس» = شاول، مُكَلَّفٌ مِنْ قَبْلِ أَحْبَارِ الْيَهُودِ أَنْ يَدْخُلَ النَّصْرَانِيَّةَ مُنَاقِقاً، ويكون داعياً لربوبية عيسى ضمن صفوف النصاري، بغية إفساد هذا الدين، إرضاءً لعنصرته وتعصباً ليهوديته.

ويتابع «بولس» = شاول، كما جاء في هذا الإصحاح فيقول:

[(١٧) وَخَدَّثَ لِي بَعْدَئِذَا رَجَعْتُ إِلَى أُورُشَلِيمَ وَكُنْتُ أُضَلِّي فِي الْهَيْكَلِ أَنِّي حَصَلْتُ فِي غِيَّةٍ (١٨) فَرَأَيْتُهُ (اي: عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَام) قَائِلًا لِي أَسْرِعْ وَاخْرُجْ عَاجِلاً مِنْ أُورُشَلِيمَ لِأَنَّهُمْ لَا يَقْبَلُونَ شَهَادَتَكَ عَنِّي (١٩) فَقُلْتُ يَا رَبُّ هُمْ يَعْلَمُونَ أَنِّي كُنْتُ أَحْبَسُ وَأَضْرَبُ فِي كُلِّ مَجْمَعٍ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِكَ (٢٠) وَجِئْتُ سَفِكَ دَمٍ اسْتِفْسَانُوسَ شَهِيدَكَ كُنْتُ أَنَا وَاقِفًا وَرَاضِيًا بِقَتْلِهِ وَخَافِظًا بَابَ الَّذِينَ قَتَلُوهُ (٢١) فَقَالَ لِي أَذْهَبَ فَإِنِّي سَأُرْسِلُكَ إِلَى الْأَمَمِ بَعِيدًا].

أقول:

لَقَدْ أَذْرَكَ «بولس» = شاول، أَنَّ الصَّدُوقِيِّينَ فِي أُورُشَلِيمَ سَوْفَ يَفْضَحُونَهُ بِاعْتِبَارِهِ فَرِيسِيًّا وَلَا يَتْرَكُونَهُ يَعْمَلُ بَيْنَ النَّصَارَى عَلَى مَا يَشْتَهِي، وَهُوَ مُوجَّهٌ وَمَذْفُوعٌ مِنَ الْأَحْبَارِ

الفرّيسيين، فاخترع هذه الحادثة، ليبعد كلياً عن أورشليم التي يوجد فيها صدّوقيون منافسون للفرّيسيين.

(٦) ونلاحظ أنه منذ دخول «بولس = شاول» في النصرانية بدأت أفكار ربوبية عيسى وألوهيته وأنه ابنُ الله تدخل في التعاليم النصرانية، ولم يكن لهذه الأقوال وجود في الإنجيل، ولا في أقوال عيسى وحوارييه وتلاميذه الذين كانوا قد تلقوا عنه، وأن رسائل بولس وتعاليمه هي التي صارت بعد قرون مرجع الديانة النصرانية الرسمية، وهذا يدلُّ على أن عدداً من المنافقين اليهود في النصرانية قد تتابعوا واحتلوا مراكز قيادته دينية وسياسية لترسيخ أفكار بولس التي دفعه أحبار اليهود الفرّيسيين لبثها في النصرانية بغية إفساد الدين الذي جاء به رسول الله عيسى عليه السلام.

(٧) أما دسُ فكرة كون عيسى عليه السلام ابناً لله فنجدها في مقدمة رسالة «بولس = شاول» إلى أهل رومية^(١)، وكذلك إدخال فكرة كون بولس هو الرسول الذي سبق أن جاء الوعد به في الكتب المقدسة، فقد جاء في الإصحاح الأول منها ما يلي:

[١] بُولُس عَبْدُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ الْمَدْعُو زَسُولاً الْمُقَرَّرَ لِإِنْجِيلِ اللَّهِ (٢) الَّذِي سَبَقَ فَوَعَدَ بِهِ بِأَنْبِيَائِهِ فِي الْكُتُبِ الْمُقَدَّسَةِ (٣) عَنْ ابْنِهِ الَّذِي صَارَ مِنْ نَسْلِ دَاوُدَ مِنْ جِهَةِ الْجَسَدِ (٤) وَنَعَيْنُ ابْنِ اللَّهِ بِقُوَّةٍ مِنْ جِهَةِ رُوحِ الْقُدَّاسَةِ بِالْقِيَامَةِ مِنَ الْأَمْوَاتِ. يَسُوعَ الْمَسِيحِ رَبَّنَا (٥) الَّذِي بِهِ لِأَجْلِ اسْمِهِ قَبِلْنَا بَغْضَةً وَرِسَالَةً لِإِطَاعَةِ الْإِيمَانِ فِي جَمِيعِ الْأُمَمِ. (٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُهُمْ أَنْتُمْ أَيْضاً مَدْعُوو يَسُوعَ الْمَسِيحِ (٧) إِلَى جَمِيعِ الْمَوْجُودِينَ فِي رُومِيَّةٍ أَجْبَاءَ اللَّهِ مَدْعُوِينَ قُدْسِينَ. نِعْمَةٌ لَكُمْ وَسَلَامٌ مِنَ اللَّهِ وَالرَّبِّ يَسُوعَ الْمَسِيحِ.]

(٨) ومنذ ذلك الحين نشط «بولس = شاول» بالدعوة إلى المسيحية، معلناً أن عيسى هو الرب، وهو الإله، وهو ابنُ الله، واستمر بتفاهة يرسخ أقدامه بين النصارى، ويستغلُّ براءتهم، وصفاء قلوبهم، حتى صار المعلم الأول في المسيحية، وداعيتها

(١) رسالة بولس إلى أهل رومية من الرسائل الموثوق بصحة نسبتها إلى بولس لدى المُحَدِّثِينَ من علماء المسيحيين المشتغلين في الوقت الحاضر بشؤون ديانتهم وأسفارهم، كما ذكر د: علي عبد الواحد وافي في كتابه «الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام» ص (١١٧).

النَّشِيط، وأخذ يُنْشَرُ أَنَّهُ يَنْتَلَقِي التَّعَالِيمَ الْمَسِيحِيَّةَ إِلَهَامًا، وَيُسْتَرُ بِهَذِهِ الدَّعْوَى مَا يَعْلَمُهُ النَّاسُ عَنْهُ مِنْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ تَلَامِيذِ الْمَسِيحِ، وَلَمْ يَجْتَمِعْ بِهِ، وَلَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ، بَلْ كَانَ يَضْطَهْدُ تَلَامِيذَهُ وَاتِّبَاعَهُ.

وفتح لنفسه بأكذوبة كونه ينتلقى تعاليم الدين إلهاماً مجال التلاعب بالدين، والتخريف فيه وفق مخطط يهودي مُعادٍ لكل ما ليس يهودي، ولو كان مُنزلاً من عند الله عز وجل، ويؤمنون بأنه حق من عند الله.

ومع فرح أتباع عيسى وتلاميذه بتنصر بولس إلا أن بعضهم شك في أمره لولا أن دافع عنه برنابا، ثم تنكروا له ولم يبق معه إلا تلميذه لوقا وتلميذه مرقس.

(٩) وصار هذا الرجل اليهودي في تاريخ المسيحية أحد الرُّسُل السبعين الذين نزل عليهم روح القدس في اعتقاد النصارى بعد رفع المسيح، وألهموا بالتبشير بالمسيحية، كما ألهموا مبادئها، ويسمى النصارى هؤلاء السبعين رُسلًا، أي: رُسلًا للتبشير بالمسيحية في الأقطار.

وتفاقم تأثير «بولس = شاول» حتى صار معلماً لـ «مرقس» أحد كتاب الأناجيل الأربعة، إذ لازمه ملازمة التلميذ لأستاذه، وصار معلماً لـ «لوقا» أحد كتاب الأناجيل الأربعة أيضاً.

قالوا: وكان «لوقا» التلميذ الحبيب، والرفيق الملازم لـ «بولس = شاول» وليس هو من أصل يهودي.

والأفكار التي أدخلها «بولس» في المسيحية، حول كون عيسى رباً أو إلهاً أو ابن الله لم تكن قد عرفت في النصرانية قبل بولس، ولم تكن منتشرة لدى كل النصارى بعد أن أدخلها «بولس» ودعا إليها.

(١٠) وحين دخل «بولس = شاول» في الديانة النصرانية مُناقفاً عاملاً على إفسادها وتحريفها من الداخل، وأحل نفسه منها بادعاءاته الكاذبات محلّ المعلم الأول الذي ينتلقى التعاليم مباشرة من الرب المسيح لا من فم إنسان، أخذ يطوف في الأقاليم يُبشِّر بالمسيحية التي صنَّعها هو افتراءً على الله، ضمن خطة فيها دهاء كبير.

فصار يُلقَى الخطب، ويُشَيء الرسائل، حتى كانت رسائله والرسائل الموضوعة

باسمه هي الرسائل التعليمية في النصرانية، بما حوت من مبادئ اعتقادية، وشرائع عملية، يوم اعتنق «قُسطنطين» الأكبر النصرانية.

جاء في رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية ما يلي:

[١] بُولُسُ رَسُولٌ لَّا مَنَ النَّاسِ وَلَا يَأْنَسَانِ بَلْ يَسُوعُ الْمَسِيحُ وَاللَّهُ الْآبُ الَّذِي أَفَاتَهُ مِنَ الْأَمْوَاتِ . . .]

وجاء فيها أيضاً:

[١١] وَأَعْرِفُكُمْ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْإِنْجِيلَ الَّذِي بَشَّرْتُ بِهِ أَنَّهُ لَيْسَ بِحَسَبِ إِنْسَانٍ [١٢] لِأَنِّي لَمْ أَقْبَلُهُ مِنْ عِنْدِ إِنْسَانٍ وَلَا عَلَّمْتُهُ . بَلْ بِإِعْلَانِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ [١٣] فَإِنَّكُمْ سَمِعْتُمْ بِسِرِّي قَبْلًا فِي الدِّينَانَةِ الْيَهُودِيَّةِ أَنِّي كُنْتُ أَضْطَهِدُ كَنِسَةَ اللَّهِ وَأَتْلِفُهَا [١٤] وَكُنْتُ أَتَقَدَّمُ فِي الدِّينَانَةِ الْيَهُودِيَّةِ عَلَى كَثِيرِينَ مِنْ أَتْرَاسِي فِي جَنْبِي إِذْ كُنْتُ أَوْفَرَ غَيْرَةً فِي تَقْلِيدَاتِ آبَائِي . . .]

[١١] واستمر المنافقون من اليهود في النصرانية يُبَشِّرُونَ أفكار «بولس» فيها، حتَّى صارت هي الدين الرسمي العام الذي تبنَّاه الإمبراطور «قُسطنطين الأول الأكبر» حين اعتنق المسيحية في سنة (٣١٣م).

أما النسبة العظمى من المسيحيين فقد كانوا على خلاف العقائد التي دسَّها «بولس = شاول» في النصرانية، وجلَّهم كانوا يؤمنون بأنَّ عيسى عبد الله ورسوله، لكنَّ سلطان الدولة الرومانية فرض الكاثوليكية التي تبنَّت ما دسَّه «بولس» من أفكار وعقائد. وكان دور المنافقين في ذلك أخطر دور إفساد صنعه النفاق في التاريخ البشري.

[١٢] ويلاحظ في تاريخ النصرانية أنه قام صراع حاد وطويل بين «بولس» وأنصاره من جهة، وأتباع عيسى عليه السلام الحقيقيين من جهة أخرى، وامتدَّ قرونًا بعد وفاة بولس.

ففي أنصار بولس كان يُوجد القليل من المتعلمين، والكثير من الجماهير الجاهلة الأمية، لأنَّ بولس وأتباعه أنفقوا سياسة تجميع الجماهير بالأساليب الإغرائية.

أما المسيحيون الحقيقيون فكان يوجد فيهم الكثير من المتعلمين، والقليل من الجماهير الجاهلة الأمية.

الفصل الثاني

مُنافِقُونَ فِي عَصْرِ الرَّسُولِ ﷺ وَحَبَائِثُهُمْ

وفيه :

مقدمة، ومقولتان :

المقولة الأولى : حول طائفة من أسماء المنافقين وأحداثهم في عصر الرسول ﷺ .

المقولة الثانية : حول طائفة من أحداث المنافقين في عصر الرسول ﷺ .

مقدمة

قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة مهاجراً من مكة، بعد أن بايعه سادة المدينة الذين آمنوا وأسلموا على أن يحموه مما يحمون منه نساءهم وأبناءهم، وذلك فيما يُعْرَفُ ببيعة العقبة الثانية.

وكان قدومه إلى المدينة غُصَّةً في نفوس بعض أصحاب المكانة فيها إذ لم يؤمنوا به ولا بما جاء به عن ربِّه، وَغُصَّةً في نفوس أتباعهم وأنصارهم.

واضطرب بعض هؤلاء أن ينافق الرسول والمسلمين المؤمنين، ويُعلن إسلامه تظاهراً ونفاقاً، حينما وجد أن الأمر قد أفلت من يده، وهو لا يملك مقاومة الرسول والذين آمنوا به واتبعوه، ولا مفاطعتهم والاعتزال عنهم، لكنَّه كان يضمّر الكفر والحقْد، ويتغي في سرِّه المكر والكيد ضد الإسلام والرسول والمهاجرين معه.

إنَّ شأن كلِّ دعوة كاسحة تؤمن بها الجماهير المنصفة وتندفع في سبيلها، أن يدخل بين صفوفها منافقون كاذبون، استولى على قلوبهم الخوف والجبن، فلم يُعلِنوا العداء، وبدا لهم أن يتعاملوا مع الحدث الجديد بالرَّوْية، وانتظار الفرص المواتية، حتى يُقْلِبُوا الأوضاع لصالحهم، مع ما يُصَيِّبُونَهُ من أَمْنٍ ومشاركة للمؤمنين الصادقين من منافع، إذا تحقَّقت منافع.

لكنَّهم إذا حزب الأمر واشتدت الأزمات تخاذلوا، وأطلقوا ألسنتهم بالأراجيف والمشبَّطات، وإشاعة الأكاذيب والمفتريات، وأخذوا يَفْقِدُونَ مَخْتَلِفَ الصَّلَاتِ المربية مع العدو السافر، ويجتمعون في خلوات خبيثات يَبْتَغُونَ فيها أنواع الخيانات.



المقولة الأولى

حول طائفة من أسماء المنافقين وأحداثهم في عصر الرسول ﷺ

(١)

رأس المنافقين في المدينة
عبد الله بن أبي بن سلول

* تعريف به:

عبد الله بن أبي بن سلول، رجل كان ذا مكانة وشرف في قومه قبل الإسلام، وهو من أهل يثرب (المدينة بعد الإسلام) ومن الخزرجيين المنسوبين إلى عوف بن الخزرج، إحدى قبيلتين عربيتين في يثرب، هما: الأوس، والخزرج. و«سلول» جدُّ عبد الله، أمُّ أبيه «أبي».

قال ابن هشام: سلول امرأة من خزاعة، وهي أم أبي بن مالك بن الحارث بن عبيد بن مالك بن سالم بن غنم بن عوف بن الخزرج.

روى ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة: أن رسول الله ﷺ قُبِمَ المدينة، إذ كان عبد الله بن أبي بن سلول العوفي سيد أهلها، لا يختلف عليه في شرفه من قومه اثنان، ولم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل غيره من أحد الفريقين حتى جاء الإسلام، وكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه، ثم يملكوه عليهم، فجاءهم الله تعالى برسوله ﷺ وهم على ذلك، فلما أنصرف قومه عنه إلى الإسلام ضُغِبَ، ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكاً، فلما أن رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مُصِراً على نفاقٍ وضُغِبَ.

* * *

✽ مواقفه وخبائثه :

الموقف الأول: روى ابن إسحاق بسنده، عن أسامة بن زيد بن حارثة، جب

رسول الله ﷺ، قال:

ركب رسول الله ﷺ ، إلى سعد بن عبادَةَ يُعوِّدُهُ من شِكْوِ (أي: مرض) أصابه، على حمارٍ عليه إكاف^(١)، فوقه قطيفة^(٢) فذِكِيَّة^(٣)، وأردفني رسول الله ﷺ خلفه، فمرَّ بعدو الله ابنُ أبيّ، وهو في ظلِّ مزاحمٍ أَطْمِئ^(٤)، وحول ابن أبيّ رجالٌ من قومه، فلَمَّا رآه رسول الله ﷺ تَلَمَّمْ^(٥) مِنْ أَنْ يَجَاوِزَهُ حَتَّى يَنْزَلَ. فنزل فسَلَّمَ، ثم جلس قليلاً، فتلا القرآن، ودعا إلى الله عز وجل، وذكر بالله، وحذّر وبشّر وأنذر، وهو (أي: عبد الله بن أبيّ) زَامُ^(٦) لا يتكلم، حَتَّى إِذَا فَرَغَ رسول الله ﷺ من مقالته، قال (أي: عبد الله بن أبيّ): يا هذا، إِنَّهُ لَا أَحْسَنُ مِنْ حَدِيثِكَ هَذَا، إِنْ كَانَ حَقًّا فَاجْلِسْ فِي بَيْتِكَ، فَمَنْ جَاءَكَ لَهُ فَحْدُثُهُ إِيَّاهُ، وَمَنْ لَمْ يَأْتِكَ فَلَا تَغْتَهُ^(٧) به، ولا تَأْتِهِ فِي مَنْجَلِيهِ بِمَا يَكْرَهُ مِنْهُ.

فقال عبد الله بن رواحة في رجالٍ كانوا عنده من المسلمين: بَلَى، فَاغْشَيْنَا بِهِ، وَاثْنَيْنَا بِهِ فِي مَنْجَالَيْنَا وَدُورِنَا وَبُيُوتِنَا، فَهُوَ وَاللهُ مِمَّا نُحِبُّ، وَمِمَّا أَكْرَمَنَا اللهُ بِهِ وَهَدَانَا لَهُ.

فقال عبد الله بن أبيّ حين رأى من خلاف قومه ما رأى:

مَتَى مَا يَكُنْ مَوْلَاكَ خَضَمَكَ لَا تَزَلْ تَبْدُلُ وَيَصْرَعُكَ اللَّذِينَ تُصَارِعُ وَهَلْ يَنْهَضُ الْبَايِزِي بِغَيْرِ جَنَاحِهِ وَإِنْ جُدَّ يَوْمًا رِيشُهُ فَهُوَ وَاقِعٌ

وقام رسول الله ﷺ فدخل على سعد بن عبادَةَ، وفي وجهه ما قال عدو الله ابنُ أبيّ بن سلول.

(١) الإكاف: البردة.

(٢) القطيفة: دثار له خملة.

(٣) فذِكِيَّة: نسبة إلى فذك بلد كانت تُصنع فيه هذه القُطُف.

(٤) الأطم: الحصن، وأطم عبد الله بن أبي بن سلول اسمه مزاحم.

(٥) تَلَمَّمْ: أي: استحيا وكره.

(٦) زَامُ: أي: مستكبر رافع أنفه.

(٧) فلا تَغْتَهُ به: أي: فلا تعبه ولا تؤذ به.

فقال: (أي: سعد): والله يا رسول الله إني لأرى في وجهك شيئاً، لكأنك سمعت شيئاً تكرهه.

فقال: أجل، ثم أخبره بما قال ابن أبي.

فقال سعد بن عباد: يا رسول الله أرفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإنا لننظم له الخرز لتتوجه، وإنه ليرى أن قد سلّبه ملكاً.

الموقف الثاني: في أواخر الشهر السابع من السنة الثانية من هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، أي: بعد غزوة بدر الكبرى شهر، نقض يهود بني قينقاع^(١) عهدهم مع رسول الله ﷺ، وكانوا أول اليهود الذين نقضوا ما بينهم وبين الرسول من عهد.

أخذ يهود بني قينقاع يشتطون في إعلانهم العداوة للرسول محمد ﷺ وللمؤمنين المسلمين، وفي قوفهم مواقف التحدي والتصدي لرسالة الإسلام، وتبيت المكابد للمسلمين، وأمسى الرسول منهم على حذر شديد، وبات يتخوف من خيانتهم ونقضهم العهد.

وروي أن الرسول ﷺ قال: «إني أخاف خيانة بني قينقاع، وذلك حينما أنزل الله عليه قوله في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول) ثاني سورة مدنية:

﴿وَأَمَّا خِفَافٌ مِّن قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَأَنْذِرْ لَهُم مَّوْءَاظَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (٨٨).

أي: أنذر إليهم عهدهم ولا تغدر بهم، وأشعرهم بأنهم قد أصبحوا محاربين، حتى يكون أمرهم وأمرهم على سواء لا غرر فيه ولا خيانة.

وقد حافظ الرسول ﷺ على عهده معهم لم ينكث به، وظل حريصاً على دعوتهم إلى الإسلام وترغيبهم فيه، حتى كانوا هم البادئين بالشر ونقض العهد.

فجاء الرسول ﷺ إلى سوقهم بعد غزوة بدر، فجمعهم، ثم قال لهم:

(١) بنو قينقاع: بطن من النازحين إلى المدينة من اليهود.

«يا معشر يهود اُخذُوا من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة، واسلمُوا، فإنكم قد عرفتُم أني نبي مُرسل، تجذون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم».

قالوا: يا مُحَمَّد، إنك ترى أننا قومك، لا يُغرتك أنك لبيت قومًا لا علم لهم بالحرب، فاصبت منهم فُرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أننا نحن الناس.

فأنزل الله عز وجل فيهم قوله في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) ثالث سورة مدنية:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسْأَلُ الْمُهَادُّونَ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصَرَهُ مَنْ يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَعِزَّةٌ لَّأُولِ الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾.

وكان ما جرى من يهود بني قينقاع بمثابة الإنذار العلني، المتضمن استعدادهم لحرب الرسول والذين آمنوا معه، والمشعر بأنهم مزعمون على نقض العهد الذي بينهم وبينه.

ثم كان من مظاهر استعدادهم لمحاربة الرسول والذين آمنوا به، وترقبهم الفرصة الملائمة المواتية، أن امرأة من مسلمات العرب قدِمَتْ بِجَلْبٍ لَهَا، فباعته بسوق بني قينقاع، ثم جلست إلى صائغ يهودي في السوق، لعلها تريد أن تشتري بعض الحلبي، وكانت هذه المرأة العربية محببة وجهها.

فجعل نفر من يهود بني قينقاع يستهزئون بها، ويطلبون منها أن تكشف وجهها، والمرأة تابى ذلك.

فعمد الصائغ اليهودي إلى طرف ثوبها من خلف وعقده إلى ظهرها وهي جالسة، دون أن تشعر المرأة بما فعل، فلما قامت انكشفت سواؤها، فانطلقت من اليهود ضجة ضحك وسخرية بهذه المرأة المسلمة.

فلما أحسَّت المرأة بما فعل الصائغ بها من مكر خبيث صاحت واستغاثت

بالمسلمين لشرفها المهان في سوق اليهود، فوثب رجلٌ من المسلمين على الصائغ فقتله، فشذبت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، ووقع الشر بينهم وبين هذا الحي من اليهود النازحين إلى المدينة.

وكانت قبيلة بني قينقاع أول من قابل المسلمين بالخيانة والغدر من اليهود.

فبذ رسول الله ﷺ إليهم عهدهم، وكان ذلك على سواء بينهم وبين المسلمين، كما أمر الله.

ودعا الرسول المسلمين إلى قتالهم، فحاصروهم في حصونهم خمس عشرة ليلة، وألقى الله في قلوبهم الرعب، ولم يستطيعوا أن يظهرُوا لقتال المسلمين.

ولما طال عليهم الحصار نزلوا على حكم الرسول صلوات الله عليه، وأمكن الله نبيه منهم.

وهنا تقدّم رأس المنافقين في المدينة «عبد الله بن أبي بن سلول» وكان حليفاً لليهود بني قينقاع قبل الإسلام، فقال:

«يا مُحَمَّد، أَحْسِنْ في مَوَالِي، إِنِّي وَاللَّهِ امْرُؤٌ أَخْشَى الدَّوَاثِرِ».

أي: أحسن في حلفائي ونصرائي.

فأبطأ عليه الرسول ﷺ ولم يُجِبْه.

فقال ابن أبي: يَا مُحَمَّدُ أَحْسِنْ في مَوَالِي.

فأعرض الرسول ﷺ عنه.

فادخل ابن أبي يده في جيبِ دِرْعِ رسول الله ﷺ.

فقال له الرسول: أَرْسَلْنِي، وَغَضِبَ ﷺ حَتَّى رَأَوْا لِيُوجِهُهُ ظُلُمًا (أي: سحابات من غضب).

ثم قال لابن أبي: وَيُخْلِكْ، أَرْسَلْنِي!!

قال ابن أبي: لَا وَاللَّهِ لَا أَرْسَلُكَ حَتَّى تُخْبِنَ في مَوَالِي، أربعمائة خابسر،

وثلاثمائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تَحْصِدْهُمْ فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ؟ إني والله امرؤ أخشى الدوائر.

فقال له رسول الله ﷺ: هُمْ لَكَ.

ثم اكتفى الرسول بإجلالهم عن المدينة، وكان معظمهم يشتغلون بالصياغة والتجارة، فأذن لهم بأخذ أموالهم وأثقالهم وخفيف سلاحهم، فخرجوا منها إلى الشام، حتى نزلوا بأذرع وأقاموا فيها، لكنهم لم يلبثوا حتى هلك أكثرهم، ونالوا جزاء خيانتهم وغدرهم ومكرهم ومحاربتهم الله ورسوله، ولَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَكْبَرُ.



الموقف الثالث: في السنة الثالثة من الهجرة، قَدِمَتْ قُرَيْشٌ مَعَ مَنْ جَمَعَتْ مِنَ الْأَحَابِيشِ وَقِبَائِلِ الْعَرَبِ حَوْلَ مَكَّةَ مِنْ كِنَانَةٍ وَأَهْلِ تِهَامَةٍ، لِحَرْبِ الرَّسُولِ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ مَعَهُ فِي الْمَدِينَةِ، ثَارًا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي غَزْوَةِ بَدْرِ الْكَبْرَى، وَكَانَ قَوَامُ جَيْشِهِمْ قَرَابَةَ ثَلَاثَةِ آلَافٍ مَقَاتِلَ، وَمَعَهُمْ ثَلَاثَةُ آلَافٍ بَعِيرٍ، وَمِثْنَا فَرَسٍ، وَفِيهِمْ سِتْمِائَةُ دَارِعٍ، وَلَمَّا وَصَلُوا نَزَلُوا مُقَابِلَ الْمَدِينَةِ.

واستشار الرسول ﷺ المسلمين فيما دهمهم من مقدم أهل مكة لقتالهم، هل يخرجون إليهم لقتالهم، أَوْ يَبْقَوْنَ مُحَصِّنِينَ فِي الْمَدِينَةِ؟

وكان رأي الرسول وشيوخ المهاجرين والأنصار أن يقيموا في المدينة ويتحصنوا بها، فإن دخل عليهم فيها القادمون لحربهم قاتلوهم في طرق المدينة ومن فوق رؤوسهم، وكان الرسول يكره الخروج من المدينة لقتالهم.

وكذلك كان رأي رأس المنافقين «عبد الله بن أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ» ومعه أتباعه، وقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ أقم بالمدينة لا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا إلى عدو قط إلا أصاب منا، ولا دخل علينا إلا أصابنا منه، فكيف وأنت فينا؟! فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين.

لكن رجلاً من المسلمين من الذين شرف المشاركة في غزوة بدر قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ اخْرُجْ بِنَا إِلَى أَعْدَائِنَا، لَا يَزِيدُنَا أَنَا جَبْنَا عَنْهُمْ وَضَعْفُنَا، وَمَا زَالَ هَؤُلَاءِ

يستحبون الرسول للخروج حتى دخل بيته بعد صلاة الجمعة، وليس لأمته^(١)، ثم خرج عليهم.

وندم الذين استحبوا الرسول على الخروج، وقالوا: استكرهنا رسول الله ﷺ، ولم يكن لنا ذلك، وقالوا له حين خرج لباساً للحرب: يا رسول الله، استكرهناك ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك.

فقال النبي ﷺ: ما ينبغي لنبي إذا ليس لأمته أن يضعها حتى يُقاتل.

فخرج رسول الله ﷺ في ألف من أصحابه، وفيهم عبد الله بن أبي بن سلول، ومعه أتباعه وأنصاره من قومه.

فلما وصلوا إلى مكان بين المدينة وجبل أحد اسمه «الشوط» انخزل عبد الله بن أبي بن سلول وانخزل معه أصحابه، وكانوا قرابة ثلاثمائة رجل، فرجعوا إلى المدينة، وقال عبد الله: علام تقتل أنفسنا ههنا أيها الناس؟!

ولما رأهم عبد الله بن عمرو بن عمرو يرجعون منخضين، تبعهم وقال لهم: يا قوم، أذكركم الله، ألا تخذلوا قومكم ونبئكم، عندما حضر من عدوكم.

فقالوا له: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكننا لا نرى أنه يكون قتال.

فلما استعصوا عليه قال: ابعدكم الله أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيه.

وكان عبد الله بن أبي بن سلول، له مقام يقومه قبل أحد إذا جلس رسول الله ﷺ يوم الجمعة، وهو يخطب الناس، فيقول: أيها الناس، هذا رسول الله بين أظهركم، أكرمكم الله واعزكم به، فأنصروه وعزروه^(٢) واسمعوا له وأطيعوا، ثم يجلس.

فلما كان منه ما كان يوم أحد، إذ انخزل عن الرسول ﷺ بنحو ثلث الجيش، قام يوم الجمعة ليقول كلامه الذي كان يقوله قبل أحد، فأخذ المسلمون بشيابه من

(١) الأئمة: لباس الحرب.

(٢) عزروه: أي: أعينوه وقووه وعظموه ووقروه.

نواحيه، وقالوا له: اجلس أيُّ عدُو الله، لستَ لذلك بأهل، وقد صنَّعتَ ما صنَّعتَ.
فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول: واللَّهِ لَكُنَّا قُلْتُ هُجْرًا^(١) أَنْ قُمْتُ أَشَدُّ
أَمْرَهُ؟

فلقيه رجلٌ من الأنصار بباب المسجد، فقال: مَالِك؟ وَتِلْكَ!

قال: قُمْتُ أَشَدُّ أَمْرَهُ، فَوُتِبَ عَلَيَّ رَجَالٌ مِنْ أَصْحَابِهِ يَجْذِبُونَنِي وَيُعْتَفُونَنِي،
لَكُنَّا قُلْتُ هُجْرًا^(١) أَنْ قُمْتُ أَشَدُّ أَمْرَهُ؟

قال: وَتِلْكَ، ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ.

قال: والله ما أبغني أَنْ يستغفر لي.

الموقف الرابع: لَمَّا حاصر رسول الله ﷺ يهود بني النضير عقاباً لهم على
محاولتهم اغتياله وهو في حَيْهِم، جَعَلَ رَهْطٌ مِنْ بَنِي غَوْفٍ بْنِ الْخَزْرَجِ، مِنْهُمْ عَدُوُّ اللَّهِ
«عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَنْ سُلُولٍ» وَ«وَدِيعَةُ بْنُ ثَابِتٍ» مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ بْنِ مَالِكٍ،
وَ«مَالِكُ بْنُ أَبِي قُوفْلٍ» وَ«سُوَيْدٌ» وَ«دَاعِسٌ» يَعْشُونَ إِلَى بَنِي النَّضِيرِ سِرّاً: أَنْ اثْبُتُوا،
وَتَمْنَعُوا، فَإِنَّا لَا نُسْلِمُكُمْ، إِنْ قُوتِلْتُمْ قَاتَلْنَا مَعَكُمْ، وَإِنْ أُخْرِجْتُمْ خَرَجْنَا مَعَكُمْ.

فَتَرَبَّصُوا ذَلِكَ مِنْ نَصْرِهِمْ، فَلَمْ يَفْعَلُوا، فَكَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِ بَنِي النَّضِيرِ
الرَّعْبَ، وَسَالُوا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ يُجْلِيَهُمْ وَيُكَفَّ عَنْ دِمَائِهِمْ، عَلَى أَنَّ لَهُمْ مَا حَمَلَتِ الْإِبِلُ
مِنَ الْأَمْوَالِ، إِلَّا الْحَلَقَةَ (أَي: السِّلَاحَ) فَقَبِلَ الرَّسُولُ ﷺ ذَلِكَ مِنْهُمْ، وَتَمَّ إِجْلَاؤُهُمْ
عَنِ الْمَدِينَةِ.

الموقف الخامس: فِي سَنَةِ خَمْسٍ لِلْهِجْرَةِ بَلَغَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ بَنِي الْمُصْطَلِقِ
يَجْمَعُونَ الْجُمُوعَ لِحَرْبِهِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فِي سَبْعِمِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ.

وَسَارَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى ذَهَبُوا بِبَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَافِلُونَ عِنْدَ مَاءٍ لَهُمْ يُقَالُ
لَهُ: «الْمُرْبِيعُ».

(١) هُجْرًا: أَي: كَلَامًا قِيحًا.

وأمر الرسول ﷺ عمر بن الخطاب فنادى فيهم: أَنْ قولوا: لا إِلَهَ إِلَّا الله، تَمَنُّوا بها أنفسكم وأموالكم، فأتوا.

فترامى الفريقان بالنبال، ثم أمر الرسول المسلمين أَنْ يحملوا عليهم، فحملوا عليهم مقاتلين حَمَلَةً رَجُلٍ واحد، فقتلوا منهم عشرةً وأسروا سائرهم، وغنم المسلمون منهم غنائم كثيرة.

وبينما كان المسلمون على الماء يستقون، نزاحم على الماء أجيرٌ لعمر بن الخطاب من بني غِفَارٍ يقال له: جهجاه بن مسعود يقود فرسه، وسنانُ بْنُ وَبَرِ الْجُهَنِيِّ، حليفُ بني عوفِ بن الخزرج، فاقتلا، فصرخ الجُهَنِيُّ: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، واجتمع الفريقان، وكادوا يقتتلون.

فبلغ الرسولُ ما جرى، فذهب إليهم وقال:

«أَبْدَعُوا الجاهليَّةَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ؟ دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُتَبِّتَةٌ».

وأطفأ الرسول الفتنة، ووَصَلَ إلى «عبد الله بن أبي بن سلول» نبأ ما جرى، فغضب، وعنده رَهْطٌ من قومه فيهم «زيد بن أرقم» غلام حدث السن، فقال «عبد الله بن أبي بن سلول»: «

«أَوْقَدْ فَعَلُوهَا؟ قَدْ نَافَرُونَا»^(١) وكاثرونا في بلادنا، والله ما أَعْدُنَا وجلايبُ قريش^(٢) إِلَّا كما قال الأول: سَمَنْ كُلُّكَ يَأْكُلُكَ، أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ».

ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم:

هذا ما فعلتم بأنفسكم، أخَلَّصْتُمُوهم بلادكم، وقاسمْتُمُوهم أموالكم، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحوَّلُوا إلى غير داركم».

(١) نَافَرُونَا: أَي: فَأَخْرَجُونَا وزادوا علينا في كثرة نفرهم.

(٢) جلايب قريش: لقب أطلق على المهاجرين من مكة، وهو من إطلاق اللَّبَاسِ على لابسِهِ، فالجلايب نوع خشن من الثياب.

ونقل «زيد بن أرقم» ما سمع إلى الرسول ﷺ بعد أن انتهى من أمره مع بني المصطلق، وكان عند الرسول عمر بن الخطاب، فقال عمر: يا رسول الله، مَرَّبَهُ عِبَادُ بَنٍ بِشَرِّ فَلْيَقْتُلْهُ.

فقال الرسول: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يُقتل أصحابه؟!، وَلَكِنْ أَذُنٌ بِالرَّحِيلِ، وذلك في ساعة لم يكن الرسول يرتجل فيها، فارتحل الناس.

وبلغ «عبد الله بن أبي بن سلول» أن «زيد بن أرقم» أخبر الرسول بما سمع منه، فجاء إلى الرسول فحلف له أنه لم يقل الكلام الذي نقله إليه زيد بن أرقم، ولا تكلم به، وقال من كان عند الرسول من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل، حذبا على عبد الله بن أبي بن سلول، ودفعاً عنه.

ثم أقبل إلى الرسول ﷺ «أسيد بن حضير» فحياه بتحية النبوة، وسلم عليه، ثم قال: يا نبي الله، والله لقد رخت في ساعة منكزة، ما كنت تروح في مثلها.

فقال له رسول الله ﷺ: «أَوَمَا بَلَغَكَ مَا قَالَ صَاحِبُكُمْ؟»

قال: وأي صاحب يا رسول الله؟.

قال: «عبد الله بن أبي».

قال: وما قال؟

قال: «زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل».

قال أسيد: فانت يا رسول الله، والله تُخرجن منها إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز.

ثم قال: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاء الله بك، وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً.

وجاء عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بُدَّ فاعلاً فمُرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من

رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي عمري في الناس، فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخل النار. فقال رسول الله ﷺ: «بل تترفق به، ونحسب صحبته ما بقي معنا».

فكان من أمر عبد الله بن أبي بن سلول بعد ذلك أنه إذا أحدث الحدث تصدّى له قومه، فكانوا هم الذين يعاتبونه، ويأخذونه ويغفونّه.

فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم: «كيف ترى يا عمر، أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله، لأرعدت آنف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته».

قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري.



الموقف السادس: وفي غزوة بني المصطلق أيضاً كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها هي التي خرج سهمها في الفرقة أن تكون مع الرسول، حين أقرع ﷺ بين نسائه، فخرجت معه.

وكان من شأنها حين عودة الجيش إلى المدينة وكان قريباً منها أن رأى الرسول أن القوم مجهدون، فترل بهم منزلاً ليصيبوا نصيباً من الراحة، فبات بهذا المنزل بعض الليل، ثم أمر الرسول فتادى مناديه بالرحيل، فأخذ القوم يستعدون له.

قالت عائشة رضي الله عنها: وخرجت لبعض حاجتي، وفي عنقي عقد لي، فيه جَزَعُ ظفار^(١)، فلما فرغت أنسل من عنقي ولا أدري، فلما رجعت إلى الرحل ذهبت النعس في عنقي فلم أجده، وأخذ الناس في الرحيل، فرجعت إلى مكاني الذي ذهبت إليه، فالتستت حتى وجدته.

وجاء القوم خلافي، الذين كانوا يُرحلون لي البعير، وقد فرغوا من رحلته،

(١) الجَزَعُ: نوع من العقيق يعرف بخطوط متوازية مستديرة مختلفة الألوان، وظفار على مثل «قطام» مدينة لجنبر باليمن.

فأخذوا اليهود، وهم يظنون أنني فيه، كما كنتُ أصنع، فاحتملوه، فشذوه على البعير، ولم يشكوا أنني فيه، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به، فرجعتُ إلى المعسكر، وما فيه من راعٍ ولا مجيب، قد انطلق الناس.

قالت عائشة رضي الله عنها: فتلففتُ بجلبابي، ثم اضطجعتُ في مكاني، وعرفتُ أن لو افتتحتُ لرجع إلي.

قالت: فوالله إني لمضطجعة إذ مرَّ بي صفوان بن المَعْطِل السلمي، فرأى سوادَ إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رأي، وكان قد رأي قبل الحجاب، فاستيقظتُ باسترجاعه حين عرفني، فخررتُ وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمةً، ولا سمعتُ منه كلمةً غير استرجاعه حين أناخ راحلته، فوطئ على يديها، فركبتها، فانطلق يوقدُ بي الراحلة، حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا في نحر الظهيرة، فهلك من هلك في شأني.

وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي بن سلول.

قال علماء السيرة: كان صفوان بن المَعْطِل على ساقفة المعسكر يلتقط في مؤخرة الجيش ما يسقط من متاع المسلمين، حتى يأتيهم به، ولذلك تخلف عن الجيش.

وكان في الجيش عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، فقال بين خاصته: والله ما نجت منه ولا نجا منها، وانطلقت كلمته تتردد، وانخدع بها بعض المسلمين من أهل الإيمان فشاعت بينهم وذاعت.

وعرفتُ هذه الشائعة بحديث الإفك، ونزل بسببها على الرسول وزوجته وآل أبي بكر من البلاء والكره شيء عظيم، حتى نزل القرآن ببراءتها والتشنيع على أصحاب الإفك ما نزل في سورة (النور).



الموقف السابع: موقف عبد الله بن أبي بن سلول في غزوة تبوك.

رُوي أنه خرج في بدء التحرك هو وجماعته وأنصاره، وعسكرُوا دون معسكر الرسول عند جبل ذُباب في المدينة، أما معسكرُ الرسول فقد كان عند ثنية الوداع.

فلما سار الرسول ﷺ ومعه جيش المسلمين، تخلف عبد الله بن أبي بن سلول ومعه جمع من المنافقين وأهل الريب.

موته:

قالوا: وهلك «ابن سلول» بعد رجوع الرسول من غزوة تبوك، وكان موته في شهر ذي القعدة من سنة تسع للهجرة.

(٢)

الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ

سيد بني سُلَيمَة من الخزرج وكان من أشرفهم

• تعريف به:

جاء في السيرة النبوية لابن هشام أن الرسول ﷺ سأل بني سُلَيمَة: مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سُلَيمَة؟

قالوا: الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ، عَلَى بُخْلِهِ.

فقال ﷺ: وَأَيُّ دَاءٍ أَكْبَرُ مِنَ الْبُخْلِ؟! سَيِّدُ بَنِي سُلَيمَة الْأَبْيَضُ الْجَدُّ، بِشَرِّ بَنِي الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ.

• ما كان منه من مواقف:

الموقف الأول: كان مع الذين خرجوا مع الرسول ﷺ لأداء العمرة التي لم يؤدوها الرسول والذين كانوا معه من المسلمين، لأن قريشاً منعتهم من أدائها، ففدوا وتحلّلوا من عمرتهم باعتبارهم مُحَضَّرِينَ.

فحين بلغ الرسول ﷺ أن رُسُولَهُ إِلَى قَرِيْشٍ فِي مَكَّةَ عَثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ قَدْ قُتِلَ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ قُتِلَ فَعَلًا، قَالَ:

«لَا تَبْرَحُ حَتَّى تَنَاجِزَ الْقَوْمَ».

ودعا الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان، وبايع الرسول المسلمين فيها على أن لا يفرّوا.

ولم يتخلف عن البيعة أحد من المسلمين الذين كانوا معه إلا الجعد بن قيس، فإنه الوحيد الذي لم يبايع.

قال جابر بن عبد الله: والله لكأنني أنظر إليه لاصقاً بلابط ناقتة، قد ضباً إليها (أي: لصق بها) يستبر بها من الناس.

* * *

الموقف الثاني: بعد أن أمر الرسول ﷺ المسلمين أمراً إلزامياً بأن يتجهزوا لقتال بني الأصفر (= الروم) في غزوة تبوك، لقي الجعد بن قيس، والمسلمون يتجهزون ويهيئون ما يلزم لهذه الغزوة.

فقال الرسول ﷺ للجعد بن قيس: «هل لك العام في جلاذ بني الأصفر؟».

فقال الجعد بن قيس: يا رسول الله أوتأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرفت قومي أنه ما من رجل بأشدّ عجباً بالنساء مني، وإنني أخشى أن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أضبر.

فاعرض عنه رسول الله ﷺ وقال له: قد أذنت لك.

فأنزل الله بشأنه قوله في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكْفُلُ أَذَنَ لِي وَلَا تَفْتِنِيَ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (١١).

(٣)

حاطب بن أمية بن رافع من بني ظفر

كان شيخاً جسيماً قد أسن في جاهليته، وكان له ابن من خيار المسلمين اسمه «يزيد بن حاطب».

وقد خرج هذا الابن مع المسلمين في غزوة أحد، فأصيب حتى أثبتته الجراحات، فحُمل إلى دار أهله، واجتمع إليه طائفة من رجال المسلمين ونسائهم، وهو يعاني سكرات الموت.

فجعلوا يقولون له: أبشِرْ يا ابنِ خاطِبِ بالجنة، فأنكشف نفاق أبيه «حاتب» حيثُذ، وجعل يقول: أجل، جنةٌ والله من حرمل، غَرَرْتُمُ والله هذا المسكين من نفسه.

وكانت الأرض التي يُرْتَقَب أن يُدفن فيها تنبتُ نبات الحرمل، ومراد حاطب أن يقول: ليس له جنةٌ إلا هذه الأرض التي يُدفنُ فيها، فدلَّ بقوله على أنه ينكر البعث ويوم القيامة.



(٤)

الحارث بن سُويد بن صامت (من الأوس)

من بني حُبيّ بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس

جاء من أخباره أن الأوس والخزرج اقتتلوا في الجاهلية قتالاً شديداً، كان الظفر فيه للخزرج على الأوس، وقُتل في هذه الموقعة سُويد بن صامت، والد الحارث بن سُويد، وكان الذي قتله في هذه الموقعة المُجذِر بن ذِياد البلوي واسمه عبد الله.

ثم لما جاء الإسلام دخل الحارث بن سويد فيه منافقاً، وفي غزوة أحد خرج مع المسلمين، وحين ألتقى الناس في القتال وجَدَ الحارث بن سويد غرةً من المجذِر قاتل أبيه في الجاهلية، وهو من المسلمين، فقتله بأبيه، ثم لجق بقريش.

وأمر رسول الله ﷺ عُمَر بن الخطاب بقتله إن هو ظفر به، إلا أنه فاته، لكن جاء في سير ابن هشام أنه قُتل بعد ذلك لأمر رسول الله ﷺ.



(٥)

نَبْتَلِ بْنِ الْحَارِثِ (من الأوس)

من بني لَوْذَانَ بن عَمْرٍو بن عَوْفٍ

أخرج ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان نَبْتَلِ بن الحارث يأتي رسول الله ﷺ فيجلس إليه فيستمع منه، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين.

رُوي أَنَّ الرسول ﷺ قال بشأنه: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الشَّيْطَانِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى نَبْتَلِ بْنِ الْحَارِثِ.

كان نبتل هذا رجلاً جسيماً أسود طويلاً مسترخي الشفتين، ثائر شعر الرأس، أحمر العينين، أسفع الخدين (أي: فيهما حُمْرةٌ تضربُ إلى السواد).

وروي أَنَّ جبريل قال للرسول بشأنه بعد أن ذكر أوصافه: «كَبِدُهُ أَغْلَظُ مِنْ كَبِدِ الْحِمَارِ، يَنْقُلُ حَدِيثَكَ إِلَى الْمُنَافِقِينَ».

وهو الذي قال: إِنَّمَا مُحَمَّدٌ أَذُنٌ، مَنْ حَدَّثَهُ شَيْئاً صَدَقَهُ، فأنزل الله فيه قوله في سورة (التوبة/ ٩/ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١١)

(٦)

مِرْبَعُ بْنُ قِيظِي (من الأوس) وكان رجلاً أعمى

من بني النُبَيْتِ: عَمْرٍو بن مالك بن الأوس

لما أخرج رسول الله ﷺ في غزوة أحد شطر جبل أحد، رأى من الحكمة العسكرية أن يمر بالجيش مجتازاً في حائط مِرْبَعِ بن قِيظِي.

فقال مربع للرسول ﷺ: لَا أَجِلُ لَكَ يَا مُحَمَّدُ إِنْ كُنْتُ نَبِيًّا أَنْ تَمُرَ فِي حَائِطِي،

وأخذ في يده حفنة من تراب، ثم قال: والله لو أعلم أنني لا أصيب بهذا التراب غيرك لرميتك به.

فابتذره القوم ليقتلوه، فقال رسول الله ﷺ: دَعُوهُ، فهذا الأعمى اغشى القلب اغشى البصيرة.

فصرته سعد بن زيد - أخو بني عبد الأشهل - بالقوس فشجه.

(٧)

أوس بن قيطي (أخو مربع بن قيطي)

من ظواهر نفاقه أنه جاء إلى الرسول ﷺ في غزوة الخندق فاستأذن الرسول لنفسه ولعلاء من رجال قومه بأن يرجعوا إلى بيوتهم، قائلاً: يا رسول الله، إن بيوتنا غزوة من العدو، فأذن لنا أن نخرج من دارنا فإنها تقع خارج المدينة، مع أن بيوتهم ليست بعورة كما زعم.

وفي ذلك أنزل الله عز وجل قوله في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿وَسْتَثْنِي فَرِيقٌ مِّنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۚ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سِيلُوا الْفِتْنَةَ لَأَنُتَوَّهَوا وَمَا تَلَبَّوْا بِهَا إِلَّا سِيراً ۝١٤﴾
 وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا لَآلِهَةٍ مِّن قَبْلُ لَا يُؤْلَوْنَ إِلَّا ذِكْرُكَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ۝١٥ قُلْ لَّنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تَمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٦﴾.

(٨)

جلاس بن سويد بن صامت (من الأوس)

من بني حبيب بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس

• كان ممن اجتمع إلى يهود من منافقي الأنصار.

● وكان جُلَاسٌ مِمَّنْ تَخَلَّفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ .

وقال فيما قال: لئن كان هذا الرجلُ (يعني الرسول ﷺ) صادقاً لَنَحْنُ شَرُّ مَنْ الْحُمْرُ، وكان في حجره «عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ» إِذْ كَانَ زَوْجَ أُمِّهِ بَعْدَ أَبِيهِ سَعْدٍ، فقال له عمير: وَاللَّهِ يَا جُلَاسُ، إِنَّكَ لِأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَأَحْسَنُهُمْ عِنْدِي يَدًا، وَأَعَزَّهُمْ عَلَيَّ أَنْ يَصِيهَ شَيْءٌ يَكْرَهُهُ، وَلَقَدْ قُلْتُ مَقَالََةً لئن رَفَعْتُهَا عَلَيْكَ لَأَفْضَحَنَّكَ، وَلِئِنْ صَمَتْتُ عَلَيْهَا لَيَهْلِكَنَّ دِينِي، وَلِإِحْدَاهُمَا آتَسِرُ عَلَيَّ مِنَ الْآخَرَى.

ثم مشى «عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ» إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرَ لَهُ مَا قَالَ «جُلَاسُ بْنُ سُوَيْدٍ».

فَحَلَفَ جُلَاسٌ بِاللَّهِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: لَقَدْ كَذَبَ عَلَيَّ عُمَيْرٌ، وَمَا قُلْتُ مَا قَالَ عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ.

وَرُوي أَنَّ الَّذِي سَمِعَهُ وَنَقَلَ كَلَامَهُ إِلَى الرَّسُولِ عَامِرُ بْنُ فَيْسٍ، وَأَنَّ الْآيَةَ (٧٤) مِنْ سُورَةِ (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) نَزَلَتْ بِشَأْنِهِ.

قال ابن إسحاق: فَرَزَعُوا أَنَّهُ تَابَ، فَحَسُنَتْ تَوْبَتُهُ، حَتَّى عُرِفَ مِنْهُ الْخَيْرُ وَالْإِسْلَامُ.

وكان قبل توبته من الذين دعاهم رجال المسلمين في خصومة كانت بينهم إلى رسول الله ﷺ، فَذَعَوْهُمْ إِلَى الْكُفَّانِ حُكَّامِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمُ الْآيَاتِ مِنْ (٦٠ - ٦٣) مِنْ سُورَةِ (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول).

قالوا: وكان معه في هذه الحادثة من المنافقين، رَافِعُ بْنُ زَيْدٍ، وَبِشْرٌ.

(٩)

قُرْظَانُ حَلِيفُ بَنِي ظَفَرٍ

قال ابن إسحاق: حَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عَمْرِ بْنِ قَتَادَةَ، قَالَ: كَانَ فِينَا رَجُلٌ أَنْيُّ (أي: غريب) لَا يَذَرُنِي مِمَّنْ هُوَ، يُقَالُ لَهُ: «قُرْظَانُ» وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ إِذَا ذُكِرَ لَهُ: إِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ النَّارِ.

فلَمَّا كَانَ يَوْمُ أَحَدٍ قَاتَلَ قَتَالًا شَدِيدًا، فَقَتَلَ وَحْدَهُ ثَمَانِيَةَ أَوْ سَبْعَةَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَكَانَ ذَا بَأْسٍ، فَأَنْبَتَتْهُ الْجِرَاحَةُ، فَاحْتَبَلَ إِلَى دَارِ بَنِي ظَفَرٍ.
فَجَعَلَ رِجَالُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَقُولُونَ لَهُ: وَاللَّهِ لَقَدْ آتَيْتَ الْيَوْمَ يَا قُرْظَمَانُ، فَأَبْشِرْ، وَقَدْ أَصَابَكَ مَا تَرَى فِي اللَّهِ.

قال: بماذا أَبْشِرُ؟ فوالله ما قَاتَلْتُ إِلَّا حِمِيَّةً عَنْ قَوْمِي وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا قَاتَلْتُ.

فَلَمَّا اسْتَدَّتْ عَلَيْهِ أَلَامُ جِرَاحَتِهِ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، فَقَطَعَ بِهِ رَوَاهِشَ يَدِهِ (أي: عروق ذراعه لِيَبِيلَ دمه) فَقَتَلَ نَفْسَهُ.

* * *

(١٠)

الضُّحَّاكُ بْنُ ثَابِتٍ أَخَذَ بَنِي كَعْبٍ

ذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ يُنْهَمُّ بِالنِّفَاقِ وَحُبُّ يَهُودِ الْحِجَازِ، وَقَالَ فِيهِ حَسَنُ بْنُ ثَابِتٍ شِعْرًا اتَّهَمَهُ فِيهِ بِحُبِّهِمْ، وَذَكَرَ فِيهِ أَنَّ عُرُوقَهُ أُغِيثَتْ أَنْ تَتَجَمَّدَ عَلَى الْإِسْلَامِ.

* * *

(١١)

أَبُو طَعْمَةَ بَشِيرُ بْنُ أَبِي رِيقٍ

مِنْ أَحْدَاثِهِ أَنَّهُ سَرَقَ مِنْ بَيْتِ رِفَاعَةَ بْنِ زَيْدٍ حِمْلًا مِنَ الدَّقِيقِ الْأَبْيَضِ وَدَرْعًا وَسِيفًا وَغَيْرَهُمَا مِنْ سِلَاحِ الْحَرْبِ، وَكَانَ مَتَهُمَا بِالنِّفَاقِ.

وَلَمَّا تَوَجَّهَتْ التُّهْمَةُ إِلَى بَيْتِ بَنِي أَبِي رِيقٍ، قَالُوا: مَا نَرَى السَّارِقَ إِلَّا لَبِيدَ بْنَ سَهْلٍ، وَكَانَ هَذَا مَعْرُوفًا بِصِدْقِ إِسْلَامِهِ وَصَلَاحِ حَالِهِ. فَلَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ بَنِي أَبِي رِيقٍ أَلْقَوْا التُّهْمَةَ عَلَيْهِ سَلَّ سِيفَهُ وَأَقْبَلَ إِلَيْهِمْ وَقَالَ لَهُمْ: أَنَا أَسْرِقُ؟! وَاللَّهِ لِيُخَالِطَنَّكُمْ هَذَا السِّيفُ أَوْ لَتَبِنَّ هَذِهِ السَّرْقَةُ.

فَقَالُوا لَهُ: إِلَيْكَ عَنَّا أَيُّهَا الرَّجُلُ، فَمَا أَنْتَ بِصَاحِبِهَا.

ثم نزل القرآن مشيراً إلى الخائنين من بني أبيريق، في قصة سبق ذكرها لدى دراسة النص (١٧) من سورة (النساء).

وخاف بشير بن أبيريق أن يُدان بجريمته بعد نزول القرآن ففر من المدينة، ولحق بالمشركين بمكة، فنزل على سُلَافَةَ بِنْتِ سَعْدِ بْنِ سُمَيَّةَ، فرماها حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ بِأَيَّاتٍ مِنْ شِعْرِهِ، فَأَخَذَتْ رَحْلَهُ فَوَضَعَتْهُ عَلَى رَأْسِهَا، ثُمَّ خَرَجَتْ بِهِ فَرَمَتْ بِهِ فِي الْأَبْطَحِ، ثُمَّ قَالَتْ لَهُ: أَهْذَيْتَ لِي شَعْرَ حَسَّانٍ، مَا كُنْتُ تَائِنِي بِخَيْرٍ.

(١٢)

وديعة بن ثابت من بني أمية بن زيد بن مالك

جاء في سيرة ابن هشام أنه مَنَّ بنى مسجد الضرار، وأنه كان من الرهط الذين جعلوا يشيرون إلى الرسول ﷺ وهو منطلق بجيش المسلمين إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جَلَادَ بَنِي الْأَصْفَرِ (أي: الروم) كقتال العرب بعضهم بعضاً، واللَّهِ لَكُنَّا بِكُمْ غَدًا مُقَرَّنِينَ فِي الْجِبَالِ. يقولون هذا إرجافاً وترهياً للمؤمنين.

وقال رسول الله ﷺ لعمَّار بن ياسر: أدرك القوم فإنهم قد اخترقوا (أي: هلكوا) فسلَّهم عما قالوا، فإن انكروا فقل: بلى، قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا. فانطلق إليهم عمَّار بن ياسر، فقال لهم كما أمره الرسول ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه.

وقال وديعه بن ثابت ورسول الله واقف على ناقته: يا رسول الله، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ قَوْلَهُ فِي سُورَةِ (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿وَلَكِنْ مَسَّاتُهُمْ لِقَوْلِي إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥٧﴾ لَا تَعْزِرُونَ أَفَدَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ يُعَذِّبُ اللَّهُ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

(١٣)

عدة رجال ذكرت أسماؤهم ضمن المنافقين

- (١) أبو حبيبة الأزعر: كان من الذين بنوا مسجد الضرار.
- (٢) جارية بن عامر بن العطف وابنه زيد: كانا من الذين بنوا مسجد الضرار.
- (٣) خُذَام بن خالد من بني عبيد بن زيد بن مالك: هو الذي أُخرج مسجد الضرار من داره.
- (٤) الأخوان بشر بن زيد، ورافع بن زيد: كانا من الذين دعاهم رجال من المسلمين في خصومة كانت بينهم إلى رسول الله ﷺ، فدَعَوْهم إلى الكَهَانِ حُكَّامِ أَهْلِ الجاهلية.
- (٥) «مَالِكُ بْنُ قَوْقُلٍ» و«سُوَيْدٌ» و«دَاعِسٌ» كانوا من الذين خانوا الرسول والمؤمنين إِبانَ حصارهم ليهود بني النضير، فكانوا يحاولون الاتصال بهم، ونصرهم والدفاع عنهم، على ما جاء في أحداث غزوة بني النضير.

* * *

(١٤)

مَن ذُكِرَ من المنافقين من أخبار اليهود

- (١) سَعْدُ بْنُ حُنَيْفٍ، من يهود بني قينقاع.
- (٢) نُعْمَانُ بْنُ أَبِي أَوْفَى، من يهود بني قينقاع.
- (٣) عَثْمَانُ بْنُ أَوْفَى، من يهود بني قينقاع.
- (٤) رافع بن حريملة، من يهود بني قينقاع، وهو الذي يوم مات قال بشأنه الرسول ﷺ: قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين.
- (٥) رِفَاعَةُ بْنُ زَيْدِ بْنِ التَّابُوتِ، من يهود بني قينقاع، وهو الذي قال الرسول بشأنه حين هَبَّتْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ رِيحٌ وَهُمْ قَافِلُونَ مِنْ غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، فاشتدت عليهم حَتَّى أَشْفَقُوا مِنْهَا: «لَا تَخَافُوا، فَإِنَّمَا هَبَّتْ لِمَوْتِ عَظِيمٍ مِنْ عَظَمَاءِ الْكُفَّارِ».

فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد بن ثابت، قد مات ذلك اليوم الذي هبت فيه الرياح، فقد كان من عظماء الكافرين، وكهفًا للمنافقين.

(٦) سَلْسِلَةُ بن برهام، من يهود بني قينقاع.

(٧) كِنَانَةُ بن صوريا، من يهود بني قينقاع.

(٨) زيد بن اللُّصِيَّت، من يهود بني قينقاع، وهو الذي قال حين ضَلَّتْ ناقته الرسول ﷺ وهو في الطريق إلى غزو تبوك: اليس محمد يزعم أنه نبي، ويُخبركم عن خَبِيرِ السَّمَاء، وهو لا يدري أين ناقته؟، وكان في رَحْلِ عُمارة بن حزم، بينما كان عُمارة عند رسول الله ﷺ، وفي ذلك الوقت قال الرسول ﷺ، وعُمارة عنده: إن رجلاً قال: هذا محمد يخبركم أنه نبي، ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء، وهو لا يدري أين ناقته، وإني والله لا أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلّني الله عليها، وهي في هذا الوادي، في شُعب كذا وكذا، قد حبستها شجرة بزمامها، فأنطلقوا حتى تأتونني بها، فذهبوا فجاءوا بها.

فرجع عُمارة بن حزم إلى رحله، فقال: والله لأعجب من شيء حدثناه رسول الله ﷺ آنفاً، عن مقالة قائل أخبره الله عنه بكذا وكذا، للكلام الذي قاله زيد بن اللُّصِيَّت.

فقال رجلٌ ممن كان في رحل عُمارة بن حزم، ولم يكن عند رسول الله ﷺ: زيدٌ والله قال هذه المقالة قبل أن تأتي.

فأقبل عُمارة على زيد يضرب في عنقه، ويقول: إني عبد الله، إن في رحلي لداهية وما أشعر، أخرج أيّ عدو الله من رحلي فلا تضخبي.



المقولة الثانية

حول طائفة من أحداث المنافقين في عصر الرسول ﷺ قد سبق شرح معظمها وتفصيله لدى تدبر النصوص

(١)

من أحداث المنافقين الكبرى انخذلهم عن الرسول والمسلمين بنحو ثلث الجيش، بعد مشاركتهم في الخروج إلى غزوة أحد، إذ نكصوا وعادوا إلى بيوتهم في المدينة بعد أن مشوا بعض الطريق إلى أحد، متعللين بتعبات باطلات تنم عن نفاقهم، وأنهم كاذبون في ادعاء أنهم مسلمون.

* * *

(٢)

ومن أحداثهم تخلفهم عن الرسول والمسلمين في الخروج إلى العمرة التي دعا إليها الرسول ﷺ بإلزام، وهي العمرة التي صدّ مشركو مكة الرسول والمسلمين معه عن أداء عمرتهم، وكان غرض الرسول من إلزام المسلمين بالخروج تكثير أعداد المسلمين المعتمرين، حتى يخشى المشركون صدهم عن المسجد الحرام، وأداء مناسكهم فيه.

* * *

(٣)

ومن أحداثهم تخلفهم عن الخروج إلى غزوة تبوك مع التكليف الإلزامي بالخروج، فمنهم من قدّم المعاذير الكاذبات قبل انطلاق الرسول ﷺ إلى الغزوة، ومنهم من تخلف ثم جاء بعد عودة الرسول منها فجعل يقدم المعاذير الكاذبات.

* * *

(٤)

مشاركتهم في إثارة الشبهات حول تحويل القبلة من التوجه لبيت المقدس إلى التوجه للكعبة المشرفة.

روى ابن جرير بسنده عن السدي قال: كان النبي ﷺ يُصَلِّي قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَنَسَخَهَا الْكَعْبَةُ، فَلَمَّا تَوَجَّهَ النَّاسُ قِبَلَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهَا فَكَانُوا أَصْنَافًا.

* فقال المنافقون ما بالهم كانوا على قبلة زماناً، ثم تركوها وتوجهوا لغيرها.

* وقال المسلمون: ليت شِعْرُنَا عن إخواننا الذين ماتوا وهم يصلون قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، هل تقبل الله منا ومنهم أو لا؟

* وقالت اليهود: إنَّ مُحَمَّدًا اشتاق إلى بلد أبيه ومولده، ولو ثبت على قبلتنا لَكُنَّا نَرْجُو أَنْ يَكُونَ هُوَ صَاحِبُنَا الَّذِي نَنْتَظِرُ.

* وقال المشركون من أهل مكة: تحير على محمد دينه، فتوجه بقلبه إليكم، وعلم أنكم كنتم أهدي منه، ويوشك أن يدخل في دينكم.

فأنزل الله جل ثناؤه في المنافقين:

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلِ اللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ١٤٦ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كُنْتُمْ لَكِبْرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ ١٤٧﴾

(البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول).

(٥)

كان من شأن المنافقين أنهم يحضرون المسجد فيستمعون أحاديث المسلمين، فيسخرون ويستهزئون بدينهم.

فاجتمع ناس منهم في المسجد في أحد الأيام، فرأهم الرسول ﷺ يتحدثون بينهم خافضي أصواتهم، قد لصق بعضهم ببعض.

فأمر الرسول أن يُخرجوا من المسجد، فأخرجهم المؤمنون إخراجاً عنيفاً منه.

قام «خالد بن زيد بن كليب» إلى «عمرو بن قيس» وقد كان صاحب آلهتهم في الجاهلية، فأخذ يرجله فسحبَه، حتى أخرجه من المسجد وهو يقول:

أُتْخِرْجَنِي يَا أَبَا أَيُّوبَ مِنْ مِرْبِدٍ^(١) بَنِي ثَعْلَبَةَ، إِذْ كَانَ قَبْلَ تَأْسِيسِهِ مِرْبِدُ ابْنِي ثَعْلَبَةَ.

ثم أقبل أبو أيوب إلى «رافع بن وديعة» فليَّه بردائه، ثم تنزه نترأ شديداً، ولطم وجهه، ثم أخرجه من المسجد، وهو يقول له: أَفْ لَكَ مُنَافِقاً خَيْشاً، أَذْوَاجَكَ^(٢) يَا مُنَافِقُ مِنْ مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وقام «عُمارة بن حَزْم» إلى «زيد بن عمرو»، وكان رجلاً طويل اللحية، فأخذ بلحيته، فقاده بها قوداً عنيفاً حتى أخرجه من المسجد، ثم جَمَعَ عُمارة يَذِيهِ فَلَذَمَهُ^(٣) بهما في صدره لَذَمَةً خَرُّ مِنْهَا.

فقال المنافق «زيد بن عمرو»: خَذَشْتَنِي يَا عُمارة.

قال عُمارة: أَبْعَدَكَ اللَّهُ يَا مُنَافِقُ، فَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَكَ مِنَ الْعَذَابِ أَشَدَّ مِنْ ذَلِكَ، فَلَا تَقْرَبَنَّ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وقام «أبو محمد مسعود بن أوس من بني النجار» إلى «قيس بن عمرو بن سَهْل»

(١) المريد: موقف الإبل ومنحسبها.

(٢) أذواجك: أي: ارجع من الطرق التي جئت منها.

(٣) اللذم: الضرب بيطن الكتف.

فجعل يدفع في قفاه، حتى أخرجه من المسجد، وكان قيسٌ هذا شاباً، ولا يُعلم في المنافقين شابٌ غيره.

وقام عبد الله بن الحارث من رهط أبي سعيد الخدري، إلى رجل منافق يقال له «الحارث بن عمرو» وكان ذا جُمّة^(١) فأخذ بجُمّته، فسحب به سحباً عنيفاً، على ما مرّ به من الأرض، حتى أخرجه من المسجد.

وكان المنافق يقول: لقد أغلظت يا ابن الحارث.

فقال له: إنك أهلٌ لذلك أيّ عدوّ الله، لئنا أنزل الله فيك، فلا تقرّين مسجد رسول الله ﷺ، فإنك نجس.

وقام رجلٌ من بني عوف، إلى أخيه «زُرّي بن الحارث» وكان منافقاً مع المنافقين، فأخرجه من المسجد إخراجاً عنيفاً، وقال له: أتُ لك، غلب عليك الشيطان وأمره.

* * *

(٦)

أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن أنس بن مالك قال: سمع زيد بن أرقم رجلاً من المنافقين يقول والنبي ﷺ يخطب: إن كان هذا صادقاً لنحن شرٌّ من الحمير.

قال زيد: هو والله صادق، وأنت شرٌّ من الحمار، فرفع ذلك إلى النبي ﷺ، فجحد القائل، فأنزل الله عز وجل قوله:

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ...﴾ (٧١)

(التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول).

* * *

(١) الجُمّة: مجتمع شعر الناصبة، وما ترافق من شعر الرأس على المنكبين.

(٧)

وأخرج ابن جرير، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس قال:
كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة فقال:

«إِنَّهُ سَيَأْتِيكُمْ إِنْسَانٌ يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ بَعْنِي شَيْطَانٍ، فَإِذَا جَاءَكُمْ فَلَا تُكَلِّمُوهُ».

فَلَمْ يَلْبِثُوا أَنْ طَلَعَ رَجُلٌ أَزْرَقُ، فدعا رسول الله ﷺ فقال:

«غَلَامٌ تَشْتَمِينِي أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ؟!».

فانطلق الرجل، فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا، حتى تجاوز عنهم، وأنزل
الله قوله:

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ۖ﴾ (٦١)

(التوبة ٩/ مصحف/ ١١٣ نزول).

أقول:

اختلفت الرواية السابقة عن هذه الرواية في بيان سبب نزول هذا النص، ولكن
لا مانع من تعدد أسباب النزول لنص واحد، ومدار قبول السبب المروي يرجع إلى
كون الرواية مقبولة من جهة السند، وتعدد الروايات المختلفة يدل على تكرار حدوث
هذه الظاهرة من المنافقين، أفراداً وجماعات، وأن الأقوال التي قالوها تُعبّر عن إدانة
لهم بالكفر، بعد إعلانهم الإسلام الذي قُبِلَ منهم ظاهراً في الحياة الدنيا، إلا أنهم
لا يقبل منهم يوم الدين، لأن الحساب يومئذٍ إنما هو على ما كانوا يُبَيِّنُونَ ويطنون.

* * *

(٨)

وروى البخاري بسنده عن أبي مسعود قال: لَمَّا أُمِرْنَا بِالصَّدَقَةِ كُنَّا نَتَحَامَلُ^(١).
فجاء أبو عقيل بنصف صاع، وجاء إنسان بأكثر منه.

(١) تتحامل: أي: نعمل حمالين بالأجرة.

فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعل هذا الآخر إلا رياء، فترلت:

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٦)

(التوبة / ٩ مصحف / ١١٣ نزول).

وعند مسلم نظيره، واسم أبي عقيل هذا «الحباب».

وجاء عند الطبري عن قتادة: أن هذه الحادثة جرت حين حث الرسول ﷺ على الصدقة استعداداً لغزوة تبوك.

* * *

(٩)

روى الطبري بسنده، عن سعيد بن جبير قال:

كان النبي ﷺ يُصَلِّي، فمرَّ رجلٌ من المسلمين على رجلٍ من المنافقين فقال له: النبي ﷺ يُصَلِّي وأنت جالس؟!!

قال المنافق: امض إلى عملي إن كان لك عمل.

فقال له: ما أظن إلا سيمرُ عليك من ينكرُ عليك.

فمرَّ عليه عمر بن الخطاب، فقال له: يا فلان، النبي ﷺ يصلي وأنت جالس؟!!

فقال له: امض إلى عملي إن كان لك عمل.

قال عمر: هذا من عملي، فوثب عليه فضربه ضربات بشدة.

ثم دخل عمر المسجد، فصلَّى مع النبي ﷺ، فلما انقضى النبي ﷺ من صلاته قام إليه عمر، فقال له:

يا نبي الله مررتُ آنفاً على فلانٍ وأنت تُصَلِّي، فقلت له: النبي ﷺ يُصَلِّي

وأنت جالس؟ فقال: امض إلى عملك إن كان لك عمل.

فقال النبي ﷺ: «فَهَلْ ضَرَبْتَ عُنُقَهُ».

فقام عُمرُ مُسْرِعاً، فقال النبي ﷺ:

«يَا عُمرُ ارْجِعْ، فَإِنَّ غَضَبَكَ عِزٌّ، وَرِضَاكَ حُكْمٌ»^(١).

* * *

(١٠)

موجز أحداث المنافقين إبّان غزوة تبوك

الحدث الأول:

انخذاً لعبد الله بن أبيّ بن سلول، مع جماعة من المنافقين، بعد أن خرجوا وعسكروا دون معسكر الرسول، مع أن الرسول قد أمر بالخروج أمر إلزام، لا أمر ندب.

الحدث الثاني:

كان من المنافقين المثبطون، وهم نفر كانوا يجتمعون في بيت «سُويلم» اليهودي، يثبطون الناس عن رسول الله ﷺ قائلين لهم: لا تنفروا في الحر.

فبعث إليهم النبي ﷺ طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه، وأمره أن يُحرق عليهم بيت «سويلم» ففعل طلحة ما أمره به الرسول، فاقتحم من المنافقين الضحّاك بن خليفة من ظهر البيت، فانكسرت رجله، واقتحم أصحابه فأفلتوا، وكان منهم «ابن أبيرق» كما ذكر الضحّاك في شُبهه له.

الحدث الثالث:

كان من المنافقين من استأذن الرسول بعدم الخروج إلى غزوة تبوك، متحلاً بالمعاذير الكاذبات، فأذن الرسول ﷺ لهم.

(١) انظر تفسير الطبري، الجزء الأول الصفحة ٢١٠.

الحدث الرابع:

كان منهم من تخلف عن الغزوة دون استئذان، فلما عاد الرسول منها إلى المدينة أقبلوا يعتذرون عن تخلفهم، ويحلفون الأيمان الكاذبة ويلفقون المعاذير، فيعرض الرسول عنهم، ويترك حسابهم لله عز وجل.

الحدث الخامس:

كان رهط من المنافقين منهم «وديعة بن ثابت» يشيرون إلى رسول الله ﷺ ومعه المسلمون، وهم منطلقون إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: «أَتَحْسَبُونَ جَلَادَ بَنِي الْأَصْفَرِ (أي: الروم) كَقِتَالِ الْعَرَبِ بِبَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَاللَّهِ لَكُنَّا بِكُمْ غَدًا مَقْرَنِينَ فِي الْحَبَالِ، إِرْجَافًا وَتَوَهُينًا لِلْمُؤْمِنِينَ».

فقال «مُخَشَّنُ بْنُ حُمَيْرٍ» وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أَقَاضِي عَلَى أَنْ يُضْرَبَ كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا مِثَّةَ جِلْدَةٍ، وَأَنَا نَفَلْتُ أَنْ يَنْزِلَ فِيْنَا قُرْآنٌ لِمَقَالَتِكُمْ، وَرَوَى أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ تَابَ مِنْ نِفَاقِهِ وَحَسَّنَ إِسْلَامَهُ، وَسَمَّى نَفْسَهُ «عَبْدَ الرَّحْمَنِ».

وروي أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَعْلِمَ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ بِمَا قَالُوا، فَقَالَ لِعَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ: أَذْرِكُ الْقَوْمَ فَإِنَّهُمْ قَدْ احْتَرَقُوا، فَسَلُّهُمْ عَمَّا قَالُوا، فَإِنْ أَنْكَرُوا فَقُلْ: بَلَى، قُلْتُمْ كَذًا وَكَذَا.

فَانْطَلَقَ إِلَيْهِمْ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، فَقَالَ لَهُمْ كَمَا أَمَرَهُ الرَّسُولُ ﷺ، فَاتُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ، وَقَالَ وَدِيعَةُ بْنُ ثَابِتٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ واقف على ناقته: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ.

أقول:

لعل هؤلاء المنافقين كانوا يُرَدِّدُونَ مَا قَالَهُ قَبْلَهُمْ رَأْسُ الْمُنَافِقِينَ «عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَرْزَةَ» إِذْ قَالَ: يَغْزُو مُحَمَّدٌ بْنُ الْأَصْفَرِ وَاللَّهُ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَصْحَابِهِ مَقْرَنِينَ فِي الْحَبَالِ.

الحدث السادس:

استخلف الرسول ﷺ علياً رضي الله عنه على أهله في المدينة، فقال المنافقون:

«مَا خَلَفَهُ فِي أَهْلِهِ إِلَّا اسْتِقْلَالاً لَهُ، وَتَخَفُّاً مِنْهُ».

فبلغ ذلك علياً رضي الله عنه، فأخذ سلاحه وخرج، حتى أتى رسول الله ﷺ وهو نازل بالجُرف^(١)، فقال: يا نبي الله، زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استغفلتني، وتخففت مني.

فقال رسول الله ﷺ:

«كذبوا، ولكني خلفتك لما تركت ورائي، فأرجع فأخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي».

فرجع علي رضي الله عنه إلى المدينة، ومضى رسول الله ﷺ إلى وجهته، وأعطى اللواء الأعظم أبا بكر رضي الله عنه.

الحدث السابع:

تعرض المسلمون لنفاد ما معهم من الماء، حتى عطشوا عطشاً شديداً، فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن الله قد عودك في الدعاء خيراً، فادع الله لنا.

فرفع الرسول يديه نحو السماء، فلم ينزلهما حتى أغاثهم الله، فأمطرت السماء، فشربوا وملؤوا أوعية الماء التي لديهم.

وكان رجل من المنافقين معروفً بالنفاق، يسير مع رسول الله ﷺ حيث سار، فلما كان من أمر الناس ما كان، ودعا الرسول، وأرسل الله السحابة فأمطرت حتى ارتوى الجيش، فأقبل عليه رفاقه من بني عبد الأشهل، فقالوا له: ونحك، هل بعد هذا شيء؟!

قال: سحابة مارة.

الحدث الثامن:

يُوجد في طريق العودة من غزوة تبوك حسب الطريق الذي سلكه المسلمون وإذ يُقال له: وادي المشقق، وكان يُوجد فيه وشل^(٢) ما يُروى الراكب، أو الراكبين، أو الثلاثة.

(١) الجُرف: اسم مكان على ثلاثة أميال من المدينة.

(٢) الوشل: نبع ماء قليل، فيتحلب متقاطراً وتجمع.

فقال رسول الله ﷺ : «مَنْ سَبَقَنَا إِلَى ذَلِكَ الْوَادِي ، أَوْ إِلَى ذَلِكَ الْمَاءِ ، فَلَا يَسْتَقِينُ مِنْهُ حَتَّى نَأْتِيَهُ» .

فسبقه إليه نفرٌ من المنافقين ، فاستَقَوْا ما فيه ، فلَمَّا أتاه الرسول وقف عنده ، فلم يَز فيه شيئاً ، فقال مستكراً :
«مَنْ سَبَقَنَا إِلَى هَذَا الْمَاءِ ؟؟» .

فقال له : يا رسول الله ، فُلَانٌ وفُلَان ، فقال :
«أَوَلَمْ أَنْهَهُمْ أَنْ يَسْتَقُوا مِنْهُ شَيْئاً حَتَّى آتِيَهُ ؟!» .

وغضب ﷺ من معصيتهم ، ودعا عليهم ، ثُمَّ نَزَلَ عن راحلته ، فَوَضَعَ يَدَهُ تَحْتَ الْوُشْلِ حَيْثُ يَتَقَاطَرُ الْمَاءُ ، حَتَّى إِذَا تَجَمَّعَ فِيهَا مَقْدَارٌ مِمَّنْهُ ، نَضَحَ مَكَانَ تَقَاطُرِ الْمَاءِ بِمَا تَجَمَّعَ فِي يَدِهِ مِنْهُ ، وَمِنْخَهُ بِيَدِهِ ، ودعا بما شاء الله أَنْ يدعوه ، فَتَفَجَّرَ مِنْهُ الْمَاءُ تَفْجُراً ، وقال من سمعه : إِنَّ لَهُ جَساً كَجَسِّ الصَّوَاعِقِ ، فَشَرَبَ النَّاسُ ، وَاسْتَقَوْا مِنْهُ حَاجَتَهُمْ .

الحدث التاسع :

روى البيهقي عن حذيفة بن اليمان قال (متحدثاً عن حادثة جرت للرسول وهم عائدون من غزوة تبوك) :

كُنْتُ أَجْزَأُ بِخُطَامٍ^(١) نَافَةِ رَسُولِ اللَّهِ ، وَعُمَارُ يَسُوقُ النَّاقَةَ ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْعَقْبَةِ^(٢) ، إِذَا بَاثْنِي عَشَرَ رَجُلًا قَدْ اغْتَرَضُوهُ فِيهَا ، وَصَارَ عُمَارُ يَصْرِفُ وَجْوهَ رَوَاحِلِهِمْ يُنَحِّيهِا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

قال حذيفة : فَأَنْبَهْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَصَرَخَ فِيهِمْ ، فَوَلَّوْا مُذْبِرِينَ .

فقال رسول الله ﷺ : «هَلْ غَرَفْتُمُ الْقَوْمَ ؟» .

قُلْنَا : لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَدْ كَانُوا مِثْلَ ثَمِينٍ .

(١) الخُطَامُ : ما يوضع على خُطَمِ الجمل أو الناقة من خَبَلٍ لِيُقَادَ بِهِ ، وَخُطَمُ الجمل أَنْفُهُ .

(٢) العقبه : هي المرقى الصعب من الجبال .

قال: «هؤلاء المنافقون يوم القيامة، وهل تذكرون ما أرادوا؟».

قلنا: لا.

قال: «أزادوا أن يزحموا رسول الله في العقب، فيلقوه منها».

قلنا: أولا تبعث إلى عشائرتهم، حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم.

قال: «لا، أكثره أن يتحدث العرب أن محمداً قاتل بقومه حتى إذا أظهره الله بهم أثبل عليهم يقتلهم».

ودعا ﷺ عليهم، وانزل الله قوله:

﴿وَهُمْ أَوْيَاءٌ لِّرَسُولِهِ﴾ (التوبة/ ٩/ مصحف/ ١١٣ نزول).

الحدث العاشر:

روى عن عبد الله بن عمر قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس من المجالس: ما رأيت مثل قرأتنا هؤلاء، أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء.

فقال له رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لاخبرن رسول الله ﷺ.

فبلغ ذلك الرسول.

الحدث الحادي عشر:

قصة بناء مسجد الضرار، وخلاصتها: أن أبا عامر الراهب الذي سمّاه الرسول «الفاسق» والذي كان قد تنصّر في الجاهلية، وترك المدينة بعد هجرة الرسول إليها، وتديره المكاييد ضده وضد الإسلام، ثم انحاز إلى المشركين في مكة، وقبيل منهم إلى حرب المسلمين في غزوة أحد.

ثم ذهب إلى هرقل ملك الروم، يستنصره على محمد وصحبه، فوعده ومنّاه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يبعدهم ويمنّهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به الرسول، ويغلبه ويردّه عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لإيصال كتبه، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك.

فبنى المتآمرون مسجداً مجاوراً لمسجد قباء قبل خروج الرسول ﷺ إلى تبوك، وجاءوا إلى الرسول فسألوه أن يأتي إليهم فيُصَلِّي في مسجدهم، وذكروا أنهم بنوه للضعفاء منهم، وأهل العلة والحاجة في الليلة المطيرة، فعصمه الله من الصلاة فيه، وقال لهم: إني على جناح سفر، ولو قد قَدِمْنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَاتَيْنَاكُمْ، فصلينا لكم فيه. ولَمَّا قَفَلَ الرسول راجعاً من تبوك إلى المدينة، ولم يبق بينه وبين المدينة إلا يومٌ أو بعض اليوم، نزل عليه جبريل عليه السلام يخبر مسجد الضرار، وما أُعِدَّ له هذا المسجد.

فدعا الرسول ﷺ صحابيين من أصحابه وقال لهما:
«انْطَلِقَا إِلَى هَذَا الْمَسْجِدِ الظَّالِمِ أَهْلُهُ، فَاهْدِمَاهُ وَحَرِّقَاهُ».
ففعلا ما أمرهما به الرسول، وماتت المكيدة في مهديها.



الفصل الثالث

مُنَافِقُونَ عُبُرَتَا بَيْحِ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ عَصْرِ الرَّسُولِ ﷺ

وفيه سبع مقولات :

المقولة الأولى : مقتل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

المقولة الثانية : المنافق اليهودي : عبد الله بن سبأ ، ويُقال له : ابن السوداء ،
وخبائثه الخطيرة في تاريخ المسلمين .

المقولة الثالثة : المنافق اليهودي (أو المجوسي) ميمون بن ديسان القذاح ،
وخبائثه الخطيرة في تاريخ المسلمين .

المقولة الرابعة : المنافق أبْنُ العلقمي وخبائثه للدولة الإسلامية وخليفاتها
العباسي المستعصم بالله محمد بن الظاهر .

المقولة الخامسة : يهود الدونمة المنافقون ، ودورهم في سقوط الخلافة
العثمانية ، وإقامة العلمانية .

المقولة السادسة : منظمة البابية فالبهائية إحدى المنظمات المنافقة .

المقولة السابعة : منظمة القاديانية إحدى المنظمات المنافقة .



مقتل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب

تشير الدلائل القوية إلى أن اغتيال عمر بن الخطاب قد كان بتدبير من قبل بعض المنافقين في المدينة.

كان عمر في خلافته - رضي الله عنه - لا يأذن لسبِّي قد اختلَم في دخول المدينة، حرصاً على عاصمة الدولة الإسلامية يومئذٍ من أن يكون فيها أحدٌ من غير المسلمين، ولو كان عبداً رقيقاً.

حتى كتب إليه واليه على الكوفة «المغيرة بن شعبة» يذكر له غلاماً عنده صنعة، ويستأذنه أن يدخل المدينة، وقال له: إنَّ عنده أعمالاً كثيرة فيها منافع للناس، فهو حدّاد - نقّاش - نجّار.

فأذن عمر رضي الله عنه للمغيرة بن شعبة، في أن يُرسل غلامه إلى المدينة. هذا الغلام هو «أبولؤلؤة فيروز» من سبِّي نهاوند، مجوسي الأصل روميّ الدار، لذلك جاء في وصفه أنه مجوسي، وأنه نصراني، والظاهر أنه مجوسي.

وجاء في الروايات التاريخية أن أبا لؤلؤة هذا جاء إلى عمر فاشتكى إليه من كثرة الخراج الذي فرضه عليه سيده «المغيرة بن شعبة» وكان نحو درهمين في كل يوم، أو أكثر قليلاً، على اختلاف في الروايات.

فسأله الخليفة عما يملك من صناعة، فأجابه بأنّه «نقّاش - نجّار - حدّاد».

فقال له عمر: «فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع».

فغضب العبد، وقال: «وسيع الناس كلّهم غدّله غيري».

فأعد هذا العبد خنجرأ ذا طرفين، قبضته من أوسطه، ودخل المسجد مع المصلّين وقت صلاة الفجر، واغتال خليفة المسلمين وهو يُصلي إماماً بالناس، واندفع

لا يمر على أحد من المسلمين يمينا أو شمالاً إلا طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً، مات منهم تسعة رجال، وطرح عليه أحد المسلمين برئساً، فلما رأى أنه مقبوض لا محالة انتحر بخنجره.

روى البخاري بسنده عن «عمرو بن ميمون» أحد شهداء الحادثة، قال:

«إني لقائم ما بيني وبين عمر إلا عبد الله بن عباس، غداة أصيب «أي: أمير المؤمنين عمر» وكان إذا مر بين الصنفين قال: استنوا، حتى إذا لم ير فيهم خللاً تقدم فكبر، وربما قرأ سورة يوسف أو النحل، أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس.

فما هو إلا أن كبر، فسمعتُه يقول: قتلني أو أكلني الكلب حين طعنته، فطار العليج^(١) يسكين ذات طرفين، لا يمر على أحد يمينا ولا شمالاً إلا طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً مات منهم تسعة.

فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برئساً^(٢)، فلما رأى أنه مأخوذ نحر نفسه.

وتناول (أي: عمر) يد عبد الرحمن بن عوف فقدمه.

فمن يلي عمر فقد رأى الذي رأيته، وأما نواحي المسجد فإنهم لا يدرون، غير أنهم فقدوا صوت عمر، وهم يقولون: سبحان الله! سبحان الله.

فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة، فلما انصرفوا قال (أي: أمير المؤمنين عمر): يا ابن عباس، انظر من قتلني، فجال ساعة ثم جاء فقال: غلام المغيرة.

قال: الصنع؟ (أي: الصانع الحاذق في صناعته).

قال: نعم.

(١) العليج: يُطلق على الرجل من كفار العجم، ويُطلق على كل جاف غليظ شديد من الرجال.

(٢) البرئس: ثوب له رأس موصول به يُخفظ به الرأس عند الحاجة، وهو من الثياب التقليدية عند أهل المغرب، وهو مما يلبس فوق الثياب.

قال: قَاتَلَهُ اللَّهُ، لَقَدْ أَمَرْتُ بِهِ مَعْرُوفًا، الحمد لله الَّذِي لم يجعل منيتي بِبَيْدِ رَجُلٍ يَدْعِي الإسلامَ.

وكان هذا الأمر في ثلاث بقين من ذي الحجة، من سنة (٢٣) للهجرة النبوية. وحزن المسلمون حزنًا شديدًا، حتَّى كَانُ الناس لم تُصِبْهُمْ مصيبةٌ قَبْلَ يَوْمَيْهِ، فَمَا رَأَوْي مَلَأَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا وَهُمْ يَتَكُونُونَ.

وروى الطبراني عن سعيد بن المسيَّب: أَنَّ عبد الرحمن بن أبي بكر قال غداة طُبعن عُمر: مَرَرْتُ عَلَى أَبِي لَوْلُؤَةَ عَشِيَّيْ أَمْسَ، وَمَعَهُ جُفَيْتُهُ، وَالْهُزْمَزَانُ، وَهُمْ نَجِيَّ (أي: يتحدّثون سرًّا) فَلَمَّا رَمَقْتُهُمْ (أي: غَشِيَتْهُمْ وَبَاغَتْهُمْ بِاطْلَاعِي عَلَيْهِمْ يَتَنَاجَوْنَ) نَارُوا وَسَقَطَ مِنْهُمْ خَنْجَرٌ لَهُ رَأْسَانِ، نَصَابُهُ فِي وَسْطِهِ، فَانْظُرُوا بِأَيِّ شَيْءٍ قُتِلَ؟

وحين أَخْضَرَ أَبُو لَوْلُؤَةَ قَتِيلًا وَجَدُوا الْخَنْجَرَ الَّذِي وَصَفَهُ عبد الرحمن بن أبي بكر هو الَّذِي قَتَلَ أَبُو لَوْلُؤَةَ بِهِ عُمر رضي الله عنه.

وسمع عُبيدُ الله بن عُمر بما تَحَدَّثَ بِهِ عبد الرحمن بن أبي بكر، فَأَذْرَكَ أَنَّ جُفَيْتَةَ وَالْهُزْمَزَانَ مُشْتَرَكَيْنِ فِي تَدْبِيرِ اغْتِيَالِ أَبِيهِ، وَأَنَّهُمَا كَانَا مَظَاهِرِينَ بِالإِسْلَامِ نِفَاقًا، فَأَمْسَكَ عَنِ الْإِنْتِقَامِ مِنْهُمَا حَتَّى مَاتَ عُمر.

وبعد أن قُضِيَ الأمر، وَثُبِتَ فِي نَظَرِهِ إِدَانَتُهُمَا بِالِاشْتِرَاكِ فِي الْجَرِيْمَةِ، اشْتَمَلَ عَلَى سَيْفِهِ، فَأَتَى الْهُزْمَزَانَ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ مَضَى حَتَّى أَتَى جُفَيْتَةَ، فَلَمَّا عَلَاهُ بِالسَّيْفِ ضَلْبٌ جُفَيْتَةَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ (أي: رَسَمَ عِلَامَةَ الصَّلِيبِ النَّصْرَانِيَّةِ بَيْنَ عَيْنَيْهِ).

فَدَلَّتِ الْحَادِثَةُ عَلَى أَنَّ الْمُنَافِقِينَ مِنَ الْمَجُوسِ وَالنَّصَارَى كَانُوا وَرَاءَ تَدْبِيرِ جَرِيْمَةِ اغْتِيَالِ عُمر بن الخطاب رضي الله عنه، خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي أَوْجِ مَجْدِهِمْ عَدْلًا وَإِرْهَابًا.

وتشير بعض الروايات إِلَى أَنَّ لِكُتُبِ الْأَحْبَارِ مِشَارَكَةً مَا فِي هَذِهِ الْجَرِيْمَةِ، وَهُوَ تَابِعِيٌّ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ كِبَارِ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ فِي الْيَمَنِ، وَأَسْلَمَ فِي زَمَنِ أَبِي بَكْرٍ، وَقَدِمَ الْمَدِينَةَ فِي عَهْدِ خِلَافَةِ عُمر، وَاللهُ أَعْلَمُ بِالْحَقِيقَةِ، وَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّ مَكْرَ الْيَهُودِ عِبرَ التَّارِيخِ أَشَدُّ مِنْ مَكْرِ الْمَجُوسِ وَالنَّصَارَى، وَأَنَّهُمْ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَخْفُوا أَنْفُسَهُمْ، وَأَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ مَا يَرِيدُونَ بِأَيْدِي غَيْرِهِمْ، دُونَ أَنْ يَتْرَكُوا أدْلَةً إِدَانَةً ضَدَّهُمْ.

المقولة الثانية

المنافق اليهودي عبد الله بن سبأ، ويقال له ابن السوداء
وخبائثه الخطيرة في تاريخ المسلمين

(١)

شخصيته وثبوتها في التاريخ

هو عبد الله بن سبأ، ويقال له: ابنُ السوداء، لأنَّ أمَّهُ كانت امرأة سوداء اللون، وكان هو أيضاً أسود اللون.

كان يهودياً، ودخل الإسلام منافقاً في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

ومعظم الأخبار تؤكد أنه من يهود اليمن، وقيل: هو من يهود الحيرة، وقيل: هو رومي كان يعمل لتقويض الدولة الإسلامية بتوجيه من الدولة الرومية «البيزنطية».

* * *

أقوال المؤرخين وأصحاب المقالات بشأنه^(١)

اتفقت المصادر التي تحدّثت عن تاريخ المسلمين والحركات والمذاهب السياسية والاعتقادية الدينية التي نشأت في عهد عثمان رضي الله عنه، من كتب أهل السنة، وكتب الشيعة، على أن هذا المنافق الضالّ المضلّ قد كان شخصية حقيقية، بخلاف ما ادّعى بعض المعاصرين من الشيعة والمستشرقين، من أنه شخصية وهمية،

(١) باستطاعة الباحث أن يرجع إلى تفصيل ما قاله بشأنه علماء السنة وعلماء الشيعة، وإثبات شخصيته منافقاً يهودياً إلى ما كتب «إحسان إلهي ظهير» في كتابه «الشيعة والتشيع - فرق وتاريخ» بدءاً من صفحة (٤٨) وإلى كتاب «عبد الله بن سبأ» تأليف الشيخ سليمان بن حمد العودة.

ليستروا بهذا الادعاء الاصل الذي نشأت بدسائسه ومكايده الفرق التي شقت عصا الوحدة الإسلامية، تحت ستار مناصرة حقّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الخلافة، وحقّ آل بيت الرسول محمد ﷺ بها من بعده، وما نجم عن ذلك من انحرافات اعتقاديّة خطيرة، سلخت فرقاً عديدة من الإسلام سلخاً كلياً، وكان بعضهم زنادقةً ملاحدة يؤلّهون البشر، وأكفّر من اليهود والنصارى.



بعض من أثبت حقيقته ومقالاته وخبائثه من علماء أهل السنة

فمن أهل السنة الذين تحدّثوا عن وجوده وتحركاته في إثارة الفتنة على عثمان حتى انتهت بمقتله، وتحدّثوا عن مقالته الكافرة وأكاذيبه التي دسّها بين المسلمين.

(١) الطبري في تاريخه، معتمداً في الغالب على روايات «سيف بن عمر التميمي».

(٢) ابن الأثير في تاريخه متابعاً الطبري.

(٣) ابن خلدون في تاريخه.

(٤) ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق، مستنداً إلى روايات الطبري، وروايات أخرى لا ينتهي سندها إلى «سيف بن عمر التميمي» وهذه الروايات يصل بعضها إلى درجة الصحيح، ويصل بعضها إلى درجة الحسن، كما نقل «العودة» عن «الألباني».

(٥) الجاحظ في كتابه «البيان والتبيين».

(٦) وذكر ابن سعد السبئي في الطبقات الكبرى، دون أن يصرّح باسم عبد الله بن سبأ على وجه الخصوص.

(٧) البلاذري في «أنساب الأشراف».

(٨) ابن كثير في «البداية والنهاية».

(٩) المقرئ في «خطه».

(١٠) وذكره أيضاً الذين كتبوا في الرجال، ومنهم: «ابن حبان» و«الذهبي» و«ابن حجر» و«المقدسي» و«المالقي» و«الصفدي» و«الجرجاني» وغيرهم.

(١١) وذكره أيضاً الكتابُ في الفرق، وأصحاب المقالات، ومنهم: «أبو الحسن الأشعري» و«البغدادى» و«ابن حزم الأندلسي» و«الإسفرائيني» و«الشهرستاني» و«فخر الدين الرازي» و«الكرماني» وغيرهم.

بعض من أثبت حقيقته ومقالاته وخبائثه

من علماء الشيعة

ومن علماء الشيعة الذين تحدّثوا عن هذا المنافق اليهودي الخبيث، وتعتبر كتبهم من المصادر الموثقة والمعتمدة عند الشيعة:

(١) أوّل المصادر المهمة النادرة، التي ذكرت عبد الله بن سبأ «رسالة الإرجاء» للحسن بن محمد بن الحنفية، المتوفى سنة خمس وتسعين للهجرة، والتي رواها عنه الثقات من الرجال عند الشيعة.

(٢) سعد بن عبد الله الأشعري القمي، المتوفى سنة (٣٠١هـ) في كتابه «المقالات والفرق»، وهذا الكتاب مطبوع في طهران سنة (١٩٦٣م).

(٣) أبو محمد الحسن بن موسى النوبختي، وهو من أعلام القرن الثالث الهجري، في كتابه «فرق الشيعة» وقد طبع هذا الكتاب «كاظم الكتبي» في النجف عدّة طبعات، وطبعه المستشرق «ريتر» في إستانبول سنة (١٩٣١م).

(٤) أبو عمرو محمد بن عمر بن عبد العزيز الكشي، في كتابه المعروف باسم «رجال الكشي» وقد طبعته مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بکربلاء.

(٥) شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، المتوفى سنة (٤٦٠هـ) في كتابه المعروف باسم «رجال الطوسي» وقد طبع في النجف سنة (١٣٨١هـ - ١٩٦١م) من قبل «محمد كاظم الكتبي».

- (٦) ابن أبي الحديد في شرحه لكتاب «نهج البلاغة» وهو شيعي .
- (٧) الحسن بن يوسف الحلبي، في كتابه «الرجال» وقد طبع في طهران سنة (١٣١١هـ) ثم في النجف سنة (١٩٦١م).
- (٨) محمد باقر الخوانساري، في كتابه «روضات الجنان» وقد طبع في إيران سنة (١٣٠٧هـ).
- (٩) الشيخ عبد الله المامقاني، في كتابه «تنقيح المقال في أحوال الرجال» وقد طبع في النجف سنة (١٣٥٠هـ).
- (١٠) ابن المرنفسي أحمد بن يحيى (ت ٨٤٠هـ) وهو من أئمة الشيعة الزيدية.
- (١١) الأزدبيلي (١١٠١هـ).
- (١٢) الصدوق (٣٨١هـ) في كتابه «من لا يحضره الفقيه».
- وغيرهم كما ثبت لدى المتتبعين لأعلامهم وكتبهم.

قال الدكتور «سعدى الهاشمي» في بحث له عن «عبد الله بن سبأ» نشره في مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، بالعدد (٤٦) سنة (١٤٠٠هـ) ما يلي:

«اتفق المحدثون، وأهل الجرح والتعديل، والمؤرخون، وأصحاب كتب الفرق، والملل والنحل، والطبقات، والأدب، وأمهات كتب الشيعة، على وجود شخصية تاريخية اسمها «عبد الله بن سبأ» الملقب «بابن السوداء» وأنه يهودي جاء من اليمن، وأظهر الإسلام نفاقاً في عهد عثمان رضي الله عنه، وأظهر الصلاح، وجعل يتقرب من علي رضي الله عنه، ويظهر محبته».

فلا شبهة بعد هذا في أن المناقق اليهودي «عبد الله بن سبأ» هو شيطان الفتنة الكبرى في عهد عثمان، وما جرت بعد ذلك من ولايات ونكبات في تاريخ المسلمين.

(٢)

مقالاته التي نشرها بالتدريج وضلل بها من تأثر به كُلياً أو جزئياً

(١) عبد الله بن سبا هو أول من قال بوصية رسول الله ﷺ لِعَلِيٍّ أن يكون خليفته من بعده، وأنه هو خليفته على أَمته بالنص، فهو الذي أحدث القول بالوصية لعلِيٍّ.

(٢) وهو أول من أظهر البراءة من أعداء علي رضي الله عنه، وحكم عليهم بالكفر. وقد أثبت هذا من أقواله من علماء الشيعة: النوبختي، والكشي، والمامقاني، والتستري، وغيرهم.

(٣) وهو أول من أحدث القول برجعة رسول الله ﷺ إلى الدنيا، والقول برجعة علي رضي الله عنه إلى الدنيا بعد موته.

وقد أظهر هذه المقالة في مصر، وكان يقول لمن يعرض عليه أقواله:

أليس قد ثبت أن عيسى عليه السلام سيعود إلى هذه الدنيا؟

فيقول له الرجل: بلى.

فيقول له: فرسول الله أفضل منه، وهو أحق بالرجوع من عيسى، فما تنكر أن يعود إلى هذه الدنيا، وهو أشرف من عيسى. ويقول: العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب برجوع محمد، وقد قال الله عز وجل له: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾.

ثم يقول له: وكان قد أوصى إلى عليٍّ مُحَمَّدٌ خاتم الأنبياء، فعليٌّ خاتم الأوصياء.

ثم يقول له: فعليٌّ أحق بالأمر من عثمان، فعثمان مُعْتَدٍ إِذْ تَوَلَّى مَا لَيْسَ لَهُ، فَانْكَبُوا عَلَيْهِ، وَأَظْهَرُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ.

ومن أقواله: إنه كان ألف نبي، ولكل نبي وصي، وكان عليٌّ وصي محمد، ومن أظلم ممن لم يُجِزْ وصية رسول الله ﷺ ووُثِبَ على وصي رسول الله ﷺ وتناول أمر الأمة.

وقد أفتتن به بشر كثير من أهل مصر، وقال لمن استجاب له: إن عثمان أخذها

بغير حقّ، فانهضوا في هذا الأمر فحرّكوه، ابدؤوا بالظن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تستميلوا الناس، وادّعواهم إلى هذا الأمر، فَبَتَّ الدَّعَاةُ. (٤) وهو أوّل من أحدث بين المسلمين القول بالناسخ، كما ذكر المقرئزي، فقال فريق من أتباعه بذلك.

(٥) وهو أوّل من ادّعى النبوة بعد الرسول ﷺ، وأوّل من قال بالوحيّة عليّ رضي الله عنه وروبيّته.

روى الكشي «الشيخي» بسنده عن أبي جعفر، أن عبد الله بن سبأ كان يدّعي النبوة، وزعم أن أمير المؤمنين (يعني عليّاً) هو الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

فبلغ ذلك أمير المؤمنين، فدعاه وسأله فأقرّ بذلك، وقال: نعم، أنت هو، وقد كان قد ألقي في روعي أنك أنت الله وأنا نبيّ.

فقال له أمير المؤمنين: وتلك قد سخر منك الشيطان، فارجع عن هذا ثكلتك أمك، وتبّ، فآبى.

تقول الرواية: فحبسه أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه ثلاثة أيام فلم يُتبّ، فأحرقه بالنار، لكنّ الروايات الأخرى الأكثر والأصح تذكر أنه نفاه إلى سابات المدائن.

وذكر الجوزاني: أن عليّاً نفاه بعدما كان همّ به (أي: هم بقتله).

ويظهر أن ابن سبأ راوغ، ولم يُصرّ على أقواله في الوحيّة عليّ فاكفى سيدنا عليّ بنفيه.

لكنّ مقالته في الوحيّة عليّ بين أصحابه السبّيين مقالة ثابتة، ولها وجود بين فرق بعض غلاة الشيعة من الملاحدة حتى الآن.

وبلغ سيدنا عليّاً أن بعض مشايخه يؤلّهونه، أو يرون أن فيه جزءاً إلهياً، فجمع من بلغه عنهم ذلك، واستجوبهم، فأقرّوا، فاستتابهم، فأصرّوا، فأمر بنار فاجّجت، وجعل جُنْدُه يقدفونهم فيها، فلما رأوا ذلك منه جعلوا يقولون: الآن صَحَّ عندنا أنه الله.

وروي عنه أنه قال:

لَمَّا رَأَيْتَ الْأَمْرَ أَمْرًا مَنكَرًا أَجِيتُ نَارًا وَذَعَرْتُ قُنْبَرًا

(٦) وكانت لعبد الله بن سبأ أقوال شنيعة بعد اغتيال سيدنا علي رضي الله عنه.

فقال: إِنَّ عَلِيًّا لَمْ يَمُتْ، وَإِنَّهُ رَاجِعٌ إِلَى الدُّنْيَا قَبْلَ قِيَامِ السَّاعَةِ، فَيَمْلَأُهَا عَدْلًا، كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا.

وقال للذي جاءه ينعي إليه موت علي بن أبي طالب: «لَوْ جِئْتَنَا بِدِمَاغِهِ فِي صُرَّةٍ

لَعَلَّمْنَا أَنَّهُ لَا يَمُوتُ حَتَّى يَسُوقَ الْعَرَبُ بَعْصَاهُ».

وزعم أن المقتول لم يكن علي بن أبي طالب، وإنما كان شيطاناً تصوّر للناس

في صورته. وقال: لو أقام أحد على قتله سبعين شاهداً عدلاً ما صدّقناه، ولعلمنا أنه

لم يموت ولم يقتل، وإنما صعد إلى السماء، والذين راوه قتيلاً قد شُبّه لهم، كما شُبّه

للذين رَأَوْا عَيْسَى مَصْلُوبًا.

(٧) ذكر الصفدي في ترجمته لعبد الله بن سبأ، أنه قال لعلي رضي الله عنه:

أَنْتَ الْإِلَهِ، فَغَافَ إِلَى الْمَدَائِنِ، فَلَمَّا قُتِلَ عَلِيٌّ زَعَمَ ابْنُ سَبَأٍ أَنَّهُ لَمْ يَمُتْ، لِأَن فِيهِ جِزْءٌ

إِلَهِيًّا، وَأَنَّ ابْنَ مُلْجَمٍ إِنَّمَا قَتَلَ شَيْطَانًا تَصَوَّرَ بِصُورَةِ عَلِيٍّ، وَأَنَّ عَلِيًّا فِي السَّحَابِ، وَأَنَّ

الرَّعْدَ صَوْتُهُ، وَالْبَرْقَ سَوْطُهُ، وَأَنَّهُ سَيَنْزِلُ إِلَى الْأَرْضِ فَيَمْلَأُهَا عَدْلًا.

هذه المقالة موجودة حتّى الآن لدى بعض الطوائف الكفرة من مشايخي عليّ.

فعبد الله بن سبأ علّم أتباعه أن يقولوا إذا رأوا سحابة: أمير المؤمنين فيها.

وذكر الجرجاني أنّ أصحاب عبد الله بن سبأ يقولون حين يسمعون الرعد: عليك

السلام يا أمير المؤمنين.

ونقل التوحيخي من علماء الشيعة: أنّ الشيعة الغلاة يقولون مقالة ابن سبأ في

عليّ بعد اغتياله:

إِنَّ عَلِيًّا لَمْ يُقْتَلْ، وَلَمْ يَمُتْ، وَلَا يُقْتَلُ وَلَا يَمُوتُ، حَتَّى يَسُوقَ الْعَرَبُ بَعْصَاهُ،

وَيَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقِسْطًا، كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَجَوْرًا.

(٨) وروى الجوزجاني، أنَّ من مزاعم عبد الله بن سبأ ادَّعَاؤُهُ أَنَّ القرآن جزءٌ من تسعة أجزاء، وعلمه عند عليّ.

فقال السبئية تبعاً له: إِنَّ مُحَمَّدًا كُتْمَ تسعة أعشار الوحي، وقال فريق منهم: هدينا لوحي ضلّ عنه الناس، ولعلم خفي عنهم.

وقد ردّ عليهم الحسن بن محمد بن الحنفية، أحد أئمة أهل البيت، في رسالته «الإرجاء» التي رواها عنه الثقات عند الشيعة قائلاً:

ومن قول هذه السبئية: «هدينا لوحي ضلّ عنه الناس، وعلم خفي عنهم» وزعموا أَنَّ رسول الله ﷺ كُتْمَ تسعة أعشار الوحي، ولو كُتْمَ شَيْئاً مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ لَكُتْمَ شَأْنِ امْرَأَةٍ زَيْدٍ، وقوله: «تبتغي مرضاة أزواجك»^(١).

(٩) وأدغى «عبد الله بن سبأ» أَنَّ عليّاً هو دابة الأرض، وَأَنَّهُ هو الذي خلق الخلق وبسط الرزق.

(١٠) وظهرت بين أتباعه الغلاة مقالات، منها: انتقال روح القدس في الأئمة، ومنها أَنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ، وَإِنَّمَا يَطِيرُونَ بعد موتهم، ولذلك يقال لهم: الطيّارة.

(١١) وكان ابن سبأ يكذب الأكاذيب على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فمِمَّا كَانَ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ:

إِنَّ أمير المؤمنين قال لي: إِنَّهُ يَدْخُلُ دِمَشْقَ، وَيَهْدِمُ مَسْجِدَهُمْ حَجْراً حَجْراً، وَيُظْهِرُ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَيَكْشِفُ أَسْرَاراً، وَيَعْرِفُهُمْ أَنَّهُ رَبُّهُمْ.

وعن ابن سبأ أَخَذَ غَلَاةَ الشَّيْعة أَفْكَارَهُ هَذِهِ مَوْزَعَةً فِي فِرْقَتِهِمْ، وَزَادُوا عَلَيْهَا ضَلَالَاتٍ وَكُفْرِيَّاتٍ وَإِبَاحِيَّاتٍ وَإِلْحَاداً.

فمنهم من يؤولهون عليّاً والأئمة من بعده، ويقولون: إِنَّ الْجِزءَ الْعُلَوِيَّ الْإِلَهِيَّ يَحُلُّ فِي الْأئمة، وَإِنَّهُمْ بِذَلِكَ اسْتَحَقُّوا الْإِمَامَةَ بِطَرِيقِ الْوُجُوبِ، كَمَا اسْتَحَقَّ آدَمُ عَلَيْهِ

(١) انظر د. سعدى الهاشمي، في بحثه المنشور في «مجلة الجامعة الإسلامية» بالمدينة العدد (٤٦) سنة ١٤٠٠هـ.

السلام سَجُودَ الملائكة له، فالإمامة عندهم موقوفة على ناسٍ معينين، لا تتمدهم، ومن أخذها منهم فهو ظالم.

والمكيدة اليهودية من وراء هذه الأكاذيب التي افتروها ورؤجوها أن يكون المنافقون منهم بين صفوف المسلمين، هم الأئمة وأصحاب السلطان، إذا استطاعوا أن يسرقوا أنساباً من أنساب أهل البيت، ويجعلوا أسراً منهم ضمن أسر أهل البيت النبوي، ويدعوا لإنباء هذه الأسر أنهم هم الأئمة، وهو ما ظهر بعد ذلك في الدولة الفاطمية.

فالمكيدة ليست مكيدة شخص واحد فيما أرى، بل هي مكيدة يهودية ذات أطراف متشعبة يبرز منها بعض الأطراف، وتختفي أطراف أخرى كثيرة، على طريقة المنظمات السرية.

* * *

(٣)

موجز تحركاته الشيطانية الأولى

(١) تظاهر اليهودي عبد الله بن سبأ الملقب بابن السوداء، بالإسلام في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وأتقن دوره في النفاق.

(٢) وأخذ ينتقل في بلدان المسلمين من قُطْرٍ إلى آخر، محاولاً إضلالهم عن دينهم، وإثارة الفتن بين صفوفهم.

فابتدأ بالحجاز، ثم انتقل إلى البصرة، ثم عرج على الكوفة، وأسّس في البصرة والكوفة خلايا له من الأشرار المنافقين ذوي المطامع.

ثم انتقل إلى بلاد الشام، فلم يجد فيها ما يرجو، لأن هوى الشاميين كان مجتمعاً فيها على معاوية بن أبي سفيان.

فأتى مصر واستقر فيها، وطالب له فيها العمل، وعقد حبال الفتنة.

(٣) استطاع أن يؤلب الأحزاب ضدَّ الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكانت فتنته قد بدأت بالتشيع عليه وعلى الولاة من قبيلة في الأمصار.

(٤) نزل في البصرة حين انتقل إليها بعد الحجاز على شخص اسمه: «حكيم بن جبلة العبدي» من بني عبد القيس، وكان هذا رجلاً لصاً شريراً، إذا قفلت جيوش المسلمين خنس عنهم للصوصية والسلب والنهب، وكان يعتو في أرض فارس، فيغير مع عصبته على أهل الدمة، ويُقيد في الأرض، ويُصيب ما يشاء.

فشكاه أهل الدمة والمسلمون إلى الخليفة عثمان رضي الله عنه، فكتب إلى عامله «عبد الله بن عامر»: أن احبسهُ ومن كان مثله، فلا يخرج من البصرة حتى تأمنوا منه رُشداً، وفرضت عليه الإقامة الجبرية في البصرة، لانقضاء شره وإفساده في الأرض.

ولما قدم «عبد الله بن سباء» البصرة ونزل على هذا الرجل اللص المفسد، وعلم والي البصرة بقدمه، ولعله أحس ببعض تحركاته، دعاه وقال له: ما أنت؟

قال: رجل من أهل الكتاب، رغب في الإسلام والجوار.

فتوجس منه والي البصرة خيفة أن يُثير فتنة ويعمل شراً، وقال له: اخرج عني.

(٥) فخرج من البصرة، ودخل الكوفة، واتصل ببعض أشرارها، وتآمروا على إثارة الفتن، وأحس بهم أهل الكوفة، فتوجسوا من «عبد الله بن سباء» خيفة، فأخرجوه.

(٦) وارتحل إلى الشام، ونسب إليه أنه لقي فيها أبا ذر الغفاري رضي الله عنه^(١)، فاستثاره على معاوية واليها من قبل عثمان، مستغلاً ما لدى أبي ذر من رأي في المال، وقال له: ألا تعجب إلى معاوية، يقول: «المال مال الله؟! كأنه يريد أن يحتجزه لنفسه دون المسلمين.

فذهب أبو ذر إلى معاوية، وأنكر عليه ذلك قائلاً: ما يدعوك أن تسمي مال المسلمين مال الله؟

(١) لقاء ابن سباء لأبي ذر مشكوك فيه لدى حساب التواريخ، ولا يلزم من هذا أن أبا ذر لم يختلف مع معاوية، فخلقه مع معاوية ومع عثمان في قضايا الأموال أمر مشهور.

فقال له معاوية: يَرْحَمُكَ اللَّهُ يَا أَبَا ذَرٍّ، أَلَسْنَا عِبَادَ اللَّهِ، وَالْمَالُ مَالُهُ، وَالْخَلْقُ خَلْقُهُ، وَالْأَمْرُ أَمْرُهُ؟!

لكن ابن سبأ لم يجد بغيته عند أهل الشام ضد معاوية، أو عثمان، ورأى الشاميون فيه مثير فتنة ضد معاوية الأثير لديهم، وضد خليفة المسلمين، ورأوا أن هذا الرجل صاحب كيد يعمل لتأليب الفقراء ضد الأغنياء، فأخرجوه.

(٧) فرحل إلى مصر وكان ذلك حوالي سنة (٣٤ هجرية) ونزل في مصر على بعض القبائل اليمنية، مثل: «العافقي بن حرب العكي» و«سودان بن حمران السكوني» واختبر استثارته ضد الدين كله فلم يجد لديهم الاستعداد لذلك، فعرض لهم بالشقاق على الولاة فاطمعوهم، إذ وجد لديهم هوى في ذلك.

وأدرك الخبيث «عبد الله بن سبأ» أن والي مصر وداية العرب «عمرو بن العاص» هو العقبة الكبرى في مصر ضد مكابده، فبدأ بإثارة الناس عليه، وليس قناع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لبلوغ أهدافه، وقال للذين استجابوا لمكيدته وإثارة الفتنة:

«أظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس».

وبدأ «عبد الله بن سبأ» فطعن في «عمرو بن العاص» قائلاً: «ما باله أكثركم عطاء ورزقاً؟! ألا تنصب رجلاً من قريش يسوي بيننا؟!». فسرهم ذلك منه، لأنه وافق هواهم.

خاتمة:

ذكر «إحسان إلهي ظهير» في كتابه «الشيعية والتشيع» إجماع مؤرخي السنة والشيعية على أن «عبد الله بن سبأ» هو الذي أضرم نار الفتنة، وسعى بالفساد في أرض الخلافة، وأغرى الناس ضد عثمان، حتى انتهت الفتنة بمقتله رضي الله عنه.

وبذلك تُلِمَّتْ ثلثة عظمى في تاريخ المسلمين.

(٤)

قصة إشعاله الفتنة وتحريكه الثورة

التي انتهت بمقتل الخليفة عثمان

استقر «عبد الله بن سبأ» في مصر، وجمع حوله فريقاً من المنافقين، واستمال بعض المسلمين وهم غافلون عن مكيدته، فجعلهم يقبلون أقواله في الطعن على الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وعلى ولاته في الأقاليم والأمصار.

وأعلن أن علياً هو وصي رسول الله، وأن هذا الحق قد انتزع منه أبو بكر وعمر وعثمان، وأنه يجب التخلص من عثمان ورد الحق لصاحبه.

ووجد الخبيث ابن سبأ عوامل ساعدته على إحكام خطته، من لين الخليفة «عثمان» ولين واليه في مصر «عبد الله بن سعد بن أبي سرح» بعد عزل «عمر بن العاص» وتوليته الأقربين من بني أمية، ووجود بعض الناقمين عليه من أولاد كبار الصحابة، وتفريق أصحاب رسول الله ﷺ في الأمصار، ووجود الأخلاط وأصحاب المصالح الخاصة الطامعين بين بعض القبائل التي لم يتمكن الإسلام من قلوبهم، ومنهم من كانوا من قبائل المرتدين في عهد أبي بكر رضي الله عنه.

واتخذ أولياء له أغراضهم بالمنافع والسلب والنهب، من عناصر الفساد والإفساد والطامعين وقطاع الطرق في البصرة والكوفة، مدة إقامته فيهما قبل أن يرحل إلى الشام فمصر.

واعتمد التركيز على إشاعة فكرة حق علي رضي الله عنه في الخلافة، بعد أن أذاع كذباً أن الرسول أوصى له بها، وأشاع أن عثمان رضي الله عنه قد كان ظالماً إذ وثب علي وصي رسول الله ﷺ، وتناول أمر الأمة، وأخذ الخلافة بغير حق، وقال لأصحابه ومناصريه في آرائه:

انفضوا في هذا الأمر فحركوه، ابدؤوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس، وادعوهم إلى إعادة الحق إلى نصابه علي بن أبي طالب.

ويث دعاته في الأمصار، وجعل يكاتب من كان قد أفسدهم ويكاتبونه، وأخذ دُعَاة يدعون إلى تغيير الخليفة سرّاً، ويختلفون الأكاذيب عليه وعلى ولاته، إعداداً للقيام بالثورة على عثمان في المدينة، وجعلوا يكتبون الكتب ويرسلونها إلى كبراء الأمصار، فيُرْسِلُ كُلُّ متأمرٍ أهل مصر من أتباع ابن سبأ إلى كبراء الأمصار الأخرى، شاكين سوء حال الولاة عليهم من قبل عثمان الخليفة، ويُقَرِّأُ أتباعه هذه الكتب في أمصارهم، حتّى تناولوا بذلك المدينة عاصمة الخلافة، وأوسعوا الأرض إذاعة عن سوء حال أهلها من ظلم الخليفة.

وحين يَسْمَعُ أهل كلِّ بَلَدٍ ما جاءهم من أخبار البلدان الأخرى يقولون: إنّا لَنُفِي عافية ممّا ابتلي به غيرنا من أهل الأمصار.

أما أهل المدينة فقد وردت إليهم الكتب المصنوعة من جميع الأمصار، فقالوا: إنّا لَنُفِي عافية ممّا عليه جميع المسلمين في أمصارهم.

ووصلت إلى الخليفة عثمان رضي الله عنه الأنباء التي دُونت في الكتب المصنوعة المزوّرة، فقال الذين نقلوا إليه أخبار هذه الكتب من أهل المدينة: آياتيك عن الناس الذي يأتينا؟

قال: لا والله، ما جاءني إلّا السلامة.

قالوا: فلنّا قد أتنا، وأخبروه بما جاء في الكتب.

قال: فأنتم شركائي وشهود المؤمنين، فأشيروا عليّ.

قالوا: نشير عليك أن تبعث رجلاً مَن تَبَيّنَ بهم إلى الأمصار، حتّى يرجعوا إليك بأخبار أهلها.

فقبل مشورتهم، ونفّذها كما يلي:

— أرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة.

— وأرسل أسامة بن زيد إلى البصرة.

— وأرسل عمار بن ياسر إلى مصر.

— وأرسل عبد الله بن عمر إلى الشام.

— وأرسل رجالاً سواهم إلى سائر الأمصار.

فرجعوا جميعاً قبل عمار بن ياسر، فقالوا: أيها الناس، ما أنكرنا شيئاً، ولا أنكر أعلام المسلمين وعوامهم شيئاً.

وقالوا جميعاً: الأمر أمر المسلمين، وإن أمراءهم يُقْسِطُونَ بينهم، ويُقْرِئُونَ عليهم.

واستبطأ الناس عمار بن ياسر، حتى ظنوا أنه قد اغتيل.

ثم فاجأهم كتاب من والي مصر «عبد الله بن سعد بن أبي سرح» يخبر فيه أن عماراً قد استماله قوم بمصر، وقد انقطعوا إليه، وفيهم «عبد الله بن سبأ» و«خالد بن ملجم» و«سودان بن حمران» و«كثانة بن بشر» يريدونه على أن يقول بقولهم، وهم يزعمون أن محمداً راجع، ويدعونهم إلى خلع عثمان، ويخبرونه أن رأي أهل المدينة على مثل رأيهم، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في قتله وقتلهم قبل أن يُبايعهم؟

فكتب إليه عثمان رضي الله عنه:

«لَعَمْرِي إِنَّكَ لَجَرِيءٌ يَا ابْنَ أُمِّ عَبْدِ، لَا وَاللَّهِ لَا أَقْتُلُهُ، وَلَا أَتُكْذِبُهُ وَلَا إِسَامُ، حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَنْتَقِمُ مِنْهُمْ وَمَنْ بَعَثَ أَحَبَّ، فَذَعُفُهُمْ مَا لَمْ يَخْلَعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ، وَيَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا».

بلوغ المؤامرة السبئية ذروتها:

وبلغت المؤامرة الكيدية السبئية ذروتها، ونشط أبالسة الشر والفتنة في إشعال نار الثورة.

(١) فخرج في الكوفة «يزيد بن قيس» ودخل المسجد منادياً بخلع عثمان، واجتمع إليه أصحابه، ممن كان عبد الله بن سبأ يكاينهم، ينادون بخلع الخليفة عثمان.

وأنكر عليهم ذلك أهل العلم والرشد من أهل الكوفة، وقال قاتل أهل الرشد: هيهات، لا والله، لَا تُسَكِّنُ الْغُرَغَاءُ إِلَّا الْمَشْرِفِيَّةَ (أي: السيوف).

(٢) وفي مصر أخذت نرد الكتب المزورة على السنة الصحابة تطالب بقتل عثمان.

(٣) وأشعل أصحاب «عبد الله بن سبأ» المنافق اليهودي نار الثورة على عثمان في عدة أمصار.

(٤) وبلغ عثمان رضي الله عنه أمر هذه الفتنة ذات الكيد اليهودي المدبر، فأرسل إلى عماله أن يوافوه في موسم الحج، ودعا معهم بعض من يثق برأيه ومشورته.

(٥) فحضر إليه معاوية بن أبي سفيان، واليه في الشام، وعبد الله بن عامر، واليه في البصرة، وعبد الله بن سعيد بن أبي سرح، واليه في مصر.

وحضر أيضاً عمرو بن العاص، وسعيد بن العاص، وكانا معزولين.

وأخبرهم عثمان بما صنع الناس، وما شكوا به إليه، وطلب منهم أن يجتهدوا في آرائهم ويشيروا عليه.

* فأشار عليه «عبد الله بن عامر» بأن يأمر الناس بالجهاد، ويجهدهم في المغازي، ليشغلهم بذلك عن إثارة الفتن الداخلية.

* وأشار عليه «معاوية بن أبي سفيان» بأن يرُدَّ عماله إلى أمصارهم، على أن يكفوه ما يأتي من قبلهم (أي: أن يطلق أيديهم لقمع الفتنة).

* وأشار عليه «سعيد بن العاص» بأن يقتل قادة هؤلاء الفرق، فيتفرق أذنابهم، إذ إن الأمر يصنع في السر، ولا ذنب للعامة الذين يتحدثون بما يسر به إليهم.

* وأشار عليه «عبد الله بن سعد بن أبي سرح» واليه على مصر، بأن يخلق عليهم الأموال، فيلجئهم بها، لأنهم أهل طمع.

* وقال له «عمرو بن العاص»: إنك ركبت الناس بما يكرهون، فاعتزمت أن تعتدل، وإلا فاعتزل.

وظن عثمان أن هذا القول من «عمرو بن العاص» هو الجد منه. حتى إذا تفرق القوم عنه أشار عليه عمرو بأن هذا ليس هو رأيه، وإنما أراد أن يبلغ القوم قوله، فيثقوا به، فيعود إليه خيراً، أو يصرف عنه شراً، وذلك لظنه أن الخير سيلجئهم.

وروي أنه نصحه بقوله :

«أرى أنك قد إئتَ لهم، وتراخيت عنهم، وزدتهم على ما كان يصنع عمر، فأرى أن تلزم طريقة صاحبك، فتشتد في موضع الشدة، وتلين في موضع اللين».

مقدم الثائرين إلى المدينة من مصر والكوفة والبصرة :

بعد أن تمّ نسجُ خيوط المؤامرة التي دُبّرت في مصر والكوفة والبصرة، بمكر شيطانها «عبد الله بن سبأ».

وفي سنة (٣٥ للهجرة) انطلق الثائرون من هذه الأمصار الثلاثة، متظاهرين بأنهم خرجوا للحج، وهم إنما خرجوا للثورة والحرب، وخلع خليفة المسلمين، بأهواء ثلاثة، لأنّ مدبري الفتنة يريدون إحداث الشقاق والتقاتل بين المسلمين بذرائع شتى، وكان من ضمن الثائرين من سبق أن ارتدّ في عهد أبي بكر.

فالثائرون من مصر هواهم أن يستخلفوا الزبير بن العوام، أحد العشرة المبشرين بالجنة.

والثائرون من البصرة هواهم أن يستخلفوا طلحة بن عبيد الله، أحد العشرة المبشرين بالجنة، ولقبه الرسول «طلحة الخير» وهو من دعاة قريش وعلمائهم.

* فجاء الثائرون من مصر في أربع فرق، وكان عددهم ما بين (٦٠٠) و(١٠٠٠) على اختلاف في الروايات.

قائدهم العامّ بحسب الظاهر «الغافقي بن حرب العكي» وكانوا مقسمين إلى أربع فرق، على كلّ فرقة أمير، وهم : «عبد الرحمن بن عديس البلوي - كنانة بن بشر التجيسي - سودان بن حمران السكوني - قتيبة بن فلان السكوني».

وذكر من أسماء القادمين : «عروة بن شيم الليثي - أبو عمرو بن يدیل بن ورقاء الخزاعي - سودان بن رومان الأصبحي».

وقدم معهم شيطان المؤامرة الخبيثة اليهودي المنافق «عبد الله بن سبأ».

* وجاء الثائرون من أهل الكوفة في أربع فرق أيضاً، وكان عددهم كعدد القادمين من مصر، بإمارة «عمرو بن الأصم» أمّا أسراء الفرق فهم : «زيد بن صوحان

العبدى - الأشتر النخعي - زياد بن النضر الحارثي - عبد الله بن الأصم أحد بني عامر بن صعصعة.

* وجاء الثائرون من أهل البصرة في أربع فرق أيضاً، وكان عددهم كعدد القادمين من مصر، بإمرة «حرقوص بن زهير السعدي» أما أمراء الفرق فهم: «حكيم بن جبلة العبدى - زريح بن عباد العبدى - بشر بن شريح الحطم بن ضبيعة القيسي - ابن المحرش بن عبد عمرو الحنفي».

وسار القادمون من الأمصار الثلاثة، حتى إذا كانوا من المدينة على ثلاث مراحل، توقفوا يستطلعون أحوال أهل المدينة، هل هم سيخرجون لقتالهم، أو أن أهل المدينة لا علم لهم بمقدمهم ولا بغايتهم.

وتقدم من الثائرين طلائع، فنزل المصريون في «ذي المروة» ونزل الكوفيون في «الأعوص» ونزل البصريون في «ذي خشب» [أسماء أمكنة] حول المدينة.

ومشى بين الثائرين من الجهات من نظم عملية الدخول إلى المدينة، حتى لا يُفاجؤوا بما يُحيط أعمالهم الكيدية.

ودخل رجлан من الثائرين المدينة يتحسنان الأخبار، ويستطلعان ما لدى كبار الصحابة من رأي، هما «زياد بن النضر» و«عبد الله بن الأصم» فلقيا أزواج النبي ﷺ وعلياً وطلحة والزبير، وعرضا عليهم رغبة القادمين بتغيير بعض عمال عثمان، وتلقفوا بالحديث، وطلبوا الإذن للوفود بدخول المدينة، فكلهم أبوا، ونهؤهم عن متابعة ما جاءوا من أجله، فرجعا وأبلغوا الوفود بما لقوا من الذين واجهوهم.

واستنفر أهل المدينة لحمايتها من الثائرين، وأقاموا مواقع تربص معسكرين مسلحين.

فاجتمع من القادمين من مصر نفر فأتوا «علياً» رضي الله عنه، فسلموا عليه، وعرضوا له، فصاح بهم وطردهم، وقال لهم:

«لقد علم الصالحون أن جيش ذي المروة وذي خشب، ملعونون على لسان محمد، فارجعوا لا صجيكم الله».

قالوا: نعم، فانصرفوا من عنده على ذلك.

وأتى نفر من البصريين «طلحة» رضي الله عنه، فسلموا عليه وعرضوا له، فصاح بهم وطردهم، وقال لهم:

«لقد علم المؤمنون، أن جيش ذي المروة، وذي خشب، والأعوص، ملعونون على لسان محمد ﷺ».

وأتى نفر من الكوفيين «الزبير» رضي الله عنه، فسلموا عليه وعرضوا له، فصاح بهم وطردهم، وقال لهم:

«لقد علم المسلمون أن جيش ذي المروة، وذي خشب، والأعوص، ملعونون على لسان محمد ﷺ».

وكان علي وطلحة والزبير قد بعثوا بعض أولادهم لحماية عثمان في داره.

وتوجه قادة الثائرين لعثمان رضي الله عنه، متذرعين بأنهم يريدون أن يذكرروا له أموراً، ويعرضوا عليه مسائل.

فاستقبلهم الخليفة، وأجابهم على أسئلتهم.

قالوا له: ادع بالمصحف. فدعا به.

قالوا: اقرأ سورة يونس.

فقرأ، فلما وصل إلى قوله تعالى:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ مَا لِلَّهِ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَقْتُلُوا﴾.

أوقفوه.

وقالوا: أرايت ما حُبِّي من الجنى؟ الله أذن لك أم على الله تفترى؟ وذكروا له أشياء أخرى.

وكان يجيهم بما يعلم من كتاب الله، ويبين لهم وجه الحق، وخطأهم في التأويل، ويقيم عليهم الحجة رضي الله عنه.

ثم إنهم خرجوا متظاهرين بالرضا، وكتبوا عليه شرطاً، وأخذ عليهم ميثاقاً ألا يشقوا العصا، ولا يفارقوا الجماعة، ما أقام لهم شرطهم.

وأدرك عقلاء الصحابة، وكبار المسلمين من أهل المدينة، أنهم أصحاب شر، فأشاروا على الخليفة بقتلهم، ولكن عثمان رضي الله عنه أبى.

وتفرقت الطلائع عن ذي المروة، وذو خشب، وذو الأعوص، حتى انتهوا إلى عساكرهم الرابضة على ثلاث مراحل، لإيهاهم أهل المدينة أن الثائرين قد رجعوا إلى بلدانهم.

ودبر أصحاب المكيدة خطة للعودة إلى المدينة مباغتين، بعد أن يكون حُماؤها قد عادوا إلى بيوتهم، وعاد حراس بيت الخليفة إلى بيوتهم وأهليهم، ظانين أن جيوش الثائرين قد عادوا إلى بلدانهم.

واتفق صانعو المكيدة مع بعض المنافقين في المدينة، على أن يحملوه رسالة مزورة كتبها، موهوبة بختم الخليفة عثمان، ويحملها معه متظاهراً بأنه سائر باتجاه مصر، وأن يتعرض من حين لآخر للقادمين من مصر وهم قافلون، حتى لا يُشعروا بجمهور الثائرين بأن العودة إلى المدينة خطة مدبرة في المدينة.

واتفقوا مع القادمين من الكوفة والبصرة على أن يأتوا المدينة مباغتين في وقت قدروه كافياً لدخولها مجتمعين، بعد أن يكون حماؤها وحماة الخليفة قد رجعوا إلى مساكنهم.

وبينما ركب المصريون عائدون وفق ما حصل عليه الاتفاق مع الخليفة، إذا براكب يعترض لهم ويفارقهم، ثم يرجع لاعتراضهم، ثم يفارقهم.

عندئذ استوقفه قادة الركب ليدو أنه أمر طبعي غير مدبر، وقالوا له: ما لك؟

قال: أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر.

ففتشوه، فعثروا معه على كتاب من عثمان وعليه خاتمه، وفيه الأمر بصلبهم، أو قتلهم، أو قطع أيديهم وأرجلهم.

فأعلنوه على الركب، واستأثروا به غضبهم، فارتدوا راجعين شطر المدينة.

وكرر أيضاً القادمون من البصرة والكوفة دون اتخاذ عذرٍ مشابه، لأن جميع أفرادهم ضالعون في الخيانة، بخلاف القادمين من مصر، فإن فيهم من هو مغرر به. ودخلوا المدينة مباغتين يكبرون، وعسكروا فيها، وصلى عثمان بالناس آيماً، ولزم الناس بيوتهم، ثم أحاط جمع من الثائرين بدار عثمان محاصرين، ونادوا في المدينة: من كف يده فهو آمن.

فأتاهم الناس فكلموهم وفيهم علي وطلحة والزبير رضي الله عنهم، وقال لهم علي: ما ردكم بعد أن رجعتم عن رأيكم وانصرفتكم.

قال المصريون: وجدنا مع رجل البريد كتاباً بقتلنا.

وسأل طلحة البصريين، والزبير الكوفيين، فقالوا: نحن ننصر إخواننا، وقال المصريون لعلي: ألم تر إلى عدو الله كتب فينا بكذا وكذا؟ وإن الله قد أحل دمه، فقم معنا إليه.

قال علي: والله لا أقوم معكم.

قالوا له: فلم كتبت إلينا؟

قال علي: والله ما كتبت إليكم كتاباً.

فنظر بعضهم إلى بعض قائلين: ألهذا تقاتلون؟ أولهذا تغضبون؟

وقال علي رضي الله عنه: يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة، كيف علمتم بما لقي أهل مصر، وقد سبتم مراحل، ثم طويتم نحونا، هذا والله أمر أبرم في المدينة.

قالوا: فضعوها على ما شئتم، لا حاجة لنا في هذا الرجل، فليعتزلنا.

وانطلقوا إلى عثمان، فقالوا: كتبت فينا بكذا وكذا.

فقال رضي الله عنه: إنهما اثنتان:

* أن يُقيموا رجلين من المسلمين (أي: شاهدين على أنه كاتب هذا الكتاب الذي يدعون).

* أو يعني بالله الذي لا إله إلا هو، ما كتبت، ولا أُمليت ولا علمت، وقد

يُكْتَبُ الْكِتَابُ عَلَى لِسَانِ الرَّجُلِ، وَيُنْقَشُ الْخَاتَمُ عَلَى الْخَاتَمِ.

قالوا: قد أحلّ الله ذلك، ونقضت العهد والميثاق، وحصره في داره رضي الله عنه محاصرة شديدة ليعتزل ويخلع نفسه.

وجاء علي وأهل بيته، وطلحة، والزبير مع آبائهم، للدفاع عنه، فقال عثمان مخاطباً لهم:

يا أهل المدينة، إني استودعكم الله، وأسأله أن يُخَيِّنَ عَلَيْكُمْ الْخِلَافَةَ مِنْ بَعْدِي، إِنِّي وَاللَّهِ لَا أَذْجُلُ عَلَيَّ أَحَدًا بَعْدَ يَوْمِي هَذَا حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي قَضَائِهِ.

ولاذعن هؤلاء وراء بابي غير معطيهم شيئاً يتخذونه عليكم ذخلاً في دين الله، حتى يكون الله عز وجل الصانع في ذلك ما أحب.

وأمر عثمان أهل المدينة بالرجوع، وأقسم عليهم، فرجعوا إلا الحسن بن علي، ومحمد بن طلحة، وعبد الله بن الزبير، وأشال هؤلاء، فكان هؤلاء عند باب دار عثمان، عن أمر آبائهم، وثاب إليهم ناسٌ كثير.

ولزم الخليفة عثمان داره.

واستمر الحصار اثنين وعشرين يوماً، ثم أخرج المحاصرون باب داره، وفي الدار عذو غير قليل من حراس عثمان، فيهم عبد الله بن الزبير، ومروان بن الحكم، فقالوا لعثمان: ائذن لنا بقتالهم.

فقال عثمان: إن رسول الله ﷺ عهد إليّ عهداً، فانا صابرٌ عليه، وإن القوم لم يحرقوا باب الدار إلا وهم يطلبون ما هو أعظم منه، فأخرج على رجلٍ يستقتل ويقاتل.

فلم يأذن لهم بأن يقاتلوا دفاعاً عنه، وخرج الناس كلهم.

ودعا بالمصحف يقرأ فيه، والحسن بن عليّ عنده، فقال له: إن أباك الآن لفي أمرٍ عظيم، فأقسمت عليك لما خرجت.

وأمر عثمان أبا كرب - رجلاً من همدان - وآخر من الأنصار أن يقوما على باب بيت المال، وليس فيه إلا غرارتان من ورق.

وأطفئت النار، وناول ابن الزبير ومروان بعض المحاصرين، وتوعدهما محمد بن أبي بكر، وكان من ضمن الثائرين المحاصرين المغرر بهم.

واقترح بعض المحاصرين الدار، ودخلوا على عثمان رضي الله عنه، فوجدوه يقرأ في المصحف، وإنهالوا عليه يضربونه، وهو صابر محتسب، ووجأه بعضهم في ترقوته فسال دمه على المصحف، وهم يهابون أن يقتلوه، وكان شيخاً مُسنّاً، وعُثِي عليه، ودخل آخرون، فلما رأوه مغشياً عليه، جروا برجله، فصاحت زوجته نائلة، وصاحت بناته، وجاء كنانة بن بشر التجيسي، قائد أحد الفرق القادمة من مصر، مخترباً سيفه، يريد أن يجهز على الخليفة، فحاولت زوجة الخليفة «نائلة» أن تقيّه، فقطع التجيسي يدها، ووضع سيفه في صدر عثمان وأتكا عليه، فقتله قبل غروب الشمس.

وقد اشترك قادة الفرق المصرية في ضربه وجرحه قبل قتله.

وتمت المؤامرة الخبيثة، متابعاً نسج خيوطها المناقِق اليهودي «عبد الله بن سبأ» وحقّق أهدافه الرامية إلى شلّ عصا وحدة الأمة الإسلامية، وتقاتلهم، وتمزيق صفوفهم.

ونشأت فرق الشيعة أصحاب مذاهب دينية، بعد أن كانت اتجاهاتهم نزعات سياسية، ودخلت مذاهبهم هذه في صلب العقائد الدينية تحريفاً لا أصل له. وظهرت بعد ذلك فرق الشيعة بألوانها الأبيض الصافي، والرّمادي، والبني، والأسود، واستحكم النفاق في الغلاة، وأصاب منه من دونهم على مقادير ألوانهم.

* * *

(٥)

موقف علي رضي الله عنه وأهل البيت النبوي
من عبد الله بن سبأ والسبئية وغلاة الشيعة

(١) لقد كان موقف سيدنا علي رضي الله عنه من السببيين موقفاً شديداً حازماً، إنّه لما استجوبهم عن عقيدتهم فيه، وعلم أنهم يؤلّهونه، استأبهم، فلما لم يتوبوا أمر

بقتلهم تحريقاً بالنار، وتمّ تنفيذ هذا القتل في الذين أُدينوا بهذه المقالة، وبقي آخرون منهم مستترين، وأحكم إمامهم المكيذة، إذ أوهمهم أن علياً أحرق من أفضى وأعلن ألوهيته، وكان عليهم أن يبقوا الأمر سرّاً، وأن ينجّوا إلى التقيّة، وأن يتظاهروا بغير ما يعتقدون فيه.

أما إمامهم اليهودي المنافق «عبد الله بن سبأ» فالصحيح من الروايات أن علياً رضي الله عنه لم يقتله، بل نفاه إلى ساباط المدائن، والذي يظهر أن ابن سبأ بعد أن أظهر مقالته لسيدنا علي بن غيبة استدراجه لإفساد الدين، ورأى أن علياً لا يمكن استدراجه، وأنه إذا أصرّ على مقالته الحقّه بمن قتله تحريقاً، وبذلك يتمّ وأدّ المكيذة التي دبرها ضدّ الإسلام والمسلمين، فراوغ وتراجع عن مقالاته التي تُوجب قتله، فاكْتَفَى سِدْنَا عَلِي بنفبه ولم يقتله، كما سبق بيان هذا.

(٢) وكان لسيدنا علي رضي الله عنه موقفٌ جليّ واضحٌ بالنسبة إلى الشيعين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، تكشفه خطبته خطبها في الناس، أعلن فيها رأيه في الصاحبين الجليلين.

روى زيد بن وهب أن سُوَيْد بن غفلة، دخل على علي رضي الله عنه في إمارته (وكان من خاصته وكبار أصحابه) فقال له: يا أمير المؤمنين مررت بنفر من الشيعة يتناولون أبا بكر وعمر بغير الذي هما من الأئمة له أهل، ويرون أنك تضمّر لهما على مثل ما أعلنوا، وذكر له أن من هؤلاء النفر «عبد الله بن سبأ».

فقال سيدنا علي رضي الله عنه: «مالي ولهذا الخبيث الأسود» ثم قال: «مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ أَضْمِرَ لَهُمَا إِلَّا الْحَسَنَ الْجَمِيلَ».

ثم أرسل علي رضي الله عنه إلى عبد الله بن سبأ فسيّره إلى المدائن، وقال: لا يساكنني في بلدٍ أبداً.

وجاء في رواية الهمداني في كتابه «تثبيت دلائل النبوة» أن علياً رضي الله عنه قال: أعوذ بالله، أعوذ بالله، أن أضمرَ لهما إلا الذي أتمنى المُضِيّ عليه، لعنَ الله من

أَضْمَرَ لُهُمَا إِلَّا الْحَسَنَ الْجَمِيلَ، أَخَوَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وصاحباه ووزيراه، رحمة الله عليهما.

ثُمَّ نَهَضَ دَامِعُ الْعَيْنِ يَبْكِي، قَابِضاً عَلَى يَدِ سُؤِيدٍ، حَتَّى دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَصَعِدَ الْمَنْبِرَ، فَجَلَسَ عَلَيْهِ مَتَمَكِّناً، قَابِضاً عَلَى لِحْيَتِهِ وَهِيَ بِيضَاءُ، حَتَّى اجْتَمَعَ النَّاسُ.

ثُمَّ قَامَ فَتَشْهَدُ بِخُطْبَةٍ مُوجِزَةٍ بَلِيغَةٍ، ثُمَّ قَالَ:

«مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَذْكُرُونَ سَيِّدِي قَرِيشَ، وَأَبَوِي الْمُسْلِمِينَ، بِمَا أَنَا عَنْهُ مُتَنَزِّهٌ، وَمَا قَالُوا بِرِيءٍ، وَعَلَى مَا قَالُوا مَعَاقِبٌ.

أَمَّا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسْمَةَ، لَا يُحِبُّهُمَا إِلَّا مُؤْمِنٌ نَقِيٌّ، وَلَا يَبْغِضُهُمَا إِلَّا فَاجِرٌ رَدِيءٌ، صُجِبَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى الصُّدْقِ وَالْوَفَاءِ، يَا مُرَّانَ وَيُنْهَيَانِ، وَيُقَضِّيَانِ وَيُعَاقِبَانِ، فَمَا يُجَاوِزَانِ فِيمَا يَصْنَعَانِ رَأْيَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَأَنَّهُ لَا يَرَى مِثْلَ رَأْيِهِمَا رَأِياً، وَلَا يُحِبُّ كَحُبِّهِمَا أَحَدًا، مَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَنْهُمَا رَاضٍ، وَمَضَى الْمُؤْمِنُونَ عَنْهُمَا رَاضُونَ.

أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا بَكْرَ عَلَى صَلَاةِ الْمُؤْمِنِينَ، فَصَلَّى بِهِمْ تِلْكَ الْأَيَّامَ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا قَبِضَ اللَّهُ نَبِيَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَاخْتَارَ لَهُ مَا عِنْدَهُ، وَمَضَى مَفْقُودًا، وَلَآهَ الْمُؤْمِنُونَ ذَلِكَ، وَفُوضُوا إِلَيْهِ الزَّكَاةَ لِأَنَّهُمَا مَقْرُونَتَانِ، ثُمَّ أَعْطَوْهُ الْبَيْعَةَ طَائِعِينَ غَيْرَ مُكْرَهِينَ.

أَنَا أَوَّلُ مَنْ سَنَّ لَهُ ذَلِكَ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَهُوَ لَذَلِكَ كَارَهُ، يَتَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَعْضَنَا كَفَاهُ، فَكَانَ وَاللَّهِ خَيْرَ مَنْ بَقِيَ رَافَةً، وَأَرْحَمَهُ رَحْمَةً، وَأَبْيَسَهُ زَرْعاً، وَأَقْدَمَهُ سِلْماً وَإِسْلَاماً.

شَبَّهُهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمِيكَائِيلَ رَافَةً وَرَحْمَةً، وَبِإِبْرَاهِيمَ عَفْواً وَوَقَاراً، فَسَازَ فِينَا سِيرَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ.

ثُمَّ وَلَّى الْأَمْرَ نَعْلَهُ عُمَرَ، وَاسْتَأْمَرَ فِي ذَلِكَ الْمُسْلِمِينَ، فَمِنْهُمْ مَنْ رَضِيَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَرِهَ، فَلَمْ يَفَارِقِ الدُّنْيَا حَتَّى رَضِيَ بِهِ مَنْ كَانَ كَرِهَهُ، وَأَقَامَ الْأَمْرَ عَلَى مَنَاجِ النُّبِيِّ ﷺ، يَتَّبِعُ أَثَرَهُمَا كَاتِبَاعِ الْفَصِيلِ أَثَرُ أُمِّهِ، وَكَانَ وَاللَّهِ رَفِيقاً رَحِيماً لضعفاء

المسلمين، وبالمؤمنين عوناً وناصراً على الظالمين، لا تأخذه في الله لومة لائم، ضرب الله بالحق على لسانه، وجعل الصدق من شأنه، حتى إن كنا لنظن أن ملكاً ينطق على لسانه، أعز الله بإسلامه الإسلام، وجعل هجرته للذين قواماً، ألقى الله له في قلوب المؤمنين المحبة، وفي قلوب المشركين المنافقين الرهبة.

شبهه رسول الله ﷺ بجبريل، فبطناً غليظاً على الأعداء، وبسوحاً خفياً ومغناطاً على الكفار، والضراء على طاعة الله أثر عنده من السراء على معصية الله.

فمن لكم بمثلهما رحمة الله عليهما، ورزقنا المضي على سبيلهما، فإنه لا يبلغ مبلغهما إلا بالحب لهما، واتباع آثارهما، فمن أحبني فليحبهما، ومن لم يحبهما فقد ابغضني، وأنا منه بريء.

ولو كنت تقدمت إليكم في أمرهما^(١)، لعاقبت على هذا أشد العقوبة، فمن أوتيت به بعد هذا اليوم فإنه عليه ما على المفتري، ألا وخير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر، ثم الله أعلم بالخير أين هو؟

أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم^(٢).

وذكر «النوبختي» الشيعي أن علياً عليه السلام قد هم أن يسطش بمن يتكلم في أبي بكر وعمر.

وقال علي رضي الله عنه في عثمان: «آبها الناس، إياكم والغلو في عثمان، تقولون حرق المصاحف، والله ما حرقها إلا عن ملا من أصحاب محمد ﷺ، ولو وليت مثل ما ولي لفعلت مثل الذي فعل»^(٣).

(٣) نقلت كتب الشيعة عن أهل بيت سيدنا علي رضي الله عنه أنهم اشتكوا من الكذابين الذين يكذبون عليهم من مشاييعهم، وهذا يدل على أن هؤلاء المشاييعين

(١) أي: لو سبق لي أن حذرتم من التكلم فيهما بسوء لعاقبت على ما بلغتني أشد العقوبة.

(٢) تثبت دلائل النبوة للهمداني ٥٤٦/٢ - ٥٤٨ ط بيروت عن إحسان إلهي ظهير في كتابه «الشيعة والتشيع» وقال: وأورد هذه الخطبة كثيرون من الشيعة والسنة.

(٣) عن ابن كثير في (البداية والنهاية) ٢٣٦/٧ أخذاً من كتاب «عبد الله بن سبأ» للشيخ المفيد.

الكذابين مُنافقون نظاهروا بمشايعة عليٍّ وأهل بيته لهدم الإسلام وتمزيق المسلمين، وكان إمامهم في ذلك وشيطانهم الأكبر عبد الله بن سبأ، الملقب بابن السوداء.

روى الكشي في كتابه المعروف «رجال الكشي»^(١) وهو من علماء الشيعة، عن ابن سنان، قال أبو عبد الله (ع):

«إنا أهل بيت صادقون، لا نخلو من كذاب يكذب علينا، فيسقط صدقتنا يكذب به علينا عند الناس.

كان رسول الله ﷺ أصدق البرية لهجة، وكان مسليمة يكذب عليه.

وكان أمير المؤمنين (ع) أصدق من برأ الله من بعد رسول الله، وكان الذي يكذب عليه عبد الله بن سبأ لعنه الله.

وكان أبو عبد الله الحسين بن علي (ع) قد ابتلي بالمختار. ثم ذكر أبو عبد الله الحارث الشامي ونان، فقال: كانا يكذبان على علي بن الحسين (ع).

ثم ذكر المغيرة بن سبيد، وبريغأ، والسري، وأبا الخطاب، ومعمراً، ويشارأ الأشعري، وحزمة اليزيدي، وصائداً النهدي، فقال: لعنهم الله.

إنا لا نخلو من كذاب يكذب علينا، كفانا الله مؤنة كل كذاب، وأذاقهم الله حر الحديد.

أقول: ومما يؤسف له أن معظم شيعة علي رضي الله عنه وآل بيته اتخذوا الكذب ديناً لهم، باسم «التقية» وأتبع برءاؤهم في هذا — وهم لا يشعرون — دسائس المنافق اليهودي «عبد الله بن سبأ» مع أنهم يتبرؤون منه، باستثناء الغلاة الكفرة المنافقين.

ومما يؤسف له أن كثيراً من عقائد الشيعة مأخوذة من المقالات التي دسها عبد الله بن سبأ بين أتباعه، فهو الذي جاء بأفكار الوصية والرجعة، والولاية، والإمامة، والتناسخ، والبداء، وغيرها.



المقالة الثالثة

المنافق اليهودي «أو المجوسي» ميمون بن ديسان القداح وخبائثه الخطيرة في تاريخ المسلمين

كانت الفرقة الخطائية المنافقة والمتظاهرة بمشايعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومشايعة آل بيته، والتي أسس أفكارها «أبو الخطاب الأجدع» قائمة على الإباحية المطلقة، وأن الله تعالى يحل في أبدان الرسل والأئمة، وأخيراً حل فيه، وزعم أن كل شيء فرضه الله في القرآن أو حرّمه أو أحله فإنما هو رمز عن أسماء رجال، فما حرّم من أنصاب وأزلام وخمر وميسر هي رموز عن أشخاص كأبي بكر وعمر وعثمان ونحو هؤلاء.

وكان هذا اللعين أبو الخطاب من أصحاب جعفر الصادق، والروايات عنه، وأدعى أنه جعله قيمه ووصيه من بعده، ونسب أقواله التي روجها بين أهل النفاق الذين تأثروا به إلى جعفر الصادق.

ولما علم جعفر بأمره أعلن تبرؤه منه ومن أقواله، ولغنه على رؤوس الأشهاد، وقال بشأنه وبشأن الذين قالوا بمقالته: هم شر من اليهود والنصارى والمجوس والذين أشركوا (كما ذكرت كتب الشيعة).

وعلى أسس أفكار «أبي الخطاب» بنى اللعين الآخر «ميمون القداح» أفكاره التي أشاعها وأذاعها بين أشياعه.

ومن ثم ظهرت الإسماعيلية والحركة القرمطية بأفكارها التي هي امتداد للخطائية على ما ترجّح لدى كثير من الباحثين.

وبقي «ميمون القداح» في حاشية «جعفر الصادق بن محمد الباقر» تلميذاً

مجتهداً وخادماً مطيعاً، ولم يجاهر بمكيده إلا بعد حين، واستطاع بإتقانه صناعة النفاق أن يكون هو وابنه عبد الله كليين لـ «إسماعيل بن جعفر» ثم لولده «محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق».

واستولى «ميمون القذاح» على الدَّعوة الإسماعيلية المنسوبة إلى «إسماعيل بن جعفر الصادق» بعد أيام إسماعيل.

ومن خلال الروايات المتعددة التي رواها مؤرخو الشيعة ومؤرخو أهل السنة ومدونو مذاهب الفرق، غير المتطابقة في عدة عناصر منها، يستطيع الباحث أن يستخلص الاتفاق على أنَّ «سعيداً» أحد أحفاد «ميمون القذاح» هو الذي ادَّعى أنَّه ابن الأئمة المستورين من ذُرِّيَّة «إسماعيل بن جعفر الصادق» وهو الذي خرج إلى مصر، فادَّعى أنَّه علويُّ فاطمي، وسَمَّى نفسه «عَبْدَ اللَّهِ» وبلغ خَبْرُه المعتضد فأمَر بالقبض عليه. فهرب إلى المغرب، وكان له دعاة فيها يدعون إليه على أنه المهدي، وشاع بين الناس في المغرب أنَّه علويُّ فاطمي من ولد إسماعيل بن جعفر الصادق، واستطاع بهذه القرية أن يكون له سلطان في المغرب على الناس، لما في قلوبهم من عطف وتمجيد لهذه الأسرة.

وخفي أمرُ مذهبه الفاسد على الناس، إلا من كَشَفَ له حقيقة آرائه من خاصته، كالإلحاد في الله، والطمع على جميع الأنبياء، وإباحة أنفُس أممهم وأموالهم ونسائهم، إلى آخر المقالات الكافرة الفاجرة الباطنية.

وادَّعى في المغرب أنَّه من نواحي الأهواز، ومن بُنائِها، ورؤسائها، وأن ضياعهم يَكُونُ الأهواز كثيرة، وأنَّه هرب هو وأبوه من جَوْرِ غَمْرُو بن اللَّيْث.

وأسس في المغرب دولةً عرفت بالدولة الفاطمية سنة (٢٩٧هـ) واستمرَّ حكم عبيد الله هذا في المغرب إلى سنة (٣٢٢هـ) وسيأتي إن شاء الله بعض تفصيل للدولة الفاطمية وخبائثها.

بهذه المقدمة ظهر لنا أنَّ الحركة الباطنية القرطبية هي امتداد لسلسلة المكر اليهودي المقرون بالحقن المجوسي، ضدَّ الإسلام والمسلمين، إذ لم نكد نخبر قليلاً جذوة الفتنة السبئية، التي تولَّى تأسيسها، وزرع بزورها، وتابع حركتها، المناق

اليهودي «عبد الله بن سبأ» الملقب بابن السوداء، ونشط في نشرها المنافقون من الأشرار، وفعلت الأفاعيل الشنعاء في جسم الأمة الإسلامية، كما سبق بيانه، حتى أعدّ اليهود والمجوس مكرًا جديدًا مبنياً على قواعد المكر السابق وبقايا أبيته.

هذا المكر الجديد فاده وتولّى تأسيسه وزرع بُزوره الشوكية الشيطانية الخبيثة يهودي آخر على الأرجح، نظاهر بالإسلام منافقاً، أو مجوسي، يقال له: «ميمون بن ديسان القداح» كان يُبرّ اليهودية فيما ترجّح لدي، أو يُبرّ المجوسية، ويظهر الإسلام نفاقاً، فنصب هذا الخبيث للمسلمين الحباثل، ونَغَى بهم الغوائل.

كان «ميمون بن ديسان القداح» على ما يذكر بعض المحققين يهودياً متعصباً لليهودية، قيل وهو من ولد الشلعلع من يهود، وكان جبراً من احبارهم، وعالمًا بالفلسفة والتنجيم، ومطلعاً على أصول المذاهب والأديان، وكان صائغاً في السلمية^(١)، على ما ذكره العالم الفقيه محمد بن مالك اليماني من فقهاء اليمن، في أواسط المئة الخامسة للهجرة، وذلك في كتابه: «كشف أسرار الباطنية».

ويظهر أنّ قيادات يهودية دفعت هذا الرجل إلى تدبير مكيدته لهدم الإسلام، وتمزيق المسلمين، إذ توسّمت فيه الكفاية للقيام بهذا الشرّ المستطير، والمكر الخطير، وذلك لما يتمتع به من قدرات مكرٍ وخُبثٍ وحيلة، ومعرفة بأصول المذاهب والأديان، وتعاون مع مجوس حاقدين من فارس، وقطاع طرق من الأشرار.

فحمل هذا الرجل مهمة الخبث التي وُكِّلَتْ إليه، فتظاهر بالإسلام، وسلك السُّبُل التي سلكها من قبل سلفه ابن سبأ.

واندس «ميمون» في شيعة «إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه» وأخذ يتظاهر بخدمتهم وتأيدهم ومحبتهم، وقلبه يغلي بالحق والعداوة والبغضاء للإسلام، ولرسول الله ﷺ، ولآل بيته الطاهرين، ولسائر المسلمين، ولكنه لم يجد سبيلاً يدخل به على المسلمين

(١) السلمية: بلدة من بلاد الشام.

حتى يَرُدَّهُمْ عن دينهم، ويُخْرِجَهُمْ منه إِلَى الإِلْحَادِ وَالْإِبَاحِيَّةِ الْعَامَّةِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، أَمْتَكَّرَ مِنْ تَنْبِيهِ الدَّعْوَةِ إِلَى أَهْلِ بَيْتِ الرَّسُولِ ﷺ.

وانطلق في دعوته هذه، وانخدع به فريقٌ من الناس، نظراً إلى عاطفة المسلمين نحو آل البيت، التي شحتهم بها الأوضاع السياسية المختلفة، وهي الأوضاع التي لم تَسْمَحْ لَهُمْ بِأَنْ يَصِلُوا إِلَى الْحُكْمِ.

لكنه مع تَنْبِيهِ الدَّعْوَةِ إِلَى أَهْلِ بَيْتِ الرَّسُولِ مِنْ أَوْلَادِ عَلِيٍّ كَانَ يَخْشَى أَنْ يَصِلُوا فَعَلًا إِلَى الْحُكْمِ، فَيَفْعَلُوا بِهِ وَيَمْكِدَتَهُ ضِدَّ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، مَا كَانَ قَدْ فَعَلَهُ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ قَبْلُ فِي سَلَفِهِ «عَبْدُ اللَّهِ بْنِ سَبَأٍ» وَفِي السَّبْئَةِ، فَذَبَرَ مَكِيدَةَ إِخْفَاءِ حَقِيقَةِ غَايَتِهِ، وَأَوْصَى ثُرَيْتَهُ بِأَنْ يَلْتَحِقَ بِبَعْضِ أَحْفَادِهِ مِنْ بَعْلِهِ بِنَسَبِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ، وَيَدَّعِي أَنَّهُ مِنْ أَحْفَادِهِ، مَتَى سَنَحَتَ لَهُ الْفُرْصَةُ لِذَلِكَ، لِيُضْمِنَ الْيَهُودُ بِهَذَا مَتَابَعَةَ مَكِيدَتِهِمْ ضِدَّ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، مُسْتَخْدِمِينَ الدَّرَجَةَ الْيَهُودِيَّةَ الْخَبِيثَةَ، فِي سَرَقَةِ النَّسَبِ، وَادَّعَاءِ حَقِّهِمْ فِي الْإِمَامَةِ.

وظهر لهذا اليهودي المنافق حفيد خبيث شيطان اسمه «سعيد» وكان بعيداً عن أنظار المراقبين المتبئين للأنساب.

كان لإسماعيل بن جعفر الصادق وَلَدٌ اسمه «محمد» فَبِتَّ «مِيمُونُ بْنُ دِيصَانَ الْقَدَاحِ» بِسَرًّا أَنَّ «مُحَمَّدَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ» خَلَفَ أَوْلَاداً سَتَرَهُمْ عَنْ خُصُومِ آلِ الْبَيْتِ، فَهَمَّ الْأَثَمَةُ الْمُسْتَوْرُونَ، وَرَوَّجَ الْمُنَافِقُونَ سَرًّا هَذِهِ الْفَرِيَّةَ، وَقَبِلَهَا الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ وَكَتَمُوهَا.

وتذكر الروايات أَنَّ «مُحَمَّدَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ» مَاتَ بِحَيَاةِ أَبِيهِ إِسْمَاعِيلَ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُ عَقَبٌ مِنْ ثُرَيْتِهِ، وَأَنَّ إِسْمَاعِيلَ مَاتَ بِحَيَاةِ أَبِيهِ جَعْفَرٍ.

وظهر «سعيد» حفيد «مِيمُونِ الْقَدَاحِ» مُدَّعِيًا أَنَّهُ ابْنُ الْأَثَمَةِ الْمُسْتَوْرِينَ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا، مِنْ وَلَدِ «مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ» وَسَمَّى نَفْسَهُ «عُبَيْدَ اللَّهِ» وَرَوَّجَ أَنْصَارُ الْقَدَاحِ أَنَّهُ: عُبَيْدُ اللَّهِ ابْنُ الْأَثَمَةِ الْمُسْتَوْرِينَ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا مِنْ وَلَدِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ، وَادَّعَوْا لِعُبَيْدِ اللَّهِ هَذَا الْإِمَامَةَ بَعْدَ الْأَثَمَةِ الْمُسْتَوْرِينَ.

وعُلماء الأنساب يُبْتَنُونَ أَنَّ «إسماعيل بن جعفر الصادق» قد مات في حياة أبيه «جعفر الصادق» وأن «محمدًا بن إسماعيل» لم يكن له عقب، فثبت من غير مربة أَنَّ هؤلاء الذين ادَّعيت لهم الإمامة، من «عبيد الله» فمن بعده من ذُرِّيَّتِهِ، هم من أولاد اليهودي أو المجوسي المناق «ميمون بن ديصان القداح» وقد أَحْكَمَ هؤلاء بخبث شديد إخفاء أنفُسِهِمْ، وسَتَرُ نسبهم الحقيقي، لئَلَّيْهُمْ مَكِيدَتُهُمْ التي دَبَّرُوهَا ضِدَّ الإسلام، وضدَّ المسلمين.

ومِمَّا سَجَلَهُ التاريخ شهادة لَجَلَةٍ من العلماء أثبتوا فيها أَنَّ ما ادَّعاه هؤلاء من الانتساب إلى ولد علي بن أبي طالب زورٌ وباطل، وأنهم زنادقة مُلْجِدُونَ، ولِلإسلام جاحدون، أباحوا الفروج، وأحلُّوا الخمر، وسبُّوا الأنبياء، وادَّعَوْا الرُّبُوبِيَّةَ.

هذه الشهادة قد كتبت في محضر وقَّع عليه العلماء المشار إليهم في شهر ربيع الأول، من سنة اثنتين وأربعمائة للهجرة، وكان الموقعون من كبار علماء السُنَّة، وكبار علماء الشيعة.

ومن العلماء الَّذِينَ أثبتوا توقيعاتهم على محضر هذه الشهادة: «الشريف الرضي» - «الشريف المرتضى» (وهما من كبار علماء الشيعة) - أبو حامد الإسفراييني - أبو عبد الله الصيمري - أبو الحسين القدوري - أبو جعفر النسفي - (وهؤلاء من كبار علماء السُنَّة) وغيرهم من كبار العلماء الأئمة.

* * *

موجز تحركاته الشيطانية الخبيثة

أخذ «ميمون بن ديصان القداح» بضرب على الأوتار نفسها التي كان قد ضرب عليها «عبد الله بن سبأ» من قبل، وهي تمجيد الأسرة العلوية، وأحقيتها بإمامة المسلمين، مع إدخالات وتلفيقات جديدة تنسف الإسلام كُلَّهُ، في أصوله وفروعه وجميع تطبيقاته، ولا تُبْقِي منه إِلَّا الاسم المجرد من آيَةٍ حقيقة من حقائق الإسلام، الذي أنزله الله على نبيِّه ورَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

ويظهر «ميمون بن ديصان القداح» أخذت الحركة اليهودية المجوسية المقنعة بأقنعة النفاق أسلوباً جديداً، لاجتثاث الإسلام من جذوره، إذ اتَّسَمَتْ بِسِمَاتِ

السَّريَّة، المتمتعة بأذهي وأمكر أشكال التنظيم السَّري، وأخذت هذه التنظيمات تزداد دِقَّة وعمقاً وحذراً، كلُّما اشتدَّت عليها الأزمات والمراقبات، وضرمتها التجارب. وأخذت تنسج لدعويتها مبادئ تتصَّيد بعضها من تعاليم الأديان المختلفة، والفلسفات المتنوعة، وتُصوغها بعبارات الفلسفة اليونانية، وتضع لها قواعد جدلية يلتزم بها المتسبون إليها التزاماً تاماً.

وتظاهر «ميمون بن ديسان القداح» بقبول نصوص الشريعة الإسلامية، من قرآن وسُنة، وبقبول فروض الإسلام وواجباته، لكنَّهُ أخذ يجعل لكل آية تفسيراً، ولكل حديث نبوي تأويلًا من اختراعاته واختراعات أشياعه المنافقين.

وأخذ هو والمنافقون أمثاله يُوسِّسون لاتباع تنظيمهم الجديد بأنَّ كلَّ فرض من فُرُوض الإسلام، وكلُّ واجب من واجباته وأدب من آدابه وتعليم من تعاليمه، هو رمزٌ عن أمرٍ آخر غير الذي يفهمه القُشُوريون، الذين يأخذون بظواهر الألفاظ والأعمال.

وصار يزعم للمنخدعين به أنَّ هذه التفسيرات والتأويلات والمعاني المرموز إليها، هي المعاني الباطنية لهذه النصوص، ولهذه الفروض والواجبات والآداب والتعاليم، ولكنَّ علماء الظاهر يتعلَّقون بالقُشُور، ويتركوْنَ اللَّبَّ.

وحينما ينتقل إلى التفسيرات والتأويلات والمعاني الباطنة، يتلاعب فيها كما يشاء له هوى التضليل في العقيدة، وفي الشريعة، وفي جميع المفاهيم الإسلامية العظيمة.

وبعد أن أحكم «ميمون بن ديسان القداح» مكيدته، انتقل هو وأهله وبعض أشياعه إلى الكوفة فأقام بها مدة يُدبِّر فيها مكيدته الشيطانية، ويظهر أنه قد اختار الكوفة، لأنَّ فيها جذوراً سبئية، ممَّا كان قد مكر به من قَبْلُ «عبد الله بن سبأ» وكان ظهوره في الكوفة سنة (٢٧٦) للهجرة النبوية.

واجتمع «ميمون القداح» في الكوفة برجل اسمه «حمدان قرمط» واتفقا على أن يضعا لها مبادئ اعتقادية إلحادية، تُجَلِّ للمتسبين إليها كلَّ ما يشتهون من قتل ومال ونساء وغير ذلك، واتفقا على وجوب سنِّ هذه المبادئ بأغشية من التناقض، وعلى أن يجعلوا من ضمن هذه المبادئ أنَّ المسلمين كفرٌ يجب قتلهم أينما وجَدُوا.

فوضعا أسس الضلالة التي أرادها، وعَمَلًا بِسَرٍّ في الدعوة إليها، ثم استجاب إليهما تسعة رهطٍ انطلقوا يُفْسِدُونَ في الأرض باسم الدعوة، مُتَسَتِّرِينَ بالدعوة إلى الأئمة من أولاد عليّ.

ويظهر أنه كان يُهَيِّئ ما يلزم من خطط وتدابير مكررات حتى يتسنى لبعض أحفاده أن يدعي أنه من أحفاد إسماعيل بن جعفر الصادق، لتصح له المطالبة بالإمامة وفق عقيدة شيعة عليّ وذريته الأئمة من بعده.

وانطلق دعاة منظّمته السريّة الجديدة، ينشرون أفكارها بين الذين يستجيبون لهم، ويدخلون في خلاياهم.

وآزر هذه المكيّة اليهودية الفارسيّة الخبيثة عناصرٌ كثيرة شريرة خافدة، وفريق من الفلاسفة الإباحيين، وآخرون من الذين اكتسح الإسلام ممالكهم، وقوض غروش ملوكهم، وأزال عن رقاب عباد الله سلطانهم، واستغل الشياطين الخلافات السياسية على شخص خليفة المسلمين، وارتدّوا مُسَوِّح الحزن الكاذب على مقتل مظلوم طاهر من ذرية آل البيت الأطهار.

قال المؤرّخ الديلميّ مُتَحَدِّثًا عن المكيّة الباطنيّة على العقائد الإسلامية، في كتابه «قواعد عقائد آل محمّد الباطنيّة»:

«وَاتَّفَقَ أَهْلُ الْمَقَالَاتِ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ أَسَّسَ هَذَا الْمَذْهَبَ الْمَشْهُومَ - بِعَنِي مَذْهَبُ الْبَاطِنِيَّةِ - قَوْمٌ مِنْ أَوْلَادِ الْمَجُوسِ وَبَقَايَا الْخُرَمِيَّةِ (وَهُمْ طَائِفَةٌ إِبَاحِيَّةٌ مِنَ الْمَجُوسِ) وَالْفَلَاسِفَةِ وَالْيَهُودِ، فَجَمَعَهُمْ نَادٍ وَاشْتَوَرُوا، وَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا غَلَبَ عَلَيْنَا، وَأَبْطَلَ دِينَنَا، وَاتَّفَقَ لَهُ أَغْوَانٌ نَصَرُوا مَذْهَبَهُ، وَلَا مَطْمَعٌ لَنَا فِي نَزْعِ مَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ الْمَمْلَكَةِ بِالسَّيْفِ وَالْمَحَارِبَةِ، لِقُوَّةِ شَوْكَتِهِمْ، وَكَثْرَةِ جُنُودِهِمْ، وَطَبَقُوا الْبَرَّ وَالْبَحْرَ، وَكَذَلِكَ لَا مَطْمَعَ لَنَا فِيهِمْ مِنْ طَرِيقِ الْمَنَازِرَةِ، لَمَّا فِيهِمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْفُضَلَاءِ وَالتَّكَلِّمِينَ الْمُحَقِّقِينَ، وَكَثْرَةِ كُتُبِهِمْ وَتَصَانِيفِهِمْ، وَاتَّفَقُوا عَلَى وَضْعِ حِيلَةٍ يَتَوَصَّلُونَ بِهَا إِلَى إِفْسَادِ دِينِهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ، وَنَبَذُوا أُمُورَهُمْ عَلَى التَّلْيِيسِ وَالتَّنْدِيسِ، وَزَادُوا فِي مَسَالِكِهَا عَلَى مَسَالِكِ اللَّعِينِ إِبْلِيسَ.

فكان من نتيجة مكيّة «ميمون بن ديصان القدّاح» وقرينه في الكوفة «حمدان

قرمط: تأسيس الحركة الباطنية الشريرة، التي اکتوى العالم الإسلامي بشرونها قرابة ثلاث قرون.

وكل ما ظهر من هذه الحركة الباطنية القرمطية من فرق، فهي فِرَقٌ عريضة في النفاق، تظهر الوفاق، وتُبَيِّنُ الفراق، تدعي شيئاً وتخفي خلافه، تكشف الولاء وتسُرُّ العداء.

أثر حركة «ميمون القذاح» في تأسيس دول تضم الكيد ضد الإسلام والمسلمين

(١) في اليمن:

استطاع أحد دعاة الإسماعيلية «القذاحية» الكوفي أبو القاسم الحسن بن حوشب، الملقب بمنصور اليمن، بالاتفاق مع داعٍ آخر يمني، هو علي بن الفضل، أن يستملا عدداً من قبائل اليمن، بأن أظهرها الدعوة إلى المهدي الإمام الإسماعيلي المنتظر.

وتأسست بذلك أول دولة إسماعيلية سنة (٢٦٨هـ) ولما قويت شوكة «الحسن بن حوشب» في اليمن كشف عن حقيقة مذهبه، وأظهر ما كان يخفيه من إلحاد وفجور، وإحلال المحارم وإباحة الفواحش لأتباعه.

أما علي بن الفضل، فقد أظهر في أول أمره التقوى، والورع، واستكثر من مظاهر العبادة والنسك، حتى مال إليه الناس وأحبوه وافتنوا به، وفقدوه أمورهم، وبعد أن لبس عليهم، وخدعهم بمظاهر أعماله التي كان ينافق بها، واشتد أمره، ادعى النبوة، وحط عن أتباعه شعائر الإسلام، وأحل نكاح البنات والأخوات.

(٢) في البحرين:

وظهرت حركة إسماعيلية أخرى في البحرين، عُرف أصحابها باسم القرامطة، نسبة إلى «حمدان قرمط» قرين «ميمون القذاح» وقاد هذه الحركة في البحرين «أبو سعيد الجنبلي» واستطاع أن يؤسس فيها دولة إذ تجمع حوله جمهور من الأشرار الفساق الفجرة قطاع الطرق، وخلفه بعده ابنه «أبو طاهر الجنبلي».

وكان لقرامطة البحرين هؤلاء من الشرور، والإغارة على قوافل الحجاج، وبعض بلاد المسلمين الأمنين، وسفك دماء الرجال وسبي النساء والذرية، حتى الطائفين في الحرم المكي الشريف، ما لم يكن من أشنع البشر همجية ووحشية وقباحة، بسبب أنهم ملاحدة زنادقة كفر، لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.

وقد فصلت بعض شرورهم في كتابي «مكايد يهودية عبر التاريخ».

(٣) في المغرب ثم مصر:

استطاع سعيد، حفيد «ميمون القذاح» أن يفلت من ملاحقة الخليفة العباسي له، وأن يهرب إلى المغرب، وكان قد سبقه إليها من دعا إليه على أنه المهدي الفاطمي، من ولد إسماعيل بن جعفر الصادق.

وحين دخل المغرب سمي نفسه: عبيد الله، وقبلة أهل المغرب من أجل نسه، فأقام فيها دولة عرفت بدولة الأبيديين، نسبة إلى الاسم الذي سمي به نفسه وحكم كما سبق بيانه من سنة (٢٩٧هـ) حتى سنة (٣٢٢هـ).

وخلفه القائم بأمر الله أبو القاسم محمد، فتولى الحكم من سنة (٣٢٢هـ) إلى سنة (٣٣٤هـ).

وجاء بعده المنصور بالله أبو طاهر إسماعيل، فتولى الحكم من سنة (٣٣٤هـ) إلى سنة (٣٤١هـ).

وجاء بعده المعز لدين الله تميم، فتولى الحكم من سنة (٣٤١هـ) وفي عهد المعز لدين الله هذا انتقلت دولة الفاطميين إلى مصر سنة (٣٦٣هـ) إذ استطاعت جيوشه أن تدخل مصر فاتحة لها، واستمر حكمه حتى سنة (٣٦٥هـ).

وجاء بعده العزيز بالله الفاطمي، فتولى الحكم من سنة (٣٦٥هـ) إلى سنة (٣٨٦هـ).

وجاء بعده ابنه الحاكم بأمر الله المنصور، فتولى الحكم من سنة (٣٨٦هـ) إلى سنة (٤١١هـ) وهو الذي أدعت له الربوبية، فسرقه، أوادعها، ونشرها الأخباث الباطنيون من حوله، واستقرت عند طائفة الدروز عقيدة متوارثة، وهم يؤمنون بغيبته، وقد ثبت أنه قتل، بتدبير أخته ست الملك.

وجاء بعده ابنه الظاهر أبو الحسن علي فتولّى الحكم من سنة (٤١١هـ) إلى سنة (٤٢٧هـ).

وجاء بعده المستنصر بالله، فتولّى الحكم من سنة (٤٢٧هـ) إلى سنة (٤٨٧هـ).
وبعد انقسمت الدولة الفاطمية، ثم سقطت بفضل الله، على يد صلاح الدين الأيوبي.

ومع ما كان عليه الفاطميون من إلحاد وزندقة وإباحية واستباحة للدماء والفواحش وسلب الأموال، فقد كان اعتمادهم في الوزارات والإدارات والأعمال الحكومية المختلفة على اليهود، وعلى المنافقين من المجوس، وعلى المنافقين من الباطنيين الذين هم مثلهم إلحاداً وإباحية وفجوراً.

وكانوا بنفاقهم يسترون ببناء المساجد، وهم يعملون على هدم الدين.
وكل ما ظهر من الحركات الباطنية في التاريخ فهي من آثار سُورِ النفاق الذي لیس قناعه «ميمون القداح» وذريته معه ومن بعده، ومعهم منافقون من مجوس، وأشرار كثيرون سرّتهم طريقتهم، واستهوتهم الإباحيات.

وكان من وسائلهم استخدام المخدرات، إذ كانوا يقدمون الحشيش لأتباعهم، ويبيحون لهم الخمر والزنا واللواط، ويطلقون أيديهم في القتل والسلب والنهب، وارتكاب الفواحش، ويُسْقِطُون عنهم التكاليف الدينية كلّها، ويلفّقون لهم عقائد خرافية، زاعمين أنّ أئمتهم الذين حلّ فيهم الرّب الخالق هم الذين قد شرعوا لهم دينهم هذا بسلطان الألوهية.



المقالة الرابعة

المنافق ابن العلقمي^(١)

وخيانته للدولة الإسلامية وخليفتها العباسي المستعصم بالله محمد بن الظاهر

حدث في عهد الخليفة العباسي السابع والثلاثين من خلفاء بني العباس، وهو المستعصم بالله محمد بن الظاهر، الذي يربع بالخلافة سنة (٦٣٩هـ) بعد وفاة أخيه المستنصر بالله عبد الله بن الظاهر، أن وزيره «محمد بن محمد بن أبي طالب مؤيد الدين بن العلقمي» البغدادي الرافضي، من الشيعة الروافض، وكان منافقاً، كافراً باطناً، شيعياً رافضياً ظاهراً، كتب إلى «هولاكو» ملك التتار يبدي له استعداداً أن يسلمه بغداد إذا حضر بجيوشه إليها، وكان التتار قد هزموا في عهد المستنصر بالله، وقتل منهم خلق كثير، وكان هدف العلقمي محو أهل السنة وإقامة خليفة فاطمي.

فكتب «هولاكو» لابن العلقمي:

«إن عساكر بغداد كثيرة، فإن كنت صادقاً فيما قلت لنا وداخلاً تحت طاعتنا، ففرق العسكر، فإذا عملت ذلك حضرنا».

فلما وصل كتاب «هولاكو» إلى الوزير «ابن العلقمي» دخل إلى المستعصم، وزين له أن يسرح خمسة عشر ألف فارس من عسكره، لأن التتار قد رجعوا إلى بلادهم، ولا حاجة لتحميل الدولة كلفة هؤلاء العساكر.

فاستجاب الخليفة لرأيه، وأصدر أمراً بتسريح خمسة عشر ألفاً، فخرج ابن العلقمي ومعه الأمر، واستعرض الجيش، واختار تسريح أفضلهم، وأمرهم بمغادرة بغداد وكل ملحقاتها الإدارية، ففرقوا في البلاد.

(١) انظر الجوهر الثمين لابن دقاق، وتاريخ ابن كثير في حوادث سنة (٦٥٦ هجرية).

وبعد عدة أشهر زَيْنَ للخليفة «المستعصم» أن يُسَرَّحَ أيضاً من جيشه عشرين ألفاً، فاستجاب له، وأصدر أمراً بذلك.

ففعل ابن العلقمي مثلما فعل في المرة الأولى، وانتفى أفضل الفرسان فسرَّحهم.

وكان هؤلاء الفرسان الذين انتقامهم وسرَّحهم من جيش الخليفة بقوة مئتي ألف فارس.

ولما أتمَّ مكيدته كتب إلى هولاكوبما فعل، فركب «هولاكو» وقدم بجيشه إلى بغداد، وأحسَّ أهل بغداد بمداهمة جيش التار لهم، فاجتمعوا وتحالفوا، وخرجوا إلى ظاهر المدينة، وقاتلوا ببسالة وصبر، حتى حلتَّ الهزيمة بجيش التار، وتبعهم المسلمون وأسروا منهم، وعادوا مؤيدين منصورين ومعهم الأسرى ورؤوس القتلى، ونزلوا في خيامهم مطمئنين.

فأرسل الوزير ابن العلقمي جماعة من أصحابه المنافقين الخونة ليلاً، فحبسوا مياه دجلة، ففاض الماء على عساكر بغداد وهم نائمون في خيامهم، وصارت معسكراتهم مغمورة ومحاطة بالوحل، وغرقت خيولهم وأمتعتهم وعنادهم بالوحل، والناجي منهم من أدرك فرساً فركبه وخرج من معسكر الوحل.

وكان «ابن العلقمي» قد أرسل إلى «هولاكو» يعلمه بمكيدته، ويدعوه أن يرجع بجيوشه فقد هبَّ له الأمر بما يحقق له ولجيوشه الظفر، فعاد بجيوشه، وعسكر حول بغداد، ولما أصبح الصباح دخل جيش التار بغداد، ووضعوا السيف في أهلها، وجعلوا يقتلون الناس كباراً وصغاراً، شيوخاً وأطفالاً، ودخلوا إلى الخليفة فاحتلموه هو وولده، وجعلوهما في عذَّلين، وأحضرهما إلى ملك التار «هولاكو».

فأخرجهما «هولاكو» إلى ظاهر بغداد، ووضعهما في خيمة صغيرة، وفي المساء وضعهما في عذَّلين، وأمر عساكره بقتلهما ضرباً بالأرجل.

ودخل التار دار الخلافة فسلموا كلَّ ما فيها، وانبثوا يقتلون كلَّ من يشاهدون من أهل مدينة بغداد، حتى زاد القتلى كما ذكروا على مليون قتيل (ألف ألف).

ويمقتل المستعصم انتهت الخلافة في بغداد سنة (٦٥٥هـ).

أما الوزير المنافق الخائن «ابن العلقمي» فقد استدعاه «هولاكو» ليكافئه، فحضر بين يديه، فويحه على خيانتة لسيدته الذي وثق به، وأحسن إليه، واصطفاه ليكون وزيره الأول، واستأمنه على البلاد والعباد، ثم قال له: «لواعطيناك كل ما نملك ما نرجو منك خيراً، وأنت مخالف لملتنا، إنك لم تحسن إلى أهل ملتك، بل عرّضتهم للقتل والسبي، فما نرى إلا أن نقتلك ونريح من بقي من المسلمين من شرك، ويستريح التار أيضاً منك».

ثم أمر «هولاكو» بقتله، فقتل شر قتلة.

وانقطعت الخلافة قرابة أربع سنوات حتى حضر أخو الخليفة أحمد بن الظاهر إلى مصر، فاستخلفه الملك الظاهر ركن الدين بيبرس.

ولم يثبت ابن كثير قتل «هولاكو» لابن العلقمي، بل ذكر أن الله قصف عمره بعد شهور يسيرة من هذه الحادثة الشنيعة المذهلة.



يهود الدوغة المنافقون^(١) ودورهم في سقوط الخلافة العثمانية وإقامة العلمانية

أصلهم:

هرب جماعة من اليهود من ظلم محاكم التفتيش في إسبانيا في القرون الوسطى، والتجؤوا إلى الدولة العثمانية، فاستضافتهم، وقبلتهم أهل ذمة في إمبراطوريتها، واستقروا في «سلانيك».

وفي الثلث الأخير من القرن السابع عشر الميلادي تظاهروا بالدخول في الإسلام نفاقاً، تبعاً للحاخام «سباتاي سيفي» الذي كان قد ادعى أنه هو المسيح المنتظر، وقُدِّم للمساءلة لدى شيخ الإسلام، وخاف من اقتضاح كذبه فيما ادعى، والحكم عليه بالقتل لكذبه على الله، وإثارته الفتنة في تركيا، فأبدى رغبته في الإسلام، بعد أن أنكر ما نسب إليه، فقبل منه ذلك، وأعلن إسلامه، وكتب لليهود المستضافين في تركيا الذين آمنوا به أن يتظاهروا بالإسلام تبعاً له، على أن يحافظوا على يهوديتهم في سرهم.

فسمَّاهم التُّركُ «دونمة» لأن كلمة «دونمة» في التركية تعني العودة أو الرجوع، أي: رجعوا إلى الحق وآمنوا به.

وإطلاق هذا الاسم يكون عادةً في أول دخول الداخل إلى الإسلام عند الترك،

(١) المعلومات حول يهود الدونمة المنافقين ودورهم مقتبسة من كتاب «يهود الدونمة» وكتاب «أسرار الانقلاب العثماني» لمؤلفهما بالتركية «مصطفى طوران» بترجمة «كمال خوجة» إلى العربية. وكتاب «العثمانيون في التاريخ والحضارة» تأليف: د. محمد حرب.

وبعد حين يخفي هذا الإطلاق لأن الداخلين يكونون كسائر المسلمين إذا كانوا صادقين.

لكن هؤلاء اليهود بقي إسلامهم مشكوكاً فيه، لعدم اندماجهم في سائر المسلمين، وللعزلة والشعارات وأنواع السلوك الخاصة التي ميزوا أنفسهم بها، لذلك ظلَّ عنوان «الدونمة» لاصفاً بهم.

قصة إسلامهم نفاقاً:

ظهر في القرن السابع عشر الميلادي في تركيا رجلٌ يهودي من اليهود القادمين من إسبانيا، هرباً من محاكم التفتيش اسمه «سباتاي بن مورداخاي سيفي».

وُلد في نموز من سنة (١٦٢٦م) بأزمير، ونشأ في حجر والديه اليهوديين، وقد شغف بمطالعة الكتب الدينية، وكان يتردد على الحاخام «إسحق دالباء» لاستماع دروسه، وهو دون الخامسة عشرة من عمره، وقرأ التوراة والتلمود، وبرع في التفسير الإشاري، وكان ذكياً وسيماً.

شغف بمطالعة كتب استحضر الأرواح، واستفاد من قراءاته القيام ببعض الأعمال والحركات الغريبة، فظنَّ نفسه قادراً على القيام بخوارق تذهله لأدعاء أنه المسيح المنتظر الذي يترقبه اليهود، بعد أن كفروا بالمسيح عيسى عليه السلام، الذي بعثه الله تحقيقاً لما سبق به الوعد، في كُتُب بني إسرائيل.

وعزم على أن يُعلن أنه المسيح الموعود به، فلابز الصيام، وصار يغتسل كل يوم، وابتعد عن معاشر النساء.

كان سريع البديهة، يتغلب على مناقشيه، ويخدع المقرئين إليه، ويحرف النصوص الدينية، ويؤولها على طريقة حساب «الجُمْل» وهي أعداد الحروف الأبجدية، حتى حَرَف بيتاً من الشعر يقول قائله فيه: حبيبي يشبه الغزال، فجعله على طريقة حساب الجُمْل مساوياً لقوله: رَبِّي يُشَبِّه سباتاي سيفي.

وفي سنة (١٦٤٨م) أبلغ أصحابه المقرئين إليه بنبؤته، فصدَّقوه، لما كان قد هَيَّئَ عليهم به.

وانتشر نبأ تنبُّيه وأدعائه أَنه المسيح المنتظر بين اليهود في أزمير، وأثاروا ضده ضجةً عظيمة، وحكَّم عليه بالإعدام رئيسُ الحاخامين «جوزيف إيسكابا» ومعه رجال الدين من اليهود.

ولم يكثرث «سباتاي سيفي» لهذا الحكم لعلمه بأن الدولة العثمانية لا تسمح لليهود بتطبيق مثل هذا الحكم إلا عن طريقها، وبعد اقتناع المسؤولين فيها.

وأصدر «سباتاي سيفي» بيانه بأنه المسيح المنتظر مخلص بني إسرائيل، ونصه: «سَلامٌ من ابنِ الله سباتاي سيفي مَسيحِ إسرائيل ومخلصها، إلى كلِّ فردٍ من بني إسرائيل:

لقد نلتُم شرفَ معاصرة مُنقِذِ بني إسرائيل ومُخلصهم، الذي بَشَّرَ به أنبيأؤنا وآبأؤنا، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَجْعَلُوا أَحْزَانَكُمْ أَفْرَاحاً، وَصِيَامَكُمْ إِفْطَاراً وَلَهْوَاً، فَلَنْ تَحْزَنُوا بَعْدَ الْيَوْمِ، فَاعْلَمُوا عَنْ فَرْحَتِكُمْ بِالطَّنْبُورِ وَالْأُورْغِ وَالْمُوسِيقَا، وَاشْكُرُوا مَنِي الَّذِي وَعَدَكُمْ فَوْفَى بَوْعْدِهِ، وَوَاطَبُوا عَلَى عِبَادَاتِكُمْ كَمَا فِي السَّابِقِ، أَمَّا أَيَّامُ الْمَصَائِبِ وَالْمَأْتِمِ فَاجْعَلُوهَا بِسَبَبِ بَعَثِي أَيَّامِ شُكْرٍ وَمُسَرَّةٍ.

وَلَا تَهَابُوا شَيْئاً، فَإِنَّ حُكْمَكُمْ لَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى أَمَمِ الْأَرْضِ، بَلْ سَيَبْتَدِئُهَا إِلَى جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ فِي أَعْمَاقِ الْبَحَارِ، فَكُلُّ هُنَولَاءِ مُسَخَّرُونَ لَكُمْ لِرَفَاهِيَتِكُمْ». (سباتاي سيفي)

وجد «سباتاي سيفي» الطريق مسدوداً أمام دعوته في أزمير، فانتقل إلى «إستانبول» في سنة (١٦٥٠م).

فأعانه حاخام مُزَيْف، واستقبله بالترحاب، لكن دعواه قبولت بالرفض في «إستانبول» فرحل إلى «أثينا» فلم يظفر بما يروم، فعاد يتنقل بين أزمير وإستانبول.

وفي سنة (١٦٦٣م) سافر إلى القاهرة فالقدس، وخشي على نفسه فلم يُعْلَمَ فيهما أحداً بدعوته، لكن كان لبياناته التي انتشر خبرها أثرٌ في قَلْبِ اليهود عامة.

وظهرت في «بولونيا» فتاة يهودية جميلة ذكية، اسمها «سارا» ولوعة بالمغامرات، كانت تسكن في منزل أخيها «صموئيل» في «أمستردام».

وحين سمعت بأن شاباً يهودياً وسيماً في «أزمير» ادعى أنه المسيح المنتظر، طمعت في أن تستغله لتكسب الشهرة، فاختلقت رؤيا نشرتها بين اليهود، تزعم فيها أن نوراً سيسطع عليها عام (١٦٦٦م) وستزوج من المسيح الذي سيظهر في ذلك العام.

وبلغ خبر هذه الرؤيا «سباتاي سيفي» فاختلق رؤيا زعم أنه أوحى إليه بالزواج من فتاة بولونية، واعتبر الأغرار من اليهود أن هذا من معجزات «سباتاي سيفي».

وأرسل «سباتاي سيفي» في طلب «سارا» زوجة له، فجيء بها إليه، فتزوجها في القاهرة.

وفي شهر أيلول من سنة (١٦٦٦م) عاد «سباتاي سيفي» إلى «أزمير» وبث فيها دعوته، فلم يلقَ بين الحاخامين قبولاً حسناً في أول الأمر، فانتهاز فرصة العيد عندهم، فأعلن عن دعوته، فجمع حوله أنصار كثيرون.

وبعد مدة قصيرة صار يهود أزمير طوع يديه، وبدأت شهرته تنتشر في البلاد حتى وصلت إلى «رودس»، وأدرنة، وصوفيا، وصارت الوفود تشد الرحال إليه من ألمانيا.

وأجريت له مراسيم بُسّ التاج، وصار يستقبل زواره بمواعيد ومراسيم معينة، وكان له هوى باستقبال النساء على وجه الخصوص.

وقسم «سباتاي سيفي» العالم إلى ثمان وثلاثين منطقة، عين لكل منها ملكاً، وغير بعض العادات اليهودية.

وصار يوجه رسائله ويذبلها بتوقيع:

ابن الله الأول والوحيد

سباتاي سيفي

وتركت الدولة العثمانية دون أن تتعرض له بسوء، لأنه كان قد حصر نشاطه في اليهود، فلما وجه نشاطه لدعوة جماعات أخرى غير يهودية للإيمان به، عرض قاضي أزمير على رئيس الوزراء ضرورة اعتقال «سباتاي سيفي» حتى لا يتفاقم أمره، ويؤثر على عوام المسلمين، فأمر بإلقاء القبض عليه وأرسل عن طريق البحر إلى «إستانبول».

وفي التحقيقات التي أُجريت له، أنكر «سباتاي سيفي» كل ما أُسند إليه، وسيق إلى سجن «زندان قابي».

وبدأت الوفود اليهودية الكثيرة تزوره في السجن، حتى صارت إدارة السجن عاجزة عن استقبالهم لمشاهدة «سباتاي» فأمرت السلطات بنقله إلى سجن «جناق قلعة».

فلحقه الزوار إلى «جناق قلعة» واشتكى أهل المدينة من الضغط الذي حصل فيها، فأمرت الحكومة العثمانية بنقله إلى «قصر أدرنة» وكان اليهود يترقبون أن يظهر «سباتاي» معجزة تُخرجُ بها الدولة العثمانية، فتضطر للإفراج عنه.

لكن الأمر كان على خلاف ذلك تماماً، فقد استدعي «سباتاي سيفي» للمساءلة في مكتب «مصطفى باشا» القائم بأعمال رئيس الوزراء، وكان عنده شيخ الإسلام «يحيى أفندي منقري زاده» وإمام القصر «محمد أفندي وانلي».

أما السلطان «محمد الرابع» فكان يجلس في غرفة مجاورة يسمع ما يجري من حوار.

ووجه له السؤال التالي: تدعي أنك المسيح المنتظر، فارنا معجزتك، سنُجردُك من ثيابك، ونجعلك هدفاً لسهام المَهْرة من رجالنا، فإن لم تؤثر السهام في جسمك، فسيقبل السلطان ادعائك.

أدرك «سباتاي سيفي» أنه إذا قبل هذا التحدي فإنه سيكون صريعاً بعد أول سهم يصل إلى جسده، فأنكر كل ما أُسند إليه، وقال: إن الناس قد تقولوا عليه ما لم يقله هو.

وكان السلطان «محمد الرابع» يسمع الحوار، فأمر بأن يُعرض عليه الإسلام. فآثر «سباتاي سيفي» أن يتظاهر بقبول الإسلام، وأعلن إسلامه، وصار يُعرف باسم «محمد عزيز أفندي».

وعُيِّن «محمد عزيز أفندي» سباتاي سابقاً الذي أعلن إسلامه رئيساً للبوابين، وأصيب الذين آمنوا به بخيبة أمل، وفرح الحاخامون بافتضاح أمره.

ثم أرسل إلى الذين آمنوا به خطاباً عاماً قال فيه :
«لقد جعلني الله مسلماً، أنا أخوكم محمد البوّاب، هكذا أمرني فامتثلت، لقد
ذكرت الكتب اليهودية المقدسة، أن المسيح سيُبع من قبل المسلمين».
وأشعرهم بهذا الخطاب أنه سيتابع رسالته مستتراً بالإسلام، وقال أخوه مفسراً
هذا الوضع الجديد الذي اختاره لنفسه :

«إن الجسم القديم لسباتاي قد صعد إلى السماء، وعاد بأمر من الله تعالى في
شكل ملاكٍ يلبس الأُجبة والعمامة، ليكمل رسالة المسيح».

ثم تقدّم إلى المفتي يستأذنه بأن يدعو اليهود إلى الإسلام فأذن له، لكنه دبر
مكيدهً جديدةً ضدّ الإسلام، هي أن يجعل أتباعه مسلمين منافقين، يتظاهرون
بالإسلام، ويظنون اليهودية على أن «سباتاي» هو المسيح.

وأعلن اليهود الذين كانوا قد آمنوا به دخولهم في الإسلام نفاقاً استجابةً لأمره،
فأقبل هؤلاء من كلّ مكان يلبسون ألبسة المسلمين، وأطلق الأتراك على هؤلاء
المسلمين الجُدد اسم «الدونمة».

ورُتّب «سباتاي» سرّاً أمر أتباعه «الدونمة» إذ تركت له الدولة حريّة التنقل، فنظم
عقائد أنصاره وعباداتهم، وعيّن أيام أعيادهم، وجمع تعاليمه لهم في ثماني عشرة
مادة، ومنها ما يلي :

المادة (١٦) : يجب أن تطبّق عادات الأتراك بدقّة لصرف أنظارهم عنكم،
ويجب ألا يُشعر أحدٌ من الأتباع المسلمين بأنه متضايق من صيام رمضان، ومن
الأضحى، ويجب عليه أن ينفذ كلّ شيء يجب تنفيذه أمام الملأ.

هذه المادة يوجب عليهم فيها أن يتقنوا مظاهر النفاق.

المادة (١٧) : إن منّاحتهم ممنوعة قطعاً.

فهو في المادة يحرم على أتباعه «الدونمة» منّاكة المسلمين، لئلا يذوبوا فيهم،
ولتبقى لهم هويّتهم اليهودية.

وبعد أكثر من عشر سنين اتضح للحكومة العثمانية أن إسلام سباتاي كان نفاقاً

فَنَفَتْهُ إِلَى أَلْبَانِيَا، وَمَاتَ «سَبَاتَاي سِيْفِي» فِيهَا سَنَةَ (١٦٧٥م) يَهُودِيًّا مُنَافِقًا ضَمِنَ يَهُودِ الدُونِمَةِ.

* * *

علامات ووثائق تدين الدوغة بأنهم استمروا منافقين أهل كيد ومكر

(١) انقسم السباتائيون الدونمة إلى ثلاث طوائف، وهم:

● اليعقوبيون.

● القرقاشيون.

● حزب إبراهيم آغا (القبانجيون).

وكلُّهم يطنون اليهودية، ويظهرون أنهم مسلمون، وكان انقسامهم بسبب تنازع رئاستهم بعد مسيحهم «سباتاي».

(٢) كان لكل واحد منهم اسمان: أحدهما يهودي يتخاطبون به فيما بينهم، والآخر هو من الأسماء المتداولة بين المسلمين، ليكون هو الاسم المعروف لدى عامة الناس.

فوالد زوجة «سباتاي» اسمه بين عامة المسلمين: عبد الغفور أفندي، أما اسمه بينهم فهو «جوزيف بيلوسوف» وأخو زوجته اسمه بين عامة المسلمين: عبد الله يعقوب جلبلي، أما اسمه بينهم فهو «جوزيف كيريدو».

(٣) للسباتائيين الدونمة أعياد تزيد على العشرين، أحدها يكون في ٢٢ آذار وهو اليوم الأول من أيام الربيع، ويُسمى هذا العيد عندهم عيد الخروف.

ويجتمع في هذا العيد رجال ونساء متساووا العدد ليلاً كل رجل وزوجته، والنساء بكامل زينتهن، وبعد الطعام المعتمد على أكل لحم الخروف، يبدأ اللُّهُو المشترك كالرقص والغناء، ثم تُطْفَأُ الأنوار، ويبقى المحتفلون في ظلام دامس يمارسون فيه شهواتهم بإباحية عامة، ويُعْتَبَرُ كُلُّ مولود يُولَدُ بعد ذلك نتيجة التزاني في هذه الليلة مولوداً مباركاً.

(٤) نشر «محمد رشدي قره قاشزاده» وهو من الدونمة أتباع «سباتاي سيفي» بعض أسرار السباتانيين في سلسلة مقالات صحفية، سنة (١٩٢٤م).

فمنها كتاب مفتوح إلى «دونمة، سلانيك، جاء فيه ما يلي:

«أيها السادة، منذ أكثر من ثلاثة قرون عشنا نحن الدونمة في كنف الشعب التركي العريق الكريم، وتحت جناح رحمته، وبقينا على حالة شديدة من التعصب لمذهبنا، باطننا يخالف ظاهرنا في كل أفعالنا وحركاتنا. . .

لقد أصدر مجلس الأمة قانوناً بمنع الخنازير البرية من الإضرار بالمزروعات، فهل تظنون أن أمة تفكر بمثل هذه الدقة في الأمور، أن تبقى في بيتها عنصراً غريباً عنها يمتص خيراتها؟.

ليس لنا إلا اتباع أحد سبيلين:

• إما أن نلتحم — بموجب قانون خاص — بالشعب التركي التحاماً تاماً، فنشاركهم في الأفراح والمصائب.

• وإما أن نبحث عن إمكانات مادية ومعنوية خارج حدود هذا الوطن، نصنع فيها كياناً خاصاً بنا».

(٥) دعاء يحفظه الدونمة ويردّدونه، وهو كما يلي:

«بالاسم المبارك لسباتاي سيفي المبارك: فَلْيَقْبَلُونِي بِأَفْوَاهِهِمْ، فَإِنْ حُبَّكَ أَعْظَمُ من الخمر، إِنْ زَيْتُكَ عَاطِر: إِنْ حُبَّكَ زَيْتٌ مَضْبُوبٌ، وَعَلَيْهِ فَإِنَّ الْعَذَارَى يُحِبُّنَكَ».

هذه الألفاظ الواردة من: «فليقبلوني» مأخوذة من أغنية الأغاني من التوراة.

(٦) عندما احتلت اليونان منطقة سلانيك رغب عدد من الدونمة أن يعلن يهوديته، فرفض حاخامهم طلبهم، ويظهر أن رفضه قد كان بهدف استغلالهم لخدمة اليهود مستقبلاً في الدولة العثمانية.

(٧) من عادات الدونمة الذهاب إلى ساحل البحر، أو إلى ضفة نهر، والقيام بالنداء التالي: «سباتاي سيفي نحن بانتظارك».

(٨) لهم زِيٌّ خاصٌّ بهم، فالنساء يتعلّقن الأحذية الصفراء، والرجال يضعون قبعات صوفية بيضاء مع إدارة عمامة خضراء عليها.

(٩) كان الدونمة أوّل الذين هاجموا حجاب المرأة المسلمة، ودعّوا إلى التحرّر والسفور، ودعّوا إلى التعليم المختلط في الجامعات، وهاجموا أيضاً كلّ الشعائر الإسلامية.

(١٠) عاش «الدونمة» في سلانيك في العهد العثماني، وفي إستانبول في العهد الجمهوري عيشة رخاء وترف.

أمّا الآن فتوجد مراكز خطيرة في تركيا هي بأيدي شياطينهم، يستغلّونها، ويعبثون بها، ويعملون على حرب الإسلام، وتمزيق المسلمين من خلالها. إلى غير ذلك من علامات ووثائق.



المنافقون هم الذين قاموا بإلغاء الخلافة العثمانية وتمزيق الدولة الإسلامية

(١) ثبت بما لا يقبل الشكّ أنّ الصهيونيّة العالمية، ومكايد الدولة البريطانية، مع مساعدة سائر الدول الأوروبية قد اشتركت في تدبير مؤامرة خلع السلطان عبد الحميد الثاني، وإلغاء الخلافة الإسلامية بعد ذلك، وتمزيق الدول الإسلامية الكبرى، وتفتيتها إلى دويلات.

(٢) وثبت أنّ المنافقين من يهود «الدونمة» والمنافقين العلمانيين من الترك، والمنافقين المتمين إلى المحافل الماسونية، ولا سيما المحفل الماسوني المسعّى «محفل الشرق العثماني» المؤسس في مدينة «سالونيك» التي كان للدونمة فيها مرتع خصيب، مع المنافقين المنتظمين في «جمعية الاتحاد والترقي» والمنتظمين في «حزب تركيا الفتاة» والمندسين في ضباط الجيش التركي، كانوا جميعاً أدوات التنفيذ، مع العناصر اليهوديّة التي لم تخف يهوديتها، وكان الرأس المدبّر والمخطط اليهودي

«عمانوئيل قره صو» ومعه «جاويد» الذي كان من منافقي «الدونمة» وقد كان «قره صو» نائباً في مجلس المبعوثان عن مدينة «سالونيك».

(٣) ولما أُلغيت الخلافة، وأُعلنت الجمهورية، تولّى رئاسة الدولة التركية «مصطفى كمال أتاتورك» وهو من يهود «الدونمة» فأعلن العلمانية وحارب الإسلام والمسلمين بلا هوادة، بعد أن لبس أقنعة النفاق، أمام علماء المسلمين، وتظاهر بغيرته على الشريعة الإسلامية، في الوقت الذي كان يُخطّط مع المخطّطين لهدمها، وتحويل المسلمين عن دينهم، وخدمة الصهيونية العالمية، وإقامة الدولة اليهودية في فلسطين^(١).

(٤) وكان اليهود في غير تركيا يعلمون نفاق كمال أتاتورك، وأنه يعمل لهدم الإسلام وتمزيق الدولة الإسلامية، ومن الأدلة على ذلك ما حدّثني الشيخ «محمد السلقيني» والد أخينا «الدكتور إبراهيم السلقيني»: فقد التقيت في تركيا، في قرية «كوك شدره» وجرى الحديث معه حول الخلافة الإسلامية العثمانية، وكمال أتاتورك، فقال لي:

كُنْتُ مع والذي حوالي سنة (١٩٢٠م) أو أكثر، وكان أبي يتولّى وقف جامع الطواشي بحلب، فذهب إلى مستاجر دكان للوقف يهودي اسمه «داود فرح ست» لقبض أجرة الدكان، وكان كمال أتاتورك آيائها يُحارب، ويتظاهر باسم الدين، وجرى الحديث مع اليهودي حول كمال أتاتورك، واندفاعه في نصرة الإسلام، فقال اليهودي «داود فرح ست» للشيخ: لا تغرنكم الآن هذه المظاهر، فإن مصطفى كمال أتاتورك يهودي ابن يهودي من يهود «سالونيك».

(٥) أصدر «إسحاق بن زفي» أحد الرؤساء السابقين لإسرائيل كتاباً بعنوان «الدونمة» سنة (١٩٥٧م) قال فيه:

«إن يهوداً كثيرين، وكثيرين جداً، يعيشون بين الشعوب بطبيعتين، إحداهما

(١) اقرأ كتاب «أسرار الانقلاب العثماني» كتبه بالتركية «مصطفى طوران» وترجمه إلى العربية «كمال خوجة».

ظاهرة، وهي اعتناق دين الشعب الذي يعيشون في وسطه، اعتناقاً جماعياً ظاهرياً، والثانية باطنة، وهي إخلاص عميق لليهودية.

وأبان «إسحاق بن زفي» أن الدونمة طائفة «مسلمة - يهودية» أي: فهي تعيش في تركيا بوجه مسلم، وتبطن من ورائه اليهودية، وهذا ما ساعدها على أن تتدخل في شؤون تركيا السياسية، والاقتصادية، والتربوية، والتوجيه الفكري.

(٦) نتج أنظار معظم الباحثين إلى أن يهود الدونمة هم الذين بدؤوا تأسيس المحافل الماسونية، وهم الذين أسسوا جمعية الاتحاد والترقي، وحزب تركيا الفتاة، وعن طريق هذه المنظمات جروا تركيا إلى حروب خاسرة، وحولوها من الإسلام إلى العلمانية، ورفعوا رَجْلَهُمْ «مصطفى كمال أتاتورك» إلى سدة الحكم في تركيا، وألغوا الخلافة، وفصلوا الترك عن العرب، وأقاموا الصراع بين القوميتين العربية والتركية، لإزاحة تركيا عن الوقوف في طريق إقامة دولة إسرائيل في فلسطين.

(٧) منذ أعلن «مبساتاي» إسلامه، وتبعه يهود الدونمة، تمكن هؤلاء من احتلال مراكز ذات شأن في الدولة، ومع أنهم لا يزايدون عن فرابة نيف وثلاثين ألفاً إلا أن تأثيرهم في تركيا بقوة الملايين، لدخولهم في مختلف التنظيمات وتوجيههم لها، ودخولهم في الجيش وأجهزة وسائل الإعلام، وامتلاكهم لكثير من كبريات الصحف، وتوجيههم للحزب الشيوعي، وهم يسعون لإقامة الحكومة اليهودية التي تملك العالم، مع الصهيونية العالمية.



منظمة

البابية فالبهائية إحدى المنظمات المنافقة^(١)

اشترك في تأسيسها ونشرها
المجوس والصلبيون واليهود

(١)

مقدمة

أكدت الدراسات التي قام بها عدد من الباحثين المتبعين، أن «البابية» التي صار اسمها فيما بعد «البهائية» منظمة تم إعدادها بتخطيط من عدة أحزاب كافرة من أعداء الإسلام، لتمزيق وحدة المسلمين، وقتل طائفة منهم عن دينهم وإخراجهم من الملة الإسلامية، وجعلهم ذيولاً تابعين لليهود والنصارى، وفُسّاقاً فجاراً إباحيين، وإبرازهم على أنهم أمة ذات دين جديد ينادي بوحدة الأديان، ويعمل على خدمة مصالح الاستعمار الصليبي من جهة، ويكون أحد الدروع التي نحتمي بها اليهودية العالمية في مسيرتها لتحقيق مخططاتها العالمية.

وقد تظاهرت هذه المنظمة أولاً بأنها طائفة من المسلمين، إلا أن لها في تفسير نصوصه مفهومات خاصة، مع أنها في الباطن جاحدة كافرة بالإسلام، والغرض من تظاهرها الأولى بالإسلام استدراج بعض المسلمين للانتماء إليها، ثم تحريف التعاليم

(١) المعلومات عن هذه المنظمة مقتبسة من الكتب التالية ومن غيرها: أ - «حقيقة البابية والبهائية» تأليف «محسن عبد الحميد». ب - «دراسات عن البهائية والبابية» تأليف «محب الدين الخطيب» وثلاثة آخرين. ج - «البهائية» تأليف (إحسان إليهي ظهير). د - «البهائية سراب» تأليف «عبد الله النوري». هـ - «صحف ومجلات نشرت عنها».

الإسلامية لهم، ثم فتنهم عن دينهم، ثم إخراجهم عن الإسلام إخراجاً كلياً، بإيهامهم أن دينهم الجديد نسخ الإسلام وشرائعه وجاء بشرائع حديثة تتلاءم مع أوضاع البشر، وما تطوّروا إليه، واتخذوا الإباحية الجنسية إحدى وسائلهم لإغراء أصحاب الشهوات من الرجال والنساء، الذين يطيب لهم أن يجدوا ديناً إباحياً، يبيح لهم المحرمات، ويرفع عنهم التكاليف، أو يخفف عنهم منها، ويكتفي منها بما لا مشقة فيه، أو بما فيه متعة أو لذة.

(٢)

بدء المكيدة وأطوارها وبعض خفاياها وخياناتها

الطور الأول:

على جذور الحركة الباطنية الخبيثة، وضمن جماهير الشيعة الإمامية، ظهرت عدة مكابيد ضد الإسلام والمسلمين، مهدت لظهور البهائية:

(١) فظهرت أولاً طريقة «الشيخية» نسبة إلى «الشيخ أحمد الأحصائي» المولود سنة (١١٦٦هـ - ١٧٥٣م) فقد أسس هذا طريقة في مذهب الشيعة الإمامية سُميت فيما بعد الشيخية.

تقوم هذه الطريقة على ادّعاء أن الحقيقة المحمدية القديمة لها تجليات:

• فقد تجلّت في الأنبياء قبل النبي محمد ﷺ تجلياً ضعيفاً.

• ثم تجلّت في النبي محمد تجلياً أقوى.

• ثم تجلّت في الأئمة الاثني عشر.

واختفت زهاء ألف سنة.

• ثم تجلّت في الشيخ أحمد الأحصائي، وهو من غلاة الشيعة الحلولية الذين يرون عبادة عليّ. وكان هذا الأحصائي يشرّ بقرب ظهور المهدي المنتظر.

[قيل: كان «أحمد الأحاسي» قسيساً غريباً، فهو غير معروف الأصل في الأحساء].

* ثم تجلّت الحقيقة المحمدية بعد أحمد الأحاسي في تلميذه السيد «كاظم الرشتي» المولود في سنة (١٢٠٥هـ - ١٧٩٠م) في «رشت» من بلاد إيران.

[وقيل أيضاً: كان هذا قسيساً كأستاذ الأحاسي].

وتابع «كاظم الرشتي» التبشير بقرب ظهور المهدي، ووصف لتلاميذه شخص هذا المهدي الذي دنا وقت ظهوره بصفات وشمال وأخلاق تكاد تكون تعيناً لشخص يعرفونه بينهم، ثم ألمح إليهم أنه قد يكون جالساً بين تلاميذه، ثم صرح بذلك فقال في دروسه:

«إن الموعود يعيش بين هؤلاء القوم، وإن مياد ظهوره قد قُرب، فهَيُّوا الطريق إليه، وطهِّروا أنفسكم حتى تروا جماله، ولا يظهِرُ جماله حتى أفارق هذا العالم، فعليكم بعد فراقِي أن تقوموا على طلبه، ولا تستريحوا لحظة واحدة حتى تجدوه».

وكان «كاظم الرشتي» يقول في دروسه:

«إن الشريعة وأصول الأداب هي غذاء للروح لذلك يجب أن تكون الشرائع متنوعة، وعلى ذلك يجب نسخ الشرائع العتيقة».

وكان «لكاظم الرشتي» زوجة رائعة الجمال اسمها «فاطمة» فلقبها زوجها «قُرة العين وفرح الفؤاد» وكانت طاغية الأنوثة، ذكية شاعرة، ذات قوّة فائقة في الكلام والتأثير على الرجال بحديثها، ثم انطلقت مع تلاميذ الرشتي فاجرة، داعية إلى السفور وتحرير المرأة.

والصفات التي ذكرها «الرشتي» للمهدي الحاضر القريب الظهور، تكاد تنطبق تماماً على الميرزا «علي محمد رضا الشيرازي» أحد تلاميذه الملازمين له ملازمة شديدة، وعينه الرشتي خلفاً له بعد موته.

ويبدو أن الخطّة المدبّرة في الخفاء قد رسّمت كلّ ذلك، ومات الرشتي سنة (١٢٥٩هـ - ١٨٤٣م) وكانت المؤامرة قد أعدت الشيرازي لادعاء أنه المهدي المنتظر.

الطور الثاني:

ولمّا مات «كاظم الرشتي» قام الميرزا «علي محمد رضا الشيرازي» المولود في «شيراز» سنة (١٢٣٥هـ - ١٨١٩م) خلفاً له.

وكان هذا يقول بالحلول ووحدّة الوجود، ويعد موت أستاذه بسنة واحدة ادّعى أولاً أنّه الباب إلى الإمام المنتظر المستور، وسمّى نفسه الباب، وسمّيت دعوته فيما بعد «البابيّة».

ويدّعي البابيون أنّ مظاهر التجليات شيء واحد، يختلفون في الصورة ويتحدون في الحقيقة التي هي الله، فالحقيقة الربانية ظهرت فيهم، ويدّعون أنّ اللاحقين هم أفضل من السابقين.

ثم أعلن هذا «علي محمد رضا الشيرازي» أنّه هو المهديّ المنتظر المستور، وكان هذا الإعلان سنة (١٢٦٠هـ - ١٨٤٤م) في مدينة شيراز، وكان عمره خمساً وعشرين سنة.

ثم ادّعى النبوة، وادّعى أنّه أفضل من الرسول محمد، وكتب كتاباً سخيلاً سمّاه «البيان» وادّعى أنّه أفضل من القرآن.

ثم ادّعى أنّه الإله الحقّ، لأنّ روح الله قد حلّ فيه، كما حلّ في سائر الأنبياء والمرسلين من قبله، وادّعى إبطال شرائع الإسلام.

ولمّا فشلت دعاواه هذه أصدر العلماء الفتوى بقتله، لارتداده عن الإسلام، وادّعاءاته الكافرة الفاجرة، ولتأكيد على إبطال الشريعة الإسلامية، فتمّ فيه تنفيذ حكم الإعدام بأمر من الشاه ناصر الدين، سنة (١٢٦٥هـ - ١٨٤٩م).

وتأكّد أن الحكومة الروسية «القيصرية» النصرانية ساعدت «البابيّة» مساعدات كثيرة ومتنوعة، حتى تدخّل القيصر لحماية الميرزا «علي محمد رضا الشيرازي» من القتل، إلّا أنّ تنفيذ القتل قد كان أسبق من وصول الوساطة الروسية إلى الشاه.

وكان للقيصرية الروسية النصرانية تدخلات مستمرة معروفة في شؤون إيران، وكان لها مطاعم تقليدية في بلادها، للوصول إلى سواحل المحيط الهندي، وتأكد أنّها كانت من مؤسسي الحركة «البابيّة» ثم «البهائيّة» التي كانت امتداداً لها، والطور الأخير

من أطوارها، وأنها كانت وراء خطط أطوارها، وأن الجاسوسية الروسية هي التي كانت تتصل سرّاً برجال هذه المنظمة، وتمدّها بالمال والتوجيه وخطط العمل. ومن هؤلاء الجواسيس المنافقين الأرمني الروسي «منوجهر خان» فقد أعلن هذا إسلامه نفاقاً، فغمره الشاه «محمد» بالفضل، وأعطاه ثقتة وعينه معتمداً للدولة في «أصفهان» فجعل هذا يمدّ الحركة البابية بالأموال الطائلة، وبالحماية والتأييد، ولمّا ثار المسلمون على «الباب» أخفاه هذا في بيته أربعة أشهر، وما كان يتصوّر أحد أن يكون مختبئاً عنده، وهو معتمد للدولة في أصفهان.

وجد اليهود في هذه الحركة البابية فرصة مناسبة لهم، فانضم منهم إليها نفاقاً لدعمها ونشرها وتمزيق المسلمين عدد ضخم كاف لتخريب دولة:

• ففي «طهران» دخل من اليهود فيها (١٥٠).

• وفي «همدان» دخل من اليهود فيها (١٠٠).

• وفي «كاشان» دخل من اليهود فيها (٥٠).

• وفي «كلباكيان» دخل من اليهود فيها (٨٥).

كما جاء في كتاب «مطالع الأنوار» للعلامة الشيعي «محمد الحسين آل كاشف الغطاء».

ويستند البايون في إثبات مفترياتهم على التوراة، وقد كان الميرزا «علي محمد رضا الشيرازي» في سجنه يحتفظ بنسخة من العهد القديم، ويطلع فيها بإمعان.

ودعا البايون إلى الإباحية الجنسية، تحت سنار تحرير المرأة في إيران، وتخليصها من أوضاعها الفاسدة التي كانت تعيش فيها.

وأخذت أجهزة الدعاية الغربية، ودوائر التبشير العالمي، تمجّد بالحركة «البابية» وتعتبرها حركة تقدمية تحررية، وأنها جاءت لإنقاذ المسلمين من الإسلام المتعصب.

واعتقد البايون تبعاً لأقوال إمامهم الباب عدة عقائد، منها:

(١) إنكار البعث والمعاد إلى الحياة، ويفسرون القيامة بالظهور الذي تجلّى به الله في الأنبياء وفي الأئمة، ومنهم الباب.

(٢) ويعتقدون أن عدد الوحدة الربانية هو رقم (١٩) وأن هذا العدد سرٌّ من الأسرار المقدسة التي لا يتم نظام العالم إلا به.

وتبعاً لتقديس العدد (١٩) جعل الباب الشهر تسعة عشر يوماً، والسنة تسعة عشر شهراً.

(٣) أوجب الباب على البنت أن تتزوج بعد إحدى عشرة سنة من عمرها، وأوجب على الأرملة أن يتزوج بعد تسعين يوماً من موت زوجها، وأوجب على الأرملة أن تتزوج بعد خمسة وتسعين يوماً من موت زوجها.

(٤) وألغى صلاة الجماعة، باستثناء صلاة الجنازة، وجعل الوضوء اختيارياً للصلاة، وحكم بأنه لا توجد أشياء نجسة على البابي، بل كل الأشياء بالنسبة إليه طاهرة، ومنع الصدقة على الناس، ودعا إلى تحرير المرأة من قيود الأخلاق، وهنا تبرز مكيده اليهود العالمية.

(٥) واشتمل كتاب «الباب» المسمى «البيان» على أقوال سخيفة تافهة تُثير الضحك والسخرية، منها ما جاء في اللوح الأول منه:

«إنا قد جعلناك جليلاً للجاللين. وإنا قد جعلناك عظيماً عظيماً للعظامين. وإنا قد جعلناك نوراً نوراً نوراً للناورين. . . وإنا قد جعلناك تماماً تميماً للتأمين».

وهكذا على هذا النمط من الهراء المقرف.

(٦) وأقل «الباب» النبوة والربوبية التي ادّعاها لنفسه إلى ما يزيد على ألفي سنة. وحرم اكتساب العلم، على اعتبار أن العلم إنما يكون فيضاً لمن تظهر فيه تجليات الرب.

وعقد البابيون مؤتمراً يعرف عندهم بمؤتمر «بدشت» وكان ذلك سنة (١٢٦١هـ / ١٨٤٨م) وكان لزوجته «كاظم الرشدي» التي لقبها «قرة العين» أثر كبير في توجيهه، مستخدمة مآلها من جمال، وسحر حديث، وما لذيها من تحلل من قيود الأخلاق والدين وانطلاق في الفجور، وتأثير على الرجال بأنوثتها الطاغية.

وكان يحرك هذه المرأة ويوجهها سرّاً في مؤتمريهم هذا «حسين علي بن عباس

بزرك المازندراني، أحد تلاميذ «علي محمد رضا الشيرازي»، فقد سبق أن سُجِنَتْ هذه المرأة بتهمة قتلها لعمها، فأرسل لها «حسين علي المازندراني» من ساعدها على الفرار من السجن، فحضرت إليه، وعشقتة، فقد كان مع خبثه شاباً جميلاً وسيماً جذاباً.

ولأول مرة أعلنت هذه المرأة بين البابيين في هذا المؤتمر أنّ الشريعة الإسلامية قد نُسخَتْ، وَحَمَلَتْ الكثيرين على قبول هذه الفكرة المقترة على الله.

الطور الثالث:

كان بين تلاميذ وأتباع الميرزا «علي محمد رضا الشيرازي» الذي دعا نفسه «الباب» وعُرفت منظَّمته بالبابية، كما سبق بهذا البيان، شابان أخوان:

الأخ الأول: وهو الأكبر، الميرزا «حسين علي بن عباس بزرك المازندراني» نسبة إلى بلدة «مازندران» في إيران، المولود سنة (١٢٣٣ هـ) والذي سبق الحديث عنه آنفاً.

نشأ هذا شغوفاً بمخالطة ومعاشرة الصوفيين من باطنيين الشيعة، وذو ولع بقراءة كتبهم.

وحيثما ادّعى الباب المهدية أتبعه بتوجيه وإرشاد من الملاء عبد الكريم القزويني، وبدأ ينشر مذهب أستاذه في طهران.

ولما انعقد مؤتمر البابيين في «بدشت» حضره، وصار يوجهه سراً ويحركه من وراء عاشقته «قرة العين» كما سبق بيان هذا.

وقد كان هذا داهية ذكياً خبيثاً مكرراً مخاتلاً شيطاناً، قادراً على أن يتوارى وينافق ويراع ويُسوّف ويُقنع.

الأخ الثاني: وكان فتىً يافعاً قليل الحيلة يسيطر عليه أخوه الأكبر، اسمه «يحيى نور» وقد لقّبه الباب: «صُبْح الأزل» وكان هذا أخاً «لحسين علي» من أبيه.

واتفق الذين أرخوا لهذه المنظمة أن الباب «علي محمد رضا الشيرازي» قد جعل الأخ الأصغر من تلميذه الأخوين وهو «صُبْح الأزل يحيى نور» خليفته من بعده، وعين الأخ الأكبر منهما «حسين علي» وكيلاً له، وأمره بحجب أخيه وإخفائه لئلا يمسّه أحد بسوء، ولا يقع في أيدي الحكومة الإيرانية.

واستغلّ الأخ الأكبر منهما هذا الوضع لنفسه، فحجب أخاه حتى عن كلّ البايين، فكان هو الموجه للمنظمة كلها باسم أخيه، وهو يعمل في الحقيقة لنفسه. وعقد هذا صلاتٍ قويّةً بالدولة الروسية القيصرية الصليبيّة، وبالدولة البريطانية، وهذا مدوّن في كتب هذه المنظمة الخائنة العميلة لأعداء الإسلام.

وعزم البايون على أن يغتالوا الشاه «ناصر الدين» انتقاماً للباب، إذ نفّذ فيه حكم الإعدام بناء على فتوى العلماء بقتله، قيل: وكان «حسين علي» الأخ الأكبر منهما الرأس المدبر لاغتيال الشاه. ولما خابت مؤامرة اغتياله لاحقته الدولة، فلجأ إلى السفارة الروسية فحمته، وطالبت الحكومة الإيرانيّة السفارة الروسية بتسليمها المجرم المتآمر على اغتيال الشاه، فامتنع الوزير الروسيّ المفوض بطهران عن تسليمه، ثم أرسله محفوظاً إلى منزل رئيس وزراء إيران يومئذٍ «آقا خان» وكتب إليه ما ترجمته:

«إنّ الحكومة الروسية ترغب في أن لا يمسه أحد بسوء، وأن يكون في حفظ وحماية تامّة، وأنّه إذا لم يحفظه فسيكون هو شخصياً مسؤولاً عنه».

وتدخّل أيضاً السفير البريطاني في طهران طالباً حمايته، وأن لا يُمسّ بسوء.

وكان رئيس وزراء إيران «آقا خان» من الموالين للروس، فأخفاه عنده أوّلاً، وبعد أن دبر أمر حمايته من القضاء قدّمه إلى الحكومة لإجراء التحقيق بأمره، فأودع في سجن «سياه جال» أربعة أشهر، ثم اتّخذ «آقا خان» تدابير إصدار الحكم ببراءته من الاشتراك في مؤامرة اغتيال الشاه، مع أنه كان هو الرأس المدبر، استجابة لضغوط الروس والإنكليز.

وكان سفير الروس في إيران يومئذٍ «كنيازد الغوركي» الذي كان له دور كبير في تأسيس هذه المنظمة، كما ذكر هو في مذكراته التي نشرتها مجلة «الشرق» السوفييتية سنة (١٩٢٤م).

وجاء أيضاً في أقوال «حسين علي» هذا بكتابه: «سورة الهيكل» ما يلي:

«يَا مُلِكُ الرُّوسِ . . . وَلَمَّا كُنْتُ أَسِيرًا فِي السَّلَامِلِ وَالْأَغْلَالِ فِي سَجْنِ طَهْرَانِ نَصَرْنِي سَفِيرُكَ».

وجاء في كتابه: «مبين»:

«يا ملك الروس... قد نصرني أحد سفرائك إذ كنتُ في السجن تحت السلاسل والأغلال، بذلك كتب الله لك مقاماً لم يُحِطَ به أحدٌ إلّا هو».

وبعد الإفراج عنه صدر الأمر بنفيه إلى بغداد، فخاف أن تبعث الدولة من يقتله في الطريق، فاتفق مع الروس على أن يعثوا له من فرسانهم من يحميه حتى يصل إلى بغداد، ففعلوا ذلك، ووصل إلى بغداد مع أسرته وبعض البايين سنة (١٢٦٩هـ - ١٨٥٣م).

ثم ارتحل أخوه الأصغر «يحيى نور» صُبح الأزل» إلى بغداد، مُتَخَفِياً بشباب الدراويش.

واستمر الأخ الأكبر «حسين علي» يدير المنظمة نيابة عن أخيه، فبراسلُ عنه، ويخاطبُ الناس عنه.

وفي بغداد بدأ الشقاق بين الأخوين، لأن الأخ الأصغر «يحيى نور» صُبح الأزل» أدرك أن أخاه يعمل لحساب نفسه، ويريد أن يكون هو زعيم المنظمة بعد «الشيرازي» الذي زعم نفسه «الباب» وناصر كبار البايين صاحب الخلافة الأصل، الأخ الأصغر.

فغضب الأخ الأكبر «حسين علي» في نفسه، وقرّر أن يعتزل خارج المدينة بعيداً عن أخيه وأفراد المنظمة ليُخرج أخاه الأصغر، وفي سنة (١٢٧٠هـ - ١٨٥٤م) خرج إلى جبال السليمانية وحده، فاعتزل في كهف من كهوفها ستين كاملتين، وترك إدارة دفة المنظمة، ولعلّ هذا الاعتزال قد أربك أخاه، فكتب إليه يأمره بأن يعود إلى بغداد، وأن يطيع أمره، بصفته رئيساً للمنظمة وزعيمها، وخليفة الباب الراحل بلا منازع، فأطاع «حسين علي» ورجع إلى بغداد معترفاً بقيادة أخيه الأصغر وزعامته.

ثم اشتد الخلاف بين الأخوين، واتهم كلُّ منهما أخاه بمحاولة قتله عن طريق دسّ السّم له في الطعام أو الشراب، وصار الأخ الأكبر «حسين علي» يُحرّض أشياعه ضدّ أتباع أخيه ومناصريه، وذكروا أنه استطاع أن يقتل بالسّم عدداً من كبار البايين أنصار أخيه.

وتوافد «البابيون» إلى بغداد، وكثرت خلافاتهم وأحزابهم، واشتكى منهم مسلمو السنة وعلماء الشيعة إلى الحكومة المحلية، وأبلغت هذه الحكومة المحلية الحكومة الإيرانية بأمر هؤلاء، وما يقومون به من شغب، فتم الاتفاق بعد مراسلات ومشاورات بين الحكومة الإيرانية وحكومة السلطنة العثمانية على نقلهم إلى «إستانبول».

وحين توجه الأخوان مع أتباعهما مرتحلين إلى «إستانبول» سنة (١٢٧٩ هـ ١٨٦٣ م) أعلن الأخ الأكبر «حسين علي» لخاصته ورفاقه المحبين له أنه هو الموعود الذي أخبر عنه «الباب» إذ كانوا مجموعين خارج بغداد، في حديقة «نجيب باشا» وتخليداً لذكرى إعلانه هذا فيها يُسمونها «حديقة الرضوان». وقيل: أعلن دعوته بعد ذلك في «أدرنة» من تركيا، ولم يعلم الأخ الأصغر بما أعلنه أخوه.

وسبقوا إلى «إستانبول» فأقاموا فيها قليلاً، ثم نقلوا إلى «أدرنة».

وفي «أدرنة» أظهر الأخ الأكبر «حسين علي» أنه هو المظهر الأول للإلهية التي بشر بها «الباب» ولقب نفسه: «بهاء الله».

عندئذ نشب الخلاف الشديد بين الأخوين، بعد أن رفض حزب أخيه الاعتراف له بذلك.

وظهر للخلاف بينهما آثار مزعجة للسلطنة العثمانية، إذ وصلت إلى حد التقاتل جهاراً، وإحداث الفوضى، فتدخلت حكومة السلطنة العثمانية، بالاتفاق مع سفارة إيران على نفيهما إلى بلدين متباعدين.

فنت الأخ الأكبر «حسين علي» = بهاء الله إلى «عكا» من فلسطين، هو وأتباعه، وكانت «عكا» يومئذ منفى كبار المجرمين، إذ كانوا يرسلون إليها من جميع أنحاء تركيا، ونفت «يحيى نور» = ضبح الأزل إلى «قبرص» = قبرص.

وكان مكوثهما في «أدرنة» أربع سنوات ونصف السنة.

ولما كان الأخ الأكبر «حسين علي» = بهاء الله، أخصب الأخوين وأكثرهما مكرراً وحيلة وقدرة على الإغواء والتضليل، وتوسيع دائرة المنظمة، فقد اعتمدته القوة المدبرة الخفية اليهودية والصليبية ليكون قائد المنظمة.

ومن ثم عرفت المنظمة باسم «البهائية» نسبة إلى حسين علي بن عباس بزرگ المازندراني الذي أعطى نفسه لقب «بهاء الله».

ومنذ ذلك الحين أخذت البهائية أتباع «بهاء الله» تنتشر بدعم الصهيونية العالمية والصليبية، ثم احتضتها أمريكا بدعم قوي.

ورعت الصليبية العالمية، والصهيونية في منفاها، وعُظِّلت أوامر السلطنة العثمانية القاضية بسجنه والتضييق عليه وأُغْدِقت عليه وعلى البهائيين معه الأموال من قِبَل أعداء الإسلام، وعاش في «عكة» و«حيفا» و«البهجة» في قصور فخمة، وحنائق غناء عيش الملوك، قرابة أربع وعشرين سنة.

وَألف «حسين علي = بهاء الله» عدة كتب ورسائل زعمها كتباً مقدسة، منزلة من عند الله، منها كتاب سماه «الأقدس» وادّعى أنه وحي من الله، وينسب إليه كتاب اسمه «إيقان» طبعه محفل البهائيين المركزي في مصر سنة (١٣٥٢هـ).

ولمّا بلغ الخامسة والسبعين من عمره جاءه مرض الموت، وانتهت رحلة امتحانه في الحياة الدنيا، وهلك ليلقَى عذاب ربّه، بعد حُجْمٍ نزلت به.

وكان موته في الثاني من ذي القعدة سنة (١٣٠٩هـ و ١٨٩٢/٥/٢٨م).

وخلفه بعده ابنه الأكبر «عباس أفندي» الملقّب «الفنّ الأعظم» وسَمَّى نفسه بعد موت أبيه «عبد البهاء» وكان هذا زعيم البهائية ونبياً بعد أبيه، وكان هذا أكثر ذكاء من أبيه وأخبث وأعظم حيلة ومكرّاً ونفاقاً، يحضر مساجد المسلمين ويصلي معهم، ويحضر كنائس النصارى ويصلي معهم، ويحضر معابد اليهود ويصلي معهم.

وكان قد وصّى «بهاء الله» بخلافته من بعده لابنه الأكبر «عباس = عبد البهاء» هذا المولود في ١٨٤٤/٥/٢٣م الموافقة لسنة (١٢٦٠هـ).

وبعد له للأصغر منه «محمد علي» وكتب بذلك كتاب الوصية، وختمه بخاتمه.

و«عباس = عبد البهاء» هو الذي أتمّ تكوين البهائية، وأظهرها على الوجه الذي هي عليه بعد الانتشار والظهور، وهو الذي أخرجها من الكتمان، وصبغها بصبغة عصرية، وادّعى النبوة بعد أبيه، وادّعى في أمريكا بأنه هو المسيح، وابن الله.

وزاد هذا الابن الشيطان على تعاليم أبيه زيادات كثيرات، وحذف منها وعدل، واستعان بأفكار من العهد القديم، وأفكار من العهد الجديد؛ ليكون للبهائية إمكانيات انتشار أكثر.

وهلك عباس في ٢٨ ربيع الأول سنة (١٣٤٠هـ) و ٢٨ تشرين الثاني سنة (١٩٢١م). وتأثرت الحكومة البريطانية لوفاة عميلها المخلص لها وللصهيونية العالمية، فأبرقت تعزي به آل البهاء والبهائيين.

ولم يكن له ولد ذكر من ذريته يخلفه.

فخلفه من بعده «شوقي أفندي» ابن بنته الكبرى، باستخلاف منه. وكان عمره عند هلاك جدّه «عباس = عبد البهاء» خمساً وعشرين سنة.

ولُقّب بعد جده «ولي أمر الله» وتزوَّج امرأة أمريكية اسمها: «ماري ميكسويل» سنة (١٩٣٦م) أو اسمها «روحية ماكسويل».

ومات في (٤/١١/١٩٥٧م) في لندن بالسكتة القلبية، دون أن يكون له عقب في ولاية أمر البهائيين حسب تعاليمها.

فانقسم البهائيون إلى فرق وأقسام متعدّدة، ولولا إمساك الصهيونية لهم، والصليبية والاستعمار لانفرط عقدهم، وانحلّ تماسكهم.

* * *

(٣)

مبادئ البهائيين العامة

للبهائيين مبادئ عامة خمسة:

المبدأ الأول: وحدة الأديان.

من الثابت أنّ فكرة وحدة الأديان إحدى المكاييد اليهودية الماسونية، التي تتظاهر بها لسلخ الناس من ولاءهم الدينية الخاصة، في حين يُوصي قادة اليهود كُلّ يهودي أن يُحافظ سرّاً على يهوديته وولائه لكتب اليهود، مهما تظاهر بانتمائه إلى أيّ دين أو أيّ مذهب آخر أو أيّ تنظيم في العالم، وأن يعمل على خدمة الحركة اليهودية

الصهيونية، وتسخير المنظمة التي ينتمي إليها، وأهل الدين الآخر الذي يتظاهر بالانتماء إليه، لتحقيق حلم اليهود الأكبر، وهو حكمهم العالم كله في دولة عالمية واحدة، يسيطر ملك بني إسرائيل عليها.

المبدأ الثاني: وحدة الأوطان، أي: الأرض كلها وطنٌ واحد للجميع.

وهذه أيضاً من الأفكار التي ترى الصهيونية العالمية أنها تمهد للدولة العالمية التي يسعى اليهود لإيجادها على أن تكون في قبضتهم.

المبدأ الثالث: وحدة اللغة.

وهذه الفكرة هي أيضاً إحدى المخططات اليهودية الصهيونية التي تتبناها الماسونية.

فقد جاء في إحدى الوثائق التي تكشف بعض المقررات السرية اليهودية ما يلي:

«وعندما نتيقن من نجاح مخططاتنا هذه ستكون ساعة الصفر قد أزفت، فترحف جيوشنا إلى الميادين المعينة لها، وستنفضي سريعاً على مقاومة أعدائنا التي ستكون حتماً هزيلة، ونزيل الدول المنهارة عن طريقنا، ثم نعلن للعالم انتصارنا، ونفرض عليه سيادتنا تحت ظل الدولة العالمية الموحدة، وعلمها ذي النجمة المقدسة. . .

وسنفرض على العالم ثقافتنا، ومن ثم سننفضي على اللغات المستعملة الآن، وسنرغم الشعوب على دراسة اللغة (البيديشية = اللغة العامية اليهودية) وخدّها، التي ستكون اللغة العالمية للشعوب كافة، وسنختص نحن باللغة العبرية الأصلية، لغة السادة والشعب المختار، وسنمنع اتخاذ اللغات الأخرى، ونُلغى العالم تاريخنا وحده»^(١).

المبدأ الرابع: السلام العالمي، وتحريم الحرب.

وهذه أيضاً إحدى المخططات اليهودية في لعبتهم السياسية العالمية تمهيداً لحكم العالم^(١).

(١) انظر الوثيقة الثالثة من «وثائق من أقوال اليهود» في كتاب «مكايد يهودية عبر التاريخ» للمؤلف.

المبدأ الخامس : المساواة بين النساء والرجال .

وهذه أيضاً إحدى الأفكار اليهودية التي يريدون بها إخراج المرأة من كل قيود التعاليم الدينية، وقيود العفة، لإفساد الشعوب، وتدمير أخلاقها .

* * *

(٤)

حيلتهم التفاقية بالنسبة إلى النصوص الإسلامية

من الملاحظ لدى البهائيين أنهم يستخدمون النصوص الإسلامية، لكنهم يُحرفون دلالاتها وفق الطريقة الباطنية، ويلوون أعناقها لما يخدم دعم مفهوماتهم الباطلة، وتحريف الإسلام .

وأقوالهم ومكتوباتهم مشحونة بمثل هذه التحريفات والتفسيرات الباطلات، وفق الطريقة الباطنية المعروفة لدى الفرق الباطنية المختلفة .

* * *

(٥)

من الأحكام التشريعية

لهذه النحلة المفتراة على الله

للبهائيين جملة أحكام وردت على السنة زعمائهم، بعد أن تعرضت لتعديلات وتغييرات متعاقبات بحسب تعاقب الزعماء، فمنها ما يلي :

(١) تحريم حجاب المرأة .

(٢) إباحة الزواج من كل امرأة باستثناء زوجة الأب .

(٣) تحريم الزواج بأكثر من زوجتين .

(٤) وجوب طاعة السلطان القائم وعدم جواز الاعتراض عليه، فقد جاء في

كتاب «الأقدس» من كتبهم ما يلي :

«ليس لأحد أن يعترض على الذين يحكمون على العباد» .

(٥) إنكار يوم الدين، وادعاء أن الدنيا تكون هكذا إلى الأبد، وأن القيامة والنشور إنما هي ظهورات ونجليات للرّب تكون في هذه الدنيا، لأشخاص تنجلى فيهم الروح القدسيّة العلية.

(٦) إلغاء الجهاد في سبيل الله، وهذا الإلغاء هو إحدى القضايا المهمة التي يعمل اليهود وسائر أعداء الإسلام لإقناع جميع المسلمين بها.

* * *

(٦)

تأمرهم ضدّ الأمة الإسلاميّة

قام البهائيون بدور الأجير المطيع في تنفيذ مخططات أعداء الإسلام، من صليبيين، واستعماريين ويهود.

إنهم يقرّرون ويعترفون في كتبهم ونشراتهم بأنهم عملوا على سقوط الحكومة العثمانية في فلسطين، وبأن المستعمرين الإنكليز قد دخلوا الأراضي المقدّسة بمساعيهم، ويتباهون بأنهم كانوا قد تنبؤوا بقيام الدولة الإسرائيليّة، وتحدّثون عن الصلات الوثيقة التي تقوم بينهم وبين دولة إسرائيل.

وفيما يلي طائفة من الوثائق التي تكشف تأمرهم مع أعداء الإسلام ضدّ الإسلام والمسلمين:

(١) نشرت مجلّة «الأخبار الأمريّة» التابعة للمحفل الروحاني الوطني للبهائيين، بالعدد الخامس الصادر في أيلول لعام (١٩٥١م) حديثاً لرئيس القسم العالي للبهائيين، مع وزير أمور الأديان الإسرائيلي، يقول فيه:

«إنّ أراضي الدولة الإسرائيليّة في نظر البهائيين واليهود والمسيحيين والمسلمين أراضٍ مقدّسة، وقد كتب حضرة عبد البهاء قبل أكثر من خمسين عاماً أنّه في النهاية ستكون فلسطين موطناً لليهود، وهذا الكلام طُبِعَ في حينه وانتشر».

(٢) وجاء في كتاب «التوقيعات المباركة» بالمجلد الثاني، لمؤلفه «شوقي أفندي» في الصفحة (٢٩٠) ما يلي:

«لقد تحقّق الوعد الإلهي لأبناء الخليل، ووارثي الكليم، وقد استقرّت الدولة الإسرائيلية في الأراضي المقدّسة، وأصبحت العلاقات بينها وبين المركز العالمي للجامعة البهائية وطيدة، وقد أقرّت واعترفت بهذه العقيدة الإلهية».

(٣) ونشرت مجلة «الأخبار الأميركية» بالعدد العاشر الصادر في عام (١٩٦١م) ما قالته زوجة «شوقي أفندي» الأميركية زعيمة البهائيين بعد موت زوجها، في مقابلة صحفية لها مع «مزدهيقت» وهو:

«فإن كان من المقرر لنا الاختيار، فمن الجدير أن يكون هذا الدين الجديد في أحدث دولة، وفيها يتعرّج، وإنّ لنا مع إسرائيل روابط، ووحدة مصير، وفي الواقع يجب أن أقول: إنّ مستقبلنا ومستقبل إسرائيل يرتبطان ببعضهما كحلقين في سلسلة واحدة».

(٤) إنّ مركز تشكيلات البهائيين الرئيسي، ويسمّى «بيت العدل» يوجد حالياً في مدينة «حيفا» بفلسطين المحتلة، وتشرف عليه هيئة مكوّنة من تسعة أشخاص بينهم أمريكيون وأوروبيون. وكلّ المحافل الأخرى التي تقام في العالم تعتبر فرعاً للمركز الرئيسي في إسرائيل.

(٥) أعلن في النشرة الرسمية للبهائيين في إيران أيام رئاسة «ابن غوريون» للوزارة الإسرائيلية ما يلي:

«مع كمال الفخر نبّغ البهائيين باتساع الروابط بين البهائيين والمسؤولين في دولة إسرائيل».

وفي تلك الأثناء قام وفد من البهائيين بمقابلة «ابن غوريون» وقدم له تمنيات البهائيين القلبية لتقدم وتطوّر إسرائيل.

(٦) في السابع من شهر نيسان لعام (١٩٦٤م) قام الرئيس السابق لإسرائيل «زالمان شازار» بزيارة رسمية لمركز البهائيين، واستقبله هؤلاء استقبالاً حاراً، ظهر فيه مدى التعاطف والتعاون بينهم وبين اليهود.

(٧) ثبت لدى مكتب المقاطعة العربية لإسرائيل أنّ البهائية تتعامل مع الصهيونية، وتتآزر معها، لذلك أصدر في شهر صفر عام (١٣٩٥هـ) الموافق لأذار

لعام (١٩٧٥م) قراراً باعتبار «البهائية» من الحركات الهدامة، وبوضعها في القائمة السوداء، ومقاطعتها، وحظر أي نشاط لها في البلاد العربية، لثبوت تعاملها مع العدو الإسرائيلي، واقتضاح اتصالاتها المشبوهة بالصهيونية، وبأجهزتها السرية والعلنية.

أقول:

كانت هذه المنظمة منظمة منافقة داخل الأمة الإسلامية، ثم تكشفت خباياها شيئاً فشيئاً حتى ظهر كفرها وعداؤها للإسلام والمسلمين.

ولا يزال بعض الأفراد المتسبين إلى البهائية سرّاً يظهرون أمام المسلمين بوجوه منافقة في بداية الأمر، ثم يظهروهم كفرهم وعداؤهم للإسلام والمسلمين، ومن هؤلاء من رَوَّج لسر العدد (١٩) في «بسم الله الرحمن الرحيم» ومضاعفاته في حروف بعض سور القرآن، حتى إذا استقرت القاعدة في أذهان بعض المسلمين انتقلوا إلى اعتبار بعض ما في القرآن ليس منه متى خالف القاعدة التي زعموها قاعدة لازمة.

ولئن اتفق وجود شيء من ذلك في بعض سور القرآن، فلا يزيد على كونه من بدائعه، ولا يقتضي التزام ذلك في كل سورة، فثبت نص القرآن محكوم بالنقل المتواتر عن الرسول فمن بعده، ولا شيء غير ذلك، ولن يخالف نص من نصوصه الحق والهدى.



منظمة القاديانية^(١) إحدى المنظمات المناقفة المنشقة عن جسم الأمة الإسلامية

(١)

مقدمة

القاديانية منظمة لَبِسَتْ قناع النفاق، فتظاهرت بأنها ذات رسالة تتضمن الإصلاح الإسلامي، والنهضة بالمسلمين، وهي في قياداتها والعالمين بخفاياها من القاديانيين تُبْطِنُ الكفر، والعمل لهدم الإسلام، وإقناع المسلمين بإلغاء الجهاد في سبيل الله، وخدمة الاستعمار البريطاني، وتفريق المسلمين بصناعة فرقة تنتمي إلى الإسلام ظاهراً، وهي حَرْبٌ عليه، وعميلةٌ لأعدائه، وتعمل بما تستطيع من جُهدٍ لكي تُلْغِي من تعاليم الإسلام كُلُّ ما يُؤْثِر على السياسات الاستعمارية، وكلُّ ما يقف في وجه الاستعمار، ويضر بمصالحه في بلدان وشعوب الأمة الإسلامية.

وهي منظمة مؤسَّسة وموجَّهة ومُؤوَّلَةٌ من قبل الاستعمار الإنكليزي، والدولة البريطانية التي كانت الهند منشأ القاديانية إحدى مستعمراتها في العالم.

فهذه المنظمة شبيهة بالبهائية، إلا أنها ذات مكر أشد، وأقنعتها أكثر كثافة وخداعاً، الأمر الذي هَيَّأَ لها إمكانات انتشار أوسع، بين بعض الشعوب المسلمة، التي

(١) المعلومات النصية والخبرية عن القاديانية مقتبسة من كتاب «القاديانية» للشيخ أبي الحسن الندوي، وأبي الأعلى المودودي والشيخ محمد الخضري حسين، وعن كتاب «القاديانية دراسة وتحليل» لإحسان إلهي ظهير. وكتاب «القادياني ومعتقداته» للشيخ منظور أحمد جيتوني.

ليس فيها علماء مسلمون، والتي يلاحظ فيها أن انتماءها إلى الإسلام انتماء غير قائم على فهم صحيح لمبادئه وشرائعه وأحكامه وتعاليمه.

ويقدر القاديانيون على اختلاف فرقهم بقراءة مليون قادياني على ما ذكر، وهم متشرون في العالم الغربي، وإفريقية، والأقل منهم في باكستان والهند.



(٢)

بدء المكيدة وتأسيسها

(١) لقد ألقى الدولة البريطانية الاستعمارية حركات الجهاد الإسلامي، التي تفجرت في مستعمراتها الإسلامية في مواطن متعددة، ورات أن شعوب الأمة الإسلامية تتحرك بالدين، وتسكن بالدين، لتتغلغل الدين إلى مراكز العمق منها.

(٢) فاجتمع قادة الاستعمار البريطاني وزعماءه في «لندن» وقد كانوا يسيطرون بالسلطة الاستعمارية الاستغلالية على شبه القارة الهندية التي تحتوي على مئات الملايين من المسلمين الأعداء الطبيعيين للاستعمار البريطاني وغيره، ويسيطرون بالسلطة الاستعمارية على مستعمرات أخرى فيها مئات الملايين المسلمين من الشعوب الأخرى.

فراوا أن الإسلام بمفهوماته الحق المتغلغلة في أعماق المسلمين عقبة كبرى، لا تجعل رغباتهم الاستعمارية تتحقق لهم دواماً، وهم آمنون مستقرون في بلدان المسلمين، ولا سيما ما في الإسلام من أخلاق العزة التي يفرسها في قلوب المسلمين المؤمنين، والتي تأسى أن يخضع المسلم لغير الله عز وجل، ولأن أمر الله بطاغية من أولي الأمر من المسلمين المطبقين شريعة الله لعباده، وكذلك ما في الإسلام من تحريم اتخاذ أولياء من دون المؤمنين، وما فيه من وجوب الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وتحرير الأمة الإسلامية من سلطان غير المسلمين عليها.

فراوا أن يحدثوا فرقة منافقة تتظاهر بالإسلام، وتعمل على تغيير المفاهيم التي تحرك المسلمين، فلا تمكن الدولة الاستعمارية من الاستمرار في تحقيق أهدافها الاستعمارية الاستغلالية في شعوب الأمة الإسلامية وبلدان هذه الشعوب.

ولكن هذه الفرقة لا بد أن يؤسسها واحد من أبناء المسلمين، ولا بد أن يتأصله جمهور من أبناء المسلمين أيضاً، وهذا الواحد لا بد أن يكون عميلاً مضموناً من عملاتهم، وهؤلاء الأنصار لا بد أن يكثر فيهم العملاء والجواسيس للدولة الاستعمارية، حتى يجتمع عليهم أهل الأهواء والمطامع الدنيوية والمنافقون الذين يجدون لدى العملاء ما يرغبون فيه من أموال ومناصب وشهوات، مع ما هم فيه من رغبات تحلل من قيود الدين، ومن الالتزام بأحكامه وشرائعه الحق.

ولا بد لهذه الفرقة الأجيعة المناقفة المراد إحداثها في مجتمع المسلمين، والتي ستحدث هذا التغيير الخطير في المفاهيم الإسلامية المجمع عليها لدى مختلف المذاهب الإسلامية المعتبرة عند جماهير المسلمين، من أن تقوم على ادعاء تلقى وحي جديد عن الله، يتضمن هذه التغييرات المراد إحداثها، وهذا لا يكون إلا بحيلة بعث نبي جديد، أو رسول جديد، يفسر نصوص الإسلام تفسيرات جديدة تتضمن هذه التغييرات المراد إحداثها وتتبع هذه الفرقة قليلاً عن ادعاء ربوبية زعيمهم، وحلول روح الله في شخص زعيمهم، لأنهم رأوا أن هذه المكيدة لم تنجح في البهائية النجاح المطلوب، وتتبع أيضاً عن التغيير الذي يمس شرائع الإسلام الكبرى وأحكامه، لأن مثل هذا التغيير غير مؤهل للنجاح كما دلته التجارب السابقة.

فتم إقرار الخطة بوجه عام، وكان لا بد بعدها من البحث عن الرأس الذي يكلف حمل هذه المهمة الخطيرة.

(٣) وكان للإنكليز إجراء جواسيس خائنون لشعوبهم ودينهم، اشترتهم بالمال والمناصب والشهوات، فأزروهم وساعدوهم في كل مستعمراتهم.

وقد هال الإنكليز أعداد المسلمين الكثيرة في شبه القارة الهندية، فأروا أن يكون الرأس المختار لحمل مهمة تأسيس الفرقة الأجيعة المناقفة التي قرروا تأسيسها من مستعمراتهم في الهند، وذلك لتكون طلائع الفرقة التي تجتمع حوله مناصرة لهم، من أفراد هذا البحر البشري المائج في شبه القارة الهندية، فتحمي استقرارهم، وتطفيء نيران الثورات التي قد توجب ضد وجودهم الاستعماري.

(٤) وبعد البحث في مصنفات الأجراء والعملاء والجواسيس وجذ الإنكليز في

قرية «قاديان» إحدى قرى «البنجاب» شخصاً يحمل لهم هذه المهمة، في أسرة هي عميلة للاستعمار البريطاني سابقاً، إنه «غلام أحمد بن غلام مرتضى».

فقد كان أبوه «غلام مرتضى» واحداً من الذين خانوا المسلمين، وتأمرؤوا عليهم، وقد خدم هذا الحكومة البريطانية بما يستطيع من قوة، وكان له كرسي في ديوان الحكومة الإنكليزية المستعمرة، وأمدّها بخمسين جندياً من أنصاره وبخمسين فرساً، في الثورة التي قامت ضد الإنكليز سنة (١٨٥٧م) وتلقّى على ذلك رسائل شكر وتقدير من رجال الحكومة الإنكليزية، وقد ذكر هذا ابنه «غلام أحمد» في «حاشية إزالة أوهام».

ولما وقع اختبار الإنكليز على «غلام أحمد» ابن عميلهم القديم «غلام مرتضى» التّقوّة واتفقوا معه على أن يقوم بمهمته، ورسموا له خطوات العمل.

(٥) فبدأ «غلام أحمد القادياني» يفترى مشاهدات غيبية ويعلنها، ويصنع أقوالاً ويزعم أنه قد ألهمها، أو تنزلت عليه من الرّب عزّ وجلّ، فمن ذلك ما يلي:

(أ) قوله: «رايتُ ملكاً في صورة شابّ إنكليزي لم يتجاوز عمره عشرين سنة، جالساً على كرسيٍّ وأمامه منضدة، فقلت له: إنك جميل جدّاً، فقال بالإنكليزية: نعم، والهمني: أنا أحبك، أنا معك، أنا أساعدك، فارتجف جسمي، فالهمني بالإنكليزية: نحن نستطيع أن نفعل ما نريد، ففهمت التلقّف واللّهجة كأنه إنكليزي عند رأسي».

(ب) قوله: «رايتُ في الكشف أنّ الملكة المعظمة «قيصرة الهند» سلّمها الله تجلّت ونفضلت في بيتنا، فقلت لأحد من أصحابي: إن الملكة المعظمة شرّفتنا بكمال الحبّ والألفة، وسكنت يومين في بيتنا فلا بُدّ أن نشكرها».

(ج) وجاء من أقواله المدونة في مكتوباته ذات الأسماء المختلفة^(١):

«ماتت القلوب، وكثرت الذنوب، واشتدت الكروب، فعند هذه الليلة الليلية،

(١) مثل: «خطبة إلهامية» و«تحفة الندوة» و«ترياق القلوب» و«سفينة نوح» و«مرآة» و«عجّاز أحمدني» و«حقيقة الوحي» و«دافع البلاء» وغيرها.

والظلمات الهوجاء، اقتضى رحم الله نور السماء، فأنا ذلك النور، والمجدد المأمور، والعبد المنصور، والمهدي المعهود، والمسيح الموعود، وإني نَزَلْتُ بِمَنْزِلَةٍ مِنْ رَبِّي لَا يَعْلَمُهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ...

* فبشرى لكم قد جاءكم المسيح، مسخه القادر، وأعطاه الكلام الفصيح... وطوبى لكم قد جاءكم المهدي المعهود، ومعه المال الكثير، والمتاع المنضود... يا أيها الناس إني أنا المسيح المحمدي، وإني أنا أحمد بن المهدي.

* أنا المسيح الموعود الذي قُدرَ مَجِيئُهُ في آخر الزمان، من الله الحكيم الذَّيَّان، وأنا الْمُنْعَمُ عليه الذي أُشير إليه في الفاتحة عن ظهور الحزبين المذكورين.

* إني أنا المسيح، وبالحق أمشي وأُسيح... إِنْ عَيْسَى مَاتَ وَلَا يَحْيَا بِأَحْيَائِكُمْ.

* أنا المسيح، وأنا الكليم، وأنا محمد، وأنا أحمد المجتبي.

* انظروا الآن أَنْ الله جعل ما أوحى إِلَيَّ وتعاليمي وبيعني كسفينة نوح وجعلها مدار النجاة للناس أجمعين.

* جُعِلْتُ أنا مريم وبقِيَتْ مريم مستين...، ثُمَّ نُفِخَ فِي رُوحِ عَيْسَى كَمَا نُفِخَ فِي مَرْيَمَ وَجُيِلَتْ فِي صُورَةِ الاسْتِعَارَةِ، وَبَعْدَ أَشْهُرَ لَمْ تَتَجَاوَزْ عَشْرَةَ أَشْهُرَ حُولَتْ عَنْ مَرْيَمَ، وَصُيِّرَتْ عَيْسَى، وَبِهَذَا الطَّرِيقِ صَبَرْتُ ابْنُ مَرْيَمَ.

* أُعْطِيتُ صِفَةَ الْإِفْنَاءِ وَالْإِحْيَاءِ مِنَ الرَّبِّ الْفَعَّالِ.

إلى كثير من هذه الادعاءات التخريفية الباطلة.

(٣)

عمالته وتمجيده للإنكليز هو ومن تبعه

لم يُخَفْ «غلام أحمد القادياني» هذا الرسول الكذاب ولائه ومناصرته للدولة البريطانية الصليبية المستعمرة، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

(١) كتب أحد الصليبيين المستعمرين كتاباً تناول فيه أعراض أمهات المؤمنين، وطعن بنبوّة الرسول محمد ﷺ، فثار المسلمون في الهند، وقامت مظاهرات احتجاج عنيفة، وقدموا استنكارهم للحكومة المستعمرة الإنكليزية، وأعلنوا غضبهم على ما جاء في هذا الكتاب.

فصنّى عميلهم «غلام أحمد القادياني» المتنبى، الكذاب مهاجماً المسلمين الثائرين الغاضبين، ومناصرأ الدولة المستعمرة، مدّعياً أنه لا حقّ لهم في القيام بالمظاهرات الاحتجاجية ضدّ حكومة بريطانيا العظمى التي هي ظلّ الله في الأرض.

(٢) وكتب في إحدى مقالاته:

«نحن ننحسّل كلّ البلايا لأجل حكومتنا المحسنة، وستحسّل أيضاً في المستقبل، إذ يجب علينا أن نشكرها لإحسانها وبتبها علينا، ولا شكّ نحن فداء بأرواحنا وأموالنا للحكومة الإنكليزية ودوماً ندعو لعلوها ومجدها سرّاً وعلانية».

(٣) وجاء في رسالته «تحفة قيصرية»:

«أنا أشكر الله عزّ وجلّ أنه أظلّني تحت ظلّ رحمة بريطانيا التي أستطيع نحت ظلّها أن أعمل وأعظ، فواجب على رعيّة هذه الحكومة المحسنة أن تشكر لها، ويجب عليّ بوجه خاصّ أن أبدي لها الشكر الجزيل، لأنّي ما كنت أستطيع أن أنجح في مقاصدي العليا تحت ظلّ أيّة حكومة أخرى سوى حكومة حضرة قيصر الهند».

وقال أيضاً:

«ولعنة الله على من يريد الافتراق والفساد، وعلى من لا يريد أن يكون تحت أمر الأمير، مع أن الله قال: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر﴾ فالمراد من أولي الأمر هننا هو الملك المعظم، ولذا أنا أنصح مرديني وأشياعي بأن يُدخلوا الإنكليز في أولي الأمر، ويُطيعُوهُمْ من صميم قلوبهم».

يلاحظ أنه حذف من النصّ القرآني عبارة «منكم» فاصلها «وأولي الأمر منكم» بغية الإيهام والتضليل.

(٤) وجاء في كتاب «تبليغ رسالة»، لقاسم القادياني ذكّر نصّ عريضة رفعها «غلام أحمد القادياني» ل نائب أمير الهند البريطاني، وقد جاء فيها ما يلي:

«العريضة التي أرفعها إلى حضرتكم مع أسماء أتباعي، ليس المقصود منها إلا أن تلاحظوا الخدمات الجليلة التي أدّيتُ أنا وأباي في سبيلكم، وكما ألتمس وأرجو من الدولة العالية أن تُراعي الأسرّة التي أثبتت بكمال وفائها وإخلاصها طَوَالَ خمسین سنة، بأنّها من أخلص المخلصين للحكومة، والتي أقرّ واعترف بولائها أكابرُ أمراء الحكومة العظمى وحكّامها، وكتبوا لها وثائق وشهادات على أنّ هذه الأسرّة أسرّة خدام، وأسرة مخلصه، فلذا أرجو منكم أن تكتبوا للحكّام الصغار برعاية هذه الشجرة وحفظها، التي ما غرسها إلا أنتم، كما أرجو أن ينظروا إلى أتباعي بنظرة ودّية خاصة، لأننا ما تأخّرنا أبداً عن التضحيات في سبيلكم، لا بالنفوس، ولا بالدماء، كما لا نتأخّر عن ذلك.

فلأجل هذه الخدمات الجليلة، نحن نستحق أن نطلب من الحكومة العظيمة المدد والعون، لئلا يتجرأ أحد علينا.

(٥) ومما جاء في مکتوباته:

«لقد قضيت معظم عمري في تأييد الحكومة الإنكليزية ونصرتها، وقد ألقت في منع الجهاد، ووجوب طاعة أولي الأمر الإنكليز، ما لوجّع بعضه إلى بعض لملأ خمسین خزانة.

وجاء فيها أيضاً:

«إنني ملأت المكاتب من الكتب التي كتبها في مدح الإنكليز، وخاصة في وضع الجهاد الذي يعتقد كثير من المسلمين، وهذه خدمة كبيرة للحكومة، فأرجو أن أجزى بها جزاء حسناً.

(٦) وكان للقاديانيين أجراء الإنكليز في الهند امتيازات خاصة منحتها لهم الحكومة البريطانية المستعمرة، في كل المجالات، في الوظائف والتعليم، والتدريس، والتجارة، والزراعة، والصناعة، وغيرها.

وكلّما توجّهت نحوهم مشاعراً الغضب من جماهير المسلمين، لولائهم التام للاستعمار البريطاني، وجدوا الحماية الكافية من الدولة.

ومن أمثلة كون بعض القاديانيين جواسيس للإنكليز، ما نشرته جريدة الفضل

القاديانيّة، بتاريخ (٢٨/٩/١٩٢٣م) فول «محمد أمين» أحد مبغّي القاديانيّة، والمبشرين بها، بعد رجوعه من روسيا سنة (١٩٢٣م):
«إني اعتقلت مرّاتٍ بتهمة الجاسوسية للإنكليز». وقال معتزلاً:

«أنا ما ذهبت إلى روسيا إلا لتبليغ القاديانيّة. ولكن بما أنّ مصالح القاديانيّة وأهدافها متعلّقة بأغراض وأهداف حكومة بريطانيا، فقد كنت مضطراً أن أخدم الحكومة، وأؤدّي ما يجب عليّ نحوها».

وهكذا إلى أقوال كثيرة جدّاً تكشف أنّ القاديانيين خُدام الإنكليز وعملاؤهم صراحة، ويشنون هذه العمالة في مكاتباتهم ومنشوراتهم.

ويظهر أنّ آية جهة نشري منظّمة عميلة لها فإنّها تُلزمها صراحةً على سبيل الإحراج بأن تُقدّم تصريحات على السنة قادتها وكبرائها والشّيطيين العاملين فيها بعمالتهم لها، في منشوراتهم وكتبهم، حتّى يكون كلّ مُتّمسٍ إلى المنظّمة على علمٍ بواقع حال منظّمتها، فيدخل وهو عليم بمهمّته الأساسيّة، قبل أن يتدرب على إتقان عمليات النفاق والمخادعة للناس، ولولا ذلك لخرجت المنظّمة العميلة بعد مدّةٍ من قبضة مؤسّسيها من وراء الستار، والمستفيدين من تحركاتها، متى توجّهت لها الاتهامات بالعمالة والخيانة.

(٤)

عقائد القاديانيين ومبادئهم وتعاليمهم

(١) ادّعى «غلام أحمد القادياني» أنّه نبيٌّ، وأنّه المسيح المنتظر، وأنّ عيسى عليه السلام قد مات، فالمسيح المنتظر إنسانٌ آخر غير عيسى ابن مريم، وأخذ يؤوّل النصوص القرآنيّة تأويلات باطلات، ليوهم أتباعه بصحّة دعواه.

وقال: «الذي لا يؤمن بي لا يؤمن بالله ورسوله».

(٢) وكتب ابنه وخليفته الثاني: «محمود أحمد» قائلاً:

«لقيني رجل في (لكهنؤ = أحد بلاد الهند) وسألني: لقد اشتهر بين الناس أنكم تكفرون المسلمين الذين لا يعتقدون القاديانية، فهل هذا صحيح؟

فقلت له: نعم، لا شك بأننا نكفّرهم، فاستغرب الرجل من قلبي وتحير.

واستدل على كفر من لم يؤمن بأبيه بأن القرآن ينص على كفر من ينكر أحداً من الرسل، وبما أن أباه «غلام أحمد» رسول الله، فمن لم يؤمن به فهو كافر.

لكن لم يبين للناس دليل كونه رسولاً، وهو الأفك أجير الكفرة أعداء الله ورسوله.

وقال في الاستدلال:

«نحن نسأل لم نكفر غير القاديانيين؟» وأجاب بقوله: «هذا واضح من القرآن، لأن الله يبين أنه من ينكر أحداً من الرسل فإنه يكفر، وأن من ينكر الملائكة يكفر، ومن ينكر القرآن يكفر، وعلى هذا فمن ينكر أن «غلام أحمد» هو نبي الله ورسوله فإنه يكفر بنص الكتاب، ولأجل ذلك نكفر المسلمين، لأنهم يفرقون بين الرسل، ويؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، فهم إذا كفار».

(٣) وادّعى «غلام أحمد القادياني» أنه صاحب شريعة، وبما أنه رسول الله فشريعته واجبة التنفيذ على الناس، ومن أقواله في هذا:

«فالشريعة: هي عبارة عن بيان أمر ونهي، فمن فعل هذا وقتل لأمته قانوناً، صار صاحب شريعة، فأنا صاحب الشريعة، لأنه يؤخى إليّ بالأوامر والنواهي».

وليس من الضروري للشريعة أن تكون مشتملة على أحكام جديدة، لأن ما يوجد في القرآن من التعليمات يوجد في التوراة، وإلى هذا أشار الرب سبحانه وتعالى بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَنَبِيٍّ الْأَوَّلَى * صُحِبَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾.

(٤) له تأويلات في نصوص القرآن حول مريم العذراء البتول، وحول عيسى عليه السلام، وحول الدجال، وحول المراد من دابة الأرض، وحول المهدي، كلها من افتراءاته ونسج خياله، يخالف بها دلالات النصوص، وما أجمع عليه المسلمون، فمسلكه فيها مسلك المتلاعب بالنصوص.

ويؤجّه لعيسى عليه السلام الشتائم التي كان اليهود يوجهونها له .

(٥) أمر بتقديس وتمجيد قرينه «قاديان» وادّعى أنها سرّة الدنيا، وأمّ القرى،

ويقول:

«لقد قدّس الله هذه المقامات الثلاثة (مكة والمدينة وقاديان) واختار هذه الثلاثة

لظهور تجلّياته» .

وادّعى أن زيارة قاديان، هي الحجّ الأكبر، وقال:

«إنّ مؤتمرنا السنويّ هو الحجّ، وإنّ الله اختار المقام لهذا الحجّ (قاديان) . . .

ويُمنع في قاديان الرفث والفسوق والجدال» .

(٦) وفي ادّعائه إلغاء الجهاد في سبيل الله قال:

«إنّ الله خفّف شدّة الجهاد أي: القتال في سبيل الله بالتدريج، فكان يُقتلُ الأطفال في عهد موسى، وفي عهد محمد ﷺ ألغى قتل الأطفال والشيوخ والنسوة، ونُفِىَ في عهديّ ألغى حُكْمُ الجهاد أصلاً» .

وقال أيضاً:

«اليوم ألغى حكم الجهاد بالسيف، ولا جهاد بعد هذا اليوم، فمن يرفع بعد ذلك السلاح على الكفار ويسمي نفسه غازياً يكون مخالفاً لرسول الله . . .» .

وقال أيضاً:

«إنّ هذه الفرقة، الفرقة القاديانية، لا تزال تجتهد ليلاً ونهاراً لقمع العقيدة النجسة، عقيدة الجهاد من قلوب المسلمين» .

وأعلن تحريم الجهاد بالقتال تحريماً باتاً سرّاً كان ذلك أو علانية .

(٧) وشرع «غلام أحمد القادياني» لاتباعه، أنّه يحرم على القادياني أن يزوّج

ابنته من غير القادياني، لكن يجوز للقادياني الذكر أن يتزوّج من بنات المسلمين والهندوس والسيّخ . . . ومن زوّج ابنته لمسلم فإنّه يُطرّد من الجماعة ويكفر .

(٨) وشرع لهم تحريم الصلاة خلف إمام مسلم، وفي هذا يقول «غلام أحمد

القادياني» مخاطباً القاديانيين:

«لا يجوز لكم أن تُصلُّوا خلف غير القادياني مهما يكن، ومن يكن، ومهما يمدحه الناس، فهذا حكم الله، وهذا ما يريد الله، وإنَّ المتشكِّك والمذبذب داخل في المكذِّبين، والله يريد أن يميِّز بينكم وبينهم».

وقال أيضاً:

«إنَّ الله أطلعني بأنَّه حرام حراماً قطعياً أن تُصلُّوا خلف الَّذِي يكذِّبني، أو يتردَّد عن طاعتي، بل واجب عليكم أن تُصلُّوا خلف إمام من أئمتكم، وهذا ما أُشير إليه في الحديث «إمامُكُم منكم» يعني إذا نزل المسيح فعليكم أن تتركوا الفِرَق التي تدَّعي الإسلام، وتجعلوا إمامكم منكم، فافعلوا ما أمَّرتُم، أتريدون أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون؟!».

لكنَّ القاديانيين قد يُصلُّون مع المسلمين نفاقاً فإذا انصرفوا إلى منازلهم أعادوا صلاتهم.

* * *

(٥)

القاديانية بعد تقسيم الهند إلى «هندستان» و «باكستان»

بعد معارك عنيفة وطويلة الأمد أثارها الاستعماريتون الإنكليز بين الهندوس والمسلمين، وذهب ضحيَّتها مئات الألوف، أتجه الحلُّ إلى تقسيم الهند إلى دولتين: «هندستان»، وتحتوي أكثرية غير مسلمة، و «باكستان» وتحتوي أكثرية مسلمة، وكان ذلك سنة (١٩٤٧م).

وقامت الدولة المسلمة «باكستان» محاطةً بالمشكلات الصعبة، التي وضعها فيها الاستعمار الإنكليزي.

وبخطَّة مدبرة انتقل مركز القاديانيين من قرية «قاديان» محجَّ القاديانيين، وهي من حصّة «هندستان» إلى «باكستان» ليتابعوا مكيدتهم في الدولة المسلمة الناشئة.

وفُرض على هذه الدولة الحديثة توليةُ الزعيم القادياني المشهور عميل الإنكليز،

السير «ظفر الله خان» وزيراً للخارجية، واحتج المسلمون على هذا الإجراء، وأجابه رئيس وزراء باكستان يومئذ «الخوارجا ناظم الدين» بأنه لا يستطيع التحلي عنه، لأن ذلك يحرم «باكستان» من المساعدات الأجنبية، ولا سيما المواد الغذائية، التي كانت «باكستان» بأمس الحاجة إليها، فذل ذلك على شدة متابعة دعم الدولة الاستعمارية الإنكليزية وسائر الدول الكافرة للقاديانيين، بغية استكمال تنفيذ مخططات المكيدة.

وظلت الحكومات الوطنية في «باكستان» المسلمة، تواجه الضغوط الخارجية، لمنع القاديانيين ما يطلبون من تسهيلات وامتيازات.

وانتهز القاديانيون هذه الفرصة المواتية، فوضعوا عدة مشاريع، طبقوها بنجاح ملحوظ، فعمموا جذورهم في «باكستان»، وانطلقوا من ذلك ينشرون دعايتهم في العالم، بدعم مستمر من سادتهم، المستفيدين من أعمالهم في باكستان وغيرها، وكان من ذلك ما يلي:

(١) إنشاء مدينة لهم باسم «ربوة» وهذه المدينة خاصة بهم، لهم فيها نظام بوليسي خاص، ومحاكم خاصة، ومدارس وكلّيات ومستشفيات خاصة، ولا يستطيع أحد من المسلمين أن يشتري فيها أرضاً، أو يستأجر فيها داراً، وكل الوظائف فيها لا يشغلها إلا القاديانيون، وأقاموا فيها سكرتارية فخمة مجهزة بأحدث الآلات، ومنها ينشرون التضييل القادياني.

(٢) شحن المناصب الهامة في الجيش وفي الإدارة المدنية وفي السفارات الباكستانية بالقاديانيين، وكان ذلك بتأثير السير «ظفر الله خان».

(٣) إنشاء المدارس والكلّيات والمستشفيات على مستوى عالٍ، واستدراج المسلمين عن طريقها إلى القاديانية، على مثل ما تقوم به البعثات التبشيرية المسيحية.

(٤) تقديم المنح الدراسية والمساعدات المالية المشروطة باعتماد القاديانية.

(٥) استغلال الوظائف والمناصب الحكومية استغلالاً غير مشروع، وذلك بربط التعيين والترقيات بأن يعتنق طالب ذلك نحلتهم.

(٦) عمل القاديانيون المتغلغلون في أجهزة الحكم على منح المتسبين إلى

نعلتهم المفتراة على الله مساعدات غير عادية، ليتقدموا تقدماً كبيراً في مجالات الصناعة والتجارة والزراعة.

(٧) وقاموا بنشاط كبير في مجال طبع الكتب والنشرات القاديانية، التي تثير الشبهات حول العقائد الإسلامية، وتُضلل أبناء المسلمين، وتحاول إبعادهم عن الإسلام الحق.

(٦)

موقف المسلمين من هذه الفرقة المنافقة الخارجة عن الإسلام

لقد قام المسلمون في باكستان بمظاهرات واحتجاجات، ضد تصرفات القاديانيين الاحتكارية الأنانية، وأعمالهم الكُفريّة الخائنة، في مناسبات متعدّات.

ولم يستطيعوا أن يعزلوهم عن جسم الأمة الإسلامية غزلاً تاماً بشكل واضح وصريح، حتى سنة (١٩٧٤م) إذ استطاعت الجماهير الإسلامية ذات العدد الساحق، أن يوجهوا ضُغوطاً متعدّدة، اضطرّ على أثرها البرلمان المركزي الباكستاني أن يُصدّر في السابع من شهر أيلول سنة (١٩٧٤م) قراراً إجماعياً، يقضي باعتبار جميع الفئات القاديانية أقلية غير إسلامية^(١).

● ● ●

(١) انظر ما كتبه البروفسور عبد الغفور أحمد، عضو البرلمان الباكستاني، وعضو مجلس الشورى للجماعة الإسلامية بباكستان في مقال نشرته مجلة المجتمع في العدد (٢٣٤) بتاريخ ١٥ محرم ١٣٩٥ هجرية.

القِسْمُ الرَّابِعُ

مُنْظَمَاتُ نِفَاقِ عَالَمِيَّةٍ
ذَاتُ شِعَارَاتٍ إِنْسَانِيَّةٍ عَامَّةٍ
نُظَرُهَا لِتَحْقِيقِ رَغَبَاتٍ خَاصَّةٍ تُبْطِنُهَا

وفيه خمسة فصول:

الفصل الأول : الماسونية.

الفصل الثاني : الروتري.

الفصل الثالث : الليونز.

الفصل الرابع : الشيوعية.

الفصل الخامس : شهود يهوه.

الفصل الأول

الماسونية منظمة نفاق عالمية

(١)

مقدمة

صار من الحقائق المعلومة لدى كل الباحثين أن «الماسونية» وترجمتها الحرفية: «البنّاءون الأحرار» منظمة عالمية ذات قيادة سرّية يهودية تعمل للتوصّل إلى إعادة هيكل سليمان الذي هو رمز دولة إسرائيل، وللسيطرة على شعوب الأرض جميعاً، وحكم العالم بملك من اليهود.

وقد عرفها المستشرق الهولندي «دوزي» بقوله:

«جمهور كبير من مذاهب مختلفة يعملون لغاية واحدة، هي إعادة الهيكل، إذ هو رمز دولة إسرائيل».

واليهود يلبسون نفاقاً قناع التعاون والإخاء الإنساني، ويسترون غاياتهم ومقاصدهم اليهودية، ليُسَخَّرُوا المحافل الماسونية، وكلّ الأعضاء الماسونيين في تحقيق أهدافهم السياسية، والاقتصادية والاجتماعية في العالم، ثم ليتوصّلوا إلى حكم العالم بعد إقامة دولتهم في فلسطين، قريباً من أحواض البترول في الشرق الأوسط.

وأعمال منظمة «الماسونية» ورموزها، وتحركاتها، هي في معظمها تعتمد على السرية التامة والكتمان، وتأتي أوامرها العليا وتوجيهاتها ذات الشأن الخطير بأسلوب الشيفرة، أو شفوية على ألسنة أشخاص معتمدين، من ذوي المراتب أو الدرجات التي يُعْتَبَر الواصلون إليها مؤهلين لحمل مهمات تبليغ الرسائل الشفوية العليا، وهم يُعْرَفُون عن طريق حركات وإشارات معيّنة، ذات رموز اصطلاحية يتعلّمونها فيما بينهم، على

قدر درجاتهم ومراتبهم في المنظمة، وسرّيتها مع كتمان الأعضاء الماسونيين يضمن لها البقاء في الظلام ويحميها من أعين الرقباء.

وأعيد هنا ما سبق أن كتبه عن «الماسونية» في كتابي: «مكايد يهودية عبر التاريخ» وكتابي: «أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها» مع طائفة من الإضافات يستدعيها إبراز أسلوب «الماسونية» في النفاق القائم على الخداع والكذب، وإظهار وجه إنساني براقٍ بآسِم، وإخفاء الوجه الحقيقي المكفهر الأسود القاتم.

لقد أثبت تاريخ هذه المنظمة المحاطة أهدافها الحقيقية سرّية عظيمة، أنها من أخطر الجمعيات السّرية العالمية، التي لعبت أدواراً خطيرة في تاريخ الأمم، وأثّرت تأثيراً مباشراً على مصائر كثير من الشعوب، وتحكّمت في سياسة معظم دول العالم، من حيث لم تشعر هذه الدول أنها قد كانت فريسة خديعة يهودية، دخلت إليها عن طريق المحافل الماسونية، التي تُديرها من وراء السجوف أصابع المكر اليهودي الذي يُحكّم إخفاء نفسه، في الوقت الذي يكون فيه هو المدير الحقيقيّ للعمليات الفكرية، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والحربية، وغيرها، في البلد الذي تنتشر فيه المحافل الماسونية، ولو لم يكن لليهود في هذا البلد عدد كبير يستطيع أن يفعل شيئاً لصالح اليهودية العالمية، إلا أن الجمعية الماسونية التي يقبض على ناصية قمتها في العالم دُهاة من أحبار اليهود وحكّامهم، هي التي تخدم أغراضهم خدمةً آليّةً، يتحرك فيها الأفراد دون أن يشعر معظمهم إلى أين يسرون، ولمن يعملون.

ولقد يبلغ الدّهش عند بعض الباحثين مبلغه العظيم حينما يعلمون أن حروباً عالمية كبرى قد كان اليهود هم العاملين على إثارتها، وإشعال نيرانها، عن طريق منظمة «الماسونية» ومحافلها في العالم. وحينما يعلمون أن كثيراً من القادة والزعماء المنحرفين في مختلف دول العالم قد أوصلتهم إلى مراكزهم الألاعيب والحيل اليهودية العالمية عن طريق منظمة «الماسونية» ومحافلها. وحينما يعلمون أن كثيراً من التيارات الاقتصادية والسياسية والعلمية والاجتماعية في العالم، قد تحكّمت الأصابع اليهودية باتجاهاتها عن طريق منظمة «الماسونية» ومحافلها.

ولقد يرى بعض السطحيين وقصيري النظر أن هذا ضربٌ من الوهم، ومبالغة من

مبالغات الحدس، ولكن الحقيقة التاريخية، والوقائع المستمرة، جديدة بأن يكشفها الباحثون، ويفتحوها أعين الناس عليها حتى يروها، مهما كانت بعيدة عن جُسمهم أو خذبهم، ومهما استهان بها الجاهلون، وهزى بها العميان والمستغفلون.

(٢)

تأسيسها وأهدافها

لا يُعرف على وجه التحديد تاريخ تأسيس هذه المنظمة (الماسونية) التي بدأها اليهود، واستغلوها في معظم أدوار التاريخ، إلا أن من المؤكد أنها جمعية عريقة في القَدَم، وهي منافقة ذات وجهين:

(١) وجه ظاهر كاذب خادع مُضلل.

(٢) ووجه باطن ينطوي على المكيدة الكبرى لمختلف الأمم والشعوب، بغية خدمة مصالح المملكة اليهودية السريّة المنبئة في العالم، ومصالح المملكة اليهودية التي رُتب فائدة صهيون ظهورها في فلسطين، على أن تكون نواة لتأسيس مملكة تحكم العالم كله، ووسيلتهم لذلك الحيلة والذَّهَب، وتسخير المطايا من مختلف شعوب الأرض.

قال بعض الباحثين: ولعل أول محفل ماسوني هو ذلك المحفل الذي تم بإرشاد «هيرودوس أغريباس» الذي كان ملكاً في الثلث الثاني من القرن الأول الميلادي، أي حوالي (من سنة ٣٧ إلى سنة ٤٤م). بمساعدة مستشاريه اليهوديين: «حيرام أبيود» نائب الرئيس، و«موآب لامي» كاتم سرّ أول.

ومما يؤثر عن هذا الملك قوله:

«إن الطريقة المثلى التي نجعلُ بها جمعيتنا خطيرة وعظيمة ومثوقة في الوقت نفسه، هي أن نجعل تاريخ تأسيسها سرّاً خفياً، والواجب أتباعه مع من ينضم إلينا أن نفهمه أن هذه الجمعية قديمة جداً، ولا يُعرف شيء عن تاريخ تأسيسها، ولا من أنشأها، لكنها كانت منحلّة من مُدة، ولكي نحمل المعارضين على التصديق — وهؤلاء

لا بدّ من وجودهم - فإننا نقول لهم: إن الملك هيرودوس قد وجد في خزائن أبيه أوراقاً قديمة تشير إلى جمعية قديمة ذات إشارات وقوانين سرّية، فرأى من الخير أن يجدها ويخرجها من مدفنها، لأنها مفيدة ومثمرة على ما عرفه عنها من تلك الأوراق، فبهذا الكتمان نخفي الغاية التي من أجلها أسست هذه الجمعية، كما أخفيها تاريخ تأسيسها.

فإن صحّ نقل هذا النص عن «هيرودوس» فهو يدلّ على عدّة أمور:

• أن هذه المنظمة قديمة جداً.

• وأن مؤسسيها اليهود قد قرّروا إخفاء تاريخ تأسيسها.

• وأن أهدافها الحقيقية مكتومة لا يعرفها إلا أساطين قادتها من اليهود.

على أن هذه الأمور قد اتفق الباحثون عليها، ولو لم يدلّ عليها النصّ.

ويرى بعض الباحثين أن مؤسسيها الأولين كانوا تسعة من كبار اليهود، أسسوها في الهيكل سنة (٣٧م) وسمّوها «القوة الخفية» وكان هدفها الأول القضاء على الديانة النصرانية وأتباعها، ولما ظهر الإسلام واشتدّ صار هدفها القضاء على الإسلام ومن يؤمن به أيضاً.

واستمرت منظمة «الماسونية» تعمل لتحقيق أهدافها المكتومة متأرجحة بين شدّة وضعف عبر قرون، وظلّت كما بدأت ذات وجهين:

• وجه باسم مخادع قد أبدى صفحته.

• ووجه مكفهر متوارٍ عن الأنظار مكتوم.

أما الوجه المكتوم فهو وجهٌ يتولاه تنظيم سرّي يهودي صرف، لا يسمح بأن يصل إلى القيادات الفعّالة إلا الدّهاة الموثوق بكفاءتهم من اليهود، وهو وجه مكفهرٌ خبيثٌ محشوٌ بكلّ المكر اليهودي في العالم، وهو يحاول أن يوجّه المحافل الماسونية ضمن خطة مرسومة، تهدف إلى خدمة السياسة اليهودية المقنّعة في العالم، وإلى محاربة كلّ الأديان وهدمها عدا اليهودية، وإلى إفساد جميع شعوب الأرض، وتهديم كياناتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية والدينية، كيما يجد بنو إسرائيل القليلون

في الأرض سبيلاً لإعادة بناء ملكهم على أنقاض الممالك والشعوب التي يعملون على تدميرها بالمكر ونشر الفساد.

ويزعمون أنهم يستطيعون أن يحكموا العالم على الرغم من قلة عددهم، متى أحكموا سياسة المكر والخداع والنفاق، وأنقنوا وسائل الحيلة، واستخدموا المال والدهاء وبت النظريات البراقة الباطلة، وغمساو القطعان السائمة من الشعوب الأخرى بالجهل والخمر والنساء، والقمار والملاهي، والإلحاد بالله، ومعاداة الأديان الربانية، ومحاربة كل فضيلة خلقية وسلوكية اكتشفها الأجيال السالفة، بعد قرون عديدة من التجارب والخبرات التاريخية.

ويرون أن انغماس الأجيال في هذه الشهوات المهلكات سيجعل منها قطعاناً هائمة في الأرض، تتطلع إلى راع مالك لقواه الإنسانية، حتى يرعاها بدهائه وذكائه، ودعاء وذكاء اليهود من حوله، ولن يكون عند ذلك قوة متماسكة في الأرض إلا قوة اليهود، الذين سيعرفون بزعمهم كيف يسوسون هذه القطعان المخلوقة على صورة البشر.

هكذا يزعمون، وهكذا يقولون في مقرراتهم السرية.

وفي سنة (١٧١٧م) اتخذت هذه المنظمة لنفسها اسم «الماسونية» ومقنعاً: «البنائون الأحرار» بدل اسمها القديم «القوة الخفية» وكان هذا التغيير في مؤتمر «لندن» الذي انعقد برئاسة «أندرسن» الذي عاش رئيس كنيسة بروتستانتية، نصرانياً في ظاهر حاله، إلا أنه كان يهودياً في الباطن يعمل لخدمة اليهودية العالمية، وحركتها الرامية إلى حكم العالم.

وتأسست محافل ماسونية في أكثر دول أوروبا وروسيا والهند، وتأسست محافل ماسونية رسمية في أمريكا ابتداءً من سنة (١٧٣٣م) وبلغ عدد محافلها الكبرى في أمريكا سنة (١٩٠٧م) أكثر من خمسين محفلاً، يتبعها آلاف المحافل العادية، وزاد فيها أعضاء المحافل الماسونية على مليوني أمريكي.

ومن بريطانيا وإشراف محفلها الكبير تأسست محافل الماسون في كندا وأستراليا

وينوزيلندا والشرق الأوسط، وصار محفل بريطانيا بالنسبة إلى غالبية محافل العالم مركزاً كبيراً.

وفي سنة (١٨٦٦م) قال الحاخام الدكتور إسحاق في إحدى المجلات الأمريكية:

«الماسونية مؤسسة يهودية في تاريخها، ودرجاتها، وتعاليمها، وكلمات السرّ فيها، وفي إيضاحاتها... يهودية من البداية إلى النهاية».

وتقول دائرة المعارف الماسونية الصادرة في فيلادلفيا سنة (١٩٠٦م):
«يجب أن يكون كلّ محفل رمزاً لهيكل اليهود، وهو بالفعل كذلك، وأن يكون كلّ أستاذ على كرسيه ممثلاً لملك اليهود، وكلّ ماسوني تجسّداً للعامل اليهودي».

* * *

(٣)

مراتب الماسونية

لكي يضمن اليهود بقاء قمة القيادة في منظمة «الماسونية» تحت أيديهم، لا يُشارِكُهُمْ فيها أحد، جعلوا لهذه المنظمة مراتب ودرجات لا يصل إلى الدرجات العليا منها إلا مخلصٌ تَفَانَى في خدمة الأهداف السَّريّة لها.

ويتمّ ترفيع العضو في درجاتها بمعرفة الأساطين الذين هم أركان المحافل الماسونية، ووكلاء اليهود المخلصون لهم، ومع ذلك فلنْ يَصِلْ إلى المراتب العليا التي تدار بمعرفتها وأوامرها المحافل الماسونية المنتشرة في العالم، إلاّ الدهاة من اليهود الصّرف، المخلصون لشعب بني إسرائيل، والذين يؤمنون بحقّ اليهود في مُلك العالم، ويؤمنون بوجوب استخدام آية وسيلة من الوسائل مهما كانت غير أخلاقية، لتحقيق حلم اليهود الأكبر.

وقد توصّل الباحثون إلى معرفة المراتب الثلاث للماسونية، وهي:

المرتبة الأولى: الماسونية العامة، أو ما يسمّونه «الماسونية الرمزية» وهي مرتبة تضمّ المبتدئين، الذين يجهلون الأهداف الحقيقية الغائية، ويُعرفون عند أهل المرتبتين الثانية والثالثة بالعميان.

المرتبة الثانية: الماسونية الملوكية، وتُسمى «العقد الملوكي» وهي مرتبة يُعرفُ الواصلون إليها بعض أهدافها البعيدة، إلّا أنهم قد أعمتهم مصالحهم التي تتحقق لهم عن طريقها، وأمانت فيهم ضمانتهم.

المرتبة الثالثة: الماسونية الكونية، وهي تضمُّ قادة إسرائيل، ويُسمونهم حكماءها. وورثة السرّ، وهم الذين يتصرفون سرّاً بالمحافل الماسونية المنتشرة في العالم، ويوجهونها لتحقيق أهداف اليهود المكتومة، في السياسة، والاقتصاد، والإدارة، والتعليم، والإعلام، والجيش، وسائر مجالات الحياة.

ومهمة أعضاء هذه المرتبة إدارة كلّ حركة من حركات الثورة والهدم والتخريب والفوضى السياسية والاجتماعية بشتّى الطرق والوسائل في مختلف بقاع الأرض، وهي تستخدم لتنفيذ أغراضها اليهودية الصّرف أعضاء الماسونية العامة (الرمزية) وأعضاء الماسونية الملوكية (العقد الملوكي).

وتستطيع الماسونية الكونية أن تجمع عن طريق الماسونيين الرمزية، والعقد الملوكي كلّ المعلومات التي تريدها عن دول الأرض، وتستخدم بها من تشاء من ملوك ورؤساء، كما تستطيع عن طريق الأعضاء الماسونيين أن تُملّي ما تريد من أفكار سياسية واجتماعية في مختلف الدول المتصارعة، وأن تحرك عن طريقهم ما تشاء من فتن ومنازعات وحروب، وأن تقوم بدور كلّ من الخصمَيْن المتنازعين في الدول والأحزاب داخل الدولة الواحدة، وأن تُفاوض عن كلّ واحدٍ من أطراف النزاع، وأن تُنهي المفاوضة ضدّ كلّ واحدٍ منهم، ولصالح اليهودية العالمية، دون أن يشعر أحدٌ منهم بأنّه قد وقع في فخّ المكيدة اليهودية على يد الماسونيين.

وهذه المرتبة الكونية لا يعرفها على وجه التحديد إلّا نفر قليلون من اليهود، ومن ذوي النّسب العريق في السلالات اليهودية، من ذرّيّة داود وسليمان.

وليس لهذه المرتبة إلّا محفل واحد في العالم، هو الآن في «نيويورك» كما يذكر الباحثون.

(٤)

درجات الماسونية

اتَّفَق الباحثون على أن منظمة «الماسونية» ذات ثلاثٍ وثلاثين درجة، وأن الدرجات الدنيا منها مخصصةٌ للعيان الذين يجهلون أهداف الماسونية الحقيقية، وهي إعادة هيكَل سليمان، بمعنى إعادة ملك بني إسرائيل، والعمل على إسقاط كلِّ ملوك وحكّام العالم أجمع، وإلغاء كلِّ الأديان والشرائع باستثناء اليهودية المحرّفة ذات الإله الخاصّ والتي لا تؤمن باليوم الآخر، والعمل أيضاً على إقامة الدولة اليهودية العالمية التي تقبض على نواصي الشعوب بسُلطان شديد من الأسلحة الفتّانة ذات الدمار الشامل، ومن المال العظيم الذي يمتلكونه في الأرض، ويقطعان الجنود المسخّرين لهم من شعوب الأرض عن طريق شهواتهم ومطامعهم وطمس بصائرهم.

وذكر «د. محمد علي الزعبي» في كتابه «الماسونية في العراق» وهو الخبير بها، إذ كان عضواً متقدماً في بعض محافلها في لبنان، أن مُنَح الدرجات فيها ابتداءً أو توفيقاً يكون لبعضها بتكريس، ويكون لبعضها الآخر بغير تكريس.

والمراد من التكريس إقامة مراسيم خاصة ذات أعمال وحركات وأقوال وشعارات رمزية، وفي بعضها إرهابٌ للعضو الذي يجري تكريسه، لإلزامه بأن يحافظ على السّرية التامة للمعلومات عن كلِّ شيء في الماسونية، إلّا ما يباح إعلانه، أو يأتي الأمر بإذاعته ونشره.

(١) فالدرجات من (١ - ٣) تمنح للمرشّح لها بتكريس، في احتفالٍ خاصٍّ يجري له ضمن المحفل الماسوني.

ولكلِّ تكريس يُجرى عند منح درجة من هذه الدرجات حركات وأقوال وطقوس خاصة ذات رموز يهودية يعرفها المتقبّون أهل الخبرة، وقد ذكرها «الزعبي» في كتابه.

أما القسّم في هذه الدرجات لتأكيد المحافظة على السّرية، فيكون على الكتاب الذي يؤمن به العضو الذي يمنح الدرجة (القرآن - أو الإنجيل - أو التوراة).

(٢) والدرجات من (٤ - ١٧) تمنح للعضو الماسوني تلقيناً من غير تكريس،

بعد اختبار إخلاصه للماسونية، وتغايبه في خدمة أنشطتها، وعلم قادتها بأنه يتحلل شيئاً فشيئاً من ولاءاته لدينه، وقومه، ووطنه، وأسرته، ويقترّب من التأهيل ليكون جندياً مطيعاً للقيادة اليهودية الصرف.

(٣) والدرجة (١٨) تمنح بتكريس على مستوى مشدّد، راقٍ في مفهوم الماسونية، وهابطٍ في دركات الانسلاخ من الدين والولاءات الأخرى، في الحقيقة. ونسمّى هذه الدرجة «الفارس الحكيم» وقد تسمّى درجة «الصليب الوردى» للتنظية.

ومن فقرات التكريس لهذه الدرجة ترديد كلمات: «حرية - مساواة - إخاء» مثلث الماسونية المدمر للشعوب.

وبعد إجراء فقرات التكريس لهذه الدرجة ذات الرموز اليهودية، يتقدّم المرشح إلى رئيس المحفل متوشحاً بوشاح ورديّ، لونه كلون النور حين مغيب الشمس، وقد نُقشَ على الشّواش صورة للصليب، وصورة لطير الرّخم. عندئذ يكرسه الرئيس بالسيف، ويكون التكريس بسبب طرقات متتاليات، وطرفة منفردة ويعلن تكريسه قائلاً:

«باسم مهندس الكون الأعظم، وتحت رعاية المجلس السامي، وبموجب السلطة الممنوحة لي من الإخوان الفوارس الحكماء، أصيرك «فارساً حكيماً» أو «فارس الصليب الوردى» للدرجة الثامنة عشرة.

وهنا يردّد إخوان هذه الدرجة في المحفل عبارة:
«من العدل هلاك الملوك غير الأتقياء».

ثم يتبادلون خبزاً ونبيداً، ويتبادلون لمسة هذه الدرجة، ويُسَرُّ بعضهم في آذان بعض كلمة سرّها، وكلمة المرور «يّهوه».

وتعتبر هذه الدرجة الثامنة عشرة «الفارس الحكيم» مرحلة خطيرة في سلم الارتقاء الماسوني، إذ يُسمّى الواصل إليها مستعدّاً للدفاع عن اليهود، وقائماً بخدمة

أهدافهم، ومعترفاً أن كل ما كان لديه من عقائد دينية، ومصالح قومية ووطنية أو هام فاسدة.

فينسلخ الواصل إليها من كل معتقداته وولاءاته السابقات، حتى من روابطه العائلية.

ويرتبط بحبال التلمود، ويقع في حبال شياطين اليهود، ويخيل إليه أنه لا يوجد كتاب مقدس غير العهد القديم الذي يؤمن به اليهود.

والقسم على حفظ السر عند منح هذه الدرجة يكون على كتب العهد القديم فقط، مع أدوات الهندسة لأنها تذكر ببناء هيكل سليمان، والسيف لأنه يذكر في الرموز اليهودية بأسماء: «عزرا - ونحيا - وصفنيا - وحجي . .» وفيه إشارة إلى الجهاد لتحقيق المثلث الماسوني، الموصل إلى إعادة هيكل سليمان، وحكم اليهود للعالم.

ويتوارى اعتباراً من هذه الدرجة القرآن والإنجيل وكل كتاب مقدس، ولا يبقى على السدة إلا العهد القديم، عملاً بالدستور الأيكوسي للمنظمة.

ومن دستور هذه الدرجة (أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) فعلى الماسوني أن ينصر أخاه في الماسونية ولو كان ظالماً، بأن يساعده على ظلمه.

والعمل بهذه المادة أغرى «الفرسان الحكماء» بتحطيم عرش السلطان عبد الحميد، وإلغاء الخلافة الإسلامية، وأغرامهم بتحطيم عرش القياصرة، وكان ذلك تحقيقاً للمصالح اليهودية في العالم.

(٤) والدرجات من (١٩ - ٢٩) تمنح للعضو الماسوني تلقياً من غير تكريس، بناءً على اختبارات ومراقبات تتضمن الطاعة العمياء للقيادة اليهودية وأوامرها السرية، وتحقيق غاياتها الشيطانية.

(٥) والدرجات من (٣٠ - ٣٣) درجات خطيرة جداً، وتمنح بتكريس ذي طقوس خاصة بكل درجة منها.

* فالدرجة (الثلاثون) وتسمى درجة «الفارس القدوس» وقد تنطق السين شيئاً

حسب اللسان العبري، وهذا الفارس هو القائد الأعلى للفرسان الذين هم دونه في الدرجة، وتمنح بتكريس.

وَالْقَسْمُ عَلَى حِفْظ السِّرِّ لَدَى مَنْحِ هَذِهِ الدَّرَجَةِ يَكُونُ عَلَى كِتَابِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ فَقَطْ.

• والدرجة (الحادية والثلاثون) وتُسَمَّى درجة «الفارس الأعلى» وتمنح بتكريس ذي طقوس وعبارات خاصة ومراسيم.

ويجب على المرشَّح لهذه الدرجة أن يحفظ أسماء أسباط بني إسرائيل، ويُقسم على الولاء لهم.

• والدرجة (الثانية والثلاثون) وتُسَمَّى درجة «فارس الفرسان» وتُمنَح بتكريس ذي طقوس وعبارات خاصة ومراسيم.

ويُقَسِّمُ المرشَّحُ لَهَا عَلَى أَنْ لَا يَعْتَرِضَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الماسونية، أو أمر من أوامرها مهما كان مخالفاً لمفهوم ديني أو قومي أو وطني أو واجب من الواجبات، وعلى أن لا يتأثر بمنصب يصل إليه، أو غنى يُصِيبُهُ، أو رابطة عاطفية مهما كانت ذات قوَّة في نفسه.

• والدرجة (الثالثة والثلاثون) وتُسَمَّى درجة «الأستاذ الأعظم» وتمنح بتكريس ذي طقوس وعبارات خاصَّة ومراسيم.

ويجتمع الأساتذة العظام في حفل تكريس الزميل الجديد لدى منحه هذه الدرجة، وقد لبس كل واحدٍ منهم جُبَّةً سوداء طويلة تشبه جُبَّةَ حاخام يهودي، موشاة برسوم سنابل، ورسوم أغصانٍ من الزيتون.

وبعد تلاوة قرار المجلس السامي الذي يمنح درجة «الأستاذ الأعظم» للمرشَّح الجديد لها، يُقَسِّمُ المرشَّحُ عَلَى التَّوَرَاةِ فَقَطْ، ويفوز ببراءة مخطوطة، تتضمن منحة هذه الدرجة.

والمرشَّح لهذه الدرجة يجب عليه أن يَشْتُمَ عَيْسَى ومحمداً عليهما الصلاة والسلام، ويكذِّبُ بِالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَيُنْكِرُ الْمَسِيحِيَّةَ وَالْإِسْلَامَ، وَيُغْلِنُ إِيمَانَهُ بِمُوسَى وَهَارُونَ فَقَطْ.

ويتعرض مَنْ يُمنَحُ هذه الدرجة للحوار التالي :

س : على أي شيء أقسمت؟

ج : على التوراة.

س : هل علمت بكتاب سواه؟

ج : نعم، هناك إنجيل وقرآن، وهما لشريعة خارجة عن الإيمان والبشرية، آمنْتُ بالمسيح ومحمد، العدوَيْنِ اللدونيَيْنِ لعقيدتنا.

س : هل تؤمن بهذه الكتب؟

ج : كلاً، أومن بالتوراة فقط، الكتاب الصحيح الذي أنزل على موسى.

س : ما رأيك بالدينين المسيحي والإسلامي؟

ج : المسيحي أخذ تعاليمه من التوراة، والإسلامي أخذ تعاليمه من التوراة والإنجيل.

س : الأصل أفضل أم الفرع؟

ج : لا شك أن الأصل أفضل.

الرئيس السائل : لقد نجحت بهذا الامتحان، وفهمت سرّ الأسرار الكامنة في الحقيقة السريّة، وقد منحنا لك - مع التهئة - درجة «الأستاذ الأعظم» فكنْ كفؤاً لها، وحريراً عليها.

الزميل الجديد : سأكون، وسردّد: أومنُ بيهوّة وموسى وهارون، أومنُ بيهوّة وموسى وهارون.

ويقال له : هل تؤمن بسوى هذا؟

فيجيب : كلاً، لا أومن بسوى هذا، بل أبغض وأكره وأشتّم سوى هذا، لا سيّما المسيح ومحمد، أومنُ بيهوّة وموسى وهارون.

(٥)

درجتا الرفيع والملك المنتظر

فوق كلّ الدرجات الثلاث والثلاثين السابقات تأتي درجتان :

الأولى : درجة «الرفيع» .

الثانية : درجة «الملك المنتظر» .

* أمّا درجة «الرفيع» فلا يطمع بها إلا اليهود، ومن فاز بالتهود، بصعود الدرجات الماسونية بكفاءة وإخلاص لهيكل سليمان .

وقد ظفر بهذه الدرجة متهودون من الإنكليز، وكانت سبب استماتتهم في سبيل الهيكل .

جاء في «العقد الملوكي» عن هؤلاء ما نصّه :

«وقد كان لأسرار هذه الدرجة تأثير عظيم على جم غفير من الإخوان الإنكليز، ذوي النفوذ والأفكار الحرة، الذين لا يزالون يحفظون اعتقادات إسرائيل الأصيلة، إذ لنا أصدقاء دائمون هم الإنكليز، وأعداء دائمون هم العرب، وفي رأسهم المصريون» .

ولهذه الدرجة تكريس خاصّ ذو طقوس خاصة، ولها أسرارها ورموزها .

وفوق هذه الدرجة يأتي المحفل الكوني (الماسونية الكونية) .

* وأمّا درجة «الملك المنتظر» فهي نهاية السُّلم الماسوني، وفيها يتّوج ملك اليهود، الذي هو في تقديرهم ملك الكون سرّاً، وحينما تقوم الدولة العالمية اليهودية الواحدة، يكون هو ملكها علانية وجهرأ .

وقد نال هذه الدرجة ملوك انكلترا لأنهم من يهود ألمانيا، ومن سبط لاوي .

ونالها أيضاً ملك الحبشة سابقاً «هيلاتاسي» باعتباره كما يقولون من ذريّة : «رحبعام بن سليمان» .

* * *

(٦)

بعض رموز الماسونية وتفسيراتها الحقيقية

ثبت للمطلعين بما لا يقبل الشك أن كل رمز من الرموز المتداولة في الماسونية من إشارات وحركات وخطوات وكلمات وأشياء توضع في المحافل تهدف إلى ذكرى يهودية، أو غاية يهودية صرف.

لكن بعضها يحتمل التأويل، كالشمس والقمر والعين، وبعضها يهودي صريح لا يحتمل التأويل، كالهيكل، والمذبح، وقُدس الأقداس، والأستاذ السري الذي يُمثل سليمان، والأستاذ الكامل الذي يمثل قائد رتبة، وشمعدانات الدرجة السادسة التي تشبه شمعدانات هيكل سليمان.

وفيما يلي طائفة من هذه الرموز مع تفسيراتها الخفية اقتباساً من الذين كتبوا عن الماسونية، ومنهم د: سيف الدين البستاني - ود: محمد علي الزعبي - وجواد رفعت أتلخان.

أولاً: تتألف الماسونية من محافل ذات أسماء خاصة تكون لفظة «الشرق» أحد عناصرها غالباً، لأنَّ الشرق مصدر النور عند اليهود، إلى غير ذلك من ألفاظ لها صلة بالمصطلحات اليهودية، ويمارس أعضاء المحافل الماسونية طقوساً ومراسيم لها دلالات يهودية، ويتعارفون برموز لا يعرف معظم الأعضاء دلالاتها الخفية، إلا أنها لدى التحقيق ذات دلالات يهودية.

وتشهد اعترافاتهم بذلك، فقد جاء في (الخطب الأربع لم حفل السلامة الماسوني) قولهم:

«إن عقائدنا ورموزنا وإشاراتنا ودرجاتنا هي مصرية فرعونية، ولكنها انتقلت إلينا بواسطة بني إسرائيل».

وفي هذا الاعتراف دلالة واضحة على أن واضع رموزها وطقوسها وعقائدها وإشاراتنا ودرجاتها هم اليهود.

ثانياً: من أمثلة رموز الماسونية ما يلي:

(١): (المحفل): هو عند أعضاء الماسونية العامة اسم للمكان الذي يجتمعون فيه، بينما يعتبره أعضاء الماسونية الملوكية رمزاً لهيكل سليمان، الذي يعتبره اليهود شعاراً لوطنهم القومي.

(٢): (الهيكل): والمقصود منه هيكل سليمان، وقد يذكر باسم: «هيكل الحكمة – أو هيكل الإنسانية – أو الكنيسة الكبرى – أو هيكل الكون – أو كوكب الشرق الأعظم».

(٣): (مهندس الكون الأعظم): رمز لمهندس هيكل سليمان، واسمه «حيرام» فالهيكل عندهم هو الكون الأعظم، ويرى معجم الماسونية والماسونيين أنه رمز «أدونيرام» الرئيس الرابع للقوة الخفية.

(٤): (النور): هو عند أعضاء الماسونية العامة (الرمزية) رمزاً لنور العقل، بينما يعتبره أعضاء الماسونية الملوكية رمزاً للنور الذي تجلّى به الله لموسى عليه السلام.

(٥): (أدوات الهندسة): اختيرت رمزاً يذكر ببناء هيكل سليمان.

(٦): (السيف): هو عند أعضاء الماسونية العامة إشارة إلى الجهاد في سبيل الحق والعدل والحرية، بينما هو رمزاً إلى السيف الذي كان يحمله بنو إسرائيل ضد الأمم الأخرى، وللقوة التي قامت بها دولة بني إسرائيل في عهد داود وسليمان.

(٧): (المذبح): يطلق على منصة توضع في المحفل الماسوني بين عمودين، وعليها نسخة من القرآن، ونسخة من العهد القديم، ونسخة من العهد الجديد.

والمذبح هو في الأصل عبارة عن أرض اشترها داود عليه السلام من الكنعانيين، وأخذها مركزاً لتقديم الذبائح والقرابين، ومحرقة للقرابين.

(٨): (خبز الفطير): الذي يتناوله الفائزون بالدرجة (١٨) في بعض المحافل الماسونية، تذكّار لعيد الفطير اليهودي.

(٩): (الأنوار السبعة): هي في عرف أعضاء الماسونية العامة (الرمزية) الأعضاء الذين تكون بهم جلسة المحفل قانونية، بينما هي لدى أعضاء الماسونية الملوكية رمز للسنين السبع التي أتم فيها سليمان بناء الهيكل.

(١٠): (قطع رأس شيء ما): يقطع الماسونيون في بعض احتفالاتهم رأساً من شيء ما لديهم، فيرى أعضاء الماسونية العامة أنه رمزٌ عن قطع رأس الجهل أو غيره من النقص البشري، بينما يرى أعضاء الماسونية الملوكية ذلك تمثيلاً لقصة الملك داود عليه السلام، وقطعه رأس جالوت الجبار الذي سبى الشعب الإسرائيلي، كما يروونه تمثيلاً لقصة (يهوديت) التي قطعت رأس القائد الروماني (أليسانا) حينما جاء بها لمحاربة اليهود.

(١١): لفظ (أدونيرام): هو في الحقيقة اسم الرئيس الرابع للقوة الخفية، أصل منظمة الماسونية.

(١٢): (القلائد والأوشحة): رموز قلادة سليمان وشاحه.

(١٣): (الحية النحاسية): رمز يذكر بنعمة الله على إسرائيل وحده.

(١٤): (عصا المرشد): رمز لعصا هارون التي زرعت مع العصي في خيمة الاجتماع، وفي اليوم الثاني فُرِخَتْ وأثمرت لوزاً دون سائر عصي رؤساء بني إسرائيل، كما جاء في سفر العدد، الإصحاح (١٧).
(١٥): (السنة): هي رمز سنة سليمان.

(١٦): (شبولت): معناه في العبرية السنبلة، وقد كانت هذه الكلمة علامة على اليهود، ومن لفظها كان الجلعاديون^(١) يعرفون اليهودي فيقتلونه.
(١٧): (العمودان): يشيران عند اليهود إلى العمودين اللذين كانا يتقدمان بني إسرائيل عند خروجهم من مصر بقيادة موسى عليه السلام.

(١٨): (جاكين): هو اسم آخر ملوك يهوذا.

(١٩): (جادا): هو اسم أحد الأسباط الاثني عشر من أسباط بني إسرائيل.

(٢٠): (نقطة الدائرة): في كل محفل ماسوني منتظم لا بد أن تُخَلَّد نقطة داخل دائرة، ويجب على كل ماسوني أن لا يتحول عنها، وهي محدّدة بين الشمال والجنوب

(١) الجلعاديون: قسم من سبط «منسى» وهم من نسل «جلعلاد» و«منسى» هو بكر يوسف عليه السلام (عن قاموس الكتاب المقدس).

بخطّين مستقيمين، يدلُّ أحدهما على موسى، ويُدلُّ الآخر على سليمان، وفي أعلى ذلك توجد التوراة، وعليها اسم يعقوب، وهو يرمز عندهم إلى الرؤيا التي رآها يعقوب، وكانت الملائكة نازلة عليه وصاعدة، وقصة هذه الرؤيا مذكورة في كتب اليهود.

(٢١): (النجوم): أو النقاط الثلاث، وهي ترمز عندهم إلى تمجيد المسامير التي يزعمون أنها دُفَّت في جسد المسيح الذي عمل اليهود على صلبه، هكذا يزعمون، ولكن الحقيقة أن الله أنجاه منهم، وألقى شَبَّهُه على الذي دلَّ عليه.

(٢٢): تكرر عدد ثلاثة في رموز المحافل الماسونية.

* فالعمر في الدرجة الأولى ثلاثة.

* وكلمات: «حرية، مساواة، إخاء» ثلاثة.

والضغط بالإبهام بإعطاء الدرجة الأولى ثلاثة.

* والخطوات بدخول المحفل ثلاثة.

* وموسى، وهارون، والتابوت، ثلاثة.

* وسليمان، وحيرام المهندس، وحيرام الملك، ثلاثة.

* وحروف القداة العليا هي (ي. هـ. م) أي: يهوه هارون موسى، ثلاثة.

* ودعائم الهيكل (ت. ب. ح) أي: تحرير، بناء، حفاظ، ثلاثة، لأن الله أباح — بزعمهم — لإسرائيل كل شيء على شرط أن تكون هذه الدعائم هدفاً، كما قال «موآب لاني».

وهكذا تسير مصطلحات الماسونية ورموزها وإشارات وطقوسها، ولو عرف كثير من المتستين إليها من غير اليهود حقيقة معانيها التي يُلقِي عليها اليهود حُجُباً كثيفة، حتى لا يراها غير اليهود ووكلائهم، لعرفوا أنهم يُجَنِّدون أنفسهم جهلاً في صفوف أعدائهم وأعداء أمتهم من حيث لا يشعرون.

وربما تظهر هذه الرموز والإشارات والطقوس لدى كثير من الناس بمشابة خزعبلات وتدجيلات والأعياب صبيانية يمارسها الماسونيون اتباعاً لقوانين وأنظمة هذه

المنظمة ذات التمرّكات والأهداف السريّة، وامتنالاً لأوامرها التي لا تقبل المناقشة، والتي يتمُّ بنّها بين الأعضاء، كأنّما هي وحيٌ يسوحي به، دون أن يعلم الأعضاء المُتفوّذون من هو صاحب الأمر الموجّه لها.

ومع أنّ معظم هذه الرموز والإشارة والطقوس يحمل كما سبق إيضاحه تفسيرات يهوديّة بحثٌ في حقيقة الأمر، إلّا أن المخطّطين اليهود قد يضعون لها معاني أخرى، يُلبّسون بها على العميان، وهم أعضاء المرتبة الأولى الموضوعون في حقل الاختبار اليهودي، ليصطفوا منهم من يروونه متحلّلاً من دينه وأخلاقه وأمته، فيرقّوه عندئذٍ في درجات الماسونية.

وبعد ذلك يعملون على دفعه إلى المناصب العالية في دولته عن طريق دعم أعضاء المحافل الماسونية، الذين يُوحون لهم بذلك، لِيُسَخّروه فيما يريدون من إفساد وتهديم لدولته ودينه وأمته، وليتزوّدوا منه بالمعلومات التي يطلّع عليها بمقتضى مركزه وعمله، وقد لا يشعرُ بأنّه يزودهم بها، وذلك لما يتمنّع به القادة اليهود من مكر بالغ يُخفّون فيه أنفسهم ووكلاءهم إخفاء تاماً، حتى عن أعين معظم المخلصين لهم، والساثرين في ركابهم.

ولما كانت المحافل الماسونيّة منتشرة في معظم دول الأرض، وكان معظم ذوي المراكز الهامّة فيها لا بدّ أن يكونوا أعضاء في هذه المحافل أو أصدقاء لهم أو مسخّرين من قبلهم أو محاطين ببعض منهم، فإنّ أمرَ إدارة هذه الدول قد أصبح بحُكم المضمون للقيادة اليهوديّة العليا. وجُرحُ أصحاب المراكز على مراكزهم سيّهون عليهم الشعور بأنّهم يخدمون اليهود من حيث يشعرون أو لا يشعرون وذلك عن طريق منظمة «الماسونية» لأنّهم يعتقدون أنّهم لو تعرّضوا على الإرادة اليهوديّة العليا فسوف نتملّ على طردهم من مراكزهم عن طريق وكلائها المستورين، ولو بشر الفضائح والأتهامات.

ونحنُ إذ نكشفُ دلالات الرموز والإشارات والطقوس التي استكثر اليهود منها في «الماسونية» وهي ذات صلة بالتعاليم والتقاليد والقصص اليهوديّة، فالهدف من ذلك أن نبيّن أن لليهود منها عدّة أغراض:

الأول: تثبيت الطابع اليهودي الذي قامت عليه المنظمة.

الثاني: الإيمان في كتمان الأهداف الحقيقية لهذه المنظمة عن الأعضاء العميان من غير اليهود، وهم أعضاء «الماسونية العامة الرمزية» ويطلق عليهم وصف العميان لأنهم يخدمون المنظمة جاهلين أهدافها الحقيقية.

الثالث: ملء جلسات المحافل بالأعمال التي تحجب الأعضاء عن ابتداء كل مفيد نافع، وشغلهم بتمثيلات مُعمَّاة لا يدركون حقيقة أسرارها، وتُغشَّية أبصارهم عن الأهداف الحقيقية لهذه المنظمة، وهي الأهداف التي رسمها اليهود.

وتشتمل أهدافهم على ابتغاء هدم جميع الأديان في الأرض باستثناء عقيدتهم اليهودية الخاصة، وهدم جميع الأنظمة الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية في العالم، وذلك كيما يتسنى لبني إسرائيل الظفرُ بمملكة اليهود التي نبداً في فلسطين، وتمتد إلى روما، وتطوق أفعائها الكرة الأرضية كلها.

هذا ما له يخططون وله يعمل هؤلاء المنافقون المجرمون الخطرون المكارون، أَلَا فليُعلم الجاهلون، وليُنبِّه الغافلون، وليُصحِّح النائمون، وليُنبِّه العاصون.

(٧)

مشهد من مشاهد التكريس

المشهد هو تكريس المرشح العضو للدرجة الثامنة عشرة:

(١) وقف المرشح أمام رئيس المحفل الماسوني، وتلا الطلب الذي قدّمه للفوز بالدرجة، ووافق على صحة توقيعه.

(٢) ركع المرشح أمام المذبح وأقسم القسم الخاص بهذه الدرجة.

(٣) لقّن الرئيس المرشح كلمة المرور، وهي: «فاكس يوبيس» وأعلمه أنّ معناها: «لكم وعليكم السلام». وأصلها من اللغة اللاتينية المتأخرة.

وأفهم الرئيس المرشح أنّه إذا قال هذه الكلمة أجابه إخوانه بكلمة: «عمانويل» ومعناها: «الله معنا».

(٤) يخطو المرشح ثلاث خطوات:

الأولى: خطوة إلى اليسار.

الثانية: خطوة إلى اليمين.

الثالثة: خطوة تنتهي بركوع أمام المذبح.

(٥) يقوم المرشح بتأدية تحية عملية للشدة والمذبح، على الشكل التالي:

اليدان مضمومتان إلى الصدر، اليمنى فوق اليسرى، والإبهامان مرفوعان إلى الأعلى.

ومعنى هذه التحية: المجد لمهندس الكون الأعظم.

(٦) يجيب الرئيس على هذه التحية بتأدية تحية عملية على الشكل التالي:

اليدان مضمومتان تشيران إلى جهة الأرض.

ومعنى هذا الرد: وعلينا وعليكم وعلى من في الأرض السلام.

(٧) يؤدي الرئيس والمرشح اللمة، وتكون بسط يد كل منهما بيد صاحبه،

وتبعتها «قبضة الأسد» مع الاهتزاز، والإبهام على الإبهام، ويكون تحريكهما من أعلى.

(٨) يُلقن المرشح كلمة السر لهذه الدرجة وهي (ان ري) ومعناها: «عيسى

الناصري ملك يهوذا» فهي حروف مقطعة كل حرف منها يدل على كلمة من الكلمات الأربع، ولا بد أن نفهم أن تفسير هذه الحروف بهذا التفسير تغطية لخداع النصارى.

(٩) يصفق الإخوة «الفرسان الحكماء» ثلاث صفقات، مع ترديد شعار

الماسونية: «حرية - مساواة - إخاء».

(١٠) يقف المرشح أمام الرئيس، فيضع الرئيس السيف على الكتف الأيمن

للمرشح، ثم على كتفه الأيسر، ويطلق فوقه بالمطرقة، ثم يضعه على رأس المرشح، ويطلقه بالمطرقة، وبعد ذلك يُقبل المرشح قبلة التهنة.

ويتلو الرئيس قرار منحه الدرجة، كما سبق بيانه لدى شرح الدرجة (١٨) إلى

آخر ما يجري في هذا التكريس.

(٨)

من أقوالهم الكاشفة عن أهدافهم ومخططاتهم

لقد غدا متحققاً أنَّ أساطين اليهود يعتبرون المحافل الماسونية بمثابة الأجهزة التي يحصلون منها على ما يريدون من أخبار، وبمثابة مراكز هامة للدعاية لهم، كما أنهم من وراء المحافل المنتشرة في العالم مترفعون على عرش قمتها، ويوجهونها لتحقيق أهداف اليهودية العالمية، في حال أنهم يُحيطون أنفسهم بحُجب كثيفة، ويُغلفون أهدافهم بمكر كثير، حتى لا تكشفهم عيون الأمم، التي يعمل أفراد منها في خلايا الماسونية، وهم يجهلون المصير القائم الذي ينساقون إليه هم وشعوبهم من ورائهم.

وفيما يلي طائفة من الأقوال الكاشفة عن أهدافهم ومخططاتهم:

(١) جاء في البروتوكول «الخامس عشر» من بروتوكولات «حكماء صهيون» أي: شياطينهم ما يلي:

«وإلى أن يأتي الوقت الذي نصل فيه إلى السلطة سنحاول أن ننشئ ونضع خلايا الماسونيين الأحرار، في جميع أنحاء العالم، وسنجذب إليها كل من بصير، أو يكون معروفاً بأنه ذوروح عامة.

هذه الخلايا ستكون الأماكن الرئيسية التي سنحصل منها على ما نريد من أخبار، كما أنها ستكون أفضل مراكز للدعاية.

وسوف نركز هذه الخلايا تحت قيادة واحدة معروفة لنا وحُذنا وستألف هذه القيادة من علمائنا، وسيكون لهذه الخلايا أيضاً ممثلوها الخصوصيون، كي نحجب المكان الذي نقيم فيه قيادتنا حقيقة، وسيكون لهذه القيادة وحُذها الحق في تعيين من يتكلم، وفي رسم نظام اليوم، وفي هذه الخلايا سنضع الحبال والمصايد لكل الاشتراكيين وطبقات المجتمع الثورية، وستكون معظم الخطط السياسية السرية معروفة لنا، بمجرد نهيتها.

وستنضم إلى عضوية هذه المحافل الماسونية كل أفراد الشرطة السرية والعلمية

الوطنية والدولية، لأن لخدماتها قيمة عظيمة بالنسبة إلينا، فهي في وضع يجعلها قادرة على ستر خططنا، وتقديم المعاذير عن إثارة المشكلات التي تفرضها مصالحنا، وفوق هذا يكون في وسعها ضرب من تحدّثه نفسه بأن يعصي أوامرنا.

والذين ينتسبون إلى جمعياتنا السرية هم في العادة مغامرون، يرغبون أن يشقوا طريقهم في الحياة دون جدّ أو عناء، وأكثرهم من الطائشين الذين يسهّل التفاهم معهم في سبيل تحقيق مصالحنا، وهم الذين يكونون قوّة دافعة لجهاز حركتنا.

وإذا حدث اضطراب في العالم فذلك دليل على ضرورة وجوده، لأنّ ذلك الاضطراب يهدم تماسكه المتين لمصلحتنا، فإذا وقعت مؤامرة ما قلنّ يحمل وقوعها سوى دلالة واحدة، هي أن رأسها واحد، ورئيسها واحد هو من عملائنا المخلصين.

وطبعي أن نكون نحن لا غيرنا القابضين على زمام العمل الماسوني، لأننا نحن نُحِبُّ القيادة، وندرك غاية العمل القصوى...

ويكثر الانتساب إلى الماسونية من «الجويم» = غير اليهود يدفعهم الفضول، أو الطمع في نفع يُصَيِّسونه، أو في تحقيق مآرب لا تتحقّق لهم بغير الانتساب إلى الماسونية، وبعضهم يرجو أن يجد الشهرة عندما يشتدّق بأرائه الحمقاء، بين يدي المحافل، مظهراً مهارته الخطابية، ليظفر بمدح يدغغ عواطفه، ونحن لا نبخل به، ومستعدون لأن نقدقه بسخاء، ونُدع لهم الفرص التي يحقّقون بها بعض آمالهم وترضي غرورهم، فنسخرهم لخدمة أغراضنا...

وانتم لا تتصوّرون كيف يسهّل دفع أمهر الأمين «الجويم» إلى حالة مضحكة من السذاجة والغفلة، بإثارة غروره وإعجابه بشخصه، وكيف يسهّل من ناحية أخرى تشييط شجاعته وعزيمته بأهون خيبة، ولو بالسكوت ببساطة عن تهليل الاستحسان له، وبذلك ندفعه إلى خضوع ذليل.



(٢) وجاء في البروتوكول (الرابع) منها قولهم:

«من ذا يستطيع أن يخلع قوة خفية غير منظورة عن عرشها؟ وماذا يُستطاع فعله

لقلب هذه القوة الخفية التي هي قوتنا، ولنا في الماسونية الظاهرة حجاب غليظ يستر أغراضنا؟

إنَّ المحفل الماسوني المنتشر في كلِّ أنحاء العالم قناع غليظ يستر أغراضنا، ولهذا فمنهاج قوتنا ومكانها يظَّلان في عالم الخفاء سرّاً مغلقاً يجهله العالمُ كُلُّه .

وكان من الممكن ألا يكون للحرية ضرر، وكان من الممكن أن يكون لها في الدولة مقام كريم لا يضرّ برخاء الشعب، لو أنَّ الحرية قامت على الإيمان بالله والأخوة الإنسانية، مجردة عن دعوى المساواة، التي يُثبِت قانون الطبيعة بطلانها، فالطبيعة قائمة على وجود التفاضل في الخلق . .

إنَّ الناس المحكومين بالإيمان بالله سيكونون سعداء تحت رعاية رعاتهم الدّينيين، خاضعين لمشيئة الله راضين بها .

وهذا يحتم علينا أن نهدم قواعد الإيمان في قلوب الناس . . ونُجَلِّ محلّها قوانين رياضية، وضرورات مادية

* * *

(٣) وجاء في البروتوكول (الحادي عشر) منها قولهم :

«إنَّ الأمين «الجويم» كقطع من الغنم، وإنَّا الذئاب، فهل تعلمون ما نفعل الغنم حينما تنفذ الذئاب إلى الحظيرة؟

إنَّها لتغمض عيونها عن كلِّ شيء .

ويوجد سبب آخر يدفع «الجويم» إلى أن يغمضوا عيونهم، إذ تُرضيهم بإغداق الوعود عليهم، بأننا سنعيد إليهم حرياتهم متى تمَّ لنا قهْرُ أعدائهم، وترويض جميع الأحزاب .

لماذا ابتدعنا سياستنا ولقناها الأمين «الجويم» دون أن نهَيِّئهم لإدراك أسرارها؟

أليس ذلك رغبة منّا في الوصول إلى غاية لا يُتاح لشعبنا الوصول إليها بالوسائل النظيفة، فاضطررنا إلى اتّخاذ أساليب المكر والمراوغة .

هذا السبب هو الذي حملنا على إنشاء «الماسونية» التي يجهل أسرارها وغايتها أولئك الخنازير من «الجويم» فوثقوا بها، وانتسبوا إلى محاقلنا الماسونية التي جذبتهم مبادئها الظاهرة التي ضللتهم وحوّلت عنهم بصر إخوانهم في الدين، وبذلك نُحَدِّثُ الفرقة فيما بينهم.

ومن نعمة الله أن تشيت شعبه المختار الذي ظنّه العالم ضعفاً فيه، قد ثبت أنه سرّ قوته التي أفضت به إلى السيادة العالمية، ولم يبق علينا إلا السير لتقيم بنياننا على تلك الأسس، وبذلك نحقق هدفنا المنشود.



وقضية محاربة الماسونية للذين تبعاً للمخطط اليهودي لا تحتل أي جدل أو مناقشة، لأنها من الأمور الكثيرة التي كشفتها تصرفاتهم الدائمة، ثم اعترافاتهم وأقوالهم المنتشرة في كثير من الوثائق الصادرة عنهم، من تصريحات وخطب وكتابات.

(٤) جاء في أقوال المحفل الماسوني الأكبر سنة (١٩٢٢م):

«سوف نقوّي حرّية الضمير في الأفراد، بكل ما أوتينا من طاقة، وسوف نُعلنها حرباً شعواء على العدو الحقيقي للبشريّة الذي هو «الذين» وهكذا سوف نتصر على العقائد الباطلة وأنصارها».

ومرادهم بإعلان حربهم على الدين كل الأديان باستثناء اليهودية.

(٥) وجاء في مضابط مؤتمر بلغراد الماسوني لسنة (١٩٢٢م) قولهم:

«ويجب أن لا ننسى بأننا نحن الماسونيين أعداء للأديان، وعلينا أن لا نألو جهداً في القضاء على مظاهرها».

(٦) وفي محاضر محفل الشرق لعام (١٩٢٣م) قولهم:

«إنه يجب أن تبقى الماسونية لملة واحدة، وعليه يقتضي محو جميع الأديان ومتسببها من الأساس».

والمقصود من الملة الواحدة اليهودية.

(٧) نشرت جريدة الرياض في ٢٣ شوال (١٤١٠هـ) و ١٨ مايو (١٩٩٠م)

ما يلي:

باريس — إينا:

«صرّح رئيس المحفل الماسوني الفرنسي، وعضو الحزب الاشتراكي: «روجيه لوريه» في بيان صدر عنه مؤخراً، أنه لا بدّ للماسونية من حرب صريحة ضدّ الإسلام. وأضاف في بيانه أنه لا يمكن الصمت تجاه الحملة الموجهة ضدّ المحافل الماسونية في إفريقية من قِبَل المسلمين، لا سيما في السنغال».

(٨) جاء في نشرة ماسونية صدرت في لندن سنة (١٩٣٥م):

«إنّ أمنيتنا هي تنظيم جماعة من الناس يكونون أحراراً جنسياً. نريد أن نخلق الناس الذين لا يخجلون من أعضائهم التناسلية».

* * *

(٩)

نماذج من الأيمان

التي يُقسّم عليها العضو الماسوني

عند كلّ درجة يُمنَحها العضو من أعضاء الماسونية يكلف العضو أن يقسم على حفظ الأسرار، وعدم خيانة المنظمة بشيء من الأشياء، فمن أقسامهم النماذج التالية:

نموذج أوّل:

«أقسمُ بمهندس الكون الأعظم أنّي لا أفشي أسرار الماسونية ولا علاماتها ولا أقولها ولا تعاليمها ولا عاداتها، وأنّ أصونها مكتومة في صدري إلى الأبد».

أقسمُ بمهندس الكون الأعظم أنّ أخون عهد الجمعيّة وأسرارها لا بالإشارة ولا بالكلام ولا بالحركات، ولا أكتب شيئاً عنها، ولا أنشره بالطبع أو بالحفر أو بالتصوير، وأرضى — إنْ خِشْتُ بِقَسْبِي — أَنْ تُحْرَقَ شَفَتَايَ بحديد محميّ، وأنْ تُقَطَّعَ يَدَايَ، ويُحَزَّ عُنُقِي، وتُعلَقَ جُثِّي في محفل ماسوني، ليراها طالب آخر فيتعظ بها، ثمّ تُحْرَقَ جُثِّي، ويُذَرَّ رمادها في الهواء، لئلا يبقى أثر من جنائتي».

نموذج ثانٍ:

«أُقَسِّمُ أَنْ أَتَقَدَّ دُونَ نَزْدٍ حَتَّى الْمَخَاطَرَةُ بِنَفْسِي، كُلُّ مَا أَوْمَرُ بِهِ لِلْعَشِيرَةِ، وَأَنْ أَطِيعَ عَلَى الدَّوَامِ رُؤَسَاءِي الشَّرْعِيِّينَ فِي الْمَاسُونِيَّةِ، أَمِيناً عَلَى جَمِيعِ أَسْرَارِ الْفَرَسَانِ، وَلَا أَبَارِزُهُمْ، وَلَا أَدْعُوهُمْ لِلْمُبَارَاةِ، وَأَضْحِي بِنَفْسِي لِتَخْلِيصِهِمْ، وَأَخْرِجُ السَّجِينَ مِنْهُمْ، مَهْمَا كَلَّفَنِي ذَلِكَ مِنْ جَهْدٍ وَتَضَحٍّ، وَأَنْ أَضْحِي وَأَسَاعِدَ بِكُلِّ قُوَّتِي، وَأَكْرَسَ لَهُمْ حَيَاتِي حَتَّى الْمَوْتِ».

نموذج ثالث: «قَسَمُ الْفَارِسِ الْحَكِيمِ»:

«أَنَا (يُذَكَّرُ اسْمُهُ) أُقَسِّمُ عَلَى هَذَا الْحَسَامِ، رَمَزِ الشَّجَاعَةِ، بِحَضُورِ جَمِيعِ الْفَرَسَانِ الْمُحِيطِينَ بِي، أَنْ لَا أَبْرُحَ بِأَسْرَارِ الدَّرَجَةِ الثَّامِنَةِ عَشْرَةَ الَّتِي سُمِّعَتْ لِي الْآنَ، وَهِيَ دَرَجَةُ الْفَوَارِسِ الْحَكَمَاءِ، وَلَا بِالْأَسْرَارِ الَّتِي تُسَارُونِي بِهَا.

وَأَتَعَهَّدُ أَنْ أَعْمَلَ فِكْرَتِي لِتَنْوِيرِ جَمِيعِ إِخْوَانِي، وَأَدَافِعَ عَنْهُمْ، وَأَعِدُّ وَأُقَسِّمُ بِالْأَفَارِقِ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ بَلْ أَجْهَدُ أَنْ أَكُونَ فَاضِلاً، أَقُومُ بِإِدَاءِ الْوَاجِبِ الْإِلَازِمِ لَهُمَا، وَالْمَحَافَظَةَ عَلَى قَوَانِينِهِمَا».

نموذج رابع: «قَسَمُ كُلِّي الْحَكَمَةِ»:

«أَنَا (يُذَكَّرُ اسْمُهُ) أَعِدُّ بِشَرَفِي، وَبِصِفَتِي كُلِّي الْحَكَمَةِ، وَاسْتَاذاً مَاسُونِيّاً، أَنْ أَبْذِلَ جُهُودِي وَقُوَّتِي فِي إِدَاءِ وَاجِبَاتِي بِالْأَمَانَةِ، إِلَى الْمَقَامِ الَّذِي انْتُخِبْتُ لِرِيَاسَتِهِ، وَأَنْ أَحَافِظَ عَلَى قَوَانِينِهِ، وَعَلَى النِّظَامِ الْعَامِّ لِلْمَجْلِسِ السَّامِيِّ، وَأُجَبِّرَ الْغَيْرَ عَلَى احْتِرَامِهَا، وَأَطِيعَ قَرَارَاتِ الْمَجْلِسِ السَّامِيِّ».

أُقَسِّمُ أَنَّنِي أَقْطَعُ الرُّوَابِطَ وَالصَّلَاتِ، الَّتِي تُشَدُّنِي لِلْأَقَارِبِ وَالْأَنْسِبَاءِ، وَالْعَصَبِيَّاتِ، وَالْأَرْحَامِ، وَالْقَوْمِيَّةِ، وَقَادَةِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَكُلِّ مَنْ حَلَفْتُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، لِإِزْطِاقٍ أَوَّلًا وَآخِرًا وَدُونَ قَيْدٍ أَوْ شَرْطٍ، بِإِخْوَانِي الْمَاسُونِيِّينَ، وَأَدَافِعَ عَنْهُمْ، وَأَنْقِذَ مَسْجُونَهُمْ، وَلَا أَقَاتِلُهُمْ، وَلَا أَطْلُبُ مِبَارَزَتَهُمْ، حَتَّى وَلَوْ قَاتَلُونِي وَأَتَوَّأ مُنْكَرًا».

(١٠)

صَوْر من مكاييد المحافل الماسونية ضد شعوب العالم بتوجيه من اليهودية العالمية

استخدمت الحركة اليهودية العالمية المحافل الماسونية وكثيراً من أعضائها أفعنة تسترت بها نفاقاً لتحقيق ما يلي :

(١) نشر مختلف المذاهب والأفكار والنظريات المدمرة للدين والأخلاق والنظم الاجتماعية، والسيطرة على حكومات شعوب الأرض، وقوى المال والإعلام والتعليم والسلاح والجيش وسائر القوى حتى القيادات الدينية عن طريق وكلائها وعملائها والمنافقين منها.

(٢) إقامة الثورة الإنكليزية، والثورة الفرنسية، والثورة الشيوعية البلشفية، واستثمار هذه الثورات لتحقيق المخطط اليهودي العالمي .

(٣) إقامة الحرب العالمية الأولى، والحرب العالمية الثانية، والحروب الإقليمية في العالم، وهم يُعدُّون لإقامة الحرب العالمية الثالثة التي يُقدِّرون أن تكون وسيلتهم لحكم العالم أجمع حكماً مباشراً.

(٤) إثارة الفتن الطائفية والقومية والمذهبية والحزبية، والحروب الأهلية بين الشعوب، وكثيراً ما يتسترون وراء الدول النصرانية أو الإلحادية الكبرى في العالم، فهم بالنفاق يعملون بأيدي غيرهم .

(٥) خلع السلطان عبد الحميد، وإلغاء الخلافة الإسلامية، وإقامة رجلهم المنافق الدكتاتور «كمال أتاتورك» حاكماً مستبداً في تركيا بعد تقسيم أرض الخلافة الإسلامية التركية .

(٦) معظم أئمة المذاهب الفكرية المعادية للدين والأخلاق والنظم الاجتماعية أعضاء في المحافل الماسونية، أو في إحدى بناتها، وأكثر هؤلاء يهود ييطنون اليهودية ويتظاهرون بالإلحاد، أو بدین آخر غير اليهودية كالمسيحية أو الإسلام .

وقد كتبتُ تفصيلات كافية لهذه الأمور في كتابي «مكاييد يهودية عبر التاريخ»

وكتابي «كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة» وكتابي: «الكيد الأحمر» فمن شاء المزيد فليرجع إليها.

(١١)

أدعية ماسونية^(١)

(١) يقرأ جميع أعضاء المجلس السامي للشروق عند افتتاح جلساتهم الدعاء التالي:

«نؤمنُ بآلهِ واحد، ربّ موسى وهارون، منزّل التوراة، خالق الشعب المفضّل المختار، خالق الشعوب الأخرى لخدمة المفضّل الجليل. وطننا فلسطين، الدّم الذي يجري في عروقنا دم إسرائيل، عقيدتنا خلافة الله على الأرض، بارك جلستنا هذه يا ربّ إسرائيل يا ربّ موسى وهارون. آمين».

(٢) يدعو جميع أعضاء الماسون في الدرجة (٣٣) الدعاء التالي:

سنعود إلى عهد سليمان بن داود، ونبني الهيكل الأقدس، ونقرأ فيه التلمود، وننفذ كلّ ما جاء في الوصايا والعهد، وفي سبيل مجد إسرائيل نبذل كلّ مجهود. الويل الويل للغاصبين المستعمرين، سنجعلهم قطعاً في أفواه الأسود. الانتقام الانتقام، طال المكوث في الظلام، أنعم علينا يا ربّ، أنوار القدس التي تجلّت على مواب».

(٣) يقرأ الأعضاء الماسون في طقوس الجناز عن روح الماسوني الذي لم يبلغ درجة «فارس حرّ النسب» الدعاء التالي:

«يا ربّ موسى وهارون، هذا الميت هو من أبناء «بافث» الخبيث، ولكنه أُنح من التائبين، عمل وضحّى في معارك بناء هيكلك، ووقف سبع مرّات بين عمودي «ب و ج» وأخذ النور من «م» ميم مجدك الأعلى، نستودعه في رحمتك، يارحماناً يارحيماً يا غيائناً».

(١) نقلاً من كتاب «الماسونية في العراق» للزعبي.

الفصل الثالث

نَوَادِي الرُوتَارِي إِحْدَى بَنَاتِ الْمَاسُونِيَّةِ

(١)

مقدمة

تعتبر نوادي «الروتاري» بمثابة قناع يلبسه المنافقون من اليهود ووكلائهم، لتحقيق أغراض اليهود العالمية، وهي إحدى المنظمات العالمية الموجهة سرّاً من الماسونية، وهي في الحقيقة إحدى بناتها العاملات على مستوى شعوب الأرض جميعاً، وتلتقي أهدافها ومقاصدها السرية مع الماسونية، ولا تختلف مبادئها ومفاهيمها العامة عن مبادئ الماسونية ومفاهيمها، لكنها تختلف من جهة الشكل والتنظيم، وهي غير مفتوحة كالماسونية لكل طبقات الشعب، بل هي خاصة بطبقة المثقفين وذوي الفكر، وأصحاب المهن الراقية، واجتماعاتها هي بمثابة أسواق معلومات، تُعرض فيها الأفكار والأخبار، فتتلقفها الأعيُن والأذان المتجسّسة، وتنقلها إلى بنك المعلومات الماسوني اليهودي العالمي، وأعضاء نوادي الروتاري يُستخدَمون من حيث لا يشعرون لتحقيق توجيهات الماسونية، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والإعلامية والعسكرية وغيرها.

واجتماعات نوادي «الروتاري» تُرضي غرور الأعضاء حينما يتحدث كل منهم في مجال اختصاصه، ويجدون فيها فرصة للترويح عن النفس، وإشباع رغبات الاجتماع بذوي الفكر والأدب والسياسة وأصحاب الاختصاصات الأخرى.

وتحرص الماسونية على أن يكون في كل نادٍ من نوادي الروتاري أعضاء ماسونيون يوجهون تحركاتها، والبحوث التي تجري فيها، وأعمالها ويستثمرون ما لديها من قوَى ورجال في مصالح وغايات الماسونية.

وحينما تُلَاحَظُ «الماسونية» في بلد من البلدان إذ تنكشف لقادته مكايدها اليهودية، ينشط الماسونيون في متابعة تحركاتهم الماسونية من خلال نوادي الروتاري. وقد انتظم في نوادي الروتاري كبار من أساتذة الجامعات، وكبار من الأدباء والشعراء والسياسيين وغيرهم من عليّة المثقفين، وربما كان بعضهم بجهل الكيد الماسونيّ اليهوديّ القابع فيها، فانساقوا ضمن المخططات الماسونية وهم لا يشعرون.

* * *

(٢)

تأسيسها وانتشارها

(١) بدأ تأسيس أول نادي روتاري سنة (١٩٠٥م) بمدينة «شيكاغو» على يد المحامي الأمريكي «بول هاريس» ثم تعددت هذه النوادي.

وعرفت باسم «روتاري» لأن اجتماعات أعضائها كانت تُعقد في مكاتيبهم بالتناوب، وكلّما اجتمعوا في مكتب أجبر عضو من أعضاء النادي دار الاجتماع فعقد في مكتب الأول وهكذا، فكلمة «روتاري» تعني الملتقى الدوّار، أو الالتقاء الدوّار، ولما كان لمكتب كلّ عضو من أعضاء النادي نوبة من الاجتماعات يجتمعون فيه، أطلق عليها اسم نوادي الروتاري.

(٢) وفي سنة (١٩٠٨م) انضم «شيرلي بري» إلى «بول هاريس» فجعله سكرتيراً لناديه، فوسّع «شيرلي بري» نشاط النادي، حتى صار منظمة كبرى ذات نوادٍ متعدّدة. وظلّ سكرتيراً لها حتى استقال منها سنة (١٩٤٢م).

وانشرت هذه المنظمة في بريطانيا بجهود مستر «مورو» الذي كان يتقاضى عمولة عن كلّ عضو جديد.

وفي سنة (١٩٢١م) صار لها فروع في فلسطين، ثم صار لها فروع في الجزائر ومراكش برعاية الاستعمار الفرنسي.

(٣) وامتدت نوادي الروتاري إلى ثمانين دولة، وصار لها (٦٨٠٠) نادٍ تضم (٣٢٧٠٠٠) عضواً قبل أن يتوفى رئيسها المؤسس «بول هاريس» سنة (١٩٤٧م).

وجاء في النشرة البريطانية عن نوادي الروتاري لسنة (١٩٦٨م) أنَّ هذه النوادي قائمة في أكثر من (١٤٧) دولة بينها إسرائيل.

(٣)

من تعاليم نوادي الروتاري وقوانينها

(١) يُستَبْعَد الحديث حول المسائل الدينية في نوادي الروتاري التي يشترك في عضويتها متممون إلى مختلف الأديان العالمية.

(٢) لنوادي الروتاري اجتماعات أسبوعية، وعلى العضو أن لا تقل نسبة حضوره الاجتماعات عن ستين في المئة سنوياً.

(٣) لا يُقْبَلُ العمال في عضوية نادي الروتاري، لأن هذه النوادي مخصصة للمثقفين، وذوي المكانة العالية في المجتمع.

والغرض من هذا الشرط اجتذاب الذين يترفعون عن الانتساب للمحافل الماسونية لأنها تجمع مختلف طبقات الشعب.

(٤) تحرص نوادي الروتاري على أن يوجد في كل نادٍ عضو من كل مهنة من المهن (٧٧) المبينة لديهم في تصنيف خاص.

(٥) العضوية تتم بالانتقاء من أعضاء النادي السابقين، وليست مفتوحة لكل طالب.

(٦) يجب أن يكون في مجلس إدارة كل نادٍ شخص أو شخصان من رؤساء النادي السابقين، أو من ورثة السّر الروتاري الذي وضعه المؤسس الأول «بول هاريس».

(٧) أجرى «تشارلز ماردن» الذي كان عضواً في أحد نوادي الروتاري لمدة ثلاث سنوات دراسة لهذه النوادي فاكشف أنه يوجد (١٥٩) عضواً ماسونياً في كل (٤٢١) عضواً روتاري، أي: أكثر من الثلث.

وفي بعض نوادي الروتاري كان جميع الأعضاء من الماسونيين، كما حدث في
«أدنبرة - بريطانيا» سنة (١٩٢١م).

(٨) قيادة الماسونية لإدارات نوادي الروتاري تطبيقاً لقرار ماسوني مبين في
محافل «نانس بفرنسا» سنة (١٨٨١م) وقد جاء في هذا القرار ما يلي:

«إذا كَوَّنَ الماسونيون جمعيةً بالاشتراك مع غيرهم فعليهم ألاَّ يَدْعُوا أمرها بيد
غيرهم، ويجب أن يكون رجال الإدارة في مراكزها بأيدي ماسونية، وأن تسيّر بسوحي من
مبادئها».



الفصل الثالث

نَوَادِي اللَّيُونِز (الأسود) إِحْدَى بَنَاتِ الْمَاسُونِيَّةِ

(١)

مقدمة

تُعتبر نوادي «الليونز = الأسود» مثل نوادي «الروناري» بمثابة قناع يلبسه المنافقون من اليهود ووكلائهم، لتحقيق أغراض اليهود العالمية، وهي إحدى المنظمات العالمية الموجهة سراً من الماسونية، بل هي في الحقيقة إحدى بناتها العاملات على مستوى شعوب الأرض جميعاً، ضمن قطاع رجال الأعمال الكبار، وأصحاب الثروات والملوك والرؤساء والوزراء والأمراء.

وتلتقي أهداف نوادي «الليونز» ومقاصدها السرية مع الماسونية، حتى كثير من مفهوماتها الظاهرة المعلنة، لكنها تختلف في بعض الشكليات، وهي منحصرة بطبقة أكلة النصيب الأكبر من ثروات العالم، الذين لا هم لهم إلا الاستئثار من جمع الأموال، والاستمتاع بأكبر قدر من متاع الحياة الدنيا ورفاهيتها ولذاتها وزيتها، لذلك يلاحظ في اجتماعات أعضاء «الليونز» البذخ والترف وعرض ما يملكون من زينات ثمينة.

وتستتر نوادي «الليونز» بدعم المشروعات الخيرية، ونشر معاني الخير والتعاون بين الشعوب.

وأعضاء هذه النوادي يتعاونون فيما بينهم لاستغلال ثروات الأرض، واحتكارها لأنفسهم، ويعتبرون أنفسهم بالنسبة إلى سائر البشر كالأسود بالنسبة إلى حيوانات الغابات، استعماراً بأنهم أهل القوة والبأس والسلطان والاستئثار بخيرات الأرض دون سائر الناس، ولذلك أطلقوا على منظمته اسم «الأسود = الليونز».

(٢)

مبادئهم وتعاليمهم

(١) شعارهم الذي يردّدونه هو مثلث الماسونية وكلّ بناتها: والإخاء — الحرية — المساواة.

(٢) من مبادئهم تنمية روح الصداقة بين الأفراد بعيداً عن الروابط الاعتقاديّة والدينيّة والمذهبيّة.

(٣) يسترون بالدعوة إلى الخير، والتعاون بين الشعوب، وإقامة المشروعات الخيرية الإنسانيّة، ومساعدة المكفوفين وذوي الحاجات، وتخفيف المتاعب اليوميّة عن المواطنين من أيّ مذهب أو ملّة، وتقديم الخدمات للبيئة المحليّة.

(٤) الاهتمام بنشر المعرفة بكلّ الوسائل غطاءً لمقاصدهم الأساسيّة.

(٥) الاهتمام بإقامة المسابقات الترفيهيّة، لجذب الجماهير، وصرف أنظارهم عن القضايا التي تُهم عقلاء الشعوب، وترفع مستوى الإنسانيّة، وتكشف أبصارها لرؤية الحقيقة.

(٥) دعم مشروعات الأمم المتّحدة لأنها الطريق الموصّل إلى سيطرة اليهود على العالم، وإقامة الدولة اليهوديّة العالميّة التي يحلم اليهود بها، ويخطّطون ويعملون للوصول إليها بكلّ وسيلة.

* * *

(٣)

اكتساب العضوية

(١) شروط العضوية في نوادي «الليونز» تشبه شروط العضوية في «الماسونية» ونوادي «الروتاري» إلّا أنّ نوادي «الليونز» تصطفي أعضاءها من كبار رجال الأعمال والملوك والوزراء والأمراء والنواب وذوي المراكز الرفيعة في مجتمعاتهم، إذا كانوا من الذين لا يبالون بالدين وتعاليمه والالتزام بشرائعه، ليكونوا قدوة المجتمع في التحلّل

من الدين ونشر الفساد، وليكونوا أطوع لتحقيق المخططات اليهودية السرية، فمن اليسير على شياطين الإنس السيطرة على هؤلاء عن طريق شهواتهم.

(٢) يُختار العضو لنادي «الليونز» من قبل مجلس إدارة النادي، ولا تُقبل طلبات الأفراد الراغبين في الانساب، بل على المرشح أن ينتظر دعوته من قبل مجلس إدارة النادي وهم لا يختارون ذوي العقائد الراسخة والمبادئ الدينية والأخلاقية القويمة، ولا أصحاب الغيرة - الوطنية أو القومية - الشديدة، وحين يختار مجلس إدارة النادي شخصاً للعضوية يزورونه ويرغبونه ولا يكلفونه مالاً، بل قد يقدمون له هدايا.

(٣) تهتم نواي «الليونز» باجتذاب السيدات من زوجات كبار المسؤولين في الدولة، وتُسند إليهن مهمة الاتصال بالشخصيات الكبيرة، ولهنّ نواي خاصةً بهنّ تسمى نواي سيدات الليونز، مع اشتراكهنّ في اجتماعات أزواجهن أعضاء النادي.

(٤) لمنح العضوية أو الترفيع في الدرجات تكريس يشبه التكريس الذي يكون في المحافل الماسونية، ولكن بصورة أخف، وعلى العضو أن يقسم بالعهد القديم على الإخلاص والكتمان، وتُقدّم له نسخة من العهد القديم ضمن صندوق خاص، ولا يتم منح العضوية أو الترفيع إلا بموافقة الرؤساء الكبار للنواي، وهم رؤساء المركز الرئيسي العالمي.

(٥) تبدأ الدرجات عندهم من الدرجة الثالثة عشرة، وهي في الحقيقة الأولى، فهم يعتبرون الساعات التي قبل الساعة الثالثة عشرة ساعات ليل وظلام، أي إنّ الشخص يظلّ في ظلام حتى يصير أسداً وعضواً من أعضاء منظمة «الأسود».

وفوق الدرجة «الثالثة عشرة» التي هي الأولى في الحقيقة درجتان عزيزتان لا يصل إليهما إلا قلة قليلة، من ورثة السرّ اليهودي، أمثال «هيلاسيلاسي» الذي كان قريباً ملك الحبشة، وهو يهودي من نسل داود كما يذكرون.

(٦) يُعتبر قادة منظمة نواي «الليونز = الأسود» أنفسهم حماة لهيكل سليمان.

فلذا قال أحد الأعضاء في الاجتماع: بناء، أو بُناؤون، قال الرئيس: لقد تمّ البناء، ونحن الأسود للمحافظة عليه، وهو يريد تمّ بناء هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى، أي: اقرب تحقق بنائه.

(٤)

الميكمل التنظيمي لنوادي الليونز

يتكوّن كلّ نادٍ من:

(١) رئيس.

(٢) نائب رئيس أو أكثر.

(٣) سكرتير وأمين صندوق.

(٤) مجلس إدارة مؤلف من (١٢) عضواً، ويشترط أن يكون بينهم شخص أو اثنان من رؤساء النادي السابقين (والغرض من هذا الشرط إحكام القبضة على النادي حتّى لا يخرج عمّا هو مخطط له من قبل اليهوديّة العالميّة والقيادة الماسونية الأم).

(٥) تؤلّف لجان متنوعة من قبل مجلس إدارة النادي تكون مسؤولة عن تحريك الأنشطة المختلفة المحقّقة لأهداف النادي السّريّة والعلنيّة.

(٥)

صور من أعمال وأنشطة نوادي «الليونز = الأسود»

(١) يردد أعضاء هذه النوادي شعار «إخاء — حرّيّة — مساواة» وعبارة: «الذين لله والوطن للجميع».

(٢) يجري بين أعضاء هذه النوادي الحوار التالي:

س: إخواني متى يعمّ السلام العالم؟

ج: إذا حكمه الأسود.

س: لماذا كان رمز انكلترا أسدّين؟

ج: لأنّ هذه أسرار قديمة أخذت الآن بالظهور.

س: إلى أيّ عام تعود هذه الأسرار؟

ج : تعود لعام (٣٧م). [أي : للعام الذي أسست فيه منظمة (القوة الخفية)].
ثم للعام (١٧١٧م). [أي : للعام الذي أخذت فيه القوة الخفية اسم
الماسونية].

(٣) يركّز أعضاء نواي الأسود في دعواتهم ومحاضراتهم على إبراز مكانة معينة
لإسرائيل ، ويقومون بزرع أفكار صهيونية في أدمغة الأعضاء .

(٤) تُجمع في نواي الليونز المعلومات المتعلقة بالشؤون السياسية والدينية
والاقتصادية والعسكرية وغيرها ، وترسل إلى المركز العالمي للمنظمة ، وهناك تُحلّل
هذه المعلومات ، وتوضع الخطط اللازمة والمناسبة بشأنها ، فيحيطون المشروعات التي
يمكن أن تضرّ بأهداف اليهود العالمية ، ويشجعون المشروعات التي يمكن أن يستفيدوا
منها .

(٥) يتم خلال اجتماعات هذه النوادي التعرف على المهن المختلفة ، للتحكم
في السوق المحليّة ، والتمكن من التدخل في الشؤون الاقتصادية تدخلاً مفيداً لقادة
المنظمة ومحركيها وموجهي دفتها .



الفصل الرابع

الشُّيُوعِيَّةُ إِحْدَى مُنْظَمَاتِ النِّفَاقِ فِي الْعَالَمِ

لا أريد أن أتحدث هنا بتفصيل عن الشرور التطبيقية للشُّيُوعِيَّة، والاشتراكيَّات التي هي تمهيد لها، ولا عن مذهبها الاقتصادي وفساده وزيفه، ولا عن مذهبها الإلحاديّ الشيطانيّ المجرم الباطل الذي لا يملك أدنى سندٍ فكري، فقد كنتُ كُنتُ عن ذلك ما يكفي، في كتاب «الكيد الأحمر» الخاصّ بالشُّيُوعِيَّة، وكتابي «كواشف زيف في المذاهب الفكرية المعاصرة».

ولكنّي أتحدث هنا عن الشُّيُوعِيَّة باعتبارها منظّمةً من منظّمات النفاق العالمية، إذ ليست قناع العمل بغيره وإخلاصٌ وصِدْقٌ وَتَفَانٌ لإنفاذ العمّال والكادحين والفلاحين، من برائن المستغلّين الإقطاعيين والرأسماليين، الّذين ليس في قلوبهم رحمة ولا شفقة نحو البائسين من طبقات الشعب.

وصدّقت جماهير العمّال والكادحين أقوال قادة هذه المنظّمة العالمية المنافقة، وصدّقت شعاراتها وأفكارها، واندفعت وراءهم تضخّي بأنفُسها وبالملايين من سائر طبقات الشعب، تذيباً وتقتيلاً وسحقاً في ثورات داميةٍ مبيدات، وعقوبات صارمات، لتوصلهم إلى السيطرة على دُولٍ صارت ذات قُوَى عظمى، تُرهبُ الشطر الآخر من العالم، مؤنّله ومختلفه، وتتحدّى قوائمه مجتمعةً ومتفرّقة.

ثم أثبت الواقع التجريبي ما كان قد ذكره من قُبُل عُقلاء الشعوب، والمهديّون بهدي دين الله للناس، وأهل البصيرة بمكر أخباث الناس ومكابدهم، فسحقت هذه المنظّمة الإقطاع والرأسمالية في البلدان التي سيطرت على مقاليد الأمور فيها، واستعبدت العمّال والكادحين والفلاحين جميعاً، وزادت البائسين بؤساً، والكادحين كدحاً وتعباً وشقاءً، والعمّال إذلالاً وإهانةً وتسخييراً، وبلغت في ظلّمها للناس

ما لم يبلغه مستعبدٌ مُستغلٌ من قَبْلُ، من ملوكٍ طغاةٍ جبارين، وإقطاعيين يُسخرون العمال عبيداً، ورأسماليين يستغلون كَدْحَ العاملين ليحصلوا على الثراء الفاحش لهم ولذويهم.

وتربعت الأحزاب الشيوعية في الدول التي ظفرت بالاستيلاء على عروشها، تستغل وتستثمر شعوبها بصورة لم يسبق لها نظير في تاريخ الاستغلال والاستعباد البشري، وحققَت أهدافها التي كانت تُصمِّمها منذ البداية، وتُظهر خلافها نفاقاً ومُخادعة، وبلغت القيادات الشيوعية من الاستئثار لأنفسها بكلِّ وسائل الترف ما كانت تحلمُ به، وكان كلُّ ذلك ضمن مخطط يهودي مرسوم، ومعلوم النتيجة المدمرة منذ البداية، إذ كان الهدف من إقامة هذه المنظَّمة والاستيلاء على شطر من العالم بدول دكتاتورية حديدية، تُسمِّي نفسها كذباً ونفاقاً وبالْعُنف دُولاً ديمقراطية، هو التمهيد لامتلاك قوى في العالم، تُمكن أصحاب المؤامرة اليهود من حكم العالم كله شرقه وغربه، بدولة واحدة يتحكم فيها عنصر بني إسرائيل، بطاقات كلِّ شعوب الأرض ومصائرهما، ويُسخر كلُّ شعوب الأرض تسخير الراعي لقطعانه من الأنعام.

وكان هؤلاء يقررون منذ البداية في مقرراتهم السرية أنهم لا يريدون رفاهية العمال والكداحين والفلاحين والبائسين، ولكن يريدون استغلالهم للثورة على خصومهم، ثم استعبادهم وإذلالهم.

جاء في البروتوكول الثالث من «بروتوكولات قادة الحركة الصهيونية» ما يلي :

«إننا نقصد أن نظهر كما لو كُنَّا المحرِّرين للعمال، جئنا لنحرِّرهم من الظلم حينما نصحبهم بأن يلتحقوا بطبقات جيوشنا من الاشتراكيين والفوضيين والشيوعيين.

ونحن على الدوام ننبئ الشيوعية، ونحتضنها متظاهرين بأننا نساعد العمال بدافع الأخوة والمصلحة العامة للإنسانية، وهذا ما تبشِّر به الماسونية الاجتماعية.

إنَّ الأرستقراطية التي تقاسم الطبقات العاملة عملها، قد أفادها أنَّ هذه الطبقات العاملة طيبة الغذاء، جيِّدة الصَّحة، قويَّة الأجسام، غير أنَّ فائدتنا نحن إنما تكون في ذبول الأميين وضعفهم. وإنَّ قوتنا تكمن في أن يبقى العامل في فقر ومرض دائمين، لأننا بذلك نستبقه عبداً لإرادتنا، ولن يجد فيمن يحبطون به قوَّة ولا عزماً للوقوف

ضدنا. وإن الجوع سيحول رأس المال حقاً على العامل أكثر مما تستطيع سلطة الحاكم الشرعية أن تحول الأرستقراطية من الحقوق.

ونحن نحكم الطوائف باستغلال مشاعر الحسد والبغضاء التي يوجبها الضيق والفقر، وهذه المشاعر هي وسيلتنا التي نكتبح بها بعيداً كل من يصدوننا عن سبيلنا.

وحيثما يأتي أوان ترويج مملكتنا العالمي سنستمسك بهذه الوسائل نفسها، أي : نستغل الغرغاء كيما نحطم كل شيء قد ثبت أنه عقبة في طريقنا.

ومرئيف وستون سنة، والدولة الشيوعية في الاتحاد السوفيتي تحكم جمهورياتها حكماً دكتاتورياً حديدياً صارماً، بالعنف والفقر والعزل عن العالم الآخر، ثم أخذ النظام الاقتصادي الماركسي ينهار من داخله.

وبدأت المشكلات الاقتصادية المنذرة بالجوع القاتل لأكوام الملايين من البشر المحكومين بالنظام الماركسي تحرك فيهم الثورات المضادة القابضة في الخفاء، والمتعطشة لنسف النظام الشيوعي وقادته نفساً كلياً، وأحسن قادة النظام الأذكىاء بنذر الخطر، فأسرعوا يتنادون بالإصلاح والتغيير، والرجعة إلى نظام الاقتصاد الحر، خشية أن تقوم الثورة المضادة فتسحقهم، كما فعل قادة الثورة الشيوعية من قبل إذ سحقوا خصومهم، وأقاموا نظامهم المادي الإلحادي، ونظامهم الاقتصادي الاشتراكي المُشرف.

ونادى العالم بأن الشيوعية تهاوى أبنيتها، وابتهج أعداؤها بأنهارها، وبتراجع الاشتراكيّات في مختلف دول العالم.

وهنا أخذ مخططو الأمم اليهود يتحركون شطر الدول التي تتحول بالتدريج للاخذ بالنظام الحر، بغية استغلالها، وابتلاع خيراتها وكنوزها الدفينة، عن طريق النظام الرأسمالي الذي يسيطرون عليه أيضاً سيطرة تامة، بوسائلهم الماكرة.

وبدأت شركاتهم ومؤسساتهم تحضر أنفسها للزحف الاستغلالي، وهي تلبس شعارات إنقاذ شعوب الدول الاشتراكية من ويلات النظام الاشتراكي الشيوعي الماركسي.

لقد حضر المستغلُّ المستعبدُ نفسه بفنّ جديد، إنّه ذو حقيقة باطنة خفية واحدة، ولكنْ له وجوهاً ظاهرة متعدّدة كثيرة، وكلّ وجه منها يتناقف به شعباً من شعوب الأرض، ويخدع به هذا الشعب، وهو في الوقت نفسه يخدع شعباً آخر بوجهٍ آخر، وهكذا تتعدّد وجوهه، وأساليب مكرهه وخدعه وتناقفه.

إنّه يضمّر الكفر بكل ما يُعْبَثُ في هذه الرجوه، ويهدف إلى تحقيق مصالحه الخاصة، من سعيه بكل الوجوه المتخالفة، والمتضادة، التي يظهر بها، بعد أن قَسَمَ ظواهره إلى أقسام قد انفصل بعضها عن بعض، لكنْ هذه الظواهر تعمل بقوة باطنة مكتومة واحدة، أما هُويّة قيادته فواحدة.

وقد كنت من الذين يُقدِّرون سقوط الشيوعية وكلّ المذاهب المنافية للفطرة التي فطر الله الناس عليها، منذ بدأت أكتب وأفكر في هذه المذاهب، وأقارنُها بما جاء في الإسلام دين الله الحقّ، من ثَيفٍ وعشرين سنة، وأذكر أنني دونت هذا في بعض ما كتبت، ولا سيما كتب الغزو الفكري، المترجمة في «سلسلة أعداء الإسلام».

ولما بدأت قلاع المذهب الماركسي تساقط في الاتحاد السوفييتي أعنى دوله في الأرض، لم أَصَبْ بالذهشة ولا بالاستغراب. لأنّه كان أمراً متوقّعاً في نفسي، ولا سيما بعد أن ظهرت أماراته عقب دخول الاتحاد السوفييتي الحَبر في أفغانستان، ثم جموده، ثم تراجعته.

وعند بدايات سقوطه كنت مع أسرّي في إجازة صيفية بالدار البيضاء، كبرى بلاد المغرب العربي، مستضافين في دار أسرة كريمة جمعتنا بهم الأخوة الإيمانية في مكة والمغرب، فكتبت بمناسبة سقوط الشيوعية الفصيلة التالية، بعنوان:

المزِيْفُ الْمُخْتَالُ

سَقَطَ الْمُخْتَالُ عَنْ ضَهْوَتِهِ فَلَمَّا الْفَارِسُ مِنْ خَمَرٍ وَطِينٍ
وَإِذَا جَبَّارُهُ أَكْذَوْنُهُ صَبَغُ أَوْرَاقٍ عَلَى شَكْلِ عَرِينٍ
مَا الَّذِي تَصْنَعُهُ أَلَنُهُ إِنْ يَكُنْ قَائِدُهَا هَشُّ الْعَجِينِ
لَبِثْتُ بِالزُّرَيْفِ وَالْفُؤْدَكَاءِ إِذَا دُمِيتْ كَرْتٌ كَمَسْغُورٍ مَهِينِ

ثُمَّ لَمَّا اكْتَسَفَتْ وَأَقْعَمَهَا خَسِيفَتْ تَلْهَتْ كَالْجُرُ الْخَزِينِ

* * *

عُمُرُ أَكْذُونِيهِ بِفُغْ سِينِ	كُلُّ مَا لَيْسَ عَلَى فِطْرَتِهِ
جَيْنَمَا يَفْبَحُ فِي حَضَنِ حَصِينِ	ثُمَّ تَمْنَدُ لَهُ أَنْطُورَةُ
وَزَثِيرُ فِي مَكَانِ ذِي رَيْنِ	ذَا بَهُ فِيهِ رُغَاءٌ وَصَدَى
لِيَظَلَّ الْحَضَنُ فِي الْجُرُزِ الْعَمَكِينِ	وَهُوَ يُعْطِي جُنْدَهُ خَاجَاتِهَا
مَيْدُ الْحَضَنُ هُوَ الصَّبْدُ الثَّمِينِ	فَإِذَا الْأَمْدَادُ شَحَتْ وَجَدُوا
تَجْعَلُ الْحَضَنُ حَدِيثًا لِقُرُونِ	ثُمَّ تَعْدُو بَيْنَهُمْ نَائِرَةُ
لَمْ يَجِدْ غَيْرَ دُبَابٍ وَطَلِينِ	إِنْ أَتَى السَّائِحُ كَيْ يَنْظُرُهُ

الدار البيضاء - المغرب

في ٢ محرم ١٤١١ هجرية

و ٢٤ تموز ١٩٩٠ ميلادية

~~~~~

10

11

12

13

14

15

16

17

18

19

20

21

22

23

24

25

26

27

28

29

30

31

32

33

34

35

36

37

38

39

40

41

42

43

44

45

46

47

48

49

50

51

52

53

54

55

56

57

58

59

60

61

62

63

64

65

66

67

68

69

70

71

72

73

74

75

76

77

78

79

80

81

82

83

84

85

86

87



## مُنْظَمة شُهُود يَهُوَه (أَي، شُهُودُ اللَّهِ) (١)

### مقدمة

ركب اليهود عربات الماسونية والروتري والليونز والشيوعية والراسمالية، وسائر المنظمات والمذاهب العالمية ذات الأهداف المرحلية، التي جرت لها لهم بغال أشداء، مغفلون عُميان، أو أصحاب أهواء وشهوات ومصالح شخصية، أو مجرمون طغاة.

وكانت هذه العربات تنقل صانعيها اليهود مرحلةً فمرحلةً لتحقيق هدفهم الأكبر، وهو حكم العالم، والسيطرة على كل شيء فيه، وتسخير شعوب الأرض غير اليهودية لمجدهم، ورفاهيتهم، والاستمتاع الدائم بالملك والسلطان في الأرض كلها.

ولما رأوا أنهم قطعوا مراحل متعددة مقتربين من هدفهم الأكبر، وحققوا قدراً كبيراً من أهدافهم المرحلية، صنعوا عربةً جديدة اسمها «منظمة شهود يهوه».

وبعد أن اتموا صناعة هذه العربة توجهوا يُجمعون مغفلين وأهل أهواء يسخرونهم في جزها، من مختلف شعوب الأرض ولا سيما الذين قالوا: إنا نصارى.

واليهود يقدرون أن هذه البغال البشرية سيجرون لهم عربتهم الجديدة «منظمة شهود يهوه» لاجتياز المراحل القريبة من هدفهم الأخير، وهو حكم العالم حكماً يهودياً مباشراً، على اعتبار أنهم سادة العالم، أما سائر شعوب الأرض فهم قطعان من الدواب مسخرون بالإرادة الإلهية لرفاهية السادة اليهود من بني إسرائيل، شعب الله المختار.

(١) انظر التحقيق الذي جاء في مجلة الدعوة بعددها (١٣٠٧) تاريخ ١٤١٢/٣/٤ هـ حول منظمة «شهود يهوه» فقد أفدت منه بالإضافة إلى أشياء كثيرة قرأتها عن هذه المنظمة.

ولمَّا أُنْشِئتْ معظم دول الأرض المتقدمة في القوة والعمال والصناعة، في هذا العصر دولاً تنتمي إلى النصرانية، وهي تُؤْمَنُ بالمسيح عيسى عليه السلام إلهاً، وتُؤْمَنُ بالثليث، فقد رأى اليهود أن يركبوا مركب النفاق، بجعل هذه العقائد النصرانية إحدَى أركان عربتهم الجديدة، ليجرُّها لهم الذين يتقونهم من الشعوب التي تُؤْمَنُ بالمسيح عيسى إلهاً، وتُؤْمَنُ بالثليث، وتتطلَّع إلى حكم العالم، من خلال دولة عالمية مُوَحَّدة يَسُوِّدُهَا السَّلامُ العالمي، في بريق التزيين الخادع الذي يصطنع اليهود صوره وأشكاله والوانه.

### اسم المنظمة :

اختار اليهود لهذه المنظمة اسم «شهود يَهْوَه» أي: شهود الله، فلفظ «يَهْوَه» عند اليهود يساوي لفظ «الله» وهو الاسم المقدَّس عندهم للبارئ الخالق، الذي جعل بني إسرائيل أبناءه وإحِبَّاه، وشعبه المختار كما يزعمون.

### التعريف بها:

منظمة «شهود يهوه» منظمة سرِّيَّة عالمية، نصرانيَّة في ظاهرها، يهوديَّة في باطنها، فللنصارى منها اسم المسيح عيسى، وعقيدة التثليث، وجنود التنفيذ العميان، وللإهود منها الأهداف الصهيونيَّة، والقيادة المحركة والموجهة والمستثمرة، فشانها في الباطن كشان الماسونيَّة والروتري والليونز.

وتكمن خطورة هذه المنظمة في سرِّيَّتها تنظيمياً وأهدافاً وأعمالاً في الظلام.

وهذه المنظمة ذات مبادئ، فمن مبادئها:

الإيمان بـ «يهوه» إلهاً، ويعيسى رئيساً لمملكة الله، وبهذا يوهم اليهود النصارى أنَّ منظمة «شهود يهوه» فرقة نصرانية.

أما هدفها فيتلخَّص بإقامة حكومة عالمية دينيَّة دنيوية تسيطر على العالم أجمع، ولذلك أقامت تحالفاً صليبيّاً صهيونيّاً، لتحقيق هذا الهدف، والطامعون اليهود يعملون منافقين تحت مظلة الصليب لحكم العالم كلّ بإدارة واحدة.

وأما هيكلها فيتلخَّص بما يلي :

(١) لهذه المنظمة تنظيم حركي حديدي يعتمد على القوة.

(٢) لديها إمكانيات مادية عظيمة.

(٣) تدعمها سائر المنظمات اليهودية، والسائرون في أفلاكها من دول العالم، والسياسيون العاملون الشيطون فيها.

(٤) لها فروع منتشرة في أكثر من (١٥٠) دولة في العالم.

(٥) أعضاؤها المستمون إليها بلغوا حتى الآن قرابة مليون عضو.

### نشأتها:

\* ظهرت في العالم الغربي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، باسم «جمعية العالم الجديد».

\* وفي عام (١٩٣١م) غيرت اسمها، فصار اسمها الجديد «شهود يهوه» وعندئذ أفصح عن هدفها الرئيسي، وهو إقامة حكومة دينية دنيوية تسيطر على العالم كله، مع إضمار أن تكون هذه الحكومة بأيدي اليهود الذين هم قادة منظمة «شهود يهوه» وبذلك تكون الأرض وشعوبها جميعاً في قبضتهم، كما يتصورون ويقدرّون، ووفق تدابيرهم التي يدبرونها، وأساليبهم التي يتخذونها.

\* ارتبط اسم هذه المنظمة في البداية باسم الراهب النصراني «تشارلز راسل» وذلك من سنة (١٨٦٢م) حتى سنة (١٩١٦م) فكانت تنسب إليه، لأنه كان رئيسها، وكانوا يعرفون أيضاً باسم «الدارسون الجدد للإنجيل».

\* وخلفه في رئاسة المنظمة «فرانكلين دزفورد» فطوّره هذا من أسلوب العمل فيها، وحدّد إطارها النظري وأهدافها، ولا سيما في كتابه «سقوط بابل» الذي يُعدّ من الوثائق الكبرى لهذه المنظمة، وهو يرمز بلفظ «بابل» إلى كلّ الأنظمة الموجودة في العالم.

\* وخلفه في رئاستها «نارثان هرمركنور» وفي عهد هذا الرئيس ازدادت تنظيمياً وقوة، إذ حرص على إقامة تنظيم حديدي يُجمل أهداف المنظمة.

وسائل إعلامها:

لهذه المنظمة كُتب ونشرات خاصة بها، مثل:

(١) مجلة باسم «برج المراقبة الصهيوني» الذي عُدل فيما بعد إلى اسم «برج المراقبة» لإخفاء الهوية الصهيونية.

(٢) مجلة «الخبر الجيد عن الوطن» والمقصود بالوطن الحكومة العالمية التي تسعى المنظمة للوصول إليها.

(٣) كتاب «الأساس في الإيمان بعالم جديد».

(٤) كتاب «العيش بأمل نظام عادل جديد».

(٥) ولهم نشرة تصدر تحت عنوان «استيقظ».

ومعظم كتبهم وصحفهم ونشراتهم توزع مجاناً.

مراكز قوتها في العالم:

لهذه المنظمة حالياً مراكز قوة في: «النمسا - ألمانيا - الدانمرك - فرنسا - بريطانيا - القارة الأمريكية».

ومركزها الرئيسي هو حالياً في «حي بروكلين» بنيويورك.

ولها فروع في العديد من الدول الإسلامية.

تحركاتها للاصطياد:

تحاول هذه المنظمة التأثير على ذوي الظروف الصعبة من مهاجري العالم الثالث، إلى البلدان التي تتركز فيها قوتها، وذلك باستمالتهم عن طريق تسهيل أمورهم، ومساعدتهم، وتجنيدهم أنصاراً لهم وللمبادئ التي ينادون بها.

\* تعمل هذه المنظمة بالتنسيق مع المؤسسات التنصيرية، والكنسية بوجه عام، مستغلة شعاراتها الظاهرة، المستبشرة بالمسيح عيسى عليه السلام، وعودته، واعتبار إنجيل النصاري كتاباً مقدساً لديها، وهي تفسر نصوصاً من أناجيلهم بما يتفق وأهداف المنظمة.

\* نشط أعضاء هذه المنظمة في الدخول إلى البلاد العربية والإسلامية بعد عام (١٩٧٩م) ولا سيما التي تعرّضت للفقر، أو الجوائح والكوارث والأزمات.

وتسلسل إلى كثيرين من خلال المؤسسات التنصيرية الموجودة في العالم الإسلامي، باعتبارها فرقة نصرانية بحسب الظاهر، ذات فهم خاصّ للنصرانية، وقادتها في الحقيقة يهود صهيونيون.

عقائد هذه المنظمة وتعاليمها:

(١) يدعون إلى عقيدة التثليث كما يلي: «يَهْوَه» أي الله و«الابن» وهو عيسى عليه السلام، و«الروح القدس».

(٢) لا يؤمن أعضاء «شهود يَهْوَه» بالآخرة والحياة بعد الموت، ولا يؤمنون بالروح وخلودها، بل يعتقدون أنّ الجنة ستكون في الدنيا في مملكة «شهود يَهْوَه».

ومن المعلوم أن إنكار الآخرة والحياة بعد الموت هو من عقائد الصّدّوقيين، إحدى فرق اليهود المنقرضة.

(٣) يعادون جميع الأديان إلا اليهودية، ويعادون الأنظمة الوضعيّة، ويدعون إلى التمرد عليها.

(٤) يعترفون بالكتب التي تعترف باليهودية، وعددها (٩١) كتاباً.

(٥) لهم معابد خاصّة بهم، يسمونها «القاعة» أو «بيت الرب».

(٦) من تعاليمهم أنّ الأخوة الإنسانية مقتصرة عليهم دون غيرهم من البشر.

(٧) يؤكّدون أنّ حرباً عالميّة تحريرية ستقوم، وسيقودها عيسى، وأنهم سيكونون جنوده المخلصين، فيزيحون الحكماء في جميع الأرض، ويعلنون حكومتهم العالمية.

(٨) يتقنون من الأناجيل النصوص التي تثني على اليهود، وتمجّد بني إسرائيل، وينشرونها بين أعضاء المنظمة، حتى تكون جزءاً من مفهوماتهم الثابتة.

كيفية التكاثر في هذه المنظمة:

بعد التعريف بأهداف المنظمة عن طريق النشرات والكتب يختار الأعضاء

السابقون الأشخاص الذين يرونهم مؤهلين للانضمام إلى المنظمة، ثم يخضع هؤلاء المرشحون لمراحل معقدة من الاختبارات، والشروط القاسية، نظير ما يحدث في الماسونية، حين يُضمُّ عضو جديد لمحتفل من محافلها.

#### شعاراتها وعلاماتها:

تنقسم شعاراتها وعلاماتها إلى قسمين:

القسم الأول: علامات أساسية ومركزية، وهي:

(١) «الشمعدان السباعي» الذي هو رمز اليهود الديني والوطني.

(٢) «النجمة السادسة» وهي شعار إسرائيل واليهودية العالمية، وهي نجمة داود

عليه السلام.

القسم الثاني: ولهم أيضاً علامات فرعية، تُميّز أعضاء المنظمة من غيرهم، وربما تكون وسيلة للتعارف فيما بينهم، كرموز التعارف بين أعضاء الماسونية.

وقوع هذه المنظمة تحت سيطرة قيادة يهودية صرف:

أعضاء هذه المنظمة واقعون تحت سيطرة قيادات يهودية صرف، وهم يتبنون العقيدة اليهودية الصهيونية، ويعملون وفق تدبيرات وخطط يهودية صهيونية.

لذلك فهذه المنظمة ذات علاقات وثيقة بإسرائيل، وبالمنظمات اليهودية العالمية، كالماسونية، والروتاري، والليونز، ولها علاقات وثيقة بالمنظمات الاشتراكية الدولية، لأن اليهود هم صانعوها وموجهوها وقادتها في العالم.

وتحاول المنظمة توطيد علاقاتها مع الفاتيكان، ومؤسسات التنصير العالمية، وفوري النفوذ من اليونانيين، الأرمن، وغيرهم، بغية استغلالهم لتحقيق أهداف المنظمة.

#### مجالات أنشطتها:

(١) وسائل إعلامها التي سبق بيانها.

(٢) التعليم، وذلك بتأسيس المدارس الخاصة.

(٣) الأنشطة الزراعية.

(٤) مكاتب التأليف والترجمة.

(٥) اللجان الدينية العليا الخاصة بتفسير الاناجيل والكتب اليهودية وفق مفهومات المنظمة.

(٦) التعاون مع كل منظمة تسير في أي مخطط من مخططات اليهود.

(٧) إقامة علاقات وثيقة مع أجهزة الاستخبارات والجاسوسية العالمية، لاستخدامها في تحقيق أهداف المنظمة.

الأفكار التي تنشرها المنظمة للإقناع بضرورة وجود حكومة عالمية: تتضمن الأفكار التي تبثها المنظمة في نشراتها وصحفها وكتبها للإقناع بضرورة حكومة عالمية ما يلي:

تحت عنوان «لماذا نحتاج إلى حكومة عالمية؟» تقول إحدى نشراتهم: «كثيراً ما توحى فكرة حكومة واحدة عالمية في يد الشخص المناسب، إنما تؤخذ البشرية بالسلام.

والخوف من أي حكومة عالمية في يد ظالم هو أنه قد يستبعد كل الجنس البشري.

وبالنظر إلى أن ما يمكن ربحه أو خسارته بإقامة حكومة عالمية هو كثير، فإن علينا أن نطرح السؤال التالي:

هل يستحق التفكير في إقامة حكومة عالمية الاعتبار الجدي؟

الجواب: نعم، تحتاج البشرية إقامة حكومة عالمية لأسباب كثيرة، منها الأسباب التالية:

أولاً: إن النوع الصحيح من الحكومات العالمية قادر على تحقيق الأمور التالية:

(١) إيقاف التهريب الدولي للمخدرات، وبذلك تُكَبَّح الجريمة التي تكون دوافعها تحصيل الثروات عن طريق المخدرات.

(٢) إزالة الحدود القومية، وتوحيد شعوب العالم، وتخليص الناس من معاناة إقامة الحدود بين الدول.

(٣) توزيع الغذاء على جميع شعوب الأرض بالتساوي، وبذلك ينعدم الجوع بين البشر.

(٤) إزالة المخزون الاحتياطي المتزايد من الأسلحة الذي يثير الرعب في قلوب الناس، وبذلك يتعلمون العيش بسلام.

(٥) وإذا عمل الجنس البشري باتحاد في ظل حكومة واحدة أمكن أن نختفي المشكلات الخطيرة التي تشغل رعايا كل دولة، ومنها ما يؤثر على حياة الناس.

ثانياً: لقد علمتنا تقنية عصر الفضاء أنّ الحياة مرتبطة معاً، من أصغر المخلوقات ذات الخلية الواحدة، إلى أعقدها، وكل شيء له علاقة تقريباً بشيء آخر.

وهذا المبدأ يصحّ في الدول أيضاً، ويلاحظ أنّ في دول نصف الكرة الشمالي ربع سكان العالم، لكنّها تملك تسعة أعشار صناعات الامتعة، وتقض أربعة أخماس الدخل العالمي، بخلاف نصف الكرة الجنوبي.

وباستطاعة الحكومة العالمية أن تفهم هذه الفروق وتوازن بين نصفي الكرة الأرضية، وتتخذ الحلول التي تعالج الفقر والمجاعة والتلوث وإخطار الطاقة النووية، وهذه الأمور لا تحل منفصلة، إنما تحل بشكل متكامل.

وتهاجم منظمة «شهود يهوه» جميع دول العالم، وتصفّها بالقبلية.

ثالثاً: لكي تنجح الحكومة العالمية الواحدة لا بدّ من أن تتمكن من حشد موارد العالم المادّية والبشرية، لتزويد حاجات فقراء العالم وإقامة المساواة بين الدول الغنية والدول الفقيرة.

رابعاً: منذ عام (١٩٤٥م) تشكّلت ثلاث منظمات عالمية رئيسية لحفظ النظام، هي «الأمم المتحدة» في (١٩٤٥م). وحلف شمال الأطلسي «الناتو» في سنة (١٩٤٩م). وحلف وارسو سنة (١٩٥٥م).

ولكن لم تحقّق آية واحدة منها تقدماً رئيسياً نحو السلام العالمي، فقد هزّ العالم



منذ عام (١٩٤٥م) ما يزيد عن مئة نزاع مسلح، بما فيها أربعون حرباً أودت بحياة ما يزيد على ثلاثين مليون نسمة.

والعالم الآن يترنح على شفير عاصفة نارية نووية، ورغم إخلاص مؤيدي «الأمم المتحدة» فقد برهنت على أنها عاجزة، فالمشاحنات بين أعضائها تتغلب على أعمالها، والأحلاف العسكرية تُضوّب قنابلها متقابلةً يُواجه بعضها بعضاً، وتجلس «الأمم المتحدة» متورطة في مجادلات حول من يُلأم على سباق التسلح.

خامساً: لكن إذا قام حاكم عادل للعالم، مالك الوسيلة لتوحيد العالم في سلام، فإنه سيتمكن من تحقيق السلام العالمي على أفضل وجه.

سادساً: وتوصل التفكير اليهودي الصهيوني بعد هذه المقدمات إلى أن «يهوه» الذي خلق السماوات والأرض تعلّم ترابط أشياء الكون ببعضها، لأنها كائنة بإرادته وخلقها، وقد صار مهتماً بمسألة الحكومة العالمية، وإنه اختار مديراً كاملاً معتمداً ومجرباً ليكون زعيماً لشعوب الأرض جميعاً، وهو أسمى من البشر، مع أنه فوق رتبة لكل الجنس البشري.

هذا المدير المختار هو ابنه يسوع المسيح، ويسوع المسيح هو رئيس حيّ فعلاً، هو ابنُ القائد على كل شيء، «يهوه» وقد أعطاه الحكم والسلطان، وتكون الرئاسة على كتفه، ويُدعى رئيس السلام، وهو سيتغلب على كل العقبات، ويحدث تغييراً عالمياً يوحد بين شعوب الأرض بسلام.

#### التعقيب:

من الملاحظ أن ادعاءات هذا التنظيم قائمة على التكهنات حول وجود المسيح الذي يزعمونه ابناً لله «يهوه» وحكمه للعالم، وإحداثه للتغيرات في كل العالم، وقائمة على الأوهام والأكاذيب، لجذب أصحاب العقول السقيمة، والنفوس الضعيفة، والعقائد الفاسدة.

ومن الملاحظ أيضاً أن اليهود ما يزالون يحلمون بأنهم سيحكمون العالم، وسيربطون شعوب الناس في الكرة الأرضية بحزام واحد، يكونون هم رؤوسه وقادته وملوكه، ويسعون لتحقيق هذا الحلم بكل وسيلة.

ولو أنهم تذكروا تاريخهم، ووضعوه نُصَب أعينهم دوماً، لعلمو أنهم عاجزون عن أن يحافظوا على دولة غير كبيرة في رقعة من الأرض لعدة قرون.

إنهم لم يستطيعوا أن يحافظوا على دولتهم الواحدة التي كانت لهم أيام سليمان بن داود عليه السلام، بل اختلفوا وتقاتلوا فيما بينهم، فتمزقت دولتهم، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى.

وموقع اليهودي الطبيعي غير الاستثنائي والشاذ، هو أنهم ضُربت عليهم الذلة والمسكنة، وباءوا بغضب من الله.

أما حكم العالم بدولة واحدة فقد راود فاتحين كباراً، ومنهم ذو القرنين، ومع ما حققوا من سلطان عظيم، لم يلبث ملكهم أن انهار، وتمزقت إمبراطورياتهم، وعاد الناس إلى دُولٍ مُتَنَاقِبةٍ مُتَنَافِسةٍ، وذلك لِأَنَّ طبيعة الناس القائمة على أن أفرادهم ذوي إرادات حرة، ونزعات ونزغات وأهواء ومصالح مختلفة متعارضة، لا ابتلاهم في ظروف الحياة الدنيا، لا يمكن أن تخضع دوماً لسلطان واحد، يُورَث من بعده، مهما كان ذا نظام صارم، وصاحب قبضة حديدية شديدة.

وهل استطاعت آية دولة متقدمة من دول العالم المتحضرة مع ما لديها من ثروات وقوى، أن تنهي معاناة شعوبها، وأن تخلصهم من مشكلاتهم، وأن تنهي ما في نفوس أفرادها من تنازع على السلطة؟

إنها أوهام في أوهام، ومؤسسو المنظمة يعلمون ذلك، لكنَّ حُلْم اليهود بأن يصلوا إلى حكم العالم أجمع، واستغلال كل ثرواته، وكل الجنس البشري، وأن يكونوا هم ملوك الدنيا، حُلْمٌ مَالِكٌ عليهم كل مشاعرهم وأفكارهم، فهم يسعون لذلك بكل ما يملكون من حيلة ومكر ومال ووسائل شيطانية خبيثة، ولعبتهم الجديدة في العالم هي لعبة السلام.

وأحيل القارئ، إلى مطالعة الوثيقة الثالثة من فقرة «وثائق من أقوال اليهود» في أواخر كتابي: «مكايد يهودية عبر التاريخ» فسيجد فيها أن دعوة اليهود إلى السلام مكيدة جديدة قدروا أنها ستوصلهم إلى حكم العالم أجمع، واستعباده وإذلاله.

لَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَنْ يَمَكِّنَهُمْ مِنْ ذَلِكَ، بل سيعيدهم إلى موقعهم الطبيعي الذي له صفة القاعدة، وهم الآن في حالة الاستثناء، كما قال الله عز وجل بشأنهم في سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزل):

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفْقَهُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبَعْضٌ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ يَغْيِرُ حَتَّىٰ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٣﴾﴾

جاك تتي عضو مجلس الشيوخ الأمريكي، ورايه في الحكومة العالمية: جاء في كتاب «الأخوة الزائفة» الذي يعرض طائفة كبيرة من مكاييد اليهود في العالم المعاصر، لمؤلفه «جاك تتي» عضو مجلس الشيوخ الأمريكي، في معرض حديثه عن تأسيس هيئة الأمم المتحدة، ودور اليهود فيها قوله<sup>(١)</sup>:

«ليست الحكومة العالمية مجرد حركة يمكن فهمها وإيقافها، بل هي إعلان فريد عن هجوم صار عميق الجذور، ذكي وحاقد، موجه ضد أسس الحضارة والدين، وربما يمكن لها أن تنجح في طمس شمس الحرية، وإخماد الثقافة الدينية لعدة أجيال قادمة.

وتكمن قوتها في إغراء ادعاءاتها، وجهل المؤمنين الجدد بها، والملاحظ أن أنصارها يحرسون على كتم أنفاس أعدائهم، وعدم وصول أصواتهم، ومما يزيد في فعالية ذلك سيطرة اليهود على وسائل الإعلام والاتصال، ومن الصعب مهاجمة أساليبهم الخادعة للدهماء، والمضلة للجماهير.

ولكن الحقيقة نطل غالباً مدفونة في أعماق خفية أو نصف مستترة، وينجح فن الدعاية في تلوين أفكار الناس، وتقوم الحواجز الذهنية الغريبة بسد الطرق أمام المنافذ المؤدية إلى الحقائق المخبئة.

(١) انظر الصفحة (١٤٥) منه طبع مؤسسة الرسالة (الطبعة الأولى) ترجمة: «أحمد البازوري».

وقبل تطويق القوى الخبيثة التي تحيك المؤامرات ضدَّ الحرّية، لا بدّ أن نعرف هذه القوى ونكشفها.

ويقول أيضاً في الصفحة (١٩٨) من كتابه هذا:  
«وأما سطوة المال اليهودي فقد قويت أكثر من أيّ وقت مضى، وقوّته الرّهية مهيمنة في كلّ أنحاء العالم.

وفي الوقت نفسه توجد عمليّة السيطرة على العالم من خلال الأمم المتّحدة، مع أنّها غير مهيّأة حتّى الآن لإخضاع أمم الأرض إخضاعاً تاماً، ويتشرّ رجال الدعاية اليهود في كلّ مكان، في الحكومات، وفي ميدان الصحافة، وفي الإذاعات بنوعها المسموع والمرئي، وفي الكنائس.

ولا يبدو أنّه توجد قوّة ما قادرة على إيقاف الزحف اليهودي للسيطرة على العالم، إنهم لم يعودوا يعملون وحدهم، فالأقويون الذين غُسلت أدمغتهم، وأصبحوا كالبغاوات، يردّدون الدّعاية الصهيونية بحماس متقطع الأنفاس، موجودون في كلّ مكان، في مجالس الشيوخ، والنواب، وفي النوادي، وفي زوايا الشوارع».



## خاتمة الكتاب

هذا ما فتح الله به عليّ فيما يتعلّق بالنفاق والمنافقين، تحديداً، وتقسيماً، واستنباطاً من النصوص وضوابط الفكر، واستخراجاً لصفات المنافقين، ولأثارهم الضارة المفسدة، وبياناً لما أعدّ الله لهم من جزاء عادلٍ وسوءٍ مصير، ودراسةً تدبريّةً للنصوص القرآنية التي نزلت بشأن المنافقين مرتبةً بحسب ترتيب نزولها، ونظرة استعراضية للمنافقين في التاريخ.

على أنّ موضوع إحصاء أحداث المنافقين في التاريخ واستعراض قادتهم من الأمور المتعدّرة بالنسبة إلى الطاقة البشريّة، لذلك لم يكن لديّ إلا أن أكفي بعرض أبرز قادتهم وأحداثهم، ممّا تبرّر لي أن أظفر به لدى تتبّعي الانتقائي غير الشامل لما في مَدُونَات التاريخ.

وأعتقد أنّ ما قدّمته في هذا السّفر كافٍ لعظة المسلمين قادةً وشُعوباً، ولتحذيرهم من مكاييد المنافقين، وتحذيرهم من اتّخاذ بطانةٍ منهم، الأمر الذي يستلزم التنبّه لصفاتهم، وظواهر سلوكهم، ووضع مَنْ تحوم حولهم الشبهات موضع المراقبة والحذر الشديد، مع عدم الركون إليهم لمجرّد انتمائهم إلى المسلمين، وادّعائهم أنّهم قد آمنوا وأسلموا، أو لمجرّد كونهم من فراري المسلمين يحملون الهويّة الإسلامية، فالإسلام انتماء إراديّ شخصيّ، وتطبيق عمليّ صادق، وليس أمراً يُورث كما تُورث الأنساب، ولا أمراً جبريّاً يلتصق بالإنسان كما تلتصق القومية أو بلد الولادة والنشأة.

هذه الدراسة الجديدة الّتي لم أجد فيما أعلم من سبقني إلى مثلها عن النفاق والمنافقين بالصورة الّتي انتهجتها، أقدمها إلى الأُمّة الإسلاميّة، سائلاً الله عزّ وجلّ أن يهبّ هذه الأُمّة المجيدة المصطفاة من بين الأمم رُشدّها، ويمنحها البصيرة الواعية اليقظة، حتّى تعمل بوصايا كتاب ربّها جلّ وعلا، وسنة نبيّها ﷺ، وحتّى لا تتكرّر لديها

الغفلات التي دخل من أبوابها المختلفة المنافقون، فكادوها كيداً كُبَّاراً، وحتى يأخذوا الأمور بقوابلها قبل أن تستحل، ويعلموا أنَّ المنافقين هم أكبر الأعداء فيحذروهم، كما أمر الله عزَّ وجلَّ رسوله فُكُلُ مُؤْمِنٍ من بعده بقوله في سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول):

﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ إِنَّهُمْ أَفْكُونُونَ﴾.

ربنا عليك توكلنا، فاحفظنا من النفاق، وقنا شرور المنافقين، وردَّ كيدهم إلى نحورهم، وامنحنا البصيرة لمعرفةهم والحذر منهم.  
وآخر دعوانا أن الحمد لله ربَّ العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى سائر النبيين والمرسلين.

مكة المكرمة

في يوم الإثنين ٢٤ جمادى الثانية ١٤١٢ هـ

ر ٣٠ كانون الأول ١٩٩١ م

عبد الرحمن حسن جنة الميداني

## الفهرس

| الموضوع                                                                                                                                               | الصفحة |
|-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|--------|
| النص الثاني والعشرون: من سورة (النور) الآية (١١) حول موقف المنافقين من حادثة الإفك .....                                                              | ٥      |
| النص الثالث والعشرون: من سورة (النور) الآية (٣٣) حول موقف بعض المنافقين من إكراه الإمام على البقاء .....                                              | ١٣     |
| النص الرابع والعشرون: من سورة (النور) الآيات من (٤٧ - ٥٤) حول كذب المنافقين في ادّعائهم الطاعة ورفضهم التحاكم لله ورسوله .....                        | ٢٤     |
| النص الخامس والعشرون: من سورة (النور) الآيات من (٦٢ - ٦٤) حول تسلّل المنافقين من المجمع العامة بدون إذن وسوء أدبهم في خطاب الرسول ...                 | ٤١     |
| النص السادس والعشرون: سورة (المنافقون) كلّها وهي إحدى عشرة آية حول بيان حقيقة المنافقين وبعض صفاتهم الظاهرة والباطنة وبعض مواقفهم والتحذير منهم ..... | ٥٣     |
| النص السابع والعشرون: من سورة (المجادلة) الآيات من (٥ - ١٠) حول محادثة المنافقين لله ورسوله وتناجيهم في السرّ بذلك وتحيتهم الرسول تحيّة منكّرة ..     | ٨٣     |
| النص الثامن والعشرون: من سورة (المجادلة) الآيات من (١٤ - ٢٢) حول اتخاذ المنافقين اليهود أولياء لهم وتسرّهم بالإيمان الكاذبة واستحواذ الشيطان عليهم .. | ١٠٣    |
| النص التاسع والعشرون: من سورة (التحرّيم) الآية (٩) حول مجاهدة الكفار والمنافقين والإغلاظ عليهم .....                                                  | ١٣٥    |
| النص الثلاثون: من سورة (الفتح) الآيات من (١ - ١٧) حول أثر الفتح المبين الذي حصل في صلح الحديبية على نفوس المنافقين المخلفين وموقفهم .....             | ١٣٢    |
| النص الحادي والثلاثون: من سورة (المائدة) الآية (٤١) حول تكليف الرسول أن لا يحزن من أجل المنافقين الذين يسارعون في الكفر .....                         | ١٨٣    |
| النص الثاني والثلاثون: من سورة (المائدة) الآيات من (٥١ - ٥٣) حول اتخاذ الذين                                                                          |        |

|     |                                                                              |
|-----|------------------------------------------------------------------------------|
| ١٨٧ | في قلوبهم مرضٌ من النفاق اليهود والنصارى أولياء                              |
|     | النص الثالث والثلاثون: من سورة (المائدة) الآيات من (٥٧ - ٦٣) بشأن المنافقين  |
| ١٩٩ | من اليهود الذين دخلوا في الإسلام منافقين مكرراً وكيداً                       |
|     | النص الرابع والثلاثون: من سورة (التوبة) الآيات من (٤١ - ١٢٩ آخر السورة) حول  |
| ٢١٥ | عدة ظواهر سلوكية للمنافقين بمناسبة أحداث غزوة تبوك وأخرى إبانها              |
| ٢١٦ | • مقدمات حول أحداث غزوة تبوك وما رافقها                                      |
| ٢٢٦ | قصة مسجد الضرار                                                              |
| ٢٣٣ | • دراسة النص دراسة تدبرية وفيه سبعة عقود:                                    |
|     | العقد الأول: استعراض أكبر وقائع المنافقين وغيرهم إبان أحداث غزوة تبوك        |
|     | وتجربتها، مع التعقيبات والتوجيهات الربانية وبعض المقدمات.                    |
| ٢٣٤ | الآيات من (٤١ - ٩٨)                                                          |
|     | العقد الثاني: بيان أقسام مجتمع المسلمين يومئذٍ بعد استعراض أهم الوقائع، مع   |
|     | التعقيبات والتوجيهات الربانية.                                               |
| ٣٨١ | الآيات من (٩٩ - ١٠٦)                                                         |
|     | العقد الثالث: قصة مسجد الضرار مع التعقيبات والتوجيهات الربانية.              |
| ٤٠٤ | الآيات من (١٠٧ - ١١٠)                                                        |
|     | العقد الرابع: بيانات وتوجيهات تتعلق بقضايا وردت في العقود السابقة.           |
| ٤٢١ | الآيات من (١١١ - ١١٩)                                                        |
|     | العقد الخامس: تعليمات وتوجيهات حول الخروج للقتال في سبيل الله.               |
| ٤٥٦ | الآيات من (١٢٠ - ١٢٣)                                                        |
|     | العقد السادس: بيان موقف المنافقين تجاه ما كان ينزل من القرآن تبعاً في مقابل  |
|     | موقف المؤمنين.                                                               |
| ٤٧١ | الآيات من (١٢٤ - ١٢٧)                                                        |
|     | العقد السابع: آخر توجيه من الله للناس بالنسبة إلى الرسول ﷺ ومعه وصية من الله |
|     | للمرسل.                                                                      |
| ٤٨٢ | الآيتان (١٢٨ و ١٢٩)                                                          |



## القسم الثالث

## المنافقون وصور من خباياهم في التاريخ

- ٤٩١ ..... الفصل الأول: منافقون قبل بعثة محمد ﷺ وفيه مقولتان:
- ٤٩٢ ..... المقولة الأولى: إيليس أول المنافقين
- ..... المقولة الثانية: المنافق اليهودي بولس (= شاول قبل أن يتنصر) وتحريفه الديانة النصرانية
- ٤٩٨ ..... الفصل الثاني: منافقون في عصر الرسول ﷺ وخبائهم وفيه مقدمة، ومقولتان:
- ٥٠٩ ..... مقدمة
- ٥١٠ ..... المقولة الأولى: حول طائفة من أسماء المنافقين وأحداثهم في عصر الرسول ﷺ
- ٥١١ ..... (١) رأس المنافقين في المدينة: عبد الله بن أبي بن سلول
- ٥١١ ..... (٢) الجذ بن قيس
- ٥٢٣ ..... (٣) حاطب بن أمية بن رافع
- ٥٢٤ ..... (٤) الحارث بن سويد بن صامت
- ٥٢٥ ..... (٥) نبل بن الحارث
- ٥٢٦ ..... (٦) مربع بن قضي
- ٥٢٦ ..... (٧) أوس بن قضي
- ٥٢٧ ..... (٨) جلاس بن سويد بن صامت
- ٥٢٧ ..... (٩) قزمان حليف بني ظفر
- ٥٢٨ ..... (١٠) الضحّاك بن ثابت أحد بني كعب
- ٥٢٩ ..... (١١) أبو طعمة بشير بن أبيرق
- ٥٢٩ ..... (١٢) وديعة بن ثابت
- ٥٣٠ ..... (١٣) عذّة رجال ذكرت أسماءهم ضمن المنافقين أبو حبيبة الأزعر - جارية بن عامر بن العطف - وابنه زيد - خزام بن خالد - الأخوان: بشر بن زيد ورافع بن زيد - مالك بن قوقل - سويد - داعس
- ٥٣١ .....

- (١٤) ممن ذُكر من المنافقين من أحبار اليهود: سعد بن حنيفة - نُعمان بن أوفى - عثمان بن أوفى - رافع بن خُريملة - رفاعة بن زيد بن التابوت - سلسلة بن براهيم - كنانة بن صُوريا - زيد بن اللصيت ..... ٥٣١
- المقولة الثانية: حول طائفة من أحداث المنافقين في عصر الرسول ﷺ ..... ٥٣٣
- الفصل الثالث: منافقون عبر تاريخ المسلمين بعد عصر الرسول ﷺ ..... ٥٤٥
- وفيه سبع مقولات:
- المقولة الأولى: مقتل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ..... ٥٤٦
- المقولة الثانية: المنافق اليهودي عبد الله بن سبا وخبائثه الخطيرة في تاريخ المسلمين ..... ٥٤٩
- المقولة الثالثة: المنافق اليهودي (أو المجوسي) ميمون بن ديسان القذاح، وخبائثه الخطيرة في تاريخ المسلمين ..... ٥٧٥
- المقولة الرابعة: المنافق ابن العلقمي وخيانتة للدولة الإسلامية وخليفتها العباسي المستعصم بالله محمد بن الظاهر ..... ٥٨٥
- المقولة الخامسة: يهود الدومة المنافقون ودورهم في سقوط الخلافة العثمانية وإقامة العلمانية ..... ٥٨٨
- المقولة السادسة: منظمة البابية فالبهائية إحدى المنظمات المنافقة ..... ٥٩٩
- المقولة السابعة: منظمة القاديانية ..... ٦١٦

### القسم الرابع

منظمات نفاق عالمية ذات شعارات إنسانية عامة

تظهرها لتحقيق رغبات خاصة تُبطنها

- الفصل الأول: الماسونية منظمة نفاق عالمية ..... ٦٣١
- الفصل الثاني: نوادي الروتاري إحدى بنات الماسونية ..... ٦٥٩
- الفصل الثالث: نوادي اللُيُونز (الأُسُود) إحدى بنات الماسونية ..... ٦٦٣
- الفصل الرابع: الشيوعية إحدى منظمات النفاق في العالم ..... ٦٦٩
- الفصل الخامس: منظمة شهود يَهْوَة (أي: شهود الله) ..... ٦٧٥
- خاتمة الكتاب ..... ٦٨٧

## آثار المؤلف

أولاً - في سلسلة أعداء الإسلام:

- (١) مكاييد يهودية عبر التاريخ
- (٢) صراع مع الملاحدة حتى العظم
- (٣) أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها.
- «التبشير والاستشراق والاستعمار»
- (٤) الكيد الأحمر.
- «دراسة واعية للشيوعية»
- (٥) غزو في الصميم.
- «دراسة واعية للغزو الفكري والنفسي والمخلفي والسلوكي في مجالات التعليم المنهجي والتثقيف العام»
- (٦) كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة
- (٧) ظاهرة النفاق وخبايا المنافقين في التاريخ مع دراسة شاملة للنصوص القرآنية في النفاق والمنافقين

ثانياً - في طريق الإسلام:

- (١) العقيدة الإسلامية وأسسها
- (٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها
- (٣) براهين وأدلة إيمانية
- (٤) الصيام ورمضان في السنة والقرآن.
- «دراسة في طريق بحوث فقه الكتاب والسنة»
- (٥) أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها
- (٦) روائع من أقوال الرسول.
- «دراسات لغوية وفكرية وأدبية»
- (٧) الأمة الربانية الواحدة

### ثالثاً - دراسات قرآنية :

- (١) قواعد التدبير الأمثل لكتاب الله عز وجل
  - (٢) تدبير سورة (الفرقان)
  - (٣) تفسير سورة (الرعد)
  - (٤) أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع
  - (٥) نوح عليه السلام وقومه في القرآن المعجيد.
- «دراسة في طريق التفسير الموضوعي»

### رابعاً - حول الأدب الإسلامي :

- (١) مبادئ في الأدب والدعوة
- (٢) ديوان آمنت بالله (شعر)
- (٣) ديوان ترنيمات إسلامية (شعر) للنشيد
- (٤) ديوان أقباس في منهاج الدعوة وتوجيه الدعاة

### خامساً - كتب متنوعة :

- (١) ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة
  - (٢) بصائر للمسلم المعاصر
- .. وغير ذلك من مفرقات.

